

حرب في زمن السلم



بوش، كلنتون، والجنرالات

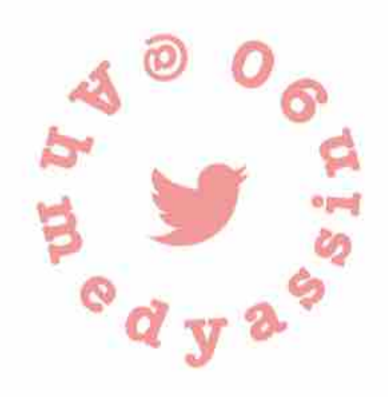
ديفيد هالبرشتام

تعريب : فاضل جتكر

مكتبة العبيكان

حرب في
زمن السلم




@Ahmedyassin90

حرب في
زمن السلم

بوش، كلنتون، والجنرالات

تأليف

ديڤيد هالبرشتام

تعريب

فاضل جتكر

مكتبة العبيكان

Original title:
WAR IN A TIME OF PEACE
BUSH, CLINTON, AND THE GENERALS

طريق الملك فهد، ص.ب. 6672، الرياض 11452 المملكة العربية السعودية
Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O.Box 6672, Riyadh 11452, Saudi Arabia
الطبعة العربية الأولى 1424 هـ ـ 2003م
ISBN 9960-40-298-3

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

هالبرشتام، ديفيد
حرب في زمن السلم: بوش كلنتون والجنرالات   تعريب: فاضل جتكر
944 ص، 17 × 24 سم
ردمك: ISBN 9960-40-298-3
1 ـ الولايات المتحدة الأمريكية ـ العلاقات الدولية
2 ـ الولايات المتحدة الأمريكية ـ السياسة العسكرية
أ ـ جتكر، فاضل (تعريب)   ب ـ العنوان
ديوي 327.73   24 ـ 807   رقم الإيداع: 24 ـ 807

ردمك: ISBN 9960-40-298-3

الطبعة الأولى 1 2 3 4 5 6 7 8 9 10

إلى راسيل وميمي بيكر

تنبيه: لقد استعملنا حرف گ للتعبير عن حرف G منعاً للإشكال بين ج المصريّة التي تقابلها غ في بلاد عربية أُخرى، نحو: ريگان بدلاً عن ريجان أو ريغان؛ وپنتاگون بدلاً عن پنتاجون او پنتاغون؛ وإنكلترة بدلاً عن إنجلترة أو إنكلترة.

الفصل الأول

للحظة وجيزة، مجيدة، تكاد أَن تكون أولمبية، بدا وكأن الرئاسة ذاتها قد تؤدي وظيفة الحَمْلة. نادراً ما بدا أَي رئيس أَمريكي علىٰ هذه الدرجة من الثقة حول إِعادة الانتخاب. ففي صيف وخريف سنة 1991م، بدا جورج بوش رجلاً تستحيل هزيمته سياسياً. في أعقاب حرب الخليج وصل مستوى التأييد لشخصه إِلىٰ تسعين بالمئة، نسبة لم يسبق أَن نالها أَي رئيس شاغل للمنصب، والأهم من ذلك أنّها نسبة حصل عليها سياسي كفؤ وراء الكواليس بقيت مهارته وقدرتُه علىٰ لَفْت الأنظار بعيدتين في الماضي عن متناول المواطنين مثل بوش. لم يسبق لأحد أَن خطر بباله أَن يشك باستقامته وكفاءته من حيث الجوهر، وبالمهارة التي تولى بها رئاسة عملية إِنهاء الحرب الباردة والتي أثارت إِعجاب ليس فقط دائرة متابعي السياسة الخارجيَّة الضيّقة من صانعي القرار السياسي، بل وجزء كبير من البلاد أَيضاً. فبقَدْرٍ استثنائي من الحساسية تمكّن بوش من تحقيق التوازن بين حاجاته السياسيَّة الخاصة والمتطلبات السياسيَّة الأكبر لميخائيل گورباتشيف، أَحدث شركائه في هذا المشروع المشترك، لأنه كان يرى بوضوح أَن معادلة گورباتشيف السياسيَّة كانت أَكثر هشاشة وسُرْعَةَ عَطَب من معادلته هو، فظلَّ حريصاً علىٰ أَن يبقى العضو الأَكثر كَرَماً في هذا الفريق الثنائي العاكف علىٰ التفاوض حول إِنهاء سلسلة مرعبة من التوترات الثنائية التي دامت ما يقرب من خمس وأربعين سنة.

ثمة لحظة بدت مُجسِّدة للثقة الفائقة التي طبعت فريق بوش خلال هذه السلسلة المثيرة من الأحداث. إنها تلك التي كانت في منتصف آب من سنة 1991م، حيث أقدم بعض اليمينيين الروس على تدبير مؤامرة انقلابية ضد گورباتشيف وصمد بوش، محاولاً دعم گورباتشيف في البداية وواضعاً ثِقَلَه في كفة مساعدة بوريس يلتسن المنخرط في المعركة، بعد إخفاقه في الوصول إلى گورباتشيف. أخفقت الحركة الانقلابية، وبعد بضعة أيام أقدم گورباتشيف، الذي أُعيد إلى السلطة بفضل نفوذ واشنطن جزئياً، على الاستقالة من الحزب الشيوعي. كانت تلك المحاولات الانقلابية، بنظر فريق بوش، تذكيراً بأن العالم كان ما يزال ـ رغم انتهاء الحرب الباردة رسمياً ورغم انهيار جدار برلين ـ مكاناً مشحوناً بالخطر، بما يُبقي البلاد بحاجة ماسّة ومؤكدة إلى قائد مجرِّب، يفضَّل أن يكون جمهورياً، يمسك بالدفة. وعلى متن الطائرة، **سلاح الجو رقم واحد**، المحلِّقة في السماء آنذاك متوجهة من واشنطن إلى منتجع أسرة بوش الصيفي في مين، كان جورج ووكر بوش، ابن الرئيس. كان الشاب في بداية حياته السياسيَّة العملية المستقلَّة وغارقاً في بحر من النشوة إزاء المعاني التي كانت تنطوي عليها هذه الأحداث الأخيرة، فطرح السؤال التالي: «هل تظن أن الشعب الأَمريكي سوف يتحوَّل **الآن** إلى ديمقراطي؟»[1].

كان بوش نفسه مؤمناً بأنه غير قابل لأن يُقهر. كان قد تولى رئاسة عملية إنهاء الحرب الباردة بتميز ملحوظ. كان قد اضطلع بالمهمة الحسَّاسة المتمثِّلة بمعالجة جملة الأحداث الدولية المعقَّدة التي أفضت إلى وضع حد للشيوعية الأوروپية، وصولاً إلى تحرير دول أوروپا الشرقية التابعة، كما إلى كسب ألمانيا موحدة عضو في الناتو، وبموافقة روسية، وهذا أهم بما لا يقاس. ومع ذلك فإن بوش حرص على أن ينأى بنفسه، بصورة نموذجية، عن المشاركة بأي نوع من أنواع الاحتفال بتلك الأحداث المذهلة.

---

(1) بشلوس وتالبوت، 434.

لدى سقوط جدار برلين، كثيرون في جبهة اليمين، ومعهم عدد ممن كانوا يحيطون ببوش نفسه، أرادوا القيام بنوع من الاستعراض الاحتفالي، لأن تلك كانت لحظة تاريخية وجديرة، بنظرهم، بالتخليد مثلها مثل لحظتي الانتصار علىٰ ألمانيا واليابان اللتين سبق لهم أَن شهدوها. لم يكن هَدْم الجدار تجسيداً لانتصار الغرب في نضال طويل وشاق علىٰ عدو هائل فقط، بل كان ـ وهذا أهم ـ انتصاراً، برأي أولئك، للخير علىٰ الشر، برهاناً علىٰ أننا كنا نحن علىٰ صواب **وكانوا هم علىٰ خطأ**، وعلىٰ أَن نظامنا كان متفوِّقاً علىٰ نظامهم سياسياً، اقتصادياً، أخلاقياً، وروحياً. لقد رأى هؤلاء أَن من الضروري، في الحدود الدنيا، إلقاء خطاب تاريخي واحد يتضمن سيرة الحرب الباردة ويهلّل لانتصار قوى النور علىٰ الظلام.

غير أَن بوش لم يكن مُرْتاحاً لفكرة الاحتفال انطلاقاً من عدم الانبهار بما هو درامي ومثير، قائلاً لمساعديه: «لن أَرْقُص فوق الجدار». حتى في أثناء عمليّات هدم الجدار كان مستشاره الصحفي مارلين فيتزووتر قد دعا فريقاً صغيراً من المراسلين إلىٰ المكتب البيضاوي للتحدث مع الرئيس، غير أنّهم وجدوا إجاباته متحفظة، خالية من العاطفة بشكل غريب، وتكاد أَن تكون بعيدة عن أي فرح. فقد دأب بوش علىٰ مجادلة المراسلين. وحين سأله أَحدهم عن سبب تدنّي مستوى انفعاله ردّ قائلاً بأنه ليس من أولئك الذين ينفعلون بسرعة. وقال فيما بعد، كما لو كان يريد أَن يقدِّم تفسيراً لما أبداه من ضبط للنفس وتحفّظ، «ربما كان عليّ أَن أُقَدِّم لهم حركة كهذه». وقفز في الهواء مقلِّداً حركة اللقطة الدعائية التجارية لشركة تويوتا حيث يطير مالك سيارة جديد فرحاً صافقاً عقبيه[2]. وفي برنامج **علىٰ الهواء مساء السبت** قامت الممثلة الهزلية دانا كارفي التي كانت تكثر من تقليد بوش بإِظهاره وهو يتابع مشاهد البرلينيين المحتفلين بهدم الجدار ولكنه يرفض الالتحاق بركبهم قائلاً: «لن يكون ذلك من الحصافة

(2) المصدر السابق، 135.

في شيء. أَمَّا إِذا سألتني عن مكاني في التاريخ فأنا أؤكد لك بأنه «**مضمون مَضْ. . . مون**».

وهكذا فإِن بوش كان حريصاً، لخيبة الكثير من اليمينيين الكبيرة، علىٰ تقليص حجم الحدث كمناسبة رمزية إِلىٰ الحدود الدنيا. كان الأَمر متناقضاً مع طَبْعه. اعتبر تسجيل أَي نوع من النجاح الأكبر الذي لم يكن كله بفضله هو في حسابه الخاص أمراً منافياً للطريقة التي تمَّت بها تربيته. كان يؤمن ـ انطلاقاً من موقف عتيق الطراز، موقف قائم علىٰ قَدْر كبير من التفاؤل في عصر الدوامة السياسيَّة «المُدَوْزنة» أَكثر بصورة مطّردة بما يجعل الأزيز أَو الطشيش [صوت الشواء] أَكثر أهمية من قطعة اللحم ـ بأنك إِذا ما فعلت الأشياء الصحيحة بالطريقة السليمة، فإِن الناس سوف يطلعون علىٰ ذلك. عليك ألا تبادر قط إِلىٰ لفت الأنظار إِلىٰ شخصك، وتجنّب أَكثر من ذلك، أَن تقوم بالدعاية لإِنجازاتك. أضف إِلىٰ ذلك أَن بوش كان يقيم وزناً كبيراً للعلاقات الشخصية، وكان قد بدأ ينسج علاقة كهذه مع ميخائيل گورباتشيف فبات، علىٰ ما يبدو، عازفاً عن القيام بما ما من شأنه أَن يؤدي إِلىٰ جعل الأمور أَكثر تعقيداً وصعوبة بالنسبة إِلىٰ حليفه الجديد. فقد كان من شأن إِكثار بوش من الاحتفال أَن يزيد من هشاشة أوضاع گورباتشيف والشخصيات الأَكثر نزوعاً ديمقراطياً في الاتحاد السوڤيتي. كان من شأن الاحتفال أَن يبدو شماتة ولم يكن بوش يريد أَن يشمت. (وبعد بضعة أشهر أَصبح بوش أَكثر قرباً من المعركة الانتخابية وتشجع أَكثر فلم يتردد في اعتبار الولايات المتحدة صاحبة الفضل في إِنهاء الحرب الباردة حتى ألقى خطاب حالة الاتحاد في كانون ثاني/ يناير 1992م مع بداية سنة الحملة الانتخابية الرئيسية. غير أَن گورباتشيف، رغم أنّه كان قد أطيح به، لم يكن مسروراً من الكلام وعلّق قائلاً إِن إِنهاء الحرب الباردة «كان انتصارنا المشترك. علينا ألا ننسى فضل جميع الساسة الذين ساهموا في صنع ذلك الانتصار»).

ربما كان صحيحاً أيضاً أَن يُقال إِن بوش عَزَف عن الإكثار من التباهي بمأثرة انهيار الشيوعية، لأن ما كان قد حصل لم يكن إلاَّ انتصاراً مظفراً لفكرة معينة لا لأي إنسان أَو لأي فريق سياسي. فالاتحاد السوڤيتي كان قد أَصبح، ولو عن غير قصد، الدعاية الأفضل للمجتمع الحر، إذ بيّن آخر المطاف أَن أشكال التحكّم والأنظمة الدكتاتورية المتسلطة لم تكن تفرض القيود علىٰ الحرية السياسيَّة، الفكريَّة، والروحيَّة فقط، بل وكانت تعرقل الحرية الاقتصاديَّة وتعيق التطور العسكري. كانت تحدّ ليس فقط من الحرية الفردية، وهو أمر يبدي الكثير من الحكّام في أجزاء العالم المختلفة استعداداً للترحيب به، بل وكانت في النهاية تفضي إِلىٰ اختزال محصّلة قوة الدولة ومَنْعتها، وهو أمر مختلف تماماً. وبالتالي فإن ما دأب أنصار مجتمع الانفتاح علىٰ قوله لدى تأكيدهم لفكرة استحالة قهر الحرية ولحقيقة أَن حرية الكلام الصريح والمكشوف عن القضايا السياسيَّة كانت علىٰ المدى الطويل غير قابلة للفصل عن حرية اختراع أداة تكنولوجيا متطورة جديدة، أَو إِدارة شركة جديدة ممتازة، كان صحيحاً. فحقوق الإِنسان شملت لا تأليف الرسائل الغاضبة وإِرسالها إِلىٰ الصحف تعبيراً عن الشكوى من الحكومة فقط، بل شملت أيضاً حق اختيار المكان الذي يذهب إِليه للعمل، وحقه في أَن يراكم، إِذا أراد ذلك وعمل بما يكفي من الاجتهاد والأصالة، قَدْراً أكبر بكثير من المكافآت المادية بالمقارنة مع جيرانه. لقد شكَّل النظامُ السوڤيتي دليلاً قاطعاً علىٰ ما يمكن لغياب حرية الاختيار أَن يجلبه من ضرر، وعلىٰ الحالة البائسة التي يؤول إِليها المجتمع حين يُدار من القمة إِلىٰ القاعدة بدلاً من إدارته من القاعدة إِلىٰ القمّة. فحين تولّى جورج بوش الرئاسة، كان الاتحاد السوڤيتي قد بدأ ينهار تحت وطأة ثِقَلِه هو. من الواضح أَن الحكم الشيوعي كان، مع حلول عقد الثمانينيّات، قد أنجز، كما سبق للنقّاد أَن تنبؤوا منذ زمن بعيد، مهمّة تقويض الدولة والأمّة ذاتها، مضعِفاً إِيَّاها، خصوصاً في عصر التكنولوجيا المتطوِّرة حيث بات الترابط كثيفاً ومباشراً بين حيوية الاقتصاد

الوطني لهذه الدولة أَو تلك وبين قدرتها العسكريَّة، وحيث أَصبحت الهوة بين السلاح الأَمريكي ونظيره السوڤيتي متزايدة الاتساع بصورة متسارعة الاطراد.

لم تكن الرموز نقطة قوة بوش في أَي وقت من الأوقات، وأولئك الذين لم يكونوا مسرورين من تحفُّظه الفطري أحبّوا أن يتصوّروا ما كان ممكناً أن يفعله رونالد ريگان ـ الذي كان بارعاً في الاستفادة من الرموز وموهوباً في اختيار الأوقات المناسبة لاستغلالها ـ لو كان ما يزال رئيساً للجمهورية حين سقط الجدار. ربما كان قد غامر وذهب إِلىٰ برلين لإِقامة احتفال بالغ الروعة يتيح للأمة بأسرها بل وربما للعالم كله أَيضاً فرصة المشاركة. غير أَن الأَمر كان مختلفاً مع بوش الذي كان، خلافاً لحال سَلَفه (وخَلَفه)، ميالاً لاختزال مستوى إِثارة اللحظات الاحتفالية. والكثير من اليمينيين الذين طالما وجدوه قليل الإِيمان العقائدي خُذلوا مرَّة أُخرى. فقد أثبت، مرة أُخرى، أَنَّه لم يكن نافعاً، إِذ وضع النجاح في عمليَّة جيوسياسيَّة بالغة الحساسية وغير مكتملة فوق إِغراء التباهي والمفاخرة بما كان يمكن اعتبارها لحظة تاريخية مجيدة.

جاء إِيمان بوش بضرورة وضع السيرورة فوق الصورة ليؤكد شُهْرَتَه، وقد حصل عليها عن جدارة، كعنصر متحفِّظ يعمل بصمت وراء الكواليس بدلاً من أَن يكون شخصية عامة تعرف كيف تَنْقَضُّ علىٰ المناسبات التاريخية وتتقن فن استخدام الرموز لحشد الأمة وتكتيلها حوله. هوذا بوش، في حقيقة الأَمر، في أفضل أحواله وأسوئها. ففي الحالة الأَكثر سوءاً أخفق في الإِمساك بحدث جلل ليلخص ما كان يعنيه في سياق صراع طويل وشاق دأب مجتمع حرّ علىٰ خوضه ضد دولة شمولية، وليقوم، علىٰ الأقل، بتسليط الأضواء علىٰ أن إِيمان أولئك العظماء في أوروپا الشرقية بطريقة أفضل وأَكثر ديمقراطيَّة، خلال الساعات الطويلة المظلمة للاضطهاد الشيوعي كان يكافأ آخر المطاف. غير أنه كان أَيضاً في أفضل أحواله لأنَّه لم يكن مستعداً لاستغلال زميل ضعيف ـ گورباتشيف ـ

مع بؤسه ومهانته من أجل تحقيق مكاسب سياسيَّة. لم يكن بوش، آخر الأَمر، إلاَّ لاعباً جماعياً، عضواً في فريق، وقد كان گورباتشيف زميله في اللعب هذه المرة، مهما بدا ذلك أمراً غير محتمل قبل سنوات قليلة فقط.

بصرف النظر عما إذا كان قد احتفل به أم لا فقد بدا انتهاء الحرب الباردة مجرد طَفْرة مهمة أُخرى من طفرات فترته الرئاسية، طَفْرة جاءت متزامنة تقريباً مع نجاح القوّات المسلَّحة الأَمريكيَّة، بوصفها الجزء المهيمن من التحالف الدولي، في إِلحاق الهزيمة بالجيش العراقي في حرب برّيَّة مدمِّرة دامت أربعة أيام، هزيمة سبقتها خمسة أسابيع من السيطرة الجوِّيَّة القاتلة المعزَّزَة بالأَسلحة الدقيقة ذات التكنولوجيا العالية. لقد هلَّل أَكثر الأَمريكيين للنجاح المذهل الذي حقَّقته الوحدات الأَمريكيَّة في الخليج الفارسي، لكفاءة أسلحتها الباردة، وللانهيار شبه المباشر للقوات العراقية، علىٰ أنَّها أَكثر من مجرد انتصار علىٰ دولة عربية لا يعرفون عنها إِلاَّ القليل أقدمت علىٰ غزو أمارة صغيرة أوتوقراطية منتجة للنفط لا يعرفون عنها إِلاَّ ما هو أقل. هلّلوا للأمر بالأحرى بوصفه أمراً وَضَعَ حداً لفترة من الخيبة والريبة الذاتيَّة التي ظلَّت تقضّ مضاجع الكثير من الأَمريكيين علىٰ امتداد ما يقرب من عشرين سنة نتيجة جملة من العوامل مثل كابوس الحرب الڤيتنامية الثقيل، المهانة الناجمة عن أزمة الرهائن الإِيرانيَّة، وعدم الاطمئنان إِلىٰ بنيان اقتصادي أساسي مهلهل بات موشكاً علىٰ التخلّف عن العضلات الفتية ليابان واثقة وقوية، أَصبحت تُعْرَف لدى أوساط رجال الأعمال الأَمريكان باسم شركة اليابان المتحدة.

أظهرت حرب الخليج أَن الجيش الأَمريكي قد تماثل للشفاء من علَّة الهزيمة الڤيتنامية، وعاد ثانية موضوع غيرة باقي العالم مع معنويات ومستويات مهارة قتاليَّة لدى المقاتلين أنفسهم مواكبة لأشكال الروعة والإِعجاز التي ميَّزَتْ الأَسلحة التي باتت الآن بحوزتهم. كانت عِبَرُ حرب الخليج واضحة، متجاوزة للقدرة العسكريَّة البسيطة لتصل، بإِحدى المعاني النفسيَّة الأوسع، إِلىٰ نظرة

قومية أشمل إِلىٰ إمكانياتنا. لقد عُدْنا إِلىٰ الساحة؛ باتت القوَّات الأَمريكيَّة تعرف ما يتوجَّب عليها فعله دون إِيعاز من أَحد. ربما تخلّفنا قليلاً في مجال إِنتاج السيارات، غير أَن البضائع الأَمريكية، ومنها الأَسلحة الأَمريكيَّة الحديثة، كانت لا تزال هي الأفضل في العالم. عادت الأمّة، مرة أُخرى، قوية، صامدة، ومتفائلة.

جرى تكريم القوَّات التي قاتلت في الخليج خلافاً لحال نظيرتها التي سبق لها أَن قاتلت في ڤيتنام. تم الاحتفال بكولن پاول ونورمان شوارتزكوپف الجنرالين اللذين قادا الحرب خلافاً لما جرى مع وليم وستمورلاند تماماً. وكاثنين من ظلال الحرب العالميَّة الثانية بدا پاول أيزنهاورَ الجديد، ذلك المخطِّط صاحب التفكير العميق، الحريص، الصارم ولكن مع لِينٍ ورِفْق؛ وبدا شوارتزكوپف باتونَ الجديد، ذلك القائد الميداني الخشن، قاضم السيجار، والسريع علىٰ الدوام. كان ثمة عرض بهيج في واشنطن، ثم جرى تكريمهما ثانية في استعراض وجيز حاشد في نيويورك. مسؤولو أَمْن پاول نصحوه بارتداء سترة واقية، غير أنّه اعتذر قائلاً إِن وَزنَه يكفي وليس بحاجة لواحدة، وقد قام باستعراض جمهور المحتفلين واقفاً في سيارة بويك مكشوفة من طراز 1959م دون أية حماية. كان شوارتزكوپف وپاول، كلاهما، من منطقة نيويورك، الأول ابن رئيس قسم شرطة ولاية نيوجيرسي والثاني ابن لأبوين كانا يعملان في حي صناعة الألبسة. عادت ذاكرة پاول فيما يخص المناسبات المماثلة إِلىٰ نتف الأخبار المصورة عن العروض التي أقيمت لكل من ليندبيرگ، أيزنهاور، وماك آرثر. وفيما كان يمر مع شوارتزكوپف تحت وابل من اللقطات المنهمرة كالطوفان شَعَرَ بالسعادة، وهو يقول بينه وبين نفسه: كل هذا الهرج والمرج من أجل اثنين من أبناء الحي تمكّنا من القيام بعمل جيد[3].

(3) پاول، 532.

كان عام واحد وتسعين وتسع مئة وألف سنة ممتازاً بالنسبة إِلىٰ جورج بوش. كان العام قد انتهى بهدية عيد الميلاد الأخيرة المقدَّمة إِلىٰ أي رئيس جمهورية للولايات المتحدة حين قام گورباتشيف بالاتصال به ليقدِّم تمنياته الطيبة شخصياً، وليبلغه بأن الاتحاد السوڤيتي لم يعد موجوداً. فآخر زعماء اتحاد الجمهوريات السوڤيتية الاشتراكية، گورباتشيف، كان يستقيل ويحيل السلطة إِلىٰ بوريس يلتسن، الزعيم الجديد لروسيا. في وقت أبكر من اليوم نفسه كان گورباتشيف قد أبلغ تد كوپل مسؤول برنامج **خط الليل** عن أنَّه كان يمثِّل نوعاً من الطليعة الروسية الحديثة لأنَّه كان عاكفاً علىٰ المشاركة في عملية نقل للسلطة بصورة سلمية، متصرفاً وفقاً لصيغة كانت ديمقراطيَّة، صيغة جديدة نسبياً في موسكو. وبعد ذلك، في حديث دافئ، يكاد أن يكون مشحوناً بالعاطفة، مع بوش، قال گورباتشيف إِنَّه كان يقوم بتسليم ما أطلق عليه اسم حقيبة اليد الصغيرة، تلك الحقيبة المتضمنة الرموز المشفَّرة الخاصة بتفويض تفعيل الترسانة النووية السوڤيتية، إِلىٰ رئيس جمهورية روسيا. ومع ذلك فإِنه لم يُطِقْ ذكر اسم يلتسن خصمه اللدود[4]. تم إِنجاز المهمة، انتهى عهد گورباتشيف. (وكما قالت رايسا گورباتشيف، بدهاء، بعد العودة من رحلة ناجحة جداً إِلىٰ الولايات المتحدة في حزيران/ يونيو 1990م)، فإِن «الأَمر المهم بالنسبة لأشكال التجديد هو أنها لا تلبث، عاجلاً أَو آجلاً، أَن تلتف وتقوم بتدمير فرسان التجديد»[5].

إِن جزءاً من ذلك الاتصال الهاتفي الخاص الذي أعلن انتهاء الاتحاد السوڤيتي قد شُوهد حتى علىٰ شاشات التلفزة. فگورباتشيف الذي هو نتاج أَكثر مجتمعات العالم اتصافاً بالكتمان والسرِّيَّة ما لبث أَن أَصبح خبير وسائل إِعلام أتقن فنّ العَزْف علىٰ أوتار الرأي العام الدولي والمحلي علىٰ حد سواء. وكان

(4) بشلوس وتالبوت، 532.

(5) المصدر السابق، 230.

بوش سيكتشف لاحقاً أن گورباتشيڤ كان قد سمح لكوپل وبرنامج **خط الليل** أن يبث عبر التلفاز اختتامه لذلك الاتصال الهاتفي الجاري بين شخصي الرئيسين. لقد كان تتويجاً لعام لم يتح لأكثر الرؤساء الأمريكيين إلاَّ أن يحلموا به. وقد بدا مثل أكثر الأوقات نُدْرة، حيث كانت جُلُّ الأنباء سارّة وكان بوش المستفيدَ الأول. كانت رئاسته ناجحة جداً وبدت إِعادة انتخابه مسألة مضمونة.

كانت هناك بوادر لتيار عميق جديد بدأ يفعل فعله في السياسة الأَمريكيَّة بادية للعيان، وكان بوش ومَنْ حوله، لأَسباب كثيرة، ومعظمهم من الجيل نفسه، بطيئين في التنبه إِليها. إِلاَّ أن البوادر والمؤشرات الدالَّة علىٰ وجود تغير اجتماعي وسياسي ذي شأن كانت هناك. كانت تعكس قَدْراً من الافتقار إِلىٰ الاعتراف بالجميل من جانب سائر فئات الناس العاديين مقابل جملة النجاحات المحقَّقة خلال السنوات الثلاث الأخيرة، وقدراً متزايداً من الاستياء ـ وربما الغضب في الحقيقة ـ إِزاء حال الاقتصاد الأَمريكي. وكذلك كان هناك اعتقاد مصاحب بأن جورج بوش كان بالتأكيد مؤهلاً لأن يكون زعيماً عامياً ناجحاً، غير أَن المشكلات والقضايا الداخليَّة، وخصوصاً قضايا الاقتصاد، في المقام الأول، لم تكن تحظى بالقَدْر نفسه من الأهمية التي كانت تحظى بها الشؤون الخارجيَّة لديه. عدد من خبراء استطلاعات الرأي المختلفين أمسكوا بخيوط هذا الاستياء الكامن في العمق، ومنهم الأستاذ السابق في جامعة ييل ستان گرينبيرگ الذي كان يجري استطلاعات للرأي لصالح المرشح الرئاسي الديمقراطي المحتمل الشاب بيل كلنتون، وفريد ستيپر صاحب الارتباطات الجمهورية الصريحة والذي كان يجري استطلاعات للرأي لصالح اللجنة القومية الجمهورية. وستيپر هذا كان يعمل بالتنسيق مع مكتب بوب تيتر، أَحد كبار خبراء الرأي العام في الحزب الجمهوري، الذي كان أَحد أقرب أصدقاء جورج بوش وحلفائه السياسيين، والذي كان سيحتل مكانه في الفريق الذي سيتولى مهمة إِدارة الحملة الخاصة بإِعادة انتخابه. كان الطبيعي هو أَن يقوم ستيپر

بالاستطلاع لصالح بوش مباشرة، غير أَن انهياراً مؤقتاً لعمليَّة الاستفتاء في 1991م جراء خلافات فئوية داخل البيت الأبيض، كان قد أدَّى إِلىٰ جعله يعمل لدى اللجنة القومية الجمهورية.

مع حلول عقد التسعينيات كانت استطلاعات الرأي قد أَصبحت أداة أَكثر دقة وأهمية بصورة مطردة في السياسة الأَمريكيَّة، رغم أَن بعض القدماء ممن ينتمون إِلىٰ حقبة سياسيَّة أبكر لم يكونوا مطمئنين إِليها. فهؤلاء كانوا يشكُّون بالسياسيين الذين كانوا يلوذون بها في جميع المناسبات ولسائر الأغراض، ويبدون مفتقرين إِلىٰ منظومة القِيَم أَو العقائد الراسخة القادرة علىٰ الصمود في وجه الحقائق المزعومة التي تفرزها استطلاعات الرأي تلك. ومع ذلك فإِن الاستطلاعات، شرط إِجرائها بشكل صحيح، كانت قادرة علىٰ الكشف عن بعض الأمور. كان من الممكن، إِذا وُظِّفت بشكل سليم، أَن تقوم بدور خط جيد للتنبيه عن بُعد لمنظومة إِنذار قادرة علىٰ اكتشاف القوى المرشحة قريباً لتمثيل حصول تحولات مهمّة في الرأي العام. علىٰ الأقل كانت تستطيع أَن تكشف عن أولوية قضايا معينة، كما كان سيحصل في إِحدى المناسبات. ولبعض الوقت بات فريد ستيپر مقتنعاً بأَنّه تحرَّى بوادر علة اقتصاديَّة متنامية مصحوبة بتململ عام من محاولات بوش علىٰ صعيد التعامل مع الاقتصاد. فعُجُوز الموازنة الهائلة المترتبة علىٰ سياسات ريگان الضريبية كانت قد أفضت إِلىٰ القرار الذي أثار نقاشاً مريراً في 1990م، ذلك القرار الذي اتَّخذه جورج بوش والذي قضى بزيادة الضرائب. ولدى قيامه بالحملة الانتخابية في 1988م كان بوش نفسه قد أقسم علىٰ عدم زيادة الضرائب قائلاً: «اسمعوا ما سأقوله جيداً. لن تكون أية ضرائب جديدة» حرفياً. وحين أقدم علىٰ التنكّر لذلك التعهّد كان بوش قد أثار غضب الكثيرين من حزبه هو. فالمحافظون الجمهوريون الشباب اللامعون والغاضبون في الكونگرس بزعامة نيوت گينگريتش كانوا قد انشقّوا عنه حول تلك القضية، وكان قد مرّر الزيادة الضريبية

في المجلس بدعم من الديمقراطيين إِلىٰ حد كبير. غير أَن الأَمر كان سيترك جُرْحاً لا يستهان به.

مع حلول صيف وخريف 1991م كانت استطلاعات الرأي قد بدأت تشير إِلىٰ نقاط ضعف محتملة كامنة في موقف بوش. صحيح أَن تقويماته الشخصيَّة بقيت عالية، غير أَن قدراً متزايداً من عدم الارتياح العام إِزاء إِدارة الاقتصاد وبالتالي البلاد كان قد بات واضحاً. كان الاقتصاد قد بدأ يتحوّل إِلىٰ قضية ملتهبة بعد أَن شهد مرحلة من الاشتعال البطيء بالنسبة إِلىٰ شاغل منصب الرئاسة. مناطق كثيرة من البلاد باتت تعاني من الكساد، وكان سيتم، مع حلول نهاية سنة 1991م، الإِعلان عن أَن البلاد باتت تعاني من الكساد، وكان سيتم، مع حلول نهاية سنة 1991م، الإِعلان عن أَن البلاد بأسرها أَصبحت تعاني من حالة الكساد. ثمة نمط من أنماط الاقتصاد، ألا وهو اقتصاد صناعة الياقات الزرقاء، كان يوشك علىٰ الزوال والانتهاء، في حين أَن الاقتصاد الرقمي القائم علىٰ التكنولوجيا المتطورة المرشّح لأن يحل محلّه قريباً ولكنه لم يتحقّق بعد بما يكفي من الزخم الذي يؤهله للتعويض عن انحسار سلفه. كان اليابانيون ينتجون سلعاً صناعية ثقيلة ذات نوعية أفضل من نظيرتها الأَمريكيَّة وكان الناس قد بدؤوا يطلقون علىٰ قلب الصناعة الأَمريكيَّة اسم **حزام الصدأ**. كان العجز في الميزانية يتنامى سنة بعد عام، مثله مثل الخلل في الميزان التجاري مع اليابان. راح الناس العاديون الذين لم يألفوا متابعة مثل هذه التوجهات الاقتصاديَّة يشعرون بأنّهم مضغوطون وصاروا يرون أنّهم مضطرّون لبذل المزيد والمزيد من الجهد في العمل لمجرد الصمود. كانت تلك إِحدى لحظات الحياة الأَمريكيَّة التي شهدت، رغم النمو المستمر لاقتصاد ما بعد الحرب، تزاوُجَ الاقتصاد والسياسة لأن الأرقام الاقتصاديَّة المجرَّدة عادة بدأت تصبح أموراً شخصية بعمق.

كان ستيبر قد اكتشف أواخر 1990م وأوائل 1991م جملة من المشكلات

الخطيرة ذات الصفة السياسيَّة المتزايدة والناجمة عن اقتصاد يعاني من الركود. تمثَّلت المفارقة الساخرة لحرب الخليج بأنّها نجحت مؤقتاً في تغيير الموضوع الرئيسي علىٰ جدول الأعمال القومي وتحويله إلىٰ اعتزاز بقوّتنا العسكريَّة المتجلية حديثاً بعد أَن كان متركزاً علىٰ نوع من القلق المتنامي حول الاقتصاد. وبالطبع فإن ذلك كان منطوياً علىٰ مكاسب سياسيَّة مباشرة بالنسبة إلىٰ بوش، تمخّضت عن زيادة كَميّة في مدى شعبيته الشخصية. غير أَن هشاشته فيما يخص القضايا الاقتصاديَّة بقيت علىٰ حالها. فقبيل حرب الخليج جاءت الردود علىٰ أَكثر الأسئلة التي يمكن لأي خبير استطلاعات رأي أَن يطرحها بدائية مثل «هل الإدارة علىٰ الطريق الصحيح أم الطريق الخطأ؟» مثيرة للقلق، رغم نجاح الإدارة في إنهاء الحرب الباردة. أظهرت استطلاعات ستيپر أَن ما يقرب من اثنين من كل ثلاثة أَمريكيين كانا يعتقدان بأن البلاد سائرة علىٰ المسار الخطأ. من الواضح أَن الأحداث المذهلة التي طبعت عمليَّة انتهاء الحرب الباردة لم تُحدِث أصداء سياسيَّة داخليَّة ذات شأن. غير أَن انتصار حرب الخليج ما لبث أَن جاء ليسد الفراغ. فبعد يومين فقط من بدء القتال أظهر استطلاع للرأي حدوث انقلاب في أَكثر المؤشرات أهمية حيث أَصبح اثنان من كل ثلاثة أَمريكيين يعتقدان بأننا سائرون في الاتجاه الصحيح.

غير أَن حرب الخليج لم تستطع أَن تطمس الاستياء العميق السائد في البلاد، خصوصاً ازاء الوضع الاقتصادي، إلاَّ بصورة مؤقتة. فالمشكلة الاقتصاديَّة كانت المشكلة الجديدة رقم واحد. أَمَّا المشكلة رقم اثنان فتمثَّلت، رغم الاستقبال الحار والحماسي للوحدات العائدة، بحقيقة أَن حرب الخليج نفسها لم تدم إلاَّ قليلاً. لا شك أَن البلاد كانت قد تجمدت خلال تلك الأيام القليلة أمام شاشات التلفزة العاكفة علىٰ بثّ الصور والأنباء الصادرة عن وزارة الدفاع ـ أشرطة الڤيديو تلك التي كانت تقدِّم صور القنابل المتطورة جداً وهي تصيب أَهدافها المحدّدة بدقَّة. ولا شك أَن جميع الأمور لم تكن قد جرت علىٰ

ما يرام كما سبق لها أَن خُططت فقط بل وكانت قد تمت بشكل أفضل مما كان متوقعاً، خلافاً لحال أكثرية الأحداث في الحروب. كانت البلاد بأسرها قد وقعت أسيرة حب القوّات المسلَّحة وانتصارها السريع سرعة مذهلة. وإِذا لم يكن الجميع يعشقون السيوف، فإِن الأَكثرية الساحقة من الناس في صف الطرف المنتصر تحب السيف السريع. غير أنّها كانت، في حقيقة الأَمر، حرباً بلا أصداء حقيقية. فالقتال البري الفعلي لم يدم إِلاّ أربعة أيام، وقد تمّ خوضه بجيش نخبوي محترف مما جعله لا يمسّ إِلاّ القليل من الأُسر الأَمريكيَّة نسبياً. بالنسبة إِلىٰ الجزء الأكبر من البلاد لم تكن تلك إِلاّ نوعاً من الحرب الافتراضية، حرباً لم يشارك فيها ولم يضح في سبيل كسبها إِلاّ القليل. وبالتالي فقد بقيت، مثل أشياء كثيرة يتم الاحتفال بها في وسائل الإِعلام الحديثة، بعيدة وغير قائمة علىٰ المشاركة بشكل غريب، وحين انتهت انتهت دون أَن تترك إِلاّ القليل من الآثار. صحيح أَن الناس كانوا قد ثبتوا شرائط صفراء علىٰ صناديق البريد أو أعمدة البوابات للتدليل علىٰ تأييدهم ودعمهم للمقاتلين، غير أَن الأَمر كان شديد الاختلاف، حقاً، عما حصل أيام الحرب العالميَّة الثانية حين رُفعت أعلام صغيرة ذوات نجوم عبر النوافذ تعبيراً عن أَن أَحد أفراد الأسرة كان في الخدمة، ربما فيما وراء البحار حيث يتعرّض للخطر.

اكتشف خبراء استطلاعات الرأي، ممن كانوا دائبين علىٰ متابعة جورج بوش في فترة ما بعد حرب الخليج، من آذار/ مارس وحتى أواسط الخريف، علىٰ اختلاف توجهاتهم، تدهوراً مطرداً في شعبية رئيس الجمهورية، تدهوراً تراوح، حسب هوية صاحب الاستطلاع، بين عشرين وخمس وعشرين من النقاط المئوية. لم يكن ذلك فَأْل خير بالطبع ولكنه كان سهل التبرير نسبياً ـ فشعبيته كانت قد زادت بصورة شبه جنونية لحظة الانتصار في الصحراء. وما كان قد حلَّق علىٰ ذلك المستوى العالي كان لا بد له من أَن يهبط إِلىٰ المستويات المعقولة. أَمّا ما كان ينطوي علىٰ قَدْر أكبر من الخطر فقد تمثَّل

بعودة الناس إلىٰ التمرد والعصيان حول الاقتصاد، حتى مع شروع هالة المشاعر الطيبة حول حرب الخليج بالتلاشي.

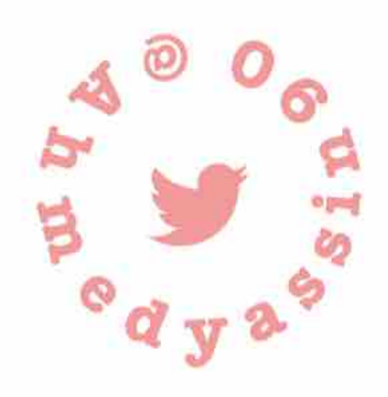
لجملة من الأَسباب المختلفة كان البيت الأبيض ميالاً إلىٰ الانعزال عن ذلك التوجه المشؤوم. فاستطلاعات ستيپر مع غيرها من استطلاعات أجراها غيره بَيَّنَتْ أَن جزءاً كبيراً من البلاد، ربما حوالي ثمانية بالمئة ممن شملتهم الاستطلاعات، كان يرى أن البلاد في حالة ركود، غير أَن مستشاري الرئيس الاقتصاديين ـ مايكل بوسكين الذي كان رئيساً لمجلس الخبراء الاقتصاديين، الاقتصادي الشخصي لبوش عملياً؛ ديك دارمان، مدير ميزانيته؛ ونيك براد وزير الخزينة في إدارته ـ قالوا له جميعاً إِن الركود قد انتهى. ثار غضب بعض أنصاره السياسيين إِزاء ذلك الموقف، معتقدين بأن الاقتصاديين كانوا علىٰ خطأ مئة بالمئة كما كانوا يستهينون بالقضيَّة السياسيَّة القابلة للانفجار والقادرة علىٰ التدمير في سبيل تبرير نصائحهم السابقة. ومع ذلك فإِن بوش خرج إلىٰ الملأ في خريف 1991م وأعلن عن انتهاء فترة الركود. كان ذلك خطأ جسيماً، إِذ وضعه في صراع مباشر مع الطريقة التي كانت أَكثرية أَمريكيَّة ساحقة تشعر بها فيما يخص قضية دأبت علىٰ أن تصبح أكثر خطورة بصورة مطردة في أذهان العامّة.

كان ذلك هو مأزق بيت بوش الأبيض نهاية سنة 1991م. لقد كان أفضل سنوات بوش في الإدارة، غير أَن تياراً سياسياً قوياً كان قد بدأ يفعل فعله ضده. أضف إِلىٰ ذلك أَن أَحداً لم يكن يقيم وزناً كبيراً لمهارته الملحوظة في عمليَّة التفاوض علىٰ إِنهاء الحرب الباردة. بل ربما كان انتهاء الحرب الباردة قد بدأ، هو الآخر، يعمل ضده، نظراً لأن التحرر من توترات الحرب الباردة كان قد أدّى إِلىٰ تعجيل عملية التحوّل في سلم الأولويات عن الشؤون الخارجيَّة، حيث كان الجمهوريون عموماً وبوش بصورة خاصة هم المستفيدين، إِلىٰ القضايا الداخليَّة، في وقت كان فيه الاقتصاد يعاني من الضعف وكان المستفيدون الرئيسيون من المشكلات الاقتصاديَّة هم الديمقراطيين.

كان فريد ستيپر من أوائل من التقطوا هذا التحوّل. ففي كانون أول/ ديسمبر 1991م، تماماً حين كان الاتحاد السوڤيتي دائباً علىٰ التفكّك والخَصْم الذي كان يزرع الرعب ذات يوم يفقد قوته، كان ستيپر هذا، عاكفاً علىٰ عقد سلسلة لقاءات مكثَّفة مع مواطنين عاديين، محاولاً استكشاف آرائهم حول القضايا التي ستواجه الحزب الجمهوري في العام الانتخابي القادم. كانت النتائج مرعبة بشكل قاتل. لم تقف الأمور عند تأكيد حقيقة أَن الاقتصاد كان هو القضية الأولى، وعند إِعلان أَكثرية الناس العاديين عن القناعة بأن البلاد غارقة في مستنقع عميق من الكساد والركود، علىٰ النقيض مما كان مستشارو الرئيس الاقتصاديون يقولونه، فقط، بل وكان هؤلاء المواطنون العاديّون ساخطين علىٰ بوش الذي لم يكن، باعتقادهم، كثيرَ الاهتمام بهم وبمشكلاتهم. والأسوأ من ذلك والأشد تدميراً هو أَن الاستطلاعات دلَّتْ علىٰ أَن الوقت كان قد فات ولم يعد بمقدوره أَن يصحِّح نمط سلوكه في التعامل مع هذه المسألة.

انطلاقاً من هذه الاكتشافات بادر ستيپر إِلىٰ تسطير مذكرة وجَّهها إِلىٰ رئيسه بوب تيتر مشيراً إِلىٰ احتمال حدوث ما أطلق عليه اسم العامل التشيرتشلي أَو النظير التشيرتشلي نسبة إلى ونستون تشيرتشل. ففي نهاية تموز/ يوليو 1945م، بعيد استسلام ألمانيا مباشرة، كانت إِنگلترا المتعبة قد عَزَفَتْ حتى عن انتظار انتهاء الحرب في المحيط الأطلسي وأقدمت علىٰ خذلان ونستون تشيرتشل في الانتخابات، وهو زعيمها المقدام والمحبوب أيام الحرب، الذي كان تصميمه الفولاذي العنيد قد جَسَّد قوة إنگلترا وإِيمانها في أحلك ساعات أوروپا، مستبدلة إِيَّاه بالزعيم العمالي الأقل بريقاً وكاريزمية، كلمنت آتلي. (فقد قال تشيرتشل عنه ذات مرة: إِنَّه رجل متواضع، ولديه أشياء كثيرة تدعوه إِلىٰ أَن يكون متواضعاً). لقد كان إِيمان البريطانيين راسخاً بأن اهتمام تشيرتشل الرئيسي كان منصبّاً علىٰ الدفاع والسياسة الخارجيَّة، بعيداً عن الشؤون الداخليَّة، وأرادوا، بالتالي، أَن ينتخبوا شخصاً آخر كان مستعداً، برأيهم، لأن يولي قَدْراً أكبر من الاهتمام لحاجاتهم في فترة ما بعد الحرب.

حذّر ستيپر من احتمال حدوث الشيء نفسه مع بوش، مشيراً إلىٰ ضرورة امتناع الرئيس عن المبالغة في التعويل علىٰ نجاحاته السياسيَّة الخارجيَّة في الحملة المقبلة. فالاقتصاد كان يمس بالأذى قطاعاً واسعاً من الشعب ويشغل موقعاً مهيمناً في عقول الناس. قام بوب تيتر بنقل التحذير نفسه تقريباً إلىٰ بوش. إلاَّ أَن الرئيس كان أَكثر ثقة، مشمئزاً من التحرّك ضد كبار أفراد حاشيته الخاصة ـ اقتصادييه ـ ومستمراً في الاستمتاع بتصديق تنبؤاتهم الأَكثر إشراقاً ووردية. وهكذا فإن عام انتخابات حاسم كان سيبدأ فيما الأَمريكيون مشغولون وقلقون بشأن حالة الاقتصاد ومتشوقون للحصول علىٰ بعض الفوائد من انتهاء الحرب الباردة، وجورج بوش في مواجهة هجوم يأتيه من متحدٍ ومنافس ديمقراطي يتهمه بالمبالغة في الاهتمام بالسياسة الخارجيَّة وبإهمال السياسة الداخليَّة. وهذا كله كان سيتم فيما كانت دولة يوگوسلاڤيا البلقانية قد بدأت تتفكّك وتتمزّق محدثة سلسلة من العواقب المأساوية الإنسانية الفظيعة.


@Ahmedyassin90

الفصل الثاني

بدأت الحملة لصالح الشاب الديمقراطي المتطلّع إلىٰ شَغْل منصب الرئاسة في خريف 1991م لأَسباب كثيرة أُخرى لعل أبرزها هو أنّه لم يكن يملك شيئاً يخسره. ففي أواخر صيف وأوائل خريف 1991م كان البريق المنبعث من حرب الخليج الفارسي ما زال موجوداً، متحلياً في شعبية جورج بوش غير المسبوقة. غير أَن هذا البريق كان أَيضاً ذا تأثير هائل علىٰ المرشحين الأَكثر شهرة في طرف المعارضة الديمقراطيَّة ـ إِذ كان يلجم ويكبت رغبة هؤلاء في النزول إِلىٰ الساحة ضد بوش. أَمَّا بالنسبة إِلىٰ حاكم ولاية آركنسو، وليم جفرسون كلنتون، فلم يكن ثمة ما يدعو إِلىٰ الإِحجام عن المحاولة وإِن لم يكن السباق الرئاسي مغامرة مجانية مئة بالمئة. كان الرجل يدرك أنّه إِذا ما شارك في السباق فإِنّه سوف يخوض المعركة بقَدْر قليل نسبياً من الزخم. إِلاَّ أنّه كان شاباً ولديه من العمر ما يكفي لأن يعتبر الأَمر، إِذا ما أخفق، دورة تدريبيَّة رائعة اطلع من خلالها علىٰ تفاصيل المشهد تاركاً في الوقت نفسه بصمات واضحة علىٰ وسائل الإِعلام القومية وانطباعات قوية لدى الساسة المتنفذين عن طريق إِتقان توظيف قدراته. كان من شأن المعركة أَن تشكِّل استعراضاً جيداً علىٰ الأقل، كما كان من شأن الفرصة المتاحة لإِبراز مهاراته السياسيَّة علىٰ الصعيد القومي أَن يقذف به إِلىٰ صَدْر قائمة الأسماء المذكورة كمرشحين لمنصب نائب الرئيس.

ربما كانت لدى الآخرين بعض الشكوك حول مواهب كلنتون ومدى قدرتها علىٰ الارتقاء إِلىٰ مستوى حملة رئاسية، غير أَن كلنتون نفسه لم يكن يساوره، وهو في الخامسة والأربعين من العمر، أَي شك. لقد كان ذكياً وموهوباً، سياسياً طبيعياً أَو بالفطرة، كما كان واثقاً ثقة مطلقة بقدراته. فكل عمل أَو منصب إِضافي تولاه في حياته العملية كان قد علّمه أَنَّه كان يجاري نظراءه، بل ويفوقهم، موهبة، علىٰ الرغم من أَن كثيرين من هؤلاء ربما كانوا أَكثر شهرة منه بسبب مجيئهم من ولايات أكبر ذات دوائر انتخابية أوسع وأقوى، أَكثر تمويلاً بما لا يقاس، وأَكثر قدرة، بالطبع، علىٰ الوصول إِلىٰ وسائل الإِعلام. لقد دأب علىٰ رَوْز قامات غرمائه المحتملين بكثير من العناية عبر السنين، وقرَّر، مرّة بعد أُخرى، أنَّ مواهبَه ومهاراته السياسيَّة كانت متفوقة علىٰ مواهبهم ومهاراتهم، كما كان مدركاً لحقيقة أنّه حين كان قد قابل عمالقة الإِعلام من المتخصصين بفحص جياد السبق، تمكّن من أَن يترك لدى هؤلاء انطباعات مدهشة إِذ استطاع أَن يبهرهم. ربما كانت توقعاتهم متواضعة نسبياً نظراً لقدومه من ولاية صغيرة وفقيرة، مما جعلهم يكوِّنون رأياً إِيجابياً حول هذا الشاب واسع الاطلاع، المتبحر والمتمكّن جداً من هذه الدائرة الواسعة والمتنوعة من القضايا، والذي كانت زوجه الفتية الجذَّابة تبدو علىٰ المستوى نفسه من الذكاء والمعرفة. ربما لم تكن قدرة كلنتون علىٰ إِبهار كبار سماسرة السلطة في العصر سواء في وسائل الإِعلام أو في الأجهزة الحزبية معروفة بعد علىٰ الصعيد القومي غير أنّها لم تكن سراً بالنسبة إِلىٰ شخص واحد هو بيل كلنتون.

علىٰ العموم، كان كلنتون نفسه والناس المحيطون به ميَّالين إِلىٰ التفاؤل حول إِمكانية المشاركة في السباق ـ أَو اختبار موقف الرأي العام علىٰ الأقل. كان الموضوع مطروحاً للنقاش بالنسبة إِلىٰ حاكم الولاية، زوجه، وحلفائهما الأَكثر قرباً وحميمية منذ أكثر من أربع سنوات. ففي الأشهر التي سبقت حملة

1988م، كان قد فكَّر جدياً بالأَمر غير أنّه ما لبث أن تراجع بسبب موجة من الهمسات حول وجود علاقة له مع نساء أخريات غير زوجه. غير أن الفكرة بقيت صامدة ولم يجر وضعها جانباً قط. صحيح أَن كلنتون كان في 1990م قد واجه حملة إِعادة انتخاب صعبة، غير أَنَّه استطاع هو ومستشاروه أَن يضعوا استراتيجية ناجحة في الوقت المناسب ففاز مرة أُخرى بيسر. وما إِن بات منصب حاكم الولاية مضموناً حتى عكف هو وزوجه هيلاري ومستشار حملته الانتخابية فرانك گرير وخبير استطلاعات الرأي ستان گرينبيرگ، مع عدد قليل من الأَصدقاء المقرَّبين علىٰ الشروع مباشرة بالتفكير بخوض المعركة الرئاسية سنة 1992م، مقتنعين جميعاً بأن كلنتون كان الديمقراطي **الوَسَطي** الأَكثر موهبة على الساحة. كانت اجتماعاتهم قد بدأت في وقت مبكر يعود إِلىٰ كانون أول/ ديسمبر 1990م، ثم ما لبثوا أَن اكتسبوا قَدْراً أكبر من الجدية في الأشهر الأولى من سنة 1991م. إِلاَّ أَن الحرب الباردة تدخّلت فدفعت بشعبية بوش إِلىٰ الأوج مما جعل حتى كلنتون، الذي لم يكن ليخسر شيئاً ذا شأن، يتردَّد إِزاء الإِقدام علىٰ المشاركة في السباق.

سأل گرير: «هل سبق لك أَن سمعت أَن الشعب الأَمريكي قد أزاح رئيساً قاد حرباً ناجحة عن منصبه؟» وجاء الرد بالنفي مشفوعاً بالقول بأننا في عصر مختلف جداً وأَكثر تقلّباً بما لا يقاس مقارنة بما كان مألوفاً في السابق. فالقواعد القديمة لم تعد نافذة بسبب قوة وسائل الإِعلام الحديثة. وألمح گرير إِلىٰ أَن الموجات السياسيَّة باتت تتغيّر بقَدْر أكبرمن السرعة وبقَدْرٍ أقل من قابلية التنبؤ. ردّ عليه كلنتون قائلاً: «غير أنني لم أقم حتى بالخدمة في ڤيتنام وقد كنت مناهضاً لحرب ڤيتنام». فأجابه گرير الذي كان قد ساهم في تنظيم أحد الاعتصامات المناهضة للحرب: «أنا الآخر لم أخدم وكنت معادياً للحرب أَيضاً. فضلاً عن أَن أَكثر أهالي البلاد لم يخدموا». أخيراً قرَّر كلنتون أَن يدخل السباق.

بدا منافس كلنتون الرئيسي متمثلاً بحاكم ولاية نيويورك، ماريو كومو، صاحب العبارات البليغة والمتمتع بتأييد كتلة كبيرة من الأصوات، أَحد معشوقي أولئك الليبراليين الشرقيين التقليديين المحافظين علىٰ ولعهم بإِيقاعات الصفقة الجديدة. صحيح أَن كلنتون كان يقدّر مهارات حاكم نيويورك الكلامية، غير أنّه لم يعتبر كومو قط أَكثر موهبة منه، ولا أفضل منه في الحكم والإِدارة ـ وقد ردَّد علىٰ مسامع أصدقائه عبارة: «ومن يعرف مدى نجاح كومو في الإِدارة معرفة حقيقية؟» قد يبدو كومو مرشحاً رائعاً، غير أَن كلنتون كان يرى، بدهائه وحسّه المرهف، جملة العيوب وأشكال عدم الثقة بالنفس التي كان يمكنها أَن تمنع كومو من الإِقدام علىٰ خوض أية معركة رئاسية. وقد تساءل كلنتون عما إِذا كان سبب ذلك كله كامناً في نوع من الخوف الهائل من الرفض أَو النبذ لدى رجل شديد الاعتزاز غير قادر علىٰ تحمّل ما قد يترتب علىٰ مثل هذه المخاطرة من نبذ نهائي. أضف إِلىٰ ذلك هل ثمة أَي ند لكاثوليكي نيويوركي من أصل إِيطالي أنسب من حاكم ولاية شاب بروتستانتي من الجنوب يتحلى بالذكاء والجاذبية في حال تأكد ترشيح كومو وبات مرشحاً منافساً؟ أَمّا بعد أَن خرج كومو من حلبة السباق فلم يعد كلنتون يرى أَي مرشح آخر غير قابل للهزيمة، ولم يكن جورج بوش نفسه استثناء. فقد همس كلنتون في أذن بعض أصدقائه قائلاً إِن بوش قد يكون رئيساً جالساً علىٰ كرسي الرئاسة، ولكنه لم يكن بنظر كلنتون متمتعاً بأية مواهب سياسيَّة استثنائية.

في المراحل الأولى من المعركة الانتخابية كان كلنتون يدرك أَنَّه لم يكن يعرف شيئاً ذا بال عن السياسة الخارجيَّة، وإِذا كان يريد أَن يسد هذه الثغرة فقد تعين عليه أَن يقيم صلة ما علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة. وبالتالي فقد بادر في خريف 1991م إِلىٰ شَبْكِ شاب موهوب كان أَحد معلمي السياسة الخارجيَّة من الديمقراطيين القليلين الباقين، هو أَنتوني ليك. والصلة الأساس مع ليك هذا كانت قد جاءت عبر رجل يدعى ساموييل (ساندي) بيرگر الذي كان ناشطاً في

حركة مناهضة الحرب في الجامعة، عمل في حملتي 1968م لكل من غَنَه ماكارثي وبوبي كنيدي، وكان قد التقى كلنتون للمرة الأولى في حملة جورج ماك غفرن الفاشلة سنة 1972م. كان بيرگر قد عمل بعد ذلك لصالح ليك في إِدارة كارتر حين تولى الأخير منصب مدير التخطيط السياسي في وزارة الخارجيَّة في أثناء ولاية سايروس ڤانس.

في 1991م كان بيرگر يعمل محامياً تجارياً متفرغاً في واشنطن، في حين كان ليك يعاني من نوع من المأزق في حياته. كان لا يزال شاباً نسبياً بمعايير مؤسسة السياسة الخارجيَّة، إِذ لم يكن قد تجاوز الخمسين بعد، موهوباً، متمتعاً بقدر استثنائي من أَسباب الجدارة بالثقة، وواحداً ممن كانوا لا يزالون مفضَّلين عند ڤانس. في خريف 1991م كان مشغولاً بإِلقاء سلسلة محاضرات عن السياسة الخارجيَّة المعاصرة في عدد من كليات وجامعات ماساتشوستس الغربيَّة، عاكفاً في الوقت نفسه علىٰ تأليف كتاب، بدا متعثراً. لقد كان كتاباً، كما وصفه ليك، عن الديمقراطيين والسياسة الخارجيَّة وعن «السبب الذي كان يجعلنا نتعثَّر في التعامل معها بصورة دائمة». أقام بيرگر الصلة المطلوبة بين كلنتون وليك ـ هامساً في أذن الأخير قائلاً إِن من شأن أَي وقت يقضيه مع هذا السياسي الديمقراطي الشاب أَن يساعده علىٰ إِنجاز كتابه علىٰ الأقل.

التقى ليك وكلنتون للمرة الأولى في بوسطن خريف 1991م. فكلنتون البادئ لتوه باختبار حظوظه السياسيَّة كان هناك لإِلقاء خطاب. أَمَّا ليك فقد جاء من مزرعته في ماساتشوستس الغربيَّة من أجل عقد الاجتماع حيث عاينه أولاً كل من مساعد كلنتون الداهية الصالح لجميع المناسبات جورج ستيفانوپولوس وهيلاري كلنتون. وبعد ذلك فقط، أَي بعد اجتياز الاختبار، تمكّن ليك من مقابلة المرشح نفسه. مثله مثل جُلِّ الذين كانوا يقابلون كلنتون للمرة الأولى فقد انبهر ليك بذكائه المميز وبالمستوى الاستثنائي من التركيز الذي كان يبديه حتى في التعامل مع الاجتماعات الهامشية. فمن نقاط قوة كلنتون العظيمة التي كانت

ستساعده كثيراً خلال حملته الانتخابية الوشيكة، أَن سائر الساسة والإِعلاميين كانوا عادة يشعرون لدى لقائهم به كما لو كانوا في حضرة لاعب من العيار الثقيل، لاعب لا يقل شأناً عن أَي لاعب أَو سياسي سبق لهم أَن اجتمعوا به علىٰ الرغم من أنّه لم يكن سوى لاعب من العيار الخفيف علىٰ المستوى الفني بوصفه حاكماً لولاية آركنسو.

في الاجتماع الأول الذي عقداه تحدَّث كلنتون وليك، بصورة رئيسيَّة، عن الشؤون الداخليَّة، وانبهر كلنتون بالقصص التي رواها ليك عن مدى سوء أحوال جيرانه الريفيين الماساتشوستسيين علىٰ الصعيد الاقتصادي. أَمّا الشيء الأول الذي أثار دهشة ليك في حاكم آركنسو قد تمثَّل بذكاء الرجل واعتناقه أَو تقمّصه العاطفي، هذا التعبير الذي سيتكرّر استعماله في وصف كلنتون. بدا الرجلان قادرين علىٰ التعايش بصورة جيدة، كما كانت سيرة حياة ليك ـ تمرّده علىٰ السياسات الأَمريكيَّة في ڤيتنام بعد خدمته موظفاً شاباً متحمساً في وزارة الخارجيَّة هناك في بدايات الحرب، ذلك التمرّد الذي بلغ أوجّه لدى استقالته من فريق عمل كيسنگر في أثناء اجتياح كمبوديا ـ سيرة مؤهلة لاجتياز اختبار الزوجين كلنتون اللذين كانا من نشطاء حركة مناهضة الحرب. ودون تأخير تمّت دعوة ليك إِلىٰ ليتل روك للتشاور مع المرشح. علىٰ الطريق في الطائرة جلس ليك بجانب سيدة من آركنسو شديدة الاستياء من حاكم الولاية لم تتأخر في إِطلاع جليسها علىٰ السبب. وحين قام بسرد القصة علىٰ مسامع كلنتون انبهر ليك برد فعل كلنتون المباشر الذي سأله: «هل حَصَلْتَ علىٰ اسمها؟». لقد كانت تلك سياسة تفاصيل صغيرة في أَكثر أشكالها بدائية، حسب رأي ليك.

لم يكن ليك منزعجاً من إِجباره علىٰ العودة إِلىٰ حلبة السياسة، فقد كان يعاني من بعض المشكلات مع كتابه، كان نوع من الفراغ في حياته، كما لم يكن مرتاحاً إِزاء التحوّل العام الجاري في البلاد كما انعكس عبر كلام بعض طلاّبه الذين دأبوا، في حقبة ما بعد الحرب الباردة هذه، علىٰ معارضته قائلين

إن السياسة الخارجيَّة كانت قد فقدت لا أولويتها فقط بل وكل أهميتها بصورة شبه كاملة، ومثل هذا الرأي الذي كان ينطوي على ما يكفي من القُبْح والسوء لدى خروجه من أفواه الطلاب، كان يتجلى بشكل أكثر سوءاً حين كان ليك يسمعه من أعضاء الكونگرس أو الجهاز التنفيذي للإدارة. أضف إلىٰ ذلك أن ليك كان شديد الإعجاب بالموهبة الصافية والشفَّافة للمرشح. فالمرء لم يكن بحاجة لأن يكرِّر كلامه لدى الحديث معه. ربما لم تكن السياسة الخارجيَّة ميدانه الطبيعي، غير أنّه كان فائق السرعة في التعلّم. توصّل ليك في وقت مبكر إلىٰ استنتاج يقول إن كلنتون كان متمتعاً بذكاء خارق ـ ذكاء لم يكن خَطِّياً باستمرار وإن بقي مستنداً، بالتأكيد، إلىٰ نوع من القاعدة الخطية الراسخة. كان كلنتون واسع الاطلاع، غير أن جزءاً كبيراً من ذكائه، أو الجزء الأكثر إثارة بالتأكيد، كان بَدَهياً قائماً علىٰ الحدس. كان ليك يعتقد أن أحكامه الغريزية علىٰ القضايا والأشخاص كانت غير عادية ببساطة، ومن الواضح أنه كان قد تعلّم كيف يثق بها ويعول عليها منذ زمن طويل.

ما لبث ليك أن اكتشف أَنَّه كان موشكاً، رغم إرادته ـ لأنَّه كان متمتعاً بنوع من التردّد الهامْلَتي ـ علىٰ الإنجرار إلىٰ قلب دوامة حلبة رئاسية ديمقراطيَّة. تمثَّلت إحدى إيجابيات الوضع بأن الأمر لم يبد في البداية شبيهاً بالفعل بأي التزام قائم علىٰ التفرّغ الكامل. فقد بدا كلنتون مغامراً قليل الحظ في الفوز، مرشحاً شاباً موهوباً، محاطاً بعدد من الشباب اللامعين، في مواجهة قَدْر هائل من المصاعب والعقبات. أضف إلىٰ ذلك أن ليك كان في تلك الأثناء نصف متفرّغ وشديد الإعجاب بكلنتون. فما المانع من الالتحاق بركب الرجل؟

لدى اضطلاعه بالمساهمة في إعداد أَحد الخطب حول السياسة الخارجيَّة، أُعجب ليك بجانب إضافي من جوانب العمل مع كلنتون. فحين كان يكتب خُطَباً لمرشحين آخرين كان النقاش يتركز دائماً علىٰ الجملة الأخيرة ـ علىٰ خلاصة الموقف الذي يعبِّر عنه الخطاب. أَمّا مع كلنتون فقد كان

الوضع مختلفاً بعض الشيء؛ كان يقرأ الخطاب من أوله إلىٰ آخره بقَدْر أكبر من التأني والتدقيق بالمقارنة مع الساسة الآخرين، وكان ليك ينبهر بما كان سيقوله بعد الانتهاء من كل فقرة: «نعم أعتقد ذلك»، أو «نعم، أوافق علىٰ ذلك»، بدلاً من قول عبارة تحمل معنى «إِن الجمهور سيوافق علىٰ هذا الكلام».

كان خطاب السياسة الخارجيَّة الأول الذي أُلقي في جورجتاون موفقاً، فطُلب من ليك أَن يبقى علىٰ رأس عمله. وبالطبع فإِن الأيام الأولى في نيوهامپشاير لم تكن سهلة، كما لم تكن السياسة الخارجيَّة ذات أَهميَّة جوهرية. فقد سَجَّل ليك لاحقاً ملاحظة تقول: «نحن الذين ننشغل بالسياسة الخارجيَّة كنا علىٰ الدوام واعين لحقيقة أننا لم نكن سوى جهاز مملوك تابع للحملة، بمعنى أننا كنا بعيدين جداً عن المركز. فالمركز كان متمثِّلاً بالاقتصاد، وكنا واعين لحقيقة أَن الحملة ستكون مدفوعة بعبارة واحدة هي: «إِنه الاقتصاد، أيها الغبي!»، غير أَن ليك كان أَيضاً يعرف أَن الشعب الأَمريكي حين انتخب رئيساً للجمهورية إِنما كان ينتخب رجلاً مؤهلاً ليصبح قائداً سنة للقوّات المسلَّحة، وإِن لم تعد السياسة الخارجيَّة القضية الحاسمة في السياسة الأَمريكيَّة، وكان مستشارو كلنتون السياسيُّون محقّين في تأكيدهم لأَهميَّة الاقتصاد والشؤون الداخليَّة مستخفين، ربما، بعنصر آخر من عناصر أية حملة رئاسية ألا وهو أَن الشعب الأَمريكي كان ينتخب قائداً لقواته المسلحة أَيضاً كما قيل من قبل.

كان ليك يعتقد بأن هذا شكَّلَ امتحاناً حاسماً سبق لدوكاكيس أَن أخفق فيه بصورة تثير الأسى قبل أربع سنوات. فالصورة التي أُخذت له وهو في الدبابة سنة 1988م معتمراً خوذة قتالية وراسماً تكشيرة عريضة علىٰ وجهه كانت قاتلة للمرشح؛ لأن الجمهوريين انقضوا عليها وراحوا يبثونها في كل مكان كما لو كانت إِحدى الدعايات التجارية الرائجة علىٰ شاشات التلفزة. والمرشح كلنتون يُحْسنُ صُنْعاً، سواء أصبحنا في ظل نظام عالمي جديد أم لا، إِذا تذكر

بأن اختبارات قديمة معينة كانت ما تزال موجودة. فما من أَحد كان يعرف طبيعة الأزمات التي يخبئها الزمن، وكان لا بد للناخبين في لحظة من لحظات العمليَّة العجيبة الجارية داخل الغرفة السرِّيَّة في أثناء الاقتراع من أَن يتساءلوا عن السلوك الذي يمكن لهذا المرشح أَو ذاك أَن يسلكه في حال حصول أزمة دولية. كان يتعين علىٰ كلنتون أَن ينجح في ذلك الاختبار. وإِذا أخفق فيه فقد كان سيخسر المعركة بصرف النظر عن مدى إِجادته في سائر القضايا الأُخرى.

لم تكن السياسة الخارجيَّة نقطة قوة، لا بالنسبة إِلىٰ المرشح نفسه ولا بالنسبة إِلىٰ حزبه، ونادراً ما شكّلت قضية مركزية في الحملة. غير أَن كلنتون كان سيسعى ـ كما تقرَّر مسبقاً وفي وقت مبكر، لأن يتناول السياسة الخارجيَّة عبر حماية نفسه منها دون جعلها قضية رئيسيَّة. فإِذا حصل علىٰ الترشيح، وقد بات الأَمر احتمالاً أقوى فأقوى بعد الانتخابات التمهيدية في نيو ـ هامپشاير، فلم يكن يريد أَن يُقرن بجيمي كارتر أَو مايكل دوكاكيس اللذين كانا يبدوان اثنين من أشباح مسلسل الكوارث الديمقراطيَّة ـ علىٰ الرغم من أَن الأول كان قد انتُخب مرّة، وأن كلنتون كان قد حلم باحتلال مكان علىٰ بطاقة الثاني. لقد كان أنصار كلنتون واقفين علىٰ مدى هشاشة مرشحهم ـ بل وحزبهم ـ علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة، غير أَنَّهم كانوا يعتقدون أَن بوش كانت لديه نقاط ضعفه الخاصة حتى في أعقاب حرب الخليج.

قرَّر كلنتون ومستشاروه من أمثال ليك ـ من البداية ـ تحييد بوش في مجال السياسة الخارجيَّة إِذا ما فازوا بالترشيح. فقد قال جورج ستيفانوپولوس، وهو أَحد النشطاء المخضرمين منذ حملة دوكاكيس: «علينا أَن نحاول تثبيته وتجميده كما يحاول الملاكم أَن يثبّت غريمه في الحلبة حين يعتقد بأن الآخر أقوى». وأضاف ليك: «وكنا أَيضاً عازمين علىٰ الاستمرار في مشاغلته باللكم والوَخْز انطلاقاً من النظرية التي تقول بأن من شأن ذلك أَن يجعل رده بالضربات أَكثر صعوبة». أَو كما أفاد جيمس كارڤيل، استراتيجي كلنتون الأول، ملقياً

ضوءاً لطيفاً علىٰ كلمة السر في حملة كلنتون، حين قال: «يصعب علىٰ المرء أن يوجه إليك ضربته إذا أبقيت قبضتك علىٰ وجهه».

قام فريق كلنتون بدراسة سجل بوش ووجدوا ـ وقد كان ذلك منطوياً علىٰ أهميَّة استثنائية بالنسبة إلىٰ ليك ـ أن نقطة ضعفه الأولى كانت متمثِّلة بالبوسنة، بذلك الجزء من يوگوسلاڤيا القديمة، حيث كان العالم شاهداً علىٰ بدايات ما كان مرشحاً لأن يصبح إحدى الكوارث الإنسانية. قرَّر الفريق أن يضرب بوش في موضوعي البوسنة والصين حيث كانت أيضاً انتهاكات لحقوق الإنسان. وكان من شأن ذلك، برأي أعضاء الفريق، أن يدفع بوش إلىٰ اتخاذ موقف الدفاع والسعي لإظهار حقيقة أن الجمهوريين كانوا أكثر صلابة من الديمقراطيين الذين كانوا قد ترشَّحوا في السنوات الأخيرة. وكذلك كان من شأن كلماتهم عن البوسنة أن تبين أن الديمقراطيين لم يكونوا ضعفاء ومسالمين بالضرورة، مما قد يساعد علىٰ استعادة ديمقراطيي ريگان المهتمين بمثل هذه الأمور. وكانوا أيضاً عازمين علىٰ تسليط الأضواء علىٰ مدى أهميَّة الاقتصاد الداخلي بالنسبة إلىٰ السياسة الخارجيَّة؛ فحتى تكون أمريكا قائدة، وصاحبة الصوت الأقوى والأفعل في العالم، لا بد من العمل في سبيل جعل اقتصادها أقوى.

الفصل الثالث

كانت مشكلة يوگوسلاڤيا قد بدأت بوصفها الأزمة الأصغر، مجرد صورة عابرة على شاشات الرادار في زمن تاريخي زاخر بطوفان من الأحداث الإِيجابية الجارية على قدم وساق. فانتهاء الحرب الباردة قد دشَّن فترة مشحونة بقَدْر، يكاد أن يكون بلا نظير، من التفاؤل، خصوصاً في أوروپا الوسطى ولا سيما بين البلدان التي كانت قد أُلحقت، عنوة، بإِمبراطورية الاتحاد السوڤيتي على امتداد فترة طويلة من الوقت مثل بولونيا وهنگاريا وتشيكوسلوڤاكيا. كان الناس العاديون ـ في بلدان كَتَمَتْ أنفاس الديمقراطيَّة طوال ما يقرب من خمس وأربعين سنة ـ شديدي الحماس، أخيراً، لجملة الإِصلاحات الديمقراطيَّة التي طال انتظارها كما لفرصة امتلاك نظام رأسمالي جنيني قد يكون قادراً على توفير حياة مادية أفضل، ليس لأولادهم في المستقبل فقط، بل ربما حتى لأنفسهم هم في الوقت الحاضر.

تمثَّل الاستثناء الوحيد من الصورة العامة الواعدة في العالم الشيوعي القديم بيوگوسلاڤيا، حيث كانت القومية أَكثر تعرضاً من الديمقراطيَّة للكَبْت والاضطهاد ـ فقد تمتعت يوگوسلاڤيا بقَدْر أكبر من الحرية الشخصية والاقتصاديَّة بالمقارنة مع سائر شعوب بلدان أوروپا الشرقيَّة الأُخرى. لقد كان ثمن الوحدة الظاهرة في يوگوسلاڤيا متمثِّلاً بالكَبْت القسري لجميع التباينات العرقية الكبيرة بين الأجزاء المختلفة المكوِّنة لهذا البلد المستحيل، لهذا البلد

الذي كان قد تم اصطناعه وتثبيته بعد انتهاء الحرب العالميَّة الأولى، حيث بات الصرب الأرثوذكس والكرواتيون والسلوڤينيون الكاثوليك والبوسنيون والألبان المسلمون يتعايشون في ظل اتفاق مفروض بالقوَّة، اتفاق كان يضمن استمراره النظام السياسي المتسلط. ومع انتهاء الحرب الباردة بدأ كثيرون من اليوگوسلاڤيين من غير الصرب يتململون ويُبْدون قَدْراً متزايداً من الاستياء والسخط الشديدين إزاء النزعة القومية المنبعثة من بلگراد. فعلىٰ خريطة لأوروپا كانت تشع أملاً، خريطة أناس حاصلين علىٰ قدر أكبر من الحرية، كانت يوگوسلاڤيا البلد الذي بدأ يُلْقي بظله القاتم.

مع حلول أوائل سنة 1990م بات يتضح أكثر فأَكثر أَن يوگوسلاڤيا قد لا تبقى متماسكة، قد لا تستمر دولة موحدة. فقوى الحرية التي انبثقت من انهيار الإِمبراطورية الشيوعية وتدمير جدار برلين كانت تنطوي علىٰ معنى إِضافي ومختلف بعض الشيء في أجزاء كثيرة من يوگوسلاڤيا. في كل من سلوڤينيا وكرواتيا، مثلاً، كانت تعني لا التحرر من موسكو ومن الشيوعية فقط، بل والتحرر أَيضاً من نير حكم بلگراد. فالسلوڤينيون والكرواتيون كانوا تواقين للخروج من الاتحاد السوڤيتي والتحول إِلىٰ دولتين مستقلتين، وفي الوقت نفسه بدت نزعة قومية صربية متعصبة صاعدة ومتحفزة للانقضاض علىٰ أية محاولة استقلالية تَأتي من جانب الأَطراف السابقة المكوِّنة ليوگوسلاڤيا بحجة الحفاظ علىٰ وحدة البلاد. كانت الأَهداف المحتملة أَكثر متمثِّلة بالبوسنة، بأجزاء من كرواتيا، فضلاً عن جزء من البلاد كان منطوياً علىٰ أَهميَّة تاريخية استثنائية فريدة بالنسبة إِلىٰ الصرب ألا وهو الجزء المعروف باسم كوسوڤا.

أواخر شباط/ فبراير 1990م فيما كانت يوگوسلاڤيا تتقدَّم بخطى ثابتة نحو ما بَدَتْ نقطة تفجر قام لاري إِيگلبيرگر، الذي كان نائباً لوزير الخارجية في إِدارة بوش وأحد موظفي السلك الخارجي الأَمريكي الأَكثر خبرة خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية، بزيارة مَرْتَعِه القديم في بلگراد. كان لاري قد

أمضى ثماني سنوات في يوگوسلاڤيا موظفاً في السلك الخارجي. لم يكن قد تجاوز الثانية والثلاثين من العمر حين بدأ فترته العملية الأولى سنة 1962م؛ وما لبث، بُعَيْد وصوله إِلىٰ مقر عمله الجديد، أَن كان شاهداً علىٰ زلزال كارثي ضرب سكوبيه، عاصمة مقدونيا، التي كانت جزءاً من الاتحاد. كان إِيگلبيرگر قد تولى وأدار جملة ناجحة من نشاطات الإِغاثة بما فيها بناء مستشفى ميدان عسكري في المدينة، مما أكسبه في يوگوسلاڤيا اسم لورنس المقدوني. أَمّا فترة عمله الثانية فقد جاءت في أواخر السبعينيات حين كان جيمي كارتر رئيساً وتمّت تسمية إِيگلبيرگر سفيراً في بلگراد. كان قد جرى الترحيب به واستقباله كما لو كان بطلاً قومياً.

والآن، في 1990م، كان يعود ثانية، بوصفه مسؤولاً إِدارياً كبيراً هذه المرة من أجل معالجة جملة الأزمات والتوترات الداخليَّة التي كانت متصاعدة وتزداد تفاقماً في يوگوسلاڤيا منذ انهيار سور برلين، والسعي إِلىٰ التوفيق بين ما يتعذّر التوفيق بينها كما قال أَحد الأصدقاء. لقد اعتقد أصدقاء لاري المقربون أَن صديقهم كان متردداً إِزاء القيام بهذه الرحلة لأَسباب تعود جزئياً إِلىٰ أَنّه كان يعرف الساحة جيداً. لم يكن سعيداً بالعودة إِلىٰ مكان عَرَفَه وسبق له أَن أحبّه، ومشمئزاً من التعامل مع قوى متفجرة لم يكن راغباً في الاضطلاع بأي دور، فيما بدت الدولة منزلقة وموشكة علىٰ الغوص في أَحد مستنقعات العنف، لأن ذلك النوع من الالتزام العسكري الذي سيكون ـ حسب تقديره ـ مطلوباً لوقف العنف من جانب العالم الغربي، وخصوصاً الولايات المتحدة الأَمريكيَّة، كان مفقوداً بالتأكيد.

غير أَن الضغوط التي مُورست عليه ليبذل محاولة أخيرة ظلَّت متنامية لأسابيع، وكانت آتية، بأَكثريتها، من العاملين في السفارة الأَمريكيَّة ببلگراد، حيث كانوا يعتقدون أَن الأجنبي المتمتع بالسلطة والمرجعية اللتين تمكِّنانه من إِقناع اليوگوسلاڤيين بوجهة النظر الغربيَّة حول التوصل إِلىٰ حلول عقلانية

لمشكلاتهم، هو صديقهم القديم لاري إيگلبيرگر. وقد كان الأخير في رحلة إلىٰ بعض الديمقراطيات الناشئة في أوروپا الشرقيَّة، وتم اتخاذ الترتيبات اللازمة لجعله يزور بلگراد أَيضاً. كان شديد التردد إِزاء الرحلة بينه وبين نفسه. وذلك لعدد من الأَسباب منها تعهد سبق له أَن قطعه علىٰ نفسه أمام مجلس الشيوخ في أثناء جلسات التثبيت قبل بضعة أشهر كان يقضي بألا يتورط في الشؤون اليوگوسلاڤية. وكان لاري، خلال فترة وجيزة بقي فيها خارج الإِدارة، قد عمل مع **جماعة كيسنگر**، التي كانت مؤسسة استشارية بالغة القوَّة وواسعة النفوذ وكثيرة الارتباطات، حيث اضطلع ببعض التمثيليات الثانوية لصالح شركات يوگوسلاڤية، منها ولية نعمة شركة يوگو ذات المصير المشؤوم. صحيح أَن القيمة الصافية لخدماته كانت ضئيلة، غير أَن الأَمر كان منطوياً علىٰ إِمكانية وجود نوع من تضارب المصالح، فبعض الهجمات التي تعرّض لها اعتُبرت من قبل أصدقائه مدفوعة وصادرة لا عن إِيمان صادق بمثل تلك الإِمكانية بمقدار ما كانت منطلقة من أَن جيسي هلمز، وهو عضو قوي في لجنة العلاقات الخارجيَّة بمجلس الشيوخ، قد كان، رغم أَنه جمهوري مثل إِيگلبيرگر، علىٰ يمين الأَخير بمسافة واسعة ويعتبره من جماعة هنري كيسنگر، أَحد ممثلي مؤسسة السياسيَّة الخارجيَّة القديمة الجامعة للحزبين كليهما، وهو صحيح، بالطبع. غير أَن سبباً أَكثر أَهميَّة لتردّد لاري كان كامناً، حسب اعتقاد بعض زملائه، في نوع من الحَدْس النبوئي بأن الأمور لم تكن مرشحة لأن تنتهي علىٰ خير في يوگوسلاڤيا. كان لدى الرجل ما يكفي من المعلومات عن القوى الفاعلة والمؤثِّرة في البلدين كليهما، في يوگوسلاڤيا والولايات المتحدة بما أَهَّلَه لأن يدرك عدم وجود أية نهاية سعيدة متصوَّرة للقصة. فيوگوسلاڤيا كانت موشكة علىٰ السقوط في هاوية سحيقة في حين كانت قُدْرة الولايات المتحدة المحتملة علىٰ وقف الانهيار ضئيلة، في الحدود الدنيا. أضف إِلىٰ ذلك أَنَّه كان مطَّلعاً سلفاً، خلافاً لحال جميع الموظفين الشباب اللامعين والأذكياء والمثاليين التابعين له والذين دأبوا علىٰ المطالبة بقَدْر أكبر من النشاط، علىٰ أَن الصفقة

كانت مُبْرَمَة. فإدارة بوش كانت قد اتخذت قراراتها. وبالتالي فإن طبيعة الخيارات التي بدت مفتوحة لم تكن ذات أهميَّة، لأنها، جميعاً، كانت مغلقة بصورة مسبقة.

بما أن جيمس بيكر، وزير الخارجيَّة، كان مشغولاً سلفاً بقضايا تحتل مراتب أعلىٰ علىٰ سلم الأولويات، مثل تطور روسيا الجديدة، إيجاد ألمانيا واحدة، موحدة، والأحداث الجارية في الشرق الأوسط، فإن القضية اليوگوسلاڤية كانت مرشحة ـ مع إقحام إيگلبيرگر فيها ـ لأن تبقى تحت وصايته الدائمة. لم يكن ذلك أمراً يسعى إليه ـ إذ لم يكن إلاً موضوعاً خاسراً مستنزفاً بلا حدود دون أن يوفِّر إلاً القليل من الخيارات. لقد شعر بعض الأصدقاء أنَّه كان يملك حاسة سادسة تستشرف المستقبل. كان لا بد ليوگوسلاڤيا من أن تتابع عملية تفككها وانحلالها.

تأكيداً لشكوكه لم تكن الزيارة ممتعة. تمكن إيگلبيرگر من الاجتماع بجُل اللاعبين في هذه الدوامة الدرامية ممن أصيبوا بمختلف أشكال اللوثة النفسية. وجميع القوى الناشطة والفعالة باتت فجأة ـ خلافاً لحال نظائرها في بولونيا وهنگاريا وتشيكوسلوڤاكيا ـ مندفعة في مسارٍ لا بد للولايات المتحدة والدول الغربيَّة الأُخرى من أن تعتبره اتجاهاً سلبياً. كان لاري قد حذَّر السلوڤينيين والكرواتيين من مغبَّة الانفصال عن الاتحاد، ولكنه أحس بأن كلماته لم تَلْقَ آذاناً صاغية. لقد كانوا مصممين علىٰ القيام بما كانوا يعتبرونه مناسباً لهم وعلىٰ السعي إلىٰ تحقيق الاستقلال الذي طال انتظاره. وبعد ذلك كان قد انخرط في حديث طويل وشاق مع سلوبودان ميلوسوڤيتش، زعيم الصرب الماكر، العدواني المتعصب قومياً. لم يكن إيگلبيرگر غافلاً عن حقيقة أن ميلوسوڤيتش كان دائباً علىٰ تأجيج التوترات العرقية المتصاعدة بصورة متعمدة وعلىٰ استغلالها منذ أكثر من ثلاث سنوات من أجل ترسيخ سلطته وتعزيزها. فيما مضى كان الرجلان علىٰ علاقة وثيقة، أو وثيقة نسبياً، بالنسبة إلىٰ سفير أمريكي من جهة ومتفرغ حزبي شاب صاعد في بلد شيوعي من الجهة المقابلة، حتى أن

بعض العاملين في السفارة كانوا قد اعتقدوا أَن ميلوسوڤيتش كان أحد الأشخاص المفضلين لدى إيگلبيرگر إن لم يكن أحد صنائعه المتمتعين بحمايته. كان ميلوسوڤيتش، علىٰ ما بدا، شاباً لامعاً صاعداً يمثل، برأي إيگلبيرگر، الجيل الجديد من القيادة اليوگوسلاڤية، شخصاً قادراً ومرشحاً لقيادة سفينة بلاده باتجاه الشواطئ الأكثر بَرَكَة للنظام الرأسمالي. لقد بدا ميلوسوڤيتش، وهو علىٰ رأس المصارف البلگرادية، وبالمقارنة مع من سبقوه في المنصب، بنظر إِيگلبيرگر، متحرِّراً بصورة ملحوظة من قيود العقيدة الجامدة. من المؤكد أَن التشخيص كان صحيحاً كما تبين لاحقاً لأن كل حركة من حركات ميلوسوڤيتش كانت تشي بالانتهازية الصارخة لا بالجمود العقائدي.

ثمة كان، علىٰ أية حال، عدد من النسخ عن سلوبودان ميلوسوڤيتش، عدد من الميلوسوڤيتشات، إِذا جاز التعبير. ثمة كان ميلوسوڤيتش رقم واحد، النسخة الأصلية، العضو المؤمن والمخلص في الحزب الشيوعي. أما الرجل الذي سبق لإِيگلبيرگر أَن أَحَبَّه وحاول أَن يضعه تحت جناحه فكان ميلوسوڤيتش رقم اثنين، المصرفي الشاب الذي كان يغازل الرأسمالية. وبالنسبة إِلىٰ الأمريكيين المقيمين في بلگراد، الذين كانوا قد ملّوا من التعامل مع القادة الشيوعيين القدامى ذوي العقول المغلقة والصلوات الأيديولوجية، كان ميلوسوڤيتش رقم اثنين قد بدا وكأنه الرجل المجسِّد لأمل المستقبل، قائداً من نوعية جديدة، تكنوقراطياً حديثاً، ذرائعياً أكثر، أوسع تعليماً، أقل تقيداً بسائر أشكال التزمت الشيوعي القديم. أو، حسب تعبير أحد الأمريكيين، «من النوع الذي يناسبنا نحن، لا من أولئك التيتويين القدامى ذوي الأدمغة الجامدة، بل من الذين تستطيع أَن ترافقهم إِلىٰ النادي الليلي، وتشرب معه كأساً فيطلب لك ولنفسه قدحاً من الويسكي السكوتش لا السليڤوڤيتس». بنظر إِيگلبيرگر كان الجيل الجديد من القادة الصاعدين مثل ميلوسوڤيتش، ببساطة، أذكى، أسرع، وأكثر انفتاحاً من الجيل الذي سبقه الذي لم يكن، باعتقاد الأمريكيين، قد تعلّم أي شيء منذ نزول قيادته من الجبال مع تيتو في 1945م. ما كان متعيناً علىٰ

التكنوقراطيين الجدد أن ينسوه كان أقل مما تعيَّن علىٰ أسلافهم أَن يتخلّوا عنه من عادات وأنماط سلوك، ومن الواضح أَن ميلوسوڤيتش السريع، المطواع بصورة مدهشة، القادر علىٰ فهم ما كان الغربيون يريدونه وعلىٰ إِدراك الفوائد الكامنة في التعامل معهم، كان نجماً صاعداً.

وفيما بعد، في السنوات اللاحقة، حين بدأ العالم الشيوعي من حوله يتفجر من الداخل، كان ميلوسوڤيتش قد تغيَّر مرّة أُخرى وبدأ استغلاله الشنيع للنزعة القومية الصربية الكامنة والجاهزة للاستغلال علىٰ الدوام، عازفاً، في المقام الأول، علىٰ أوتار مخاوف الصربيين من ألبان كوسوڤا. كان ذلك هو ميلوسوڤيتش رقم ثلاثة، القومي الصربي المتعصب جداً، تلك الشخصية الجديدة والخطرة حقاً. لا غرابة أَن إِيگلبيرگر لم يكن تواقاً للقاء المسخ الأخير للرجل. فقد كان ميلوسوڤيتش الحقيقي يمثل، علىٰ ما بدا الآن، صنفاً قديماً قدم الزمن نفسه، كلبياً خالصاً لا يؤمن بأي شيء فيما عدا صعوده إِلىٰ مواقع السلطة، يلوذ بالأخلاق الظرفية الانتهازية في جميع اللحظات الحاسمة، مما جعله المؤلف الرئيسي للفصل المأساوي الوشيك الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ يوگوسلاڤيا. وفيما كان عدد غير قليل من القادة الآخرين الأذكياء والديمقراطيين الجدد يبرزون ويتقدَّمون في الكثير من البلدان الشيوعية السابقة، من الرجال والنساء الذين كانوا قد دفعوا ثمناً باهظاً لمعتقداتهم في الماضي وكانوا الآن ينظرون إِلىٰ المستقبل، كان ميلوسوڤيتش عازماً علىٰ الاحتفاظ بالماضي عبر استغلال الأحقاد العرقية التي كانت قابعة تحت السطح الخارجي للحياة السياسيَّة في بلاده منذ قرون.

كان ميلوسوڤيتش وإِيگلبيرگر الموشكان علىٰ الاجتماع في 1990م شديدي الاختلاف عن الرجلين اللذين كانا قد التقيا منذ عامين اثنين فقط في صيف 1988م، حين كان ميلوسوڤيتش رقم اثنان في بداية طريق التحول إِلىٰ ميلوسوڤيتش رقم ثلاثة. لم يكن إِلاَّ القليل من الغربيين قد تحرُّوا طبيعة التغيير

الحاصل. كان إيگلبيرگر قد عاد إلىٰ بلگراد في زيارة قصيرة، وقام جاك سكانلان، سفير أمريكا في بلگراد وأحد تلاميذ إيگلبيرگر - إذ سبق له أن كان نائباً لرئيس البعثة تحت إمرة الأخير الذي كان سفيراً - بمرافقة رئيسه السابق لرؤية الزعيم الصربي. كان اللقاء مفعماً بالدفء والمودّة، لقاء صديقين قديمين مسرورين سروراً استثنائياً لرؤية كل منهما الآخر ولاكتشافهما لحقيقة أنّهما كانا يريدان الأشياء ذاتها كما كانا ما يزالان متناغمين. أما بعد عام واحد فقط فقد اتضح أَن ميلوسوڤيتش رقم ثلاثة كان قد حَلَّ محل ميلوسوڤيتش رقم اثنان وراح يقوم بأكثر الأدوار خطورة علىٰ صعيد تمزيق نسيج يوگوسلاڤيا أشلاء. وذات يوم دلف سكانلان الذي انتهت مهمته في بلگراد إلىٰ مكتب إيگلبيرگر لرؤية أستاذه الذي كان نائباً لوزير الخارجيَّة فبادره الأخير قائلاً: لقد بدأ صديقك ميلوسوڤيتش يثير قَدْراً كبيراً من المتاعب هناك». لم يتأخر السفير السابق سكانلان في الرد إذ قال مباشرة: «ولكنني التقيت به علىٰ مائدة عشائك أنت يا لاري!»[1].

أما الآن، في شباط/ فبراير 1990م، وقد تمت إعادته إلىٰ بلگراد، فلم يكن إيگلبيرگر متحمساً للقاء صنيعته السابق، إذ صارح صنيعة آخر هو السفير الأمريكي وارن زيمّرمان الذي كان قد حل محل سكانلان قائلاً: «كنت أظن أَنَّه ليبرالي؛ فقد كان يتحدَّث بقَدْر كبير من الإقناع عن «غَرْبَنَة» الاقتصاد. من المؤكد أنني كنت علىٰ خطأ ليس إلاً ». غير أَن السفير لم ير أَن إيگلبيرگر كان علىٰ خطأ بل اعتبر أَن ميلوسوڤيتش كان الأكثر مرونة وتلوّناً بين جميع المتفرغين الحزبيين، شخصاً ذا قدرات حربائية علىٰ التلاؤم مع الظروف المتباينة، مع افتقار ملحوظ إلىٰ أي التزام إيديولوجي، سبق له أَن ساعده كثيراً في الساحة السياسيَّة المتغيرة بسرعة، التي أوصلته إلىٰ السلطة[2]. كان اجتماع

(1) دودر وبرانسون، 70؛ مقابلة مع سكانلان وإيگلبيرگر.

(2) زيمرمان، 592.

إيگلبيرگر مع ميلوسوڤيتش مشحوناً بقَدْر استثنائي من التوتر. فقد أصر ميلوسوڤيتش علىٰ أَنَّه كان يُتهم ظلماً بالوقوف وراء جميع الأخطاء الحاصلة في يوگوسلاڤيا قائلاً: «لماذا ظل الغرب دائباً علىٰ لوم الصرب؟ انظر إلىٰ ما صنعه بنا أعداؤنا عبر السنين». كان ذلك أداء ميلوسوڤيتشياً نموذجياً، أداء كان عدد كبير من الغربيين سيتعرّفون عليه خلال الأشهر والسنوات القادمة. وعن جملة المظالم التي ألحقها الآخرون بالصرب في البلاد كان ميلوسوڤيتش متبحراً تبحراً لا حدود له؛ أما عن المظالم الكثيرة التي ألحقها الصرب بالآخرين فلم يكن، علىٰ الدوام، يعرف شيئاً علىٰ الإِطلاق، غير أنّه كان مستعداً، بسرور، للتحقيق بشأنها، إِذا ما قُدِّمت إِليه المعلومات الصحيحة.

لم تكن ثمة أية أرضية مشتركة. لم يتمكن إِيگلبيرگر وميلوسوڤيتش، الصديقان الحميمان نسبياً ذات يوم، مثلهما مثل بلديهما، من التوصّل إِلىٰ توافق مقبول. كانت الولايات المتحدة قد أوفدت أفضل لاعبيها ليلعب أفضل أوراقها، ولكن ذلك لم يكن قد أفاد في شيء. لم تكن ثمة أية مكافأة لما هو مَخْزَن من النوايا الحسنة والخدمات المقدَّمة في الماضي، كما لم تكن ثمة أية مكافأة للوعود المقدمة إِلىٰ ميلوسوڤيتش بشأن المنافع الاقتصاديَّة والسياسيَّة التي سوف تتحقَّق ليوگوسلاڤيا أكثر إِنسانية، ليوگوسلاڤيا تحرص علىٰ تجنّب انتهاكات حقوق الإِنسان. فالشيء الوحيد الذي كان من شأنه أَن يثير اهتمام ميلوسوڤيتش، كما توجّس إِيگلبيرگر، تمثَّل بنوع بارد الدم من التهديد الصريح المدعوم بقوة عسكريَّة حقيقيَّة.

في الليلة الثانية من زيارة إِيگلبيرگر، أقدم وارن زيمرمان علىٰ تصرّف كان مبتكراً بالنسبة إِلىٰ أي أمريكي في بلگراد. فقد أقدم السفير علىٰ دعوة حوالي خمسة عشر عضواً من أعضاء جماعات معارضة تمثِّل مختلف الفئات العرقية في سائر أرجاء البلاد إِلىٰ اجتماع في مقر إِقامته. أناس غير مرئيين أَصبحوا، للمرة الأولى، أعلاماً؛ أناس لم يسبق لهم أَن زاروا مقر إِقامة السفير الأمريكي

جاؤوا، وكثيرون ممن لم يسبق لهم أن تحدَّثوا من قبل تكلموا بحرِّيَّة في تلك الليلة. ثمة أصوات طالبت بتمزيق البلاد، وأصوات أُخرى أيَّدت فكرة جعلها كياناً اتحادياً حقيقياً أكثر، وارتفعت أصوات فريق ثالث كان يطالب بالتمسك، إن أمكن، بأفضل ما هو موجود. ظل إيگلبيرگر يتنقل في القاعة سائلاً الناس عما كانوا يظنون أنَّه سيحدث في المستقبل القريب. وإذا كانت السهرة مؤهلة للبقاء في الذاكرة بسبب الإشارات المحذِّرة عما كان يهدِّد بأن يحصل قريباً، فقد كانت مميزة أيضاً بصفتها التعددية، تلك الصفة المذكِّرة بما كان من المحتمل أن يحدث. صحيح أن لويس سيل، مستشار السفارة السياسي، قد أصيب بالدهشة إزاء تنوّع السهرة، غير أن الشيء الذي تذكره بأكبر قدر من الوضوح هو صوت ميلوسوڤيتش.

فحين سأل إيگلبيرگر عما إذا كان أي شخص في القاعة مؤيداً لفكرة إنهاء يوگوسلاڤيا كبلد موحَّد، كان پيتر جامبرك من سلوڤينيا الوحيد الذي ردّ بالإيجاب. وقد قال أيضاً إن حزبه، حزب ديموس DEMOS غير الشيوعي، كان مرشحاً للفوز في الانتخابات المقبلة في سلوڤينيا، وإنه سوف يتحرّك بسرعة نحو الاستقلال، وقد جاءت الأيام لتثبت صحة تنبؤَيْه كلَيهما. وفيما بعد، عند لحظة انتهاء السهرة بالذات، دار جامبرك حول الطاولة وطرح السؤال التالي على إيگلبيرگر بهدوء: ما الذي ستفعله الولايات المتحدة إذا خرجنا من يوگوسلاڤيا؟ في البدء فوجيء إيگلبيرگر واضطرب قليلاً؛ لم يكن ذلك سؤالاً يتوق لسماعه والرد عليه. غير أنه ما لبث، أخيراً، أن أجاب قائلاً: إن الولايات المتحدة كانت ترجو ألا تقوم سلوڤينيا بالانفصال عن الاتحاد، غير أننا لم نكن، في النهاية، سنفعل شيئاً لفرض أي شيء عنوة على الحكومة السلوڤينية. عَبَّر جامبرك عن شكره لإيگلبيرگر على الجواب.

في البدء لم يبد الأمر كما لو كان نقطة الأوج في ذلك اللقاء، غير أن ما تذكره لويس سيل، بعد حوالي عشر سنوات، وهو المتقاعد من الخدمة في

وزارة الخارجيَّة، بقَدْر كبير من الحيوية هو سؤال جامبرك ورد إيگلبيرگر عليه. وقد قال سيل متذكراً إِن السلوڤينيين، خلافاً لبعض الآخرين، كانوا مهذَّبين ولم يثيروا كثيراً من الضجيج، غير أَنَّهم حصلوا علىٰ ما كانوا يريدونه، أي حصلوا علىٰ الضوء الأخضر. أُنجزت المهمة. انتشرت أنباء ما كان إِيگلبيرگر قد قاله كالنار في الهشيم في سائر أرجاء سلوڤينيا، أنجز حيث اعتُبر الخطوة الأخيرة في التحرّك نحو الاستقلال، لأن السلوڤينيين كانوا يعرفون سلفاً أَن الألمان، حلفاءَهم علىٰ مختلف الأصعدة الثقافية، الاجتماعيَّة، الدينية، والسياسيَّة، كانوا مؤيدين لاستقلالهم الذي لم يكن من المحتمل أَن يبقى تحرّكاً معزولاً. فالاستقلال السلوڤيني كان من شأنه أَن يحفز علىٰ الاستقلال الكرواتي الذي كان من شأنه بدوره، حسب اعتقاد الكثيرين، أَن يؤدي بصورة حتمية، إِلىٰ تحريك الجيوش الصربية ضد كرواتيا جنباً إِلىٰ جنب مع جزء بالغ العُزْي والهشاشة من الاتحاد يُعرف باسم البوسنة. وهكذا فإِن خَشَبَةَ المسرح كانت تتم تهيئتها لعرض المأساة.

بالنسبة إِلىٰ إِيگلبيرگر كانت رحلة يوگوسلاڤيا شديدة التثبيط للهمّة. تعرّض للكثير من التوبيخ لدى عودته إِلىٰ واشنطن. صارَحَ مساعديه قائلاً: «صحيح، أيها الشباب، أنكم قلتم لي إِن الوضع كان سيئاً وآيلاً إِلىٰ ما هو أسوأ. غير أنني أريدكم أَن تعلموا بأنّه أسوأ مما سبق لأي كان أَن تصوره. سيكون أكثر دموية مما كنا نظن». غير أَن تلك كانت لحظة ظلام عابرة، استثناءً نادراً من المزاج العام السائد في تلك المنطقة حيث كُانت الأنباء كلها، بفضل انتهاء الشيوعية، ملأى بالسعادة. فالأحداث في الاتحاد السوڤيتي وألمانيا، ناهيك عن وارصو، براگ، وبودابست، كانت أكثر إِيجابية بما لا يقاس، وقد بدت جميعاً أكثر أهمية بما لا يقاس، مرة أُخرى. ومما يبعث علىٰ الدهشة أَن ليس هناك في كتاب أَلَّفه المؤرخ الدبلوماسي مايكل بسشلوس، ورئيس مكتب واشنطن لمجلة **تايم** في تلك الأثناء، ستروب تالبوت، تضمن سرداً ممتازاً،

يكاد أَن يكون دقيقة بدقيقة، لمسلسل الأحداث الحاسمة الجارية من سنة 1989م إِلىٰ سنة 1991م في كل من واشنطن، موسكو، وألمانيا، إلاَّ إِشارة عابرة جداً ليوگوسلاڤيا، مع إِغفال سلوبودان ميلوسوڤيتش كلياً.

شكَّلت زيارة إِيگلبيرگر ليوگوسلاڤيا، دون أَن يدرك أحد، نهاية حقبة وبداية أُخرى. كنا قد أرسلنا أحد أفضل الرجال الذين كانت وزارة الخارجيَّة قد أفرزتهم في حقبة ما بعد الحرب، وكان سؤال قابل للتوقع نسبياً قد كشف عن نوع من الافتقار الكامل للسياسة والتخطيط لما ينتظر تلك المنطقة من مستقبل. ربما كان ثمة اختلاف وانقسام بين جيلين. إِن رجالاً من أمثال إِيگلبيرگر، وكثيرين غيره في الإِدارة التي كان يخدمها، كانوا قد أَبْلوا بلاء حسناً جداً في التصدي لسلسلة طويلة من الأزمات والتوترات السابقة، حيث ظل معتمرو القبعات السوداء علىٰ امتداد أكثر من أربعين سنة موصومين ومصنفين بوضوح علىٰ الدوام ـ لقد كانوا شيوعيين. أما الآن فقد بات هؤلاء الخبراء يواجهون، علىٰ ما بدا، قدراً من الصعوبة في التكيف مع نوعية جديدة من الأزمات، حيث لم يعد معتمرو القبعات السوداء في أوروپا خاضعين لسيطرة موسكو وتحكّمها. لم يكن هؤلاء سوى أناس يضعون القبعات السوداء علىٰ رؤوسهم، أناس قادرين علىٰ إِحداث الكثير من الدمار والخراب. ففي هذه الحقبة الجديرة كان الشر هو الشر ببساطة، وإِن في مكان محدّد. لم يعد الشر يحمل عنواناً يمكن التعرّف عليه ويدعو واشنطن إِلىٰ الاستنفار، اسماً من شأنه أَن يدعو دوائر سياسيَّة أمريكية داخليَّة واسعة إِلىٰ التحرّك الملتزم ضده. كانت مواهب وخبرات السنوات الأربعين الماضية قد أبقت الكثير من كبار العاملين في أجهزة الأمن القومي بطيئين في تحري نوعية مختلفة جداً من الأزمات، وغير مؤهلين تأهيلاً جيداً للتعامل معها.

الفصل الرابع

بدأت عملية التفكيك الرسميَّة لما كانت تُعْرَف باسم يوگوسلاڤيا في أواخر سنة 1990م، وبدا كل واحد من الأَطراف المشاركة في الملحمة الدرامية، من سائر الجوانب المختلفة، مضطلعاً بدور مرسوم. ففي سلوڤينيا ما لبث حزب ديموس DEMOS أَن تمكّن، كما سبق لزعيمه پيتر جامبرك أَن تنبأ للاري إِيگلبيرگر، من الفوز في الانتخابات كما في استفتاء أُجْري لصالح الاستقلال في كانون أول/ ديسمبر 1990م، وأَعْلَن خططاً للانفصال عن يوگوسلاڤيا في أواخر حزيران/ يونيو 1991م. وعلىٰ الفور سارع الكرواتيّون إِلىٰ التصريح عن اعتزامهم تقليد السلوڤينيين علىٰ الحدود. تلقَّى الصرب ضربة مؤلمة، غير أَن الأَمر لم يؤثِّر كثيراً علىٰ ميلوسوڤيتش. فسلوڤينيا لم تكن ذات أَهميَّة كبيرة بالنسبة إِليه؛ لم يكن هناك عدد كبير من الصرب في سلوڤينيا، التي لم تكن بقعة مقدَّسة بكل تأكيد. غير أَن الصرب كانوا شديدي الشَّرَه إِزاء جزء واسع من كرواتيا الشرقيَّة والوسطى يُعرف باسم كراييناً، منطقة أشبه بأفعى متحفزة للانقضاض. كانت المنطقة، مثل الجزء الأكبر من أراضي يوگوسلاڤيا موضوع نزاع وآهلة بعدد لا يُستهان به من السكَّان الصرب القدماء، وأراد ميلوسوڤيتش أَن يجعلها جزءاً من صربيا الكبرى، مما سيتيح له أَيضاً فرصة ثمينة تمكِّنه من أَن يلف ذراعيه وأرضه حول إِقليم من أقاليم يوگوسلاڤيا القديمة يحمل اسم البوسنة.

في صيف 1991م، بدأت المناوشات بين القوَّات الصربية والوحدات

العسكريَّة الكرواتية المحلية تندلع، وبدأ الصرب المقيمون منذ زمن طويل في كرواتيا يهربون مع تصاعد التوتر وانتشار الأنباء عن القتال في بلدان أُخرى. وقد شكَّل ذلك حجّة أقوى تذرّع بها الصرب لاستخدام الجيش القومي اليوگوسلاڤي JNA في الهجوم علىٰ ذلك الجزء من كرواتيا. منذ البداية كان الصرب القوَّة العسكريَّة المسيطرة في البلاد. فخلال السنوات القليلة الماضية كان ميلوسوڤيتش قد نجح بصورة شبه كاملة في قَلْب الجيش اليوگوسلاڤي، ثالث أَو رابع أكبر جيش في أوروپا، تبعاً لأسلوب احتساب الاحتياط، إلىٰ جيش صربي عملياً، عبر إِزاحة الضبَّاط المنتمين إِلىٰ القوميات الأُخرى وترفيع ليس الصرب فقط، بل الضبَّاط الصرب الذين كانوا علىٰ توافق معه في طموحاته السياسيَّة.

كان الكروات ضعيفي الإِعداد لهذه المرحلة التمهيدية لما كانت ستتحوَّل إِلىٰ حرب أهلية مطولة (كانت ستدوم بصورة متقطعة مدة أربع سنوات)، فجاءت الانتصارات الصربية المبكرة بكثير من اليسر. مع حلول خريف 1991م كان الصرب يحاصرون اثنتين من المدن الكرواتية، ڤوكوڤار في الشرق، ودبروڤنيك الجميلة علىٰ البحر الأدرياتيكي، تلك المدينة التي يعشقها لا الشعب اليوگوسلاڤي فقط، بل والكثير من الأوروپيين الذين كانوا قد أمضوا فيها إِجازاتهم لأن يوگوسلاڤيا الجذَّابة، بشعبها الجذّاب وعِمْلَتها السهلة والرخيصة الجذَّابة أَيضاً، كانت أقل كلفة، بما لا يقاس، من إِيطاليا، مثلاً. لعل أول ما لفت نظر الغرب إِلىٰ العنف المتنامي في يوگوسلاڤيا هو حصار دبروڤنيك الجائر، وتدمير مدينة ذات شهرة تاريخية.

فيما كانت هذه الأحداث المبكرة تتكشف، وجزءان من دولة كانت مفضلة ذات يوم يتقاتلان، بقيت واشنطن علىٰ الحياد من حيث الجوهر. فإِدارة بوش كانت بطيئة في التحرّك في يوگوسلاڤيا لسببين رئيسيين. تمثَّل أولهما، وهو الأوضح، بأشباح ڤيتنام، بالمقاومة الهائلة التي أبدتها وزارة الدفاع لأي تورط عسكري مباشر، بذلك الخوف الكبير من الغوص في مستنقع بلقاني. فقد

قال لاري إيگلبيرگر، الذي كان أحد كبار صانعي القرار ـ أو العازفين عن صنع القرار ـ في ذلك الوقت، لاحقاً، «حين كنت أفكّر بما يمكن أن يحصل إذا تدخّلنا، كانت ڤيتنام هي ما كنتُ أخافها على الدوام ـ بوصفها مشكلة يتعذّر الخلاص منها. مشكلة تبدأ صغيرة ولكنها تظل تكبر وتكبر دون توقّف»[1]. إلاّ أن ذلك لم يكن هو السبب الوحيد، خصوصاً بين صفوف كبار المسؤولين المدنيين. فجورج بوش وجيمس بيكر، وزير الخارجيَّة، وبرنت سكوكروفت، مستشار الأمن القومي، إلىٰ حدود معينة، مع آخرين، كانت لهم أسبابُهم الخاصة لعدم الرغبة في التورّط عسكرياً لصالح جزء منفصل من دولة كانت ذات سيادة. لم يكونوا مرهقين تحت وطأة مهمة ترقيع تحالف حرب الخليج والإشراف علىٰ انتهاء الإمبراطورية الشيوعية في أوروپا الشرقيَّة فقط، بل وظلّوا مشغولي البال باستمرار بمدى أهميَّة وخطورة التعامل مع روسيا.

وهكذا فإن مسألة حاسمة مبهرة، قضية ألقت بظلّها علىٰ العنف في يوگوسلاڤيا، جاءت من بلد ثالث ـ لا ما كان مناسباً لشعب يوگوسلاڤيا، بل ما كان منسجماً مع مصلحة ميخائيل گورباتشيڤ والعلاقات الأمريكيَّة ـ السوڤيتية. فقد كان گورباتشيڤ يحاول أن يشق طريقه عبر الفترة الصعبة ـ الغادرة في الحقيقة ـ التي حلّت مع انهيار ما كان ذات يوم إمبراطورية كبرى. كانت الرهانات علىٰ نجاحات بالنسبة إلىٰ صانعي السياسة الأمريكيَّة كبيرة. ومسألة رغبته في إبقاء روسيا شيوعية لم تثر قلق واشنطن في البداية، لأن روسيا الموشكة علىٰ الظهور فوق المسرح العالمي كانت بلا أنياب. وقد كان من شأن نجاح گورباتشيڤ أن يعني ما ليس أقل من انتهاء قوة عظمى منافسة وأربعين سنة كاملة من التوترات النووية المرعبة.

وبالتالي فإن ذلك الاعتبار أدّى إلىٰ تقزيم جميع القضايا الأُخرى علىٰ

(1) مقابلة مع إيگلبيرگر.

صعيد السياسة الخارجيَّة. لم يكن أمام واشنطن إلاَّ أَن تنتظر، بأمل، قيام گورباتشيڤ بمسخ الاتحاد السوڤيتي وتحويله إِلىٰ نوع من الكيان الأَكثر ديمقراطيَّة، يكون أصغر وأقلّ خصومة في المقام الأول. لقد كانت تلك أَكثر المهمات التي يمكن للمرء أَن يتصوّرها مراوغة و«حربائية»، إِذ انطوت علىٰ السعي إِلىٰ تحديث بل وحتى «دمقرطة» دولة شيوعية مخيفة، عملاقة، عاجزة لم يسبق لها قط أَن كانت ناجحة في الحقيقة ـ إِذا استثنينا عملياتها العسكريَّة والبوليسيَّة الخفية. غير أَن السؤال بالنسبة إِلىٰ إِدارة بوش كان منذ البداية متمثِّلاً بـ: إِلىٰ أي مدى كان گورباتشيڤ يستطيع أَن يذهب؟ ما الذي كان يشكل الوطن الروسي، برأي خصومه الداخليين المحتملين في موسكو، وما هي الأجزاء التي يمكن السماح لها بالانفصال عن الإِمبراطورية السوڤيتية القديمة دون الاضطرار لدفع ثمن باهظ لا يطاق؟ ما الذي يمكن لموسكو أَن تفعله، مثلاً، فيما يخص أوكرانيا، وهي جزء من الاتحاد السوڤيتي بل وحتى من روسيا، المؤمنة، رغم ذلك، بأنّها مستقلة تاريخياً؟ لقد بات گورباتشيڤ يرى أَن بناء أية إِمبراطورية أسهل بكثير من الحفاظ علىٰ بقائها متماسكة. أضف إِلىٰ ذلك أَن وتيرة التغيير كانت تميل، بصورة حتمية، إِلىٰ التسارع واكتساب سرعة مدوِّخة حين بادرت الأجزاء المختلفة من الإِمبراطورية، التي طالما ظل استقلالها الخاص معرضاً للكبت، إِلىٰ النظر حولها لترى التغيير الحاصل في كل مكان، فالشروع بتحري ضعف موسكو والمطالبة بالحرِّيَّة.

في الوقت الذي باتت فيه الدلائل المؤكدة الأولى المشيرة إِلىٰ تفكّك يوگوسلاڤيا واضحة للعيان، وفي الوقت الذي كان فيه النفوذ الأَمريكي هناك لا يزال، ربما، في الأوج، كنا مشدودين بقوة إِلىٰ گورباتشيڤ. فالاتحاد السوڤيتي، ومن ثم روسيا، كان بنظر بوش والمحيطين به، أشبه بمولود خديج وُضع في حاضنة أوكسيجينية، راح يتلمس طريقه في حياته الجديدة بكثير من التردّد والتعثّر. وفيما بقيت تلك العمليَّة جارية علىٰ قدم وساق ظلت يوگوسلاڤيا

قضية هامشية إلىٰ حد بعيد بالنسبة إلىٰ واشنطن. كانت ثمة جملة من المؤشرات الدالّة سلفاً علىٰ إمكانية جني الكثير من الفوائد من التغيير الحاصل في العلاقات الروسية ـ الأمريكيَّة. فقد كانت روسيا حليفاً لا يُقَدَّر بثمن في حرب الخليج حين أقدم گورباتشيف علىٰ إثارة قَدْر كبير من الغضب لدى عسكرييه بالذات، هؤلاء العسكريين الذين كانوا علىٰ علاقة وثيقة بصدَّام حسين. (وكذلك فإن ميلوسوڤيتش، وجزءاً كبيراً من الجيش اليوگوسلاڤي، كانوا مؤيدين لصدَّام، بل وأقدم الجيش اليوگوسلاڤي، بشكل صارخ، علىٰ انتهاك الحظر الدولي المفروض علىٰ توريد الأَسلحة إلىٰ العراق). أضف إلىٰ ذلك أَن ألمانيا كانت، بموافقة گورباتشيف وشفرنادزه المرتبكة، سائرة في طريقها ليس فقط إلىٰ التوحيد المجرد، بل إلىٰ التوحيد في إطار حلف شمال الأطلسي، في عمليَّة انقلابية جيو ـ سياسيَّة لم تكن قابلة لمجرد التصور قبل بضع سنين.

وهكذا فإن مشكلات گورباتشيف السياسيَّة كانت شديدة الطغيان بنظر كبار مسؤولي إدارة بوش وقادرة علىٰ حَجْب جميع الرسائل والمؤشرات الصادرة عن يوگوسلاڤيا. فقد كان گورباتشيف مسكوناً بهاجس الخوف من الاحتمالات المتصاعدة لنشوء أقاليم منفصلة في إمبراطوريته وما يمكن أَن يترتب عليها من غضب واستياء في صفوف خصومه المتعصبين أَكثر في معسكر اليمين السياسي والجيش. ذلك أَيضاً ترك بصماته علىٰ أساليب تعاملنا مع يوگوسلاڤيا. فأمريكا لم تكن قادرة علىٰ الظهور بمظهر المؤيد لأي إقليم منفصل في يوگوسلاڤيا دون تقديم سابقة خطرة بالنسبة إلىٰ اتحاد سوڤيتي أَو روسيا مرشحة للتعرض إلىٰ التمزّق. إذا تحمّلت الولايات المتحدة رؤية ميلاد كرواتيا وسلوڤينيا وبادرت إلىٰ الاعتراف بهما، فإن من المحتمل أَن يتعين علينا أَن نعترف بأوكرانيا كدولة تجسَّدت حديثاً مع عدد لا يعلمه إلاَّ الله من الأجزاء المتطلعة بشوق إلىٰ الاستقلال فيما كان يُعرف باسم الاتحاد السوڤيتي. من المؤكد أَن هذه الأَطراف جميعاً كانت سترصد إذعاننا ـ أَو رعايتنا ـ لقيام دول

جديدة في شبه جزيرة البلقان. وكان من شأن ذلك أن يطلق سلسلة من الانتفاضات ضد صديقنا الجديد والأكثر أهميَّة بصورة مفاجئة، مما دفعنا، حين كان نفوذنا في نقطة الأوج في البلقان، إلىٰ تفضيل التغافل عن التقارير التي كانت تشي لا بحتمية حدوث تفكّك في البلقان، بل وربما بأفضلية حصول ذلك في ظل إشراف دولي منتدب ومؤهل. لم تكن سياستنا، كما أكّد بعض المنتقدين فيما بعد، شديدة التركيز علىٰ الصرب دون غيرهم فقط، مدفوعة بنوع من الدبلوماسية التقليدية القائمة علىٰ تفضيل الصرب علىٰ كل من الكروات أو السلوڤينيين أو المسلمين، مع نوع من الإيمان بأن يوگوسلاڤيا الحقيقية كانت صربية. بل وكانت [سياستنا] شديدة التركيز أيضاً، في تلك اللحظة، علىٰ گورباتشيف.

ثم كانت أيضاً جملة التعقيدات العسكريَّة التي فعلت فعلها ضد أي شكل من أشكال التورّط. فمع حلول خريف 1991م، كانت كرواتيا وصربيا مشتبكتين في حرب مع بقاء الأخيرة هي المعتدية. كان ذلك واضحاً علىٰ امتداد الفترة الطويلة من القصف لكل من دبروڤنيك وڤوكوڤار. كان الصرب قد هاجموا دبروڤنيك بمدافع برية كما بأُخرى منصوبة علىٰ بعض قطعهم البحرية. لقد كانوا، نظراً لطبيعة الصراع، أفضل تسليحاً من الكروات بما لا يقاس، ولكنهم عُزّل ومجرّدون من السلاح في مواجهة أي خصم متمتع بأعلىٰ المستويات التكنولوجية مثل القوّات الأمريكيَّة أو الناتو. فقد كان من شأن أي ردّ انتقامي أمريكي، إمّا بالمقاتلات والقاذفات النفّاثة أو البوارج التابعة للأسطول السادس، أن يكون أمراً بالغ اليسر. فتلك الأسلحة كانت قادرة علىٰ اجتثاث البطاريات الصربية في غضون بضع دقائق وعلىٰ إغراق أي عدد من السفن اليوگوسلاڤية. فالأجواء والبحار كانت، إذا شئنا، ملكاً للناتو والأمريكيين.

بنظر بعض المدنيين في الخارجيَّة ممن كانوا سابقي المستوى السائد علىٰ صعيد الإحساس بمدى اتصاف نوايا بلگراد بالنزعة الإجرامية وبمدى احتمال

استفحال تلك النزعة الإجرامية ما لم نسارع إلىٰ لجمها، كانت المعادلة شديدة الإغراء. فقد كان هؤلاء يعتقدون بأن هناك نوعاً من المبالغة، تاريخياً، في تقدير القوّات الصربية. في نهاية الأمر، كانت القوّات السلوڤينية الضعيفة نسبياً ـ المشكلة أساساً من بعض رجال الشرطة المسلحين جيداً ـ قد نجحت في تلقين الصرب درساً حين أقدم ميلوسوڤيتش علىٰ اقتحامه المبكر لسلوڤينيا. أمّا في كرواتيا فلم تتحقّق الانتصارات الصربية إلاّ عبر استخدام طاقة نارية متفوقة كثيراً ضد ميليشيات محلية خفيفة التسليح؛ لم يكن أداء الصرب قادراً علىٰ تحقيق أي نجاح ذي شأن حين كانوا يواجَهون بمقاومة حقيقيَّة.

ومع ذلك لم يكن هناك ـ سواء داخل الإدارة أم خارجها ـ أي تأييد ملموس لفكرة الإقدام علىٰ مبادرة عسكريَّة ضد الصرب. فوزارة الخارجيَّة بدت منقسمة أفقياً، حيث كانت المستويات الدنيا والمتوسطة، من العناصر الأكثر شباباً، الأقل تشبُّعاً بثوابت الحرب الباردة، المتفاعلة مع الأحداث الجارية علىٰ الأرض، تدفع باتجاه القيام بنوع من العمل. أمّا علىٰ المستويات العليا فكان المسؤولون يتجاوبون مع الخط السياسي ويستجيبون للرسائل السياسيَّة **النازلة** من الإدارة ومن أشخاص مثل إيگلبيرگر. كانت تلك الرسائل سهلة القراءة: الإقلال من شأن ما كان يحدث في يوگوسلاڤيا إلىٰ الحدود الدنيا. ثمة أشياء أكثر أهميَّة علىٰ جدول الأعمال؛ انتخابات رئاسية علىٰ الأبواب، والإدارة شديدة الحرص علىٰ عدم الانجرار إلىٰ أي عمل عسكري في البلقان. فقد كانت الإدارة ترى أن شبه جزيرة البلقان كانت مشكلة سوف تتكفَّل الدول الأوروپية بمعالجتها.

كذلك كان الجيش الأمريكي حَذِراً من أي تورط في يوگوسلاڤيا التي كان الجنرال كولن پاول، رئيس الأركان المشتركة، وقادة كبار آخرون في الجيش، يعتبرونها كابوساً محتملاً. كانوا واثقين من النجاح الأولي لأية تحركات عسكريَّة أمريكيَّة مبكرة. غير أنهم بقوا قلقين، نظراً لأن الحرب تميل لأن تكون

مسألة فوضى وغير خاضعة لأي برنامج قابل للتنبؤ به، إزاء ما قد يحصل بعد النجاحات الأولى. صحيح أن من شأن ضربة أميركيَّة بَحْرية وجويَّة خاطفة أن تبرهن علىٰ أنّها فعَّالة ضد المدافع الدائبة علىٰ قصف دبروڤنيك، برأي پاول وآخرين في الپنتاگون، غير أنّها لن تكون قادرة علىٰ شلّ قدرة الصرب علىٰ الرد في أماكن أُخرى، خصوصاً ضد أهداف بعيدة في العمق بما يشكل كابوساً لوجستياً [إمدادياً] مرعباً بالنسبة إلىٰ الغرب. صحيح أن أية مجابهة مباشرة مع الجيش القومي اليوگوسلاڤي الخاضع للهيمنة الصربية لن تكون مشكلة. فالجيش الأَمريكي الخارج لتوه من انتصاره المذهل في حرب الخليج علىٰ الجيش العراقي، كان متمتعاً بمعنويات عالية ومفعماً بالثقة. وقد حقَّقت الأَسلحة المتطورة ذات التكنولوجيا العالية نجاحاً استثنائياً في تلك الحرب، كما برهنت القيادة العسكريَّة ـ من قمة الهرم إلىٰ مستوى الضباط الاحتياط ـ علىٰ أن الجيش كان قد تعافى من الأيام المضطربة لحقبة ڤيتنام. وأَكثر الناس حماساً للتدخّل في يوگوسلاڤيا كانوا يريدون استخدام القوَّة الجويَّة ضد الصرب لإجبارهم علىٰ التخلي عن خططهم العدواني. غير أَن ما كان يثير قلق مخططي المؤسسة العسكريَّة الأَمريكيَّة كان متمثلاً بسؤال «ماذا لو»، ذلك السؤال الذي بالغ مخططو ڤيتنام في إهماله وتجاهله.

وسؤال «ماذا لو» في هذه الحالة كان يعني ما الذي كان يمكن أَن يحدث لو تكبّد الصرب إصابات أولية بليغة من أسلحتنا الحديثة ذات التكنولوجيا العالية، ولكنهم بادروا، بدلاً من رفع الأيدي والانحناء أمام الضغط، إلىٰ التصرّف تصرّفاً يليق بأمة مجيدة ذائعة الصيت عبر العصور علىٰ أنّها مقاتلة ذات كبرياء، وقاموا بتقسيم قواتهم إلىٰ وحدات أصغر شبيهة بوحدات الفدائيين، بتوظيف التضاريس الصعبة لصالحهم، وبمواصلة الهجوم علىٰ جيرانهم؟ ماذا لو كانت هناك خسائر بشرية في صفوف الأَمريكيين، لا بأعداد كبيرة ربما، ولكن بأعداد تكفي لنقل الحرب إلىٰ شاشات التلڤزة: صور عن جنود أَمريكيين حيث

قُتلوا (أَو أُسروا) لتوهم أولاً، تعقبها صور من هذه البلدة الأَمريكيَّة الصغيرة أَو تلك حيث تُقام مراسم الجنائز، مصحوبة بمقابلة مع أم ثكلى وغاضبة تصرخ قائلة إِنها لا تعرف السبب الذي من أجله تم إِرسال ابنها ليموت في مكان بعيد وغريب؟

لم يكن استخدام التكنولوجيا الأَمريكيَّة المخيفة ضد قوات أصغر ضعيفة، الذي بدا سهلاً علىٰ الورق، يسيراً بالقدر نفسه في الواقع حين كانت القوّات الأصغر والأفقر قادرة علىٰ الظهور والاختفاء كما تشاء. كان كولن پاول في اثنتين من جولاته المؤلمة في ڤيتنام التي ظلّت التجربة المحدِّدة لحياته وحيث كان قد تعامل علىٰ الأرض مع القوّات العسكريَّة الضارية التي كثيراً ما استخف بها المدنيون ورؤساؤه العسكريون عَرَضاً. تلك كانت حرباً جرت قبل عصر الـCNN، شبكة الأخبار الدائرة علىٰ مدار الساعة والمتحفزة لتسليط الضوء مباشرة ـ وتتبعها شبكات أُخرى ـ علىٰ أية إِصابات أَمريكيَّة ولإِلقاء المزيد والمزيد من ظلال الشك علىٰ الأَهداف الأَمريكيَّة. فما اعتبره بعضهم في وزارة الخارجيَّة قِطَعاً من الحلوى والكاتو [أَهدافاً سهلة] لم تكن قط كذلك بالنسبة إِلىٰ پاول ومن هم حوله، وجميعهم كانوا قد مرّوا بالتجربة الكابوسية ذاتها في ڤيتنام. كانت لديهم أحاسيس غريزية عميقة تقول بأن تكنولوجيا الاتصالات الحديثة كانت أَكثر من مضاهية لتكنولوجيا الأَسلحة الحديثة وكانت قد جعلت إِدامة الحرب وتحمل الإِصابات في أماكن بعيدة أَكثر صعوبة بما لا يقاس بالنسبة إِلىٰ الساسة المدنيين الذين لم يكونوا يكتشفون حقيقة الأَمر إِلاَّ بعد فوات الأوان. ثمة عدد من النسب كانت قد تغيّرت في الحرب الحديثة، خصوصاً في الحرب التي تُخاض في بلاد بعيدة. ولم تكن الاتصالات الآنية المباشرة التي قدمت للساسة شيئاً لم يدركوه في البداية علىٰ الدوام، ساعة تدق، قالبة المعادلة العسكريَّة إِلىٰ أُخرى أَكثر اتصافاً بالصفة السياسيَّة، سيكون فيها فراغ صبرنا القومي المتأصل الذي من شأنه أَن يؤدي، آخر المطاف، إِلىٰ تقليص ما

هو عسكري، أَحد العوامل الحاسمة، أقل تلك التغييرات. كان پاول وآخرون في وزارة الدفاع يعتقدون أَن من شأن اضطرارنا للتورّط مع الصرب، بشكل أو آخر، أَن يصبح شبيهاً بحالنا في ڤيتنام، حرباً هامشية بعيدة بالنسبة إِلىٰ شعبنا وساستنا، ولكنها حرب مصيرية دامية وشاملة بالنسبة إِلىٰ الشعب الصربي وساسته. لم يكن پاول يرانا أَكثر من الصرب حماساً أَو صبراً في أَي صراع يندلع في صربيا.

بعد سنوات كان بعض الشباب الذين سبق لهم أَن شغلوا مناصب متوسطة في وزارة الخارجيَّة خلال سنوات بوش، جنباً إِلىٰ جنب مع بعض المدنيين الذين كانوا جزءاً من الشريحة العليا فِي إِدارة كلنتون سيصدرون علىٰ پاول والمؤسسة العسكريَّة أحكاماً نقدية إِلىٰ حد بعيد في هذه الفترة، زاعمين أَنَّه كان مخطئاً وبالغ في تقدير قُدْرة الصرب علىٰ المقاومة. غير أَن الحقيقة هي أَن أَحداً لم يكن، في 1991م و1992م بل وحتى في 1993م حين كانت تلك القرارات تُتخذ، يعرف ما إِذا كان الرجل علىٰ خطأ أم على صواب. وثمة حقيقة كبرى أُخرى مساوية من حيث الضخامة ألا وهي أَن فريقي بوش وكلنتون المدنيين لم يقدما قط علىٰ تزويد پاول بأَكثر الشروط أَهميَّة لإِشعال الضوء الأخضر: شرط الإِيمان بأن التحرّك عسكرياً في يوگوسلاڤيا كان منطوياً علىٰ أولوية عالية بالنسبة إِلىٰ الأمن القومي الأَمريكي وكان جديراً بالثمن المطلوب دفعه للتنفيذ إِذا تبين أَن العواقب كانت ـ كما حصل غالباً في حالات التدخّل العسكري ـ أقسى مما كان متصوَّراً. فحين كان كبار المسؤولين المدنيين في ظل بوش كما في إِدارة كلنتون من بعده يسألون عن التكاليف المحتملة للتدخل عسكرياً، كان پاول يعبر عن عدم حماسه عبر تزويدهم بتقديرات عالية، فيتراجعون بسرعة. لم ينزل الرقم قط عن مئتي ألف جندي.

ما من شيء كان يعكس مدى صعوبة أَي تحرك عسكري أَمريكي محتمل أَكثر من التعامل مع مدينتي دبروڤنيك وڤوكوڤار اللتين كانتا أولى الأماكن التي

كانت قد بدأت تتوغّل في عمق الوعي الغربي. لقد شكّلت الأولى، حيث كانت عمليَّة الاجتياح الصربية قد بدأت في تشرين أول/ أكتوبر 1991م، هدفاً مغرياً، ومن شأن الدفاع عنها أَن يكون سهلاً بالنسبة إِلىٰ الغرب. كانت دبروڤنيك، تلك المدينة الجميلة، جوهرة البحر الأدرياتيكي، تحت الحصار من قبل مرابض مدفعية صربية لن يكون شلّها أو إِسكاتها صعباً. غير أَن هجوماً أَكثر بشاعة وأشد فظاعة كان يجري علىٰ ڤوكوڤار، تلك المدينة المعروفة بمناجمها والواقعة في كرواتيا الشرقيَّة علىٰ مسافة مئة وثمانين ميلاً في عمق الأراضي الصعبة، ذلك المكان الذي كان بالغ الصعوبة لوجستياً حتى بنظر أَكثر ضباط البِنتاگون تفاؤلاً، بعيداً عن أعين الإِعلاميين الغربيين. كان حصار ڤوكوڤار الذي كان أقسى وأشد وحشية بصورة ملحوظة من حصار دبروڤنيك قد بدأ في منتصف أيلول/ سپتمبر. وعلىٰ صعيد الفظاعات الصربية كانت ڤوكوڤار مرشحة لأن تكون أسوأ بكثير من دبروڤنيك ولتشكل أَحد الأمثلة المبكرة لما بات يُعْرَف فيما بعد باسم التطهير العرقي.

خارجياً كانت المدينة بلدة صغيرة هادئة علىٰ الدانوب قادرة بعمارتها الباروك الكلاسيكية، في أوقات أَكثر هدوءاً، علىٰ إِبهار العدد القليل من السياح الغربيين المتمتعين بما يكفي من الحيوية والتصميم للقيام بتلك الرحلة الشاقّة إِلىٰ أعماق يوگوسلاڤيا. بدت ڤوكوڤار منطوية علىٰ قدر قليل من الأَهميَّة الاستراتيجية بنظر كائن من كان في العالم، غير أنّها كانت أَكثر قرباً إِلىٰ بلگراد منها إِلىٰ زگرب، عاصمة كرواتيا، مما أبقاها معرّضة للخطر جغرافياً. كان تحت تصرّف ميلوسوڤيتش جيش جرّار، لم يكن زعيم كرواتيا، فرانيو توجمان متمتعاً بمثله، فقام الصرب بدك المدينة بالمدفعية. ما من أَحد استطاع أَن يعرف سبب تعامل الصرب بهذا القَدْر الهائل من الوحشية مع المدينة بصورة مؤكدة، وإِن قدَّر بعضهم، ممن يعرفون طبيعة ميلوسوڤيتش، أَن السبب كان كامناً في حقيقة أَن الجماعات العرقية هناك كانت قد تعايشت في جو من الوفاق والوئام،

في جو غير بعيد عن أجواء سيراييڤو في البوسنة، حيث كانت يوگوسلاڤيا القديمة ناجحة نجاحاً مدهشاً، وحيث لم يبادر الصرب المحليون إِلىٰ الاستنفار بحماس يتناسب مع طموحاته [طموحات ميلوسوڤيتش] القومية. وبالتالي فإِن ميلوسوڤيتش قد عاقب ڤوكوڤار. كانت عملية حصار المدينة إِحدى أبشع الأيام الأولى من حرب البلقان، معركة لم تكن معركة في الواقع، لأن طرفاً واحداً فقط كان مسلحاً. قام الصرب بتطويق المدينة بسلسلة من القطع المدفعية الثقيلة ودأبت ببساطة علىٰ دكّها علىٰ امتداد بضعة أشهر. وحين انتهى الحصار في منتصف تشرين الثاني/ نوڤمبر، بدت ڤوكوڤار أشبه بتلك المدن الواقعة في ألمانيا الشرقيَّة التي كان حظها السيء قد شاء لها أَن تقع علىٰ طريق الجيش الأحمر المتقدم خلال الأيام الأخيرة من الحرب العالميَّة الثانية. كانت مبانيها القديمة الرائعة قد أصبحت ركاماً. فمثل عدد متزايد من المدن في كرواتيا، وأعداد أكبر وأكبر في البوسنة، لاحقاً، كانت ڤوكوڤار مسرحاً لمذبحة حقيقية. حين دخل الجنود الصرب المدينة، سارعوا إِلىٰ اقتحام المستشفى وإِعدام جميع الناس الذين وجدوهم هناك من المرضى المدنيين والعسكريين. وحين استسلمت ڤوكوڤار قام الصرب بدعوة جميع الصحفيين الأجانب، الممنوعين منذ زمن طويل من دخول المنطقة، إِلىٰ وليمة غداء، حيث قدموا لهم لحوماً مشوية ثم سلموهم بطاقات بريدية تحمل صورة ڤوكوڤار القديمة ـ بطاقات كانت أشبه بصفعة مهينة بعد الوليمة[2].

إِذا كان أَي شيء قد تغيّر علىٰ أعلىٰ مستويات هرم السلطة في واشنطن، كما لاحظ لاري إِيگلبيرگر بعد سنوات، فقد تمثَّل ذلك بمدى التغيير الحاصل في وزارتي الخارجيَّة والدفاع كلتيهما بعد مرور حوالي عقدين من الزمن علىٰ ڤيتنام. ففي الأزمان الغابرة كانت وزارة الدفاع، باعتقاد إِيگلبيرگر، ميالة لإِبداء الكثير من الحماس والاستعداد للتورّط العسكري، وللتعبير عن القُدْرة علىٰ أداء

---

(2) مقابلة مع ڤوليامي.

جميع المهمات، في حين كانت وزارة الخارجيَّة أميل إِلىٰ التحلي بالحذر والتحفّظ. غير أن ڤيتنام كانت قد أدت إِلىٰ تغيير الوضع ـ كان الجيش قد ذهب إِلىٰ هناك ودفع ثمناً باهظاً من الدماء والمعنويات، مما أدَّى إِلىٰ حصول تبادل في الأدوار. كان في الخارجيَّة عدد من النشطاء الحركيين بين موظفيها الأَكثر شباباً ممن التحقوا بالركب، بأَكثريتهم، بعد تجربة ڤيتنام، في حين كان أَكثر القادة المسؤولين في وزارة الدفاع شديدي الحذر. فذكريات ڤيتنام في وزارة الدفاع كانت أطول عمراً ولو بقليل لأن جُلّ كبار قادة الجيش، خلافاً لنظرائهم في الخارجيَّة، كانوا قد شاركوا بصورة مباشرة في تلك الحرب وقد كانت التجربة بالغة المرارة في أكثر فصولها وصفحاتها. كانت لدى الپنتاگون نظرة مفرطة في شخصيتها إِلىٰ ما هو حاصل حين يقع مصمّمو أية سياسة تدخلية في خطأ الاستخفاف بالطرف الآخر، **أولاً**، وحين يسارع عدد كبير من فرسان العمليَّة السياسيَّة ممن كانوا مصمميها إِلىٰ التبرؤ من صنيعتهم للانتقال إِلىٰ وظائف أُخرى تاركين الجيش متورطاً في حرب لا يستطيع أَحد تصحيح مسارها، ثانياً.

وبالتالي فإِن المؤسَّسة العسكريَّة الأَمريكيَّة بقيت مرتابة إِزاء التدخّل العسكري في البلقان، وكان ذلك، بدوره، يعني أَن الصرب اكتسبوا قَدْراً متزايداً من الجرأة. كانت تلك بداية آلية ميلوسوڤيتش (ووكالة ميلوسوڤيتش) الشهيرة: اختبار عسكري سريع لتحري وجود مقاومة غربيَّة، وفي حال التأكّد من عدم وجودها، المبادرة إِلىٰ شنّ هجوم أَكثر وقاحة.

لم يكن كولن پاول ومعه أَكثر كبار المسؤولين في وزارة الدفاع معارضين، غير قابلين للزحزحة، لأي استعراض سريع وسهل مزعوم للقوة العسكريَّة الأَمريكيَّة، أَي ضربة جويَّة أَو بحرية خاطفة في أماكن مناسبة فقط، بل وقد كانوا ضد الاضطلاع بأي دور إِنساني بسيط، غير مدروس جيداً، مفتوح علىٰ احتمالات كثيرة، ومن شأنه أن يجر البلاد، بهذا الشكل أَو ذاك، إِلىٰ التزام

قتالي غير مرغوب: كأن يقوم الصرب بالانقضاض علىٰ مجموعة صغيرة من الجنود الأَمريكيين مشغولة بنقل اللاجئين أو المؤن من أَو إِلىٰ إِحدى المدن المحاصَرة، يتكبد الأَمريكيون بعض الخسائر البشرية، يبادر بعضهم بالرد علىٰ النار، يسارع الصرب إِلىٰ تعزيز قواتهم، يتصاعد الصراع ذاتياً، مع ما كان الپنتاگون يفترضه أَن يكون تغطية غير متعاطفة يطلقها إِعلاميو التلفزة في الميدان كما في البلاد. من شأن أية سياسة قائمة علىٰ التدخّل أَن تبدو سهلة، غير أَن سيناريو أفضل الأحوال، كما حصل كثيراً في الشؤون العسكريَّة، قد ينقلب إِلىٰ سيناريو أسوأ الأحوال. وقد كان پاول وآخرون من أمثاله يؤمنون بأن الجيش سيُترك متورطاً في المشكلة، في حين سيبادر الآخرون من الجهاز البيروقراطي، بكثير من البراعة، إِلىٰ أَن ينأوا بأنفسهم عن الخطة، في تصرّف شبيه إِلىٰ حد ما بما سبق أَن حصل حين تحوّلت ڤيتنام إِلىٰ كارثة.

لذا فإِن المدينتين اللتين برزتا علىٰ الساحة في وقت مبكر كانتا علىٰ الدوام، بنظر الجيش، متضافرتين: من شأن دبروڤنيك أَن تكون سهلة، حيث الأمور اللوجستية مع الغرب ميسَّرة، أَمَّا ڤوكوڤار فلا بد لها من أَن تشكّل كابوساً عسكرياً. وبعد بدء الهجوم الصربي لهذين الموقعين الكرواتيين، كان القائد الأَمريكي في أوروپا، جنرال الجيش ذو النجوم الأربع جاك گالڤن علىٰ اتصال هاتفي يومي مع پاول الذي كان سؤاله الأول: «هل تستطيع حماية دبروڤنيك؟» فيرد عليه گالڤن: «بسهولة». فإِسكات البطاريات الصربية كان من شأنه أَن يبقى مهمة بسيطة نسبياً. ثم جاء سؤال: «هل تستطيع حماية ڤوكوڤار بسهولة؟» فرد گالڤن «لن يكون الأَمر بالسهولة ذاتها ـ لا بد للثمن من أَن يرتفع». وبعد ذلك تم طرح السؤال التالي: «هل تستطيع حماية دبروڤنيك، السهلة، وزحزحة الصعبة ڤوكوڤار بمراوغتها؟» كان هذا سؤالاً مختلفاً. أحس گالڤن، وهو الموجود في بروكسل والبعيد عن آلة الشائعات الواشنطنية الداخليَّة، بأن بعض المدنيين كانوا يضغطون بقوّة من أجل القيام بمهاجمة الصرب في دبروڤنيك ـ

مجرد تشغيل البطاريات المضادة المحمولة علىٰ القطع البحرية لضرب الصرب، أَو استخدام القوَّة الجويَّة أَو استقدام بوارج من الأسطول السادس لإِزاحة البحرية اليوگوسلافية.

غير أَن أنصار التحرّك لم يحسبوا قطّ، حسب شعور گالڤن، أَي حساب للخيارات المفتوحة المتروكة للصرب في المناطق الأَكثر بُعداً من البلاد. كان يعتقد، مثل پاول، كما سيقول فيما بعد، بأن المرء لا يستطيع أَن يضع قدمه علىٰ عتبة الباب ويقف. لقد كان گالڤن من مخضرمي الحرب الڤيتنامية الذين حصلوا علىٰ الكثير من الأوسمة، رجلاً راجح العقل، حكيماً، مثاراً لقدر كبير من الإِعجاب لدى جُلّ من تعامل معهم، إِنساناً صَقَلَتْه ڤيتنام وقوّته في الوقت نفسه، وكان يرى أَنَّك ما إِن تضع قدمك علىٰ عتبة الباب في دبروڤنيك حتى تصبح مضطراً للانجرار بجسدك كلّه إِلىٰ المعركة حسب أقوى الاحتمالات. وإِذا ما أصبحنا متورطين، فمن كان معنا؟ إِلىٰ أَي مدى سيسير معنا حلفاؤنا؟ أين كان يقف الكونگرس وما الموقف الذي كانت وسائل الإِعلام ستتخذه؟

برأي گالڤن كان التعامل مع دبروڤنيك يعني تعاملاً مع ڤوكوڤار أيضاً. غير أَن من شأن حصول ذلك أَن يدفع الصرب مباشرة إِلىٰ الإِمساك بزمام المبادرة في أماكن أخرى بعيدة. من شأنهم أَن يكونوا متمتعين بالعدد نفسه من الخيارات التي نتمتع بها نحن علىٰ الأقل. كانت لدى گالڤن فكرة واضحة عن التردّد السائد في واشنطن حول موضوع التدخّل في يوگوسلاڤيا لأن پاول، أفضل القادة العسكريين فهماً لواشنطن منذ سنوات، كان يمرّر المعلومات إِلىٰ بروكسل. كان گالڤن شديد الانبهار بالحصول علىٰ صورة المشهد الجانبي. وما كان يجعل پاول علىٰ هذا المستوى من النجاح تمثَّل، بنظر گالڤن، بقدرته علىٰ التمييز بين ما كان حقيقياً في واشنطن من جهة وما كان بادياً علىٰ السطح فقط من جهة ثانية. كانت ثمة سياسة زائفة مدفوعة بعناوين الصحف واللقطات الرائجة اليوم، وبالضجة التي يستطيع ناطق سريع البديهة أَن يحدثها حول وجهة

نظر الإدارة عن هذه الأحداث، مقابل أهداف سياسيَّة بعيدة المدى ذات جذور عميقة داخل الإدارة والجهاز البيروقراطي - إنّها حقائق واشنطن الخاصة غير المنطوقة ولكنها بالغة الأهميَّة. كان پاول يعرف حين يكون الخطاب كله عبارة عن نوع من التمثيل وحين يكون مجسِّداً لشيء حقيقي. كان يعرف حين تكون هذه الخطة المقترحة أو تلك «بالون» اختبار، حتى استخداماً لا شعورياً لمثل هذا «البالون»، لشيء جرى تضخيمه في فراغ غير مريح ناشئ عن غياب السياسة أو الخطة، وحين تكون، على النقيض من ذلك، انعكاساً لخطّة مدروسة بعمق متمتعة بموافقة أكثرية أعضاء جهاز صنع القرار. بدا پاول رمزاً يجسِّد وزارة دفاع متشددة في عدائها لأي تدخّل. لم يخالفه الرأي إلاَّ واحد من رؤساء الأركان المشتركة هو الجنرال مريل (توني) ماك پيك، رئيس أركان سلاح الجو، غير أن مخالفته تعرّضت للتهميش لأن پاول كان ذا شخصية مهيمنة تماماً على هيئة الأركان المشتركة نتيجة مكانته الشخصية الفريدة فيما بعد ڤيتنام، تلك المكانة التي جاء انتصار حرب الخليج ليعزِّزُها، مهارته الملحوظة في التعامل مع جميع أوجه عالم واشنطن السياسي جنباً إلى جنب مع وسائل الإعلام، ولأنّه كان يتقاسم مع أكثر أعضاء هيئة الأركان المشتركة الآخرين ذكرياته المريرة عن الآلية المدنية المستهترة لصنع القرار في ڤيتنام. وحده ماك پيك كان يعتقد بأننا نستطيع استخدام القوَّة الجويَّة بفاعلية، وإن لم يكن بشكل حاسم، من أجل تقليص ما كان الصرب يفعلونه في البوسنة.

كان ماك پيك إضافةً لحظة أخيرة إلى هيئة الأركان المشتركة عشية حرب الخليج، حين أقدم قائد سلاح الجو السابق، الجنرال مايك دوگان على عقد ما اعتُبر مؤتمراً صحفياً غير منضبط في الرياض ما لبث أن أثار حفيظة كل من المسؤولين المدنيين والقادة العسكريين في وزارة الدفاع من نواح كثيرة، خصوصاً تصريحه بأن الشعب الأمريكي سيظل يدعم هذه الحرب حتى تبدأ أكياس الجثث بالوصول. كان ديك تشيني قد طَرَد دوگان، وبادر پاول إلى

اختيار ماك پيك خلفاً له. مقارنة بنظرائه في هيئة الأركان المشتركة كان ماك پيك شديد الشبه بأي ناشط بوسني. فأَمريكا، باعتقاده، قوة عظمى، متفوقة كثيراً علىٰ سائر القوى العسكريَّة الأخرى في العالم، ولا بد لها، إِذن، من أَن تستخدم قوتها بين حين وآخر. ثمة أزمات معينة ـ وكانت الأعمال الوحشية في البوسنة قد قلبت تلك الأزمة، برأيه، إِلىٰ محرقة (هولوكوست) علىٰ نطاق صغير ـ كانت تتطلّب عملاً. وإِذا لم تبادر أَمريكا، بتفوّقها العسكري الفريد، إِلىٰ التحرك في مكان كهذا، فأي بلد آخر سيفعل، وفي أية مناسبة؟ لم يكن ماك پيك مؤمناً، بالضرورة، بأن القوَّة الجويَّة وحدها قادرة علىٰ إِنجاز المهمّة، غير أنّه كان يظن أَن من شأن الاستخدام الذكي للقوة الجويَّة المعاصرة أَن يلعب دوراً مهماً وأن يجعل ثمن النزعة الإِمبراطورية البلقانية لدى الصرب أعلىٰ بكثير. فنحن قادرون، وبسهولة، أَن نستأصل مرابض مدفعيتهم ومقرات قيادتهم في البوسنة، أَن نعطِّل خطوط اتصالاتهم، أَن ننسف عدداً من الجسور، بما يجعل دخولهم إِلىٰ البلاد أَكثر صعوبة، وأن نقصف أماكن تخزين الأَسلحة والذخائر لديهم. نستطيع، علىٰ الأقل، أَن نمهِّد ساحة المعركة لصالح القوَّات المحلية المعارضة مع احتمال إِجبار الصرب علىٰ الدخول في مفاوضات سلمية.

كان ماك پيك يعتقد أَيضاً بأن سلاح الجو كان قد بات قوة بحدّ ذاتها خلال حرب الخليج، وبأنّه أصبح، للمرة الأولى في التاريخ، سلاحاً مستقلاً بطاقته التموينية الخاصة بالذخائر، إِذ لم يعد معتمداً علىٰ ذخائر مصمَّمة من قبل أَسلحة وأَقسام أخرى. كان يحلو له أَن يتأمّل مدى بؤس اضطرار الطيارين في الحرب العالميَّة الأولى، خلال غاراتهم الأولى، لإِلقاء قذائف مدفعية معطلة، **غير متفجرة** من علىٰ أجنحة طائراتهم من أجل عدم تبديد أية ذخائر قابلة للاستعمال. يا له من تلخيص رائع لتاريخ السلاح! لقد أدرك ماك پيك أَن جميع نظرائه في هيئة الأركان المشتركة ـ ومعهم أعضاء الأَركان المشتركة المدعوون

إِلىٰ الكونگرس للإِدلاء بشهاداتهم ـ كانوا يرون أَن استخدام القوَّة الجويَّة وحدها كان فكرة غير موفقة، وأن عقيدة ما قبل عاصفة الصحراء التقليدية كانت لا تزال صامدة. أَمَّا هو فقد كان مخالفاً. كان يرى حصر استعمال القوَّة العسكريَّة بالأوضاع التي تكون فيها المصالح الأَمريكيَّة الاستراتيجية مهدّدة بصورة مباشرة فقط، تقييداً شديداً وغير عادل لقوة عظمى، يكاد أن يصل إِلىٰ مستوى تكبيل كبار المسؤولين المدنيين والعسكريين إِذا ما تم إِيصال الأَمر إِلىٰ حدوده المنطقية القصوى. وقد كان ذلك يعفينا أَيضاً من الاضطلاع بأية مسؤولية إِزاء ما بدا له النوعية الأَكثر احتمالاً للأزمات المرشحة لأن تواجه أَمريكا ـ أزمات تفجر البلدان من الداخل في حقبة ما بعد الحرب الباردة. كان يتعين علىٰ أية قوى عظمى، حسب رأيه، أَن تبقى مستعدة للتحرّك من أجل التصدي لظروف أشد غموضاً وضبابية.

كان ماك پيك شديد الإِعجاب بپاول الذي كان جاراً وصديقاً شخصياً وسبق له أَن عيَّنه في هيئته. كان مؤمناً بأن پاول كان، بكلماته هو، أنجح موظف عام سبق له أَن تعامل معه في الجيش وخارجه. غير أَن شيئاً واحداً كان يميز ماك پيك عن الكثير من كبار ضبّاط الجيش الذين كان يعرفهم، ألا وهو أَن ماك پيك كان يعتقد بأنه، مع آخرين في سلاح الجو، كانوا أَقل انسحاقاً تحت كابوس ڤيتنام من الجيش [القوَّات البرِّيَّة]، من المؤكد أَنَّه ونظراءه الذين كانوا قد حلَّقوا هناك (كان قد قام بأَكثر من مئة طلعة فوق لاوس وڤيتنام الشمالية) شعروا بالإِحباط إِزاء ما كانوا يعتبرونه قواعد اشتباك مرعبة، وكثيراً ما تعرّضوا لعمليات إِطلاق النار علىٰ امتداد ممر هوشي منه الواقع خارج نطاق المنطقة المسموح بالرد فيها. غير أَن عبء القتال بالنسبة إِلىٰ سلاح الجو كان واقعاً علىٰ كاهل مجموعة من ضباط النخبة. لم يكن ثمة أية عمليَّات تعاطي للمخدرات أَو اغتيال للضباط شبيهة بتلك التي كانت تحصل، باعتقاده، في وحدات القوَّات البرِّيَّة. لم يسبق للروح المعنوية أَن تدهورت في سلاحه. صحيح أنهم فقدوا

رجالاً وتغلّبوا علىٰ إحباطات، غير أن ذلك كله لم يتمكّن من أن يتسلل إلىٰ أعماق القوّات الجويّة وأن ينجح، بهذا الشكل أو ذاك، في أن يفعل ما فعله من تخريب في صفوف القوّات البرية، حسب اعتقاد ماك پيك. فالكثير من عناصر الجيش كانوا قد عادوا من الحرب، برأيه، مصابين بجروح عميقة، مكسورين عاطفياً تقريباً، وكأن عنصر إذلال شخصي كان كامناً فيما كان قد حصل وترك بصمات عميقة علىٰ نظرة الجيش إلىٰ الأزمات اللاحقة. وإذا كان الرئيس راغباً في أن يفعل شيئاً في مكان مثل البوسنة، بؤرة جرائم الحرب، فإن من حقّه أن يبادر، حسب اعتقاد ماك پيك. أمّا بين صفوف عناصر الجيش، خصوصاً أولئك الذين شاركوا في حرب ڤيتنام، فقد راوده شعور بنوع من الحاجة إلىٰ إقناعه بعدم الإقدام علىٰ التدخّل.

لقد عبّر ماك پيك عن معارضته داخل الپنتاگون بدءاً بسنة 1992م. ورئيساه تشيني وپاول، في سنوات إدارة بوش، كلاهما، كانا ضد استخدام القوّة الجويّة، فضلاً عن أن الثاني، پاول، ظل رئيسه خلال السنوات الأولى من إدارة كلنتون. لم يقم ماك پيك بإعلان شكوكه للملأ. لم تكن القضية، برأيه، قضية تستحق أن يلقي المرء بنفسه علىٰ سيفه [أن ينتحر] في سبيلها. لم يبادر أحد إلىٰ انتقاده علىٰ آرائه. بقيت النظرة العامة إلىٰ معارضته متمثّلة بنظرة كبار قادة الجيش الذين رأوا أنّه كان يتحدث باسم الطيران، وأن سلاح الجو كان علىٰ الدوام قد بالغ في تقدير طاقته العسكريّة، في الحرب العالميّة الثانية، في كوريا، وفي ڤيتنام؛ ونظراً لأن ماك پيك كان طياراً فقد كان لديه ما يبرّر له إعلاء شأن سلاح الجو. أمّا هو، فكان، بالمقابل، يعتقد بينه وبين نفسه بأن رؤساء الأركان الآخرين كانوا منحازين مؤسساتياً **ضد** استخدام القوّة الجويّة بوصفها السلاح الوحيد أو الرئيسي علىٰ الأقل. وحين أطرى ماك پيك ما حقّقه الطيران في حرب الخليج من إنجازات، متحدّثاً عن الدقة المدهشة لعمليّات القصف ـ دقّة كانت قد أصبحت أكثر تحديداً وحساسية بعد سنتين ـ كان

الجميع قد ردوا عليه قائلين بأن سهولة إصابة الأَهداف كانت بفضل كون العراق صحراء؛ حيث كانت تلك الأَهداف شبه صارخة تبحث عمن يضربها. لم يستطع ماك پيك إِقناعهم بأن من شأن السلاح أَن يكون علىٰ علىٰ الدرجة نفسها من الدقة في معظم الظروف تماماً كما هي حالها في شبه جزيرة البلقان.

حين وصل الأَمر إِلىٰ ما إِذا كنا قادرين علىٰ أَن نفعل شيئاً في البوسنة، جاء جواب ماك پيك إِيجابياً ببساطة. نعم، نحن قادرون علىٰ أَن نفعل شيئاً. نستطيع أَن نستخدم الطيران ونصعّب الأمور علىٰ الصرب، نجعلهم يدفعون ثمناً باهظاً مقابل اجتياحهم لكرواتيا والبوسنة. إِلاَّ أَن زملاءه، ردوا قائلين إِن من شأن القوَّة الجويَّة ألا تكون حاسمة بسبب وعورة الأرض وكثرة تضاريسها فضلاً عن احتمال صيرورة الجو أسوأ بكثير. قالوا أَيضاً إِن هناك مخاطر إِضافية. قد يتم فقدان بعض الطائرات، وقد تنجح قناة السي. إِن. إِن، أَو غيرها من القنوات في التقاط أية حوادث قاتلة. لم يأت أي رد علىٰ ذلك. فمعارضة ماك پيك ما كانت غاضبة أَو ملتهبة قط، غير أنّه لم يتقدم ولم يكسب أية أصوات أُخرى. وعلىٰ الرغم من أَنَّه لم يخرج إِلىٰ الملأ، فقد أصبح معروفاً بدعوته إِلىٰ استخدام الطيران وحده، وتم وصفه أحياناً في وسائل الإِعلام بالقاذف المجنون. أدرك أَن فخ المعادلة كان منصوباً ضده. فقد قال فيما بعد: «كنت في الطرف الخاسر بصوت وحيد مقابل خمسة أصوات». أدرك أَن پاول كان عازماً، ببساطة، علىٰ عدم التدخّل في البوسنة. لم يكن پاول مغرماً بطبيعة الأرض لا في يوگوسلاڤيا ولا في واشنطن. رأى ماك پيك أَن وصف پاول لنفسه بأنه مقاتل علىٰ مضض كان وصفاً سليماً؛ لا بدّ للمقاتلين علىٰ ذلك المستوى من أَن يكونوا كارهين لمهنة القتال. إِلاَّ أَن ماك پيك شعر أَيضاً أَن العالم كان قد تغيّر وسوف يتعين علىٰ الجيش، عاجلاً أَو آجلاً، أَن يتقن فن استخدام الأَسلحة التي كانت تكلف مبالغ باهظة جداً، تصل إِلىٰ 275 مليارا من الدولارات في الموازنة السنوية ـ في حروب أصغر، وأن العقيدة الراهنة كانت، ببساطة، شديدة الجمود.

يبدو أَن پاول كان مقتنعاً بأن من شأن أية حملة جويَّة في البلقان أَن تصبح عمليَّة متواصلة لا تنتهي بما يفضي إِلىٰ تورطنا. مرة أُخرى عبّر ماك پيك عن اعتراضه. فقد رأى أننا سنكون فعالين بالطيران مقابل ثمن منخفض نسبياً وخلال فترة زمنية قصيرة نسبياً. وفي هذا الجدل المتواصل كانت الأَسلحة جديدة ولكن الآراء والحجج كانت قديمة. لم تكن الأَسلحة الأُخرى تصدِّق ثقة رجال الطيران بما هم قادرون علىٰ إِنجازه. ومثله مثل الكثير من رجال الجيش الذين كانوا قد قاتلوا في ڤيتنام، كان پاول شديد الارتياب والشك. أَو كما قال مرة بعد اجتماع أطنب فيه أَحد المدنيين في امتداح سلاح الجو كأداة متفوقة قادرة علىٰ لجم سلوبودان ميلوسوڤيتش، «حين أسمع أَحدهم يحدّثني عما يستطيع الطيران أَن يفعله، أسارع إِلىٰ الملجأ». في هذا الوقت لم يكن أَحد يوحي لپاول بوجود أَي شيء قريب من الإِجماع في واشنطن لصالح القيام بتحرّك عسكري جدي ضد يوغوسلاڤيا. لم يكن أَحد أَسباب دأبه الدائم علىٰ تقدير الأعداد المطلوبة من القوَّات اللازمة لإِنجاز المهمة بأرقام كبيرة ـ أَكثر من مئتي ألف جندي ـ متمثّلاً بقناعته المؤكدة بأن المعركة سوف تتطلب مثل هذا العدد. كان يريد اختبار المدنيين: ما الثمن الحقيقي الذي تريدون دفعه؟ كم أَنتم عازمون علىٰ إِنجاز المهمة؟ هل أَنتم مستعدون لتغطية احتمالات السيناريوهات الأَكثر سوءاً؟ بدا وكأنه يسأل المدنيين عن مدى حبهم له، وبدا الرقم الدال علىٰ تعداد القوَّات كما لو كان رمزاً لكمية الحب المتوافرة حقاً في قلوب المدنيين.

لا أَحد في إِدارة بوش علىٰ مستوى رفيع كان توّاقاً لأي التزام من هذا القبيل. ومع ذلك فإِن واحدة من المفارقات الكثيرة التي انطوى عليها ما كان يجري في البلقان تمثَّلت بأن إِدارة بوش، خلافاً لحال إِدارة كلنتون، التي جاءت بعدها، لم تكن، علىٰ الإِطلاق، تفتقر إِلىٰ أناس واسعي الاطلاع، علىٰ ما يبدو، فيما يخص يوغوسلاڤيا. فكل من برنت سكوكروفت، مستشار الأمن

القومي، ولاري إيگلبيرگر، كانا قد خدما هناك، حيث دامت خدمة الثاني، إيگلبيرگر، ثماني سنوات، في حين شغل الأول، سكوكروفت منصب الملحق العسكري لدورة واحدة. كان الرجلان، إلىٰ حدود معينة، جيدي الاطلاع ويعرفان أشياء كثيرة عن الدولة التي كانت موجودة ذات يوم، وإن لم يكونا مطلعين علىٰ أحوال المجتمع ذي اللغات المتعددة الذي كان الآن دائباً علىٰ التفجر في صراع مسلّح. وقد لاحظ إيگلبيرگر بعد سنوات، أن أحد الانتقادات الرئيسية التي وجهها الأكثر شباباً واندفاعاً إلىٰ الرجلين، كليهما، تمثّل، في الحقيقة، بأنهما كانا يعرفان أكثر مما ينبغي عن يوگوسلاڤيا، وبقيا، بالتالي، خائفين مما قد يفعله الصرب إذا قمنا برد عسكري. أضاف إيگلبيرگر يقول ربما كان ذلك الانتقاد منطوياً علىٰ شيء من الحقيقة[3].

كان لدى كل من إيگلبيرگر وسكوكروفت قَدْرٌ محدود من القدرة علىٰ تقدير مدى العنف المحتمل حدوثه في حال نشوب الصراع بين فئات أو جماعات عرقية مختلفة. كانا قادرين علىٰ رؤية الأخطار الكامنة في أي تورط عسكري هناك، فضلاً عن مدى وعورة الساحة وقسوتها. كانا يعرفان أن جملة الأحقاد التي كان من شأنها أن تصب الزيت علىٰ نار العنف، حيث الصرب ضد المسلمين، الكروات ضد الصرب، المسلمون ضد الطرفين، كانت تاريخية وهي موجودة منذ مئات السنين. كان سكوكروفت يقول بينه وبين نفسه: «إنها بقعة فظة بالغة البشاعة». وقد وجد إيگلبيرگر، خصوصاً، نفسه غارقاً في بحر من الحيرة فيما يخص الأحداث الجارية في يوگوسلاڤيا. كان حاقداً ليس علىٰ تعرّض بلد للتفكّك فقط سبق له أن أحبه، بل وعلىٰ الضراوة التي أبداها أولئك الذين كانوا أصدقاءه ذات يوم. كان قد افترض أن قَدْراً من العنف سوف يُمارس في حال التصادم بين الصرب والكروات ولدى قيام أحد الطرفين بالتحرّك ضد البوسنيين. غير أنّه كان قد توقع نوعاً أكثر تقليدية من العنف، ذلك النوع الذي

(3) مقابلة مع إيگلبيرگر.

يتجلى في ساحة القتال، والذي لا يلبث أَن يفضي إِلىٰ نوع من التسوية لأن الأَطراف تكون قد أنهكت بعضها عسكرياً. كان الرجل يدرك أَن رئيسيه، جورج بوش وجيمس بيكر، لم يكونا، لجملة من الأَسباب المختلفة، مستعدين لقبول أَي التزام عسكري إِضافي، خصوصاً بعد حرب الخليج مباشرة، وأن من شأن البنتاگون أَن يكون أَكثر الأَطراف تحفظاً وتقلباً. غير أَن عمله كان يفرض عليه أَن يدافع عن عزوف الإِدارة عن العمل، وكان هو مولعاً باقتباس ما قاله بسمارك عن البلقان وأهل البلقان الذين لم يكونوا يساوون حياة جندي پوميراني واحد من رماة القنابل اليدوية؛ وكان يحلو له أحياناً أَن يضيف أَن لا شيء يمكن عمله مع هذا الحقد التاريخي إِلىٰ أَن تكون الأَطراف المختلفة قد قتلت بعضها البعض بأعداد كافية.

أما سكوكروفت الذي كان يجتمع مع بوش يومياً، بل وعدة مرات في اليوم الواحد ـ ربما لم يكن هناك أَي مستشار للأمن القومي علىٰ هذا المستوى من الحميمية والتناغم مع أَي رئيس ـ فقد رأى أَن تفكك يوگوسلاڤيا قد كوَّن مأزقاً مرعباً للرئيس. كان سكوكروفت خائفاً من المنطقة وحذراً في الوقت نفسه بأن شيئاً مرعباً كان يحصل علىٰ الأرض. وممزقاً بين اتجاهين وجد نفسه عاكفاً علىٰ تأمّل استخدام القوَّة بقَدْر أكبر من الجدية في صيف 1992م مع ذيوع أنباء أفظع البشاعات والشناعات الحاصلة في البوسنة. وعلىٰ الرغم من أنّه كان طياراً في الأساس بقي كثير الارتياب من قدرة الطيران وحده علىٰ وضع حد للعنف. إِذا تدخلنا جواً ولم ننجح، فماذا بعد؟ ما الخطوة التالية؟ وفي غياب الإِجابة المقنعة عن هذين السؤالين وجد سكوكروفت نفسه صامتاً.

في العام الأخير من رئاسة بوش، وهو عام شهد سلسلة متصاعدة القسوة من الأحداث في يوگوسلاڤيا، عام شهد ممارسات صربيا متزايدة البربرية والوحشية ضد الشركاء الكرواتيين، كما ضد مسلمي البوسنة خصوصاً، تعين علىٰ سكوكروفت نقل آخر الأنباء الواردة من البلقان إِلىٰ الرئيس ومناقشتها معه.

كان مهماً، باعتقاد سكوكروفت، تذكر سياق تلك اللحظة. صحيح أَن الأَمريكيين كانوا قد أنجزوا لتوهم حرب الخليج الناجحة إلىٰ حد كبير، غير أَن تلك كانت عمليَّة سياسيَّة بالغة الصعوبة والتعقيد إذ تطلّبت تشكيل التحالف والحفاظ عليه مع توفير القوَّة الهائلة الضرورية، تمرير الخرمة عبر الكونگرس، إقناع الپنتاگون وضمان بقائه علىٰ الخط، والتأكّد من عدم قيام الإِسرائيليين بالتحرك ذاتياً، غاضبين من تعرّضهم لصواريخ سكود، وصولاً إلىٰ تحطيم التحالف الجديد الهشّ. كان سكوكروفت يعلم بأن الأَمر كان بالغ الإِرهاق والاستنزاف للطاقة بالنسبة إلىٰ بوش. وكان أَيضاً يعرف أَن أَي رئيس لم يكن يريد دخول حرب ـ علىٰ نطاق لا يُستهان به ـ مرتين خلال فترة رئاسية واحدة.

حين كان سكوكروفت يقدِّم تقريره الوجيز إلىٰ الرئيس، كان يحس بمدى بُعْد بوش عن هذه القضية. كان الرئيس يبدو في حيرة إزاء تعقيد الوضع في البلقان، ويسأل المرة تلو المرة عن الأَطراف وطبيعتها، عن هوية البوسنيين، عن هوية صرب البوسنة، عن هوية مسلمي البوسنة، عن هوية سكان كوسوڤا، وعن هوية الكروات والسلوڤينيين. من الواضح أنّها كانت بلاداً عجيبة بنظر بوش، بلاداً زاخرة وغنية بما يفرق الناس وفقيرة بما يجمعهم ويوحدهم. لا شك أَن الأَمر أربكه؛ فجميع هذه الأماكن المتباينة، الأسماء الغريبة، والجماعات العرقية المختلفة ـ كان يفترض فيها أَن تكون بلداً واحداً، غير أنّها لم تكن كذلك ـ ثمة صرب بوسنيون، مسلمون بوسنيون، ألبان، مقدونيون، ومواطنو الجبل الأسود.

كانت للقاءات الرجلين الإِخبارية طقوس معينة. كان بوش العاكف علىٰ قراءة التقارير الاستخباراتية الأجنبية عن يوگوسلاڤيا يرفع رأسه ليسأل سكوكروفت قائلاً: «أخبرني الآن مرة أُخرى ما السبب الكامن وراء هذا كله». فيقوم سكوكروفت بالغوص في تفاصيل الصراع، واصفاً الأَطراف المختلفة المتورطة، مبيناً أَسباب كُره بعضها لبعضها الآخر، مسلِّطاً الأضواء علىٰ مدى

عُمق الأحقاد والضغائن، مُظْهِراً هويات المتخاصمين، ومحدداً الطرف الذي ألحق الأذى الأخير بجماعة معينة. وكلما استغرق سكوكروفت في الكلام زادت ظلال الحيرة والتشوش انعكاساً، وبوضوح، علىٰ وجهه. وراح سكوكروفت يفكر، وهو يتابع صراع الرئيس مع الخلافات العرقية المعقّدة الكامنة وراء النزاع، إذا كان بوش نفسه قد وجد صعوبة كبيرة في فهم التباينات والقضايا، فكيف يستطيع المواطنون العاديون في أَمريكا أَن يفهموها؟ وكيف، إذن، يستطيع بوش تبرير إرسال أبنائهم وبناتهم إلىٰ مكان بعيد جداً، إلىٰ مكان أسماء مدنه صعبة النطق إلىٰ حد كبير، في سبيل الدفاع عن قضية باعثة علىٰ هذا القَدْر كله من الحيرة والتشوش بالنسبة إليه هو؟ كان التحدي في حرب الخليج قد بدا، علىٰ النقيض من ذلك، أَكثر بساطة بما لا يقاس. كان من شأن ميزان القوَّة في الشرق الأوسط أَن يتغير لو تمكن العراقيون من السيطرة علىٰ نفط الكويت وتمكّنوا، بالتالي، من الاستمرار في التسلح علىٰ مستويات متصاعدة باطراد وصولاً إلىٰ زرع الرعب في قلوب جيرانهم. كانت الأَسلحة الأَمريكيَّة ذات التكنولوجيا العالية مرشحة لأن تكون فعَّالة في الصحراء. ذلك كلّه كان سهلاً فهمه بالنسبة إلىٰ بوش مما جعله يعتقد بأن الشعب الأَمريكي قادر أَيضاً علىٰ فهمه. أَمَّا في يوگوسلاڤيا فلم يكن الأَمر كذلك.

وهكذا فإن مَنْ علىٰ رأس القمة، الرجل الأَكثر أَهميَّة من الجميع لم يكن راغباً في المراهنة. أَمَّا في حالة الكويت فقد كان الرئيس واقفاً من البداية وراء التدخّل ومؤيداً له. لم تكن وزارة الدفاع متحمسة للقيام بعمليَّة عسكريَّة هناك، مثلها مثل جيم بيكر. ففي كل من پاناما والخليج لم يكن بيكر، رغم أنّه قد يبدو متشدداً وصوانياً بالنسبة إلىٰ الغرباء الذين يتعاملون معه في الاجتماعات المختلفة ذات المستويات العالية، ميّالاً لاستخدام القوَّة. إن بوش هو الذي جرى استفزازه جراء ما أقدم عليه العراقيون فأقنع الجهاز البيروقراطي بالوقوف في صفّه. أَمَّا يوگوسلاڤيا فلم تشكّل في تفكيره الجيو ـ سياسي الراهن مكاناً

يمكِّن أَمريكا من استخدام قوتها العسكريَّة ويلزمها بذلك. بدت المسألة أشبه بأَكثر أنواع الحرب الأهلية القابلة للتصور تعقيداً، محصورة بأَكثريتها في إِطار الحدود المعترف بها لدولة قومية موجودة، في غياب أية استراتيجية سهلة لنشاط تبشيري ما أَو مخرج معين، ومع وجود احتمال قوي بحصول جملة من الأخطاء برأي الناس الذين يحظون باحترامه الشديد، أَي برأي قادة جيشه. كانت مقاومة بوش للتدخل مباشرة وبقيت مطردة.

ما لبث ذلك الموقف ـ مهما بلغت صعوبة الدعوة ـ أَن طغى حتى علىٰ أولئك الذين كانوا يميلون قليلاً إِلىٰ صف الداعين إِلىٰ التدخّل. قال سكوكروفت ذات مرة لزيمرمان (الذي كان سيصدر فيما بعد نداء يدعو فيه إِلىٰ استخدام القوَّة)، إِن عليك، لترد علىٰ العدوان الصربي وتضع له حداً، أَن تكون مستعداً لإِرسال قوات برِّيَّة. لم يكن أَحد توَّاقاً لأن يفعل ذلك، وخصوصاً في سنة انتخابات رئاسية، ولا سيما بالأعداد التي كان الپنتاگون يتحدَّث عنها. وعلىٰ الرغم من أَن العدد كان يتغير ـ ليصل إِلىٰ مئتي ألف جندي حيناً وإِلىٰ أَكثر من ذلك حيناً آخر ـ فقد ظل كبيراً باستمرار. إِضافة إِلىٰ ذلك، كلام كثير عن صعوبة تضاريس الأرض وطبيعتها، وعن نجاح وحدات الأنصار اليوگوسلاڤية في مشاغلة أعداد كبيرة جداً من الوحدات العسكريَّة الألماينة خلال الحرب العالميَّة الثانية. ففي إِحدى المراحل قام وزير الخارجيَّة البريطاني السابق جورج أوين الذي عُيِّن ليكون أَحد وسيطي السلام في المنطقة سنة 1992م، حين سمع بأن عدداً من الفرق الألمانية جُمدت من قِبل الأنصار، وتراوح عدد الفرق حسب الشائعات بين خمس وعشرين وست وثلاثين فرقة، بالتدقيق ليكتشف أَن عدد الفرق كان ستاً فقط، وهو عدد لا يُستهان به في الحقيقة، إِذ يبلغ تعداد أفرادها حوالي مئة وخمسين فرداً[4].

كانت التجربة قد علَّمت خبراء التخطيط العسكري أَن ليس بمقدورهم أَن

(4) مقابلة مع سكوكروفت؛ زيمرمان، 215.

يفكِّروا من منطلق القوَّة الجويَّة وحدها كلما نظروا إلىٰ يوگوسلاڤيا. الواهمون فقط (ومعهم كبار جنرالات الطيران) كانوا، برأيهم، يظنون بأن سلاح الجو وحده قادر علىٰ إنهاء الورطة. فمعظم هؤلاء ـ خبراء التخطيط ـ كانوا قد نضجوا وبلغوا من العمر مبلغاً وقد أدركوا الحدود التي تحد إمكانيات الطيران عبر العودة إلىٰ كوريا حيث كان سلاح الجو أكثر قيمة علىٰ المستوى التكتيكي مما هو على الصعيد الاستراتيجي، وخصوصاً في ڤيتنام، حيث برزت عيوبه بصورة بالغة الوضوح. كان ذلك صحيحاً بشكل خاص بالنسبة إلىٰ كبار جنرالات وزارة الدفاع، من أمثال پاول، ممن كانوا، جميعاً، قد خدموا في ڤيتنام لفترة واحدة أَو اثنتين وكانوا متشككين حول القوَّة الجويَّة كعلاج بصورة مطلقة. وإذا لم ينجح الطيران فقد نصبح بحاجة لنشر قوات برية، وعندئذ نكون قد بدأنا نغوص تدريجياً في مستنقع حرب شاملة، مثلما حدث في ڤيتنام تماماً.

لعل الرأي الأَكثر انطواء علىٰ معنى حول ما ستكونه السياسة الأَمريكيَّة في يوگوسلاڤيا هو ذلك الذي كان جيمس بيكر قد أدلى به بعد زيارة غير ناجحة قام بها إلىٰ يوگوسلاڤيا أواخر حزيران/ يونيو 1991م، في محاولة يائسة للحيلولة دون تفكّك ذلك البلد. لم تكن المهمّة من نوعية المهمّات الملائمة لجيمس بيكر؛ فأولئك الذين درسوا شخصيته بعناية علىٰ امتداد السنين كانوا قد اكتشفوا أنّه لم يكن سهل الاقتراب من القضايا التي يراها خاسرة بصورة شبه مؤكدة. لم يكن بيكر مولعاً بالأماكن الصعبة، الخطرة، الملأى بالناس المسحوقين ظلماً، بأولئك الذين كانوا يطرحون مسائل سياسيَّة وإنسانيَّة تكاد أَن تكون غير قابلة للحل إن لم تكن متعذّرة الحل بصورة مطلقة. كان يميل إلىٰ تحويل مثل تلك المسائل والقضايا إلىٰ النوّاب، إلىٰ إيگلبيرگر هذه المرة، وهو الذي كان ينبغي أَن يكون المرشح الأول للاضطلاع بهذه المهمّة نظراً لأنّه عمل هناك فترتين ولأن شعب يوگوسلاڤيا كان يتعاطف معه حسب زعم الزاعمين.

كانت رحلة بيكر البلقانية إحدى أقل رحلاته نجاحاً خلال حياته المهنية

كلها؛ كانت أسوأ، كما قال فيما بعد، من التعامل مع قادة القوى المتنافسة في الشرق الأوسط، هؤلاء القادة الذين كانوا، كما سبق لبيكر أن قرَّر منذ زمن طويل، مفتقرين إلىٰ الكثير من الصفات المطلوبة كمستمعين. كان قد أشار، بكثير من الأناة والصبر، إلىٰ الكثير من الأَسباب التي تدعو القادة اليوگوسلاڤيين، علىٰ اختلافهم، إلىٰ اتباع نصيحة الولايات المتحدة والأوروپيين والإِحجام عن إِنزال مصيبة حرب انتحارية مدمّرة ببعضهم البعض، وألمح إِلىٰ العواقب الاقتصاديَّة الواضحة التي ستترتّب علىٰ السير في هذه الطريق الخطرة التي ستجلب الكوارث إِلىٰ منطقة غارقة أساساً في فقر يبعث علىٰ اليأس. أشار بيكر أَيضاً إِلىٰ أنّه كان ينطق بلسان الدول الأوروپية أَيضاً. غير أَن ذلك لم يؤثِّر قط. قُوبل كلامه بآذان صماء. لا أَحد ـ خصوصاً ميلوسوڤيتش ـ أعار ذرَّة انتباه لما قاله. غادر بيكر يوگوسلاڤيا غاضباً ومُحْبَطاً، شاعراً، باعتقاد مساعديه، بأن هؤلاء القادة البلقانيين لم يكن لديهم أَي إِحساس إِنساني بما كان يصبّ في خانة مصلحتهم. فما جدوى تبديد الكلام العقلاني علىٰ من هم دون عقل؟ ما الداعي لأن تتعب نفسك؟ بدا بيكر معتقداً أَن ما حدث هناك لم يكن إِلاّ شيئاً استحقه أولئك القادة، وعلينا أَن نغسل أيدينا من المسألة كلها.

وبعد ذلك تمثَّلت سياسة الإِدارة في البلقان، كما صاغها بلغة مفهومة بسهولة لدى الأَمريكيين العاديين، بعبارة «لا كلب لنا في ذلك الشجار». كانت عبارة موفقة، غير أنّها كانت منطوية، باعتقاد منتقدي الإِدارة، علىٰ خلاصة وجهة نظر بوش ـ بيكر إِلىٰ مجمل عالم ما بعد الحرب الباردة الجديد المضطرب كله، عالم كان زاخراً بطوفان من المآزق، فيه القليل من الخيارات الإِيجابية والكثير من الخيارات السلبيَّة، عالم كان من الأفضل، عموماً، تجاهله ببساطة.

---

(5) ديڤيد أوين، 6.

الفصل الخامس

تمثَّلت مفارقة انتصار حرب الخليج باحتمال أَن يكون من جرى الاحتفال بهم من فروع أَسلحة وقيادات عسكريَّة في الختام هي الفروع والقيادات الخطأ. كانت القوَّات البرِّيَّة الأَمريكيَّة وفي طليعتها وحدات المدرعات قد أذلَّت جيشاً عراقياً جبّاراً مزعوماً، ولكنه بات ممرغاً في الوحل، وكانت الصور الختامية والأَكثر دواماً لتلك الحرب صور الأسرى العراقيين المثيرين للشفقة المصفوفين في أرتال لا نهائية لا ترى العين آخرها. كان المشهد شديد الإِثارة للأسى بالنسبة إِلىٰ جزء كبير من العالم حتى أَن مصممي الحرب قرَّروا وقفه بأسرع مما كانوا مرشحين عموماً لأن يفعلوا، خوفاً من العواقب السلبيَّة التي يمكن لمثل هذه المناظر أَن تتمخض عنها إِذا ما عُرضت في العالم العربي. تمثَّل الانطباع الأخير عن الحرب بأنّها كانت انتصاراً فريداً للقوات البرِّيَّة، وبأن البطلين اللذين برزا علىٰ الساحة كانا، كلاهما، من رجال الجيش [القوَّات البرِّيَّة]، نورمان شوارتزكوپف وكولن پاول. غير أَن بعض المحلّلين كانوا يرون أَن النصر كان عائداً أَكثر إِلىٰ سلاح الجو كما إِلىٰ استخدام ذخائرها وقذائفها الجديدة الموجّهة بدقَّة مع منظومات إِيصالها المتطوِّرة جداً.

إِذا كان رجل واحد مسؤولاً عن هذا الجانب الأَكثر أصالة من جوانب حرب الخليج فقد كان ذلك الرجل متمثِّلاً، حسب اعتقاد هؤلاء المحلّلين، باستراتيجي جوي لامع ولكنه غير مشهور، هو الكولونيل جون واردن الذي يدعوه بعض مرؤوسيه من الضبَّاط والطيارين تحبُّباً (ولكن ليس في وجهه) جون

المجنون. ولو أرادت إِحدى المجلات المصورة أَن تزين غلافها بصورة الرجل الذي كان قد لعب أَكثر الأدوار حسماً في تحقيق النصر، لبادرت، دون تردّد، إِلىٰ اختيار واردن بدلاً من پاول أَو شوارتزكوپف. أضف إِلىٰ ذلك أَن هؤلاء المحلّلين كانوا يعتقدون بأن ما كان قد جرى في حرب الخليج، علىٰ أهميته، لم يكن إِلاّ بداية، دشنت تلك الحرب حصول تغيير حاسم في طبيعة استراتيجية أَمريكا الجويَّة التي باتت تتيح للأمة [الدولة] فرصة تعظيم الإِفادة من هذه الأَسلحة الجديدة المفرطة في تطوّرها. فالأَسلحة الموجّهة بدقّة، التي كانت في مراحلها الجنينية في ڤيتنام، كانت قد بلغت سن الرشد في هذه الحرب، وباتت أَمريكا، بوضوح، متقدِّمة أشواطاً علىٰ صعيد إِنتاجها واستخدامها. وبالتالي فإِن أَمريكا كانت قد دُفعت إِلىٰ موقع يمكّنها من امتلاك قوة عسكريَّة لا نظير لها ـ دون الأَسلحة النووية ـ لم يسبق لها أَن وُجدت قط في حقبة ما بعد الحرب العالميَّة الثانية، وكان من شأن عواقب هذه القوَّة غير المسبوقة أَن تكون بعيدة المدى علىٰ الصعيدين السياسي والعسكري كليهما.

ثمة فريق كبير من كبار الضبّاط في المؤسسة العسكريَّة كان قد تابع التقدّم الفريد الحاصل علىٰ صعيد حَمْلة التكنولوجيا المتطوّرة الجويَّة في غضون الأسابيع الخمسة الأولى واقتنع بأن الحرب انتهت عملياً قبل دخول القوَّة البرّيَّة المعركة، إِذ كان الجيش العراقي قد تمّ سحقه حتى بات أشلاء تحت وطأة الاستخدام غير المسبوق لسلاح الطيران. غير أَن الحملة الجويَّة التي دامت ثلاثة وأربعين يوماً افتقرت إِلىٰ الوجوه والصفة الإِنسانية، في حين قدمت الحرب البرّيَّة إِلىٰ الشعب الأَمريكي ما كان يريده من وجوه حية وانتصار نهائي منظور ـ وملموس جداً. وبالتالي فإِن لحظة ثورية حقاً في الحرب الحديثة ربما تعرّضت لقَدْر غير قليل من الاستخفاف، ليس من جانب الجمهور الواسع فقط، بل ومن جانب عدد كبير من المدنيين المسؤولين عن الأمن القومي، بل وربما بعض كبار ضبّاط القوّات المسلَّحة.

في أثناء حرب الخليج كان واردن رئيس فريق سري جداً تابع للطيران

مكلّف بالعمل داخل البنتاگون معروف باسم تشكميت [هزيمة الشاه في لعبة الشطرنج ـ الهزيمة الكاملة مجازاً]. كان بعض الخبراء العسكريين يعتبرونه شخصية مهمّة، رمزاً نموذجياً ليس في سلاح الطيران فقط، بل بين سائر منتسبيها، جيل أكثر شباباً من الضبّاط التوّاقين إلىٰ تكييف أشكال التفكير، التخطيط، والهيكلة العسكريّة وتعديلها بما ينسجم مع استعمالات الأسلحة الجديدة. وقد تبيّن أن معارضي أفكار واردن الثورية لم يكونوا، كما يمكن للمرء أن يتوقع، من منتسبي الجيش أو حتى من المدنيين، بل ضبّاطاً كباراً في سلاحه هو بالذات، خصوصاً جنرالات النجوم الثلاث والأربع المسيطرين علىٰ، والمتحكمين بجزء كبير من استراتيجية القوّات الجويّة ولاهوتها من القيادة الجويّة التكتيكية، **التاك** TAC. كان هؤلاء أكثر تقليديّة بكثير في نظرتهم إلىٰ طبيعة المعركة وكانوا مؤمنين بأن سلاح الطيران موجود لإسناد الجيش علىٰ الأرض وقطع طرق إمداد القوّات المعادية. كانوا يحتقرون واردن وأفكاره في خصومة لم تتضاءل قط.

إعداداً لعاصفة الصحراء، كان شوارتزكوپف قد سارع فوراً إلىٰ طلب خطة جويّة، ومنذ تلك اللحظة التي اضطلع فيها واردن بالمهمة، كان له عدد غير قليل من الأعداء الأقوياء في منطقة واشنطن وخصوصاً في القيادة الجويّة التكتيكية حيث اشتُهر بأنّه متمرّد [عَوار] دائب علىٰ مهاجمة مبادئ مهنته العريقة بالذات. كان فرسان التاك TAC أصحاب نفوذ في الطيران، مؤلفين، كما قال أحد الضبّاط، عصابة مافيا قوية مستقلّة. بصورة اعتيادية كان يتعين علىٰ طلب شوارتزكوپف أن يتوجه إلىٰ اللواء جيمي آدامز، نائب رئيس أركان سلاح الجو لشؤون التخطيط والعمليّات، استراتيجي آخر من الطراز القديم في القيادة الجويّة التكتيكيّة. غير أن آدامز هذا كان في إجازة فتمت إسالة الطلب إلىٰ واردن. كان التباين بين فلسفتي الرجلين شديداً إلىٰ حدّ التطرّف. فآدامز وكبار ضبّاط التاك TAC الآخرين كانوا يريدون استخدام الأسلحة الجديدة بالأسلوب

التقليدي، لإسناد القوّات البرية الأَمريكيّة وقطع طرق الإمداد علىٰ الجيوش المعادية في ساحة القتال. وكانوا يرون واردن متطرّفاً في ثوريته من جهة ومبالغاً في نظريته من جهة ثانية. أَمّا واردن فكان، بدوره، يعتبرهم أناساً ينتمون إِلىٰ قرن آخر أخفقوا في فهم الإِمكانيات والطاقات التي وفّرها جيل الأَسلحة الجديد للاستراتيجيين.

كان واردن، وهو ضابط متمرّد ومحطِّم للأصنام تخرّج في أكاديمية سلاح الطيران في 1965م، قد حلّق في طائرات مقاتلة ومهمات استطلاع جويَّة في ڤيتنام التي غادرها شديد السخط علىٰ ما اعتقده سوء استخدام للقوة الجويَّة. فحين فكّر بڤيتنام، كان ما يتذكّره متمثّلاً بقواعد الاشتباك الخاصة. فشاحنات العدو التي اصطفّت أرتالاً علىٰ امتداد حدود ممر هوشي منه، ومصابيحها ما زالت مضاءة، كانت أَهدافاً حُظِّر عليه، هو وزملاؤه، أَن يقصفوها حتى تبدأ التوغل في الممر، حيث تكون قد أطفأت الأنوار. وقد تذكر، بشيء من المرارة، حفل عشاء الوداع الذي أقيم علىٰ شرفه في تايلاند، حين قفز واقفاً وأعلن أَنَّه لا يرغب قط في أَن يكون شريكاً في أَي شيء كهذا مرة أُخرى. كان يعتقد أَن الأَمر لم يكن أخلاقياً ـ لا الحرب نفسها، مقاتلة الڤيتناميين الشماليين، بل الطريقة التي كنا نخوضها بها، مع هذا العدد الكبير من القيود. كان زملاؤه الطيّارون الذين اجتمعوا في الحفل جميعاً متفقين معه في الرأي وصفّقوا له بحماس، علىٰ الرغم من أَن نقيباً من القوّات البرِّيَّة الخاصَّة تحدّاه لاحقاً وطلب منه أَن يبارزه ملاكمة خارج المطعم، نتيجة سوء فهم ما قاله عن لا أخلاقية الحرب.

مع حلول أواسط الثمانينيّات، كان واردن يُعتبر، وقد بلغ منتصف الطريق في حياته المهنية، ألمعياً، مبدعاً حقاً، وصَعْب المراس علىٰ المستوى نفسه، رجلاً لم يتقن قط فنّ الالتزام بالتسلسل الهرمي. كان لامع الاتقاد بأفكاره الخاصّة، شديد الثقة والاطمئنان إِلىٰ أنّه كان علىٰ صواب **في كل القضايا**، حتى

أنّه نادراً ما كان يصغي إلىٰ ما يقوله أولئك الذين يخالفونه الرأي. ثمة لقب آخر كان يحمله بين نظرائه ألا وهو واردن «الفرص المناسبة» لأنّه إذا طرح فكرة وجيهة وقُوبلت بالرفض من أحد الرؤساء فقد كان يبادر ببساطة إلىٰ الانقضاض علىٰ الفرصة المناسبة التالية ويعيد طرح الفكرة علىٰ مستوى أعلىٰ بدرجة، مثيراً في هذه الأثناء حفيظة سلسلة طويلة من الرؤساء. وكما هو متوقع فقد كان النظام يكرهه علىٰ الرغم من أن عدداً غير قليل من الضبّاط المتمردين الشباب، المعزولين، العاملين داخل النظام والساخطين عليه غالباً، كانوا يعتبرونه أحد أكثر مفكّري السلاح أصالة. ومع ذلك فإن أحد المعجبين لاحظ مرة أن واردن لم يكن متوازناً. نظراً لإيمانه بأنّه علىٰ صواب في جميع الأمور كان يناقش حول أية مسألة صغيرة وهامشية بحماسة لا تقل عن الحماسة التي يناقش بها قضية ذات علاقة بالاستراتيجيا الكونيّة، رافضاً أن يتزحزح قيد أنملة عن موقفه. كان قد تولّى قيادة أحد الأجنحة لفترة وجيزة جداً في الثمانينيّات بألمانيا، غير أن تلك لم تكن تجربة ناجحة. كان قدأثار غضب مرؤوسيه بأوامره القاضية بارتداء «الفساتين» بدلاً من «البناطيل» [السراويل] في نادي PX والنوادي المختلفة، وحول امتيازات مواقف السيارات. ما لبثت رحلته كقائد جناح أن تعرّضت للقطع.

بنظر العاملين في القيادة الجويّة التكتيكيّة كان الطيران للطيارين، وكان الطيّارون يحلّقون، أمّا إذا كنت لا تطير، إذا كنت تكتب أو تخطّط، فلست في الحقيقة رجل طيران. أنت خارج السرب بطريقة أو بأخرى، لست واحداً من أصحاب البيت. كان ترفُّعهم عن واردن ملموساً، غير أنّه نجح بطريقة ما في الاستمرار داخل المؤسسة، قادراً، باستمرار، علىٰ الاهتداء إلىٰ ولي نعمة مهم يكون مستعداً لوضعه في زاوية بعيدة عن العواصف البيروقراطية حيث يكون التقليديُون عاجزين عن أن ينالوا منه. ولدى اندلاع حرب الخليج كان الجنرال مايك دوگان، رئيس أركان سلاح الجو، الذي كان سيطرده ديك تشيني بعد

قليل جراء ما اعتُبر تصريحات مثيرة للغضب أطلقها عشية الحرب، مضطلعاً بذلك الدور. كان واردن دائباً علىٰ الإعداد لحرب كهذه منذ ما قبل قيام الجنود العراقيين باجتياز الحدود الكويتية بزمن طويل. ففي السبعينيّات والثمانينيّات خصوصاً، مع صيرورة تكنولوجيا الذخائر الحديثة أكثر تطوراً بصورة متزايدة باطراد، كان واردن يعمل علىٰ صياغة استراتيجية مرشحة، مستقبلاً، لأن تمنح الولايات المتحدة (وسلاح الطيران)، وهما طليعيّان في لعبة التكنولوجيا العالية الجديدة هذه، الحد الأقصى من الفاعلية والتأثير عبر استخدام هذه الأَسلحة والتكنولوجيات المبتكرة. كانت المشكلة مع أكثرية كبار استراتيجيي الجيش، في الطيران وغيره، متمثِّلة، باعتقاد واردن، بأن هؤلاء كانوا، لدى حصولهم علىٰ أَسلحة جديدة تكاد أَن تكون مبتكرة وقدرات أَو إِمكانيات حديثة جداً، يميلون إِلىٰ استخدام تلك الأَسلحة والإِمكانيات وفق استراتيجيات قديمة، محيّدين بذلك، إِلىٰ حد بعيد، طاقاتها الكاملة.

بات ذلك أَكثر صحّة من أَي وقت مضى مع مجيء مقاتلات الخلسة والقنابل الذكية [الموجَّهة بدقَّة]. كان ضبَّاط القيادة الأعلى مرتبة قد درجوا علىٰ اعتبار الطيران سلاح استنزاف هائل في حال الدخول في حرب بريَّة مع السوڤييت في أوروبا. ففي هذه الحالة كنا نستطيع أَن نزوِّد مقاتلات الخلسة عندنا بهذه القذائف الدقيقة بصورة مدهشة وتوظيفها لقطع الطريق علىٰ القوّات والإِمدادات السوڤيتية المتوجهة غرباً عبر أوروبا الشرقيَّة. لم يكن واردن يستطيع كبت احتقاره الشديد لمثل تلك الاستراتيجية بوصفها إِساءة استعمال فاضحة للطاقات إِلاَّ بقدر كبير من الصعوبة.

وبدلاً من ذلك ما لبث واردن أَن خرج إِلىٰ الملأ ومعه استراتيجيته الخاصة، استراتيجيته القائمة علىٰ هشاشة الدولة الحديثة غير العادية أمام هذه الأَسلحة الجديدة. فكلما كانت الدول أَكثر حداثة، كان اعتمادها علىٰ الطاقة الكهربائية، نُظم الاتصالات، منابع النفط، وشبكات المواصلات والطُّرق أكبر،

مما كان يجعلها أَكثر تعرّضاً للخطر في مواجهة هذا النوع من الحرب. فمع دقّة إصابة القصف الجوي الحديث بات من الممكن شلّ الدولة الحديثة ممكناً عبر استئصال جهازها العصبي المركزي، كما لو كنت تحقنها بكثير من السرعة والرشاقة بجرعة سمِّيَّة مؤقتة قادرة علىٰ تجميد قدرتها علىٰ القيام بوظائفها كدولة علىٰ الصعيدين العسكري وغير العسكري. أضف إلىٰ ذلك أَن من شأن ذلك أَن يتم بقَدْر محدود من المخاطرة من جانب القوّات الأَمريكيَّة، وألا يتسبَّب إلاَّ بقَدَرْ محدود من الأضرار الجانبيَّة نظراً لدقَّة القنابل المقصوفة، بل ودون التسبّب إلاَّ بقَدْر محدود نسبياً من الأضرار المادِّيَّة، أَو مع إبقاء الأضرار المادية خاضعة للتحكّم إلىٰ حدّ بعيد علىٰ الأقل. بهذه الاستراتيجية كان المرء يستطيع أَن يُلْحق الأذى بمن أشعلوا فتيل الحرب، لا جنود وحدات المشاة المساكين الذين ساقتهم حظوظهم العاثرة إلىٰ ميادين القتال علىٰ الجبهة.

أدرك واردن أَن الولايات المتحدة كانت، بفضل النجاح والديناميكيّة العظيمين للاقتصاد الأَمريكي والأشواط الكبيرة التي تمّ قطعها علىٰ صعيد تكنولوجيا الكومبيوترات والصواريخ، متقدِّمة كثيراً علىٰ باقي العالم من حيث تقدّمها التكنولوجي ـ العسكري، وأن أشكال التقدّم هذه تحقَّقت بالدرجة الأولى في سلاح الطيران، وبقدر ربما أقل في سلاح البحرية مع صواريخ كروز، وبقدر قليل جداً في الجيش [القوّات البرّيَّة]. ومع حلول أواخر عقد الثمانينيّات من القرن العشرين كانت نماذج التقدّم هذه دائبة علىٰ التحقّق منذ ما يقرب من عشرين سنة، مضاعفة تراكمياً درجة دقّتها حتى بتنا بصدد تغيير في الكمّ. أصبحنا، باعتقاد واردن، قادرين علىٰ استخدام سلاح الجو بصورة أفضل من أية دولة في أَي وقت مضى، حتى في الماضي القريب، بل وكانت لدينا أنظمة إِيصال حديثة بالغة الإِثارة تتناسب مع هذه القنابل الذكية الموجّهة بدقَّة، أعني أسراب مقاتلات الخلسة من طراز F-117 (قاذفة صغيرة أَكثر منها مقاتلة في الحقيقة) شبه المحصّنة ضد تحرّي الرادار.

رأى واردن العدو بؤرة هدف علىٰ دريئة، محاطة بخمس حلقات دائرية داخل كل منها شيء ذو قيمة عالية بالنسبة إِلىٰ الهدّافين مثل شبكة الطاقة، شبكة الاتصالات العسكريَّة، مخازن الوقود، شبكة الاتصالات العادية، التي لا تقل أَهميَّة عن الاتصالات العسكريَّة رغم أنّها مساعدة، وشبكة طُرق المواصلات، العسكريَّة منها والمدنية. كنت تستطيع، حسب اعتقاد واردن، أَن تشلّ أَي عدو وتجرّه إِلىٰ طاولة التفاوض دون تدمير شعبه. وحين قام أخيراً بتقديم خطّته إِلىٰ الجنرال شوارتزكوپف أولاً وإِلىٰ الجنرال پاول بعد ذلك، لفت النظر بأولوية الهجوم علىٰ شبكات الاتصالات السياسيَّة والعسكريَّة العراقيَّة، وبلا مبالاته شبه الكاملة بالجيش العراقي علىٰ الجبهة، الذي اعتبره، خلافاً لجنرال الجيش، قليل الأَهميَّة بعد النجاح في تخدير وشلّ الجهاز العصبي المركزي العراقي. ثمة تعديلات تم إِدخالها لاحقاً تلبية لطلب شوارتزكوپف وپاول من أجل إِيلاء قَدْر أكبر من الانتباه إِلىٰ مهاجمة قوّات الميدان العراقية.

فيما مضى، علىٰ الأخص في الانقضاض الجوي علىٰ ألمانيا في الحرب العالميَّة الثانية، كان القصف **متسلسلاً** بدلاً من أَن يكون **متزامناً**. ولأن تكنولوجيات القصف كانت بدائية جداً والدقّة في الإِصابة محدودة جداً كان من شأن إِلحاق ضرر كبير نسبياً بأحد الأَهداف، وشلّه بصورة جزئية فقط علىٰ الأغلب، أَن يتطلّب من القوَّة الجويَّة الثامنة أسبوعاً كاملاً من الجهد. وبعد ذلك تنتقل القاذفات إِلىٰ هدف آخر، فيما تتاح للألمان فرصة إِصلاح الخراب الأخير. وقد كانت تلك، بتعبير واردن، حملة مسلسلة. غير أَن التكنولوجيا الحديثة كانت تسمح للمخطّطين بأن يلاحقوا العدد الذي يريدونه من الأَهداف في اليوم أَو اليومين الأولين والإِجهاز عليها بقدر مدهش من الدقّة. كانت الأَسلحة الحديثة قد قَلَبَتْ معادلة الطيران التقليديَّة رأساً علىٰ عقب. في الحرب العالميَّة الثانية كانت المسألة تدور حول العدد المطلوب من الطائرات للقضاء علىٰ هذا الهدف أَو ذاك؛ أَمّا الآن فإِن المسألة تكمن في عدد الأَهداف التي

تستطيع طائرة **واحدة** ذات قذائف موجّهة بدقَّة أن تقتلعها من أماكنها. كان واردن قد درس الحملة الجويَّة علىٰ ألمانيا، وفي سنة 1943م كلّه حين كان الحلفاء يغيرون علىٰ أهداف ألمانية، لم يكن هؤلاء قد ضربوا إلاَّ خمسين منها. أمَّا الآن فإنّك تستطيع، إذا كان لديك خمسون إلىٰ ستين هدفاً أساسياً، أن تضربها جميعاً بدقّة مدمِّرة في الساعات القليلة الأولى من الحرب. وبالتالي فأنت بصدد حملة متوازية أو متزامنة لا حملة متسلسلة.

حين وصل طلب شوارتزكوپف القاضي بوضع خطة حملة جويَّة إلىٰ واردن في آب/ أغسطس 1990م، كانت تلك هي المهمّة التي كان قد انتظرها وحلم بها علىٰ الدوام. مورست ضغوط للحصول علىٰ نتائج مباشرة، وفي يومين اثنين فقط وضع مشروع خطة لاستخدام الطيران بالاستناد إلىٰ أفكاره واستراتيجياته، من المؤكد أن أعضاء القيادة كانوا سيقفون ضدّه، غير أن أحد رؤساء واردن تمكّن بدهاء من تأجيل إيجاز كان يفترض أن يقدّمه أمامه إلىٰ **ما بعد** قيامه بإيجاز شوارتزكوپف حتى يكون الأمر قد أصبح محسوماً. لم يكن الجميع سعداء بالخطّة وفي إحدى حلقات الإيجاز رفيعة المستوى كان أحد كبار ضبَّاط سلاح الجو قد قال إنها باطلة كلياً. تمثَّل الأسلوب الصحيح بإسقاط قنبلة كبيرة في مكان قريب نسبياً من بغداد تُظهر من خلالها لصدّام ما نستطيع فعله، وإذا لم يؤد ذلك إلىٰ إقناعه بالمجيء إلىٰ الطاولة نتابع إسقاط القنابل في أماكن جديدة أقرب فأقرب منه.

بنظر واردن كان ذلك غريباً، نوعاً من التدرّج الذي يذكِّر بڤيتنام. وانطلاقاً من احتفاظه بمرارة إساءة استخدام القوَّة الجويَّة في ڤيتنام والاستخدام المتدرج للطيران في عمليَّة الرعد المتدحرج، كان واردن قد تعمّد إعطاء عمليته اسم **الرعد الآني**. وقد قال لمرؤسيه الضبَّاط الصغار في ورشته الخاصة: «أليس هذا رعدكم المتدحرج. نحن بصدد حرب حقيقيَّة، وأحد الأشياء التي نريد تأكيدها

منذ البداية هو أن هذه ليست ڤيتنام! هذه خطة صحيحة! هذا استخدام صحيح للطيران!»[1].

من بين جميع كبار القادة في التسلسل الهرمي الذين علّقوا علىٰ عروض واردن الموجزة المبكرة كان شوارتزكوپف بالذات الذي كان شديد الرغبة في اختزال الإصابات الأَمريكيَّة والتحالفية في الحرب، والذي تمكّن علىٰ الفور من التقاط الإِمكانيات التي كان واردن يعرضها عليه، هو الأَكثر حماساً. في البداية شعر شوارتزكوپف بشيء من الريبة إِزاء واردن ظانّاً أنّه، بكلمات شوارتزكوپف، صنَّف كورتس لومي عصر جديد مؤمن بأن الطيران قادر علىٰ حلّ جميع المعضلات. غير أَن شوارتزكوپف كان سعيداً بمرونة وأصالة خطة واردن، ومسروراً حقاً لأنها وُضعت بهذه السرعة[2]. كان القائد الأَمريكي سيختلف مع واردن لاحقاً حول بعض النقاط؛ فقد أراد مثله مثل پاول قَدْراً أكبر من التأكيد لقصف الجيش العراقي علىٰ الجبهة. غير أَنَّه أصغى باهتمام إِلىٰ عرض واردن الذي عبّر عن الإِيمان بأننا قادرون علىٰ إِخراج الطيران ومنظومات الدفاع الجوي العراقيين من المعركة في غضون ستة أيام. علّق شوارتزكوپف قائلاً: «إِنَّ هذا هو ما أحتاجه تحديداً». كان واردن غارقاً، بالطبع في بحر من النشوة، لحصوله علىٰ ولي نعمة بمثل هذه القوَّة والنفوذ، ومن **الجيش** [القوَّات البريَّة] من بين كل الأماكن، ولم يتردّد قط إِزاء التمسّك به. وفيما كان موشكاً علىٰ إِنهاء إِيجازه، اقترب من شوارتزكوپف وقال له: «إِذا طبّقت هذه الخطة، أيها الجنرال، فسوف تكون أول شخص يحقِّق انتصاراً علىٰ هذا المستوى من الكمال منذ نزول ماك آرثر إِلىٰ إِنتشون». إِن ضابطاً كبيراً من سلاح الجو يدعى الميجر جنرال روبرت ألكساندر، كان قد رافق واردن إِلىٰ لقاء شوارتزكوپف الإِيجازي، أُصيب بالدهشة إِزاء تملّق واردن الوقح ـ خوفاً من أَن يؤدي ذلك

---

(1) رينولدز، 29.

(2) شوارتزكوپف، 318 ـ 319.

إلىٰ تعريض الخطة كلّها للخطر. لم يقل شوارتزكوپف شيئاً، غير أنّه بدا مشرقاً وانتفخ قليلاً[3].

تأثّر كولن پاول أيضاً بالخطة، مثله مثل ديك تشيني. غير أَن واردن ما لبث، فيما بعد، أَن علم بأن جزءاً غير بسيط من مشكلته كان متمثلاً بإِقناع أناس لا يعرفون شيئاً عن المواصفات الخاصة بالتغيير الدرامي المثير الحاصل في عالم الأَسلحة خلال السنوات العشر الأخيرة. وبالتالي فقد أشار هو ورجاله إِلىٰ أَن قذيفة بي 17 متوسطة خلال أية غارة في الحرب العالميَّة الثانية كانت تخطئ هدفها بحوالي 2300 قدم. وإِذا أردت تحقيق إِصابة هدف معيَّن باحتمال تسعين بالمئة، فقد تعين عليك أَن تلقي ما يقرب من تسعة آلاف قنبلة. وكان ذلك يتطلب شن غارة بألف طائرة وتعريض ألف طيّار للخطر. أَمَّا مع الأَسلحة الجديدة فإِن طائرة واحدة يقودها رجل واحد تستطيع بقنبلة واحدة أَن تحقِّق المستوى ذاته من الاحتمال. لقد شكَّل ذلك تحسّناً في الفاعلية بنسبة تقرب من عشرة آلاف ضعف. في نهاية الإِيجاز عدّل تشيني من جلسته وقال: «الآن فهمت للمرة الأولى سبب ثقتكم الكبيرة بهذا كله».

تلك كانت اللحظة التي يتصادم فيها عصر تكتيكات القوَّة الجويَّة الجديد مع نظيره القديم. وبالنسبة إِلىٰ واردن تبيّن أَن التعامل مع رجال مثل شوارتزكوپف، پاول، وتشيني كان أسهل من التعامل مع رؤسائه بالذات. تمثَّل أكبر العراقيل باللفتنانت جنرال تشارلز هورنر الذي كان سيتولّى قيادة القوَّة الجويَّة الأَمريكيَّة كلها في مسرح العمليَّات. كان هورنر أحد رجال قيادة القوَّات التكتيكية (التاك) قلباً وقالباً، تقليدياً علىٰ علاقة وثيقة بالجنرال روبرت روس، قائد (التاك) ذي النجوم الأربع في لانغلي، وبجيمي آدامز. قام شوارتزكوپف بإِبلاغ هورنر بأن واردن وفريقه كانوا سيأتون لإِطلاع هورنر علىٰ موجز الخطة،

---

(3) رينولدز، 58.

وكان شوارتزكوپف يعلم أن القائد الجوي الأول عنده كان غاضباً من فكرة خطة رسمها مرؤوسون صغار في واشنطن. فقد سبق لهورنر أَن قال لشوارتزكوپف عبر الهاتف غاضباً: «سيدي! لعل آخر الأشياء التي لا نريدها هو تكرار ڤيتنام حيث كانت واشنطن تنتقي الأَهداف! إِنّها مهمة قائد سلاح الجو عندك»[4]. فأية استراتيجية صادرة عن واشنطن كانت، بنظر هورنر، تعيد إِحياء ذكريات ڤيتنام الأليمة، جنباً إِلىٰ جنب مع إِثارة نوع من الشعور بأن دوره هو، كقائد، قد يتعرّض للاختزال.

كان اللقاء في الرياض شديد القسوة والوحشية. صحيح أَن واردن كان قد توقّع أَن يكون الاجتماع صعباً لأنّه كان أخيراً سيضطر للتعامل مع معارضة القيادة الجويّة التكتيكية الهائلة التي سبق له أَن تمكّن من مراوغتها بدهاء هناك في واشنطن، غير أنّه صُعق بقوة، رغم توقّعه، كما قال فيما بعد لبعض الأصدقاء، إِزاء الحقد الشخصي الذي وُوجه به. وموقناً أَن موقفاً بالغ الصعوبة كان بانتظاره قام واردن بجلب بعض الأشياء المرغوبة التي قيل له إِن من الصعب العثور عليها في السعودية، مثل مرهم معالجة الشفاه المتشقّقة المعروف باسم **تشاب ستيك** ودهون مقاومة الشمس المعروفة باسم **صن سكرين**. حاول تقديم بعض منها إِلىٰ هورنر عربون صلح في بداية جلسة الإِيجاز ولكن الأخير دفع المراهم جانباً قائلاً: «ما هذا الخـ. . . . ؟» لم تكن بداية ميمونة ومبشّرة بالخير بالنسبة إِلىٰ عقيد [كولونيل] يحاول تقديم تقرير موجز استراتيجية جديدة ومبتكرة إِلىٰ جنرال يحمل ثلاث نجوم. لم يكن الجزء الباقي من اللقاء أفضل حالاً. ومما تذكّره أَحد شهود العيان أَن هورنر كان أحياناً يدير كرسيه مئة وثمانين درجة فيبقى واردن مضطراً لتوجيه كلامه إِلىٰ ظهر هورنر. وما من شيء قاله واردن إِلاّ وتحداه هورنر. لم يكن لدى الأخير، خلافاً لحال واردن، أية ثقة ذات شأن بكل من الاستراتيجية الجديدة ومقاتلات F 117 الخلسة الجديدة.

---

(4) شوارتزكوپف، 321.

وقد كان قلقاً أَيضاً بشأن خطة واردن، تلك الخطة الموجهة في البداية ضد كل شيء تقريباً في هيكل المؤسسة العسكريَّة العراقية عدا جيشها الجرّار المنشور سلفاً علىٰ امتداد خطوط الجبهة وساحات القتال، وبعض أجزائه متمركز في أماكن قريبة جداً من الحدود السعودية، تلك الخطة التي كان من شأنها أَن تبقي هورنر مكشوفاً أمام عمليَّة اجتياح عراقية كبرى بالدبابات. لم يكن هورنر هذا مستعداً للإِصغاء إِلىٰ كلام منظِّر شاب لامع موفد من واشنطن ـ حتى وإِن سبق له أَن حصل علىٰ موافقة شوارتزكوپف واستحسانه.

كان، في الحقيقة، صداماً بين سلاح الجو القديم وسلاح الجو الجديد. كان هورنر، باعتقاد واردن، واضح الازدراء للرجل، وفي إِحدى المراحل حاور أَحد مساعديه كما لو كان يكلم معتوهاً: «إِنني صبور جداً، جداً، أليس كذلك؟» وافقه المساعد. «إِنني متسامح وواسع الصدر جداً، جداً، ألست كذلك؟» وافقه المساعد. «إِنني لطيف حقاً إِذ لم أقدِّم ذلك النوع من الرد الذي يمكنكم أَن تتوقعوه مني، أليس كذلك؟» رد عليه المساعد بالإِيجاب[5]. أخيراً، قبيل انتهاء اللقاء التفت هورنر إِلىٰ بعض أصحابه وقال: «لم تتوقّعوا أَن أتمكَّن من ضبط أعصابي، أليس كذلك؟»[6] كان يرى خطة واردن مفرطة في التنظير.

شكَّل الاجتماع نهاية حقبة علىٰ صعيد استخدام الطيران: حلول استراتيجية جديدة كلياً محل أُخرى. كان هورنر قد أوسع واردن ضرباً ولكماً دونما رحمة. وحين أوشك اللقاء علىٰ نهايته توجّه هورنر إِلىٰ أربعة من كبار مساعدي واردن وسألهم واحداً واحداً عما إِذا كانوا راغبين في الالتحاق بهيئة أركانه هو، ففعلوا. انتهى الأَمر؛ كان هورنر قد أهان واردن، قد سطا علىٰ مساعديه واستراتيجيته ـ لم يكن لدى هورنر أي خيار آخر حول الموضوع؛

(5) مقابلات مختلفة؛ رينولدز، 128.

(6) غوردون، وترينور، 93.

فتلك كانت مشيئة رئيسه شوارتزكوپف ـ وأعاد واردن إلىٰ واشنطن وحده. لقد كان حتى فصله عن خطته وإِعادته إِلىٰ واشنطن منطويين، باعتقاد واردن، رغم ما فيهما من ألم، علىٰ نوع من الوجه الإِيجابي. بات قادراً علىٰ أَن ينشط في كواليس واشنطن، شارحاً الخطة للمتشككين من ذوي النفوذ. أَمَّا سخط القيادة الجويَّة التكتيكية علىٰ واردن، رغم قيام سلاح الطيران بتبنّي جوهر استراتيجيته، فقد بقي حاداً. حتى اللفتنانت مايك شورت الذي تولّى لاحقاً الجانب الجوي من المعركة في كوسوڤا واستخدم بعض تكتيكات واردن، كان يتحدَّث عنه منتقداً إِيَّاه. (لم تتم ترقية واردن قط إِلىٰ رتبة جنرال، غير أَنَّه عُيِّن مدرساً في الكلية الحربية النخبوية للطيران في مونتگومري، آلاباما، حيث تعامل مع أَلمع الضبَّاط الشباب، فما لبث أَن أصبح، للمفارقة، أَكثر نفوذاً من أَي وقت مضى).

كان جزء من حملة واردن الجويَّة قائماً علىٰ إِمكانية استخدام مقاتلة الخلسة، F 117 نايتهوك، سلاحاً رئيسياً في المعركة. فهذه المقاتلة القادرة علىٰ تضليل رادارات العدو كانت قد بدأت لتوها تثبت وجودها. سربان منها كانا سيحلّقان في حرب الخليج وسيبليان بلاءً حسناً في اجتثاث الأَهداف ذات الدفاعات الأقوى، ممهدين المعابر و«الكوريدورات» أمام القاذفات الأَكثر تقليديَّة. غير أَن هذه الطائرات لم تكن العمود الفقري لخطة واردن. تمثَّل المفتاح بدقّة الأَسلحة التي كانت تحملها، مما أتاح لها فرصة القيام بالقصف المتزامن بدلاً من المتسلسل. وقد علّق واردن لاحقاً بقوله إِن الخطة كان من شأنها أَن تكون ذاتها دون مقاتلات الخلسة، رغم أَن الإِصابات كان من شأنها أَن تكون، بالتأكيد، أكبر بكثير. جاء النجاح العسكري الذي كان واردن قد وعد شوارتزكوپف به قريباً من النجاح الذي تحقَّق له. فخلال ستة أسابيع، دأبت القوَّات الأَمريكيَّة، مستخدمة طائرات القواعد الجويَّة البريَّة، طائرات حاملات الطائرات، والصواريخ، علىٰ دكّ مكامن القوَّة العسكريَّة العراقية ونظيرتها

المدنية بصورة منهجية، شالّة إِيَّاها شللاً شبه كامل. تمّ إِخماد سلاح الجو العراقي، جرى قطع الاتصالات. والدبابات العراقية التي كانت تنتظر المعركة القادمة في الميدان وفَّرَتْ أهدافاً تدريبيَّة رائعة للقوّات الجويَّة، ودخلت اللغة عبارة **التلهي بقنص الدبابات**.

كانت الدبابات المتمركزة في الصحراء حيث قيظ النهار كان غير عادي، مثلها مثل الأشياء الأُخرى، قد أصبحت كتلاً ملتهبة. أَمَّا في المساء فإِن الرمال بردت بسرعة أكبر من الدبابات، مما مكّن طائرات إِف F 111 المزوّدة، كل منها، بست قذائف زنة خمسمئة رطل، موجّهة بالليزر وبنظام توجيه حراري، من قنص الدبابات كما تشاء تقريباً بسبب الأشعة دون الحمراء المنبعثة منها. تمّ تدمير ما يقرب من ألف وخمسمئة دبابة بتلك الطريقة. وبعد الحرب تحدَّث أَحد قادة سلاح المدرعات العراقي إِلىٰ آسريه الأَمريكيين عن أن الحرب كانت قد أصبحت نوعاً من الجحيم بالنسبة إِلىٰ طواقم الدبابات. وأضاف أَن الدبابات، خلال الحرب مع إِيران، كانت تبقى حيث لجأت ليلاً، أَمَّا في مواجهة الأَمريكيين فقد كانت تُصاب بقدر كبير من الرعب وتتحاشى البقاء في مرابضها خوفاً من القصف القاتل.

ما حدث في العراق كان مبشراً بالمستقبل. في حرب الخليج لم يكن سوى ثلث القنابل أدوات موجّهة بدقَّة، في حين تم ضرب ثلثي الأَهداف بها. ذلك يعني أَن الذخائر الموجّهة بدقَّة كانت توفِّر للقادة مستوى من الدقَّة والكفاءة لم يكن معروفاً من قبل، وتفوّقاً يكاد أَن يكون غير مسبوق في الحرب. بدا الأَمر كما لو أَن أَحد الطرفين المتحاربين في الحرب العالميَّة الأولى كان متمتعاً بالطيران الذي بات متوفراً في الحرب العالميَّة الثانية. ومن حيث ما قد يتم تحقيقه في المستقبل القريب بفضل التكنولوجيات المتطورة بسرعة، فإِن الأَمر لم يكن إِلاَّ بداية. كانت القنابل مرشحة لأن تصبح أَكثر دقة بصورة متزايدة

باطراد، كما كان من شأن القُدْرة علىٰ تجنّب رادارات العدو ومراوغتها عبر تحليقات الخلسة أَن تصبح أكبر بما لا يقاس.

إظهاراً لحقيقة أننا لم نفعل أَكثر من خَدْش السطح، قام واردن، بعد انتهاء حرب الخليج، بتعيين شاب لامع، هو اللفتنانت كولونيل روبرت أوين، عضواً في فريقه، مسؤولاً عن المهمات غير العادية. كان مكلفاً بدراسة مستوى الدقّة المتوفر الآن للمقاتلات الأَمريكيَّة وعكسه علىٰ الحاجات الجويَّة لحملة الحرب العالميَّة الثانية ضد ألمانيا، كما لو كنا نملك آنذاك التكنولوجيا المتوفرة لنا الآن. لقد كانت تلك حملة استغرقت ثلاث سنوات وتطلّبت ما لا يقل عن ستة آلاف طائرة لوقف الإِنتاج العسكري الألماني. كانت فجة، غير مضمونة الدقّة، وتسبَّبت بأعداد لا تحصى من الإِصابات بين طواقم القاذفات والمدنيين علىٰ حد سواء. ربما كان ضرب هدف معين يتطلّب تحليق ألف طائرة. كانت دائرة الرعب ـ الدائرة التي يمكنك أَن تتوقع واقعياً أَن تسقط خمسين بالمئة من قذائفك داخلها ـ واسعة نسبياً، عشرين ميلاً للقصف الجوي في البداية، متقلصة إِلىٰ حوالي ألف من الأمتار عند الاقتراب من النهاية. كانت الأضرار الجانبية هائلة. ومع الوصول إِلىٰ حرب الخليج كان ذلك الرقم قد تغيَّر بصورة مسرحية مثيرة؛ باتت دائرة الخطأ أقرب إِلىٰ ست أقدام أَو حتى أقل. وقد قَدَّر أوين أَن سربين من طائرات إِف ـ F 117 (ما مجموعه 48 مقاتلة خلسة، دون حتى قاذفات الخلسة الوشيكة من طراز بي ـ B2) كانا قادرين علىٰ شل إِنتاج أَلمانيا [الحربي] في غضون ما يقرب من ستة أسابيع.

تلك هي الطريقة التي اعتمدت للتوفيق بين الاستراتيجية والسلاح. غير أَن عمليَّة التحول الانقلابية كان من شأنها أَن تظل بطيئة وصعبة لأَسباب غير قليلة منها أَن العاملين المدنيين والعسكريين (خصوصاً كبار ضبَّاط الجيش [القوّات البريَّة]) كانوا يشعرون بأن الطيران كثيراً ما دأب من قبل علىٰ التباهي بما تستطيع القوّات الجوية أَن تفعله وحدها، دون تقديم أَي برهان. فمواقف

أَكثر الناس في النخبة الحاكمة من الأوساط المدنية والعسكريَّة كانت قد تحدّدت بفعل حروب سابقة وكان من شأن تكيفها مع الإِمكانيات الجديدة والحديثة أَن يبقى بطيئاً.

ما كان استثنائياً وقابلاً للانطواء علىٰ قَدْر غير قليل من الأَهميَّة في حال إِقدام الولايات المتحدة، إِذا فعلت، علىٰ شنّ الحرب في البلقان، تمثل بحقيقة أَن الحَمْلة الجوية في العراق لم تكن إِلاَّ البداية.

عكفت القوّات الجوية والبحرية علىٰ تحويل معظم طائراتها، بسرعة، إِلىٰ منابر موجّهة بدقّة، كما كانت الذخائر نفسها، وهي موجّهة بأشعة الليزر ومدفوعة بالصور الفوتوگرافية، تصبح أَكثر دقّة بصورة مطردة. باتت القوّات المسلحة قادرة علىٰ اختيار مبنى معيّن وليس على ضربه ككل فقط، بل وتحديد الطابق والجهة المطلوب ضربها. كان ذلك وجهاً مذهلاً من وجوه الثورة التكنولوجية. ففيما كانت تكنولوجيا الاتصالات الحديثة دائبة علىٰ جعل خوض الحرب وتعريض حياة الناس للخطر أَكثر صعوبة بالنسبة إِلىٰ أَي نظام ديمقراطي، كانت تكنولوجيا الأَسلحة دائبة، وللمرة الأولى، علىٰ توفير إِمكانية خوض نوع جديد من الحروب، نوع يتم خوضه عن بُعْد بدقّة فائقة، دون أَن يتطلّب إِلاَّ قَدْراً أقل من المخاطرة مع إِلحاق قَدْر أقل من الأضرار المادية الدائمة بالعدو ـ حملة «تدمير نظيف» كما قال محلّل السياسة الخارجيَّة لَسْ گلب. إِنها حرب سرعان ما باتت تُعرف باسم الحرب الافتراضية.

صحيح أَن التكنولوجيا أصبحت متوفرة، غير أَن معرفتها والاطمئنان إِلىٰ استخدامها كانا لا يزالان بعيدين عن اختراق نمط تفكير العسكريين والمدنيين. أضف إِلىٰ ذلك أَن المواقف مما إِذا كان مثل هذا النوع من النجاح العسكري مؤهلاً للتمخّض عن قيمة سياسيَّة موازية، كانت مفتقرة إِلىٰ اليقين. غير أَن إِغراءاته كانت واضحة علىٰ صعيد السياسة الداخليَّة الأَمريكيَّة. كان من شأنه أَن

يبدو نعمة نازلة من السَّماء بنظر الإِدارات المستقبليَّة التوّاقة لاستعراض العضلات الأَمريكيَّة فيما وراء البحار، ولكنها راغبة، في الوقت نفسه، في اختزال الخطر إِلىٰ الحدود الدنيا، وغير واثقة من دعم الجمهور والكونگرس.



الفصل السادس

كان بعض عناصر سياسة بوش الخارجيَّة سيسلّمون لاحقاً بأَهميَّة تلك الإِغراءات في التصدي للمأساة المتصاعدة في يوگوسلاڤيا. فلدى النظر إِلىٰ الوراء تبيّن لهم أنّهم كانوا قد تعثَّروا. كان لاري إِيگلبيرگر، وهو الرجل الثاني في وزارة الخارجيَّة خلال الجزء الأكبر من تلك الفترة، والرجل الأول في الأشهر القليلة الأخيرة من إِدارة بوش، يعلم أنه قد تخلَّف عن الركب، بل قد قَصَّر. اعترف لاري بأنّها القضية التي كانت الأَكثر دفعاً له إِلىٰ الشك بنفسه بعد تركه الحكم. وأضاف قائلاً: كل يوم حين أقف أمام المرآة وأَحْلِق، أتساءل عما حدث هناك. هل كان يتعين علينا أَن نفعل ما هو أَكثر، هل كان يجب عليّ أَن أعبِّر عن شكوكي بلهجة أقوى علىٰ مسمع الرئيس؟ نعم، كان قد حَذَّر مما قد يحدث، غير أنّه لم يبادر قط إِلىٰ الذهاب إِلىٰ بوش ليقول بصراحة: «اسمع أيها الرئيس، يجب عليك أَن تفعل شيئاً بشأن هذا الموضوع!». ويتذكر لاري أنّه كان، بعد فوات الأوان، قد اقترح نوعاً من التحرّك، غير أنّه لم يُقْدم قط علىٰ ممارسة **الضغط**، فعلياً، من أجل القيام بتدخّل عسكري، متنبِّهاً باستمرار إِلىٰ تكاليف مثل ذلك النوع من الالتزام والتورّط. كان رقم المئتي ألف جندي علىٰ الأرض قد زرع الرعب في قلبه، كما كان قد فعل بالنسبة إِلىٰ الآخرين.

اعتبرها بعض عاملي وزارة الخارجيَّة الأَكثر شباباً، وبعض منتقدي الإِدارة لحظة نادرة ضاعت من التاريخ. لم تكن القوَّة الأَمريكيَّة في أوج تفوّقها المطلق

فقط، بل وكان أَيضاً من الممكن إِنجاز المهمّة في البلقان مقابل ثمن أقل. من المفارقات الباعثة علىٰ السخرية أَن جماعة بوش ضَحَّت بما يمكن اعتباره أَحد أَكثر فرق السياسة الخارجيَّة التي وصلت إِلىٰ السلطة في حقبة ما بعد الحرب الباردة خبرة. فالكثير من أعضاء هذا الفريق، بمن فيهم الرئيس نفسه، كانوا قد أمضوا وَقتاً طويلاً في مواقع رفيعة في أجهزة الأمن القومي. كانت السياسة الخارجيَّة، لا الشؤون الداخليَّة، مجال الإِدارة علىٰ أصعدة الخبرة، الاهتمام، والحماس. وما ينطوي علىٰ قدر أكبر من المفارقة الساخرة، أَن هؤلاء كانوا أَكثر ميلاً، بما لا يقاس، إِلىٰ الالتزام بدور أَمريكا في العالم، وأَكثر اتصافاً بالأممية الحقيقيَّة من قيادة الكونگرس المنتمية إِلىٰ حزبهم، من قيادة الحزب الديمقراطي، من مديري الأخبار في القنوات التلفزيونية الرئيسية الثلاث، ومن البلد ككل.

إِذا كان ثمة انقسام بين جيلين كان جارياً في البلاد علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة ومن حيث الأَهميَّة الإِجمالية للنزعة الأممية، فقد كانوا جميعاً في الصف التقليدي، في الصف الذي كان يبالغ في تقويم السياسة الخارجيَّة ويؤمن بأنّها جوهر الحكم والإِدارة بالذات. فالشبيبة التي بلغت سن الرشد في حزبهم بالذات وفي الحزب الديمقراطي، في الكونگرس وفي وسائل الإِعلام، لم تكن ذات تاريخ من الالتزام، من جملة تلك التجارب التي كانت تجعل النزعة الأممية تبدو ضرورية. لم يسبق لهؤلاء الشباب والفتيات أَن عانوا من عواقب النزعة الانعزالية، وكانوا يتلقّون رسائل شديدة الاختلاف صادرة عن دوائرهم وقواعدهم حتى الأَكثر شباباً. كانت استطلاعات الرأي المختلفة قد بدأت تُظْهِر وجود نوع من التمرّد في البلاد بسبب انشغال الرئيس الدائم بالسياسة الخارجيَّة، فضلاً عن أَن المنافس الشاب الطافي علىٰ السطح عبر موسم الانتخابات الأولية في الحزب الديمقراطي، كان يستعد لاستغلال هيام بوش المَرَضي بالسياسة الخارجيَّة سلاحاً ضدّه. كان بيل كلنتون يقول في كل محطة من محطات حملته

الانتخابية كما لو كان يردّد أحد الشعارات: نحن بحاجة إِلىٰ رئيس يهتم بالغرب الأوسط جنباً إِلىٰ جنب مع الشرق الأوسط. وكان يعني، بالطبع، أن بوش كان مهملاً لمشكلات أمريكا الداخليَّة، خصوصاً الاقتصاد.

مع قدوم سنة 1992م الانتخابية لم يبق الأَمر متوقفاً عند عُزوف الرئيس نفسه عن استخدام القوَّة في صراع بدا شديد التعقيد مربكاً له فقط، بل وكانت ثمة حركة كمّاشة فعلية تفعل فعلها ضد التدخّل، حركة مؤلَّفة من فريق الأمن القومي لدى الرئيس في معسكر، وفريق السياسيين عنده في معسكر آخر. فأكبر مستشاري الأمن القومي الثلاثة لديه، ومن المفترض أَن يكونوا جميعاً واسعي الإِطلاع علىٰ مثل هذه القضايا، فضلاً عن أَن اثنين منهم كانا خبيرين بشؤون البلاد، وهم متمتعون بثقته وإِعجابه ـ أعني لاري إِيگلبيرگر، برنت سكوكروفت، وكولن پاول ـ كانوا متوجِّسين من التدخّل العسكري في يوگوسلاڤيا. وكذلك فإِن مستشاريه السياسيين، من أمثال بوب تيتر وجيم بيكر (الذي كان، في ضوء القلق المتزايد إِزاء حملة إِعادة الانتخاب التي لم تكن تسير علىٰ ما يرام، سيتحوّل قريباً من رجل أمن قوي إِلىٰ أكبر المستشارين السياسيين)، كانوا يحذرونه من المبالغة في الانخراط بالسياسة الخارجيَّة وينصحونه بالمبادرة، وبأكبر قَدْر ممكن من الإِثارة المسرحية، إِلىٰ إِبداء مستوى أعلىٰ من الاهتمام بالقضايا الداخليَّة.

ما من مراقب تابَعَ الأسلوب الذي اعتمده فريق بوش في التعامل مع نهاية الحرب الباردة شكّك بمستوى موهبة هذا الفريق. فبعض كبار القادة، مثل الرئيس نفسه، كانوا قد عملوا في إِدارات كل من نكسون، فورد، وريگان. كانوا عموماً رجالاً شديدي الحرص، أمميين، معادين للشيوعية، غير أَنّهم لم يكونوا إِيديولوجيين أَو دعاة أخلاق قويمة. نموذجياً، تابعوا ثورة گورباتشيڤ بشيء من الريبة أولاً ـ فمعظم فروع الإِدارة في الولايات المتحدة، خصوصاً وكالة الاستخبارات المركزية، أبدت بطئاً في اللحاق بالحدث ـ غير أَنّهم، حين

سلَّموا أخيراً بأنّها كانت ثورة حقيقية، كانوا قد تعاملوا معها ببراعة. كانت لمعظمهم جذور في الجناح المعتدل، الأممي للحزب الجمهوري، لا في الجناح الريگاني المنافس، الذي بدا أغلب الأحيان أَكثر اهتماماً بأخلاقيات السياسة الخارجيَّة. كانت جماعة بوش تميل إِلىٰ رؤية الحرب الباردة صراعاً جارياً بين قوتين عظميين؛ في حين كانت جماعة ريگان قد اعتبرتها صداماً بين الخير والشرّ.

قبل انتهاء الحرب الباردة كانت جماعة بوش عموماً من دعاة الانفراج، ساعين إِلىٰ نُتَفٍ صغيرة من أشكال الاتفاق مع السوڤييت مع قَدْر من الاختزال في التوترات النووية. أَمَّا الكثير من جماعة ريگان فقد كانوا، علىٰ النقيض من ذلك، حريصين ليس علىٰ مجرد الأمن القومي، بل بالأحرى علىٰ إِبراز الطرف القويم مقابل الطرف الضال. لم يكن قيام ريگان نفسه بإِطلاق صفة «الشر» علىٰ الأَسلحة السوڤيتية صدفة؛ كان من غير المحتمل أَن تخرج تلك الكلمة من فم بوش. كانت كلمة **الانفراج**، بنظر جماعة ريگان كلمة قَذِرة. فهي لم تسلّم قط بفكرة التعايش مع موسكو وظلَّت تعتبر أبناء عمومتها في إِدارة بوش مساومين [انتهازيين] دون معتقدات صحيحة. ومن بين الشريحة العليا من جماعة بوش وحده تشيني، وزير الدفاع، كان ينظر إِليه، وفقاً للمعايير المستخدمة في تقدير الإِيديولوجيا بواشنطن، علىٰ أنّه محافظ حقيقي.

كان كبار المسؤولين المدنيين في إِدارة بوش حذرين علىٰ العموم، أناساً مناسبين نشؤوا وترعرعوا ثم وصلوا إِلىٰ السلطة في غضون السلسلة الطويلة من توترات الحرب الباردة القاسية، تلك التوترات التي دأبت علىٰ تنامي خطورتها جراء التوافر المتبادل للأَسلحة النووية. كانوا قد بلغوا سنّ الرشد حين كان المرء يرث عالماً ممزقاً مشحوناً بالمصاعب، وإِذا سارت جميع الأمور علىٰ ما يرام خلال فترة حكمه، فقد كان يسلّم خَلَفَه عالماً ممزّقاً مشحوناً بالمصاعب أَيضاً. وكذلك فإِن كبار القادة العسكريين الرئيسيين كانوا حذرين، ولكن بطريقة

مختلفة، بطريقة تليق برجال سبق لهم أَن تجرعوا كأس الحرب الڤيتنامية المرّة حتى الثمالة. وبالتالي فإن التوترات الجيو سياسيَّة، بالنسبة إِلىٰ جميع المحيطين ببوش، كانت دائمة خلال سني حياتهم، وبقيت الانتصارات تدريجية من حيث الجوهر، كانت الحيلولة دون تدهور الأوضاع إِلىٰ ما هو أسوأ تشكّل، بحد ذاتها، انتصاراً. كان جميع هؤلاء من المخضرمين؛ غير أَن جناحاً كبيراً من حزبهم بالذات ما لبث، حين بادر أسلافهم أَو زملاؤهم، في بعض الحالات، ممن كانوا في الحكم قبل ما يقرب من خمسة عشر سنة، إِلىٰ اعتماد سياسة قائمة علىٰ استهداف اختزال الصراعات مع الاتحاد السوڤيتي عرفت باسم سياسة الانفراج، أَن رفض تلك الفكرة، وأصبح شيئاً فشيئاً في ظل إِدارة ريگان، جناح الأَكثرية.

كان بعض أصحاب بوش، مثل سكوكروفت وإِيگلبيرگر، علىٰ اتصال، بأشكال مختلفة، مع الشخصيَّة الأبرز والأقوى في السياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة أواخر الستينيّات والسبعينيَّات من القرن الماضي، هنري كيسنگر، بل وكثيراً ما كانا يداعبان بعضهما البعض خلال الاجتماعات ذات المستويات الرفيعة عما إِذا كانا قد تلقيا توجيهاتهما من شارع بارك أڤنيو. كانت تلك إِشارة ساخرة ليس فقط إِلىٰ حقيقة أَن كيسنگر، الذي كان يملك مؤسسة استشارية بنيويورك في شارع بارك أڤنيو، كان مولعاً بأن يحس بأنّه لا يزال صاحب نفوذ، بل وتأكيداً لحقيقة أنّهما سيظلان يبدوان في نظر نقادهما الأَكثر محافظة كما لو كان اثنين من عملاء كيسنگر ـ أستاذ السياسة الواقعيّة ـ ينتظران كلمة السر حول كيفية إِنجاز أوامره.

خلال سنواتهما في ظل ريگان، بل وفي ظل بوش إِلىٰ حدّ معين كان من المهم ألاّ يبدوا شديدي القرب من كيسنگر الذي كان قد أصبح شبه منبوذ [خروفاً أسود في القطيع] بنظر الكثير من محافظي حزام الشمس ـ جنوب وجنوب غرب الولايات المتحدة ـ الجدد. كانت سياسات كيسنگر القائمة علىٰ

الانفراج، التي كانت إِنجازاته الأَكثر جدارة بالإِطراء خلال فترة توليه لمناصبه بنظر الكثير من أهل الوسط الأَمريكيين، قد تلقت ضربة مكشوفة وغاضبة خلال سنة 1976م الانتخابية، لا سيما في مؤتمر الحزب الجمهوري، الذي أعطى ترشيحه لجيري فورد، ولكنه أعطى قلبه لرونالد ريگان. كاد عقد المؤتمر أَن ينفرط أشلاء جراء جدل دار حول الإِيديولوجيا والسياسة الخارجيَّة. من الغريب أَن تلك ربما كانت ـ رغم بقائها حرباً داخليَّة ـ المعركة الأقسى حول السياسة الخارجيَّة علىٰ امتداد السنوات الخمس والعشرين السابقة. فنبذ سياسة الانفراج في مؤتمر 1976 م ـ قيام حزب حاكم برفض سياسته الخارجيَّة بالذات ـ بقي نوعاً من الكابوس فوق أولئك الذين اضطلعوا بمسؤوليات السياسة الخارجيَّة في ظل بوش. تعيّن عليهم باستمرار أَن يدركوا أنّهم كانوا أَكثر أممية، بصورة ملحوظة، من باقي أعضاء الحزب الذين كانوا يعتمدون سياسة أَكثر تشدّداً مع الاتحاد السوڤيتي. وكان من شأن ذلك أَيضاً أَن يذكّرهم بأنّهم باتوا أقليّة، إِن لم تكن فئة شاذّة؛ باتت قبضتهم الداخليَّة متزايدة الهشاشة، وبات الحزب الجمهوري، كوجود في الكونگرس، في الانتخابات الأولية والمؤتمرات المقبلة مواكباً لهم بالضرورة. وعلىٰ الرغم من أَن بقاء الجميع علىٰ الخط كان من شأنه أَن يظل سهلاً بالنسبة إِلىٰ بعض القضايا ـ مثل انهيار الاتحاد السوڤيتي ـ فإِن كسب التأييد فيما يخص أزمات دولية أُخرى أكثر حساسية، خصوصاً تلك التي قد تستدعي استخدام الجيش الأَمريكي في قوة متعددة الجنسيَّات، لن يكون يسيراً.

علىٰ العموم كانت جماعة بوش فئة غريبة مؤلَّفة من رجال ونساء عمليين ينتمون إِلىٰ حقبة سابقة، إِلىٰ ما كان من قبل جناحاً وسطاً أقوى وأَكثر نفوذاً في الحزب. كان ذلك الجناح قد برز في أوقات أصعب في الستينيّات والسبعينيَّات، حتى فيما عكف هؤلاء الرجال علىٰ الارتقاء أعلىٰ فأعلىٰ في سلم مراتب الأمن القومي. كان بوش نفسه قد خدم ريگان، الشخصية الأيديولوجية بقدر أكبر من الوضوح، بإِخلاص فريد علىٰ امتداد ثماني سنوات، دون السماح

بظهور أَي أثر للمعارضة من مكتبه حول أَي شيء فعله أنصار ريگان دون موافقته. ومع ذلك فإن بوش لم يحصل، بعد تولي المسؤولية بنفسه عقب تلك السنوات الثماني، إلاً علىٰ الحد الأدنى الذي يمكن تصوّره من التأييد الفاتر من ريگان. لم يكن الريگانيون المتحمسون واثقين ببوش، فعلاً، سنة 1988م، حين خاض معركته الرئاسية الأولى مرشحاً عن الحزب الجمهوري، لأنهم لم يثقوا به قط. لم يكن واحداً منهم، ولن يكون، مهما حاول ومهما بذل من جهد. قد يأتي يوم يقبلون فيه بنجله الذي يتحدَّث كتكساسي حقيقي، غير أَن هيئة المحلفين كانت معارضة للأب علىٰ الدوام. لم يكن الذَّنْب يعود إِلىٰ بوش. فهو لم يقصّر في شيء بل وفعل أَكثر مما يتوجب عليه. كان نوع من الولاء ذي الطراز القديم جوهر مبادئه الشخصية. كان يمارس اللعبة وفقاً للقواعد القديمة، عازفاً عن إِفشاء أَي شيء من شأنه أَن يبرزه بشكل أفضل علىٰ حساب أولئك الذين كان يخدمهم. تلك كانت قِيَمه، وقد عكست الطريقة التي تمّت تنشئته وتربيته عليها.

ما من أَحد كان يستطيع أَن يخدم ريگان بصورة أفضل وأَكثر إِخلاصاً، غير أَن بوش بقي هو هو ولم يستطع اجتياز اختبارات معينة، إِن لم تكن من رئيسه، فمن نانسي، زوج الرئيس الأَكثر تدقيقاً بشكل ملحوظ، ومن أناس آخرين كانوا يعشقون ريگان ويعجبون به كثيراً إِلىٰ حد أنّهم ربما كانوا أَكثر ريگانية من ريگان المطواع دائماً نفسه. أَمّا الكلمة الدالّة في الحقيقة علىٰ توق أنصار تيار الوسط إِلىٰ عالم أقل اضطراباً، أقل تمزّقاً وانقساماً ـ كلمة **انفراج** ـ بالذات فقد كانت [ضوءاً] علماً أحمر بالنسبة إِلىٰ الأعضاء الأَكثر إِيديولوجية في الحزب. فكلمة انفراج كانت تعني أنّك سلَّمت بحق الشيوعيين في احتلال جزء كبير من العالم، وهو أمر لم يكن قابلاً لأن يطاق.

لحسن حظ جماعة بوش أنها، حين تولَّتْ الإِدارة في 1989م، وجدت قيادة اليمين السياسي الصاعد حديثاً أَكثر اهتماماً، علىٰ ما بدا، بالقضايا الداخليَّة

ـ مثل الإِجهاض، الجريمة، ضبط الأَسلحة ـ مقارنة بالأشياء التي كان بوش حريصاً علىٰ متابعتها والاهتمام بها متمثِّلة بقضايا السياسة الخارجيَّة، وكانت تلك القيادة اليمينيَّة تميل إِلىٰ إِعطاء من هم في الفرع التنفيذي قَدْراً كبيراً من الحرية علىٰ صعيد إِدارة السياسة الخارجيَّة ضمن حدود معينة. باتت الحرب الباردة متراجعة أخيراً ولم تعد تثير إِلاَّ القليل من القلق. لقد تم إِلحاق الهزيمة بذلك الشر، وما لبث أَن بات التصدي لأشكال أُخرى من الشر، في أثواب وصيغ داخليَّة هذه المرة، ضرورياً. غير أَن حدود دعم الحزب السياسي لرئيس وَسَط جوهرياً كانت هناك علىٰ الدوام، تحت الغطاء الخارجي مباشرة، جنباً إِلىٰ جنب مع الغياب المضمر لتأييد الكونگرس إِذا ما حاول الرئيس أَن يتجاوز الحدود المرسومة. وكان ذلك يعني وجود جناحين في الحزب الجمهوري لدى تولي بوش للإِدارة، جناح وَسَطي وأَكثر أممية في الفرع التنفيذي، وآخر أَكثر محافظة بما لا يقاس وانعزالي في الكونگرس وفي أجهزة الحزب المتحكّمة بعمليَّات الترشيح في المستقبل.

كان الانقسام في بنية الحزب الداخليَّة قد بدأ منتصف الستينيّات حين حصل تحوّل كبير للقوة والنفوذ من الولايات الأطلسية الشرقيَّة والوسطى إِلىٰ حزام الشمس، تحوّل كان من شأنه أَن يحدث تغييراً مسرحياً مثيراً في السياسة القومية. أضف إِلىٰ ذلك أَن قانون حق التصويت لسنة 1965م كان قد أُقر، بعد سلسلة طويلة من عمليَّات الجلد القاسية والوحشية التي لحقت بالزنوج الساعين لتسجيل أسمائهم في قوائم الاقتراع في كل من آلاباما وميسيسيپي. من الصعب تذكّر أية سابقة لتشريع داخلي ليبرالي ـ هادف إِلىٰ تمكين الأضعف في مجتمعنا من امتلاك شيء من النفوذ ـ كانت منطوية علىٰ هذا القَدْر من التأثير علىٰ التحالفات السياسيَّة علىٰ المستوى القومي. جاءت العملية تتويجاً لجميع الردود الارتجاعية النكوصية. كان ليندون جونسون قد دفع بالأَمر إِلىٰ نهايته، وربما كان انتصاره التشريعي الأكبر الوحيد. إِلاَّ أَنَّه كان، حتى في حينه، انتصاراً

ملتبساً جامعاً بين ما هو مُرّ وما هو حُلو بالنسبة إلىٰ جونسون، أمراً أقدم عليه لأنَّه صحيح بشكل واضح، علىٰ الرغم من احتمال انطوائه علىٰ عواقب وخيمة بالنسبة إلىٰ حزبه السياسي بالذات.

ليلة إقرار القانون، قام بيل مويرز بزيارة جونسون في غرفة نومه متوقعاً أَن يجد الرئيس محتفلاً بانتصاره. غير أَنَّه وجده مكتئباً إِلىٰ حد كبير. سأله مويرز عن السبب، فأجابه جونسون بحزن ونبوءة[1] قائلاً: «أعتقد أننا قد قَدَّمْنا الجنوب علىٰ طبق من الفضة إِلىٰ الحزب الجمهوري خلال الجزء الباقي من حياتنا». وعلىٰ الفور تبيَّن أنه كان علىٰ صواب داخل حدود الكيان الاتحادي القديم حين انقلب الآلاف بعد الآلاف من الديمقراطيين إِلىٰ جمهوريين بين عشية وضحاها. وبذلك فَقَد الديمقراطيون قَلْعَتَهم العظيمة الأخيرة المتمثِّلة بالجنوب الصامد لصالح الجمهوريين، وبات الديمقراطيون الجنوبيّون الليبراليّون في خطر شديد. إِذا كان إِقرار القانون قد أدَّى إِلىٰ تحطيم الحزب الديمقراطي، فإِنّه قد ترك تأثيراً أعمق علىٰ الحزب الجمهوري، وقد كانوا أناساً مختلفين جداً عن جمهوريي المؤسسة الشرقيَّة، الذين طالما كانوا متحكمين بزمام السلطة داخل الحزب. كان هذا النوع الجديد من البشر أضيق أفقاً، خصوصاً علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة، أَكثر حذراً من أشكال التورط بالقضايا الخارجيَّة، خصوصاً مع المنظمات الدولية مثل الأمم المتّحدة، أَكثر ارتباطاً بجدول أعمال اليمين الأصولي واعتماداً عليه، وأَكثر اتصافاً بالنزعة المحافظة بصورة لافتة للنظر. كان هؤلاء ينظرون إِلىٰ تفاعل أَمريكا مع باقي العالم بقَدْر كبير من الريبة. لا شيء يستطيع أَن يعكس صعود نزعة حزام الشمس الجمهورية أَكثر من رجل أرسله الحزب إِلىٰ لجنة العلاقات الخارجيَّة في مجلس الشيوخ. في غابر الأزمان كان جورج آيكن الڤيرمونتي وتشاك پيرسي الإِيلينوي عضوين في تلك اللجنة. أَمَّا الآن فإِن أَحد أعضاء اللجنة ذاتها هو

---

(1) هالبرشتام، **الأطفال**، 517.

جيسي هلمز من كارولاينا الشمالية، ذلك الذي بدت شكوكه بسائر الأمم ثابتة، ما لم تبادر، بالطبع، إلىٰ التعبير عن استعدادها الكامل لاستيراد السجائر الأمريكيَّة.

عُومل بوش ومن حوله بنوع من التسامح الحذر من جانب الجمهوريين المحافظين الذين كانوا موشكين علىٰ الإمساك بزمام الحزب. غير أَن الجميع، بمن فيهم حتى النقَّاد والخصوم، كانوا معجبين بِحَرفيتهم علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة. لقد كانوا أصحاب خبرة، قادرين علىٰ العمل معاً في جو من التناغم، ولعل الأَكثر بعثاً علىٰ السعادة من كل شيء، أنّهم كانوا ينشطون في مجال يحظى بالحد الأقصى من اهتمام الرئيس. أَمَّا علىٰ صعيد السياسة الداخليَّة فقد اعتُبر فريق بوش، علىٰ النقيض من ذلك، شديد الافتقار إلىٰ الكفاءة، فضلاً عن أنّه كان ينشط في مجال بعيد عن اهتمام الرئيس، مجال يهمله الرئيس غريزياً ـ ذلك الإِهمال الذي أفضى، بصورة حتمية، إِلىٰ سلسلة طويلة من الحسابات الخاطئة المكلِفة.

ربما كان العاملون في السياسة الخارجيَّة الحلقة الأخيرة من نوعية معينة من الموظفين، إِذْ كانوا جميعاً قد شبّوا في حقبة ما بعد الحرب العالميَّة الثانية والحرب الباردة؛ كانوا شباباً لامعين اندفعوا إِلىٰ ميادين الخدمة العامة متشوّقين للتعامل مع السياسة الخارجيَّة بدلاً من الغوص في المسائل الداخليَّة، لأن تلك ـ السياسة الخارجيَّة ـ كانت ساحة الفعل وحيث يمكن أَن يتحدّد مصير العالم. ظلت قضايا السياسة الخارجيَّة ذات أولوية في عقولهم. كانوا يفترضون أنّهم سيحظون باهتمام الرئيس الكامل بالذات لحظة وصولهم إلىٰ أعلىٰ المستويات في الإِدارة ـ وقد كان ذلك لا يزال صحيحاً في تلك الأيام. كان ثمة رئيس الجمهورية الذي سبق له أن شارك في الحرب العالميَّة الثانية، من المؤكد أَنَّه الرئيس الأخير الذي كانت الأمة ستنتخبه ممن شاركوا في تلك الحرب. كان هناك برنت سكوكروفت، من مواليد 1925م، وهو الذي كان قد ذهب إِلىٰ

وست بوينت ـ أكاديمية أمريكا العسكريَّة في نيويورك منذ سنة 1902م ـ حالماً بأن يصبح طيّاراً مقاتلاً حين لم تكن هناك أكاديمية خاصة بسلاح الطيران. أصيب بجرح في هبوط اضطراري وضع حداً لعمله كطيار، ثم تابع دراسته ليصبح باحثاً أكاديمياً في الجيش أولاً وأحد كبار مخططيه المميزين لاحقاً. وكان الفريق يضم أيضاً جيمس بيكر الذي كان قد خدم في مشاة البحرية (المارينز) خلال الحلقة الأخيرة من سلسلة الحرب الكورية، كولن پاول الذي كان قد خدم في الجيش [القوّات البرِّيَّة] وأمضى فترتين بالغتي الصعوبة في ڤيتنام، ولاري إِيگلبيرگر الذي سبق له أَن خدم في الجيش أوائل الخمسينيّات ثم حصل علىٰ وظيفة مكَّنته من العمل علىٰ أعلىٰ المستويات في وزارة الخارجيَّة تحت إِمرة عدد غير قليل من رؤساء الجمهورية المختلفين. لدى دخول هؤلاء الرجال إِلىٰ البيت الأبيض سنة 1988م، كانوا، بأَكثريتهم، قد عملوا معاً لعقد أَو أكثر من الزمن. غير أن خدمتهم كانت ستشكّل نهاية إِحدى الحقب. فمن كان سينافس جورج بوش في الانتخابات كان شاباً ولد سنة 1946م، بعد الحرب العالميَّة الثانية، شاباً كان في بعض الحالات من جيل أولادهم.

من بعض النواحي أدرك هؤلاء أَن فترة بوش في الإِدارة كانت صدْفة. ولو لم يقم جيم بيكر بإِقناعه بالانسحاب في وقت مبكر، وقبل فوات الأوان، من الانتخابات التمهيدية في 1980م لصالح ريگان، للحق قَدْر أكبر من الضرر بالعلاقة الشخصية بين الرجلين. كان من شأن ذلك أَن يحول دون نزول بوش علىٰ القائمة نائباً للرئيس وحصوله بعد ثماني سنوات علىٰ مكافأته العادلة متمثِّلة بما أطلق عليها المعلّق مارك شيلدز اسم فترة ريگان الثالثة.

خلافاً لحال جماعات سابقة من خبراء السياسة الخارجيَّة ومستشاريها، تمتعت إِدارة بوش بنخبة رفيعة، بصورة غير عادية، من الرجال المستندين إِلىٰ قاعدة لا يُستهان بها من الخبرة علىٰ صعيد السياسة الداخليَّة. فجيم بيكر كان يحظى بقدر واسع من الإِعجاب بوصفه أَحد أمهر المدراء لا في السياسة القومية

فقط بل وفي إطار الجهاز البيروقراطي علىٰ امتداد عقود من الزمن، بوصفه رجلاً موهوباً جداً علىٰ أعلىٰ مستويات السياسة والتخطيط حتى أَن ستو سبنسر، أَحد أكبر مستشاري ريگان من كاليفورنيا وأحد مهندسي صعوده السياسي، كان قد ذهب، بعد انتخاب ريگان للرئاسة سنة 1980م، إِلىٰ نانسي ريگان ليطلب منها بإِلحاح أَن تصر علىٰ جعل بيكر، وإِنْ كان من أنصار فورد ونظَّم حملتين متعاقبتين ضد رونالد ريگان، رئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض بدلاً من إِد ميس، الموالي الأبدي لريگان. حصل بيكر علىٰ الوظيفة مما ساعد علىٰ ضمان عمل البيت الأبيض في عهد ريگان بقَدْر كبير من الكفاءة وأتاح للإِيديولوجيين في الحزب فرصة اعتبار بيكر وآخرين من أمثاله مسؤولين عن خطيئة، أَو جريمة، منع ريگان من أَن يكون ريگان، حتى حين كان النقيض الكامل هو الحاصل، بالطبع، وكان ريگان هو ريگان مئة بالمئة.

حين برز بيكر وزيراً للخارجيَّة في إِدارة بوش، كان متمتعاً بقَدْر واسع من الإِعجاب بسبب المهارات التي أبداها في إِدارة فترة ريگان الأولى مختزلاً أية أضرار محتملة ناجمة عن دائرة اهتمامات الرئيس المحدودة بعض الشيء. وكرئيس للجهاز كان بيكر قد اعتُبر فذّاً لا نظير له، قادراً علىٰ توقّع حاجات ريگان والتصرّف نيابة عنه، حتى دون التشاور معه. وكان قد أدرك أَن موقفه الرئيسي البادي عرضياً وقائماً علىٰ مبدأ: دعه يفعل! من الأحداث لم يشجع من هم حوله علىٰ محاولة اقتحام الفراغ. وكان بيكر دائم التنبه لجملة معادلات سائر القرارات ـ لا سيما حين قرَّر أَن پول فولكر، كرئيس للاحتياطي الاتحادي، لم يكن يخفض معدلات الفائدة بما يكفي من السرعة، وتسبَّب في إِخراجه من منصبه. كان بيكر بالغ البراعة في قراءة حاجات رئيسه، رغباته، وأولوياته، فسمح لريگان أَن يكون ريگان.

ولأن بيكر كان علىٰ هذه الدرجة من البرودة والقسوة والكفاءة، فقد انتشر الاعتقاد القائل بأن البيت الأَبيض لم يعان من مشكلات خطيرة إِلاَّ بعد بيكر

الذي أراد حقيبة وزارية تخصّه فتبادل عمله مع رونالد ريگان وأصبح وزيراً للخزينة. وبالفعل فقد مرت فترة وجيزة بدا فيها بيكر مرشحاً لتولي رئاسة مجلس الأمن القومي بدلاً من الخزينة، في تغيير أحبطه بعض أصحاب ريگان القدامى. وقد كتب مايكل ديڤر الذي كان سيصبح رئيساً لجهاز البيت الأَبيض لو تم ذلك لاحقاً، أنه لو حدث، «لما تمّت صفقة سلاح مع إِيران، ولا حسابات في مصارف سويسرية، أَو مبالغ سرِّيَّة موجّهة إِلىٰ الكونترا، ولما كانت هناك سياسة خارجيَّة بدت من صنع روب گولدبيرگ»[(2)].

وزيراً للخارجيَّة قام بيكر باستنفار مهاراته وعلاقاته السياسيَّة الواسعة جدّاً. كان عميق المعرفة بالسياسة الأَمريكيَّة، بعد أَن شغل أعلىٰ المناصب في الكثير من الحملات علىٰ المستويين المحلي [الولاية] والقومي، بدءاً بحملة بوش الفاشلة لعضوية مجلس الشيوخ سنة 1970م. كان أيضاً رئيس فريق عدّ الأصوات حين ألحق فورد سنة 1976م هزيمة بريگان. لم تكن علاقته الشخصية الحميمة برئيس الجمهورية أقل نقاطه القوية. فقد كان محافظاً بالمعنى القديم لما هو تقليدي، غير أنَّه كان محافظاً براگماتيا [ذرائعياً]، شخصاً مولعاً بالإِنجاز. إِذا كان أَحد إِحباطات بيكر الحقيقيَّة في حياته متمثلاً بعدم قدرته علىٰ ترجمة مهارته إِلىٰ تحويل الشريحة العليا من الجهاز البيروقراطي، ودفع جيش إِعلاميي واشنطن إِلىٰ أَن يصبحا قاعدة سياسيَّة قومية لعمليَّة ترشيحه الخاصة للرئاسة، فقد كان، مع ذلك، باهر النجاح علىٰ امتداد اثنتي عشرة سنة علىٰ مستوى صنع القرار السياسي علىٰ الصعيدين الداخلي والخارجي لدى اثنتين من الإِدارات الجمهورية. درج الجمهوريون الطامحون الشباب، الذين كانوا يأتون إِلىٰ واشنطن خلال سنوات ريگان، باحثين عن وظائف مهمة فيلتقون بنائب الرئيس بوش وصديقه الحميم جيم بيكر، درجوا علىٰ الخروج من اللقاءات مقتنعين بأن بيكر كان هو الأذكى والأَكثر جاذبية [كاريزمية] بين الاثنين، هو

---

(2) ديڤر، 130.

الرجل المرشح بالتأكيد لأن يتقدم أَكثر. ولأن عدداً غير قليل من الآخرين كانوا يعتقدون أَن بيكر كان أَكثر موهبة علىٰ الصعيد السياسي وأفصح بكل تأكيد من بوش، فإِن العلاقة بين الرجلين لم تخل من تعقيداتها الخاصَّة، حتى حين كان بوش رئيساً للجمهورية، وبيكر وزيراً للخارجيَّة. وخلافاً لحال المرشح والرئيس الذي خدمه، كان بيكر أستاذاً في مناورة الصحافة، فصيحاً، داهية، عارفاً علىٰ الدوام لا وضع الأمور في الواقع فقط، بل وقادراً علىٰ لفها بما يتناسب مع الواقع الطارئ المختلف تماماً الذي كانت الإِدارة راغبة في عكسها علىٰ وسائل الإِعلام أَيضاً. تلك كانت مهمة كان بوش عاجزاً عن القيام بها عجزاً شبه كامل. نجح بيكر باستمرار في أَن يظهر بمظهر جيد ومطمئن في وسائل الإِعلام، في حين اعتُبر بوش شخصاً في مواجهة تحدي الإِعلام، بعبارة سخية. وبالتالي فإِن بوش بقي يشك بوسائل الإِعلام كما بقيت الأخيرة تشك به، فضلاً عن أنّه غالباً ما كان ناجحاً في الظهور بمظهر الأخرق المفتقر إِلىٰ البراعة.

كان بيكر صارماً **جداً** ورجلاً لا يشاكَل. إِذا كنت تريد شيئاً من جيمس بيكر، فإِن من شأن ردّه المحتمل أَن يكون، وماذا في الأَمر لصالحي؟ كان نفوذك لديه قائماً عادة علىٰ ما تستطيع أَن تقدّمه له ولمرشحه من خدمة؛ كانت الجماعات اليهودية، مثلاً، تعتقد بأنّه قال عنها مرّة، «ليذهبوا إِلىٰ الجحيم! لم يصوّتوا لنا [للجمهوريين] قط». من الصعب معرفة ما إِذا كان قد قال ذلك أم لا، غير أنّه بدا بالتأكيد تعبيراً عن جوهر بيكر العميق: أهميتك عنده كانت مساوية لوزن أصواتك الانتخابية. كان أَيضاً إِقليمياً متعصباً **جداً**، داخل حدود الإِدارة التي هو في خدمتها، مع نوع من الولع المرضي بالتحكّم؛ لم يكن محتملاً أَن يسمح لوزارة الدفاع بأن تهيمن علىٰ وزارة الخارجيَّة في الاجتماعات رفيعة المستوى.

حين تم اقتراح لاري إِيگلبيرگر للمرة الأولى شخصاً ثانياً في وزارة

الخارجيَّة، لم يكن بيكر متحمساً. وكان قد وافق عليه أخيراً بقَدْر كبير من التردّد والتحفّظ ليس فقط لأن إيگلبيرگر كان من جماعة كيسنگر، بل ولأن حياته المهنية الطويلة والمميزة كانت قد أكسبته نظام قِيَم خاصاً به وقدراً غير قليل من الشعور بالاستقلال. عُرف عن إيگلبيرگر ولاؤه لكل من عمل لصالحه من نيك كاتزنباخ إلىٰ هنري كيسنگر، غير أنّه كان أيضاً يدلي برأيه ويقول كلمته. أخيراً قبله بيكر نائباً له دون أن يجعله قط عضواً في فريقه الضيق، مما كان يعني أن إيگلبيرگر بقي أشبه بالغريب رغم جلوسه علىٰ القمّة. ففي أكثر من مناسبة قرَّر إيگلبيرگر، حين كان راغباً في إيصال فكرة معينة إلىٰ الرئيس، أن يلوذ بصديقه القديم سكوكروفت، الذي كان يشغل رئاسة مجلس الأمن القومي، والذي كان يستطيع أن يتواصل معه بنوع من لغة الاختزال المستمدّة من سنوات الصداقة والخدمة المشتركتين الطويلة.

علىٰ الرغم من عدم امتلاكه لأية رؤيا فلسفية عظيمة حول السياسة الخارجيَّة، فقد كان بيكر حِرَفياً ممتازاً عزَّ نظيرُه، ومفاوضاً ذا قدرات لا يُستهان بها. كان موهوباً بصورة استثنائية في جعل الآخرين علىٰ الطاولة يدركون، بجميع الأساليب المصقولة وغير المصقولة، أنّه كان يمثّل قوةَ وجلالَ الولايات المتحدة الأَمريكيَّة، قوةَ وجلالَ بلد كبير وجبار لن يكون أَحد مستعداً لاستثارة سُخطه لأَسباب بسيطة. وإذا ما كان مشاركاً في عمليَّة السّلام الشرق أوسطية، فما من أَحد كان يحتمل أَن يؤدي الدور بطريقة أفضل، غير أنّه لم يكن، في الوقت نفسه، مستعداً لتبديد الطاقة، كما لم يكن لديه إلاَّ القليل من الوقت لجملة لياقات ومجاملات فن الإدارة الدبلوماسية التقليديَّة. لا، لم يكن يريد أَن يحضر عشاء احتفالياً فاخراً مع وزير خارجيَّة البلد المضيف بعد يوم طويل وشاق من التفاوض. لقد تعيّن علىٰ كل من الإسرائيليين والمصريين أَن يقبلوا به كما هو دون زيادة أَو نقصان، كشخص يعمل دون كلل أَو ملل، يفاوض بعناد شديد، يعزف عن المباهج الدبلوماسية التقليديَّة، التي نادراً ما كانت مباهج علىٰ

أية حال. كان المرء يستطيع أن يتجاوزه مرة واحدة كلاعب، ولكن تجاوزه مرتين كان مستحيلاً.

كان برنت سكوكروفت في مجلس الأمن القومي من طينة مختلفة ـ بعَدَدٍ أقل من النتوءات مع عدد أقل أيضاً من الأعداء. كان الرجل استثنائي التواضع، وبصورة شبه متعمدة، متمتعاً بقدر كبير من الإعجاب عبر طيف سياسي واسع، خفيض الصوت، وناجحاً فيما يفعله، رغم إبقائه في الظل من قبل رجال أكثر شَرَهاً للسلطة والشهرة مثل كيسنگر وبيكر. وبالتالي فإن الاستخفاف به لم يكن صعباً. لم يبد قط راغباً في الحصول علىٰ أي شيء له هو، المزيد من النفوذ أو العنوان الأكثر جلالاً. ومع مرور الزمن أصبح الأمر لا قوة فقط بل ومصدر نفوذ. لم يدرك أعضاء الإدارة الآخرون القَدْر الكبير من الذكاء والحكمة والاستقامة الذي كان سكوكروفت قد أضفاه علىٰ عمله ومنصبه إلاَّ بعد انقضاء سنوات بوش وراح هؤلاء الأعضاء يقوِّمون ما تمّ إنجازه. كان الناس الذين سبق لهم أن عملوا معه عن قرب يعتقدون أن سكوكروفت ربما كان مستشار الأمن القومي الأكفأ والأقدر في الأزمات الحديثة. علىٰ الرغم من اطلاعه الواسع سعة استثنائية ومعرفته العميقة، كان استثنائي المهارة في ضمان وصول الآراء التي كان يخالفها إلىٰ الرئيس، وهو أمر لم يكن قط إحدى سمات كيسنگر الخاصة. عند نهاية إدارة بوش، بدا سكوكروفت كما لو كان متصلاً مادياً بالرئيس، وحين ألَّف بوش كتاب ذكريات، ألّفه، لا غرابة، بالاشتراك مع سكوكروفت، حيث كتب كل منهما فقرات بالتناوب، كما لو كان يعترف بدور سكوكروفت المؤثِّر بشكل غير عادي في السياسة الخارجيَّة. لقد انطوى الكتاب علىٰ شيء عن كل من الرجلين وعن تحليهما، كليهما، بالتواضع. لا يستطيع المرء أن يتصوّر تعاوناً أدبياً مشابهاً يقدم عليه، مثلاً، كل من ريتشارد نكسون وهنري كيسنگر، بعد انقضاء سنواتهما المشتركة في الحكم.

لم يكن بوش رئيس الجمهورية الأول الذي خدمه سكوكروفت بذلك

القَدْر من الإِخلاص. لقد كان أَحد المفضلين لدى جيري فورد أَيضاً. لقد رأى عنصرٌ من عناصر روكفلر سبق له أن خدم البيت الأَبيض في عهد فورد ودأب علىٰ مراقبة الرجل عن كثب يدعى جيم كانون أَن سكوكروفت كان يتمتع بموهبة نادرة في إِطلاع رئيسين شديدي الاختلاف علىٰ أنباء غير سارّة ربما كان غيره يعجز عن إِيصالها دون إِثارة قَدْر غير قليل من الغضب. وتجسّد مثال ذلك النموذج في حملة 1976م الرئاسية، حين اقترف فورد خطيئة شنيعة وأعلن أَن بولونيا لم تكن خلف الستار الحديدي. كانت تلك فضيحة «بجلاجل» من أسوأ الأنواع ـ خطيئة مؤهلة لأن تكون سبباً في خسارة الانتخابات، يستطيع أَي طالب في المرحلة الثانوية أَن يصحّحها ـ وخصوصاً لأنّه كان مولعاً بالتباهي ـ فضيحة لم يكن أَحد من أعضاء هيئة أركانه قادراً علىٰ مفاتحته بشأنها. أخيراً بادر ديك تشيني، الذي كان رئيس فريق فورد في ذلك الوقت، انطلاقاً من معرفته بأن الوحيد القادر علىٰ تصويب مسار المرشح هو المحبوب سكوكروفت، إِلىٰ مقابلة الأخير ورجائه أَن يحاول الوصول إِلىٰ المرشح وإِبلاغه رسالة التصحيح والتراجع. غير أَن فورد كان لا يزال شديد الغضب ـ من العالم كله ولكن من نفسه هو في المقام الأول ـ فخذل حتى سكوكروفت، قائلاً: «قلت ما قلته، أنا أعرف ما عنيته، ولن أبدّله».

كان ديك تشيني، ثالث كبار اللاعبين المدنيين في إِدارة بوش، قد أصبح وزيراً للدفاع بنوع من ضربة الحظ أَو المصادفة، حين أقدم مجلس الشيوخ الذي أقلقته التقارير التي أطنبت في الكلام عن ولع جون تاور بالنساء والشرب علىٰ رفض فكرة توليه للمنصب. ثمة شيء سريع وحاد، بل فظ تقريباً، كان يحيط بشخصية تشيني كموظف حكومي كبير. لقد بدا كما لو كان يريد ـ إِما لأَسباب ذات علاقة بالزمن أَو بالموضوعية المهنية ـ أَن ينأى بنفسه عن كبار موظفيه كل الوقت. حكم عليه أولئك الذين كانوا يعملون معه بأنه بعيد عن أَن يكون محبوباً ولكنه مؤهل لجعل أَي جهاز بيروقراطي يعمل. بدا وكأنّه لا يهتم قط

بالشعبية الأولية. لم يكن مولعاً بالإكثار من الكلام والرَّبْت علىٰ الأكتاف، ومما لفت الأنظار ـ وهو جدير بالتذكّر ـ أَن كولن پاول الذي كان قد عمل مع تشيني علىٰ امتداد ثلاث سنوات رئيساً لهيئة رؤساء الأركان، ذهب حين بدأ أعضاء فريق بوش في كانون ثاني/ يناير 1993م تصفية أعمال مكاتبهم، إِلىٰ مكتب تشيني ليودعه، فوجد أَن السكرتيرة كانت قد لملمت كل شيء وغادرت قبل ساعات. ومع ذلك فإِن تشيني كان كشاف مواهب لا يُستهان به إِذ كان قد نجح من انتقاء پاول وهو لا يزال جنرال أربع نجوم لتوه من أجل شغل منصب الرئيس رغم أَن أربعة عشر آخرين من ذوي النجوم الأربع كانوا متقدمين عليه.

كان تشيني رجلاً تسووياً لا وقت لديه للأبَّهة والمناسبات. وكاد نورمان شوارتزكوپف، دون علمه، أَن يضيع فرصة قيادة قوات الأمم المتّحدة في الخليج الفارسي، لا لأَنَّه اشتهر بأنه سريع الغضب، إِلىٰ حدود متطرفة، فقط، بل ولأَنَّه لم يكن قد أُعجب تشيني بشخصه وسلوكه حين رافقه في رحلة جويَّة إِلىٰ السعودية. كان في الطائرة المزدحمة صف طويل من الركاب أمام دورات المياه، وقد أثار استياء تشيني أَن يرى ضابطاً برتبة رائد في صف الركاب قام باستدعاء شوارتزكوپف، حين وصل إِلىٰ باب دورة المياه، ليحل محله. كما استاء تشيني من رؤية ضابط آخر جاثم علىٰ يديه وركبتيه وعاكف علىٰ كي ملابس الجنرال الرسمية. لم يكن تشيني يرضى عن مثل ذلك النوع من التطوس الهرمي[3].

كان تشيني أَكثر محافظة، وبشكل ملحوظ، من الآخرين في الدائرة الداخليَّة، حيث كانت سياسته الشخصية لدى اضطلاعه بالمنصب أقرب إِلىٰ سياسة الجناح الريگاني في الحزب منها إِلىٰ جناح فورد ـ بوش. غير أنّه كان، أساساً، منتمياً إِلىٰ جناح فورد الوَسَط، مما أبقى جماعة ريگان حذرة منه في

---

(3) آتكنسون، 94؛ پاول، 492.

الأيام الأولى من الإدارة الجديدة. في إحدى المراحل كان البحث جارياً عن وزير للداخليَّة وورد اسم تشيني في قائمة المرشحين، وقد كان آنذاك نائباً عن ويومنگ في الكونگرس. غير أن عضو مجلس الشيوخ المحافظ، پول لاكسالت، الذي كان أحد أقرب أصدقاء ريگان، وكان مسؤولاً عن التصفية، اعتبر تشيني مبالغاً في ولائه لفورد.

لم يكن تشيني مولعاً بالقال والقيل. كان ناجحاً في العمل بكفاءة داخل جهاز بيروقراطي قاتل مثل جهاز وزارة الدفاع. غير أنّه نادراً ما كان مندفعاً ليحتل مكاناً له على قوائم المرشحين لمناصب النخبة، فضلاً عن ذيوع صيته السيء المتمثل بالافتقار إلى الروح الاجتماعيَّة مما جعله أشبه بكابوس إحدى مضيفات واشنطن. تحدر من أب كان يعمل في جهاز الحفاظ على الغابات والأنهار في لنكولن النبراسكية، ما لبث أن انتقل إلى كاسپر الويومينگية، حين كان تشيني صبياً. كان تشيني قد فاز بمنحة دراسية في جامعة ييل، ترك الدراسة بعد سنة واحدة، قام بعدد من الأعمال اليدويَّة المختلفة قبل العودة إلى مقاعد الدراسة في ويومينگ. ثم ما لبث، بفضل موهبته على صعيد الكتابة السياسيَّة، أن فاز بزمالة أوصلته إلى جهاز مكتب حاكم ولاية ويسكونسن، حيث عمل، فيما بقي عاكفاً في الوقت نفسه على متابعة الدراسة للحصول على شهادة تخرّج من جامعة ويسكونسن. وفي سنة 1968م فاز بزمالة أُخرى، أوصلته إلى جهاز مكتب جمهوري من ويسكونسن يدعى وليم شتايگر.

في 1969م، بعد سنة واحدة، فيما كانت إدارة نكسون موشكة على الاضطلاع بالمسؤولية، وقع اختيار كشاف مواهب عظيم من الحزب الجمهوري كان في تلك الأيّام رئيساً لمكتب الفرص الاقتصاديَّة يدعى دون رمسفيلد على تشيني. وفي سنة 1974م حين حل فورد محل نكسون رئيساً للجمهورية، تولّى رمسفيلد عملياً منصب رئيس جهاز البيت الأبيض وجلب معه تشيني إلى البيت الأبيض، حيث كان صعوده سريعاً جداً، نيزكياً. قام رمسفيلد خلال سنوات

فورد باعتماد سياسة قضت بأن يكون لكل موظف في البيت الأَبيض نائب يستطيع أَن يتحدَّث باسمه في غيابه. صُمِّمت الخطة لاختزال ضياع وقت البيت الأَبيض، وما لبث تشيني أَن أصبح نائباً لرمسفيلد ونسخة طبق الأصل عنه. وبسرعة صار تشيني يحظى بمودة فورد وثقته. كان رمسفيلد ذو الطموحات الخاصة غير المحدودة يحلم بشغل إِحدى المناصب الوزارية ـ حاول الانقضاض علىٰ وزارة الخزينة غير أَن بيل سايمون ما لبث أَن ردّه علىٰ أعقابه ـ ولكنّه سرعان ما حط علىٰ كرسي وزير الدفاع، وصار تشيني، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، رئيساً لجهاز البيت الأَبيض.

حين انتُخب جيمي كارتر سنة 1976م، عاد تشيني إِلىٰ ويومينگ للترشح لعضوية مجلس النواب ـ الكونگرس، فاز في الانتخابات، وما لبث أَن برز بوصفه أَحد أَكثر النوّاب الجمهوريين المحافظين الشباب موهبة. وبسبب خبرته السابقة في واشنطن، لم يتصرّف كتلميذ جديد في المدرسة القديمة، وسرعان ما تم القذف به إِلىٰ دور قيادي. إِلاّ أَن سؤالاً معيناً بقي معلّقاً علىٰ الدوام في الأوساط الجمهورية حول تشيني الذي كان قد برز أولاً كموظف بارع في عهد بيت أَبيض معتدل (فورد) تحت اليد اليمنى لرئيس جهاز معتدل (رمسفيلد) ثم ما لبث أَن خدم رئيساً معتدلاً (بوش)، غير أنّه بقي يصوت وحده دون الوقوع تحت تأثير أَحد حتى علىٰ يمين جمهوريي گنگريتش الجدد. صحيح أن ويومينگ ولاية محافظة في الأحوال كلّها، ولكن تشيني كعضو كونگرس تميز بوصفه في أقصى اليمين.

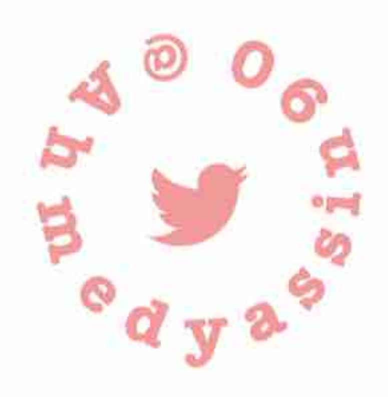
في صيف 2000م، حين قام جورج دبليو بوش باختيار وزير دفاع أبيه السابق مرشحاً لمنصب نائب الرئيس، أصبحت أصوات المجلس القديمة حول الإِجهاض، التحكّم بتجارة الأَسلحة، وإِبقاء نِلْسُن مانديلا في السجن (كان تصويتاً إِجرائياً، كما قال تشيني، ترك تأثيراً إِيجابياً جداً علىٰ مانديلا) نوعاً من العبء الثقيل علىٰ قائمة مرشحي الحزب. فالشيء الوحيد الذي كان

الديمقراطيون قد تعلّموه بسرعة عن تشيني هو أنّه كان، رغم رقته الخارجيَّة كلّها، عنيداً جداً، جداً في الأمور السياسيَّة. لقد كان الزعيم في الحركة التي كانت قد أزاحت جيم رايت عن منصبه كرئيس للبرلمان بسبب بعض الانتهاكات لقانون المكافآت الشرفية في البرلمان. لم يكن سهلاً علىٰ رايت نسيان الأَمر أو التغاضي عنه، فحين تعقبه أَحد المراسلين لاحقاً به إِلىٰ تكساس بعد أَن كان قد غادر واشنطن لسؤاله عما حدث، رد رايت قائلاً: «ما حدث هو أَن ديك تشيني اللعين، ابن الكلبة كان هناك ـ إِنَّه ثعبان حقيقي! ليس غريباً أَن يكون قد أصيب بثلاث نوبات قلبية»[4].

حين تم انتخاب جورج هيربرت ووكر بوش (الأب) رئيساً للجمهورية في سنة 1988م، كان عدد من مساعديه المقرَّبين قد رشّحوا تشيني لشغل منصب رفيع، ولكن بوش كان متردداً. فقد كان الأخير تلميذاً لرمسفيلد، وكان رمسفيلد وبوش، الشابان الطموحان العاملان في القطاع نفسه، والحالمان بالرئاسة، مفعمين بالشكوك والريب كل منهما إِزاء الآخر، وكان رمسفيلد دائم الاحتقار الصريح لبوش في كلامه. وكلمة **تشيني** بالنسبة إِلىٰ بوش كانت تعني رمسفيلد. غير أنّه ما لبث، في بداية رئاسته، حين أخفقت تسمية جون تاور، أَن عاد إِلىٰ تشيني الذي كان ما يزال عضو كونگرس ممثلاً عن ويومينگ مرشحاً احتياطياً، باعتباره مرشحاً جيداً. انتقل تشيني إِلىٰ الپنتاگون وبيَّن للجميع أنّه كان عازماً علىٰ **إِدارة** وزارة الدفاع. وكل من كان سيقف في طريقه علىٰ صعيد أية مسألة تخطيطيَّة كان سيدفع ثمناً باهظاً.

---

(4) مقابلة مع ووتن.


@Ahmedyassin90

الفصل السابع

نظراً لأن جورج بوش كان قد بلغ سن الرشد خلال الحرب العالميَّة الثانية وكان قد خدم في تلك الحرب، فإن مواقفه من العالم ومن انخراط أمريكا فيه كانت قد صيغت تحت تأثير تلك التجربة، بفعل النزعة الانعزالية التي كانت قد سبقت الحرب وسمحت للقوى الأكثر ظلامية في اثنتين من القارات بالتحرّك ضد جيرانهم الأضعف، وبسبب الحاجة إلىٰ الأمن الجماعي في السنوات اللاحقة، فيما باتت قوتان عظميان جديدتان متحفزتين للانقضاض إحداهما علىٰ الأُخرى في عصر ذري. بنظر الكثير من أبناء جيل عائد إلىٰ الوطن بعد الحرب العالميَّة الثانية، جيل كان شريكاً مباشراً في مأساة الحرب بالذات وشاهداً علىٰ رحيل الكثير والكثير من الأصدقاء استشهاداً في معارك القتال، لم تعد النزعة الانعزالية القديمة البالية مقبولة. ومما جعلها أقل قابلية للقبول أَن الحاجزين اللذين كانا يشكِّلان أساس الانعزال الأَمريكي في الماضي، مُحيطينا العظيمين [الأطلسي والهادي]، كانا قد قُلبا إلىٰ بحيرتين أَو بحرتين بفعل الأَسلحة الحديثة، بفعل الصواريخ عابرة القارات ذات الرؤوس النووية، بفعل الغواصات الذرية وغيرها من أدوات الحرب التي باتت متزاوجة مع التكنولوجيا العالية بهدف التدمير الشامل.

كانت تلك الخلفية الخاصة، خدمتهُ في الحرب العالميَّة الثانية في سلاح البحرية حتى قبل متابعته للدراسة في الجامعة، ونزوعه الغريزي لمقاومة العدوان المكشوف، منطوية علىٰ أَهميَّة استثنائية في قرار بوش القاضي

بالاضطلاع بمهمة خوض حرب شاملة علىٰ بُعد حوالي ستة آلاف وخمسمئة ميل لطرد صدّام حسين من الكويت. خلال تلك الأزمة، ظل بوش العضو الأكثر صَقْرية في إدارته بالذات، مثيراً دهشة عدد من أقرب مستشاريه وكبار المسؤولين في الپنتاگون علىٰ حد سواء بتصميمه الاستثنائي علىٰ تحقيق الهدف. فبالنسبة إليه شكَّل ما أقدم الجيش العراقي علىٰ فعله تكراراً للحرب العالميَّة الثانية، عدواناً فاضحاً شنَّه القَويّ علىٰ الضعيف، وكان ذلك أمراً لا يطاق. أضف إلىٰ ذلك أنّه كان محتملاً أَن يحدث خللاً في ميزان القوَّة في عالم النفط، وكانت جذوره في تربة الأعمال النفطية. إن القرار القاضي ليس فقط بوقف العراقيين عند الحدود السعودية، الذي كان الجميع في الإدارة موافقين عليه، بل وبطرد الجيش العراقي الجرّار والقوي، علىٰ ما بدا بوضوح، من الأراضي الكويتية، كان قراراً عائداً في جزئه الأكبر إلىٰ جورج بوش.

بين من كانوا أقل صَقْرية منه نجد رؤساء الأركان الذين لم يسارعوا قط إلىٰ وضع الخطط الخاصة باجتثاث صدام حسين من الكويت. فكولن پاول، وهو المتطرّف في حَذَره إزاء أَي استخدام للقوّات الأَمريكية، كان يفضل، بدلاً من ذلك، رسم خط حول السعودية لا يجرؤ العراقيون علىٰ عبوره. مستمراً في ترديد أصداء آلام التجربة الڤيتنامية حين أذعن رؤساء الأركان، حسب كلماته، وسمحوا للمدنيين بدخول الحرب دون تحديد أَهداف واضحة، كان پاول قد ألحّ في مطالبة رؤسائه بيان ما كانوا يريدونه بدقّة مع إيضاح الثمن الذي كانوا مستعدين لدفعه. في أَحد المنعطفات أصبح حَذَرُه أقرب إلىٰ عامل من عوامل الاستفزاز والإثارة. أخيراً ذهب تشيني إليه وقال له: «اسمع يا كولن، أَنت رئيس لهيئة رؤساء الأركان المشتركة، لست وزيراً للخارجيَّة. لم تعد مستشاراً للأمن القومي. ولست وزيراً للدفاع. إذن عليك أَن تبقى محصوراً بالمسائل العسكريَّة»[1].

(1) پاول، 475.

كان بوش في الرابعة والستين من عمره حين تولّى الرئاسة، مما عنى أن حياته العملية كلها تقريباً كان قد عاشها في ظلّ الحرب الباردة التي لم تكتف بصياغة شخصيته فقط، بل وتداخلت، كما فعلت بالنسبة إِلىٰ أَكثرية الأَمريكيين الأمميين من أبناء جيله، مع نظرته الشخصية إِلىٰ العالم. لم يراوده الشك قط حول دور أَمريكا في ضمان التحالف الغربي ووضع حد فاصل للضغوط السوڤيتية الدائمة في أوروپا الوسطى. ثمة آخرون من جيله كانوا قد تأثّروا بحرب ڤيتنام وتحوَّلوا تدريجياً من صقور إِلىٰ حمائم. أَمَّا آراء بوش حول الموضوع فقد بقيت صَقْرية تماماً. وإِذا ما راودته أية شكوك حول طبيعة الانخراط الأَمريكي في ڤيتنام وحول أَسباب الفشل، فقد ظلّ الأَمر لغزاً بالنسبة إِلىٰ معظم الدارسين الجادين للموضوع. ففي اليوم الذي كان فيه ليندون جونسون الذي قامت الحرب بالإِجهاز علىٰ رئاسته قد غادر واشنطن عائداً إِلىٰ تكساس في كانون ثاني/ يناير 1969م، كان أَحد أعضاء الفريق الصغير نسبياً من الساسة الذين خرجوا لوداعه هو عضو الكونگرس الجمهوري الشاب جورج بوش. كان الجمهوريون الآخرون من جيله يميلون إِلىٰ الاستهانة ببوش، خلال صعوده من بين صفوف حزبه، وريثاً لطبقة، لم تكن موهوبة بالضرورة، ولكنها مجتهدة ومستعدة للاضطلاع بمسؤوليات ووظائف قد يحتقرها الآخرون. وربما أَهَّلته ذات يوم طبقته، حسب اعتقادهم، لاحتلال مقعد في الدائرة الداخليَّة، غير أَنَّها ما لبثت أَن تركته الآن، وأصابعه علىٰ عتبة النافذة، متلهفاً لتلقف أَي شيء يُقدَّم إِليه.

خلال السنوات السابقة كان بوش قد شغل عدداً من المناصب العليا نسبياً في وزارة الخارجيَّة: كان رئيساً لوكالة الاستخبارات المركزية (السي. آي. إي.)، سفيراً إِلىٰ الأمم المتّحدة، مبعوثاً للولايات المتحدة إِلىٰ الصين. وكنائب للرئيس ظل شديد الانغماس في السياسة الخارجيَّة، متفوّقاً في هذا علىٰ أَكثر الرجال الذين سبقوه إلى هذا المنصب بكثير. لم يكتف بحضور حلقات

الإِيجاز الصباحية المبكرة التي كان يعقدها كبار العاملين في وكالة الاستخبارات المركزية بغية إِطلاعه علىٰ أحداث الساعات الأربع والعشرين الأخيرة، بل كان يعكف بلهفة وحماس علىٰ قراءة البرقيات ذاتها ـ دليل مؤكد علىٰ أنّه كان مُدْمن سياسة خارجيَّة. في ذلك أَيضاً كان ابناً باراً لجيله ـ شخصاً مؤمناً بأن أَسباب السلطة الحقيقيَّة كانت كامنة في السياسة الخارجيَّة. غير أَن ذلك كان سيتغيّر، وبوتائر متسارعة، خلال فترة رئاسته، لأن اختفاء القوَّة العظمى المعادية أدّى، علىٰ الفور، إِلىٰ تخفيض قيمة قضايا السياسة الخارجيَّة واختزال أهميتها. غير أَن السياسة الخارجيَّة ظلَّت، بنظر بوش، وبرأي أولئك الذين كان يحترم وجهات نظرهم السياسيَّة، في مركز القلب من عمله. فأنت تسعى إِلىٰ الرئاسة لأنك تريد أَن تلعب دوراً في عمليَّة تحديد اتجاه العالم.

كان بوش واقفاً علىٰ نقاط قوته ومواطن ضعفه، مدركاً لحقيقة أنّه كان في العلاقات الشخصية، شخصاً لشخص، أفضل منه في التعامل مع القضايا المجردة. فمجاملاته الشخصية كانت أسطورية معروفة سلفاً حين تولّى الرئاسة. تمثّل الدعم الذي دفعه إِلىٰ الترشح للرئاسة بآلاف الناس الذين كان قد التقى بهم عبر السنين وظلّوا أصدقاء شخصيين ـ الكثير منهم من زملائه خريجي ييل ـ وممن كتب لهم عدداً لا يحصى من الرسائل الشخصية. فحين سئل مرة عن أساس رئاسته المحتملة ردّ قائلاً: «عندي عائلة كبيرة **وكثرة** من الأصدقاء». أو كما لاحظ الكاتب ريتشارد بن كرامر في كتابه عن انتخابات 1988م، فإِن بوش، «كان يحاول أَن يصبح رئيساً عبر بناء الصداقات، واحدة بعد أُخرى، إِذا تطلّب الأَمر»[2]. كانت قائمة بوش لبطاقات عيد الميلاد لا نهائية، آلافاً مؤلَّفة من البطاقات، معنونة باليد؛ وهي عمليَّة ربما كانت تبدأ فور انتهاء موسم الأعياد. بقيت سياسته شخصية، أَكثر من كونها قائمة علىٰ دافع الأفكار. وكان أَيضاً يمثِّل سياسة أشبه بموقف قديم الطراز من الطبقات: فنحن نأتي من خلفيات

---

(2) كرامر، 13.

معينة، نتابع الدراسة في مدارس معينة، مررنا بتجارب تاريخية مشتركة محددة، نؤمن بنبل الخدمة حيث تكون الخدمة مطلوبة، ننظر إلىٰ العالم بطريقة تكاد أَن تكون متماثلة، نتفق حول ما هو صحيح وما هو خطأ. أضف إِلىٰ ذلك أننا لا نعرف كثيرين ممن أنجزوا واجباتهم البيتية ولا يتفقون معنا حول جميع الأمور المهمّة حقاً.

بقي بوش كمرشح رئاسي هجيناً غير كامل وغير مستقر في الغالب بين ليبرالية جمهورية شرقيَّة تقليدية قديمة من جهة ونزعة حزام الشمس المحافظة الحديثة من جهة أُخرى. كان قد بدأ الحياة سليلاً للمؤسسة الشرقيَّة، ابناً لپرِسْكوت بوش، عضو مجلس الشيوخ الجمهوري الليبرالي، الطيب، صاحب السجل الناصع الذي كان قد أوجد ظله المحترم الخاص متمثلاً بمدرسة القديس جورج، الرياضي المتفوق والممتاز في جامعة ييل في ثلاث رياضات، النقيب في المدفعية في الحرب العالميَّة الأولى، نائب الرئيس المبكر لمؤسسة الإِخوة براون، هاريمان، المركز الرمزي للتمويل المؤسساتي في تلك الأيام، العضو في شركة ييل، رئيس فرع كونكتيكت لصندوق كلية الزنوج الموحد. تمّت تربية جورج الفتى بطريقة شبه مثالية تلميذاً في مدرسة طبقة گرينويتش، أندوڤر العليا (وقد اختيرت باعتبارها أَكثر ديمقراطية من بعض مدارس الشرق الإِعدادية المتغطرسة)، طالباً في جامعة ييل (سكل آند بونز، كابتن فريق البيزبول)، ومتزوجاً من فتاة أنيقة قادمة هي الأُخرى من الطبقة ذاتها بالتحديد. وبعد الجامعة كان قد انتقل إِلىٰ تكساس لمراكمة ثروته في حقول النفط، حيث أقام أولاً في تكساس الغربيَّة ثم ما لبث أَن جاء إِلىٰ هيوستن. وعلىٰ الرغم من أنّه كان، فيما بعد، سيفوز بمقعد في مجلس الشيوخ عن تلك الولاية، فإِنّه لم يحظ قط بالقبول الكامل كتكساسي. ظل حاملاً لطابع الشرق: قوة تربية العائلة، وجملة تلك السلوكيات المثالية ذات الطراز القديم، التي كانت شديدة التأثير علىٰ جميع الأساتذة وأولياء النعمة المتقدمين داخل الحزب الجمهوري.

يُفترض في أهل تكساس أَن يكونوا أجلافاً، جزئياً علىٰ الأقل، غير مصقولين، غير أَن جورج بوش لم يكن يتصف بأي قَدْر من الجلافة وعدم الصقل.

كثرة من مواصفاته الواسبية ـ نسبة إِلىٰ WASP ـ العتيقة كانت قد باتت بالية بصورة متزايدة في أَمريكا مع حلول عقد الستينيَّات، وخصوصاً في تكساس المعروفة بشعبويتها غير الرسمية المعاصرة شبه المتعمدة. وبمعايير تكساس هذه كانت سلوكيات بوش المصقولة جموداً مما أبقاه عاجزاً عن أَن يصبح تكساسياً حقيقياً. قال عنه جون كونالي، ذات مرة، قبعة عالية ولكن دون قطيع أبقار. وقد بقي بوش أَيضاً جمهورياً محصوراً بالمرحلة الانتقالية التاريخيَّة للحزب علىٰ الصعيدين الإِيديولوجي والجغرافي. لم يعد قادراً علىٰ أَن يظل معتدلاً من الطراز القديم من نيو إنگلند لأن ذلك الجناح من الحزب كان محتضراً أمام عينيه، غير أَنَّه لم يكن قط قادراً علىٰ أن يصبح محافظاً منتمياً إِلىٰ حزام الشمس، في الوقت نفسه. ففي انتخابات نيو هامپشاير التمهيدية سنة 1980م، ظل بوب دول يشير إِلىٰ بوش، محاولاً تأكيد عدم خروج الرجل من جلده، علىٰ أَنَّه «مرشح روكفلر». لقد تطلب أمر القبول بأحد آل بوش كتكساسي حقيقي مجيء جيل آخر، وصعود جورج دبليو الابن حاكماً للولاية.

ومع ذلك فقد ظل بوش دائباً باستمرار علىٰ التحرك نحو اليمين حول قضايا داخليَّة معينة، متحوِّلاً، بصورة تدريجية، عن جملة القواعد والمبادئ السياسيَّة والمواقف الاجتماعيَّة للطبقة والثقافة اللتين ولد في كنفهما إِلىٰ الطبقة والثقافة اللتين أصبحتا تحيطان به الآن. ليس سهلاً علىٰ الدوام أَن تعيد اختراع نفسك، وقد كان الأَمر أَكثر صعوبة بالنسبة إِلىٰ بوش منه بالنسبة إِلىٰ الأَكثرية. لم يتكيَّف مع ثقافة تكساس السياسيَّة المختلفة بنجاح كامل وكان في الغالب منزعجاً قليلاً ومحرجاً في تعامله مع حلفائه اليمينيين الجدد علىٰ صعيد الخطب التي تلقى كما من حيث المواقف التي يتم اتخاذها. بدا بوش أَحياناً محصوراً بين الواجب والطموح كما بين ماضيه ومستقبله. فما إِن أينعت طموحاته

الرئاسية حتى سارع إِلىٰ الابتعاد عن جذوره، في الفترة التي سبقت حملة 1980م مباشرة حيث استقال من اللجنة الثلاثية ومجلس العلاقات الخارجيَّة ـ بطريقة بوشية مثالية، نظراً لكون الأخلاق بالغة الأَهميَّة باستمرار ـ مع ملاحظة شخصية صغيرة يطلب فيها عدم إِعلان استقالته علىٰ الملأ، كما أكّد رسميون في المؤسستين.

لم تتم إِضافة بوش إِلىٰ قائمة ريگان ـ بما انطوى عليه ذلك من فتح الطريق أمامه واسعاً ـ إِلاَّ في الدقيقة الأخيرة. ففكرة قائمة تضم كلاً من ريگان وفورد (مع جعل هنري كيسنگر مسؤولاً عن السياسة الخارجيَّة وآلان گرينسپان مسؤولاً عن السياسة الاقتصاديَّة) كانت قد أدهشت جزءاً كبيراً من وسائل الإِعلام، غير أنَّها أخفقت في إِغراء ريگان بالذات الذي أقدم، في اللحظة الأخيرة، علىٰ اختيار بوش تجاوباً مع اقتراح خبير استطلاعات الرأي عنده، ريتشارد ويرثلين، الذي كان قد أعلن في اللحظات الأخيرة من المؤتمر عن أَن بوش لم يكن أقل من غيره شعبية. لم يكن المحافظون، أنصار ريگان الحقيقيّون من ذوي الدم الأزرق، مسرورين. فقد كانوا، علىٰ الدوام، ينظرون إِلىٰ بوش بعين الريبة. لقد كان مختلفاً عنهم في كل شيء. راح بعضهم يتساءل: هل هو حكر علىٰ النخب الشرقيَّة؟ وكان بوش قد أطلق علىٰ سياسات ريگان المالية اسم الاقتصاد البهلواني القائم علىٰ الشعوذة خلال الانتخابات التمهيدية، مطلقاً عبارات جديرة بأن تكون قد خرجت من فم ناقد اقتصادي ليبرالي مثل جون كَنث گالبريث. غير أَن أَحداً لم يعد بمقدوره أَن يضاهي بوش من حيث الولاء لسيده بعد أَن تولى منصب نائب الرئيس؛ فالجندي المخلص والملتزم بوش أقدم علىٰ قبول جميع المسؤوليات والواجبات الخاصة بنائب الرئيس، مهما كانت بشعة ووضيعة، دون أَي تذمّر. حتى ولو لم يكن متفقا مع هذه الخطة أَو تلك، فإِن العاملين معه كانوا محذرين من إِبداء أَي تباين بين ما كانوا يشعرون به من جهة وما كان الرئيس يقوم به من جهة ثانية. كانت

التسريبات محظورة. ومع ذلك فإن أتباع ريگان الحقيقيين كانوا علىٰ الدوام متأكدين من أنّه، مهما بالغ في إظهار الولاء، لم يكن واحداً منهم. لم يكن يتعين علىٰ هؤلاء اختباره ليقينهم من حتمية سقوطه في الاختبار بهذه الصورة أَو تلك. وقد كانوا، بالطبع، علىٰ صواب. لم يكن بوش صادقاً في إيمانه، كما لم تكن عمليَّة التحوّل من إدارة ريگان إلىٰ إدارة بوش علىٰ صعيد فريق الأمن القومي عديمة الأَهميَّة. ونظراً للطبيعة الوَسَطية للسياسة الخارجيَّة الأمريكية علىٰ امتداد الجزء الأكبر من حقبة ما بعد الحرب، فقد كان هذا التحوّل أكبر تقريباً من التغيير من أَكثر الإدارات جمهورية إلىٰ أَكثرها ديمقراطية أَو بالعكس. فقد كان جيمس بيكر الذي احتل منصب وزارة الخارجيَّة، مثلاً، سعيداً بالخلاص من بعض أولئك الذين عيّنهم ريگان من الأَكثر محافظة. لقد قال وهو عاكف علىٰ تنظيف البيت: «تذكروا، **ليس** هذا تحولاً ودياً»[3].

أدرك بوش أنّه عاجز عن منافسة ريگان في كثير من الميادين، وأن مهاراتهما كانت مختلفة تماماً. غير أَن اهتمامه بالسيرورة، تلك السنوات الطويلة التي أمضاها وهو يشق طريقه بدأب وصبر مع كثير من الحرص والحذر، صعوداً إلىٰ عالم الأمن القومي، مع اهتمامه بالسياسة الخارجيَّة، كان من شأنه أَن يسهل عمله كثيراً. تمثَّلت المفارقة الساخرة بوصول الرئيس وأكبر شخصيات فريقه إلىٰ السلطة في فترة كانت نقيضاً مباشراً لما جرى تدريبهم من أجله. كانوا قد أمضوا تلك السنوات كلها وهم يستعدون للأسوأ، للاقتراب من يوم القيامة، متأهبين لمواجهة زيادة بالغة الخطورة لأشكال التوتر والنزعات العدوانية من جانب العدو اللدود القابع في موسكو. غير أَن ذلك العدو اللدود ما لبث، بدلاً من ذلك، أَن أصبح صديقاً بصورة مؤقتة، وإِن لم يتحول بعد إلىٰ حليف ومرشح لعضوية حلف الناتو. ففي تلك الأيام المضطربة، غير القابلة للتنبؤ، وهي بالغة الخطورة لأن تلك كانت الأنفاس الأخيرة لامبراطورية

(3) بشلوس وتالبوت، 26.

سوداء، ولأن الأعداء القدامى يكونون في الغالب شديدي الخطر إلىٰ حد التطرّف في لحظات الاحتضار، بدا بوش وفريقه في مواجهة دورة أَحداث كاملة. كانوا يعرفون إِلىٰ أَي مدى يذهبون في كل لحظة، إِلىٰ أَي مدى يدفعون باتجاه التغيير، متى يتراجعون ويَدَعُون الأمور تجري في مسارها، ومتى يقومون بلكزها ودفعها إِلىٰ الأمام. في لحظة من اللحظات، فيما كانت الإِمبراطورية السوفيتية تتفكك، قال جيمس بيكر لأقرب مساعديه إِن السؤال الوحيد الباقي كان متمثلاً، حسب تعبيره، بما إِذا كانت العمليَّة ستتكشف بوصفها «حادثة سقوط أم عمليَّة هبوط لَيِّنة». وقد كانت العمليَّة، بفضل مهارات أعضاء إِدارة بوش المختلفين، هبوطاً مريحاً.

أما حقبة ما بعد الحرب الباردة فقد كانت شيئاً آخر. لم يكن ثمة أَي تدريب للتعامل مع مثل هذه الحقبة، وما كان ينبغي الاهتمام به وما يتعيَّن تركه يسير في طريقه كان أصعب بكثير علىٰ القياس، لأن قلَّة فقط من بؤر الاضطراب كانت تمثِّل، بالمعنى الأَكثر دقَّة للعبارة، تهديدات مباشرة لأمن الولايات المتحدة القومي. كان التوجيه الشامل الذي ظل يطبع السياسة الأَمريكيَّة علىٰ امتداد أربعين سنة ـ العيون كلها علىٰ موسكو، مع لمحات سريعة نحو بكين، الديمقراطيات الغربيَّة خير، البلدان الشيوعية والبلدان الدائرة في فلكها شرّ ـ قد انقلب فجأة رأساً علىٰ عقب وسُحب من التداول. ففي الحرب الباردة لم تكن السياسة الدولية سهلة نسبياً ـ وإِنْ خَطِرة علىٰ الدوام ـ فحسب، بل وكانت المواقف السياسيَّة الداخليَّة من السياسة الخارجيَّة بعيدة، بالمثل، عن التعقيد. أَي رئيس يتخذ موقفاً متشدّداً في معاداة الشيوعيين كان يضمن، بصورة شبه آلية، دعم أَكثرية الأَمريكيين، غير أَن التحديات التي طرحها الشيوعيون، تلك التحديات التي بقيت بسيطة داخل أوروپا الوسطى، ما لبثت أَن أصبحت مختلفة كثيراً عندما طفت علىٰ السطح في العالم الثالث، كما في حال الصراع ما بعد الكولونيالي في ڤيتنام، حيث بات التهديد الشيوعي متضافراً مع نزعة قومية ـ وطنية ناشطة.

كانت المسألة الطاغية علىٰ الحملات الرئاسية الأَمريكيَّة في تلك الأيام متركّزة علىٰ الذي من شأنه أَن يكون الأَكثر استعداداً للوقوف في وجه الحاكم الدكتاتوري السوڤيتي في ذلك الوقت. بقي كل من الحزبين يهاجم الآخر حول هذه القضية، علىٰ الرغم من أَن الكفَّة ظلّت تميل، حتماً، لصالح الجمهوريين، لأنهم كانوا، من جذورهم، حزب الأعمال، حزب الرأسمالية الحقيقية، وبالتالي الحزب الأشد عداءاً للشيوعية، افتراضياً. فالطريقة التبسيطيَّة التي كان الجمهوريون يعتمدونها غالباً في النظر إِلىٰ العالم كانت تتحوَّل إِلىٰ ميزة في السياسة الداخليَّة، لأنهم لم يكونوا يرون أَي تدرج في الأَمر، كما لم يكونوا يتركون أَي مجال للشكوك حول ما ينبغي أَن تكون عليه سياستنا الخارجيَّة. أَمَّا الديمقراطيون فربما كانوا موصومين في الماضي بأصولهم وآرائهم الأَكثر ليبرالية، بل وحتى متَّهمين أحياناً بأنهم رفاق طريق متعاطفون مع الشيوعية. وهكذا فإِن الحرب الباردة كانت تميل لصالح النزعة الجمهورية، وبعض قادة العالم الشيوعي بدوا مدركين لحقيقة أَنَّهم كانوا متمتعين بقَدْر أكبر من الحرية في التفاوض مع الجمهوريين بدلاً من الديمقراطيين لأنهم ـ الجمهوريين ـ كانوا أقل اضطراراً لاتخاذ المواقف الدفاعية. فقد قال الرئيس ماو لنيكسون في لقائهما الأول: «أنا أحب اليمينيين. . . . إِنني شديد السعادة حين تصل جماعات اليمين هذه إِلىٰ السلطة»[4].

وبين عشية وضحاها، كما يقول المثل، لم يقف الأَمر عند انتهاء تلك الحقبة مع انهيار الشيوعية، بل وتجاوزه إِلىٰ جعل العالم أَكثر تعقيداً بما لا يقاس. ثمة قوى محلية طال كبتها خرجت من عقالها في كل مكان، وقد كانت خطرة بحد ذاتها رغم عدم تطابقها مع المعادلة القديمة المجربة والصحيحة القائمة علىٰ نوع من التهديد السوڤيتي العالمي. بدا وكأن الشمال الحقيقي قد جرت إِزالته من بوصلات الناس الذين أمضوا حياتهم كلها في دائرة الأمن

(4) تيلر، 131.

القومي. وكان من شأن رد الفعل السياسي الداخلي علىٰ القوى الجديدة الفاعلة في العالم أَن تتغيَّر هي الأُخرى؛ فما سبق له أَن كان كلاً موحداً تعيَّن عليه الآن أَن يصبح ممزقاً. كان لا بد لأزمات السياسة الخارجيَّة التي تواجهها واشنطن من أَن تنشأ، جزئياً، من الحرية الجديدة التي كسبتها قوى معينة متوسطة الحجم علىٰ صعيد إِلحاق الأذى بالغير، وهي بلدان كانت قُدْرتها علىٰ التحرّك تلقائياً محدودة إِلىٰ وقت قريب بفعل القيود التي كان يفرضها أولياء النعم الأقوياء. من المشكوك فيه أَن يكون العراق، مثلاً، وهو بلد تابع للاتحاد السوڤيتي وسبق له أَن استفاد كثيراً وكثيراً جداً من إِتقان فنّ اللعب علىٰ مختلف أوجه التنافس الأَمريكي ـ السوڤيتي، ولكنه بقي في الوقت نفسه ملجوماً بحذر ولي نعمته، قد فكَّر، ولو مجرد تفكير، بالتحرك ضد الكويت حين كانت الحرب الباردة في أوجها.

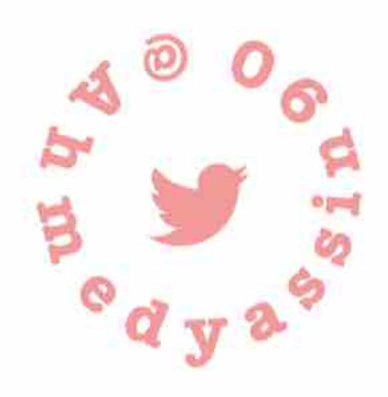
ثمة أزمات أُخرى سوف تخرج من قلب الانفجار الداخلي لعدد غير قليل من البلدان الإِفريقيَّة الجنينية الفقيرة المحشوة حتى الثمالة بالأَسلحة الحديثة ذات الدرجة الثانية والثالثة، ومعظمها أشباه بلدان، باتت سائر المؤسَّسات الأهلية فيها، باستثناء الجيش والبوليس السرّي، معطَّلة عملياً. وصعود النزعة القومية، بل النزعة القَبَلية والعشائرية في الحقيقة، في الكثير من زوايا العالم وأركانه، مع أشكال السخط العرقي إِزاء الحدود الاعتباطية المتعسّفة، من شأنه أَن يفضي إِلىٰ اندلاع أشكال من اقتتال الأخوة المرير والوحشي بصورة غير عادية، وصولاً مع الزمن، إِلىٰ تدفق أنهار من اللاجئين عبر الحدود الدولية. تلك كانت «حروب فناجين الشاي» كما سمَّاها الكاتب والخبير في شؤون الدفاع لَسْ گلب. لم تكن القضايا المطروحة من قبل مثل هذه الحروب تثير أيَّة أسئلة مباشرة تخص الأمن القومي الأَمريكي، بمقدار ما أثارت أسئلة تمس طيبة أَمريكا وكرم روحها، مع نظرة أبعد مدى تقول بأن من شأن قَدْر أقل من القتل أَن يعني كرة أرضية أَكثر أَمناً بالنسبة إِلىٰ الجميع. وإِذا ما تم قطع أية التزامات

عسكريَّة، فإن الپنتاگون كان ميَّالاً لأن يعتبرها التزامات ذات دوافع قيمية، لا التزامات أمن قومي.

لم يكن أَحد يعرف أجوبة الأسئلة المطروحة من جملة هذه الأزمات، إذا كانت هناك، في الحقيقة، أية أجوبة صحيحة. بدا الأَمر أحياناً كما لو كانت الأجوبة كلها خاطئة. نادراً ما كان أمن الولايات المتحدة مهدداً بأية طريقة مباشرة أَو حتى غير مباشرة، وبالتالي فإن فريق بوش تعاملوا مع مثل هذه الأزمات ـ باستثناء حرب الخليج التي كانت بالنسبة إلىٰ الرئيس صورة طبق الأصل عن عدوان ألمانيا الفاضح في الحرب العالميَّة الثانية أَو عدوان كوريا الشمالية في حزيران/ يونيو 1950م ـ ببطء وتردد. صحيح أنّهم كانوا قادرين علىٰ الإكثار من الكلام عن السياسة الخارجيَّة وطبيعتها في ظل النظام العالمي الجديد، حسب تعبير الرئيس، إلاَّ أنهم لم يكونوا بعد، مثلهم مثل الشباب اللامعين الموشكين علىٰ تحديهم في 1992م، قادرين علىٰ تحديد المسار العملي الذي سيتعين عليهم أَن يسيروا فيه.

كان ثمة أَيضاً جملة من المشكلات السياسيَّة الجديدة المثيرة للقلق بالنسبة إلىٰ بوش وأي خَلَفٍ محتمل. فمع تراجع التهديد السوڤيتي للولايات المتحدة، كان التأييد والدعم السياسيين لأية قضية ذات علاقة بالسياسة الخارجيَّة وغير منطوية علىٰ أَهميَّة مباشرة، قد تراجع هو الآخر. ثمة جيل كان موشكاً علىٰ بلوغ سن الرشد في الكونگرس ممن لا يهتمون بالشؤون السياسيَّة الخارجيَّة إلاَّ بقَدْر أقل، ممن انتخبهم جيل من الناخبين أقل اهتماماً، وممن تحدثت عنهم وسائل إعلام مصابة بعلّة قلة الاهتمام. وبالتالي فإن الدعم الداخلي الضروري، في وقت بات فيه التورّط متدني الخطر، الإنساني إلىٰ حد كبير، في أجزاء مختلفة من العالم وارداً، كان في هبوط وتراجع. بصراحة كان البلد أقوى وأَكثر نفوذاً من أَي وقت مضى، غير أنّه بقي منطوياً علىٰ نفسه، عاكفاً علىٰ النظر إلىٰ الداخل. لعل أمّتنا كانت أَكثر الأمم تعرضاً للانفصام، لمرض الشيزوفرينيا، أمة

هي القوَّة العظمى الوحيدة غير الراغبة في أَن تكون قوة إِمبراطورية، وأمّة بدت روحها، فيما عدا الأمور المالية والاقتصاديَّة، متنامية النزعة الانفصالية بصورة مطردة.


@Ahmedyassin90

الفصل الثامن

استعادياً، لم يكن غريباً أَن يتم الاختبار الكبير الأول لحقبة ما بعد الحرب الباردة في يوگوسلاڤيا المنطوية علىٰ هذا العدد الكبير من صراعات أوروپا وتناقضاتها في القرن العشرين، هذه الصراعات والتناقضات التي بقيت، مع اقتراب القرن من نهايته، دونما حلّ بصورة شبه كاملة. كانت يوگوسلاڤيا تركيبة مضطربة لعدد من المُزَق القبلية الأصغر أَكثر منها دولة أَو أمّة حقيقيَّة واحدة؛ ولم تعش كأمّة خلال السنوات الأربعين الأخيرة إلاَّ بفضل موقعها الجغرافي ـ السياسي غير العادي والدهاء الفريد لزعيمها جوزيف بروز، أَو تيتو كما عُرف شعبياً. كان تيتو قد قمع دون رحمة عدداً من القوى المختلفة المتنافسة، علىٰ الأخص النزعة القومية القوية الكامنة للجماعات المكوِّنة المختلفة، وشكّل صورة وحدة وإِن لم تكن وحدة حقيقية من عدد كبير من الأجزاء.

لقد جرى ترقيع يوگوسلاڤيا في فترة ما بعد الحرب العالميَّة الأولى، وهي تركيبة غير محتملة تجمع بين أقوام وقبائل أصغر كان جزءاً من حطام نهاية ليس فقط أَكثر الحروب إِجراماً، بل والانهيار النهائي لاثنتين من الإِمبراطوريات الكبرى، العثمانية والنمساوية [آل هاپسبورگ]. فالجزء الأكبر من الأراضي المشمولة بيوگوسلاڤيا كان علىٰ أَطراف وحواشي هاتين الإِمبراطوريتين، حيث كانت ساحتاهما المغناطيسيتان علىٰ درجة من القوّة تكفي لتكوين المشكلات

لأولئك المقيمين هناك، وحيث سادت حركة مد وجزر دائمة لجماعات حاكمة. جاء الاسم الأصلي للبلد يعكس الطابع غير المحتمل للإجماع القومي؛ كان سيطلق عليه اسم مملكة الصرب والكروات والسلوڤينيين. ما لبث ذلك الاسم أن تغيّر مع الزمن إلىٰ يوگوسلاڤيا التي كانت أساساً تعني «بلد السلاف [الصقالبة] الجنوبيين» أو «بلد سلاف الجنوب». كانت للمظالم القبلية التاريخية جذور عميقة، ولأسباب اقتصاديَّة، ثقافية، وتعليمية مختلفة، بقيت القوى الفاعلة والعاملة علىٰ تقسيم الأمّة أقوى من تلك الموحدة لها. وخلال أسوأ أيام الحرب الباردة حين كانت خاضعة لحكم الشيوعيين تحت القبضة شبه الفولاذية لتيتو، كانت النكتة تقول بأنّها مؤلّفة من ست جمهوريات، خمس أمم، أربع لغات، ثلاثة أديان، أبجديتين، وحزب سياسي واحد[1].

كان ثمة قَدْر غير قليل من الإعجاب - إعجاب ظاهري بالتأكيد - يبديه الزوار الأجانب، مثل الأمريكيين، بشعب البلاد، لا لشيء إلاَّ لأننا كنا نكره أعداءه مما جعلنا نركّز أنظارنا علىٰ مواصفاتهم الإيجابية بدلاً من السلبية. ففي الحرب العالميَّة الثانية كان أعداء يوگوسلاڤيا - يوگوسلاڤيا الصربية - هم الألمان، وبالتالي فإن الفرنسيين، البريطانيين، والأمريكيين كانوا سعيدين بذلك؛ أمَّا في الحرب الباردة حيث كانت يوگوسلاڤيا قد نجحت في اجتراح نوع من الاستقلال الجزئي عن موسكو، فكنا جميعاً سعداء بذلك. لقد كان شعب يوگوسلاڤيا «قوياً، مفعماً بالحيوية - فظاً، شهوانياً، جلفاً في الوقت نفسه» كما قال جون گونتر، أحد أبرع صحفيي أمريكا في جيله، ذات يوم، متحدثاً عن صورة أبناء يوگوسلاڤيا المثيرة للإعجاب في الغرب بفضل طريقتهم في محاربة الألمان في الحرب العالميَّة الثانية وتصديهم للروس خلال الحرب الباردة، علىٰ الرغم، بالطبع، من أن بعض اليوگوسلاڤيين، علىٰ الأخص

---

(1) هولبروك، 27.

الكروات، كانوا، لأَسبابهم التاريخية الخاصة قد تصرَّفوا تصرّفاً إِجرامياً تماماً في صف الألمان[2].

وما هو أسوأ أَن الأحقاد القاتلة الموجودة هناك كانت خليطاً عجيباً بين القديم والجديد. فالهروب من التاريخ القائم علىٰ ما سبق للجماعات العرقية المختلفة أَن فَعَلَتْه ببعضها البعض طوال ستة قرون، وعلىٰ مظالم قروسطية بقيت حية ومريرة بصورة لافتة للنظر وهي تأخذ صيغاً أَكثر حداثة. وكما لاحظ الصحفي إِد ڤوليامي، بعد تغطية سلسلة لا نهاية لها من المعارك بين الصرب والكروات والصرب المسلمين، والإِصغاء إِلىٰ أقوال الضباط القادة من الطرفين وهم يشرحون ما كانوا قد فعلوه ولماذا، فإِن «الرد علىٰ هجوم الأمس المدفعي سيبدأ في سنة 1925 موضحاً بالخرائط [العائدة لتلك السنة] دون أَي تغيير»[3].

تقع البلاد في جزء متخلّف تخلّفاً غير عادي من أوروپا، ويتشكّل القسم الأكبر منها من الجبال التي هي بالتالي غير صالحة للزراعة، مع بقاء قسم كبير منها خارج دائرة جذب القوى الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة الأَكثر إِيجابية للثورة الصناعية، التي سبق لها أَن نجحت في جلب النمو المطرد إِلىٰ باقي أوروپا، خصوصاً في السنوات التي أعقبت الحرب الثانية. الآخرون كانوا قد تَحدَّثوا [قاموا بعمليَّة التحديث]؛ أَمَّا اليوگوسلاڤيون فكانوا قد ظلّوا فقراء. ليست مصادفة أَن تبقى يوگوسلاڤيا منبع عمالة رخيصة لدعم الاقتصاد الألماني المزدهر، لأن أَي عمل كئيب في مصنع يترفع عنه أَي شاب ألماني متمتع بعدد من الخيارات المهنية، كان فرصة طبقة وسطى ممتازة بالنسبة إِلىٰ أَي يوگوسلاڤي. دأب الكثير من القادة السياسيين الأقوياء في المنطقة علىٰ محاربة الحداثة غريزياً ما لم يتمكّنوا من توظيفها لأغراضهم الخاصة الضيِّقة. لم يكتف الماضي في يوگوسلاڤيا بالتباطؤ والامتناع عن الرحيل، بل بقي مصرّاً علىٰ أَن

(2) گونتر، 345.

(3) ڤوليامي، 5.

يبدو بنظر الكثير والكثير من النّاس كما لو كان هو المستقبل. في حزيران/ يونيو 1989 كان عضو الكونگرس ستڤن سولارز من نيويورك، وهو أَحد أعضاء لجنة الشؤون الخارجيَّة في البرلمان، قد زار يوگوسلاڤيا، قبيل تفكّك البلاد مباشرة، برفقة موظف شاب لامع من وزارة الخارجيَّة يدعى كريس هيل. في نهاية الجولة سأل الشاب ضيفه: «ما رأيك بالموضع؟» فرد سولارز عليه قائلاً: «لعلّه جناحٌ يمثِّل القرن التاسع عشر في أَحد المتاحف».

لم يقف الأَمر عند تجمّد النظام السياسي لفترة طويلة جداً، بل النظام الديني هو الآخر كان مجمّداً. فالكثير من الكنائس الرئيسية في الغرب ـ أَي في أوروپا الغربيَّة وأَمريكا الشمالية ـ كانت قد اتخذت في السنوات التي أعقبت الحرب العالميَّة الثانية موقفاً أَكثر تنوّراً وتسامحاً من الأديان المتنافسة، وبالتالي من مختلف الأوجه العرقية الملازمة لها. من الملاحظ أَن ذلك كان صحيحاً بالنسبة إِلىٰ كنيسة روما الكاثوليكية في ظل الرسالة البابوية للبابا يوحنا الثالث والعشرين الصادرة سنة 1963م، غير أَن الأَمر لم يكن صحيحاً بالنسبة إِلىٰ شبه جزيرة البلقان. فالقيادات الدينية هناك درجت علىٰ أَن تبقى حريصة علىٰ التمسّك بالطرائق القديمة، حتى حين بدت تلك الطرائق بنظر الأجانب مثقلة بفيض من الأوزار والأهواء التاريخية، رغم ارتدائها أثواب الإِيمان النبيلة. بدت المنطقة وكأنَّها بقعة من العالم بقيت ستائر نوافذها مغلقة في زمن متعاظم الأنوار والأضواء. لم يتمكن الزمن من جَلْب قَدْر أكبر من التسامح. وكما قال وزير الخارجيَّة البريطانية السابق ديڤيد أوين الذي بذل جهوداً بالغة النبل والشجاعة لتحقيق نوع من السَّلام في المنطقة، ذات مرة، فإِن «الزمن في البوسنة لا يتقدَّم، إِنَّه يتقهقر»[4].

ثمة أوهام كثيرة تَمَّ نَسْجُها عن يوگوسلاڤيا خلال سني حكم تيتو الذي كان قائد أنصار زمن الحرب من جهة وزعيم يوگوسلاڤيا ما بعد الحرب من جهة

(4) ريف، 117.

ثانية. خلافاً لحال أقوام أُخرى في أوروپا الشرقيَّة تحرَّرت علىٰ يد الجيش الأحمر، فإن يوگوسلاڤيا تحرَّرت عملياً بيد شعبها بالذات مما جعلها تنصّب مناضلها الوطني الأسطوري الخاص رئيساً للدولة. وخلافاً لحال الكثير من الحكّام الدكتاتوريين المفروضين علىٰ الأماكن الأُخرى من قبل الروس بفضل اجتياح الجيش الأحمر في المقام الأول (ممن كان ستالين يختارهم متعمداً لافتقارهم إلىٰ الشعبية وبقائهم، بالتالي، معتمدين عليه)، انطلق تيتو من مشروعية حقيقية. وقد استطاع، بفضل موقع يوگوسلاڤيا الجغرافي ـ السياسي الفريد (حيث لم يكن الجيش الأحمر موجوداً لا في الداخل ولا في الجوار ولا إلىٰ الغرب)، روابطها المادية والثقافية مع كلٍ من الغرب والشرق، وطبيعتها الطوبگرافية الصعبة التي كانت مؤهلة لأن تشكِّل تهديداً للروس مثلما سبق لها أَن شكَّلت تهديداً للألمان، أَن يتبع سياسة مستقلَّة بعض الشيء عن موسكو.

منذ سنة 1948م حين قام بإخراج بلده من الكتلة الشيوعية (أَو طُرد منها، حسب الطرف الذي يروي القصة) إلىٰ زمن رحيله، بقي تيتو أكبر من مجرد رئيس دولة؛ حكم البلاد بوصفه أباً رحيماً، حريصاً، قاسياً أحياناً، بطلاً من أبطال الحرب العالميَّة الثانية، ومتملصاً من الظل السوڤيتي. من المؤسف أَن المشهد كان مشهد ممثل واحد، رجل واحد، كما بقيت مشروعيته شخصية، دون أَن يتم تمريرها برفق إلىٰ ممثلي جيل آخر. لم يكن ثمة أَي وريث شرعي ـ لم يكن راغباً في وجود مثل هذا الوريث علىٰ ما يبدو. فمثل الكثير من الحكّام الدكتاتوريين والطغاة قبله لم يكن، علىٰ ما يبدو، مؤمناً بمفهوم الوراثة. كان قد لاح محلقاً عالياً فوق المشهد السياسي حين تولّى زمام الأُمور، ومن المؤسف أنَه لاح محلقاً حتى أعلىٰ حين قضى نحبه. شجرة سنديان عظيمة لم تستطع أية شجرة أُخرى أَن تنمو في ظلّها، كما وصفه أَحد أبناء الريف[5]. وقد قال

(5) سلبر وليتل، 29.

سلوبودان ميلوسوڤيتش، أَحد خلفائه، مرة «حتى قبل موته كان النظام قد توقف عن العمل، غير أَن تيتو كان يؤدي وظيفته»[6].

كان تيتو نصف سلوڤيني ونصف كرواتي، ولم يكن المأزق السياسي الذي واجهه متمثِّلاً إِلىٰ حد كبير، كما كانت الحال في بلدان أوروپا الشرقيَّة الأُخرى، بقمع النزعات الديمقراطية لدى شعبه. تمثَّل المأزق، بالأحرى، بلَجْم التوجهات القوية نحو **القومية** ـ وهي موجودة علىٰ الدوام تحت السطح مباشرة ـ بين مختلف الجماعات العرقية المختلفة المضطربة باستمرار التي كانت تشكِّل الكل. وعمليَّة اللَّجْم هذه مارسها دون رحمة، نافياً بعض القوميين، ساجناً بعضهم الآخر. فكل من حاول أَن يبشر بالنزعة الانفصالية أَو الهيمنية الصربية كان يُعتبر، حسب أَحد التعابير الشيوعية الرائعة بفجاجتها، مُداناً بجريمة «النزعة القومية الرجعية»[7]. لم يكن تيتو أقل براعة ونجاحاً في قمع القوى المرشحة لتهديد حلمه بالوطن منه في إِلحاق الهزيمة بلوائح التأمين. غير أَن موته وهو في الثامنة والثمانين من العمر، في أيار/ مايو 1980م، شكَّل نهاية حقبة، نهاية نوع من أنواع حكم رجل واحد، أمّة واحدة. رحل عن بلد لم تتم معالجة أي من قضايا النزعة القومية الملتهبة فيه قط. هل كانت يوگوسلاڤيا وطناً أملا؟ هل يجب أَن تبقى موحّدة؟ قال محمود باكالّي، أَحد الزعماء الألبان: «بكينا جميعاً [عند موته]، غير أَنّا لم ندرك أَنّا كنا أَيضاً ندفن يوگوسلاڤيا»[8].

إِذا كانت وفاة تيتو الخطوة الأولى علىٰ طريق انهيار يوگوسلاڤيا، فقد تمثَّلت الخطوة الثانية بسقوط جدار برلين، الذي أَحدث تغييراً مسرحياً مثيراً في المعادلة الجغرافية ـ السياسيَّة الأكبر بين الشرق والغرب التي كانت يوگوسلاڤيا تشكِّل فيها نعمة ثمينة ـ نموذجاً يُحتذى ـ بالنسبة إِلىٰ كل من القوتين

---

(6) ديڤيد أوين، 134.

(7) كابلان، 39.

(8) سلبر وليتل، 29.

العملاقتين. بدت كما لو كانت أجمل الفتيات في حلبة الرقص المتمتعة دائماً بملاطفة الجميع ومغازلتهم، غير أنَّها باتت فجأة، مهما كان السبب ـ مثل مجيء حسناوات جديدات أكثر جمالاً من البلدة المجاورة ـ مهملة، لا أَحد يريد مواعدتها والخروج معها. وما حدث بعد ذلك كان عرضاً مدهشاً بالنسبة إلىٰ أولئك الذين كانوا يقولون إِن سياسة أَمريكا الخارجيَّة أصبحت، في سنوات ما بعد الحرب، تمثّل لا نزعة أممية حقيقية بل مظهراً أممياً خادعاً وزائفاً يغطي جملة السياسات التي كانت سياسات معادية للشيوعية أولاً، قبل كل شيء، وبصورة شبه كاملة أخيراً. فطوال بقاء التهديد السوڤيتي، كنا جاهزين للانشغال بيوگوسلاڤيا، بل وربما مستعدين ـ في حال السيناريو الأسوأ ـ للدخول في حرب إِذا دعت الحاجة نيابة عن أبناء يوگوسلاڤيا من عشّاق الحرية. أَمَّا زوال الخطر السوڤيتي فقد كان من شأنه أَن يجعل التزامنا مع الشعب اليوگوسلاڤي متدهوراً بصورة مرعبة. من المؤكد أَن موقف ما بعد الحرب الباردة مباشرة من يوگوسلاڤيا عكس لغز سياسة أَمريكيَّة موروثة عن حقبة سابقة تعرّضت لقدر أَكثر أَو أقل من التبخّر غير أنّها لم تُستبدل بأيَّة سياسة أُخرى. إِن بلداً دأبنا علىٰ التفكير بانتزاعه من أحضان السوڤييت، وأغرقناه بفيض من المساعدات الخارجيَّة، وشحنّا إِليه كميات كبيرة من المعدات العسكريَّة الثقيلة ذات المواصفات العالية، كان قد أصبح بلا أية قيمة تقريباً في نظر الأَمريكيين؛ وقد حدث ذلك كله في ظل تفاقم خَطَر الاقتتال بين الأشقاء أَكثر فأَكثر.

أوائل سنة 1989م كان وارن زيمرمان، المعيَّن حديثاً كأول سفير أَمريكي في يوگوسلاڤيا ما بعد الحرب الباردة، قد دلف إِلىٰ مكتب صديقه ورئيسه لاري إِيگلبيرگر، الرجل الثاني في وزارة الخارجيَّة آنذاك، لمناقشة التوجيهات الخاصة بوظيفته الجديدة. وزيمرمان هذا، تماماً مثل إِيگلبيرگر الشاب قبل بضع سنوات فقط، كان يُعتبر أَحد نجوم الوزارة الصاعدة. كانت تلك فترة عمله الثانية في بلگراد، وكان، مثله مثل إِيگلبيرگر، قد أحب فترته الأولى. كان قَدْر معين من

الإِثارة قد رافق وجوده علىٰ الحدود المباشرة للإِمبراطورية السوڤيتية، تعامله اليومي مع هذا الشعب المقدام غير المصقول، الدائب، كما كانت السفارة تحلم، علىٰ السعي من أجل مراكمة مقادير متزايدة من الحرية الشخصية. كان زيمرمان وإِيگلبيرگر، كلاهما، يريان احتمال نشوب أعمال العنف في يوگوسلاڤيا التي بقيت مكانتها، مع ذلك، متدهورة علىٰ سلم اهتمامات السياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة. فالكونگرس لم يكتف بأن يكون أَكثر اتصافاً بالانعزالية من الفرع التنفيذي، بل وبات، بصورة مسرحية مثيرة، أَكثر انعزالية مما كان قبل خمسة عشر أَو عشرين سنة. هذا وقد تعرّضت المساعدات الخارجيَّة للتقليص المطرد جراء العجز المتنامي في الموازنة علىٰ الصعيد الداخلي. فضلاً عن أَن مستوى الإِيثار في السياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة، الذي كان أعلىٰ بُعَيْد الحرب العالميَّة الثانية حين كنا قد أصبحنا ندرك ثمن التحرّك بعد فوات الأوان في أماكن بعيدة قبل الحرب، كان هو الآخر في تدهور حاد.

جاء لقاء زيمرمان وإِيگلبيرگر عاكساً لصورة الوضع. فآفاق مساعدة يوگوسلاڤيا مالياً بأي قَدْر من الضخامة كانت كئيبة سلفاً، حسب رأيهما. كان يتعيّن علىٰ زيمرمان أَن يبلغ قادة يوگوسلاڤيا بأننا ما زلنا مهتمين بالبلد، تماماً كما كنا في جميع الأوقات. صحيح أَن يوگوسلاڤيا كانت، بالطبع، مهمة، ولكنّها لم تكن، في الحقيقة، **بالغة** الأَهميَّة. كانت تأتي بعد دول أُخرى تابعة سابقاً، عاكفة الآن علىٰ إِحداث قطيعة مع الماضي وتكوين أنظمة ديمقراطية جديدة. أضف إِلىٰ ذلك أننا لم نعد بحاجة إِلىٰ حاجز يفصلنا عن الاتحاد السوڤيتي الغارق هو ذاته في بحر من الخراب الهائل، في طريق تحوّله إِلىٰ دولة غير إِمبراطورية وصولاً إِلىٰ صيرورته بعد ذلك روسيا معادية للشيوعية. تعين علىٰ زيمرمان أَن يورد بولونيا والمجر كمثالين عن البلدان التي أصبحنا نفضلها، بوصفهما الحسناوين الجديدتين الأَكثر جمالاً المقتحمتين لتوهما حلبة الرقص. باتت انتهاكات يوگوسلاڤيا لحقوق الإِنسان التي دأبنا علىٰ غض الطرف عنها في

الماضي، مثيرة لقَدْر استثنائي من القلق. وقد كانت بالغة البشاعة في كوسوڤا، حيث كانت الانتهاكات الصربية لحقوق ألبان كوسوڤا متسارعة، وشكَّلت عاملاً رئيسياً من عوامل صعود سلوبودان ميلوسوڤيتش الذي ربما كان زيمرمان مرشحاً لإثارة هذه المسألة معه، ولوَخْزه بها. كانت الرسالة واضحة. تعيَّن علىٰ يوگوسلاڤيا أَن تعتمد علىٰ ذاتها فيما يخص أية مساعدات أَمريكيَّة ذات شأن، تماماً حين بدت بحاجة أَكثر من أَي وقت مضى. كانت خاتمة الرسالة، هي الأُخرى، واضحة. لقد بتنا نحاكم ونزن يوگوسلاڤيا لا بالميزان القديم ـ انطلاقاً من اعتبار يوگوسلاڤيا بلداً صغيراً صامداً خارج دائرة نفوذ موسكو ـ بل بميزان جديد وأَكثر تطلباً بما لا يقاس: كيف تعامل شعبها بالذات؟ وبأي قَدْر من السرعة تبادر إِلىٰ السير في الطريق الذي نراه نحن ضرورياً بالنسبة إِلىٰ أَي بلد مكافح سابق في أوروپا الوسطى؟

كان من شأن دول أوروپا الشرقيَّة التي أصبحت الآن مفضلة ـ بولونيا، المجر، وتشيكوسلوڤاكيا، أَن تحقِّق، في الواقع، انتقالاً أيسر من النظام القديم إِلىٰ نظيره الجديد بالمقارنة مع يوگوسلاڤيا. وعلىٰ الرغم من أَن انقساماً قد يحصل في تشيكوسلوڤاكيا بين جمهوريتي التشيك والسلوڤاك، فقد بدا أَن من شأن مثل هذا الانفصال أَن يبقى ودياً، بفضل وجود قيادة محلية ديمقراطية. أَمَّا بولونيا والمجر فقد كانتا، كلتاهما، دولتين أحاديتين، بعيدتين عن التعرّض لأية مشكلات قبلية أَو عرقية ذات شأن قادرة علىٰ تمزيقهما أَو عرقلة تطورهما الديمقراطي المستقبلي. أضف إِلىٰ ذلك أَن البلدان الثلاثة، جميعاً، كانت متمتعة بامتلاك حركات ديمقراطية ناشئة قوية ذات قيادات معروفة سلفاً ـ وقد كان الحكّام الشيوعيون السابقون الذين دأبوا علىٰ سوق أَكثر عناصر جيل كامل حماساً للديمقراطية إِلىٰ السجون، أصحاب الفضل في إِكسابهم صفة الشهرة. وبقدر مماثل من الأَهميَّة، كانت القيادات القديمة في بلدان مثل بولونيا والمجر وتشيكوسلوڤاكيا، خلافاً لحالها في يوگوسلاڤيا، قد تعرَّضت للافتضاح

الكامل، بوصفها قيادات مفروضة عنوة من موسكو، خاضعة لأوامر الجيش الأحمر، ومحمية بالأجهزة الأمنية السرِّيَّة، في حين أن القيادة، في الجزء الصربي من يوگوسلاڤيا، كانت متمتعة بقَدْر معيَّن من الشرعية. فقد سبق لها أن أوجدت، محلياً، تيتو وأنصاره أولاً، وأبناء تيتو مع أنصاره الآن. لم تكن القيادة الموجودة في بلگراد مفضوحة ومكروهة مثل أنظمة وارصو، بودابست، وبراگ. وعلىٰ صعيد التماسك القومي، كان كل ما تفتقر إِليه يوگوسلاڤيا متوافراً في كل من بولونيا، المجر، وتشيكوسلوڤاكيا، التي بدت أَكثر سهولة؛ في حين بدت يوگوسلاڤيا، بسبب انقساماتها العرقية الداخليَّة، الحالة الصعبة. وبالتالي فقد قررنا أَن نركِّز جهودنا علىٰ تلك البلدان بصورة رئيسية، وأن نقلّص من مستوى اهتمامنا بيوگوسلاڤيا.

كانت يوگوسلاڤيا في تلك الأيام تواجه أوقاتاً عصيبة علىٰ الصعيد الاقتصادي مما جعلها ناضجة بصورة غير عادية لبروز الأحقاد الدفينة والقديمة قدم الزمن. كان ثمة تضخم نقدي مجنون، وهو المرض الخبيث الذي كان يميل إِلىٰ تشكيل قنبلة سياسيَّة واجتماعيَّة متفجرة في أَي بلد. سارع رئيس وزراء يوگوسلاڤيا، آنتي ماركوڤيتش، وهو رجل ديمقراطي محترم كانت الولايات المتحدة قد راهنت عليه، إِلىٰ التماس العون المالي من زيمرمان في هذا الزمن العصيب جداً، حيث كان بحاجة ماسَّة إِلىٰ الإِعفاء من الديون في اقتصادٍ بات غارقاً في بحر التضخم. طلب ماركوڤيتش أربعة مليارات من الدولارات. في الأيام الغابرة ربما لم يكن الرقم يشكل مبلغاً كبيراً ـ فمن كان يعلم بأي رقم كان الاتحاد السوڤيتي سيقابله؟ أَمَّا الآن فقد بدا المبلغ فجأة مبلغاً كبيراً، فيما كانت واشنطن تشعر بالحاجة إِلىٰ مساعدة بلدان أوروپا الشرقيَّة من جهة والتعب جراء الاضطرار إِلىٰ حَمْل أعباء مالية دولية ثقيلة من جهة ثانية، خصوصاً لصالح بلد لم يبد قادراً علىٰ تقديم أية فوائد بالمقابل.

كان زيمرمان لبقاً مع ماركوڤيتش ووعد ببحث الأَمر مع رؤسائه في

واشنطن. غير أنّه كان يعرف الجواب سلفاً: كانت بولونيا والمجر تبرزان أمامنا بصورة حتى أسرع، فضلاً عن أنّهما لم تكونا، كما لاحظ زيمرمان، مثقلتين بأية أعباء إضافية من النزعة القومية العرقية المريرة، كانتا فرسي رهان أفضل. أمّا احتمال أن تكون هذه المواصفات التي جعلت يوگوسلاڤيا علىٰ هذه الدرجة من الهشاشة بالذات، قابلة أيضاً لجعلها مرشحاً أكثر أهميَّة علىٰ صعيد استحقاق المعونة الجدية ـ جملة الأخطار المحتملة التي كانت تنطوي عليها بالنسبة إليها هي ذاتها، بالنسبة إلىٰ رخاء أوروپا الجنوبية، وبالنسبة إلىٰ السلم العالمي ـ فلم يكن من الاحتمالات الواقعة المطروحة، وبالتالي فإن أمريكا لم تعد شديدة الاهتمام أو الالتزام، لحظة شروع قوى يوگوسلاڤيا الأكثر ظلاماً بالتحرّك.

أما الرجل الذي تولّى مهمة تحريك هذه القوى فقد كان متمثلاً بشخص أعلن نفسه بطلاً قومياً جديداً سبق له أن أمضى الجزء الأكبر من حياته العملية مستفيداً مطيعاً من الحزب الشيوعي، متفرغاً حزبياً صغيراً، يدعى سلوبودان ميلوسوڤيتش. كان ميلوسوڤيتش هذا، كما سبق لروبرت كاپلان أن أشار، وريثاً غريباً لنظام عتيق مختل، طامحاً إلىٰ الاضطلاع بدور مختلف كلياً في حقبة نبذت النزعة الشمولية (التوتاليتارية) القديمة، و«الزعيم الشيوعي الأوروپي الوحيد الذي نجح في إنقاذ نفسه وحزبه من الانهيار [و]قد فعل ذلك عن طريق مناشدة الأحقاد العنصرية»[9]. كان أحد أولئك الرجال الذين عَطَسَهم التاريخ في لحظاته الأكثر اضطراباً. إذا كانت القومية لا الشيوعية هي اللعبة الجديدة، فقد كان ميلوسوڤيتش مستعداً لأن يلعبها. كانت مبادئه الأخلاقية ظرفية حقاً ـ كان يستجيب لما يحيط به بسرعة ومهارة فطريتين، ولكن دون أية رؤيا أوسع. ما من أحد ممن تعاملوا معه يمكن أن يشك بأنه كان أسرع وأكثر مكراً من السياسيين الآخرين من منافسيه، من الصرب ومن غير الصرب، كان

(9) كاپلان، 40.

الاستخفاف به خطأ جسيماً، وقد ظل عدد من نظرائه البلقانيين مع أناس في واشنطن يقعون في خطأ الاستهانة به لفترة طويلة من الزمن.

ربما أقدم علىٰ ترك الحزب، ولكنه قلما بدّل شاراته وسماته المميزة. صحيح أَن صورة تيتو نزلت عن الجدار خلف مكتبه. صحيح أَنّه تطهَّر من تلك اللغة الفريدة، الثقيلة علىٰ السمع، الخشبية، غير المفهومة أكثر الأحيان، الضبابية عن عمد، المفضَّلة، علىٰ ما يبدو، لدى جميع القادة الشيوعيين. صحيح أنَّه، بعد بعض الوقت، حين أصبح موقعه في السلطة آمناً، كان سيبدو متحدياً تاريخ يوگوسلاڤيا بتجرؤه علىٰ الكلام بطريقة سلبية عن تيتو وعن كيفية قيام الرجل العظيم باغتصاب الفتيات الصرب. غير أَن ما تغيّر، فيما عدا ذلك، كان قليلاً؛ من المؤكد أَن نمط عمله لم يتغيَّر: أسلوبه في السعي إلىٰ السلطة والتمسّك بها، طريقته في الاعتماد علىٰ المخابرات السرّيَّة ووسائل الإعلام الخاضعة لهيمنة الدولة، ونهجه القائم علىٰ التوظيف البارع للجيش الخاضع لقيادة أشخاص تم اختيارهم من منطلق الولاء الشخصي. كان ميلوسوڤيتش مشاغباً داخلياً بالفطرة، تخرّج في نظام شديد التأكيد للأسلوب الذي يعتمده المرء ليشق طريقه في عمليَّة حزب واحد مغلقة، عبر تقليد من هم فوقه حين يروق لهم، وسحق من هم دونه. ففي وصف شبه نموذجي لأي متفرغ حزبي شيوعي ناجح سبق لوزير إعلام ميلوسوڤيتش السابق أَن وصف معلمه ذات مرة قائلاً «لا يعرف ميلوسوڤيتش إلاَّ الخَدَم والأعداء. فالشركاء والحلفاء غير موجودين بالنسبة إليه»[10].

أواخر عقد الثمانينيَّات كانت القوَّة السياسيَّة الأكبر نفوذاً في يوگوسلاڤيا هي النزعة القومية الصربية، إيمان عدد غير قليل من المتنفذين كما العاديين الصرب بأن الإدارة المعقدة إلىٰ هذا الحد أَو ذاك ليوگوسلاڤيا، أَي تلك القائمة

(10) دودر وبرانسون، 142.

علىٰ تقاسم السلطة مع جماعات أُخرى، خصوصاً مع مسلمي كوسوڤا، منافية لحقهم التاريخي في امتلاك وطنهم الخاص. واعتقد هؤلاء أيضاً أَن ألبان كوسوڤا كانوا قد مُنحوا قَدْراً مبالغاً به من الحكم الذاتي في سنوات تيتو الأخيرة وكانوا يستغلّونه علىٰ حساب أمن الصرب المحليين. صحيح أَن بعض هذه الاعتقادات كانت، في ضوء تاريخ كوسوڤا الزاخر بالعذاب والآلام، مشروعة تماماً، ولكن دَأَب ميلوسوڤيتش علىٰ استغلالها كان تصرّفاً سياسياً نموذجياً. لم يكن ميلوسوڤيتش مهتماً بمقاربة أية مظالم صارخة في كوسوڤا لجعل الحياة هناك أَكثر قابلية للتحمّل بالنسبة إِلىٰ الصرب، بل كان، بدلاً من ذلك، يريد استغلال تلك المظالم بلا رحمة كذريعة للتمسّك بالسلطة وتشديد القبضة في جميع الأماكن الأُخرى من البلاد.

كانت القومية قوة كبيرة في طول يوگوسلاڤيا وعرضها، غير أنّها كانت في أعلىٰ مستويات سطوتها في كوسوڤا، حيث كان ذوو الأصول الأَلبانية، وهم مسلمون أَيضاً، يشكّلون الأَكثرية والصرب الأقلية بنسبة عشرة إِلىٰ واحد تقريباً، وحيث اشتبكت الإِمبراطوريتان الكبيرتان، إِمبراطورية آل هاپسبورگ وإِمبراطورية بني عثمان، في تاريخ طويل، حزين، مرير، وعنيف. ففي كوسوڤا كان الصرب، قبل ستمئة سنة من الآن، قد خاضوا المعركة الأشهر في تاريخهم، وكانت هذه الأرض، رغم كونها مأهولة في المقام الأول بالمسلمين الأَلبان الذين كانوا ورثة الطرف المنتصر في تلك المعركة، قد بقيت أرضهم الأَكثر قُدْسية. كانت الأحقاد عميقة جداً، فضلاً عن أَن أموراً كثيرة جداً بقيت دون حل، حتى بدا كما لو كان الصراع الأصلي علىٰ البقعة من الأرض قد تم لا قبل ستمئة سنة، بل قبل يومين.

في نيسان/ أبريل 1987م، قبل سقوط جدار برلين بسنتين، ولكن في وقت باتت فيه أوروپا الشرقيَّة دائبة علىٰ التغير بوتائر سريعة، قام ميلوسوڤيتش، نائباً بالصدفة عن الرئيس الصربي إِيڤان ستامبوليتش، بزيارة كوسوڤا للاجتماع

بالقيادات المحلية. حشد كبير من الصرب من المنطقة كلها تجمّع أمام المركز الحكومي حين كان ميلوسوڤيتش يتناقش مع الرسميين الألبان. وحين بالغ الحشد في الاقتراب من المبنى، حاولت الشرطة الألبانية ـ شرطة كوسوڤا كما ستعرف لاحقاً ـ أن تمنعه، ضُرب عدد من الصرب. خرج ميلوسوڤيتش إلىٰ الشرفة واستعرض الحشد الكبير المتزاحم أمامه، صرخ بأعلىٰ صوته قائلاً: «يجب ألا يجرؤ أحد علىٰ ضربكم!». وما لبثت العبارة أن تحوَّلت إلىٰ شعار لاستنفار النزعة القومية الصربية. فجأة انقلب الجمهور الذي كان متمرداً إلىٰ حد كبير وراح يهتف «سلوبو! سلوبو!»[11] في تلك اللحظة بالذات أصبح ميلوسوڤيتش بطلاً صربياً؛ جاءت العملية حصيلة عمل مضلّل ديماگوجي (أفّاق) متزايد النجاح في بقعة من العالم نادراً ما شهدت ساسة يسمعون هتافات مؤيدة صادقة من السكان.

ومن تلك اللحظة فصاعداً، اندفع ميلوسوڤيتش، دون رحمة وبعناد شديد، في طريق استغلال حقد الصرب علىٰ الألبان، لقد استخدمه أداة للإطاحة بوَليّ نعمته وصديقه منذ زمن طويل ستامبوليتش، الذي كان لا يزال متبنياً فكرة يوگوسلاڤيا التعددية التيتوية القديمة. أكثر من مرّة عبَّر ميلوسوڤيتش عن احتقار نصائح السفير الأمريكي جاك سكانلان حول ضرورة العمل علىٰ وضع حد للتوترات العرقية المتصاعدة. ولعل ما هو أهم من كل شيء أنّه تمكّن من السيطرة علىٰ وسائل الإعلام الخاضعة لهيمنة الدولة ووظّفها لتضخيم أية حادثة من شأنها أن تلهب المشاعر الصربية. كان ذلك أسلوباً جديداً في أي بلد من بلدان أوروپا الشرقيّة، حيث كان التلفاز، علىٰ الصعيد السياسي، موظفاً في المقام الأول، لبثّ المؤتمرات الحزبية الباعثة علىٰ الملل. وحين أقدم في أيلول/ سپتمبر 1987م مجندٌ ألباني مختل عقلياً علىٰ سلسلة من جرائم القتل

(11) سلبر وليتل، 37.

العشوائية، قال ميلوسوفيتش بينه وبين نفسه: «إنها فرصتك التي أنعم الله بها عليك!»[12]، وأمر وسائل الإعلام باستغلال الحادثة.

برأي مساعد قديم لتيتو يدعى نيبوجسا پوپوف، قام ميلوسوفيتش بتسخير التلفاز بالطريقة التي كان من الممكن أن يسخره بها هتلر، بالتأكيد، لو كان التلفاز موجوداً في تلك الأيام. فالاستغلال المكثَّف للنزعة القومية عبر توظيف التلفاز كان ـ أضاف پوپوف ـ قد حوّل بلاده إلىٰ دولة «دكتاتورية بروليتار أورولية (نسبة إلى جورج أورويل G. Orwell) حقيقية»[13] كان شيئاً جديداً وبالغ القبح والبشاعة ـ توظيف قوة وسائل الإعلام التابعة للدولة من أجل تصعيد أسوأ مخاوف الناس وأحقادهم الأشد ظلاماً. علّق صحفي يدعى ميلوفاسيتش، هو الأكثر استقلالية في البلاد، علىٰ الفترة قائلاً: «أنتم أيضاً أيها الأمريكيون يمكن أن تصبحوا متعصبين قوميين وعنصريين إذا باتت وسائل إعلامكم كلها بأيدي أفراد عصابة الكوكلوكس كلان»[14].

صحيح أن البلاد كانت تغرق في بحر من البشاعة والقبح. ما كان بالنسبة إلىٰ الكثير من الغربيين مكاناً بهيجاً حيث كانت الطاقة السلبيَّة قد جرى تركيزها، إلىٰ حد كبير، علىٰ موسكو والروس، كان قد تغيّر؛ أصبحت تلك الطاقة السلبيَّة موجّهة الآن علىٰ أشقاء يوگوسلاڤيين، ولو من انتماءات عرقية مختلفة. وبسرعة ملحوظة انقلبت ولائم العشاء البلگرادية رفيعة المستوى وانحطّت إلىٰ حفلات استنكار وإدانة غاضبة ومريرة لهذا الفريق من قبل الفريق الآخر. والغربيّون (ومعهم اليوگوسلاڤيون أيضاً) الذين غابوا عن البلاد لبضع سنوات أصيبوا بالذهول إزاء طوفان الشر واللؤم المنبعث من وسائل إعلام بلگراد ـ إزاء تلك الدعاية السلبية التي لا تعرف معنى الرحمة عن غير الصرب، ذلك التسخير الشنيع للجنون الصربي التقليدي، تلك البشاعة التي عُومل بها الساسة غير

---

(12) دودر وبرانسون، 45، 46.

(13) ڤوليامي، 52.

(14) زيمرمان، 121.

الصرب وتطلعاتهم، وتلك الحصيلة الحتمية لكل ما سبق: ظهور أعراض عنصر جديد من الحقد العرقي علىٰ الأصدقاء القدامى والموثوقين.

واصلت موجة التوترات بين الصرب والكوسوڤيين، وقد بات ميلوسوڤيتش دائباً علىٰ تنظيمها وتصعيدها، تناميها. فبعد سنتين اثنتين من دوره المسرحي المفاجئ كمدافع عن الصرب، في 28 حزيران/ يونيو 1989م، عاد ميلوسوڤيتش، وقد أَصبح رئيساً للجمهوريَّة، إِلىٰ كوسوڤا لتكرار عرض المسرحية. جاءت العمليَّة هذه المرَّة في أهم الأعياد القوميَّة لدى الصرب، عيد يحيي ذكرى التاريخ والمكان لقيام الأتراك، قبل ستمئة سنة بهزيمة الصرب في ساحة قتال تُعرف باسم **ميدان الطيور السوداء**. قليلة هي الأقوام التي تحوّل تواريخ أكبر هزائمها، خصوصاً إِذا كانت قد دشَّنت خمسمئة سنة من الحكم الأجنبي، إِلىٰ أعياد وأَيام مقدَّسة، غير أَن يوم 28 حزيران/ يونيو 1389م يبقى مشحوناً بشحنة عاطفية عميقة بالنسبة إِلىٰ جميع الصرب. فالقيصر لازار الذي كان الأتراك قد خيَّروه بين الاستسلام والقتال حتى الموت، اختار القتال حتى موته.

وفي هذه المناسبة، مناسبة إِحياء الذكرى السنوية الستمئة، خرج إِلىٰ الشارع أَكثر من مليون من الصرب، شاعرين بولادة عصر جديد، تأييداً لميلوسوڤيتش الذي كان هذه المرة مستعداً للعزف علىٰ جميع الأوتار قائلاً: «إِننا مشتبكون في سلسلة من المعارك والشجارات بعد ستة قرون. ليست معارك مسلَّحة، غير أَن أَحداً لا يستطيع استبعادها هي الأُخرى»[15]. طار الجمهور الكبير إِعجاباً وردّ هاتفاً بشعار النصر: «كم كنت شقياً يا قيصر لازار إِذ لم يكن سلوبو بجانبك!»[16] كان ذلك إِنذاراً صريحاً لباقي الأمة وللعالم، حول المسار الذي كان ميلوسوڤيتش يعتزم السير فيه.

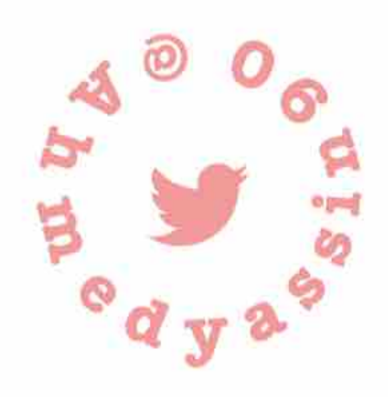
---

(15) غلني، 35.

(16) جوداه، 56.

في كانون ثاني/يناير 1990م، أقدمت رابطة الشيوعيين اليوگوسلاڤ ـ الحزب الوحيد في البلاد إلىٰ ذلك التاريخ ـ علىٰ حلّ نفسها. وهي، إذ فعلت ذلك، أصبحت الحزب الشيوعي الأول الذي يغيب عن مسرح أوروپا الشرقيَّة كله، علىٰ الرغم من أنها لم تختف بصورة واقعية علىٰ الإطلاق. لم يعد ميلوسوڤيتش ومؤيدوه شيوعيين بالمعنى الرسمي. غير أن ما حدث لم ينطو إلاَّ علىٰ الحد الأدنى من التغيير في الاسم فقط، لأن جميع الأدوات الأُخرى التي دأب الشيوعيون علىٰ استخدامها في ممارسة السلطة في أوروپا الشرقيَّة ـ التحكّم بوسائل الإعلام وتسخيرها، التعويل علىٰ أجهزة الأمن السرِّيَّة، الخوف من الإجراءات الديمقراطيَّة، النزوع الغريزي إلىٰ قمع جماعات المعارضة ـ بقيت علىٰ حالها إلىٰ حد بعيد. كان ميلوسوڤيتش يحلم بإيجاد دولة صربية، وبقيت عيناه، برأي بعض الغربيين، متركزتين علىٰ البوسنة وكوسوڤا، وربما جزء من كرواتيا أيضاً.

كان السؤال الأكبر المطروح علىٰ القوى الغربيَّة وقد باتت يوگوسلاڤيا موشكة علىٰ التفكّك والانحلال متمثلاً بمسألة ردّها المحتمل إذا ما اندلعت الحرب. ثمة عامل إضافي كان يفعل فعله علىٰ هذا الصعيد ألا وهو الاعتقاد السائد بين مختلف القوى الأوروپية بأن نهاية الحرب الباردة كانت لحظتها الخاصة في التاريخ؛ كان من شأن كل ما يحصل في يوگوسلاڤيا أن يكون علىٰ أرضها هي، مما يجعلها قادرة، بالتالي، علىٰ معالجته. وقد كان الأوروپيون، التوّاقون لاستعراض قوة وعضلات قارة موحّدة حديثاً، حريصين علىٰ الاضطلاع بدور حاسم في هذه القضية. وكان سيتبيَّن لاحقاً بوضوح أنّهم كانوا قد بالغوا كثيراً في تقدير نفوذهم، غير أن أحداً لا يستطيع أن يشك بأنّهم كانوا شديدي الحماس لأداء المهمة في البداية. ففي تصريح سيتعرض للكثير من الإعادة والاقتباس والسخرية خلال الأشهر والسنوات اللاحقة، قال رئيس الاتحاد الأوروپي جاك پوس اللوكسمبورگي: «لقد بزغ فجر العصر الأوروپي!».


@Ahmedyassin90

الفصل التاسع

في سنتي 1991 و1992م، حين بدأت يوگوسلاڤيا تكتسب أَهميَّة متزايدة كموضوع للنقاش، كان ثمة تفاؤل كبير في القارة [أوروپا] حول ما باتت الدول الأوروپية قادرة أَن تفعله في سبيل التحكّم بمصائرها، إِذ لم تعد بحاجة إِلىٰ المظلة الأمنية الأَمريكيَّة، مثلما كانت علىٰ امتداد ست وأربعين سنة، بعد انتهاء الحرب الباردة. كان الاتحاد الأوروپي موشكاً علىٰ الانتهاء، لاستبداله بالأسرة الأوروپية الأقوى بكثير. كان الأَمر بنظر الكثيرين يشير إِلىٰ ما هو أَكثر من مجرد بروز أوروپا علىٰ المسرح كوحدة اقتصاديَّة؛ كان من شأنه أَن يؤسّس لكيان سياسي وعسكري أَيضاً، كيان ذي إِمكانيات كامنة عظيمة بالنسبة إِلىٰ مستقبل أَمن المنطقة الجماعي. فالانقسامات التي طالما ابتُليت بها القارة لأزمان طويلة جداً وتمخضت عن هذا العدد الهائل من القبور الجماعية كانت ستصبح جزءاً من التاريخ. أَمّا جميع الطاقات التي استُخدمت لإِحداث هذا القَدْر الهائل من الدمار فقد باتت مرشحة للاستخدام المشترك في سبيل التقوية المتبادلة والمشتركة علىٰ مختلف الأصعدة الاقتصاديَّة، الاجتماعيَّة، بل والعسكريَّة، إِذا دعت الحاجة. كان الحلم جامحاً. إِذا كان ذلك صحيحاً، واعتقد الأوروپيون أنه صحيح، علىٰ ما يبدو، فإِن من الممكن ليوگوسلاڤيا أَن تشكِّل موضوع اختبار، قضية أوروپية، قضية يعالجها في القارة أناس يُعتَقد بأَنَّهم يعرفون كلاً من اللاعبين والمنطقة معرفة جيدة. أَمّا العملاق الكبير ذو العضلات المفتولة فيما وراء المحيط الأطلسي، الحامي الدائم ولكنّه فج في الوقت نفسه، وعديم

الحساسية بشكل مرعب في الغالب إزاء الخصوصيات المحلية، حسب الاعتقاد السائد (خصوصاً لدى الفرنسيين)، أمَّا ذلك العملاق المتمثِّل بالولايات المتحدة فلم يكن هناك ما يستوجب استدعاءه.

كان أَحد المراقبين الأَكثر اهتماماً، وقد كان موجوداً في بروكسل في ذلك الوقت، ضابطاً كبيراً في الجيش [القوّات البرِّيَّة] الأَمريكي يدعى جون شاليكاشڤيلي، جنرال قوات بريَّة بأربع نجوم، رجلاً كان، بسبب صباه الفريد، ممتاز الاطلاع علىٰ أكوام رماد أوروپا ما بعد الحرب. لقد قال بعد بضع سنوات: «إِننا ننسى هذا الآن، غير أنَّك حيثما ذهبت في أوروپا في 1991 و1992م كنت ترى هذا القَدْر الكبير من التفاؤل حول ما كانت أوروپا الجديدة قادرة علىٰ أَن تفعله، وهذا الإِيمان المثالي بإِمكانيات القوى الإِيجابية الجديدة الموشكة علىٰ الانطلاق. كانوا يقولون إِن الأوروپيين سوف يعالجون هذه المشكلة، وإِن الأَمريكيين الخارجين لتوهم من حرب الخليج والعاكفين علىٰ الاضطلاع بدورهم المتمثِّل بعمليَّة الإِشراف علىٰ انتهاء الإِمبراطورية السوڤيتية كانوا سعيدين جداً ومستعدين لتقديم الدعم والتأييد».

كان تسلسل الأحداث هذه المرة منطوياً علىٰ قدر غير قليل من الأَهميَّة بالنسبة إِلىٰ سائر الأَطراف ذات العلاقة. فجدار برلين كان قد سقط في تشرين ثاني/ نوڤمبر 1989م مطلقاً قوى هائلة قامت ليس فقط بتغيير خارطة أوروپا، بل وأضفت عليها زخماً روحياً عظيماً بشأن المستقبل. ثم جاءت حرب الخليج، وكانت عَرْضاً أَمريكياً في المقام الأول. كانت القوّات الغربيَّة قد انتصرت بسرعة وبيُسر، غير أنَّها لم تكن تجربة إِيجابية كلياً بالنسبة إِلىٰ بعض المشاركين الأوروپيين. في الحقيقة كانت العمليَّة بالنسبة إِلىٰ البعض باعثة علىٰ الأسى. كان الأَمريكيون قد أمسكوا بأَكثرية الخيوط المهمّة، وبقي دور حلفاء الناتو، ـ رغم عدم رغبتهم بالاعتراف علناً ـ مهمَّشاً إِلىٰ حدود معينة. في النهاية كانت حرب الخليج قد أعطت الكثير من الدول الأوروپية، مرَّة أُخرى، شعوراً بأنَّها

عاجزة فيما يخص أية قضية أمنية أكبر. أحس الأوروپيون بالإِحباط إِزاء حادثة أُخرى إِضافية ذكّرتهم بحدود قوتهم خارج قارتهم حين تكون الرهانات عالية ويأتي اللاعبون الكبار ـ أي الأَمريكيون وكائناً من يكون خصمهم ـ إِلىٰ الملعب. غير أنَّهم كانوا في الوقت نفسه مندهشين حول ما كان يحصل في القارة الآن وقد بدأت الأنظمة الدائرة في الفلك الروسي تتهاوى، وباتت وارصو، براگ، بوداپست، وبرلين حرة في أَن تعود **أوروپية** من جديد. إِذا كان الروس راحلين، فهل سيتخلَّف الأَمريكيون عنهم كثيراً؟ هل سيكون الأوروپيون، مرّة أُخرى، بحاجة إِلىٰ الأَمريكيين، علىٰ تلك الدرجة من الإِلحاح؟

ربما لن يكونوا، وقد دفع ذلك إِلىٰ إِدراك مكثَّف لما يستطيع الأوروپيون أَن يفعلوه لأنفسهم. ربما لم يكونوا متمتعين بالعضلات والإِمكانيات المطلوبة لبناء صرح الأَيام الكبرى، لتشكيل قوة متعددة الجنسيات عظيمة موجّهة نحو الانقضاض علىٰ دولة خارجة علىٰ القانون في ركن بعيد من العالم، غير أَن الإِجماع كان الآن يقول بأَنهم يستطيعون أَن يوحّدوا صفوفهم، في قارتهم الخاصَّة، فيشكّلون قوة مسيطرة. ستعود أوروپا إِليهم مرة أُخرى. سيكونون، كما لم يكونوا منذ ما قبل الحرب العالميَّة الثانية حين كانوا جميعاً شديدي التنافس فيما بينهم، حماة أنفسهم. سوف يعالجون الأزمة المتصاعدة في البلقان، وهي فكرة وافق الأَمريكيون عليها بلهفة وشغف. تميّز الموقف الأَمريكي بقَدْر غريب من السلبية، وهو أمر سوف نندم عليه لاحقاً. أقدمنا سلفاً علىٰ التسليم مسبقاً بسياسة لم نقم بصياغتها، طالبين عملياً من الأوروپيين أَن يطلعونا علىٰ خطتهم وواعدينهم بقبولها كما لو كانت خطتنا. لم نحاول أَن نرسم مسار تحرّك من شأنه أَن يكون مستساغاً لدى جميع المعنيين، ومن شأنه أَن يغطي جملة الإِفرازات الأَكثر حلكة لأي انفجار في يوگوسلاڤيا. وبالتالي فإِن ما نتج كان مأساوياً تماماً: لم يتم دعم الآمال الدبلوماسية بالعضلات العسكريَّة.

لم يتم رسم الخطة عبر الناتو، أَو بالتشاور والارتباط مع الناتو علىٰ الأقل، الأَمر الذي كان من شأنه أَن يضفي علىٰ أَي اتفاق ـ أَو حتى أية رؤية أوروبية ـ قَدْراً لا يُستهان به من القوَّة العسكريَّة الأَمريكيَّة. في ذلك الوقت، كان ويل تافت، أَي وليم هـ. تافت الرابع رسمياً، وهو سليل أسرة كوكبة من الجمهوريين اللامعين، السفير الأَمريكي لدى الناتو، وكان يشعر بضرورة إِشراك الناتو في أيّة عمليَّة حفظ سلام في شبه جزيرة البلقان. كان يرى عزوف واشنطن عن الاضطلاع بأية مسؤوليات عسكريَّة إِضافية، غير أنَّه كان يشعر أَيضاً بأننا لم نلعب إِلاَّ دوراً أصغر مما ينبغي فيما جرى إِقراره لاحقاً. كنا، عملياً، قد أعطينا الأوروپيين ورقة بيضاء ليسجلوا الشروط وحدهم، بدلاً من المساهمة في صياغتها بوصفنا شريكاً هادئاً والتوصل إِلىٰ شيء ينطوي علىٰ قَدْر أكبر من القوَّة. غير أَن واشنطن بقيت مصرّة بعناد علىٰ عدم التورط. كانت مرهَقة ومثقَلة بأحداث أُخرى. إِذا كان الأوروپيون راغبين في معالجة هذه المشكلة، فليفعلوا، ونحن مستعدون للالتزام بما يتخذونه من قرار.

وفيما بعد، مستعيداً سلسلة أَحداث 1991 و1992م بالذاكرة، رأى ديك هولبروك، الذي كان سيصبح مفاوض كلنتون الرئيسي في المنطقة، أَن تلك كانت هي الخطيئة القاتلة ـ عدم إِدخال الناتو كمنظمة حاسمة من البداية، وعدم جعل الولايات المتحدة، بطريقة ما، ضامنة عسكريَّة لأية قرارات متخذة بشأن البلقان. كان هولبروك يعتقد أَن الأَمريكيين كانوا قد لعبوا، لتوهم، دوراً حاسماً علىٰ صعيد المساعدة علىٰ إِيجاد وتقوية أوروپا جديدة لما بعد الحرب، علىٰ الأخص مع توحيد ألمانيا التي كانت قد بقيت في الناتو. أَمَّا الآن، وفيما يمكن اعتباره المسألة الأولى المهمة حول مستقبل القارة، فقد قرَّرنا أَن نتنحّى جانباً، أَن نتخلّى عن مسؤولياتنا. باتت القرارات الحاسمة في القارة تتخذ، بدلاً من ذلك، من قبل مجموعة جديدة، ما زالت في طفولتها، تجهل ليس فقط نقاط قوتها، بل، وهذا أهم، نقاط ضعفها. كان جون شاليكاشڤيلي متفقاً معه في

الرأي، إذ قال فيما بعد، مشيراً إلىٰ مواقف الطرفين ـ في القارة وأَمريكا ـ لدى تنامي الأزمة في يوگوسلاڤيا وتفاقمها: «ما حدث في تلك اللحظة هو ما أميل إلىٰ تسميته باستقالة من القيادة. لم يكن الأوروپيون قد أَصبحوا علىٰ المستوى المطلوب [للاضطلاع بمهمة القيادة]، والأَمريكيون كانوا، لأَسباب مختلفة، مصرّين علىٰ أخذ إِجازة»[1].

أضف إلىٰ ذلك أَن الجميع في أوروپا لم يكونوا علىٰ الصفحة نفسها. كان قَدْر من التباين في الرأي موجوداً حول الاتجاه الذي يتعيَّن علىٰ يوگوسلاڤيا أَن تسير فيه، وهو اختلاف في الرؤية لم يتم حسمه قط. فالبريطانيون والفرنسيون كانوا مع الصرب ومع بلگراد، مع نوع من الرغبة في إِدامة ـ بدلاً من أية احتمالات جذَّابة أُخرى ـ الوحدة اليوگوسلاڤية القائمة التي كانت، بالطبع، خاضعة لسيطرة الصرب. غير أَن آخرين كانوا يرون رأياً مختلفاً جداً حول ما ينبغي أَن يحدث. فالألمان الذين كانوا قد برزوا كقوة ذات شأن، موحَّدين للمرة الأولى منذ سنة 1945م، كانوا متعاطفين مع الكروات والسلوڤينيين، حلفائهم القدامى في الحرب العالميَّة الثانية، ومؤيدين لاستقلالهم. وفيما كانت تلك المسألة معروضة للمناقشة، كانت الشخصية الأهم التي ستبرز بين سائر القوى الأوروپية الرئيسية هي شخصية هانس ديتريش گنشر، وزير الخارجيَّة الألماني. لقد كان ذا تأثير قوي، لا لأَنَّه أقدم من وزراء الخارجيَّة الآخرين فقط، بل ولأنَّه «بدا رجلاً كان وزيراً للخارجيَّة» كما قال ويل تافت «حين وُلد بعضهم». لم يكن گنشر، صاحب الشخصية القوية جداً، رجلاً يسهل الاختلاف معه حين يكون راغباً، حقاً، في شيء معين.

كان الألمان لاعبين كبار في تلك الأَيام الحاسمة وكانوا عازمين علىٰ دعم استقلال كرواتيا وسلوڤينيا ـ أمر لم يزعج القوميين الصرب، المنتظرين في

(1) مقابلة مع شاليكاشڤيلي.

الكواليس، بكل تأكيد. وبعد المساهمة في إطلاق العنان لهذه القوى الكارثية، أقدم الألمان، عملياً، علىٰ ترك الساحة. وليكن. كان سايروس ڤانس، وزير الخارجيَّة الأَمريكيَّة الأسبق، الذي بات يعمل في إحدى بعثات البحث عن السلام الكثيرة في شبه جزيرة البلقان، قد حذَّر من أَن يفضي الاستقلال إلىٰ إطلاق سلسلة أَحداث من شأنها أَن تجعل الحرب في البوسنة حتمية. دخلت واشنطن، بقيادة لاري إيگلبيرگر، في نقاش حاد مع گنشر، محاولة إبطاء العمليَّة. غير أنَّ الألمان كانوا قد قطعوا شوطاً إضافياً وعجَّلوا في تطبيق البرنامج، مع بقائهم مقيدين بدستورهم بالذات علىٰ صعيد استخدام جيشهم للتعامل مع ما كان قادماً.

بقي السبب الكامن وراء حماسهم الشديد في تلك اللحظة لغزاً حيَّر زملاءهم آنذاك وفيما بعد. كان جزء من الجواب كامناً في التاريخ نفسه الذي ربط الفرنسيين والبريطانيين بالصرب، لأَن السلوڤين والكروات كانوا حلفاء للألمان مرتين في حروب الماضي الكبرى. وقد تمثَّل جزء آخر من الجواب، كما قال المستشار الألماني هلموت كول للقادة الفرنسيين، بضغط العدد الكبير من العمال الكروات المقيمين في ألمانيا وكانوا قد أَصبحوا قوة سياسيَّة محلية فعَّالة. وثمة جزء ثالث ألا وهو هياج أوروبا الجديدة ونزعتها المثالية، ظاهرة كان الألمان أنفسهم قد استفادوا منها لتوهم، إيمان بأن علىٰ هذه الفرصة التي تتيح قَدْراً أكبر من الاستقلال القومي والحرية الشخصيَّة أَن تكون ملكاً للجميع. ألمانيا نفسها كانت الآن في طور إعادة التأسيس والتوحّد، والحدود التعسفية التي فُرضت عليها عنوة من قبل قوى أجنبية غازية كانت تُزال. وبالتالي فما المانع، منطقياً، من حصول الشيء نفسه لصالح هذه الأقوام الصديقة الأصغر - وهي تابعة تاريخياً وعسكرياً - ذات القِيَم الثقافية المشتركة؟ بدت كرواتيا وسلوڤينيا، بنظر الألمان، بلدين شرعيين متمتعين بحق الاستقلال المنتظر منذ زمن طويل.

كانت الحقيقة، بالطبع، أَن معظم الأوروپيين، مَثلهم مَثَل الأَمريكيين، لم يكونوا مستعدين قط للتعامل مع الأحداث المقبلة. لم يكونوا يعرفون يوگوسلاڤيا معرفة حقيقيَّة. كانوا يعرفون **الوهم** الذي كان تيتو قد كوَّنه، وكانوا، مثل الأَمريكيين، قد تبنّوها بقَدْر غير قليل من اللهفة. فكما أشار المؤرخ الأوروپي المرموق توني جودت، كان النموذج التيتوي متمتعاً بشعبية واضحة لدى أَطراف الطيف السياسي في كل من أوروپا وأَمريكا. كان اليسار معجباً بالنموذج لأَن يوگوسلاڤيا كانت القصة الأقرب إِلىٰ النجاح التي استطاع العالم الشيوعي أَن ينسجها في أوروپا، كما بدت مضفية وجهاً إِنسانياً نسبياً علىٰ الشيوعية الأوروپية. إِن لم يكن ذلك نجاحاً اقتصادياً بدقَّة، فإِنه لم يكن إِخفاقاً كاملاً وشاملاً كباقي أوروپا الشرقيَّة ومعه النظام السوڤيتي. وكذلك فإِن اليمين السياسي كان متعاطفاً بعض الشيء مع يوگوسلاڤيا علىٰ الدوام لأَن تيتو كان قد تمرّد علىٰ موسكو وأنجز قَدْراً ذا معنى من الاستقلال[2].

مع تسارع الأحداث في يوگوسلاڤيا، كانت اثنتان من الحقائق المتّصلة بموقف الأسرة الأوروپيَّة من تلك الأحداث والناس المعنيين، ستتكشفان. تبيَّن، **أولاً**، أَن الأوروپيين كانوا يبالغون كثيراً، وكثيراً جداً، في تقدير مستوى قوّتهم العسكريَّة وقدرتهم علىٰ معالجة أزمة مرشحة لأَن تكون وحشية وقاسية، وبالتالي عسكريَّة في المقام الأول. دأب الأوروپيون علىٰ تقليص موازناتهم الدفاعية، كنسبة مئوية من الناتج القومي الإِجمالي، منذ الحرب الكورية، مسرورين دائماً من ترك الأعباء المالية تقع علىٰ عاتق الولايات المتحدة. ظلوا لمدة طويلة متمتعين بركوب دفاعي مخفض السعر دون أَن يدركوا فانتابهم إِحساس متضخم حول إِنجازاتهم وقدراتهم، «لم يكونوا»، كما قال توني جودت «يعرفون، حسب نمط تفكيرهم السياسي ـ العسكري 101 ـ أَن علىٰ خطتك السياسيَّة أَن تستند إِلىٰ قاعدة دفاعية راسخة وحقيقية. ومع تدهور

---

(2) مقابلة مع تودي جودت.

الأحداث في يوگوسلاڤيا، مع تفاقم الأزمة أكثر، كان الأوروپيون يملكون القوَّات، بل والإرادة في بعض الحالات، كما في حال البريطانيين والفرنسيين، اللازمة لتعريضها للخطر. غير أنَّهم كانوا يفتقرون إلىٰ وسائل نقل تلك القوَّات، إلىٰ الحوامات والغطاء الجوي مع وسائل إسناد أُخرى»[3].

أما الحقيقة فكانت موشكة علىٰ إحداث موجة من الأصداء في السياسة الأمريكيَّة. فمع اكتساب الأوروپيين لقدر أكبر فأكبر من الوعي بافتقارهم إلىٰ القوَّة في هذه المنطقة الأشد صعوبة والأكثر تعقيداً وغَدْراً، كانت الدولتان الأهم، بريطانيا وفرنسا، ميَّالتين إلىٰ الصرب، علىٰ الأقل، بل وكانت فرنسا، خصوصاً في ظل فرانسوا ميتران، هائمة بحب الصرب. وهذه الولاءات كانت قد غطَّت الجزء الأكبر من القرن وجاءت حصيلة خوف الفرنسيين والبريطانيين من صعود ألمانيا حديثة متزايدة العدوانية باضطراد. باتت إنگلترا وفرنسا، العدوتان اللدودتان ذات يوم، تنظران إحداهما إلىٰ الأُخرى بعين المودّة بل وتريدان التحالف مع روسيا وأصدقائها السلاڤ من أجل توفير القدرة علىٰ التصدّي للتهديد الألماني.

في حَرْبَي هذا القرن الكُبْرَيَيْن، كان الصرب في الصف نفسه مع الفرنسيين والبريطانيين. فخلال الحرب العالميَّة الأولى كانت صربيا الواقعة تحت احتلال أعداء بريطانيا ـ من الألمان، والنمساويين ـ المجريين، والبلغار ـ معروفة، بصورة شبه عامة، باسم «صربيا الصغيرة الشجاعة»[4] وفيما بعد، في ربيع 1941م، في إحدى أكثر لحظات الحرب حلكة، كان ونستون تشيرتشل قد ناشد اليوگوسلاڤيين قائلاً: «إننا نعرفكم أيها الصرب. كنتم حلفاءنا في الحرب الأخيرة، وأسلحتكم مكللة بغار المجد. وأنتم أيها الكروات والسلوڤين، نحن نعرف تاريخكم العسكري. بقيتم قلعة حصينة للمسيحية علىٰ امتداد قرون من

(3) المصدر السابق.
(4) جوداه، XVII.

الزمن. ذاعت شهرتكم كمقاتلين في طول القارة وعرضها. . . .»[5] قوبلت مناشدة تشيرتشل بقدر أكبر من الاستجابة لدى الصرب منها عند الكروات؛ ففي الحرب العالميَّة الثانية، كما في سابقتها، كان الكروات قد تحالفوا مع الألَمان. ومن اللافت أَن علاقة الصرب بالفرنسيين كانت حتى أوثق من علاقتهم بالبريطانيين. لقد كان الفرنسيون، في وقت مبكر من القرن، قد درَّبوا الجيش الصربي، مقابل حوافز شرائية خاصة، وزوّدوه بالمعدات العسكريَّة الفرنسية أساساً. ولفهم مواقف ومواقع أهم القوى الأوروبية بالنسبة إِلىٰ البلقان في 1992م، كان يكفي أَن نرى مواقف هذه القوى ومواقعها في سنتي 1914م و1940م.

تكنولوجياً، كانت واشنطن شديدة الرغبة في إِبقاء يوگوسلاڤيا موحدة، ولو لأَسباب مختلفة قليلاً. من المؤكد أننا حلفاء للصرب في الحربين كلتيهما، وكانت ثمة مودة طبيعية؛ كان معظم كبار دبلوماسيينا يفضلون الصرب، بصورة شبه لاشعورية، علىٰ الكروات وبلگراد علىٰ زگرب. كانوا قد قضوا وقتاً أطول بما لا يقاس في بلگراد مقارنة بزگرب (بضع سنوات في بلگراد مقابل بضعة أيام في زگرب أكثر الأحيان)، كان أقرب أصدقائهم من الصرب حسب أقوى الاحتمالات بدلاً من أَن يكونوا من الكروات، وكانوا ميَّالين للنظر إِلىٰ أَي نزوع استقلالي أَو انفصالي لدى الكروات علىٰ أنَّه باعث علىٰ القلق، ومثلهم في ذلك مثل الصرب تماماً، لم يكن الكرواتي الجيد، بنظر السفارات الغربيَّة إِلاَّ شخصاً مؤيداً لفكرة يوگوسلاڤيا كبرى. وكل من عداه كان مشاغباً.

بالنسبة إِلىٰ الكثير من الغربيين، كان الزعيم الكرواتي، فرانيو توجمان، الذي كان في الحقيقة شخصاً كريهاً قادراً علىٰ تقيؤ بعض أسوأ القذارات العرقية منذ الحرب العالميَّة الثانية، يلحق الضرر بالقضية الكرواتية، مع اقتراب موعد

---

(5) ديڤيد أوين، 8.

تفكّك البلاد. وهكذا فإن واشنطن كانت، هي الأُخرى، ذات ميول صربية. أَمّا أَن ترى كرواتيا (وسلوفينيا) نفسيهما وطنين أحاديين قائمين علىٰ زوجين محددين بوضوح من التواريخ والثقافات والأديان، مما جعلهما مختلفتين، وبالتالي منفصلتين، عن بلگراد، فقد بُولغ بالاستخفاف به في واشنطن والأماكن الأُخرى.

ثمة عامل إِضافي ينطبق علىٰ البوسنة، عامل يبقى مضمراً إِلىٰ حد كبير، عامل متجذّر في أعماق اللاشعور بدلاً من أَن يتجلّى عبر المواقف المكشوفة للأقوام الأوروپية. إِن البوسنيين مسلمون، وإِذا ما ظهرت دولة بوسنية إِلىٰ الوجود، دولة كالتي كان علي عزت بيگوڤيتش، زعيم مسلمي البوسنة، يحلم بها، بصرف النظر عن قدر معين من النزعة التعددية السابقة في المنطقة، فقد كان من شأن مثل هذه الدولة أَن تكون إِسلامية. قد لا تكون أصولية، وكثيرون من أتباع الرجل بدوا مسلمين مرتدّين أَو ذائبين في بوتقة الأجانب، أناساً متأوربين يحتسون الخمور ويأكلون لحم الخنزير، بنظر العالم العربي، غير أَن قَدْراً من عدم الارتياح ازاء احتمال قيام دولة مسلمة في أوروپا الجنوبيّة بقي موجوداً في جميع الأحوال.

ربما لم تكن الأقوام الأوروپية الأُخرى تشاطر الصرب نظرتهم إِلىٰ المسألة بوصفها مجرد معركة أُخرى ضد الأتراك المكروهين في حرب دائبة علىٰ الاستمرار منذ ستة قرون، غير أَن أَي قَدْر من الحرية لمسلمي البوسنة كان يبدو غريباً بعض الشيء. كان علي عزت بيگوڤيتش، آخر المطاف، يأخذ دينه مأخذ الجد، يقيم الصلاة خمس مرّات في اليوم، ويبدو متحلياً بنوع من المسحة الصوفية في تصريحاته العامّة. من كان يستطيع أَن يعرف إِلىٰ أي مدى كان سينقلب زعيماً علمانياً إِذا ما فازت البوسنة بالاستقلال؟ وبالتالي فإِن الصرب كانوا مفضَّلين، الكروات قريبين من الأَلمان، ومسلمي البوسنة محرومين من أية حماية أَو وصاية في الأساس، وفقاً لنظام الترتيب الذي اعتمده

الأوروپيون الآخرون في تحديد سياستهم ـ وهو نظام ترتيب قائم علىٰ نوع من الإِيمان، أولاً وقبل كل شيء، بعدم حدوث أَي شيء إِيجابي وخير في البلقان، بضرورة التحلي بالحذر في التعامل مع سائر الجماعات المختلفة، وبأن المنطقة بؤرة مستنقعية مظلمة ملأى بالعنف أشبه بوحش فتح شدقيه لابتلاع كل من يقترب منه.

وهكذا فإِن الأَمريكيين والآخرين في الغرب لم يروا، وهم يتابعون تزايد سُحُب العاصفة فوق يوگوسلاڤيا، أَي شيء إِيجابي حقاً. من الواضح أَن سلوبودان ميلوسوڤيتش كان الشخص الأَخطر في البلاد. غير أَن فرانيو توجمان الكرواتي لم يكن أقل منه بشاعة من حيث التعصّب القومي. فبين جملة العوامل التي قلَّصت من مستوى التعاطف معه في الغرب نجد حنينه الدائم لما بدا أشبه بإِيديولوجية نازية جديدة، حماسه لما أطلق عليه اسم القِيَم الآرية، وإِصراره علىٰ أَن جزءاً كبيراً من المحرقة (الهولوكوست) كان خدعة. سبق له أَن قال خلال أَحد الخطب الانتخابية الشهيرة سنة 1990م: «أشكر الله علىٰ أَن زوجي ليست يهودية أَو صربية»[6].

بنظر علي عزت بيگوڤيتش لم يكن توجمان إِلاَّ هتلر من كرواتيا وميلوسوڤيتش ستالين من صربيا[7]. ثمة موظف كبير في وزارة الدفاع تولَّى لاحقاً رئاسة وكالة الاستخبارات المركزية يدعى جون دويتش قال: «يكمن أَحد الأَسباب التي جعلت وجود سياسة جيدة هناك أمراً صعباً هو السوء المرعب لجميع الأَطراف. من الذي كنت ستمنحه جائزة جفرسون؟ ليس ميلوسوڤيتش بالتأكيد. وليس لتوجمان بقدر مواز من اليقين. وماذا عن عزت بيگوڤيتش؟ ليس مرشحاً عظيماً هو الآخر. لعل السؤال الوجيه الذي يمكن طرحه هو: من سيتفوق علىٰ الآخرين في قتل عدد أكبر من الجماعتين الأخريين إِذا ما تم

(6) دودر وبرانسون، 82.

(7) المصدر السابق، 91.

إطلاق يده؟ ربما سيكون عزت بيگوڤيتش قاتل العدد الأقل، ولكن بسبب افتقاره إلىٰ الأدوات والوسائل فقط. فالأَسلحة كانت تتطلّب وقتاً طويلاً حتى تصل إلىٰ مسلمي البوسنة».

مع انزلاق يوگوسلاڤيا إلىٰ حافة التفكّك واحتمالات اندلاع أعمال عنف شديدة، ومع إبداء أوروپا لقَدْر من الرغبة في الحيلولة دون الكارثة، ولكن دون أَن تكون مهيأة لأداء المهمة، سيتضح أَن من شأن دور الولايات المتحدة في الفترة 1990 ـ 1992م أَن يكون حاسماً. هل كانت يوگوسلاڤيا ستتمزق إلىٰ عدد من الدويلات المختلفة؟ هل كان من شأن التفكّك أَن يبقى تفكّكاً سلمياً؟ هذان كانا السؤالان اللذان كانا قد تحديا الأجوبة السهلة حين كان لاري إيگلبيرگر قد أقدم، مرغماً، علىٰ زيارة بلگراد في شباط/ فبراير 1990م، علىٰ الاجتماع بمختلف قادة المعارضة، علىٰ خوض نقاش مرير مع صديقه السابق ميلوسوڤيتش، وعلىٰ توجيه نوع من الرسالة إلىٰ السلوڤينيين والكروات بأن الولايات المتحدة لن تقف في طريق استقلالهم.

الفصل العاشر

مقتبساً من إِيمرسون، كتب جورج بول في إِحدى صحفه الحمائمية عن ڤيتنام قبيل التورط الفاجع لقوات الميدان الأَمريكيَّة يقول: إِن الأحداث علىٰ السرج وتمتطي صهوة البشرية. كان ذلك هو الوضع في البلقان سنة 1990م، حين بدأت الأحداث تتحرَّك بسرعة عاصفة. اندفع ميلوسوڤيتش بغريزة لا تقاوم علىٰ طريق إِيجاد صربيا كبرى. كانت قصة التغطية، وهي مهمة علىٰ الدوام، متمثِّلة بضرورة الحفاظ علىٰ وحدة يوگوسلاڤيا القديمة. في الأشهر التالية كان ميلوسوڤيتش سيقوم بتحويل الجيش اليوگوسلاڤي، وهو جيش بات خاضعاً للصرب، إِلىٰ جيش صربي من حيث الجوهر وبرفع مستوى التحكّم بالمؤسّسات الحسَّاسة الأُخرى. كانت وسائل إِعلامه الخاضعة لسيطرة الدولة ستزيد من تصعيد لهجة تقاريرها عن الفظاعات التي كانت الجماعات العرقية الأُخرى تمارسها ضد الصرب. كان ثمة سابقة تاريخيَّة: كان هتلر قد فعل ذلك بالتحديد قبل اجتياح بولونيا منذ أَكثر من خمسين سنة.

في كانون أول/ ديسمبر 1990م بادر الكروات، الهدف الرئيسي بصورة متزايدة لدعاية بلگراد القوميَّة المتعصبة، إِنطلاقاً من الإِحساس بالخطر المحتمل الوشيك، ومن إِدراك تفوّق بلگراد من حيث العدد والعدّة، إِلىٰ الاتصال بالقنصل الأَمريكي العام في زگرب، مايك آينك، لالتماس ما أطلقوا عليه اسم «المساعدة الفنية لتحسين عمل الشرطة». اعتُبر الالتماس طلباً لشحنات أَسلحة.

قضت توصية وارن زيمرمان أَن تقوم واشنطن برفض الطلب لأَن من شأن تلبيته، بين أشياء أُخرى، أَن يشكِّل سبباً إِضافياً من أَسباب قيام الكروات باضطهاد الأقلية الصربية في كرواتيا. تم ردّ الطلب بسرعة؛ لم تكن واشنطن تميل إِلىٰ الكروات، ومعظم الرسميين الأَمريكان كانوا شديدي الكره لتوجمان. شكَّل الرفض، عملياً، جزءاً من الحصار الأوسع الذي سيُفرض عقاباً علىٰ خصوم ميلوسوڤيتش الذي كان يملك جميع ما هو بحاجة إِليه من أَسلحة بفضل المخازن الملأى للجيش اليوگوسلاڤي، في حين كان أعداؤه سينطلقون من نقص ملحوظ.

في سنتي 1991 و1992 بدأ ميلوسوڤيتش وقوّاته بارتكاب أبشع وأسوأ الجرائم العرقية في أوروپا منذ صعود هتلر، خصوصاً ضد مسلمي البوسنة. وفيما كان هو دائباً علىٰ تنفيذ تحركاته العسكريَّة المختلفة مع قيام قوّاته بقصف المدن العزلاء المكشوفة أساساً دون أَي دفاع، دأب الغرب علىٰ إِصدار التحذيرات التي كان يدرك بمكره أنها بلا أنياب في الأساس. ما كان يصغي لسماعه من رسالة أَو إِشارة توحي باحتمال استخدام القوَّة ضدّه، وما سمعه فعلاً، رغم كل الوعيد الصاخب الصادر عن صف طويل من المسؤولين الرسميين الأوروپيين والأَمريكيين علىٰ امتداد السنوات الأربع التالية، جاء يحمل معنى أَن أَحداً لن يستخدم القوّة ضدّه. وكان من شأن الدبلوماسية غير المدعومة بالقوَّة أَن تبقى عاجزة مع شخص مثل ميلوسوڤيتش.

تمثَّلت إِحدى المفارقات الساخرة للمأساة التي تكشَّفت فصولها في يوگوسلاڤيا بعدم وجود أَي نقص علىٰ صعيد المواهب الدبلوماسية، العسكريَّة، والاستخباراتية المختلفة التي سيقت إِلىٰ المنطقة علىٰ امتداد السنوات الأربعين الماضية. فبسبب موقعها الحسَّاس في الحرب الباردة كانت يوگوسلاڤيا مرصداً ممتازاً. استطاع خبراء الجيش والاستخبارات الأَمريكيون، عبر الاستفادة البارعة من بعض ضبّاط الجيش اليوگوسلاڤي المنشقّين، أَن يحصلوا علىٰ الكثير من

المعلومات عن جيوش حلف وارصو، وكنا نرسل أفضل عناصرنا إلىٰ هناك. من غير المصادفة أن يكون كل من لاري إيگلبيرگر الشاب وبرنت سكوكروفت الشاب أيضاً قد ذهبا أولاً إلىٰ بلگراد حيث أثبتا أنهما جديران بالثناء. كانت التقارير الصادرة عن يوگوسلاڤيا، وهي محطة ذات أولوية عالية، جيدة جداً في الغالب. ففي خريف 1990م، مثلاً، وضعت وكالة الاستخبارات المركزية تحليلاً شاملاً كان دقيقاً إلىٰ حد بعيد. تنبأت الوكالة بأن يوگوسلاڤيا ستصاب بالشلل في غضون سنة وستبدأ بالتفكّك في غضون سنتين اثنتين. لاحظت مخاطر الصراع المسلّح بين الجماعات العرقية المختلفة في سائر أرجاء البلاد. وجاء في تقرير الوكالة أن كلاً من الولايات المتحدة والدول الأوروپية ستبقى عاجزة عن فعل شيء لوقف التفكّك.

غير أن الأمر كان منطوياً علىٰ قدر غير قليل من الوهم حول طريقتنا في النظر إلىٰ يوگوسلاڤيا مثلما كانت الحال مع الكثير من الآراء التي كانت لدينا خلال الحرب الباردة. أحد المصادر اليوگوسلاڤية القديمة قال لاحقاً إننا كنا لا نرى إلاّ ما أردنا رؤيته، كما هي العادة في مثل هذه الأحوال، مع الامتناع عن رؤية ما لم نكن نريد رؤيته. جرى إضفاء الصفة الخيالية علىٰ النظرة الأمريكيّة إلىٰ يوگوسلاڤيا في نهاية الحرب الباردة. بالَغْنا في الاستخفاف بسُخْط الكروات والسلوڤين وتطلعهم إلىٰ التحرّر من ظل بلگراد، وبخوف المسلمين من الصرب، كانت السفارة الأمريكيّة والأوساط العليا في واشنطن تميل إلىٰ اعتبار الكروات والسلوڤين جماعات مزعجة تحاول التمادي ولا بدّ من تلقينها درساً حول ما هو لصالحها متمثّلاً بيوگوسلاڤيا موحّدة.

كان الصرب والكروات، خصوصاً، يكنّون لبعضهم البعض أحقاداً مدفونة في الأعماق. كان تاريخهم كثير العُقَد وبالغ البشاعة من الطرفين، تاريخاً موروثاً عن القسوة الفظيعة لماض بعيد بالغ الوحشية. في الكثير من المناطق لم تكن الجروح قديمة بل جديدة، ما زالت مفتوحة، متمثّلة بذكريات

موروثة عن الحرب العالميَّة الثانية، حيث كان الصرب والكروات، تحت قناع القتال إِما مع الحلفاء أَو المحور، قد خاضوا حرباً أهلية حقيقية. ثمة جرائم كرواتية مرعبة اقتُرفت ضد الصرب في الحرب العالميَّة الثانية، مثلما اقتُرفت جرائم صربية موازية ضد الكروات. وقد قَدَّر ديڤيد أوين الذي عُيِّن صانعاً للسلام في 1992م، لدى دراسته لماضي العنف القريب وهو يحاول إِيجاد نوع من السَّلام القابل للحياة، أَن أَكثر من نصف العدد الإِجمالي البالغ مليوناً وسبعمئة ألف من اليوگوسلاڤيين الذين قُتلوا في الحرب، ماتوا علىٰ أيدي مواطنيهم، يا لها من صورة مشرقة[1]! وإِلىٰ يومنا هذا يتجادل الصرب والكروات حول العدد الدقيق من النَّاس ـ من الصرب، اليهود، الغجر، المسلمين، ولكن بأَكثرية صربية ـ الذين قُتلوا علىٰ أيدي الأوستاش (البوليس الفاشي) الكرواتي في معسكر للموت عُرف باسم ياسينوڤاتش، وهو اسم يشي في يوگوسلاڤيا بما تشي به كلمة آوشڤيتز في عالم اليهود. هل وصل العدد إِلىٰ مليون أم بقي، كما اعتقد البعض، متراوحاً بين مئة ألف ونصف مليون فقط؟ لم يكن عناصر الأوستاش الذين كانوا يديرون معسكر ياسينوڤاتش شديدي الحرص علىٰ مسك السجلات مثل نظرائهم الأَلمان.

للكروات أَيضاً شكاواهم. لعل الاسم الأَكثر انطواء علىٰ المعاناة بالنسبة إِليهم، الاسم الموحي بأَكثر أشكال المظالم التي اقتُرفت بحقهم هولاً، هو بلايبورگ الذي هو اسم بلدة قريبة واقعة عبر الحدود مع النمسا، فيما كانت الحرب موشكة علىٰ الانتهاء ولما كان الجيش الأحمر يتقدَّم شرقاً، كان الجنود الكرواتيون الذين سبق لهم أَن خدموا في صف الأَلمان هاربين غرباً للنجاة من غضب الروس. ثمة عدد كبير، ربما خمسون ألفاً أَو ربما مئة ألف ـ بقيت الأرقام غامضة علىٰ الدوام، خاضعة للمبالغة من جانب الكروات أَو التقليص من قبل الصرب ـ تجمعوا في بلايبورگ واستسلموا لسلطات التحالف

(1) ديڤيد أوين، 9.

البريطانية. غير أَن البريطانيين ما لبثوا، بدورهم، أَن سلّموهم إِلىٰ وحدات الأنصار اليوگوسلاڤية بقيادة تيتو، فتعرّضوا، جميعهم تقريباً، للاغتيال. صحيح أَن بلايبورگ لا تنطوي إلاَّ علىٰ القليل من الأَهميَّة في الغرب، غير أنَّها بالغة الأَهميَّة في كرواتيا. إِنها أشبه بغابة كاتين عند البولونيين حيث تم تجميع نخبة ضبّاط الجيش البولوني التي كانت تبذل محاولة يائسة للإِفلات من الوحدات الأَلمانية المتقدمة للقتال في يوم آخر، من قبل ضباط الجيش الأحمر وجرى إِعدامها، بأوامر من ستالين؛ ثمة آلاف من الرجال الذين دُفنوا في مقابر جماعية. كانت بلايبورگ جزءاً من تاريخ حديث بقي مجهولاً إِلىٰ حد كبير من جانب الغرب، غير أنّها عَنَتْ أشياء كثيرة بالنسبة إِلىٰ الكروات، الذين قَدَّروا أَن الجلادين كانوا من الصرب والشيوعيين في المقام الأول. تقول لافتة بدأت تظهر في جميع أرجاء كرواتيا حين بدأ الاتحاد اليوگوسلاڤي بالتفكّك: «نحن الكروات لا نشرب النبيذ، نميل إِلىٰ تفضيل احتساء دماء الصرب من كُنين»[2].

إِذا كان الصرب والكروات يمقتون بعضهم البعض، فإِن نفور الطرفين من، وحقدهما علىٰ المسلمين في البوسنة ربما كان أكبر. ففي الخامس والعشرين من آذار/ مارس 1991م، فيما كان الصرب عاكفين علىٰ تصعيد حملتهم الدعائية واستعداداتهم للحرب، التقى ميلوسوڤيتش وتوجمان سراً في أَحد منتجعات الصيد المفضلة عند تيتو. حاول الرجلان أَن يعقدا صفقة مفيدة للطرفين عبر تقطيع البوسنة، تلك الدولة الهشّة جداً، متعددة القوميات الواقعة بين صربيا وكرواتيا. ونظراً لأَن توجمان كان أقل مكراً ودهاءاً من ميلوسوڤيتش، وأقل تسليحاً أَيضاً، فقد بدا مطمئناً إِلىٰ ما تمخض عنه اللقاء. وفيما بعد حين بدأ الكروات، متأخرين، بالتسلح، مهربين حوالي أربعين أَلفاً من بنادق الكلاشينكوف الرشاشة من كل من المجر والنمسا، اكتشف الصرب ما كان جارياً ولكنهم قاموا بتصوير العمليَّة بدلاً من وقفها. وظفوا الشريط في

(2) دودر وبرانسون، 82.

تلفاز بلگراد لتصعيد وتأجيج المشاعر المعادية للكروات بين عامة السكان الصرب حول ما كان أعداء الأمة دائبين علىٰ الإِعداد له[3].

جاء توجمان إِلىٰ الطاولة ومعه عدد أقل بكثير من «الفِيَشْ» للعب جولة سريعة مع أستاذ قمار صَلْب العود. ربما لم يكن منتبهاً إِلىٰ الواقع. كان ميلوسوڤيتش متقدماً عليه أشواطاً ونجح في إِقناعه بأن الصرب لن يهاجموا كرواتيا؛ بأن البوسنة هي الهدف الوحيد لعدوان الصرب. كان لقاؤهما موجزاً، ودّياً، وقد أتبعه عدد من نوابهما بسلسلة من الاجتماعات الخاصة برسم الخرائط التي أُزيلت البوسنة منها تماماً، صُعق اللورد كارينگتون الذي استدعاه الأوروپيون لإِنجاز نوع من التسوية من نتائج اللقاء، من تمزيق دولة شقيقة، ومن ذهاب الأجزاء المأهولة بالصرب إِلىٰ صربيا، والمناطق الكرواتية إِلىٰ كرواتيا، «ولم يكن أَي من الطرفين مبدياً كبير اهتمام بما ستؤول إِليه أحوال المسلمين»[4]. ببطء وثبات كانت البلاد تسير إِلىٰ حافة الحرب الأهلية.

كانت القصّة كلها ستبدأ اشتباكاً حدودياً بين الصرب والكروات حول منطقة مُختلف عليها، عبر استفزازات مخطّطة في بلگراد لم تكن زگرب مستعدّة لها علىٰ الإِطلاق. أَمَّا الحدث الرمزي الذي تمّ تذكّره فيما بعد بوصفه المؤشر الدال علىٰ شروع يوگوسلاڤيا بالتفكّك فقد حدث في الأَول من أيار/مايو سنة 1991م، في قرية بوروڤوسيلو الواقعة في المنطقة الشرقيَّة من كرواتيا. كانت المناسبة عيد الأَول من أيار/مايو، وهو ما يزال عيداً عمالياً رئيسياً في جزء من العالم كان فيه الحكام شيوعيين لفترات طويلة من الزَّمن. أربعة من عناصر شرطة مدينة أوسيك، ثالثة أكبر مدن كرواتيا، هُرعوا إِلىٰ قرية بوروڤوسيلو في تلك الليلة حين سمعوا بأن القرية بقيت دون حراسة. كان القرويون الصرب قد رفعوا العلم اليوگوسلاڤي القديم ذا النجمة الشيوعية فوق عدد من المباني. قرّر

(3) المصدر السابق، 109.

(4) المصدر السابق، 95.

عناصر الشرطة أَن ذلك كان عصياناً وعزموا علىٰ استبدالها بأعلام كرواتية مؤلَّفة من مربعات حمراء وبيضاء شبيهة برقع الشطرنج. غير أَن الصرب الذين كانوا مستمرين في حراسة البلدة أطلقوا النار علىٰ رجال الشرطة وجرحوا اثنين وألقوا القبض عليهما باعتبارهما أسيري حرب.

عنصرا الشرطة اللذان تمكّنا من الهرب عادا إِلىٰ أوسيك، حيث رويا قصتهما لزملائهما. وعلىٰ الفور انطلقت حافلة ملأى برجال الشرطة الكروات من أوسيك لإِنقاذ الأسيرين. غير أَن المحليين الصرب كانوا أَكثر من مستعدين. كانت القرية كلها مستنفرة مئة بالمئة (في حالة الإِنذار الأحمر). كانت مفارق الطرق جميعها محروسة بعناصر مدججين بالسلاح. أَمَّا فوق سطوح المنازل فكان مسلحون آخرون مكلفين بالتغطية النارية الطليقة. ما حدث في ذلك الصباح لم يكن أقل من مذبحة حقيقيَّة. قُتل اثنا عشر شرطياً كرواتياً وجُرح حوالي عشرين آخرين. لقد أدَّى الحادث إِلىٰ حصول «انقلاب كامل في الرأي العام الكرواتي» بكلمات لورا سلبر وآلان ليتل. حل الرُّهاب المكشوف من الصرب محل الحَذَر والتنبه. تحدث التلفاز الزگربي عن تعرّض الجرحى للتعذيب وجثث القتلى للتمثيل، وما هو أسوأ أَن السلطات الصربية بدت متباهية بما كانت قد فعلته.

كان الرعب الذي أصاب مراسلاً أَمريكياً يدعى روي گوتمان، كان في يوگوسلاڤيا في ذلك الوقت وكان قد بدأ لتوه بكتابة ما سيصبح سلسلة من التقارير النبوئية غير العادية لصحيفة **نيوز دي**، يومية ضواحي نيويورك، إِزاء بشاعة ما جرى، هائلاً جداً. ولأَن هذه كانت فترته الثانية في يوگوسلاڤيا، فإِن گوتمان، متعرضاً سلفاً لما أطلق عليه لاحقاً اسم إِعادة تعليم إِلزامية قائمة علىٰ تفكيك البنيان القديم ليوگوسلاڤيا ـ ما كان صالحاً وما كان طالحاً علىٰ حد سواء، جنباً إِلىٰ جنب مع ما كان يجعلها دولة قابلة للحياة ـ وخلق يوگوسلاڤيا جديدة، قطعة قطعة. تعين علىٰ گوتمان أَن ينسى كل ما سبق له أَن آمن به، أَن

ينسى تلك النظرة الغربيَّة الرومانسية (الحالمة) إلىٰ هذا البلد المعقد وغير العادي حيث الناس الذين كانوا يبدون فيما مضى جديرين بالإعجاب، شجعاناً وكرماء، ما لبثوا أَن انحدروا إِلىٰ هذا الدرك السحيق من القَسْوة، العناد، والتعصّب ـ بل وحتى الوحشية في الحقيقة.

إِذا كانت ثمة نقطة انعطاف محدودة لعمليَّة إِعادة تقويم گوتمان، فقد جاءت في أيار/ مايو 1991م لدى زيارته لقرية بوروڤوسيلو. كان قد سمع عن القصة أولاً من وكالة أنباء صغيرة تديرها جماعة توجمان في زگرب. قالت الوكالة إِن الأَمر لم يقف عند حصول مجزرة، بل تجاوزه إِلىٰ التمثيل بالجثث، في إِشارة أضفت مزيداً من الهول علىٰ القصة. ذهب گوتمان فوراً إِلىٰ بوروڤوسيلو، غير أَن الأمور كانت قد بدأت تُلملم عند وصوله. كانت القوّات الخاصة الصربية مضطلعة بإِدارة البلدة ولم يكن أَحد راغباً في الكلام عما كان قد حدث. إِلاّ أَن گوتمان صُعق من البداية بوحشية المذبحة التي كانت قد نُظمت بعناية شديدة ـ استفزاز صغير كان قد تم قلبه إِلىٰ كمين إِجرامي، استعراضي، مدروس. لم ينشأ الحدث، برأي گوتمان، من خصومة عرقية محلية كانت قد ظلت تتفاعل مدة طويلة حتى تفجرت عنفاً. بل كان بالأحرى قد جرى الترتيب له وإِطلاقه من قبل قوى معينة في بلگراد وكان يحمل الطابع غير الرسمي لمباركة بلگراد ـ متمثلاً بالتوجهات الجديدة. بدت الجهات الرسمية الصربية، غير الآبهة بمثل هذه الانقسامات العرقية الفجّة، مستمتعة بالحدث.

كان ما حدث، بالنسبة إِلىٰ گوتمان، أشبه بعمليَّة إِعدام منه بكمين فقط، وكان المصمِّم شخص سيء السمعة يدعى ڤويسلاڤ سَشْلَي، قومي صربي متعصِّب كان قد سجنه تيتو لآرائه العرقية ـ العنصرية، واشتهر، حتى في عالم البلقان القاسي، بوحشيته الشخصيَّة. وفي إِحدى المراحل، قبل تخاصم الرجلين في النهاية، كان يروق لسلوبودان ميلوسوڤيتش أَن يقول بأن سَشْلَي هذا كان شرطيه المفضَّل. بدا واضحاً لگوتمان أن سَشْلَي كان في بوروڤوسيلو، وأن

المجزرة كانت من صنعه. كان سَسْلَي يجسِّد الوجه الأَكثر قُبحاً للنزعة القوميَّة الجديدة القائمة علىٰ العنف التي كانت بلگراد تنظمها ـ الإِيمان بعدم كفاية التصويت ضد المختلفين عرقياً؛ فالأفضل هو قتلهم. وما كان سَسْلَي يمثِّله من بروز وحدات صربية خاصة، جيدة التنظيم، جيدة التسليح، تقوم بالانقضاض علىٰ الموظفين والرسميين الكروات (والمسلمين لاحقاً) غير المستعدين في البلدات الصغيرة، كان سيشكِّل عنصراً حاسماً من عناصر ظاهرة التطهير العرقي التي كانت علىٰ الأبواب، وما هو أخطر أَن سَسْلَي لم يكن وحده. ثمة كان آخرون، خصوصاً ذلك الذي عُرف باسم آركان، زليكو رازناتوڤيتش، مع نموره ذائعي الصيت المرعب، الذي ما لبث أَن أبقى سَسْلَي في الظل بادياً كما لو كان مجرد هاو. (وكما يحصل مع من هم علىٰ شاكلة سَسْلَي وآركان، لم تكن مشاعرهما لطيفة وودية. ففي إِحدى النقاشات التلڤزيونية دار سَسْلَي نحو آركان وقال له: «أراهن علىٰ أنَّك غطيت وجهك بالجوارب السوداء أكثر من قدميك»).

بنظر گوتمان كان ما حدث في بوروڤوسيلو مرعباً، غير أَن ما جعله أسوأ هي الوقاحة الفاضحة والصارخة التي رافقته. لقد تأكّد من أَن التمثيل بالجثث ـ سُملت عيون عناصر الشرطة ـ كان قد حدث، غير أَن الكروات باتوا، حين بدأ يستعد لكتابة القصة، حريصين علىٰ إِخفاء ذلك الجزء، خشية أَن يؤدي هذا النوع من الأخبار إِلىٰ إِثارة غضب الشعب الكرواتي بالذات فيقود إِلىٰ حوادث حتى أكثر عنفاً. ذلك بالضبط هو ما أراده الصرب ـ إِغارات كرواتية محدودة علىٰ الجيران الصرب في قرى وبلدات صغيرة، من شأنها أَن تشكِّل ذريعة لإِقحام الجيش القومي اليوگوسلاڤي في المعركة. غير أن دور سَسْلَي أفقد گوتمان أعصابه. صحيح أَنَّه كان قد سمع أشياء كثيرة عن هذا الرجل الذي كان يتصرَّف كأي خارج علىٰ القانون، غير أَنَّه ما لبث أَن رأى أنّه كان خارجاً علىٰ القانون مزوّداً بإِجازة صادرة عن الحكومة المتولية للسلطة، مولعاً بالتجول متباهياً بالمصير المرعب الذي كان يخبئه لليوگوسلاڤيين من غير الصرب.

قرَّر گوتمان أَن يؤلِّف قصّة عن سَسْلَي نفسه، ذهب إِلىٰ بلگراد يبحث عنه، غير أنَّه فوجئ حين اكتشف أنّه لم يكن هناك لأنَّه كان مشغولاً بالانتخابات النيابية التي كان مرشحاً فيها. نجح گوتمان أخيراً في العثور عليه في صربيا الشمالية في قرية تدعى ڤويڤودينا. كان سَسْلَي، برأي گوتمان، صريحاً جداً حول ما كان قد حدث في بوروڤوسيلو. نعم، سبق له أَن كان هناك وكان مسؤولاً. أضف إِلىٰ ذلك أنّه قطع وعداً تعهد فيه بالإِغارة علىٰ الكثير من القرى الأُخرى، إذا ما تم انتخابه. من شأن بوروڤوسيلو ألا تكون سوى بداية. وقد قال سَسْلَي إِن الرجال الخاضعين لقيادته كانوا **تشَتنيكاته**، حيث **التشنيك** كلمة كريهة بالنسبة إِلىٰ غير الصرب تذكّرهم بجنود الإِمبراطورية الصربية الأرثوذكسية القديمة، بالقوَّات الموالية للنظام الملكي التي كانت تقتحم، تجتاح ـ وتقتل ـ تحت راية الكنيسة الأرثوذكسية، وتستطيع أَن تفعل ما تشاؤه لجميع من ليسوا من الصرب؛ قوات مؤلَّفة من رجال كانوا يعتبرون العالم غير الصربي منطقة حرة واسعة مستباحة. ثم تحدَّث سَسْلَي، بقَدْر كبير من الصراحة، عن الخطة التي رسمها من أجل تحطيم وتمزيق يوگوسلاڤيا القائمة ـ بل كانت لديه خريطة. ثمة مدينة واقعة علىٰ الحدود بين سلوڤينيا والمجر قد تصبح للأخيرة. وقد تذهب مدينة سبليت الواقعة علىٰ البحر الأدرياتيكي إِلىٰ الإِيطاليين. أمَّا الجزء الأكبر من باقي البلاد فسيكون صربياً. كان هذا الحوار الوجيز، بالنسبة إِلىٰ گوتمان، مرعباً يوقف شعر الرأس من ناحية، ومدوِّخاً يبعث علىٰ الذهول من ناحية أُخرى؛ ثمة كان مجرم حرب يتحدّث صراحة عن «مآثره» السابقة وعن أحلامه وآماله الخاصة بـ«مآثر» جديدة في المستقبل. متوقعاً احتمال لقائهما ثانية، قام گوتمان بتقديم بطاقته إِلىٰ سَسْلَي عند انتهاء المقابلة. (وفيما بعد علَّقَتْ زوجه بتسي قائلة: **ماذا فعلت؟! كيف تجرأت وأعطيته بطاقتك وعليها عنواننا؟!**»).

أدَّى لقاء گوتمان بسَسْلَي إِلىٰ إِزالة شكوكه حول تدخلات الصرب. وقد

شعر أنّ ما كان قد كتبه بقي ناقصاً بصورة فاضحة رغم قيامه بتصنيف قصته عن سَسْلَي. فالطبيعة الهادئة ذات اللهجة المنخفضة للصحافة المحترفة لم تكن متناسبة مع الهول الفظيع والشنيع الفاضح للممارسات والتهديدات. ثمة أمر بالغ الخبث والشؤم كان يوشك أَن يقع، دون أَي ضوابط للحد من الوحشية. فذلك النوع من الوحدات الخاصة التي استخدمها سَسْلَي كان يمثِّل حثالة المجتمع، وكان سلوك هؤلاء الناس يثير دهشة حتى ضباط الجيش اليوگوسلاڤي التقليديين من الحرس القديم. فقد قال الجنرال سلاڤكو ليسيتشا، قائد وحدات الجيش اليوگوسلاڤي علىٰ شواطئ دالماسيا: «عناصري علىٰ الجبهة يأتون ليقولوا: «إِن الوحدات الخاصة تقوم بأعمال السلب والاغتصاب والسرقة. لماذا نقاتل وما الذي نقاتل في سبيله؟»»[5].

كان گوتمان مراسلاً غني التجربة تباهىٰ، لدى وصوله للمرة الثانية إِلىٰ يوگوسلاڤيا، بأنه يعرف المنطقة جيداً بفضل جولة سابقة كانت سعيدة. كان گوتمان قد ترعرع في هارتفورد الغربيَّة ـ كونكتيكت، تابع الدراسة في كلية هاڤرفورد ومدرسة لندن للاقتصاد، وعمل لبعض الوقت لدى وكالة اليونايتد پرس قبل التحاقه برويتر في أوروپا. وبوصفه مراسلاً لوكالة رويتر كان قد اتخذ بلگراد مقراً له بين سنتي 1973 و1975م، وكان، مثل الكثير من المراسلين الغربيين، مولعاً بالبلد ـ وقد وصف تلك الفترة فيما بعد بـ«عصر تيتو الذهبي». لقد كانت نزعة المركزية الصربية التي عدَّلَت رؤية الكثير من الدبلوماسيين الغربيين أمراً يعرفه جيداً لأنّه كان هو نفسه مدمناً عليه بصورة لاشعورية. فيوگوسلاڤيا التي كان يعرفها في ذلك الوقت كانت غارقة في بحر نعمةِ كونها أَكثر استقلالاً من بلدان أوروپا الشرقيَّة الأُخرى. كان مواطنوها متمتعين بقَدْر أكبر من الحرية مقارنة بالبولونيين والمجريين. بدا الاقتصاد سائراً في طريق التنمية بوتائر أسرع بكثير مع مكاسب مادية أكبر مقارنة بالبلدان الشيوعية

---

(5) المصدر السابق، 97.

الأُخرى ـ كان ثمة كميات أكبر من اللحوم، ملابس أفضل، فرص للسفر إِلىٰ الغرب، بل وحتى فرصة امتلاك سيارة. والناس الذين التقى بهم كانوا جذّابين، مستقلين، كثيري الشكوى، وموهوبين. أضف إِلىٰ ذلك أَن الجماعات العرقية المختلفة بدت متعايشة بشكل معقول، ولم يكن ثمة ما يشير إِلىٰ المأساة المتربصة خلف ستار الزمن.

مثل عدد كبير من الأَمريكيين الذين ذهبوا إِلىٰ بلگراد في تلك السنوات، كان گوتمان قد وجد الأجواء كلها مفعمة بالإِغراء. أَمّا حين عاد ثانية في 1989م فكان كل شيء قد بدأ يتغيّر. كان آنذاك في منتصف حياته العملية (المهنية)، مراسلاً **للنيوزدي** في بون، تلك الصحيفة الغنية لضاحية لونگ آيلاند التي كانت تحاول أَن تخترق أسواق مانهاتن. كان گوتمان قد بقي بعيداً عن يوگوسلاڤيا لمدة قاربت خمس عشرة سنة، ورأى الآن عدداً من المؤشرات الدالّة علىٰ أنّها باتت بلاداً مختلفة تماماً. بدا الموظفون الصرب شاعرين بأنّهم أحرار في إِطلاق البيانات الملتهبة حول القوميات الأُخرى. كانت نزعة التطرُّف السياسي العلة الجديدة؛ فالتعصّب القومي من جانب هذه الجماعة سرعان ما كان يفرز نظيره الجماعة الأخرى. لم يكتف ميلوسوڤيتش بمجرد الوصول إِلىٰ السلطة، بل بدا مصمّماً علىٰ سحق القوى الديمقراطيّة المتبرعمة في البلاد، وعلىٰ الأخص طلاّب الجامعات الذين كانوا يطالبون بقَدْر أكبر، لا أقل، من الحرية.

بمقدار ما استطاع گوتمان أَن يرى، فإِن الرمز الدّال علىٰ مدى سرعة انقلاب البلاد وتحوّلها من الواقع القديم إِلىٰ نظيره الجديد تمثّل بالانقسام والاختلاف المتزايد بين الصحفيين والدبلوماسيين الغربيين. ففرسان القلم والإِعلام كانوا في صف واحد من حيث وجهة نظرهم القائلة بأن الأمور بالغة السوء، في حين كان عدد كبير من الدبلوماسيين في الصف الآخر الذي كان لا يزال محتفظاً بالآراء التقليديّة حول البلاد. كان گوتمان متعاطفاً بعض الشيء مع الدبلوماسيين. وقد رأى أَن الصحفيين كانوا أوفر حظاً من الدبلوماسيين لأنّهم

كانوا يخرجون باستمرار ويقفون بصورة مباشرة علىٰ أَحداث القصة، علىٰ الحواف القاطعة بصورة إِلزامية، ملتقين بأناس من جميع مشارب الحياة، وكلما غاصوا أَكثر في تفاصيل القصة، كانوا يكتشفون مزيداً من الأدلة المؤكدة لأَن ما كانوا مؤمنين بوجوده لم يعد موجوداً. كان گوتمان يشك في أَن يكون أَي دبلوماسي رفيع المستوى قد تمكّن قط من إِجراء مقابلة قادرة علىٰ تسليط الكثير من الضوء علىٰ الأحداث مع سَسْلَي. أضف إِلىٰ ذلك أَن الصحفيين كانوا أَيضاً قادرين علىٰ تغيير الاتجاهات بقَدْر أكبر من السهولة؛ كانوا مرتبطين وملزمين بالأحداث لا بالسياسات والخطط.

علىٰ صعيد المأساة الإِنسانية، كانت رسائل گوتمان الصحفية وريپورتاجاته بعيدة عن الإِثارة، كما كان سيعترف بعد قليل. جاء العنوان الرئيسي لإِحدى الرسائل المبكرة التي نشرتها **نيوزدي** في الحادي والعشرين من تشرين ثاني/ نوڤمبر 1991م علىٰ شكل «اليوگوسلاڤيون بحاجة إِلىٰ تدخّل الغرب»، تلك الرسالة التي بيَّن فيها أَن الولايات المتحدة كانت البلد الوحيد المؤهَّل والقادر علىٰ وضع حد للعدوان الصربي. تضمنت الرسالة كلام أَحد الخبراء المختصين بالشؤون البلقانية في أَحد مراكز البحث اللندنية الذي قال بأن السياسة الأَمريكيَّة كانت بحاجة إِلىٰ ممارسة قَدْر معين من تكتيك حافة الهاوية هناك، وبأن الصرب سيتراجعون بسرعة إِذا رغبت الولايات المتحدة في تقديم عرض للقوة. اشتملت الرسالة أَيضاً علىٰ التذكير بسلسلة من مبادرات التهدئة والاسترضاء التي بذلتها الدول الأوروپية فيما ظلَّت الأعمال العدوانية الصربية دائبة علىٰ التصاعد. وبعد شهر، في 22 كانون أول/ ديسمبر 1991م، تابع گوتمان روايته برسالة أُخرى منطوية علىٰ قَدْر غير قليل من الأَهميَّة، متنبئاً بأن من شأن قرار الدول الأوروپية القاضي بالاعتراف باستقلال كرواتيا أَن يُحْدث انفجاراً ذا أبعاد كارثية في البوسنة، ومضمراً أَيضاً أَن هذا بالتحديد هو ما كان الصرب يريدونه. فقد قال نقلاً عن وزير الخارجيَّة البوسني: «قد تصل أعداد

القتلى في غضون أشهر قليلة إلىٰ مئتين أَو ثلاث مئة ألف. وستكون بؤرة المذابح المحتملة، برأيه، مدينة بوسنية شمالية تدعى بانيالوقا. وكان گوتمان سيكتشف، بقدر كبير من الحزن والأسى، في الأشهر التالية، كم كان صادقاً في نبوءته.

الفصل الحادي عشر

مع حلول صيف 1992م، بدأ جورج بوش ومعه عدد كبير من مواطنيه يكتشفون مدى مهارة بيل كلنتون السياسيَّة. كان الرجل قد قرَّر دخول السباق علىٰ الرئاسة وما لبث أن أَصبح مستفيداً مباشراً من كل من نهاية الحرب الباردة من جهة، ومن الانتصار الأَمريكي السريع في حرب الخليج، في واحدة من المفارقات الساخرة، من جهة ثانية. شكَّلت الأولى ـ نهاية الحرب الباردة ـ نعمة لأنَّها أَحدثت تغييراً مسرحياً مثيراً في جدول الأعمال السياسي الأَمريكي، والثاني لأنَّه كان قد لجم طموحات الساسة الديمقراطيين الأَكثر شهرة. ما من أَحد ممن سبق لهم أَن عرفوا كلنتون اعتقد بأن حياته السياسيَّة قد تعرَّضت للإِفساد والتشويه جراء سوء الحظ ـ كان جزء من الحظ السعيد من صنع يده هو، والجزء الآخر تمثَّل بأَكثر التركات السياسيَّة توفيقاً وحُسْن حظ. وقد كان ذلك واضحاً وضوح الشمس في 1992م. غير أَن موهبته كانت هي الأُخرى متفوقة. قال عنه مدير حملته جيمس كارڤيل «أفضل جواد سبق لي أَن رأيتُ»، وقد عنى أَن كلنتون وُلد ليركض، وكلما كان المنصب الذي يجري من أجله أعلىٰ، كان أداؤه أفضل.

لو كانت حياة كلنتون السياسيَّة محصورة، باعتقاد البعض، بالركض فقط دون الحُكْم والإِدارة، لأَصبح بالتأكيد موضوع رهان مضمون علىٰ أنَّه سيصل إِلىٰ جبل رشمور [حيث النصب الذي يمثِّل الرؤساء واشنطن، جفرسون،

لنكولن، وت. روزفلت]. قد يستطيع المرء أَن يتصوره بعيداً عن الحكم والإِدارة، ولكن مجرد التفكير به دون أَن يكون راكضاً كان قريباً من المستحيل. حتى في السنوات الأخيرة من رئاسته، حين كانت زوجه تخوض معركة عضوية مجلس الشيوخ، وقرَّر نائبه آل گور وحده أخيراً خوض المعركة الرئاسية لخلافته، لم يستطع كلنتون، وهو يدرك أَن من شأن ما يقوله أن يؤثِّر علىٰ سباقهما كما علىٰ إِحساسهما بالاستقلال، أَن يضبط اندفاعه الذي لا يقاوم نحو الانخراط في الحملة، وبدا مصمماً علىٰ خوض سباقيهما نيابة عنهما، مستعداً دائماً للاشتراك في أَي سباق من أجل الفوز بفترة ثالثة إِذا جاء أَحدهم وعدّل الدستور.

من الممكن القول إِن كلنتون كان أَحد أذكىٰ سياسيَّيْن أَمريكيين في الثلث الأخير من القرن العشرين، متقاسماً ذلك العنوان مع رونالد ريگان الذي أتاحت مواهبه السياسيَّة شبه السحرية لمواطنيه فرصة تسويغ وتبرير جملة عيوبه وإِخفاقاته، والتركيز فقط علىٰ نقاط قوته ـ أَي رؤيته كما كان يريد أَن يُرىٰ. غير أن ريگان كان قد جاء في وقت كانت فيه نزعة المحافظة صاعدة، حين كانت المؤشرات السكانية في أَمريكا دائبة علىٰ التغيُّر بصورة مسرحية مثيرة، وحين كانت السلطة السياسيَّة والوفرة الاقتصاديَّة دائبة علىٰ الانزلاق من ولايات الأطلسي الشرقيَّة والمتوسطة إِلىٰ حزام الشمس، إِلىٰ منطقة كان حاملاً لقِيَمها وجاء يمثّلها. كان المرشح المثالي لأَمريكا ما بعد صناعية، ريفية بصورة متزايدة، حيث كان ملايين الناس، رغم عيشهم تكنولوجياً بصورة أفضل من أَي وقت مضى، قد باتوا مقطوعين عن جذورهم السابقة المباشرة وراحوا يبحثون بقلق عن صور مطمئنة وعن وقت أَكثر أمناً وأبسط. لم يقف ريگان عند حدود عَكْس هذه القِيَم السياسيَّة المتغيرة فقط، بل وساهم في دفعها أَيضاً. أخرج القوى التي يمثّلها من الزوايا الهامشية علىٰ الصعيد السياسي، حيث كانت في أوائل الستينيّات، حين ظهر للمرة الأولى علىٰ المسرح القومي، إِلىٰ مركز

القلب من الحياة الأَمريكيَّة. أضف إِلىٰ ذلك أَنَّه فعل ذلك دونما جهد إِلىٰ درجة أَنَّه لم يبد قط أنه سياسي.

أما كلنتون فقد كان بالمقابل مرشح حزب ديمقراطي متدهور، ممزّق إِلىٰ حدّ خطير وكان قد بدأ حياته السياسيَّة حاكم ولاية جنوبية، شاباً ليبرالياً واضحاً مستنداً إِلىٰ أضعف الدوائر. ونظراً لهشاشة قاعدته، النفوذ المتضائل لحزبه، وافتقاره إِلىٰ الثروة الشخصية، كان محكوماً بحياة سياسيَّة مشحونة بسلسلة متصلة من المساومات والحلول الوسط جنباً إِلىٰ جنب مع لغة خطابية كانت علىٰ الدوام أكبر وأفخم قليلاً من أفعاله. من حيث الخطاب كان غريزياً ميّالاً قليلاً إِلىٰ الليبرالية، علىٰ خط يسار الوسط ببراعة، مع بضع حركات محافظة رمزية لتحقيق التوازن. من حيث الأفعال، كان وَسَطياً غريزياً، أمهر وأبرع من عَطَسَهم النظام السياسي في سنوات من حيث القُدْرة علىٰ التعامل مع القضايا المعقَّدة والمتشعبة.

شكَّلت السياسة قضية بالغة الجدية بالنسبة إِلىٰ كلنتون. لم تكن السياسة هوايته فحسب، كانت وجوده وكيانه بالذات. فالوظائف الوحيدة التي شغلها خلال مدة زمنية لم تكن سياسيَّة. كان ثمة جولة قصيرة بعد زمالته الرودسية عمل خلالها بحماس جزئي مدرساً في مدرسة الحقوق بجامعة آركنسو. غير أنه، حتى هناك، كان أقل انشغالاً بعمل طلابه منه بمسح الساحة السياسيَّة. فقد كتب لصديقه ويلي موريس، هو الآخر من زملاء رودس، وكان يرئس تحرير **هاربرز**، في 1971م يقول: «ما زلت أعمل في مدرسة القانون الغارقة في البلادة، مرسياً أساس من يعرف ماذا، غير أَن العمل سيتم القيام به بروح طيبة وتكشيرة ملتوية. فالسياسة هي كل ما كان كلنتون يعرفه وكل ما كان يفعله، وعلىٰ امتداد الجزء الأكبر من حياتيهما الراشدتين، عاش هو وزوجه في مساكن عائدة للحكومة، في ليتل روك أولاً وواشنطن بعد ذلك. كان قد برز علىٰ المسرح كطفل معجزة سياسي في وقت مبكر جداً وكان ذا قدرة عالية علىٰ

الصمود في السياسة، حتى أَن عضو مجلس الشيوخ من جورجيا سام نان استطاع أَن يشير إِليه، مع حلول سنة 1992م، وهو ما يزال في أواسط العقد الخامس، معتبراً إِيَّاه نجماً صاعداً في الحزب الديمقراطي في ثلاثة عقود مختلفة. كان ثمة شيء حاسم آخر عنه. نظراً لدوام الصعوبات التي اعترضت سبيله خلال حياته المهنية كلها، فقد أدرك أَن لا شيء يجوز تبديده وليس هناك أَي وقت ميت أَو معطل. كل شيء فعله كان سياسياً، وكل شيء فعله كان مؤهلاً لأَن يكون ذا دوافع سياسيَّة. **باستمرار** كان مقتحماً. لم يتوقف قط. في الرابعة والأربعين من عمره شكَّلت حياته حملة سياسيَّة واحدة طويلة ومتصلة. لم يكن فارس نجاة لامعاً فقط، بل وأستاذاً حقيقياً لفرسان النجاة بعبارة أَكثر صواباً، شخصاً كانت النجاة بالنسبة إِليه الهدف الوحيد لوجوده.

بدا كلنتون متحدياً جميع قوى سياسة أَمريكا في العقود الأخيرة من القرن العشرين. ففي وقت أَصبحت فيه السياسة الراقية شأناً من شؤون نادي أصحاب الملايين، كان رجلاً لا يملك أية ثروة تخصّه. لم يكن هو وزوجه السيدة كلنتون يملكان حتى منزلاً للسكن حتى أقدما أخيراً علىٰ شراء بيت أنيق في منطقة وستشستر النيويوركية، تلبية لأحد مستلزمات حملتها لعضوية مجلس الشيوخ، بيت كان سيجري تمويل شرائه، في البداية، بمساعدة أَحد جامعي التبرعات الرئيسيين لصالح حملتها الانتخابية. جاء كلنتون من ولاية صغيرة، فقيرة ذات وزن سياسي هامشي، كما كان نتاج حزب ديمقراطي غِر، منقسم، غير أَن مواهبه السياسيَّة الطبيعية كانت شبه نقية. ما من أَحد كان يستطيع أَن يتفوق عليه في القدرة علىٰ فهم الجمهور، أَي جمهور، وعلىٰ تلمس ما كان الناس فيه يحسون به ويريدونه. لم يكن يتعين علىٰ ريگان إلاَّ أَن يكون ريگان، دافئاً، مرحاً وواثقاً، فينجذب الجمهور إِليه؛ أَمَّا كلنتون فقد كان مستنداً إِلىٰ قاعدة أضعف مما جعله مضطراً لإِحداث التعديلات في سبيل التكيّف مع كل حشد وجماعة.

كان كلنتون مدمن استطلاعات رأي، وكانت إدارته سترفع من مستوى حساسيتها إزاءها. ففي إحدى المراحل، كان استطلاع الرأي يتم حول المكان الذي سيمضي فيه الرئيس وزوجه هذه الإجازة الصيفية، وتكون ولاية ويومينگ هي الفائزة. كانت البلاد ستصبح مولعة، علىٰ ما بدا، برؤية صوره مرتدياً ملابس شعبية وقمصان وسترن مخططة أزرارها العلوية غير مقفلة. غير أن لاقطاته الاستشعارية كانت في الحقيقة بالغة الجودة، وإحساسه بالبلاد وبمزاجها كان بالغ الصدق، حتى أنه لم يكن بحاجة إلىٰ استطلاعات الرأي ربما إلاّ من أجل تأكيد ما كان يعرفه سلفاً. كان ناجحاً جداً في الميدان، متواصلاً مع الناخبين، ملتقياً بهم ومقدماً الإجابات علىٰ أسئلتهم وطالباً منهم أن يردوا علىٰ أسئلته هو. كان متمتعاً بنزعة إنسانية جوهرية عميقة متحفزة دائماً للبروز علىٰ السطح، نَزْعة إنسانية إنجيلية وفكرية في الوقت نفسه بالمناسبة. أمّا لدى دخول قاعة ملأى بمجموعة من الأكاديميين ومحترفي السياسة ـ حَمَلة شعار: «الإدارة عمل جدي وليست لهواً بأي من الأحوال ـ فكان، علىٰ العكس، يغدو فوراً أكثر جفافاً وأسْتَذة»، جاعلاً مزاجه يواكب أمزجتهم. لذا لم يكن المرء يستطيع أن يتنبأ متى سيكون كلنتون في أعلىٰ درجات مرحه وانشراحه، ومتى سيعود مبهراً يزيغ الأبصار. مرة في لقاء مفتوح خلال الانتخابات التمهيدية بنيوهامپشاير سنة 1992م، طرح أحد الناخبين سؤالاً عما كان بوش يعنيه حين كان يقول «رؤيا» بشكل غامض. علىٰ الرغم من أن كلنتون كان مرهقاً هدّه التعب في تلك الليلة، فإنه سارع إلىٰ الانقضاض علىٰ السؤال ووظفه بصورة بالغة البراعة قائلاً: «أرجو ألا تربي طفلاً دون نوع من الرؤيا. من شأن الحياة أن تكون كئيبة وفارغة في غياب مثل هذه الرؤيا أو البصيرة».

كانت قدرة كلنتون الفطرية ـ الغريزية علىٰ التقاط الأمزجة المتغيرة للناس خارقة. فكرئيس للجمهوريّة كان قادراً، كما بدا، علىٰ الاستيقاظ صباحاً، علىٰ

القيام بجولة مشي حول البيت الأَبيض، وعلىٰ معرفة المزاج العام في البلاد لدى عودته لتناول القهوة، بعد أَن يكون قد أجرى، عملياً، استطلاعه الخاص للرأي. فقد قال أَحد كبار أعضاء الإِدارة الذين كانوا مقربين منه عبر السنوات: «يرى نفسه طبيباً والبلد مريضاً عنده، مريضاً يعاني من الاختلال بين الحين والآخر، ويشعر كلنتون بأنّه يعرف مزاج المريض ودرجة حرارته معرفة لا حدود لها في جميع الأوقات. وهو يؤمن بأنّه يعرف ما ينبغي وصفه من علاج في الأوقات كلها ـ وما لا يجوز وصفه». من الغريب أَن هذا الكلام الصادر عن أَحد مساعدي كلنتون المقرَّبين جاء متقاطعاً مع شيء قاله مستشار بوش للأَمن القومي، برنت سكوكروفت، مرة عن كلنتون وعن كثرة انشغاله بنبض الشعب الأَمريكي: «يتعين علىٰ رئيس الجمهوريَّة أَن يفعل ما هو أَكثر من مجرد جسّ نبض الشعب، وهو ما يقوم به كلنتون بقدر كبير من المهارة. عليه أَن يقود أَيضاً».

كانت إِحدى أهم السمات ذات الأَهميَّة البالغة لبيل كلنتون متمثلة بقُدْرته ـ حاجته في الحقيقة ـ علىٰ كسب الناس. فأولئك الذين تابعوا مسيرته علىٰ امتداد فترة طويلة من الزمن، تعود إِلىٰ فتوته في آركنسو، يعتقدون أن تلك كانت حصيلة البيت المضطرب الذي نشأ فيه. مرحَّباً به علىٰ صعيد الذكاء والنبوغ، ولكن ليس من حيث الوضع الاجتماعي والثروة، كان بحاجة للتأثير علىٰ جميع مَنْ حوله من معلمين، رؤساء عصابات، وزملاء، وكسبهم إِلىٰ صفه، ليثبت أنّه ليس أقل من الآخرين. كان الأَمر، أمر كسب المترددين، أشبه بالإِلزام والضرورة. وقد ظن عدد من الصحفيين الذين كانوا قد غطوا حياته عبر السنين أنّه كان أَكثر اهتماماً بالمراسلين الباقين خارج دائرة نفوذه منه بأولئك الدائبين علىٰ السعي لنيل رضاه. وكما سبق لبوب رايش، أَحد أقدم أصدقائه ووزير العمل في إِدارته لبعض الوقت، أَن لاحظ مرة، فإِن من شأنه أَن يخفض من مرتبتك إِذا كنت في إِدارته وتكثر من الاتصال به. أَمَّا إِذا أحجمت عن

الاتصال به لبعض الوقت، فقد كان من المحتمل أن يقلق فيبادر إلىٰ الاتصال بك[1].

أحياناً بدت مهاراته السياسيَّة أكبر مما ينبغي. فبسبب ولعه بإرضاء الجماعات المتباينة وخطب ودِّها، كان، بين الوقت والآخر، يميل إلىٰ اعتماد لغة خطابية تتجاوز قدرته علىٰ الإيصال؛ لم يكن يكتفي بسحر الناس، بل كان يبالغ في أسرهم بسحره. كثرة ممن استمعوا إليه سلَّمت بأنه السياسي الوحيد المتفق مع آرائها، الإنسان الذي طالما دأبت علىٰ البحث عنه طوال حياتها. غير أنّه كثيراً ما خيّب آمال الناس الذين كانوا ذات يوم شديدي الإيمان به بالذات. إلاَّ أَن أولئك الذين كانوا يدافعون عنه في مواجهة مثل هذا الانتقاد ظلّوا يقولون إنَّه أفضل ما يمكن الحصول عليه، نظراً لطبيعة الأجواء السياسيَّة في البلاد عند نهاية القرن، مهما كانت عيوبه. ربما كان كلام هؤلاء صحيحاً، غير أنَّه لم يؤد إلىٰ التخفيف من خيبة أملهم.

لدى صعود كلنتون إلىٰ مواقع السلطة كان الحزب الديمقراطي مجرد أقلية إلىٰ حد كبير علىٰ الصعيد القومي، فالقوى التي كانت قد دفعته إلىٰ وضعية الهيمنة الطويلة في الأزمان الغابرة منذ الثلاثينيات مروراً بالخمسينيات كانت قد تهافتت منذ أمد طويل. لم يكن للحزب بحد ذاته أي مركز حقيقي؛ لم يكن يصبح ذا مركز إلاَّ حين يصبح شخص موهوب مثل كلنتون، بإحساسه الذي لا يخطئ بالمكان الذي ينبغي للمركز أن يحتله وبكيفية تحقيق التوازن بين سائر القوى المتصارعة، زعيماً له، وقد كان أيضاً متزايد الافتقار إلىٰ المشروع العريض، بعد أن بات متخلفاً عن جملة التغييرات التاريخية والتكنولوجية العميقة وغارقاً في مستنقع من الصراعات الداخليَّة المريرة بين الإخوة والأشقاء. لقد تعرّضت الطبقة العاملة، وقد كانت قوة مسيطرة قومياً ذات يوم،

---

(1) مقابلة مع رايش.

لقَدْر خطير من التدهور بسبب التحول الحاسم من اقتصاد عمالة الياقات الزرقاء إلىٰ عمالة الياقات البيضاء، هجرة فرص عمل الياقات الزرقاء إلىٰ ما وراء البحار، ومجيء ورشة عمل حديثة قائمة علىٰ تكنولوجيا عالية. كان العمال، علىٰ العموم، أقوى داخل الحزب منهم في الأمّة.

تمثّلت إحدى القوى التي جابهت كلنتون وأي سياسي ديمقراطي في العقود الأخيرة من القرن العشرين بالوفرة الصارخة لأَمريكا والنجاح طويل الأمد غير المسبوق لاقتصادها في فترة ما بعد الحرب. فأَمريكا، خصوصاً أَمريكا **البيضاء**، كانت، علىٰ جميع الأصعدة الدولية المقارنة، بلاداً بالغة الغنى وشديدة المحافظة بالتالي، مما جعلها أَكثر صعوبة علىٰ أَي حزب يكون ذا جذور يسارية ولو هامشياً. فالنزعة الليبرالية التي كانت قد تحقّقت خلال فترة السنوات الثلاثين لبرنامجي الصفقة الجديدة New Deal، والصفقة العادلة Fair Deal، حين كان ملايين الأَمريكيين مسحوقين اقتصادياً بقوى غير خاضعة لتحكمهم وشاكرين للمساعدات والإِعانات المبرمجة بفضل رعاية الحكومة الاتحادية، كانت قد وَهَنَتْ كثيراً في فترة ازدهار بدا غير محدود كانت طويلة جداً. وما اعتبره الأَمريكيون فترة ركود وجيزة بدت عصر ازدهار بالنسبة إلىٰ أَكثر الأجانب. فبدءاً بالخمسينيّات والستينيّات، وفي طول البلاد وعرضها، لأَن الظاهرة نادراً ما كانت إِقليمية، كان أبناء جيل الصفقة الجديدة من البيض قد أَصبحوا، تدريجياً، أَكثر غنى، وانتقلوا إِلىٰ الضواحي، وكانوا قد تحوّلوا إِلىٰ محافظين أَكثر علىٰ الصعيدين الثقافي والاقتصادي. باتوا، مع الزّمن، يعتبرون أنفسهم مستقلين ويصوّتون، في الغالب، لصالح الحزب الجمهوري.

كذلك لم يقف هذا التغيير عند الأَمريكيين الذين كانوا يتمتعون بما يكفي من الحظ والثروة للذهاب إِلىٰ الجامعة، وقادرين بالتالي علىٰ القفز إِلىٰ صف أَو طبقة أعلىٰ. لقد شمل الأَمريكيين ذوي الياقات الزرقاء أَيضاً، شمل العمال الذين كانوا يوماً يصوّتون كتلة موحّدة لصالح الحزب الديمقراطي، غير أَنّهم راحوا الآن ينفضون أيديهم من الحزب. هذا وكان تحالف الديمقراطيين مع

زنوج المدن، وهو زواج لم يكن سهلاً في أي وقت، قد بدأ ينهار أواسط الستينيّات وأواخرها. فيما مضى، في الثلاثينيّات، الأربعينيّات، والخمسينيّات، حين كان الطرفان غريبين يحاولان أن يشقا طريقهما صعوداً علىٰ السلم الأَمريكي، كانا يتقاسمان شعور النفور نفسه من نخبة الأعمال الحاكمة وحليفين في علاقة متوترة ربما كانت أفضل علىٰ الورق منها في الواقع. أمّا مع حلول عقد السبعينيّات فقد بات البيض من ذوي الياقات البيضاء محققين ما يكفي من النجاح ليشعروا بأنهم وصلوا إلىٰ الهدف، وبأن الهوة الفاصلة بين تطلعاتهم من جهة وأحلام الزنوج من الجهة المقابلة قد اتسعت. ظل البيض من ذوي الياقات الزرقاء شديدي الامتعاض من أية محاولات حكومية جديدة هادفة إلىٰ تعديل التوازن المجتمعي لصالح الزنوج، مثل حق ركوب الحافلات للجميع وتوفير الفرص المتكافئة تنفيذاً لقرارات المحكمة. كانت جملة الأجهزة السياسيَّة في المدن الكبرى التي كانت ذات يوم قادرة علىٰ تمكين الديمقراطيين ليس فقط من التحكّم بالمراكز الحضرية في عدد من الولايات الصناعية الكبرى، بل ومن كسب تلك الولايات في الانتخابات العامة، قد غدت ظلالاً باهتة لوقائعها السابقة. كان هروب البيض من المدن قد تصاعد، مكوّناً سلسلة من الرُّقَع المحافظة الجديدة في الضواحي.

فيما يخص قضايا السياسة الخارجيَّة بقي الحزب الديمقراطي مثقلاً بأوزار ڤيتنام. ثمة رئيسان ديمقراطيان، كنيدي وجونسون، كانا اثنين من المصممين الرئيسيين لعمليَّة التصعيد المشؤومة، وإن جاء الجزء الأكبر من الاحتجاج المعادي للحرب من الجناح الليبرالي ـ اليساري في الحزب، جنباً إلىٰ جنب مع بعض الجمهوريين المعتدلين من جناح الوَسَط. تلك كانت صورة نموذجية لعائلة في صراع خطير مع نفسها. كان الحزب الجمهوري قد نأى بنفسه عن القضية إلىٰ حد كبير. ففي 1968م، وهي سنة مفصلية في حياة أَمريكا، كانت التوترات حول ڤيتنام قد تمخضت ليس فقط عن تصارع اثنتين من قوى الحزب

الديمقراطي الكبرى، قوة الصقور الأَكثر محافظة وقوة الحمائم الأَكثر ليبرالية، بل وعن قيام وحدات الشرطة الممثّلة لآخر الأجهزة السياسيَّة الخاصة بالمدن الكبرى، تلك التابعة لريتشارد دالي، بالانقضاض علىٰ المتظاهرين الشباب المطالبين بالسلام (تماماً كما كان زعماء المظاهرة ومنظموها يريدون) في مؤتمر كارثيّ عقد في شيكاگو. كان هذا هو المؤتمر المدعو أساساً لإعادة ترشيح الرئيس المحتل للمنصب. أَمَّا الآن فكان نائبه ينوب عنه، مع بقاء كبار أنصاره السياسيين مختلفين بحدة مع أنصار الرئيس حول درجة الافتراق المسموحة في لحظة حاسمة كهذه. لم يخرج المواطنون المتابعون لما كان يعرض علىٰ شاشات التلفزة من بيوتهم إِلاَّ بدرس واحد من بشاعة شيكاگو: أَدْرَكوا أَن الديمقراطيين فقدوا السيطرة علىٰ المؤتمر والبلد. كانت ڤيتنام قد أقحمت الحزب في حرب مع نفسه. قال المعلّق الليبرالي مارك شيلدز بدا كما لو أَن مباراة عنيفة جداً بكرة القدم كانت تجري. كان أَحد الفريقين بقيادة ليندون جونسون ومعه مؤيدو الحرب، وكان الثاني فريقاً بقيادة بوبي كندي، جين ماكارثي، جورج ماكگڤرن، مع ديمقراطيين آخرين مصنفين. أَمَّا في الأروقة والكواليس والمنصّات فكان ثمة آلاف مؤلّفة من المؤيدين المهللين الغارقين في نشوة الفرح ـ وكلهم جمهوريون[2].

تلك الجروح داخل الحزب لم تكن قد اندملت بصورة كاملة قط. فالهدوء الذي كان قد نشأ بين الجناحين الرئيسيين عبر السنين لم يكن سلماً بمقدار ما كان هدنة مغطاة بقشرة رقيقة؛ وما لبثا، في الحقيقة، أَن اهتديا بسرعة إِلىٰ قضايا أُخرى يتحدَّى بها كل منهما الآخر. لفترة وجيزة من الوقت ظهر بصيص أمل في أَن يصبح الحزب حزب كندي، لأَن آل كندي بدوا متمتعين بما يكفي من الحزم للتعامل مع القوى السياسيَّة القديمة من جهة، ولكنهم، من الجهة الثانية، متحلّون بما يكفي من الحساسية اللازمة للتعامل مع القوى

(2) مقابلة مع شيلدز.

الجديدة التي باتت فاعلة، ومع القدرة علىٰ عقد تحالف هش ولَّى زمانه إِلىٰ حد كبير بين الطرفين. غير أَن روبرت كندي ما لبث أَن اغتيل قبل مؤتمر 1968م، كما أَن إِدوارد كندي سقط عن أَحد الجسور علىٰ نهر تشاپاكويديك مع إِحدى الفتيات العاملات في الجهاز التي ماتت معه غرقاً. ومع حادث السير آنف الذكر تلاشى الحلم المعقود علىٰ ظهور حزب كندي، وقد كان حلماً متزايد الهزال باطراد.

ظلت التوترات، خصوصاً في السياسة الخارجيَّة، باقية. تمخضت ڤيتنام عن انقسامات أُخرى، بين الصقور والحمائم مرة أُخرى، حول سلسلة طويلة من القضايا الخارجيَّة والدفاعية. فبعض فرسان السياسة الخارجيَّة راحوا، جراء انزعاجهم مما اعتبروه توجهاً حمائمياً لدى الحزب، يهاجرون إِلىٰ الحزب الجمهوري، حزب الـ GOP [الحزب العظيم القديم The Grand Old Party]، خلال عقدي السبعينيّات والثمانينيّات. أَمَّا القابلية القديمة لاجتراح نوع من الحل الوسط والتوافق علىٰ ما يشبه سياسة وَسَطية فلم تعد موجودة، علىٰ ما يبدو، في عصر التلفاز الجديد، الميال إِلىٰ تكوين دوائر أحادية القضايا. وهو عصر كان أَيضاً يكوّن ذوات متورمة بين قادة جماعة هذه القضية الواحدة أَو تلك، مع قَدْر متضائل باطراد للقدرة علىٰ المساومة والتوافق.

أقدم عدد كبير من ديمقراطيي الخط القديم علىٰ ترك حزبهم في الثمانينيّات ليتحوّلوا إِلىٰ ديمقراطيين ريگانيين. كانت ديمقراطيَّة سابقة، تدعى جين كيركپاتريك، ناطقة باسم هؤلاء المنشقّين في مؤتمر 1984م للحزب الجمهوري. وقد تحدَّثت في المؤتمر بصوت يقطر احتقاراً عن «ديمقراطيي سان فرانسيسكو»، وكأنهم حزب الفاسدين، المخنَّثين، والمعادين لأَمريكا. كان ذلك هو المؤتمر الذي كان قد رشح والتر مونديل، وكان، برأيها، قد قطع كل صلة له بتيار أَمريكا الرئيسي. نجح رونالد ريگان في إِلحاق الهزيمة بديمقراطيي سان فرانسيسكو بأكبر فارق كاسح في الانتخابات الرئاسية

الأَمريكيَّة، في حادثة كانت ستشكّل إِحدى الهزائم الكبرى في تاريخ الحزب الديمقراطي الحديث (لم يفز مونديل إلاّ في ولايته مينسوتا)، كان التحالف السياسي، الاجتماعي، والاقتصادي الجديد لفترة ما بعد الصفقة الجديدة في أَمريكا، قد اكتمل، عند تولي ريگان لفترة رئاسته الثانية. وعند حلول سنة 1992م لم يكن الديمقراطيون قد حكموا البلاد إلاّ لفترة أربع سنوات من السنوات الأربع والعشرين الماضية.

في حملة 1992م شقَّ بيل كلنتون طريقه عبر حُطام حزبه المشلول جزئياً ببراعة فريدة. بدا كما لو كان، وهو الخارج من بيت مختل تحت وصاية زوج أم سكّير، قد تمكّن، منذ زمن طويل، من إِتقان فن تبديد التوترات في أية أسرة مأزومة ومعطّلة ـ كحال الديمقراطيين بالتأكيد. في كل لحظة كان يعرف إِلىٰ أَي مدى ينبغي للمرء أَن يكون جريئاً وإِلىٰ أَي مدى يجب عليه أَن يتحلّى بالحذر، ومدى ضخامة الخطوة التي يتعيّن عليه خطوها، ومتى يبقى في مكانه. كان يتقن فنّ إِغواء الأجنحة الأَكثر يسارية بلغة خطابية جاذبة حين يريد، وكيف يتصدَّى للقضايا الشائكة حين يكون ذلك ضرورياً. كان يعرف كيف يسحر، كيف يضلّل، وكيف يتملّق. كان ماهراً مهارة استثنائية في توظيف دعمه إِن لم يكن دعمه بالذات. كان يعرف كيف يخيب أمل من دعموه عند اللزوم، وهذه ليست موهبة قليلة. وكان أَيضاً يعرف كيف يلعب ورقته الفضلى الأخيرة، فكرة أَن من شأن الديمقراطيين، إِذا امتنعوا عن السير في ركابه، أَن يحصلوا علىٰ ما هو أسوأ بكثير من الانتقال إِلىٰ الضفة الأُخرى.

كان كلنتون قائداً للديمقراطيين الجُدد، لجناح من الحزب رفض أَن يوصم بالمبالغة في الليبرالية، جناح دائب علىٰ الانتقال إِلىٰ الوَسَط السياسي القومي. خلافاً لحال الكثير من الديمقراطيين كان قد أَيَّد حرب الخليج. كان أَكثر استعداداً من جُلّ الليبراليين الذين كانوا قبله للكلام صراحة عن قضايا معينة مثل الجريمة، قضايا بقيت إِلىٰ ذلك الحين حكراً علىٰ الجمهوريين، كما لو أَن

الديمقراطيين كانوا من أنصار الجريمة، بطريقة أَو أُخرى. كان يُعتَبر متحمساً في العمل ضد العنصرية، غير أنّه كان، كحاكم لولاية آركنسو، قد قبل بعقوبة الإِعدام، إِحدى القضايا الملتهبة والحسَّاسة في الحياة الأَمريكيَّة. كان قد أذهل وزرع الرعب في قلوب الكثير من غلاة الليبراليين حين رفض، كحاكم ولاية وكمرشح رئاسي في 1992م، وقف إِعدام قاتل معاق، رجل يدعى ريكي ري ركتور، كان مختل العقل، طلب من السجّان، حين عرض عليه الوجبة الأخيرة، أَن يحفظ له حلوى فطيرة البيكان پاي حتى يستطيع تناولها بعد عودته مما اعتبره مجرد «مشوار» صغير. كان ذلك قراراً من النوع الذي كان من شأن كلنتون الشاب وزوجه، بُعَيْد وصولهما إِلىٰ آركنسو، أَن يقفا ضدّه؛ من الواضح أَن الإِقدام علىٰ اتخاذ مثل هذا القرار كان أمراً مفزعاً، غير أَن الإِخفاق في ذلك كان من شأنه أَن يعرّضه لمختلف أنواع الاتهامات والإِدانات في قضية باتت، علىٰ ما بدا، خارج دائرة الجدل والنقاش العقلانيين منذ زمن طويل.

كان كلنتون واقفاً باستمرار علىٰ حقيقة أَن من شأن اتخاذ الخطوات الضرورية لتلبية حاجات ناخبي آركنسو الأَكثر محافظة أَن يلحق به الضرر علىٰ المستوى القومي. ففي إِحدى المرَّات قال لصديقه الحميم توم كين، حاكم ولاية شعبي وجذَّاب آخر، جمهوري ليبرالي، ووَسَطي مثله، إِنهما يستطيعان الفوز في أَي انتخاب عام، ولكن مشكلتهما ستبقى كامنة في الحصول علىٰ الترشيح. وقد رأى أَن كين كان أَكثر ليبرالية من أَن يحصل علىٰ ترشيح حزبه، وكان هو، أَكثر محافظة من أَن يفوز بترشيح الحزب الديمقراطي.

كان كلنتون يشع ليس ذكاء وشباباً فقط بل وإِنسانية عميقة؛ لم يَبْد مُحنَّطاً أَو بلا ألوان، بل كان، بالأحرى، يبدو متحلياً بصفة الالتزام والاهتمام أَكثر من أية صفة أُخرى. كانت تلك واضحة من بداية حملته، من إِحساسه العميق بأوضاع الناس العاديين، قدرته علىٰ التماهي معهم، علىٰ الإِصغاء إِلىٰ مشكلاتهم، وعلىٰ التعاطف معهم. تمثَّل شعار حملته للترشيح والرئاسة بعبارة

«أحسّ بألمكم!». فبعد ثماني سنوات ونيف، وقد انتهت فترة رئاسته نشرت **النيو ـ يوركر** صورة كاريكاتورية لزوجين، يفترض أنّهما يتابعان حفل التنصيب علىٰ التلفاز، يسأل أحدهما الآخر ما إذا كانا قد أَصبحا، وقد تبدل الحرس، ملزمين باستئناف الإِحساس بآلامهما الخاصة. كان جيش من الإِعلاميين المفعمين بقدر متزايد من الشك علىٰ امتداد السنين سيبدأ يفكر بكلنتون علىٰ أنَّه من أَكثر الناس تعاطفاً مع الآخرين وإِحساساً بأوضاعهم علىٰ الصعيد القومي، مؤمناً بأنّه كان، في تعامله مع المشكلات الاجتماعيَّة، كثير العواطف وقليل الحلول. غير أنّه كان بالغ المهارة في ذلك كله مما لا يدع مجالاً للزيف والمناورة، فضلاً عن أَن جزءاً كبيراً منه كان صادقاً وأصيلاً.

متابعاً إِيَّاه وهو يشق طريقه في زحمة مختلف أنواع الحشود، ممعناً النظر فيما يمكن اعتباره ذلك الشيء الذي يطلق عليه اسم التقمّص العاطفي، كان مستشار ريگان السياسي السابق، إِد رولنز، قد باح بنبوءة ذات معنى عن الانقلاب المسرحي الحاصل في الثقافة الأَمريكيَّة خلال السنوات الاثنتي عشرة الماضية منذ انتخاب ريگان الأول. وذلك الانقلاب المدفوع بجملة القوى التكنولوجية، الاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة المختلفة بات الآن منعكساً علىٰ صفحة السياسة الأَمريكيَّة. كان ريگان، باعتقاد رولنز، التجلي السياسي الأخير للثقافة الشعبيَّة السَّائدة في أيَّامه، تلك المستمدّة، في المقام الأول، من أيَّام أفلام جون واين، جيمي ستيوارت، وگاري كوپر كانت الصورة الذاتية الأَمريكيَّة تستدعي وجود رجل واحد يقبل التحدي ويقدم علىٰ فعل ما هو صحيح، بصرف النظر عما إِذا كان ذلك شعبياً أم لا. وتلك الصورة الذاتية ظلّت مريحة ومطمئنة خلال الفترات الأسوأ من الحرب الباردة؛ قد لا يكون صحيحاً، ولكن النَّاس في الغرب درجوا علىٰ تبنّي الأسطورة، حين يظهر أَي تباين بين الحقيقة والأسطورة. أَمَّا كلنتون فقد كان، علىٰ النقيض من ذلك، الامتداد السياسي لثقافة شعبية جديدة، عصر تلڤاز التقمّص العاطفي، متمثّلاً بأوپرا ونفري،

بالحاجة إِلىٰ الإِحساس بنوع من الاطمئنان والراحة في عالم صعب، متقلّب عاطفياً، حيث التهديد الأكبر متمثّل لا بالرؤوس النوويَّة لدى إِحدى القوى الأجنبية، أَو بأزمات اقتصاديَّة قاسية، بل بالعفاريت والشياطين الداخليَّة التي تفرزها أية طفولة شقية لا تعرف معنى السعادة. وبالفعل فإِن كلنتون نفسه كان أستاذاً في التحدّث أمام الجماعات المختلفة عن أنّه كان، في شبابه، مثقلاً بالهموم وبائساً ولم يكن ذا شعبية. كانت تلك، كما قال رولنز، شخصية **اليتيم** في مسرحية السياسة الرئاسية(3)، وتجلياً لحقيقة أَن البلد لم يعد شاعراً بأي تهديد من جانب أعداء خارجيين.

خلال جولة مناقشات بوش ـ كلنتون ـ پيرو الثانية، قامت شابة زنجية بسؤال المرشحين الثلاثة عن مدى تأثّرهم بالاقتصاد الراكد والسقيم. جاءت ردود أفعال الرجال الثلاثة بالغة الإِثارة وفاضحة بصورة غير عادية. تحدَّث پيرو عن تخلّيه عن حياته الخاصة ليتولّى الإِدارة، في تضحية لم يعتبرها إِلاَّ القليل من المستمعين تضحية. تلعثم بوش كثيراً، شديد الارتباك أمام السؤال بالذات، إِذْ لم يقل سوى «لست متأكداً من أنني التقطت السؤال». أَمَّا كلنتون فقد انقض علىٰ السؤال بالطبع وتمسّك به. مشى بضع خطوات باتجاه الشابة وراح يروي قصة تجاربه الشخصية كحاكم لولاية صغيرة في زمن عصيب، وقصة الناس الذين تضرَّرت حياتهم جراء الضعف الذي يعاني منه الاقتصاد. كاد يعانق السيدة الشابة؛ كان أَلَمُها قد تحوّل إِلىٰ ألم يخصه هو ويعذبه. كانت لحظة لا تُنسى حقاً، لحظة تشي بانقلاب أجيال عميق في السياسة الأَمريكيَّة. كان جيمس كارڤيل واثقاً من أَن تلك هي اللحظة التي خسر فيها بوش معركة الرئاسة.

يبقى الساسة الجيّدون والناجحون جريئين علىٰ الدوام، وتمكّن كلنتون،

---

(3) مقابلة مع رولنز.

بفضل جرأته، من التقاط العامَ النموذجي والمثالي لسباقه الرئاسي. فسنة 1992م كان سنة انعطافياً بسبب انتهاء الحرب الباردة في المقام الأول. في البداية لم ينتبه أَحد إِلىٰ الأَمر، غير أنّه ما لبث، مع تكشف الحملة، في التمهيديات أولاً وفي الانتخاب العام بعد ذلك، أَن بات واضحاً أَن حقبة من أحقاب السياسة الأَمريكيَّة كانت قد ولّت، وأن حقبة أُخرى، ولو بأَكثر الأشكال أولية، كانت موشكة علىٰ البدء. ففي سنة 1992م كان آخر الأمناء العامين السوڤييت، گورباتشيڤ، قد تعرّض ليس فقط لخلع الأنياب، إِذْ أخفقت محاولته الرامية إِلىٰ إِعادة الحياة لإِمبراطورية محتضرة، بل وكانت قد تمّت إِزاحته عن السلطة. وجرى استبداله برئيس الجمهوريَّة **الروسي** الأَول في حقبة ما بعد الحرب.

بالطبع لم يكن عالم ما بعد الحرب الباردة شيئاً ظهر فجأة في سنة 1989م مع سقوط جدار برلين؛ قد ظل يتشكّل تراكمياً علىٰ امتداد ما يقرب من سبع وعشرين سنة، ربما منذ المنعطف العابر للتوترات الناشئة عن أزمة الصواريخ الكوبية في تشرين أول/ أكتوبر 1962م. فالقوتان العظميان كانتا ما تزالان تنظران إِحداهما إِلىٰ الأُخرى بقَدْر كبير من العداء. غير أَن الرعب الشديد المتولّد عن الطرف الآخر كان قد خفّ قليلاً لبعض الوقت في أذهان الناس العاديين. كان الناس قد بدؤوا يقبلون بالعيش في عالم نووي قائم علىٰ قطبين، عالم بات يشهد محاولات منهجية، بطيئة، ولو علىٰ مضض أحياناً، لتقليص الأَسلحة. ومع حلول أواخر الثمانينيّات، لم يعد الخطر النووي، ببساطة، كما سبق له أَن كان من قبل. ربما كانت الحرب الباردة، مدفوعة في مراحلها الأخيرة بمؤسسات بالغة الجبروت في واشنطن، قد بقيت جزءاً مهماً من نسيج الحياة في الكونگرس أَكثر منها علىٰ الصعيد القومي، خصوصاً بين أبناء الجيل الأَكثر شباباً.

بات الجيل الذي كان قد خاض الحرب العالميَّة الثانية أكبر سناً. كان الممثل الأَول لذلك الجيل الذي كان قد شارك علىٰ صعيد ميادين القتال

الميداني ـ كان أيزنهاور قائداً ـ الذي تولّى الرئاسة، جاك كندي، وهو رجل كان قد بدا عند انتخابه أصغر سناً من أن يصبح رئيساً للجمهوريَّة، سيبلغ الخامسة والسبعين في 1992م، لو بقي علىٰ قيد الحياة. لقد زاد عدد أبناء ذلك الجيل تضاؤلاً وتحولاً، بصورة مطردة، إلىٰ أقلية علىٰ الصعيد السياسي، وربما علىٰ مستوى قِيَمهم أيضاً. فتلك القِيَم المتشكِّلة بفعل ثقافة شعبية منتمية إلىٰ ما قبل التلفزيون، خارجة من أرحام أزمة الكساد الكبرى، الحرب العالميَّة الثانية، وافتقار عام إلىٰ الوَفْرة، كانت متمثّلة بالتضحية، الواجب، والتواضع الشخصي، التي كثيراً ما بدت بالية ولى زمانها في أَمريكا المعاصرة. لم تعد الخدمة العسكريَّة إلزامية. لم يكن المرشحون السياسيُّون مطالبين بأن يكونوا أبطال حروب؛ بل ولم يكونوا ملزمين بأن يكونوا قد ارتدوا الزي العسكري.

ربما كان تعريف النزعة الوطنية قد تغيَّر إلىٰ غير رجعة في اليوم الذي شهد إلقاء القنبلة الذرّيَّة الأولى علىٰ هيروشيما، وفي الفترة التالية التي بدأت الولايات المتحدة خلالها بحيازة قُدرات ضربة أولى هائلة ـ الطائرات الاستراتيجية، الصواريخ العابرة للقارات، الرؤوس النووية. والنزعة الوطنية، بأنقى معانيها، التي سبق لها أَن قدَّمت خدمات جليلة للوطن أَيام پيرل هاربر، لم تكن إلاَّ الاندفاع، الأبي والمباشر في الوقت نفسه، للدفاع عن الوطن ضد العدوان. لم تكن بالضرورة الاندفاعَ لقطع آلاف الأميال في سبيل خدمة قضايا غامضة في بلدان لم تشهد أَي عبور للحدود من جانب أَي جيش غاز، وحيث كانت القوى المتصارعة لا محلية فقط بل وربما فقيرة وبائسة، لمقاتلة أناس لا يشكِّلون أَي تهديد للولايات المتحدة. باتت النزعة الوطنية مفهوماً أَكثر تعقيداً في عصر الحروب السياسيَّة البعيدة. هل كان مطلوباً من أَي مواطن عادي أَن يبقى متحلياً بالنزعة الوطنية في الحاضر كما في الماضي إذا كانت دولته مالكة لترسانة نووية هائلة وجيش محترف متطوّع كلياً؟

كانت حرب ڤيتنام، قد مزَّقت البلاد، أحبطتها، ووصمتها بالعار، غير

أنَّها لم تشكِّل قط أيَ تهديد لها. لم يكن ثمة أَي خطر احتمال قيام قوات ڤيتنامية شمالية أَو ڤيتكونگ بالنزول علىٰ شواطئ سان فرانسيسكو واجتياح المنطقة وصولاً إِلىٰ احتلال لوس آنجلوس (رغم أَن عدداً كبيراً، وكبيراً جداً، من الناس في صف اليمين المتطرّف ربما كانوا قد فرحوا كثيراً لو حصل). ومع شروع الحرب الباردة بالابتعاد من قلب أوروپا والتحوّل إِلىٰ أماكن بعيدة في العالم الثالث، حيث بادر وكلاء القوتين العظميين بالاحتشاد بعضهم ضد البعض الآخر، فإِن النزعة الوطنية باتت، في الحقيقة، أقل اتصافاً بالمباشرة مقارنة مع حالها في الماضي. وأي شاب أَمريكي كان مرشحاً للانشغال للقتال في سبيل إِنقاذ طغمة محلية مقيتة والتسبّب في إِبراز إِحدى الدمى الملتبسة بدلاً من النضال في سبيل حماية بلدته في ولاية إِيوا.

تعرّض أَحد أسرار الأمة الأقل جاذبية وهو سر لم يكن سراً في الحقيقة، للافتضاح التدريجي في هذا الموسم: إِنَّه السر المكشوف المتمثِّل بأن المتعلمين، الموهوبين، وأصحاب الامتيازات لم يكونوا، بصورة عامة، قد خدموا في ڤيتنام. لم يخدم بعضهم، مثل كلنتون، لأنهم كانوا يعارضون الحرب، غير أَن آخرين بدوا مؤيدين للحرب لم يتنازلوا للذهاب إِلىٰ هناك لأَسباب أُخرى. ربما كان نيوت گنگريتش، وهو نجم صاعد في الكونگرس صقراً الآن، غير أَن الحقيقة هي أنّه فضَّل ألاّ يخدم في ڤيتنام، حاصلاً، بدلاً من ذلك، علىٰ سلسلة من التأجيلات الدراسية. أَمَّا ترنت لوت، وهو نجم صاعد من الجناح الجنوبي للحزب الجمهوري، بات موشكاً علىٰ أَن يصبح زعيم الأَكثرية في مجلس الشيوخ، رجل ذو علاقة قُربىٰ أيديولوجية بالحرب وكان في السن المناسبة جداً لخوضها، فقد تمكّن من الحصول علىٰ فرص التأجيل لأَسباب عائلية. استطاع دان كويل، نائب الرئيس بوش المقيم، وهو صاحب علاقات قوية في إِنديانا ـ حيث كان رئيس الحرس الوطني في إِنديانا رئيس تحرير ذا مستوى رفيع كان يعمل لصالح العائلة ـ أَن يجد لنفسه مكاناً آمناً

في حرس إِنديانا ونجح، دون أَي صراع داخلي أَو تأنيب ضمير، في التمسّك بآراء صَقْرية متشددة حول الحرب، في عمليَّة مزاوجة نادرة بين الحب والعزوف أَو التمنّع. ونادراً ما لفت الأنظار أَن ديك تشيني، وزير الدفاع الحالي، لم يخدم في ڤيتنام رغم أنه كان هو الآخر في السن المثالية للذهاب إِلىٰ هناك، وقد رد، بصورة شبه عابرة، علىٰ سؤال مراسل **الواشنطن پوست** جورج ولسن قائلاً: «كانت عندي في الستينيّات أولويات أُخرى غير الخدمة العسكريَّة»[4].

وبالفعل فإِن ذلك الاختلاف العميق بين جيلين علىٰ صعيد موقفيهما من تحديد معنى الحرب كان موجوداً داخل بيت الرئيس جورج بوش نفسه. فبوش الأب لم يستطع الانتظار حتى يتخرَّج طياراً بحرياً في الحرب العالميَّة الثانية. في حين كان نجله البكر جورج دبليو بوش، مثل الكثير من الشباب الميسورين ذوي الارتباطات القوية، علىٰ النقيض من أبيه، قد وجد ملاذاً في إِحدى وحدات الحرس الوطني الجوي، في مأَمن ولو نسبي من عاصفة أواسط الستينيّات. بكل بساطة، كانت ڤيتنام حرباً مختلفة جداً في زمن مختلف، حرباً أفرزت جملة شديدة التباين من المواقف بين صفوف الشباب المقدّر لهم أَن يصبحوا جزءاً من الطبقة القيادية. فأولئك الذين كانوا يتصارعون مع الإِشكالية الأخلاقية الكامنة في الخدمة لم يعودوا صغاراً مع حلول سنة 1992م. باتوا، مثل كلنتون، في العقد الخامس من أعمارهم، وكانوا قد استعرضوا سلسلة طويلة جداً من الشواهد الدالّة علىٰ أَن الحرب كانت خطيئة تاريخية كبرى. كانوا الآن جزءاً مهماً من الكتلة الانتخابية السياسيَّة ـ المركز السكاني، حسب جداول التأمين. وكان ذلك يعني وجود جيل ـ أَو حتى جيلين ـ من الأَمريكيين أصغر سناً حتى من المرشح كلنتون، بات الجدل حول ڤيتنام بالنسبة إِليهم شبيهاً، من حيث الانطواء علىٰ مغزى ومن حيث إِثارة الاهتمام المباشر،

(4) توم نواه، **اللوح**، 27/ 7/ 2000م.

بالحديث عن مدى إخفاق الجنرالات البريطانيين الذين كانوا بدّدوا قواتهم في الحرب العالميّة الأولى، عبر سوقها مرة بعد أُخرى إلىٰ عمليّات الانقضاض الواسعة علىٰ المدافع الرشاشة الألمانية.

ما لبث هذا التحوّل العميق من جيل إلىٰ آخر، وهذا التغير في القضايا بالتالي، أَن تجلى في الانتخابات التمهيدية. ففي نيوهامپشاير لم يتمكّن والي نبراسكا السابق، عضو مجلس الشيوخ الحالي، بوب كَري، المرشح الديمقراطي الذي كان مفضلاً فيما مضى ومستنداً إلىٰ سيرة حياة بدت رائعة على الورق، لم يتمكّن قط من الفوز. قبل نيوهامپشاير، كان الناس يعتقدون بأن كري هو جون كندي جديد في عقد التسعينيّات. بدا متألّقاً، ذكياً، لافتاً للأنظار وقوي الجاذبية، ساخراً متحلياً بروح الدعابة، مستحيل التكهن بما سيفعله ذا شعبية واسعة جداً لدى معشر الإعلاميين في واشنطن. لقد كان، كما بدا، بطل حرب حقيقي، ضابط بحرية SEAL فاز بوسام شرف الكونگرس علىٰ خدماته في ڤيتنام، حيث فقد إحدى ساقيه. كان قد فاز حاكماً لولاية محافظة لم تكن عادة تنتخب ديمقراطيين، كان رجل أعمال ناجحاً، وكان أعزب يواعد نجمة سينمائية جذّابة تدعى دبرا ونگر. أَو أنه، كما قال منافسه بيل كلنتون عنه بشيء من الغيرة في حديثه مع صديقته جنيفر فْلَوَرْزْ، وهو حديث قامت الأخيرة بتسجيله، كان «مالكاً لكل أموال گاري هارت/ هوليوود، ولأنَّه أعزب، ويشبه نجوم السينما، ففاز بوسام الشرف، ولأنَّه أعزب فإن أَحداً لا يهتم بما يفعله مع النساء هنا وهناك»[5].

كان المفترض سلفاً أَن يكون كري المرشح الديمقراطي النموذجي والمثالي لتمتعه بالقدرة علىٰ استعادة النزعة الوطنية التي طالما بقيت حكراً علىٰ الجمهوريين. فلو جرى ترشيحه لما عاد الجمهوريون، شأنهم في عدد من

(5) فلورز، 125.

الانتخابات، متمتعين، وحدهم، بحق إِعلاء راية الوطن. غير أَن كَري كان كارثة حقيقية في نيوهامپشاير. فقد أقدم الرجل علىٰ خوض المعركة لأَن عدداً من كبار الشخصيات السياسيَّة المخضرمة في واشنطن، بدوا أَكثر خبرة منه في هذا الأَمر، كانوا قد عاينوا مواصفاته وأبلغوه بأن عليه أَن يخوضها ولا بد من أَن يفوز، في المقام الأول. لم تكن لديه أية فكرة، كما قال أَحد مساعديه، عن حقيقة أَنَّه «بدخوله السباق علىٰ الرئاسة في الحقبة الحديثة، كان يخرج من دائرة السياسة ليدخل في حلبة السيرك واللعب البهلواني علىٰ الحبال». ربما كان كَري مرشحاً مثالياً، غير أنّه كان مفتقراً إِلىٰ الحماس (أَو الجنون) المطلوب، إِلىٰ ذلك الدافع الغريزي القائم علىٰ مبدأ كل شيء أَو لا شيء للدخول في السباق من أجل الوصول إِلىٰ البيت الأَبيض. في نيوهامپشاير أصيب كري بالرعب حين اكتشف مدى نفوره من خوض معركة الرئاسة ومدى كون الأَمر تطفلاً استثنائياً علىٰ حياته الشخصية، مدى بعد الأَمر عن القضايا الجوهرية ومدى تركيزه علىٰ جميع الأشياء الممقوتة بالنسبة إِليه في الحياة السياسيَّة المعاصرة ـ مسرح الإِدارة والحكم لا جوهرهما. يوماً بعد يوم زاد ارتباكاً وحيرة إِزاء سبب وجوده هناك. وفي مرحلة مبكرة من الحملة، لم تكن زيارته لمركز المخضرمين في الكونكورد ناجحة. وفيما بعد عاد إِلىٰ سيارته، متعباً علىٰ ما يبدو وشاعراً بقدر من الاستياء. وحتى حين أقدم أَحدهم علىٰ صفعه بالميكروفون والكاميرا، التفت كري إِلىٰ المراسلين دافعاً ذلك الذي انقض عليه جانباً وقال: «ما الذي أفعله أنا هنا بحق الجحيم؟!»[6].

سأله أَحد المراسلين: «هل تعني وجودك في الكونكورد أيها السيناتور؟».

«لا، إِنما أعني التسابق علىٰ الرئاسة ـ نَبِّهوني إِلىٰ ذلك!»[7].

---

(6) مقابلة مع ووتن.

(7) غولدمان وآخرون، 138.

ما كانت وسائل الإِعلام (مع عدد كبير من قادة حزبه الذين ملوا من اعتبار الديمقراطيين ناقصي المحبة للعَلَم الوطني) تريده من بوب كري هو وضع اليد علىٰ سيرة حياته ـ سجله في حرب ڤيتنام، بطولته كضابط بحري، ووسام الشرف الذي حصل عليه من الكونگرس ـ ومقارنتها بسيرة حياة بيل كلنتون. من الواضح أن مثل تلك المواكبة كانت تنطوي علىٰ قدر أكبر من الإِثارة الدرامية منها علىٰ مجرد إِجراء مقارنة بين البرنامجين الصحيين المعتمدين من قبلهما. غير أن ذلك بالتحديد هو ما كان كري عازفاً عنه ونافراً منه، إِذْ لم يكن يريد أن يخوض سباق الرئاسة كبطل حرب، وإِذا كانت لديه مآخذه علىٰ الطريقة التي تعامل بها كلنتون حين راوغ التجنيد، فإِنّه لم يكن راغباً في جعل الأمر قضية تحدد مصير الحملة الرئاسية. فبالنسبة إِليه، بدت ڤيتنام لا مسألة تنتمي إِلىٰ الماضي فقط، بل وقضية تخص الأمس في حين أن ما نحن بصدده يخص اليوم، هنا والآن. والأهم من ذلك كلّه أنها كانت مؤلمة شخصياً، بل وربما حتى مقدسة ولا يجوز استغلالها. فما كان قد فعله ـ من تضحية، من فقدان، من خسائر، من علاقة رفاقية، من إِخلاص، من ألم، من ظلام، ومن حب، بقدر لا يُستهان به ـ كان بينه وبين أولئك الذين خدموا معه، ولم يكن للتعويم وخفض القيمة عبر المقايضة عليها مقابل منافع سياسيَّة. كانت ثمة عمليَّة سابقة، عمليَّة كانت قبل فقدانه لإِحدى ساقيه، بقيت تقض مضجع كري ورفاق سلاحه. ففي شباط/ فبراير 1969م كان قد نفَّذ غارة ليلية في منطقة خاضعة لسيطرة الڤيتكونگ الكاملة كحالتها ربما منذ ثلاثة أجيال. حصل اشتباك بالنيران، وتعرّض الكثير من النساء والأطفال للقتل كما يتذكّر كري وفريقه. وقد تذكّر الحادثة أحد عناصر الجماعة بصورة مختلفة زاعماً أن الفرقة أو الجماعة كانت قد جمّعت النساء والأطفال وأعدمتهم. أمّا العناصر الباقية من فريق كري فتذكّروا الأحداث بصورة مطابقة لما تذكّره هو، بوصفها أحداثاً مرعبة ووحشية جرت في ظلمة ضباب الحرب. غير أنّها بقيت تفعل فعلها علىٰ الدوام ـ متمثّلة بذكريات خاصة كئيبة ـ علىٰ صعيد تنبيهه إِلىٰ ضرورة التحلّي بالحذر عند الكلام

عن الحرب، خصوصاً في غمرة حملات سياسيَّة. ثمة كان جيش جرار من الأشباح ما زال موجوداً.

كانت ثمة أوقات نادرة كان يلتقي فيها ببعض أصحابه القدامى من المقاتلين فينخرطون في غناء الأغنية الأسترالية المريرة المعادية للحرب «وكانت الجوقة تعزف لراقصة الڤالس ماتيلدا». إلاَّ أن تلك كانت لحظات خاصة، لا عامة، مع الاستحالة المؤكدة لتوظيفها من أجل تحقيق أغراض عامة. كان الرجل قد ذهب إلىٰ ڤيتنام، قد دفع ثمناً باهظاً، علىٰ الصعيدين الجسدي والعاطفي كليهما، وكان ذلك كل ما أراد الجمهور معرفته؛ أمَّا إذا كان الجمهور متعطشاً لما هو أكثر من ذلك، فإن هناك خطأً جدياً جداً ما يعاني منه النظام. بادر أكثر أركان حملته إلىٰ ممارسة الضغوط عليه طالبين منه أن يهاجم موقف كلنتون من التجنيد، خصوصاً بعد أن تعثّر كري في نيوهامپشاير وانطلق جميع المرشحين باتجاه الجنوب للمشاركة في الجولة التالية من الانتخابات التمهيدية، غير أن كري بقي مصمماً علىٰ أن تلك لن تكون قضية حاسمة.

ما إن ألقى كلنتون، صاحب البصيرة النافذة علىٰ الدوام، نظرة واحدة علىٰ كَري حتى أدرك أنّه منتصر عليه دون شك. وأن كري هذا لم يكن، بشكل ما، حريصاً علىٰ خوض المعركة. لقد شكّل عزوف رجل كانت نقطة قوته هي موطن ضعف كلنتون بالذات عن استخدام ذلك سلاحاً انتخابياً في نيوهامپشاير مؤشراً مبكراً لفت نظر كلنتون إلىٰ حقيقة أن الرياح السياسيَّة باتت متغيرة، وأن ڤيتنام كقضية مكشوفة ربما أصبحت متضائلة الأهميَّة باطراد. كان فريق الإعلام المتتبع لكلنتون قد قبل به عموماً دونما غوص في التفاصيل بشأن سجله العسكري وعدم أدائه لواجب الخدمة؛ فالكثير من الصحفيين كانوا في مثل سنه تقريباً، ومن الواضح أنّهم أُعجبوا به، أو، علىٰ الأقل، وجدوه المرشح الأقدر في السباق، وهذا ليس أقل أهميَّة من الإعجاب به. أضف إلىٰ ذلك أن علاقة هؤلاء، أنفسهم، بڤيتنام، كانت، في أكثر الحالات، بعيدة مثل علاقة المرشح.

(في يوم الحب (يوم ڤالنتاين) كتب رئيس جهاز كري، بيلي شور، معبراً عن سخطه مما اعتبره تملقاً من جانب وسائل الإعلام لكلنتون، قصيدة ڤالنتاينية وجيزة عن الصحافة تقول: «الورود حمراء/ البنفسجات زرقاء/ كلنتون راوغ التجنيد/ مثلما فعلتم جميعاً»)[8].

غير أن الأمر لم يقف عند تحوّل وسائل الإعلام عن ڤيتنام، كما رأى ستان گرينبيرگ، خبير استطلاعات الرأي لدى كلنتون؛ فالبلاد كلها كانت قد أدارت ظهرها لڤيتنام. تنبّه گرينبيرگ هذا إلىٰ مدى خطورة قضية التجنيد بالنسبة إلىٰ كلنتون وأجرى مسحاً دقيقاً للآراء حولها في أثناء الانتخابات التمهيدية بنيوهامپشاير من أولها إلىٰ آخرها. ومن البداية كان قد شعر بالاطمئنان إذْ رأى أن الحرب لم تكن قضية ذات شأن، حتى بين مجموعات مخضرمي الحرب الڤيتنامية. لم تكن القضية تنطوي إلاَّ علىٰ القليل من الأهميَّة بالنسبة إلىٰ العينات السكانية التي أخذها. فقط عدد قليل من كثيري الأولاد كانوا قد خدموا فعلاً في الجيش، ناهيك عن الذهاب إلىٰ ڤيتنام، فضلاً عن أن العدد بين من هم أصغر سناً من كثيري الأولاد ومن جاؤوا بعدهم كان متناهياً في الصغر. لا أحد في هاتين المجموعتين من الناس كان يريد إعادة فتح ملف قضية ڤيتنام.

ومع ذلك فإن مؤتمر نيوهامپشاير تحول إلىٰ امتحان بالغ القسوة لكلنتون. في البداية كان ناجحاً، كان المتسابق الأقوى في حلبة يغلب عليها الضعف. ففي منتصف كانون الثاني/ يناير كان متفوقاً علىٰ پول تسونگاس، القادم من ماساتشوستس المجاورة، باثنتي عشرة نقطة حسب أحد استطلاعات **البوسطن گلوب**. ثم جاءت قصة جنيفر فلورز ـ قصة علاقة مزعومة مع فتاة كانت تعمل في إدارة ولاية آركنسو ـ واقتحمت صفحات مجلة **ستار** المصورة الفضائحية. قرّر كلنتون في البداية أن يهملها، زاعماً أن الحكاية نشرتها صحيفة «تقول إن أهل المريخ يمشون علىٰ الأرض وإن الأبقار تحمل رؤوساً آدمية». غير أن القصّة، مضافة إلىٰ ذيوع صيت كلنتون كواحد من الدون جوانات ـ إذْ كان

يعاني من علّة عدم متانة «الدكَّة» بالنسبة لكثيرين ممن عرفوه بمن فيهم حتى أولئك المعبجون به ـ لم تتلاش. أضف إلىٰ ذلك أنّه وصل إلىٰ حد الإنكار قائلاً («لم تحصل العمليَّة»)، في نوع من الخروج عن قرار سابق كان يقضي بعدم الخوض في الجانب الشخصي الملطّخ بعض الشيء من حياته.

إذ ذاك بدأ ينزلق في استطلاعات الرأي، وفي الوقت نفسه تقريباً تمت إثارة قضية سجله في التجنيد. بدأت القصة بحكاية طويلة في جريدة الوول ستريت جورنال غطت ما كان قد بات معروفاً نسبياً. غير أن حكاية الجورنال تضمّنت عنصراً جديداً. فالكولونيل يوجين هولمز، الضابط الاحتياط في جامعة آركنسو الذي سجل اسم كلنتون في قائمة وحدة آركنسو، كان الآن يقول إن كلنتون كان قد راوغ التجنيد ولم يؤد الخدمة. شكّل الأمر تحوّلاً كبيراً. في السَّابق كان الكولونيل هولمز قد دافع عن سجل كلنتون من حيث التجنيد. كان أنصار كلنتون قد اعتقدوا أنّه خطّهم الدفاعي الأول في هذه الساحة ذات الحساسية الشديدة، وكانوا قد أوفدوا عدداً من المراسلين الفضوليين مكلفين بمهمة التحدث مع العقيد هولمز الذي كان ودوداً تماماً في البداية. أمَّا الآن فكان هولمز قد غيَّر رأيه. كانت تلك أنباء مشؤومة.

بعد بضعة أيام دخلت الأمور في منعطف أكثر سوءاً حيث تم الكشف، للمرة الأولى، عن رسالة كلنتون الموجهة إلىٰ العقيد هولمز، وهي مكتوبة قبل ثلاث وعشرين سنة. تبرع أحدهم بتقديم صورة عن الرسالة إلىٰ مخرج يدعى مارك هالپرن ومراسل يدعى جيم ووتن يعملان في الأي. بي. سي ABC. كان هولمز قد صادق كلنتون خلال الفترة المضطربة حين كان الأخير في أكسفورد وفي صراع مع وجدانه حول المسلك الصحيح فيما يخص ڤيتنام. كان هولمز قد سجله في وحدة آركنسو الاحتياطية فيما كان كلنتون لا يزال في الجامعة. أمَّا التعامل الأساسي بين الرجلين فكان قد تم في لحظة لم تكن فيها مسألة استلامه لبطاقة التجنيد نظرية بأي من الأشكال. وتوقيت بطاقة السحب، الذي جرى

الكشف عنه الآن، كان هو الآخر ذا أهميَّة. كان كلنتون قد حصل علىٰ مكان في الاحتياط **بعد** استلامه لبطاقة التجنيد، بمعنى أن الالتحاق بالوحدة لم يكن شرعياً علىٰ الصعيد الفني، رغم إنكاره للأمر بعض الوقت. في البدء، في زحمة الحملة، ادعى كلنتون عدم القدرة علىٰ تذكّر ما إذا كان قد حصل علىٰ بطاقة دعوة أم لا حين بدأ يعمل في وحدة الاحتياط، غير أنّه ما لبث أن غيَّر رأيه واعترف بأنّه فعل.

كان الاتفاق الذي تم لدى التحاقه للمرة الأولى بالاحتياط بتوجيه العقيد هولمز يقضي بأن يكمل كلنتون عامه الثاني في أكسفورد، يعود إلىٰ فاييت ڤيل، ويلتحق بكل من كلية الحقوق والاحتياط في الوقت نفسه. بدا واضحاً تماماً أن البراغي كانت قد زُيتت، كما كان يحصل أكثر الأحيان مع وحدات الحرس الوطني، التي **لم تكن** في يوم من الأيام محصّنة ضد تأثيرات السياسة المحلية. وإذا لم يكن كلنتون مدمناً علىٰ تلك العادة منذ الولادة، فإنّه ما لبث أن اكتسبها وارتبط بها مع وصوله إلىٰ أكسفورد. ونظراً لأنّه أصبح نشيطاً تماماً سياسياً فقد كان علىٰ علاقة بعدد من أولياء النعمة في آركنسو من أمثال جهاز العاملين لدى عضو مجلس الشيوخ ج. وليم فولبرايت الذين كانوا يتولّون رعايته. وبما أن التعيينات في وحدات الحرس الوطني، خصوصاً في الجنوب، كانت علىٰ الدوام جزءاً من النسيج السياسي، فإن ارتباطه بالعقيد هولمز بدت قائمة علىٰ مساعدة أصدقاء متنفذين في مكتب فولبرايت، حيث كان كلنتون يعمل نصف دوام.

ومع ذلك فإن كلنتون لم يكن الشاب اللامع المتمتع بعلاقات ذات شأن، الأول الذي يجد ملاذاً له في الحرس الوطني. غير أن الأمر ما لبث أن تغيَّر فيما بعد. ففي 1969م، فيما كان كلنتون لا يزال في أكسفورد، وقد كانت الأوراق التي تُلْحِقه بالحرس الوطني قيد الإنجاز، قام الرئيس نكسون، في محاولة منه لتبديد وبعثرة الحركة المناهضة للحرب وفصل قادتها عن التيار الرئيسي من فتية

الجامعات الأَمريكيَّة، بتغيير قانون التجنيد. وحين حصل ذلك تغيَّرت خطة كلنتون هي الأُخرى. ففي الأَول من كانون أول/ ديسمبر 1969م، مع وضع القرعة الجديدة موضع التنفيذ أخيراً للمرة الأولى منذ أَيام الحرب العالميَّة الثانية وجد كلنتون نفسه حاصلاً علىٰ رقم كان بالمعنيين الحرفي والمجازي رقماً لا يخرقه الرصاص ـ فقد كان يوم ميلاده هو اليوم الحادي عشر بعد الثلاثمئة. وبعد يومين اثنين من حصوله علىٰ مثل هذا الرقم العجيب، كان قد كتب رسالة إِلىٰ العقيد هولمز، الرجل الذي أَكثر من الرَّبْت علىٰ كتفه للالتحاق بوحدة ضباط الاحتياط، انسحب فيها هذه المرة من الشاغر الذي كان هولمز قد وفَّره له.

كانت الرسالة كلنتونية نموذجية جداً، عاكسة لوجهيه الأفضل والأَكثر سوءاً كليهما، ساحرة، ملأى بالعواطف، مناورة، مبالغة في الاستقامة وشديدة الفجاجة في العمق، ملأى بالتملق الشخصي لهولمز، ومتضمنة، مع ذلك، قَدْراً من النقد للحرب، ولما كانت تلحقه من أذى بشاب، مثالي، طموح بصورة تكاد أَن تكون مرضية، في الثالثة والعشرين من العمر. بطرائق معينة كانت أجزاء من الرسالة تتحدَّث عن الجيل. بدت مفعمة بقَدْر غير قليل من الكرب الشخصي. غير أَن كلنتون كان الآن يدَّعي بأن قراره الأساسي القاضي بالالتحاق بالاحتياط لم يكن مقبولاً من منطلقات أخلاقية وينفي اهتمامه بوحدة الاحتياط، نظراً لأَن جوهر الرسالة كان طلباً للانسحاب من شاغر ضباط الاحتياط المتفق عليه. ومتحرراً بفضل القرعة من أي خوف من التجنيد، كان الآن عازماً علىٰ الاستقالة من شاغر احتياطي كان قد حصل عليه بصورة غير شرعية دون شك. لقد وفَّرت الرسالة ومعها سلسلة الحركات والضغوط المدوخة التي كان كلنتون قد مارسها مع العقيد المسكين هولمز الذي لم يكن يعرف معنى الشك، صورة عميقة ومدهشة عن الرجل الذي كانت البلاد ستتعرّف عليه أَكثر فأَكثر في السنوات المقبلة. ما من أَحد سواه كان علىٰ هذا القَدْر من المكر والدهاء، باعتقاده، مما جعله، حسب رأيه، قادراً علىٰ استغلال الناس وتسخيرهم والنجاح بعد ذلك في الإِفلات من العواقب.

في النهاية لم يخدم كلنتون لا في الجيش ولا في وحدات الضباط الاحتياط. وفيما بعد كتب ديڤيد مارانيس أن كلنتون كان قد «لعب لعبة التجنيد مثل لاعبي الشطرنج». كانت مسألة سجل تجنيده قد طفت علىٰ السطح بين حين وآخر فيما مضى ولكنها لم تكن مدمّرة جزئياً لأن العقيد هولمز كان قد تولى الدفاع عنه. أمّا الآن، وبعد ثلاث وعشرين سنة، وهو غارق في زحمة سباق انتخابات تمهيدية صعبة في نيوهامپشاير، مع المراهنة علىٰ مستقبله السياسي كله ومهزوزاً أساساً جراء الاتهامات الصادرة عن جنيفر فلورز، فقد وجدت رسالته المتضمنة استقالته من الاحتياط، تلك الرسالة الملأى بالتناقضات، طريقها إلىٰ الرأي العام. كان التوقيت بالغ السوء. فمعدلات التأييد لكلنتون في الاستطلاعات التي كانت قد وصلت إلىٰ سبع وثلاثين بالمئة، بدأت تتدهور بشكل خطير حتى وصلت إلىٰ ما دون العشرين. بات پول تسونگاس متقدماً بشكل مريح. بات جيم ووتن، مراسل الأي. بي. سي. متأكداً بصورة مطلقة من أن فضيحة الالتحاق بالخدمة الاحتياطية كانت مسبوقة ببطاقة دعوة إلىٰ الخدمة، رغم عجزه عن تقديم البرهان. غير أنّه لم يبادر إلىٰ بثّ القصة علىٰ الهواء مباشرة، ساعياً، أولاً، إلىٰ تدعيمها بالبراهين، وحاصلاً، بعد ذلك، علىٰ ردّ فعل حاكم الولاية. ذهب ووتن إلىٰ المطار الصغير في كين، نيوهامپشاير، حيث كان وصول الزوجين كلنتون متوقعاً قريباً بعد قضاء بضعة أيام في لتل روك، وسلّم نسخته من الرسالة إلىٰ كلنتون، زوجه، وكبار مساعديه السياسيين جيمس كارڤيل، پول بيگالا، وجورج ستيفانوپولوس. يتذكر ووتن بأنه بدا ممتقعاً لحظة رؤيته للرسالة. سارع الخمسة إلىٰ الاعتذار [من المستقبلين] لعقد اجتماع استراتيجي علىٰ مستوى رفيع في جناح السيدات من دورات المياه في المطار.

في هذا المنعطف كان دور كارڤيل حاسماً. لقد كان موهوباً وصدامياً في الوقت نفسه، تلميذ التكنولوجيا العالية القائمة علىٰ مبدأ العين بالعين، بل المبدأ

الأفضل الذي يقول «عينان اثنتان للخصم مقابل عين واحدة لنا نحن»، كمدرسة في السياسة. وكان قد أقسم علىٰ أن هذه الحملة لن تكرّر حملة بوش ـ دوكاكيس الإجرامية؛ سيقوم أنصار كلنتون بالرد علىٰ النَّار، وبصورة مباشرة. كان كارڤيل أيضاً الأقل تقليديَّة بين فريق كلنتون السياسي. كان علىٰ الدوام يثق بردود أفعاله وتجاربه الخاصَّة، وقد كانت شديدة الاختلاف عن نظائرها لدى أَكثرية مستشاري التيار الرئيسي من الديمقراطيين الليبراليين. كانت جذوره ممتدة في تربة الناس الذين ظلّ الديمقراطيون يخفقون معهم في السنوات الأخيرة، كان إنسانا طيباً من الطراز القديم، محباً للعَلَم الوطني، من ذوي الياقات الزرقاء (من المحافظين المتعصّبين في الغالب) من وطنيي الجنوب، الذين كانوا قد أَصبحوا ديمقراطيي ريگان. صُعق حين قرأ رسالة كلنتون بإنسانيتها، بمعاناتها، وبمدى إسرافها في البوح، من حيث حماسها، تشوشها، وريبتها، قبل كل شيء، بالنسبة إلىٰ الشبيبة التي عرفها كارڤيل من جيله ـ خصوصاً بالنسبة إليه هو نفسه.

فآل كارڤيل من باتون روج اللويزيانية، كانوا وطنيين من الطراز القديم. كانت جدة جيمس كارڤيل أم خمسة مقاتلين في الحرب العالميَّة الثانية، أربعة أبناء وصهر علىٰ الجبهات في القوّات المسلَّحة في الوقت نفسه. كان جيمس قد وُلد في 1944م في فورت بنينگ، جورجيا، حين كان أبوه في تلك الحرب. ولدى تخرّجه في جامعة ولاية لويزيانا في حزيران/ يونيو 1966م، فعل ما كان يفعله شباب بيئته باستمرار. التحق بالخدمة ملازماً أول في مشاة البحرية، توّاقاً للذهاب إلىٰ ڤيتنام. جميع أصدقائه كانوا قد ذهبوا، في حين بقيت خدمته هو، ويا للهول!، في الولايات المتحدة. أزعجه الأَمر كثيراً لبعض الوقت، أحسّ بالضيق لبقائه محروماً من العرض الكبير وربما لم يكن علىٰ المستوى نفسه من الرجولة مثل أقرانه، الذين قد يُقْدمون يوماً علىٰ تعييره بسبب افتقاره إلىٰ التجربة القتالية. غير أنّه ما لبث، حين بدؤوا يعودون إلىٰ الوطن، أَن اكتشف، خلافاً

لهواجسه، أمراً مفاجئاً ومثيراً. كانوا يرون أنّه هو المحظوظ. كانوا عموماً مفعمين كرهاً للحرب ودأبوا علىٰ تهنئته علىٰ حظه السعيد الذي كان حتى تلك اللحظة يعتبره عاراً يلطخ جبينه، لم يؤد إِخفاقه في الخدمة، بأي من الأشكال، إِلىٰ فصله عن التجربة المحدِّدة لجيله، كما تبيَّن له؛ لقد كانت تجربة سلبيَّة بالنسبة لعدد من أصدقائه الحميمين، لم يضطر هو لتجرع كأسها. اعتقد كارڤيل أَن عليه أَن يستخلص درساً سياسياً جدياً من ذلك. وها هو ذا يرى، وهو يقرأ رسالة مرشحه، الشكوك العاكسة لمشاعر أصدقائه، أولئك الذين ذهبوا [إِلىٰ ڤيتنام] وأولئك الذين لم يفعلوا، إِضافة إِلىٰ مشاعره هو. كانت شكوكاً تخص الجيل. تمنى كارڤيل، في الحقيقة، أَن يكون هو نفسه قادراً علىٰ كتابة تلك الرسالة حين كان في الثالثة والعشرين من العمر. لقد آمن بأنّها نموذج كلاسيكي لشيء، كثيراً ما أخطأت وسائل الإِعلام وواشنطن في فهمه، أَهميَّة دور الشك في طبيعة إِحساس الناس العاديين إِزاء القضايا المعقَّدة.

وفيما كان يتحاور مع المرشح في هذا الاجتماع الاستراتيجي المرتجل الذي عُقد في مطار كين، تحدَّث كارڤيل بقوة مع إحساس بالثقة عن طابع ردود أفعال الكثير من الشبان علىٰ مثل هذه الرسالة. استطاع ووتن، المنتظر في الخارج، أَن يسمعه، متحمساً ومؤكداً في أفضل الأحوال، صارخاً في وجه المرشح داخل جناح السيدات في دورة المياه بلغة كارڤيلية مميزة: «لعنك الله يا سيادة الحاكم [المحافظ]، هذه الرسالة هي صديقتك التي فَعلَتْ.. بأمك! تستطيع أَن تخدمك! عليك أَن توزعها!» كان الاجتماع قصيراً وخرج كلنتون، وقد عاد وجهه متورداً، وهو يقول: «نعم، إِنّها رسالتي!» ثم بدأ فترة من الحوار غير المفهوم، المراوغ، مع ووتن وآخرين عما إِذا كانت بطاقة دعوته سبقت طلب التحاقه بالوحدات الاحتياطية. كان ووتن، وهو المولود قبل كلنتون بحوالي عشر سنوات، وكنتاج لجيل كانت هذه الأمور بالنسبة إِليه بالغة الأَهميَّة ودأب المرشحون باستمرار علىٰ تأكيد خدمتهم في حروب الأمّة، واثقاً من أنّ

القصة ستشكِّل حدثاً كبيراً بل ومدمِّراً إلىٰ أقصى الحدود، ربما نهاية الحياة المهنية المتألقة لسياسي شاب موهوب لولا هذه اللطخة. في هذا اللقاء الوجيز أكَّد كلنتون لووتن أنَّه لم يكن قد استلم بطاقة دعوته حين تقدَّم بطلب الالتحاق بالاحتياط. وكان يكذب، بالطبع. سأله ووتن: «ما الذي يجعلني لا أصدقك يا سيادة حاكم الولاية الوالي؟» ردّ عليه كلنتون قائلاً: «لأَن أَحداً لا يريد أَن يصدقني» ثم أضاف «لعل أَحد الأَسباب التي تجعلنا، أنا وهيلاري، نحبك، يا جيم، هو أنّك كنت منصفاً وعادلاً جداً معنا». اعتقد ووتن أَن من شأن القصة أَن تصيب الحملة في مقتل، وأبدى قَدْراً كبيراً من الحرص علىٰ صعيد تدقيق تفاصيلها؛ لم يشأ أَن يكون أَي من تلك التفاصيل الدقيقة مشوباً بأي لبس.

أدّى إِنصافه الاستثنائي إلىٰ حرمانه من سبق صحفي مؤكّد. نجح برنامج [خط الليل] **نايت لاين**، وهو فرع آخر من أنباء أي. بي. سي.، في الحصول علىٰ نسخة من الرسالة وسبقه في إِذاعة القصة. وبعد يومين اثنين ظهر كلنتون علىٰ **النايت لاين** مع تد كوپل للكلام حول الرسالة؛ باتت الاستراتيجية واضحة: كان سيواجه الموقف بوقاحة دون أَن يرف له جفن. كان كوپل، وهو المحاور التلفزيوني الأَكثر موهبة، في أحسن أحواله، غير أَن كلنتون كان متألقاً ببساطة ـ كان متبعاً لخط كارڤيل. كان هذا الأخير قد وضع خطة مع كوپل؛ كانت الخطة تقضي بأن يقوم كوپل، لا كلنتون، بقراءة الرسالة علىٰ شاشة فرعية، فيما ينظر إِليه كلنتون بلهفة. نجحت الخطة. نجح كلنتون في التصدّي لكوپل وبقي طافياً علىٰ السطح؛ كان قد جعل الحرب، لا موقفه منها، هي القضية. وكان، في هذه الأثناء، قد ضحّى بصدقه مع أَحد أفضل المراسلين في أَمريكا وأَكثرهم تمتعاً بالاحترام، وباتت أكاذيبه مع ووتن، رغم كسبه لانتصار قصير المدى، حجر زاوية ذلك الصرح من عدم ثقة الكثير والكثير من الصحفيين والمراسلين به مرة أخرى ثقة كاملة. إِلاَّ أنّه كان قد راوغ طَلْقةً فنجا ليوم آخر.

في الوقت نفسه تقريباً، كان كارڤيل مشغولاً بحذف الإِعلانات التي تملأ صفحات كاملة في جرائد نيو إنگلند المختلفة، وبإِعادة طباعة الرسالة كلها، وما لبث ووتن، خلال يوم أَو اثنين، أَن اكتشف أنّه كان مخطئاً حول مدى أهميَّة الرسالة والتجنيد. قرَّر ووتن أَن كلنتون ومَنْ هم حوله كانوا قد أحسّوا بشيء حول البلاد والتغييرات الحاصلة فيها قبل أَن يتمكّن هو من أَن يفعل ذلك. كان أشبه بنداء تنبيه. إِذا كانت ثمة جملة من التناقضات في سجل كلنتون حول ڤيتنام، فإِنَّها لم تكن مختلفة كثيراً عن مجموعة التناقضات التي تزخر بها البلاد. أدرك ووتن أَن كلنتون كان يمثِّل نقاط قوة ومواطن ضعف أَمريكا ذات الأولاد الكثيرة لما بعد الحرب، حقبة كان النجاح فيها يأتي، إِلىٰ حد كبير، دون تضحيات. كان كلنتون يمثِّل ما هو أَكثر من مجرد هُوَّة إِيديولوجية فاصلة عن الإِدارة القائمة. فما كان ووتن عاكفاً علىٰ مراقبته وتغطيته بدا، بالأحرى، أشبه بعمليَّة تبديل للحرس بين جيلين. لم يعد الجيل الذي عرفه جيداً جداً، وكان شديد التناقض مع جمود قِيَمه، ذلك الجيل من الأَمريكيين المنتمين إِلىٰ حقبة أَكثر كالڤينية، بامتياز، الذين مرّوا بمحنتي الكساد الاقتصادي الكبير والحرب العالميَّة الثانية، والذين ظلّت حياتهم مطبوعة بالتضحية من جهة والتوقعات المتواضعة من جهة ثانية؛ لم يعد ذلك الجيل القوَّة التي كانها ذات يوم. أَمَّا البديل فقد كان جيلاً شديد الاختلاف، أَكثر شباباً، وأَكثر نجاحاً بما لا يقاس من الأَمريكيين، الأفضل تعليماً بالتأكيد، ممن كانت مواهبهم تتمخّض ليس فقط عن مستويات أعلىٰ من الإِنجاز بل وعن درجات أعلىٰ، بالمثل، من التوقعات والأحلام. ما لبث ووتن الذي كان في العقد السدس من العمر أَن أحسّ بنوع من التوتر والتناقض مع أبناء هذا الجيل أَيضاً؛ بدا وكأنّ النجاح نزل عليهم من السماء بكثير من اليُسر، كما بدوا، وهذا أسوأ، قليلي الاحترام للماضي. ظنّ هؤلاء أَن حظّهم السعيد بصورة غير عادية وغير مألوفة كان، بكليته، نتاج عملهم الجاد والشاق، وأنّهم لم يكونوا مدينين لمن سبقوهم بشيء ذي شأن. مثله مثل الكثير من الأَمريكيين كان ووتن قادراً علىٰ الإِحساس بسيف

الصَّرْعات السياسيَّة والثقافية الجديدة يشطره نصفين؛ ربما كان أكثر تعاطفاً، علىٰ الصعيد السياسي، مع أفكار كلنتون والجيل الأَكثر شباباً، غير أنّه بقي، من الناحية الثقافية، أَكثر تعاطفاً مع أولئك الذين كان يجري استبدالهم. اقتنع ووتن أَن البلاد باتت الآن مختلفة؛ كانت تريد أَن تغفر لسياسي، علىٰ شاكلة كلنتون، ذنوبَه، لأنّها أرادت أَن تغفر لنفسها ذنوبَها بالذات.

تبين أَن قضية التجنيد لم تشكِّل مثار اهتمام كبير وحماس شديد في مؤتمر نيو هامپشاير. بدأ كلنتون يقترب من پول تسونگاس. كان الناس معجبين بالطريقة التي اعتمدها في الرد والتصدي. فعلىٰ الرغم من أَن تسونگاس ظل متفوقاً في الولاية ـ بوصفه ابناً باراً للولايات الداخليَّة ـ كان كلنتون الفائز الحقيقي، لأَن تسونگاس لم يكن مؤهلاً لتحقيق أَي نجاح ذي شأن في الأماكن الأُخرى. لقد بقي كلنتون معلقاً في الهواء للحظة غير أنّه ما لبث أَن عاد عودة مظفرة بصورة استثنائية. ومهما كانت الأشياء الأُخرى المعروفة عن كلنتون مع تقدم موسم الانتخابات التمهيدية، فإِن معلومة حاسمة واحدة كانت الآن متوفرة للجمهور العام ولمحترفي السياسة والإِعلام ألا وهي أَن بيل كلنتون تمكّن من امتصاص الضربة وما زال مقتحماً. وفي هذا لم يكن يشبه أَحداً مثل الرجل الذي كان عدد كبير من أتباعه يعتبرونه نقيضه مئة بالمئة، ريتشارد نكسون. كان من الممكن لغيره أَن ينسحب من السباق مباشرة، قائلاً إِن التعرّض لمثل هذا التشريح المستمر من جانب الجمهور لا يمكن أَن يوازي أَي منصب يمكن الحصول عليه. أَمّا كلنتون فقد بدا، بدلاً من ذلك، عاكفاً علىٰ استحضار الذكريات والاهتداء إِلىٰ منابع قوة جديدة.

مهما كانت الاتهامات الموجّهة ضد كلنتون، خصوصاً تلك القصص الدائرة حول جنيفر فلورز، فإِن الجمهور، وإِن اتخذ موقفاً سلبياً منه، كان أَكثر مقتاً لمنتقديه، وموجهي التهم إِليه، من بين جيش الإِعلاميين المتزايد شراسة و«بَلْطَجة»، ذلك الجيش الدائب علىٰ ملاحقته بشأن القضية. وبالتالي فقد بدا

بنظر الجمهور العام، كما لو كان ضحية هجوم عدائي من جانب وسائل الإعلام أولاً وقبل كل شيء. والصحافة ليست، بالطبع، ذات شعبية في أي وقت من الأوقات، حتى حين تكون عاكفة علىٰ أداء وظيفتها علىٰ أكمل وجه ـ عاكفة علىٰ أداء مهمة خارجيَّة خطرة أَو تغطية أخبار حركة حقوق الإنسان ـ لأنها كثيراً ما تنقل أخباراً غير مستساغة ولكنّها ضرورية إلىٰ جماهير الناس العاديين.

غير أَن هذا كان ـ نظراً لطابع وسائل الإعلام المتغيّر ـ يمثّل النفوذ المتزايد للتلفاز، والشهية شبه الإلزامية للصور الفضائحية التي باتت قنوات «الكابلات» توفّرها، عبر جيش إعلامي مختلف جداً، جيش دائب علىٰ مطاردة نوعية مختلفة جداً من الأخبار والقصص، أضف إلىٰ ذلك أَن جيش الإعلام كان يصبح أقل شعبية وأقل براءة بنظر الجمهور، كلما دامت القصة فترة أطول وكلما باتت عصابة الإعلاميين المضطلعة بمهمة المطاردة أكبر. كان أفراد العصابة يتزاحمون خارج أَحد المطارات أَو أمام إحدى المدارس الثانوية حيث يكون مقرراً للمرشح أَن يحاضر، مطلقين بأعلىٰ الأصوات أَكثر الأسئلة وقاحة، يبدون مثل أسماك قِرْش مفترسة في ثياب آدمية، دائبة علىٰ مطاردة كلنتون حول قضية بدت للكثير من الأَمريكيين مسألة شخصية لا تمت للجمهور بأية صلة كمعلومات عامة.

بالنسبة إلىٰ بعض مَنْ هُم أكبر سناً في شبكات التلفزة، أولئك الذين ترعرعوا وشبّوا في عصر كان يعتبر مثل هذه الأشياء قصصاً غير شرعية، لم يكن الاندفاع الشرس نحو التقارير الفضائحية أمراً مقبولاً. ربما كانوا مستعدين، آخر المطاف، للموافقة علىٰ أن مثل هذه القصص باتت ملكاً للجمهور ومن المشروع، بالتالي، أَن تتم تغطيتها، غير أَن السُّعار الذي كان يميز عملية المطاردة، والمبالغة في إبرازها وتأكيدها بدلاً من متابعة قصص أُخرى قد تكون قادرة علىٰ الكشف عن الطابع السياسي الحقيقي، كانا يبعثان علىٰ القلق. إلاَّ

أنهم تابعوا المسيرة رغم ذلك؛ رأوا، أخيراً، أَن من حقهم هم أيضاً أَن يفعلوا ما كان الآخرون يفعلونه. وبكثير من المكر قام كارڤيل، الذي لم يخل يوماً من الإبر واللسعات، بإطلاق اسم «مخدر الكوكائين بالنسبة إِلىٰ مهنة الصحافة الأَمريكيَّة» علىٰ قصة جنيفر فلورز ومثيلاتها من القصص الأُخرى التي شاعت بعدها. ومما قاله كارڤيل: «كنت تستطيع أَن ترى الحاجة في وجوههم، حتى كبار عالم الطباعة. تجدهم جالسين أمامك وهم يكرِّرون عبارة «أنا لا أريد أَن أفعل هذا» [أن أكتب عن السيدة فلورز]، غير أنّك حين تنظر إِلىٰ وجوههم ثانية ترى الجوع، التوق الشديد للقيام بالمهمّة، وتكتشف حقيقة أنَّهم كانوا شديدي الوَلَع بالقصة».

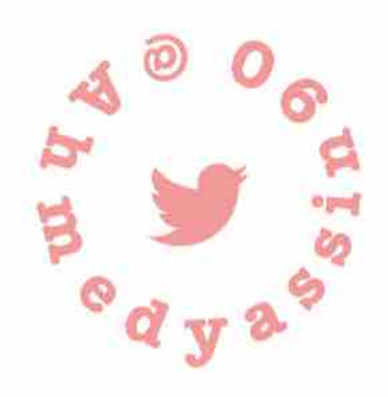
وباعتقاد كارڤيل، وهو دارس داهية للعبة الإِعلام الجديدة فإِن هذه القصص باتت جزءاً من المهنة؛ إِنّها عمل توصل المراسلين إِلىٰ آلاف القنوات بالكوابل، مما يؤدي، بدوره، بقليل من الحظ، إِلىٰ منابر إِلقاء المحاضرات وتأليف الكتب. غير أَن ما أدركه الجمهور من الأعماق، أضاف كارڤيل، كان متمثلاً بأن المرشحين لم يكونوا بالضرورة أولئك الذين يخفضون من مستوى نوعية الخطاب في أية حملة. فتبرير قيام الصحافة بتغطية قصص أُخرى ذات أَهميَّة ـ من حق الناس أَن يعرفوها ـ لم يكن برأي الكثير من المتابعين حجة قوية في قضية كهذه. لم يكن هؤلاء واثقين تماماً من أَن للجمهور حقاً يمكِّنه من معرفة جوانب معينة من حياة المرشح الشخصية (مثلها مثل بعض جوانب حياتهم الشخصية هم أنفسهم). كان الناس ينظرون إِلىٰ وسائل الإِعلام وهي مُصِرّة علىٰ معاينة المرشح ويتساءلون عما ستكون عليه الأحوال، إِذا كان نجوم الإِعلام هم الذين يجري تشريحهم وتتم معاينتهم الدقيقة، بدلاً من المرشح، وعن مدى التعطُّش الذي سيكون موجوداً لمعرفة أسرار حياتهم الشخصية.

كانت المشاهد المأخوذة من نيو هامپشاير التي قدمت حاكم الولاية مطوقاً بقطيع كامل من مراسلي الأقنية التلڤزيونية، وقد انقض عليه الجميع وهم

يصرخون في وجهه طارحين عليه طوفاناً من الأسئلة عن حياته الشخصية ـ مثل: «**هل نمت مع جنيفر فلورز أيها الوالي؟ هل مارست ذلك، يا سيادة الوالي؟**» ـ بشعة. وفي مؤتمر السيدة جنيفر فلورز الصحفي الخاص في والدورف ـ آستوريا بنيويورك، الذي نقلته شبكة السي. إن. إن.، كان ثمة حشد آخر من الصحفيين الذين راحوا يصرخون طارحين أسئلة بالغة البشاعة والوقاحة علىٰ امرأة كادت تذوب خجلاً (حتى أَن أَحدهم سألها عما إِذا كان كلنتون قد استخدم (الكبوت) (مانع الحمل المطاطي)). ومع ذلك فإِن تهم عدم الوفاء [عدم الإِخلاص الزوجي] لم تدمّر كلنتون كثيراً علىٰ المدى الطويل. ثمة كانت ببساطة كثرة مفرطة منها في وسائل الإِعلام؛ لقد شكل ذلك انتهاكاً صارخاً وأساسياً لما كان يعتبره عدد كبير من الأَمريكيين انصافاً وعدلاً في التعامل. أضف إِلىٰ ذلك أَن العمليّة كان يقوم بها إِعلاميون يحصلون علىٰ مبالغ طائلة وهم أنفسهم أصحاب نفوذ في المجتمع، غير أَن حياتهم الشخصية، وهي ملأى بالفضائح مثل غيرها، كان يُسمح لها بأن تبقى مكتومة. فخبراء استطلاعات الرأي لدى كلنتون الذين أصيبوا برعب شديد إِزاء طبيعة هذه الاتهامات وتوجسوا أَن تُحدث جروحاً قاتلة، ما لبثوا أَن صُعقوا إِزاء ما اكتشفوه لدى عيناتهم: سرعان ما بدأ الناس يتقزّزون مما كانت وسائل الإِعلام تفعله بالمرشح. وقد تبين أَن هؤلاء الناس كانوا معجبين بالطريقة التي اعتمدها المرشح، وهو مسؤول كبير، إِذ بدا مصرّاً علىٰ اقتحام عوالم الصحافة جسدياً ـ دون أَن يتراجع قيد أنملة.

ما حدث لكلنتون حين تلقَّى أسوأ الضربات الموجّهة إِليه كان مدهشاً. لقد أَصبح أَكثر تمسكاً والتزاماً، أقوى تركيزاً، برأي من كانوا حوله. إِنّه كلنتون في أفضل حالاته، أشد تركُزاً علىٰ بلوغ الهدف من أَي وقت مضى. تلك هي الحالة التي كان كلنتون يكشف فيها عن نقاط قوته الحقيقية وينقلب متحوِّلاً من ذلك الحاكم [الوالي] اللطيف الودود دائماً لولاية آركنسو الذي كان شديد الوَلَع

بإرضاء الجميع، إلىٰ الرجل الذي بات تدريجياً بؤرة الاهتمام في البيت الأَبيض، إلىٰ سياسي متشدّد، صعب، داهية، بارع جداً، قادر علىٰ اتخاذ القرارات الصعبة، مستعداً، عند الحاجة، للتخلي عن جُل الأشياء والأشخاص، بصرف النظر عن مدى طول فترة الصداقة، خدمة لمصالحه الخاصة. قد يبدو متمتعاً بالقُدرة علىٰ التقمّص العاطفي في شخصيته العامة العادية، غير أنّه قادر في الوقت نفسه علىٰ أن يكون بارداً وقاسياً بحزم حين يكون مستقبله السياسي موضوع رهان. ما إن كان يجد نفسه محصوراً في الزاوية وظهره إلىٰ الحائط، حتى كان ينقلب إلىٰ سياسي شمولي من قمة رأسه إلىٰ أخمص قدميه غارقاً في تلك العملية التي تميز فيها أكثر من أي شيء آخر - ألا وهي عمليَّة البقاء والاستمرار.


@Ahmedyassin90

الفصل الثاني عشر

لم تكن الهجمات الصربية، علىٰ أجزاء من كرواتيا، التي نَسّقها ميلوسوڤيتش والنجاحات المبكرة سوى الجولة الأولى مما كانت ستصبح حرباً داخليَّة قاسية. لم تكن شهية ميلوسوڤيتش مفتوحة علىٰ كرواتيا كثيراً؛ فإن ما كان يطمع به في الحقيقة تمثَّل بجزء كبير من البوسنة وبامتلاك القدرة، آخر المطاف، علىٰ إخضاع كوسوڤا ووضعها تحت الهيمنة الصربية، لا اليوگوسلاڤية، وصولاً، مع الزمن، إلىٰ إعادة توطين الصرب فيها، رغم أَن من شأن السيطرة علىٰ كرايينا أن تكون رائعة بالتأكيد. إلاَّ أَن البوسنة كانت في البداية ذات أولوية أعلى. ومع خروج كرواتيا وسلوڤينيا من الاتحاد، بات البوسنيون يعتبرون أَن دورهم قد جاء. ففي أواخر شباط/ فبراير 1992م، مع انفراط عقد الاتحاد، تم إجراء استفتاء في البوسنة حول الاستقلال. بادر الصرب المقيمون، وهم يمثِّلون 30 بالمئة من السكان، إلىٰ مقاطعة الانتخابات، غير أَن حوالي 99 بالمئة ممن صوّتوا عبَّروا عن الرغبة في أَن يصبحوا دولة جديدة.

بعد بضعة أسابيع، في السادس من نيسان/ أبريل، أقدمت الأسرة الأوروبية علىٰ الاعتراف بالبوسنة كدولة مستقلّة. احتفل الصرب بالمناسبة عن طريق قصف سيراييڤو، تلك المدينة الجميلة متعددة الأعراق التي كانت عاصمة البوسنة. قُتل أَحد عشر شخصاً في اليوم الأَول من القتال. وبعد يوم واحد، في السابع من نيسان/ أبريل 1992م، بادرت الولايات المتحدة، هي الأُخرى، إلىٰ

الاعتراف بالبوسنة. تلك هي الطريقة التي أَصبحت بها البوسنة، كبؤرة توتر وأزمات، كدولة ستتعرّض لبعض أبشع جرائم الإِبادة التي شهدتها أوروپا منذ الحرب العالميَّة الثانية، مما سيجعلها بالتالي تتحدَّى نظرة الغرب إِلىٰ منظومته الأخلاقية. لم يكن ما دأب علىٰ الحدوث هناك ليتسلل إِلىٰ الوعي السياسي الأَمريكي إِلاَّ ببطء. ففي الوقت الذي شهد بداية كل شيء، كان جورج بوش لا يزال يحس بشيء من الألق المنبعث من نجاحاته السابقة. حتى خبراء استطلاعات الرأي لدى الحزب الجمهوري بالذات لم يكونوا بعد، عبر تقاريرهم المتزايدة التي تزايدت سلبيتها، قد تمكّنوا من هزّ النزعة المتفائلة المقيمة في البيت الأَبيض. أَمَّا في الحزب الآخر، فقد كان كلنتون متحرّراً لتوه من منافسيه في الانتخابات التمهيدية للديمقراطيين. بدت سيراييڤو المحاصرة من قبل القوّات الصربية والمتعرّضة لهجوم مدفعي عنيف لا يعرف معنى الرحمة كما لو كانت في عالم آخر.

بنظر كثيرين في الغرب كانت سيراييڤو واجهة البلاد، أَحد رموز يوگوسلاڤيا الحلم. ففي هذه الحاضرة المتطورة كان المستوى التعليمي أعلىٰ مما هو في باقي البلاد، بدت التعددية ناجحة، وكانت التوترات العرقية هاجعة إِلىٰ حد كبير. كان ما يزيد عن ربع الزيجات في البوسنة زيجات مختلطة عرقياً. تألفت الكتلة السكانية البوسنية من نسبة 44 بالمئة من المسلمين، 31 بالمئة من الصرب و17 بالمئة من الكروات. فيما مضى شكّلت نوعاً من الدعاية لتعددية الأمة الأوسع، فضلاً عن أنّها كانت مثار إِعجاب شديد لدى الأجانب خلال فترة الألعاب الأولمبية الشتوية لسنة 1983م. نادراً ما سبق لمواطني مدينة أولمبية أَن تركوا مثل هذا الانطباع الإِيجابي لدى الزوّار القادمين من بلدان أُخرى. فقد كانت سيراييڤو تمثّل، كما قال إِدوارد ڤوليامي، النقيض المباشر لصورة الأمّة في ذهن ميلوسوڤيتش وتوجمان، تلك الصورة القائمة علىٰ أساس الفصل العنصري والحقد العرقي.

لم يكن الكروات مستعدين لانقضاض الصرب عليهم، ثم جاء دور البوسنيين الذين كانوا في حال أكثر سوءاً. كان للكروات شاطئ بحري طويل يمكن التعويل عليه في تهريب الأسلحة بصورة ميسرة نسبياً، فضلاً عن تمتعهم بعدد كبير من أولياء النعم بين الأقوام الأوروپية، خصوصاً بين الألمان والنمساويين. أمّا البوسنة فكانت محصورة في اليابسة، بوصفها أمة إسلامية أساساً في أوروپا، محرومة نسبياً من الأصدقاء بين الجيران المباشرين. وكانت القيادة البوسنية قد تصرّفت بحماقة عجيبة، إذْ حاولت الاستقلال دون الاستعداد لذلك عسكرياً. كان الصرب والكروات معادين لاستقلال البوسنة، كما كان الطرفان يكنّان حقداً عميقاً ضد البوسنيين أكثر من كره كل منهما للآخر، رغم أنهما كانا مشتبكين في معارك قتالية. فحين سأل أحد المراسلين نائب الرئيس أيوب گانيتش عن الخطوات التي اتخذتها البوسنة استعداداً للدفاع عن نفسها، أجابه قائلاً: «نحن نتكلم، ونتكلم، ونتكلم فقط. حين تكون في مواجهة ذئب يبقى الخيار الوحيد أمامك أن تسايره وتتعامل معه وتدرّبه حتى يتحوّل إلىٰ حيوان أليف»[1]. ومن نافل القول إن الصرب ليسوا ممن يمكن تحويلهم إلىٰ مخلوقات أليفة.

في حين لم يكن البوسنيون مستعدين لمواجهة الاعتداء علىٰ وحدتهم الإقليمية، كان الصرب أكثر من مستعدين. ففي أوائل 1992م، مع انتهاء القتال علىٰ الجبهة الكرواتية وإخضاع كرايينا كلها للسيطرة الصربية، بدأ الجيش القومي اليوگوسلاڤي بتحريك قوّاته، خصوصاً وحداته المدرّعة والمدفعية، من كرواتيا إلىٰ البوسنة. وكجزء من المسرحية الهزلية الجارية كان ميلوسوڤيتش قد أوجد جيشاً لصرب البوسنة، مع تحويل ضباط صربيين كانوا يخدمون في أماكن أُخرى في الجيش اليوگوسلاڤي بسرعة إلىٰ الجيش الجديد المصطنع الذي كان من جميع النواحي جزءاً من الجيش اليوگوسلاڤي، وبالتالي فإن المعروفين باسم

(1) ڤوليامي، 74 ـ 75.

صرب البوسنة كانوا، عند بداية الاشتباكات، يملكون قوة مسلَّحة جيدة التجهيز مؤلَّفة من تسعين ألف رجل تحت تصرّفهم، إضافة إلىٰ عدد من الوحدات الخاصة العنيفة بصورة استثنائية جاهزة لاقتراف ما سيشكِّل سلسلة من الفظاعات الشنيعة والجرائم الإنسانية البشعة.

حين قام الصرب بمحاصرة سيراييڤو بمدفعيتهم، كانت المعركة أشبه بصيد السمك في برميل. واليوم الأَول الكامل من القصف الجهنمي العنيف الموجّه إلىٰ سيراييڤو كان في الحادي والعشرين من نيسان/ أبريل 1992م. وما لبثت المدينة أَن أصبحت في الأسابيع والأشهر التالية مدينة أوروپية متحضّرة تحت الحصار، مدينة كان الناس فيها يحاولون أَن يعيشوا حياة عادية متجنّبين القصفَ المدفعي الصربي علىٰ الدوام. شيئاً فشيئاً، وبصورة منهجية تماماً قام الصرب بطرد أَي وجه من وجوه الحياة مما راح يبدو أشبه بمدينة حُكم عليها بالموت. كان المشهد مرعباً: كان ثمة جيش يلحق مثل هذا القَدْر الهائل من الضرر بمدينة معشوقة دون أَي دفاع ذي شأن. فمقابل كل رشقة صادرة عن البوسنيين سيئي التسليح دفاعاً عن النفس، كانت مئة وثمانون رشقة مدفعية تنصب علىٰ المدينة من جانب الصرب كما قال إدوارد ڤوليامي. ومع حلول نهاية حزيران/ يونيو 1992م، تحدَّثت الحكومة البوسنية عن بلوغ عدد القتلى سبعة آلاف ومئتين والمفقودين حوالي ثلاثين ألفاً[2].

اختفى الطعام والماء، نام النَّاس في الأقبية هرباً من القصف. تزايدت أعداد القتلى كثيراً حتى باتت القبور عاجزة عن الاستيعاب وراح الناس يدفنون جثث موتاهم في باحات البيوت وحدائقها. تحول المستشفى إلىٰ برّاد لتخزين الجثث بمقدار ما كان مركزاً طبياً، وتعين علىٰ الأطباء الدوليين العاملين هناك أَن ينبهوا زملاءهم المحليين إلىٰ ضرورة حرق بقايا الموتى. تنامت مشكلات

---

(2) المصدر السابق، 83.

الصرف الصحي إلىٰ مستويات باعثة علىٰ اليأس بصورة مطردة. لم يتأخر الصرب في قطع خطوط أنابيب الغاز. وكما كانت النكتة المريرة تقول فإن «الفرق بين سيراييڤو وآوشڤتيز، تمثل بتوفر الغاز علىٰ الأقل في الأخيرة». ثمة هجومان صربيان كانا جديرين بالتذكّر بشكل خاص. ففي أَحدهما، وهو الذي وقع في السابع والعشرين من أيار/ مايو 1992م، قامت المدفعية بضرب مجموعة كبيرة من البوسنيين الواقفين في رتل انتظار الخبز في مركز المدينة. قُتل عشرون شخصاً وقُدِّر عدد الجرحى بمئة وستين. وبعد شهر واحد أعاد الصرب الكرة وضربوا طابوراً جديداً، كان مؤلفاً هذه المرة من أناس ينتظرون أدوارهم لسحب مبالغ من المال من أَحد مصارف المدينة. بلغ عدد القتلى واحداً وعشرين والجرحى مئة وخمسة وثلاثين.

ظل العالم يراقب سيراييڤو بقدر كبير من الذهول والرعب. ومع ذلك فإن الصرب كانوا من نواح معينة سعداء لتركّز أنظار العالم علىٰ سيراييڤو التي كانوا قد أكملوا حصارها وتحويلها إلىٰ سجن كبير، وباتوا قادرين علىٰ خنق الناس أَو تخفيف الضغط عنهم حين كان الغرب أَو الأمم المتّحدة يبادران إلىٰ الشكوى بصوت مرتفع بصورة استثنائية. غير أَن الحملة الحقيقية كانت جارية علىٰ قدم وساق في أماكن أُخرى، في القرى البوسنية الصغيرة حيث كانت حملة تطهير عرقي منظمة جيداً تتم تحت أنظار الصحفيين الغربيين في كثير من الأحيان. دأبت القوّات الصربية غير النظامية علىٰ طرد البوسنيين من قراهم بعد السطو علىٰ ممتلكاتهم، ناقلين الرجال إلىٰ معسكرات لن يعودوا منها أبداً. وفيما بقي الغرب مركّزاً اهتمامه علىٰ سيراييڤو، كانت البوسنة تختفي عن الخارطة.

بعد انتهاء الحملة بزمن طويل أقدم أَحد مصممي الحملة، ميكولا كوليبيڤيتش، من زعماء صرب البوسنة المثقفين، علىٰ إبلاغ إِد ڤوليامي بأن سيراييڤو لم تكن إلاّ بؤرة مسرحية مصمّمة لصرف أنظار الغرب عن الحملة الحقيقيَّة، المتمثِّلة باختفاء المسلمين، خصوصاً الرجال، من أعداد كبيرة جداً

من القرى. لقد وجّه ميكولا اللوم والتوبيخ إِلىٰ ڤوليامي وغيره من الغربيين علىٰ براءتهم إزاء ما كان حاصلاً إذ قال: «يدهشني أنكم تأخرتم إِلىٰ هذا الحد حتى أدركتم حقيقة الأمر. يا للمسكينة سيراييڤو! تلك هي كل ما استطعتم أن تفكروا بها. محطة تقاطع طرق أوروپا! ما من أحد منكم أمضى إجازة في ترونوبولية [بلدة صغيرة جرى تطهيرها بوحشية]». ثم تذكّر ڤوليامي أن كولييڤيتش بدأ يضحك، سعيداً بأن الصرب أبدوا مهارة فائقة في تضليل الإعلاميين والعالم.

لتوهم بدأ بعض الشهود الأمريكيين يرون أن سيراييڤو لم تكن، رغم جميع أشكال الهول فيها، إلاّ حركة شبيهة بما يُعرف في لعبة كرة القدم بحركة صرف النظر، حركة زائفة لصرف الانتباه عن الهدف الحقيقي للعب. ففي صيف 1992م، حتى حين كانت الحملة الرئاسية في بداية تفاعل زَخَمها، فإن ريتشارد هولبروك، وهو أحد المرشحين الأكثر طموحاً لقيادة فريق السياسة الخارجيَّة في الحزب الديمقراطي، قام بزيارة إِلىٰ يوگوسلاڤيا، وإِلىٰ البوسنة، فيما بعد، فأصبح أول أعضاء فريق الأمن القومي الافتراضي الديمقراطي الذي تكون له علاقة شخصية بالأزمة الرهيبة الدائبة علىٰ التفاقم هناك. قام هولبروك بهذه الزيارة باقتراح صديق قديم سبق له أن تصارع مع سياسة البلاد الآسيوية يدعى ونستون لورد. ولورد هذا كان الآن نائباً لرئيس لجنة الإنقاذ الدولية، واقترح أن يذهب هولبروك إِلىٰ هناك في مهمة تقصّي حقائق لصالح اللجنة الدولية للصليب الأحمر، التي كانت إحدى أكثر منظمات اللاجئين نفوذاً. وبعد بضعة أسابيع انطلق هولبروك إِلىٰ يوگوسلاڤيا برفقة بوب دي ڤيتش، رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وسيدة قوية ومتنفذة التحقت بالعمل لصالح اللاجئين حين كان زوجها السفير الأمريكي في كمبوديا وكان فيضان من اللاجئين الڤيتناميين والكمبوديين قد تدفقوا إِلىٰ ما يمكن اعتباره عملياً حارتها، تدعى شَبي آبراموڤيتس.

خلال الرحلة قام دي ڤيتشي بأخذ هولبروك إِلىٰ كل من زگرب وبانيالوقا

في البوسنة. كان ذلك يوماً مرعباً. كان فريق الصليب الأحمر الدولي قد وصل برفقة إطلاق نار متواصل من المدافع الرشّاشة الصربية، وكان السائق قد طلب من هولبروك بلباقة أن يتوقف عن التصوير بالڤيديو كي لا يصبحوا هدفاً للميليشيات الصربية. في تلك الليلة تناولوا بعض المشروبات الكحولية في بار الفندق المحلي وترامى إلىٰ أسماعهم كلام امرأة صربية وهي تقول بصورة عادية جداً إن المسلمين مادة مناسبة جداً لصنع مظلات المصابيح. وخارج مبنى عادي جداً قرب الفندق، لاحظ دي ڤيتش رتلاً طويلاً من الواقفين في رتل ومعهم حقائب سفرهم.

كان هؤلاء، وكثيرون منهم مهدودون من التعب والغم الواضحَيْن، وبعضهم غارق في البكاء فعلاً، ينتظرون دورهم المقسوم. وبعد قليل دخلوا المبنى وبقوا فيه لحظات، ثم خرجوا وركبوا حافلة. كان دي ڤيتش حريصاً علىٰ تمكين هولبروك من رؤية المشهد. سألوا عما كان يحصل واكتشفوا أنهم كانوا يتابعون ما ليس أقل مما بات يُعْرَف باسم التطهير العرقي. فالمسلمون الذين عاشوا حياتهم كلها في هذه البلدة كانوا يدخلون مقر القيادة الصربية ويوقّعون علىٰ وثائق التنازل عن ممتلكاتهم مقابل ضمان مزعوم للمرور الآمن إلىٰ كرواتيا. بل وكان المبنى يحمل عنواناً: مكتب إعادة توطين السكان وتبادل الممتلكات. كانت الممتلكات التي تنازل عنها المسلمون ستُعطى إلىٰ الصرب، إما إلى أولئك الذين كانوا يعيشون هناك، أو إلىٰ آخرين تم استيرادهم من أجزاء البلاد الأُخرى إلىٰ المنطقة بهدف صَرْبَنَتها تحديداً. كان الإجراء قانونياً بشكل صارم!

علم هولبروك أن هذا التدبير تمّ فرضه من قِبل القيادة الصربية غير النظامية التي باتت مسيطرة علىٰ البلدة ودائبة علىٰ قتل بعض المسلمين واختطاف بعضهم الآخر، مهددين حياة الباقين إذا أحجموا عن التنازل عن ممتلكاتهم والمغادرة. بعض مسلمي البوسنة كانوا رابطي الجأش، رواقيين، إزاء الوضع. غير أن بعضهم كانوا أقل تحلياً بتلك الصفة. كان الجميع يرحلون عن الأرض

التي عاشت فيها عائلاتهم منذ قرون للقيام بعبور غير مرغوب فيه، دون ضمانات سلامة حقيقية، إلىٰ بلد آخر قد لا يرحب بهم. رأى دي فيتش الذي كان يراقب هولبروك أنّه كان شديد التأثّر بالمشهد. ومَنْ قال إن الإنسان يستطيع أَن يقاوم التأثّر أمام مشهد كهذا؟! لم يكن هولبروك قد كتب عدداً من التعليقات والزوايا والافتتاحيات حول الأزمة المتصاعدة فقط، بل وكان قد اتصل بصديقه القديم ستروب تالبوت، الذي كان أَحد كبار محرري قسم السياسة الخارجيَّة في مجلة **التايم** وأحد أصدقاء المرشح الديمقراطي بيل كلنتون، لإبلاغه بأن البوسنة كانت موشكة علىٰ أن تصبح مأساة مرعبة. أضاف هولبروك: «من شأن فوز كلنتون أَن يشكِّل انتقاماً من بوش وإيگلبيرگر»(3).

كتب هولبروك فيما بعد معترفاً بأنّه، منذ فيتنام، لم يشهد مشكلة علىٰ هذه الدرجة من الصعوبة والإلحاح. جاء تعليقه الأَول علىٰ البوسنة في مجلة **النيوزويك** نبوئياً بشكل غير عادي إذْ قال: «بردّها غير المناسب حتى الآن، ربما كانت الولايات المتحدة والأسرة الأوروبية، إلىٰ درجة عالية جداً، متورطة ليس فقط في تقويض الأحلام المعقودة علىٰ البيت الأوروبي المشترك، لحقبة ما بعد الحرب الباردة، بل وفي زرع بذور حقبة أُخرى زاخرة بالمآسي». طالب هولبروك بوضع حد لحظر توريد الأَسلحة الذي عاقبَ البوسنيين دون الصرب، وأضاف أَن من شأن كل يوم يمر مشحوناً بالقتل أَن يؤدي إلىٰ تقليص فرص الحيلولة دون وقوع مأساة طويلة الأمد. وتساءل هولبروك عما سيفعله الغرب إذا ما انقلبت المعتقدات الدينية للمتقاتلين واندفعت قوة إسلامية ساعية إلىٰ تدمير مليونين من المسيحيين أَو اليهود مطوقين. وإضافة إلىٰ مقاله الافتتاحي بدأ هولبروك يدفع بفكرة اعتماد سياسة نشطة لدى أصدقاء له كانوا مقرَّبين من المرشح بيل كلنتون.

---

(3) هولبروك، 39.

لم يكن باقي العالم متفرجاً في الحقيقة. لقد حاول وقف الاشتباكات، غير أَن حركته كانت من البداية ضعيفة وغير كافية. فبموجب قرارات مجلس الأَمن الدولي بادر أولاً إِلىٰ إِرسال قوَّات تشرف علىٰ وقف إِطلاق النار بين الكروات والصرب، ثم سارع، في سنة 1992م، حين انتقلت أعمال العنف إِلىٰ البوسنة، إِلىٰ تسيير المزيد من القوَّات بوصفها قوة حفظ سلام إِنسانية لوقف القتال والمعاناة هناك، ربما كان ما فعله العالم صادراً عن النوايا الحسنة ولكنه بقي غير كاف، وظلّ يشكِّل استهانة مأساوية بالعنف المتفاعل في قلوب المعتدين.

لم تكن الأمم المتّحدة، في ضوء الوحشية الصارخة لما كان يجري في البوسنة، في ضوء تعرّض الكثير والكثير من المناطق للاجتياح، وفي ضوء التفويض الضعيف لقوات الأمم المتّحدة المعروفة باسم UNPROFOR، قوات الحماية الدولية، إِلاَّ ورقة توت، بدلاً من أَن تكون قوة أمن. علَّق أَحد الدبلوماسيين مازحاً افتُرض في الأَمم المتّحدة أَن تحفظ السلام حيث لا وجود لأي سلام، وحيث لم يكن أَحد الطرفين، وهو جيد التسليح بصورة استثنائية، راغباً في حفظ السلام. افتُرض فيها أَن تبقى محايدة في صراع دائر بين معتدين عتاة من جهة وضحايا مكشوفين من الجهة المقابلة. كان تعداد جنودها ـ وقد تصرف بعضهم بكثير من الكرامة والجرأة، غير أَن كثيرين منهم لم يفعلوا ـ أقل بصورة شبه دائمة فضلاً عن ضعف تسليحهم، دون أَن يعرفوا قط ما إِذا كان عليهم أَن يردوا علىٰ النار بالمثل. قد يتحوّلون، إِذا ما فعلوا، من قوات حفظ سلام محايدة إِلىٰ مشاركين مسلحين، مما سيفضي لا إِلىٰ دفع الصرب الأقوياء إِلىٰ التصدي لهم فقط، بل وإِلىٰ إِثارة غضب رؤسائهم في مقر الأمم المتّحدة بنيويورك أَيضاً. مرة بعد أُخرى وجدوا أنفسهم مدانين إِذا فعلوا [إِذا ردّوا علىٰ النار] ومدانين إِذا لم يفعلوا. عموماً باتت قوة الحماية الدولية UNPROFOR شيئاً مرعباً، شيئاً يجسّد أشكال ضعف وتردّد الدول الأعضاء في الأمم المتّحدة أَكثر

من تجسيده لضعف هذه المنظمة، رغم عدم وجود أي شيء يمكن لقيادة الأمم المتّحدة في البلقان أن تفتخر به. فالأوروپيون الذين كانوا قد توهموا أنهم قادرون علىٰ معالجة المشكلة باتوا الآن مسحوقين تحت وطأة الوحشية والشراسة الصارختين للاجتياح الصربي، فيما بقي الأمريكيون مصرّين علىٰ معارضة التدخّل العسكري.

كم أنت مسكينة أيتها البوسنة! علىٰ مقياس ريختر الجيو ـ سياسي، لم تكن جملة الصراعات والمعارك الداخليَّة الحتمية في البلقان قد بدت في البداية سبباً كافياً لاستخدام القوّات الأمريكية والمخاطرة بحياة المواطنين الأمريكيين. فقط حين أصبحت أعمال الإبادة مفضوحة، وانقلبت القضية من مسألة جيو ـ سياسيَّة إلىٰ مسألة أخلاقية وجيوسياسيَّة في الوقت نفسه، بادر الأمريكيون إلىٰ الاهتمام. قال أستاذ مرموق للعلاقات الدولية بجامعة پرنستون، عمل لاحقاً مستشاراً لمكتب التخطيط السياسي في وزارة الخارجيَّة وكتب عن هذه الأحداث، وهو ديك أولمان، ما يلي: «يبقى اقتباسي المفضل متمثلاً بعبارة «بومة مينرڤا تطير في الغسق» لهيگل. أعني جملة العلامات الأهم التي من شأنها أن تنبهك إلىٰ، وتحذرك من، قضايا مهمة قادمة تحصل بعد فوات الأوان، نتأخّر كثيراً ـ حين نكون قد عرفنا ما يكفي لنتحرك، من المحتمل أن يكون الوقت المناسب قد فات منذ وقت طويل في الغالب»[4].

كان الاجتياح الصربي للبوسنة قد تمّ التخطيط له بصورة مدروسة ومنظّمة. لم يكن عفوياً بأي شكل من الأشكال. كان ميلوسوڤيتش والصرب مستعدين جيداً للقيام بالغزو. ففي حزيران/يونيو 1991م، قبل تفكّك يوگوسلاڤيا بستة أشهر، كان ميلوسوڤيتش قد تناول طعام الغداء مع سفراء دول الأسرة الأوروپية وحذّرهم من أن من شأن تفكّك البلد أن يدفعه إلىٰ اجتراح

---

(4) مقابلة مع أولمان.

صربيا جديدة. وأضاف أَن سلوڤينيا لم تكن تعنيه في شيء، وكذلك ربما مقدونيا أَيضاً. أَمَّا المناطق المأهولة بالصرب في كرواتيا، البوسنة، والجبل الأسود فلا بد لها من أن تصبح أجزاء من هذا الوطن الجديد، «وطن آباء وأجداد جميع الصرب» حسب تعبير ميلوسوڤيتش.

مما يدعو للأسف أن قوات الحماية الدولية صبّت الماء في طاحونة ميلوسوڤيتش، مُضْيفةً، عن غير قصد، صفة الشرعية (مؤقتاً علىٰ الأقل) علىٰ مكاسبه الإِقليمية. كانت أشبه بنعمة نزلت عليه من السماء، إِذْ وفَّرت له قَدْراً أكبر من الحماية ضد أَكثر نقاط ضعفه، إِمكانية قيام الغرب، مستخدماً القوَّة القصوى ذات التكلفة البشرية المتدنية، بالانقضاض عليه عبر القوَّات الجويَّة العائدة للناتو. غير أَن الغربيين كانوا، بدلاً من ذلك، قد أَصبحوا رهائن محتملين، مكشوفين تماماً، يستطيع ميلوسوڤيتش أَن يأسرهم بسهولة في أثناء تحركه باتجاه هدفه المتمثِّل بصربيا الكبرى. كانوا علىٰ الدوام لقمة سائغة إِذا هدّد الأَمريكيون باستخدام القوَّة الجويَّة، هدية مصنوعة من مادة البلاتين بالنسبة إِلىٰ ميلوسوڤيتش. كان التحالف ضده يعاني من خلل قاتل. فالدول الأوروپية كانت قد بادرت، ولو بصورة خرقاء وغير كافية، إِلىٰ نشر قوات علىٰ الأرض، فيما بقي الأَمريكيون، وهم المتمتعون بامتلاك الأَسلحة التكنولوجية الأعظم والأفعل، غير مستعدين لنشر أية قوات برية. وبالتالي فإِن خطة الغرب كانت قد نُغّلت من البداية، في واحد من الدلائل المشيرة إِلىٰ التواترات القائمة بين الأَمريكيين والأوروپيين، وإِلىٰ عدم اطمئنان الأَمريكيين إِلىٰ الاضطلاع بدور دولي كامل بعد زوال العدو السهل المتمثِّل بالشيوعية عن الخارطة. تمثَّلت المسألة التي ما لبثت الأحداث في البوسنة أَن أعادت إِثارتها مرة بعد أُخرى بمدى أممية أَمريكا في الحقيقة. لا شك أنها كانت القوَّة العظمى الوحيدة، ولكن هل كانت أممية ودولية حقاً؟ لم يكن هذا سؤالاً تسهل الإِجابة عنه.

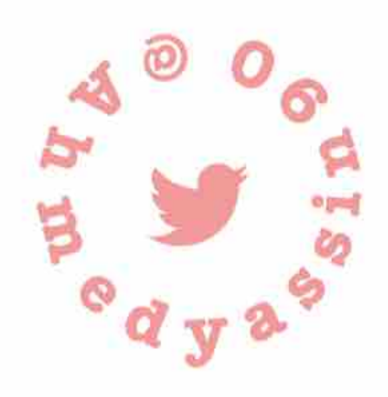
ما من أَحد كان يمكنه أَن يضاهي ميلوسوڤيتش في إِتقان استغلال

الانقسامات الحاصلة بين أعدائه. ربما لم يكن الرجل لمّاحاً، حالماً، وبعيد النظر، غير أنّه كان متمتعاً بقُدْرة لا تخطئ على اكتشاف نقاط ضعف خصومه. كان يتقن فن الغوص لالتقاط هناتهم وعيوبهم وفنّ استغلال الثغرات التي يلتقطها. كان أستاذاً في النأي بنفسه عن الكثير من فِعْلاته الشنيعة. كثيراً ما كان يقول: أَحداث الإِبادة البشعة تلك؟ الانتهاكات الحاصلة في المناطق الآمنة المتفق عليها تلك؟ إنّها من صنع صرب البوسنة الذين كانوا خارج سيطرته؛ إنّهم دولة أُخرى، شعب آخر. تلك هي الطريقة التي بدأت بها مسرحية هزلية بالغة القسوة ومطولة بادر فيها الصرب إلى شنّ الهجمات على المسلمين، وبقي ردّ فعل الغرب متأخراً بعض الشيء على الدوام وأضعف من المستوى المطلوب باستمرار.

لبعض الوقت أَصبحت حرباً رائعة بالنسبة إلى الصرب. فالناس الذين قاتلوهم كانوا على الدوام دون المستوى المطلوب من حيث التسليح. كانت قوات الحماية الدولية قد برهنت على أنها أشبه بأداة نموذجية فيما يخص الصرب، أضعف من أَن تقاومهم، ولكنّها نعمة ثمينة لأنّها وفّرت رهينة محتملة سهلة، رهينة من شأنها أَن تلغي الدور المرعب للقوة الجويّة الأَمريكيّة (أَو الناتوية)، كانت قيادة الأمم المتّحدة شديدة الضعف، وكانت ثمة أصوات كثيرة وخلافات سياسيّة داخليّة كثيرة ناجمة عن السلسلة الطويلة من الانقسامات الحاصلة بين القوى الكبرى، حالت دون توفّر القدرة على وضع حد للصرب. فالأشهر الأولى من العدوان الصربي مضت دون مقاومة إلى حد كبير.

كان ثمة نوع من المكر الغريزي في سائر تحركات الصرب. كانوا قادرين على ممارسة القَدْر الكافي فقط من الضغط للحصول على ما هم بحاجة إليه دون المبالغة في الضغط وصولاً إلى إثارة غضب دول الناتو الأقوى. ما إن تبرز في الغرب أزمة ضمير مؤقتة على السطح حتى كانوا يتراجعون، انتظاراً للحظة المناسبة لمعاودة الضغط. حتى تكتيكاتهم السياسيّة اتّصفت بذلك المكر

الغريزي نفسه. كانوا يحاصرون هذه البلدة أو تلك، ينصبون بطاريات مدفعيتهم، يدكون البلد، زارعين الرعب في قلوب المسلمين المحاصَرين داخل البقعة المطوّقة. ثم يحاولون تلمس الطريق، بشيء من التردد خشية احتمال قيام قوات الحماية الدولية بالانتقام فعلاً هذه المرة، أو قيام أحدهم باستدعاء ضربة جويَّة من قبل الناتو. وفي حال عدم مجيء أي ردّ غربي، كانوا يهاجمون مرة ثانية، بقدر أكبر من الجرأة والتباهي مقارنة مع أي وقت سابق. لقد كانت حرباً رائعة في البداية.


@Ahmedyassin90

الفصل الثالث عشر

كانت الولايات المتحدة عازمة علىٰ عدم الاشتراك في هذه الرقصة وترك الأوروپيين يتدبرونها. لا شيء سلّط الأضواء علىٰ تلك الخطة بهذا القَدْر من الوضوح مثل حادثة وقعت أواخر ربيع 1992م في وقت كانت فيه سيراييڤو تتعرّض للقصف المنهجي. فضابط مكتب يوگوسلاڤيا بوزارة الخارجيَّة، ريتشارد جونسون، ربما كان نقطة الارتكاز الدقيقة في الوزارة بين معارضين علىٰ المستويات الدنيا وشخصيات علىٰ المستويات العليا أرادت الحفاظ علىٰ الأَمر الواقع. سمع جونسون أَن الشباب في دنيا الأَمن القومي ـ بعد سنوات كان متردداً بين وكالة الأَمن القومي ووكالة الاستخبارات المركزية ـ الذين دأبوا علىٰ صنع صور الأقمار الفضائية، كانوا يملكون ليس فقط صوراً جيدة عما كان الصرب يفعلونه في سيراييڤو، بل كانت بحوزتهم أَيضاً صور ممتازة ـ ودقيقة ـ عن مرابض المدافع الصربية هناك. فهذا النوع من تكنولوجيا الأقمار الصناعية كان معجزة تخص أمريكا وحدها؛ كنا متفوقين فيها علىٰ سائر الآخرين في العالم، وقد أثبتت أنها تنطوي علىٰ قيمة استثنائية خلال حرب الخليج.

كان الربط قد جرى عبر جهاز الاستخبارات والبحوث INR، الذي هو السي. آي. إِي. المصغر الخاص بالخارجيَّة. تم الترتيب لحلقة إِيجاز من قبل خبراء الصور والأفلام في مبنى وزارة الخارجيَّة. جرى إِرسال الدعوات إِلىٰ العاملين حتى مستوى مساعد نائب الوزير. وفي اليوم المحدّد قام جونسون

بلملمة نفسه [وتجميع ما لديه من صور] وذهب إلىٰ اجتماع الإيجاز. لقد كان الوحيد الذي حضر من الخارجيَّة؛ وهذا نفسه كان كاشفاً، إذْ بدا أن هناك نوعاً من الحاجة إلىٰ **عدم** المعرفة. استمر لقاء الإيجاز حوالي ساعة ونصف. كانت صور الأقمار الصناعية مدمِّرة؛ أظهرت حوالي خمسة وتسعين مربضاً من مرابض مدافع الميدان والمدافع المضادة للطائرات. لعل أحد الأشياء التي صدمت كلاً من الموجز وجونسون هو مدى وقاحة الصرب. فالمدافع لم تكن مموهة ولا محمية بأي شكل ـ بلا استحكامات أو جدران من أكياس الرمل. وقد فوجئ مقدِّم التقرير الذي عاش تجربة حرب الخليج كثيراً حين رأى مواقع المدافع الصربية مكشوفة تماماً.

طرح جونسون علىٰ الموجز سؤالاً حول ما إذا كان اجتثاث المدافع صعباً فردّ عليه بالنفي المطلق. فاستناداً إلىٰ ما كان قد حصل في حرب الخليج، من شأن مثل هذا الأمر أن يكون سهلاً، حسب رأي الخبير؛ لن تستغرق عمليَّة تدميرها من قبل الطائرات الأمريكيَّة سوى يوم واحد أو يوم ونصف علىٰ الأكثر. وبعد انتهاء حلقة الإيجاز، كتب جونسون مذكرة من صفحة واحدة رفعها إلىٰ توم نايلز، معاون الوزير للشؤون الأوروبية والكندية، متحدثاً عما اطلع عليه ومبيناً مدى سهولة الإجهاز علىٰ مدافع سيراييڤو. لم يأته أي رد علىٰ المذكرة. بل أقدم رئيسه المباشر، مايك حبيب، الذي كان غائباً عن المدينة لدى عقد لقاء الإيجاز، بدلاً من ذلك، علىٰ «هز بَدَن» جونسون علىٰ إرسال المذكرة، موبخاً إيّاه لتجاوزه الحدود، حدود الخارجيَّة السليمة ومخاطرته في اقتحام القطاعات العائدة للجيش.

لا غرابة أن ميلوسوڤيتش ما لبث أن أدرك، وبسرعة، ما **لم** يكن الغرب مستعداً لأن يفعله. فالغرب الذي لم يهب لنجدة ڤوكوڤار ودوبروڤنيك، لم يكن محتملاً أن يسارع إلىٰ مساعدة البوسنة أيضاً. تم سنة 1993م اتهام ديڤيد أوين ـ وقد باتت بعثة حفظ السلام التي يرئسها أشلاء ـ في اجتماع عُقد بنيويورك

بالتورط في القيام بدور الاسترضاء، مثل اللورد تشمبرلين، ممثّل القوى الغربيَّة حين كان قد تورّط في استرضاء هتلر بميونيخ قبل الحرب العالميَّة الثانية. جاء رد أوين الغاضب من الاتهام بارداً، مشيراً، إلىٰ ما كان قد حصل أواخر 1991م في ڤوكوڤار، التي كانت قد أُخضعت لحصار بالغ القسوة حتى سقطت بيد الصرب قبل عيد الميلاد بشهر واحد، «كانت ميونيخ في السنة الماضية»[1].

علىٰ الرغم من أَن المصادر الرسمية لدى الحكومة الأَمريكيَّة عزفت، لأَسباب سياسيَّة مختلفة، عن تقديم صورة عمليَّات الإبادة الجارية في البوسنة، فإن دور الإعلام ما لبث، بالضرورة، أَن أَصبح أَكثر أَهميَّة، وراح المراسلون الميدانيّون في البوسنة يتواصلون مع المراتب الأدنى في سلم الجهاز البيروقراطي، كما سبق أَن حصل في ڤيتنام حيث كانت الحكومة تصرّ علىٰ نفي الإخفاقات العسكريَّة. أمَّا ما كان كبار الدبلوماسيين الغربيين قد بدؤوا يحصلون عليه من معلومات من مصادرهم الاستخباراتية كما عن طريق ممثلي المنظمات غير الحكومية، فقد كانوا شديدي الرغبة في إبقائها سراً بسبب التباين الهائل بين الأهوال التي كانت تُقتَرف والعجز الذي كان يتصف به ردهم. غير أن حفنة من الصحفيين الغربيين بادروا، في الوقت نفسه، إلىٰ متابعة القصة بحيوية ونشاط. فروي گوتمان، مراسل **النيوزدي**، الذي كان قد قطع شوطاً لا بأس به علىٰ طريق إعادة تثقيفه حول الصرب، كاد يتعثّر بأبشع الفظاعات الجارية في أوروپا منذ عهد الرايخ الثالث. كان التوقيت منطوياً علىٰ شيء من المراوغة والمكر؛ تم نشر تقرير گوتمان الصحفي الأول منصباً علىٰ الممارسات الوحشية التي تعرّض لها مسلمو البوسنة علىٰ أيدي الصرب في الثالث من تموز/يوليو 1992م، في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة غارقة حتى الأذنين في زحمة حملة انتخابية حامية. كان گوتمان بادئاً بكشف النقاب عما يشير إلىٰ جرائم الإبادة في لحظة باتت فيها إدارة بوش الممسكة بزمام الأمور، المتهمة

(1) ريف، 182.

أساساً بأنّها تهتم بالسياسة الخارجيية، أكثر من اهتمامها بالقضايا الداخليَّة، مشغولة بمعركة إعادة انتخاب متزايدة الصعوبة باطراد.

من البداية تقريباً، كانت تقارير گوتمان متقدِّمة علىٰ سواها بشكل ملحوظ. ففي أوائل تموز/يوليو، حملت إحدى رسائله عن ترحيل المسلمين من البوسنة إلىٰ المجر عنواناً نبوئياً بصورة استثنائية: «التطهير العرقي: يحاول اليوگوسلاف ترحيل 1800 مسلم إلىٰ المجر». تلك كانت البداية فقط. وفي غضون أيام قليلة تلقّى اتصالاً هاتفياً مشحوناً بالعواطف من أحد قادة المسلمين الذين كان قد التقى بهم سابقاً في بانيالوقا، قائلاً: «أرجو أن تحاول المجيء إلىٰ هنا. ثمة الكثير من القتل. إنّهم يشحنون المسلمين عبر بانيالوقا في عربات الأبقار. ليلة البارحة تم ملء خمس وعشرون عربة قطار للأبقار بالنساء، وكبار السن، والأطفال. كانوا مرعوبين جداً. أناشدك باسم الإنسانية وأرجوك أن تأتي». وعلىٰ الأثر نجح گوتمان في الوصول إلىٰ بانيالوقا حيث سمع فيضاً من التقارير عن قيام الصرب بافتتاح معسكرات اعتقال للمسلمين في شمال البوسنة، كان أسوؤها في مكان أومارسكا التي كانت منجماً مكشوفاً للحديد شمال بانيالوقا. كانت القصص التي سمعها مرعبة، وكانت ثمة أسباب وجيهة تدعو إلىٰ أخذها مأخذ الجد. قال له أحدهم «كل العشب أكله الناس. يموت في أومارسكا بين 12 و16 شخصاً يومياً... ثلثا الناس يعيشون تحت السماء. إنّه أشبه بمنجم مفتوح. يغوص أكثرهم في الوحل حتى الركب حين يهطل المطر».

لم يتمكن گوتمان من الوصول إلىٰ أومارسكا ـ قال الصرب إنهم لا يستطيعون ضمان سلامته ـ غير أن موظفاً صربياً عرض عليه رحلة أُخرى إلىٰ معسكر أسرى حرب آخر في مكان يدعى مانياكا. وافق گوتمان علىٰ الذهاب إلىٰ هناك برفقة مصوره ومترجمه، ومرة أُخرى كانت المشاهد ـ مشاهد رجال مهدودين برؤوس حليقة هذه المرة ـ شبيهة شبهاً مخيفاً بالمشاهد الموروثة عن

ألمانيا النازية. ففي الثاني من آب نشرت **النيوزدي** رسالة گوتمان عن أومارسكا تحت عنوان «محرومون من الطعام. محرومون من الهواء». كانت تلك الرواية الأسوأ لقصة ثقافة الإبادة الجديدة. كتب گوتمان عن لسان أحد موظفي الإغاثة يقول: «الجثث متراكمة أكواماً. ليس ثمة أي طعام، ليس هناك هواء للتنفس. ليس ثمة أي دواء. حتى الشعب حول حفرة المنجم تم الإجهاز عليه». وبعد يومين اثنين دَبَّج گوتمان قصة ثانية عن عمليَّات الترحيل الجماعية للمسلمين في عربات القطار قال فيها «لم يكن ثمة أي طعام، أي ماء، أي هواء نقي، لم يكن ثمة أية دورات مياه، مجرد حفر مكشوفة ملأى بالفضلات». عدد من الناس، من الأطفال والمسنين، كانوا قد قضوا نحبهم في القطارات، حسب رواية أحد شهود العيان. وقد تحدَّث شاهد العيان هذا عن رؤية أناس محشورين في عربات القطار كالأبقار وأيديهم مرئية عبر ثقوب التهوية الصغيرة. قال موظف مسلم كان شاهداً هو الآخر «كان المشهد أشبه بعمليَّات ترحيل اليهود إلىٰ آوشفيتز». جاء عنوان الرسالة معبراً عن المشهد كله: «مثل آوشڤيتز». وتحته كان العنوان الفرعي الذي يقول: «يقوم الصرب بحشر المسلمين في عربات الشحن». لم يكن المسلمون الموجودون في أومارسكا والمعسكرات الأُخرى من الرجال قد اختيروا عبثاً، لأن جُلّ الأشياء في هذه الحملة كانت مدروسة. لقد كانوا نخبة هذه البلدات المسلمة، من القادة السياسيين، عناصر الشرطة، الأطباء، رجال الأعمال، والمعلمين. لم يكن أحد سيرى كثيرين منهم مرة أُخرى.

ثمة الآن شهود في الغرب علىٰ الكارثة، وشعور التردد المتباطئ والمستحكم بعناد في واشنطن والعواصم الأوروپية تمخض آخر المطاف عن إيجاد قاعدة سياسيَّة جديدة معقَّدة في أمريكا. كانت هذه القاعدة مختلفة عن سابقاتها التي نشأت في أثناء المعارك الفكرية الحديثة الدائرة حول السياسة الخارجيَّة إذْ لم تعد موزعة وفقاً للميول الإيديولوجية التقليديَّة، بل مدفوعة،

بالأحرى، بذاكرة قامت بربط هذه الأحداث بفظاعات النازيين وبالتالي طالبت الأقوام الأُخرى بالتساؤل عن أَهدافها الأكبر. ما كان يحدث في البوسنة بدأ يتبلور، ولو ببطء، علىٰ شكل قضية سياسة خارجيَّة، قضية مرشحة بوضوح لاجتياز اختبار أخلاقي أَكثر تعقيداً حول هوية القوميَّة الأكبر الذاتية، وقضية تستعيد ذكريات إِخفاق سابق من جانب قادة غربيين علىٰ صعيد التحرّك قبل فوات الأوان لوقف عمليَّات الإِبادة، وإِن أخفقت في الارتقاء إِلىٰ مستوى تعريف الأَمن القومي المعياري المطلوب حتى تبادر أَمريكا إِلىٰ التدخّل.

رأى گوتمان بعد سنوات أنّه كان مثيراً أَن يتطلب أمر الكشف عما كان يجري وجود مراسلين ميدانيين، رغم توافر كل تلك الأجهزة الدبلوماسية التابعة للدول المعنية، رغم كل تلك الأجهزة الاستخباراتية المهتمة بالموضوع، ورغم جميع تلك المنظمات غير الحكومية المتجذّرة في الغرب والقادرة علىٰ معرفة ما كان يجري في البوسنة. إننا في عصر تجسس كاميرات الأقمار الصناعية، كما كان يروق لگوتمان أَن يقول، وكان ثمة ما لا يقل عن مئة معسكر اعتقال صربي في البوسنة. وبالتالي فإِن الزعم بعدم وجود صور عما كان يجري بين أيدي وكالات الاستخبارات الغربيَّة زعم يدعو للسخرية. فأية دولة غنية، قوية تستطيع أَن تحصل علىٰ مثل هذه المعلومات بسهولة فائقة. أَمَّا عزوف رسميي واشنطن عن الرغبة في المعرفة فقد كان مستنداً إِلىٰ سبب وجيه: كان من شأن الاطلاع علىٰ ما كان يجري وعدم المبادرة إِلىٰ التحرّك أَن ينطوي علىٰ قَدْر كبير من الحرج. وبالتالي فقد كان الجهل بما كان يجري، أطول فترة ممكنة، أَي طوال الجزء الأكبر من سنة 1992م، أفضل.

أدرك گوتمان من البداية أَن الأَمر سيكون صعباً بالنسبة إِلىٰ أَكثرية الصحف الأَمريكيَّة. ففيما مضى كان الوتر الذي يسهل العَزْف عليه بالنسبة إِلىٰ أَي مراسل خارجي متمثلاً بالحرب الباردة علىٰ الدوام: أخيار معادون للشيوعية يتصارعون مع شيوعيين أشرار. أَو أَن الفروق الأَخلاقية كانت، بالمناسبة، أقل

بين القوتين المتنافستين في العالم الثالث، حيث ظل رؤساء التحرير والقرّاء على الأقل مطمئنين إلىٰ أن النزاع كان جزءاً من المجابهة الأوسع بين الشرق والغرب فيتعاملون معه بالشكل المناسب. ما من أحد كان يشك بأن جميع أنواع المجابهة مع الشيوعيين (أو اليساريين علىٰ الأقل) كانت نَسْغَ حياة الكتابة الصحفية عن قضايا السياسة الخارجيَّة علىٰ امتداد ما يزيد عن أربعين سنة، مع افتراض مضمر يقول بأن الشيوعيين هم قوى الظلام. لم تكن المشكلة كامنة في افتقار القصة البلقانية إلىٰ عنصر الشر. لعل العكس هو الصحيح. من الواضح أن الشر كان موجوداً بوفرة. إلاّ أنّه كان شراً دون سياق أوسع ودون ذلك الإطار الدرامي المثير الذي كان معظم كبار البيروقراطيين في واشنطن، من أولئك الموجودين في الكونغرس، وكبار تنفيذيي الإعلام قد تدرَّبوا علىٰ الاعتراف به. فشكل الشر الذي كان غوتمان يكتب عنه لم يكن متوافقاً مع التصور المسبق للشر الذي كان موجوداً في عقول الكثير ممن عكف علىٰ الكتابة لهم ـ مع تعريف تمخضت عنه الحرب الباردة التي دامت أكثر من أربعين سنة.

ولعل ما جعل إيصال قصة البوسنة إلىٰ البيوت الأمريكيَّة بالنسبة إلىٰ مراسلي وسائل الإعلام المطبوعة أكثر صعوبة أيضاً هو غياب التغطية التلفزيونية. ففي غابر الأيام كانت الكلمة المطبوعة تحدد معالم التقارير الإخبارية، فترسم، بالتالي، جدول الأعمال، ثم تأتي القناة التلفزيونية وتبثّها للجمهور العريض. غير أن ذلك ما لبث أن انقلب رأساً علىٰ عقب أواخر عقد السبعينيّات، ربما مع قصة الرهائن في إيران. فالآن لم يعد الأمر يقف عند تراجع أهميَّة الأخبار الخارجيَّة ـ كانت الحرب الڤيتنامية قدأحبطت الكثيرين وخيبت آمالهم بشأن طبيعة التورط الخارجي ـ بل وتجاوزه إذْ أصبح البلد يحس، ببساطة، أنه مهدّد؛ وكانت الشبكات دائبة علىٰ تأكيد التقارير والقصص الداخليَّة، التي باتت تُعتبر أكثر أهميَّة من الأخبار الأجنبية بالنسبة إلىٰ جمهور المشاهدين. ومما ينطوي علىٰ قدر مواز من الأهميَّة أن الشبكات كانت،

انطلاقاً من الشعور بقوتها ونفوذها الصاعدين مقارنة بالكلام المطبوع، موشكة علىٰ الشروع بالعمل وفقاً لجملة من المبادئ والمعايير التي تخصّها، بدأت جاذبية أيّة قصة من تغطية الكلمة المطبوعة النخبوية تعني ما هو أقل فأقل بنظر المخرجين التنفيذيين، بعد أن صارت الصور ـ الخيالات ـ تعني أكثر فأكثر. بأن تكرار **النيويورك تايمز** أو **الواشنطن پوست** بطبعة متلفْزة لموضوعات صفحتيهما الأوليين باعثاً علىٰ الملل. أمّا ملاحقة اللقطات ذات الشحنة العالية من الأفعال فكانت أكثر إثارة، حتى حين لا تكون لقطات الفعل هذه منطوية إلاّ علىٰ القليل من المعنى.

فيما عدا لقطة مثيرة في حصار سيراييڤو، لم يقم التلفزيون بتغطية الأحداث الجارية في البوسنة بأي قدر كبير من التركيز والتكثيف. ومثل هذا الغياب للتغطية التلفزيونية كان يعني عدم اضطرار الحكومة للرد علىٰ جملة القصص والتقارير العابرة المنشورة، في المقام الأول، علىٰ صفحات جرائد الطبقة الوسطى النخبوية. ورغم اكتسابها لشيء من الزخم، فإن أية قصة، لم تكن لتصل إلىٰ التيار الرئيسي الأمريكي بما يؤدي إلىٰ إجبار الإدارة علىٰ الرد، ما لم تصبح قصة تلفزيونية.

غير أن فريقاً من الإعلاميين الأمريكيين كان بادئاً في التشكّل بيوگوسلاڤيا: ثمة كان بلين هاردن من **الواشنطن پوست** وجون بيرنز من **النيويورك تايمز** الذي كانت تغطيته، باعتقاد گوتمان بالغة الأهميّة لأنّه كان يمثّل الصحيفة ذات القاعدة الأقوى في البلاد والعالم. وبيرنز هذا، وهو المراسل المتميز الذي سبق له أن قام بعدد من المهمات الصعبة، كان متمتعاً بقَدْر غير قليل من الشهرة وحاملاً لجائزة پوليتزر، ولم يكن أحد يستطيع أن يشطب رسائله الصحفية بسهولة علىٰ أنّها صرخات عاطفية صادرة عن مراسل شاب وغر يجهل أسلوب عمل العالم الواقعي.

بفضل تغطية گوتمان بدأت قصة البوسنة تشق طريقها صعوداً وتقتحم

الشرائح المتوسطة من بيروقراطية واشنطن. فبرأي شاب كان يعمل في دائرة التخطيط السياسي بوزارة الخارجيَّة يدعى جون فوكس شكَّلت رسائل گوتمان الصحفية الأولى عن الإبادة نقطة انعطاف. كان گوتمان، باعتقاده، مراسلاً يحظى باحترام كبير في واشنطن فضلاً عن أن **النيوزدي** كانت صحيفة متمتعة بقَدْر كبير من الاحترام. أضف إلىٰ ذلك أن رئيس مكتب گوتمان، شاول فريدمان، كان أحد المراسلين الدبلوماسيين ممن كانوا يكثرون السفر برفقة جيمس بيكر، وقد كان صديقاً قديماً لكل من بيكر ومديرة مكتبه الصحفي مارگريت تاتوايلر. أضفى ذلك مسحة من المشروعية لأن فريدمان دأب علىٰ تأكيد كلام گوتمان وضمن وصول تقاريره إلىٰ كبار المسؤولين في وزارة الخارجيَّة بصورة مباشرة. غير أن رسائل گوتمان ـ تأكيد ما كان الكثير والكثير من الناس واثقين من حدوثه ـ تركت تأثيرها الأقوى علىٰ مستويات أدنى في الوزارة. فسرعان ما جرى تصوير الرسائل وتداولها في مختلف أقسام الوزارة ومكاتبها. كانت، برأي فوكس، أشبه بما فعلته نشرة ساميزدات في الاتحاد السوڤيتي السابق. كانت تقارير گوتمان هي المطلوبة بالضبط بالنسبة إلىٰ فوكس، لأنه كان يحاول أن يسوق حججاً قوية لإثبات ضرورة حصول شكل من أشكال التدخّل العسكري الأمريكي، بالتعاون في الغالب مع آخرين علىٰ مستويات موازية من الإحباط في الجهاز البيروقراطي. أضف إلىٰ ذلك أن فوكس كان يرى أن المنظمات غير الحكومية جديرة بالاحترام ولا يجوز الاستخفاف بأهميتها. لقد كانت هذه المنظمات هناك، علىٰ الأرض، ذات طبيعة إنسانيَّة أكثر منها إيديولوجية بأكثريتها الساحقة ـ ونحن هنا بصدد صراع إنساني لا صراع إيديولوجي ـ وكان لبعضها قُدْرة ممتازة علىٰ معرفة ما كان جارياً. كان فوكس واثقاً من أن تقاريرهم، خصوصاً تلك الدائرة حول المظالم التي ألحقها الصرب بمسلمي البوسنة التي دأب الصليب الأحمر الدولي علىٰ التذكير بها، كانت قد وصلت إلىٰ أعلىٰ مستويات إدارة الولايات المتحدة. فما الذي كان يحول، إذن، دون تحرّك هذه الإدارة بالإنطلاق منها؟

في صيف 1992م كان دفع كبار المسؤولين في الإدارة ولو إلىٰ الاعتراف بحدوث جرائم إبادة في البوسنة يتطلب نضالاً حقيقياً. دأب فوكس علىٰ العمل مع الجهاز البيروقراطي، عاكفاً علىٰ الحديث مع أناس من عقليات مماثلة في الأجهزة الأُخرى ومع أصدقاء في المنظمات غير الحكومية، ساعياً إلىٰ توثيق الانتهاكات الفظيعة. قال فوكس، بعد سنوات، «كنت أشبه بعنصر تقصّي حقائق في **النيويوركر**، ساعياً إلىٰ تأكيد أمور معينة، عاملاً مع أناس يحملون المشاعر نفسها في مختلف دوائر الحكومة. كنا شبكة مؤلَّفة من أناس يعملون لدى جهات مختلفة داخل الإدارة وخارجها، يتبادلون المعلومات والنصائح. كنا نملك كماً هائلاً من المعلومات الشبيهة إلىٰ حد كبير بتلك التي نشرها گوتمان عن معسكرات الاعتقال والفظائع. وقد اكتشفنا أَن معسكرات الاعتقال لم تكن هي الأسوأ في الصورة الإجمالية. تمثّل الأسوأ، بالأحرى، بقيام الصرب بإعدام قادة جميع القرى، قرية بعد أُخرى، بصورة منهجية». ذلك هو ما جعل قصة گوتمان المنشورة في الثاني من آب/ أغسطس 1992م، عن أهوال أومارسكا، منطوية علىٰ هذا القدر الكبير من الأَهميَّة. تذكّر فوكس وقال: «كنا نعلم بأنّه ستحدث ضجة كبيرة وستؤدي إلىٰ تحريك أشياء كثيرة لأَن مراسلاً رئيسياً لجريدة رئيسيَّة كان يتحدَّث عن معسكرات اعتقال بقدر كبير من التفصيل».

لأسابيع ظلّت توجيهات وزارة الخارجيَّة الصحفية تصرّ علىٰ أن أَحداً لم يستطع أَن يثبت صحة الشائعات المتداولة عن حصول انتهاكات صربية في البوسنة. أَمَّا في ذلك اليوم فإن جواب الموجه الصحفي علىٰ أية أسئلة حول تقرير گوتمان في **النيوزدي** شكَّل انقلاباً مثيراً. فقد قيل: **نعم، نستطيع تأكيد صحة هذا، ثمة معسكرات اعتقال في ذلك الجزء من العالم**. كان الاعتراف مهماً لأَن وجود تلك المعسكرات كان من شأنه أَن يفرض علىٰ الولايات المتحدة اعتماد سياسة معينة تجاهها. صُعق فوكس وهو ينظر إلىٰ الموجه الصحفي ذلك اليوم. صرخ بأعلىٰ صوته متسائلاً عما كان قد حصل واكتشف

أَن محرر التوجيهات، وقد كان معروفاً بعدائه للتدخّل وصاحب دور حاسم في التحكّم بما يتسلّل إِلىٰ التوجيهات، كان في إِجازة. يقول فوكس: «يا لها من فرصة عظيمة! غاب القط إِلْعَبْ يا فار!».

كان لاري إِيگلبيرگر، الشخص المسؤول في الخارجيَّة عن سياسة اختزال قصة الانتهاكات إِلىٰ الحدود الدنيا، شديد الاستياء من الانقلاب الحاصل. حملت نشرة التوجيهات الصحفية في اليوم التالي، في طبعة أولية لها، صورة معكوسة رأساً علىٰ عقب. تعين علىٰ إِعلاميـي الوزارة أَن ينفوا أَنهم تمكّنوا من إِثبات صحة القصة لدى تعرّضهم للسؤال عنها. اشتم فوكس رائحة ما حصل وقرّر تحدي هذه المحاولة الأخيرة لإِدامة ما اعتقده إِخفاء للحقيقة ولفلفة للفضيحة. كان رؤساؤه قد أبلغوه بأن الانقلاب جاء من مسؤولين كبار، أَي من إِيگلبيرگر، وبأن الإِنكار نازل من القمة إِلىٰ القاعدة. وإِذا كان فوكس راغباً في تغيير الأَمر، فقد تعين عليه أَن يشتبك مع أولئك المسؤولين الكبار.

وهكذا فإِن فوكس بادر، عبر سلسلة من الرسائل الإِلكترونية، إِلىٰ تحدي ما كانت الوزارة تحاول أَن تفعله. بحوزة إِدارة الولايات المتحدة وفرة من المعلومات التي تؤكّد حصول هذه الانتهاكات. ولا يستطيع الإِنكار أَن يصمد، قال فوكس: إِننا نعرف أنها الحقيقة ومع ذلك فإِنّنا نصرّ علىٰ أَن نقول بأنّنا لا نعرف ما نعرفه فعلاً. وبعد ذلك أضاف فوكس جملة واحدة جاءت قاتلة، أصابت مقتلاً، إِذ قال: لقد فعلنا هذا مرة من قبل، ويجب علينا ألا نفعله مرة أُخرى علىٰ الإِطلاق. كان يعني أن الولايات المتحدة كانت قد ارتكبت ـ لأَسباب تعود، في جانب غير قليل منها، إِلىٰ إِهمال وزارة الخارجيَّة ولا مبالاتها ـ خطأ التعامي عن قيام ألمانيا بإِبادة اليهود خلال الحرب العالميَّة الثانية، ويجب ألاّ يحدث ذلك مرة أُخرى. وقد رأى فوكس أَن عبارة «مرة أُخرى علىٰ الإِطلاق» عنت ما عنته حرفياً. ولدى حديثه مع العاملين في مكتب

إِيگلبيرگر لعب فوكس أقوى أوراقه، إذ جعلهم يعرفون بقدرته علىٰ الوصول إِلىٰ كميات كبيرة من المواد المؤكدة لصحة ما جاء في قصة گوتمان.

أخيراً نجح فوكس في إقناع رؤسائه في قسم التخطيط السياسي بتغيير التوجيه الأخير وتأكيد رواية گوتمان. ربما بدا الأَمر، برأي فوكس، انتصاراً صغيراً لمن هم في الخارج، غير أَن انتصاراً من أَي نوع، ولو علىٰ الورق، كان من شأنه، في مكان مثل وزارة الخارجيَّة، أَن يشكِّل انتصاراً هائلاً وخطوة كبيرة في تلك العمليَّة البطيئة والصعبة لتغيير سياسة ظلت مجمّدة هذه المدة الطويلة كلها. ضحك فوكس بينه وبين نفسه حين علم بأن توم نايلز، مساعد الوزير للشؤون الأوروپية، قد ذهب في ذلك اليوم إِلىٰ الكونگرس، حيث حاول أَن يدافع عن سياسة «عدم سماع أو رؤية أَي خلل». تحداه عضو كونگرس ديمقراطي كان قد وُلد في المجر وأَصبح أَحد أَكثر الأعضاء صراخاً علىٰ صعيد شجب الانتهاكات الصربية، يدعى توم لانتوس. فقد كانت لدى لانتوس هذا مصادر موثوقة تخصّه بما مكّنه من الاستهزاء بقصة نايلز.

سرعان ما توافرت، بالمناسبة، شواهد أَكثر وضوحاً علىٰ معسكرات الموت. كان فريق تلڤزيوني بريطاني قد تمكن من الوصول إِلىٰ أومارسكا ومن التقاط بعض المشاهد. وقد كتب صحفي من الفريق يدعى إِد ڤوليامي لاحقاً عما رآه قائلاً: «لا شيء كان بمقدوره أَن يُعِدَّنا لما رأيناه حين مررنا بالبوابات الخلفية لمنجم حديد أومارسكا وورشات إِذابة الفلذ... يجري [السجناء] في رتل أحادي عبر الباحة إِلىٰ داخل الندوة [الكانتين]. فوقهم في المرصد ثمة عين ساهرة، مخبوءة خلف النظارات العاكسة، لحارس بدين يتابع حركتهم الواهنة بفوهة رشاشه الثقيل. ثمة ثلاثون منهم يركضون؛ رؤوسهم حليقة، ملابسهم فضفاضة علىٰ أجسادهم التي تحوّلت إِلىٰ هياكل عظمية. بعضهم يكاد لا يقوى علىٰ الحركة.... يصطفون في صمت مطواع وذليل ليأخذوا مقنناتهم: حفنات صغيرة مائعة من البقول المسلوقة مدعومة بكِسَر من الخبز والأرغفة البائتة. إِن

الرجال علىٰ مستويات متباينة من الانحطاط والتدهور الإِنسانيين؛ عظام أكواعهم وأرساغهم بارزة مثل صخور نافرة من قضبان أذرعتهم التي باتت أشبه بأقلام الرصاص. تخشبت البشرة، باتت الوجوه صوراً صارخة للذل، للمهانة، وللخضوع أو الاستسلام الكامل، غير أنّهم ما زالوا يثبتون عيونهم البلهاء في تحديقات شبيهة بأنصال السكاكين. ليس ثمة ما يشبه تماماً منظر السجين التوّاق بيأس إِلىٰ الكلام وإِيصال حقيقة مرعبة ما قريبة جداً ولكنّها بعيدة جداً في الوقت نفسه، غير أنّه لا يجرؤ علىٰ أن يفعل»[2].

لعل أَحد أَكثر الأشياء مراوغة حول تلك الفترة، برأي ريتشارد جونسون، مدير مكتب يوگوسلاڤيا، هو تقلّب قاموس المصطلحات. فبدءاً بسنوات بوش، ولكن وصولاً إِلىٰ عمق سنوات كلنتون، ثمة محاولة واضحة بُذلت في سبيل تجنّب كلمة الإِبادة أَو تعديلها علىٰ الأقل. فالإِقرار الصريح بأن ما كان الصرب يقترفونه لم يكن، في الحقيقة، إِلاّ إِبادة للجنس، كان يشكّل قراراً حاسماً، لأَن من شأنه أَن يجعل الحاجة إِلىٰ التحرّك أَكثر إِلحاحاً بما لا يقاس. تطلب الأَمر استخدام أَكثر أشكال الوصف ابتكاراً، استخدام كلمات وعبارات لم تر الوزارة مثيلاً لها منذ سنوات، ربما منذ الأَيام الأولى لڤيتنام حين كانت الحكومة، في مواجهة سيل متواصل من الأنباء المرعبة عن الحرب، قد أعلنت، برباطة جأش، أنها متفائلة تفاؤلاً حذراً.

لاحظ جونسون وجود سلسلة من التدرجات التي أتاحت للمسؤولين الإِعلاميين فرصة الهروب من تسمية الإِبادة باسمها، حتى حين بدأ الناطق باسم وزارة الخارجيَّة يقترب شيئاً فشيئاً من الاعتراف بمدى هول الأوضاع في البوسنة. راح هؤلاء يقولون: ثمة أفعال معينة يمكن اعتبارها «مساوية لعمليّات الإِبادة»؛ أَو «علىٰ حدودها». أَو أَن فعلاً بعينه كان إِبادة، كما لو أَن مجموع ما

---

(2) ڤوليامي، 101 ـ 102.

كان الصرب يفعلونه لم يكن كذلك، مع الإِيحاء بوجود فرق بين فعل إبادة معين من جهة وعمليَّة الإبادة ذاتها من جهة ثانية[3].

كانت شخصية [وزارة] الخارجيَّة المحورية في هذا المنعطف متمثِّلة بإيگلبيرگر الذي لم يكن في موقع يُحسد عليه. كان نائباً لوزير الخارجيَّة، وبصورة تقليديَّة لا يحصل النائب إلاَّ علىٰ المهمات التي لا يريدها الوزير. من الواضح تماماً أَن معالجة شؤون البلقان لم تكن من المهمات المغرية لجيمس بيكر؛ كانت معقَّدة دون أَي أفق منطقي مقنع. عنى ذلك أَن إيگلبيرگر كان يواجه وزيراً مقاوماً، ورئيس جمهوريَّة مقاوماً غير راغب بوضوح في التورط هناك، ووزارة دفاع مقاومة جداً. ومع حلول آب/ أغسطس 1992م تمَت ترقيته ـ وهو شرف نادراً ما يحصل عليه موظف محترف في السلك الخارجي ـ وسُمي وزير [دولة] للشؤون الخارجيَّة. وفي زحمة الاعتراف المتصاعد بالأزمة التي شابت حَمْلة إعادة انتخاب بوش، كان قد تمّ إخراج بيكر الحزين جداً من وزارة الخارجيَّة وإعادته إلىٰ البيت الأبيض لتولي إدارة المعركة السياسيَّة الانتخابية. وبعيد ذلك جرت تسمية إيگلبيرگر وزيراً للخارجيَّة، في لحظة خاصة بقيت في الظل بعض الشيء لأَن البلد الأجنبي الذي عرفه جيداً وربما أحبّه كثيراً، وكثيراً جداً، كان منزلقاً إلىٰ مستنقع صراع داخلي قائم علىٰ الإبادة والتمزيق.

لم يكن إيگلبيرگر غافلاً عن الشكوك والتحفظات لدى باقي عناصر الإدارة، خصوصاً عند الرجلين اللذين كانا فوقه مباشرة، بيكر وبوش. كان هو نفسه يتقاسم مع الآخرين عدداً غير قليل من تلك الشكوك. لم يكن واثقاً من وجود أَي خط صحيح للتحرّك، بل وكان متأكداً من أَن مثل هذا الخط سيكون، وإن وجد، بالغ الصعوبة، وقد خشي، مثل الآخرين في الإدارة، من أَن يتم جر الولايات المتحدة إلىٰ ورطة صعبة ومُكْلفة. غير أَنَّه ما لبث أَن بدأ، بصورة

(3) مقابلة مع جونسون؛ ريتشارد جونسون في مستروڤيتش، 66.

تدريجية، يشعر بعدم قُدرة الأَمر الواقع علىٰ الصمود والاستمرار. فما كان يحدث في البوسنة كان أسوأ بكثير مما سبق له أَن تصوّره في حياته كلها.

كانت الأحداث، ومعها عدد من العاملين اللامعين والمتحمّسين في وزارة الخارجيَّة، وراء قيام إِيكلبيرگر بتغيير رأيه. كان الرجل، عملياً، توفيقياً إلىٰ حدود معينة، غير سعيد بما ما من شأنه أَن يحدث إِذا ما استمرت السياسة الراهنة، ولكنه غير راض أَيضاً عن أَيَّة سياسة بديلة. فمثله مثل صديقه الحميم برنت سكوكروفت، لم يكن إِيكلبيرگر يعتقد بأَننا نستطيع الاعتماد علىٰ القوَّة الجويَّة وحدها. كان يستطيع أَن يتصوّر الصرب وقد قسَّموا قوّاتهم العسكريَّة النظامية إلىٰ وحدات أنصار صغيرة. وهو أمر كان من شأنه وحده أَن يقطع الطريق علىٰ الجيش الأَمريكي المستند إِلىٰ التكنولوجيا المتطورة، ذلك الجيش المراهن علىٰ تحقيق نتائج سريعة في أماكن بعيدة مع النأي بنفسه، بالطبع، عن التعرّض لإِصابات كثيرة. فقد قال فيما بعد: «ما كان يقلقني باستمرار في تلك الأَيام هو شبح ڤيتنام. كنت واقفاً عن كثب علىٰ مدى صلابة الصرب منذ كنت هناك، كنت أعرف كم هم عنيدون وأشداء».

غير أَن الوحشية التي كان الصرب يمارسونها ضد البوسنيين كانت مسأَلة أُخرى. سبق له أَن تصوّر أَن من شأن شروع يوگوسلاڤيا بالتفكّك في 1991م أَن يفضي إِلىٰ العنف ـ «إِلىٰ ورطة دموية مخيفة» حسب تعبيره. بقي علىٰ الدوام متنبهاً إِلىٰ احتمال اندلاع الصراعات العرقية في كوسوڤا جراء أحقاد دموية تاريخيَّة، معتبراً إِيَّاها بقعة خاصة يتعيّن علىٰ الولايات المتحدة أَن توضح لميلوسوڤيتش أنها لن تكون مستعدّة لتحمّل قيام الأقلية الصربية هناك بإِلحاق الأذى بالأَكثرية الألبانية. أَمَّا بالنسبة إِلىٰ باقي يوگوسلاڤيا، فكان إِيكلبيرگر قد تصوّر مستوى مختلفاً تماماً من العنف مقارنة بما يحصل الآن. من شأن سلسلة من الصراعات المريرة أَن تنشأ بين الصرب والكروات، غير أَنَّها ستبقى في إِطار عسكري تقليدي. قد تتعرّض الخارطة لعمليَّة إِعادة رسم، آخر المطاف، قد

يحصل الصرب علىٰ قطاع من كرواتيا أَو يحصل الكروات علىٰ قطاع من صربيا، وقد تُقْدم هذه وتلك علىٰ اغتصاب جزء من البوسنة. وبعد إِنفاق كل ذلك القَدْر من الطاقة في السلسلة الطويلة من المعارك كان من شأن جميع الأَطراف أَن تجد نفسها، ولو علىٰ مضض، متعبة، فيتحقَّق نوع من التوازن القلق، ربما غير المرغوب، وغير المريح بكل تأكيد. كان من شأن خارطة البلقان أَن يعاد رسمها مرّة أُخرى، بما يفضي إِلىٰ جعل أولئك الحاصلين علىٰ ما هو أَكثر مما بدؤوا به سعداء، وأولئك الخاسرين قليلاً من أرضهم مستائين. كان من شأن القتال أَن ينتهي ذاتياً لدى نفاذ وقود الطاقة لدى الفرقاء ببساطة.

ما لم يكن إِيگلبيرگر قد توقّعه هي الإِبادة، هي الوحشية البعيدة عن الرحمة التي مارسها الصرب ضد المدنيين. كان قد رأى صوراً لرجال مسلمين هزيلين أشبه باليهود إِما علىٰ الطريق إِلىٰ المعسكرات النازية أَو فيها. كان قد قرأ الرسائل الصحفية في الجرائد، وثمة غلاف معيّن **لمجلة تام** في آب/ أغسطس 1992م (مع العبارة المناسبة جداً «هل ينبغي أَن يستمر؟») كان يحمل صورة رجال بوسنيين ينظرون عبر سياج أَحد معسكرات الاعتقال، كان قد نبهه إِلىٰ أَنّه كان علىٰ خطأ وقد وقع في خطأ الاستخفاف بالطبيعة الكارثية لما كان جارياً علىٰ الأرض.

في ذلك الصيف تصاعدت الضغوط المطالبة بفعل شيء في البلقان داخل المستويات الدنيا والمتوسطة من وزارة الخارجيَّة، وتركّزت جُلُّها علىٰ الوصول إِلىٰ إِيگلبيرگر. كان جميع من هم دونه تقريباً يريدون اعتماد سياسة أَكثر تشدّداً إِزاء يوگوسلاڤيا. أمَّا فوقه فلم يكن أَحد يريد ذلك. وعلىٰ الرغم من أَنّه كان من سِلْك وزارة الخارجيَّة ولم يأت بمظلة سياسيَّة، فقد كان جمهورياً ليبرالياً وأممياً ملتزماً من الطراز القديم. وحين تمكّن من الصعود إِلىٰ مستوى الرجل الثاني في الخارجيَّة، كان قد استطاع البقاء والاستمرار في الجهاز البيروقراطي في ظل رؤساء مختلفين من جونسون إِلىٰ بوش، ونجح في أداء مهام رفيعة المستوى.

يقول إيگلبيرگر متذكّراً إن أباه الطبيب في ميلووكي أولاً وستڤنس پوينت، وسكونسن، بعد ذلك، كان «علىٰ يمين جنكيزخان إذا جاز التعبير»، غير أن الابن الذي ترعرع في أجواء السياسة الجمهوريَّة الطلابية خلال سني الحرب العالميَّة الثانية كان قد برز عضواً بارزاً في جناح ڤاندبيرگ الأممي للحزب. في الثامنة عشرة من العمر كان إيگلبيرگر مؤيداً لإيرل وارن في انتخابات 1948م الرئاسية التمهيدية، وكطالب جامعي كان الجمهوري الوسكونسني النادر نسبياً الذي انخرط في مكافحة ممثل الولاية في مجلس الشيوخ، ذلك السياسي الأشهر، ولو لم يكن المتمتع بالقَدْر الأكبر من الإعجاب، جو ماكارثي.

كان إيگلبيرگر ذا شعبية قوية مع أناس رفيعي المستوى عبر طيف سياسي واسع. سبق له أن عمل مساعداً خاصاً لدين آتشيسون حين كان الأخير ينفذ مهمات لصالح ليندون جونسون، كان مسؤولاً عن الشؤون الأوروپية في هيئة مجلس الأمن القومي تحت قيادة والت روستو، ثم ما لبث أن تحرّر من روستو ومجلس الأمن القومي ليصبح مساعد نيك كاتزنباخ الخاص حين كان الأخير نائباً لوزير الخارجيَّة وبادئاً بمساءلة سياسات جونسون في ڤيتنام. كان إيگلبيرگر قد أجاد في الخدمة وتميّز بألق حتى سنوات ريگان، حيث عمل تحت رئاسة جورج شولتز في الخارجيَّة، وثمة من اعتقد في الإدارة بأنّه لعب دوراً حاسماً في بعض نجاحات شولتز، خصوصاً خلال معاركه الطويلة القاسية مع كاب واينبيرگر في وزارة الدفاع. كان إيگلبيرگر متألقاً، ذا ذكاء عملي بعيد عن التجريد، مع كمون أعظم نقاط قوته في قُدْرته الخارقة علىٰ قراءة دواخل المحيطين به. كان متمتعاً بجملة من المهارات السياسيَّة الطبيعيَّة، وبلا نظير تقريباً في إتقان فن العمل داخل الجهاز البيروقراطي ودفع الأمور في الاتجاه المطلوب في الحقيقة. كان إيگلبيرگر قد أقام علاقته السياسيَّة الأهم أواخر سنة 1968م، حين ارتبط بهنري كيسنگر الذي كان يعمل لدى نكسون خلال الفترة الانتقالية قبيل أن يصبح مساعد نكسون في رئاسة مجلس الأمن القومي. علىٰ

الفور أدرك كيسنگر الذي كان موشكاً علىٰ استبدال العمل الأكاديمي بالإدارة كم كان إيگلبيرگر ناجحاً، وكم أجاد في إدارة جهاز بيروقراطي معقّد. لقد كان كيسنگر ما يزال غراً في ذلك المجال.

خلال العام التالي كرّس إيگلبيرگر نفسه، بين أشياء أُخرى، علىٰ حماية ظهر كيسنگر، تلك المهمة التي كادت تستغرق كل وقته بسبب الكيد المتفاعل في نفوس أهل اليمين ضد كيسنگر. حاول، نموذجياً، أن يحجب كيسنگر المصاب بجروح بليغة عبر مؤتمر مدينة كنساس الجمهوري الشهير لسنة 1976م، حيث لم تقف الأمور عند الهجوم علىٰ سياساته الانفراجية، بل تجاوزتها إلىٰ الانقضاض علىٰ مجمل مفهوم الأممية القائمة علىٰ تأييد الحزبين كله. تمخّض المؤتمر الصاخب، الملتهب آخر المطاف، ولو علىٰ مضض، عن ترشيح جيري فورد، غير أن الخطاب الأبرز والأبقى في الذاكرة كان صادراً عن رونالد ريگان الذي لم يأت علىٰ ذكر اسم فورد. أمّا كيسنگر الذي كان مبعث حرج لاجتماع هذا الحزب الذي دأب علىٰ التغير بهذه الصورة الجذرية، فقد جرى تهريبه إلىٰ داخل مدينة كنساس واحتُفظ به هناك «في حالة اعتقال منزلي» حسب تعبير المعلّق جول ويتكوفر. متنبهاً إلىٰ مشاعر رئيسه الجريحة، بادر إيگلبيرگر إلىٰ الاتصال بمنظمي المؤتمر الجمهوري ملتمساً منهم التظاهر بنوع من الترحيب لطمأنة كيسنگر عندما يصل. لم يكن الأمر صعباً، وحين وصل كيسنگر أخيراً إلىٰ فندقه في مدينة كنساس، كان ثمة حشد جميل من الشباب الجمهوريين الأنيقين المصقولين يطلق الهتافات ويرفع اليافطات ترحيباً بكيسنگر ـ **مدينة كنساس ترحب بوزير الخارجيّة كيسنگر!** ألقى كيسنگر اللاذع دائماً نظرة علىٰ الحشد، التفت إلىٰ إيگلبيرگر، وقال: «أنت نظمت هذا، أليس كذلك؟».

لم يكن إيگلبيرگر رجل فكر غريزياً؛ كان، بالأحرى، أحد أولئك النادرين الذين جاءت مواهبهم الإنسانية متناغمة بصورة استثنائية مع العمل في

الإِدارة والحكم. كان مستقيماً، صريحاً صراحة مدهشة مع الجميع، ويلعب وفقاً لقواعد الولاء من الطراز القديم. غير أَن أحداً لم يكن يعتبره صاحب رؤيا أَو منظراً علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة. اعتقد البعض أَن العلاقة مع كيسنگر كانت مثالية. إِذْ كان الأخير مضطلعاً بدور المنظِّر، في حين تولّى صاحبه إِتقان فنّ إِدارة الجهاز البيروقراطي، جنباً إِلىٰ جنب، بالطبع، مع القيام بأَعمال التنظيف وراء كيسنگر.

كان إِيگلبيرگر قد ترك الإِدارة أَواسط الثمانينيّات. منهكاً من ناحية وشاعراً بنوع من عدم الانسجام مع جماعة ريگان، كان قد انتقل إِلىٰ العمل في مؤسّسة كيسنگر وشركاه، حيث كانت يوگوسلاڤيا أَحد زبائنه. نجح في مراكمة مبالغ كبيرة من المال في تلك السنوات، أَكثر بالتأكيد مما يراكمه موظفو وزارة الخارجيَّة عادة، وإِن لم يصل إِلىٰ المستوى الذي كان بعض الأَمريكيين ذوي التأهيل الجيد موشكين علىٰ تحقيقه مع صيرورة دور أَمريكا فيما بات الآن اقتصاداً عولمياً طاغياً، مع امحاء الخط الفاصل بين الموظف الحكومي الحالي والموظف الحكومي السابق، ومع تنامي المكافآت المالية إِلىٰ مقادير غير محدودة. (بعد بضع سنوات حين كان عالم شبكة الشبكات (الإِنترنت) في بدايته، وكان إِيگلبيرگر قد تقاعد ثانية، حُوصر مرة أُخرى بعروض سخية تطلب منه الالتحاق بمجالس الإِدارة. قبل بعضها واعتذر عن البعض الآخر. جاء أَحد العروض من شركة جديدة في كاليفورنيا، وبمقدار ما كان يستطيع أَن يرى فإِن أَي مجلس جديد كان من شأنه أَن يقصم ظهر البعير، متطلباً عدداً كبيراً من الرحلات الجويَّة التي كان من شأنها أَن تحرمه من تدخين سجائره الحاضرة علىٰ الدوام. وبالتالي فقد اقترح علىٰ رئيس الشركة أَن يستعيض عنه بزميله اللصيق القديم برنت سكوكروفت، فالتحق سكوكروفت، ذلك الرجل اللطيف البعيد عن التباهي وغير المتمتع بأية ثروة وصاحب التواضع الملحوظ علىٰ الصعيد الشخصي، بمجلس إِدارة الشركة التي عُرفت باسم كوالكوم، وما لبث رصيده أَن بلغ في إِحدى المراحل 75 مليوناً من الدولارات).

بعد العمل مع مؤسّسة كيسنگر وشركاه، عاد إيگلبيرگر إلىٰ وزارة الخارجيَّة ليشغل منصب نائب وزير الخارجيَّة بيكر. مرة أُخرى أثبت أنّه ذو قيمة بسبب الثقة التي كوَّنها. ففي زحمة حرب الخليج بعد تعرّض الإسرائيليين لسلسلة من صواريخ سكود العراقية وباتوا يهدّدون بالخروج عن الطوق والرد من جانب واحد، محطمين ذلك الجسر الهش الذي كان يربط الدول العربية بالتحالف الذي كان، دون هذه الدول، تحالفاً غربياً بصورة طاغية، كان الشخص المؤهّل بصورة نموذجية الذي تمّ إيفاده إلىٰ إسرائيل لثنيها عن الرد بالمثل. من الواضح أن الإسرائيليين وضعوا ثقتهم به كما لم يضعوها بأي شخص آخر علىٰ ذلك المستوى من الإدارة، خصوصاً بيكر.

تميَّز إيگلبيرگر تميّزاً استثنائياً بنوع من الصراحة الملغومة، معترفاً بوجود نقطة ضعف في موقفه هو قبل أن يبادر أحد إلىٰ إبرازها، كما لو كان يريد أن يظهر مدى استقامته. كان من موظفي السلك الخارجي رفيعي المستوى النادرين المتبحرين سياسياً ليشغلوا بسهولة منصب رئيس البرلمان لو كان قد اعتمد مساراً وظيفياً مختلفاً قليلاً. ففي عالم بدا فيه العاملون والعاملات في السلك الخارجي، شأنهم شأن العاملين في مهن موازية، أكثر أناقة علىٰ الصعيد المادي وأكثر برودة علىٰ مستوى السلوك، كان إيگلبيرگر أقرب إلىٰ شخصيات الطراز القديم المحبّبة. كان قصير القامة، بديناً بدانة مرعبة، وفرة مفرطة من الأرطال الموزعة علىٰ جسد بدا متحدياً بشكل صارخ نموذج وزارة الخارجيَّة، بصحة مثقلة بالمتاعب المخيفة علىٰ الدوام، يعاني من الربو الحاد، مصرّاً مع ذلك علىٰ التدخين المتواصل، مستنشقاً دخان سيجارته ومادة بخّاخه المضاد للربو بالتناوب.

كان جهاز العاملين معه يعتبره قَدَرياً، بصورة غريبة، في موقفه من البلقان في ذلك الوقت. لقد عرف يوگوسلاڤيا القديمة، عرف الأحقاد المكبوتة ورأى أنها خطرة. ظلّ علىٰ الدوام يشجب عالم البلقان وراء الأبواب المغلقة. وما

أَكثر ما قال وردّد «إِنّهم كذّابون جميعاً». خشي المساعدون أَن يقول ذلك علناً ذات يوم، ومع مرور الزمن فعله في مؤتمر صحفي بأوروپا، غير أَن الأَمر مرّ دون مضاعفات دبلوماسية. مع عدد قليل من الموثوقين، كان مستعداً ليتحدَّث بحذر عن المأزق السياسي. لا شيء كان سيحدث علىٰ المستوى الذي يعلوه لأَن السنة هي سنة انتخابات، ولأَن الرئيس معرَّض سلفاً للهجوم علىٰ مبالغته في الاهتمام بالسياسة الخارجيَّة. كان، في الحدود الدنيا، يبلغ بوش والآخرين في قمة السلطة، برأي المساعدين، عن مدى سوء الأوضاع في البوسنة. كان بيل مونتگمري، نائبه، يرى أَن إِيگلبيرگر عانى من قدر كبير من الخيبة. دأب مونتگمري هذا علىٰ دفع إِيگلبيرگر باتجاه اتخاذ موقف أَكثر فعالية بهدوء. تجادل الرجلان بحدّة حول أَحداث البلقان وإِخفاق أَمريكا في التحرّك. بعد سنوات، حين أَصبح مونتگمري سفيراً في كرواتيا آخر المطاف، كان ثمة في مكتبه بزگرب صورة موقعة لإِيگلبيرگر عليها عبارة الإِهداء التالية: «إِلىٰ نَكدي، ضميري، موبّخي، وصديقي».

لم يغفَل مونتگمري، كما فعل بعض المطالبين بقَدْر أكبر من التحرّك علىٰ الجبهة اليوگوسلافية، عن أَن إِدارة بوش ظلّت مشدودة إِلىٰ روسيا الوليدة الغارقة في بحر من عدم اليقين. ففيما يخص كلاً من بوش وبيكر وسكوكروفت، بقي خطر انفصال عدد من أجزاء روسيا السابقة أول الهموم، أهم بكثير من يوگوسلافيا. تلك كانت إِحدى العقبتين الواقفتين في طريق إِيگلبيرگر كلما اقترح سياسة أَكثر تشدّداً في البيت الأَبيض. أَمّا الثانية فتمثّلت بالجيش. ربما كان إِيگلبيرگر يطرح وجهات نظر مَنْ هم دونه ممن دأبوا علىٰ المطالبة، بإِلحاح، بالتحرّك، علىٰ من هم في مستواه، غير أَنّه لدى عودته إِلىٰ الوزارة وتكرار ما قاله أولئك، كان يتضح أَن آراء كولن پاول هي العقبة الكأداء علىٰ الطريق. ما الذي كان من شأنه أَن يحصل إِذا ما أَخفق أَي تحرّك عسكري مبكر؟ ما الذي يمكن أَن يحصل، كان إِيگلبيرگر يكرّر سؤال پاول، إِذا ما تم

إِسقاط إِحدى الطائرات وراح الصرب يستعرضون الأسرى في شوارع بلگراد؟ ما رأيكم الآن، يا شباب؟

خلال فترة وجيزة في صيف 1992م، عمل كل من جيم هوپر وريتشارد جونسون في لجنة خاصة برئاسة وارن زيمرمان، السفير السابق في بلگراد، الذي كان قد أَصبح موضع ثقة إِيگلبيرگر بالنسبة إِلىٰ البلقان. كان هوپر وجونسون، كلاهما، ناشطين، وقد تم إِشراكهما في اللجنة من قبل الناشط المضمر الذي أرادهما أَن يدفعا زيمرمان قليلاً إِلىٰ أمام. غير أَنَّهما سرعان ما باتا يشعران بالحرج من عضوية لجنة زيمرمان وطلبا لقاء إِيگلبيرگر. جرى اللقاء في منتصف أيلول/ سپتمبر حين كانت الحملة الرئاسية في الأوج ولم يكن بوش في حالة جيدة. كان الوقت المحدّد خمس عشرة دقيقة، ولكن إِيگلبيرگر أعطاهما ثلاثين. كان هوپر وجونسون فظَّين جداً. أكّدا أَن السياسة الأَمريكيَّة في البلقان فاشلة تماماً. أَن ميلوسوڤيتش كان يملك استراتيجيَّة محدّدة في حين لم تكن لدينا نحن مثل هذه الاستراتيجية. دأبنا، برأيهما، علىٰ التصدّي للعدوان العسكري بالكلام الفارغ. بقي إِيگلبيرگر خفيض الصوت في الاجتماع ـ دون أَي عداء. ربما كان ذلك، ارتاب هوپر، لأَنه وجونسون كانا يلعبان وفقاً للقواعد، عازفين عن الاستقالة بصخب وعلىٰ الملأ، بل مصرّين علىٰ البقاء داخل إِطار النظام. في إِحدى اللحظات التفت إِيگلبيرگر إِليهما وقال: «أريد أَن أشكركما علىٰ إِبلاغي بأن سياستي ملأى بالقذارة». فرد عليه جونسون قائلاً: «أرى أنك كنت منتبهاً إِلىٰ ما قلناه». في نهاية اللقاء طلبا حق توجيه الانتقاد إِلىٰ السياسة فوافق إِيگلبيرگر علىٰ الطلب. بعد حوالي عشرة أَيام، قدّما اعتراضاً شديداً مؤلَّفاً من خمس وعشرين صفحة. وبعد ذلك لم يسمعا شيئاً. بادرا أخيراً إِلىٰ إِدخال مقالهما النقدي في قناة المعارضة مما ضمن بقاءه، علىٰ الأقل، جزءاً من الوثائق التاريخية.

بعد حوالي شهرين، عاد هوپر وجونسون إِلىٰ الاجتماع بإِيگلبيرگر، كان

ذلك، كما يتذكران، في عيد قدماء المحاربين، يوم الحادي عشر من تشرين الثاني/ نوڤمبر. كانت الانتخابات قد انتهت. كان بوش قد خسر وكان كلنتون موشكاً علىٰ تولي الرئاسة، مما أثار الاستغراب أن إيگلبيرگر كان هذه المرة صريحاً معهما. اعترف بأنّه كان قد قرأ المقال، قرأه بعناية. غير أنّه لم يرغب في الإكثار من الكلام عنه من قبل بسبب الانتخابات. لا شيء كان سيحدث حتى تنتهي. أَمَّا إِذا كانا يريدانه أَن يحدث أَي تغييرات معينة فإِن الوقت كان قد حان، لأَنّه كان سيبحث الموضوع مع تشيني وپاول. دار الجدل صاعداً هابطاً بينه وبين المنشقين، مع إِصرار إيگلبيرگر علىٰ تبنّي موقف الجيش. كان يقول: يؤكدون لي أنّهم يتقنون التعامل مع الصحارى لا مع الجبال. ردّ هوپر: «إِلاَّ أنهم قبل الكويت لم يكونوا يعرفون شيئاً عن فنّ القتال في الصحراء». وماذا عن الحلفاء؟ كيف نتعامل معهم؟ كان إيگلبيرگر يريد أَن يعرف الجواب. أجابه جونسون وهوپر: «لا يتعين عليك أَن تسألهم رأيهم، تطلعهم فقط علىٰ السياسة التي ستعتمدها أَمريكا».

عندئذ حدث أمر غريب. بادر إِيگلبيرگر إِلىٰ انتقاد السياسة بنفسه وجاء انتقاده حتى أقسى من نقدهما. قال إِيگلبيرگر: «كنت أعلم أَن شيئاً كهذا كان سيحدث. كنت أعلم أَن من شأن الأَمر أَن يكون عنيفاً. ما لم أكن أعرفه هو أَن يأتي علىٰ هذا المستوى من السوء». وانتهى الاجتماع. غير أنّ إِيگلبيرگر رد حين بادر جونسون، في إِحدى المراحل من اللقاء، إِلىٰ طرح فكرة أَن التاريخ سوف يحاكمهم جميعاً، لأَن هذا لم يكن، باعتقاده، قادراً علىٰ التمخض عن شيء، ولإِحساسه بوجود ضرورة أخلاقية تدعو للتحرك، قائلاً: «دعك من استعمال تلك اللغة معي ـ لن أخضع لأية محاكمة!» وفيما بعد، حين قام أَحد المراسلين بإِبلاغه عن أَن إِيگلبيرگر كان قد صرَّح بعد تركه للإِدارة بفترة طويلة بأنّه كان يتساءل، كلما نظر إِلىٰ المرآة يومياً، عما إِذا كان يتعيّن عليه أَن يفعل ما هو أَكثر، رد جونسون «حسن ـ إِنني سعيد بسماع ذلك». كانت المشكلة، برأي

بيل مونتگمري بعد سنوات، كامنة في أنك كنت تجد إيگلبيرگر، حتى بعد نفخه، وحيداً في البيت الأَبيض، بلا حلفاء تقريباً. في الماضي حين تمكّنوا من إِقناعه بالوقوف في صف مؤيدي التدخّل، كان قد اضطر للوقوف في وجه بوش، پاول ومعه العسكر، تشيني، وبيكر. أضف إِلىٰ ذلك أَن إيگلبيرگر كان، باعتقاد مونتگمري، ممزَّقاً من الداخل، في صراع مع دافع كامن في أعماقه، إِذْ كان قلبه، جزئياً علىٰ الأقل، في صف الناس الذين كان يجادلهم علىٰ الملأ.

كانت المعارضة الآتية من وزارة الدفاع صادرة عن الجناح المدني، وكان قائدها پول وولفوڤيتز، معاون وزير الدفاع تشيني، الذي كان يمثِّل التركيبة المعقَّدة الجديدة للتيّارات السياسيَّة الدائبة علىٰ التفاعل في واشنطن. لقد كان مثل سكوب جونسون الديمقراطي الذي استاء من سياسة حزبه الخارجيَّة، وتحوّل تدريجياً إِلىٰ جمهوري ريگاني، أَي كان أشبه بليبرالي اجتماعي يجمع بين التشدّد والنقاء الإِيديولوجي في السياسة الخارجيَّة. مثله مثل الكثير من الناشطين جداً في الخارجيَّة، كان وولفوڤيتز يعتقد بأن مشاركة أَمريكا في أي حصار علىٰ توريد السلاح إِلىٰ البوسنة كانت مرعبة بصورة مطلقة. كان من غير المقبول أخلاقياً أَن تتاح للمعتدي فرصة الحصول علىٰ السلاح مع حرمان ضحايا العدوان من القُدْرة علىٰ الدفاع عن أنفسهم. كان متفقاً مع كل من پاول وتشيني بشأن ضرورة إِبقاء القوّات البرية الأَمريكيَّة بعيدة عن أَي مستنقع بلقاني محتمل، غير أنَّه خالفهما الرأي بشأن التأثير العملي لحظر السلاح. كان واثقاً من أَن من شأن ذلك أَن يؤدي بصورة شبه مؤكدة إِلىٰ ضمان انجرار الولايات المتحدة إِلىٰ الصراع بدلاً من الحيلولة دونه. كان الحظر دائباً علىٰ جعل البوسنيين أَكثر هشاشة وعلىٰ دفع الصرب إِلىٰ الاعتقاد بأن أَحداً لن يعترض سبيلهم.

إِذا لم تكن القوّات المحلية في البوسنة قادرة علىٰ الدفاع عن نفسها، فإِن علىٰ الأسرة الدولية أَن تبادر إِلىٰ فعل ذلك، آخر المطاف، حسب قناعة

وولفوڤيتز الذي كان يرى أَن الأوروپيين مفتقرون إِلىٰ العزم والقوَّة والإِرادة اللازمة للتعامل مع مثل هذا الوضع الصعب. كان ثمة جُمْلة لا يُستهان بها من المؤشرات الدالّة علىٰ محدودياتهم، علىٰ قيامهم، دونما وعي، بصب الماء في طاحونة الصرب. كان وولفوڤيتز واثقاً من إِن الأمور سوف تتابع تدهورها، وقد فعلت، وأن العبء سيقع، في النهاية، علىٰ عاتق الولايات المتحدة. وبالتالي فإِن المصلحة الأَمريكيَّة الذاتية كانت تستدعي منا أَن نبادر إِلىٰ تمكين البوسنيين من الحصول علىٰ السلاح.

اجتمع وولفوڤيتز بكولن پاول الذي أصغى إِليه دون مقاطعة وكان حريصاً علىٰ وجود أَحد كبار مساعديه في الغرفة. بقي پاول مُحَصَّناً ضد معظم المناشدات الصادرة عن أنصار التدخّل. كان يرى أَن أَحداً في واشنطن لم يكن مستعداً لدفع الثمن الذي يتطلبه مثل هذا الالتزام. لم يكن دعاة التدخّل، بنظره، إِلاَّ أناساً يتحدَّثون عن سياسة قائمة علىٰ الأمل بدلاً من الواقع، أمل في إِمكانية إِنجاز المهمّات بتنفيذ عمليات جويَّة محدودة جداً، خالية من أيّة إِصابات. غير أَن ما أبلغه به وولفوڤيتز كان باعثاً علىٰ القلق. كان مستنداً إِلىٰ معاينة دقيقة وصارمة للقوى الفاعلة علىٰ الأرض، ولم يكن نداءاً إِنسانياً داعياً إِلىٰ الاستنفار صادراً عن أولئك الذين لن يكونوا في أَرض المعركة حين تسوء الأحوال وتندلع النيران. كان الاهتمام الذي أبداه پاول بكلامه، باعتقاد وولفوڤيتز، علىٰ أعلىٰ المستويات الممكنة في الجهاز البيروقراطي. من الواضح أَن پاول أصغى باهتمام بل ومن الممكن جداً أنّه كان متفقاً معه في الرأي. ففي نهاية اللقاء سأل پاول: «وماذا عن أصدقائك في وزارة الخارجيَّة؟ ما رأيهم بما تقوله؟». رد وولفوڤيتز معترفاً بأنّهم كانوا ضد تسليح البوسنيين. أجابه پاول قائلاً: «عد إِلي ثانية حين يكونون موجودين في الاجتماع».

كان پاول، كما علم وولفوڤيتز، قد بات مستاءاً من السياسة التي كُلِّف بها، تلك السياسة الآتية عبر الخارجيَّة، والقائمة علىٰ أن تشكّل القوّات

الأَمريكيَّة جزءاً من مهمة مساعدات إنسانية، تتولّى إِيصال الطعام والمواد الطبيَّة إِلىٰ المناطق المضطربة. وكان ذلك يضع قوّاته، بمقدار ما رأى، في قلب حرب بالغة البشاعة، حرب لا قواعد لها. كانت لدى پاول شكوكه بشأن المهمات الإِنسانية في جميع الأحوال جراء سهولة احتمال توسيعها أَو تصعيدها إِذا ما وقع أَي خطأ، كأن تسقط طائرة أَو يقع جنود في الأسر. إِذا كان سيُقْدم علىٰ استبدال السياسة المعتمدة بأُخرى أَكثر اتصافاً بالمنطق، فإِنه أراد من الجميع أَن يكونوا علىٰ الصفحة ذاتها. غير أَن أَحداً لم يكن قريباً من ذلك. تلك كانت نهاية أي مسعى لرفع الحظر وتمكين البوسنيين من التعامل مع الصرب بأنفسهم وحدهم.

الفصل الرابع عشر

خاض جورج بوش حملة إعادة انتخاب بالغة الصعوبة. في البدء كان البيت الأَبيض متعجرفاً بسبب النجاح الهائل الذي حقَّقه في الإِشراف علىٰ عمليَّة إنهاء الحرب الباردة والنجاح الموازي الذي تمّ في حرب الخليج. لعل أَحد أخطر الأخطاء التي وقع فيها بعض أفراد فريق بوش، وعلىٰ الأخص الرئيس بالذات، هو الاستخفاف ببيل كلنتون، هو عَقْد المقارنة بين المرشحين من خلال ما يشبه وضع سيرتي حياة الرجلين في كفتي الميزان عبر إِكثار الكلام عن جذورهما، عن المناصب التي شغلاها، وعن أسلوب تعاملهما مع قضية النزعة الوطنية. كان ذلك قاتلاً. فالحملات السياسيَّة تبقى شديدة الحدة والكثافة وبعيدة عن قابلية الخضوع للتنبؤات، ما لبث المرشحون، كما بات الكثير من حاملي قصب السبق، وعلىٰ رأسهم جري فورد، يدركون جيداً، أَن رأوا أنّها قلما تكون محصلة ملخصات تواريخ حياتهم.

كذلك نسي مَنْ هُم حول بوش أَن صاحبهم لم يكن قط مرشحاً جيداً أَو كاريزمياً جذّاباً. إذا كانت الأَهميَّة المتنامية للتلفاز عاملاً من عوامل تحويل السباق الرئاسي من سباق سلاحف إلىٰ سباق أرانب، فإِن بوش هو الطرف الخاسر بالتأكيد، نظراً لأَن محصلة سنواته الكثيرة في الإِدارة والحكم كانت أَكثر إِثارة بما لا يقاس من تصريحاته الآنية العابرة. كان رجلاً جذّاباً وحميماً، شخصاً متمتعاً بقدر غير قليل من اللطف والدفء الشخصيين. بقي مزاجه

الطيب عنصراً ثابتاً، غير أنّه كان في الغالب متردداً وخجولاً بصورة غريبة، وكانت لَباقَتُه في عرض مواصفاته الأفضل من علىٰ المنابر العامة تميل إلىٰ أَن تبرز كما لو كانت جموداً. أَمّا صراعه، بين الحين والآخر، مع اللغة الإِنكليزية فكان لا يلبث أَن يتحوّل إلىٰ نوع من إِضفاء صفة أداة غريبة علىٰ هذه اللغة.

كان بوش عميق الإِدراك لعيوبه، فالكلام لم يكن من نقاط قوّته. قلما كان صوته منْساباً برقّة، معسولاً. أبسط الردود الرئاسية كانت تُقال في الغالب دون تفكير. كثيراً ما شعر خبراء تعلم العيوب بأنّهم كانوا قد اهتدوا إلىٰ شخص يعاني من هذه العلة منذ زمن طويل. علىٰ الدوام كانت العواطف جيّاشة بدلاً من توظيفها بمهارة وبالطريقة السليمة، كما يفعل الساسة الأَكثر مهارة عادة، من أجل بلوغ الغرض السياسي المطلوب. أضف إلىٰ ذلك أَن الكلام العلني عن إِنجازاته كان من شأنه أَن ينطوي علىٰ معنى الدعاية لشخصه، وقد نشأ في ظل ثقافة قائمة علىٰ التقشف، وإِن كان ذلك غريباً وبعيداً كل البعد عن السياسة الرئاسية. حين حاولت بيگي نونان، كاتبة الخطب المحافظة الأكفأ في جيل كامل، التي كانت قد كتبت الكثير من أفضل خطب رونالد ريگان، أَن تقوم بحركة جانبية نحو بوش، وجدت الأَمر صعباً، ليس فقط لوجود اختلاف بين سياستيهما، بل بسبب تواضع المرشح وعزوفه عن استخدام ضمير المتكلم المفرد.

مرة، في 1988م، قام بوش الغارق في بحر معركة صراع مصيرية حاسمة ضد بوب دول علىٰ ترشيح الحزب الجمهوري، باستدعاء السيدة نونان لكتابة خطاب له ـ وهي التي سبق لها أَن زوّدت رونالد ريگان بالكثير من العبارات المحلّقة علىٰ أجنحة الشعر. كتبت نونان مسودة الخطاب ولكنها لم تَرُق لبوش. وحين سألته عن السبب رد عليها: «حسناً، إِنّه ذلك الإِكثار من ضمير الأنا في حالات الرفع والنصب والجر»[1] ما لبثت نونان أَن تعلّمت بسرعة

(1) كرامر، 87.

وأتقنت فن كتابة الخطب الخالية من الضمائر لأنّه كان سيجهز علىٰ أية جملة مشتملة علىٰ ضمير «**أنا**». فبدلاً من جملة «انتقلت إِلىٰ تكساس وسرعان ما التحقنا بالحزب الجمهوري»، صارت تكتب «بعد الانتقال إِلىٰ تكساس تم الالتحاق بصفوف الحزب الجمهوري. . .»[2] كان نفور بوش من فكرة التحلي بالبلاغة والفصاحة مطلقاً. لم يقف الأَمر عند عجزه الشخصي عن الاهتداء إِلىٰ أية جملة أَو عبارة رشيقة قادرة علىٰ رفع كلماته إِلىٰ مستوى المناسبة، بل تجاوزه إِلىٰ بقائه شديد الحرص علىٰ منع من هم حوله من الانزلاق إِلىٰ مطب من شأنه أَن يُضْفي قَدْراً من الجلال إِما عليه هو أَو علىٰ اللحظة. سرعان ما كان يقول: «إِنه ليس أنا!» ملتقطاً عبارة مشحونة بقَدْر خطر من الفصاحة، ومطلقاً إِيّاها علىٰ الملأ. باستمرار بقي متيقظاً وحذراً مما كان يطلق عليه اسم «البضاعة الشاعرية»، شديد الحرص علىٰ استبعاد الكلمات التي كانت «نونانية» [نسبة إِلىٰ بيگي نونان]، حسب رأيه.

غالباً ما يقضي نواب رؤساء الجمهوريات المفتقرين إِلىٰ الكاريزمية جزءاً كبيراً من وقتهم، حتى حين يكونون منشغلين وحدهم وهم يتصارعون مع أشباح شخصيات أَكثر كاريزمية كان لها فضل إِيصالهم إِلىٰ مثل هذه الأماكن القريبة من الرئاسة. ذلك هو ما حصل بالنسبة إِلىٰ ليندون جونسون الذي لم يكُفْ لحظة عن مصارعة شبح جاك كندي. وذلك هو ما كان سيحصل، ذات يوم، بالنسبة إِلىٰ العلاقة بين آل گور وبيل كلنتون. تكرر الوضع نفسه في 1992م، حين تبين أَن الشخص الذي كان بوش يتسابق معه علىٰ الدوام، لم يتمثل بأي من بيل كلنتون أَو روس پيرو، بل برونالد ريگان. حتى كرئيس للجمهوريَّة بقي بوش ظلاً لريگان بهذا الشكل أَو ذاك. تبيّن أَن الارتباط بريگان كان سيفاً ذا حدين. صحيح أَنَّه ساعد بوش في الحصول علىٰ ترشيح 1988م، غير أنّه بقي معلقاً فوقه نموذجاً يستحيل عليه أَن يرتقي إِلىٰ مستواه في عقول الكثير من الأَمريكيين

(2) نونان، 301.

المتعطشين ليس فقط لسياسات ريگان، بل ولذلك الإحساس بالراحة الذي كان الرجل نفسه يوحي به. ذلك هو ما كان المخلصون يتطلّعون إليه، أعني المحافظين الأوفياء، والديمقراطيين الريگانيين أيضاً، وذلك هو المكان الذي بقي فيه بوش محكوماً بالإخفاق والتقصير إلىٰ الأبد.

بقي بوش عازماً علىٰ الاحتفاظ بصفة الصدق مع نفسه أمام الجمهور بصرف النظر عما قد يُضْفيه ذلك من الصفة السوقية الاعتيادية علىٰ المناسبة؛ لم يكن مستعداً قط للخروج من سياقه الخاص. من المؤكد أن افتقاره إلىٰ البلاغة والفصاحة كان نقطة ضعف سياسيَّة. غير أن بوش، خلافاً لحال جونسون، تمتع بما يكفي من الذكاء ليعلم أن أسوأ الحماقات التي يمكن أن يقْدم عليها هي حماقة التنافس مع ريگان علىٰ صعيد التحلي بالصفات الريگانية. كان من شأنه أن يزداد إخفاقاً كلما زاد إصراراً علىٰ تقليد ولي نعمته. كان التضاد بين ريگان الخاص والعام وبوش العام والخاص، الفرق بين الواقع والخيال، مدهشاً. حين تخرّج بوش في آندوڤر ربيع سنة 1942م، كان يوم التخرّج هو عيد ميلاده الثامن عشر وكان قد التحق بالخدمة. كان الطيار البحري الأصغر سناً في الحرب العالميَّة الثانية، وقد فاز بوسام الجو وصليب الطيران الممتاز، وكان، بالمعايير الأمريكيَّة التقليدية بطلاً لا يُستهان به. أمَّا ريگان الذي كان في سن الخدمة تماماً، فقد تمكّن، بطريقة ما، من أن ينأى بنفسه عن ذلك الصراع؛ بقيت مساهمته الرئيسية محصورة بتمثيل أفلام دعائية لصالح الجيش. بلغة العصر، كان سجله العسكري سجلاً افتراضياً، علىٰ الرغم من أنّه لم يكن علىٰ الدوام مستعداً لأن يتذكر ذلك، علىٰ ما يبدو. ومع ذلك فإن ريگان، المتمتع بتلك الثقة الطبيعية الساحرة، بغياب الشك عن الصوت، حتى بتلك المشية الرجولية المستمدة من الاشتراك في تمثيل الكثير من أفلام رعاة البقر، هو الذي اعتُبر بطلاً (بل ولم يتردّد حتى في الإيحاء عبر خطبه بأنّه كان قد شارك فعلياً في المعارك القتالية في الحرب العالميَّة الثانية). أمَّا رجولة بوش فقد بدت

موضع شك. ففي 1980م، حين دخل سباق الرئاسة للمرة الأولى، نشرت **مجلة نيوزويك** ـ وهي مجلة لم يسبق لأي من محرريها أن سمع صوت رصاصة تم إطلاقها بغضب ـ مقالَ غلافٍ مدمراً عن الرجل قالت فيه: إنّه كان يصارع جرثومة مرض التفاهة.

لم يكن المجيء بعد ريگان سهلاً علىٰ الصعيد السياسي. كانت الرموز نسغ حياة فترة حكمه الطويلة، وقد فهم ليس فقط مدى أهميتها بل والتوقيت الكامن في استخدامها. كان متفوقاً علىٰ جميع من هم حوله من حيث القُدْرة علىٰ الإمساك باللحظة المناسبة لتوظيفها الأمثل سياسياً. ما من أحد كانت له حياة عملية ناجحة إلىٰ حد كبير في هوليود إلاّ وكان قادراً علىٰ فهم ليس فقط أهميَّة الرموز بل وكيفية جعلها تفعل فِعْلها. لقد كان «افريماناً» A free-Man أمريكياً ـ شخصاً يجسد الجميع ـ؛ كان يعرف بالضبط مشاعر الشعب الأمريكي وحاجاته في أوقات مختلفة لأن تلك كانت أكثر الأحيان هي مشاعره هو بالذات وحاجاته، وبقي أكثر الأمور طبيعية بالنسبة إليه هو التفوق في تجسيد الشخص الذي يريد الناس أن يكونه. تلك هي الصفة الخاصة التي فصلت المحلّلين والنقّاد الأكثر تعقّلاً للسياسة الأمريكيَّة عن الناخبين الأمريكيين حول موضوع ريگان. فالفريق الأول الدائب علىٰ متابعته في غمرة العمل، المطلع علىٰ ماضيه في التمثيل، المختلف معه أكثر الأحيان علىٰ صعيد المعتقدات وراء الأبواب المغلقة، كان يراه شخصاً متقلباً، بعيداً عن الاستقامة، خارجاً من عالم هوليوود؛ أمّا الناخبون، شاعرين بأن ما يقوله هو ما يحسّ به، وبأنه خرج إليهم بصورة طبيعية، فضلاً عن إحساسهم بأنّه كان يحس مثلهم تماماً فيما يخص الكثير من الأمور، فقد اعتبروه تجسيداً للاستقامة المطلقة.

لم يكن ريگان يعرف إلاّ القليل والقليل جداً من الأشياء، غير أن نقطة قوّته كانت كامنة في بقائه شديد الإخلاص والوفاء مع تلك الأشياء القليلة وقوي الإيمان بها: كانت الحكومة أو الإدارة أكبر مما ينبغي؛ لا يجوز السماح لها

بدسّ أنفها في شؤون الناس العاديين قَدْر الإمكان، وأمريكا، إذا تُركت وشأنها، مجتمع تجديدي عظيم. بالنسبة إلىٰ كثيرين ممن كانوا أكثر حذلقة علىٰ الصعيد السياسي، بدا رجلاً يسهل إسقاطه من الحساب بسبب بساطة معتقداته، إيمانه الراسخ بها، ولا مبالاته بما بدا حقائق. كان يستطيع أن يخطئ في كل شيء، ويبقى مع ذلك علىٰ جادة الصواب بنظر الناخبين. كان الاستخفاف به سهلاً وقاتلاً في الوقت نفسه ـ مقبرة السياسة الأمريكيَّة ملأى بشواهد أولئك الذين اقترفوا خطأ الاستخفاف برونالد ريگان القاتل.

لعل الشيئين اللذين كانا يبدوان الأكثر أهميَّة بالنسبة إلىٰ الكُتّاب السياسيين والباحثين المتبحرين والمتمثلين بتعقيد الفكر ومكره من ناحية، وضبط أشباه الحقائق والنوادر من ناحية ثانية، لم يكونا يعنيان شيئاً ذا بال بالنسبة إلىٰ ريگان. وكان المحلِّلون السياسيُّون لأمريكا يعتبرونه من الوزن الخفيف، بدلاً من رؤيته علىٰ حقيقته، بوصفه شخصاً فريداً، أمريكياً أصيلاً بقي إحساسه بآمال البلاد، مخاوفها، وتوقعاتها صادقاً بصورة لافتة. لقد أدرك مثل دوايت إيزنهاور مقدار ما يجب أن يُعْرَف ومقدار ما ينبغي ألا يُعْرَف في جميع المناسبات؛ كان واثقاً من أن الناس العاديين سيصدقونه في القضايا الرئيسية، وقد فعلوا حقاً. لم يكن الكلام خداعاً علىٰ الإطلاق. كان راسخ الإيمان بما قاله عن عظمة أمريكا، وجاءت إدارته المرموقة برهاناً لتلك الحقائق ولذلك الخطاب البلاغي: كانت أمريكا تسير وتسير بصورة ساحرة فعلاً. فما الداعي إذن لعدم الثقة؟ ذلك الجوهر الداخلي العميق من الثقة ساعده كثيراً بعد الوصول إلىٰ كرسي الرئاسة. لم يخرج قط ليحارب نفسه. أمّا الأشياء الصغيرة، تلك العيوب والنواقص الشخصية المضخمة بصورة مسرحية في معظم الرجال حين يصبحون رؤساء، تلك الشكوك القابلة للانفجار والتحول إلىٰ أشكال من الرُهاب الفصامي والتي جعلت الرئاسة بالغة الصعوبة بالنسبة إلىٰ أناس مثل جونسون ونكسون، فلم تزعجه قط. من غير الجائز تجاهل أهميَّة ثقته الشخصية. مَنْ غَيْرُه كان يمكن

أَن يقوم، فور انتخابه رئيساً للجمهوريَّة، بتوظيف جيم بيكر رئيساً لجهاز العاملين في البيت الأَبيض، وهو الرجل الذي قاد حملتين ضده؟

أضف إِلىٰ ذلك أَن حماسه الطبيعي قدّم له مساعدة إِضافية حين بدأ يسعى إِلىٰ الرئاسة. فالسبعينيَّات كانت أوقاتاً مظلمة قومياً، أوقات ضعف **متصور** لا ضعف أَمريكي، كان ثمة، أولاً، ذلك الرجل المذل من ڤيتنام، ثم جاءت أَحداث إِيران الكارثية، مضخمة ومضاعفة مرة بعد أُخرى علىٰ شاشات التلڤزة القوميَّة ـ يوم 323، أَمريكا رهينة، يقول والتر كرونكايت ـ أسعار الوقود المحلقة والإِيمان بأن النواة الصناعية الأَمريكيَّة بدأت تخسر مكانتها أمام اليابان. في تلك الفترة جاء ريگان الواثق بنفسه علىٰ الدوام ـ ما من سياسي أَمريكي استطاع أَن يضاهيه بمشيته الطاووسية ـ بوصفه البلسم الشافي المنتظر. كان رجلاً صُب في القالب المثالي المناسب للحظة، وليس مفاجئاً أَن تكون القضية العاطفية (لا الجيوسياسيَّة) الملتهبة لديه، قناة پاناما، بقدر كبير من الحدة، كانت ملتهبة أَيضاً في قلوب الناخبين. كان ريگان مؤمناً بأمريكا، وكانت الأخيرة مؤمنة هي الأُخرى، بطبيعة الحال، به هو. ومهما حصل فإِن أَحداً لن يكون قادراً علىٰ تهديد أَمريكا، مع بقاء الحرب الباردة دائرة علىٰ قدم وساق، طوال بقاء ريگان رئيساً للجمهوريَّة ـ خلال فترة نوبة حراسته كما كان يحلو له أَن يقول.

أخيراً رحل ريگان مخلِّفاً وراءه حزباً جمهورياً مشطوراً نصفين. أدّى ذلك إِلىٰ جعل الأَمر أَكثر صعوبة بما لا يقاس بالنسبة إِلىٰ بوش، الذي لم يستطع قط أَن يضاهي ريگان من حيث الجاذبية الطبيعية، كما لم يكن قط، خلافاً لحال سلفه ريگان، قادراً، بسهولة، علىٰ إِذابة الجناحين المتخاصمين في حزبه ـ اليمين الجديد، بقيادة الأصوليين من جهة، والتقليديين القدامى، الذين كانوا كثيري الانزعاج من زملائهم القادمين من حزام الشمس من جهة ثانية ـ في بوتقة واحدة. كان بوش مفتقراً، ببساطة، إِلىٰ المهارات السياسيَّة والإِنسانية اللازمة

للخروج من الورطة. لم يكن الرجل إِلاَّ نتاجاً مكثّفاً ونموذجياً لخلفيته وجذوره. إِذا حاول التصرّف كتكساسي كان يظهر علىٰ الدوام متخشباً بعض الشيء، ويبدو خفيفاً إِلىٰ حد، كما حين يتكلم عن وضع من شأنه، إِذا ساءت الأمور، أَن يغرقه في بحر عميق من النفايات.

كان بوش قد عاش في حالة مساومة غريبة وشاذّة مع أقصى اليمين في حزبه خلال السنوات الأربع الأخيرة. فقد بقي اليمين متشدداً معه، دائم الشك بأن قلبه لم يكن حيث ينبغي أَن يكون. اعتبره جورج ويل ذات مرة كَلْب أحضان مطيعاً ولم تصبح الأمور أسوأ من ذلك. في الأعماق كان بوش، وبمعرفة الجميع تقريباً، رغم احتجاجاته الكثيرة زاعماً العكس، وَسَطياً في حزب كان وسطه متعرضاً لهجوم عنيف. ومما ساعده بعض الشيء أَن قضاياه المفضلة، قضايا السياسة الخارجيَّة، باتت متناقصة الأَهميَّة والحيوية بالنسبة إِلىٰ القوى الجديدة في الحزب. فمع تراجع الخطر السوڤيتي أَصبح الجناح اليميني في الحزب أَكثر اهتماماً بالأمور السياسيَّة والثقافية الداخليَّة ـ وهي الأمور التي باتت تُعْرف باسم قِيَم العائلة، وعلىٰ الأخص الإِجهاض ـ وغدت قوته متركّزة في الانتخابات التمهيدية والكونگرس. أَمّا الاهتمام الطاغي لجناح الوسط الأكثر اعتدالاً فقد مال إِلىٰ السياسة الخارجيَّة مع تجلي قوته ونفوذه في الفرع التنفيذي بواشنطن وفي إِدارات مختلفة لعدد من الولايات.

جاء الدليل الأوضح علىٰ وجود انشقاق خلال المعارك الضريبية سنة 1990م، حين أَقْدَمَ بوش علىٰ النكوص عن تعهده موافقاً علىٰ إِحدى الزيادات الضريبية تحت وطأة العجز المتصاعد. امتنع نيوت گينگريتش وأقرانه عن التصويت علىٰ ذلك القرار في الكونگرس. كان الضرر اللاحق ببوش سياسياً ضرراً مزدوجاً: لم يقف الأَمر عند تعرّضه للأذى جراء نكوصه عن وعده، بل وتجاوزه إِلىٰ بقائه خائفاً من الجزء الأكبر من حزبه حول القضية، بسبب إِقدامه علىٰ ما هو صحيح بالنسبة إِلىٰ مصلحة اقتصاد الوطن. كان سيبقى عازفاً عن

الحديث حول الأَمر خلال الحملة ـ بما حرمه من فضل القيام بما كان صحيحاً بصورة واضحة وضوح الشمس. فالإقدام علىٰ عمل يتطلب قَدْراً من الجرأة ما لبث أن أَصبح أمراً مشيناً وباعثاً علىٰ الخجل، لا لشيء إِلاَّ لأَن حزبه بالذات كان متجمداً عند نقطة الهوس المرضي بالإِجهاز علىٰ الضرائب.

في قضايا السياسة الخارجيَّة كان جناحا الحزب أَكثر من متباينين. فالناس المسؤولون عن الفرع التنفيذي بَقَوا ذوي جذور في تربة النزعة الأممية لدى كل من ديوي، ڤاندنبرگ، وأيزنهاور، غير أَن الصاعدين في مجلس الكونگرس، وكثيرون منهم قادمون من حزام الشمس، كانوا مختلفين جداً. ربما كانوا معادين للشيوعية، غير أنّهم بقوا أَكثر ميلاً إِلىٰ التعصّب القومي منه إِلىٰ النزعة الأممية، أقل سَفَراً، في الكثير من الحالات، مقارنة بأسلافهم، مع قيام تيار انعزال متزايد القوَّة باختراق تفكيرهم. كانوا شديدي التوجس إِزاء أي نوع من أنواع الالتزام الخارجي متعدد الأَطراف. واصفاً إِيّاهم في إِحدى تعليقاته كتب محلّل **النيويورك تايمز** الموهوب للسياسة الخارجيَّة توم فريدمان، أشار إِليهم باعتبارهم «نواة صلبة من الجمهوريين في الكونگرس يمكن تلخيص نهج أفرادها فيما يخص السياسة الخارجيَّة بـ«الغباء مع التباهي به»، أَو «بلداء علىٰ هوانا». ذلك هو الحشد الذي يفضل كل شيء من عدم تسديد التزامات الولايات المتحدة إِزاء الأمم المتّحدة إِلىٰ المزيد من تقليص المساعدات الخارجيَّة، إِلىٰ النزعة الانعزالية الواضحة والصريحة».

كان فريق بوش يرى قيادة الكونگرس بالطريقة نفسها. فحين كان هؤلاء يتحدَّثون وراء الأبواب المغلقة عن اليمينيين دأبوا علىٰ إِبقاء حواجبهم مرفوعة هازين رؤوسهم تعبيراً عن نوع من الاحتجاج الرشيق. كثيراً ما كانت كلمات «**ياهو**» تتردد. كان لسان حالهم يقول: هؤلاء تحتاج إِليهم في الحزب لتحصل علىٰ نسبة الـ51 بالمئة المطلوبة ولتبقى في رئاسة اللجان، أَمَّا فيما عدا ذلك، فقد بدوا غرباء، بنمط تفكيرهم الأبعد من نظيره لدى الزملاء القدامى في

الحزب الآخر الذي طالما دأبوا علىٰ التنازل عن النزعة الأممية الوسطية القائمة علىٰ دعم الحزبين كليهما لسنوات ما بعد الحرب.

في الماضي، لم يكن بوش كثير الاهتمام بالسياسة الداخليَّة. ففي أثناء حملة 1988م كان قد تحدَّث عن كونه رئيس التعليم، غير أن تلك بقيت الوعود المطلقة عابرة جداً، وفكرة إِعادة تثقيف ملايين الشباب الأَمريكيين لم تعد تؤرقه فيما بعد. ما إِن آلت السلطة إِليهم حتى سارع بوش وفريقه إِلىٰ إِغراق اليمين في بحر من النعم ـ كتعيين هذا في المحكمة العليا وتعيين آخرين قضاة في الأقاليم. غير أَن علاقة بوش مع هذه القوَّة المتمكنة والمتشدِّدة داخل حزبه بالذات كانت، في نهاية سنواته الثماني نائباً للرئيس وسنواته الأربع رئيساً للجمهوريَّة، علاقة زواج دون أَي حب أَو عاطفة في أحسن الأحوال.

من بدايتها كانت حَمْلةُ بوش في 1992م مرتبكة. ما من شيء قابل للاختلال إِلاَّ واختل. بدا الرئيس خاملاً، بطيئاً في الانتباه إِلىٰ دلائل الاستياء المتصاعدة واتخاذ الخطوات الضرورية لتنظيم الفريق وضبطه. رأى بعض أقرب أصدقاء بوش لاحقاً أَن صحته كانت تعاني من الخلل ـ لم يتمكّن الأطباء قط من الاهتداء إِلىٰ العلاج المناسب لاختلال غدته الدَّرَقية ـ مما جعل المرشح الذي درج علىٰ أَن يكون الأنشط والأَكثر تركيزاً بين الرجال، المبالغ في النشاط في الحقيقة، يبدو فاتر الهمّة متخلِّفاً عن الركب. عانى البيت الأَبيض أوائل 1992م من ضعف الإِدارة. كان جون سنونو قد رحل، مطارداً بفضيحة ثانوية في العمق وعداوة الكثير من تقليديي بوش الوسطيين، ممن اعتبروه ليس فقط مبالغاً في إِيديولوجيته، بل ومُسْرِفاً في صَلَفه. أما سام سكينر الذي حل محله فقد أثبت أنّه دون المستوى المطلوب لإِدارة البيت الأَبيض والحملة الرئاسية علىٰ حد سواء.

دأب عدد كبير من مستشاري بوش، منتبهين إِلىٰ ما وصلت إِليه استطلاعات الرأي من تدهور، علىٰ الإِلحاح في المطالبة بنوع من البرنامج

الداخلي، بصرخة حماس جديدة، غير أَن فريق بوش السياسي بقي مقسوماً. فالمتشدِّدون كانوا مأخوذين بسلبيات كلنتون، خصوصاً تهربه من الخدمة في فيتنام، مما جعلهم يعتقدون بإِمكانية هزيمته مهما قالت الأرقام. وثمة جناح آخر، أَكثر اعتدالاً، شعر بالقلق إِزاء نتائج استطلاعات الرأي والمدى الذي وصل الناس إِليه في لوم بوش علىٰ الوضع الاقتصادي السيء وفي اعتباره عديم الاهتمام بمشكلاتهم. ما لبث وعي هذه المجموعة الثانية أَن تزايد، بأن من شأن حملة إِعادة الانتخاب أَن تكون صعبة، ومن شأن كلنتون، المرشح الديمقراطي المؤكَّد، أَن يبرهن علىٰ أنّه مرشح مخيف لا يجوز الاستخفاف به. ففي ربيع 1992م كتب فريد ستيپر يقول: «نواجه كساداً بلغ عمره عشرين شهراً، نسبة 78 بالمئة كرقم «مسار خاطئ»، وديمقراطياً محافظاً من الجنوب. أرى أَن هذا هو أسوأ كوابيسنا السياسيَّة».

مع حلول شهر آب/أغسطس، فيما كانت الأمور تسير من سيء إِلىٰ أسوأ، تم إِخراج جيمس بيكر المستاء جداً، عنوة، من وزارة الخارجيَّة وإِجباره علىٰ العودة إِلىٰ عمله السابق في البيت الأَبيض ليتولى إِدارة الحملة. جلب معه عدداً من كبار الموظفين، وصُعق تماماً حين رأى حال الحملة. وقد قال لبعض الأصدقاء المقرَّبين لاحقاً إِن خسارة الحملة كانت قد تمّت منذ شهر أيار/مايو. ما من أَحد كان مستعداً لحملة عظيمة. كان بيكر قد عاد إِلىٰ خزانة فارغة. لم يكن ثمة إِلاَّ كاتب خُطَب واحد. لم يتم استئجار أَحد لمتابعة الدعايات التلفزيونية. كانوا متخلّفين في جميع الأَقسام، وكانوا، هذه المرة، في مواجهة عدد من المحترفين الأقوياء.

بدا بيكر، حسب رأي من كانوا حوله، في حالة شبيهة بالذهول ـ أَو في الحد الأقصى الذي يمكن لشخص جبَّار، رابط الجأش مثله أَن يصل إِليه من الذهول. من الواضح أَن قلبه لم يكن في هذا السباق؛ لم يرغب في شغل المنصب وكان يرى أَن الحَمْلة كارثية. ثمة كان علىٰ الدوام نوع من التنافس

المضمر بين بوش وبيكر رغم حميمية الصداقة بينهما. حصل بوش علىٰ المنصب العالي وقام بيكر بالمهمّات الصعبة، غير أَن الأخير بقي يترك لدى صانعي الرأي في واشنطن انطباعاً أقوى من ذلك الذي تركه صاحبه. لَعَلّ العودة إلىٰ البيت الأَبيض كانت اختباراً بالغ القسوة لوفاء الرجل. فقد كان بيكر في أوج عمله الوظيفي كوزير للخارجيَّة، في منصب أحبه حتى العشق، وما لبث أَن أُعيد إِلىٰ البيت الأَبيض ليشغل وظيفة عادية ويضطلع، مرة أُخرى، بدور تونتو مع حارس الغابة الوحيد بوش.

مُقْحَماً في دور مألوف ولكنه غير مرغوب، بدا بيكر أشبه بالمكتئب بنظر أصدقائه القدامى، ورجلاً لامبالياً إِلىٰ حد ما، بالنسبة إِلىٰ شخص اشتهر بتحكمه الكامل بما يقوم به من عمل. بدا فاتر الهمة، وإِذا كان جورج بوش قد شعر بالخيبة بعد هزيمته، فإِن بارباره بوش العاكسة لمشاعر العائلة عن الولاء بقدر أكبر من الوضوح والأقل تسامحاً من زوجها بصورة عامة، كانت غاضبة من بيكر. وبعد ثماني سنوات حين كان جورج دبليو بوش عاكفاً علىٰ الاستعداد لدخول السباق، واجتمع عدد أعضاء فريق بوش الأب بوصفهم فريقاً غير رسمي من المستشارين، كان جيمس بيكر لافتاً للأنظار بغيابه. لقد تم، من الأساس، استبعاده عن الحلقة الداخليَّة حتى لحظة ما بعد الانتخاب حين جرى استدعاؤه ثانية من مكانه علىٰ مقعد بوش، وإِعادة الحياة إِليه بصورة عجيبة فأَصبح المرجع الأَول بالنسبة إِلىٰ جورج دبليو بوش في زحمة المشاحنات القانونية حول أصوات فلوريدا ـ كان القَصْد المضمر هو القول بأن وزير خارجيَّة سابقاً متميزاً يؤكد فوزنا. أنجز بيكر هذه المهمة الاستثنائية بقدر كبير من الحماس والاندفاع الحزبيين حتى بدأ يفقد إِعجاب بعض أولئك الذين سبق لهم أَن توهموا أنّه وزير خارجيَّة ذو مواهب غير عادية.

كانت كثرة من الأمور التي سبق لها أَن بدت زاهية الألوان ومشرقة قد بدأت تبدو كئيبة خلال شتاء وربيع الحملة. تابع بوش انزلاقه الهابط في

استطلاعات الرأي. نافسه بات بوكانان في نيو هامپشاير، الولاية الأسوأ بالنسبة إلىٰ بوش، وكان المنافس قد استغل الوضع الضعيف للاقتصاد جنباً إلىٰ جنب مع المشاعر الإقليمية المحلية لإلحاق الأذى به. ومع قدوم الصيف كانت الحملة مفتقرة بوضوح إلىٰ نوع من الدفع والزخم، وظن بعض المحيطين ببوش أن الطريقة المثلى لتوفير مثل هذا الزخم تمثّلت بالخلاص من عبء نائب رئيس لا وزن له وإضافة شخص ذي جاذبية أكبر قادر علىٰ جعل كتلة ناخبي الوسط ينظرون إليه بقَدْر أكبر من الجدية. وكان من شأن ذلك أيضاً أن يشي بأن هناك فريقاً أحدث وأكثر احترافاً. كان ذلك يعني، بالتعبير الإنكليزي الصريح، شطب اسم دان كويل من القائمة. وحركة إسقاط كويل ودفنه كانت قد بدأت منذ زمن بعيد يعود إلىٰ خريف 1991م وكانت شاملة لبعض كبار أعضاء فريق بوش. أمّا المتآمران الرئيسيان فكانا بيكر، وكان لا يزال وزيراً للخارجيَّة، وبوب تيتر، خبير الاستطلاعات والصديق الشخصي القديم لبوش، من ذوي الجذور الليبرالية المعتدلة في السياسة الجمهوريَّة، الذي كُلِّف بإدارة حملة 1992م. لم يكن أي من الرجلين يحب كويل، أو يقدِّره تقديراً عالياً كشخص أو كسياسي، فضلاً عن رؤيتهما لقيام بوش باختياره أساساً أمراً غير قابل للتفسير. أضف إلىٰ ذلك أنّهما باتا الآن يعتقدان بأن حليفاً جديداً التحق بركبهما، ألا وهو بوش نفسه، علىٰ صعيد الإيمان بأن كويل قد بالغ في مغازلة اليمين الديني، منتهكاً الحدود الحاسمة لمعايير بوش فيما يخص الولاء. فبوش، ومعه أولئك الأكثر قرباً منه، كان يرى ضرورة إبقاء الأصوليين عند حدود عدم التفكير بالتمرّد، ولكن دون تشجيعهم، بأي شكل من الأشكال، علىٰ تجاوز الخط الأحمر، أو السماح لهم بذلك. في أحد الأيام قام بوش بطرح السؤال التالي علىٰ تيتر: «هل تعتقد أن كل هذه البضاعة اليمينية التي يروج لها دان هذه الأيام تساعدنا؟» فرد عليه تيتر بالنفي. ثم أضاف بوش «أنا أيضاً لا أعتقد» واقترح أن يقوم تيتر بمفاتحة كويل حول الأمر ـ علىٰ الرغم من أن مَنْ ينبغي أن يفعل ذلك بوضوح هو الرئيس نفسه.

إِذا تقرَّر ذهاب كويل فإِن المؤشر النموذجي الدال علىٰ أن ما حصل هو تشكيل فريق جديد بصورة مرحبة من شأنه أَن يتأكّد عبر استبدال الرجل بكولن پاول. غير أَن مفاتحة پاول لا بدّ لها من أَن تتم بطريقة قابلة تماماً للتنصل والإِنكار. فقابلية التنصّل كانت مهمة إِذا كان الناس يضفون أثواب نيابة الرئاسة علىٰ طامحين جمهوريين مع وجود نائب رئيس جمهوري في المنصب. وهكذا قام ستو سپنسر، المستشار الكاليفورني الذي سبق له أَن لعب دوراً حاسماً في تكوين أسطورة رونالد ريگان السياسيَّة، بمبادرة ذاتية إِلىٰ حد بعيد، بزيارة الپنتاگون للتحدث مع صديقه پاول. لم يكن بوش مشاركاً في المؤامرة. بالطبع، وكانت زيارة سپنسر اجتماعيَّة خالصة. نُوقش كل شيء بطريقة افتراضية ـ موقع افتراضي لجنرال افتراضي علىٰ بطاقة انتخابية افتراضية. أوضح الجنرال بدوره أنّه، وهو الموجود في عالم واقعي لا افتراضي، يجب أَن يكون جنرالاً حقيقياً في جيش حقيقي، وأنّه، لأَسباب مختلفة، لم يكن حريصاً علىٰ أن يصبح سياسياً. لم يكن راغباً في أَن يضع اسمه علىٰ قائمة جمهوريَّة، وبعض من ظنوا أنّهم يريدونه ربما لم يكونوا معجبين بجميع مواقفه الاجتماعيَّة. أَمّا إِذا كان الرئيس جاداً حقاً في إِدراج اسم الجنرال علىٰ قائمته، وبادر الرئيس بالذات إِلىٰ مفاتحته، فإِن الجنرال، وهو الجندي المنضبط، سوف يقبل، بالطبع. غير أَن الجنرال يفضل ألا يواجه بمثل هذا الطلب.

كانت ثمة احتمالات أُخرى ـ بيكر نفسه وديك تشيني؛ كانت ثمة هالة كافية مما بعد عاصفة الصحراء ما زالت محيطة بتشيني وقادرة علىٰ جعله مرشحاً جذاباً. قبل المؤتمر بأسبوعين، كان مصمِّما عمليَّة دفن كويل واثقَيْن من الإِجهاز علىٰ الرجل، لأَن بوش كان يولي قدراً أكبر من الاهتمام لاستطلاعات الرأي المبينة لمن سيكون بديلاً ناجحاً لكويل ومن لن يكون. كان المتآمران واثقين من دعم بوش لهما، وتمثَّلت المشكلة الوحيدة، نظراً لعزوف بوش عن المجابهة ونفوره منها، بالشخص الذي سيتولى مهمة إِبلاغ كويل بالأَمر. غير أَن

بيل كريستول، الذي كان مرجع كويل السياسي، وأكثر فطنة بما لا يقاس من صاحبه علىٰ صعيد الأحابيل السياسيَّة، ما لبث أَن نصب مصيدة رائعة لبوش. قبل حوالي أسبوعين من الحسم، ذهب كويل إلىٰ البيت الأَبيض لتناول طعام الفطور وسأل الرئيس عما إذا كان راضياً عنه. تردّد بوش للحظة عابرة، أخفق في إبداء رباطة الجأش المطلوبة ورد بالإيجاب. سارع كريستول فوراً إلىٰ تزويد وسائل الإعلام برواية كويل لما حدث، فنشرت الصحف في ذلك اليوم خبراً يؤكد بقاء كويل علىٰ القائمة. غضب بوش إزاء تسرّب القصة إلىٰ الإعلام ولكنه لم يفعل شيئاً. بقي اسم كويل علىٰ القائمة لا لشيء إلاَّ لأَن دفنه الآن كان قد بات أصعب بكثير. تلك هي الطريقة التي ضاعت بها الفرصة الأخيرة لتقوية القائمة وتعزيزها عن طريق إضافة پاول أَو بيكر إليها وصولاً، ربما، إلىٰ تغيير النتيجة.

كان المؤتمر كارثة حقيقية. نادراً ما سبق لأي رئيس فعلي أَن سمح لخصومة بالهيمنة علىٰ ما كان، في ظل أَكثر الظروف، شكلاً من أشكال التتويج الديمقراطي. كان ينبغي للمؤتمر أَن يشكّل عرضاً لصالح بوش، نوعاً من الاحتفال بإنجازاته التي تتعذر الاستهانة بها علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة. غير أنَّه لم يكن كذلك. جاء المؤتمر، بدلاً من ذلك، استعراضاً صارخاً لعضلات اليمينيين الغاضبين الذين لم يكن هاجسهم الرئيسي منصباً علىٰ ضمان أَمريكا أَكثر أمناً فيما بعد الحرب الباردة، أَمريكا متمتعة بقدر استثنائي من الإمكانيات الجديدة لتوظيف طاقات الأمة الخارقة للعادة من أجل تحقيق أغراض أعظم وأَكثر نبلاً. لقد تركّز اهتمام المؤتمر في المقام الأول، بدلاً من ذلك، علىٰ ما إذا كانت النساء الأَمريكيات يملكن حق الإجهاض أم لا، وهي مسألة لم يكن بوش ذا قناعات قوية بشأنها.

عقد فريقا بوش وبوكانان مفاوضات مطوّلة حول ما سيحصل عليه بوكانان من كشف مقابل دعمه للرئيس. من الواضح أَن البيت الأَبيض كان قد

بالغ في السخاء منذ البداية حين تخلّى لا عن التوقيت النموذجي فقط، بل وعن أكثر الأوقات مثالية في الليلة الأولى من ليالي المؤتمر. وما هو أسوأ أن جماعة البيت الأبيض كانوا، لدى معاينتهم لخطاب بوكانان، مهتمين في المقام الأول بمستوى الحماس لبوش. وبالتالي فقد أخفقوا في التقاط اللغة الخطابية القاسية، المثيرة للأعصاب ـ لتلك الدعوة إلىٰ خوض حرب دينية ثقافية، وهي الرسالة الخاطئة مئة بالمئة بالنسبة إلىٰ أكثرية الأمريكيين المعتدلين المعروفين بنفورهم الشديد من أي مظهر من مظاهر التعصّب، خصوصاً التعصّب الديني.

لم يوح عدد كبير، كبير جداً، ممن تحدَّثوا في ذلك المؤتمر بأنّهم أناس كانوا في السلطة علىٰ امتداد السنوات الاثنتي عشرة الماضية. بدوا أشخاصاً غاضبين ومستائين ممن كانوا في السلطة، خصوصاً خلال السنوات الأربع الأخيرة. كان المؤتمر شديد التوق للحْم النيّء فسارع إلىٰ تجريد عظام بوش من كل ما عليها من لحم. كان العبء والخطأ، كلاهما، من نصيب بوش، آخر المطاف، حيث تم الإتيان علىٰ ذكر ما وقع في الحملة من أخطاء فضلاً، ربما، عما كانت حياته السياسيَّة مفتقرة إليه باستمرار. لم يقف الأمر عندما كان متوقعاً من قيام بوكانان بإلقاء أحد أبشع الخطب في تاريخ المؤتمرات القوميَّة الحديثة. بل وتجاوزه إلىٰ تسليط الضوء علىٰ إخفاق بوش، مرشح الحزب، في الرد علىٰ ما قاله منافسه لأن مندوبي مؤتمره بالذات زرعوا الرعب في قلبه. كان ريگان أستاذاً في التعامل مع أمثال هؤلاء؛ أمَّا هو فلم يكن كذلك.

كانت هناك مشكلة إضافية تمثَّلت بدخول مرشح طرف ثالث إلىٰ السباق يحمل اسم روس پيرو، صاحب مليارات بدا مشحوناً بعداء شخصي كبير لبوش أكبر من عدائه لكلنتون. دأب پيرو بصورة منهجية وفعَّالة علىٰ مهاجمة بوش علىٰ الجبهة الاقتصاديَّة، محرراً كلنتون من تلك المسؤولية ومتيحاً له فرصة التحليق علىٰ مستويات أعلى. كانت حملة پيرو أقرب إلىٰ تلك التي يخوضها مرشح نيابة الرئاسة عادة، وأتاحت لكل من كلنتون وآل گور فرصة السير علىٰ

الشارع العريض فيما بقي پيرو متولياً الاضطلاع بدور القاتل المأجور العامل لصالحهما.

لم تكن عمليَّة ترشيح پيرو ضربة يُستهان بها وإن لم تكن قاتلة. غير أَن أوجع الضربات كانت ذاتية. ببساطة، كان هناك عدد كبير جداً من الناس في البيت الأَبيض، بمن فيهم الرئيس نفسه، تعرّضوا للإهانة الشخصية إزاء البضاعة التي كان ذلك المرشح الديمقراطي الشاب عاكفاً علىٰ الترويج لها، خصوصاً ما اعتبروه تهرباً من التجنيد، بما جعلهم غير قادرين علىٰ تصوّر احتمال قيام أَمريكا التي يعرفونها بتقديم مثل هذه المكافأة إِلىٰ كلنتون وبتسليم زمام أمرها لمثل هذه القيادة الضعيفة. كانوا علىٰ صواب من نواح معينة. فقبل سنوات قليلة فقط كان من شأن تحدي كلنتون أَن يبدو باعثاً علىٰ السخرية. غير أَن العالم كان قد تغيّر، وأَمريكا المقبلة الآن علىٰ التصويت لم تكن هي نفسها أَمريكا التي عرفوها.

كان فريق كلنتون واثقاً من أَن بوش ومَنْ هُم حوله كانوا يعيشون في الماضي، عاجزين عن التكيّف مع الظروف الجديدة. فعمليَّة الانتقال من سياسة الحرب الباردة إِلىٰ سياسة ما بعد الحرب الباردة، تلك العمليَّة التي ربما كان ريگان قادراً علىٰ إِنجازها بيسر غير عادي، بدت عمليَّة تكيّف بالغة الصعوبة والتعقيد بالنسبة إِلىٰ بوش الأَقل مكراً ودهاءً. وبالفعل فإِن ستان گرينبيرگ رأى كلنتون ليس فقط أقرب من بوش إِلىٰ الوَسَط السكاني (الديمگرافي)، بل وأقرب أَيضاً إِلىٰ تيار الوَسَط علىٰ الصعيدين الثقافي والسياسي. صحيح أن قضية التجنيد كانت بالغة الخطورة بالنسبة إِلىٰ بوش، حسب رأي گرينبيرگ. غير أَن شبيبة البلاد لم تخضع لعمليَّات التجنيد منذ جيل كامل وكانت متلهفة لإِغلاق ذلك الباب.

إِذا أصر بوش علىٰ انتقاد كلنتون حول هذا الأَمر، فذلك يعني أنّه مصرّ أَيضاً علىٰ انتقاد ملايين الشباب الأَمريكيين. فما إِن انتهى المؤتمر الجمهوري

حتى سارع گرينبيرگ إِلىٰ كتابة مذكرة وجّهها إِلىٰ كلنتون وكبار معاونيه علىٰ شكل مذكرة كان من الممكن أن يوجهها بوب تيتر إِلىٰ جورج بوش ـ من نوع اعرف عدوك، وانظر إِلىٰ نفسك بمنظار الأعداء. تمثَّلت المسألة، استناداً إِلىٰ استطلاع گرينبيرگ بالذات، بكيفية مهاجمة كلنتون بأنجح الطرق، إِعداداً له حتى يكون لقمة سائغة في الغارة المقبلة. قالت المذكرة الزائفة إِن بوش سيخسر إِذا خاض المعركة من منطلق الاقتصاد. وبالتالي فإِن الطريقة المثالية لمهاجمة كلنتون تمثَّلت، برأي كلنتون، بالانقضاض علىٰ سجله السياسي، بما يقزّم مكانته علىٰ صعيد قومي أوسع، وتصويره عنصراً غير مجرَّب وقصير القامة من ولاية فقيرة عديمة الأَهميَّة يحلم بمنصب أكبر منه بكثير. بعد ذلك فقط يجب أَن ينتقلوا إِلىٰ تناول سجله في التجنيد. ومن ثم يمكنهم متابعة أخلاقه الشخصية واستغلال قضية الثقة. وقد اكتشف گرينبيرگ من استطلاعاته، أَن من المحتمل أَن يفشلوا، إِذا ما قاموا بقلب مسار عمليات الانقضاض، لأَن الشعب الأَمريكي لم يكن يريد أَن يرى ذلك النوع من الهجوم في المرحلة الأولى من أية حملة، لرغبته في اختبار مدى صلاحية المرشح كشخص لشغل المنصب.

مما أدخل السرور إِلىٰ قلوب فريق كلنتون أَن جماعة بوش بدأت بإِثارة قضية السلوك الشخصي والتجنيد. تمخض الأَمر عن زَفْرة انفراج عظيمة في معسكر كلنتون. كانت جماعة بوش قد وقعت في مصيدة نصبتها لنفسها. وفيما بعد، حين بادر بوش آخر المطاف إِلىٰ الكلام فعلاً عن القضايا الداخليَّة، لم يقدمها بشكل صحيح، باعتقاد گرينبيرگ، إِذْ أخفق في إِنجاز العبور الناجح من نجاحاته في السياسة الخارجيَّة إِلىٰ قُدْرته الراهنة علىٰ استخدام الطاقات والمواهب نفسها علىٰ الجبهة الداخليَّة. فقط أواخر الحملة، حين كان الوقت قد فات منذ زمن بعيد، تحوّلت جماعة بوش إِلىٰ سجل كلنتون السياسي عبر نشر إِعلانات أظهرت آركنسو مثلما كانت خارجة لتوها من سحب غبار الثلاثينيّات. ومن المفارقات الساخرة أَن كلنتون الذي لم يهتم كثيراً بالانقضاض

علىٰ حياته الشخصية وسجل تجنيده، ما لبث أَن انقلب إلىٰ صاروخ من النار في التصدي للهجوم علىٰ سجله وسيرته العمليَّة واثقاً من أَن من شأن مثل هذا الهجوم أَن يؤدي إلىٰ إلحاق الضرر به. غير أنّه لم يفعل. فباعتقاد گرينبيرگ، لم تتمكن حملة بوش قط، وعلىٰ جميع الأصعدة، من توظيف نقاط قوّتها ومن إتقان فنّ التكيّف مع الوقائع السياسيَّة الجديدة. فما سبق له أَن خدم بوش بصورة رائعة قبل أربع سنوات فقط في حملته ضد مايكل دوكاكيس لم يعد يفعل أَي فعل في هذه الحقبة المختلفة جداً في مواجهة كلنتون وفريقه الأكثر مكراً والأقوى دهاء، خصوصاً جيمس كارڤيل المتحفز الأبدي للقتال. لقد كان كارڤيل هذا أشبه بنسخة ليبرالية ديمقراطيَّة عن لي آتواتر، ذلك المستشار الجمهوري الشاب الخبير علىٰ صعيد اعتماد سياسة الأَرض المحروقة في التعامل مع الخصوم السياسيين.

كان كارڤيل قد برز في إحدى الانتخابات الفرعية لعضوية مجلس الشيوخ بولاية بنسلڤانيا سنة 1991م لملء المقعد الذي شغر برحيل المرحوم جاك هاينز. بدا السباق شبيهاً، من عدة نواحٍ، بسباق 1992م الرئاسي. كان ديك ثورنبورگ، وهو حاكم سابق للولاية ذو شعبية، عضو في وزارة بوش، وسياسي أرستقراطي مثل بوش إلىٰ حد معين، قد أبدى رغبة في الاستقالة من الإدارة وخوض السباق. نافسه في السباق شخص غير معروف نسبياً يدعى هاريس ووفورد، وهو أَحد الرؤساء السابقين لفرق السلام ورئيس إحدى الكليات. في إحدى المراحل كان ثورنبورگ متقدماً بسبع وأربعين نقطة في استطلاعات الرأي. تمثّلت طريقة كارڤيل للاحتفال بانتهاء الحرب الباردة وشد الأنظار إلىٰ اقتصاد بنسلڤانيا المتدهور بعبارته البسيطة التالية: «آن أوان الاهتمام بما يخصنا» التي كانت سَلَف عبارته اللاحقة التي تقول: «إنه الاقتصاد، يا غبي!». صحيح أَن ووفورد قد تمكن من الفوز، غير أَن الفائز الأكبر كان هو كارڤيل بأسلوبه الصدامي.

لعل أكبر مفاجآت حملة 1992م هي تلك التي تمثَّلت بغياب صدى ما حقَّقه بوش في حرب الخليج. كانت الحرب البرية قد نُفذت بمهارة فائقة ولم تدم سوى بضعة أيام، مع عدد قليل جداً من الإصابات. شاهدتها الأمة بأسرها علىٰ الشاشات الصغيرة. فقنوات الأخبار العاملة علىٰ مدار الساعة والقدرة علىٰ مشاهدة أفلام الپنتاگون للقذائف والصواريخ الأمريكيَّة وهي تضرب أهدافاً عراقية كانت قد جعلت الأمر يبدو وكأنه لعبة شريط ڤيديو قوميَّة كبرى. جرى تنفيذ الحرب من قبل جيش محترف ـ جيش محترف جداً، كما سيتضح. غرق البلد في بحر من الذهول، وفيما بعد كان كل من كولن پاول ونورمان شوارتزكوپف، المختلفين جداً، قد برزا بوصفهما اثنين من الأبطال القوميين. جرت استعراضات احتفالية رائعة في واشنطن ونيويورك، تابعها الجزء الأكبر من الأمّة. ثم ما لبث أن انتهى كل شيء بسرعة.

ربما كان ذلك عائداً إلىٰ طبيعة الحرب بالذات. كان قِصَر مُدَّتها وواقع أن الجنود الذين خاضوها منتمون إلىٰ جيش نخبوي محترف يعني أن عدداً قليلاً فقط من الأسر الأمريكيَّة شاركت في الخطر مما قلّص من تأثيره. عشية الحرب كان مراسل **الواشنطن پوست**، ديڤيد مارانيس، قد ذهب إلىٰ جامعة ڤاندربلت في ناشڤيل، وأجرى مقابلات مع سبعة شباب، في العشرين أو الحادي والعشرين من العمر، وهو عمر الشباب الذين كانوا يستعدون للقتال في الخليج نفسه تقريباً. في قلعة الوطنية التقليدية الجنوبية هذه، عبَّر خمسة من السبعة عن تأييدهم للحرب، ولكن أحداً منهم لم يكن مستعداً لخوضها. قال أحدهم: «قد يبدو ما أقوله أنانياً، غير أنني أعتقد أن من العار إرسال أفضل عقول أمريكا إلىٰ خط الجبهة»[3]. جاء مقال مارانيس مشحوناً بقدر غير عادي من المعنى؛ بدا وكأن الحرب قد انقلبت إلىٰ رياضة لإمتاع المشاهدين، مع بقاء أكثرية العائلات الأمريكيَّة محصنة ضد واقعها بصورة كاملة. ربما ساهمت التغطية التلڤزيونية

(3) غولمان وآخرون، 407.

نفسها في جعلها تبدو أشبه بحادثة تسلية أَو لهو وساعدت علىٰ تحويل الكثير من الأَمريكيين إِلىٰ مشاهدين أَكثر منهم وطنيين. فبالنسبة إِلىٰ أَكثرية الأَمريكيين، بدت حرب الخليج، بصرف النظر عن الاستمتاع بمشاهدة هذا الاستعراض المخيف للجبروت الأَمريكي، أشبه بمتابعة فلم سينمائي معيّن، بدلاً من أَن تشكّل تجربة حقيقيّة قائمة علىٰ المشاركة الفعلية. وحين انتهت انتهت بسرعة. صحيح أَن الإِطراء الذي حصل عليه بوش بسببها كان سريعاً ومثيراً للإِعجاب، غير أنّه لم يكن طويل العمر. لم تكن حرب الخليج تجربة قوميّة مشتركة بعمق. بدا الأَمر كما لو أَن شرعة سياسيّة جديدة بدأت تفعل فعلها، شرعة تقول حين لا تطلب من الأمّة إِلاَّ الشيء القليل وتكتفي بمطالبة أقلية صغيرة بالتضحية، فإِن الأمة لن تلبث أَن تفقد الاهتمام بالقضية آخر المطاف.

كانت الهزيمة قاسية علىٰ بوش الذي ظل يعتقد حتى الأَيام الأَخيرة من الحملة، رغم استطلاعات الرأي، بأنّه كان سيفوز. كان واثقاً من أَن البلاد سوف تعيش يوم الانتخاب لحظة حقيقة باهرة وستدلي بصوتها لصالحه. لم تكن أَمريكا التي عرفها مستعدة للانقلاب عليه والتصويت لرجل كان قد رفض خدمة وطنه، لرجل كان يُطْلَق عليه في السر والعلن اسم آلڤيس، لرجل كان قد عَزَف علىٰ آلة الساكسافون في مقابلة تلڤزيونية سخيفة وكان مرتاحاً ومطمئناً إِلىٰ ظهوره علىٰ شاشة قناة تدعى إم. تي. في. MTV، ذات جاذبية وشعبية عند أحفاد بوش أَكثر من الرئيس نفسه. في اللحظات الختامية من الحملة ذهب خبير استطلاعات الرأي، بوب تيتر، والسكرتير الصحفي مارلين ڤيتزووتر إِلىٰ بوش وحاولا تلطيف وقع الأنباء المحتمة. غير أَن بوش ظل يرفض تصديقهما وبقي واثقاً من أَن إِيمانه بحكمة الشعب الأَمريكي سوف تتأكّد صحته.

* * *

في الأَيام الأَخيرة من إِدارة بوش، بذل إِيگلبيرگر محاولة أخيرة حول

البوسنة. للدلالة علىٰ مدى تطوّر وجهات نظره، كان قد أَصبح أكثر أعضاء الإِدارة حماساً. ففي أوائل كانون الأَول حصل علىٰ تفويض يمكّنه من مفاتحة حلفائنا الأوروپيين حول اعتماد سياسة جديدة قائمة علىٰ «ارفع واضرب»؛ أَي رفع حظر توريد الأَسلحة عن البوسنيين واستخدام القوَّة الجويَّة الأَمريكيَّة لردع العدوان الصربي. لم تكن لديه آمال عريضة. كان واقفاً علىٰ الهواجس الأوروپية إِزاء هشاشة قواتهم علىٰ الأرض، غير أنّه ظل مقتنعاً بأن الأَمر جدير بالمحاولة. ما من شيء كان يفيد وبقيت الفظاعات والانتهاكات الشنيعة تزداد سوءاً.

مضت الانتخابات الرئاسية آخذة معها عنصراً من عناصر العرقلة والتقييد. في الخارجيَّة بات إِيگلبيرگر يواجَه بالقضية يومياً، واعتُبرت رحلته نتيجة الإِحباط قبل أَي شيء آخر. إِلاَّ أنها كانت تشي بالتغير التدريجي الحاصل في داخل الإِدارة الأَمريكيَّة بما دفع شخصاً طالما اعتُبر عقبة أمام أَي رد أَمريكي مُصَعَّد إِلىٰ الذهاب إِلىٰ أصدقائه الأوروپيين القدامى لتجديد الود القديم. لم تفلح الزيارة في تغيير القلوب أَو العقول. فالأوروپيون غائصون حتى العمق الذي اختاروه، مع مناشدات صديق قديم أَو دونها. لم يكن الأَمر سوى دليل آخر علىٰ إِخفاق سياسة إِدارة بوش إِزاء البوسنة، لحظة رحيل هذه الإِدارة.

تقدَّم إِيگلبيرگر وسكوكروفت بتوصية أُخرى في الأَيام الأَخيرة من الإِدارة وحصلا علىٰ المطلوب. بادر الرئيس في اليوم السابق لعيد الميلاد إِلىٰ إِصدار إِنذار ـ بات يعرف باسم إِنذار عيد الميلاد ـ موجّه إِلىٰ ميلوسوڤيتش والصرب يطالبهم فيه بترك كوسوڤا وشأنها. كان الإِنذار من صياغة إِيگلبيرگر وإِعداده. «في حال نشوب صراع في كوسوڤا نتيجة أفعال الصرب، ستكون الولايات المتحدة مستعدة لاستخدام القوَّة العسكريَّة ضد الصرب في كوسوڤا كما في صربيا نفسها». فكل من إِيگلبيرگر وسكوكروفت كانا ـ بفضل قضائهما وقتاً غير قصير في يوگوسلاڤيا ـ يعرفان أَن كوسوڤا ظلت نقطة الوميض الحقيقية. كان

ميلوسوفيتش مسروراً من أنَّه تمكّن من اغتصاب ما استطاع اغتصابه من البوسنة، غير أَن نجمه لم يصعد، أساساً، إِلاَّ عبر استغلال التوترات والنزاعات العرقية في كوسوفا.

❊ ❊ ❊

ثمة مناقشة أخيرة ذات معنى حول دور أوروپا والولايات المتحدة في البلقان جرت أَيضاً في الأَيام الأخيرة من إِدارة بوش. ففي أواخر كانون أول/ ديسمبر 1992م، مجموعة من وزراء خارجيَّة أوروپا الوسطى، ينتمون جميعاً إِلىٰ البلدان المعروفة باسم مجموعة فيزگراد، جاءت إِلىٰ واشنطن لمقابلة كل من جيمس بيكر وجورج بوش. ومجموعة فيزگراد المسماة باسم إِحدى البلدات المجرية الصغيرة كانت مؤلَّفة من قادة البلدان التي كانت شيوعية منذ بعض الوقت وساعية الآن إِلىٰ التلاقي في سبيل تحسين علاقاتها البينية وإِظهار قُدْرتها علىٰ أَن تشكِّل جزءاً من أوروپا جديدة أَكثر ديمقراطيَّة، بل وعلىٰ أَن تصبح أعضاء في حلف الناتو. سبق للكثير من هؤلاء الرجال أَن عرفوا بعضهم منذ الأَيام التي كانوا فيها يتعرّضون للقمع من جانب الأنظمة الشيوعية، مما جعلهم مترابطين بعلاقات زمالة راسخة الجذور. شملت المجموعة القادمة إِلىٰ واشنطن رسميين من كل من پولونيا، تشيكيا، والمجر. في تلك اللحظة كانت النمسا متعاطفة تماماً مع فكرة قيام أوروپا جديدة، ديمقراطيَّة، وقد اضطلع سفيرها في الولايات المتحدة فريدريش هويس بمهمة استضافة الجماعة ومرافقتها في واشنطن فضلاً عن تنظيم لقاء مع بيكر وآخر مع الرئيس بعد ذلك.

شيئان كانا مهمين حول اللقاء. أولهما قامَةُ جورج بوش العملاقة في تلك اللحظة. بنظر هؤلاء لم يكن بوش أقل من محرر أوروپا، إِذ هو الرجل الذي تولى رئاسة سياسات الدولة الأقوى في العالم لدى رفع نير النزعة الشمولية السوڤيتية الظالم عن أكتافهم. لا يستطيع أحد أَن ينكر بطولاتهم وبطولات شعوبهم ـ ذلك الدافع الغريزي لدى الناس العاديين لمقاومة التحكّم الشمولي

الظالم ـ كانت أكثر أهميَّة في حصول ما حصل من أية أفعال قام بها الأَمريكيون. غير أَن هؤلاء ظلوا، مع ذلك، يكنّون قدراً كبيراً من الإِعجاب لجملة السياسات التي اعتمدها القادة الأَمريكيون الذين ساهموا في الثبات على المبدأ علىٰ امتداد ما يقرب من خمس وأربعين سنة، ولبوش، بصورة خاصة لكونه الرئيس الذي كان شاغلاً للمنصب لحظة انتهاء كل شيء. كان بوش قد زار بلدانهم وعواصمهم كبطل، رئيس دولة سبق لقوّاتها أَن جاءت إِلىٰ بلدانهم البعيدة لخدمة قِيَم ومُثُل نبيلة في الحرب العالميَّة الثانية، وسبق لقادتها أَن ظلّوا أوفياء لتلك المُثُل العليا علىٰ امتداد سني الحرب الباردة.

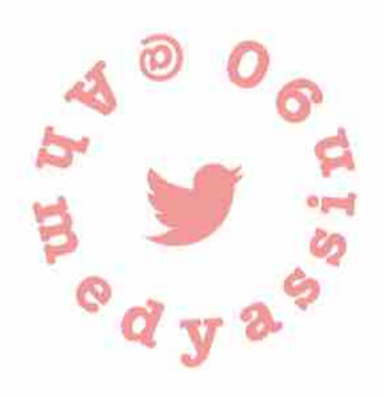
تمثَّل الشيء المهم الثاني بكون هؤلاء الرجال، جميعاً، شديدي التأثر والانفعال بما كان يجري في يوگوسلاڤيا، منهم علىٰ معرفة جيدة بالمنطقة الواقعة علىٰ حدود بلدانهم المباشرة في بعض الحالات، فضلاً عن معرفتهم بميلوسوڤيتش، أَو بنموذجه، بعبارة أَكثر دقة. فقد عرفوا ميلوسوڤيتشات العالم لأَن أَكثرهم كان قد أمضى السنوات الثلاثين الأخيرة مسحوقاً تحت أقدام أمثال ميلوسوڤيتش. بنظر هؤلاء، كان صعود ميلوسوڤيتش برعاية نظام سبق لهم أَن حاربوه حياتهم كلها، وانقلابه بعد انتصار الشعب في معركة الحرية معلناً عن وقوفه في صف القوى الجديدة، تجسيداً حياً لأحط أشكال النزعة الكلبية. ولعل ما هو أهم من كل شيء هو أَنّهم كانوا واقفين عن كثب علىٰ الطبيعة المعادية للديمقراطيَّة لما كان جارياً علىٰ قدم وساق، وشاعرين بمدى فداحة الثمن المحتمل بالنسبة إِلىٰ شعب يوگوسلاڤيا كما بالنسبة إِلىٰ الرخاء العام لأوروبا أَكثر ديمقراطيَّة.

أَضفىٰ الضيوف جواً حماسياً علىٰ بوش وتعاقب الجميع علىٰ الكلام. قيل: «نناشدك، باسم تراثك، باسم السلام والكرامة في منطقتنا، أَن تتدخّل!» وحدها الولايات المتحدة تستطيع أَن تضع حداً للمأساة قبل أَن تصبح أَكثر سوءاً. أصغى بوش إِلىٰ كلامهم حتى النهاية ولكنّه لم يرد في الحقيقة. كانت

فترة رئاسته موشكة علىٰ نهايتها ولم يكن عازماً علىٰ القيام بأيّة محاولة عسكريَّة جديدة. تعرّض الوفد للانهيار تحت وطأة خيبة الأمل. لدى الخروج من مكتب بوش هزّ ديمتري روپل، وزير خارجيَّة سلوڤينيا، رأسه والتفت إلىٰ زملائه قائلاً: «نسمع أشياء كثيرة عن أوروپا الجديدة، ولكن الحقيقة هي أن الإرادة السياسيَّة للعالم الحر تبدأ وتنتهي داخل المكتب البيضوي».

(4) المصدر السابق، 356.

(5) كما اقتُبس من قبل گريگوري دان **نيويوركر**، «الوطنية الافتراضية» 16/ 11/ 1998م.


@Ahmedyassin90

الفصل الخامس عشر

ظلت السياسة الخارجيَّة قضية ثانوية نسبياً في الانتخابات التمهيدية في الحزب الديمقراطي. حتى قبل حملة 1992م، من الواضح أنها لم تكن هاجساً ملحّاً في الأوساط المختلفة للحزب الديمقراطي. ربما كانت، بالأحرى، مسألة حرص أكثر مرشحي الحزب الرئيسيين علىٰ أن ينأوا بأنفسهم عنها. ففي 1988م حين كانت المؤشرات المبكرة الدالَّة علىٰ احتمال حدوث انتفاضة عميقة في أوروپا الشرقيَّة قد أصبحت جلية، بقيت الحملات الأولية، حتى في تلك الأثناء، لافتة للنظر من حيث الافتقار إلىٰ الحماس والمعنى حول الموضوع. ومن المرشحين الديمقراطيين الأكثر شباباً الصاعدين في الثمانينيّات، وحده گاري هارت كان صادق الحماس للسياسة الخارجيَّة وقضايا الدفاع. فقد سبق له أن شعر، حتى قبل سقوط جدار برلين، بأن من شأن انتهاء الحرب الباردة أن ينطوي علىٰ عواقب بالغة الأهميَّة والعمق بالنسبة إلىٰ القوتين العظميين كلتيهما. كان گورباتشيف قد حرص علىٰ إبقائه بعيداً في البداية، غير أنّه ما لبث ـ مفتوناً بجدية هارت الواضحة حول القضايا ـ أن بدأ يتعاطف معه. وبعد ذلك أقدم هارت علىٰ تدمير ذاته بوصفه ضحية مبكرة لمبالغة وسائل الإعلام في الانشغال بالحياة الشخصية لكل من المرشحين، فتلاشى احتمال ظهور نقاش ينطوي علىٰ معنى حول السياسة الخارجيَّة. (فيما بعد قام گورباتشيف برفع قبعته تعبيراً عن الاحترام لهارت حين كان الأخير خارج حلبة السياسة الرئاسية وعاكفاً علىٰ عمله

كمحام في دنڤر، عبر تمكين أَحد زبائنه الدنڤريين من الحصول علىٰ عقد اتصالات بعيدة كبير).

كان فك الارتباط مع السياسة الخارجيَّة لا يزال صحيحاً إِلىٰ حد بعيد في 1992م. ومع خروج كلنتون تدريجياً من نيو هامپشاير بحالة جيدة بصورة مفاجئة، بات واضحاً أَنّه سيكون المرشح الديمقراطي. في نيويورك، حيث كان فريق كلنتون كلّه قد اجتمع لحضور المؤتمر، كان توني ليك وساندي بيرگر واقفين في أَحد أركان غرفة ليك وحين نظر بيرگر الذي كان يهمّ بالذهاب إِلىٰ حديقة ساحة ماديسون لمتابعة عمليَّة الترشيح ولمح قدراً غير قليل من الحزن علىٰ وجه صديقه، سأله:

«ما الأَمر؟» رد ليك قائلاً:

«أظن أَن الخطة ستنجح، أعتقد أنّه سيُنتَخب، وسيتعين عليّ أَن أحسم أمر عودتي إِلىٰ العمل الحكومي». تساءل ليك: هل أعود؟ لحظياً كان متردداً. كان يعرف مدى تدمير العمل علىٰ ذلك المستوى في الإِدارة بالنسبة إِلىٰ أي زواج. سبق له أَن دمّر زواجه مرة من قبل ومن شأنه أَن يساهم، آخر المطاف، إِلىٰ تدميره. غير أنّه كان يعرف أَيضاً أنه كان سيقول: نعم.

كان كلنتون ورفيق سباقه آل گور قد أفادا في سنة 1992م من اللغة الخطابية المتشدّدة للمؤتمر الجمهوري إِذْ انطلقا إِلىٰ رحلتهما الشهيرة بالحافلة، تلك الرحلة التي أَلهبت خيال البلاد، إِذا كان هذان الشابان مع زوجيهما الجذابتين يمثّلون، بوضوح، أَمريكا جديدة وديناميكية منتمية إِلىٰ عصر ما بعد الحرب الباردة أَصبحت موشكة علىٰ العودة إِلىٰ نفسها إِلىٰ أَن تكون أَمريكا لا أَي شيء آخر، أَمريكا غير متورطة، كما هي حالها، في أماكن بعيدة. من الواضح أَن البلاد كانت تريد الحصول علىٰ نوع من المكافأة علىٰ تحمّلها لحياة الجندية خلال سنوات الحرب الباردة القاسية، كانت تريد الحصول علىٰ نعمة اقتصاديَّة ونفسيَّة، بل وسلميَّة إِن شئت. ولتأكيد تلك النقطة هاكم كلنتون،

منقضّاً علىٰ حالة الكساد، مهاجماً بوش، المرة بعد الأُخرى، علىٰ مبالغته في الاهتمام بباقي العالم دون توجيه ما يكفي من الانتباه إِلىٰ بلده بالذات.

شكّل وجود آل گور علىٰ القائمة عنصراً إِيجابياً من البداية، بوصفه شخصاً سياسياً جاداً تم اختياره لشغل منصب متزايد الأَهميَّة والخطورة في الأزمان الحديثة المتقلّبة المتطايرة. ومهما كانت مواصفات گور الأُخرى ـ فقد بدا للبعض كثير الاستقامة، جامداً أَكثر مما ينبغي ـ فإِن أَحداً لم يكن أقل منه جدية علىٰ صعيد الإِدارة. ما من أَحد كان يستطيع أَن يتصوّر مدرساً قد تمكّن من الإِمساك بآل الفتى متخلفاً عن إِنجاز وظائفه البيتية. كان ميَّالاً إِلىٰ تقديم أجوبة طويلة علىٰ أسئلة قصيرة؛ وظلت مشكلته في أَي امتحان لكتابة المقال متمثّلة بعدم كفاية الوقت، دائماً، لإِيراد جميع النقاط التي أراد إِيرادها.

في أية أَمريكا سابقة، لم تكن قائمة كهذه ستحصل قط علىٰ الترشيح. كان يتعيّن علىٰ أية قوائم أَن تكون متوازنة، تضم من هم أكبر سناً مع من هم أَكثر شباباً، شماليين مع جنوبيين أَو شرقيين مع غربيين، حبذا لو كانا نيويوركياً مع كاليفورني، شخصاً من يمين الوسط مع آخر إِلىٰ يسار الوسط، لا آركنسو وتنيسي ومن الجيل نفسه بالتأكيد القاطع والجازم. غير أَن هذا كان عصراً جديداً، وكانت نقاط قوة گور قد تغلّبت علىٰ البنية السكانية ـ الجغرافية. خلافاً لحال أَكثر أعضاء مجلس الشيوخ الموهوبين الآخرين، لم يكن آل گور مترفعاً أَو متكبراً حين قابله وارن كرستوفر في أثناء عمليَّة البحث التمهيديَّة عن مرشح لمنصب نائب الرئيس. وحين التقى بكلنتون فيما بعد، كان الاجتماع ناجحاً جداً.

علىٰ الرغم من أَن أَي توزيع للمسؤوليات بين گور وكلنتون لم يبرز علىٰ السطح، فقد ظلاّ من البداية مرتاحين بصورة معقولة، كل منهما مع الآخر، مع تمتع الأَول بقَدْر أكبر من الخبرة في السياسة الخارجيَّة التي كان فيها الثاني مبتدئاً، غِراً. فقد سبق لغور أَن عمل في لجنة القوَّات المسلَّحة بمجلس الشيوخ

وكان أَكثر تشدّداً وصقورية من أَكثر أعضاء حزبه. عُرف بتشدّده حول الشرق الأوسط في حَمْلَته غير الموفقة والخاطئة سنة 1988م، وكان قد صوَّت لصالح التفويض بشنّ حرب الخليج. كان گور أَيضاً شديد الاهتمام بالبلقان، ولاذع الانتقاد لسياسة أَمريكا في المنطقة، تلك السياسة التي اعتبرها عاجزة، وكان توّاقاً لرفع حظر الأَسلحة. ومن البداية تقريباً ألح علىٰ كلنتون طالباً منه أَن يتخذ موقفاً ضد سلوبودان ميلوسوڤيتش وأن يتحدَّث صراحة عن البلقان.

خلال الحملة كان گور متفوقاً كثيراً علىٰ كلنتون ليس فقط علىٰ صعيد معرفته للسياسة الخارجيَّة، بل ومن حيث **ثقته** بما يعرفه في ميدان السياسة الخارجيَّة. في البدء بدا كلنتون مذعناً لرفيق سباقه في هذه القضية، كما لو أَن گور كان الأستاذ وكلنتون الطالب. فحين كان گور يطرح خطاً أَكثر تشدّداً بالنسبة إِلىٰ البلقان كان كلنتون يبدو مستجيباً. كان أَحد الاجتماعات التي عُقدت في المراحل المبكرة من الحملة يضم فريق السياسة الخارجيَّة لدى كلنتون المؤلَّف من كل من توني ليك، ساندي بيرگر ونانسي زودربيرگ، ليون فويرث، الذي كان أَحد أعضاء جهاز السياسة الخارجيَّة عند گور، جنباً إِلىٰ جنب مع گور، كلنتون، وجورج ستيڤانوبولوس. عبَّر گور عن تأييده القوي لفكرة تسليح البوسنيين التي بدت حائزة علىٰ الموافقة، وقد بدا الجميع مستعدين لاعتماد تلك السياسة مع مبادرة المرشح لا إِلىٰ مجرد التأييد فقط، بل وإِلىٰ التعبير عن تلهفه المثير للاستغراب لاعتماد خط أَكثر تشدّداً، قائلاً: **نعم ذلك هو ما يجب أَن نفعله!** بثقة وحيوية جديدتين في صوته كما لو بات متحرراً من التردّد الذي طالما شكَّل عبئاً ثقيلاً علىٰ موقفه من المنطقة. إِلاَّ أنهم ما لبثوا، تدريجياً، أَن قرَّروا أَن السياسة الجديدة كانت أميل إِلىٰ المبالغة في التحديد إِن لم تكن متهورة تماماً. كان من شأنها أَن تعرّض جماعة كلنتون لخطر الظهور بمظهر المغامرة وتكشفها أمام انتقادات صادرة ليس عن بوش وحده، بل وعن الأوروپيين والپنتاگون، مما دفعها إِلىٰ التراجع وصياغة

[السياسة الخارجيَّة الجديدة] بلغة أَكثر تعميماً. فبدلاً من عرض سياسة واضحة المعالم تخصها، قرَّرت جماعة كلنتون أَن تواصل وَخْزَها وانتقادها لجماعة بوش وإِخفاقاتها.

كان التسابق علىٰ ترشيح الحزب الجمهوري هو الجزء الأصعب. فبعد الترشيح كان كلنتون قادراً علىٰ الإِحساس ببدء ميلان الكفة لصالحه. كان شعوره حول كيفيَّة سير الحملة مرعباً. كانت لواقطه (آنتيناته) بالغة الحساسية مما مكَّنه من أَن يعرف، عبر ردود أفعال الحشود، أَن قضاياه كانت هي القادرة علىٰ إِحداث الصدى المطلوب، وأن ما يدعو إِليه كان هو ما يريده البلد ـ إِنَّه الاقتصاد، يا غبي! كان يعلم أَن القضايا تخصّه هو، رغم جميع الآراء التجريبية المثارة ضده والمؤيدة لبوش، ورغم إِصرار الحكمة السائدة علىٰ القول بأن بوش يجب أَن يفوز. كان كلنتون قد التفت إِلىٰ ستيفانوپولوس، في واشنطن، حيث كان في إِجازة قصيرة من الحملة أوائل أيلول/ سپتمبر، ليسأل صديقه: «تعتقد أننا سنربح، أليس كذلك؟» رد الصديق: «نعم أعتقد ذلك». وقال كلنتون «أنا أَيضاً أعتقد ذلك»، مما ترك انطباعاً جيداً لدى ستيفانوپولوس. فأن يقول كلنتون كلاماً من هذا النوع كان شيئاً جديداً؛ كان في العادة أَكثر حَذَراً وتحفظاً في كلامه عن الاتجاه الذي تسير فيه الأمور[1]. يلاحظ ستيفانوپولوس أَن كلنتون بدأ، بعد ذلك يتغيّر، شاعراً بدنو أَكثر أحلامه جموحاً من التحقّق علىٰ أَرض الواقع، راح يصقل خطابه، متنبهاً إِلىٰ الاحتمال الفعلي لأَن يصبح رئيساً للجمهوريَّة فيغدو مضطراً لانتقاء كلماته وصياغتها بعناية. قد يصبح أسيراً لها بالفعل، وبالتالي فإِن المبالغة لم تكن الصفة الأَكثر تميّزاً بالحكمة في العالم.

كان التغيير الحاصل علىٰ صعيد الأجيال في السياسة الأَمريكيَّة حاصلاً أَيضاً في الإِطار الثقافي الأوسع هو الآخر، خصوصاً في وسائل الإِعلام

(1) مقابلة مع ستيفانوپولوس.

وشَبَكات التلفزة. فالقنوات التلفزيونية ذات الحساسية الشديدة الدائمة إِزاء الرأي العام، أَكثر بكثير من الكلمة المطبوعة النخبوية، دأبت علىٰ التقاط التغييرات الطارئة علىٰ المواقف الشعبية بسرعة مذهلة، تجنّباً لتعرّض شعبيتها للانحدار الشديد مع ما يرافق ذلك من خسارة لملايين الدولارات. حتى فيما كان الشعب الأَمريكي عاكفاً في 1992م علىٰ اتخاذ قراره القائل بأن القضايا الداخليَّة، لا الخارجيَّة، هي الأهم، كان الشيء نفسه دائباً علىٰ الحصول، بشكل أقل مسرحية، منذ أَكثر من عقد في أخبار الشبكات، التي كانت ميزاناً ظاهر الصدق لرَوْز الحالة النفسيَّة علىٰ الصعيد القومي.

لا شيء عَكَس تحولات المواقف الأَمريكيَّة من السياسة الخارجيَّة بصورة أوضح مما فعلت شبكات التلفزة الرئيسية الثلاث ـ الاي. بي. سي. ABC، السي. بي. إِس، CBS، والإِن. بي. سي. NBC ـ التي ابتعدت تدريجياً عن التغطية الخارجيَّة الجادة في الثمانينيّات. لقد قيل، بقدر قليل جداً فقط من المبالغة، ربما كانت تلك الأماكن الوحيدة المدمنة علىٰ استطلاعات الرأي كحال بيت أبيض كلنتون في المستقبل القريب. ففي ذلك العقد كانت الشَّبَكات قد زادت من تحوّلها عن جيل المراسلين المتميزين الذين سبق لهم أَن بنوا أمجادهم بالطريقة القديمة، عبر تغطية أصعب الأحداث الخارجيَّة وأهمها، إِلىٰ نوع جديد أَكثر رشاقة وأناقة من المراسلين، الذكور والإِناث علىٰ حد سواء، العاملين الآن لصالح ما يطلق عليه اسم مشاهد الإِثارة والعاكفين علىٰ تغطية أَحداث تكون عموماً أَشد بريقاً أَو تفاهة وأَكثر إِيحاءاً بانشغال أَمريكا المسبق بحالها. شكل هذا تحولاً مهنياً كبيراً. فقبل حوالي نصف قرن من الزمن كانت الشبكات ـ في الراديو لا التلفزيون آنذاك ـ قد رسّخت شهرتها بوصفها جزءاً حاسماً من نسيج الأمة المتماسكة المتواشجة ذات الهواجس المشتركة عبر قيامها بتغطية الأخبار الأجنبية والعالميَّة خلال الحرب العالميَّة الثانية. كانت، في ذلك المنعطف التاريخي، قد ساهمت في تمكين الأمّة من التحوّل إِلىٰ جسر

بين محيطين [بين الأطلسي والهادي]، في خطوة أولى علىٰ طريق بلوغ أَمريكا سن الرشد كقوّة عالميَّة.

كان ذلك التراث، الناشئ عن الحاجة والظروف، قد تواصل ودخل في عصر التلفزيون، حيث بقي المراسلون الخارجيون نجوم الشبكات. فالجيل الأَول من إِعلاميي التلفزيونات الأَكثر شهرة والأوسع جمهوراً كانوا قد حقَّقوا أمجادهم كمراسلين خارجيين. كان بعضهم مثل إِد مورو وإِيريك سيڤاريد، ووالتر كرونكايت وتشارلز كولنگوود، قد بدؤوا مذيعين في الراديو ثم ما لبثوا، في منتصف حياتهم المهنية، أَن انقلبوا متقمصين أثواب الشخصيات الطليعية في الأخبار المصوّرة. بقيت الأمور علىٰ تلك الحالة خلال الحرب الڤيتنامية، التي كانت، حسب تعبير الكاتب مايكل آرلن الموفقة، لا الحرب التلفزيونية الأولى فحسب، بل حرب غرفة الجلوس الأولى.

مع حلول عقد الثمانينيَّات بدأ ذلك كلّه يتغيَّر. بات المراسلون العالميون أَو الخارجيون يواجهون عقبات متزايدة الصعوبة في الوصول إِلىٰ الظهور علىٰ الهواء. ثمة سلسلة طويلة من المهمات الخارجيَّة العزيزة أَصبحت مهملة لأَن الشباب والشابات المتألقين لم يعودوا توّاقين للذهاب إِلىٰ أماكن خطرة ولكنها مثيرة حيث لم تكن الأحداث منطوية علىٰ ما يكفي من الإِثارة لتشكيل أشرطة الأنباء ذوات الدقائق الاثنتين والعشرين. فمع حلول أواسط التسعينيّات صارت أماكن مثل موسكو قادرة علىٰ توفير مواد عظيمة، حيث كان مراسلون شباب متخصّصون بالكلام المطبوع من بعض الصحف الكبرى مثل **التايمز** و**الواشنطن بوست** ما زالوا يستطيعون تحقيق الشهرة، تبقى شاغرة لفترات طويلة لأَن مراسلي التلفزيون الشباب هنا في أَمريكا الراغبين في أَن يصبحوا نجوماً ـ ليظهر اسمك مطبوعاً، كان يكفي أَن تكون مراسلاً جيداً؛ أَمَّا في التلفزيون فقد تعين عليك أَن تكون **نجماً** ـ كانوا يعرفون بأَنّهم كانوا معرّضين، إذا ما ذهبوا إِلىٰ الخارج، للبقاء مع مهمات شاقة، ملتبسة، وبالغة الصعوبة نادراً ما تشكل بنوداً لنشرات الأنباء المسائية.

وبالتالي فإن الشبكات ما لبثت أن أصبحت انعزالية من حيث الجوهر، أو انعزالية ـ جديدة، عاكسة لظاهرة انطواء الأمّة علىٰ ذاتها من ناحية، ومعزِّزة في الوقت نفسه لهذه الظاهرة من ناحية ثانية. لا هم لأمريكا إلاّ ذاتها. لقد أصبح باقي العالم أبعد، أقل أهميَّة، أكثر **أجنبية** في الحقيقة، مما كان قبل عقد من الزمان. فالأخبار الخارجيَّة المبثوثة عبر شاشات الشبكات لا تظهر إلاّ حين تكون ذات ارتباط مباشر بالهموم والهواجس الأمريكيَّة أو حين يكون النبأ بالغ الجودة أو العنف ـ زحمة من المذابح ـ حتى تصبح مناسبة للتلڤزيون. أو كما يقال عن الكثير من المشاهد التلڤزيونية: لا تحتل الصورة مركز الصدارة إلاّ إذا كانت تقطر دماً. وحيث كانت الموازنة اليومية للشبكات تقارب موازنات الصفحات الأولى من الجرائد القوميَّة الكبرى مثل **النيويورك تايمز** و**الواشنطن بوست**، ثمة الآن تحوّل ملحوظ. ما زالت الجرائد القوميَّة عاكفة علىٰ نقل سلسلة منوعة من الأخبار الأجنبية علىٰ صفحاتها الأولى، في حين نادراً ما تقوم شبكات التلڤزة بنقل الأنباء عن الأحداث ذاتها ما لم تستطع إعطاءها مساحات واسعة. (علىٰ الرغم من أن إحدى نتائج الحرب العالميَّة الثانية الرئيسية تمثَّلت بنوع من الالتزام القوي الذي شمل الجيل كله فيما بعد الحرب بالنزعة الأممية، فإن فارساً من فرسان الشبكات لم يسبق له قط أن عمل فيما وراء البحار، يدعى توم بروكاو، كان، مع حلول نهاية القرن، عاكفاً علىٰ كتابة سلسلة من قصائد المديح والإطراء لجيل الحرب العالميَّة الثانية مع تولي رئاسة عمليَّة التحلّل الجوهري لأبناء ذلك الجيل من المراسليين الخارجيين أو العالميين).

كانت المنبهات التي دأب مخرجو العروض الإخبارية التلڤزيونية علىٰ الاستجابة لها هي نفسها التي حرص بيل كلنتون علىٰ التجاوب معها ومواكبتها عندما انطلق لخوض حملته الرئاسية. كانت ثمة أمريكا مختلفة، أمريكا ذات تركيز أضيق. فمع انزلاق أسوأ التناقضات مع الاتحاد السوڤيتي إلىٰ غياهب الماضي، لم يعد الشعب الأمريكي شاعراً بالخطر أو الخوف. بقي الاهتمام

بالأخبار الخارجيَّة كبيراً في السنوات التي أعقبت الحرب العالميَّة الثانية مباشرة، حين أدَّى اختراع الرؤوس النووية، وقد جاءت مرتبطة مع إيجاد الصواريخ العابرة للقارات، إلىٰ تقليص المحيطين الأطلسي والهادي؛ ثم ما لبث هذا الاهتمام أَن توقف حين شعرت أَمريكا أنها آمنة إزاء باقي العالم. لعل الوجه الأَكثر إثارة للاستغراب لسقوط جدار برلين وانتهاء الحرب الباردة هو ذلك الذي تمثَّل بالتأثير الذي تركه ما حدث علىٰ تنفيذيي وسائل الإعلام الأَمريكيَّة؛ فقد بدا هؤلاء متحررين من واجب الاتصاف بالجدية ليس فقط حول الأنباء الخارجيَّة، بل وفيما يخص الكتابة عن الأحداث الداخليَّة أَيضاً.

ما لبثت البنية الاقتصاديَّة الاجمالية للشبكات، هي الأُخرى، أَن تغيَّرت. لقد ولَّى جيل پالي، سارنوف، وگولدنسون من المالكين؛ فالمالكون الجدد شركات عملاقة تديرها طبقة إدارية جديدة. وبالنسبة إلىٰ أعضاء تلك الطبقة فإن الشيء الوحيد المنطوي علىٰ أَهميَّة هو زيادة قيمة أسهم الشركة؛ باتت التقارير الأجنبية تُعتبر باهظة الثمن ومتدنية الشعبية، بما يجعلها غير ذات فائدة بالنسبة إلىٰ الأسهم. أَصبحت الطبقة الإدارية الجديدة قليلة الاهتمام بالقامة الإيقونية لكل من إد مورو ووالتر كرونكايت. أضف إلىٰ ذلك أَن تلفزيون الكوابل مارس تأثيراً عميقاً علىٰ الشبكات. فمع حلول أواسط الثمانينيّات كانت الكوابل قد بدأت تأخذ شخصيتها المستقلَّة، فبدأ الجمهور العريض الذي درجت الشبكات الثلاث علىٰ اقتسامها باستمرار دون أية صعوبة ـ دون أَن يخسر أَحد ـ يتشظى تحت وطأة المنافسة الآتية من الكوابل.

نجح عالم الكوابل، بفضل حاجته الماسّة حتى إلىٰ أدنى درجات الشعبيَّة، في استحداث منظومة قِيَم مختلفة، منظومة أشبه بتلك المعتمدة في صحف الإثارة المصورة (التابلويد) (الصفراء)، قائمة علىٰ تأكيد الجنس والفضيحة والشهرة والعنف، وربما جميعها في وقت واحد، لحسن الحظ، كما في القصة الشهيرة لمحاكمات جريمة اغتيال لاعب كرة قدم أَمريكي مشهور.

وحين بدأت حصتها من الجمهور تتضاءل، سارعت الشبكات إِلىٰ تقليد لا تلك التي كانت قد احترفت الصحافة الجادّة قبلها، بل تلك التي كانت تتحداها من دنيا الكوابل. ما لبثت مشاهد الإِثارة ـ التي كانت ذات شعبية جيدة وغير مكلفة الإِنتاج ـ أَن تحوّلت إِلىٰ نشرات مصوّرة بصورة متزايدة. فيما مضى كانت طريقة الحصول علىٰ موقع كصفحي بارز وناجح قبل كل شيء يكثر من الطيران هي المبادرة إِلىٰ تغطية أَكثر أخبار الأَيام جدية ـ موضوعات الحقوق المدنية، ڤيتنام، ووترگيت. أَمّا المسار الجديد فقد جاء مختلفاً. يتم جني المبالغ الضخمة من مشاهد الإِثارة، والمراسلون الشباب يريدون الالتحاق بركبها لأَن الرواتب التي تتألّف أرقامها من سبع منازل (مراتب) لا تُحصّل إلاّ هناك. فما برز إِلىٰ الوجود في عالم الشبكات خلال الثمانينيّات والتسعينيّات لم يكن متمثلاً بمراسلين عظام، بل **بشخصيات** (نجوم) تلفزيونية. قال جون تشانسلر، عميد الإِن. بي. سي. السابق وأحد أشهر رجالات الإِذاعة، قبيل وفاته: «لقد تحوّل عالمنا إِلىٰ عالم لم أعد أعرفه وعالم لا أحبّه كثيراً»[2].

لا شيء كشف عن التغييرات الحاصلة في عالم أخبار الشبكات بقدر أَكثر حيوية مثل ما فعلت حياة گاريك أوتلي المهنية، وهو أَحد أَكثر المراسلين الخارجيين موهبة في اثنتين من الحقب. كانت تغطية الأَخبار الدولية بدمه حرفياً. كان والده، كليفتون أوتلي، الذي تولى رئاسة مجلس شيكاگو للعلاقات الخارجيَّة، أَحد المراسلين الإِذاعيين الأوائل لإِحدى المحطات العائدة لإِن. بي. سي. في الحقيقة، كان كليفتون أوتلي قد استخدم جون تشانسلر الشاب في الأربعينيَّات. وحين جاء گاريك أوتلي سنة 1963م، فور تخرّجه في كارلتون كوليج المينيزوتية، استخدمه تشانسلر موظفاً متدرباً في بروكسل قبل تحوّل الشبكة من نشرة ذات خمس عشرة دقيقة إِلىٰ أُخرى ذات ثلاثين دقيقة بشهر واحد، أقدم تشانسلر، أَحد أَكثر الرجال إِثارة للإِعجاب في المهنة، علىٰ تزويد

(2) في حديث مع المؤلف. نحن أصدقاء منذ زمن قديم.

أوتلي بأبسط أشكال التوجيهات حول الكتابة للتلفزيون وتزويده بالتقارير قائلاً: فلتكنْ جُمَلُك قصيرة وصوتُك خفيضاً.

تلك كانت بداية حياة مهنية متميّزة حقاً دامت خمساً وثلاثين سنة بالنسبة إلىٰ أوتلي، قام خلالها بتغطية جميع الأحداث الكبرى حول العالم، وحيث كان مجرد ظهوره علىٰ الشاشة دليلاً علىٰ أن حدثاً ذا شأن كان يتم تقديمه والحديث عنه. غير أن ذلك، كما كان يحلو له أن يقول، كان بالأمس، أَمَّا هذا فهو اليوم، وكان أوتلي قد أدرك مع حلول أوائل الثمانينيّات أن المهنة التي انتمى إليها وأحبّها دائبة علىٰ التغيّر. ثمة ضغوط اقتصاديَّة هائلة، غير قابلة للارتداد كانت تتجمّع ضدها، والناس المكلّفون بالدفاع عن القِيَم القديمة باتوا إما أضعف في مواقعهم، أو ليسوا علىٰ الطرف الذي يقف فيه بالضرورة. فالصراعات المكشوفة المتولدة من الحرب الباردة كانت قد ولت في الحقيقة، مقلّصة ساحة المهنة. إن الصحفيين مولعون بالصراع؛ قد ينبهرون بالأفكار التي تحرّك الصراع، غير أن الصدام نفسه (لأَنَّه يتمخض عن صور عظيمة ومثيرة) هو ما يهم علىٰ شاشة التلفزيون، ومع تلاشي أزمات الحرب الباردة تلاشت جملة الصور والمخاوف التي كانت تلك الحرب قد أفرزتها. وكلما أَصبح التهديد المباشر أقل صارت القصص الإِخبارية، هي الأُخرى، أقل.

مع حلول سنة 1982م كان أوتلي كبير المراسلين الخارجيين لدى إِن. بي. سي.، وريثة تراث عظيم وإن كان قصير العمر بعض الشيء، متخذاً مقرّه الرئيسي في نيويورك ومتنقلاً حول العالم دون أية قيود مالية، محافظاً علىٰ قُدْرَة كتابة مقالات أطول حول قضايا خارجيَّة جدية. غير أنه سرعان ما بدأ يدرك أَن ما كان يفعله جنباً إِلىٰ جنب مع ما كان يمثله قد أوشك علىٰ الانتهاء. قامت شركة جنرال إلكتريك بشراء إِن. بي. سي.، باتت الطبقة الإِدارية ممسكة بزمام الأَمر، وتردّد صدى ذلك مباشرة في غرفة الأخبار. اعتُبرت المكاتب الخارجيَّة باهظة التكاليف دون حاجة ـ كان الشيء نفسه سيحدث في سي. بي. إِس.

قريباً وفي إِي. بي. سي. بعد فترة. لم تكن فكرة الاحتفاظ بمراسل موهوب، عالي المرتب، منتظراً حيث هو إِلىٰ أَن يقع صدفة علىٰ حدث أَو قصة إِخبارية فكرة تروق الموظفين الماليين في الشركات الحديثة. بدأت مكاتب الشبكات الثلاث تغلق أبوابها وراح المراسلون الخارجيون يتلقون إِنذارات تلفت أنظارهم إِلىٰ وجوب البحث عن عمل آخر.

في 1993م، بعد ثلاثين سنة مع إِن. بي. سي.، ملاحظاً أَن الناس الذين كان يعمل معهم قد باتوا قليلي أَو عديمي الاهتمام بالأشياء التي تستحوذ علىٰ اهتمامه هو، مدركاً أَن لا معنى لأَن يكون المرء كبير المراسلين الخارجيين في شبكة لا تؤمن بجدوى التقارير الخارجيَّة، أَقْدَمَ أوتلي علىٰ ترك إِن. بي. سي. والتحق بـ إِي. بي. سي. التي كانت قد برزت، بفضل قيادة رون آرليج، لبعض الوقت، بوصفها الأَكثر جدية بين الشبكات الثلاث، حتى ظهرت ديزني ذات مدن الكابيتول. لن تكون رحلة أوتلي مع إِي. بي. سي. طويلة، ثلاث سنوات فقط، كافية للوقوف علىٰ وصول جماعة ديزني، التغيير نفسه في القِيَم الذي سبق له أَن تم في إِن. بي. سي.

في 1993م كان أوتلي في لندن حين بدأ البلقان يتفجر، متقاسماً تقاريره الإِخبارية مع مراسل شؤم خارجي آخر في إِي. بي. سي. يدعى جيم لوري. كان الرجلان قد اكتشفا أَن بثّ التقارير علىٰ الهواء بات متزايد الصعوبة ـ ما لم تتوفّر ساحة قتال ـ وأن السوق، حتى مع توفّر مثل تلك الساحة، أَصبحت متقلصة. رأيا أَن البوسنة كانت قصة مهمّة، غير أنّها كانت أَيضاً كابوساً، أَصبح الوصول إِليها متزايد الصعوبة والخطر بصورة مطردة. لم يكن ثمة إِلاّ القليل من الحماس لمثل هذه القصة في نيويورك، مما جعلها صعبة التسويق لدى مكاتب الأخبار لأَن أَحداً لم يكن يرى أنّها ذات علاقة بأَمريكا فعلاً. اتفق أوتلي ولوري علىٰ أَن التقارير التي كانا يستطيعان تصنيفها قد أَصبحت أقصر فأقصر بسبب افتقار نيويورك الجدي إِلىٰ الاهتمام. وكان ذلك يعني أَن سياق تقاريرهما، وهو

ما كان يشكّل العمود الفقري للرسائل الإِخبارية الجيدة، كان يتم حَذْفُه، فتغدو التقارير نفسها ـ بعد حذف السياق ـ متناقصة الأَهميَّة بالنسبة إِلىٰ المواطن الأَمريكي العادي لخلوها من التفسيرات والإِضاءات الضرورية. كانت تلك صيغة من صيغ النبوءة الصحفية المحقِّقة لذاتها. فنيويورك لم تر أَن القصص منطوية علىٰ الكثير من المعنى فقرَّرت أَن تحدّد لها إِطاراً معيناً قدّمها علىٰ أنّها تكاد أَن تكون خالية من المعنى.

انتاب لوري شعور بأن حلقة شيطانية مفرغة كانت تفعل فعلها. فالقائمون علىٰ إدارة برنامج **أخبار العالم الليلة**، كانوا يقومون، بطُرق لم يفهموها كلياً، بالتركيز علىٰ ما كانت إدارتا بوش أولاً وكلنتون بعد ذلك تعتقدان أنّه مهم من منطلق أَن ما كان الرئيس وفريقه يعتقدان بأنّه مهم كان مهماً حقاً. غير أَن العلاقة في هذه الحالة كانت منطوية علىٰ الكثير من المكر والمراوغة. فمع تطور إدارة كلنتون، راح الرئيس، لأَسباب سياسيَّة، يرفض التعامل مع البوسنة ويتعمد التخفيف من شأنها، مع قيام إِخفاق شبكات الأخبار المصورة في تقديم التقارير البوسنية بتمكينه من الاستمرار في تقزيم الحدث، بصورة عدوانية. كانت القصة، برأي لوري قصة أعمى يقود أعمى ـ قصة كاتش 22 ـ خاصة بعالم الصحافة والإِعلام.

في 1992م بعث لوري برسالة من بلگراد ما لبثت أَن أَصبحت لقطة مدتها خمسون ثانية، للمرة الأولى. في أوقات أُخرى كانت رسائله أطول، دقيقتين ودقيقتين ونصف، غير أَن ذلك حدث في عصر آخر، وقد سبق له هو وأوتلي أَن عَبَّرا عن أسفهما لذلك. كانا مع غيرهما من المراسلين التلفزيونيين الأَمريكيين العاكفين علىٰ تغطية أنباء البوسنة يعرفان مدى صعوبة الأَمر. لم تكن هذه المهمة البشعة، الملأى بالأخطار الدائمة، لم تكن، علىٰ ما بدا، مثيرة لنيويورك. للمرة الأولى في حياته المهنية، بدأ لوري يتساءل عن مدى سلامة محاكمته لصلاحية الأخبار. ثمة كان جنود صربيون رَكِبَهم الجنون في البوسنة،

دائبون علىٰ القيام بالمجازر المرعبة، غير أن نيويورك بدت، مع ذلك، غير مكترثة.

كان لوري وأوتلي، باعتقادهما، أوفر حظاً من الأكثرية، لأن پيتر جننگز، وحده بين عمداء الشبكات الثلاث، كان قد حقَّق شهرته كمراسل خارجي وكان لا يزال يتعاطف مع الأخبار الأجنبية. غير أن المرض ما لبث أن لحق بلوري. صحيح أنه كان قد غطى عدداً كبيراً من أخطر الأحداث لصالح إي. بي. سي. علىٰ امتداد عقدين من الزمن، غير أن المخاطرة في البوسنة ـ حيث كان الصحفيون يعتمرون الخوذات، يرتدون السترات الواقية، ويتنقلون أحياناً في العربات المدرعة ـ لم تكن تستحق الإقدام عليها إذا لم يكن أحد مهتماً بما كان يجري. وجد نفسه ميالاً إلىٰ تجنّب الحدث، تاركاً إيّاه للمتدربين الأغرار، لأولئك الشباب والفتيات ممن لم يكونوا أمريكيي الجنسية، وكانوا شديدي الرغبة في الإقدام علىٰ مخاطرات مرعبة في سبيل الظهور علىٰ الهواء وصولاً، ربما، إلىٰ تحقيق الشهرة. بات أوتلي ولوري، كلاهما، يعتقدان بأن نوعاً من الاختبار أو الامتحان كان يجري السقوط فيه ليس فقط من قبل شبكتهما وحدها، بل ومن جانب بلدهما أيضاً بطريقة أو أُخرى. هاكم أمريكا! إنها في أوج قوتها ونفوذها، ولكنها ساقطة في الامتحان لأنّها لا تولي إلاّ القليل من الاهتمام للعالم من حولها.

نادراً ما كان مثل هذا الانقسام الحاد بين العاملين في الميدان (إلىٰ أن رحلوا جميعاً تقريباً) وبين رؤسائهم في نيويورك، عمداء الأخبار المصورة ومخرجيها التنفيذيين. تعود جذور هذه الشخصيات القيادية إلىٰ الصحافة، وقد مرّت بالمراتب صعوداً حين كان أناس مثل إد مورو، ووالتر كرونكايت، وجو تشانسلر عمالقة ـ لا أحد لوح باسم مورو أكثر من دان راثر في سي. بي. إس. غير أن العمليَّة باتت الآن قائمة علىٰ آلية خاصة بها، وقد أصبح كبار عمداء الشبكات، شئت أم أبيت، جزءاً مركزياً من أجزائها. ثمة عدد أقل فأقل من

المراسلين الفعليين، أقل فأقل من الرسائل الإخبارية الحقيقية، مع أقل فأقل من المراسلين الخارجيين بكل تأكيد. وثمة عدد أكبر من النجوم. ذلك هو النظام. والعمداء أنفسهم، مثلهم مثل نجوم المجلات المصوَّرة الأكثر تفاهة وزَبَداً، باتوا نجوماً أيضاً، ويحصلون علىٰ مرتبات النجوم التي تصل إلىٰ حوالي سبعة أَو ثمانية ملايين من الدولارات لكل منهم. إنهم يفعلون كل ما بوسعهم ضد تيار يتدفق ضدهم بسرعة متزايدة باطراد، غير أنهم جُعلوا قطع تبديل لعملية لا يؤمنون بها.

لاحظ عدد **النيويورك** الذي أذاع مرتبات العمداء أيضاً ما كانت **النيويورك تايمز** تدفعه لرئيس تحريرها الموهوب جوزيف ليلڤلد - حوالي 500,000 دولار. ما من أَحد يعرف أَي شيء عن الصحافة فكر للحظة واحدة أَن أياً من العمداء كان يساوي سبعة أضعاف الصحفي ليلڤلد. غير أن أصحاب **التايمز** لم يكن ليخطر لهم أَن يدفعوا لرئيس تحريرهم علىٰ حساب جنود المشاة الميدانيين عندهم أَو يبادروا إلىٰ إغلاق المكاتب الخارجيَّة في سبيل تأمين المرتبات الأسطورية. كانت المرتبات في **التايمز** ممثلة للصحافة كما هي عادتها؛ أَمَّا مرتبات الشبكات فكانت ممثلة للصحافة كما تماسخت في عصر التسلية والاستغراق الذاتي.

لعل المراسلة التلفزيونية الوحيدة التي حقَّقت قَدْراً غير قليل من الشهرة في البلقان هي الشابة الموهوبة كرستيان آمانپور، العاملة لدى شبكة سي. إن. إن. بالكوابل الناشئة التي أسعفها الحظ ومنحها قَدراً من الجاذبية لا يقل عن موهبتها، في مهنة تنطوي عمليات الزينة والتجميل فيها علىٰ أَهميَّة كبيرة. كانت جريئة جرأة مطلقة، ومن البداية أذاعت الرسائل باسمها. لا غرابة أَن سي. إن. إن. باشرت عمليات التغطية مع بقاء الشبكات الأُخرى متفرجة. إن امتيازها دَوْلي، ولهذه القصة مضاعفات دولية ذات شأن، وإِن بقيت عاجزة حتى اللحظة عن إِثارة الأَمريكيين، كانت قصة ذات أَهميَّة في البلقان وعبر الأجزاء الباقية من

أوروپا، وهي مهمة في روسيا بسبب الاهتمام السلاڤي بكل ما كان يحدث للصرب، ومهمة في العالم الإسلامي بسبب مصائر المسلمين في البوسنة وكوسوڤا.

كانت آمانپور قد وصلت إلىٰ البلقان في حزيران/ يونيو 1991م، وهي لا تعرف إلاَّ القليل عن المنطقة، غير أنّها جاءت في الوقت المناسب لتغطية عملية انفصال سلوڤينيا وكرواتيا عن يوگوسلاڤيا وعمليَّة انقضاض الصرب علىٰ مسلمي البوسنة اللاحقة. تقول آمانپور: «لم أكن أفرّق بين الكرواتي والصربي حين وصلت». نشأت كرستيان، التي هي ابنة عائلة إيرانية نزحت حين سقط الشاه سنة 1979م، في إنگلترا وتابعت تعليمها في الولايات المتحدة بجامعة رود آيلاند. ونظراً لتصميمها علىٰ احتراف مهنة المراسِلة الحربية، كانت إحدى أولى موظفات وموظفي سي. إن. إن. وقد قامت بتغطية حرب الخليج. تلك كانت ضربة كبيرة لشبكة سي. إن. إن.، غير أنَّها بقيت حرباً لعبت فيها التكنولوجيا دوراً طاغياً وتقلَّصت فيها فترة الاشتباك المسلَّح كثيراً بما لم يمكّن إلاَّ القليل من المراسلين من الإمساك بفرصة التميّز.

كان الوضع في البوسنة مختلفاً. كانت آمانپور في الرابعة والثلاثين من العمر حين وصلت إلىٰ الميدان، محظوظة، برأيها، لأنّها كانت جزءاً من عمليَّة تبديل الحرس من جيل الصحفيين الذين كانوا قد بلغوا سن الرشد خلال حرب ڤيتنام وغطّوا بعض الصراعات الأصغر، في السنوات الفاصلة، خصوصاً في أَمريكا الوسطى، وباتوا في أواخر العقد السادس أو أوائل العقد السابع من أعمارهم. تتذكّر كرستيان أنّها آمنت بأن هذه كانت ڤيتنام جيلها، لم تكن حرب صراع عسكري جدي مستمر فحسب، بل كانت أَيضاً حرباً مشحونة بشحنة أخلاقية كبيرة. قامت آمانپور بإضفاء قدر غير عادي من الحدة علىٰ عملها. ربما لأَن أسرتها بالذات كانت تعرّضت للخراب جراء أَحداث خارج سيطرتها، تمتعت بحساسية استثنائية إزاء معاناة الناس العاديين العالقين بين براثن قوى

تاريخية غاشمة. إلاَّ أَن ما كان حاصلاً في البوسنة كان شيئاً مختلفاً عن كل ما سبق لها أَن شاهدته في حرب الخليج. فهناك ـ في الخليج ـ كانت جيوش قد حاربت جيوشاً. أَمَّا هنا فإِن الجيش الصربي كان دائباً علىٰ مهاجمة المدنيين. صُعقت إِزاء الوحشية الصارخة لما كان يجري أمام عينيها، بدءاً بالحصار الذي فُرض علىٰ دبروڤنيك.

حين انتهى ذلك وبدأ ميلوسوڤيتش بالزحف علىٰ البوسنة، نجحت آمانپور، دون صعوبة، في إِقناع رؤسائها بأن عليها أَن تبقى في زحمة الأحداث. ثمة شبكات تلڤزيونية أوروپية معينة كانت تأخذ المسألة مأخذ الجد، غير أنّها فوجئت بغياب الاهتمام لدى الشبكات الأَمريكيَّة الأُخرى. لم يكن مراسلو تلك الشبكات تغطي الأحداث إِلاَّ بصورة منفردة، حدثاً بارزاً بعد الآخر، مقيمين لثلاثة أَو أربعة أَيام، متذمرين بمرارة من عدم قدرتهم علىٰ بثّ أَي شيء، عائدين بعد ذلك إِلىٰ قواعدهم في لندن أَو باريس. وباعتقاد آمانپور فإِن الفضل الأَول في لفت أنظار العالم إِلىٰ البوسنة يعود إِلىٰ صحفيي الكلمة المطبوعة لا إِلىٰ دبلوماسيي الدول الكبرى المكلفين، افتراضياً، بالتنبه إِلىٰ مثل هذه التصرفات البربرية، لا إِلىٰ العاملين في الأمم المتّحدة الذين كانوا هناك لحفظ السلام، ولا حتى لممثلي المنظمات غير الحكومية الذين كانوا يحاولون أَن يتعاملوا مع الوضع المأساوي. يعود الفضل إِلىٰ بلين هاردن من **الواشنطن پوست**، روى گوتمان من **النيوزدي**، وجون بيرنز من **التايمز** الذين دأبوا علىٰ تسجيل مسلسل الفظاعات المرعبة. التحقت آمانپور برَكْب هؤلاء وأَصبحت نداً لهم بوصفها المراسلة الوحيدة علىٰ شاشات التلڤزيون الأَمريكي يومياً. اقتنعت منذ البداية بأنّها كانت شاهدة عيان علىٰ كارثة أخلاقية، كارثة تعيد أَلمانيا هتلر إِلىٰ الذاكرة. ربما لم يكن المدى مماثلاً، ولكن وحشية دافع الإِبادة كانت هي هي، وكان الآلاف والآلاف من الناس يتعرّضون للقتل والاغتصاب أَو يُجبَرون علىٰ الهرب لا لشيء إِلاَّ لانتمائهم العرقي، فيما بقي الغَرْب متفرجاً ببساطة.

أُصيبت آمانپور بالذهول، ولم تقف عواطفُها عند حدود حفز تقاريرها وجعل عملها أكثر صعوبة باطراد، بل وباتت منعكسة بوضوح علىٰ صوتها. لم تحاول حتى أن تتصف بالحياد أو التوازن المصطنع الأثير لدى مهنة الصحافة؛ بالقُدْرة علىٰ النظر بمنظار واحد إلىٰ قوتين غير متكافئتين. لم تكن آمانپور تعتقد أن عمل المراسلة الصحفية الناجحة زمن الإبادة هو التحلي بالحياء، أو أن عليها أن تشوّه ما تراه وتسمع به في سبيل التظاهر بقدر أكبر من الإنصاف. لم يكن للإنصاف أية علاقة بما كان يجري. صوتها كان قوياً، رغم أنَّه بقي محصوراً بأصغر الشبكات، شبكة متمتعة وسطياً بحوالي مليون مشاهد في اليوم. غير أن عملها كان يقول مجلدات عن الشبكات الأُخرى وعما لم تكن تفعله. أضف إلىٰ ذلك أن عملها هذا لم يرُقْ أيضاً لإدارة كلنتون، وهي الإدارة الواصلة إلىٰ الحكم لتوها، وغير الراغبة في التورّط بالبوسنة.

الفصل السادس عشر

كان بيل كلنتون الرئيس الحقيقي الأَول لحقبة ما بعد الحرب العالميَّة الثانية، وما بعد الحرب الباردة. صحيح أَن جورج بوش شغل منصب الرئاسة لحوالي ثلاث سنوات ونصف من سقوط جدار برلين إِلىٰ حفل تنصيب كلنتون، غير أَنَّه بقي، وإِلىٰ حد كبير، رجلاً من النظام القديم. أَمَّا كلنتون فقد مثَّل جيلاً سياسياً مختلفاً، تحرّكه قضايا مختلفة كثيراً. لعل التجربة الشخصية الحاسمة بالنسبة إِلىٰ كلنتون هي، بالتأكيد، تجربة التغيير العنصري الحاصل في الجنوب. فقد بدت تلك ـ العنصرية ـ القضية التي فاقت غيرها من القضايا علىٰ صعيد جعله ملتزماً حقاً ومتعاطفاً تماماً، وربما كانت هي التي دفعته إِلىٰ أَن يصبح سياسياً في المقام الأول. بقيت السياسة الخارجيَّة بعيدة عنه. نعم، كان أَحد زملاء رودس (أحد المستفيدين من المنح الدراسية، الموفرة للمتفوقين)، ومن المؤكد أَن أَحد افتراضات القائمين علىٰ فتح تلك الزمالات المرموقة كان متمثلاً بتوقع قيام هذه الزمالة بإِحداث انقلاب في التجربة الحياتية. كانت الزمالة ترمي، فيما ترمي إِليه، إِلىٰ تقديم شباب أمريكيين (وغير أَمريكيين) موهوبين إِلىٰ باقي العالم، خصوصاً إلى إنكلترا والقارة [الأوروبية]. غير أَن أداء كلنتون الأكاديمي، بعد أَن وصل إِلىٰ أكسفورد، كان تجسيداً لأعلى درجات الفوضى التي يمكن تصوّرها. لم يكن يريد إِلاَّ ذلك العنوان المرموق والناصع: زميل رودس ـ مع رحلة سياحية مدتها سنتان.

لم يكن كلنتون يسعى إِلىٰ أية شهادة من أكسفورد. لم تكن مثل هذه

الشهادة، قادرة علىٰ أن تشكّل ذُخْراً عظيماً بالنسبة إِلىٰ الحياة العملية؛ لم يكن متطلعاً إِلىٰ أَن يصبح أكاديمياً. كان يعرف بدقة الاتجاه الذي كان يسير فيه. كان عازماً علىٰ العودة إِلىٰ البلاد وإِلىٰ مدرسة القانون ثم السعي إِلىٰ خوض السباقات الانتخابية. كان قد ذهب إِلىٰ أكسفورد، رولودكس حقيقي، توّاقاً لملاقاة شباب جيله الأذكى والأَكثر طموحاً واختبار قدرتهم علىٰ المنافسة ليرى ما إِذا كان ابن ريف من هوپ، آركنسو، قادراً علىٰ مجاراتهم وكسبهم إِلىٰ صفه. ولدى إِثبات القدرة، وذلك أفضل؛ كان كلنتون سيبادر إِلىٰ تجنيدهم لصالح حملاته المستقبلية. بدا لبعض زملائه واصلاً إِلىٰ أكسفورد منخرطاً سلفاً في السباق للحصول علىٰ إِحدى الوظائف القوميَّة، عاكفاً علىٰ تسجيل الأسماء والعناوين العائدة لجميع أولئك الذين يمكنهم أَن يساعدوه، وساعياً، بالطبع، للقاء أكبر عدد ممكن من الحسناوات الجذَّابات. لم يشغل نفسه كثيراً بدراسة أوروپا ما بعد الحرب، تأثير الحرب الباردة علىٰ ضفتي الستار الحديدي، ولا مدى صلاحية الناتو. إِذا كانت أية قضية ذات علاقة بالسياسة الخارجيَّة قد شغلته في تلك الأَيام ـ مثله مثل أكثر شباب جيله الآخرين ـ فقد كانت قضية ڤيتنام.

كان اهتمام كلنتون بالسياسة الداخليَّة غريزياً. تلك كانت نقطة قوته ونزعته الطبيعية. وجاءت هزيمته لبوش لا لشيء إلاَّ لتساهم في تأكيد صحة دوافعه السياسيَّة الغريزية. وعلىٰ أية حال، فإِن قضايا السياسة الخارجيَّة لم تكن إِلاَّ عبئاً ثقيلاً علىٰ الطاقات المحدودة المتوافرة لديه لتوظيفها في خدمة البرامج الداخليَّة. كان ينبغي تقليص السياسة الخارجيَّة إِلىٰ الحدود الدنيا، ووضعها، إِن أمكن، علىٰ نار خفيفة. أضف إِلىٰ ذلك أنّه كان شديد الثقة بنفسه بوصفه سريع الاستيعاب والفهم، بوصفه شخصاً قادراً علىٰ تناول **أي** موضوع سياسي بطريقة عبقرية وناجحة جداً، حتى حين يلتحق بالركب في اللحظة الأخيرة. لعل الشيء الوحيد الذي لم يكن كلنتون يريده هو وجود وزير خارجيَّة ناشط من شأنه أن

يقدم علىٰ اتخاذ مبادرات جديدة قد لا تكون مضمونة العواقب. كذلك كان يريد فريق أَمن قومي يؤمن بالأَمر الواقع في عالم لم يعد عالم أمر واقع كما بات واضحاً بشكل صارخ.

كانت الأَشْهُر التي قضاها في زحمة الحملة قد أقنعته بأنه متقدم سياسياً علىٰ فريق جديد. ولا شيء كشف عن ذلك بوضوح شديد مثل اجتماع كان قد عقده مع مجموعة من طلائع الديمقراطيين ـ رؤساء لجان كونگرس جميعاً ـ خلال الفترة الانتقالية. ظل يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يطرح الأسئلة علىٰ رؤساء اللجان حول مشكلات تخص ميادينهم المختلفة حتى وصل أخيراً إِلىٰ لي هاملتون، عضو الكونگرس المخضرم من إِنديانا الذي كان رئيساً للجنة الشؤون الخارجيَّة في المجلس. تحدث هاملتون عن عدد من القضايا مثل روسيا ما بعد الاتحاد السوڤيتي، المشكلات المعقَّدة للتعامل مع الصين ـ مؤكداً استحالة رسم سياسة صينية قادرة علىٰ إِرضاء الجميع. قاطعه كلنتون فجأة قائلاً: «لقد خرجتُ لتوي من الحملة كلها يا لي ولم يطرح أَحد سؤالاً واحداً عن السياسة الخارجيَّة علىٰ الإِطلاق، إِذا استثنينا حفنة من العاملين في الصحافة».

دفع ذلك هاملتون إِلىٰ شيء من التراجع، غير أَنّه ما لبث أَن تماسك وردّ قائلاً: «تَعْلم أَن ولاية كل رئيس مطبوعة بقضايا سياسيَّة خارجيَّة، شاء ذلك أم أبى. ذلك هو ما يحصل بالتحديد. ما من رئيس أَمريكي يستطيع أَن يتجنّب ذلك لأَنَّه زعيم العالم الحر. يظن بعضهم أَنّه يستطيع ولكنه لا يستطيع». ثم أتى هاملتون علىٰ ذكر جونسون وڤيتنام، كارتر والرهائن في إِيران، ريگان وفضيحة إِيران ـ كونترا، وبوش وحرب الخليج. لم يؤد ذلك إِلىٰ تغيير كلنتون بالطبع؛ فهو يعرف أَن موقفه من القضايا الداخليَّة كان قد مكّنه من الفوز في الانتخابات. وبعد سنوات قام هاملتون، الذي كان قد رحل عن المنصب، باستذكار ذلك الاجتماع وأقر بأن كلنتون كان علىٰ حق. غير أَنّه كان في الوقت نفسه مخطئاً خطأً فادحاً.

كان الفريق المتزاحم حول كلنتون خلال الفترة الانتقالية مجسّداً، بين جملة أُخرى من نقاط الضعف داخل الحزب الديمقراطي، للافتقار إلىٰ العمق علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة. كان الديمقراطيون، آخر المطاف، خارج السلطة لفترة اثنتي عشرة سنة، وفي السلطة لمدة أربع سنوات فقط علىٰ امتداد حقبة امتدت أربعاً وعشرين سنة. لم يكونوا قد تطوّروا كثيراً علىٰ صعيد قوة العمل الجماعي، كما لم يكونوا حزباً يسهل أَن يُجْمع علىٰ القضايا السياسيَّة. كان ثمة قَدْر لا يستهان به من الانقسام بين الديمقراطيين القدماء من نمط كندي ـ ماكارثي ـ ماكگڤرن من ناحية والديمقراطيين الذين هم من نمط همفري هيوبرت ـ سكوب جاكسون ممن كان بعضهم قد عاد إِلىٰ الحظيرة في حملة 1992م في حين بقي بعضهم الآخر علىٰ الحياد، من ناحية أُخرى. فالقضايا القديمة التي كانت قد فصلت أجنحة مختلفة عن الحزب بسبب ڤيتنام لم تكن قد حُلَّت كلياً. وفي الفترة الرئاسية الوحيدة التي تمكن الديمقراطيون من الفوز بالسلطة فيها خلال حقبة السيطرة الجمهوريَّة المطولة ـ سنوات كارتر ـ كان الصدع بين الجناحين الديمقراطيين قد أثبت أنَّه شبه قاتل.

كانت إِدارة كارتر زاخرة بالعِبَر. كان كارتر قد عيَّنَ زبگنيو بريجنسكي مستشاراً للأَمن القومي، وسايروس ڤانس وزيراً للخارجيَّة. لم يلتق الثنائي قط. لم يكن بريجنسكي ذو الجذور البولونية متشدّداً بصورة عامة فقط، بل وكان يُعْتَبَر مصاباً بمرض وسواس الخوف من الروس خلافاً لحال كبار موظفي وزارة الخارجيَّة، الذين كانوا، في الكثير من الحالات، متأثرين شخصياً بڤيتنام. كان ميّالاً إِلىٰ الاعتقاد بأن الصراعات الأصغر في أرجاء العالم لم تكن في الحقيقة إِلاَّ بؤراً يوظفها الاتحاد السوڤيتي لمصارعة الولايات المتحدة، في حين كان بعض أنصار كارتر يعتقدون أَن القوى الوطنية ـ القوميَّة المحلية، المعبرة عن خلافات سياسيَّة وعرقية قديمة قدم التاريخ، كانت جوهر الصراع. أضف إِلىٰ ذلك أنّهم لم يكونوا يرون خطورة كبيرة في المسألة لأَن هذه لم تكن إِلاَّ بلداناً

هامشية التطور مما يجعلها قليلة الأَهميَّة علىٰ صعيد السياسة الواقعية مهما كان الطرف الرابح في الصراع. كانت جذور تلك الآراء ممتدة إِلىٰ التجربة الڤيتنامية؛ فالكثير من أوائل الحمائم وأكثرهم صراحة كانوا مؤمنين بأن القضية الحاسمة هناك كانت متمثِّلة بالقوميَّة، وبأن أَي تدخّل أَمريكي كان محكوماً بالفشل لأننا كنا سنجد أنفسنا علىٰ الضفة الخطأ من التاريخ، دائبين علىٰ تذكير الڤيتناميين بالتجربة الاستعمارية الفرنسية. تحت مظلة كارتر كان الجناحان المتصارعان للحزب قد أتيا إِلىٰ واشنطن، واحتل كل منهما أَحد المنصبين القياديين في عالم السياسة الخارجيَّة، وبقيا متحفزين مئة بالمئة. لقد شكّلت ظاهرة سماح الرئيس الديمقراطي الأخير بدوام صراع داخلي مرير كل هذا الوقت وبهذه الصورة المكشوفة من جهة، وظاهرة قيام أَي رئيس ديمقراطي بتمكين مستشار الأَمن القومي عنده من تجاوز وزير خارجيته في قضايا حاسمة من جهة ثانية، دليلين مؤكّدين علىٰ افتقار الحزب إِلىٰ المهارة القيادية في السياسة الخارجيَّة.

بدأت مرحلة كلنتون الانتقالية متعثِّرة. فمنذ البدايات الأولى تقريباً نشبت جملة من الصراعات الكبيرة بين فريق السياسة الداخليَّة من أمثال ستيفانوپولوس وكارڤيل ـ اللذين كانا يعتقدان بأنهما وراء فوز كلنتون ـ وميكي كانتور، الذي كان صديقاً حميماً أَيضاً للرئيس المنتخَب والذي كان مفترضاً أنّه رئيس جهاز غير رسمي، حسب رأيه هو علىٰ الأقل، مسؤول عن العمليَّة الانتقالية. بدت المسألة كما لو كانت دائرة حول تحديد صاحب الانتصار. إِن مستوى الشجار في الأَيام الأولى من المرحلة الانتقالية ـ مدى عنف الشجار ولؤمه من جهة ومدى اختلاف الناس الذين كان من المفترض فيهم أَن يكونوا علىٰ الضفة ذاتها ـ أَحدث قدراً غير قليل من الضيق لدى الرئيس المنتخَب. لبعض الوقت بدا وكأنه موشكاً علىٰ الاضطرار للإِقْدام علىٰ اختيار غير مرغوب وربما مصيري بين مساعدين مقرَّبين وموثوقين حتى قبل انتقاله إِلىٰ السلطة الفعلية. وفي حالة

من اليأس، قام باستدعاء وارن كرستوفر والتمس مساعدته. سارع الرجل الذي كان يُظَن بأنه شخص ثانوي نسبياً إلىٰ ليتل روك جواً، ظاناً أنه سيبقى هناك يوماً أَو اثنين. غير أَنَّه بقي لمدة زادت عن الشهر وأَصبح، مع ڤيرنون جوردان، الشخصية القيادية في العمليَّة الانتقالية.

كان كرستوفر في السابعة والستين من العمر، أكبر من الرئيس المنتخَب بواحد وعشرين سنة، صالحاً ليكون أباه. وقد كان في الحقيقة في نفس السن التي كان الأب الحقيقي للرئيس وليم جفرسون بلايث سيبلغها لو لم يمت شاباً في حادث سيارة. لم يكن ذلك عديم الأَهميَّة لأَن المساعدين المقرَّبين سيعتبرون علاقة كرستوفر المبكرة بكلنتون أشبه بالعلاقة الأبوية. في ذلك الوقت كان كرستوفر الشخص الأكبر سناً في مؤسَّسة السياسة الخارجيَّة لدى الحزب الديمقراطي، غير أنَّه لم يكن أكبر من أَن يخدم في الإِدارة الجديدة. علىٰ الرغم من أنّه كان مفيداً لڤانس، فإِنّه لم يتلوَّث قط بالصراعات المريرة والانقسامات الشديدة التي سادت سنوات كارتر. بقي الرجلَ المقبول. لم يكن، بشخصه أَو بآرائه، عامل استفزاز لأعداد كبيرة من الناس (تلك الآراء غير المعروفة عموماً لأنّه لم يبادر قط إِلىٰ التبشير بها ومناقشتها علىٰ الملأ). لم يكن يترك إِلاَّ القليل من الانطباعات القوية لدى مؤيديه كما عند معارضيه علىٰ حدّ سواء. كان جُل من عرفوه يكنّون له قدراً من الاحترام. كان إِد موسكي، وزير خارجيَّة كارتر لفترة قصيرة طاعناً في السن، وكان زبيگ بريجنسكي، مستشار الأَمن القومي لدى كارتر، في سن نموذجية، أصغر من كرستوفر بثلاث سنوات. غير أَن هذا الأخير كان قائداً في المعارك الداخليَّة مع الجناح الأَكثر حمائمية بعض الشيء للحزب الديمقراطي خلال سنوات كارتر مما جعله افتراضياً شخصاً غير مرغوب بالنسبة إِلىٰ الكثير من الشباب العائدين إِلىٰ السلطة ممن كانوا في صف ڤانس أَيام الانقسام التكتلي القديم.

كان كرستوفر يمثِّل تيار الوسط المحايد في الحزب. لم يكن يعرف

كلنتون جيداً، غير أنّه كان صديقاً حميماً لميكي كانتور، من خلال عملهما المشترك في السياسة الديمقراطيَّة في لوس آنجلوس. كان كانتور قد جرّه في البداية إِلىٰ حملة كلنتون. استطاع كرستوفر أن يقدِّم خدمات ممتازة لكلنتون في اثنتين من المناسبات السياسيَّة السابقة. كانت الأولى خلال الانتخابات التمهيدية في نيو هامپشاير في أوج أزمة جنيفر فلورز، حين كانت أَكثرية كبار شخصيات الحزب الديمقراطي لا تزال شديدة الحذر والتحفّظ إِزاء حاكم ولاية آركنسو، حريصة علىٰ إِبقاء أَكثر من مسافة بينها وبينه. كان كرستوفر قد بادر إِلىٰ مساعدة كلنتون في إِحدى أحلك ساعاته، في تلك الليلة التي أعقبت تعرُّضَه لما يشبه السحق في اجتماع عُقد بمدينة سياتل. ففي إِحدى جولات جمع التبرعات لصالح كلنتون بمدينة لوس آنجلوس لم يكتف كرستوفر، وهو من قياديـي الأوساط الديمقراطيَّة المحلية، بإِلقاء خطاب، وقد كان بحد ذاته ذا قيمة، بل وقد جعل خطابه، وهو المعروف بأنّه الأبعد عن الانفعال بين سائر الرجال، مشحوناً بقدر مثير للاستغراب من العاطفة والحماس. تأثَّر كلنتون بمبادرة أَسَد المؤسَّسة الديمقراطيَّة «اللوس آنجلوسية» هذا إِلىٰ مساعدته في لحظة محنة، وقد ظل يكثر من الكلام عن الأَمر علىٰ مسامع الأصدقاء فيما بعد.

في اجتماع جمع التبرعات كان كرستوفر قد امتدح متانة كلنتون المدهشة وقُدْرته الفائقة علىٰ الاستمرار في البروز علىٰ السطح رغم تلقيه لسلسلة متواصلة من الضربات المتعاقبة. وأضاف كرستوفر: «وهو لا ينتحب تحت الضربات (إِلاّ أن أَحد أصدقائه الحميمين علَّق فيما بعد قائلاً: «سرعان ما اكتشف كرستوفر أنّه كان مخطئاً حول تلك النقطة بالذات. صحيح أَن كلنتون يستطيع تلقي الكثير من الضربات ولكنّه يظل يشكو علىٰ الدوام ـ ذلك جزء مهم من كيانه»).

أما في المناسبة الثانية فكان كرستوفر قد كُلِّف بالبحث عن نائب للرئيس، وقد أنجز المهمّة بحرص وتكتم، بطريقة اعتُبرت، علىٰ نطاق واسع، الجزء

الأنجح في الحملة كلّها. لم يتسرّب شيء، وتم الحصول ليس فقط علىٰ الشخص الذي أرادوا الحصول عليه، بل وبطريقة بعيدة عن المساس بمشاعر أَحد غيره. فمما يجب تذكّره أَن كلنتون لم يكن، لدى إِعلان اختيار آل گور، في حالة جيدة في سباقه مع كل من بوش وپيرو، غير أَن الحملة ما لبثت، بصورة شبه مباشرة، أَن حلَّقت وباتت رحلة الحافلة التي انطلق فيها المرشحان الديمقراطيان الشابان تُعتبر ناجحة بصورة استثنائية. كان كرستوفر قد برهن مرتين علىٰ أنّه شخص فعَّال، كتوم، وغير متطلب. كان الرجل الذي يحلم أَي سياسي بالعثور عليه في وقت كذلك ـ محترف متبحّر مع الكثير من العلاقات يعرف البيئة ومتمتع بالقدرة الكاملة علىٰ التحكّم بعواطفه الذاتية.

كان ڤيرنون جوردان، الذي سبق إِلحاقه بالركب في وقت مبكر قليلاً كلاعب إِضافي حين تفاقمت التوترات بين ستيفانوپولوس وكانتور، من العاملين مع كرستوفر في فريق السياسة الخارجيَّة الانتقالي. كان الرجلان يؤلِّفان الثنائي الأَكثر استحالة. فجوردان كان شاباً، زنجياً، أرضياً، نشيطاً، الابن الوسيم جداً لنادل في إِحدى أندية أتلانتا الريفيَّة، رجلاً استمتع حتى الثمالة بالمباهج والنعم التي جلبها له نجاحه المفاجئ الجديد. إِذا كان أَحد قد جسَّد جُمْلَةَ الانتصارات التي حقَّقتها حركة الحقوق المدنية خلال السنوات الثماني والثلاثين المنقضية منذ إِقرار **حق التعليم المختلط**، فقد كان هذا هو جوردان بالذات، رجل كثير المكاسب بدا دائم الوقوف علىٰ عتبة دور جديد مئة بالمئة لأي سليل متحدر من نسل العبودية في أَمريكا. للمرة الأولى في تاريخ البلاد كان الصديق الأَول والأقرب لرئيس جمهوريَّة الولايات المتحدة المقبل زنجياً، في موقع غير رسمي بالتأكيد، ولكنه مرغوب جداً، موقع بقي في السابق محجوزاً علىٰ الدوام لأحد سماسرة النفوذ السياسي من البيض. كان جوردان سيغدو شخصية كلية النفوذ في سنوات كلنتون، ربما الشخص الوحيد الذي كان الرئيس يثق به بشأن تعيينات المناصب العليا مع سلسلة طويلة من الموضوعات الأُخرى.

حيثما كان جوردان مفعماً بالحيوية والنشاط، كان كرستوفر الأكثر تحفّظاً وانضباطاً بين الرجال، محكم الربط وكامل الدفع، متابعاً الحياة كما لو كان التعبير عن أية عاطفة هو آخر الأشياء التي يمكن للمرء أن يقوم بها. كان من الصعب تصوره خالعاً سترته أو حالاً ربطة عنقه. كان الرجلان، بصورة طبيعية، شديدي التناغم منذ البداية. لم يرغب أي منهما قط في الشيء ذاته الذي انجذبت عين الآخر إليه. كان جوردان قد أنفق منذ زمن طويل أكثر من حصته من الوقت في الخدمة العامة المجانية. ظل لمدة تزيد عن عشرين سنة رئيساً لمنظمات حقوق مدنية مختلفة مثل الصندوق الجامعي المتحد للزنوج والرابطة الريفيَّة. كان قد حصل علىٰ حوالي خمسين شهادة فخرية. تلك كانت المرحلة الأولى من حياته العملية. أمّا في الثانية فقد دأب، رغبة منه في الاغتناء بدلاً من تجميع الشهادات الفخرية، بعد القيام بحصته من الأعمال الخيرية، علىٰ تجميع صفات عضوية مجالس إدارات الشركات الأمريكيَّة. وبوصفه ناشطاً ذا نفوذ في أوساط محامي واشنطن، لم يرغب في العمل مع الرئيس، في علاقة، كان يعرف أن من شأنها أن تؤدي حتماً إلىٰ تقزيمه، خصوصاً مع الرئيس الذي كان يمكن أن يُخدَم بإخلاص، بمهارة، مع الاحتفاظ، بطريقة ما، بالقدرة علىٰ الإخفاق. لقد كان جوردان متمتعاً بما يكفي من الدهاء والمكر ليدرك أن استمرار صداقته الوثيقة مع كلنتون كان مشروطاً بالامتناع عن العمل لديه.

كان جوردان في وضع مثالي. فالمدينة، الأمّة، والدنيا كانت تعرف مدى قربه من كلنتون، كانت تعرف أنَّه زميل الرئيس المفضل في لعبة الگولف، الرجل الذي أحب الاختلاء به والتحدّث معه خلف الأبواب المغلقة. فهل ثَمة دعاية أفضل من هذه له هو ولمؤسسته الحقوقية؟ مَنْ غيره كان يستطيع أن يجلس في مكتب حقوقي من مكاتب واشنطن مع بقائه أعظم صانعي المطر؟ في اليوم الأول الذي التقيا فيه حين جاء إلىٰ الفندق لاصطحاب كرستوفر كان جوردان راكباً سيارة كاديلاك حمراء مكشوفة، سيارة سباق مصنوعة في إيطاليا. كان قد سمع أن كرستوفر ـ خلافاً لما توحي به شخصيته باعتقاد أكثر الناس ـ

كان يحب السيارات السريعة. كان يروق لجوردان أن يقول: «تناولنا وجبة عشاء رجلين اثنين، وبقينا منسجمين منذ البداية. وفي آخر السهرة كانت مشيتنا ثابتة».

كان وارن كرستوفر رجلاً من الطراز القديم، ينتمي إلىٰ جيل آخر، حيث تعرَّضت توقعاته للصقل الدائم جراء نجاته من طفولة صعبة في أقاليم داكوتا خلال أزمة الكساد الكبير. كان رجلاً طموحاً بضراوة، صَرَفَ جزءاً كبيراً من طاقته علىٰ إخفاء مدى طموحه في الحقيقة. كان شديد الرغبة في أَن يصبح وزيراً لخارجيَّة الولايات المتحدة أَكثر من أي شيء آخر. كانت إِحدى أكبر خيبات أمله قد تمثَّلت، في سنة 1980م بإِقدام جيمي كارتر، بعد استقالة سايروس ڤانس، علىٰ اختيار إِد موسكي وزيراً للخارجيَّة، بدلاً من كرستوفر الذي كان قد خدم كلاً من ڤانس وكارتر بقدر كبير من الإِخلاص والوفاء ولمدة طويلة جداً. جاءت أنباء الاختيار مدمِّرة لكرستوفر المشغول بمفاوضات سرية قاصمة للظهر من أجل تحرير الرهائن الأَمريكيين في إِيران، وفكّر الرجل جدياً بالاستقالة. غير أنّه أنف من التعبير عن مدى استيائه في ذلك الوقت لفرط انضباطه. وجاء التعبير الكرستوفري البسيط بدلاً من ذلك متمثِّلاً بالعبارة التالية: «كانت تلك نقطة متدنية في حياتي المهنية».

ما إِن التحق كرستوفر بفريق العمليَّة الانتقالية، حتى بادر، مباشرة، إِلىٰ إِخراج نفسه من التسابق علىٰ منصب وزير الخارجيَّة. ومع ذلك فإِن أمرين باتا واضحين مع تقدّم عمليَّة البحث عن ذلك الوزير. لم يبرز أَي مرشح آخر علىٰ السطح أولاً. كان جوردان سيقول فيما بعد: «كان ثمة فرق كبير في السن بين أولئك الذين سبق لهم أَن شغلوا المنصب في السابق وبين الذين لم يصبحوا بعد مؤهلين ولكنهم راغبون فيه». سرعان ما اكتشفوا أَن النقص الذي كان الحزب الديمقراطي يعاني منه علىٰ هذا الصعيد، كان مرعباً حقاً. فالأضرار الناجمة عن ڤيتنام كانت قد أَحدثت قروحاً خطيرة لدى أبناء الجيل الصاعد. بعض أولئك

الذين كانوا موشكين علىٰ بلوغ سن الرشد، في أواخر العقد الخامس وأوائل العقد السادس من أعمارهم، كانوا عموماً شديدي القرب من صانعي القرار السياسي الملوثين في تلك الحقبة، فيما كان الجيل التالي، كما ألمح جوردان، ما يزال صغير السن وغير ناضج بعد شغل الوظيفة. كان من شأن أي مرشح محتمل من جيل كلنتون بالذات أن يأتي من مجلس الشيوخ، وأبرز أعضاء مجلس الشيوخ الديمقراطيين المنتمين إلىٰ ذلك الجيل، كانوا، وهم أصحاب شهرة راسخة منذ ما قبل قيام كلنتون بالإعلان عن طموحاته، قد درجوا علىٰ النظر إليه باستخفاف باعتباره مغروراً حديث النعمة، رجلاً ذا مواصفات أدنى مستوى من مواصفاتهم بكثير.

كان عضو مجلس الشيوخ سام نان من ولاية جورجيا احتمالاً وارداً. فالمستويات العليا من مؤسَّسة واشنطن الديمقراطيَّة دأبت علىٰ إبرازه بحماس، غير أَن الليبراليين التقليديين في الحزب ظلّوا مرتابين. بدت نزعته الثقافية المحافظة العميقة فاعلة فعلها ضده، وثمة كان نوع من الهوة الإيديولوجية الفاصلة بينه وبين الرئيس المنتخَب. قد يكونان، كلاهما، منتميين إلىٰ ما بات يُعْرَف باسم الديمقراطيين الجُدد، غير أَن قواعد كلنتون القوميَّة كانت مختلفة عن نظيرتها لدى نان في ولاية جورجيا حول عدد من القضايا الاجتماعيَّة - الثقافية، فضلاً عن أَن علاقاتهما الشخصية كانت غير ميسّرة، في أحسن الأحوال. من المؤكّد أَن نان كان يستطيع أَن يحصل علىٰ الدفاع، ولكن دون الخارجيَّة. ربما كان بيل برادلي احتمالاً آخر، غير أنّه كان قد استعدى كلنتون في أثناء البحث عن نائب الرئيس. كان كرستوفر قد قابله كما فعل مع گور وآخرين. غير أَن برادلي كان قد قال بصراحة شديدة إِن المنصب الوحيد الذي يطمح إِليه هو منصب الرئاسة. والكلمة التي درج أنصار كلنتون علىٰ استعمالها لوصفه هي **متغطرس**، فضلاً عن أَن أَحداً لم يشهد بأنه بذل جهداً كبيراً في أثناء الحملة نفسها.

أما الشيء الثاني الذي أَصبح جلياً فهو أَن كرستوفر كان شديد الرغبة في

المنصب. كان متعطشاً له بطريقة لبقة، راقية، وغير عاطفية. ربما كان مقلاً من حيث الكلمات والعواطف، غير أنَّه كشف عن توقه للمنصب من خلال عدد لا يعد ولا يحصى من التلميحات الصغيرة. أوضح أيضاً أنّه الرجل المناسب، غير أَن المبادرة ينبغي أَن تصدر عن شخص آخر. لاحقاً في أثناء الفترة الانتقالية، أدرك جوردان، وقد بات موهوباً بصورة استثنائية في تفسير ما يقوله كرستوفر وما يمتنع عن قوله، مدى توق زميله الشديد ـ وهو الآن صديق حميم ـ إلىٰ المنصب. استفرد بكرستوفر وقال له إِنّه كان عازماً علىٰ لقاء كلنتون في ذلك اليوم للاعتذار مرة وإِلىٰ الأبد عن منصب النيابة العامة، الذي كان مرشحاً لشغله. غير أنّه كان يريد طرح اسم كرستوفر وزيراً للخارجيَّة. إِما أَن يتكلم الآن أَو يلغي طموحه إِلىٰ الأبد، سأله جوردان: «هل أَنت راغب في المنصب اللعين. . . ؟». أجاب كرستوفر: «نعم»، غير أَن من شأن الأَمر أَن يبدو تناقضاً لأَنَّه بوصفه رئيساً لفريق المرحلة الانتقالية كان قد خرج من حلبة السباق علىٰ أَي منصب. أكّد جوردان أَن ليس في الأَمر أَي تناقض وذهب تلك الليلة إِلىٰ منزل حاكم الولاية لمفاتحة كلنتون.

وهناك قام جوردان بإِبلاغ كلنتون عن عدم استعداده، في أَي ظرف من الظروف، لتولي منصب النائب العام، غير أنّه تحدث عن معرفته لرغبة كرستوفر الشديدة في أَن يصبح وزيراً للخارجيَّة قائلاً: «يريدها، يستحقها، غير أنه لن يطالب بها، مما يجعلني أطالب بها نيابة عنه». سأله كلنتون عما إِذا كان يعتقد بأن كرستوفر كان الرجل المناسب فرد بالإِيجاب. ثم تابعا الكلام قليلاً، بدا كلنتون موافقاً، فسأل جوردان عما إِذا كان يستطيع إِبلاغ كرستوفر عن أَن الأَمر بات محسوماً. «نعم» قال كلنتون. بادر جوردان صباح اليوم التالي إِلىٰ الاتصال بكرستوفر في فندقه وقال عبر الهاتف: «صباح الخير، سيادة الوزير!».

(بعد بضعة أشهر، في أولى زياراته للشرق الأوسط، اجتمع كرستوفر في دمشق بحافظ الأسد، رئيس جمهوريَّة سورية، فسأله الأخير: «كيف أَصبحت

وزيراً للخارجيَّة؟ فيما كنت أتابع سي. إن. إن. ذات يوم، رأيتك تخرج من السباق. كيف حصلت علىٰ المنصب؟»).

ما من أَحد ممن عرفوا كرستوفر جيداً وقدَّروا قدراته عالياً اعتبر ذلك تعييناً موفقاً. اتفق الجميع علىٰ أَنَّه شريف، محترم، ذكي، بالغ العناية والحرص بصورة غير عادية. وفوق كل شيء كان حمار شغل من الطراز الأول. كان شديد التحكم بعواطفه الشخصية مما حصّنه ضد عِلّتي التسريب والسعي إِلىٰ المجد، جاعلاً إِيَّاه مرشحاً لإِضفاء إِنجازاته الخاصة علىٰ البيت الأَبيض بكثير من الصخب والطبل والزمر. إِذا سارت الأمور بصورة جيدة فإِن الأضواء ستتركّز علىٰ البيت الأَبيض؛ أَمَّا إِذا تعثَّرت فإِن كرستوفر كان رجلاً من نوعية ـ لم يعد لها نظير بين المرشحين ـ، رجلاً مستعداً لتسليط الأضواء علىٰ ذاته.

ثمة شيء مهم كان مفتَقَداً. لم يكن أَحد واقفاً علىٰ ما إِذا كان يحمل في رأسه أفكاراً معينة أَو رؤيا ما خاصة به حول السياسة الخارجيَّة. لعل ذلك هو أَحد الأَسباب الكامنة وراء قلّة خصومه، غير أنه كان في الوقت نفسه السبب الذي جعل كثيرين ممن عرفوه وكانوا ميَّالين إِلىٰ الإِعجاب به، يحملون قَدراً عادلاً من الشك حول اختياره. لقد بقي، برأي بعض المتشككين، كما كان تماماً تحت إِمرة ڤانس، النائب أَو الوكيل المثالي، الرجل الذي بقيت شخصيته وأفكاره الخاصة في الظل علىٰ الدوام. غير أَن منتقديه كانوا يرون أَن قدراته، رغم أهميتها، كانت دون ما كان مطلوباً خصوصاً بالنسبة إِلىٰ منصب كان قد أَصبح بالغ الأَهميَّة بعد رحيل الحرب الباردة وبات التعامل مع عالم أَكثر اضطراباً يستلزم توفر رؤيا جديدة، عميقة، وحكيمة. كان هؤلاء يرون أَن كرستوفر كان قريباً جداً من الموظف، من البيروقراطي المتمكّن وذي الكفاءة العالية، غير أنه ربما بقي موظفاً محدوداً، رجلاً مفتقراً إِلىٰ الأصالة والمعتقدات الخاصة به. فوزير الخارجيَّة كان الأَكثر حاجة بين سائر من هم في الإِدارة،

باستثناء الرئيس، لامتلاك ذلك الشيء الذي يُعرف باسم الرؤيا أَو النظرة الثاقبة في مثل هذه اللحظة من الزمن.

بعض العارفين بمخزونات مستودع المواهب لدى الحزب الديمقراطي ألمحوا إلىٰ احتمال صيرورة كرستوفر نائباً سنة مثالياً، وبعد سنوات كان ثمة نوع من الإِجماع علىٰ أنه لو كان قد شغل منصب النائب العام لكان قد ساهم في تحسين الإِدارة في مسألتين بالغتي الأَهميَّة. كانت الخارجيَّة قد أَصبحت أقوى من البداية في ظل شخص أَكثر تمتعاً بالقدرة علىٰ الإِحساس بالتوجّه من جهة، وبقيت الإِدارة، من الجهة الأُخرى، في منأى عن التعثّر الفاضح الذي عانت منه جراء انسحاب اثنين من المرشحين للعدل بسبب مشكلات تافهة. كان كرستوفر، برأيهم، مؤهلاً لإِدارة وزارة عدل نظيفة وبالقَدْر المطلوب من البُعْد عن سياسة الرئيس. غير أَن ذلك لم يحصل. فمع إِصرار ڤيرنون جوردان علىٰ الاعتذار عن العدل، ما لبث إِدارة كلنتون أَن اضطرت، وبسرعة، لاختيار امرأة لشغل منصب كبير محامي الأمّة.

من المفارقات الغريبة أَن التحذيرات التي تلقاها كلنتون حول كرستوفر ربما ساهمت في تثبيت الرجل في المنصب. ليس شخصاً قوياً، مستقلاً، متمتعاً بآراء تخصّه عن العالم؛ أليس كذلك؟ لعل آخر شيء كان كلنتون يريده هو وجود رجل في الخارجيَّة قد يبادر، ولو فيما يخص قضية ثانوية نسبياً، ولو متجنّباً التحفّظ، إِلىٰ تكوين نوع من التوتر الداخلي بقوة شخصيته وتأثيرها وبرغبته في التحرّك حين قد لا يكون الرئيس راغباً في القيام بمثل هذا التحرّك. حين قام الناس بإِبلاغ كلنتون عن أَن كرستوفر كثير الاجتهاد في العمل، ولكنه ليس واسع الخيال، مبدعاً بالضرورة، بل أشبه بالمحامي آخر المطاف، أشبه برجل مؤهّل ليكون موظفاً أَكثر منه قائداً، فإِن ذلك بالتحديد هو ما كان الرئيس يريده ـ كان يريد نائباً، أَو وكيلاً يدير وزارة الخارجيَّة ولا يتسبَّب في حصول أية مشكلات. ما الشيء الذي أحبه كلنتون عند كرستوفر؟ سؤال وُجّه إلى أَحد كبار

الموظفين في الإدارة ذات مرة. فجاء الجواب على النحو التالي: «إنه العزوف الكامل عن الانفعال». كان الرجل ذكياً، متمكناً، وواقفاً ليس فقط على حدوده الخاصة، بل وعلى تلك التي كان الرئيس الجديد يريدها في المنصب وشاغله. تمثَّل أحد الأَسباب الكامنة وراء نجاحه الفذّ على الدوام بقدرته على استكشاف مطالب زبائنه بقَدْر استثنائي من الدقة.

إذا كان كرستوفر مؤهلاً لأَن يصبح وزيراً للخارجيَّة. لم يكن من شأنه أَن يثير للإدارة أية مشكلات كالتي كان من الممكن أَن يثيرها ناشط مثل ديك هولبروك. كان كرستوفر، برأي أَحد الزملاء، سيبقى على الدوام حريصاً على اتخاذ الخطوة الآمنة. غير أَن ذلك كان يعني، أضاف الزميل، أَن يؤول آخر المطاف إلى حالة اللاأمن، لأَن كل ما يفعله سيبقى قائماً على جملة من الخيارات التقليديَّة مع أننا أَصبحنا في عالم لم يعد مناسباً للقرارات التقليدية. كان كرستوفر أَكثر مهارة في النظر إلى الخلف ومعاينة القضايا وإخراج الآخرين من ورطاتهم، منه في النظر إلى الأمام وترقّب مواقع احتمال بروز الأزمات الصعبة. كان أَحد أولئك الذين اجتازوا غابة البيروقراطية بمهارة، دون أَي بروز، دون إحداث أية موجات أَو أَي صخب، عارفين لحظة التقدم لاستلام المنصب، مع الاستمرار في التقدّم إلى أن يصبحوا رؤساء، مثيرين استغراب الكثير ممن دأبوا على الاستخفاف بمهاراتهم ومواهبهم. كان الكثير من زملائه سيتذكرونه لاحقاً لا بسبب أفعاله بل بسبب غياب مثل هذه الأفعال. كانت العبارة التي سَرَتْ سريان النار في الهشيم في الأوساط الديمقراطيَّة بين أولئك الذين لم ترق لهم عملية الاختيار هي: «إنه دين راسك مجرداً من المهارة القيادية [الكاريزما]». ساد اعتقاد يقول بأن انتقاءه شكّل دليلاً على مدى ضآلة اهتمام كلنتون الفعلي بالسياسة الخارجيَّة.

تمثَّل أَحد الأشياء الأولى التي توجب على كرستوفر أَن يقوم بها بتقليص علاقته مع كارتر. ربما كان أَحد المفضَّلين الشخصيين عند كارتر الذي كان قد

أنعم عليه بوسام الحرية لدى انتهاء فترته، غير أَن للولاء حدوداً، وأن حاكم ولاية جنوبياً كان موشكاً علىٰ تولي الرئاسة، وأن هناك ما ليس محموداً في الظهور بمظهر من له صلة بسلف الرئيس الجديد. كان لا بد من توسيع المسافة الفاصلة بين واشنطن وبلينز الجورجية إلىٰ الحدود القصوى. فكارتر كان، بنظر كلنتون، أَحد رموز الماضي الديمقراطي الموصوف بالعجز، وكان كلنتون مرشحاً لأَن يصبح رمز النجاح الديمقراطي في الوقت الحاضر. تمثَّلت المشكلة بكون كارتر جاهزاً، مستعداً، وقادراً علىٰ العودة إلىٰ الإِدارة ممثلاً خاصاً لرئيس الولايات المتحدة الأَمريكيَّة. تدفق سيل جارف من الاتصالات الهاتفية الصادرة عنه معلنة عن استعداده، بل توقه في الحقيقة، للاضطلاع بمهمات معينة. ومع ذلك فإِن احتراس كلنتون ومساعديه السياسيين من احتمال سقوط ظل كارتر عليهم، خلال الفترة الانتقالية، حين دأب كارتر المشبع بالأفكار حول السياسة الخارجيَّة علىٰ الاتصال ساعياً إلىٰ التحدّث مع الرئيس المنتخَب ـ في اتصال لم يكن عديم الأَهميَّة إِذْ كان الرئيس الديمقراطي السابق راغباً في التواصل الهاتفي مع خَلَفه الأَكثر شباباً، وكلاهما من الجنوب ـ كان شديداً حتى أَن كلنتون تعمّد بكثير من العناد والإِصرار عدم الرد علىٰ الهاتف. دأب علىٰ تحويل الاتصالات إِلىٰ كرستوفر، مسؤول ملف السياسة الخارجيَّة عنده في الفترة الانتقالية، الذي كان قد برز خلال سنوات إِدارة كارتر. حاول كرستوفر، بدوره، تحويل مهمة تدبّر أمر كارتر إِلىٰ نائبه، پيتر تارنوف. كان من شأن إِحداث قطيعة أوضح مع الماضي القريب أَن ينطوي علىٰ قَدْر غير قليل من الصعوبة؛ تابع جيمي كارتر مسيرة وصول الفريق الجديد إِلىٰ واشنطن، وهو يعاني من جُرْحٍ بليغ أحدثه أسلوب هذا الفريق في التعامل معه.

الفصل السابع عشر

من الأَسباب التي دعت إِلىٰ تعيين كرستوفر وزيراً للخارجيَّة كونه الأقل خصوماً بين مختلف المرشحين. أَمَّا عن ديك هولبروك، وهو أَحد الاحتمالات الخارجيَّة لشغل المنصب خلال الفترة الانتقالية في 1992م في أفضل الأحوال، فكان يمكن القول إِنَّه المرشح الأَكثر موهبة، غير أنّه الأَكثر خصوماً في الوقت نفسه. فعلىٰ النقيض من كرستوفر، كان هولبروك مساعد وزير لشؤون شرق آسيا في إِدارة كارتر وهو لا يزال شاباً صغيراً جداً في السن، والآن، فيما كان فريق كلنتون عاكفاً علىٰ الاستعداد للإِمساك بدفّة الإِدارة، كان هولبروك في الحادية والخمسين من العمر، ربما أصغر قليلاً مما هو مطلوب، خصوصاً لأَن الرئيس كان علىٰ هذا المستوى من الشباب. غير أَن السن كانت أقل إِشكالية من الشخصية. فقد كان هولبروك، باعتقاد جُل من شاركوا في عمليَّات الاختيار، متحلياً بمستويات عالية من المواهب والنزوع إِلىٰ الإِقدام علىٰ المخاطرة فضلاً عن احتمال انطواء الحفاظ عليه وصيانته علىٰ تكاليف باهظة. وحين قام المكلفون باختيار الفريق الجديد بدراسته، فقد تذكّروا، أولاً، طاقته وذكاءه اللذين كانا استثنائيين تقريباً، غير أنّهم تذكّروا، في اللحظة ذاتها، شخصيته، أناه المتضخمة، التي كانت أَيضاً تُعتبر خارقة للعادة وكاسرة للأرقام القياسيَّة. كان من شأن «دَوْزَنته» وإِبقائه لاعب فريق وبعيداً عن الصراعات القبلية والإِقليمية مع الزملاء أَن يبقى منطوياً علىٰ قَدْر كبير من الصعوبة. وبرأي بعض عناصر الإِدارة الجديدة كان أميل إِلىٰ الانشغال المرضي بوسائل الإِعلام،

حريصاً علىٰ احتكار الأمور الموفقة والناجحة، ومتحاشياً الأشياء الفاشلة.

غير أَن هولبروك كان من شأنه، لو تم تعيينه وزيراً للخارجيَّة أَن يصبح لاعباً أولاً وقبل كل شيء. لا أَحد من المعجبين بقدراته أحبه تماماً. ربما كان متألقاً وناجحاً، غير أنّه كان بالغ القوَّة، شديد الاندفاع ليس فقط بفعل الطموح وحده بل وتحت تأثير إِيمانه بصواب السياسات المعتمدة من قبله، بما أبقاه في الغالب عديم الإِحساس بآثار أفعاله علىٰ الآخرين. كان من المستحيل بصورة شبه مطلقة أَن يصبح وزير خارجيَّة مقزَّماً، محصوراً بالحدود الدنيا من الصلاحيات. كان العكس تماماً هو الصحيح. كان من شأنه أَن يبقى ناشطاً بكل ما للكلمة من معنى، محرِّكاً جميع مَنْ حوله علىٰ عدد من جبهات القضايا. وفي حال حصوله علىٰ المنصب كان من شأن وزارة الخارجيَّة ألا تبقى مكاناً هادئاً أَو مذعناً، نظراً لتمتعه بقَدْر لا يُستهان به من الطاقة، الذكاء، والمعرفة حول كيفية تشغيل الجهاز البيروقراطي وإِدارته.

أَمَّا القضايا التي ربما كانت الإِدارة الجديدة راغبة في إِبقائها هاجعة نسبياً فكان من شأنها أَن تتدافع إِلىٰ السطح بسرعة في ظل هولبروك. لم يكن ذلك أمراً يحلم به كلنتون الذي كان هو نفسه شخصاً عملاقاً، مسيطراً إِلىٰ حد بعيد، وكان موشكاً قريباً علىٰ أَن يتعلّم وهو في البيت الأبيض كيف يرعب المساعدين الذين يتجرؤون علىٰ مفاتحته حول أخبار لا تروقه. غير أنّ ذلك كان من شأنه أَن يكون صعباً مع هولبروك الذي بدا، ببساطة، أشبه بقوة من قوى الطبيعة. كان هولبروك، هو الآخر، واقفاً علىٰ حقيقة اشتهاره بالمبالغة في العدوانية. ففي إِحدى المناسبات قال بشيء من الأسى إِن واشنطن تكافئ المفتقرين إِلىٰ الحماس، أولئك الذين يتقنون قواعد اللعبة، وأولئك الذين لا يقعون في الأخطاء[1]. مع هولبروك كنت تجد نقاط القوَّة، كنت تجد الموهبة، وكنت

---

(1) مع المؤلف.

تجد أشكال الصُداع ووجع الرأس، غير أنّك كنت تبقى، في الحدود الدنيا، ضامناً لعدم التعرّض للملل.

كان الرجل مهتماً سلفاً بقضية البوسنة، التي لن تلبث، مع مرور الزمن، أَن تطغى علىٰ قرارات السياسة الخارجيَّة الكلنتونية كلها. كان هولبروك أَحد أوائل الشريحة العليا من العاملين في السياسة الخارجيَّة الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها. حدث ذلك في صيف 1992م، حين بدأت الأمور تتدهور. والآن فيما كان يتم استعراض سيرة حياته لتعيينه في أَحد مناصب الإِدارة العليا، ساءت الأمور أَكثر. وبالتالي فإِن هولبروك، إِذا كان مرشحاً لمنصب ما في هذه الإِدارة، هو اللاعب رفيع المستوى النادر الذي سبق له أَن رأى الأهوال البوسنية بصورة مباشرة وتأثّر بها. فضلاً عن أنّه لم يكن من ذلك النوع الذي يجعل قضية كهذه، إِذا ما تولّى مسؤوليتها، تَفْلَتُ منه. ربما كان ذلك لغير صالح هولبروك، نظراً لوجود أولويات أُخرى لدى الرئيس.

غير أَن الرجل كان أَيضاً يعاني من صفة سلبية أُخرى. فقد كان ميالاً إِلىٰ لَيّ ذراع هذا الشخص أَو ذاك لحظة يشاء، وسبق له أَن فعل ذلك مع الكثير من الأقوياء في واشنطن، دون انتباه منه علىٰ الدوام إِلىٰ ما كان يفعله مستخفاً بوجهة نظر هذا ومستسخفاً آراء ذاك. قلةٌ فقط كانت محايدة في مواقفها من هولبروك. كان المعجبون به، وهم أناس واثقون بأنفسهم عادة، يعتقدون أنّه غني المواهب وأَكثر من جدير بغض النظر عن المشكلات غير القليلة التي كان لا بد له من أَن يثيرها. أَمّا منتقدوه، وما أَكثرهم!، فقد كانوا مرتفعي الأصوات بصورة متطرفة في معارضتهم له للسبب ذاته. وبين من كان حماسهم محدوداً إِلىٰ حد كبير نجد وارن كرستوفر الذي سبق له أَن تصادم مع هولبروك حول قضايا حقوق الإِنسان في سنوات كارتر واعتبر احتواءه أمراً يكاد أَن يكون مستحيلاً. ففي جميع الجوانب العاطفية كان هولبروك النقيض المباشر، مئة بالمئة، لكرستوفر المتيقظ، الحذر، المتكتم حول أشياء كثيرة، الذي كان،

رغم ذلك، سيضطلع بدور مهم في اختيار أعضاء فريق الأَمن القومي. بنظرة واحدة إِلىٰ هولبروك كان يستطيع أَن يعرف أَن الرجل هو من النوع المستعد لأَن يظل مصرّاً علىٰ القضية التي تهم حقاً، كمن يدق المسمار في الخشب بمطرقة ثقيلة، دون أَي اعتبار لمسألة ما إِذا كان من هم فوقه راغبين في دقّ هذا المسمار بالذات أم لا. لم يكن احترامه لآراء الآخر موازياً علىٰ الدوام للاحترام الذي كان يكنّه لآرائه الخاصة، اللهم إِلاَّ إِذا كانت، بالطبع، آراء رئيس الجمهوريَّة بالذات وأفكاره.

مع التئام صفوف الفريق الجديد صار اسم هولبروك، الذي كان يعتبر ذات يوم مرشحاً مناسباً، ولو من الخارج، لشغل منصب وزير الخارجيَّة، ينزلق علىٰ سلم التصنيف متهاوياً إِلىٰ المرتبة الثانية. كان ذلك مؤلماً. سبق له أَن كان وَلَد أعاجيب مدلَّلاً خلال سنوات إِدارة كارتر، ورغم صخبه، تطلُّبه، وعناده في الغالب، فإِن أَحداً لم يشك بمهارته البيرقروطية ككل. كان يحظى بقدر كبير من الاحترام بفضل الناس الموهوبين الذين كان قد اختارهم لفريقه خلال سنوات كارتر ـ أولئك المرؤوسين الموهوبين الذين كان هولبروك قد عيّنهم سفراء ـ، علىٰ استعداد للقتال في سبيل الأفكار، كما علىٰ نزوعه لأَن يكون متقدماً علىٰ جميع الآخرين في رؤية الأخطار والعواقب الكامنة في الكثير من القضايا. بقي طموحه على الدوام بلا حدود؛ كان لا يزال راغباً في أَن يصبح وزيراً للخارجيَّة. غير أنّه كان قد اختار الابتعاد خلال السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة ولم يعد بعد الآن ذلك الوَلَد الأعجوبة المدلَّل. إِنَّه رجل في بدايات عقده السادس، ربما بدأ ينحدر رغم تألّقه الباهر ذات يوم، حتى ولو كان الديمقراطيون قد عادوا إِلىٰ السلطة.

لن يحصل علىٰ حقيبة الخارجيَّة، لن يصبح نائباً للوزير أَو مساعداً له، ولن يحصل علىٰ منصب المندوب في الأمم المتّحدة ـ فذلك منصب محجوز لمادلين أولبرايت. راقت فكرة تعيين امرأة في ذلك المنصب للزوجين كلنتون

كليهما. كانت [سفارة] اليابان محتملة، وظيفة حظيت باهتمام غير قليل من جانب هولبروك. اعتُبر المنصب [سفير في اليابان] نوعاً من المكافأة والتكريم بسبب تعقيد وأَهميَّة العلاقة الأَمريكيَّة ـ اليابانية، والاختلال الهائل في الميزان التجاري. لقد كان هولبروك، آخر المطاف، خبيراً في شؤون آسيا، وكانت طوكيو المركز الأَكثر أَهميَّة في المنطقة رغم أَن مدى تأثير أي سفير هناك ظل علىٰ الدوام إِشكالياً. بدت موسكو محجوزة لنائب الرئيس السابق فريتز مونديل. غير أَن جوان مونديل المهتمة بالفنون قرَّرت أَن المشهد الفني في اليابان أَكثر إِثارة من نظيره في موسكو، قرار مشكوك بصحته، فسطا مونديل علىٰ السفارة في طوكيو.

لبعض الوقت بدا وكأن هولبروك لن يحصل علىٰ أَي منصب وكان هاوياً إِلىٰ أسفل دون مظلة. لم يكن كرستوفر يريده في أَي منصب رفيع في الخارجيَّة. ومثله توني ليك، الذي كان لن يلبث أَن يصبح مستشار الأَمن القومي وأحد أقرب أصدقائه ذات يوم، لم يرد أَن يشغل منصباً رئيسياً. إِلاَّ أَن هولبروك بقي له نصير متنفذ واحد ألا وهو ستروب تالبوت الذي كان قريباً من كلنتون منذ حوالي عشرين سنة، منذ أَيام تعايشهما في غرفة واحدة في أكسفورد. تالبوت هذا كان شديد الولع بهولبروك؛ كان يعرف الخلل ولكنه كان مقتنعاً بأن هذه الإِدارة كانت بحاجة ماسّة إِلىٰ موهبته وطاقاته. وفي واحدة من المناسبات النادرة التي استغل فيها علاقته الشخصية بكلنتون، التمس تالبوت مكاناً لهولبروك. أبلغ الرئيس بأن من الخطأ ببساطة ترك شخص يملك قدرات هولبروك خارج الفريق. لقي تالبوت في إِصراره دعماً من ساندي بيرگر الذي كان، هو الآخر، في منصب رفيع في فريق مجلس الأَمن القومي، مرشحاً ليكون نائباً لليك. رأى الأصدقاء المشتركون أَن هولبروك قد يُفقِد بيرگر صوابه، غير أَن الأخير كان يعرف قيمته، وبادر أَيضاً إِلىٰ تزكية هولبروك عند كلنتون.

كانت [السفارة بألمانيا] شاغرة، وقد كانت له. حصل عليها هولبروك كنوع من جائزة الترضية. شعر بكثير من الإحباط في البداية. لم ير الوجه الإيجابي للأمر، وفكَّر برفض المنصب لبعض الوقت. غير أَن عدداً من الأصدقاء ساهموا في إِقناعه بعدم الرفض، مذكرينه بعدم ضرورة كونه المنصب الأخير الذي يشغله وبأن مواهبه ستوصله حتماً إِلىٰ مقدمة المسرح، مما جعله يغيِّر رأيه ويقرِّر قبول المنصب. غير أَن قَدْراً من المرارة خَلَّفته الفترة الانتقالية. كان هولبروك متأكداً من أَن أصدقاء قدامى، خصوصاً توني ليك، خذلوه وقطعوا الطريق عليه. ومع أَن ليك كان سلبياً إِلىٰ حد كبير فيما يخص عدداً من المواقع الرفيعة التي رُشِّح لها هولبروك، ثمة شائعات متسربة زعمت أَن ليك تحدَّث في إِحدى اجتماعات المرحلة الانتقالية لدى ورود اسم هولبروك معتبراً إِياه شخصاً يصعب الحفاظ عليه، تكاليف صيانته باهظة. حتى أَكثر أصدقاء هولبروك حماساً في إِعجابهم به كانوا مستعدين لوضع تواقيعهم علىٰ هذا الوصف ـ مؤكد أَن تكاليف الصيانة باهظة، غير أَن القيمة هي الأُخرى عالية، حسب اعتقاد هؤلاء.

ومع ذلك فإِن ليك، مهما كانت شكوكه حول هولبروك، لم يحاول أَن يعرقل تعيينه سفيراً في ألمانيا. غير أَن انزلاقه علىٰ درجات السلم في عالم السياسة الخارجيَّة كان شديد الإِيلام بالنسبة إِلىٰ هولبروك، باعتقاد الأصدقاء، لأَن ليك ما لبث أَن حط علىٰ أَحد المنصبين المهمين، منصب مستشار الأَمن القومي. بقيت صداقتهما منطوية باستمرار علىٰ نوع من الصفة التنافسية، وقد بدا ليك، هذه المرة، الفائز الواضح وعمل، برأي هولبروك، للحيلولة دون تمكينه من احتلال مكانه المناسب في الإِدارة. وبالتالي فإِن توتراً كامناً في العمق ظل يتفاقم بين الصديقين القديمين، محولاً إِياهما إِلىٰ خصمين لدودين.

كان هولبروك وليك الزميلين المهنيين الأقدم والأكبر سناً. ورغم وجود عدد من أوجه التناظر بين عمليهما المهنيين، كانت لديهما اهتمامات مختلفة

وطموحات متباينة وطرائق عمل متغايرة. يتجلى ذلك بوضوح في الطريقة التي أنفقا فيها سنواتهما بعد الرحيل من واشنطن حين حل ريگان محل كارتر. توجه ليك إلىٰ مزرعة أبقار شبه معزولة في ماساتشوستس الغربيَّة وراح يدرس مادة العلوم السياسيَّة في ظل ما تيسر له من هدوء. أَمَّا هولبروك فقد انجذب إلىٰ إثارة وحيوية عالم الصحافة الأدبية ـ السياسيَّة لمدينة نيويورك حيث عمل بنجاح في أَحد البيوتات المالية وكان يكثر من الظهور مع النجمة التلڤزيونية المعروفة ديان سوير.

مع حلول صيف 1992م بات هولبروك شديد الانفعال ليس حول البوسنة فقط بل وبشأن حياته المهنية الخاصة أَيضاً. لم يكن قد استطاع أَن يقيم علاقة وثيقة بشكل خاص مع كلنتون لدى اقتراب المرشح من التسمية. كان هولبروك مستشاراً لآل گور في شؤون السياسة الخارجيَّة قبل أربع سنوات حين بذل الأخير محاولته الرئاسية الفاشلة، ومن الواضح أَن هولبروك كان توّاقاً ليصبح أَكثر قرباً من هذا النجم الديمقراطي الجديد. جرى لقاء واحد في بدايات حملة الانتخابات التمهيدية جمع بين هولبروك وكلنتون، لقاء لم يكن موفقاً تماماً، باعتقاد مستشاري كلنتون، جزئياً لأَن كلنتون كان متخماً سلفاً علىٰ صعيد الاجتماع بأناس جُدد مما جعله يحرص علىٰ ترك انطباعات قوية لدى هؤلاء أَكثر من اهتمامه بالإِصغاء إِليهم والتأثر بما يقولونه. وقد ظُنَّ أَن كلنتون كان قد أحس بمدى عبقرية هولبروك، غير أنّه بقي علىٰ شيء من الحذر إِزاءه في الوقت نفسه، ربما انطلاقاً من اطلاعه علىٰ اشتهاره بالموهبة رغم أنانيته المفرطة.

اتضح لأصدقاء هولبروك أَنَّه لم ينجذب كثيراً في ذلك الصيف إِلىٰ فريق كلنتون. وعلىٰ الرغم من حرصه علىٰ عدم البوح بأي شيء انتقادي عن ليك الذي كان كبير مستشاري السياسة الخارجيَّة وأحد أقدم أصدقائه ظاهرياً، فإِن هولبروك كان مُحْبَطاً، ومتلعثماً بشكل غريب، وهو المعروف بصراحته وحيويته، لدى إِثارة موضوع الحملة. من المؤكد أنّه كان شديد الحرص علىٰ

عدم تمكين عالم الثرثرة المغلق للأَمن القومي من معرفة حقيقة أَن الأمور لم تعد كما كانت في الماضي بينه وبين ليك. كان من شأن ذلك أَن يشكِّل نقطة ضعف بالنسبة إِليه هو لا بالنسبة إِلىٰ ليك الذي كان الآن محتكراً خط الاتصال مع كلنتون. غير أَن هولبروك كان، كما قال أَحد الأصدقاء، «يعاني بصمت ـ وهو شيء غير عادي. لم يكن ديك ذا شخصية تستطيع أَن تفعل أَي شيء، ولا سيما أَن تعاني، بصمت». وبصرف النظر عن أية أشياء أُخرى فإِن الواضح هو أَن ليك لم يكن يشجع مجاملات هولبروك. فما كان أولئك العاملون في ورشة سياسة كلنتون الخارجيَّة بحاجة إِليه في أثناء الحملة، حسب اعتقادهم، لم يكن متمثلاً بالمزيد من الخبرة في السياسة الخارجيَّة، بل بقدر أكبر من التأثير السياسي علىٰ المرشح، وبمزيد من الوقت، لإِقناعه، بعد الانتخاب، بمدى حيوية السياسة الخارجيَّة. وإِلاَّ فقد تتمكن من إِرباكك في النهاية.

كانت قصة كل من ليك وهولبروك، ربما الشابان الأَكثر موهبة بين فرسان السياسة الخارجيَّة في الحزب الديمقراطي في تلك اللحظة، ملأى بالعبر لعدد من الأَسباب. كشفت عن أشياء كثيرة حول الحزب بالذات، وحول الخراب الذي كانت ڤيتنام قد ألحقته بالقاعدة الفكرية لعالم الأَمن القومي. من الصعب تصوّر علاقة أَكثر تعقيداً من تلك القائمة بين هولبروك وليك. كانا قد وصلا إِلىٰ مدرسة تخريج موظفي الخارجيَّة بواشنطن معاً في 1962م، حيث كانا بين كوكبة من ألمع الشباب والشابات ـ وإِن كانوا شباباً فقط تقريباً في تلك الأَيام ـ وشرعا مباشرة يتلازمان. تلك كانت أَياماً مجيدة، ساعات اللهو الأخيرة لفتوة موشكة علىٰ الانتهاء مع التعيين في ڤيتنام التي كانت لا تزال حرباً صغيرة بادية علىٰ الأفق. بعد المحاضرات كانا يشربان معاً ويلعبان جولة عنيفة بالكرة الليِّنة خلال العطل الأسبوعية. تمثَّل اللغز الأول، برأي أَحد زملائهما في الصف، بأن توني ليك المحبّب، المهذّب، اللبق علىٰ الدوام كان علىٰ الدرجة نفسها من الطموح مثل ديك هولبروك الأَكثر فجاجة وخشونة بما لا يقاس، حتى أَن ليك كان هو

الوحيد الذي يأتي إلىٰ الملعب منتعلاً حذاء رياضة مرزز. وخلال سهرات حامية حتى العنف، برفقة معاصر آخر يدعى ڤلاد ليخوڤيتش، كانا يلعبان لعبة تُعرف باسم كرة المروحة تتطلّب ردود أفعال سريعة، حيث يقوم اللاعب برمي طابة تنس إلىٰ ساحة دوران مروحة السقف ثم يهاجم لاستعادتها لأَن المروحة تكون دائبة علىٰ دفعها بعنف في اتجاهات مختلفة.

بعد سنة واحدة وصل الرجلان الناضجان إلىٰ ڤيتنام في الوقت نفسه تقريباً. فإذا كنت لامعاً وشاباً وموهوباً، فإن ڤيتنام في 1963م كانت المكان النموذجي والمثالي لإظهار قدراتك. ولأنهما كانا واعدين بوضوح، فإن كلاً من ليك وهولبروك شغلا، هناك في ڤيتنام، سلسلة من الوظائف المهمة، إذ تناوبا علىٰ الاضطلاع بمهمة مساعد السفير لكل من هنري كابوت لوج وماكسويل تيلور، ومعاون مساعد وزير الخارجيَّة نيك كاتزنباخ لاحقاً، بعد العودة إلىٰ واشنطن. في تلك الأَيام كان ليك هو الذي يحصل علىٰ المهمات الخاصَّة الدسمة أولاً ويؤديها بتفوّق استثنائي ـ لقد كان، آخر المطاف، ذكياً ومنضبطاً، كاسراً للرقم القياسي علىٰ الدوام، في الأمور الصغيرة والكبيرة علىٰ حد سواء ـ ثم يوصي، وهو يترك الوظيفة، بجعل هولبروك خلفاً منطقياً له. كان سُلَّما حياتيهما المهنيتين مختلفين منذ البداية. كان الأكبر سناً ممن يبحثون عن النمط الصحيح من التلاميذ والمساعدين يأتون في الغالب خاطبين ودّ ليك المولود في بيئة معينة والمناسب لطبقة محدّدة، في حين كان هولبروك، غير المناسب علىٰ الإطلاق لتلك الطبقة، يضطر للبحث عن أولياء نعمته، مع بقاء طموحه أَكثر وضوحاً بقليل في أثناء العمليَّة باستمرار.

كانت العلاقة بين الرجلين حميمة بصورة غير عادية في تلك الأَيام، وقد جمعهما ذكاؤهما وحماسهما المشترك المستمر أربعاً وعشرين ساعة في اليوم لهذه الحرب التي وجدا نفسيهما في غمارها. كان توني ليك هو الذي وضع توقيعه علىٰ صكّ زواج ديك وليدي هولبروك في سايگون، وكان أَنتوني

هولبروك، ذلك الشاب العامل في إحدى المنظمات غير الحكومية الذي كان سيطالب أباه، بإلحاح، بالذهاب إلىٰ البوسنة، قد حمل اسم توني ليك. كان هولبروك، بدوره، عرّاب أَحد أولاد توني ليك. كان الرجلان بين الشخصيات الأَكثر إرباكاً في عالم الأَمن القومي ممن أفرزتهم حرب ڤيتنام. لقد تصارعا مع هذه الحرب بوصفها قضية أخلاقية وسياسيَّة خلال سني الحرب وعبر فترة زمنية طويلة بعدها. بقيت تلك الحرب تلقي بظلالها التي لا يُستهان بثقلها ليس فقط علىٰ قرارات السياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة، بل وعلىٰ الساحة السياسيَّة الداخليَّة أَيضاً، حيث قد تتكشَّف قرارات المرء في زمن الحرب، تلك القرارات المتخذة علىٰ مضض وكانت صحيحة بصورة مطلقة في حينها، في أوقات لاحقة، عن صورة مختلفة تماماً عبر النظر إليها من خلال منظار سياسة داخليَّة مغاير كلياً. أضف إلىٰ ذلك أَن الحرب كانت قد فعلت فعلها في نفسيتي الرجلين بالذات لأَن ڤيتنام قد قامت، بطريقة أَو بأُخرى، بتغيير كل من ذهب إلىٰ هناك.

حين كان هولبروك شاباً، بدا طموحه أَكثر عُرْياً، لأَنه، وهو ابن أسرة يهودية مهاجرة، كان قد بدأ من مستوى أدنى من ليك الواسبي WASP [المنتمي إلىٰ الأصول الأنگلوسكسونية الپروتستانتية]، ولأَنَّه دأب علىٰ الإفصاح عن تعطشه للنجاح بقدر كبير من الوضوح. لم يكن المرء يستطيع أَن يبقى معه فترة قصيرة جداً من الوقت دون أَن يعرف مدى توقه الشديد للنجاح، ليس فقط لشغل منصب أعلىٰ في يوم من الأَيام، بل وللتحوّل إلىٰ نجم ساطع أَيضاً. لقد كان دائم التهور والاندفاع. وكموظف خارجيَّة شاب مكلف بمهام في دلتا نهر ميكونگ، كان قد جادل الجنرال وستمورلاند علىٰ الملأ في أَحد الأَيام. وبعد الجدل كان وستمورلاند قد سأله، أخيراً، بشيء من الغضب والسخط: «كم بلغت من العمر؟» أجابه هولبروك: «أربعاً وعشرين سنة». «وما الذي يجعلك تظن أنك تعرف كل هذه الأمور؟» رد عليه هولبروك: «لا أعلم، غير أنني هنا منذ سنتين وقد أمضيت الوقت كله في الميدان».

في ذلك الوقت، كما في الأوقات اللاحقة، بقي طموح هولبروك موازياً لذكائه، وقد ساهمت النوعية المرعبة للاثنين معاً مضافة إِلىٰ جاذبيته الفجّة، في جعله محبوباً، رغماً عنه أحياناً.

غير أن بعض الذين عرفوا الرجلين جيداً كانوا يرون أَن ليك بأسلوبه الهادئ، الرزين، الأَكثر انضباطاً بما لا يقاس (لقد كان كابتن فريق السْكواش في هارڤارد، الذي كان أَحد مراكز القوَّة الدائمة في عالم هذه الرياضة شبه المغلق) لم يكن، من جميع النواحي، أقل طموحاً من هولبروك، أَو أقل تطلّباً ذاتياً من زميله. ففي ڤيتنام كانا قد مرّا بالسلسلة الكاملة من التجارب ـ تجارب التفاؤل، الخوف، الإِحباط، خيبة الأمل، والقَدْر الذي لا يمكن أَن يُستهان به من الاغتراب، أخيراً ـ وقد كانت، بالنسبة لكليهما لدى بلوغهما العقد السادس من العمر، التجارب المحدِّدة لحياتيهما. لقد شهدا ليس فقط مأساة ڤيتنام، بل وما كانت قد فعلته بالحياة المهنية السياسيَّة لبعض المدنيين الذين كانوا مؤيديها الرئيسيين، وبالحزب الممسك بزمام السلطة آنذاك، بالديمقراطيين، وهو حزب كان مع الزمن سيطالبهما بالولاء، أَيضاً.

وبعد وقت طويل، في سنوات كلنتون، كان توم دانيلون وماك ماكّوري، من كباري موظفي وزارة الخارجيَّة، يتساءلان، وهما يراقبان مدى حدة الصراع الجانبي بين الرجلين وپيتر تارنوف، زميل ثالث كان أَحد شباب ڤيتنام أَيضاً، يتساءلان عن السر الكامن في مياه سايگون الذي كان قد جعلهم في تلك الأَيام البعيدة شديدي الحماس والاندفاع: إِذا كان ليك وهولبروك كلاهما لامعين وطموحين، فقد بدا ليك مرشحاً للنجومية بصورة أوضح وأكبر من هولبروك، كما اتضح، بالتأكيد، عبر كونه الأَول في تحقيق جميع مستويات النجاح؛ في حين بقي هولبروك، الأصغر قليلاً سناً وشبه الخالي من المجاملات الاجتماعيَّة الكثيرة لدى زميله، محكوماً، في أحسن الأحوال، باحتلال المرتبة الثانية في الصف. ومما قيل عن ليك إِن يو. ألكسيس جونسون، الرجل الثاني في وزارة

الخارجيَّة في تلك الأَيام، كان قد ثار غضباً بعد استعراض التقرير الأَول عن ذاتية ليك وصرخ: «من المستحيل أَن يكون موظف سلك خارجي في هذه السن المبكرة علىٰ هذا المستوى من الجودة».

كان صعود ليك في السلك الخارجي مسرحياً، وقد جاء، في البداية، جزئياً، بفضل علاقة عائلية، ومع الزمن، بفضل طاقاته ومهاراته التي لا يُستهان بها. ففيما كان موظفاً في مكتب الخدمات القنصلية في سايگون بُعَيْد وصوله، تعامل مع جنرال ڤيتنامي يدعى نگوين ڤودوك كان أواخر الحرب العالميَّة الثانية قد ساعد طياراً أَمريكياً علىٰ النجاة، تلبية لنداء حَمَلَه منشورٌ أَمريكي وعد بتقديم الأوسمة والأموال مقابل إِنقاذ الطيارين الأَمريكيين، غير أنّه لم يحصل علىٰ أَي وسام أَو مال. ما لبث الجنرال أَن أتى، لاحقاً، إِلىٰ القنصلية، حيث قابل ليك وطالبه بحقه من المال والوسام. لم يكن ثمة أَي شك في شرعية الطلب، غير أَن سلاح الجو، بعد حوالي ثمانية عشر سنة من قطعه لهذا الوعد، رفض أَن يلتزم به. بكل بساطة كان الملف المتخم بالأوراق بالغ التعقيد، وكان الأَشخاص الذين سبق لهم أَن قطعوا الوعد قد تركوا العمل منذ زمن طويل. وعلىٰ الرغم من استحالة استعادة المكافأة المالية فقد بقي الجنرال العجوز مصراً علىٰ الوسام ومن الواضح أنّه كان يستحقه، مما دفع ليك، بمبادرة منه، إِلىٰ تكليف صانع أدوات معدنية في حي تشولون الصيني بمدينة سايگون بصك وسام فضي رائع مع تزيينه بوشاح هائل نُقشت عليه بعناية عبارة «وسام أَنتوني ليك القنصلي مكافأة علىٰ الخدمات المميزة المقدَّمة إِلىٰ الولايات المتحدة الأَمريكيَّة». وحين سمع هنري كابوت لوج، السفير في ذلك الحين، بالأَمر، سارع إِلىٰ التعبير عن إِعجابه الشديد بمثل هذه المبادرة. كان علىٰ علاقة معرفة بوالدة ليك في أَمريكا، وكان قد عاين سجل ليك، وما لبث أَن جعله مساعده الشخصي. وحين حل ماكسويل تيلور محل لوج، جرى نقل ليك إِليه قبل أَن يصبح قنصل هيو لاحقاً.

كان ثمة مواقع نفوذ متوافرة لتوني ليك لدى عودته إلىٰ واشنطن. ومع ذلك فقد بقي، وهو الغارق في بحر التردد العاطفي، متطلعاً باستمرار للقيام بعمل آخر، للهرب إلىٰ ڤيتنام ربما والابتعاد عن بؤرة العاصفة. إن منصباً في سفارة أفريقية نائية، يتيح له فرصة التحرّك في البلاد بيسر والاطلاع علىٰ ثقافة عالم آخر مع تقديم بعض أنواع المساعدات الإنسانية، بدا له مفضلاً. غير أنّه كان، بدلاً من ذلك، يتلقّى عروضاً بوظائف عند أقدام الأقوياء في واشنطن، في زحمة التوترات الڤيتنامية المتفاقمة، بوظائف لم يسع إليها لأنَّه بات مختلفاً مع الأقوياء في الرأي أكثر فأكثر. عند عودته من ڤيتنام عمل مع ليونارد أونگر الذي كان نائب بيل بوندي الذي كان مساعد وزير الخارجيَّة لشؤون الشرق الأقصى، وكان أونگر يدير فريق العمل المختص بڤيتنام. لم تكن تلك المهمة الأسهل. فليك كان أقرب إلىٰ الحمائم، محاطاً في حياته المهنية بسرب من الصقور، وفي حياته الشخصية بسرب من الحمائم. في أحد الاجتماعات تحدَّث، بقدر غير قليل من التشاؤم، عن الحرب، فوُبِّخ علىٰ الفور برسالة غاضبة سطّرها نقيب بحري سخر منه لتوهمه بأنّه يعرف عن ڤيتنام ما هو أكثر من ليندون جونسون. أضاف النقيب: إنّك صورة طبق الأصل عن بيل فولبرايت. وبعد بضعة أيام تناول ليك طعام العشاء مع زوجه الحمائمية جداً وأبيه الحمائمي بالقَدْر نفسه أيضاً. انقض الاثنان بهجوم عنيف علىٰ السياسة الڤيتنامية. غير أن ليك، المحترف علىٰ الدوام، حاول الدفاع عنها برباطة جأش. أخيراً التفت إليه أبوه وقال له بلهجة مشحونة بقَدْر غير قليل من الاحتقار والسخرية: «كفى يا توني! إنك نسخة طبق الأصل عن دين راسك».

ما لبث أن جرى تحريره من قضاء المزيد من الوقت في فريق العمل الخاص بڤيتنام حين قام نيك كاتزنباخ، نائب الوزير الذي كان دائباً علىٰ السعي للاهتداء إلىٰ سياسة أكثر عقلانية، أكثر حمائمية، رغم تعرّضه، هو الآخر للحصار، من قبل عدد من الصقور القابعين فوقه في أكثر المناصب نفوذاً،

بسحبه. مرة أُخرى وجد ليك نفسه مساعداً لأحد الأركان. كان كاتزنباخ رئيساً طيباً، ذا توجه صحيح، برأي ليك، غير أَن الحرب ظلّت تشكّل عبئاً أثقل فأثقل علىٰ ليك حتى أَصبح يجد وجهات نظره متباينة ومتعارضة مع السياسة الرسمية بصورة مرعبة. أخيراً ذهب إِلىٰ كاتزنباخ وأبلغه بأن وقت رحيله من السلك الخارجي قد حان. من الواضح، برأي كاتزنباخ، أَن ليك كان مرهقاً من جهة ومحبطاً من جهة أُخرى، ولم يعد قادراً علىٰ فعل أَي شيء مفيد لأي طرف بالتأكيد. في الوقت نفسه كان ليك واثقاً من أن من شأن معارضته لسياسة علىٰ هذه الدرجة من الأَهميَّة أَن تدمِّر حياته المهنية ومستقبله الوظيفي ـ أَن يبادر أَحد كبار الموظفين، عاجلاً أَو آجلاً، إِلىٰ استغلال أَحد تقارير الكفاءة وسيلة لمعاقبة افتقار ليك للحماس. كان كاتزنباخ يرى أَن ليك ربما كان علىٰ صواب، واقترح تصرفاً بديلاً: ما رأيك بالحصول علىٰ إِجازة دراسية لمدة سنة تقضيها في جامعة پرنستون؟! تلقف ليك الفكرة ونفذها، إِذْ أمضى في الجامعة سنتين اثنتين وحصل منها علىٰ شهادة الماجستير في مادة العلاقات الدولية. أَمّا الشخص الذي كان قد حلّ محله مساعداً لكاتزنباخ، وباقتراح منه، فهو ديك هولبروك الذي ما لبث أَن لحق به إِلىٰ پرنستون دون إِضاعة الكثير من الوقت.

مع إِنهاء ليك سنتين في پرنستون، كان ريتشارد نكسون قد انتُخب رئيساً للجمهوريَّة كما كان هنري كيسنگر قد طلبه عضواً في فريقه. كان ليك قد تعامل مع كيسنگر حين كان مستشاراً للديمقراطيين في الأَيام الختامية من سنوات جونسون. مرة أُخرى فكّر ليك، بلهفة، بمنصب صغير وهادئ في أفريقيا، غير أنّه ما لبث أَن قبل عرض كيسنگر الذي كان قد حصل علىٰ سيرة حياته الوظيفيَّة من بيل بوندي الذي كان أَحد صقور الإِدارة السابقين، وكان قد أعطى ليك شهادة إِطراء. قام بوندي بإِبلاغ كيسنگر أَن لدى ليك شكوكاً جدية حول سياسة ڤيتنام ولكنه جندي جيد علىٰ الدوام. كان كيسنگر قد قام أَيضاً بسؤال كاتزنباخ عن أكفأ الناس في الوزارة، وكان الأخير قد قدَّم له قائمة قصيرة تضمّنت فيمن تضمّنت أسماء توني ليك، ديك هولبروك، ولاري إِيگلبيرگر. ومما قاله

كاتزنباخ فيما بعد: «شاعراً بعدم الارتياح من احتمال أن أكون قد بدّت بقدر كبير من مواهب الخارجيَّة، سارعت إِلىٰ إِرسال القائمة ذاتها إِلىٰ بيل روجرز، وإِن كنت أشك، لمعرفتي بروجرز، في أَن يكون حتى قرأها».

تحدَّث ليك مطولاً مع كيسنگر واقتنع بأن الأخير، رغم وضعه الصعب مع رئيس متقلّب، سريع الانفعال، كان راغباً في إِنهاء الحرب. وهو الأَمر الذي كان توني ليك أَيضاً يريده أَكثر من أَي شيء آخر. كان واثقاً من أَن جميع الأَطراف ظلّت تتجادل علىٰ الأَطراف منذ زمن طويل حول الطريقة الصحيحة وغير الصحيحة للقيام بالمهمّة، وحول الاهتداء إِلىٰ العقيد الڤيتنامي المناسب، المفصَّل حسب المطلوب، الذي يستطيع أَن يضطلع بمهمّة حشد وقيادة قواتنا إِلىٰ النصر المبين. كانت تجربة كيسنگر تعني أَن ليك كان قد أمضى السنوات السبع الأولى التي اعتُبرت سيرة مهنية ممتازة ومتألقة منشغلاً كلياً بأَكثر قضايا تلك الحقبة السياسيَّة صعوبة وتعقيداً وقطعاً للأنفاس، متصارعاً في الغالب مع توجهات للسياسة، حيث أثبتت سائر الحلول، عدا التسليم آخر المطاف بنوع من الهزيمة للولايات المتحدة، أنها سرابية علىٰ الدوام. لم تكن ڤيتنام إِلاَّ مقبرة للنوايا الحسنة والآمال الزائفة السرابية جنباً إِلىٰ جنب مع نزعة تفاؤلية جرت تصفيتها وتقطيرها اصطناعياً. أضف إِلىٰ ذلك أَن ڤيتنام كان من شأنها أَن تدمّر حياة العاملين المهنية بدلاً من تعزيزها، إِذا استثنينا حفنة من الصحفيين المولعين بالذهاب إِلىٰ هناك. فبعد سنوات حين قام صديق بسؤال ليك عما إِذا كان الانشغال بالمشكلة البوسنية في ظل القيود الصعبة المفروضة من الرئاسة هو الأصعب في حياته الوظيفيَّة، ضحك ليك وأجاب بالنفي القاطع. لقد كانت ڤيتنام هي الأَكثر سوءاً، حيث التعامل مع حرب مرعبة مستمرة دون توقف في غياب أَي حل ممكن فيما كان مئة إِلىٰ مئة وخمسين شاباً أَمريكياً يسقطون أسبوعياً. لقد كانت بالغة السوء ليس فقط لأَن السياسة الأساسية كانت خاطئة من أولها إِلىٰ آخرها، بل ولأَن تصحيحها كان أمراً بالغ الصعوبة.

خلال الجزء الأكبر من الوقت الذي عمل فيه مع كيسنگر، دأب ليك علىٰ تقزيم أَهميَّة الدور الأَمريكي في ڤيتنام، وإن تحت الراية النكسونية المستحيلة المرصَّعة بشعار «السلام بشرف»، كما لو أَن جيش جمهوريَّة ڤيتنام، الذي سبق له أَن هُزم في 1964م علىٰ يد الڤيتكونگ، بات الآن، رغم سحب نصف مليون من الجنود الأَمريكيين وتقليص القوَّة الجويَّة الأَمريكيَّة بشكل كبير، قادراً علىٰ كسب الحرب. وعلىٰ الرغم من أَن شعار «السلام بشرف» صدم ليك بوصفه شعاراً مريباً، فإن فكرة فك الارتباط كانت فكرة جيدة. ومع أَنَّه لم يكن علىٰ الدوام علىٰ المَوجَة نفسها مع البيت الأَبيض فقد كان يعمل في سبيل هدف كان الجميع يتقاسمونه ـ هدف الخروج من الورطة بطريقة ما ـ مما جعل صرف أَي عدد من الآراء ووجهات النظر علىٰ الطريق أمراً يمكن تحمّله. لقد كانت طريقاً جديرة بالاختبار، وإن لم تكن مثالية ونموذجية. غير أَن نكسون وكيسنگر ما لبثا، في نيسان/ أبريل 1970م، أَن وافقا علىٰ اجتياح ما عُرف باسم منقار الببغاء في كمبوديا. حاول كيسنگر أول الأَمر أَن يسوّق ما جرى لدى عناصر جهازه زاعماً أَن تنفيذ العمليَّة ستقع علىٰ عاتق القوَّات الڤيتنامية الجنوبية، مدعومة بالمدفعية الأَمريكيَّة، رغم أَنّها كانت عمليَّة أَمريكيَّة كاملة في الحقيقة.

قام كيسنگر باستدعاء أولئك الذين كان يطلق عليهم اسم القلوب الدامية، أولئك الشباب الحمائميين في فريقه الذين كانوا سيبادرون، حسب قناعته الراسخة، دون أدنى شك إلىٰ معارضة عملية الغزو، وسألهم رأيهم. كانوا ضد العملية حسب ما هو متوقع. أكّدوا أنّها لن تفيد. لم يكن ثمة أَي موقع قيادي تابع لڤيتنام الشمالية يمكن الاستيلاء عليه ـ وقد تبين أَنّهم كانوا علىٰ صواب ـ ولن يؤدي الاجتياح إِلاَّ إِلىٰ توسيع دائرة الحرب إِلىٰ كمبوديا، ذلك البلد الصغير الذي كان حتى اللحظة قد نجح في أَن ينأى بنفسه عن الحرب. تأكدت صحة ذلك الرأي أَيضاً مع التمخض عن فيض من العواقب ـ الإِبادية ـ المرعبة بالنسبة

إِلىٰ جميع المعنيين. وحين قام ليك بإِيجاز تحفظاته علّق كيسنگر قائلاً إِنَّه كان يعرف ما كان ليك سيقوله حتى قبل أَن يتفوه به. وعلىٰ الأثر بادر ليك إِلىٰ الاستقالة. لم يقف الأَمر عند اعتراضه علىٰ الغزو، بل وقد كان ما قاله كيسنگر باعثاً علىٰ قدر مزدوج من القلق والريبة. إِذا كان ليك علىٰ هذا المستوى من قابلية التنبؤ بما سيقوله فقد فَقَد الشيء الأَكثر أهميَّة في أَي جهاز بيروقراطي، أَلا وهو الشيء المتمثِّل بالفاعلية الحقيقية. وكان هذا يعني أَنّه لم يكن يفعل شيئاً سوى تزيين الواجهة وخداع العالم الخارجي، كما لو أَن بقاءه حيث هو من أجل إِقناع زملاء كيسنگر النقديين بصورة متزايدة، في الأوساط الأكاديمية كما في حركة السَّلام، بأنّه ـ كيسنگر ـ كان لا يزال يصغي إِلىٰ ما يقوله ممثلوهم، كان ليك أَحد ثلاثة من فريق كيسنگر ممن استقالوا. قال كيسنگر لواحد منهم، يدعى بيل واتس: «إِن وجهة نظركم تمثِّل جبانة المؤسَّسة الشرقيَّة»، فقفز الرجل من مكانه وحاول الانقضاض علىٰ رئيسه بلكمة. غير أَن كيسنگر ما لبث أَن أظهر قَدراً من الحكمة وتراجع إِلىٰ ما وراء المكتب[2].

كان كل من ليك وهولبروك قد خَطَّا في مرابع السياسة الديمقراطيَّة في السبعينيَّات، وحين جاء جيمي كارتر إِلىٰ الإِدارة، كانا يحتلان مراتب طليعية في قائمة الشبيبة الموشكة علىٰ بلوغ سن الرشد في جهاز السياسة الخارجيَّة، المصقولة بالتجربة الڤيتنامية ولكن دون الاحتراق الكامل بنيرانها. كان ليك لا يزال أَوّلاً في صفه؛ كان يشغل منصباً مرموقاً كرئيس لدائرة التخطيط السياسي في وزارة الخارجيَّة، منصباً محاطاً بالكثير من التبجيل والتقديس بالنسبة إِلىٰ أَي مثقف في السلك الخارجي سبق لجورج كينان بالذات، وهو الأرجح عقلاً في واشنطن في عصره، أَن شغله. أَمَّا هولبروك، وقد كان لا يزال يُعتبر وَلَداً عبقرياً، أَو أعجوبة وهو في السادسة والثلاثين في تلك السنة، وأَكثر اندفاعاً وتهوراً من ليك، فلم يكن متخلّفاً عن الركب كثيراً. حصل علىٰ منصب مساعد

(2) هالبرشتام، «انحطاط الإمبراطورية الشرقية وسقوطها»، **ڤانيتي فير**، تشرين أول/ أكتوبر، 1995م.

وزير الخارجيَّة لشؤون الشرق الأقصى. صحيح أَن المنصب كان ممتازاً غير أنّه بقي ثانياً في صفه. لقد كان، برأي بعض أصدقائه المقرّبين، شديد التوق لمنصب أَكثر جلالاً، ربما منصب مستشار الأَمن القومي، غير أَنَّه كان يعلم أنّه لم يبلغ السن التي تؤهله لذلك، فضلاً عن أَن الاحتمالات كانت تشير إِلىٰ أن اللفتة ستذهب زبيگ إِلىٰ بريجنسكي.

كان آڤريل هاريمان، ذلك الشيخ الجليل في السياسة الخارجيَّة للحزب الديمقراطي، الذي سبق لهولبروك أَن عرفه عن كثب خلال مباحثات باريس، أَحد أولئك الذين ساهموا في دفع هولبروك هذا إِلىٰ الأعلىٰ في بداية سنوات إِدارة كارتر. من الواضح أَن هولبروك كان شاباً صاعداً، واعداً، دائم البحث عن أساتذة وأولياء نعمة، وكانت العلاقة مع هاريمان قد ساعدته كثيراً. كان هاريمان البالغ حوالي التسعين من العمر، والمدرك أخيراً لاستحالة توليه لمنصب وزير الخارجيَّة بنفسه بعد هذه السن، قد بدأ يوجه وينصح فريقاً جديداً من المريدين، بينهم هولبروك. ففي سنوات كارتر كان هولبروك أَحد أعضاء فريق سايروس ڤانس في الخارجيَّة المشتبك في صراع ضار مع بريجنسكي في مجلس الأَمن القومي. وبسبب سلبية ڤانس وعزوفه الغريزي عن المجابهة، فإِن هولبروك الأَكثر صدامية هو الذي تلقَّى ضربات زبيگ حول السياسة الصينيَّة. فقد دأب هولبروك علىٰ القتال في سبيل التمسّك بسياسة وزارة الخارجيَّة إِزاء الصين في حين كان بريجنسكي يحاول أَن يلعب ورقة الصين لكسب الورقة الروسية عن طريق قطع الطريق عليها.

كان ثمة بُعْدٌ جديد من السياسة الواقعية في هولبروك الذي أكمل جولته في ظل كارتر. كان قد قاتل بضراوة ونجاح لمنع نشطاء حقوق الإِنسان في الخارجيَّة من المبالغة في التدقيق علىٰ نظام فرديناند ماركوس بالفلبين. وكما قال مرة لأحد الزملاء، كان هولبروك شديد الاعتزام بتهميش دور پات ديريان Pat Derian، مساعد وزير الخارجيَّة لشؤون حقوق الإِنسان والأعمال الخيرية،

فرع استحدث مجدداً في الوزارة، في الفلبين خلال زيارته. كانت معاركهما حول التخطيط ـ حقوق الإِنسان مقابل السياسة الواقعية الأولية ـ معارك جدية وعاكسة للانقسامات المتنامية في الحزب الديمقراطي بعد ڤيتنام. فأحد أَسباب مواصلة دعم ماركوس كان، برأي هولبروك، كامناً في أَن الفلبين باتت، في السنوات التي أعقبت الهزيمة في ڤيتنام، توفِّر للولايات المتحدة قاعدة بحرية وجويَّة مهمّة في المنطقة. أَمَّا السبب الثاني فكان متمثلاً بالسياسة الداخليَّة القديمة. إِذا ما تم إِسقاط نظام ماركوس في أثناء إِدارة ديمقراطيَّة واستبداله بنظام ماركسي، فقد كان من شأن ذلك أَن ينطوي، كما رأى هولبروك، علىٰ جملة من العواقب السياسيَّة ليس بالنسبة إِلىٰ الحزب فقط بل وبالنسبة إِليه هو شخصياً. وبعد بضع سنوات حين أدركت واشنطن، أخيراً، أَن نظام ماركوس الفاسد، العاجز قد أَصبح عبئاً أَكثر منه ذُخْراً وعامل تشجيع لحركة عصيان شيوعية، تحركت ضد ماركوس، ومن المفارقات الساخرة أَن التحرّك كانت في سنوات ريگان الذي كان أَحد أكبر عشّاق ماركوس في وقت من الأوقات. قال هولبروك، الذي كان قد أَصبح يعمل في عالم المال بنيويورك، لجوني آپل من **النيويورك تايمز**، «أحمد الله علىٰ أَن الأَمر حدث تحت إِشراف جمهوري. . . . لو سعى أَحد الديمقراطيين إِلىٰ هذا، لأدّى الأَمر إِلىٰ تمزيق البلاد»[3].

خلال سنوات كارتر بقيت أوجه الاختلاف بين ليك وهولبروك في الخارجيَّة مميزة تماماً. فليك كان أهدأ، أَكثر تأمّلاً، أشد انسحاقاً تحت وطأة التجربة الڤيتنامية المرعبة، وأعنف تصارعاً مع ذاته. أقله علىٰ السطح، بدا ليك رجل أفكار، لا أفعال. كان وِلْسُنياً لا كيسنگرياً في العمق. أَمَّا هولبروك، في الجهة المقابلة، فقد كان ناشطاً قريباً أولاً وقبل كل شيء. كان في صف السياسة الواقعية، ولكن ليس علىٰ النمط الكيسنگري تماماً. فسياسته الواقعية كانت مصقولة، ليبرالية تأخذ أَهميَّة موقع أَمريكا الأخلاقي بعين الاعتبار،

(3) بونر، 169؛ مقابلة مع بونر و ر. و. آپل، الابن.

ولكنها مستندة أَيضاً إِلىٰ وقائع العالم المتخلّف وتقلّبات السياسة الداخليَّة الأَمريكيَّة وأوهامها. ربما كانت ڤيتنام قد جعلته أصلب. فأنت تتخذ قراراتك بأفضل الأشكال التي تستطيعها ثم تنطلق إِلىٰ التطبيق، ربما لم يكن طموحه ليسمح له بأن يتصرف بأية طريقة مختلفة. ربما كانت ڤيتنام خطأ، غير أنّه كان قد درس الخطأ ميدانياً وتعلم من بعض كبار رجالات الوزارة إِتقان فن الاستفادة من هذا الخطأ أَو ذاك جنباً إِلىٰ جنب مع فن اختزال تأثير أَي خطأ علىٰ سيرته المسلكية. وتعلم كذلك كيف يكون أستاذاً في الشجارات التلاحمية البيروقراطية علىٰ درجة عالية من المهارة والضراوة. ما من أَحد كان أَكثر تعصباً لجماعته. إِذا كنت تعمل معه فالأمور جيدة ورائعة؛ أَمَّا إِذا كنت تتحداه لتنتزع منه هذا المكسب أَو ذاك، فأنت، إِذن، في حرب حقيقية معه، مهما كانت مشروعية وجهة نظرك. إِذا كانت ڤيتنام قد جعلت ليك أَكثر تناقضاً بشأن فوائد استخدام قوة أَمريكا، فقد جعلت هولبروك أَكثر صلابة وأشد نزوعاً للصدام. فأي ألم مرتبط به لم يكن إِلاً ذلك الألم الذي كان يسبّبه لمنافسيه البيروقراطيين المحتملين.

قال أحد أصدقائه القدامى، بصوت مشحون بالإِعجاب والسخط في الوقت نفسه، إِن هولبروك كان شخصاً قادراً علىٰ الدخول خلفك من باب دوار والخروج قبلك. كان أبوه الذي ولد في روسيا وجاء إِلىٰ أَمريكا في العقد الثاني من عمره طبيباً، وكان هولبروك قد نشأ وترعرع في سكارزديل، إِحدى ضواحي نيويورك الأَكثر غنى. كان مسؤول تحرير الزاوية الرياضية في جريدة مدرسته الثانوية، **المارون** (العبد الآبق)، التي كان رئيس تحريرها وصديقه الأفضل الشاب ديڤيد راسك، ابن المدير التنفيذي لشركة فورد في ذلك الوقت دين راسك. ظل هولبروك حالماً باستمرار بأن يصبح مراسلاً خارجياً ـ ملتفاً بمعطف خاص (ترانشكوت) ومحاطاً بسرب من النساء الجذابات ولكن الملغزات قليلاً. وبعد ذهابه إِلىٰ الجامعة، أنفق جزءاً كبيراً من وقته علىٰ جريدة الكلية. في سنته

الثانية في الكلية أقدم رئيس التحرير علىٰ ما اعتبره هولبروك انقلاباً كبيراً في عالم الصحافة علىٰ تكليف الأخير، الذي زُعم أنَّه يتقن الفرنسية ويعرف أشياء كثيرة عن باريس، بمهمة تغطية قمة 1960م الباريسية. فهناك كان قادة الغرب بزعامة دوايت إيزنهاور سيجتمعون بنيكيتا خروتشوف خلال ما بدا نوعاً من الانفراج في حالات التوتر القائمة بين الشرق والغرب.

علىٰ الرغم من أن المؤتمر تعرض للنسف منذ البداية جراء قيام الروس بإسقاط طائرة يو ـ 2 التجسسية، فإن هولبروك نجح في إقامة علاقة مع مراسلي **النيويورك تايمز** في باريس. حصل علىٰ عشرة دولارات في اليوم إذ عمل ناسخاً فعلياً، في حين كانت مهمته الرئيسية حجز سبعة مقاعد يومياً لمراسلي **التايمز** النجوم القائمين بتغطية المؤتمر. وفيما بعد عمل كاتباً للأخبار لدى الجريدة في نيويورك، وبعد تخرّجه في براون سنة 1962م، كان حلمه هو العمل لصالح **التايمز**. كتب إلىٰ جيمس رستون بواشنطن ملتمساً عملاً، غير أن الأخير لم يكن يستخدم إلاَّ الشباب الذين عملوا خمس أو ست سنوات في الميدان، ورد عليه معتذراً لعدم وجود شواغر. علىٰ الرغم من أنّه كان شديد التوق لأن يصبح مراسلاً خارجياً، فإن هولبروك لم يحاول طرق أبواب صحف أُخرى، وبما أن والد صديقه ديڤيد راسك، دين راسك، كان قد تحدَّث باستمرار عن القيمة غير العادية للعمل في السلك الخارجي، فقد تقدم إلىٰ مسابقة انتقاء موظفي وزارة الخارجيَّة. نجح في المسابقة والتحق بصف كان يضم عدداً من الشباب اللامعين المندفعين بسرعة نحو مهن جديدة مثيرة، كان توني ليك واحداً منهم.

لأنّه كان طموحاً، توّاقاً للقيام بأعمال جليلة وبأسلوب ناجح، أقدم هولبروك، مثل ليك، علىٰ اختيار ڤيتنام، حيث كانت الأمور في 1962م بادئة لتوها بالاشتعال. التحق الشابان، كلاهما، بمدرسة لتعليم اللغة الڤيتنامية. غير أن ليك، لأنّه كان متزوجاً، ذهب إلىٰ ڤيتنام كموظف خارجيَّة تقليدي للعمل في السفارة، في حين تلقّى هولبروك، بسبب كونه أعزب، تدريباً خاصاً لصالح

برنامج جديد، جزء من إيد AID، حيث كان سيعمل في الميدان لصالح برنامج التهدئة الريفية (نشر السلام في ربوع الريف). كان يحصل علىٰ مبلغ 5500 دولار في السنة زائداً مبلغ 1375 دولار آخر تعويضاً عن التعرّض للخطر. وصل إلىٰ سايگون حاملاً في جيبه رسالة من كلفتون دانييل، مدير تحرير **التايمز**، يقدمه فيها بقدر غير قليل من الحماس إلىٰ مراسل **التايمز** المقيم[4]. كان هولبروك وثيق الارتباط منذ البداية بالإعلاميين. ومما خَدمه أيضاً أنه كان علىٰ علاقة مع عائلة راسك ولكنه لم يأت قط علىٰ ذكر تلك العلاقة علىٰ مسامع زملائه.

انطلاقاً من طبيعة المؤسَّسة التي كان قد التحق بها، حيث كانت المجاملات الاجتماعيَّة تُعتبر أموراً ذات أَهميَّة، لم يكن هولبروك مرشحاً محتملاً لسيرة مهنية ناجحة في السلك الخارجي. كان يملك فهماً أفضل للعالم السياسي المحيط به منه لنفسه ولتأثيره علىٰ النَّاس. ما من أَحد كان سيتهمه بجريمه التحلي باللباقة المفرطة raffiné. فقد قالت پاميلا هاريمان، ولية نعمة أُخرى من أولياء نعمته، التي كانت قد أَصبحت أرملة آڤريل وسفيرة أَمريكا في باريس، في أواسط التسعينيّات، عن هولبروك: «إِنه بيتوتي (داجن) كلياً». كان هولبروك مرشحاً لأَن يبقى علىٰ الدوام محبباً ومنفراً في الوقت نفسه، فجاً وغير مصقول، قابلاً لأَن يكون مكروهاً ومثيراً للإِعجاب في الوقت ذاته، وبسبب المواصفات نفسها في الغالب. وبقدر من الإِعجاب المشوب بالمتعة يتذكّر نيك كاتزنباخ الذي كان أَحد أولياء نعمته الأوائل حين عاد إِلىٰ واشنطن من ڤيتنام كيف أَن هولبروك ظل دائباً علىٰ السعي في سبيل وضع اسمه علىٰ قائمة الفريق الذاهب إِلىٰ باريس من أجل محادثات باريس للسلام في 1968م، مبالغاً في الإِكثار من مطالبة كل من كاتزنباخ وآڤريل هاريمان، رئيس الفريق، والإِلحاح عليهما وصولاً إِلىٰ التأكّد من التحاقه بالركب. يقول كاتزنباخ: «كان واثقاً

---

(4) كنتُ ممثل **التايم** المقيم؛ عرفنا بعضنا منذ 37 سنة في صداقة متعرجة، متقلبة، ولكن دافئة.

بصورة مطلقة بأن الحدث سيكون تاريخياً، بأنه سيتعلم أشياء كثيرة، سيكون ذا قيمة للآخرين لمعرفته بالحرب، وبأنّه سيكون قادراً علىٰ اللقاء بأناس سيكونون ذوي قيمة في يوم من الأَيام».

كان ما تحقَّق لهولبروك انتصاراً للموهبة، للنشاط، للطموح، والغطرسة علىٰ المجاملات الاجتماعيَّة الأَكثر هامشية، التي كان من شأن غيابها في عصر آخر أَن يشكِّل عاملاً ضدّه. فما كان نقطة ضعف أَصبح موطن قوته: نزوعه العرضي إِلىٰ إِهمال الآخرين في إِصراره الفريد علىٰ السعي لتحقيق أغراضه. لم يبد كثير التأمّل مثل ليك، ربما لأَن نار طموحه كانت تتقد بقدر كبير من الوهج، غير أَن أَحداً لا يستطيع أَن يشكّك بالمستوى الرفيع جداً لذكائه. لم يكن أقل دهاء وحنكة من أَي موظف في السلك الخارجي من جيله. لم ينسَ أَي شيء قيل له (أَو أَي شيء مما كان راغباً في أَن يتذكره علىٰ الأَقل) منذ خمس وثلاثين سنة إِذا لزم الأَمر. كان أَيضاً يتذكّر كل شيء سبق له أَن قرأه ـ وكان يقرأ بنهم شديد. كان مؤرخاً دبلوماسياً هاوياً، رئيس تحرير، لبعض الوقت لفصليَّة **فورين پوليسي**، ومحرراً مشاركاً لاحقاً لكتاب مذكرات كلارك كليفورد. وبعد سنوات قال كاتزنباخ إِن «أفضل مذكرة كتبتها عن ڤيتنام واحدة تُبلغ الرئيس جونسون بأننا لن نستطيع أَن ننتصر، بأن المسألة هي مسألة السلحفاة والأرنب ـ بأن سلحفاة سير العمليَّة كانت متخلِّفة كثيراً عن أرنب الرأي العام، وبأن الأَمر سيبقى كذلك. كانت المذكرة من تأليف ديك هولبروك». (بعد سنوات، وكان قد أَصبح بطل مفاوضات دايتون لإِنهاء الحرب في البوسنة وسفيراً إِلىٰ الأمم المتّحدة، ألقى هولبروك خطاباً أمام مجموعة كانت تضم، فيمن تضم، كاتزنباخ الذي أطلق عليه بسخاء عنوان «أفضل رئيس عرفْتُه». وفيما بعد رد عليه كاتزنباخ قائلاً: «شكراً، ديك! سأحرص علىٰ إِيصال ما قلته إِلىٰ بيل كلنتون»).

قبل كل شيء كان هولبروك حيواناً سياسياً مئة بالمئة. كان من شأن ذلك

ـ عدم بروز الصداقة والقرابة علىٰ السطح أولاً ـ أَن يجعله أَكثر قرباً من بيل كلنتون. كان من شأنهما أَن يريا الناس بالمنظار نفسه، وأن يستخلصا، دون الحاجة للتفوه بكلمة واحدة، النتائج ذاتها حول مدى أَهميَّة الأحداث الجارية في البلدان الأجنبية المختلفة بالنسبة إِلىٰ مستقبل كلنتون السياسي. كان هولبروك واقفاً علىٰ ملابسات سائر الأوضاع علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة ـ بما فيها سياسة هذه الدولة الإِفريقية البعيدة، عديمة الأَهميَّة أَو تلك، وما فيها من صراع بين قبيلة وأُخرى. وقد قال أَحد الأصدقاء إِن هولبروك مؤهل لمعرفة القبيلة صاحبة القضية الأخلاقية الأعظم، غير أنّه مرشح أَيضاً لمعرفة هوية القبيلة التي تملك النفط. كتاجر سياسة علىٰ مستوى عالمي، وكخبير استكشاف لجملة الأحداث السياسيَّة الخارجيَّة منها والأَمريكيَّة، كانت مهاراته متفوقة كثيراً علىٰ مهارات أَكثرية العاملين في السلك الخارجي. لم يكن متمتعاً بحاسة شم بالغة الحدّة إِزاء السياسات المعتمدة في البلدان التي يكلف بها فقط، بل وكانت مهاراته السياسيَّة، وهذا أهم، وخلافاً لحال الكثير من الزملاء المتمكنين من فهم سياسات دول أجنبية ـ ولكنّهم عاجزون عن فهم سياسة دولتهم بالذات ـ ممتدة إِلىٰ الولايات المتحدة.

كانت ڤيتنام قد علّمتْ هولبروك درساً لم ينسه قط، درساً يقول إِن السياسة الخارجيَّة تبقى بصورة شبه دائمة امتداداً للسياسة الداخليَّة، عاكسة لجُملة أمزجة، تقلبات، وحتى ذبذبات وارتعاشات الحياة الأَمريكيَّة. ما من أَحد كان أفضل منه علىٰ صعيد استشراف طبيعة الترابط بين السياسة الخارجيَّة من جهة و«الحرتقات» السياسيَّة الداخليَّة من جهة ثانية. لو تخلّى عن السلك الخارجي وعزم علىٰ كتابة زوايا وتعليقات، لكان ، ربما، أَحد أفضل معلقي السياسة الخارجيَّة في جيل كامل.

مع تجمع فريق كلنتون للسياسة الخارجيَّة خلال الفترة الانتقالية، سرعان ما بات واضحاً أَن هولبروك كان باقياً خارج الدائرة ساعياً للدخول ومحبطاً

بعض الشيء لعجزه عن الوصول. كان يعمل في الوول ستريت في أحد بنوك الاستثمار، حيث حقّق نجاحاً باهراً. وقد كان سر نجاحه كامناً، برأي زملائه في مؤسّسة لَهْمانْ إِخوان، في مدى خبرته السياسيَّة. كان قادراً بصورة مباشرة علىٰ فهم التراتب السياسي الداخلي في البرلمان، علىٰ كشف أصحاب المواهب، وأصحاب النفوذ، وهو أهم. لقد أَصبح مولعاً باللعبة المالية؛ قد لا تكون هذه اللعبة سياسيَّة خارجيَّة علىٰ مستوى القمة، حيث الرهانات فعلية برأيه، غير أنّها كانت هي الأخرى لعبة ذات رهانات كبيرة، وإِن لم يكن المال قادراً علىٰ الاستئثار باهتمامه. لقد بقي بريئاً إِلىٰ حد كبير من هذه العلّة، علّة حب المال. فحين سأله أَحد الأصدقاء عما كان سيفعله بكل أمواله ـ وقد أَصبح قادراً، في يوم واحد، علىٰ أَن يكسب ما كان ذات يوم يكسبه في سنة كاملة ـ بدا مرتبكاً للحظة، ثم أجاب قائلاً بأنه سيصبح، للمرة الأولى في حياته، قادراً علىٰ شراء جميع الكتب التي يريدها. وأضاف بسرعة: «وسوف أستطيع في كل لعبة تنس ألعبها صرف عُبْوة كرات جديدة». ورغم الإِحباط الذي شعر به إِزاء المنصب الذي حصل عليه من إِدارة كلنتون، فقد كان متمتعاً بما يكفي من الحصافة حتى يبقي شعوره مكتوماً، متأكداً من احتمال مجيء أَيام أُخرى.

أما صديقه ذات يوم، أَمَّا ليك، فقد كان، علىٰ النقيض من ذلك، مباشراً عمله من القمة، متولياً منصب مستشار الأَمن القومي. وسيكون ساندي بيرگر مساعد ليك رغم أنّه كان قادراً بسهولة علىٰ أخذ المنصب كان بيرگر أول الواصلين ولقي لدى الرئيس ما يكفي من الاستحسان ليصبح المسؤول الأكبر في الجهاز، غير أَن بيرگر أَحْسَن حين اقترح ليك لشغل المنصب. لم يكن بيرگر واقفاً علىٰ الصورة التي كان الآخرون في السلك الخارجي يحملونها عنه فقط ـ بوصفه محامياً تجارياً ثانوياً نسبياً في واشنطن ذا علاقات قوية مع الحزب الديمقراطي ـ بل وكان يحس أَيضاً بأن ليك كان أفضل تأهيلاً للمنصب لأنّه كان قد عمل في كل من البيت الأَبيض ومجلس الأَمن القومي من قبل، ولو تحت

جناح كيسنگر. انطوى قرار بيرگر علىٰ قدر غير قليل من النبل ـ ليس ثمة محامون طموحون كثيرون في واشنطن يمكن أَن يفعلوا ما فعله ـ وقد ساهم في تمتين علاقته مع الرئيس علىٰ المدى الطويل.

بالنسبة إِلىٰ ليك كان ذلك يعني أنّه ما زال هو الأَول في الصف، الابن الأَول لجيله الذي يحصل علىٰ أَحد التعيينات المتجاوزة للخط. كان قد اجتاز اختباراً مهماً خلال الحملة بوصفه مصمِّم الخطة التي ساعدت علىٰ تحييد خبرة بوش الأكبر علىٰ صعيد الأَمن القومي. وكذلك فإِن اهتمام ليك بالسياسة الخارجيَّة كان موازياً لاهتمام الرئيس الجديد وزوجه المتنفذة، اللذين كانا ينظران إِليها من منظار المنطلقات الإِنسانية والأخلاقية بدلاً من المنطلقات الاستراتيجية الجيو ـ سياسيَّة ذات الطراز القديم. لم يقف الأَمر عند كون الزوجين كلنتون من إِفرازات حركة مناهضة الحرب في ڤيتنام فقط، بل تجاوزه إِلىٰ جعل وجهة النظر الإِنسانية المشتركة هذه تبدو أَكثر اتصافاً بالمشروعية بعد أَن أَصبحت الحرب الباردة منتهية، وبات نوع جديد من القضايا، نوعٌ تحرّكه مشكلات اللاجئين في الغالب، موشكاً علىٰ البروز فوق السطح.

من الواضح أَن كلنتون ظل، لفترة وجيزة خلال المرحلة الانتقالية، يداعب فكرة تعيين كولن پاول، الموشك علىٰ إِنهاء الجولة الثانية من رئاسته لهيئة رؤساء الأركان المشتركة، في أَحد منصبي الأَمن القومي الرئيسيين. لم يكن أَحد متأكداً تماماً ما إِذا كان المنصب هو منصب وزير الخارجيَّة. غير أَن عدداً من المساعدين كانوا مكلفين بدراسة مدى دستورية مثل هذا التعيين. هل كان أَي إِنسان قادراً علىٰ الانتقال من حالة ارتداء الزي العسكري ورئاسة الأركان المشتركة مباشرة إِلىٰ منصب وزاري رفيع؟ جاء الجواب سلبياً؛ ثمة قواعد تحكم الأَمر. وبالتالي لم يتمخض المسعى عن أَي شيء، كما لم تتم مفاتحة پاول ولو بصورة تجريبية. كان فريق كلنتون يريدون تكريمه، وهو في المنصب، ولكن مع السعي إِلىٰ تحييد نفوذه. وهكذا فإِنّهم ناقشوا، لاحقاً،

حين أوشك پاول على التقاعد، فكرة منحه مكافأة نهاية خدمة، رَبْتة وداع على القبعة، نجمة إضافية. قام أعضاء الفريق باستعراض المسألة ووجدوا أن الجنرال الأخير الذي حصل على نجمة خامسة كان هو عمر برادلي قبل ثلاثة وأربعين سنة. قرّروا أن پاول لم يكن نداً لعمر. أضف إلى ذلك أن من شأن قيامهم بمنحه نجمة أُخرى، برأي جورج ستيفانوپولوس، أن يساعده سياسياً في يوم من الأيام[5]. تلك كانت أولى بشائر انبهار كلنتون بـ ـ وحَذَره من ـ پاول كشخصية محتملة في وزارته من جهة، ومرشح معارضة محتمل في انتخابات مقبلة، وهذا ينطوي على قَدْر مواز من الأهميَّة، من جهة ثانية. لاحقاً، حين تعرض كلنتون لسنة أولى عاصفة جداً مشحونة بسلسلة طويلة من الهزائم في السياسة الخارجيَّة، كثيراً ما تساءل عما إذا كان قد أخطأ عندما لم يضغط بشكل أقوى لصالح پاول. وبعد سنتين مما ستكون فترة رئاسته متزايدة الاضطراب، كان كلنتون سيعاود اختبار مناورة پاول بقَدْر أكبر من الاندفاع.

كان عضو الكونگرس الديمقراطي المخضرم من ولاية وسكنسن لَسْ آسپن سيتولّى منصب وزير الدفاع. وآسپن هذا، الذي بدأ حياته المهنية بوصفه صبي البنتاگون العبقري لدى ماكنمارا، كان قد عاد، كشاب، إلى ولايته وسكنسن لخوضه الانتخابات كما كان أحد كبار خبراء الدفاع في الحزب الديمقراطي خلال ما يقرب من ثلاثة عقود. وقد راوده طموحان اثنان في شبابه هما أَن يصبح رئيساً للجنة القوّات المسلَّحة في المجلس أولاً، ووزيراً للدفاع بعد ذلك. لقد حقَّق هدفيه كليهما، كما نرى، غير أَن نجاحه في الأَول سيفوق نجاحه في الثاني بشكل ملحوظ. كان آسپن شخصاً لامعاً، اجتماعياً، ومحبوباً جداً، غير أَن التعيين كان كارثياً من نواح كثيرة، أمراً غير مقبول بالنسبة إلى البلاد كما بالنسبة إلى الإدارة، وقاطعاً للنَّفَس، حرفياً ومجازياً، بالنسبة إلى آسپن، لقد كان الأقل انضباطاً بين الرجال على الصعيد الشخصي، وها هو ذا

---

(5) ستيفانوپولوس، 196 ـ 197.

الآن يجري تكليفه بتولي مهمة رعاية المؤسَّسة الأَكثر ثراءً بالنزاعات والانقسامات.

وما أثار قَدْراً أكبر من الحيرة عند آخرين كما لديه هو، جاء متمثّلاً بالشخص الذي اختير لرئاسة وكالة الاستخبارات المركزية CIA ـ أَو إِدارة المخابرات المركزية DCI بلغة واشنطن ـ جيمس وولزي. جاء الاختيار في اللحظة الأخيرة. في البدء كان فريق كلنتون عازماً علىٰ تنصيب ديڤ ماكّوردي، نائب أوكلاهوما. غير أنّه، وهو الطامح إِلىٰ منصب وزارة الدفاع، لم يرغب في تولي المنصب المقترح. وبعد ذلك بدا وكأن من المحتمل أَن تؤول الوظيفة إِلىٰ توم پيكرنگ، أحد منتسبي السلك الخارجي، وقد كان آنذاك سفيراً في الهند، وهو رجل متمتع بقَدْر استثنائي من القدرات والتجارب ـ السفير السابق في كل من الأردن، إِسرائيل، السلڤادور، وممثّل الولايات المتحدة السابق في الأمم المتّحدة. كان يُعْتَبر علىٰ نطاق واسع في الأوساط العليا بواشنطن شيخَ المحترفين المهنيين وأستاذهم. في كواليس وزارة الخارجيَّة قيل إِن إِبعاده عن الأمم المتّحدة إِلىٰ الهند جاء نتيجة قيامه بأداء عمله في نيويورك في أثناء حرب الخليج بمهارة فائقة لفتت أنظار وسائل الإِعلام بقوة مما دفع جيمس بيكر إِلىٰ الإِقرار بأنه أَصبح ناضجاً لشغل منصب أبعد وأقل قدرة علىٰ الظهور ولفت الأنظار. كان پيكرنگ مستنداً إِلىٰ سجل وظيفي خال تماماً من الأخطاء، متمتعاً بإِعجاب جُل من سبق لهم أَن عملوا معه باعتباره الأفضل بصورة مطلقة، مما يعني أنّه كان جيداً حقاً.

متنبهاً إِلىٰ أنّه كان موشكاً علىٰ تلقي رَبْتة علىٰ كتفه لدعوته إِلىٰ شغل منصب رفيع في إِدارة كلنتون، كان پيكرنگ قد قام برحلة الحج المطلوبة إِلىٰ ليتل روك لعقد خلوة مع الرئيس المنتخَب. سارت الأمور علىٰ ما يرام وبدت الصفقة ناجزة. بل وقد تم إِبلاغه من قبل كرستوفر أَن المنصب محجوز له. غير أَن عدداً من الديمقراطيين الأَكثر محافظة في المجلس، جنباً إِلىٰ جنب مع

الأدميرال كرو الرئيس السابق لهيئة رؤساء الأركان المشتركة الذي كان تأييده لكلنتون بالغ الأَهميَّة في الحملة، سارعوا، في اللحظة الأخيرة، إِلىٰ مطالبة كلنتون، بإِلحاح، بتوسيع فريقه سياسياً مقترحين عليه تسمية أحد المحافظين الجدد. قيل إِن پيكرنگ كان في طريق عودته إِلىٰ نيودلهي حين تم استدعاؤه في مطار فرانكفورت لإِبلاغه بأن ما توهمها صفقة لم تعد كذلك. فيما بعد حصل علىٰ سفارة موسكو، وقد كانت وظيفة مهمة، علىٰ الرغم من أَن الاختيار الأَول بالنسبة إِلىٰ موسكو كان هو والتر مونديل.

لم يُثْبت تعيينُ وولزي أنّه كان تعييناً موفقاً وسعيداً بالنسبة إِليه هو كما بالنسبة إِلىٰ الإِدارة في الوقت نفسه. علىٰ الرغم من حصوله علىٰ منصب ينطوي علىٰ قَدْر غير قليل من النفوذ الكامن، فقد تقرَّر بسرعة، بالطريقة غير الرسمية التي تتقرّر بها مثل هذه الأمور، أنّه لم يكن، بشكل ما، الشخص المناسب للإِدارة، وأن جولته ستكون مخيبة. سبق له أَن خدم في مستوى متدن نسبياً في إِدارة كارتر غير أَن الناس كانوا يعتبرونه من ديمقراطيـي ريگان. أواخر كانون أول/ ديسمبر 1992م، اتصل كرستوفر بوولزي وطلب منه أَن يطير إِلىٰ ليتل روك ليتحدَّث مع الرئيس المنتخَب. كان وولزي قد وصل معتقداً بأن فريق كلنتون سيقوم بعرض قائمته القصيرة المتضمنة أسماء المرشحين لشغل منصب مدير وكالة المخابرات، وسيقوم هو بتقديم النصح حول الشخص الذي يحتمل أَن يكون الأكفأ والأَكثر قدرة علىٰ التعامل مع الديمقراطيين المحافظين. بل وقد يُعرض عليه منصب ما. لم يكن يعرف كلنتون إِلاَّ بصورة هامشية جداً. كان كلنتون، كمرشح، قد ظهر أمام جماعة غير رسمية كان وولزي أحد أعضائها، جماعة كانت قد عملت تحت قيادة هارولد براون في وزارة دفاع كارتر، وكان وولزي قد تعاطف مع، وانجذب إِلىٰ حاكم ولاية آركنسو في لقائهما الوحيد.

كان كلنتون حين وقف أمام الجماعة، غير غافل عن نواقصه في ميدان الدفاع حيث قيل إِن أفراد الجماعة كانوا أصحاب خبرة ذات شأن، يدرك أَنَّه

تلميذ جديد أمام صف دراسي متطلِّب. أضف إِلىٰ ذلك، كانت بينه وبينهم، بصرف النظر عما إِذا كان ديمقراطياً جديداً أم لا، هُوَّة إِيديولوجية محتملة، فذأب بكثير من المكر علىٰ تمضية السهرة كلها وهو يطرح الأسئلة، حيث يكون أداء كلنتون مميزاً، موظفاً نقطة القوَّة عنده كدراسة سريعة. أثار إِعجاب الجماعة بهذا التصرف؛ ما من أحد توقَّع من سياسي جنوبي شاب أَن يتذكَّر الأسماء، الأرقام، ولُصاقات الأسعار علىٰ منظومات الأَسلحة، غير أنّه بدا منفتحاً وبعيداً عن الدوغمائية.

حين وصل وولزي إِلىٰ ليتل روك في الساعات المبكرة من مساء يوم 21 كانون الأول/ ديسمبر، قيل له إِن كلنتون سيقابله حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً. غير أَن اللقاء بين الرجلين لم يتم أخيراً إِلاَّ بعد منتصف الليل. تكلم كلنتون بصورة عفوية مع وولزي، غير أَن غرضه كان صعب التحديد. عدد من التلميحات الغامضة إِلىٰ منصب ذي علاقة بوكالة الاستخبارات المركزية مرت، غير أَن فهم وولزي لحال العالم لم يرد أَي ذكر له. في اليوم التالي طُلب من وولزي أَن يتوقف في مؤسسة روز الحقوقية ويتحدَّث مع وس هابل عن أية صراعات محتملة ذات شأن، وقد كانت زيارة لا تخلو من نوع من السخرية. كان وولزي قد بدأ يشك بأن منصباً سيُعرض عليه، وما لبث كرستوفر أَن أكّد شكوكه. تعيّن علىٰ وولزي أَن يحضر مؤتمراً صحفياً تم عقده للإِعلان عن نبأ التحاقه هو وكل من بيرگر، ليك، آسپن، ومادلين أولبرايت بركب الإِدارة.

قبل بدء المؤتمر الصحفي أجرى اثنان من كبار المسؤولين عن التعامل مع الصحافة في إِدارة كلنتون هما ستيفانوپولوس ودي دي مايرز «بروڤا» صغيرة حول الأسئلة المحتملة والأجوبة التي يجب أَن تأتي رداً عليها علىٰ النحو التالي:

سأل مايرز: «ماذا نقول إِذا ادعى أحدهم أَن هذه ليست إِلاَّ نسخة جديدة عن إِدارة كارتر؟».

أجابه وولزي، آتياً علىٰ ذكر وظيفة ثانوية نسبياً كان قد شغلها علىٰ صعيد تقليص الأَسلحة التقليدية في أوروبا، قائلاً: «غير أنني عملت أَيضاً في إِدارة بوش».

تعلق السيدة مايرز: «لم أكن أعرف أنّك خدمت في إِدارة بوش أيها الأدميرال وولزي».

فيرد عليها وولزي: «أخشى أَن تكوني مخطئة يا سيدة مايرز، فأنا لم يسبق لي أَن كنت أدميرالاً. لم أصل إِلىٰ أعلىٰ من رتبة نقيب في الجيش».

وتقول مايرز: «إِذن من الأفضل أَن أمحو كلمة **أدميرال** من النشرة الصحفية».

بعد بضع دقائق بدأ المؤتمر الصحفي وقال كلنتون إِن هذه قد تبدو كوكبة جديدة من إِدارة كارتر، غير أَن جيم وولزي سبق له أَن عمل مع إِدارة بوش. من الواضح أَن الديمقراطيين كانوا مفتقرين إِلىٰ العمق في كوادرهم وأن الانقسامات القديمة كانت لا تزال تفعل فعلها.

غير أَن التغيير الحاسم في شخصيات الأَمن القومي الرئيسية تمثل بالرئيس نفسه. بالنسبة إِلىٰ بوش كانت السياسة الخارجيَّة علة وجوده. أَمَّا بالنسبة إِلىٰ كلنتون، فقد كانت عامل إِزعاج، قضية من شأنها أَن تصرفه عن عمله الرئيسي - عن القضايا الداخليَّة وفي طليعتها الاقتصاد. لقد سلّط الأضواء علىٰ تلك الأولوية من البداية فور انتخابه وتنصيبه. لم يكن مهتماً بلقاء الزعماء الأجانب. حين جاءته مكالمات تهنئة هاتفية منهم، كان وارن كرستوفر هو المكلف بالرد عليها. تعيّن علىٰ رؤساء الدول الأجنبية انتظار الردود علىٰ رسائل تهنئتهم، في حين كانت اتصالات فرسان السياسة الديمقراطيين المهنئة تُجاب بسرعة البرق. تلك هي الطريقة التي جرى اعتمادها في ترتيب الأولويات. لم تكن تلك بداية موفقة بالضرورة. فبعض قادة العالم الذين كانوا يجدون بوش في متناول اليد بدؤوا يرون كلنتون تجسيداً لشيء يمقتونه كثيراً في أَمريكا، تلك القوَّة العظمى

المتغطرسة التي كان موقفها حول معظم القضايا متلخصاً بعبارة «لا تتصلوا بنا، نحن سنتصل بكم، كما سنقوم، بالمناسبة، باتخاذ جميع القرارات المهمة». غير أن ذلك الموقف كان شديد التناغم مع المزاج السائد في البلاد. قلما كان كلنتون والبلد في حالة تنافر. من اللافت بصورة نموذجية أن صوت كلنتون كان يخفُت، وثقته كانت تتضاءل، وأسلوبه كان يغدو شبه خال من الحماس، حين كان يصل إِلىٰ الفقرة المتعلقة بالسياسة الخارجيَّة من أي خطاب ذي شأن مثل خطاب حالة الاتحاد الموجه إِلىٰ الأمة. كانت الفقرة تبدو وكأنّها كُتبت لشخص آخر ثم فُرضت عليه عنوة في اللحظة الأخيرة، وتعين عليه أن يمر عليها بسرعة. أمَّا العاطفة والحماس بل وحتى النشوة والانفعال فما كانت لتعود إِلىٰ صوته إلاَّ حين يستغرق في الحديث عن الشؤون الداخليَّة.

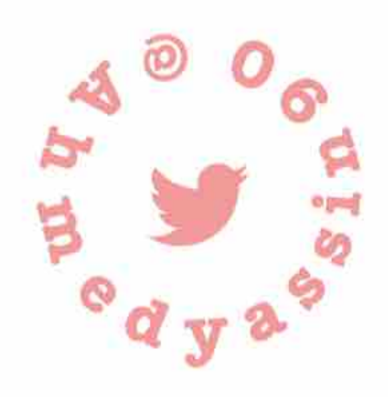
شكَّل غياب الاهتمام بميدان جماعة الأمن القومي من جانب الرئيس إِحباطاً لهذه الجماعة. كان لَسْ گلْب، الذي سبق له أَن عمل في وزارة الدفاع في ظل جونسون وفي وزارة الخارجيَّة في إِدارة كارتر وما لبث في منتصف حياته المهنية أَن أَصبح كاتب تعليقات في **النيويورك تايمز**، قد اكتشف هذه الحقيقة وسلّط الأضواء عليها قبل الأكثرية. كان قد استمع إِلىٰ خطاب كلنتون لدى قبوله للترشيح في المؤتمر الديمقراطي وكتب زاوية نافذة البصيرة بعنوان «141 كلمة فقط»، مشيراً إِلىٰ عدد الكلمات الدائرة حول السياسة الخارجيَّة في خطاب تفصيلي طويل، فيما عدا موضوع السياسة الخارجيَّة، مؤلَّف من أربعة آلاف ومئتي كلمة بالتمام والكمال. ومنذ ذلك الوقت صار كلنتون يطلب من ساندي بيرگر أَن يحصي عدد الكلمات المخصصة للسياسة الخارجيَّة في خطبه. وعلىٰ الرغم من أَن عدد الكلمات تزايد قليلاً، فإِن ذلك قلما استطاع أَن يخفي افتقار الرئيس الأساسي للاهتمام بالموضوع.

غير أَن مشكلة التركيز علىٰ السياسة الأَمريكيَّة الداخليَّة مع استبعاد العالم في الجزء الأخير من القرن الماضي كانت، برأي معلِّق وكاتب محافظ،

موهوب، متخصِّص بالكتابة في قضايا السياسة الخارجيَّة، يدعى روبرت كاگان، متمثِّلة بما يلي: «إذا كنت رئيس جمهوريَّة الولايات المتحدة، فأنت لا تبحث عن المشكلات، ولكن المشكلات تبحث عنك وتجدك»[6]. أو كما قال ديك هولبروك، في معرض كلامه عن رغبة الرئيس في اعتماد برنامج داخلي بدلاً من تبني برنامج دولي، فإن «ما لم يدركه كلنتون بعد هو أن السياسة الخارجيَّة لا تترك أي رئيس أمريكي وشأنه على الإطلاق». ثمة كانت معركة جارية على قدم وساق في العراق على صعيد الإرادات إن لم تكن على مستوى القوَّة مع صدَّام حسين. وإذا لم تكن تلك كافية فإن ثلاث بؤر توتر أُخرى ملتهبة في العالم كانت دائبة على ملاحقة الرئيس متمثِّلة بكل من البوسنة، هاييتي، والصومال، والأوليان كان كلنتون قد التزم بتناولهما بالرعاية في أثناء الحملة. لم تكن تلك أزمات جيو ـ سياسيَّة، رغم أن البوسنة كانت واقعة على الحد الفاصل، إلاَّ أن كلاً منها كانت تشكِّل أزمة إنسانية من شأنها أن تطرح تحدياً قوياً في الميدان الذي كانت إدارة كلنتون قد تعهدت بأن تقدِّم نموذجاً مختلفاً عن سابقاتها.

---

(6) مقابلة مع كاگان.


@Ahmedyassin90

الفصل الثامن عشر

ما لبث الفرق بين الكلام الخطابي السهل للحملة الانتخابية والوقائع العنيدة للعالم الخارجي أَن صَفَعَتْ إدارة كلنتون حتى قبل تولي السلطة. قامت هاييتي بإِعادتها إِلىٰ عالم الواقع. فهاييتي هذه، وهي إِحدى الدول التي ركّز عليها كلنتون بصورة استثنائية لدى توجيه النقد إِلىٰ سياسة بوش الخارجيّة، كانت أشبه بجُرُح مفتوح، دولة دائبة علىٰ دفع سيل دائم من اللاجئين المبحرين إِلىٰ الولايات المتحدة في أسطول صغير بالغ البؤس من القوارب المصنوعة منزلياً بصورة بدائية في ظل أشد الظروف غرقاً في بحار اليأس. كانت إِدارة بوش قد اعتمدت أسلوب اعتراض تلك القوارب البائسة في عرض البحر وإِعادتها إِلىٰ أماكن انطلاقها. أَمّا كلنتون، مرشحاً، فكان يقول بأن ذلك عمل إِجرامي، ولن يطيقه هو وإِدارته. ربما لم يكن أَي بلد، باستثناء البوسنة، شديد الترحيب بانتخابه. طار الآلاف المؤلفة من الهايتيين، وكثيرون منهم باتوا في الولايات المتحدة مع أفراد أسرهم فرحاً إِزاء ما اعتبروه ترحيباً جديداً، وبذراعين مفتوحتين، من قبل إِدارة أكثر وداً.

غير أَن كلنتون، حتى وهو في طور الاستعداد لمباشرة السلطة، تلقّى موجة من التقارير المخابراتية والصور التي بيَّنت انهماك آلاف الهايتيين بخلع سقوف بيوتهم لتحويلها إِلىٰ قوارب للإِبحار إِلىٰ أَمريكا. وعلىٰ الفور، قرَّر الرئيس المنتخَب أَن ساعة التراجع عن كلام الحملة الخطابي قد دَقَّتْ. وأية

صفقة جديدة خاصة بهاييتي كان لا بد لها من أن تنتظر. بالنسبة إِلىٰ الكثير من الناس ذوي الآمال العريضة حول الإِدارة الجديدة كانت اللحظة لحظة توقيع. كان موظف مرموق سابق في السلك الخارجي سبق له أَن عمل سفيراً في كل من تركيا وتايلاند يدعى مورت آبراموڤيتز وزوجه شيپي، وقد عملا في مجال الإِغاثة، قد سمع الأنباء التي تحدَّثت عن اعتزام الرئيس المنتخَب قلب سياسته رأساً علىٰ عقب والمبادرة إِلىٰ وقف القوارب ومنعها من الوصول. كان كلنتون قد تراجع عن وعده، حتى قبل وصوله إِلىٰ السلطة برأي آبراموڤيتس.

إِلاَّ أَن هاييتي ربما كانت مشكلة ثانوية نسبياً بالمقارنة مع البوسنة التي كانت الأزمة الحقيقية العويصة. فأيّة حركة هناك كانت تتمخض بالضرورة عن حركة مضادة. وهناك لم يكن الصالحون صالحين جداً، في حين كان الأشرار والطالحون بالغي السوء والشر؛ أضف إِلىٰ ذلك أَن الصالحين [العسكر] كانوا يستطيعون أَن ينقلبوا بسهولة إِلىٰ أشرار [حرامية]، كما كان الأشرار والأوغاد يستطيعون بيسر أَن يتحوّلوا إِلىٰ صالحين. لم يقف التشوش وعدم اليقين بشأن ما ينبغي عمله في البوسنة عند زرع الشعور بالإِحباط والخيبة في قلب إِدارة كلنتون فقط، بل وتجاوزه إِلىٰ غرس أشكال الاستياء والسخط في أوساط الكونگرس والجيش أَيضاً. حتى الخطوات البسيطة نسبياً، مثل تلك التي سبق لكلنتون أَن تحدَّث عنها في أثناء الحملة كرفع الحظر عن توريد الأَسلحة واستخدام القوّة الجويَّة الأَمريكيَّة، تَعَذَّر اتخاذها بسبب معارضة الحلفاء الأوروپيين الذين كانت لهم قوات علىٰ الأرض. ربما كانت البوسنة مهمة، ولكن كلنتون الممسك بزمام السلطة سرعان ما اكتشف عدداً من المشكلات الأُخرى - وجميعها مرتبطة بهموم داخليَّة أكثر إِلحاحاً. وتلك الأولويات كانت مرشحة لأَن تشكِّل جزءاً كبيراً من فترته الأولى.

في الحقيقة، لم تكن ثمة، أية سياسة سهلة، أَي إِجماع سهل، عما يمكن أَو يجب عمله في البوسنة. لو كان الرئيس متحمّساً للمسألة، لو كانت

البوسنة في صدر سلم أولوياته، لاستطاع فرض سياسة معينة ومرّرها عبر الشريحة العليا من الجهاز البيروقراطي فيبلغها بما يشبه صيغة الإنذار إلىٰ الحلفاء. خلال الحملة كان كلنتون قد تحدَّث عن سياسة مختلفة، وترك، من حين لآخر، انطباعاً يقول بأنه راغب في رفع الحظر. أمّا بعد أن أصبح في البيت الأبيض فما لبث أن تجمّد، تحت وطأة حدة عداء الأوروپيين لأي تغيير جنباً إلىٰ جنب مع حذر جيشه بالذات، وبات اهتمامه بالبوسنة فاتراً، محصوراً بالمناسبات في أحسن الأحوال. كانت لوزير الخارجيَّة كرستوفر تحفظات واضحة إزاء استخدام القوَّة وكان عاكفاً علىٰ قراءة وعكس ما كان الرئيس يريده. أمّا مستشار الأمن القومي توني ليك فقد كان بالغ الحماس غير أنَّه بقي حصيفاً، متلمساً طريقه بحذر ومنتظراً في الوقت نفسه تلقي الإشارة الصادرة عن الرئيس. غير أن ليك كان قد أبلغ كلنتون منذ البداية عن الأهميَّة القصوى للبلقان. لا شيء كان يمكن عمله في السياسة الخارجيَّة إلىٰ أن تتم معالجة مسألة البوسنة، كما قال، فضلاً عن الإدارة، علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة، سيجري الحكم عليها من خلال البوسنة أولاً وقبل كل شيء. لم يتم قول ذلك كمجرد تنبيه بل كواقع يقدّمه مستشار الأمن القومي يعرف حدود نفوذه كما يعرف أنّه كان أضعف ـ لجملة من الأسباب السياسيَّة والاقتصاديَّة ـ من سابقيه.

وفيما عدا ليك، كان الشخص المؤمن بقوة بأن علىٰ الولايات المتحدة أن تفعل شيئاً في البوسنة هو نائب الرئيس. كان گور أشبه بالصقور، وقد أبقى البوسنة علىٰ جدول الأعمال، وإن لم يبادر إلىٰ فرض تغيير حقيقي في السياسة. حتى وهو عضو مجلس شيوخ كان قد رأى أن يوگوسلاڤيا القديمة لم تعد موجودة، ومن المتعذّر إعادة تشكيلها. وكان يعتقد أن علىٰ الجهود الأمريكيَّة أن تتركّز علىٰ الاعتراف باستقلال الدول الجديدة المنفصلة عن الدولة القديمة وعلىٰ تقليص احتمالات إراقة الدماء. ومنذ اللحظة التي ظهر اسمه فيها علىٰ البطاقة الانتخابية كان گور قد جعل البوسنة إحدى قضايا الحملة. وواصل

بعد أَن أَصبح نائباً للرئيس ضغطه باتجاه اعتماد سياسة أَكثر تشدّداً مع الصرب. غير أنّه ما لبث أَن أَصبح يعاني من جملة القيود التقليديَّة الناشئة عن شغل منصب نائب الرئيس. وعلىٰ الرغم من أَن جزءاً كبيراً من نصائحه كان يتم وراء الكواليس، في غياب الآخرين ـ لم يكن يريد إِحراج كلنتون ـ فإِن حماسه كان مؤكداً. ومع ذلك فقد بقي شديد الحرص علىٰ عدم تجاوز حدود منصب كان مُختلفاً عن منصب الرئيس، مدركاً بأن من شأن ذلك أَن يكون مدمّراً في مكان مولع بالشائعات والقيل والقال مثل واشنطن. كانت ثمة مشكلة إِضافية انطوى عليها التعامل مع كلنتون حول قضية شديدة الوضوح دون أَي لبس. فقد قال گور لبعض الأصدقاء إِن المرء كان سيطرح المسألة علىٰ الرئيس، وكان الأخير سيبدو موافقاً بل ومعلناً موافقته صراحة. وبعد ذلك كان كلنتون يتحدَّث مع آخرين فيطرأ شيء من التعديل علىٰ ما بدا موافقة، حتى يجد المرء نفسه، عملياً علىٰ الضفة الأُخرى. كان جعل كلنتون يوافق علىٰ خطة ما شيئاً، أَمّا ضمان ثباته علىٰ تلك الموافقة فقد كان شيئاً آخر، مختلفاً تماماً.

كانت مادلين أولبرايت من حَمَلة راية استخدام القوّة، غير أَن نفوذها، هي الأُخرى، كان محدوداً. ففي البداية اعتُبرت بالفعل نموذجاً جديراً بالعرض من قبل أقرانها، تعبيراً صارخاً عن حصول تغييرات في السياسة الداخليَّة. شكَّل تعيين امرأة مندوبة في الأمم المتّحدة نوعاً من الاعتراف شبيهاً بالحسابات العرقية التي كانت تتم في حقبة سابقة لدى تعيين أَمريكيين من أصول إِيطالية، پولونية، أَو يهودية في مناصب وزارية ثانوية. وسواء أكانت القيود المفروضة آتية من النزعة الجنسية (الذكورية) الفطرية لدى الرجال المحيطين بكلنتون، أم صادرة، كما كان يحلو للبعض أَن يقولوا وراء الكواليس، عن اقتناعهم بأنّها دون مستواهم فكرياً، فإِن هؤلاء تصرَّفوا كما لو كانت قد فُرضت عليهم عنوة بفعل لجنة عمل إِدارية صارمة جداً وإِن بقيت مكتومة. في الأسابيع الأولى كان ليك الذي بدا شبه عاجز عن احتواء سخطه هو الأشد قسوة عليها. حاولَ ألا

ينظر إليها وهي تتكلم، متظاهراً بالانسحاق تحت وطأة الملل، ناقراً الطاولة بين الوقت والآخر بشيء من العصبية. ومع ذلك فإن أولبرايت كانت ستعمد إلىٰ المشاركة في الاجتماعات ذات المستوى الرفيع إلكترونياً من مكتبها في نيويورك، بدلاً من حضور تلك الاجتماعات شخصياً، وهو أفضل، جزئياً بسبب الأجواء المعادية في واشنطن كما صرَّحت أمام بعض الأصدقاء.

كان الوضع علىٰ الأَرض في البوسنة قد تدهور تدهوراً ملحوظاً لدى وصول كلنتون إلىٰ السلطة في كانون ثاني/يناير 1993م. ببطء شديد بدأ ضمير الغرب يستيقظ ليرى أَن الصرب في البوسنة كانوا يقترفون أسوأ الجرائم في أوروبا منذ الحقبة النازية. ربما حصلت جرائم مشابهة في الاتحاد السوڤيتي في ظل حكم ستالين، غير أَن تلك كانت قد ارتُكبت بعيداً جداً عن مدى نظر الغرب في الأماكن الأَكثر استعصاءاً من ذلك البلد. أَمَّا في يوگوسلاڤيا فإن الغرب كان موشكاً، بفضل عمل الصحفيين العاكفين علىٰ تغطية الأحداث، علىٰ أَن يصبح شاهداً، أراد ذلك أم لم يرد.

عند مجيء فريق كلنتون إلىٰ البيت الأَبيض كانت علىٰ الطاولة ما أُطلق عليها اسم خطة ڤانس ـ أوين للبوسنة، التي ربما كانت الخطة الأفضل الممكنة في ظل نقاط ضعف اللاعبين المختلفين، جملة المناطق التي قام الصرب باحتلالها عسكرياً كأمر واقع، وعدم حماس الغرب لفكرة طردهم من المناطق التي استولوا عليها بالقوّة. كانت الخطة قد أُنجزت من قبل اثنين من كبار الدبلوماسيين، وزير الخارجيَّة البريطاني السابق ديڤيد أوين، ووزير الخارجيَّة الأَمريكي السابق سايروس ڤانس. (كانت احتمالات السلام في البلقان هزيلة جداً حتى أَن المجلة البريطانية الهزلية **برايفت آي** [التحري الخاص] قامت، حين أقدم أوين علىٰ تولي المهمة، بنشر صورة غلاف كاريكاتورية تمثِّل شخصه مع رئيس الوزراء جون ميجر، وهو معارض سياسي اسماً، وفقاعات الكلمات خارجة من فميهما، إذ يقول ميجر: «أخشى أَن تكون قضية خاسرة»، فيجيبه

أوين، «إِذن أنا لَها، أنا الرجل المناسب»). صحيح أَن خطة ڤانس ـ أوين لم تكن مثالية، غير أَن عيوبها كانت متناسبة مع عيوب البوسنة ـ ويوگوسلاڤيا ـ كبلدين. كانت الخطة تدعو، عملياً، إِلىٰ تقطيع البوسنة إِلىٰ كانتونات. قضت الخطة باستحداث عشرة كانتونات، ثلاثة ذات أكثرية صربية، اثنان بأكثرية كرواتية، وثلاثة ذات أكثرية إِسلامية، وواحد كرواتي ـ إِسلامي مختلط، مع إِبقاء سيراييڤو كانتوناً منفصلاً. كان فريق بوش قد أعطى موافقته الهادئة علىٰ الخطة. فقد سبق للاري إِيگلبيرگر أَن أبلغ كلاً من ڤانس وأوين في الأَيام الأخيرة المخيبة لإِدارة بوش بأن هذه الإِدارة لم تكن مستعدة لتأييد الخطة رسمياً، غير أَنَّها لن تهاجمها أيضاً. كان من شأنها أَن تضع حداً لإِراقة الدماء وشكَّلت أفضل الحلول الممكنة بالنسبة لأقوام ودول غير مستعدة لاتخاذ تدابير أقوى. ليتها نجحت!

لم يكن فريق كلنتون علىٰ المستوى نفسه من التسليم بالأَمر. ظل أعضاء الفريق منزعجين من تسوية بدت أداة لإِضفاء الصفة الشرعية علىٰ المكاسب التي حقَّقها الصرب بقوة السلاح. من شأن السكوت عما يجري ألا يكون منسجماً مع خطابهم في الحملة الانتخابية. لم يكن هؤلاء يريدون أَن يبدوا عاكفين علىٰ استرضاء ميلوسوڤيتش وصرب البوسنة. التقى ڤانس ومساعدوه بأعضاء فريق كلنتون، ورغم وجود تطمينات سطحية حول استعداد الإِدارة الجديدة لدعم التسوية، فقد بدأ ڤانس وأوين يتوجسان من وجود مقاومة متنامية للاتفاقية. هل كانا يبالغان في الاسترضاء؟ هل كانت تسويتهما مبالغة في التصالح مع، والسكوت عن جرائم الإِبادة؟ تلك هي الأسئلة التي كان فريق كلنتون يطرحها علىٰ ما يبدو. فقد سمع ڤانس وأوين من إِعلاميين أصدقاء في واشنطن أَن أعضاء فريق كلنتون كانوا كثيري الشجب والإِدانة اللفظية للاتفاقية وراء الأبواب المغلقة، قائلين إِنها رخوة، من صنع أناس **كارتريين** مثل ڤانس، أَمَّا هم فقد كانوا جيلاً واقعياً جديداً، من نوعية أَو طينة مختلفة تماماً، فريقاً أَكثر صرامة وحزماً. سئل ريتشارد باوتشر، الذي كان ناطقاً صحفياً مؤقتاً باسم وارن

كرستوفر، من قِبَل مراسلي وزارة الخارجيَّة عن خطة ڤانس ـ أوين، فأبدى شكوكاً حول إمكانية تحقيقها واقعياً. خطا أَحد المراسلين في الإِيجاز الصحفي خطوة إِضافية إِذ سأل عن موقف كلنتون عبر القنوات الخلفية قائلاً: «هل كانت الإِدارة مقتنعة بأن خطة ڤانس ـ أوين كانت تجيز عمليَّات التطهير العرقي؟» اعتذر باوتشر عن الرد. كان ذلك، حسب ما كتبه أوين لاحقاً، أشبه بـ «رش الملح علىٰ الجرح»[1].

وهكذا فإِن خطة ڤانس ـ أوين، المقزّمة في واشنطن، ما لبثت أَن خَبَت وتلاشت عن الأنظار، واستمرت أعمال القتل. ڤانس الذي وجد نفسه في إِحدى أَكثر لحظات حياته المهنية مرارة بدا شاحباً، شديد الغضب من نائبه السابق كرستوفر. أدّى ما حدث إِلىٰ الإِجهاز على ما كانت أساساً علاقة شخصية ومهنية معقَّدة. فقد كان كرستوفر نائب ڤانس حين كان الأخير وزيراً للخارجيَّة سنة 1980م. في أوج أزمة الرهائن الإِيرانية، أقدم كارتر، بريجينسكي، وعدد من وزارة الدفاع علىٰ خطوة لمحاولة الإِنقاذ الغربيَّة بالحوامات، في مهمة متعذّرة النجاح نظراً لطبيعة الحوامات المشاكسة حتى في أفضل الظروف. وفي تلك الأثناء كان ڤانس المتعب يقضي إِجازة في فلوريدا، معزولاً عما يجري من أَحداث. قام كارتر بإِطلاع كرستوفر علىٰ الخطة طالباً منه ألا يخبر ڤانس.

حين عاد ڤانس إِلىٰ واشنطن فوجئ بالعمليَّة الجاهزة للإِطلاق. صُعق بفكرة المهمة وبحقيقة إِبقاء وزير الخارجيَّة بعيداً عنها. سارع علىٰ الفور إِلىٰ تسطير كتاب استقالته. سواء أنجحت مهمة الإِنقاذ أم لا فإِن الانتهاك الإِجرائي لم يكن مقبولاً. كانت رسالته أَكثر وثائق وزارة الخارجيَّة نُدْرة وغرابة، استقالة بسبب المبادئ!

كان ڤانس، مع ذلك، قد أوصى بتنصيب كرستوفر خلفاً له؛ غير أَن

---

(1) ديڤيد أوين، 107.

المنصب ذهب إلىٰ إد موسكي. ومرة أُخرى، في 1992م، حين جاءه فريق كلنتون يسألونه عمن يجب أَن يتولى المهمّة، أوصى ڤانس بكرستوفر. غير أَن هذه، عمليَّة نسف خطته السلمية علىٰ يد نائبه السابق، كانت الضَّرْبة الأخيرة، القشة القاصمة لظهر البعير [تقريباً]. علَّقَ ڤانس: لو كانت عندهم خطة أفضل لكان الوضع مختلفاً؛ لو كانوا مستعدين لاستخدام الطيران الأَمريكي لكان ذلك أمراً آخر. لم يكن هو وأوين قد رسما هذه الخطة إِلاَّ لأَن الأوروپيين والأَمريكيين لم يكونوا مستعدين للتدخّل الجدي في البلقان. صحيح أنّها كانت خطة غير مثالية، غير أنَّها كانت الوحيدة الممكنة دون التدخّل العسكري. أَمَّا أن يكون الرجلان اللذان اضطلعا بدور مفتاحي في إِسقاطها من تلميذيه ومريديه. كرستوفر وليك، فقد كان مؤلماً بصورة استثنائية بالنسبة إِلىٰ ڤانس. (علىٰ الأثر قرَّر بعض أنصار كارتر أَن كرستوفر، رغم أنّه محام متمكّن بصورة غير عادية، كان رجلاً لا يستطيع أَن يخدم إِلاَّ زبوناً واحداً، إِذ بقي شديد الولاء دون أي انحراف لكارتر أولاً، ولكلنتون فيما بعد، عاجزاً تماماً عن الإِخلاص لكليهما).

وهكذا فإِن جماعة كلنتون، لدى استلام السلطة، وجدت نفسها مكبَّلة بسياسة فاشلة ذاتياً، مختلة لا أمل منها، أطلقها الأوروپيون وإِدارة بوش، جنباً إِلىٰ جنب مع عزوفها عن استخدام القوَّة. بدت الورطة بلا مخرج. ثمة دافع أوَّلي ظل يطفو علىٰ السطح، مرة بعد أُخرى، ألا وهو استخدام طيران الناتو، غير أَن الأوروپيين الذين زعموا، كلما طُرحت الفكرة، أنّهم مستعدون للتنفيذ وبسرور شرط أَن نرسل قوات أَمريكيَّة لتكون بجانب قوّاتهم هناك علىٰ الأرض، أعاقوا وضع الفكرة موضع التطبيق. بعد سنوات كان توني ليك سيبوح بخيبات تلك الأَيام. كانت جماعة كلنتون شديدة الثقة بمواهبها وشديدة الاستخفاف بأسلافها (شأن جميع الإدارات الجديدة ـ لأنّها تصدق خطابها البلاغي) حتى باتت متأكدة من أنّها ـ حين ألقت نظرة جديدة علىٰ يوگوسلاڤيا ـ ستكون قادرة علىٰ ابتكار خطة جديدة تحل محل الخطة الفاشلة التي سبق لها أَن أغرقتها في

بحر من الانتقادات العنيفة في أثناء الحملة. غير أنّها حيثما تلفتت، كما سيلاحظ ليك لاحقاً، كانت تجد نفسها أمام حجر عثرة، في مواجهة عائق. يقول ليك «بقينا نبحث عن شيء، عن مخرج ما ـ دأبنا على قراءة وإعادة قراءة كل ما له علاقة بالمنطقة ـ غير أن ضالّتنا لم تكن هناك ببساطة. وبالتالي فإننا كنا نعاود البحث عن مخرج ما لم يتم اكتشافه بعد، عن شيء جديد نستطيع أن نفعله، غير أننا لم نعثر على ما كنا نبحث عنه، إذْ لم يكن هناك أي مخرج محدَّد». ومع تنامي الإحباط، باتت الإدارة ميَّالة إلى لوم الآخرين، الحلفاء، ومعهم الأقدار، بالطبع.

حتى قبل إمساك الإدارة الجديدة بدفَّة الحكم، قام ديك هولبروك، الذي كان قد زار البوسنة في صيف 1992م وشهد التطهير العرقي وانخرط بمسيرة منقلبة رأساً على عقب، بتحذير زملائه من المخاطر بعيدة المدى التي ينطوي عليها الوضع بالنسبة إلى السياسة الأمريكيَّة إذا لم نكن مستعدين لاستخدام القوَّة دعماً لتهديداتنا. ومع بداية الإدارة، بادر هولبروك إلى إرسال مذكرة دعت إلى اعتماد سياسة أكثر تشدّداً في البلقان، سياسة مصمّمة لوضع حد للعدوان الصربي، إلى كل من ليك وكرستوفر. بدأت المذكرة بعبارات: «ستكون البوسنة الامتحان الرئيسي للسياسة الأمريكيَّة في أوروبا. وبالتالي فإن علينا أن ننجح في كل ما نحاوله. لا تستطيع الإدارة أن تتحمّل تبعات البدء بكارثة دولية أو بمستنقع»[2]. لم يتلق هولبروك أي رد من أي من الرجلين، وحين زار ليك بعد بضعة أسابيع، قال مستشار الأمن القومي إن المذكرة مفيدة، غير أن ذلك النوع من العمل الحاسم الذي يريده هولبروك ينطوي على مشكلات معينة. وقف الأمر عند ذلك الحد.

لم يكن هولبروك قد اختير لسفارة ألمانيا بعد وكان قد تطوع للاضطلاع بدور ما في البلقان كممثّل خاص لرئيس الجمهوريَّة. غير أن ذلك بالتحديد هو

---

(2) هولبروك، 50.

ما لم يكن رؤساؤه يريدونه. فقد كان هؤلاء يخشون من أَن يصبح إلزام هولبروك، وهو المعروف باندفاعه، حماسه، وعناده الشديد ـ أي نزوعه الفطري إِلىٰ التصرّف تلقائياً ـ باتباع الخط الأَكثر حَذَراً وتحفُّظاً الذي كانت الإِدارة موشكة علىٰ اعتماده. أَمَّا مهمة المفاوض الخاص فذهبت، آخر المطاف، إِلىٰ رگي باثولوميو.

بعد بضعة أسابيع، بادر هولبروك، وهو ما يزال ينتظر أَن يسمع شيئاً عن المنصب الذي سيحصل عليه، إِلىٰ زيارة البيت الأَبيض لتناول طعام الغداء مع ليك ونصح بالتدخّل المباشر في البوسنة. عارض ليك قائلاً إِنّهم عاكفون علىٰ معالجة المشكلة وأنّه واثق من أنّهم بدؤوا يحقّقون بعض النتائج. كان ثمة تباين واضح بين الصديقين السابقين، اللذين كانا، يعتبران نفسيهما في صف المتحمسين للبوسنة. كان هولبروك لا يزال الناشط، حراً، لعدم حصوله علىٰ أَي منصب بعد، في أَن يتحدَّث عن البوسنة بلغة مثالية، في حين كان ليك الموظف المسؤول والمتنفّذ المكلَّف بأعباء معالجة المسألة في ظل إِدارة كانت مرتبتها علىٰ سلم الأولويات متدنية نسبياً. سارع هولبروك إِلىٰ تذكير ليك بخطاب الحَمْلة الحماسي الذي كان من صياغة ليك نفسه، في حركة لم تكن بالتأكيد ضمانة لتعزيز صداقة باتت مهزوزة أساساً. وقد كتب هولبروك فيما بعد، بقدر غير قليل من التخفيف، يقول: «انتهى اللقاء ببرود ودون نتيجة»[3].

كانت العناصر الأَكثر شباباً في وزارة الخارجيَّة، تلك التي طالما دأبت علىٰ الضغط من أجل اتخاذ تدابير أَكثر فاعلية في البوسنة، مفعمة بالأمل حين جاءت إِدارة كلنتون إِلىٰ السلطة. فكلمات كرستوفر المبكرة كانت قد أثَّرت فيها، حيث كان الوزير الجديد قد اعتبرها في خطابه العام الأَول في شباط/ فبراير 1993م: «فترة مظلمة من الإِرهاب والوحشية» مضيفاً «إِن ضمائرنا تتمرّد

(3) المصدر السابق، 54.

وتثور إزاء فكرة الإِذعان السلبي لمثل هذه الوحشية». غير أَن جماعة كلنتون ما لبثت أَن بدأتْ تتراجع في القمة، وكانت المذكرات المطالبة بالتحرّك تتعرّض للتجميد علىٰ أيدي مساعدي كرستوفر تحاشياً لخطر تسليمه ورقة سيتعين عليه أَن يرفضها. سرعان ما طغا نوع من الشعور بالإِحباط علىٰ أولئك الذين توهموا أَن الإِدارة الجديدة تعني سياسة جديدة.

بعد تسلُّم جماعة كلنتون لزمام الأَمر، تم إِنفاق شباط/ فبراير، آذار/ مارس، بل وحتى نيسان/ أبريل علىٰ إِعادة النظر بالسياسة المتبعة في البوسنة. غير أَن الأحداث في البوسنة لم تكن هادئة؛ لم تنتظر إِنجاز عمليَّات مراجعة السياسات والخطط. ولو سارت عمليَّة الاجتياح الصربية وفق الخطة المرسومة، لبقي عدد من الجيوب الإِسلامية في البوسنة الشرقيَّة مستمرة في الصمود مع تحمّل وابل جهنمي من القصف المنهال علىٰ رؤوسها من الأَسلحة الصربية الثقيلة. كان الجيب الأشهر بين تلك الجيوب متمثلاً ببلدة تحمل اسم سربرينيتسا، حيث كان الصرب قد حاصروا مسلمي البوسنة، وحيث واصلت التقارير حديثها عن كارثة إِنسانية متنامية من شأنها، برأي المراقبين، أَن تصبح حتى أسوأ مما هي عليه. لم تكن سربرينيتسا هذه، مثلها مثل الكثير من البلدات الأُخرى، إلاَّ مهمازاً واخزاً يسخر من هذا الرئيس الجديد الذي كان قد وعد بتمثيل أَمريكا أَكثر إِنسانية، ليس علىٰ المستوى الداخلي فحسب، بل وعلىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة أَيضاً.

أوائل سنة 1993م بات الجزء الأكبر من أَي اهتمام أولاه العالم للأحداث الجارية في البلقان متركزاً علىٰ سيراييڤو. وعلىٰ الرغم من صعوبة رَوْز نوعية المعاناة زمن الإِبادة، فإِن المطّلعين علىٰ، والمهتمين بما كان يجري هناك، اقتنعوا بأن المعاناة في الجيوب البوسنية الشرقيَّة كانت أكبر بكثير مما هي في سيراييڤو. ففي غياب العين الغربيَّة المراقبة عن تلك الأماكن البعيدة شرقاً، كان الناس هناك يحصلون علىٰ قَدْرٍ أقل من الرعاية والطعام والمواد الطبية. أَمَّا سيراييڤو فقد بقيت، رغم سوء الأحوال بشكل مرعب، تحت رقابة أقرب من

جانب الغرب، وكان الصرب يُجبرون بين الحين والآخر علىٰ تقديم بعض التنازلات أمام الرأي العام العالمي. لم يكن الشيء نفسه صحيحاً تماماً بالنسبة إلىٰ سربرينيتسا، إحدى صور الهول الحقيقي في البوسنة.

كانت البلدة، سربرينيتسا، وهي بلدة مناجم سابقة، عاجزة عجزاً غير عادي عن الدفاع عن نفسها في وجه الهجمات الصربية، واقعة علىٰ نهر درينا، علىٰ مسافة ربما لا تزيد عن ثلاثة إلىٰ أربعة أميال من حدود صربيا. ولأَن ربيع 1992م كان قد شهد قَدْراً هائلاً من أعمال التطهير العرقي الوحشية والضارية، فإِن عدداً من المنظمات غير الحكومية قدَّرت أَن أعداد المسلمين الذين كان قد تم طردهم من بيوتهم، مع حلول سنة 1993م، بلغت مئتي ألف. ومع سقوط القرى، الواحدة بعد الأُخرى، في البوسنة الشرقيَّة، كان عدد كبير من الأهالي يفرّون إلىٰ سربرينيتسا ويلوذون بها، إلىٰ هذه البلدة التي سرعان ما تعرّضت هي نفسها للحصار. وعند إِقامة حفلات تنصيب كلنتون رئيساً للجمهوريَّة، كانت سربرينيتسا قد أَصبحت مزدحمة بالآلاف من اللاجئين المسلمين وواقعة تحت وابل من قذائف القصف المدفعي الصربي. كانت قصَّتُها، وهي مأساوية أساساً، مرشحة لأَن تصبح أسوأ فأسوأ في السنتين القادمتين. حين كان الاجتياح الصربي للبوسنة قد بدأ قبل سنة واحدة في آذار/ مارس 1992م، كانت سربرينيتسا قد شكَّلت هدفاً مهمّاً بالنسبة للصرب، وكان غضبهم من المدافعين عنها قد تزايد بوتائر تراكمية أكبر. وعلىٰ الرغم من أَن الجزء الأَول من الهجوم الصربي كان قد سار، عموماً، حسب الخطة المرسومة ـ فبعد ستة أسابيع باتوا مسيطرين علىٰ حوالي ستين بالمئة من أراضي البوسنة ـ فإِن سربرينيتسا ظلت تثبط عزائمهم.

كانت القيادة العسكريَّة المحلية قد برهنت علىٰ أَنها قوية ومتمكِّنة بصورة غير عادية. فحين قام الصرب بتطويقها وطالبوا الرجال المسلمين بتسليم أسلحتهم، فإِن المدافعين المحليين كانوا يعرفون ما كان قد حصل للرجال في

البلدات الأُخرى معرفة جيدة جداً، مما دفعهم إلىٰ المقاومة. بادرت القوَّات الصربية، وفي طليعتها نمور آركان من الوحدات الخاصة شبه العسكريَّة. إلىٰ التوغّل في سربرينيتسا، وراحت تنهب وتقتل الرجال المسلمين المسنين الذين وجدتهم في طريقها. وبعد يومين شن الجنود المسلمون هجوماً معاكساً. كان ناصر أوريتش، في الخامسة والعشرين من العمر، أَحد عناصر الشرطة وأحد الحراس الشخصيين لميلوسوڤيتش، الذي لم يكن أقل خشونة وجلافة من أي قائد صربي في وحدات المظليين الخاصة، أَحد قادة أولئك الجنود. تمكنت تلك العصبة غير النظامية، ذات التسليح الضعيف ولكنّها صادقة التصميم والعزم، من طرد النمور من البلدة في العشرين من نيسان/ أبريل 1992م. وبفضل نجاحه في ذلك الهجوم تحوّل أوريتش، علىٰ الفور، إلىٰ قائد للمقاومة المحلية كلها. وهكذا فإن سربرينيتسا بقيت جيباً مسلماً، حَسَكة يتعذّر هضمها في حوصلة الصرب.

ما لبث أوريتش أَن أَصبح الأَقْذَر والأعنف بين ضبّاط الميدان المسلمين. فتحت قيادته شنّ المسلمون، رغم تسليحهم الضعيف جداً بشكل يبعث علىٰ اليأس، سلسلة من الهجمات علىٰ قرى مجاورة خاضعة لسيطرة الصرب، ساعين دائماً إلىٰ الفوز بالمزيد من الأَسلحة والذخائر. وما إن كان رجاله ينجحون في ضرب قرية خاضعة للصرب حتى كانوا يسارعون إلىٰ ذبح الرجال. كانت هجماته المعاكسة قد تمّت قبل تنصيب بيل كلنتون بأسبوعين اثنين. ومع قيام أوريتش باستخدام سربرينيتسا ثكنة قاعدية له ينطلق منها لمهاجمة المناطق المجاورة، تحوَّلت البلدة إلىٰ هدف دائم. تابع الصرب انقضاضهم علىٰ القرى المسلمة الأصغر، مطهرينها، فتدفق المزيد من اللاجئين المسلمين علىٰ سربرينيتسا التي لم تعد تتسع لهم. كانت البلدة شديدة الازدحام، وتعين علىٰ أَكثرية القادمين الجدد أَن يناموا في العراء. سارع الصرب إلىٰ تحريك بطاريات مدفعية ثقيلة وأرتال عربات مدرّعة إلىٰ مواقع قريبة وبدؤوا يقصفون البلدة

عشوائياً. أضف إلىٰ ذلك أَن الصرب منعوا قوافل الأمم المتّحدة من دخول سربرينيتسا.

في ربيع 1993م تمكّن طبيب تابع لمنظمة الصحة العالميَّة يدعى سايمون مارديل من التسلّل إلىٰ داخل البلدة - قاطعاً مسافة خمسة عشر ميلاً بالغة الخطورة سيراً علىٰ الأقدام وهو يصلي داعياً ألاّ يتعثر بلغم أرضي يطيّره أشلاءً في السماء. ثم قام مارديل بالاتصال مع رؤسائه بالراديو ونبّههم إلىٰ أَن أهل سربرينيتسا في أوضاع بائسة جداً وإلىٰ أَن الحياة هناك لا إنسانية. الآلاف يعيشون في الشوارع ملتحفين السماء. لا طعام ولا دواء. قَدَّر عدد الموتى يومياً بعشرين إلىٰ ثلاثين شخصاً جراء البرد والجوع، وأن حوالي ثمانية عشر ألفاً من النساء والأطفال كان يجب إجلاؤهم فوراً[4]. وبعد الإصغاء إلىٰ ما قاله مارديل، أقدم ضابط فرنسي في القوّة الدولية ومتنبهٌ من قبلُ إلىٰ الأوضاع المأساوية في سربرينيتسا هو الجنرال فيليپ موريون، علىٰ شق طريقه بجرأة إلىٰ قلب المدينة المطوقة في الحادي عشر من آذار/ مارس 1993م. لم يكن الجنرال ينوي أَن يبقى طويلاً. أراد فقط أَن يرى مدى سوء الحال، أَن يتحدَّث مع القيادة المحلية حول ما يستطيع فعله، فيرحل. من المؤكد أَن الأحوال كانت أسوأ مما كان قد توقع. غير أَنه كان نعمة وذخراً بالنسبة إلىٰ القيادات المسلمة هناك في سيراييڤو، فأبرقوا إلىٰ أوريتش موجهينه ألا يسمح للجنرال بالمغادرة. بدأت أفواج النساء والأطفال تلقي بأجسادها علىٰ سيارته. توقف القصف الصربي في أثناء وجوده في البلدة، واعتقد المسلمون بأَنهم آمنون طوال بقائهم محتفظين بالجنرال رهينة بأيديهم. كان الموقف الذي وقفه موريون أَحد أنبل المواقف التي سبق لأي عنصر عامل لدى قوات الأمم المتّحدة أَن اتخذه حين قال: «أنتم الآن تحت حماية قوات الأمم المتّحدة. . . . لن أترككم قط» بصوت مفعم بالشجاعة ولكن عبر تصريح لم يكن إطلاقه صحيحاً مئة بالمئة. أصيب رؤساؤه

---

(4) هونيغ وبوث، 84؛ سلبر وليتل، 266.

هناك في نيويورك، في الحقيقة، بكثير من الرعب إزاء ما أقدم عليه وتجاه جملة المخاطر الأكبر التي كان من شأنه أن يسبّبها لقوات الأمم المتّحدة الأُخرى المنتشرة في مختلف أرجاء البوسنة. كان الجنرال قد بدأ، برأيهم، ينحاز ويقف في صف أحد الفريقين.

بعد إطلاق وعده الجريء حاول موريون أن ينزلق متسللاً إلىٰ خارج البلدة في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، غير أن المسلمين انقضوا عليه وأوقفوه. ومنذ تلك اللحظة شغل نفسه بعقد مفاوضات بين الصرب والمسلمين، ساعياً إلىٰ جعل سربرينيتسا منطقة منزوعة السلاح. نجح أخيراً في إقناع الصرب بالسماح لبعض قوافل الإغاثة بالمرور. وما إن وصلت طلائع الشاحنات حتى تفجرت أعمال شغب مرعبة حين اندفعت جموع النساء والأطفال نحو الشاحنات الفارغة لركوبها والرحيل من سربرينيتسا إلىٰ توزلا المجاورة. كان الزحام علىٰ ظهر حفنة الشاحنات شديداً جداً مما أدّى إلىٰ وفاة ستة من النساء والأطفال اختناقاً وتعرّضاً للبرد. وبعد بضعة أيام عبرت قافلة أُخرى إلىٰ البلدة. كان حوالي 750 شخصاً، اختيروا لحالتهم السيئة جداً، مرشحين للإجلاء غير أن أعمال شغب جديدة ما لبثت أن اندلعت وتدفق ما لا يقل عن 2400 امرأة وطفل علىٰ الشاحنات التسع عشرة في تزاحم شديد. النساء الأكثر شباباً كُنَّ يسحبن النساء الأكبر سناً ويأخذن أمكنتهن. ثمة نساء ألقين بأولادهن إلىٰ الشاحنات بعد إخفاقهن في الصعود[5].

تابع الجنرال تفاوضه مع الصرب، ولكن من موقع الضعف باستمرار، وكان كل اتفاق يتوصَّل إليه لا يلبث أن ينهار. لم يكن يملك أي نفوذ فعلي. كان الصرب يعرفون أن رؤساءه في نيويورك كانوا، سلفاً، مستائين منه لمبالغته في التشدّد. وفي مواجهته كان يقف الجنرال راتكو الذي لم يكن ليقبل بما هو

(5) هونيغ وبوث، 91.

أقل من استسلام سربرينيتسا. من الواضح أن ورقة التوت التي كانت تغطي موقف الأمم المتّحدة المشين في البوسنة بدأت تتقلّص بسرعة، مع استمرار دكّ البلدة.

وبالقدر نفسه من الوضوح كان الرد الأمريكي قد جرى تحييده هو الآخر. فالإدارة الكلنتونية كانت لا تزال دون خطة حقيقية. أخيراً تقرّر إسقاط كميات من المواد الغذائية والطبية على الجيوب المسلمة. كان الطعام من ذلك النوع الذي يتناوله الجنود في الميدان، أي وجبات جاهزة MRE [و. ج.]. وبصورة متناغمة تماماً مع الأوضاع ـ وقد بدا ما حصل رمزاً يسلّط الضوء على طبيعة سياسة كلنتون في الأيام الأولى ـ تغيّرت الخطوط الصربية خلال الليل، فذهبت الكميات الأكبر من الأطعمة الملقاة في الجولة الأولى إلى الجنود الصرب.

في منتصف نيسان/ أبريل أدّى هجوم مدفعي صربي على سربرينيتسا إلى مقتل ستة وخمسين شخصاً، كثير منهم صبية كانوا يلعبون كرة القدم. في ذلك اليوم تحدّث موظف بريطاني يعمل لدى الأمم المتّحدة، معروف عادة بنظرته الهادئة، البعيدة عن الانفعال إلى الأحداث، يدعى لاري هولنگزوورث، بكلمات اختارها بروية غير قليلة، قائلاً: «فكرت أولاً بالقائد الذي أصدر أمر الهجوم. أرجو وأدعو أن يحترق في أكثر زوايا الجحيم سعيراً. فكرت ثانياً بالجنود الذين لقموا المدافع وضغطوا على الزناد. آمل وأرجو أن يبقى نومهم إلى الأبد مقطّعاً بعويل الأطفال ونواح أمهاتهم. فكرت ثالثاً بدكتور الطب كاراديتش [وغيره من رسميي صرب البوسنة]. ورحت أتساءل: هل سيبادرون إلى شجب هذه الوحشية الشنيعة؟ أم أنهم سيخونون تعليمهم ويساومون عليه؟ وقد فكّرت أيضاً بالأعداد الكبيرة من الصرب الذين أعرفهم في طول البلاد وعرضها، متسائلاً، عما إذا كانوا يريدون لتاريخ الأمة الصربية أن يشتمل على هذا الفصل الذي أقدم فيه جيشهم على طرد الأبرياء ومطاردتهم من قرية إلى أخرى حتى باتوا محشورين جميعاً، آخر المطاف، في سربرينيتسا، في مكان لا

مهرب منه، حيث يقضي قَدَرُهُم أن يتم ترحيلهم كالبهائم والأبقار، أَو ذَبْحُهم كالنعاج؟»[6].

حين طالب الصرب باستسلام سربرينيتسا، سارع مجلس الأَمن الدولي إِلىٰ عقد اجتماع وقرَّر اعتبار البلدة مع خمس بلدات بوسنية أُخرى ملاذات آمنة، تعهد المجلس بحمايتها علىٰ الرغم من أنّه، كما يعرف الجميع، كان يفتقر إِلىٰ الوسائل التي تمكّنه من حماية أَي شيء. وبالتالي فإِن عجلة المأساة بقيت دائرة. أعداد متزايدة من اللاجئين تدفقت، الأحوال غدت أَكثر بعثاً علىٰ الرثاء واليأس، وكانت الأمم المتحدة ملتزمة بحماية الناس هناك، ولكنّها عاجزة عن الوفاء بالتزامها. كان الفصل الأَول من مأساة سربرينيتسا موشكاً علىٰ الانتهاء وكان الفصل الثاني سيجري تمثيله بعد سنتين.

خلافاً لحال سيراييڤو بقيت سربرينيتسا بعيدة عن العيون المدقّقة لأَكثر الصحفيين. أحياناً كان بعض المسلمين في سربرينيتسا يقومون بالاتصال عبر الراديو بزملائهم في سيراييڤو، فيبادر هؤلاء إِلىٰ التواصل مع صحفيين غربيين لتزويدهم بالتقارير الصحفية. ثمة اختراق مدهش حصل في نيسان/ أبريل 1993م، حين تمكن صحفي بريطاني، يعمل حراً لصالح ABC، يدعى توني بيرتلي من القيام بأَكثر الأشياء تطلباً للجرأة. تسلل خَلسة، وبصورة غير شرعية، إِلىٰ ظهر حوامة عائدة للجيش البوسني، انزلق إِلىٰ داخل سربرينيتسا تحت النيران الصربية، وبعث بسلسلة من الرسائل الصحفية من هناك عبر الراديو، ما لبثت أَن أدَّت إِلىٰ استنفار اهتمام العالم وشده إِلىٰ الكارثة الجارية علىٰ قدم وساق. وجزاءاً له علىٰ فعلته قامت السلطات الرسمية علىٰ الفور بطرد بيرتلي من الأَراضي الصربية.

بين الحين والآخر في الأَشهر الأولى من الإِدارة الجديدة كنا سنشهد دوّامة من السخط الرئاسي. كان كلنتون سيبدو منفعلاً لحظياً بالبوسنة، غاضباً

---

(6) سلبر وليتل، 270.

من عدم وجود سياسة محدّدة، شديد الاستياء من عدم قُدْرتنا، بسبب الحظر المفروض علىٰ السلاح، حتى علىٰ تمكين الناس المحترمين من الدفاع عن أنفسهم. كان ذلك ضد المبادئ الأمريكيَّة الأساسية باعتقاده. ففي أحد الاجتماعات صرخ قائلاً لو كان الأَمريكيون يقاتلون ضد مضطهدين ظالمين وحاولت أقوى أمم الأَرض منعهم من الحصول علىٰ السلاح، لطار الصواب اللعين من رؤوسهم حقداً وضراوة. برأي المستمعين إليه كان الجزء الأكبر من غيظه موجهاً ضد الأوروپيين الذين كانوا يحولون دون أسهل الردود: دون تطبيق شعار «ارفع واضرب!» غير أَن ذلك لم يفض إِلىٰ أي تغيير في السياسة. كان كلنتون سيتفجر لحظياً، سيمطر سيلاً من اللعنات علىٰ الأقدار والحلفاء، ثم لن يلبث، متذكراً الثمن العسكري، احتمال حصول أضرار سياسيَّة، والعبء الذي سيشكِّله كل ذلك علىٰ برنامجه الداخلي، أَن يتراجع.

لم تكن البوسنة إِلاً واحداً من الإِحباطات المبكرة الكثيرة؛ فإِدارة كلنتون لم تكن قد بدأت بداية ميمونة وسعيدة. كانت للرئيس مشكلات في البداية مع كل من الجيش والكونگرس. ففي أثناء الحملة كان كلنتون قد وعد الأمة بوضع حد للتمييز ضد الشاذين في الجيش. كان قد قطع ذلك الوعد لقطاع جديد ما زال متطوراً من قطاعات الطيف السياسي: قطاع الشاذين الأَمريكيين (مع أفراد أسرهم وأصدقائهم حسب ما كان يأمل). غير أَن الوعد كان أسهل علىٰ مستوى الكلام منه علىٰ صعيد الوفاء به فضلاً عن احتمال تمخضه عن نتائج عكسية بعد الوصول إِلىٰ السلطة. كانت المسألة تعكس سرعة التقلّب الأكبر للمشهد السياسي الأَمريكي الذي بات متزايد الاستناد إِلىٰ مجموعات ضغط قضايا منفردة كانت أحياناً تصب في خانة مصلحة كلنتون والديمقراطيين. فكلما تناول قضية الإِجهاض المتفجرة بالمثل هي الأُخرى، تلك المدعومة من جانب نساء الطبقة المتوسطة العليا، وعدد كبير منهن جمهوريات اسمياً (لأَن نساء الطبقة الوسطى أَصبحن يشكلن كتلة انتخابية

جديدة ذات شأن في أَمريكا)، كان يزداد شعبية حسب استطلاعات الرأي. أَمَّا إِذا تحدَّث علناً عن موضوع الشاذين في الجيش ـ لا حقوق الشواذ بصورة مجردة، التي لم تكن مدمرة بالضرورة بل الشواذ في الجيش تحديداً ـ فإِن المعادلة سرعان ما كانت تنقلب رأساً علىٰ عقب، لأَن هذه القضية كانت تضع قوة سياسيَّة وليدة في مواجهة مؤسّسة قوية ذات أُسس راسخة حيث مسألة نمط الحياة الشخصية تمثّل شيئاً بالغ التعقيد، فاعلة فعلها المؤثّر في المشاعر والأحاسيس الشخصية ذات الجذور العميقة.

كانت تلك قضية قابلة للانفجار بسهولة في وجه كلنتون ولا بدّ من أَن تحدث مشكلة في المجلس حيث كان المحافظون في الكونگرس سيلتحقون بركب المحافظين في الجيش. لم تكن مشكلة كلنتون محصورة بكبار قادة الجيش؛ كانت ممتدة إِلىٰ بعض كبار أعضاء حزبه، من أمثال عضو مجلس الشيوخ سام نان بشكل خاص، هذا الذي كان يحظى باحترام كبير لدى ديمقراطيين وَسَطيين آخرين وكان مرشحاً طليعياً لشغل أَحد المناصب الوزارية. كان نان المرجع الديمقراطي المرموق في حلقة السياسة الدفاعية وقد وقف عملياً في الطرف الآخر.

كان كولن پاول قد حاول تحذير كلنتون ووزير دفاعه المقبل، لَسْ آسپن، من قضية الشواذ. لقد كانت المسألة، باعتقاد پاول، شديدة القدرة الانفجارية بصورة استثنائية، ونقل قناعته إِلىٰ كلنتون في لقائهما الأَول خلال الفترة الانتقالية. وپاول نفسه كان محافظاً جداً حول هذه القضية، وثمة أصدقاء يتذكّرون مدى غيظه حين قيل إِن استيعاب الشواذ في الجيش كان شبيهاً باستيعاب الزنوج قبل حوالي أربعين سنة. علّق پاول بقَدْر غير قليل من الغضب نافياً أَن يكون الأَمر كذلك. كان پاول يتحدَّث أَيضاً باسم زملائه ممن كانوا راسخي الحماس حول الفكرة. فالمعارضة من جانب هيئة رؤساء الأركان المشتركة وفي مجمل السلك العسكري كانت مؤهلة لأَن تتجلى، برأيه، بصورة

قوية جداً جداً لأنها تمس جنس الإنسان، وتثير قضايا أكثر حسماً وحساسية من تلك التي سبق للاندماج العنصري أن أثارها. كان پاول مؤيداً «الشعار: لا تسأل، لا ترد!» الذي لن يرضي أحداً ـ من شأنه ألا يرضي أحداً علىٰ الطرفين كليهما ـ غير أنّه سيكون، بالتأكيد، ناجحاً. فالجيش كان، حسب اعتقاده، سيتكفّل بالباقي، انطلاقاً من منطلقاته الفطرية القائمة علىٰ مبادئ العدل والإنصاف. لقد ألحّ علىٰ الرئيس أن يُبْقِيَ قضية الشواذ علىٰ نار هادئة.

كان پاول قد اقترح علىٰ كلنتون أن يعلن، لدى قيامه رسمياً بإعلان تسميته وزيراً للدفاع، أيضاً أن الوزر الجديد كان سيدرس الموضوع بعمق وسيتقدّم باقتراحاته خلال ستة أشهر. كان من شأن ذلك أن يُكْسِب كلنتون بعض الوقت وبعض التغطية علىٰ الأقل. وأضاف پاول يقول: «حذار من جعل قضية الشواذ الجواد الأول الذي تطلقه في تعاملك مع القوّات المسلّحة!». توهم پاول أن كلنتون اتفق معه في الرأي، غير أنّه كان علىٰ خطأ[7]. لم يتردّد كلنتون في اقتحام الموضوع، تلقى ضربة أدمت أنفه، تراجع، بل ووضع نفسه في موقف دفاعي أمام القطاع العسكري القوي المعادي لسياسته من الأساس.

فيما بعد أُصيب أنصار كلنتون العاملون في مجلس الأَمن القومي بالحيرة حول الأَسباب التي دفعت الرئيس إِلىٰ اقتحام القضية رغم مخاطرها الواضحة. كانت محكومة بأن تجر عليه جميع صنوف المتاعب مع الجيش. واكتشف هؤلاء أَن القرار كان قراراً اتخذه كلنتون ومستشاروه السياسيون وحدهم. لم تكن ثمة أية مساهمة من جانب أعضاء مجلس الأَمن القومي. كان السياسيون يريدون تحقيق واحد من وعود الحملة واعتبروا الشواذ في الجيش مجرد مسألة سياسيَّة قوميَّة عريضة، لا مسألة من شأنها أَن تثير صراعاً صعباً مع قمة الجهاز البيروقراطي. قضية من شأنها أَن تجعل فريق كلنتون حتى أَكثر هشاشة أمام

---

(7) پاول، 564.

منتقديه وأن تُضْعفه في علاقته الإجمالية مع الجيش، حيث كان موقفه مهزوزاً من الأساس، حيث لم يشكل قط أَي رقم في المعادلة.

شكّلت مشكلة الشواذ في الجيش خطيئة كبرى، إلاً أنها لم تكن إلاً أول المطبات السياسيَّة الكثيرة التي وقعت فيها الإدارة الجديدة. فكل ما كان قابلاً للتعثّر تعثَّر في تلك الأشهر القليلة الأولى. كان مأزق كلنتون في الإدارة متأثِّراً، بصورة حتمية، بتقلّبات السياسة الأمريكية من جهة كما بقواعد الحزب الديمقراطي المتشظية من جهة ثانية. وقد كان أَيضاً يشي بشيء عن الموهبة المطلوبة لخوض سباق الرئاسة من ناحية، والموهبة المطلوبة للحكم والإدارة من الناحية الأُخرى. بأكثر المعاني بدائية لم يكن فريق كلنتون علىٰ المستوى المطلوب من السرعة. فالرئيس نفسه كان، رغم قدرته الفائقة، قد عمل في ساحة أضيق وأصغر بكثير حيث كان تحدي مستوى مهارته متعذراً. ففي آركنسو كان يعرف عن القضايا وعن الناس الذين يواجهونها أكثر من أي شخص آخر؛ لم يكن بحاجة إلىٰ الكثير من النصح والمشورة، فيما عدا مشورته هو ومشورة ربما زوجه. علىٰ العموم، كانت قراءاته السياسيَّة أسرع وأكثر دقة من قراءات الكثير من المستشارين المزعومين. أَمَّا الآن فقد كان يجري علىٰ مسار أسرع بما لا يقاس وفي مجالات وقطاعات لم يكن عارفاً بالكثير من اللاعبين شخصياً، وحيث بقيت كثرة من القضايا غريبة ومجهولة ودائبة علىٰ الحركة بسرعة مدوِّخة.

قبل تولي بيل كلنتون رئاسة الجمهوريَّة باثنتين وثلاثين سنة، كان جون كندي قد اقتحم البيت الأَبيض، واعداً بتمثيل جيل جديد. جاءت جماعة كلنتون، هي الأُخرى، بمن فيها الرئيس والسيدة الأولى، معلنة، كما سبق للزوجين كندي قبلهما أَن فعلا، عن مجيء جيل جديد وواعدة بقيادة أَكثر حداثة في حقبة ما بعد الحرب الباردة الجديدة. كانت الجماعة، حسب رأيها وحسب رأي الجمهور الأَمريكي أَيضاً، تمثّل جيلاً أقل انسحاقاً تحت وطأة

التوترات التي سبق لها أَن مزَّقت العالم كل هذه الفترة الطويلة من الزمن. كان هؤلاء يظنون أنّهم أَكثر التصاقاً بالبلد من أولئك الذين سبقوهم. ففي أثناء الحملة كانوا قد تحدوا الحكمة المتداولة الموروثة ـ وخصوصاً فيما يتعلّق بتاريخ كلنتون الڤيتنامي ـ وكسبوا الرهان. لا غرابة، إذن، أنهم كانوا ينظرون بشيء من الازدراء إِلىٰ واشنطن التقليدية المحافِظة ولم يكونوا يريدون أَن يبالغوا في الإِكثار من ذوي الروابط الحلقية القديمة في هيكلية الفريق.

سبق لريگان وزملائه في أقصى اليمين أن هاجموا واشنطن بوصفها مدينة أثقلت كاهل الشعب الأَمريكي بقدر مُبالغ فيه من الحكم والإِدارة وبفيض مماثل من القوانين والتشريعات الكثيرة. أَمَّا كلنتون وزوجه فقد رأيا واشنطن من منظار مختلف، منظار يكاد أَن يكون ليبراليا ـ شعبوياً، بوصفها مدينة متخمة بالكثير من سماسرة الصفقات الأغنياء ذوي الجذور الراسخة الذين يمثِّلون مصالح بالية أَو سلبية، مدينة بحاجة إِلىٰ تطهير. كانت ثورتهما أشبه بالمستحيلة، وليس غريباً أنّهما، حين فازا أخيراً، جلبا معهما إِلىٰ البيت الأَبيض قَدْراً من الصَّلَف حول صحة آرائهما، وعدم صحة وجهات نظر معارضيهما، مع إِحساسهما بأنّهما كانا أقرب إِلىٰ نبض قلب الوطن من منتقديهما. أحياناً كانا علىٰ صواب، وأحياناً كانا علىٰ خطأ. غير أَن الفرق بين الرئاسة علىٰ المستوى النظري والرئاسة علىٰ الصعيد الفعلي والعملي كان هائلاً. بعد حوالي أربعة عشر شهراً من تولي كلنتون للرئاسة، التقى ديڤيد أوين، وقد تعرّضت خطته السلمية للنسف عملياً، بالرئيس في الاحتفال الذي تم في واشنطن لإِعلان تأسيس الاتحاد الكرواتي ـ البوسني، وذكَّره بما جرى في تموز/ يوليو 1992م حين كانا يفضلان استخدام القوّة الجويَّة في البلقان. جاءت ملاحظة الرئيس دقيقة، إذْ قال: «إِنّها أصعب بما لا يقاس وأنت في الحكم»[8].

---

(8) ديڤيد أوين، 289.

في البداية لم يكن أَحد ليستطيع أَن يلزم كلنتون بالمواعيد. كان دائم التأخر. بدا عازماً في كل اجتماع علىٰ إِظهار مدى معرفته بكل القضايا. افتقارُه للانضباط فقط كان قادراً علىٰ مواكبة موهبته. كانت الاجتماعات تطول وتطول، لأَن الرئيس كان يتكلم ويتكلم في المقام الأول. ثمة واحد من أقدم أصدقاء كلنتون يدعى ماك ماكلارثي، كان الجميع متفقين علىٰ اعتباره إِنساناً محترماً، غير أنه غير مناسب لوظيفة رئيس جهاز البيت الأَبيض القاتلة، الذي تمثَّلت أهم مواصفاته بالقُدْرة علىٰ إِخبار الناس بتعذّر لقائهم مع الرئيس. يوماً بعد يوم باتت الإِدارة متخلّفة عن برنامجها المنظور الخاص مع الوقوع في المزيد من الأخطاء. وإِذا كانت العثرة الأولى مرتبطة بالشواذ في الجيش، فقد جاءت الثانية مرتبطة باختيار امرأة متمتعة بقدر غير قليل من الشهرة لمنصب وزاري. فإِحدى الصفقات غير الرسمية مع الجماعات النسوية التي كانت ذات باع طويل في انتخاب كلنتون، كانت تقضي بذهاب أَحد المناصب الوزارية الرئيسية إِلىٰ امرأة. كان من شأن ذلك الاختراق الكبير أَن يتحقق في وزارة العدل؛ حيث النساء كن متقدمات في المهن الحقوقية أَكثر مقارنة بعدد من المهن الموازية. غير أَن المرشحة الأولى للنيابة العامة، زو بيرد، امرأة شابة ذات سيرة ممتازة، هُوجمت وجرى إِسقاطها حول قضية غير مسبوقة. أقدمت، مع زوجها، ليس فقط علىٰ استخدام مهاجرين غير شرعيين، بل وعلىٰ الامتناع أَيضاً، حتى الدقيقة الأخيرة، عن تسديد رسوم الضمان الاجتماعي عنهم. غير أَن بيرد الواثقة من مؤهلاتها والغافلة عن مدى تشكيلها لهدف نموذجي بالنسبة إِلىٰ خصوم رئيس الجمهوريَّة، مثلت أمام اللجنة العدلية في مجلس الشيوخ، حيث أخطأت تفسير لباقة أعضاء اللجنة إِذْ اعتبرتها تأييداً لها من جانبهم. ولدى تصاعد الجدل امتنعت عن سحب اسمها. اضطرّت الإِدارة أخيراً لإِبعادها عن خشبة المسرح. كانت المرشحة المحتملة الثانية، كيمبا وود، تعاني من مشكلة مماثلة. فقد سبق لها، هي وزوجها الكاتب مايكل كرامر، أَن استخدما مقيمة غير شرعية لرعاية الأطفال، في زمن سابق حين لم يكن مثل هذا التصرّف ضد

القانون بالفعل، وكانا قد سدّدا رسوم الضمان الاجتماعي عنها. غير أَن الأَمر كله كان شديد التشوش فضلاً عن أَن الأجواء كانت مشحونة برائحة الدم [كان الخصوم قد شعروا بوجود نقطة ضعف]. لم تكن وود راغبة في أَن تكون طرفاً في عمليَّة مجابهة مريرة، فسارعت إِلىٰ سحب اسمها.

وبالتالي فإِن القاعدة السياسيَّة التي يستند إِليها كلنتون بدأت تتكشف عن أنّها مهزوزة منذ البداية. إِن الصورة هي الدافع المحرّك للسياسة، والمواقف السياسيَّة باتت سريعة التقلّب أَكثر مما كانت في أَي وقت سابق. ففي عصر ما قبل التلڤزيون، حين كانت البلاد أقل ثراء، ظلّت السياسة مدفوعة بالمحرّك الاقتصادي في المقام الأول، وكانت مختلف الجماعات الناشطة سياسياً مستندة بقَدْر أكبر إِلىٰ نوع من الثبات ذي الطراز القديم، وعاكسة، بالتالي، لمثل هذا الثبات. كانت استجاباتها لأية مجموعة جديدة من الظروف السياسيَّة قابلة، إِلىٰ حد كبير، للتنبؤ، وقلما دعت الحاجة إِلىٰ استطلاعات رأي لمعرفة المعادلات المتبدلة من يوم إِلىٰ آخر. ومع حلول التسعينيّات لم يعد ذلك صحيحاً. ثمة قضايا أُخرى، اجتماعيَّة ـ ثقافية بالدرجة الأولى، بدأت تكتسب، من جميع النواحي، أَهميَّة توازي أهميَّة الاقتصاد، وكثيراً ما كانت مرتبطة بأحداث نشرة الأخبار المسائية.

كانت الهشاشة التي شكّلها هذا كلّه بالنسبة إِلىٰ أي سياسي حديث ملموسة وظاهرة للعيان، وبصورة لم يسبق لها مثيل في الأشهر الأولى من إِدارة كلنتون. لا بدّ للقواعد المتذبذبة من أَن تفرز ساسة سريعي التقلّب؛ لا بد للساسة المتقلبين، بدورهم، من أَن يزرعوا بذور عدم الثقة في قواعدهم ويجعلوها، ربما، أَكثر تذبذباً وتأرجحاً. كان كلنتون سيسارع إِلىٰ الشروع بالشكوى من الأمزجة المتطايرة للناخبين. باتت الطاقة السياسيَّة المتولّدة عن الومضة السريعة لإِحدى الصور في النشرة المسائية قابلة لأَن تتغيَّر مباشرة تحت تأثير صورة مختلفة كلياً في برنامج إِخباري لاحق. كانت كتلة الناخبين، مثلها

مثل الأمة، قد أَصبحت أَكثر زئبقية. باتت الولاءات أقل اطراداً، خصوصاً ذلك النوع من الولاءات التي ربطت كلنتون بهذه الدوائر والقواعد الجديدة. لقد كان كلنتون هو المستفيد من هذه الظاهرة خلال الحملة ـ ظاهرة التدهور السريع لشعبية بوش فيما بعد حرب الخليج ـ أَمَّا الآن فقد بدأ يدفع الثمن كرئيس للجمهوريَّة.

بدت الدورة متكاملة. فبسبب التكنولوجيا الجديدة، كان التطوران الأهم في السياسة الأَمريكيَّة متمثلين باستخدام استطلاعات الرأي من ناحية والإِعلان التلفزيوني من ناحية ثانية، المترابطين في التركيز علىٰ رأي جمهور الناخبين في لحظة معينة والمسارعة إِلىٰ توظيف ذلك والتلاعب به. ولكن هل كانت مشاعر جمهور الناخبين هي تلك فعلاً؟ ما مدى عمق تلك المشاعر؟ وهل يبقى الجمهور راغباً باستمرار في الحصول علىٰ الرعاية بهذه الآنية؟ فالجمهور الذي بدا طالباً من ساسته أَن ينحنوا، قد يصبح، بعد شهر أَو شهرين، متشككاً إِزاء أَي سياسي سارع إِلىٰ الانحناء. بات يتعيّن علىٰ الساسة أَن يكونوا أَكثر فطنة وحساسية إِزاء استطلاعات الرأي، وقد بدوا أَقل رسوخاً والتصاقاً بالأَرض جراء فطنتهم ورشاقتهم. لقد بدت الظاهرة آلية غير عاكفة، في جوهرها، علىٰ إِيجاد أَي تجاذب بين السياسي والناخب ومنطوية علىٰ قدر هائل من احتمالات نزعة الشك الكلبية Cynicism والريبة المتبادلة.

لعل الوقوف علىٰ مدى سرعة تطاير القضايا والطابع شبه المذبذب لكتلة الناخبين، هو الذي جعل إِدارة كلنتون فريدة التعويل علىٰ فرسان وسائل الإِعلام من الخبراء والمستشارين واختصاصيي استطلاعات الرأي بالشكل الذي رأيناه. صحيح أَن إِدارات أُخرى كانت مدفوعة بعامل الصورة ـ فتلك هي طبيعة عصر التلفزيون ـ غير أَن أَية إِدارة أُخرى لم تكن مدفوعة بعامل استطلاعات الرأي. لقد شكَّل ذلك تسليماً بهشاشة هذه الإِدارة، اعترافاً بضعف (غياب جذور) قواعدها المختلفة، وإِقراراً واقعياً بحقيقة أَن السياسة الأَمريكيَّة كانت قد تغيَّرت

تغيّراً لا رجوع عنه. صارت إدارة كلنتون تعتقد أن كتلة الناخبين إن هي إلاّ صورة عن وسائل الإعلام وعن رياح سياسيَّة دائمة التحوّل، مسوقة بآخر الأحداث التي تصوّرها شبكات التلفزة. ومع مرور الوقت باتت كتلة الناخبين، ووسائل الإعلام بالتأكيد، تعتقد بأن الإدارة أصبحت شديدة التناغم مع هذه الأهواء والنزوات، ولن يكون الرئيس مستعداً للمبادرة إلىٰ فعل أي شيء أو الذهاب إلىٰ أي مكان دون أن يكون خبراء استطلاعات الرأي بجانبه.

عُرفت الظاهرة سياسياً باسم عامل السي. إن. إن. في إشارة إلىٰ شبكة التلفزة المكرّسة للأخبار التي دأبت علىٰ التقاط راهنية النبض المتغيّر للسياسة الأمريكيَّة وعكسها. فقناة السي. إن. إن. باتت، من خلال تقديم صورة واحدة غير متملقة، قادرة علىٰ إطلاق دورة إخبارية رئيسية، مثلما ستفعل نوافذ إخبارية أُخرى حاذية حذوها، معتمدة سياسة كانت قد بدت ناجحة، بين عشية وضحاها، تبدو أشبه بالكارثة. ولا غرابة في أن كلنتون، وهو المطّلع بعمق علىٰ حقيقة جميع القوى الجديدة في الحياة السياسيَّة الأمريكيَّة، كان بالغ الحساسية حتى إزاء أصعر ومضة تغيير صادرة عن السي. إن. إن. أو الشبكات الأُخرى.

في الأيام الأولى من إدارته، كان كلنتون يغضب أحياناً من ضيق الخيارات المفروضة عليه. ومن الأشياء التي أزعجته، وبدا محقاً في ذلك، أنّه، خلافاً لحال رؤساء آخرين، لم يحصل علىٰ أي شهر عسل أو فترة سماح مجانية في بداية رئاسته. فالتحزب كان ضارياً من البداية. وقد كان، في جزء منه، ناجماً عن الدعاية التلفزيونية السلبيَّة، التي كانت قد رفعت نبرات الصوت المعادية إلىٰ مستوى نوع من العمل الفني. وجزء منه جاء من قوة الحديث عبر الراديو الذي كان قد أصبح قوة سياسيَّة قوميَّة جديدة جبّارة. وإذا كانت وسائل الإعلام التقليدية ـ المطبوعات النخبوية وشبكات التلفزيون القوميَّة، الوَسَطية سياسياً عموماً ـ قد بدت علىٰ الدوام مفرطة في ليبراليتها بنظر اليمين، فإن كلام

الراديو جاء بالتأكيد شيئاً مختلفاً تماماً علىٰ الصعيد الإِيديولوجي. لقد كان يمينياً، يمينياً شعبوياً، وكان غاضباً.

كان خطاب الراديو يمثِّل شريحة جديدة من منتسبي طبقة متوسطة، ومتوسطة ـ دنيا من أَمريكيين ساخطين، بأَكثرية مؤلَّفة من رجال بيض، باتوا يعتقدون بأنّهم أَصبحوا مهمَّشين بفعل الثقافة الراهنة المستهزئة بما يطلق عليه اليمين اسم قِيَم العائلة من جهة، وتحت تأثير الاقتصاد الراهن المائل إِلىٰ تفضيل أولئك الحاصلين علىٰ نوع معين من التعليم (بمن فيهم النساء) علىٰ أولئك المحرومين من مثل ذلك النوع من التعليم (من ذوي الياقات الزرقاء وبعض البيض من الطبقة الوسطى في الغالب) من جهة ثانية. كان هذا الخطاب حقداً علىٰ جزء كبير من برنامج الطبقة الوسطى والوسطى ـ العليا المدينية والحضرية؛ كثيراً ما بقي ريفياً محصوراً بالبلدات الصغيرة ومبالغاً في محليته. كان أَيضاً مناوئاً للحركة النسوية، لحركة الشواذ، لليبرالية، بما جعله، بالتالي، عدواً شرساً لكلنتون. لم يسبق لجميع قواعده أَن كانت في ڤيتنام، وإِن بدت أحياناً وكأنّها كانت هناك، مشيرة إِلىٰ البلد، في الغالب، باسم **نام**. كثيرون من هؤلاء كانوا صغار السن بالنسبة إِلىٰ تلك الحرب، وبعضهم ممن كانوا في سن مناسبة لم يتنازلوا إِلىٰ مستوى الذهاب (لأَن إِدارتها كانت بالغة السوء، كما سيبرِّرون لاحقاً). كان خطاب الراديو يوجّه كلامه إِلىٰ أناس مؤمنين بأنّهم الرجالُ والنساءُ المنسيون في أَمريكا، أشخاص بيض يخافون الله، مواطنون صالحون يدفعون الضرائب ما زالوا دائبين علىٰ التمسّك بقِيَم الماضي البسيطة العائدة للبلدة الصغيرة، بتلك القِيَم الموروثة عن الآباء (والأمهات).

وفي وقت كان شاهداً علىٰ حدوث تغيير في الثقافة وصعود مسرحي مثير لنفوذ النساء الاقتصادي والسياسي، أَصبح كلنتون الهدف النموذجي لأَساطين الخطاب الإِذاعي، خصوصاً راش ليمبو، الذي كان يتوهم أنّه خزّان جميع الفضائل الوطنية الأَمريكيَّة المثالية والإِيجابية (غير أنّه لم يتمكّن، بالطبع، من

إِدراج اسم ڤيتنام في قائمة الفضائل بسبب الإِصابة في ركبته، كما قال، تلك الإِصابة الناجمة عن ممارسة لعبة كرة القدم). لقد بدت شعبية الرجل متصاعدة مع صعود كلنتون إِلىٰ البيت الأَبيض. فالاطراد والضراوة اللذين طبعا الهجوم الذي تعرّض له الزوجان كلنتون كلاهما عبر كلام الراديو، فضلاً عن الصفة الشخصية للهجوم كانت أشياء جديدة نسبياً في السياسة الأَمريكيَّة. وإِذا كان ليمبو في طليعة أمثاله من حيث الشعبية علىٰ الصعيد القومي فإِن لكل سوق إِذاعية رئيسية فارسها الخطابي المحلي الذي يبادر، لدى قراءة الجريدة اليومية أَو متابعة نشرة الأخبار المسائية، إِلىٰ الرد والتعليق بغضب، مدركاً أَن لغضبه قُدْرةً علىٰ التناغم المباشر مع جمهور مستمعيه.

من الصعب تحديد الأَسباب الكامنة وراء انحدار الأشياء كلها إِلىٰ مثل هذا الدرك من البشاعة. كان جزء منها متمثّلاً بالسياسة الحديثة، القائمة علىٰ الحملات الدعائية التي باتت خالية من قيود السياسة الحزبية التقليدية، والتي كانت أَكثر دناءة من حيث الجوهر مما كانت قبل خمس عشرة أَو عشرين سنة. وتمثَّل جزء آخر منها بالطبيعة المتغيِّرة للقضايا. فمع تزايد انشغال الأمّة بالهواجس الثقافية والاجتماعيَّة، أَصبحت السياسة الأَمريكيَّة أشد انفعالاً وأَكثر شخصية، وكأن تلك الأمور ليست آراء مجرّدة حول أجور أعلىٰ لعمال ذوي ياقات زرقاء أَو عن سياسة خارجيَّة معينة، بل خلافات داخل هذه العائلة أَو تلك، وقد كانت، في الحقيقة، كذلك. أخيراً كان جزء من الأَسباب متمثّلاً بطبيعة كلنتون نفسه. فبما أَنَّه أبيض، ليبرالي من الجنوب، ونظراً لأَن الموجة الصاعدة من المعارضة الثقافية صادرة، في الغالب، عن محافظين جنوبيين، بيض، أناس بدت خلفياتهم شبيهة بخلفيته، فقد توقّع منه هؤلاء أَن يقف في صفهم في المعركة التي يخوضونها؛ وإِذا عارضهم، فقد باع نفسه للشيطان، وليس أقل من خائن. لم يكن في نظرهم منذ البداية سوى ويلي «الغَرَيبة» Slick Willie. قد يتظاهر بأنه ديمقراطي من الجناح الوَسَط، غير أَن البرهان علىٰ

تحالفه المكشوف مع الجناح الثوري في الحزب متمثّل، بنظرهم، بزواجه من هيلاري **رودهام** كلنتون من كليتي حقوق ونسلي وييل. لقد كانت، حسب رأيهم، تجسيداً حياً ونموذجياً لكل ما هو خطأ في السياسة الأَمريكيَّة.

عند تولي كلنتون للسلطة كان المناخ السياسي أقسى مما توقعه الجميع، وما لبث أَن ترك بصماته علىٰ كل من الرئيس والسيدة الأولى، اللذين بدءا، تحت الضغوط، ينقطعان عن الكثير مما كان حولهما ويعتبران نفسيهما ضحيتين. كانت ثمة صيغة محددة للآلية: بدأت، باعتقاد بعض العاملين في البيت الأَبيض، مع السيدة كلنتون المتعرّضة لنوع بالغ القسوة من الاستقبال في واشنطن، والمعتبرة لدى نقّادها، فيما يخص القضايا الأَكثر إِثارة لاهتمام الناس ـ قضايا الإِجهاض، الحركة النسوية، وحقوق الشواذ ـ ذات نفوذ استقطابي. وبعض المتعاملين مع الرئيس يومياً في تلك الفترة كانوا يعتقدون بأنّ هناك آلية معينة تفعل فعلها، فتركز جزء من مهمتهم علىٰ إِمتاعه لإِخراجه من بعض الحالات المزاجية. كان الرئيس دائم النزوع إِلىٰ نوع من الإِشفاق الذاتي الذي كان لا يلبث أَن يتفاقم جراء المداعبات الجانبية المنتظمة مع زوجه، التي كانت تعاني من الكثير من الإِحباطات التي تخصّها، السياسيّة منها، والشخصيَّة أَيضاً كما سيتضح لاحقاً. قيل إِن الرئيس والسيدة الأولى كانا، في الغالب، يبدءان يومهما بتناول طعام الفطور معاً، وكانت هي تبادر إِلىٰ التقاط مقال أَو تعليق في **التايمز** أَو **الواشنطن بوست** وتنقضُّ عليه بحديثها عن الظلم الكبير الحاصل ـ عن مدى مبالغة الصحافة في الاتصاف بعدم الإِنصاف علىٰ صعيد التعامل معه (هلاّ قرأتها؟!) دأبت السيدة الأولى علىٰ استثارة مشاعر الرئيس حول مشكلات لن تلبث أَن تحل نفسها بنفسها ومن الأفضل له أَن يهملها.

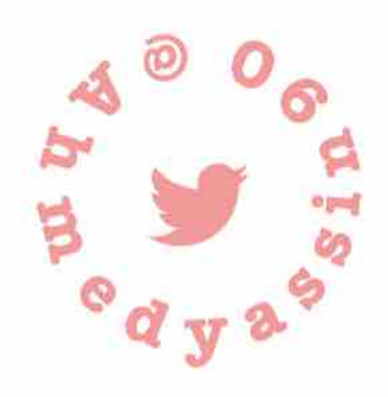
بالنسبة إِلىٰ بعض كبار مسؤولي الجهاز، ممن كانوا شديدي الحرص علىٰ إِخراجه من مزاجه السيء في مثل هذه الساعة المبكرة من النهار، كان ما تفعله هيلاري تبديداً للوقت والطاقة. فجميع الإِدارات تعين عليها أَن تسلّم باحتمال

تعرّضها، بداية، للنقد في الكثير من المقالات والتعليقات الصحفية غير المتعاطفة، الجاهلة، أو المعادية، خصوصاً في الجولة القصيرة. وكان من شأن المبالغة في الاهتمام بالردود اليومية علىٰ الأفعال الرئاسية أن تكون كارثية، بالنسبة إلىٰ رئاسة كرئاسة كلنتون متناغمة سلفاً مع كل هبوط أو صعود في درجة الحرارة السياسيَّة أو استطلاعات الرأي علىٰ الصعيد القومي. فأحد أول قوانين السياسة هو الامتناع المطلق عن الدخول في معارك مع أناس يشترون الحبر بالبراميل.

جاءت اشتباكات إدارته المبكرة وهزائمها ـ التأثير العكسي والتراجع فيما يخص الشواذ في الجيش، والانقلاب علىٰ كل من القرارين المتعلقين بزو بيرد وكيمبا وود ـ لتؤكد مدى ضيق هامش المناورة والفوز بالنسبة إلىٰ كلنتون، مدى هشاشة التأييد الذي حصل عليه عموماً، ومدى قابلية السياسة الأمريكيَّة للانفجار بعد أن باتت القضايا الثقافية والداخليَّة تحتل مركز الصدارة. جاءت تلك الاشتباكات والهزائم لتطرح السؤال عن الهوية الحقيقية لتيار الوَسَط الفعلي في السياسة الأمريكيَّة وعن مدى قرب إدارة كلنتون من هذا التيار. من الواضح أن كلنتون أراد أن يكون رافع راية القوى الجديدة في السياسة الأمريكيَّة وأن يكسب أكبر قدر ممكن من المكاسب والفوائد من تلك القوى، دون التهور في العلاقة معها أو دون الاضطرار لدفع ثمن سياسي باهظ لا يُطاق. غير أن تلك القوى كانت لا تزال في طور التشكّل. وعمليَّة الاستفادة منها لم تكن تستدعي وجود سياسي مؤمن، مخلص، ثابت علىٰ المبدأ خالد الالتزام، مستعد للتمسّك بالخط مهما كان الثمن، بمقدار ما كانت تتطلب بروز سياسي يتقن فن الجمع بين الشعوذة والرقص علىٰ الجبال (الرقص علىٰ النقر).

ليس، ثمة، أي شك حول أن كلنتون كان سياسياً من هذه النوعية. انتُخب بنسبة 43 بالمئة من الأصوات فقط. كان النموذج المثالي لزعيم وصل إلىٰ البيت الأبيض سيداً لهذا البيت قبل استكمال تكتيل جيشه وتجميع صفوف

هذا الجيش. أَمَّا الهزائم والعثرات المبكرة مع نزوعه إِلىٰ التراجع فلم تؤد إِلىٰ ترسيخ ركائز رئاسته. إِن رائحة سياسيَّة بالغة البؤس والشؤم قد فاحت منه، في حقيقة الأَمر، ألا وهي الرائحة التي تركت انطباعاً يشي ليس فقط بأنّه، هو وإِدارته، كان دون مستوى المهمة، بل وبأنّه مستعد، حين يتعرّض للضغط والمعارضة، ربما للانحناء السريع، وهذا أسوأ.


@Ahmedyassin90

الفصل التاسع عشر

ليس ثمة أَي شك في أَن المعادلة السياسيَّة التي واجهها كلنتون كانت بالغة الصعوبة. فقد واجه، وهو المفعم أملاً بأن يكون الرئيس الأَول الذي يركّز علىٰ القضايا الداخليَّة فيما يزيد عن ثلاثين سنة، مشكلة شديدة الإِزعاج لدى شروعه بتذوق طعم المنصب ألا وهي مشكلة العجز في الموازنة. برأيه كما برأي مستشاريه الاقتصاديين، كانت تلك هي الهدية الكبرى الأخيرة الموروثة عن رونالد ريگان، وجورج بوش، بدرجة أقل، من قبل الإِدارة الديمقراطيَّة الجديدة، بل وربما حتى أَحد أَسباب انتخاب كلنتون. اعتقد البعض أَن إِنفاق ريگان الدفاعي الزائد الذي كان مسؤولاً إِلىٰ حد كبير عن العجز، كان أَيضاً بين القشَّات التي قصمت ظهر الإِمبراطورية السوڤيتية وأطلقت مسلسل الأحداث التي ساعدت علىٰ انتخاب كلنتون.

ثمة ساسة واقتصاديون آخرون، وكثيرون منهم محافظون تماماً، ظلوا علىٰ الدوام يعتقدون بأن اقتصاد ريگان القائم علىٰ طرف العرض ـ علىٰ خفض مستوى ضرائب الدخل الشخصي وصولاً إِلىٰ حفز الاستهلاك الداخلي ـ كان نظاماً فلسفياً مفرطاً في نظريته وغير قابل للنجاح. حتى جورج بوش كان قد أطلق عليه في 1980م اسم اقتصاد الشَّعْوَذَة قبل وضع اسمه علىٰ قائمة ريگان، وصيرورته، وإِن بصورة غير طوعية وغير مريحة، أَحد مؤيديه. من المؤسف أنّه كان أنجح علىٰ الورق منه علىٰ أَرض الواقع. وعلىٰ الرغم من أَن الجمهوريين

كانوا في الماضي قد انتقدوا الديمقراطيين علىٰ تمويلهم بالعجز، فإِن تنامي العجز أكثر فأَكثر كان في ظل ريگان حتى أَصبح قبيل انتهاء رئاسته، جزءاً عضوياً من الموازنة نفسها. فحين تم انتخاب ريگان سنة 1980م، كان العجز 59 ملياراً من الدولارات، وهو رقم متواضع لدى مقارنته بالناتج القومي الإِجمالي. أَمَّا عند انتخاب كلنتون فقد كان متوقعاً لعجز الميزانية أَن يصل إِلىٰ 300 مليار، والدين القومي البالغ 914 ملياراً لدى تولي ريگان للسلطة واصلاً إِلىٰ أربعة تريليونات من الدولارات. ربما كان ذلك صباحاً في أَمريكا بالنسبة إِلىٰ ريگان، غير أَن الفاتورة كانت ستبقى مستحقة الدفع في الليلة التالية بالنسبة إِلىٰ الحزب.

مع حلول أواسط فترة حكم بوش، بدأ الاقتصاد يتباطأ ويكسد كما كان متوقعاً. كان جزء كبير جداً من موارد الأمة مخصصاً لخدمة الدين. لم يكن جزء قليل من النجاح الذي تحقَّق لروس پيرو في حملته العجيبة والخاطئة، آتياً من بياناته وجداوله الإِحصائية البسيطة، بل وشبه البدائية في الحقيقة ـ كما لو كانت لُعَبَ تلاميذ مدارس ـ ولكنها ناجحة. كانت تسلط الضوء علىٰ أَن الأَمريكيين كانوا يعيشون في بحبوحة، غير أَنهم كانوا يحيلون الشيك إِلىٰ الأجيال القادمة. كان لي ياكوتشا، الذي كان آنذاك أشبه بالبطل القومي لاضطلاعه بمهمة الإِنعاش الصناعي لكرايزلر، قد أصاب كبد الحقيقة حين قال بصورة شبه عابرة علىٰ إِحدى الشاشات التلڤزيونية إِن الأَمريكيين كانوا يستخدمون بطاقات اعتماد أولادهم. إِن جزءاً كبيراً من الوول ستريت، رغم أَنَّه جمهوري بالاسم، وافق علىٰ هذا الكلام، وبدأ، مع حلول سنة 1992م يعبّر عن عدم ارتياحه إِزاء العجوز المتصاعدة. ثمة أناس متنفذون هناك ـ من نوعية الرجال والنساء الذين يلوذ بهم حيتان الوول ستريت أوقات الأزمات ـ رأوا أَن علىٰ أية إِدارة جديدة أَن تتحلى بقَدْر أكبر من الانضباط وأن تقلّص العجز. ومن شأن ذلك أَن يبقى صحيحاً مع أية إِدارة دون تمييز، ولكن مع الإِدارة الديمقراطيَّة خصوصاً، لأَن الوول ستريت، رغم كونه مستفيداً في الغالب حين

يكون الديمقراطيون في السلطة، ميّال لأَن ينظر إِليهم نظرة ريبة إِيديولوجية متأصّلة.

ينبغي أَن نلاحظ أَن ترويض العجز يجب أَن يتم ليس فقط في بلد يشهد تصاعد مشاعر العداء للضرائب، بل وفي بلد قامت فيه سنوات ريگان بغرس مقاومة الضرائب عميقاً في تربة ثقافة أَحد الحزبين السياسيين، في عقول الجمهوريين، وجعلت الديمقراطيين يتجنّبون اتخاذ أية خطوة قد تبدو كما لو كانت تؤدي إِلىٰ زيادتها. ما من قضية قدمت نفسها جاهزة لمهارات المستشارين السياسيين الحديثين وزملائهم المتخصصين في مجال الإِعلان والدعاية مثل لقطة صوتية وجيزة، تبسيطية تبين كاسب أجر غاضب ولكنه عادي، مندساً بين أفراد أسرته، شاكياً من أَن فلاناً أَو علاناً من المرشحين قد زاد من ضرائبه.

قبل أربع سنوات، فيما كانوا موشكين علىٰ تولي السلطة، كان أعضاء فريق بوش قد عبّروا عن إِدراكهم لحقيقة المشكلة التي باتت جماعة كلنتون يواجهونها الآن بالذات. غير أَن بوش، في محاولة منه للاحتفاظ بعباءة ريگان (والنجاة من مخاطر أَي نيو هامپشاير محافظ)، كان قد قطع ذلك الوعد الشهير القاضي بعدم رفع الضرائب والذي كان سيجد نفسه لاحقاً أسيراً له. فحين انتُخب بوش وموشكاً علىٰ استلام السلطة، قام ليون پانيتا، وهو ما يزال عضو كونگرس، وشخصية مفتاحية، بالمناسبة، بعد أربع سنوات، في وضع ميزانية كلنتون، بزيارة دارة نائب الرئيس، حيث كان بوش ما يزال مقيماً، للحديث عن التخطيط الاقتصادي. وقد فعل ذلك تلبية لطلب من زميله الجمهوري في الكونگرس، سوني مونتگمري، وقام پانيتا بإِفهام بوش وطاقم مستشاريه الاقتصاديين بقدر ما استطاع من صراحة ووضوح أَن عليهم أَن يضعوا أيديهم علىٰ العجز ويعالجوه. وإِلاَّ فإِن من شأنه أَن يؤثّر سلباً وبعمق علىٰ رئاسته كلها. من شأنه أَن يكون ـ قال پانيتا ـ أشبه بسرطان عملاق يجهز علىٰ كل شيء آخر يعتزمون القيام به.

خرج پانيتا من الاجتماع شاعراً بأن بوش كان يدرك أنَّه واقع في مأزق صعب، أسير للوعد الذي قطعه في نيو هامپشاير، غير أنَّه كان، هو ومن حوله، عازماً علىٰ إضفاء شكل من أشكال الواقع الاقتصادي علىٰ ما كان أزمة متصاعدة. بدوا وكأنهم يقولون لپانيتا إن المسألة هي مسألة وقت - قضية تقدير الموعد الذي يستطيعون فيه أن يقوموا، دون مخاطرة، بالتنكّر للوعد القاضي بعدم فرض ضرائب جديدة. بادر ديك دارمان، الذي كان واسطة عقد إدارة بوش في شؤون الموازنة، إلىٰ أخذ پانيتا جانباً ليقول له: «لقد فهمنا ما تقوله جيداً. أعتقد أنّه سيفعل ما هو صحيح. غير أن علينا أن نجد الوقت المناسب للإقدام علىٰ ذلك».

كان كلنتون قد خاض الحملة بوصفه ليبراليا - شعبوياً من نوعية معينة، واضعاً علىٰ الدوام إحدى قدميه في خط الوَسَط. أمَّا مستشاره الاقتصادي الرئيسي فقد كان بوب رايش الذي سبق له أن كان أحد أقرب أصدقائه كلنتون منذ لقائهما للمرة الأولى زميلي رودس ذاهبين إلىٰ أكسفورد علىٰ متن الباخرة. كان رايش اقتصادياً ليبرالياً من مدرسة الصفقة الجديدة/ الصفقة العادلة. كان مؤمناً بأن علىٰ الحكومة واجب التعامل مع الاقتصاد للمساهمة في جعل المجتمع أكثر إنصافاً للمحرومين. بقي المصمِّمَ الرئيسي لبرامج الخطة الداخليَّة المبكرة لدى كلنتون، فضلاً عن أن الكثير من أفكار كلنتون تمتد بجذورها إلىٰ كتاب رايش بعنوان: **ثروة الأمم**. جاء برنامج كلنتون الاقتصادي تحت عنوان وضع الناس أولاً [الإنسان أولاً] أو PPF وقد كان رايش أباه. كان البرنامج متواضعاً نسبياً؛ قام علىٰ استهداف المحرومين في المجتمع، الذين هم ديمقراطيون تقليدياً، داعياً إلىٰ توظيف حوالي خمسين مليارا من الدولارات لعمليات إعادة التأهيل المهني، تحسين البنية التحتية للمدارس، التعليم ما قبل الابتدائي والنقل الجماعي. افتُرض فيه أن يشكّل حزمة حوافز لاقتصاد راكد، لفتة تكريم لقواعد ديمقراطيَّة قديمة، فضلاً عن أنّه كان نسخة معاصرة مقزَّمة جداً عن مشروع **المجتمع العظيم** عند ليندون جونسون. لم تكن الاستثمارات،

مقارنة بالحجم الاجمالي للموازنة، كبيرة. غير أَن قيادة البلاد المالية ومعها الكتلة السكانية العامة، كانت، عند انتخاب كلنتون، أكثر اهتماماً بتقليص العجز منها بالبرامج الاجتماعيَّة الجديدة. من الواضح أَن اتجاه التيار كان معاكساً. وفيما بعد فإِن رايش المحبط كان سيكتب عن الأسابيع القليلة الأولى من مناقشات فريق كلنتون الاقتصاديَّة قائلاً: «العجز، العجز، العجز، ثم العجز. علينا أَن نقلّصه. إِلىٰ أي حد؟ بأي مقدار؟ ذلك هو كل ما نتحدَّث عنه في غرفة روزفلت»[1].

قبل وصوله إِلىٰ السلطة بشهر واحد كان فريق كلنتون قد اطلع من ديك دارمان أَن أخبار الموازنة بدأت تسير من سيء إِلىٰ أسوأ. فبدلاً من عجز سنوي مقدّر بـ 300 مليار من الدولارات كانت الاحتمالات تقول بأنّه سيكون أكبر بكثير، سيصل إِلىٰ 350 ملياراً. وهكذا فإِن الأرقام لم تطحن جماعة كلنتون منذ البداية، بل هي التي كانت تسحق هذه الأرقام. فالحاجة إِلىٰ حل مشكلة العجز شكَّلت عبئاً ثقيلاً علىٰ جميع مناحي إِدارة كلنتون، خصوصاً في الأَيام الأولى حين كان أعضاؤها مشغولين بترتيب أولوياتهم وأَهدافهم السياسيَّة. بقيت المسألة مهيمنة ليس فقط علىٰ السياسة الاقتصاديَّة، بل وعلىٰ التخطيط الاجتماعي، السياسي، والدفاعي أَيضاً. فجميع العوامل الاقتصاديَّة التي سبق لها أَن عملت لصالح كلنتون كمرشح بدأت تفعل الآن فعلها ضده كرئيس. كان الاقتصاد القومي متردياً، البطالة مرتفعة، والعجز متزايداً باطراد، مما جعل التخطيط الاقتصادي في طليعة أَهداف الإِدارة كما لم يسبق له أَن كان منذ زمن طويل، خصوصاً بالنسبة إِلىٰ إِدارة ديمقراطيَّة ليبرالية. تلك، لا السياسة الخارجيَّة، كانت هي البؤرة التي ستتركّز عليها جهود الرئيس الأولية، وتلك، لا السياسة الخارجيَّة، هي الساحة التي كان يعتقد بأن التخطيط سوف يجلب التغيير المطلوب بإِلحاح شديد إِليها. إِنها وثيقة الارتباط المباشر بجمهور

(1) رايش، 63.

الناخبين على الصعيد القومي؛ إنها السبب الكامن وراء تمكّنه من إلحاق الهزيمة بجورج بوش.

إذا بقي كبار أعضاء مجلس كلنتون لمستشاري الأمن القومي مقلين في رؤية بعضهم البعض، فإن الاجتماعات الكثيرة التي جمعت مسؤوليه الاقتصاديين والسياسيين بدت لا نهائية، فوضوية في الغالب، ممتدة ساعات طويلة من الكلام والجدل، أشبه بحمامات قُطعت المياه عنها. ثمة أعضاء آخرون في الإدارة، بمن فيهم كبار مسؤولي مجلس الأمن القومي، بادروا، متنبهين إلى الوقت الطويل الذي كان الرئيس يكرّسه للقاء مسؤوليه الاقتصاديين، يعبّرون عن تمنياتهم في أن يلتفت بالقدر نفسه إلى موضوع اختصاصهم كما كان يفعل بالنسبة إلى الاقتصاد. كان كلنتون قد وصل إلى الرئاسة مشحوناً، بصورة غريبة، بوعي واهتمام كبيرين بالموازنة بالنسبة إلى ديمقراطي ليبرالي معتدل. انطوى كونه حاكم ولاية سابقاً، لا عضو مجلس شيوخ سابقاً، على قَدْر كبير من الاختلاف، نظراً لأنّه كان يدير ولاية صغيرة، فقيرة بصورة غير عادية استناداً إلى موازنة متوازنة. وبالتالي فقد جاء إلى البيت الأبيض، في هذا المجال على الأقل، مستعداً للتحلي بالانضباط فيما يخص قضايا الميزانية، مما جعله مختلفاً عن الكثير من ديمقراطيي الكونگرس الليبراليين الذين شكّلت غريزةُ الإنفاق عندهم الجزء الأكثر جوهرية من حياتهم السياسيَّة، والذين لم يشعروا بالقدر نفسه من الحرج إزاء سخط الناس على زيادة الضرائب.

ما لبث أيضاً أن اتضح لكلنتون، الذي أصغى إلى جملة الخيارات المعروضة من جانب كبار اقتصادييه، أن الوول ستريت، ممثّل وجهة النظر الرأسمالية المقطرة في الاقتصاد الأمريكي، كان يعتقد أن الحكومة باتت قريبة من نقطة إخفاق قابل للتعويض على صعيد العجز المتزايد في الموازنة. لقد شكّل توقع الوول ستريت من ديمقراطي ليبرالي، لم يصوّت لصالحه إلاَّ القليل من كبار (بل وصغار) أساطينه، أن ينجز لصالحه ما لم يكن جمهوري محافظ

مثل ريگان ومحافظ ـ وَسَط مثل بوش قد أنجزه له، إِحدى المفارقات الخاصة الباعثة علىٰ السخرية التي انطوت عليها اللحظة، ولم يكن الرهان علىٰ هذا الرئيس كثير الانفعال دون جدوى.

كان كلنتون مستعداً لإِضفاء شيء من الانضباط المالي علىٰ سياساته الاقتصاديَّة، غير أنَّه كان، أَيضاً، ساخطاً علىٰ القيود الصارمة المفروضة عليه جراء محاربة العجز وعلىٰ بقاء أرقام السنة التالية أسوأ بشكل ملحوظ مما كان الجمهوريون قد وعدوا به. كان سيتعين عليه أَن يُمضيَ كثيراً من الوقت وهو يفعل أشياء لا يريد أَن يفعلها علىٰ الصعيدين الاقتصادي والسياسي، بدلاً من الأشياء التي يريد فعلها. ثار غضبه إِزاء هذا، وقد جاء غضبه من ريگان أكبر بكثير من سخطه علىٰ بوش، إِذْ أدرك أَن الأخير لم يصبح بالغ الهشاشة في سباق إِعادة الانتخاب إِلاَّ بسبب الاقتصاد الراكد والمأزوم والضرر الذي ألحقه به روس پيرو حول الموضوع. وبالتالي فإِن كلنتون بات يكثر من الشكوى الغاضبة من ريگان الذي كان يحظى باحترام البلاد، يتمتع بمحبة الجميع الدائبين علىٰ اعتباره بطلاً عظيماً، والذي كان قد ترك الاقتصاد في حالة فوضى كاملة. وفي إِحدى حالاته المزاجية الألطف كان كلنتون سيقول: الجميع يحبونه، الجميع ينتقدونني، وهو الذي ترك لي هذا الركام كله لأقوم بكنسه. إِن لريگان مكانة شبيهة بمكانة القديسين وهو الذي أنزل هذا الخراب اللعين بالاقتصاد.

مضطرة للتركيز علىٰ المعادلة الاقتصاديَّة المنتصبة في وجهها، كانت إِدارة كلنتون ستبادر إِلىٰ رسم المسار الأقل احتمالاً بالنسبة إِلىٰ أي رئيس ديمقراطي؛ إِلىٰ اعتماد خط تقليص العجز. فيما مضى، كان الجمهوريون المحافظون، المتذمِّرون من سلوك الديمقراطيين المبالغين في الإِنفاق دون حساب، يؤيدون تقليص العجز. تلك هي السمة التي حدَّدت مواصفات بنية السلطة الأولية للفترة الأولى من إِدارة كلنتون، خلال المرحلة الانتقالية. علىٰ العموم لم يتعرّض فرسان السياسة الخارجيَّة لأي اختبار، وقد ظلوا يتحرّكون في ساحة لا تبعث

علىٰ الارتياح بالنسبة إلىٰ الرئيس الذي كان واثقاً من أن البلاد باتت تركّز أنظارها علىٰ الداخل بعد الحرب الباردة. أدّى ذلك إلىٰ رفع مكانة مستشاريه الاقتصاديين مقابل تقليص نفوذ مستشاري الأمن القومي عنده. فاهتمام أي من كبار أعضاء فريقه المنخرط في السياسة الخارجيَّة، وهو تغيير كبير في الحيٰة الأمريكيَّة بعد الحرب، كان منصباً علىٰ **التجارة** الخارجيَّة، وعلىٰ الصراع في سبيل الوصول إلىٰ الأسواق المفتوحة في اليابان وغيرها من بلدان آسيا. باتت هيمنة أمريكا السياسيَّة والعسكريَّة فيما بعد الحرب الباردة من المسلّمات؛ أمَّا هيمنة أمريكا الاقتصاديَّة فقد بدت، علىٰ النقيض من ذلك، معرّضة للخطر. وبالتالي فإن التحوّل المسرحي المثير في هذه الإدارة جاء مصحوباً بانتقال بؤرة اهتمام السياسة الخارجيَّة من الميدان السياسي ـ العسكري التقليدي إلىٰ ميدان جديد قائم علىٰ تفضيل التجارة.

أضف إلىٰ ذلك أن كلنتون كان شديد التأثُّر بالاقتصاديين الملتحقين بركب فريقه. كانت ساعة بروز بوب روبن كلاعب رئيسي ستأتي فيما بعد، وكان سيصبح، مع حلول الأيام الأخيرة من الإدارة الكلنتونية الثانية، أحد النجوم الساطعة لسنوات كلنتون إن لم يكن الأسطع دون نظير. كان ذلك صحيحاً بشكل خاص في الوول ستريت الذي ظل مُحجماً عن وضع ثقته بأي رئيس ديمقراطي والذي أصر لاحقاً علىٰ أن أفضل الارتفاع في مؤشرات داو جونز إلىٰ ستة أو سبعة آلاف نقطة في مثل هذه الفترة الزمنية الوجيزة عائد، بالتأكيد، إلىٰ روبن الذي كان قد تمكّن، رغم تطويقه بحشد من الليبراليين الغدّارين ذوي الشخصيات المشبوهة، من الفوز، داحضاً ما افتُرض سوء توجيههم الدائم، في ظل أجواء التحامل السائدة.

غير أن الشخص الأكثر نفوذاً في إدارة كلنتون الأولى، كان في البداية متمثلاً، دون أدنى شك، بلويد بنتسن. فقد رأى المراقبون أن علاقة بنتسن هذا بالرئيس الشاب كانت الأكثر انطواء علىٰ الألغاز في الإدارة كلها، لأن سيطرة

الرجل علىٰ كلنتون كانت أشبه بالسحرية. بقي الرئيس في حالة رعب من وزير خزانته، محترِماً كل الوقت، حتى أن أسلوب التعامل بين الرجلين كان، برأي أَحد المراقبين، جديراً بأن يشكِّل موضوعاً لرواية أدبية. كانت العلاقة، مثلها مثل العلاقة مع كرستوفر، أشبه بعلاقة بين أب وابنه، مع فارق مهم تمثَّل بأن بنتسن الغني، المثير للإعجاب، الناجح جداً والقادر علىٰ جعل الأقوياء ينحنون أمامه، كان هو الأب المرشح لأَن يقع اختيار كلنتون عليه. كان الرجل أكبر من الرئيس بخمس وعشرين سنة، قريباً، مثل كرستوفر، من السن التي كان والد كلنتون سيبلغها لو بقي علىٰ قيد الحياة. غير أَن الأَمر تجاوز ذلك. كان بنتسن ضليعاً ومتبحراً في جميع المجالات وناجحاً في الكثير من الميادين. أَمَّا كلنتون، ذو البعد الواحد، المندفع راكضاً حتى حين لا يكون في أَي سباق، فلم يكن ناجحاً إِلاَّ في السياسة فقط.

لم يكن بنتسن أكبر سناً من الرئيس الجديد فقط، بل كان متمتعاً بجميع الخبرات، ممسكاً بسائر النعم، وحائزاً، وهو ليس بالأَمر القليل، علىٰ كل الثروة التي كان كلنتون شاعراً بافتقاره إِليها. كانت قصتا الرجلين الشخصيتان مختلفتين تماماً، وما لبثت سيرة حياة بنتسن أَن طغت، إِلىٰ حد كبير، علىٰ سيرة حياة الشاب الذي بات الآن مضطلعاً بخدمته. كان بطل حرب حقيقياً، طيار قاذفة من طراز بي ـ 24 في الحرب العالميَّة الثانية، محلِّقاً مع القوَّة الجويَّة الخامسة عشرة في إِيطاليا، لا قائد جناح فقط بل والطيار القاذف الأصغر سناً، علىٰ ما يبدو، في كل ساحات المعارك الأوروبية. كان قد نضج بين عشية وضحاها في وحدة شهدت قَدْراً مخيفاً وقاسياً من الإِصابات. غير أنّه كان قد عاد إِلىٰ الوطن سالماً معافى، وعلىٰ الرغم من أَن طائرته أُسقطت مرتين، فإِنه لم يخسر أياً من أعضاء طاقمه. وقبل العودة كان قد أكمل تحليقات الإِغارة الخمسة والثلاثين المطلوبة.

كان بنتسن في الثالثة والعشرين من العمر حين أنجز كل تلك المهمات

القتالية. في إدارة لم تكن تقيم وزناً للسجلات الحربية، كان الرجل حاملاً لوسام صليب الطيران المميّز ووسام ميدالية الجو مع ثلاث حزم من أوراق السنديان. بعد الحرب كان قد عاد إِلىٰ ما يُعرف بالوادي، وادي الريو غرانده، في الطرف الجنوبي من تكساس، حيث كان أبوه زعيماً محلياً، أَحد كبار ملاَّك الأراضي ورجل أعمال ما لبث الحظ أَن حالفه وجعله يكتشف النفط في أرضه. وفي تلك المنطقة كانت الأرض، النفط، والمال تتضافر فيما بينها وتصبح نفوذاً وسلطة. خاض بنتسن انتخابات الكونگرس سنة 1948م، حيث سجل سجله الحربي عاملاً حاسماً في الحملة، فاز بسهولة، وأصبح وهو في السابعة والعشرين من العمر أصغر أعضاء البرلمان سناً. في البداية تتلمذ علىٰ كل من سام ريبورن وليندون جونسون، مركزي القوَّة الرئيسيين في سياسة تكساس في البرلمان، أولاً، وعلىٰ جون كونالي في أوستن، في وقت لاحق، مع اتساع شقة الخلاف بين الجناحين الليبرالي والمحافظ في السياسة التكساسية.

كان ريبورن يغازله لتمكينه من الاضطلاع بدور قيادة المجلس، غير أن بنتسن كان قلقاً، وما لبث، بعد ثلاث دورات، في معارضة شبه كاملة لرغبة أبيه ـ الذي كان يأمل في أَن يبقى في الكونگرس ويدخل السباق الرئاسي ذات يوم ـ أَن ترك النيابة ليعود إِلىٰ تكساس لكسب بعض المال. حقَّق نجاحاً مثيراً علىٰ هذا الصعيد إِذ كسب مبالغ طائلة من أعمال التأمين، الاتجار بالعقارات، وتجارة النفط. وبعد قضاء أَكثر من عقد خارج السياسة، خطرت له فكرة تحدي عضو مجلس الشيوخ التكساسي رالف ياربورو ومبارزته. لقد كان ياربورو نقيضاً لجونسون عادة، غير أَن الأخير كان، مع توليه للرئاسة سنة 1964م، قد بدأ يعدل من توجهاته ويصبح أَكثر ليبرالية، ولم يكن مشجعاً للسباق، رغم أن حليفه الوثيق جون كونالي، حاكم الولاية في ذلك الوقت، وأَكثر محافظة منه بكثير، كان شديد الرغبة في تمكين بنتسن من الفوز.

بعد ست سنوات، وجونسون بات بعيداً عن البيت الأَبيض، عاود بنتسن

مطاردة ياربورو وهزمه في سباق مرير وبشع علىٰ الترشيح، ثم هزم جورج بوش في الانتخابات العامة. انتُخب أربع مرات لعضوية مجلس الشيوخ وسرعان ما أَصبح شخصية بارزة هناك. لقد كان أَحد عمالقة مجلس الشيوخ، عضواً في حلقة داخليَّة ضيِّقة متحكمة بسياسة قضايا اقتصاديَّة مهمة. في تعامله مع المسائل الضريبيَّة شكَّل تلخيصاً لشعار تيدي روزفلت القديم: تكلم بلُطْف ولكن احمل عصا غليظة! كان أشبه بكبار سادة النفوذ القدماء في مجلس الشيوخ، رجلاً أتقن فهم المكان، كيفية عمله، أسلوب إِنجاز الأعمال، وتمكّن من اكتساب شهرة علىٰ أنّه شخص يخاطر المرء إِذا وقف في وجهه. فقد عُرف، وهذه ميزة في مستواه، أَن فيه بذرة دناءة ولؤم خبيثة، وأنه مستعد للانحراف عن الطريق القويم ليرد الصاع صاعين علىٰ أولئك المستخفين به.

كذلك كان بنتسن متحلياً بقدر من الخشونة القريبة من الجمود. لقد كان قريباً من جون كونالي، ذلك الشخص المتنفذ في السياسة التكساسية وألاعيبها، ولمدة دامت أَكثر من ثلاثة عقود، غير أنّه، ما إِن غرق كونالي هذا، أواخر الثمانينيّات وأوائل التسعينيّات في سلسلة من المشكلات المالية والسياسيَّة المختلفة، حتى بادر بنتسن، الذي كانت طموحاته صاعدة، إِلىٰ التبرؤ من صاحبه ببراعة، مما وضع حداً لصداقتهما وقاطع كل منهما الآخر. كان ذلك، برأي أناس يعرفونهما، كليهما، جيداً، مثالاً جيداً لمدى قدرة بنتسن علىٰ الاتصاف بالقسوة الفولاذية.

في 1988م كان بنتسن، بعد أَن باتت أَحلامه الرئاسية محبَطة في حزب تلك الأَيام الديمقراطي، قد قبل بالترشيح لمنصب نائب الرئيس، وخاض سباقاً أَدّى إِلىٰ إِبراز قدراته وجعل كثيرين من الديمقراطيين يشعرون، بصرف النظر عن الاعتبارات الإِيديولوجية، بأن القائمة كانت مرشحة لأَن تحقِّق نجاحاً أكبر فيما لو كان هو الرئيس ومايكل دوكاكيس نائب الرئيس. ففي إِحدى الأمسيات الشهيرة كان قد تجادل مع دان كويل علىٰ إِحدى الشاشات التلفزيونية القوميَّة ووضع سقفاً لحياة الرجل السياسيَّة بجملة وحيدة، مع خاتمة مرعبة.

علىٰ الرغم من السباق الوجيز علىٰ الترشيح الرئاسي وحملة نيابة الرئيس، لم يكن بنتسن معروفاً علىٰ نطاق واسع كشخصية عامة حين التحق بفريق كلنتون. كانت جذورُه أقرب إلىٰ الماضي، في وقت بات فيه كبار المحرِّكين في الكونگرس يمارسون نفوذهم بأكبر قَدْر ممكن من الهدوء، معتقدين بأن من شأن شُح المعلومات عما يفعلونه وعن أشخاصهم أَن يكون أفضل، وأن يجعلهم أقل عرضة للتشريح علىٰ الملأ، وبأن من شأن الإكثار من النشاط وراء الأبواب المغلقة أَن يكون أفضل. وبما أَن بنتسن كان شاغلاً لموقع مؤثر جداً في مجلس الشيوخ في لجنة المجلس المالية، فقد عَزَف عن أَن يكون وجهاً مألوفاً. أولئك الذين كانوا بحاجة لأَن يعرفوا مدى قوته كانوا يعرفون؛ أَمَّا القلة التي كان يتعين عليها أَن تعرف ولكنها لم تفعل، فقد كانت مرشحة لاكتشاف الحقيقة بسرعة. كانت مصادر قوته ونفوذه شديدة التضارب لمنابع قوة الكثير من القادمين حديثاً إلىٰ واشنطن ممن أوجدهم التلڤزيون، حيث كان النفوذ أَكثر تشظياً بما لا يقاس، وحيث ساد الاعتقاد بأن من شأن الإكثار من الظهور، الإكثار من جعل الوجه مألوفاً أكثر في مختلف أرجاء البلاد، أَن يجعل المرء أقوى وأوسع نفوذاً.

كانت مكانة بنتسن الفريدة بين كبار مساعدي كلنتون في كانون أول/ ديسمبر 1992م نتاج ما يحلو لدعاة الحركة النسوية أن يطلقو عليه اسم الفروسية، لما يحدث حين يلتقي الرجال بالرجال ويبدؤون بالبحث عن ذلك الذي سيبرز ليتولى القيادة، وهو الأَكثر خشونة، الأقوى، الأدهى، والأَكثر مكراً في الحشد. سبق لبنتسن أَن فعل أشياء كان آخرون من أبناء جيله ـ مع أناس من الجيل أَو الجيلين التاليين بالتأكيد، من أولئك الذين فاتهم قطار الحرب العالميَّة الثانية وڤيتنام أَيضاً ـ يحلمون بأن يكونوا قد فعلوها. كان يوحي بجلاله المهيب، بمكانته الرفيعة علىٰ سلم المراتب للذكور المتنفذين ومدعي النفوذ، بعفوية، بقَدْر واضح من اليسر الطبيعي والبُعد عن التصنّع. لم تكن

سلطته الطبيعيَّة في غرفة مزدحمة بساسة آخرين إلاً نتاج أسلوب عاش به حياته وشكّل ما ليس أقل من خُلاصة حياته المهنية. فحياته الفعلية وحياته المهنية كانتا مثاليتين. قد يتسابق آخرون علىٰ خطب ود الرئيس؛ أمَّا بنتسن فلم يكن بحاجة لأَن يفعل ذلك. بلِ العكس هو ما كان يحصل في الحقيقة. كان الرئيس يحاول استرضاء وزير الخزانة (حين سأله أَحد المراسلين عما إِذا كان قد صَوَّت ضد قانون الرعاية الصحية المقترح من كلنتون لو كان لا يزال في مجلس الشيوخ، أجاب بنتسن ببرودة شديدة: «لست في مجلس الشيوخ»).

لم يكن بنتسن شديد الرغبة في المنصب ـ أَو الحاجة إِليه. طالبته أَكثرية معارفه من الديمقراطيين، في تكساس، وألحّت، بعدم قبول حقيبة الخزينة خوفاً من أَن يكون أَي خَلَف له جمهورياً بالضرورة. غير أنّه تولى المهمّة لأنَّه كان شاعراً بقَدْر من الملل في مجلس الشيوخ. لقد أمضى كل تلك السنين هناك وهو يفعل الشيء ذاته. كان بنتسن الأكبر سناً في جميع الاجتماعات الكلنتونية التي كان يحضرها، أكبر بأربع سنوات حتى من كرستوفر، الشيخ القادم من عالم مجلس الأَمن القومي. علىٰ مقياس رختر لرَوْز المواهب وتقديرها في واشنطن كان بنتسن يحتل مرتبة أعلىٰ بشكل ملحوظ من وزير الخارجيَّة الجديد الذي كان يُعتبر المحامي المطلق، دون أَن تحمل هذه العبارة معنى الإِطراء بالضرورة. كان الإِعجاب الذي تمتع به بنتسن لدى أقرانه إِعجاباً به كرجل لا كمجرد سياسي، إِعجاباً لم يفز بمثله قط رجال مثل نكسون وكلنتون اللذين تعين عليهما أَن يشغلا منصباً كي يتمكّنا من فرض الاحترام.

كان بنتسن متمتعاً بنعمتي الهيبة والراحة الطبيعيتين مع أقرانه. أَمَّا علاقات كلنتون بالأقران فكانت، بالمقابل، محدودة علىٰ الدوام، محصورة، بالدرجة الأولى، في دائرة أولئك الذين يشبهونه من محترفي الاتجار بالسياسة، والساعين إِلىٰ صداقته لكونهم شغوفين بأن يكونوا قريبين من مراكز القوَّة. كانت جاذبية بنتسن المغناطيسية تفعل فعلها في أي مكان سواء أكان شاغلاً لمنصب أم

لا. أَمَّا كلنتون فقد كان مطلوباً منه أَن يكون سياسياً ناجحاً ليكون ذا أَهميَّة. لم يسبق له قط أَن كان أَحد الشباب «القبضايات» حين كان شاباً، في حين ظل بنتسن الشاب المميز الذي كان الشباب الآخرون يتسابقون علىٰ صداقته. وكرجل ظل يصطاد بمهارة براً وبحراً في طول الأَرض وعرضها، لم يكن كلنتون يلعب سوى لعبة واحدة، الگولف. غير أنه، حتى في هذه اللعبة، كان مشهوراً بالحصول علىٰ الإِعفاءات والضربات الإِضافية غير المحسوبة عليه. بقيت لعبة الگولف، إِذن، امتداداً لوضعه السياسي، ولم تصبح قط رياضة بحد ذاتها. كان الطامعون حريصين علىٰ لعب الگولف مع كلنتون ليس لأَنَّه كان لاعباً موهوباً بل لأنّه كان صاحب سلطة.

كان تأثير بنتسن علىٰ كلنتون هائلاً. ما لبث الرجل أَن أَصبح الشخص المهيمن في الإِدارة علىٰ الموضوع الذي كانت الإِدارة عاكفة علىٰ مصارعته وكان الرئيس يكرس له معظم وقته. كان بنتسن صقراً في موقفه من ظاهرة العجز، ومنذ بعض الوقت. ففي لحظة مشهودة من لحظات حملة 1988م كان قد وصف الاقتصاد الريگاني قائلاً: «من السهل أَن تكوِّن وهم الازدهار. كل ما يتعين عليك أَن تفعله هو أَن تسطر شيكات حامية (بلا أرصدة) بقيمة مئتي مليار من الدولارات في السنة. ذلك هو ما فعلته إِدارتنا ريگان ـ بوش. ذلك هو الأسلوب الذي ضاعفا به حجم ديننا القومي في سبع سنوات». وها هوذا بنتسن الآن في وضع يمكّنه من أَن يفعل شيئاً بشأن ذلك الدَّيْن. زميلاه الكبيران كانا أَيضاً من صقور العُجوز ومن الرجال المتمتعين بقدر استثنائي من الإِعجاب. كان بوب روبن من تلاميذ غولدمان ساتشز وكان يساوي أَكثر من مئة مليون من الدولارات، حين كان ذلك مبلغاً كبيراً من المال. أَمَّا ليون پانيتا فقد جاء من الكونگرس ومتمتعاً بالكثير من الإِعجاب لصدقه ونزاهته، ولمعرفته بالكونگرس كما بطريقة عمل واشنطن. كان الرجال الثلاثة مندفعين بقوة لتحقيق تقليص ملموس في العجز. وبين هؤلاء العمالقة جميعاً بدا بنتسن متميزاً، الرجل الذي

كان كلنتون، في الاجتماعات الحاسمة، حريصاً علىٰ فوزه. فخلال تلك الاجتماعات والمناقشات المطوّلة حول عجز الموازنة، ما كان بنتسن ليتحدَّث كثيراً. كان ساخطاً علىٰ طول تلك الاجتماعات وافتقارها إِلىٰ الانضباط. غير أَن كلنتون كان لا يلبث، مع الاقتراب من نهاية الاجتماع، أَن يلتفت إِليه ويسأل: «ما رأيك يا لويد؟». فيرد عليه بنتسن بجملة أَو اثنتين ـ محدداً ما سيتم اتخاذه من خطوات.

فيما كان فريق كلنتون دائباً علىٰ التصارع مع الأرقام الجديدة البشعة، اتضح أَن الأشخاص المسيطرين كانوا صقور عجز، خرجوا جميعاً إِلىٰ الملأ بصور متشابهة: ورم سرطاني يجهز علىٰ الحكومة، أَو قطار سائب موشك علىٰ تدمير كل شيء في هذه الإِدارة. إِذا لم يفعلوا شيئاً لوقف الكارثة فإِن الرقم سيتجاوز، مع حلول سنة 1996م، حسب تقديراتهم وتقديرات جماعة بوش، 350 ملياراً من الدولارات، واصلاً، ربما إِلىٰ 400 مليار في السنة. ومع حلول نهاية القرن قد يصل إِلىٰ 500 مليار حسب جملة من التخمينات الاقتصاديَّة الجديرة بالثقة. وبالتالي فإِن دولاً صناعية أُخرى ربما أقل انسحاقاً تحت أعباء الدَّيْن، قد تصبح أَكثر رشاقة، أقوى، وأَكثر قدرة علىٰ المنافسة الاقتصاديَّة.

علىٰ صعيد السياسة الداخليَّة، كان عجز الموازنة سلاحاً فريداً بيد الجمهوريين في الكونگرس ضد أَي من برامج الديمقراطيين الاجتماعيَّة التي من شأنها أَن تزيد حجم الدَّيْن، مما أَدَّى إِلىٰ شل خطة كلنتون الداخليَّة. فبرأي أَكثرية اقتصاديي الرئيس، ما من شيء كان يمكن تحقيقه إِلىٰ أَن يكون العجز قد تم لَجْمُه ويكون نوع من الانعطاف قد تحقَّق. لم يكن مثل هذا الشيء سيقف عند كونه ثميناً كغاية بحد ذاتها، بل وكان من شأنه أَن يُبْلِغ الوول ستريت رسالة تقول إِن هذه الإِدارة جادة، مسؤولة مالياً، وجديرة بالثقة.

وأولئك المدافعون عن المسار في التحرّك ـ بنتسن، روبن، پانيتا ونائب بنتسن روجر آلتمان، الذي كان أَيضاً من كبار شخصيات الوول ستريت وأحد

أصدقاء كلنتون القدامى في الجامعة ـ كانوا يقولون بأن المطلوب هو تخفيض العجز، بدلاً من اعتماد حزمة الحوافز التي كان فريق كلنتون قد اقترحها أساساً في خطة الناس أولاً Putting People First (PPF). فبشيء من الحظ قد يفضي تأثير تقليص العجز ـ معدلات فائدة أدنى ربما، إنفاق مبالغ أقل علىٰ عمليّات الرَّهن وخدمة دين بطاقات الائتمان، وبالتالي كميات أكبر من الأموال قيد التداول ـ إلىٰ ما يوازي تقليصاً للضرائب.

ثمة رجل آخر كان لاعباً أساسياً في هذا كله دون أن يظهر: إنَّه آلان گرينسپان، رئيس مجلس الاحتياطي الاتحادي. كان يبعث برسائل إلىٰ بنتسن وآخرين من كبار المسؤولين تقول بأنّه سيبادر، إذا ما التزم الديمقراطيين بخفض العجز جدياً، حسب أقوى الاحتمالات، إلىٰ خفض معدلات الفائدة. كان گرينسپان قد ألمح إلىٰ ذلك بنفسه في لقاء مطول له مع كلنتون في ليتل روك خلال الفترة الانتقالية، حيث تحدث عن جميع الفوائد ـ المركزية والهامشية ـ المحتملة في حال شنّ هجوم كبير علىٰ العجز. ومن بين سلسلة طويلة من أشياء أُخرى كان من شأن معدلات الفائدة طويلة الأمد، وهي عالية بصورة غير عادية في ذلك الوقت، برأي گرينسپان، أَن تنخفض، فيؤدي ذلك، بحد ذاته، إلىٰ حَفْز الإنفاق الداخلي فينتعش الاقتصاد. وبما أَن سوق السندات سيبدو أقل جاذبية، أضاف گرينسپان، فإن الأموال ستنزلق إلىٰ سوق الأسهم، مما سيؤدي إلىٰ ارتفاع قيمة أسهم داو جونز. وقد قال إن تقليص العجز هو شكل من أشكال الحافز الاقتصادي.

شعر كلنتون، وهو يستمع إلىٰ كبار مستشاريه، أنّهم متّفقون مع گرينسپان. ومع ذلك فإن الأَمر كان منطوياً علىٰ مخاطرة سياسيَّة غير عادية بالنسبة إليه. كان يستطيع أَن يقوم بجميع الأشياء التي طلبها گرينسپان وآخرون بشأن تقليص العجز، غير أَن معدلات الفائدة قد لا تنخفض إلىٰ مستويات كافية والوول ستريت الغدّار قد لا يتجاوب بحماس، أَو ربما بقيت النتائج متباطئة مما

يجعلها عاجزة عن مد يد المساعدة لحظة يكون بأمسّ الحاجة إليها ـ في غضون أربع سنوات. كان من شأنه أن يكون عاكفاً علىٰ إحالة القرار الأهم بالنسبة إلىٰ المستقبل السياسي لإدارته إلىٰ أهواء وأمزجة جهة غريبة وربما معادية ليست خاضعة لسيطرته، إلىٰ مؤسسة الوول ستريت، جهة تعلمت قائمة طويلة من الساسة الديمقراطيين أن تكون متشكّكة إزاءها. إذا ما أقدمت هذه الإدارة علىٰ السير في طريق تقليص العجز، فإنّها ستكون قد تخلّت عن صف قواعدها التقليدية لتنتقل إلىٰ صف خصومها التقليديين.

وبعد إقدام كلنتون، أخيراً، علىٰ اتخاذ القرار القاضي بالسير في طريق تخفيض العجز، تولى بنتسن، وهو المتناغم من گرينسپان، تمثيل الرئيس في المباحثات اللاحقة مع گرينسپان. كان الأخير سعيداً باحتمال قيام هذه الإدارة بالانحراف إلىٰ الاتجاه الذي كان قد اقترحه. لم يتم، بالطبع، تقديم أي وعود، لأنه لم يكن مستعداً أو قادراً علىٰ تقديم مثل تلك الوعود. لم تكن المسألة مسألة واحدة بواحدة، بل كانت النعمة التي طالما حلم بها، واعتقد بأن الفضيلة لن تكون مكافأتها الذاتية فقط، بل وأن من شأن معدلات فائدة أدنى أن تكون، ربما، مكافأة ثانية.

رأى بوب رايش، الذي كانت آراؤه الليبرالية ـ الشعبوية تتعرّض لتخفيض القيمة في هذه العمليّة، أن هناك نوعاً من الابتزاز. فگرينسپان لم يكن بالضرورة موجوداً في أي من الاجتماعات الكثيرة التي استغرقت ساعات طويلة في مناقشة سياسة تقليص العجز. غير أنّه كان هناك بروحه، حيث دأب بنتسن وروبن علىٰ الإكثار من الكلام عن سلبية رد فعل الوول ستريت المحتمل إذا ما أحجمت هذه الإدارة عن التصدي للعجز. بدا لرايش وآخرين وكأن گرينسپان كان موجوداً في الغرفة. وبرأي رايش لم يكن عادلاً أن يبقى الوول ستريت قادراً علىٰ ممارسة ذلك النفوذ القوي الذي لم يقدم قط علىٰ التلطف بممارسته مع رئيسين جمهوريين محافظين كانا، في العادة، ممثلين لرغباته، ضد رئيس

ديمقراطي ليبرالي. ما الذي حال دون قيام الوول ستريت بإبداء قَدْر أكبر من الحيوية في الحديث عن تقليص العجز قبل ست، سبع، أَو ثماني سنوات؟ ذلك هو السؤال برأي رايش.

بدأ رايش يتعرَّض، شيئاً فشيئاً، للإزاحة من موقع أَحد اللاعبين المركزيين إلىٰ دور أكثر هامشية. كان وقتاً صعباً بالنسبة إِليه؛ تدهور في المرتبة مع اضطرار للعمل علىٰ خطط اقتصاديَّة أشبه بخطط صادرة عن إِدارة جمهوريَّة معتدلة. لقد كان أَحد أقدم أصدقاء كلنتون، أَحد أوائل المعجبين، بموهبته النادرة، اندفاعه الفريد، وطموحه الجامح. كان يمثِّل الوجه الليبرالي أَو الشعبوي للمرشّح، ووجهات نظر رايش حول الخطة الاقتصاديَّة كانت بالغة الأَهميَّة في أثناء الحملة. كان رايش قد حلم بمنصب رئاسة مجلس المستشارين الاقتصاديين.

غير أَن رايش كان يُعتبر مبالغاً بعض الشيء في ثوريته، في ظل الأجواء المتبدّلة المشحونة بالضغوط الضارية التي كانت تواجه مستشاري كلنتون الاقتصاديين. فثمن حُزْمة إِعادة الاستثمار والحفز التي وضعها كان قد قُدِّر بحوالي خمسين مليارًا من الدولارات، في الوقت نفسه الذي كان فيه فريق كلنتون دائبين علىٰ مناقشة أفضل الأساليب لتخفيف أعباء الموازنة إِلىٰ الحدود الدنيا الممكنة. كان رايش يريد مد يد المساعدة المباشرة والفورية إِلىٰ محرومي البلاد بأكبر قَدْر ممكن؛ أَمَّا الآخرون فكانوا يحلمون بإِضفاء قدر أكبر من العافية علىٰ الاقتصاد وصولاً إِلىٰ تحسين حياة الناس علىٰ الدرجات الدنيا من سلَّم المجتمع. كان رايش سيتولى وزارة العمل، مكلفاً، كما بدا أحياناً، بتهدئة واسترضاء عدد كبير من القيادات العمالية المشحونة بكميات متزايدة من السخط والاستياء. لم تكن فترة مشاركته في الإِدارة مقدّراً لها أَن تكون جولة سعيدة.

مع القرار القاضي بتأكيد ضرورة خفض العجز، تعرَّضت الدعوة التقدمية إِلىٰ رفع راية «الإِنسان أولاً» للإِجهاز. كان كلنتون، بنظر الكثير من المؤيدين،

قد انتقل إلىٰ الضفة الأُخرى، غير أَن ذلك لم يزعجه كثيراً علىٰ ما يبدو. فآراؤه حول التخطيط الاقتصادي لم تكن، بنظر أصدقائه القدامى، ذات جذور عميقة. ربما كان كلنتون، في حال تساوي جميع الأمور، ميّالاً إلىٰ وجهة النظر الليبرالية المعتدلة، المشوبة بشيء من النزعة الشعبوية علىٰ صعيد السياسة الداخليَّة، غير أنّها لم تكن حماساً، بل بقي موقفه من الأَمر، كما من أشياء أُخرى كثيرة، تكتيكياً؛ بقي مستعداً بصورة شبه دائمة لمواكبة الرياح السائدة. لم تكن ثمة ذرة استراتيجية واحدة في جسد كلنتون برأي أَحد أصدقائه وهو يتابع انتقال صديقه إلىٰ صف المطالبين بخفض العجز. بقي هَمُّ الرجل متركزاً علىٰ البقاء، ولا شيء غير البقاء والاستمرار.

كان الليبراليون الراغبون نوعاً من التأكيد لقضايا العمل الاجتماعي قد خسروا المعركة ـ فأصيبوا بنوبة غضب. كتب رايش في مذكرة رفعها إلىٰ الرئيس يقول إِن المقالات الصحفية المتحدّثة عن خطط الرئيس الاقتصاديَّة جعلت كلنتون يبدو مثل كالڤن كوليج. ثمة مستشارون سياسيون آخرون لكلنتون مثل كارڤيل، پول بيگال، وستيفانوپولوس، ممن كانوا يؤيدون البرامج الداخليَّة، من النوعية التي دعا إِليها المرشّح في الحَمْلة، مثلاً، شعروا بالقَدْر نفسه من الإِحباط وخيبة الأمل. فبالنسبة إلىٰ كارڤيل كان السؤال المفتاحي هو: من يكون هذا الرئيس؟ هل هو الشخص نفسه الذي آمنوا به في بداية الحملة، ذلك الشخص الذي كان متعاطفاً بصورة طبيعية مع المواطن الأَمريكي العادي ومتفهماً لمشكلاته وقادراً علىٰ التحدّث مع زملائه مثل أَي صديق ليبرالي؟ أم أنّه شخص توهموا أنّهم يعرفونه ولكنّهم ما لبثوا أَن اكتشفوا أنهم يجهلون حقيقته؟ في إِحدى اللحظات أقدم كارڤيل، وهو الشعبوي منذ الولادة وبالفطرة، علىٰ خربشة الملاحظة التالية علىٰ قطعة من الورق: «أين هو المبدأ المقدّس؟ أين يقف؟ ما الذي يدافع عنه؟»[2].

---

(2) وودوورد، **آجندا**، 125.

غير أَن المهمّة أُنجزت. كان المحافظون والتقليديون الماليون في الإِدارة قد حدَّدوا معالم خطتها الاقتصاديَّة وبالتالي السياسيَّة. ونظراً لجملة القيود الجديدة القاسية المفروضة علىٰ الموازنة كانوا أَيضاً، دون انتباه من جانبهم، قد ساهموا في فرض القيود علىٰ السياسة الخارجيَّة أَيضاً، خصوصاً استخدام الجيش في أية أزمة يمكن اعتبار المشاركة الأَمريكيَّة فيها طوعية أَو اختيارية. من الواضح أَن حجم أَي تدخّل ذي حجم، حرب تتطلب استخدام قوة كبيرة لفترة زمنية، من شأنه أَن يقلب حسابات الموازنة رأساً علىٰ عقب. ففي أواسط الستينيّات، في أوج هيمنة أَمريكا الاقتصاديَّة لما بعد الحرب، لم يستطع ليندون جونسون أَن يجر البلاد إِلىٰ الحرب إِلاَّ من خلال الكذب علىٰ موظفيه المسؤولين عن الموازنة، وعلىٰ الأَخص أعضاء مجلس المستشارين الاقتصاديين، زاعماً أَنّها ستكون حرباً صغيرة حين كان قد وافق علىٰ إِعطاء الجيش أَكثر من أربع مئة ألف جندي. تلك كانت أَياماً وَلَّتْ منذ زمن طويل؛ أَمَّا القيود المعاصرة المفروضة علىٰ الموازنة فقد بدت أشد قسوة.

في شباط/ فبراير 1993م، حين مَثُل الرئيس أمام جلسة مشتركة لمجلس البرلمان للتحدّث عن حزمته الاقتصاديَّة، وجد گرينسپان المضطرب والمفاجأ إِلىٰ حد كبير نفسه جالساً بين هيلاري كلنتون وتِپر گور ـ أداة دعاية إِلزامية لصالح برنامج كلنتون الجديد. نظر رايش، الجالس في مكان أقل تفضيلاً، إِلىٰ الرئيس ورأى أَنَّه بدا تلك الليلة موجهاً كلامه لشخص واحد فقط، گرينسپان[3]. بات لكلنتون هدف جديد لومضات غضبه السريعة العابرة ـ مستشاريه الاقتصاديين الذين كانوا قد حوّلوه إِلىٰ سياسي حذر ومتحفّظ من تيار الوسط تتركّز مساهمته الرئيسية علىٰ الحد من الدَّيْن. فقد قال: «عليه اللعنة! لقد أَصبحت إِيزنهاور»[4]. أحياناً، حتى وهو يتابع السير في مساره الأَكثر محافظة،

---

(3) رايش، 72.

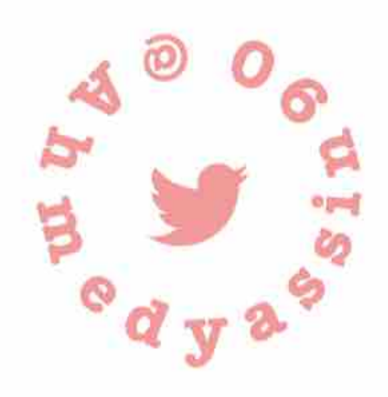
(4) مقابلة مع مساعدي كلنتون في الاقتصاد والسياسة.

بدا وكأنّه يجادل نفسه. فقد قال ساخراً ذات مرة «أين هم جميع الديمقراطيين؟ نحن جمهوريون إيزنهاوريون هنا ودائبون علىٰ محاربة الجمهوريين الريگانيين. إننا مع عُجوزٍ أدنى، مع التجارة الحرة، ومع سوق السندات. أليس هذا عظيماً؟» وبعد ذلك يستغرق في موّال «لن تكون عندي أية ميزانية ديمقراطيَّة لعينة حتى سنة 1996م»، حتى إذا سار كل شيء علىٰ ما يرام ورد الوول ستريت علىٰ أفضاله بالمثل[5].

بين الحين والآخر كان سوف يشير إِلىٰ الناس الذين أقحموه في هذا الاتجاه بضمير «هم»، كما لو كانوا غرباء من خارج حكومته دأبوا علىٰ إجباره علىٰ فعل أشياء لم يكن هو راغباً في القيام بها. حملت شكاواه لَمْسَة إِشفاق ذاتي، وكان، أحياناً، سيبادر إِلىٰ الاحتجاج، حين يكون مع كوادر أَكثر ليبرالية، علىٰ ما كان قد حصل. حاول أَن يصوّر كما لو كان أسير إِدارته. ثمة أولئك الذين كانوا شهوداً علىٰ مشاهد مماثلة حول قضايا ذات علاقة بالسياسة الخارجيَّة ـ مشاهد كلنتون غاضب، مشاكس إِلىٰ حد معين، يصب سيلاً من اللعنات علىٰ الظلم الذي ينطوي عليه أَن يكون المرء رئيساً للجمهوريَّة. لقد بدا شديد السخط علىٰ الاضطرار للانتقال من خطاب الحملة البلاغي، ذلك الخطاب الذي كان سهلاً ومُتيحاً للمرء فرصة أَن يبقى مؤيداً لجميع الأشياء الجيدة والإِيجابية، إِلىٰ عالم الإِدارة والحكم، حيث يصبح المرء في مواجهة سلسلة دائمة من الخيارات الصعبة والدنيئة. بدأ كلنتون يكتشف أَن المرء في الحملة يجد علىٰ الدوام شيئاً صحيحاً ومحقاً يقف في صفه ويدافع عنه، أَمَّا حين يصبح رئيساً للجمهوريَّة، فليس ثمة أي شيء صحيح سهل يمكن اختياره؛ إِذْ يكون مضطراً، في الغالب، للإِقدام علىٰ اختيار غير مثالي لماهو أهون بين اثنين من الشرور.

---

(5) وودوورد، **أجندا**، 165.


@Ahmedyassin90

الفصل العشرون

فيما كان كلنتون وكبار موظفيه غارقين في بحر اقتصاد السياسة الداخليَّة، بقيت الأزمة في البلقان مصرّة بعناد علىٰ الاستمرار والتفاقم. فما كان يحصل في البوسنة شكَّل ـ كما بات شديد الوضوح من الأنباء المتسرّبة من سربرينيتسا ـ إذلالاً متصاعداً للغرب ولإدارة كلنتون في المقدمة. أواخر نيسان/ أبريل 1993م عقد كبار مسؤولي إدارة كلنتون سلسلة من الاجتماعات حول البوسنة، وما لبث أن تشكّل، تدريجياً، نوع من الإجماع علىٰ ضرورة رفع الحظر عن توريد الأسلحة واستخدام الطيران. ففي الأول من أيار/ مايو، في اجتماع للموظفين الرئيسيين، قام الرئيس، أخيراً، بفتح الطريق أمام حصول تغيير في السياسة، أو بدا الأمر كذلك. قيل إننا كنا سنعتمد سياسة الرفع والضرب. تعين علىٰ الصرب أن يلبّوا مطالبنا في البوسنة واضعين حداً لتصرفاتهم البربرية، وإلاَّ فسنبادر إلىٰ مساعدة خصومهم علىٰ التسلّح وإطلاق طيران التحالف ضدهم. غير أن القرار كان يعاني من خلل رئيسي ـ كنا ملزمين بالحصول علىٰ موافقة الأوروپيين. كُلِّف وزير الخارجيَّة بلقاء القادة الأوروپيين والسعي لإقناعهم بالموافقة علىٰ الخطة الجديدة. أمَّا الجانب العسكري ـ عما إذا كانت هيئة رؤساء الأركان العامة ستوافق عليها ـ فكان لا يزال ينتظر الإعلان.

غير أن كبار مسؤولي الإدارة لم يكونوا، بعد استعراض مطوّل، قد حقَّقوا أي تقدّم في الحقيقة. كانوا قد خرجوا باقتراح هجين ومنغّل عاكس لجميع

اختلافاتهم وتبايناتهم؛ وإذا كان ثمة أي شيء شكل رمزاً لمدى تخبّط الإدارة وانقسامها حول ما ستكون أزمتها الخارجيَّة الكبيرة الأولى، فإنّه جاء متمثلاً برحلة كرستوفر. بالنسبة إلىٰ آل گور، وهو أكثر تشدّداً من معظم كبار الموظفين فيما يخص البوسنة، كان ثمة بؤس حول الأمر كله، وكان لديه شعور بأن الكارثة باتت وشيكة. كان گور واثقاً من أنّهم كانوا يرسلون كرستوفر في مهمة بلهاء وأن الأوروپيين كانوا سيصدّونه. وقد اعترف گور لاحقاً بأنّه اكتفى بالشكوى المكتومة، بالعويل الداخلي، وكان متأكداً من أن وزير الخارجيَّة كان مثله. متأملاً مدى بؤس الخطوة التي استطاعت مجموعة من الناس اللامعين الموهوبين بعد هذه الدراسة الطويلة للموضوع، كان گور سيقرّر بأن الإرهاق واليأس كانا قد تمخّضا عن سياسة محكومة بالإخفاق.

غادر كرستوفر إلىٰ لندن ليلة الأول من أيار/مايو. كانت الرحلة كارثة مطلقة وطبعت كرستوفر منذ البداية ـ سمعة كان سيسعى جاهداً للتغلّب عليها خلال السنوات الثلاث والنصف القادمة ـ كرجل ضعيف شخصياً، جاء حاملاً خطة ضعيفة صادرة عن إدارة ضعيفة. لم تكن الخطة مدروسة بعمق ولم تأخذ في الحسبان مدى ضراوة المقاومة الأوروپية المحتملة. غير أن نقطة ضعفها الرئيسية تمثَّلت بأن الرئيس نفسه لم يكن مقتنعاً مئة بالمئة بجدواها، أو بكون متابعتها إلىٰ النهاية جديرة بالثمن الذي كانت سترتبه علىٰ رئاسته. صحيح أنّه كان موافقاً، غير أنّهم قد يكتشفون، مرة أُخرى، أنَّه لم يكن موافقاً مئة بالمئة.

كانت تلك نقطة الضعف رقم واحد. أَمّا نقطة الضعف الثانية فجاءت متمثّلة بكون وزير الخارجيَّة، الذي لم يكن هو نفسه شديد الحماس، واقفاً علىٰ شكوك الرئيس، علىٰ توجُّسه من التكاليف المحتملة، مما أشعره بمدى صرامة القيد المفروض عليه. ونقطة الضعف رقم ثلاثة تمثَّلت بعدم كون الجيش مؤيداً للخطة الجديدة بأي شكل من الأشكال، فضلاً عن أن الكونگرس، كما تبين لفريق من نواب الإدارة حين فاتح قادة الكونگرس من

الطرفين، لم يكن هو الآخر مؤيداً. أضف إِلىٰ ذلك أَن تعامل الأوروپيين مع كرستوفر باحتقار كان وارداً. لن يقف أولئك عند حد معارضة خطة «ارفعْ واضربْ!» لأنها ستعرّض الأوروپيين، لا الأَمريكيين للخطر، بل ولأَن قادة أوروپيين كانوا لا يزالون ينمُّون بغضب، وراء الأبواب المغلقة، علىٰ تهوّر الرئيس في استخدام البوسنة خلال حملة 1992م. كانوا ساخطين علىٰ تتفيهه شبه الفروسي لالتزامهم، بصرف النظر عن مدى ضعفه وهشاشته، ولا سيما لصدور ذلك عن شخص لم يبادر بلده إِلىٰ تسديد أَي من التزاماته. صُعقوا به بوصفه رمزاً لنوع معين من الغَطْرسة الأَمريكيَّة، لذلك الصوت المفعم بالثقة الزائدة عن الحد الصادر عن سياسي شاب متعجرف يأمرهم بما ينبغي أَن يفعلوه ويدلّهم علىٰ مدى ضعف سياستهم الراهنة. كان الأوروپيون يعرفون جيداً، وبصورة مسبقة، أنّهم دائبون علىٰ مصارعة قضية باتت بؤرة للرعب وأن سياستهم غير مناسبة.

كان كلنتون الذي سبق له أَن تحدَّث عن إِنهاء الأزمة عبر إِرسال قوات برية أَمريكيَّة جنباً إِلىٰ جنب مع طائرات حربية أَمريكيَّة شخصاً آخر غير كلنتون الدائب علىٰ انتقاد ما يفعله الأوروپيون علىٰ الأَرض ولكنه رافض لإِشراك أية قوات أَمريكيَّة. وبالتالي فقد حان وقت الرد بالمثل. فهذه السياسة الأَمريكيَّة حول البوسنة، اللفظية، ومن ثم هذا التصعيد الذي كان سيتم تنفيذه من ارتفاعات تصل إِلىٰ آلاف الأقدام فوق الأرض، كانا، بنظر الأوروپيين، من الصفات المميزة لبلد درج علىٰ الإِمساك بالمجد من طرفيه كليهما. كانت أَمريكا تسعى أَن تكون أممية بثمن بَخْس، وأن تبقى انعزالية جزئياً، وهي مفعمة ثقة بأنها تملك حق إِملاء الخط السياسي المناسب علىٰ أَي بلد آخر من بلدان العالم.

كان من شأن خطة «ارفعْ واضربْ!»، لو اعتُمدت ونُفِّذت، أَن تشير إِلىٰ حدوث تغيير مسرحي مثير في السياسة الأَمريكيَّة. شكَّلت رحلة كرستوفر، بدلاً

من ذلك، إعلاناً صارخاً للإخفاق في الاهتداء إلىٰ أية سياسة مقبولة. كانت جماعة بوش، وإن أحجمت عن التحرّك، قد اعتمدت، علىٰ الأقل، أسلوب الإقلال من الكلام الخطابي. أمّا جماعة كلنتون فقد دأبت علىٰ تصعيد مسألة البوسنة بوصفها قضية خلال الحملة، وكانت التوقعات قد تصاعدت هي الأُخرى، خصوصاً في البوسنة. فقُبيل تولي الرئيس للسلطة ظل مسلمو البوسنة يسحبون المراسلين الأمريكيين العاملين في البلقان جانباً ليحدثوهم عن مدى عظمة رئيسهم الجديد[1]. غير أن تأييد كلنتون للسياسة الجديدة لم يكن إلاّ تأييداً تجريبياً متردداً. بقيت شكوكه أكبر وأفعل من أشكال يقينه. صحيح أنّه كان مع إحداث تغيير في السياسة، غير أنه لم يكن مع جملة المضاعفات والتكاليف التي ينطوي عليها، بالضرورة، مثل هذا التغيير. لم يسبق لكلنتون قط أن بيَّن لكبار موظفيه ما كان يريده فعلاً. وبالتالي فإن الشريحة العليا من جهازه البيروقراطي بالذات كانت ممزقة، منقسمة علىٰ نفسها، والتأييد السياسي الواسع لأي نوع من التورّط أكثر كان باهتاً جداً ومهترئاً. كان الرئيس قد قرَّر سلفاً أن قضايا السياسة الداخليَّة هي القضايا ذات الأولوية الأعلىٰ بما لا يقاس علىٰ السلّم السياسي، ولم يكن مستعداً لتعريض إدارته وخططه الداخليَّة المستقبلية ـ المتركّزة جميعاً علىٰ صحة الاقتصاد ـ للخطر. وهكذا فإن الرئيس لم يكن مستعداً للقتال دفاعاً عن السياسة الجديدة وتسديد تكاليفها، وإن بدا، ربما، ميالاً إلىٰ مثل هذه السياسة.

أما بالنسبة إلىٰ كرستوفر فإن مهمته لم تكن متمثّلة بتلخيص الخطة الجديدة علىٰ مسامع الأوروپيين بما يفرض عليهم أن يتعاملوا معها كما سبق للكثير من أسلافه أن فعلوا فيما يخص قضايا أُخرى ذات أولوية عالية: **أريدكم أن تعلموا أن رئيس الولايات المتحدة قد قرَّر اتباع خطة «ارفع واضرب!» ويسعدنا أن نحصل علىٰ تأييدكم، غير أننا مصمّمون علىٰ تنفيذها في جميع**

(1) مقابلة مع ووتن.

الأحوال. كان عازماً، بدلاً من ذلك، علىٰ **التشاور** معهم. وكلمة **تشاور** هذه صَدَمَتْ مخضرمي وزارة الخارجيَّة بوصفها كلمة غريبة. لم يسبق للأوروبيين أَن شهدوا دبلوماسيين أَمريكيين يتشاورون بهذه الطريقة. كانوا معتادين علىٰ شخص مثل جورج شولتز أَو جيمس بيكر يأتي ويتلطف بإِطلاعهم، بطريقة لا تترك مجالاً لعدم الموافقة، علىٰ ما اعتزمت الولايات المتحدة أَن تقوم به. تلك كانت إِحدى مشكلات كرستوفر من البداية. كنا سنتشاور مع أناس لا يريدون أَن يكونوا هدفاً لأي تشاور وسيعارضون بالتأكيد أَي تغيير في الخطة.

ما لبث مراسل الأسوشيتدبرس المخضرم المكلّف بتغطية أنباء الخارجيَّة، باري شفايد، وهو أَحد أكبر رجالات الإِعلام المهرة في جسّ النبض، أَن سمع بأن كرستوفر كان ذاهباً إِلىٰ أوروپا، وبأن خطة جديدة كلياً كانت قيد الإِعداد. بادر علىٰ الفور إِلىٰ الاتصال بأحد مصادره في البيت الأَبيض سائلاً: «ما الذي سيفعله؟». رد عليه المصدر: «سيتشاور مع الأوروپيين بشأن «ارفعْ واضربْ!»». راح شفايد يفكّر: تشاور، باستمرار يقولون إِنهم ذاهبون للتشاور. تلك كانت عبارة الرد التي كانوا عادة يطلقونها في وجه المراسلين حين تكون لديهم أشياء يريدون إِخفاءها. وبالتالي فقد ظل يتصل بهذا وذاك، محاولاً أَن يحدّد المعالم الحقيقية للسياسة الجديدة، وأن يقف علىٰ سبب ذهاب كرستوفر إِلىٰ أوروپا. غير أَن الجميع، بمن فيهم أفضل مصادره الذين صدقوا معه باستمرار، ظلّوا يؤكّدون أَن الزيارة هي للتشاور، فاضطر للاقتناع أخيراً. إِلاَّ أَن شفايد كان واثقاً من حتمية إِخفاق كرستوفر.

تمثَّلت مشكلة كرستوفر الثانية بالرجل نفسه. فبين فريقي الصقور والحمائم في حكومة الولايات المتحدة حول البوسنة، بقي كرستوفر في مكان قريب من الوسط، ربما مع انحراف طفيف إِلىٰ صف الحمائم. باعتقاد بعض المحيطين به، لم يكن كرستوفر مقتنعاً بجدوى السياسة التي كان يسوّقها ويروّج لها. وبعد سنوات، لدى حديثه عن الرحلة مع الأصدقاء، كان سيصف الرئيس

بالسلبيَّة في ذلك الوقت، بعدم الاستعداد لتعريض مصالح أُخرى للخطر. وكان سيلاحظ أَن غياب الحماس الرئاسي فعل فعله المؤثّر في الرحلة كلها. يُعتَقَد أَن ذلك هو السبب الذي جعل كرستوفر يقدّم الخطة بطريقة يمكن وصفها في أحسن الأحوال بالتجريبية، وبأسلوب مكَّن الأوروپيين من رفضها بالحد الأدنى من الجهد. بدأت رحلته الأوروپية العظمى في لندن. لم يكن البريطانيون متلهفين لأي تغيير. كانت لهم قوات علىٰ الأَرض ولم يكونوا يريدون زيادة الأخطار التي تحيط بعمل تلك القوّات. عارضوا خطة «ارفعْ واضربْ!» لأنّهم كانوا شديدي المعارضة لتدفّق المزيد من السلاح علىٰ البلقان فضلاً عن ثقتهم بأن من شأن مثل تلك السياسة أَن تضاعف من تصعيد سباق التسلّح في المنطقة. أضف إِلىٰ ذلك أنّهم لم يكونوا راغبين قط في أَن ينجرُّوا إِلىٰ صراع عسكري أكبر.

وأولئك الأَمريكيون المطالبون باعتماد سياسة أَكثر تشدّداً كانوا مقتنعين بأن السياسة البريطانية اتسمت بنوع لاشعوري من الانحياز إِلىٰ الصرب منذ أيام تعامل البريطانيين معهم في الماضي. ما من واحدة من الطوائف كانت جديرة استثنائياً بالتعامل؛ فقد كان الجميع، بنظر وزارة الخارجيَّة البريطانية أجلافاً غير متحضرين، غير أَن الصرب بدوا الفريق الأقوى في المنطقة مما جعلهم أَكثر جدارة من غيرهم بالتعامل، أَو بعدم الاستبعاد والإِقصاء علىٰ الأقل. أضف إِلىٰ ذلك أَن الجماعة التي برزت بوصفها الجماعة الرئيسية المعادية للصرب في البوسنة كانت مؤلفة من المسلمين. ربما «تأورپوا»، ربما تخلّوا منذ زمن طويل عن عاداتهم الإِسلامية، غير أنهم كانوا مسلمين مع ذلك، وكان ثمة قَدْر من التحامل عليهم.

لم يكن البريطانيون جاهزين للبحث. كانوا شديدي البعد. أضف إِلىٰ ذلك أَن الخارجيَّة لم تكن قد وضعت عناصرها هي في مواقعهم. فالسفير الأَمريكي في لندن، ري زايتس، لم يكن معجَباً قط بالإِدارة الجديدة. وقد كتب

لاحقاً في مذكراته، بلهجة ليس فيها إلاَّ مسحة خفيفة جداً من الإطراء، أَن وزير الخارجيَّة برز بين فريق إدارة كلنتون «مثل راشد في حديقة للأطفال، غير أَن كرستوفر ظل يبدو علىٰ الدوام أصغر من الأحداث الجارية حوله»[2]. صُعق زايتس بالتغيير في الخطة الذي كان رئيسه دائباً علىٰ تسويقه وبالغضب الذي سيثيره ذلك بالتأكيد لدى أصدقائه في الحكومة البريطانية. فحين قام وزير الخارجيَّة بعرض الخطة الجديدة في لقاء له مع كل من رئيس الوزراء جون ميجر ووزيري الخارجيَّة والدفاع دوگلاس هيرد ومالكولم ريفكند، تعمّد كرستوفر، حسب تعبير زايتس، «استنفار كل حيوية محام عاكف علىٰ قضية تفريغ». وقد تحدَّث زايتس عن قيامه، في استراحة لاحقة، بإِقناع ميجر بالتنحي جانباً مع كرستوفر وإِبلاغه استحالة جعل الوزارة المتشكّكة تقبل بالسياسة الجديدة، وهو ما فعله ميجر. كانت تلك لحظة مشهودة من لحظات العمالة ـ كان سفير أَمريكي يتآمر مع رئيس وزراء دولة أجنبية لإِحباط خطة بلد السفير بالذات لصالح البلد الذي اعتُمد فيه سفيراً.

لم يكن البريطانيون بحاجة إِلىٰ كثير من التلقين؛ كانوا قادرين علىٰ الإِحساس بمدى افتقار كرستوفر للحماس. بقي ميجر واضح الإِصرار علىٰ عدم تغيير السياسة. أبلغ كرستوفر أَن حكومته قد تسقط إِذا أيدت أَي تصعيد في البوسنة. لم يكن يحظى بالدعم في وزارته بالذات ولا في البرلمان. وبالتالي فإِن لندن كانت متشدّدة. ولكن قصصاً ما لبثت ـ حتى قبل انتهاء النهار، وكرستوفر علىٰ الطريق إِلىٰ باريس ـ أَن بدأت تتسرّب من لندن حول أَن الأَمريكيين لن يحسموا أمرهم حول هذه السياسة الجديدة، وليسوا ـ وهذا أسوأ ـ مطّلعين علىٰ ما يجري في البلقان. لم تكن باريس أقل تشدّداً. فميتران الذي كان مؤيداً للصرب من حيث الجوهر، لم يكن مستعداً للموافقة علىٰ أَي تصعيد. قال لكرستوفر: «صحيح أَن حرمان مسلمي البوسنة عمل لاأخلاقي،

(2) سايتز، 328.

غير أننا لن نغيّر سياستنا». باتت التقارير الواردة من العواصم الأوروبية ـ كما لو كانت عمليّات إعادة عرض مسرحية جديدة محكومة بالإخفاق ـ أكثر سلبية وتباهياً يوماً بعد آخر، معبّرة، عملياً، عن رأي يقول بأن هذا الفريق الأمريكي الجديد لن يضع حداً للأزمة. والرسالة الواصلة عبر القنوات الخلفية إلىٰ رجال الإعلام لم تكن أفضل، إذْ كانت تؤكد أن الأمريكيين لم يكونوا يعرفون ما يفعلونه. فيما بعد علّق أحد أعضاء فريق كرستوفر قائلاً إن الوضع مرعب. لم يتعاطف الأوروپيون مع سياستنا الجديدة ربما لأنها كانت أقوى مما ينبغي، غير أننا حين عرضناها بطريقة فيها شيء من اللّين والنزوع إلىٰ المصالحة، اعتُبرنا دون المستوى المطلوب من الحزم لإنجاز المهمّة.

في اليوم الثالث من الرحلة، كان كرستوفر في مطار بون حين تلقى مكالمة هاتفية من وزير الدفاع لَسْ آسپن الذي قال له: يمكنك أن تنسى عملية تسويق خطة «ارفع واضرب»، «لقد انتقل الرئيس إلىٰ صفنا». لم تعد الخطة، وهي بالغة الهشاشة في أحسن الحالات، لم تعد خطة. لا أحد في فريق رحلة كرستوفر عرف بالتحديد السبب الكامن وراء قيام كلنتون بتغيير رأيه. ربما لم يكن مقتنعاً حقاً في أي من الأوقات. ربما كان يتحدَّث خلال فترات الاستراحة مع المؤسسة العسكريَّة، تحديداً مع كولن پاول. ربما كان عاكفاً علىٰ قراءة **أشباح البلقان** تأليف روبرت كاپلان، من إهداء پاول الذي اكتشف من القراءة الأولى، علىٰ ما يبدو، أن الأمر ميؤوس منه. أمّا بالنسبة إلىٰ كلنتون فقد بدا الكتاب متضمناً ما يشي بأن الناس في البلقان مدمنون علىٰ قتل بعضهم البعض منذ قرون ومن المتعذّر فعل أي شيء لمنعهم من الاستمرار.

بصرف النظر عن السبب، كان كلنتون قد بدأ يتراجع بوضوح كامل. ثمة خبر انتشر بسرعة البرق بين أفراد الشرائح العليا من الجهاز البيروقراطي حول أن الرئيس كان عاكفاً علىٰ قراءة كتاب كاپلان. كانت نبرة صوته قد تغيّرت وراح يتحدَّث عن قيام أهل البلقان بممارسة هذه الأعمال منذ الأزل وعن احتمال

مواصلتهم لها إلىٰ الأبد. وبعد ست سنوات حين ألقى كلنتون خطاباً قوياً يجيز فيه القصف العنيف بالوسائل التكنولوجية المتطورة لكوسوڤا، شدَّدَ، في معرض تبريره للتصعيد العسكري الأَمريكي، علىٰ شجب وإِدانة أولئك الداعين إِلىٰ الوقوف علىٰ الحياد في موقف المتفرج لأَن هذه الشعوب البلقانية دأبت علىٰ قتل بعضها البعض منذ قرون. لاحظ النقّاد أَن أَحد المسؤولين عن جريمة ابتكار تلك العَقْلَنة بالذات كان الرئيس نفسه حين حاول تبرير الإِخفاق في بذل المزيد من الجهد لفرض خطة «ارفع واضرب» في البوسنة.

عاد كرستوفر من جولته المهمة الأولى، «مختَرَقاً بوابل من الطلقات»، كما قال أَحد الزملاء. كانت هذه الرحلة غير الموفقة، باعتقاد جماعته، نتاج سياسة غير مدروسة بعمق، اعتمدها أناس غير مؤهلين لم يكونوا مؤيدين لها في الحقيقة. لم يكونوا يعرفون حقيقة أَن لاري إِيگلبيرگر كان، في الأَيام الأَخيرة من إِدارة بوش، قد قام برحلة مماثلة، ساعياً إِلىٰ إِقناع الأوروپيين بضرورة تغيير السياسة. وعلىٰ الرغم من أَنَّه كان، خلافاً لحال كرستوفر، صديقاً قديماً لكبار الشخصيات السياسيَّة الأوروپية، فإِنه ما لبث أَن اصطدم بجدار صواني كتيم. كان بيل مونتگمري، الذي كان كبير مساعدي إِيگلبيرگر، يعمل في مركز عمليَّات وزارة الخارجيَّة يوم كان مبرمَجاً لطائرة كرستوفر أَن تعود إِلىٰ واشنطن، حين تلقى مكالمة من بيث جونر، سكرتيرة كرستوفر التنفيذية. قالت بيث إِنهم كانوا في الجو في طريق العودة وإِن اللفتنانت جنرال باري ماكّافري كان معهم ممثلاً لكولن پاول في الرحلة. أضافت السكرتيرة أَن ماكّفري كان يحدثهم عن رحلة مماثلة قام بها إِيگلبيرگر في كانون الأَول الماضي، وسألت: «هل تستطيع أَن تحدّثنا عن تلك الرحلة؟» أصيب مونتگمري بالذهول إِزاء قلة معلوماتهم عن الرحلة التي سبقت رحلتهم مباشرة.

كان كرستوفر سيعترف لاحقاً بأن الجميع كانوا قد استخفّوا بمدى قوة معارضة الأوروپيين لأي تغيير في السياسة، وبمدى ما كان يمكنهم أَن يصلوا

إليه من قسوة في محاربة مثل هذا التغيير. وصل كرستوفر يوم الجمعة، وقدّم تقريره إلىٰ القيادات الرئيسية يوم السبت. اعترف بقوة المعارضة الأوروپية غير أنّه قال إن السياسة كانت لا تزال قابلة للتطبيق. ومن أجل تطبيقها كان سيتعين علىٰ المعنيين أَن يبقوا متمسكين بالخط، وعلىٰ الرئيس أَن يوفِّر لها قَدْراً غير قليل من الزخم ويمارس ضغطاً قوياً جداً علىٰ الحلفاء. كان لا بد من نبذ كلمة **استشارة**؛ إن المطلوب هو **إبلاغ** الحلفاء [لا التشاور معهم]. كان من شأن ذلك أَن يتطلب استخدام قَدْر غير قليل من موارد الرئيس وطاقاته مع قَدْر كبير من اهتمامه ورعايته. إن الشيء الوحيد الذي تذكّر كرستوفر أنّه قاله هو: **إن الطريقة الوحيدة الكفيلة بإنجاح العمليّة يا سيادة الرئيس هي أَن تنخرط فيها شخصياً بصورة مباشرة**. حين انتهى كرستوفر من كلامه، لم يبادر أَحد إلىٰ تأييد ما قاله، مما أكّد أَن الاتصال الهاتفي الذي تلقاه في ألمانيا كان دقيقاً. غير أنّه لم يدرك ذلك، لم يرَ أَن اللعبة كانت قد تغيّرت وهو فيما وراء البحار، وجميع أعضاء الشرائح العليا عرفوا بما حصل من انقلاب باستثناء كرستوفر نفسه. لعل الدليل الأَكثر وضوحاً علىٰ ذلك هو صمت نائب الرئيس الذي كان منتظراً، لو كانت الظروف عادية، أَن يسارع إلىٰ تأييده. باتت البوسنة، علىٰ ما بدا، في مستوى أدنى حتى من مستواها السابق علىٰ سلم الأولويات الرئاسية، ذلك المستوى الذي كان قد تصوره لدى انطلاقه إلىٰ رحلته الأوروپية.

كانت الرحلة شديدة التدمير وكثيرة الأضرار بالنسبة إلىٰ إدارة كلنتون وخصوصاً بالنسبة إلىٰ كرستوفر نفسه. اعتُبر الأَمر تبادلاً للآراء، غير أنّه كان، كما قال مساعد سابق لوزير الدفاع يدعى ريتشارد بيرل، بشيء من المكر والخبث، بعد سنة، أمام لجنة الشؤون الخارجيَّة في البرلمان، «تبادلاً بالفعل: ذهب وارن كرستوفر إلىٰ أوروپا ومعه خطة أَمريكيَّة، وعاد من هناك ومعه خطة أوروپية»[3]. كان كرستوفر قد جعل من نفسه، برغبة أَو بدونها، هدفاً. أدّت

(3) مقابلة مع مارشال هاريس؛ مارشال هاريس في مستروفيتش، 242.

العمليَّة إِلىٰ تشويه صورته، مما تمخض عن جعله، برأي بعض أعضاء الحلقة الكلنتونية الداخليَّة، أكثر حذراً بالتأكيد إِزاء المحاولات المترددة لتغيير السياسة، إِن لم يفض إلى تحويله شخصياً إِلىٰ مواقف حمائمية أكثر مما في السابق. كانت خلاصة الدرس، باعتقاد المحيطين بكرستوفر، هي أن رحلة كتلك لا يجوز الإِقدام عليها مرة أُخرى. لن تبادر الولايات المتحدة إِلىٰ التشاور. إِن عليها أن تقرّر سياستها بصورة مسبقة ثم تقوم بشرح تلك السياسة لحلفائها.

بدأ فريق كلنتون، المتوجس من السياسة الخارجيَّة عموماً، بالتراجع عن البوسنة مباشرة انسجاماً مع افتقار الرئيس نفسه إِلىٰ الالتزام. فحين بادر شاب في دائرة التخطيط السياسي يدعى جون فوكس، ناشط معروف بصراحته، إِلىٰ التعبير عن خيبة الأمل التي أُصيب بها إِزاء إِخفاق الإِدارة في السير قُدماً في البوسنة، سارع رئيسه، سام لويس، إِلىٰ التعليق قائلاً: «يجب أن تتذكّر أن رئيس جمهوريَّة السياسة الخارجيَّة يعيش الآن في هيوستن».

وبعد قليل كان كرستوفر سيشهد أمام الكونگرس معترفاً بأن البوسنة «كانت المشكلة الآتية من الجحيم»، كما كانت رحلته ستلقي بظل ثقيل علىٰ جزء كبير من فترة توليه لمنصب وزارة الخارجيَّة. وفيما بعد سيتحدّث عن أن الخلاص من مضاعفات تلك الرحلة وتأثيرها علىٰ سلسلة طويلة من القضايا الأُخرى استغرق أكثر من سنتين اثنتين. وباعتقاد البعض فإِنّه لم يتعافا تماماً من صَدْمتها. لقد أَصبح الهدف النموذجي لتلقي سهام النقد الموجّهة إِلىٰ سياسات كلنتون. بدا كما لو كان واقفاً وحده أمام الدريئة والضربات منهمرة عليه. لم يبادر قط إِلىٰ الرد علىٰ النقد؛ كان أكثر الرجال رُواقية، مسلِّماً بأن دوره في العمليَّة هو الاضطلاع بمهمة جراب الملاكمة لتلقي الضربات الموجهة إِلىٰ مخدومه. فتوجيه الانتقادات إِليه كان يعني قيامه بأداء وظيفته. ربما كانت رواقيته ذات علاقة بجيله، صفة موروثة عن حقبة ما بعد الحرب العالميَّة الثانية.

لم يتذمّر قط؛ لم تكن الشكوى جزءاً من تركيبته، كما لم يبد أي إشفاق ذاتي.

كان كرستوفر الرجل الأكثر انضباطاً الذي رآه أيٌ من مساعديه. درج على الاستيقاظ في ساعة مبكرة، الجري بضعة أميال، والجلوس وراء مكتبه غارقاً في العمل حين تكون عقارب الساعة مشيرة إلى السادسة والنصف. إذا حملت الصحف كمية عادلة من النقد الموجّه إليه، كما فعلت عادة، فإنّه كان يستخدمها مهمازاً ليعمل بقدر حتى أكبر من الجهد. لدى ذهابه إلى البيت مساء كانت طاولته تبقى خالية من الأوراق. عند نهاية يوم شاق، طويل، كان من الممكن أن يجلس أمام شاشة التلفاز في مكتبه، محتسياً كأساً واحدة من النبيذ. تمثل المؤشر الدال على أنّه في حالة استرخاء بخَلْعِه لسترته. كان مع عدد قليل من مساعديه يشاهد نشرة الأخبار المصوّرة، ليلة بعد ليلة، كان ثمة تقرير سريع، مبسّط جداً بالضرورة، عنه، مفصلاً في أحيان كثيرة، باعتقاد مساعديه، أسوأ ما كان قد حدث في ذلك اليوم. كان كرستوفر يتابع بصمت، ثم يقول إنّه لم يكن أفضل أيامهم، غير أنهم سيعودون ثانية إلى المكتب في الساعة السابعة صباحاً.

بعد اصطدامها بالجدار بأولى حركاتها التي كانت شبه مترددة، راحت الإدارة تتراجع عن البوسنة باعتماد سياسة عُرفت بسياسة الاحتواء التي عَنَتْ السعي لمنع الأمور من أن تزداد سوءاً دون القيام بشيء ذي شأن. فهؤلاء الناس، حسب زعم هذا المنطق، ظلّوا دائبين على قتل بعضهم البعض منذ قرون ونحن عاجزون عن أن نفعل شيئاً ذا بال حتى يتخذوا قراراً بالتوقّف. ذلك النمط من الخطاب جرى استخدامه خلال سنوات بوش وكان قد وضعه إيگلبيرگر، غير أن المتمردين في وزارة الخارجيَّة العازمين على محاربة السياسة القديمة والحالمين بالتغيير مع مجيء إدارة بوش، فوجئوا حين وجدوه الآن صادراً عن جماعة كلنتون.

ثمة كان أيضاً قدر من التناقض الأخلاقي الجديد في كلمات كرستوفر التي جاءت عاكسة لتناقض الإدارة على الصعيد السياسي. ففي الثامن عشر من

أيار/ مايو 1993م، مثُل أمام لجنة الشؤون الخارجيَّة في المجلس وتحدَّث عن أعمال الإِبادة المقترَفة من جانب المسلمين ضد الصرب. أدَّى ذلك إِلىٰ ترويع بعض مرؤوسيه الذين طالما تعاركوا مع مشكلة الفظاعات الشنيعة المقترَفة من قبل الصرب ضد المسلمين. جاء الكلام مناقضاً مئة بالمئة لكل ما قيل في الحملة، ذلك الذي توهموا أنه ما لبث أَن غدا سياسة. غير أَن كرستوفر كان، وهو المتأكد من أَن سياسة الإِدارة كانت بالغة الهشاشة، قد أرسل، قبل يوم واحد من موعد مواجهة اللجنة، طلباً عاجلاً إِلىٰ مكتب حقوق الإِنسان في الوزارة للحصول علىٰ المزيد من المعلومات عن فظاعات مسلمي البوسنة ضد الصرب. لا شيء سلّطَ الضوء بقدر أكبر من الوضوح علىٰ أَن جماعة كلنتون كانت عازمة علىٰ التراجع عن وعودها السابقة مثل ذلك الطلب. كان هناك، علىٰ ما بدا، كلبان في ذلك الشجار ولم يكن أَي منهما مفضلاً علىٰ الآخر لدينا.

شكَّل صيف 1993م بداية الأَيام المشؤومة بالنسبة إِلىٰ كرستوفر. فالإِخفاق في التحرّك في البوسنة والتناقض بين الخطب الأَمريكيَّة والأفعال الأَمريكيَّة بقيا معلّقين فوق الوزارة مثل كتلة هائلة من الغيوم. قد لا يكون جيش الإِعلام الواشنطني، بعد أَن باتت معايير التسلية تهيمن علىٰ معايير الصحافة ذات الطراز القديم، علىٰ الدرجة ذاتها من الجدية كما كان ذات يوم. فأنظار هذا الجيش أَصبحت مشدودة أَكثر من أَي وقت مضى إِلىٰ الفضائح والمشاهير، وصارت أقل التفاتاً إِلىٰ باقي العالم. غير أَن جيش الإِعلاميين المتخصِّص بتغطية أخبار وزارة الخارجيَّة كان استثناءً ملحوظاً. بقي متمسكاً بالمبادئ والمعايير القديمة، وظلَّ عناصره شديدي الجدية إِزاء مسألة علاقة أَمريكا مع باقي العالم. ربما كان أعضاؤه ميّالين إِلىٰ الإِعجاب بكرستوفر شخصياً وربما شعروا ببعض التعاطف معه جراء اضطراره للعمل مع رئيس سائب غير ملتزم، غير أنّهم بقوا متشددين في محاسبته. ففي ذلك الصيف، حيث هيمن إِخفاق

أَمريكا في البوسنة علىٰ الساحة الأكبر للسياسة الخارجيَّة، بدأ بعض كبار قادة جيش الصحافة يجدون نسخة عن وزير الخارجيَّة في المؤتمر الصحفي، رجلاً يبحث في الغرفة عن وجه آسيوي أَو أفريقي، عن شخص، أَي شخص، يسأل عن أَي جزء من العالم باستثناء البلقان.

وهكذا فإِن فريق كلنتون بدأ عامه الأَول في الحكم مثقلاً بأزمة البوسنة الباقية بلا حل علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة، مع صدع فلسفي عميق يفصله عن الجيش. صحيح أَن هذا الفريق قد استولى علىٰ البيت الأَبيض، غير أنّه لا يزال بحاجة لإِنجاز مهمة الاستيلاء علىٰ الحكم والإِدارة ـ وهو شيء مختلف كثيراً. كان أعضاء الفريق ناجحين نسبياً حين ينتبهون، غير أنّهم لم يكونوا يكثرون من فعل ذلك مع السياسة الخارجيَّة. مهووسين بمشكلة تقليص العجز مع قضايا داخليَّة أُخرى، ومتغافلين عن جميع الأماكن الخطرة، كان هؤلاء مقبلين علىٰ اقتراف خطيئة بالغة الخطورة في ميدان السياسة الخارجيَّة.

الفصل الحادي والعشرون

مما لا جدال حوله أن أكثر أعضاء فريق كلنتون ثقة وخبرة، ذلك المخضرم الوحيد الذي تم استبقاؤه من إدارة بوش، هو الجنرال كولن پاول الذي كان يعرف ما تريد الإدارة حصولَه في البوسنة. غير أن تلك الخطة كانت، باعتقاده، مستندة إلىٰ الحلم والأمل، لا إلىٰ الواقع، ولم يكن الحلم أساساً مقبولاً لأي التزام عسكري. فپاول وكثيرون من كبار قادة الجيش أقاموا تصوّراتهم ليوگوسلاڤيا علىٰ الضراوة والمهارة اللتين ميّزتا حرب فدائيي الأنصار ضد الألمان خلال الحرب العالميّة الثانية. وفي حالات كهذه تعيّن علىٰ رئيس هيئة رؤساء الأركان، برأي پاول، أن يتأمّل ويقدّر ما ليس متوقعاً، لا ما هو متوقع. كثيرون من الشباب اللامعين في وزارة الخارجيّة بل وبعض عناصر وكالة الاستخبارات المركزية كانوا يؤكّدون أن الجيش القومي اليوگوسلاڤي مبالغ في تضخيمه يعاني من مستويات عالية من الهروب والإدمان علىٰ الكحول، غير أن پاول بقي مسكوناً بالشك. فالناس كانوا قد قالوا أشياء مماثلة عن الجيش الڤيتنامي الشمالي أيضاً. قيل إن الجنود يجري إجبارهم علىٰ القتال، إن معنوياتهم في الحضيض، إن صبية صغاراً دون سن التجنيد يجري ربطهم بالسلاسل بمدافعهم الرشاشة. غير أن ذلك كله لم يكن صحيحاً، خصوصاً لدى قتالهم ضد الأمريكيين. كانت معنوياتهم عالية تماماً، شكراً علىٰ المعلومات! ربما كانت وحدات الجيش اليوگوسلاڤي تعاني من مشكلات معينة لدى اضطرارها لمحاربة شعب يوگوسلاڤيا بالذات. ولكن ماذا حين تشتبك مع

أَمريكيين غزاة في نظرهم جاؤوا لاجتياح الأَرض **اليوگوسلاڤية**؟ من شأن ذلك أَن يكون مختلفاً تماماً، مع مناشدة أقوى بكثير للنزعة القوميَّة ـ الوطنية. بقي پاول كثير الارتياب.

كان كلنتون، علىٰ رأس الإِدارة غير الواثقة بنفسها والراغبة في تجنّب أية التزامات سياسيَّة خارجيَّة، قد دخل البيت الأَبيض في اللحظة التي تربع فيها كولن پاول علىٰ قمة عرش شهرته بالذات. صحيح أَن جماعة كلنتون كانت قد كسبت الانتخاب، غير أنّها كانت في بداية الطريق. كان عناصرها أعضاء حزب سياسي ظل بعيداً عن السلطة مدة اثنتي عشرة سنة. أَمَّا پاول، علىٰ النقيض من ذلك، فلم يكن له نظير في الإِدارة علىٰ صعيد الخبرة، التمتّع بالاحترام، والتحلي بالمهارة في التعامل مع تركيبة السلطة في واشنطن ـ سواء البيت الأَبيض، الپنتاگون، الكونگرس، أم وسائل الإِعلام.

في خريف 1992م كان جنرال الجيش ورئيس هيئة رؤساء الأركان، كولن لوثر پاول ، قد برز بوصفه الشخصية العامة الأقوى ـ والأَكثر تمتعاً بالثقة. لقد كان الرجل أشياء كثيرة مختلفة بالنسبة لكثيرين من مشارب متباينة. كجنرال كان المصمِّم والمهندس الرئيسي للتدخّل العسكري الأَمريكي الناجح في حرب الخليج. غير أنّه، مثله مثل دوايت إِيزنهاور قبله، لم يبد ميَّالاً للحرب، وحين تحدَّث عنه أَحد المنتقدين باستخفاف واحتقار علىٰ أنّه محارب علىٰ مضض، كان قد سارع إِلىٰ الموافقة علىٰ التوصيف. اعتبره وصفاً مفضَّلاً. من الواضح أنّه ذكي؛ فخطبه ولقطاته التلفزيونية غير الرسمية ميّزته رجلاً يتقن فن استخدام اللغة إِتقاناً استثنائياً. يتمتع بقدر كبير من اللباقة والدعابة الطبيعيتين، مع قَدْر كبير من المهارة والمرونة الاستثنائيتين كبيروقراطي. غير أَن پاول كان، قبل كل شيء آخر، تجسيداً لقصة نجاح أَمريكيَّة عظيمة، زنجياً حقّق فوزاً ووصل، متجاوزاً جملة من العقبات التي لا يُستهان بها، إِلىٰ القمة في عالم مأهول بالإِنسان الأبيض، لا في عالم برج عاجي لطيف ونموذجي سياسياً، بل في أحد

أَكثر المؤسّسات خشونة، في جيش الولايات المتحدة. ولعل ما هو جدير بقَدْر أكبر من الملاحظة هو أَنَّه خريج CCNY للضبّاط الاحتياط في عالم خريجي الأكاديمية العسكريَّة في وست پوينت. كان قد ارتقى وصولاً إِلىٰ القمة بفضل الاجتهاد والتميّز، إِضافة إِلىٰ التوقيت التاريخي المثالي.

ترعرع في البرونكس، ابناً لأبوين من المهاجرين من جامايكا، كانا، كلاهما، يعملان في حي الملابس؛ كانت أمه تعمل بالقطعة، ويحتفظ پاول بذكريات فتوة حية عن قيامها كل يوم خميس بعدّ اللصاقات الورقية المثبتة علىٰ الملابس التي خاطتها، وجَمْعها في حُزَم صغيرة ملفوفة بحلقات مطاطية. يقول «تلك كانت طريقة حصولك علىٰ الأجر، مبلغ معين من المال مقابل كل لصاقة»[1]. كانَ جزءاً من أسرة جامايكية كبيرة، موسعة لأناس إِما أقارب أو معارف من الوطن القديم، وما لبثوا أَن أَصبحوا ناجحين في الولايات المتحدة. شكّل التعليم عاملاً مفتاحياً في تجربتهم ونجاحهم. بدا پاول لبعض الوقت، وهو صبي، متخلّفاً بعض الشيء عن أعضاء العائلة الآخرين، ودون توقعاتها، شخصاً لم يكن متميزاً في المدرسة، ولم يستطع أن يهتدي إِلىٰ محرابه الخاص بنجاح. ساقته الأقدار إِلىٰ كلية مدينة نيويورك بدلاً من جامعة نيويورك سنة 1954م، بعد إِنهاء المرحلة الثانوية بدرجة متوسطة، لأَن المعهد كان أرخص، حيث تعثّر هنا أَيضاً لبعض الوقت.

ثم التحق بالوحدة الاحتياطية في الكلية، حيث وجد للمرة الأولى شيئاً كان متفوّقاً فيه، شيئاً تمثّل بعمليّات التدريب والانضباط. عشق ذلك، والناس في الوحدة أحبوه ولبّوا مستلزمات قدراته. تخرّج من معهد مدينة نيويورك CCNY سنة 1958، حين كانت حركة الحقوق المدنية، التي ستنطوي علىٰ أَهميَّة كبيرة بالنسبة إِلىٰ الكثير من المؤسّسات، لا تزال جنينية. لم تكن ثمة كثرة من

---

(1) هالبرشتام، **الاستعراض**، 17/ 9/ 1995م.

الفُرَص المتاحة للخريجين الزنوج. غير أَن الجيش كان يتغيّر بوتيرة أسرع من البلاد بكثير: ثمة كان عدد أكبر فأكبر من المتطوعين، وكثيرون من كوادر الجيش المحترفين، يصبحون، بُعيد الحرب الكورية، من الزنوج. تحت تأثير جاذبية المكاسب التي كان الجيش يوفِّرها مع غياب الفرص في الحياة المدنية، كان الزنوج يفضّلون البقاء ويصبحون ضباطاً محترفين في الحرس الوطني، حتى حين كان البيض، ذوو الحظوظ الأفضل خارج الجيش، يغادرون مع انتهاء فترة خدمتهم. من الواضح أَن أعداداً أكبر من الضباط الزنوج ما لبثت أَن باتت مطلوبة.

إِثر تخرّجه في معهد مدينة نيويورك تم إِلزام پاول بفترة خدمة مدتها ثلاث سنوات وحين انتهت تلك الفترة في 1961م، وكانت أعداد كبيرة من الضباط البيض العاملين والاحتياط يتركون الخدمة، بادر پاول إِلىٰ التجديد. في الحقيقة، لم يفكّر قط بترك الجيش. أية مهن أُخرى كانت موفَّرة لشاب زنجي محدود الإِمكانيات والارتباطات؟ تساءل في إِحدى المرّات. هل يعمل في حي الملابس مثل أبويه؟ هل يعرض شهادة الجيولوجيا التي حصل عليها من معهد نيويورك علىٰ تنفيذيي الشركات النفطية طلباً لوظيفة في أعمال التنقيب عن النفط في تكساس أَو أوكلاهوما؟ إِذا بقي في الجيش فإِنه يستطيع أَن يحصل علىٰ 360 دولاراً في الشهر، أَو 4020 دولاراً في السنة. وفيما بعد كتب پاول يقول إِن الجيش كان المجال الأَكثر نُدْرة، المجال الذي أتاح له فرصة الوصول إِلىٰ أقصى ما سمحت به موهبته[2].

اكتشف پاول أَنَّه ناجح كجندي. قلما واجه أشكالاً من التحامل في القاعدة، وإِن تعثّر أحياناً بشيء من التمييز خارج الثكنة، خصوصاً في الجنوب. أحب الروح الرفاقية، ولاء الرجال ليس فقط للجيش بل ولبعضهم البعض،

---

(2) المصدر السابق.

وذلك الشعور بالهدف المشترك، الذي بات شعوراً غير عادي، بالنسبة إلىٰ أَمريكا الحديثة الغارقة في الوفرة. أحب واقع أَن يكون ما يطلبه الجيش منه واضحاً وضوح الشمس علىٰ الدوام. لم تكن ثمة أية رسائل ملتبسة وكان عادة يعرف ما يمكن توقعه ممن هم فوقه. بنزوعه الاجتماعي وسحره الطبيعيين، مضافين إلىٰ قَدْر هائل من الطموح والانضباط، كان مؤهلاً لأَن يحقّق أشياء كثيرة في الجيش. فحين أَقْدمت قيادة الجيش بالذات خلال الحرب في ڤيتنام وبعدها مباشرة علىٰ التنكّر لمبادئ تلك المؤسسة الأخلاقية وعلىٰ إِلحاق قَدْر كبير من الأذى بها، إنما كانت تسيء إِلىٰ عائلته ـ لأَن الجيش كان أسرته الثانية بالمعنى الحقيقي للكلمة ـ إِساءة بالغة.

مما يثير الانتباه أَن شخصاً ارتقى من مثل هذه البداية المتواضعة إِلىٰ مثل هذا الموقع الرفيع كپاول لم يكن له أعداء كثر. أحياناً كان يستثير نوعاً من الامتعاض لدى أولئك الضباط الذين كانوا قد ارتقوا إِلىٰ مواقعهم بفضل الأوامر ـ التميز في ساحة القتال فقط ـ ازاء الآخرين الذين كانوا قد ارتقوا حتى إِلىٰ مناصب أعلىٰ قليلاً رغم افتقارهم إِلىٰ المهارات القيادية المماثلة، ولكنهم تفوّقوا وبرزوا كأعضاء هيئات أركان. وقد كتب نورمان شوارتزكوپف عن پاول، حين شرعا يعملان معاً، «كانت شهرته [في الجيش ـ القوّات البرية] ملتبسة. كثيرون كانوا يرون أَنَّه نصف جنرال، نصف سياسي. في صعوده عبر المراتب، لم يسبق له قط أَن قاد فرقة ـ ساحة اختبار مهمة»[3]. كان پاول شاباً محبوباً، موهوباً كالجحيم، غير أَنَّه قطيعي، جماعي، كما كان شباب القتال سيقولون عنه بصورة عابرة، مضيفين أَنّه لم يكن متمتعاً بقَدْر كبير من الاحترام خلال الفترتين اللتين قضاهما في ڤيتنام. في الأولى كان قد عمل مستشاراً أَو خبيراً، وفي الثانية كان قد خدم في فرقة الأَمريكال المرقعة من وحدات أُخرى، إِحدى

(3) شوارتزكوپف، 288.

أسوأ الفرق في تاريخ الجيش. لعل أَكثر ضباطه حقارة هو الملازم الأَول وليم كالي الذي تولى قيادة الوحدات في ماي لاي.

بقي پاول فترة طويلة من الزمن ـ فترة السنوات الخمس عشرة الأولى أَو حولها ـ مستمتعاً بحياة مهنية جيدة. أَمَّا بعد ذلك، حين بدأت قوائم الترقيات تتقلّص بحدة وراح الكثير من ضباط الميدان الموهوبين يتصدون لنقاط ضعفهم في مجالات أُخرى ويبدؤون إِما بالتسرب أَو مغالبة الغرق بمواصلة تحريك الأَطراف في الماء، فما لبث وضعه الوظيفي أَن حلّق عالياً. ففي أَمريكا دائبة علىٰ التغيير السريع في الموضوع العنصري، أَو راغبة في ذلك علىٰ الأقل، باتت أبواب ـ ربما كانت موصدة فيما مضى، مُشْرَعة أمامه، وبدأت زنوجته ـ وهي التي ربما كانت ضده قبل قليل ـ تعمل لصالحه. في أَمريكا ما بعد الحرب العالميَّة الثانية كان الجيش في الطليعة بوصفه رب عمل فرص متكافئة، متقدماً باستمرار علىٰ المعدل القومي، خصوصاً علىٰ مستوى الدخول. وما لبثت قيادته أَن أدركت أَن عليها أَن تواكب نجاحاتها في قاعدة المؤسسة بنجاحات مماثلة في مستوياتها العليا. وفي سنة 1972م حصل پاول علىٰ رتبة زميل في البيت الأَبيض وبدأ مركزه يعلو ويعلو.

كعسكري يعمل مع مدنيين لم يكن له أَي نظير. وكلما أجاد زاد ارتفاعاً، وكلما زاد ارتفاعاً زاد إِجادة ونجاحاً، لأَن الناس المسؤولين عن تقويم عمله ازدادوا إِعجاباً بنوعية مواهبه الفريدة بصورة مطردة. ما كان عملاً جيداً جداً أَصبح عملاً عظيماً. بدأت سِمَاتُه الخاصّة، ذكاؤه، فِطْنَتُه، حساسيته ازاء الآخرين واحترامه لهم، فضلاً عن انضباطه وثقته بنفسه الاستثنائيين، بدأت تلك الميزات جميعُها بإِبرازه وتسليط الأضواء عليه. بات المدنيون الأقوياء في الجهاز البيروقراطي، أناس علىٰ مستويات وزارية ودونها مباشرة، يتسابقون للحصول علىٰ خدماته، ولكن ليس لأنهم كانوا يريدون أَن يُجْلسوا زنجياً،

كرمز، أمام مكاتبهم. كانوا يفعلون ذلك لأنَّه كان جيداً جداً، جداً، وما لبثوا أن اكتشفوا أَن مواهبهم مكّنتهم هم أَيضاً من أَن يبدو ناجحين.

كان الفضل الأكبر عائداً لانضباط پاول. صحيح أَن جميع العسكريين الذين يصلون إِلىٰ القمة انضباطيّون، غير أَن بعضهم يبدون أَكثر انضباطاً من غيرهم. كان ذلك صحيحاً بشكل خاص بالنسبة إِلىٰ جيل الضباط الزنوج الشباب الذي كان پاول منتمياً إِليه، أولئك الذين التحقوا بركب سلك الضباط حين كانت أشكال التحامل أقوى مما ستكون بعد خمس عشرة سنة حين وصل إِلىٰ منتصف حياته المهنية. كانوا يعرفون أنهم معرّضون، باستمرار، للتفتيش. وهؤلاء الضباط الشباب الزنوج ـ كما لاحظ صديق پاول الحميم مايك هننگبيرگ ذات مرة ـ كانوا مشدودين إِلىٰ بعضهم البعض بقوتين فعالتين. كانوا من الزنوج، أولاً، في عالم يعود إِلىٰ البيض، ولكنه عالم بيض بدا سائراً في طريق التحسّن. وكانوا، ثانياً، مغسولي الأدمغة من قبل آبائهم وأمهاتهم حول النجاح والارتقاء كانا مشروطين بالتحلي بصفات أفضل بكثير من أي شخص أبيض.

كان پاول جيداً جداً، في حالة مثالية فُضْلى علىٰ الدوام، لأَن ثمن عدم التحلي بالجودة، إِذا كنت زنجياً، كان باهظاً وقاسياً؛ لم يكن الأَمر ليقف عند عدم الارتقاء بسرعة، بل يتجاوزه إِلىٰ الانحدار بسرعة. غير أَن ما ساعده تجاوز صفتي الذكاء والانضباط. كان يتمتع بحاسة شم استثنائية لاستشراف المستقبل، وتلك ميزة بالغة الأَهميَّة في أي جهاز بيروقراطي، وخصوصاً في جهاز بيروقراطي عسكري؛ إِنها ميزة توقع ما يمكن أَن يحدث لاحقاً، وتمكين الرئيس من التفوّق في اللعبة. تلك كانت ميزة ثمينة في هذه المرحلة من حياته المهنية، مع دول عالم من يُعرفون باسم سُيّاس الخيل، الحلقة الداخليَّة لضبّاط الجيش اللامعين المتسلقين أعلىٰ فأعلىٰ لكونهم مساعدين لضباط كبار متنفذين. فيما مضى حين كانت هناك وحدات للفرسان ما تزال موجودة، كان هؤلاء مكلفين بالإِمساك بالجياد فيما يتأهب رؤساؤهم لامتطائها.

استوعب پاول أسلوب عمل الجيش والشريحة العليا للجهاز البيروقراطي المدني. كانت مهمته متركزة علىٰ حماية رئيسه في جميع الأوقات، علىٰ معرفة كل ما قد يؤثِّر علىٰ آلية صنع القرار لدى رئيسه، علىٰ معرفة الكمائن التي ينصبها الخصوم البيروقراطيون المحتملون، علىٰ معرفة مكامن الألغام البيروقراطية، وعلىٰ معرفة ما إذا كان أي شيء جديد دَخَل علىٰ المعادلة القائمة في غضون الساعات الأربع والعشرين الأخيرة. بدأ أيضاً يبدي الحذر الذي يبديه البيروقراطيون. ثمة كاتب خُطب جمهوري شاب يدعى پيتر روبنسون قال في كتابه **إنه حزبي** إنَّه حين ابتكر ما كان سيصبح أعظم جملة يتفوه بها رونالد ريگان ـ «لنهدم هذا الجدار» ـ أرادت البيروقراطية كلها، بمن فيها رئيس مجلس الأَمن القومي كولن پاول حَذْفَها. فقط ريگان أصرّ علىٰ الاحتفاظ بالعبارة.

مع مرور الزمن ما لبث پاول أن أَصبح شخصية موهوبة جداً من شخصيات الشريحة العليا من البيروقراطية مما جعل الوزارات المختلفة تحاول جَذْبه إِلىٰ صفها، ووجه مرة بعد أُخرى بخيارات صعبة بيْن ما كان مدنيون أقوياء يقدرون المسار الوظيفي الذي يتعين عليه أن يعتمده، والمسار الوظيفي المختلف تماماً الذي كان سيقع عليه اختياره هو. بدأ يخشى أَن يفضي قبوله بمثل هذه المناصب المدنية، بصرف النظر عن مدى تملّق العرض وأهميَّة الوظيفة، إِلىٰ جعله يفقد مرتبته العسكريَّة. تمت طمأنته مرة بعد أُخرى من قبل رؤسائه العسكريين حول أَن ذلك لن يحصل، وأن المكافآت ستبقى هي هي. وفي الحقيقة فإِن المدنيين الذين دأبوا علىٰ انتدابه وكبار ضباط الجيش الذين ظلوا يطمئنونه ويؤكدون له أفضلية قبول المناصب المعروضة، كانوا صادقين.

في بلد يعشق القصص، خصوصاً تلك المنطوية علىٰ مسحة هوارشيو آلجرية (كاتب أَمريكي من القرن التاسع)، كانت سيرة پاول إِحدى أفضل تلك القصص، وبدت ممتعة بالنسبة إِلىٰ جُل الجماعات السياسيَّة. لقد كان التجسيد الأخير والأَكثر إِثارة للإِعجاب، للحلم الأَمريكي. وبنظر الكثير من المحافظين

الساخطين علىٰ ما اعتبروه تغييراً عنصرياً من صنع الخارجيَّة، كان يشكّل تحدياً للصور النمطية عند الأسلوب المحتمل لتصرّف أَي زنجي في عالم رفيع المستوى، مضغوط، خاضع لهيمنة البيض، رغم أَن قبولهم استغرق بعض الوقت في بعض الأحيان. ففي اليوم الذي جرى فيه إِعلان تعيين پاول رئيساً لهيئة رؤساء الأركان علىٰ الصفحة الأولى من **النيويورك تايمز**، كان صديقه ڤيرنون جوردان في مطار الحوامات بمانهاتن حين صادفه أَحد كبار الصناعيين، المدير التنفيذي لشركة فورتشن 500، وسأله: «هل رأيت الجريدة يا ڤيرنون؟» فرد عليه ڤيرنون بالنفي. أضاف الصناعي: «أنت تعرفني يا ڤيرنون، وبالتالي تعلم بشكل أفضل من الجميع أنني من أنصار مبدأ تكافؤ الفرص. **أما منصب رئيس هيئة رؤساء الأركان؟ فهذا كثير!**».

مع حلول صيف 1992م كان پاول شخصية كاريزمية مهيبة. فهيمنته علىٰ تيار الوسط اللاإِيديولوجي للحياة الأَمريكيَّة باتت ظاهرة. راح من هم في تيار الوسط من الحزبين، كليهما، ينظرون إِليه بشغف حالمين بأن يجدوه مرشحاً لأحد المناصب القوميَّة ـ حتى لمنصب نائب الرئيس. كان جمهورياً، من النمط الملتحق بالركب حديثاً نسبياً بالتأكيد، جمهورياً من الحقبة الريگانية، بما عَنَى ضعف تأثّره بمواقف إِدارة كارتر من الدفاع، خصوصاً محاولتها غير المعقولة لإِنقاذ الرهائن في إِيران عبر غارة جريئة محمولة جواً ما لبثت أَن تكشّفت عن كارثة قابلة للتنبؤ. كان پاول قد برز سياسياً في الثمانينيّات كوَسَطي، كشخص أميل إِلىٰ المحافظة في شؤون الأَمن القومي، وكمعتدل في أمور السياسات الاجتماعيَّة الأوسع. اعتبر الجمهوريين المعروفين لديه أَكثر واقعية حول الأَمن القومي، وأَكثر تشدّداً أَيضاً. كان محافظاً، ولكن ربما من وسطيي بوش أَكثر من كونه من محافظي ريگان. شكّل تجسيداً لأفضل أحلام البلاد وإِمكانياتها، طليعياً جاكي روبنسونياً عاملاً في الجيش والأَمن القومي ممثلي القِيَم الوطنية القديمة والنظام الأخلاقي القديم في ميدان العمل. في أوائل التسعينيّات، لو

جرى بالفعل وقوع الاحتمال غير الوارد للإبحار في المعابر المراوغة الفاصلة بين أي معتدل والترشيح الرئاسي الجمهوري، لربما كان قد تم انتخابه رئيساً للجمهوريَّة.

كان كلنتون متنبهاً إلىٰ احتمال بروز پاول، بشعبيته الاستثنائية المخترقة للحدود الحزبية، مرشحاً رئاسياً بعد أربع سنوات. لم يقف الأَمر عند كون سجل پاول الڤيتنامي تناقضاً صارخاً مع سجله هو، بل تجاوزه إلىٰ قُدْرة الرجل علىٰ حرمانه من تأييد الليبراليين، المستقلين، والزنوج بالطبع، ممن ظلوا حتى ذلك الحين داعمين لكلنتون لأَنَّه بدا ملتزماً بالمساواة بين البيض والزنوج. من الممكن لكلنتون أَن يتحدَّث عن المساواة بين الطرفين، غير أَن پاول يمثّلها. إِذا كان ثمة نضال في سبيل تكوين تيار وَسَط سياسي معتدل في الحياة العامة الأَمريكيَّة، وهو ما ظل كلنتون دائباً علىٰ السعي إِلىٰ إِيجاده، فإِن پاول بدا، بنظر كلنتون، مؤهلاً أَكثر منه لتشكيل عنوان مثل ذلك التيار. في أية مباراة بين سيرتي حياة أَمريكيتين، لم تكن سيرة صبي أبيض من بلدة هوب الصغيرة بالغة السوء، غير أنّها بدت باهتة كثيراً مقارنة مع سيرة ابن أسرة زنجية مهاجرة مستقرة في برونكس أَصبح قائداً لجيش الأمة. فپاول لم يكتف بتشكيل تأكيد لنقاط ضعف كلنتون، بل وكان عامل تحييد لمواضع قوّته. وكلنتون الذي بقي دائباً علىٰ الجري ومعاينة المعارضة لم تغفل عينه قط عن پاول خلال فترته الرئاسية الأولى.

في عالم واشنطني باتت فيه حياة أَكثرية الناس الاجتماعيَّة أضيق في السنوات الأخيرة بسبب التحزّب الصاعد، كان پاول وزوجه آلما استثناءً. كانا وثيقي الارتباط باليمين الجمهوري والكونگرس، غير أنهما كانا من المواظبين النادرين من الحلقة الريگانية ـ البوشية الداخليَّة المدعوة بانتظام إِلىٰ حفلة رأس السنة المقامة من قبل بن برادلي وسالي كوِنْ في **الواشنطن پوست**، الميالين إِلىٰ تفضيل نخبة وسائل الإِعلام في المدينة. وقد شكّل ذلك تذكيراً بمدى نجاح

باول في إقامة سلسلة متنوعة من العلاقات الشخصية في واشنطن معروفة بأن كثيرين من أبنائها هم نتاجات تجارب مهنية أضيق بكثير، مثقلون بالشكوك إزاء كل من ينتمي إلىٰ مهنة أُخرى، وعاجزون تقريباً عن إيجاد أرضية مشتركة يتقاسمونها. صحيح أَن باول لم يكن، مثل الكثير من العسكريين، مولعاً بالإعلاميين علىٰ الدوام، غير أَنَّه تعايش معهم بنجاح استثنائي علىٰ مستويات كثيرة، مع النجوم كما مع من هم في القاع (جنود المشاة ـ الأغرار). لم ينظر باول قط، كما يفعل بعض المحافظين، إلىٰ وسائل الإعلام علىٰ أنها تجسيد للعدو الليبرالي، كما لم يعتبرها، مثل آخرين أقل حذلقة، صنماً أحادياً. لقد كان واقفاً علىٰ جملة تحولات وسائل الإعلام، مُنْزَلقاتها، مخاطرها، وفوائدها.

لم يأت عنوان سيرته الذاتية **رحلتي الأَمريكيَّة** مصادفة. إن صورة باول في التاسعة من عمره علىٰ الغلاف الأخير مَذَيَّلة بعبارة: «قصة حياة صبي من برونكس ترعرع ليعيش الحلم الأَمريكي». بدت الصورة ومعها العبارة عنواناً لموقع يكاد أَن يكون فريداً في الحياة الأَمريكيَّة حتى أنّ كتابه حقّق نجاحاً منقطع النظير، في وقت بدت فيه المذكرات السياسيَّة والعسكريَّة منهمرة علىٰ السوق كالقنابل، ورحلته الأَمريكيَّة التي نظمها رئيس دار النشر التي أصدرت كتابه، هاري إيڤانس، بدت أشبه بحَمْلة رئاسية أو تمهيدية علىٰ الأقل علىٰ الصعيد السياسي منها برحلة لترويج كتاب. تأكدت مواصفاته النجومية بالمبيعات وحدها في عالم أَصبحت فيه مبيعات الكتب تعبيراً عن الشهرة بدلاً من القيمة الأدبية. لقد بيع من كتاب **رحلتي الأَمريكيَّة** مليون وثلاثمئة وتسعة وخمسين ألف نسخة، في حين لم يُبَع من كتاب **عالم تحوّل**، عن الأحداث الهائلة لنهاية الحرب الباردة بقلم جورج بوش وبرنت سكوكروف سوى تسعة وأربعين ألفاً وخمسمئة نسخة.

مِثْلَ الكثير من العصاميين الذين صنعوا أنفسهم بأيديهم، كان باول يعرف

قيمته. كان قد تم اختباره مرة بعد أُخرى كما لم يحصل إلاً للقليل من المدنيين الشباب الذين يصلون إلىٰ مواقع السلطة اليوم. فهو لم يقف عند حدود خدمة الوطن بشرف في ڤيتنام، بل واجتاز حقبة ما بعد ڤيتنام الصعبة، حين تدهورت مكانة الجيش إلىٰ الحضيض من حيث المعنويات والوضع الاجتماعي. كان بين القادة الذين انتشلوا الجيش من أيام ما بعد ڤيتنام الرهيبة تلك. فمع وصول جماعة كلنتون إلىٰ السلطة كان پاول في قمة قوّته ونفوذه شاعراً بالمكان الذي يقف فيه علىٰ المسرح بقوة. كان قد **كسب** نفوذه في قضايا ذات علاقة بالأَمن القومي، حتى ولو كان رئيس الجمهوريَّة أقوى، من حيث السلطة الدستورية. فنقطة قوة پاول الكبرى ـ خلاصته الجوهرية ـ كانت نقطة ضعف كلنتون الكبرى؛ وكلاهما كانا يدركان ذلك، ويعلمان أَيضاً أن كلاً من الكونگرس والجمهور يعرفانه أَيضاً.

كان پاول واقفاً بدقّة علىٰ من يكون، ما يؤمن به، وما يمثّله ـ قوات الولايات المتحدة الأَمريكيَّة المسلَّحة. وكان واقفاً أَيضاً وبالتحديد علىٰ ما أراد تجنُّبَه ـ تلك الطريقة المستهترة، غير المدروسة بعمق، والمخادعة بصورة متعمدة في صنع القرارات التي كانت قد أفضت إلىٰ الهزيمة الكاملة في ڤيتنام. ثمة بيروقراطي كبير سابق هو نفسه، كاتب افتتاحيات في **التايمز**، ما لبث أَن أَصبح رئيساً لمجلس العلاقات الخارجيَّة، يدعى لَسْ گلب، علّق قائلاً: «لعل إِحدى نقاط القوَّة الكبيرة غير المقدَّرة حق قدرها في الإِدارة هي قوة الإِيمان والاقتناع، وقد كان كولن پاول في الكثير من الاجتماعات رجلاً ذا قناعات قوية ـ قناعات راسخة وثابتة، متولدة من تجاربه الخاصة، وقد جعلته شخصية قوية داخل الإِدارة»[4]. فمشاعر پاول حول ڤيتنام وحول إِخفاق القيادة ـ العسكريَّة والمدنية علىٰ حد سواء ـ كانت قوية ولكنها عاطفية في الوقت نفسه، أشبه بغضب شخص شاب من عَمٍّ عنيد أقدم علىٰ تَصَرّفٍ غبي من ناحية وغير

(4) مقابلة مع گلب.

أخلاقي من ناحية ثانية، مبدداً ثروة العائلة وملطخاً سمعتها بالعار في الوقت نفسه. كان يكره فكرة إرسال أبناء الآخرين للقتال في حرب مخطَّطة بصورة اعتباطية، مع ربط القرارات العسكريَّة باعتبارات سياسيَّة داخليَّة خفية. كان يمقت أشكال التمييز الطبقي التي كانت قد حدَّدت هوية الذاهبين إلىٰ ڤيتنام وأولئك الذين لم يذهبوا، تلك الأشكال التمييزية التي كان يطلق عليها اسم «العار المُنَافي للديمقراطيَّة». («لن أستطيع قط أن أغفر لقيادة قالت ما معناه: هؤلاء الشباب ـ الأفقر، الأقل تعليماً، الأقل امتيازات ـ يمكن إنفاقهم (اعتبرهم أحدهم مرة «طعام مدافع اقتصادي») أَمَّا الباقي فأثمن من المخاطرة بحياتهم. إنني غاضب من أن يكون عدد كبير جداً من أبناء الأقوياء والمتنفذين وهذا العدد الكبير أيضاً من الرياضيين المحترفين. . . استطاعوا المراوغة والاحتيال علىٰ القرعة في وحدات الاحتياط والحرس القومي»)[5]. كان يكره الكذب الذي شارك فيه الكثير من كبار الضباط لجعل سير الحرب والتقدم الحاصل فيها يبدو أكبر مما هو في الواقع بغية الترويج للحرب سياسياً في البلاد، وصولاً إلىٰ حماية مواقعهم الوظيفيَّة.

في عمليَّة شن تلك الحرب كانت القيادة المدنية مسيطرة سيطرة كاملة فضلاً عن قيامها، حسب رأي پاول وعدد غير قليل من نظرائه، بجر هيئة الأركان المشتركة إلىٰ صفها. كان الجنرالات ألعوبة بأيدي المدنيين، خصوصاً بأيدي ليندون جونسون وروبرت ماكنمارا، حيث جرى استخدام بعضهم ضد بعضهم الآخر فضلاً عن الوصول مع الزمن إلىٰ رَشْوَتهم بالصفقات والمكاسب الفئوية الضيقة. لم يتم قط تحديد الأدوار، المهمات، الاستراتيجية، ومستوى الوحدات بوضوح. لم تكن المسألة، باعتقاد پاول، إلاَّ مسألة التزام سابق قام علىٰ الأَمَل بدلاً من الواقع. الأمل بأن تكنولوجيتنا العسكريَّة ستفعل فعلها. الأمل بأن يُحْجم شعب ڤيتنام الشمالية عن الرد إِذا أرسلنا وحدات قتالية إلىٰ

---

(5) پاول، 148.

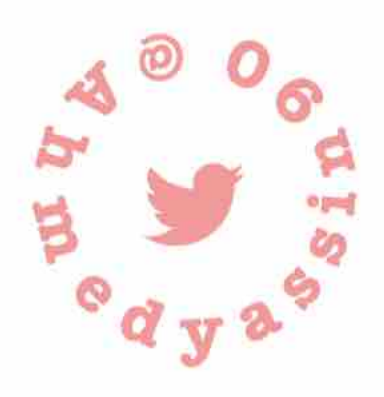
الجنوب. الأمل بأن تتعرّض وحدات المشاة الڤيتنامية الشمالية الموهوبة والمصقولة بالمعارك، تلك التي كانت قد قاتلت الفرنسيين بقَدْر كبير من المهارة والشجاعة، للانهيار لا لشيء إلاّ لأنّها كانت الآن تحارب الأمريكيين وفي حرب لم تعد استعمارية (كولونيالية).

لعل أسوأ الأشياء عن الحرب ـ ما كان شديد التدمير للجيش وباهظ الثمن للبلاد وثقيل الوطأة على الكثير من الأُسر ـ كان، برأي پاول، متمثلاً بصيرورة رؤساء الأركان المشتركة، برغبة أَو دونها، متواطئة في التآمر وابتداع هذا العدد الكبير من الأكاذيب والأضاليل. لقد كان رجلاً حصيفاً إلى الحدود القصوى وكاتباً موهوباً حريصاً على انتقاء العبارات بعناية. ما فعله رؤساء الأركان المشتركة كان، برأيه، «كارثة للقيادة». كانوا قد سمحوا لرئيس جمهوريّة الولايات المتحدة ووزير دفاعه أَن يُقْدما على تصرّف مشؤوم حقاً ـ أَن يُقْحما أَمريكا في الحرب دون إِجبار قادتها المدنيين على التعامل معها بصدق وشرف. لم يتم وضع الفاتورة على الطاولة قط. قال پاول: «كانت العمليّة مثيرة لقَدْر غير محدود من **السخط**». بالنسبة إِلى پاول وضباط آخرين من جيله، كان ضياع الوحدة والتلاحم داخل الجيش مدمّراً مثل الإِخفاق في خوض الحرب بنجاح. فهؤلاء كانوا قد رأوا الفساد يصل حتى إِلى أدنى المستويات. فقد كتب لاحقاً أَن «عدداً كبيراً من أبناء جيلي، من النقباء والرواد والمقدمين المحترفين المكتوين بنار تلك الحرب أقسموا على أننا، حين يأتي دورنا في تولي القيادة، لن نرغب ولن نقبل بأية حروب نصف جدية لأَسباب نصف ناضجة لا يستطيع الشعب الأَمريكي فهمها أَو دعمها. إِذا استطعنا أَن نفي بذلك الوعد الذي قطعناه أمام أنفسنا، أمام القيادة المدنية، وأمام الوطن، فإِن التضحيات التي قُدّمت في ڤيتنام لن تكون قد ذهبت أدراج الرياح»(6).

---

(6) المصدر السابق، 149.

في المواجهة مع بيل كلنتون ومستشاريه المدنيين حول الآراء المطروحة بشأن التدخّل في البوسنة سنة 1993م، كان كولن پاول رجلاً شديد الحذر والتحفّظ يمثّل مؤسَّسة بالغة الحذر والتحفّظ. كان، دون أدنى شك، العضو الأبرز والأكثر نفوذاً في فريق الأَمن القومي الرئيسي لدى كلنتون، ذلك الفريق الذي كان أعضاؤه الآخرون جُدَداً وغير راسخي الثقة بأنفسهم وبقدراتهم. أضف إلىٰ ذلك أنهم كانوا، جميعاً، في خدمة رئيس جديد غير مجرَّب كان قد قطع، بشيء من التهور والطيش، عدداً من التعهدات التي قد يعجز عن الوفاء بها في أثناء الحملة. فبعد رحيل آخر الأَمريكيين عن سايگون بثماني عشرة سنة، كانت قوتان كبيرتان موشكتان علىٰ التقابل في البيت الأَبيض منطلقتين من موقفين مختلفين جداً من أشكال استخدام القوّة الجويّة الأَمريكيَّة.


@Ahmedyassin90

الفصل الثاني والعشرون

بدأت المشكلة كما لو كانت مسألة ثقافية. لم يكن كلنتون مرتاحاً في علاقته مع الجيش. حتى أداؤه للتحية ـ كقائد أعلىٰ ـ في المناسبات التي التقى فيها بالجيش كان مهلهلاً إلىٰ حد أثار قلق مساعديه. فقد كتب جورج ستيفانوپولوس: «كانت رؤوس أصابعه تلامس رأسه المائل قليلاً خلسة وبمكر، كما لو كان يقترف عملاً يُفترض فيه ألا يقترفه»[1]. وبعد جدل طويل حول تحديد الشخص الذي سيبلغه بضرورة تغيير طريقته في أداء التحية، جرى تكليف توني ليك بالمهمة آخر المطاف. ألم يكن هذا قد أمضى فترة طويلة من الوقت في ڤيتنام؟!

كان القفز من ليتل روك إلىٰ البيت الأَبيض أصعب وأغلى ثمناً مما كان كلنتون الواثق جداً بمواهبه السياسيَّة قد توقعه. من الواضح أَن المجال الذي كانت فيه خبرته هي الأقل هو مجال السياسة الخارجيَّة. وفي هذا المجال كانت جماعة كلنتون قد اعتزمت معالجة سلسلة من القضايا المختلفة بطريقة آنية، وكلاً علىٰ حدة. ربما كان العالم دائباً علىٰ التغيّر، ربما كانت الأزمات المتفاقمة في سلسلة من البلدان الأجنبية ناجمة، إلىٰ حد كبير، عن جملة النزعات القوميَّة، العشائرية ـ القبلية، وانهيار نظام كان قائماً، غير أَن أَحداً لم يحاول أَن يعتمد خطة نظرية أوسع عن كيفية التعامل مع هذه الأزمات ومعالجة

---

(1) ستيفانوپولوس، 132.

ما أطلق عليه محلِّل السياسة الخارجيَّة لَسْ گلب اسم «حروب فناجين الشاي». فضلت جماعة كلنتون الغارقة في النزعة الذرائعية [البراگماتية] معالجة السياسة الخارجيَّة قضية بعد أُخرى، دون أَي خط عام ـ سوى ثبات اهتمامها بمصائر سياسة الرئيس الداخليَّة. وقد ظلت الجماعة تفعل ذلك بصورة خاطئة وعرضية خلال الفترة الرئاسية الأولى لكلنتون.

كان جزء من السبب يعود إِلىٰ سذاجة إِدارة جديدة، وجزء آخر إِلىٰ صَلَف مماثل. فالرئيس، باعتقاده هو، كما باعتقاد آخرين محيطين به، كان موهوباً جداً، ذا مهارة سياسيَّة عالية جداً، مما جعله قادراً علىٰ المجيء إِلىٰ أَي اجتماع في اللحظة الأخيرة، مزوداً بالمعلومات الموجزة من أركانه، فيقارب مشكلات السياسة الخارجيَّة بشكل صحيح. والمثير للسخط تمثل، باعتقاد بعض العاملين في الأَمن القومي المتعاملين معه، بأن ذلك كان صحيحاً جزئياً علىٰ الأقل. فقد كان شديد الذكاء، واسع الحيلة والقدرة علىٰ التوغّل إِلىٰ جوهر أية مسألة، بما مكّنه، في الحقيقة، من الرد في أحيان كثيرة ببصيرة استثنائية، ومن دفع النقاش أشواطاً إِلىٰ الأمام. كان إِحساسه بملابسات أية قضية من قضايا السياسة الخارجيَّة ـ فيما وراء البحار وعلىٰ الصعيد الداخلي ـ معصوماً، عادة، عن الخطأ. غير أَن اللعبة والخيارات كانت في الغالب تضيق قبل أَن يبادر هو إِلىٰ الالتحاق بركب المناقشة.

برأي الكثير من الأصدقاء والأقران الذين سبق لهم أَن شغلوا مناصب مماثلة في إِدارات سابقة، لم يكن مستشارو كلنتون في السياسة الخارجيَّة فريقاً قوياً بأي من المعاني. لعل أكبر نقاط ضعف هؤلاء كانت متمثّلة بأن الشخص الأهم، الرئيس الذي كانوا في خدمته، لم يكن يعتبرهم من لاعبي ساعة الذروة. من الواضح أَن السياسة الخارجيَّة ـ الخطة الخارجيَّة السياسيَّة ـ العسكريَّة التقليدية علىٰ الأقل ـ كانت تتعرّض للإِهمال والاستخفاف. أَمَّا الخطة التجارية، تلك التي تربط الخطة الاقتصاديَّة الخارجيَّة، بصورة مباشرة

أكثر، بالسياسة الداخليَّة، فقد شهدت مزيداً من الاهتمام، وبات ميكي كانتور قادراً علىٰ الوصول إِلىٰ الرئيس كيفما شاء. وكانتور هذا، المقرّب جداً، بصديق الشخص الحميم والعنصر الأساسي في قضية شكّلت حجر الزاوية في برنامج كلنتون، ما لبث أَن أَصبح بنظر البعض وزيراً ثانياً للخارجيَّة، أَكثر نفوذاً بما لا يقاس من كرستوفر نفسه، جزئياً بسبب قُرْبه من الرئيس.

خلال جزء كبير من الحرب الباردة، حين كانت أَمريكا غنية في عالم يعاني من الفقر، بقيت التجارة في آخر سلم الهموم السياسيَّة. دأبت الولايات المتحدة علىٰ التخلي عن بعض مصالحها الاقتصاديَّة في تعاملها مع بعض البلدان لإِبقائها في صفنا في معركة الصراع الكبرى مع السوڤييت والصينيين. لم يتجل ذلك بوضوح أكبر مما تجلى في العلاقة بين أَمريكا واليابان. فالانقضاض الياباني علىٰ الصناعة الأَمريكيَّة حيث كان اليابانيون متمتعين بحرية التصدير إِلينا، مع الاستمرار في إِبقاء أسواقهم مغلقة، كان قد تم، بشكل رئيسي، بين سنتي 1965 و1975م. ثمة شركات أَمريكيَّة عاملة في اليابان كانت قد احتجت بمرارة لدى السفراء في طوكيو علىٰ عدم الإِنصاف المميز لتلك العلاقة ذات الاتجاه الواحد. أشارت تلك الشركات إِلىٰ أَن اليابان لم تعد ضعيفة وقوة اقتصاديَّة هشة خارجة لتوها من رماد الحرب العالميَّة الثانية. لقد قطعت شوطاً كبيراً علىٰ طريق التحوّل إِلىٰ عملاق اقتصادي كبير ورئيسي. غير أَن هذه الشكاوى تعرّضت، جميعاً، للإِهمال بسبب أولوية الحفاظ علىٰ اليابان بوصفها حليفاً اسمياً خلال حرب ڤيتنام. لم تكن التجارة ذات شأن حيث كانت سياسة الحرب الباردة الهاجس الأَمريكي المسيطر والشامل. أَمَّا بعد رحيل الحرب الباردة، وبعد انتهاء الهيمنة الاقتصاديَّة الأَمريكيَّة هي الأُخرى، في اقتصاد دولي قائم علىٰ التنافس المتنامي باطراد، فقد بدأت التجارة تحتل صدر المسرح. ما لبثت مهمة السفير الأَمريكي في طوكيو أَن أَصبحت متمثِّلة بالضغط علىٰ اليابانيين مطالباً إِياهم بفتح أسواقهم، لا من أجل إِقناعهم بتأييدنا في مغامراتنا العسكريَّة الخارجيَّة.

كمنت إشارة مؤكدة دالة علىٰ هذا التغيير في الاهتمام بمدى القدرة علىٰ الوصول إِلىٰ الرئيس. لم يكن كبار أعضاء فريق الأمن القومي يرونه كثيراً. كان ديڤيد گرْگن الذي عمل في عدد من إدارات البيت الأَبيض ذات التوجهات الإِيديولوجية والسياسيَّة المختلفة، يعتقد أَن أي رئيس كان يمضي ستين بالمئة من وقته في مسائل ذات علاقة بالسياسة الخارجيَّة. أَمَّا بوش فكان، بسبب حماسه لها، كما بسبب الأحداث التاريخية الجارية خلال فترة إدارته، قد رفع تلك النسبة إِلىٰ 75 بالمئة، بل وربما حتى أعلىٰ من ذلك بقليل. غير أَن كلنتون ما لبث، باعتقاد گرْگن، أَن قام، بسبب عدم الاهتمام، بخفض النسبة في السنوات الأولى من إِدارته إِلىٰ 25 بالمئة.

تقبل كرستوفر أوراق صرفه المستخفة باستعداد أكبر من بعض الآخرين في فريق السياسة الخارجيَّة لدى كلنتون. فتوني ليك كان، حسب اعتقاد أصدقائه القدامى، يعاني كثيراً وبدا شديد الاستياء لأَن القضايا التي تحتل صدر سلم الأولويات عنده كانت تتعرض للمراوغة والاحتيال. كانت قُدْرته علىٰ الوصول محدودة أَكثر مما سبق لأسلافه أَن تمتعوا بها. فكيسنگر، العامل من خارج البيت الأَبيض، كان قد ازدرد بيل روجرز المسكين، وزير الخارجيَّة في ظل نكسون، وهو الذي زعم الزاعمون أنّه أَحد أقدم أصدقائه. أَمَّا بريجنسكي فكان قد سحر كارتر منذ البداية وهزم سي ڤانس الأَكثر استقامة، والذي كان يلعب وفقاً لقواعد ولَّى زمانها. صحيح أَن سكوكروفت الأَكثر رعاية وصدقاً وصراحة من كل من كيسنگر وبريجنسكي، لم يبادر قط إِلىٰ تحدي جيمس بيكر، غير أَنَّه كاد يقيم في مكتب بوش، نسخة ثانية جلية عن رئيس مفعم بالثقة.

مما ينطوي علىٰ قَدْر غير قليل من الأَهميَّة أَن كلنتون وليك لم يكونا منسجمين علىٰ المستوى الشخصي، خصوصاً في مسألة التعامل مع شخص من نمط كلنتون. بقي ليك علىٰ الدوام أقرب إِلىٰ التحفظ، غير أَنَّه مع مرور الزمن

كان قد أَصبح أَكثر صعوبة في التعامل، شخصاً تعلم، علىٰ ما بدا، كيف يُبْقي كثيراً من أفكاره ومشاعره طي الكتمان. لم يكن ذلك ذخراً إِيجابياً بالضرورة. فإِحدى المهارات التي لا بد لأي شخص ذي مرتبة عالية في الجهاز البيروقراطي من التحلي بها هي القُدْرة علىٰ تكوين أجواء مريحة تساعد الأقران والزملاء علىٰ الكلام بحرية. كان سكوكروفت أستاذاً في ذلك. أَمَّا ليك فقد كان ميَّالاً إِلىٰ جعل الناس يشعرون بقَدْر غير قليل من التوتر والضيق، بدلاً من إِضفاء أجواء الراحة عليهم.

كَمَن السبب، في جزء منه، في تحفظ ليك الطبيعي، في حين كان الجزء الآخر من السبب متمثلاً بشيء جديد، أفْرَزَتْه سلسلة من التوترات الصعبة المستعصية علىٰ الحل مع الرئيس، مما جعله يعتقد بأن من شأن كلامه بصراحة مع آخرين أَن يتمخض عن شيوع أقواله السريع في واشنطن فتصبح أَسلحة ضده. كان قد أَصبح شديد التكتم، حتى مع نظرائه، وبدا مغلقاً تماماً. لم يكن يشجع زملاءه علىٰ الكلام، لم يكن يرد علىٰ الهاتف بنفسه، حتى علىٰ الاتصالات التي يقوم بها أصدقاء قدامى وآخرون يحتلون مراتب عليا نسبياً في الإِدارة، وقد دأب عموماً علىٰ جعل المرء، إِذا لم يكن واحداًمن بطانته، يحس بأن ما يفكر به قليل القيمة. إِن الأجواء التي كوَّنها بدت لأولئك الباقين خارج حلقته المباشرة أجواء انقباض وإِمساك كاملين. برأي أَحد الأصدقاء كان مصاباً بنوع من الخوف المرضي إِزاء التسريبات، وقد كان قليل الظهور في واشنطن حتى أَن أَحد ألقابه كان «الغواصة». نادراً ما كان مسؤول في مجلس الأَمن القومي علىٰ هذه الدرجة من صعوبة المقاربة.

ما لبث عجز جيمس وولزي، رئيس وكالة الاستخبارات المركزية، عن الوصول إِلىٰ الرئيس أَن أَصبح أسطورياً. ببساطة لم يكن قادراً علىٰ الاقتراب من كلنتون. لسبب أَو آخر لم تنجح العلاقة قط. فكلنتون لم يكن شديد الاهتمام بالاستخبارات الخارجيَّة، فضلاً عن أَن وولزي الذي كان قد تم إِلحاقه

بالفريق في الدقيقة الأخيرة كتنازل ضروري لديمقراطيي ريگان، كان، بنظر جماعة كلنتون، شخصاً غير مناسب. كانت الجماعة ترى أَن وولزي لم يكن واحداً منها في الحقيقة علىٰ صعيد الأسلوب ووجهة النظر، وهو ما سيتضح أَنَّه صحيح. لم يبق في المنصب طويلاً وما لبث أَن أيّد ترشيح بوب دول للرئاسة في 1996م. نظراً لأَن وكالة الاستخبارات المركزية درجت علىٰ إرسال ضابط إيجاز كل صباح لإطلاع رئيس الجمهوريَّة علىٰ ما اعتقدت الوكالة أنّه قد حدث في غضون الساعات الأربع والعشرين الأخيرة، بدأ وولزي يظهر علىٰ المسرح مع الموجز، آملاً في مرافقة الضباط الأصغر مرتبة إِلىٰ الاجتماعات مع كلنتون. ألم يكن بوش، رئيساً ونائب رئيس، يعشق تقارير الوكالة الوجيزة بل ويقرأ التقارير الاستخباراتية بنفسه؟!

غير أَن وولزي أخفق في عبور الخندق المائي أَو الجدار الكتيم. ومن الأَسباب أَن كلنتون، وهو القارئ النهم والسريع، كان يفضل قراءة التقارير بدلاً من إِيجازها له. وثمة سبب آخر ألا وهو أَنَّه لم يكن مهتماً بالجزء الأكبر من المواد. كان العالم قد تغيّر، باتت الوكالة أقل أَهميَّة، وغالباً ما كانت المادة الموجودة في الأوراق قد عرضتها شاشة السي. إِن. إِن. في تلك الأثناء اصطدمت طائرة أَحد المرضى النفسيين بالبيت الأَبيض. ونظراً لأَن موضوع القال والقيل المفضَّل في واشنطن كان متركزاً علىٰ مقاطعة كلنتون لفريق السياسة الخارجيَّة وخصوصاً مدير وكالة الاستخبارات المركزية، فسرعان ما انتشرت «نُكتة» تقول بأن الطائرة كانت بقيادة وولزي الذي كان يحاول الدخول إِلىٰ البيت الأبيض لمقابلة الرئيس. في البدء اغتاظ مدير الوكالة لدى سماعه للنكتة، غير أَنَّه ما لبث أَن بدأ يستمتع بها ـ لقد بدت أَكثر من دقيقة في تصوير الحالة.

لم تكن علاقة كلنتون مع وزير دفاعه الأول، لَسْ آسپن، هي الأُخرى أفضل بكثير. فآسپن هذا أصيب أَيضاً بنوع من الدهشة إِزاء المسافة الفاصلة بينه وبين البيت الأَبيض. وقد سأل وولزي مرة: «ألم تعتقد يا وولزي، لدى توليك

لهذا المنصب، بأنك ستمضي وقتاً طويلاً مع الرئيس مستعرضاً المواد التي بدت مهمة إلىٰ حد بعيد؟» وكان الرد بالإيجاب. تابع آسپن سؤاله: «وهل وجدت أنك لا تستطيع الاقتراب منه لتحدثه عن أمور بالغة الأَهميَّة حقاً؟» نعم قال ولزي. فعلّق آسپن «إِنها القصة ذاتها معي!». وفيما بعد أخبر آسپن بعض الأصدقاء بأنّه كان قد عقد اجتماعين اثنين مع رئيس الجمهوريَّة خلال فترة توليه للوزارة كلها.

خاب أمل آسپن بكلنتون، ثم ما لبث الأخير أن خاب أمله، بالمثل، بآسپن. ربما كان الاختيار، برأي كولن پاول، خطأً منذ البداية. ففي لقاء كلنتون الأَول مع پاول، كان الرئيس المنتخَب قد أتى علىٰ ذكر أسماء عدد من مرشحيه للمنصب ـ عضو مجلس الشيوخ سام نان، عضو المجلس [الكونگرس] ديڤ ماكّوردي من أوكلاهوما، وعضو الكونگرس لَسْ آسپن ـ وطلب رأي الجنرال. بقي پاول حذراً. فمن شأن تأييده لأي مرشح ـ وهو نصير بوش ـ ريگان آخر المطاف ـ أَن يشكِّل قُبْلة الموت. أجابه پاول قائلاً: قد يكون نان جيداً، غير أنّه ربما مبالغ في الاستقلالية بالنسبة إِلىٰ كلنتون وقد لا يكون راغباً في التخلي عن موقعه الدفاعي الرفيع في البرلمان. وأضاف پاول أَن ماكّوردي موهوب غير أَنّه غريب الأطوار. ثم أبدى پاول قدراً أكبر من الشك الصريح بالنسبة إِلىٰ آسپن. صحيح أَن الرجل كان قد أيّد حرب الخليج، غير أَن پاول وآسپن كانا قد تصارعا حول سلسلة من القضايا، فضلاً عن أَن الأخير كان قد بدا في الكثير من الأحيان، فيما مضى، مثل رجل مزود بسكين جزار دائب علىٰ السعي لتقليص مستويات الإِنفاق الدفاعي. غير أنهما كانا رجلين عملاقين قادرين علىٰ الاضطلاع بالأدوار الصعبة والمعقَّدة التي يتم إِقحامهما فيها علىٰ الصعيدين المؤسساتي والسياسي. أَمَّا علىٰ الصعيد الشخصي فقد كان الأَمر، باعتقاد پاول، أَكثر تعقيداً. كان لَسْ محبباً وقريباً من القلب، غير أنّه كان أَيضاً أقرب إِلىٰ الشرود وغرابة الأطوار. تدخل كلنتون مخاطراً ليقول: إِن لَسْ رائع

حقاً. جاء رد الجنرال علىٰ شكل أَن الروعة ليست هي الصفة الأَكثر أَهميَّة لإِدارة البِنتاگون. ومع ذلك فقد شعر پاول، كما اعترف لاحقاً، بأن آسپن هو رئيسه الجديد.

كان آسپن قد اكتسب شهرته كعضو في الكونگرس، وبوصفه أَحد الثوريين [أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقّي العثمانية ـ أَو جماعة تركيا الفتاة] في البرلمان، كان واحداً من القادة في معركة الصراع الداخلي لإِلغاء القاعدة التي تعتبر القِدَم هو المقياس الوحيد لتولّي رئاسة هذه اللجنة أَو تلك. غير أنّه ما لبث، بعد أَن أَصبح رئيساً للجنة القوَّات المسلَّحة في المجلس، أَن بات مهملاً لحديقته الخاصة وكاد يخفق في صد تحدي بعض المنشقّين في لجنته قبل أَن ينتقل إِلىٰ وزارة الدفاع. كان قد بدأ، برأي البعض، يفقد إِحدى نقاط قوّته العظيمة، مهارته السياسيَّة، قدرته علىٰ تبادل أَطراف الكلام مع سائر أنواع الناس الذين قد يكونون مختلفين معه فيما عدا الكلام بلا معنى. لم يكن يعرف معنى الانضباط. حتى أولئك الذين أَحبّوا آسپن وكانوا مفتونين به، وما أَكثرهم!، لأَنّه كان أَحد أَكثر الناس قرباً إِلىٰ القلوب في عالم الأَمن القومي، اعتبروه فوضوياً. كان رجلاً اختلط حابله بنابله، ثقيلاً، متأخراً عن الاجتماعات باستمرار. بقيت أَطراف قمصانه مجعدة ومتدلية علىٰ خاصرته، وربطة عنقه، غير معقودة، سائبة علىٰ الياقة، مع بقاء زر الياقة مفكوكاً إِذا كان هناك زر. هذه العادات الشخصية لم تكن صفات إِيجابية بالضرورة بالنسبة إِلىٰ رجل مكلّف بإِدارة مؤسّسة عملاقة حيث يرتدي أهم العاملين زياً رسمياً موحداً مكوياً، أربطة عنق مربوطة، وقمصاناً ضُبِّتْ أَطرافها، وحيث كانت الاجتماعات تبدأ في الأوقات المحددة علىٰ الدوام. حتى أصدقاء آسپن الحميمون أصيبوا بالدهشة وانقطعت أنفاسهم حين سمعوا بالتعيين. لم تكن المسألة مسألة ذكاء، بل مسألة انضباط وقُدْرة علىٰ إِدارة مكان كان في الحقيقة كابوساً بيروقراطياً.

أضف إِلىٰ ذلك أَن نقاط قوّته في البرلمان ـ حيث درج علىٰ تسيير أمور

لجنته كما لو كانت حلقة دراسية مفتوحة في مادة العلوم السياسيَّة حيث كان يستطيع اختيار القضايا التي تهمّه ويهمل تلك التي لا تروق له ـ قد لا تؤهله للإشراف علىٰ مؤسَّسة عملاقة، ساحقة للعظام، كاسرة مثل وزارة الدفاع. ففي البنتاگون كان علىٰ الاجتماعات أَن تتم في مواعيد محدّدة بدقة، ونادراً ما كان كبار الموظفين متمتعين برفاهية اختيار الموضوعات التي تروق لهم، متجاهلين تلك التي لا تكون كذلك. كانت مجرد ممارسة الرقابة علىٰ المتاهة المعقّدة للتكتلات المتقاتلة مرهقة. إِن المؤهلات التي وضعها آسپن علىٰ الطاولة لم تكن متناسبة تماماً مع المهمّة، غير أَن المنصب كان لا بد من أَن يذهب إِلىٰ آسپن. وبقي پاول مثقلاً بالشكوك.

مما يدعو للأسف أَن آسپن بدأ يأتي إِلىٰ البنتاگون مثلما كان معتاداً أَن يذهب إِلىٰ العمل في المجلس دون تغيير. ما من أَحد كان يعرف متى سيصل. كانت الاجتماعات تبدأ متأخرة وتتجاوز مواعيد انتهائها في الغالب. جميع الناس الهامشيين من مختلف المشارب كانوا يحضرون الاجتماعات المقرّر أَنّها خاصة بكبار المسؤولين. كان أسلوب إِدارته شديد الاختلاف عن أسلوب ديك تشيني الكفؤ ببرود، ذلك القادم هو الآخر، مثل آسپن، من التلة [البرلمان]، غير أَن شخصيته ـ المترفعة، المحايدة ـ جعلته مناسباً تماماً للوظيفة. لعل الشيء الأخير الذي كان تشيني يسعى إِليه هو الشعبية؛ وحين كانت تتم في أثناء إِدارة بوش إِثارة قضايا تخص الكونگرس، كان يبقى محايداً إِن لم يكن محتقراً بصورةِ مكشوفة لزملائه السابقين. كانت حاجات تشيني العاطفية مناسبة بصورة مثالية لتمكينه من التعامل مع الوظيفة القاسية لوزير الدفاع.

علىٰ امتداد ثلاثين سنة كان آسپن قد أغرق نفسه في بحر منظومات الاستراتيجيات والأَسلحة كما لو كان يتدرب علىٰ الوظيفة؛ ربما لم يكن أَحد في واشنطن يعرف أَكثر منه حول ملابسات ودقائق الجيش ومنظومات أسلحته. غير أَن نوعية جديدة من السياسة باتت مسيطرة علىٰ البنتاگون حين وصل إِليها

سياسة جديدة لم يكن جيد التأهّل للتعامل معها. كانت تدور حول الشواذ، حول النساء في الجيش، والسلوك الجنسي غير السوي في الجيش، موضوعات لم يُرِدْ أَن يكون طرفاً فيها، ودأبت علىٰ إبعاده عنوة عن الأشياء التي يميل إليها. في إحدى المرّات قال لصديقه لي هاملتون، أحد كبار الديمقراطيين المخضرمين في لجنة الشؤون الخارجيَّة بالمجلس: «لا تستطيع يا لي أَن تتصوّر المدة التي أنفقتها علىٰ الشواذ والنساء في الجيش. أحياناً يبدو لي أَنَّه الشيء الوحيد الذي أفعله». كانت القضايا الاجتماعيَّة ـ الاقتصاديَّة قد غيَّرت طبيعة الوظيفة بالنسبة إِليه، حسب اعتقاد هاملتون. فبدلاً من أَن يلعب لعبة الهجوم ويتعامل مع الأمور التي كان يتقنها، كان آسپن عاكفاً علىٰ التعامل مع قضايا لم يكن يعرف شيئاً عنها، حيث كان سيبقى في مواقع الدفاع علىٰ الدوام.

لم يستطع إدارة الپنتاگون لأَنَّه لم يستطع تدبير أموره. باتت قصص افتقار آسپن للانضباط تغمر المبنى من اليوم الأَول ـ عن تفجّره غضباً علىٰ أَحد المرؤوسين بسبب اعتراض بسيط علىٰ أسلوبه العجيب في تناول الطعام ـ علىٰ طعام الغداء الذي ـ كما قال أَحد الأصدقاء ـ قُدِّم متأخراً، طبق من رقاقات البطاطا المقلية المتوجة بمعجون المايونيز. وكان پاول سيتحدث في مذكراته عن لقاء لآسپن مع الملك الأردني حسين حيث عانى الأخير كثيراً لمتابعة الحديث، فيما دأب آسپن بالقَدْر نفسه من الجهد والمعاناة للإجهاز علىٰ طبق المقبلات الموضوع أمامهما مزدرداً ثلاث عشرة قطعة حسب تقدير پاول[2]. صحته أَيضاً كانت هاجساً بالنسبة إِلىٰ أصدقائه. كان باستمرار يعاني من مشكلات قلبية وقد أُجريت له عملية ضبط لنبضات القلب وهو في المنصب. ظل دائباً علىٰ الهزء بنقاط ضعفه الجسدية الخاصة في واحد من أَكثر المناصب تطلباً في أَمريكا. شكَّلت ولايته في الپنتاگون كارثة بالنسبة إِلىٰ الإِدارة، مدمّرة

---

(2) پاول، 578.

بالنسبة إلىٰ البلاد، ومهلِكة بصورة مطلقة بالنسبة إلىٰ شخصه بالذات. تم استبداله أواخر سنة 1993م، بعد الأحداث الكارثية في الصومال، وبعد سنة ونصف، في أيار/ مايو 1995م، رحل آسپن عن الحياة إثر نوبة قلبية، محدثاً قَدراً هائلاً من الأسى والحزن لدى طيف واسع من الناس الذين كانوا قد استمتعوا بصداقته، بذكائه، وبخدماته لوطنه.

مع بقاء ما هو أقل من سنة لإكمال جولته الثانية كرئيس لهيئة رؤساء الأركان المشتركة، كان كولن پاول معجباً بالرئيس الجديد من ناحية ولكنه شاعر بقدر غير قليل من الحذر تجاهه من ناحية أُخرى. إنَّه ـ الرئيس ـ شاب، لمّاح، وجاء جالباً معه قَدْراً من الثقة الفطرية بقدرته، فضلاً عن أَنَّه كان، ظاهرياً، جيد الإصغاء. غير أنّ فريقه المكلَّف بالسياسة الخارجيَّة لم يكن علىٰ المستوى المطلوب. همس پاول في أذن أَحد مساعديه المقرّبين قائلاً إِن ليك في مجلس الأَمن القومي كان، في تعامله مع كبار المسؤولين الآخرين، أشبه بشخص يسوق قطيعاً من الجياد لم يكن موجوداً ببساطة. فالاجتماعات المدارة من قبل ليك في البيت الأَبيض دامت ساعات طويلة شديدة الشبه بحلقات البحث حول موضوعات السياسة الخارجيَّة. أعداد أكبر مما ينبغي كانت تحضر هذه الاجتماعات وأعداد أكبر مما ينبغي أَيضاً من الموضوعات كانت تُثار. في أحد الأَيام صُعق پاول حين سمع أَحد مرؤوسي ليك يخالفه في الرأي علناً في أَحد الاجتماعات. كان پاول يشير إِلىٰ ليك في جلساته الخاصة بلقب الأستاذ الجامعي [البرفسور]. لم يقم ليك، برأي پاول، **بإِدارة** الاجتماعات مثل سكوكروفت وآخرين، إِذ بقيت مفتقرة إِلىٰ التركيز أغلب الأحيان. وقد قال أحد أصدقاء پاول إِن الأخير كان يعتبر فريق كلنتون شديد الشبه بجماعة مهاجرين من عالم الأكاديميات.

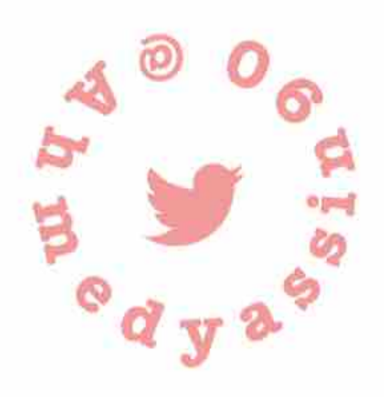
لعل ما هو أهم أَن پاول لم يكن مقتنعاً بأن جماعة كلنتون كانت قد

دَرَسَتْ بعمق جملة المشكلات التي كان من شأن القوَّة العسكريَّة الأَمريكيَّة أَن يتم استخدامها فيها. فقد بقيت الجماعة أقرب إِلىٰ الغموض والضبابية في مواقفها من استخدام القوَّة ومن عواقب مثل هذا الاستخدام، فضلاً عن كونها سريعة التقلّب. أَمَّا الجماعة نفسها فقد أحسّت، بدورها، باحتقاره لها، من خلال تفسير حركاته الجسدية كما من كل الأشياء الأُخرى. فأحد كبار أعضاء إِدارة كلنتون قال: «كنت تستطيع أَن تحس بذلك من نظرته إِلينا. كنا حمائم، أناساً تخلّفوا عن الحرب فيما خاضها هو، أناساً لم يسدّدوا أَي ثمن فعلي لما كنا قد حصلنا عليه». لعل الصورة الأصدق لشعور پاول إِزاء كلنتون وجماعته هي التي يمكن استخلاصها مما قاله الرجل علىٰ الملأ مخاطباً جورج بوش في الاحتفال الوداعي الذي أقيم للأخير في البنتاگون: «صحيح أنك، سيادة الرئيس، عرَّضْتَنا للخطر حين كنت مضطراً، ولكن دون استخفاف، دون استهتار، دون تردّد، دون أَن تكون أيدينا مقيَّدة، دون الامتناع عن تزويدنا بما نحن بحاجة إِليه لإِنجاز المهمة، بصورة مطلقة وفي جميع الأوقات».

غير أَن ذلك كان في السابق، أما الآن؟ حين كان پاول يلتقي بأصدقاء قدامى من أَيام بوش كان يبادرهم بالقول بأنهم كانوا سعيدي الحظ لبقائهم خارج اللعبة كلها. كان پاول يقول إِن جماعة كلنتون بدت عاجزة عن الإِحاطة الكاملة بعواقب أفعالها، نظراً لأنها كانت تريد أَن تجرب هذا الشيء أَو ذاك لترى ما يترتب عليه من نتائج، ثم تبادر إِلىٰ التعامل مع ما حصل مهما يكن. في إِحدى المناسبات حين كان أعضاء الجماعة عاكفين علىٰ الحديث عن البوسنة، أقدم آسپن علىٰ قول شيء بصورة عرضية؛ أطلق بصورة عفوية كلاماً حمل ما معناه أَن علىٰ الولايات المتحدة أَن تضرب الصرب بقوة وترى ما إِذا كان ذلك ناجحاً. سأله پاول: «وماذا إِذا تبين أَنَّه غير ناجح؟» فرد عليه آسپن: «عندئذ سنجرب شيئاً آخر». مما دفع پاول إِلىٰ تذكير آسپن بفحوى ما يعتقد أَنّها ملاحظة صدرت عن جورج پاتون الابن (قائد الجيش الثالث الأَمريكي الذي

اجتاح فرنسا وصولاً إلىٰ ألمانيا (سنتي 1944 ـ 1945) في الحرب العالميَّة الثانية ـ جورج سميث پاتون الابن (1885 ـ 1945م)): «حين تضع يدك في الأَمر، تأكد من نجاحه!».

(3) مقابلة مع پاول.


@Ahmedyassin90

الفصل الثالث والعشرون

بدأت إِدارة كلنتون متعثرة، مرتبكة. كان الرئيس مثقلاً ومشغولاً بسلسلة طويلة من القضايا الداخليَّة. لم تكن السياسة الخارجيَّة تحظى إِلاَّ بالحد الأدنى والأَكثر هامشية من الاهتمام؛ فبعض محلّلي السياسة الخارجيَّة توقعوا، وهم يتابعون مدى إِغفال عدد من المشكلات، ألاَّ يمضي وقت طويل إِلاَّ وتكون الإِدارة قد تعثَّرَت وسقطت في أحد المطبات العالميَّة. جاءت العثرة المحتومة في بلد بعيد غارق في الفقر المدقع يدعى الصومال، أحد تلك البلدان الحزينة اليائسة التي باتت أوضاعها الصعبة حتى في أفضل الظروف أَكثر صعوبة جراء وقوعها علىٰ التخوم الخارجيَّة للحرب الباردة. تقع الصومال في القرن الإِفريقي وتستند إِلىٰ أَكثر الاقتصادات هامشية، مع مناخ بالغ السوء، وتربة بائسة عديمة الخصوبة. يغلب علىٰ سكانها صفة البداوة إِذْ يتألَّفون أساساً من رعاة الأغنام والأبقار والإِبل. غير أَن أهميَّة الصومال كانت، لبعض الوقت، قد تعرّضت للتضخيم، لأَسباب لا علاقة لها البتة بنوعية حياة الناس هناك، تحت تأثير الحرب الباردة وكأن حصيلة ما لم يكن علىٰ الدوام أَكثر من صراعات قبلية داخليَّة كانت ستحدد مصير صراع عالمي أكبر وستبين الطرف الممسك بمفتاح المستقبل بين القوتين العظميين العملاقتين.

تدفقت سيول الأَسلحة من القوتين العظميين كلتيهما، توالت الوعود بالمزيد من المساعدات. وُصف أمراء الحرب في وسائل الإِعلام إِما بأنهم

رجال أشداء، عسكريون جديون (إذا كانوا من عملائنا) أَو بأنهم متطرّفون يساريون (إذا كانوا من عملائهم). أَمَّا بنظر السكان المحليين فإِن اللعبة بين أَمريكا وروسيا، بين الرأسمالية والشيوعية، كانت بلا معنى إِلىٰ حد كبير. أَمَّا بالنسبة إِلىٰ أولئك الذين كانوا يحصلون علىٰ الأَسلحة، فكانت المسألة مسألة حرب بين هذه القبيلة وتلك، والأهم في الصومال، بين هذه العشيرة وتلك. إِذا شاء هؤلاء البيض الغريبون أَن يتحدَّثوا بهذا القدر من الاستخفاف عن دور الصومال الحاسم في صراع الحرب الباردة، فلهم أَن يفعلوا، شرط أَن يجلبوا المال والسلاح. كانوا يعرفون السبب الكامن وراء الحصول علىٰ السلاح ـ إِنَّه ضرب عدو ملطخ بالدم، عدو كان أبوه عدواً لأَبيك لأَن جده كان عدو جدك. فالتنظيم الاجتماعي الرئيسي تمثل بالعشائر والأفخاذ التي كانت، عملياً، الشكل الصومالي للنزعة القبلية. كانت العشائر أشبه بعصابات متقاتلة عملاقة، في حين بقيت قوى أية سلطة بديلة هامشية، مما أبقى البلاد وإِدارتها بين العصابات أَو العشائر.

كانت الصومال قد عاشت تاريخاً مرقطاً بعض الشيء في الحرب الباردة. مرة كانت عميلة لأَمريكا. فتدفقت عليها سيول الأَسلحة الأَمريكيَّة. وما إِن قرَّر الغرب قطع المساعدة في الستينيّات حتى بادر قادة الصومال التوّاقون لاستعادة الأراضي المحتلة من جانب كينيا وجيبوتي إِلىٰ التوجه شرقاً. تدفقت سيول الأَسلحة علىٰ البلاد مرة أُخرى، من موسكو وبراگ هذه المرة. كان الزعيم العشائري المسيطر في ذلك الوقت عسكرياً يدعى محمد سياد بري الذي كان قد دبَّر انقلاباً في تشرين أول/ أكتوبر 1969م ونقل الصومال بسرعة إِلىٰ الفلك السوڤيتي. غير أَن سيادبري هذا ما لبث، حين شعر بشيء من الحيوية وبالثقة الزائدة بسبب المساعدات السوڤيتية الكبيرة، أَن اختلق نزاعاً ضد أثيوبيا في 1977م، مما دفع السوڤييت إِلىٰ سحب دعمهم. سارع سياد بري، عندئذ، إِلىٰ طرد السوڤييت من بلاده.

ومع الزمن عاد الغرب. فانطلاقاً من السعي إِلىٰ تحسين صورتها في جزء من العالم باتت تفقد فيها نفوذها، من التحسس إزاء صعود نظام إسلامي في إيران، ومن الاعتقاد بأن الصومال أصبحت الآن أكثر أهميَّة مما كانت قبل قليل علىٰ الصعيدين الجغرافي والجيوسياسي، بدأت الولايات المتحدة تتواجد هناك من جديد. تدفقت المساعدات الأَمريكيَّة الاقتصاديَّة منها والعسكريَّة في الثمانينيّات. ففي 1985م، يسجل بوب أوكلي وجون هيرش في كتابهما عن الصومال، أَن المساعدات الأَمريكيَّة المقدَّمة إِلىٰ الصومال كانت الثانية من حيث الحجم في إِفريقيا جنوب الصحراء[1]. وقد كانت تلك المساعدات مصحوبة بآمال الإِصلاح، علىٰ الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي كليهما، بآمال كانت من الأساس غير واقعية.

في البدء كان الأَمريكيون قد ساعدوا سياد بري الذي أَصبح، بفضل النفوذ والسلطة اللذين تحققا مع المساعدات، أَكثر تسلطاً باطراد، وباتت حكومته أَكثر اعتماداً علىٰ العشائر للحفاظ علىٰ سلطتها. ما لبثت البلاد أَن تمزّقت بين عشيرته وعشائر مرتبطة بها من جهة وعشائر أُخرى اعتُبرت أقل مودة من الجهة المقابلة. مع حلول سنة 1988م باتت الصومال غارقة في أتون حرب أهلية شاملة، شكلت تجاوزات سياد بري المفرطة المتزايدة فيها عامل توحيد بين الأعداد المتزايدة من المنشقين. أواخر ربيع 1992م، فيما كان بيل كلنتون موشكاً علىٰ البروز بوصفه المرشح الأوفر حظاً في عملية الترشيح الديمقراطيَّة، فر سياد بري من البلاد بعد التعرّض لسلسلة متلاحقة من الهزائم علىٰ يد قوات بقيادة الجنرال محمد فرح عيديد.

أَصبح عيديد هذا الحاكم الفعلي للصومال. لم يحصل أَي تغيير في النظرة ـ رؤيا أنبل، أَو توجّه نحو الديمقراطيَّة، أَو قَدْر أكبر من الولاء للغرب،

---

(1) أوكلي وهيرش، 7.

أَو نوع من الالتزام بحاجات المواطن الصومالي البسيط ـ لم تكن المسألة، بنظر العارفين ببواطن الأمور، سوى مسألة استبدال أمير حرب بآخر. حصل نوع من تبادل الأدوار بين من كانوا في الداخل ومن كانوا في الخارج، في السلطة أَو خارجها. بات عيديد يرى نفسه حاكماً شرعياً للبلاد. ألم يقم بطرد سياد بري وسرقة الصومال بقضها وقضيضها؟ سارع زعماء عشائر آخرون، بالطبع، إِلىٰ رفض مزاعمه وتحديها. كان ثمة انقسام دون إِيديولوجيا ـ أمير حرب ضد أمير حرب، دماء ضد دماء. حتى حين كانت قوات سياد بري متقهقرة، واصل عيديد العمليات القتالية مع عشائر أُخرى، مع وقوع عبء الصراع الأكبر علىٰ كواهل أهالي العاصمة مقديشو، حيث دأبت الحرب الدامية، حسب تعبير أوكلي وهيرش علىٰ «إِلحاق الدمار شبه الكامل بمركز المدينة والإِجهاز علىٰ البنية التحتية البلدية الهشّة أساساً، مع التسبّب بأضرار كبيرة»[(2)]. تحدَّثت **الواشنطن پوست** عن أَن حوالي ألف من الناس كانوا يموتون أسبوعياً، من القصف المدفعي العشوائي في المقام الأول.

لم تبد القوّتان العظميان اللتان لم تعودا مشتبكتين في تنافسهما الدولي إِلاَّ القليل من الاهتمام. كانت ثمة مجاعة جماعية، غير أَن برامج الإِغاثة ومحاولات مد يد المساعدة إِلىٰ الصوماليين اصطدمت بالعشائر المختلفة التي كان زعماؤها يعتبرون أية مساعدة خارجيَّة تهديداً لسيطرتهم السياسيَّة. ومع حلول منتصف سنة 1992م كانت الصومال قد أَصبحت إِحدى أسوأ الكوارث الإِنسانية المعاصرة. تدفقت سيول اللاجئين بأعداد وصلت إِلىٰ مئات الآلاف عبر الحدود علىٰ كينيا، مع ذهاب أعداد مماثلة، ربما، إِلىٰ الحبشة، قُدِّر عدد المغادرين بمئة ألف في اليوم.

كان الوضع مثالاً كلاسيكياً لحالة انعدام الدولة الحديثة، نموذجاً لبلد لم

(2) المصدر السابق، 15.

يعد بلداً، لبلد قد تفجر من الداخل علىٰ جميع المستويات والأَصْعِدة. بات عاجزاً عن توفير حتى أبسط الخدمات الأولية لأهله، خصوصاً خدمة الحماية من العنف والأعمال الإرهابية؛ وقد كان الحكّام المزعومون المصدر الرئيسي لأشكال الأذى والظلم اللاحقة برعاياهم. أَصبح المكان ميئوساً منه، نموذجاً مرعباً لنوع الأزمة التي بات قادة العالم المتطور يواجهونها، إذا شاءوا أَن يفعلوا، من العالم غير المتطور. كانت إدارة بوش في عامها الأخير، ونصح العارفون ببعض بواطن أمور الصومال الإدارة بالتحلي بالحذر جراء الوحشية الفطرية لزعماء تلك البلاد. كان من شأن الانجرار أَن يكون بالغ الخطورة، ولا بد لأي التزام من أَن يتحدّد بكثير من التأنّي. لم يكن الخروج، برأي هؤلاء، أقل أَهميَّة من الدخول، من جميع النواحي. تعين علىٰ أية مهمة أَن تكون محددة بدقة بالغة، وأية أحلام بتحقيق نوع من التحسين السياسي كانت مرشحة للاصطدام بمقاومة عشائرية متجذّرة بعمق.

ومع ذلك فإن ما كان حاصلاً في الصومال بقي، رغم جميع أشكال التحذير العقلانية من التورّط، عبئاً ثقيلاً علىٰ الوجدان. ما لبث مصورو التلفزة ومراسلوها أَن شقّوا طريقهم إلىٰ مقديشو، وما كانت صوراً مثيرة في عصر ما قبل التلفزيون باتت الآن ذات فعالية أكبر بكثير. فبدلاً من الصور الجامدة للأمهات والأطفال الذين يموتون جوعاً، أضافت كاميرات التلفزيون بُعداً جديداً إلىٰ مشهد الرعب. بات المشاهدون قادرين علىٰ متابعة أضعف حركات أولئك المحتضرين؛ باتوا قادرين علىٰ رؤية وسماع أسراب الذباب المتزاحمة بطنين فوق وجوه أطفال بالغي الهزال. كانت تلك مادة إعلامية قوية وقادرة علىٰ تكوين شيء جديد نسبياً في السياسة الخارجيَّة الأمريكيَّة: نوع من التدخّل المحدود في بلد ليست لنا معه روابط تقليدية ولا تكون مسألة الأَمن القومي الأَمريكي ذات علاقة. جاءت هذه السياسة مستندة بالدرجة الأولى إلىٰ قوة **الصور** وإلىٰ غرائز الأمة الإنسانية. بقي الخطر كامناً في عدم كون جذور

السياسة عميقة؛ كانت سياسة فَرَضَتْها العاطفة لا القوى التي تقوم عادة بتكوين السياسة الخارجيَّة، ولا سيما حين تكون سياسة قائمة علىٰ استخدام الجيش الأمريكي. أضف إلىٰ ذلك أن الكاميرات لن تلبث ـ إذا قمت بعمل إنساني وكان ناجحاً حسب الخطة ـ أن تتحوّل، نظراً للمدى المحدود جداً لاهتمام مخرجي الشبكات التنفيذيين، وبسرعة إلىٰ أماكن أُخرى. وكان هذا يعني، بين أشياء أُخرى، أن السياسة بقيت هشّة أمام ملل مخرجي البرامج التلفزيونية وعرضة للتأثّر بجاذبية العواطف والتأثيرات الموازية لنوعية أُخرى من الصور ـ الصورة المضادة.

أقدمت إدارة بوش علىٰ خطوة التدخّل الأولى في الصومال. كان السبب، في جزء منه، عائداً إلىٰ الضربات النقدية التي دأب الديمقراطيون، خصوصاً المرشح كلنتون، علىٰ توجيهها إليها، حول سلسلة من الأماكن مثل البوسنة، هاييتي، والصين، جنباً إلىٰ جنب مع الصومال. فمع حلول صيف 1992م، أصبحت صور الصومال التلفزيونية أكثر وَفْرة من نظيرتها البوسنية بكل تأكيد وإن لم تكن أسوأ منها. كانت مخيمات اللاجئين في البوسنة عصية جداً؛ في حين كان الوصول إلىٰ وتصوير المحتضرين في الصومال من الأمور الميسرة. وفي تموز/ يوليو كانت رغبة إدارة بوش في القيام بعمل ما بشأن الصومال قد زاد مع تنامي السخط إزاء صور الأطفال المتضورين والمحتضرين جوعاً، فما لبثت أن بادرت، في منتصف آب/ أغسطس، إلىٰ الإعلان عن أنها سترسل قوات حفظ سلام دولية جواً إلىٰ الصومال لأغراض إنسانية. وكان هذا الالتزام الأول سيتصاعد ليصبح خطة قائمة علىٰ قوة نموها العضوية.

أوائل الخريف بدأ الوضع في الصومال ينهار انهياراً كاملاً. لم يعد عناصر الأمم المتّحدة وعاملو الإغاثة الآخرون قادرين علىٰ إيصال الطعام والدواء إلىٰ المحتاجين إليهما حاجة ماسّة. كان السكان المتضورون جوعاً في العاصمة مقديشو تحت رحمة أمراء الحرب ـ والجزء الأكبر من المواد الغذائية كان يؤول

إِلىٰ هؤلاء. وفي الوقت نفسه بدأت وزارة الدفاع ـ الپنتاگون ـ بدراسة خططها الخاصة بتقديم مساعدة عسكريَّة. بدت الخيارات الأُخرى محدودة إِلىٰ حدود معينة، قد تستطيع الولايات المتحدة، بالعمل من خلال الأمم المتّحدة، أَن توفّر قوات دعم، ولكن دون قوات برية، لتيسير إِيصال الطعام والدواء. كان من شأن ذلك أَن يعني قوة متعددة الجنسيات كبيرة دون وحدات أَمريكيَّة كنواة لها. غير أَن الپنتاگون ما لبث أواخر تشرين الثاني/نوڤمبر أَن قدم تقريراً إِلىٰ اجتماع علىٰ مستوى مندوبي الكونگرس عن استعداده لإِرسال ما يصل تعداده إِلىٰ حجم فرقتين إِلىٰ الصومال. فقد قال الأدميرال ديڤيد جيرمياه، ممثل كولن پاول في اجتماع لجنة المندوبين «إذا كنتم ترون أَن القوّات الأَمريكيَّة مطلوبة، فنحن قادرون علىٰ القيام بالمهمة»[3]. كان لنبأ استعداد الپنتاگون لإِرسال القوّات ـ بصورة شبه **تطوعية** ـ وَقْع الصاعقة علىٰ جميع الحاضرين في الاجتماع. فقد جاء متناقضاً بشكل حاد مع المقاومة التي دأب الپنتاگون علىٰ إِبدائها باستمرار لأي تورط في الصومال.

غير أَن پاول بات مقتنعاً بإِمكانية إِنقاذ حياة ما يقرب من نصف مليون صومالي. وكان بمقدور الأَمريكيين أَن يحموا أنفسهم بقوة محدودة ولكن مناسبة، ربما فرقتين؛ ومن خلال إِبقاء المهمة محصورة ومحددة بوضوح كان من الممكن إِحالتها علىٰ الأمم المتّحدة، بما يمكّن الأَمريكيين من الخروج بسرعة. بدت المهمة قابلة للتدبّر برأي پاول. غير أَن آخرين في مجلس الأَمن القومي ووزارة الدفاع ـ خصوصاً بين ضباط الجيش ـ كانوا يرون ممارسة الضغط للقيام بعمل ما في **مكان** ما شكلاً من أشكال لَيّ ذراع الپنتاگون، فيما كانت الإِدارة متعرضة للهجوم بشأن البوسنة وكانت الصور الآتية من الصومال دائبة علىٰ تشكيل أعباء ثقيلة علىٰ الضمائر. ولجملة من الأَسباب المختلفة

(3) المصدر السابق، 43.

كانت الصومال أهون الشرَّين، وبدت المهمة، ولو في بلد أبعد، أَكثر قابلية للاحتواء فضلاً عن توفيرها لأسهل إِمكانيات الانسحاب.

باعتقاد أوساط واسعة في مجلس الأَمن القومي والپنتاگون كان إِرسال القوَّات إِلىٰ الصومال أسلوب پاول فالقيام بعمل إِنساني ما ولكن، وهو ما ينطوي علىٰ أَهميَّة مساوية، **دون** إِرسال أية قوات إِلىٰ البوسنة، إِلىٰ ذلك المكان الذي كان أَكثر خطورة بما لا يقاس، بالنسبة إِليه. لم يكن پاول مولعاً بأن يرسل أية قوات إِلىٰ الصومال، غير أنّه كان أقل رغبة في إِرسالها إِلىٰ البوسنة. بدت الصومال أنّها الأسهل، بقَدْر أكبر من آليات التحكّم. كانت النتيجة مهمّة عسكريَّة بقيادة أَمريكيَّة في الصومال. أبدى سكوكروفت قلقاً بشأن توفير استراتيجية خروج وعبَّر عن خشيته من أَن شيئاً قد لا يتحقَّق تحت المظلّة المكلفة رغم قدرة القوَّات الأَمريكيَّة علىٰ توفير الحماية لمختلف الجماعات الساعية إِلىٰ إِيصال الغذاء. وحين نغادر بعد بضعة أشهر فإِن من شأن الوضع أَن يبقى علىٰ حاله، مع قوات دولية أقل فاعلية كقوات ضامنة للمرور الآمن. فقد قال في أَحد الاجتماعات: «يمكننا أَن ندخل، ولكن كيف نخرج؟».

غير أَن القرار بات متخذاً. كنا سنرسل قوات برية لفترة زمنية محدودة، قوة ذات حجم كاف، قوة تزيد عن خمسة وثلاثين ألفاً، تكون قادرة علىٰ حماية نفسها، وما إِن يقوم الأَمريكيون بفرض السيطرة، حتى يتم استبدالهم بقوات تابعة للأمم المتّحدة. بدت الخطة منسجمة جزئياً علىٰ الأقل مع عقيدة پاول: قوة كافية للاضطلاع بمهمة محددة بوضوح وفق قواعد صريحة للتدخل وخطة جلية للرحيل. أراد بوش أَن يكون تاريخ المغادرة في التاسع عشر من كانون الثاني/ يناير كي لا يثقل كاهل الإِدارة الجديدة بتورّط عسكري مستمر في مكان غادر كهذا. غير أَن ذلك كان مبكراً جداً؛ ربما تكون فصائل معينة من الوحدات مستمرة في الوصول في ذلك التاريخ. إِلاَّ أَن الاتفاق قضى بأن تظل فترة وجود القوَّات هناك ضمن الحدود الدنيا الممكنة.

في البداية كان الممثِّل السياسي الرئيسي هناك رجلاً من الطراز الأول. كان بوب أوكلي الذي سبق له أن شغل منصب السفير في الصومال بين سنتي 1982 ـ 1984م قد تم إِيفاده مبعوثاً خاصاً لبوش، وحقَّق نجاحاً استثنائياً في التعامل مع الأَطراف المختلفة، خصوصاً مع عيديد الخطر. كان أوكلي واحداً من شباب سايگون، موظفاً سياسياً جديداً هناك مع هولبروك وليك؛ وكان هولبروك قد جعله في سنوات كارتر نائباً لمساعد وزير الخارجيَّة. وفيما بعد كان قد شغل عدداً من السفارات الصعبة جداً ـ في الصومال، زائير، پاكستان ـ نجح فيها وأدرك مدى خطورة الانجرار وراء النوايا الحسنة في الأجزاء المتخلّفة من العالم. كان يدرك مدى خطورة المبالغة في الحلم لدى التعامل مع الصوماليين. كان يؤمن باستحالة إِنجاز عمليَّة بناء كيان الدولة في مثل هذه الأَرض الملعونة. غير أنّه كان متمتعاً، بفضل تجربته السابقة هناك، بقَدْر جيد من القُدْرة علىٰ تلمّس نقاط قوة ومواطن ضعف الأَطراف المتصارعة. قال مرة: «إذا عاملت أَي أمير حرب معاملة رجل سياسة فإِنه سيتصرّف كرجل سياسة. وإِذا عاملته كأمير حرب فإِنه سيسلك سلوك أمراء الحرب». لقد كانت حنكة أوكلي السياسيَّة، إِدراكه لضرورة بقاء المهمّة محدودة، وحساسيته إِزاء الطريقة التي سيرى عيديد نفسه بها في هذه الأجواء السياسيَّة المتغيِّرة قليلاً، ميزات إِيجابية ذات شأن. كان يعرف مقدار ما يتعين عليه فعله بالضبط، ومقدار ما يتعيّن عليه الامتناع عن فعله ـ فضلاً عن معرفته بهويات أولئك الذين لا يجوز دوس أصابع أقدامهم [المساس بهم]. وبالتالي فإِن المهمة كانت ناجحة في البداية، وتم إِيصال الطعام، وحظيت قوة الولايات المتحدة التي لا يُستهان بها بالاحترام، وتعايش عيديد والأَمريكيون القائمون علىٰ البرنامج تعايشاً لا غبار عليه.

في كانون ثاني/ يناير 1993م، كان التغيير في الإِدارة قد تم للتو، وكان الأَمريكيون مقبلين علىٰ نقل المهمة إِلىٰ الأمم المتّحدة. هنا بالذات بدأت الأمور تتعثَّر. لم تكن جماعة كلنتون ممسكة بالدفة. لم يكن أَحد في واشنطن

يولي ما يكفي من الاهتمام للصومال. فالالتزام لم يكن كبيراً وبدا سائراً علىٰ ما يرام؛ وعلىٰ الرغم من أن المعادلة كانت موشكة علىٰ التغيّر، فإن أحداً في الشرائح العليا من الجهاز البيروقراطي لم يبد متحكماً بها. ومع ذلك فإن عدداً غير قليل من التحذيرات كانت موجودة بالتأكيد عن مخاطر محتملة في الصومال، خصوصاً خطر إما توسيع الخطة الأَمريكيّة أَو السماح لها بالإنفلاش بهذه الطريقة أَو تلك. وكل مطّلع علىٰ تقديرات وكالة الاستخبارات المركزية كان ملزماً بالتحلي بقَدْر كبير جداً من الحذر فيما يخص المستقبل. فجُل ما كانت الوكالة تقوله عن الصومال كان متشائماً. وباعتقاد جيم وولزي كان لدى الوكالة بعض العناصر ذوي الاطلاع الجيد جداً علىٰ المنطقة. فالتوترات الإقليمية المتصاعدة في عقدي السبعينيّات والثمانينيّات وهي المتضافرة مع إملاءات الحرب الباردة، كانت قد جعلت المنطقة بؤرة صراع رئيسية، وكنا قد أوفدنا عدداً من العناصر المؤهلة والمطلعة إلىٰ الصومال. كانت خلاصة آراء أولئك مفعمة بالتحذير. فالعشائر في هذه المنطقة الخاضعة للسيطرة العشائرية كانت أنانية ولا تعرف معنى الرحمة، دون أي أفق أوسع، ودون أي مفهوم للياقة المدنية. كانت مهووسة بشيء واحد ألا وهو التمسّك بالسلطة وطرد العشائر المنافسة. ولتحقيق ذلك كانت تلك العشائر مستعدة لتدمير أي شخص وكل ما يعترض طريقها.

لم تكن نظرة أوكلي إلىٰ الصومال مختلفة في شيء. كان من شأن أية خطة تقترح نظاماً سياسياً صومالياً أرحب، أنبل، أَو أفضل، أَن يُعتَبَر تهديداً للتوازن الحسّاس جداً، لهذا التوازن بالغ الحساسية الذي لم يتم التوصل إليه إلاّ عن طريق العنف، وألا يُكتب له أي حظ من النجاح. لم يكن أَحد مستعداً للغوص بعمق في المستنقع الصومالي بعد الاطلاع علىٰ برقيات الوكالة. وسرعان ما بات وولزي مقتنعاً بأن أَحداً في البيت الأَبيض لم يكن شديد الاهتمام بما لدى الوكالة من معلومات عن المسألة. ثمة آخرون، أصدقاء

قدامى وحميمون وموثوقون للإدارة كانوا متشائمين إلىٰ حد بعيد. هناك صديق حميم لبعض عناصر إدارة كلنتون يدعى ديك موس كان شديد القلق بشأن الصومال. كان عضواً في جماعة تضم كلاً من آسپن وليك وگَلْب وهولبروك ممن امتدت جذورهم إلىٰ أيام العمل معاً في حرب ڤيتنام. في تلك الأَيام كان موس مع لجنة العلاقات الخارجيَّة في مجلس الشيوخ. وفيما بعد عملوا جميعاً سوية في خدمة إدارة كارتر حيث كان موس معاون وزير للشؤون الإفريقية. وقد مكّنه ذلك من امتلاك معلومات واسعة جداً عن الصومال الحديثة. أصبح الآن معاون وزير لشؤون الإدارة. وفي بداية الإدارة الجديدة كان كل من ليك وساندي بيرگر قد طلبا منه أَن يكتب تقريراً يبصّرهما حول الصومال وقد فعل معلناً بأكبر قدر ممكن من الصراحة تأييده لفكرة الخروج من الورطة.

كان موس قد أمضى ساعات طويلة وطويلة جداً وهو يعالج مسألة صوماليا في سنواته الكارترية، ولم يكن قد حدث شيء في عهد بوش ـ من قسوة وفظاعات دأب زعماء العشائر علىٰ إلحاقها بأتباعهم وبني جلدتهم بالذات إذا لزم الأَمر ـ قادر علىٰ إثارة استغرابه. لم ير موس إلاَّ ما هو سلبي هناك. فالناس في الصومال سيكونون مختلفين عن أهالي جميع البلدان التي تعاملنا معها، وسوف يوقعوننا في مطبات وأفخاخ لم تخطر ببال أكثر الحالمين سعة خيال، برأي موس. لقد تمكّن الصوماليون من الاستمرار في البقاء كل تلك السنين علىٰ تلك البقعة القاسية من الأرض بصورة غير عادية، قال لليك وبيرگر، فقط بفضل مَكْرهم ودهائهم وعبر سذاجة الآخرين، البريطانيين والروس من قبل وربما نحن الآن. لم يكن الزعم القائل بإمكانية تغلبنا عليهم علىٰ ملعبهم هم، حيث وصولهم إلىٰ السلطة كان بالغ الصعوبة وسلوكهم السياسي بالغ القسوة والوحشية، إلاَّ سراباً. لم يحصل موس علىٰ أي رد مقنع علىٰ مذكرته، فراودته الشكوك حولها ربما قال أشياء لم يكن رفيقُ سلاحه القديم ليك راغباً في سماعها.

لا أَحد في فريق كلنتون من المستوى الرفيع للتخطيط سبق له أَن زار الصومال. فيما بعد بادر فرانك ويسنر الذي كان مساعداً لوزير الدفاع في السنوات الأولى من عهد كلنتون وكان قد سبق له أَن كان معاون وزير خارجيَّة في عهد بوش لدى اتخاذ القرار الأصلي القاضي بالتدخّل، إِلىٰ ممارسة نوع من النقد الذاتي لأَنَّه لم يثق بغرائزه ليبقى ممسكاً بالوضع. لعل لَسْ آسپن في وزارة الدفاع كان الأَكثر انزعاجاً من كل ما عرفه عن الصومال والأشد إِحساساً بأن الخطة باتت منحرفة عن خطها الأصلي. لقد أَراد أَن يلقي نظرة، تم الإِعداد لرحلة في الأَيام الأولى من جولته. أخذ الجرعات اللازمة، غير أَن ردّ فعله كان عنيفاً جداً حين علم بإِلغاء الرحلة. (باعتقاد بعض الأصدقاء أَدَّى رد فعله العنيف علىٰ زيادة سوء حالته الصحية المتدهورة أساساً).

في الحقيقة كانت الخطة تتغيّر بصورة مسرحية مثيرة دون أَن ينتبه أَحد إِلىٰ ما كان حاصلاً. كانت عملية التسليم والتسلُّم بين الوحدات الأَمريكيَّة ونظيرتها الدولية متعثّرة، ومتأخّرة عن البرنامج الزمني المرسوم. أضف إِلىٰ ذلك أَن الأَهداف المحدودة التي شكّلت نواة الخطة التي أوجزها كولن پاول بدأت تتسع لأَن لاعباً حاسماً جديداً، هو بطرس بطرس ـ غالي، أمين عام الأمم المتّحدة كان قد دخل اللعبة. فجدول أعمال بطرس غالي، وبالتالي المهمة التي بات الآن يتصوّرها (والأولوية الأعلى التي كان، باعتباره مصرياً، يخص بها المنطقة)، كان شديد الاختلاف عن جدول أعمال جورج بوش، كولن پاول، وبيل كلنتون ـ مع فارق أَن بوش بات عائداً إِلىٰ تكساس، وكولن پاول كان موشكاً علىٰ إِنهاء فترة رئاسته لهيئة رؤساء الأركان، وعَقْل كلنتون كان مشغولاً بقضايا أُخرى.

كان بطرس ـ غالي شديد الاهتمام بالصومال وجَلَب إِلىٰ الطاولة شيئاً جديداً تمثَّل بنوع من الكره الشخصي العميق لعيديد. من المؤكد أَن الأمين العام كان شخصاً مثيراً للإِعجاب، موهوباً، ذا كبرياء، وسريع الغضب، دون

أي افتقار إلىٰ الثقة بالنفس. وفي أغلب الأحيان كان أذكى من الكثير من الناس الذين تعامل معهم في مقر الأمم المتّحدة ـ ممثلي مجموعة الدول الكبيرة، الغنية، والقوية ـ ولإخفاقه في إخفاء حقيقة اعتباره لنفسه متفوقاً فكرياً علىٰ الآخرين بقي عاجزاً عن كسب الكثير من الأصدقاء في الغرب. إنَّه من أقباط مصر، مسيحي في بلاد ذات أكثرية مسلمة، سليل عائلة عريقة وشهيرة. وكقبطي لم يكن متاحاً له أن يصعد في الإدارة المصرية أكثر مما فعل، وقد ظل شاغلاً لمنصب نائب وزير الخارجيَّة أربعة عشر سنة. وعلىٰ الرغم من أن ظروف مولده حَرَمَتْه من فرصة الارتقاء إلىٰ المستوى المناسب فإنّها لم تجعله، حتى برأي الأصدقاء، أكثر تواضعاً في تقويم قدراته ومهاراته.

كنائب لوزير خارجيَّة مصر، كان بطرس ـ غالي مؤيداً لسياد بري، وهو أمر لم ينسه لا هو ولا عيديد، وكان سيبقى عبئاً ثقيلاً علىٰ الأحداث المقبلة في الصومال. ومن البداية أبدى بطرس ـ غالي اهتماماً ليس فقط بإيصال الطعام وإنجاز ذلك بأمان، بل بتغيير الطابع السياسي للصومال ـ مقلِّصاً سلطة عيديد، وإن لم يستطع الإجهاز عليها. أمَّا عيديد، وهو أستاذ في المكر والدهاء، فقد تنبّه إلىٰ بروز خصم جديد علىٰ الساحة. حاول بوب أوكلي ـ الذي كان لا يزال في مقديشو ـ كثيراً أن يخفِّف من شكوك عيديد إزاء بطرس ـ غالي والأمم المتّحدة، غير أن أقوال الأمين العام وأفعاله بالذات قطعت الطريق علىٰ أوكلي في الكثير من الأحيان.

بصورة شبه اعتباطية، جرى استبدال القوّات الأمريكيَّة، الواثقة من رسالتها، الواثقة من موعد الرد علىٰ النار بالمثل، المقبولة لدى السكان المحليين بوصفها ممثلة الحضور العسكري الوحيد لحقبة ما بعد حرب الخليج، بوحدات تابعة للأمم المتّحدة. من المؤكد أن الصوماليين لم يخافوا هذه الوحدات علىٰ الصعيد العسكري، غير أن حاكمهم اعتبر وجودها تهديداً سياسياً لسلطته. كان بطرس ـ غالي واثقاً من أنَّه يعرف عن الصومال أكثر مما يعرفه أي

شخص آخر ممن كان يتعامل معهم، وقد يكون ذلك صحيحاً، ومن أَن أَهدافه أَكثر نبلاً من أَهداف أَي شخص آخر، وهو صحيح بصورة شبه مؤكدة. كان بطرس ـ غالي يريد تغيير الإِطار السياسي في الصومال لتقزيم ليس فقط نفوذ العشائر وخصوصاً نفوذ عيديد، بل ولوضع حد، مرة وإِلىٰ الأبد، لمثل هذا النوع من الإِدارة المارقة حتى نعفي أجيال المستقبل من الاضطرار للمرور بالمحنة ذاتها في حال حدوث مأساة قوميَّة لاحقة. صحيح أَن تلك غاية جديرة بالتقدير، غير أَن إمكانية بلوغها في ظل ظروف الالتزام الأَمريكي المحدود كانت مسألة أُخرى تماماً. ثمة أناس في مواقع عليا في الأمم المتّحدة كانوا يرون أَن بطرس ـ غالي بقي غافلاً عن مدى مساهمة خلفيته الخاصة في تكوين توترات إضافية؛ كان هؤلاء المسؤولون الكبار في الأمم المتّحدة يعتقدون بأن بطرس ـ غالي كان يتعين عليه أَن ينأى بنفسه عن القضية منذ البداية.

بصورة شبه متوقعة، باتت مسألة نزع سلاح العشائر طاغية علىٰ سائر الأمور الأُخرى. كان عيديد متنبهاً إِلىٰ الطبيعة المتغيرة لمهمة الأمم المتّحدة ولأَنَّه سيصبح، حتماً، هدف العمليَّة. أضف إِلىٰ ذلك أَن أوكلي، الذي سبق له أَن اضطلع بدور بالغ الأَهميَّة والحسم في التعامل مع عيديد وفي اجتراح اتفاقية وقف إطلاق نار هشّة، كان قد رحل. كان أوكلي مدركاً لعدم جدوى التفكير بإضفاء صفة الشيطان علىٰ عيديد أَو السعي لإِزاحته. لم يكن عيديد صانع الفوضى والعنف الصوماليين بمقدار ما كان انعكاساً لهما. إذا اعتبرتَه السبب فأنت علىٰ خطأ، لأَن من سيخلفه لن يكون إِلاَّ مثله أَو أسوأ منه حسب أقوى الاحتمالات. جرى استبدال أوكلي في أوائل آذار/ مارس بجوناثان هاو ـ أدميرال كان نائباً لسكوكروفت وأحد تلاميذ آل هيگ ـ الذي تم انتدابه رسمياً إِلىٰ الأمم المتّحدة. كان توني ليك هو صاحب الاختيار. وبنظر البعض في عالم الأَمن الأوسع بواشنطن، شكل اختيار هاو دليلاً علىٰ مدى هشاشة إِدارة كلنتون ونزوعها الجامح، في مثل هذه الأَوضاع السياسيَّة ـ العسكريَّة الحسَّاسة،

إلىٰ وضع وجه عسكري للاضطلاع بمهمة صعبة. في هذه الحالة كان العسكري قد شغل منصباً رفيعاً في مجلس بوش ـ سكوكروفت للأَمن القومي مما جعله محصناً ضد تهم الليونة. انطوت الوظيفة علىٰ أَهميَّة كبيرة وتطلبت قَدْراً كبيراً من الفطنة والحصافة السياسيتين، إضافة، إن أمكن، إلىٰ قَدْر غير قليل من المعرفة بأحوال المنطقة.

كان هاو رجلاً عسكرياً من الطراز الأول، قائد غواصة نووية، عضو هيئة جيداً، ومجتهداً في عمله. غير أَن مهاراته السياسيَّة اعتُبرت هامشية. فأحد الزملاء الذين عملوا معه خلال سني بوش قال: «لعل أسوأ الأشياء بالنسبة إلىٰ جون فيما يخص تلك المهمة ليس كونه عسكرياً، بل كونه شخصاً من النوع الذي غاب ببساطة يوم تم توزيع جينات (مورثات) السياسة ـ لم يكن لديه أي إحساس بما ما من شأنه أَن يكون وضعاً سياسياً بالغ التعقيد». وقد كان إرسال هاو إلىٰ هناك، باعتقاد هذا الزميل، ضماناً شبه مؤكد لحصول نوع من الصدام بين الولايات المتحدة وعيديد. وأضاف يقول: «من شبه المؤكد أَن عيديد كان سيفعل شيئاً سيعتبره هاو إهانة شخصية ـ زعيم عصابة صغيرة يُقْدِم علىٰ تحدي الولايات المتحدة واستفزازها ـ كيف تجرأ؟ وما إن يحدث ذلك، وسوف يحدث بالتأكيد، حتى يتعين علىٰ هاو أَن يرد. لم يكن الاختيار موفقاً».

ثمة كانت نقطتا تباين مهمتين بين هاو وأوكلي. كان الأخير يعمل لصالح واشنطن، والأَول لصالح الأمم المتّحدة؛ كان الأخير يعرف الساحة ومخاطرها، والأَول لا يعرفها. في أَيامه الأخيرة كان أوكلي قد سعى إلىٰ تليين نظرة عيديد إلىٰ الأمم المتّحدة وبطرس ـ غالي، ولكن دون نجاح يُذكر. نادراً ما يُقْبِل زعماء العشائر علىٰ تغيير جلودهم بسهولة. ومواقفهم من خصومهم تميل إلىٰ أَن تكون شخصية أكثر منها جيو ـ سياسيَّة. كما أنّهم لا يعتقدون بأن أعداءهم الألداء قادرون علىٰ تغيير جلودهم أيضاً. أضف إلىٰ ذلك أَن المسؤول الدولي الأَول في الميدان الماهر في التعايش مع عيديد مثل أوكلي، كان قد

تعرّض للنقد في نيويورك من قبل بطرس ـ غالي علىٰ صلاته الحميمة مع عيديد فجرى استبداله بسرعة بمسؤول دولي آخر، سرعان ما نأى بنفسه عن عيديد. من الواضح أن الخطة الأَمريكيَّة الأصلية ذات التركيز الضيِّق والخطة الدولية الناشئة الجديدة كانتا متفارقتين. ففي أواخر آذار/ مارس 1993م اتخذ مجلس الأَمن قراراً يدعو إِلىٰ «إِعادة تأهيل المؤسّسات السياسيَّة والاقتصاد في الصومال». تحدثت سفيرة الإِدارة لدى الأمم المتّحدة، مادلين أولبرايت بحماس عن القرار. قالت إِن القرار شكَّل «مشروعاً غير مسبوق يستهدف ما ليس أقل من إِعادة الحياة للبلد بكامله»[4].

يا له من موقف قوي! أراد بطرس ـ غالي أَن يتم توظيف كل ما لدى الأمم المتّحدة في البلاد من قوة لنزع سلاح الصوماليين، في مشروع أشبه، ـ نظراً لأعداد بنادق الكلاشينكوف الرشاشة التي تزود بها هؤلاء من الروس ـ بارودة في كل بيت كما قال أَحد عناصر الإِدارة ـ، بمحاولة حفنة من عناصر مكتب التحقيقات الاتحادي (الأف. بي. آي.) نزع أَسلحة محبي اقتناء المسدسات والبنادق من اليمينيين في واشنطن الشرقيَّة، إِيداهو الشمالية ومونتانا الغربيَّة. كان اهتمام كلنتون مشدوداً إِلىٰ مكان آخر، صوت كرستوفر كان مكتوماً أساساً، وليك لم يكن الوصول إِليه سهلاً. بدا آسپن تواقاً لوضع حد للخطة وتقليص حجم الالتزام، غير أَن أَحداً لم يكن يصغي إِليه. فيما بعد شكا آسپن لصديقه الحميم لي هاملتون من أَن الحصول علىٰ توجيهات من البيت الأَبيض حول الخطة في الصومال وغيرها من القضايا كان صعباً. ومما قاله: «ستتم استضافتي في أحد برامج المقابلات التلفزيونية صباح يوم الأحد، وسأبقى دائباً علىٰ الاتصال حتى مساء السبت بهذا وذاك لأكوّن فكرة عن طبيعة الخطة». أَمَّا في الأمم المتّحدة، فإِن أولبرايت كانت تتحدَّث عن بناء كيان الدولة وعن صومال جديدة أكثر ديمقراطيَّة وشيكة، مردِّدة، برأي البعض في

(4) المصدر السابق، 111.

واشنطن، أصداء آراء بطرس ـ غالي. جاءت كلمتها، المختلفة جداً عن المفهوم الأصلي للمهمة، دليلاً واضحاً علىٰ أن واشنطن لم تكن تأخذ الأحداث في الصومال بما يكفي من الجدية، وأن أحداً لم يكن مسؤولاً في الحقيقة.

كان ثمة مؤشرات كثيرة من القيل والقال علىٰ أن الأمور لن تسير وفقاً لخطتها الأصلية. كان جورج بوش قد وصل إلىٰ الصومال في زيارة تدوم ثلاثة أيام لقضاء عيد رأس السنة وتقديم الشكر للقوات. كانت الزيارة موفقة بصورة استثنائية. غير أن بطرس ـ غالي كان قد وصل بعد يومين اثنين وكان عيديد قد نظم تظاهرة غاضبة معادية للأمم المتّحدة علىٰ شرف الأمين العام. بدأت الأحداث تتحرّك. بدأ عيديد يتحدى مهمة الأمم المتّحدة؛ بادر هاو، بدوره، إلىٰ اعتبار مقاومة الرجل إهانة شخصية. وبنظر عيديد كان هاو سائراً في خط بطرس ـ غالي علىٰ صعيد تفضيل نزع سلاح قوات عيديد. شكّل ذلك قَدْراً لا يستهان به من التغيير في المهمة. فعلىٰ الرغم من أن القادة الأمريكيين في الميدان كانوا يشعرون بأن مهمتهم باتت منجزة وعلىٰ وحداتهم أن ترحل، حاول هاو إقناع واشنطن استبقاء هذه القوّات. بقيت هيئة رؤساء الأركان المشتركة غير مقتنعة، وما لبث سحب القوّة الأمريكيّة الأساسية أن بدأ بصورة تدريجية، مع ترك حوالي 4500 جندي كوحدات دعم. حوالي 4000 جندي پاكستاني حلوا محل مشاة البحرية الـ 2600. غير أن القوّات الپاكستانية لم تقم بأعمال الدورية مثل نظيرتها الأمريكيّة إضافة إلىٰ أنها كانت أقل يقيناً بدورها. متى يبادر جنود قوة حفظ سلام معينة بالرد علىٰ النار الصادرة عن الناس الذين يفترض فيها أنها تحميهم؟ سارع عيديد إلىٰ إعادة إقحام أسلحته الثقيلة في قلب المدينة. كذلك كانت مصادر صديقة لعيديد في قوام قوة الأمم المتّحدة تبلغه عن اعتزام القيادة الدولية إغلاق محطته الإذاعية بسبب ما تبثه من رسائل ملتهبة معادية للأمم المتّحدة. ثبت أن ذلك التقرير كان صحيحاً.

في الخامس عشر من حزيران/ يونيو 1993م، بعد يوم واحد من إبلاغه

من جانب رسميـي الأمم المتّحدة بأنهم سيقومون بتفتيش مستودعات أَسلحته، أغارت قوات عيديد علىٰ الدوريات الپاكستانية في مقديشو. ومع انتهاء النهار بلغ عدد القتلى الپاكستانيين أربعة وعشرين مع أعداد كبيرة من الجرحى. ثمة جثث تعرضت لقَذْر بشع من التشويه ـ التمثيل والتدنيس في الحقيقة. فقط ردُّ القوّات الأَمريكيَّة ـ قوة الرد السريع ـ مع عدد من العربات المصفحة الإِيطالية تمكّن من الحيلولة دون تدهور الحالة إِلىٰ ما هو أسوأ. كان يوماً بالغ السوء بالنسبة إِلىٰ الأمم المتّحدة وواشنطن، وما لبثت دوامة العنف أَن تصاعدت. كان عيديد سيوجه الضربات إِلىٰ القوّات الدولية، وكانت هذه سترد، وسيؤدي ذلك إِلىٰ موت المزيد من الناس. فكل هجوم كان يستجر هجوماً آخر، ومع تنامي التوتر، كان هاو سيضغط علىٰ ساندي بيرگر وتوني ليك طالباً السماح له بالرد الانتقامي. إِضف إِلىٰ ذلك أَن القرين السياسي للعنف، إِضفاء صفة الشيطان علىٰ عيديد، كان قد بات مكتملاً. لم يعد العدو متمثلاً بالجوع والفقر والمرض بل بعيديد شخصياً.

تواصلت الاشتباكات بين القوّات المتنافسة التابعة للأمم المتّحدة من ناحية والعائدة لعيديد من الناحية المقابلة، وفي منتصف حزيران/ يونيو أصدر هاو مذكرة اعتقال بحقّه، عارضاً مكافأة بمبلغ 25000 دولار لمن يلقي القبض عليه. أدى ذلك أَيضاً إِلىٰ تغيير الوضع. كان هاو من عناصر الأمم المتّحدة، غير أنه، بنظر الصوماليين، خصوصاً بنظر عيديد بالذات، كان أَمريكياً أولاً وقبل كل شيء. ومع سير عمليَّة إِضفاء صفة الشيطان علىٰ عيديد من جانب الأمم المتّحدة (الولايات المتحدة الآن) علىٰ قدم وساق، كانت عمليَّة موازية دائبة علىٰ إِضفاء صفة الشيطان علىٰ الولايات المتحدة جارية في الصومال. بات خط الجبهة القتالية مرسوماً. ومما يثير الدهشة والذهول أَن أَي اجتماع أَمن قومي رفيع المستوى لم يعقد لبحث القدر الأكبر المحتمل من العنف الذي يمكن للقوات الأَمريكيَّة أَن تتعرض له بصورة معمقة.

في منتصف تموز/ يوليو أغارت الحوامات الحربية الأَمريكيَّة علىٰ مقر قيادة عيديد. كانت العمليَّة، ظاهرياً، عملية خاصة بالأمم المتّحدة، غير أَن الموافقة كانت صادرة من القيادات العليا القابعة في البيت الأَبيض بالذات. وحين انسحبت القوَّات الأَمريكيَّة من الموقع، انقض حشد صومالي غاضب من الرعاع على بعض الصحفيين الأجانب القادمين لتغطية الإِغارة، وقتل أربعة منهم. لم تعد الحرب بين عيديد وأمراء حرب آخرين؛ باتت، في واحد من الانعطافات الغريبة التي يمكن لمثل هذه الأشياء أَن تأخذها في بلدان العالم الثالث الفقيرة، حرباً يخوضها الصوماليون (تحت قيادة عيديد) ضد جميع الغرباء بمن فيهم الأَمريكيون. كان الناس القادمون لأداء هذه المهمة الغيرية والخيرية إِلىٰ الحدود القصوى المتمثلة بإِنهاء البؤس المخيف في الصومال، كان هؤلاء الناس بالذات قد أَصبحوا أَهدافاً للغَضَب الذي يفرزه هذا البؤس ليل نهار. أليس من المحتمل اعتبارهم قوة استعمارية خالصة أَيضاً؟

في واشنطن كان بوب أوكلي، أَحد مخضرمي نفس المفهوم المضخم لبناء الدولة في ڤيتنام ـ وإِخفاقاته المنهجية ـ غارقاً في بؤس متابعة خطة غير قائمة علىٰ أَي توجه أصيل. وبسبب تجربته الڤيتنامية وعقله السليم، لا شيء أثار قلقه أَكثر من مفهوم فَرْض عملية بناء الدولة في العالم الثالث بقوة السلاح. كنا، علىٰ ما بدا، علىٰ حافة الوقوع في ذلك الشرك في الصومال. إِن بناء الدولة لا ينجح إِلاَّ إِذا كانت الدولة صاحبة الشأن راغبة في البناء وفعلت القوى فعلها من الداخل ـ لا حين تحاول مجموعة غرباء من ذوي النوايا الحسنة، المتحلين بنعمة نكران المصالح الأنانية، أَن تفرضها علىٰ ثقافة بعيدة وغريبة.

كانت تعليقات أولبرايت في الأمم المتّحدة ومقالتها الافتتاحية في **النيويورك تايمز** قد أثارت قَدْراً استثنائياً من القلق لدى أوكلي. جاءت مقالة التايمز، المكتوبة في آب/ أغسطس، مجسْدة دعوة واضحة إِلىٰ إِحداث تغيير في السياسة: «كان من شأن الإِخفاق في التحرّك [ضد عيديد] أَن يوهم قادة عشائر

آخرين بأن الأمم المتّحدة ليست جادة. . . . إن القرار الذي يتعين علينا أن نتخذه هو ما إذا كان ينبغي علينا أن ننفض أيدينا ونسمح للصومال بالانحدار ثانية إلىٰ الهاوية، أم يجب علينا أن نثبت علىٰ المبدأ ونساهم في إخراج البلاد وشعبها من خانة الدول المفلسفة (المخفقة المتفككة)، وإيصالها إلىٰ خانة الدول الديمقراطيَّة الناشئة. لصالح الصومال ولصالحنا نحن علينا أن نصمد ونثابر»[5]. تساءل أوكلي عما إذا كانت أولبرايت قد فقدت عقلها. **ديمقراطيَّة ناشئة!** الكلمتان بالذات أصابتاه بالدهشة. كان فريق كلنتون، برأيه، أناساً ظرفاء، حسني النوايا، غير أن أحداً من الفريق لم يكن مسؤولاً بالفعل. وعلىٰ الرغم من أن دوره في البعثة، كان ناجحاً وقد عاد إلىٰ واشنطن، فإن الأمور باتت الآن عند حافة التأزم، غير أن أحداً، من الإدارة، لم يكن، مع ذلك، مستعداً لتحمّل مشقة الاتصال به خلال فصل الصيف الحار ذاك ليتحدث معه عن الصومال.

ما لبث كبار المسؤولين في واشنطن أن أصبحوا، جزئياً، يدركون مدى هشاشة القوّات الأمريكيَّة. ففي أوائل آب/ أغسطس قامت قوات عيديد بتفجير قنبلة من طراز التحكّم عن بُعد تحت عربة همفي أمريكيَّة وقتلت أربعة عناصر. كان الشخصان القائمان علىٰ حراسة المخزن في الپنتاگون، آسپن وپاول، هما الأشد سخطاً علىٰ الطريقة المتبعة في تطبيق الالتزام. لم يعد الناس المسؤولون في الصومال يبدون علىٰ علاقة تناغم وانسجام مع الناس المسؤولين عن إرسال القوّات بالدرجة الأولى. لقد كانت معادلة كارثية. من جميع النواحي وعلىٰ مختلف الصعد، كان عيديد ممسكاً بزمام المبادرة، قادراً علىٰ إطلاق الحوادث التي كنا نرد عليها. كان كل من پاول وآسپن مقتنعين بأن علىٰ الولايات المتحدة أن تخرج من الورطة. بات آسپن متزايد القلق إزاء غياب الرد من جانب جماعة مجلس الأمن القومي. دأب، كما قال لپاول، علىٰ تكسير أبواب نظام مجلس الأمن القومي، سعياً وراء الحصول علىٰ أجوبة، غير أن الأجوبة لم

---

(5) دوبز، 355.

تكن لتأتي. شكل ذلك إحباطاً كبيراً لآسپن الذي كان أكبر المسؤولين المدنيين في الپنتاگون، وبدا خارج السرب. من البداية تقريباً كانت فرص القدرة علىٰ التواصل قد شكّلت مشكلة. فتوني ليك كان شخصاً بعيداً، يصعب التواصل معه. وبرأي آسپن كان ليك شديد التكتم ولم يبادر إلىٰ كشف النقاب عن العمليّة. مرة سأل آسپن مراسل **التايمز** السياسي المخضرم ر. و. (جوني) آپل: «هل تستطيع أن تنتزع شيئاً من توني يا جوني؟ ـ أما أنا فمعاناتي معه شديدة». رأى جوني مثل هذا السؤال غريباً وشاذاً، ثمة مسؤول كبير في الإدارة يسأل صحفياً عما إذا كان الأخير أقْدر علىٰ التواصل مع مستشار الرئيس للأَمن القومي من المسؤول نفسه. غير أن تلك كانت مشكلة دائمة بالنسبة إلىٰ آسپن.

مع حلول صيف 1993م كان آسپن دائباً علىٰ بذل محاولات يائسة للإمساك بملف الصومال، شاعراً بأن القضية بدأت تخرج عن السيطرة وأشد قلقاً من مضاعفات ما كان يجري من أي شخص آخر في الحكومة. كان يصطدم بمشكلتين. مشكلة غياب الطاقة والاهتمام في البيت الأبيض بالنسبة إلىٰ القضية من جهة ومشكلة تأكد صحة جميع الشكوك التي دارت حول قدرته علىٰ إدارة الپنتاگون من جهة ثانية. لم يكن قائداً في الوزارة، لم يكن حاسماً وممسكاً بدفة التحكّم، عارفاً بدقّة ما يريد فعله في كل الأوقات. وبالتالي فقد بقي ممثلاً مهلهلاً للپنتاگون في اجتماعات البيت الأَبيض. غير أَن أَحداً من خارج الپنتاگون لم يكن يولي الأزمة الوشيكة في الصومال ـ التي باتت ذات آلية تخصّها ـ ما يكفي من الاهتمام. من الآن باتت قوات إضافية مطلوبة لحماية الوحدات. تفوح رائحة ڤيتنام في الأجواء. وبالتالي فإن كلاً من آسپن وپاول كانا محصورين بين سندان الخوف من أي تصعيد ومطرقة الحاجة، لوجودهما في موقعين أساسيين في سلسلة القيادة، إلىٰ ضمان سلامة وشرف القوّات الأَمريكيَّة، إذا كان ممكناً، تنفيذاً للأوامر. كان الوضع كابوساً.

أقدم الرجلان أواخر آب/ أغسطس، رغم إرادتهما، علىٰ تلبية طلب

جاءهما من اللواء توم مونتگمري بإرسال فوج اقتحام ووحدة من قوات الدلتا، وهي القوَّات السرِّيَّة جداً لدى وزارة الدفاع. بقي الطلب علىٰ الطاولة لبعض الوقت وقد حاولا مراوغته من قبل، غير أنهما باتا الآن يشعران بضرورة الإذعان. ذلك بالتحديد هو ما كان پاول يمقته: توسيع نطاق المهمة، الانزلاق إلىٰ التزام مفتوح. مثله مثل أوكلي، كانت ڤيتنام قد علَّمت پاول ألاَّ يثق بمفهوم بناء الدول عن طريق غُرباء حسني النوايا. بقي پاول ممزقاً بين دافعين. لم يكن يريد توسيع الالتزام الصومالي، ولكن مرؤوسه في الميدان علىٰ الجبهة كان يطلب مزيداً من القوَّات ولم يكن پاول ميّالاً إلىٰ خذلانه. ما لبث پاول أن أبلغ بعض الأصدقاء بأننا كنا نتعرّض للقضم حتى الموت في الصومال.

لم يكن آسپن هو الآخر راضياً عن فكرة إرسال قوات الاقتحام والدلتا. ففي 1993م، قبل شحن ديك هولبروك إلىٰ منصبه الجديد سفيراً في ألمانيا، تناول الأخير طعام العشاء مع آسپن في واشنطن. كان من المفترض أن يبدأ العشاء في الساعة الثامنة، ولكن آسپن وصل متأخراً ساعتين، بدا عليه الرعب، مستنزَفاً تماماً ممتقع اللون. بادر صديقه: «لقد اتخذنا للتو قراراً مصيرياً. إننا سنرسل قوات اقتحام إلىٰ الصومال. لن نكون قادرين علىٰ التحكّم بها. إنها ستندفع بقوة دون تردد». ما لبثت قوات الاقتحام والدلتا أن أصبحت حسب ما ورد في كتاب بوب أوكلي لاحقاً، «فرقة دائمة التفويض مخوَّلة بمطاردة عيديد وعصابته الخارجة علىٰ القانون»[6]. كان آسپن قلقاً وشكا لپاول حول عدم قُدْرته علىٰ لفت نظر أعضاء مجلس الأمن القومي الآخرين. وفي كلمة رئيسية دعا آسپن إلىٰ إعادة تقويم التزامنا، مقترحاً خطة أضيق وأقل مثالية تعكس نظرة أكثر واقعية إلىٰ السياسة الصومالية. لقد حان، برأيه، وقت العودة إلىٰ طاولة المفاوضات السلمية. جاء ذلك متناقضاً مئة بالمئة مع ما كان يرشح من

---

(6) أوكلي وهيرش، 122.

الخارجيَّة. غير أَن الرئيس وليك لم يكونا، علىٰ ما يبدو، قادرين علىٰ تمكين الإِدارة من النطق بصوت واضح.

أوشكت الأمور علىٰ النجاح أَو الفشل الكاملين. كانت الأمم المتّحدة تسير في اتجاه حتى حين كان بعض الناس في واشنطن قد بدؤوا يلامسون المكابح بأقدامهم، ولو دون حسم. فالإِغارات الأخيرة علىٰ القوّات الأَمريكيَّة والدولية كانت قد أثارت حفيظة الكونگرس أكثر من أَي وقت مضى. وفي الثاني والعشرين من أيلول/سپتمبر أقدم مجلس الأَمن علىٰ اعتماد قرار يقر مواصلة خطة قائمة عملياً علىٰ عمليَّة بناء دولة. كانت الولايات المتحدة قد بدأت تتحرّك في اتجاه آخر. بادر وارن كرستوفر، عاكساً تغييراً حاصلاً في موقف الإِدارة، إِلىٰ الاجتماع ببطرس ـ غالي وسلَّمه مذكرة تتضمن أَسباب إِيمان الولايات المتحدة بضرورة التأكيد مجدداً علىٰ الاهتداء إِلىٰ نوع من التسوية السلمية. كان لا بد لمطاردة عيديد من أَن تتوقف. بطريقة ما ـ لم يتحدد قط كيف بوضوح كاف ـ كان من المفترض أَن يخرج عيديد من الصومال ويعيش في ظل الاعتقال المنزلي في أَحد بلدان العالم الثالث، وفقاً لاقتراح كان من المؤكد أَن عيديد كان سيرفضه. لم يكن بطرس ـ غالي سعيداً بما رآه من انسحاب أَمريكي من خطته الجريئة الخاصة بالصومال. ظل يؤكد عَزْمَه علىٰ محاكمة عيديد. مضيفاً أَن شيئاً إِيجابياً واحداً لن يحدث في الصومال ما لم يتم نزع أَسلحة سائر القوّات المختلفة في الصومال. كان شديد الاهتمام بنزع السلاح، في حين لم يكن الأَمريكيون مثله.

أواخر أيلول/سپتمبر حضر پاول الموشك علىٰ التقاعد في غضون أَيام قليلة اجتماعاً هو الأخير بين اجتماعات مجلس الأَمن القومي ذات المستوى الرفيع. وكبار القوم جميعاً كانوا في الاجتماع باستثناء كلنتون: ثمة كان ليك، آسپن وكرستوفر، إِضافة إِلىٰ ستيفانوپولوس وگرْگن. دار الجزء الأكبر من الاجتماع حول البوسنة. غير أَن پاول بادر، قبيل انتهاء الاجتماع، دون إِنجاز ما

كان يقوله مع آسپن، وهذا تصرّف غير عادي، إلىٰ الحديث عن الصومال. قال پاول إن الولايات المتحدة كانت تتعرّض، رغم إرادتها وفي تناقض صارخ مع الحدود المرسومة لخطتها الأصلية، للجر والتوريط. أضاف إن القائد هناك، الجنرال مونتگمري كان قد طلب جملة من التعزيزات ـ من الدبابات وناقلات الجنود المدرعة في المقام الأول. تذكر پاول أن ستيفانوپولوس وگرْگن، كليهما، أظهرا قَدْراً كبيراً من الرعب لأن آخر ما كانا يريدانه هو توسيع شيء كان من المفترض أن يصبح أصغر. كانا، آخر المطاف، يتعرّضان لقَدْر متزايد من التشدّد من جانب الكونگرس. ولدى انتهاء الاجتماع، شعر پاول بشيء من القلق خشية أن يكون قد استثار آسپن لمبادرته إلىٰ الكلام ذاتياً قبل الاتفاق معه. لم يكن الأَمر كذلك علىٰ الإطلاق. كان آسپن حتى أكثر ميلاً إلىٰ الاقتناع بضرورة تقليص الخطة. وبعد عودتهما إلىٰ مكتب آسپن، أتى پاول علىٰ ذكر طلب مونتگمري للمدرعات. علّق آسپن قائلاً: «لن يحصل! [السماء أقرب إليه]». أتى علىٰ ذكر الضغوط المتزايدة الصادرة عن التلة (البرلمان). لقد حان وقت تغيير الاتجاه.

كانت الأجواء في مقديشو بين صفوف القوّات الأَمريكيَّة قد أَصبحت أكثر بشاعة في صيف 1993م. فحين عاد بوب أوكلي إلىٰ مقديشو، أخيراً، أرعبته الكراهية التي بات الأَمريكيون يكنّونها للصوماليين ـ وجهة النظر القائلة بأن الصومالي الجيد الوحيد هو الصومالي الميت. مرة أُخرى ذكّرته الصومال بڤيتنام حيث كان جنودنا، انطلاقاً من حاجتهم الماسة إلىٰ النجاة والخروج من حرب بالغة الصعوبة، قد أَصبحوا أكثر قسوة ومرارة، وباتوا يتحدَّثون عن الڤيتناميين بأَكثر التعابير التي يمكن تصوّرها بشاعة. إنها عمليَّة بناء الدولة. ثلاثة أشهر من تصعيد العمليّات القتالية كانت قد سَمَّمَتْ الأجواء. عاجلاً أَو آجلاً ستكون ثمة مجابهة مأساوية، وما لبثت أن أزفت ساعة تلك المجابهة في الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر. بدأت العمليَّة بمحاولة محمولة علىٰ متن حوامة لإلقاء القبض

علىٰ عيديد وفريقه القيادي في فندق أوليمپيا بمركز مدينة مقديشو. شارك في العمليَّة فريق من قوات الاقتحام ووحدات الدلتا النخبوية. إلىٰ الآن كانت عمليَّات قوات الاقتحام والدلتا الخاصة قد سارت بنجاح، دون أية معارك حقيقية، غير أَن استخفاف الجنود الأَمريكيين بالصوماليين كان ملموساً. كان الجنود الأَمريكيون يُطْلِقون علىٰ نظرائهم الصوماليين اسمَ عيدان القصب الناحلة. ورغم القيظ في مقديشو، لم يكن الجنود الأَمريكيون المثقلون بالمعدات يهملون اصطحاب شيئين: مَطَرة الماء والمنظار الليلي الذي من شأنه أَن يوفِّر لهم تفوّقاً تكنولوجياً عظيماً في حال حدوث اشتباكات ليلية. غير أَنّهم انطلقوا، هذه المرة، من افتراضين متغطرسين: لن يكون هناك في مثل هذا اليوم القائظ برأيهم إلاَّ قَدْر قليل من المقاومة ولن يكونوا بحاجة إلىٰ أَي ماء بالتالي **أولاً**. واعتقدوا، **ثانياً**، بأن جَوْلَتَهم ستكون وجيزة جداً بما يبقيهم في غنى عن النظارات الليلية. وقد تبين أَن الفرضيتين كانتا علىٰ خطأ[7].

كان الأَمريكيون يملكون أَحدث الفَرَّامات، الصقور السوداء، وقد وضعوا حداً للأَسلحة الصومالية، وباتوا يعتبرون غير قابلين للتدمير. لم يكن الصوماليون يملكون إلاَّ أَسلحة الآر. بي. جي. السوڤيتية القديمة قاذفات القنابل البدائية الشبيهة بالبازوكا. ففي مواجهة فرَّامة تشق الأفق بسرعتها القصوى فوق ساحة معركة مكشوفة، قد لا يكون الـ آر. بي. جي. فعالاً. ولكن هذا الوضع، مع فرَّامة محلِّقة فوق فندق وعاكفة علىٰ إنزال الوحدات إلىٰ مركز مدينة مقديشو، كان مختلفاً كلياً، وكان طيارو الفرَّامة الأَمريكيون يعرفون مدى هشاشتهم حتى في مواجهة أَكثر أَسلحة رجال عيديد بدائية. بصورة شبه مباشرة تم إسقاط إحدى الفرَّامات بقذيفة آر. بي. جي. وعلىٰ الفور انقلبت المهمة من مهمة هجومية إلىٰ مهمة دفاعية. لننسَ اعتقال عيديد! باتت القضية

(7) في **سقوط الصقر الأسود** يفصِّل مارك بودن ما حدث اليوم في أحد أفضل التقارير الحربية التي سبق لي أن قرأتها.

الآن متمثلة بإخراج القوّات الأمريكيّة العالقة في قلب المدينة مع جرحاها وقتلاها. والقوّات الأمريكيّة التي تمثّلت أعظمُ ميزاتها الإيجابية بسرعة الحركة والقدرة علىٰ مباغتة الصوماليين باتت الآن مطوّقة. بسبب القيود التي فرضتها ساحة القتال المدينية علىٰ التكنولوجيا الأمريكيّة، مع صيرورة الفرّامات المحلقة أهدافاً سهلة في قلب مقديشو، تحوّلت ساحة القتال إلىٰ بؤرة رعب، إلىٰ ميدان معركة انقلب فجأة لصالح الصوماليين.

استمرت الأشياء كلها تتعثر والأخطاء تتوالى. كان الأمريكيون علىٰ الأرض مزودين بأحدث الأسلحة، وبعض أفراد المشاة بدوا أشبه بفدائيي باك روجرز لا بجنود مشاة من الطراز القديم. كانت التكنولوجيا في فرّامة القيادة المحلقة فوق المعركة أشبه بشيء خارج من غرفة عمليّات البنتاگون. غير أن الصوماليين كانوا يملكون وسيلة الاتصال الخاصة بهم وإن كانت بدائية تماماً. لاستنهاض همم الصوماليين الآخرين وتذكيرهم بأن معركةً جاريةٌ علىٰ قدم وساق، أشعلوا النار بالإطارات المطاطية حيث كان الأمريكيون محاصرين. تدفق آلاف الصوماليين، جميع الصوماليين، علىٰ ما بدا، مسلحين ببنادق الكلاشينكوف ـ 47، علىٰ مركز المدينة. ربما لم يكونوا جنوداً جيدين، ربما كانوا ضعيفي التدريب وميّالين إلىٰ أن يقبعوا حيث هم ويطلقوا النار في الهواء «يا ربي تجيبها في عين العدو!». غير أن بعضهم كانوا شجعاناً، وهؤلاء كانوا كثيرين، وسلاح الكلاشينكوف هو أحد أفضل أسلحة المشاة في العصر الحديث.

ما حدث كان مجزرة في مدينة. مع انتهاء المعركة باتت قوافل الإغاثة قادرة، أخيراً، علىٰ أن تشق طريقها لإنقاذ الوحدات الواقعة في المصيدة، قُتل ثمانية عشر أمريكياً، جُرحَ ما لا يقل عن أربعة وسبعين، وتم إسقاط حوّامتين اثنتين. ربما بلغ عدد القتلى الصوماليين ألفاً. غير أنّها كانت، من جميع الوجوه، كارثة أمريكيّة، ومع غروب شمس النهار بدأت أشرطة الڤيديو تبث

صورة جثة جندي أَمريكي تجرها الجموع عبر شوارع مقديشو علىٰ أنغام هتافات الحشود المحلية. كانت هذه كارثة كبرى من كوارث حقبة السي. إِن. إن. الجماعية. ما من مشهد كان بوسعه أَن ينطوي علىٰ قَدْر أكبر من الألم والمرارة بالنسبة إِلىٰ مواطن أَمريكي عادي جالس في بيته من جثة جندي قتيل، كان قد ذهب إِلىٰ ذلك المكان البعيد لأداء رسالة إِنسانية، مجرورة في الشوارع فيما حشود الناس ـ الذين كان هناك لمساعدتهم ـ دائبة علىٰ إِطلاق الهتافات المؤيدة لعملية تدنيس جثته. إِنَّه لَنموذج مأساوي لطابع السياسة الخارجيَّة المتقلّب الناجم عن الصور، صور الجياع هذه المرة التي يمكن قلبها بسرعة إِلىٰ صورة مضادة، صورة جثة قتيل يتم جرها في عاصمة أجنبية.

استشاط كلنتون غضباً. «كيف أمكن لهذا أَن يحدث؟» كانت تلك صرختَه العالية. وكانت العبارة تعني عند الترجمة: كيف أمكن لهذا أَن يحدث لي **أنا؟** وقد بدا جاداً مئة بالمئة. أصيب كلنتون بالرعب إِزاء تعرُّض الولايات المتحدة للمضايقة والإِحراج جراء ما أطلق عليه اسم «وخزات تافهة»[8]. لقد توصل إِلىٰ استنتاج يقول بأن تغييراً في الخطة قد حصل دون موافقته المطّلعة. تلك كانت العبارة الأساسية، **موافقته المطَّلعة**، القادرة، حسب عقله، علىٰ إِبقائه، عملياً، بعيداً عن الصنّارة. لماذا لم يبادر أَحد إِلىٰ إِطلاعه علىٰ الوجه السفلي، السلبي للخطة[9]؟ بات مقتنعاً بأن الناس الذين يفترض فيهم أَن يحموه لم يقوموا بحمايته. صحيح أَنَّه كان لا مبالياً قليلاً، أكثر من متحرر قليلاً، في الحقيقة، غير أَن ذلك لم يكن يعني أَنَّه مستعد استعداداً كاملاً لتحمّل مسؤولية ما كان قد حدث. كان غضبه بحاجة إِلىٰ هدف، وما لبث تدريجياً أَن انصب علىٰ لَسْ آسپن، الذي دأب علىٰ مطالبة فريق البيت الأَبيض، بإِلحاح، بتسليط الأضواء

---

(8) ستيفانوپولوس، 124.

(9) اعتمدت هنا علىٰ خلفية مقابلات جُل الشخصيات الرئيسية، إضافة إِلىٰ مذكرات مختلفة عن الفترة، مع رواية إليزابت ديو الرائعة في «**علىٰ الحافة**»، التي هي أفضل وصف لكلنتون في تلك الفترة.

علىٰ الخطة والحد من نقاط ضعف المهمة، ولكن اسمه ما لبث، بسبب كونه قد قرَّر تقليص المهمة في اليوم الذي سبق يوم المأساة بالذات، أَن برز **في مقالات عدد من الصحف** رافضاً تزويد القوّات الموجودة في الصومال بالدبابات في شهر أيلول/سپتمبر. توجه جزء من غضب كلنتون نحو عناصر الأمم المتّحدة التي كانت قد وسّعت إِطار المهمة. وثمة جزء من غضبه كان موجهاً، بصورة مضمرة، إِلىٰ كولن پاول علىٰ شكل غلّ شخصي. ففي أحاديثه مع المراسلين في سنوات لاحقة كان كلنتون سيكثر من العزف علىٰ وتر دور پاول في الصومال، من الزعم بأنّه كان قد أقر تصعيداً جزئياً غير أَنّه ظل يرفض تحمل جزء من المسؤولية؛ لقد رأى الرئيس هذا تجسيداً لأحد أكبر المظالم التي لحقت بفترة رئاسته الأولى. كان لديه شيء من شعور السخط الباقي إِزاء توني ليك أَيضاً معتقداً أَن الأخير لم ينجح تماماً في حمايته حول هذه القضية. لم تعد علاقة الرجلين، باعتقاد بعض العارفين ببواطن الأمور، إِلىٰ سابق عهدها.

حين دقَّتْ ساعة قيام بعض كبار مسؤولي الجيش بالرد علىٰ أسئلة التلة (الكونگرس) حول الصومال، بيَّنَ البيت الأَبيض رغبته في تقليص دور ليك إِلىٰ الحد الأدنى وتأكيد دور جوناثان هاو. فالجزء الأكبر من القلق بُعيْد مأساة مقديشو تركَّزَ علىٰ عمليَّة الإِخراج، علىٰ كيفية جعل أمر علىٰ هذا المستوى من الكارثية يبدو أقل هولاً من جهة وكيفية جعل ذلك يبدو بعيداً قدر الإِمكان عن البيت الأَبيض من جهة ثانية. سمع كلنتون بما حصل وهو في جولة بكاليفورنيا، وكان أَحد الأسئلة الأولى منصباً لا علىٰ ما العمل بشأن ما حصل بل كيف ينبغي تصوير رد فعل الرئيس علىٰ ما حصل. هل كان يتعين عليه أَن يعود إِلىٰ واشنطن تعبيراً عن الاهتمام بمثل هذا الأَمر الخطير، أم يجب أَن يواصل رحلته المبرمجة؟ بين أولئك الذين تحدث معهم كان مستشاروه وصانعو صورته مثل ستيفانوپولوس، خبير استطلاعات الرأي ستان گرينبيرگ، ديڤيد گرْگن، وماندي گرنوالد؛ رأى ليك وگرْگن أَن عليه ألا يعود

خوفاً من جعل الأزمة تبدو أكثر أَهميَّة مما هي. تابع كلنتون رحلته عبر ولاية كاليفورنيا.

بصورة شبه مباشرة تم إِيفاد آسپن وكرستوفر إِلىٰ التلة، غير أنهما قوبلا بما يشبه عمليَّة إِعدام دون محاكمة، بدلاً من استقبالهما استقبالاً صعباً عدائياً بعض الشيء كما توقعا، إِذ بادر عدد كبير من النواب الغاضبين، بصرف النظر عن الانتماء الحزبي، إِلىٰ الصراخ في وجهيهما بقوة. فبنظر أعضاء البرلمان كان ما حدث في الصومال يشي بكل ما من شأنه أَن يتعرّض للخطأ والخلل. كانت تلك حرباً في بلد بعيد لم يكن لنا فيه أية مصالح حيوية؛ وكانت تحمل العنوان غير المشرِّف للأمم المتّحدة، لعمليَّة إِنسانية أجهز عليها هؤلاء الناس ـ هؤلاء المتوحشون ـ الذين قتلوا أبناءنا. لم يكن لدى أَي من كرستوفر وآسپن أية خطة في ذلك اليوم. فبدلاً من عرض خطة ما التمسا من أعضاء الكونگرس مساعدتهما علىٰ إِيجاد مثل هذه الخطة. بدا الرجلان كما لو كانا قد سفحا دماءهما لدفع أسماك القرش المطوِّقة لهما إِلىٰ الانقضاض عليهما. لعل الأَكثر إِثارة للانتباه حول الاجتماع هو أَن بعض أعضاء الكونگرس المخضرمين لاحظوا أَن كرستوفر كان سعيداً بترك العبء الأكبر علىٰ عاتق آسپن والاضطلاع، ما أمكن، بدور البطل.

في الخامس من تشرين الأَول اتصل ليك مع بوب أوكلي وطلب منه المجيء إِلىٰ البيت الأَبيض لتناول طعام الفطور كمهمة أولى في الصباح. رد عليه أوكلي: «لماذا يا توني الآن؟ ألستُ هنا منذ ستة أشهر؟!»[10]. حضر الاجتماع كل من ليك، ساندي بيرگر، ومادلين أولبرايت؛ تحدَّثوا لبعض الوقت في مكتب ليك ثم انتقلوا إِلىٰ المكتب البيضوي، حيث التحق بهم الرئيس، نائب الرئيس، ولَسْ آسپن جنباً إِلىٰ جنب مع ممثلين عسكريين. دام الاجتماع

(10) باودن، 309؛ مقابلتان مع أوكلي وليك.

ست ساعات. في مقديشو كان هاو والميجر جنرال وليم گاريسون اللذان كانا قد أمرا فعلاً بشن الغارة، يريدان مواصلة البحث عن عيديد. لم يكن ذلك وارداً. فعيديد كان قد كسب الجَوْلة. في هذا الاجتماع لم تتم مناقشة مواصلة الخطة القديمة التي باتت يتيمة تماماً بعد أَن تبرّأ منها الجميع. تركز النقاش كله علىٰ كيفية الخروج، أَو بعبارة أَكثر دقة كيفية البَتْر والهرب دون الظهور بمظهر الباتر الهارب، إِذا استخدمنا عبارة ليندون جونسون القديمة. تمثل الحل في النهاية بتعزيز قواتنا ـ من حسن حظنا أَن أَحداً لا يستطيع أَن يتدخل في شؤوننا ـ ومن ثم المبادرة إِلىٰ الرحيل بأقصى سرعة ممكنة.

من جميع النواحي كانت الصومال فضيحة وهزيمة كاملة؛ مأساة، بالنسبة إِلىٰ أسر الشباب الذين قُتلوا، مأساة بالنسبة إِلىٰ إِدارة غير واثقة وما زالت حتى اللحظة تميل إِلىٰ الغطرسة، مأساة بالنسبة إِلىٰ الصوماليين الذين بدت قضيتهم أَكثر بعثاً علىٰ اليأس من أي وقت آخر. كانت أَيضاً مأساة كبيرة بالنسبة إِلىٰ كل من كان يعتقد بأن لأَمريكا دوراً متعاظماً تلعبه في عمليّات حفظ السلام الإِنسانية. فبالنسبة إِلىٰ ضعفاء العالم المعرَّضين للخطر في أماكن مثل رواندا، البوسنة، وكوسوڤا، كانت المعونة الأَمريكيَّة ستصل، إِن وصلت أساساً، آجلاً لا عاجلاً، وأقل مما هو مطلوب لا أَكثر. كانت أَيضاً مأساة بالنسبة إِلىٰ العلاقات بين الولايات المتحدة والأمم المتّحدة، وهي سريعة العطب علىٰ الدوام، غير أَنّها متزايدة الأَهميَّة إِذ كانت الولايات المتحدة ستشارك في عمليّات حفظ السلام في أجزاء هامشية من العالم. عَبَّرَ الكونگرس عن مقته لذلك. قيل إِن عضو مجلس شيوخ جمهورياً متنفذاً يدعى ميتش ماكونيل قال: «ماتت التعددية الزاحفة في شوارع مقديشو»[11]. وفيما بعد صرح روبرت بيرد، أَحد القادة الديمقراطيين، إِثر قرار اتخذه مجلس الشيوخ قضى بانسحاب مبكر من الصومال، قائلاً: «لقد وضعنا حداً لمسألة تمكين الأمم المتّحدة من الظهور

---

(11) هايلاند، 59.

كما لو كانت تجرنا من أنفنا»[12]. مهما كان سيحدث في البوسنة فإن المساعدة العسكريَّة الأَمريكيَّة كانت ستبقى أَكثر شحاً وتردّداً، مع ضمان عدم انطوائها، بكل تأكيد، علىٰ إِرسال قوات برية.

كانت القصة أشبه بقصة خليج الخنازير قبل اثنتين وثلاثين سنة بالنسبة إِلىٰ فريق كلنتون، كانت ضربة مدمّرة لإِدارة جديدة. غير أَن جاك كندي الشاب كان بطل حرب، واثقاً من سجله في التعامل مع الجيش، وتوفرت له، بسرعة نسبية، فرصة تعويض خسائره السياسيَّة خلال أزمة الصواريخ الكوبية. أَمَّا ما كان قد حدث في الصومال فقد أَكَّدَ أسوأ الشكوك الحائمة حول إِدارة كلنتون لا بنظر منتقديها فقط، بل وبنظر أولئك الواقفين علىٰ الحياد. أضف إِلىٰ ذلك أَن ما حدث ساهم أَيضاً في تأكيد أسوأ شكوك كلنتون بالسياسة الخارجيَّة التي كانت قضية مراوغة، ضبابية، خارج دائرة التحكّم الرئاسي الداخلي مثقلة بما هو أَكثر من الاحتمالات السلبية مقارنة بنظيرتها الإِيجابية، غير مؤهلة لأَن تتمخض عن أَي خير ذي شأن ولو نسبي.

كان لا بد لأحدهم من أَن يدفع الثمن الذي كان من نصيب لَسْ آسپن، الذي بقي أعلىٰ صوتاً مِنْ سائر مَنْ هم في المستويات العليا حول الصومال، هذه المرة. التحق بالركب بعد شهرين. قرَّر الرئيس إِبعاده لَيْسَ بسبب الصومال فقط، بل وبسبب تقارير دائمة عن عدم إِدارة وزارة الدفاع كما ينبغي. بادر آسپن إِلىٰ الهجوم المعاكس، محاولاً التمسّك بمنصبه، وراح يقول، ومعه بعض الحق، إِن الصومال لم تكن امتحاناً عادلاً. تردّد كلنتون. غير أَن الأَصوات الخاصة المنبعثة من داخل الإِدارة ومن أشخاص يعرفون الپنتاگون كانت عالية جداً. لم يكن آسپن مؤهلاً قط لأَن يصبح ذلك الإِداري المتشدِّد الصارم المطلوب لإِدارة تلك الورشة [ورشة وزارة الدفاع].

(12) المصدر السابق.

كان ڤيرنون جوردان، ذلك الذي ما لبث أَن أَصبح أقرب مستشاري كلنتون، الأقوى من أَي وقت مضى لأَنَّه لم يكن موظفاً عند الرئيس وجزءاً من الهرم القيادي، قد حذَّر كلنتون من تغيير رأيه. فبرأي ڤيرنون هذا لم يكن آسپن، رغم إِثارته للإِعجاب كشخص، الرجل المناسب للمنصب، وقد تعيّن علىٰ كلنتون أَن ينفِّذ قراره. لاذ جوردان بإِحدى العبارات التوراتية لتصليب موقف الرئيس: «ويل للذي يضع يده علىٰ قبضة المحراث ثم لا يلبث أَن يتراجع!» ثمة تحقيق لاحق في مجلس الشيوخ كان سيؤكد الإِخفاق في إِرسال الدبابات وعربات نقل الجنود المدرعة إِلىٰ الصومال الذي تمّ تحميل آسپن مسؤوليته. وذلك الإِخفاق، بدلاً من ضبابية خطة الإِدارة وتقلباتها، ما لبث أَن غدا المسؤولَ الأولَ والأخير عن كل ما حصل.

غير أَن كلنتون لم ينج دون خدوش. شكَّلَت القصة نكسة خطيرة بالنسبة إِلىٰ رئيس ذي علاقات مهزوزة أساساً مع الجيش. كان ضعيفاً قبل وقوع الكارثة، وأَصبح الآن أضعف. بدت المضاعفات الداخليَّة مرعبة. لو حدث ما حدث في سنة انتخابية لتمكن من الانطواء علىٰ ضياع فرصة إِعادة انتخاب أَي رئيس. كان من شأن كبار قادة الجيش، غير الوارثين أساساً بإِدارة كلنتون، أَن يصبحوا أَكثر ارتياباً بعد أَحداث الصومال. لقد كانت عَثَرةً موجعة مؤهلة لأَن ترتب ثمناً باهظاً علىٰ الإِدارة. كان كولن پاول قد استقال قبل أَحداث مقديشو بيومين، غير أَن مبدأ پاول كان لا يزال حياً ـ كانت الصومال ذخيرة له. أخيراً قام ديك هولبروك بإِيجاد تسمية للدوامة التي أعقبت الكارثة ـ ڤيتماليا، التي زاوجت بين **ڤيتنام** و**الصومال**. وبتلك التسمية كان يعني وضعاً تتورّط فيه قوة عظمى في بلد أجنبي معين لا علاقة له بأَمن أَمريكا من قريب أَو بعيد. بما أَن تأييد الخطة بالغ الهشاشة، وبما أَن حتى واضعي الخطة أنفسهم مثقلون بالشكوك حول ما يقومون به من عمل، فإِن من شأن مجرد فقدان عدد قليل من الأرواح، وعرض عدد قليل من الجنائز علىٰ شاشات التلڤزة أَن يضع حداً لمثل هذه الخطة.

انتهت السنة الأولى بالنسبة لفريق كلنتون للأَمن القومي نهاية مشؤومة. ما من أَحد من كبار أعضاء الفريق كان قد برز علىٰ المسرح بوصفه شخصاً ذا أَهميَّة. كان آسپن قد اختير لتحمل مسؤولية الإِخفاق الذي أفضى إِلىٰ الكارثة الصومالية. غير أَن عقبة جدية أُخرى كانت تنتظر علىٰ طريق اختيار خلف آسپن. كان البعض يميلون إِلىٰ بيل پيري، أَحد معاوني آسپن، وهو رجل واسع الاطلاع علىٰ التكنولوجيا المتقدمة الحديثة واشتهر بكونه إِدارياً ممتازاً. غير أَن پيري هذا كان شخصاً قصير القامة (بالمعنى المعنوي) نسبياً في أوساط واشنطن. أَمَّا بوبي راي إِينمان، أحد كبار موظفي وكالة الاستخبارات المركزية السابقين، فقد كان ، بالمقابل، متمتعاً بشهرة استثنائية، بالتأييد العابر للخطوط الحزبية الفاصلة، فضلاً عن إِثارته لقَدْر كبير من الإِعجاب في بعض أوساط وسائل الإِعلام. في السنوات الأخيرة كان يعمل في أوستن التكساسية، في عالم التكنولوجيا المتقدمة، دائباً علىٰ إِيجاد كونسورتيوم يضم الشركات الأَمريكيَّة لمنافسة اليابانيين، الذين كانوا أقل انسحاقاً تحت وطأة قوانين مكافحة الاحتكار.

بدت فكرة اختيار شخص ذي قامة أطول مع ارتباطات أقوى بالحزبين كليهما، شخص قادر، علىٰ الأقل، علىٰ اجتياز جلسة الاستجواب في مجلس الشيوخ، شديدة الجاذبية بالنسبة إِلىٰ كلنتون. سارع هو وأفراد جماعته إِلىٰ مطاردة إِينمان، غير أَن معرفة ما إِذا كان الرجل راغباً في شغل المنصب حقاً كانت صعبة. بدا إِينمان مقتنعاً بأن عودته إِلىٰ الخدمة متخلياً عن القطاع الخاص كانت خدمة للوطن وفضلاً له عليه. ففي إِحدى المناسبات المشهودة التي ظهر فيها للملأ كان قد ألمح بصورة لا تحتمل اللّبْس إِلىٰ أَنَّه كان قد فحص الرئيس وراز قدراته فوجده جديراً، بدلاً من أَن يحصل العكس. وڤيرنون جوردان الذي تولى مهمة إِعداد إِينمان للحظته الإِعلامية قبيل الظهور أمام الصحافة، وجده غير مستعد للاستقالة من غابته البوهيمية، من جيب المؤسسة الكاليفورنية الذي

كان متراساً نادراً متبقياً من متاريس الأندية العصبوية الذكورية القائمة علىٰ الإِقصاء. أخيراً تم التوصّل إِلىٰ نوع من الحل التوفيقي، وإن بقي حلاً غير مقنع إِلىٰ حد ما. كان إينمان سيستقيل من النادي وستتم إعادته إِلىٰ الخدمة الحكومية لحظة الترك. غير أَن الرجل ما لبث، بإرادته الخاصة، أَن سحب اسمه من قائمة المرشحين لوزارة الدفاع، ربما شعر بأن عمليَّة التمحيص والمسح، تلك العمليَّة التي باتت معقَّدة وعلنية في السنوات الأخيرة، شكَّلت تطفّلاً عليه، ودساً للأنوف في حياته الخاصة. وبالتالي فقد تم اختيار بيل پيري، ربما الشخص الذي كان ينبغي أَن يقع عليه الاختيار منذ البداية، والذي كان سيصبح، بموافقة الجميع، العضو الأقوى والأرسخ في فريق الأَمن القومي لدى كلنتون خلال الفترة الرئاسية الأولى.

الفصل الرابع والعشرون

ما لبثت العواقب الجيو ـ سياسيَّة لما كان قد حدث في الصومال أن انعكست بصورة شبه فورية علىٰ هاييتي التي كانت أَحد الأماكن التي اعتُبرت الإِدارة الكلنتونية منذ البداية أَكثر اهتماماً بها، مثل البوسنة، علىٰ صعيد الكلام الخطابي منها استعداداً علىٰ مستوى الفعل. قليلة هي البلدان الواقعة في النصف الغربي من الكرة الأرضية والتي وصلت إِلىٰ العقود الأخيرة من القرن العشرين وهي علىٰ هذه الحالة من الفقر والانسحاق تحت ثقل الأقدار كما فعلت هاييتي. لقد ظلَّت محكومة، ولسنوات طويلة، من دوڤالييه الأب ودوڤالييه الابن، من پاپا دوك، فرانسوا الذي كان، لدى انتخابه رئيساً، قد عدّل الدستور ليجعل من نفسه رئيساً مدى الحياة، متحوّلاً بذلك إِلىٰ نموذج جدير بالتقليد من جانب عدد لا يحصى من الحكّام الدكتاتوريين الآخرين، أولاً، ومن ابنه جان كلود أو بيبي دوك، لدى انتهاء فترة الحكم الاستبدادية للأب، ثانياً. كان الأب والابن دوڤالييه قد حكما هاييتي بالخوف، بتلك الأداة المزاجية القائمة علىٰ أعمال العنف البدائية المقترفة من قبل وحدات التونتون ـ الماكوتات، فرق الإِرهابيين التابعين للدولة والمتمتعين برعايتها. ليست البلدان التي بدت ذات آفاق بائسة ومسدودة أمام أَي تطور ديمقراطي مثل آفاق هاييتي كثيرة في العالم، خصوصاً في النصف الغربي من الكرة الأرضية. فعلىٰ امتداد السنين تعرّض الموهوبون والمتعلِّمون من أبناء البلاد إِما للإِبعاد إِلىٰ المنافي أو القتل علىٰ أيدي عصابات التونتون ماكوت. ظل فعل الاختيار السياسي في هاييتي قائماً

علىٰ الاغتيال بدلاً من الاقتراع. وقد قيل إن الوحيدين الذين أُتيحت لهم فرصة النجاة والبقاء هم الفقراء والخائفون.

خلال الحرب الباردة ظلَّت واشنطن تتحمّل حكم دوڤالييه الأب والابن بقليل من الحماس. صحيح أنهما كانا مُخْرِجين، غير أن إحراجهما كان من النوع المعادي للشيوعية، من نوع الحارس غير المحبّب للولايات المتحدة. درجت السياسة الأمريكيَّة علىٰ عادة إدارة ظهرها حين كان يتم عرض الموضوع علىٰ بساط البحث. ففي سنة 1971م، كان پاپا دوك قد رحل عن العالم، ليخلفه ابنه بيبي دوك، الذي كان نسخة طبق الأصل عما كانه أبوه؛ وفي 1986م، طُرد الأخير من الجزيرة، راحلاً بأسلوب مناسب جداً لدكتاتور صغير دَقَّتْ ساعة رحيله. وحاصلاً علىٰ مراسم الوداع الأخيرة من قوة عظمى راعية، توجَّهَ إلىٰ جنوب فرنسا علىٰ متن حاملة طائرات أمريكيَّة.

في هاييتي ما بعد دوڤالييه لم تشهد الديمقراطيَّة أي ازدهار مميز. في البدء كانت ثمة طغمة عسكريَّة، غير أن انتخابات حرة ما لبثت أن عُقدت في كانون أول/ ديسمبر 1990م، وتم انتخاب قس كاثوليكي، كان قد تعرّض للتجريد من المنصب الكهنوتي بسبب لاهوته التحرري الثوري، يدعى جان بيرتراند آرستيد. رئيساً للجمهوريَّة بأكثرية بلغت حوالي 67 بالمئة من الأصوات. لم يكن رجلاً متمتعاً بقَدْر واسع من الإعجاب لدى الأجانب علىٰ ما بدا به من توازن عاطفي. وإذا كان الغربيُّون العاكفون علىٰ معاينة آرستيد قد أحسّوا بشيء من الامتعاض إزاء طبيعته المتقلبة والمسيحانية [المهدوية]، فإن رد مؤيديه جاء متمثلاً بالقول بأنه كان الأفضل، في الحقيقة [ليس هناك من هو أفضل منه]. تمتع آرستيد بما يكفي من الشعبية لحشد قوى المعارضة الهاييتية، ولم ينج من الاغتيال إلاَّ لكونه من رجال الدين. تم التهليل لانتخابه في هاييتي ولدى جالية هاييتية كبيرة في منفاها بالولايات المتحدة. لقد كانت هاييتي، آخر الأمر، بلداً تمثّلتْ صادراته الرئيسية، خلال سنوات طويلة، بمواطنيه الأكثر موهبة وذكاء، الأفضل تعليماً

والأَقْوى نزوعاً ديمقراطياً. غير أَن طغمة انقلابية جديدة، بقيادة اللفتنانت جنرال راؤول سيدراس، الذي كان آرستيد قد عيَّنه في منصب رفيع، ما لبثت، في غضون ثمانية أشهر فقط، أَن أطاحت بالرئيس القس آرستيد.

حاولت جماعة بوش إِبقاء هاييتي علىٰ نار هادئة. في البدء أعلن جيمس بيكر أَن سيدراس سيعامل كمنبوذ، غير أَن الإِدارة ما لبثت، وبسرعة، أَن بدأت تخفِّف من انتقادها له. يبدو أَن السياسة قامت علىٰ اعتبار أَن الأفضل هو تقليص ما نعرفه وما نقوله ويعرفه ويقوله غيرنا عن الوضع في هاييتي إِلىٰ أدنى حد ممكن. تمثَّل أَحد أشكال استعراض العضلات بفرض الحظر التجاري الكامل علىٰ جزيرة سيدراس. وبوصفه وزيراً للدفاع قام ديك تشيني بسؤال الجنرال كولن پاول حول رأيه باستخدام القوّة العسكريَّة لإِعادة آرستيد إِلىٰ منصبه، فرد عليه پاول إِن الدخول سيكون سهلاً جداً، «قطعة كاتو»، قائلاً حرفياً: «نستطيع احتلال المكان في سويعات بعد الظهر بفوج أَو اثنين من مشاة البحرية». غير أَن الخروج هو الصعب. من شأن الشعب الهاييتي الملتهب غضباً وسخطاً علىٰ الظلم والفقر، أَن ينقلب ضد أية إِدارة أَو سلطة حكم مميزة. كانت المرة الأخيرة التي تدخلت فيها الولايات المتحدة في هاييتي في سنة 1915م، وكان مشاة البحرية قد اضطرّوا، قال پاول، للبقاء مدة تسع عشرة سنة. لم يكن پاول يريد أَي اجتياح[1]. وبالتالي فإِن إِدارة بوش بقيت عازفة عن احتضان سيدراس من جهة وعن دفعه في الاتجاه الديمقراطي من جهة ثانية. ربما كانت الحرب الباردة قد انتهت، غير أَن انقسامات الحرب الباردة في الحكومة الأَمريكيَّة حول موضوع هاييتي بقيت قوية. فوكالة الاستخبارات المركزية والپنتاگون كانتا عموماً مرتاحتين مع الأَمر الواقع في ظل سيدراس، لا محبة به بل لعدم رؤيتهما أية نقاط إِيجابية في دعم أولئك الذين يزعمون أنهم حَمَلة راية جلب المزيد من الديمقراطيَّة إِلىٰ البلد. مما جعلهما تعارضان أية

---

(1) پاول، 544.

خطة قائمة علىٰ الشعارات المثالية ومن شأنها أَن تنطوي علىٰ نوع من التدخّل العسكري الأمَريكي.

في صيف 1992م قام تقرير صادر عن وكالة الاستخبارات المركزية بتصوير سيدراس «علىٰ أَنّه قائد عسكري حي الضمير راغب بصدق في تقليص دوره في السياسة، تحويل القوّات المسلحة إِلىٰ جيش محترف، وبناء قوة بوليس منفصلة وكفوءة»[2]. يا له من تقدير متفائل! كانت أَكثرية الناس ذوي التفكير الموضوعي ترى أَن سيدراس كان يمثّل النظام الدوڤاليي دون دوڤالييه الأب والابن، وأن همّ الطغمة الرئيسي في الحكم كان متمثلاً بالاغتناء ومراكمة الثروة الذاتية من موارد البلاد المحدودة، مع الحرص علىٰ ممارسة القمع العنيف لأية معارضة سياسيَّة. كانت المضاعفة أَو المشكلة السياسيَّة الداخليَّة الأَمريكيَّة الوحيدة متمثّلة مرة أُخرى بمشكلة اللاجئين. ومع حلول أوائل سنة 1992م ما لبثت وحشية نظام سيدراس، فيض الاغتيالات السياسيَّة، وخنق أَي شكل من أشكال المعارضة، أَن أفضت إِلىٰ زيادة درامية مثيرة لأعداد أهل القوارب ـ أعداد الهاييتيين المستعدين للمخاطرة بحياتهم والإِبحار علىٰ متون قوارب هزيلة، هشّة، مصنوعة منزلياً، رغبة منهم في الوصول إِلىٰ فلوريدا. كانت إِدارة بوش قد أعادت أولئك الهاييتيين الذين كانوا قد نجحوا في إِتمام تلك الرحلة الخطرة.

ثم جاءت انتخابات 1992م [الرئاسية الأَمريكيَّة]، وبرزت هاييتي بوصفها واحدة من تلك القضايا التي شكّلت موضوع اختلاف واضح بين الحزبين والمرشحين. فكلنتون الشاب والمثالي، والذي اهتدى إِلىٰ قضية كبرى يوظفها في إِصابة خصمه في مقتل، اعتبر سياسة بوش قاسية وغير مقبولة ووعد بقلبها رأساً علىٰ عقب. جاءت كلماته متضمّنة التزاماً واضحاً بسياسة خارجيَّة أكثر

(2) موريس مولي وكريس ماكگيليون، مجلة **پوليتيكال ساينس كوراترلي**، خريف 1997م.

إنسانية. غير أَن وكالة الاستخبارات المركزيَّة أطلعته، فيما كان يهمّ بالدخول إلى البيت الأَبيض، علىٰ أدلة مدعومة بالصور تشير إلىٰ أَن انتخابه كان قد أطلق موجة جديدة كبرى من عمليَّات بناء القوارب. كان الآلاف من الهايتيين يحلمون بالافادة من سياسة كلنتون الجديدة فيما يخص الهجرة عن طريق الإبحار إلىٰ أَمريكا باتت أَكثر تسامحاً وانفتاحاً. كان من المحتمل أَن يصل إلىٰ الولايات المتحدة ما يصل إلىٰ مئتي ألف من اللاجئين الجدد، حسب تقرير وكالة المخابرات المركزيَّة.

علىٰ الفور تراجع كلنتون عن تعهده الانتخابي. كان مدركاً للعواقب السياسيَّة المحتملة لوصول أعداد أكبر مما ينبغي من اللاجئين (غير البيض) إلىٰ الولايات المتحدة دون أَن يكونوا مرغوبين لدى السلطات المحلية، خصوصاً في ولاية مهمة متأرجحة كالنواس مثل فلوريدا. كان قد حاول، وهو حاكم ولاية في آركنسو، أَن يقدِّم خدمة لجيمي كارتر، في أَيام سابقة تعود إلىٰ 1979م، وقبل عدداً كبيراً من اللاجئين الكوبيين في فورت تشافي لتخفيف العبء عن فلوريدا. قال كارتر، حسب زعم كلنتون المفضل، إن اللاجئين كانوا سيُرَحَّلون بعد فترة قصيرة قبل حلول موعد انتخابات 1980م. غير أَن ذلك لم يحصل. ما لبثت الأمزجة داخل المخيم بين الكوبيين من جهة وبين أهل آركنسو خارجه من جهة ثانية أَن ساءت كثيراً مما أثار حفيظة كلنتون الذي قال بعد سنوات مقتنعاً بأن الأَمر ساهم في هزيمته سنة 1980م[3]، «قام [كارتر] بخَوْزَقتي».

لا تتمتع هاييتي بأية قاعدة سياسيَّة داخليَّة ذات حجم. كانت المسألة عنصرية أَكثر منها ذات علاقة بالسياسة الخارجيَّة. كان التكتل الزنجي في الكونگرس قد أخذ الموضوع مأخذ الجد وبدا ملتزماً بعودة آرستيد، غير أَن

(3) موريس، 5.

أولئك الأَمريكيين المهتمين بالحياة السياسيَّة في هاييتي لم يكونوا ممن يحتمل أَن يصوتوا لصالح الجمهوريين في أية حملة رئاسية، مما أدَّى، مثل الكثير من القضايا الأُخرى، إلىٰ تقليص نفوذ التكتل وتأثيره. غير أَن كلنتون **كان قد نطق** بتلك الكلمات في أثناء الحملة، وقد جاءت واضحة وضوح الشمس. وبالتالي فإِنّه بدأ، مع دخوله البيت الأَبيض، يضغط لإِحداث تغييرات في هاييتي من شأنها أَن تعجل بعودة آرستيد. ثمة ضغوط مُورست ـ ضغوط اقتصاديَّة أولاً. وبعد ذلك تم إِطلاق حملة مقاطعة دولية ضد هاييتي، وما لبث النقص في الوقود أَن أَصبح بالغ الحدة حتى أَن منزل السفير الأَمريكي كان يضاء ليلاً بواسطة مولدات تعمل بوقود من السوق السوداء. كذلك تم تجميد الودائع الهاييتية في الولايات المتحدة، وراحت بوارج البحرية الأَمريكيَّة تخفر المياه الإِقليمية الهاييتية لوقف أَي مهاجرين محتملين ومنعهم من الوصول إِلى الشواطئ الأَمريكيَّة.

كانت إِدارة كلنتون ممزّقة شر تمزيق حول ما ينبغي عمله وما حجم القوَّة التي يجب توظيفها ضد سيدراس، تمزيقاً كان أعضاء الطغمة جيدي الاطلاع عليه. فتوني ليك، بتعاطفه الخاص المعروف مع العالم المتخلّف، كان ناشطاً، أَكثر توقاً لإِنهاء حكم الطغمة وإِعادة آرستيد من أَكثرية الآخرين. أَمَّا البنتاگون فقد بقي متشكّكاً. من شأن طرد سيدراس بالقوَّة أَن يكون سهلاً ولكن أَحداً من كبار مسؤولي المؤسسة العسكريَّة، خصوصاً نظراً لافتقارهم إِلىٰ الثقة بأن الإِدارة ستكلفهم بمهمة واضحة المعالم، لم يكن إِلاّ القليل من الأمل في حصول أَي تحسّن ديمقراطي حقيقي بعد إِنجاز مهمة وضع حد لسلطة الطغمة. كان لَسْ آسپن من المرتابين. أضف إِلىٰ ذلك أَن السي. آي. إِي. كانت معارضة لآرستيد بصورة مكشوفة. فتقاريرها صوَّرَتْه، منهجياً، شخصاً غير متوازن من ناحية وميّالاً إِلىٰ العنف من ناحية أُخرى، وليس أفضل بكثير ممن سيحل محلهم. وفي إِحدى المنعطفات قامت الوكالة بتسريب نسخة عن ملف آرستيد

النفسي لديها إلىٰ المحافظين علىٰ التلة. كان الملف يبيِّن أَن الرجل كان مجنون عظمة من ناحية ومصاباً بمرض المس الانقباضي من ناحية ثانية، ميّالاً إلىٰ أساليب العنف ذاتها مثل نظام سيدراس ـ بما فيها تطويق العنق، عادة هاييتية غريبة تقوم علىٰ وضع إِطار حول رقبة الخصم السياسي وملئه بالبنزين وإشعال النار فيه. كان أَحد عناصر السي. آي. إِي. الرئيسيين في هاييتي هو إِيمانويل (توتو) كونستانت، زعيم كتلة برلمانية هاييتية، كلف فراف FRAPH (جبهة دفع هاييتي وتقدمها). لقد كان علىٰ قائمة رواتب السي. آي. إِي. ، في الحقيقة، ومن أعداء آرستيد الألداء.

لم تَبْدُ وزارة الخارجيَّة كثيرة الاهتمام بهاييتي. وباعتقاد المقربين من البيت الأَبيض، كان كلنتون أَكثر ارتياباً إِزاء آرستيد، ولو بقليل، من ليك، غير أَنه كان يشعر بأن عليه، نظراً لالتزامه بإعادته إلىٰ السلطة، أَن يفي بوعده. لم يهتم كلنتون كثيراً بتقارير السي. آي. إِي. عن عدم توازن آرستيد. فحين سمع بمضمون هذه التقارير قال لجورج ستيفانوپولوس: «تعلم أَن المرء يستطيع أَن يكثر الكلام عن الاستواء والحالة السوية أَو الطبيعية. والكثير من الأسوياء ليسوا إِلاَّ قطيعاً من الحمير». ثم استغرق كلنتون في حديث شخصي غريب، شاذ وطويل حول مرض الميلانخوليا الذي كان آبراهام لينكولن يعاني منه[4].

أوائل سنة 1993م، استأنفت الولايات المتحدة ضغطها لإعادة آرستيد، وقد تم الضغط في جزء كبير منه عبر الأمم المتّحدة. أخيراً تم التوصّل إلىٰ اتفاق مع الطغمة الحاكمة في هاييتي حول انتقال تدريجي للسلطة، ومع تقدم المفاوضات بدا الجنرال سيدراس مخففاً من مقاومته، مستعداً ظاهرياً لقبول عودة آرستيد، رغم بقائه عازفاً عن تقديم ضمانات مؤكّدة للحفاظ علىٰ سلامته. وفي حزيران/ يونيو تم أخيراً توقيع اتفاقية قضت بإعادة آرستيد إلىٰ السلطة في الثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر. غير أَن الأمور ما لبثت، كما هي عادتها في

(4) ستيفانوپولوس، 219.

كثير من الأحيان في هاييتي، أَن بدأت تتكشف، أواخر الصيف، في زحمة مؤشرات متصاعدة دالة علىٰ عدم استعداد الجنرال سيدراس للتنازل عن السلطة. وكجزء من الصفقة المعقودة بالوساطة تم تعيين أَحد مؤيدي آرستيد رئيساً للوزارة، وجرى بالمقابل إِسقاط العقوبات الاقتصاديَّة. أَمَّا حين ظهر حليف آرستيد الحقيقي - روبرت مالڤال - علىٰ المسرح - فلم تُتح له فرصة الإِمساك بأية أداة من أدوات الحكم. وفي أيلول/ سپتمبر تعرض أَحد مستشاري آرستيد في شؤون المال للاغتيال، كما جرى، بعيد ذلك، اغتيال مرشحه لوزارة العدل. جاءت عمليتا الاغتيال هاتان كإِنذار؛ بدتا كما لو كانتا تقولان إِن آرستيد هو الثالث إِذا ما قرر أَن يعود.

اعتقد بعض متابعي السياسة الخارجيَّة أَن لعبة تخويف كبرى كانت تتم، كان سيدراس يختبر الإِدارة. تم أواخر أيلول/ سپتمبر تجميع فريق مؤلف من مئتي ألف جندي أَمريكي وخمسة وعشرين مهندساً كندياً للذهاب إِلىٰ هاييتي، حيث كان يفترض فيهم أَن ينفذوا مشروعات بناء دولة في ظل اتفاقية دولية أكبر، ويضطلعوا، بين مسؤوليات أُخرى، بتدريب قوات الأَمن والجيش الهاييتية. لم يكن الجميع في واشنطن راغبين في إِرسال الفريق. ففي الپنتاگون كان آسپن يشعر بأن الوضع كان شديد التقلّب وغير مناسب لإِرساله. واعتقاداً منه بأن سيدراس لم يكن جديراً بالثقة وقد ينقلب علىٰ الأَمريكيين اقترح آسپن تأجيل موعد المغادرة. غير أَن آخرين كانوا يرون أن الجنود شكَّلوا عنصر القوّة الوحيدة في اتفاق ضعيف دونهم. ومما يثير قدراً غير قليل من الدهشة أَن الرئيس لم يبادر - رغم احتمال تلقي صفعة سياسيَّة خارجيَّة من الدرجة الأولى - إِلىٰ المشاركة في أَي من الاجتماعات الحاسمة.

غادرت القوَّات، طليعة حوالي ألف وثلاثمئة تقرَّرت مشاركتهم في برنامج تطهير الدولة إِن لم يكن بناء الدولة. وعلىٰ الرغم من أَن سيدراس دأب علىٰ الإِعلان صراحة عن عدم اعتزامه الوفاء بما وعد به، فإِن أَحداً لم يفكر

بالعواقب بصورة فعلية. لم تكن الخطة، كما قال أَحد أعضاء الإِدارة، إلاَّ خطة أُخرى قائمة علىٰ الأمل ولا شيء أَكثر من الأمل. لم تكن ثمة أية خطة للإِسناد إِذا ما تعرضت القوّات لبعض المشكلات عند الوصول، لم تكن ثمة أية قوة عسكريَّة يمكن استخدامها بصورة تراكمية. جاء الحل في الحادي عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، بعد أسبوع واحد فقط من أَحداث مقديشو المأساوية. وصل الجنود الأَمريكيون، مزودين بالأَسلحة الخفيفة، إِلىٰ پورت أوپرنس علىٰ ظهر يو. إِس. إِس. هارلان كاونتي، غير أنّهم عجزوا عن مغادرة السفينة لأَن سيدراس كان قد تراجع عن وعده بتوفير رصيف متحرك. أَمَّا علىٰ الرصيف الثابت فكان هناك حشد غير عادي جاء للاستقبال: حشد مؤلف من أَكثر من مئتين من الرعاع الهاييتيين المستهزئين، والكثير منهم مسلحون، ممن راحوا يطلقون شعارات معادية لأَمريكا وهتافات «الصومال! الصومال!» بالطبع.

بدا الأَمر وكأن هناك لعبة دومنو جديدة. كان المقال الرئيسي علىٰ الصفحة الأولى من **النيويورك تايمز** عما حدث في ميناء پورت أوپرنس مع صورة لبعض الأوغاد المنقضين ضرباً علىٰ سيارة ڤيكي هدلستون، القائم بالأعمال الأَمريكي. وتحت الصورة كانت ثمة مادة بعنوان: «يسعى أعضاء مجلس الشيوخ إِلىٰ سحب مبكر للقوات الأَمريكيَّة من الصومال». ما كان بالغ البشاعة حول الأَمر أَن الأوغاد علىٰ الرصيف كان يجري توجيههم وضبط إِيقاع حركاتهم من قبل عناصر أَمن سيدراس، تحت تحكم إِيمانويل كونستانت، الذي لا يزال اسمه مدرجاً علىٰ جدول رواتب السي. آي. إِي. لقد بدا كما لو كنا نساعد علىٰ تمويل أولئك الدائبين علىٰ تقويض سياستنا الخارجيَّة. لبعض الوقت، ناورت سفينة هارلان كاونتي قليلاً باتجاه عرض البحر إِلىٰ أَن تتخذ واشنطن قرارها: ما إِذا كانت سترسل قوات وتمكن جنودنا من النزول إِلىٰ الأَرض بالقوَّة، في عمل أشبه بديمقراطيَّة البوارج من شأنه أَن يتمخض عن عواقب خطيرة وخيمة ـ تدخُّل عسكري في هاييتي ـ أم أنها ستلف ذيلها وترحل

جارة أذيال الذل الاستثنائية. فأية قوة أمريكيَّة يتم إرسالها لمرافقة وحماية الجنود والفنيين إلىٰ مواقع مهماتهم المحددة كان من شأنها أن تبدو لباقي العالم اجتياحاً، بل وقد تنتهي إلىٰ أن تكون كذلك، وهو أسوأ.

كانت تلك إحدى أكثر اللحظات حَرَجاً في التاريخ الأَمريكي الحديث، ولحظة حضيض بكل تأكيد بالنسبة إلىٰ إدارة كلنتون. في حقيقة الأَمر كانت الإدارة تعاني من الانقسام الشديد. كان الصقور يؤيدون فكرة استخدام القوَّة العسكريَّة لإنزال الجنود، فيما كان الحمائم، وفي طليعتهم آسپن ورؤساء الأركان، يريدون، فالحدود الدنيا، الانتظار ليوم آخر أَو ربما محاولة ممارسة ضغوط أُخرى قبل أَن نبادر إلىٰ إرسال وحدات قتالية والتعرض لخطر التورط في بيئة «خَوْزَقة» سياسيَّة لا أمل فيها ـ أَو في الصومال الثانية، كما سُميت.

من المؤكد أن أَحداً لم يكن يريد اجتياحاً شاملاً. فجزء كبير من الجدل الداخلي تركّز علىٰ الإخراج وما هو أسوأ ـ علىٰ إبقاء سفينة **الهارلان كاونتي** راسية هناك تنتظر يوماً بعد آخر فيما يستمر النقاش في البيت الأَبيض أَو سحبها من هناك. في الثاني عشر من تشرين الأَول/ أكتوبر ابتعدت السفينة، وعلىٰ الرصيف تزاحم الحشد الهاييتي نفسه في عُرس من الرقص والغناء. أطلق رئيس مفاوضي واشنطن في هاييتي، لورنس بيزولّو اسم «مسرح العبث» علىٰ المشهد. كانت العواقب السياسيَّة واضحة. سُمع نائب ليك وصديق كلنتون الحميم، ساندي بيرگر، وهو أَكثر تناغماً مع حاجات الرئيس السياسيَّة، يقول: «لن يتكرر هذا، لن يتكرر هذا أبداً!»[5]. وبعد يوم واحد حملت زاوية رأي في **النيويورك تايمز** عنواناً مرعباً يقول: «الاضطلاع بدور الشرطي في القرية الكونية: عملية حفظ سلام تتعثر في الصومال، وأعداء مساعي الولايات المتحدة في هاييتي يتجرؤون». غير أَن أَحداً لم يكن في حقبة ما بعد الصومال مستعداً لرؤية أية إصابات في هاييتي.

---

(5) آن ديفروي وجفري سميث، **الواشنطن پوست**، 25/ 9/ 1994م.

كان لا بد لعودة آرستيد من أن تنتظر. كُلف نائب الرئيس بزيارة آرستيد، المقيم في منفاه بنيويورك، لإبلاغه باعتزامنا الوفاء بوعدنا القاضي بإعادته إلىٰ السلطة. غير أن الأمر سيتطلب، ببساطة، مزيداً من الوقت والتخطيط. توقع گور أن يجد الزعيم الهاييتي غاضباً وساخطاً غير أنَّه ما لبث أن تكدّر حين وجد آرستيد سعيداً بالنبأ. قال گور في تقريره إلىٰ كلنتون «إنه يطير من الفرح والنشوة». لم يفاجأ الرئيس، غير أنَّه شعر بالاطمئنان لأن الشخصية الأهم في الجماعة المهتمة بالمسألة الهاييتية لن يُقدم علىٰ انتقاده. وجه كلنتون سؤالاً إلىٰ آل گور: «ما الذي تفضل أن تفعله؟ هل تعود إلىٰ هاييتي أم تحتسي الشامپانيا في شقة هاري بيلافرونته؟»[6] بدت العملية في كل من أمريكا وباقي العالم نكسة كبيرة أُخرى من صنع طغاة عالم ثالثيين من المعيار الرديء والتافه أو الوضيع.

استشاط كلنتون غضباً وألقى باللوم علىٰ أركان مجلس الأمن القومي لإقحامه في صفقة خاسرة مئة بالمئة. ولدى انتهاء المشكلة رأى أن جزءاً غير قليل من المشكلة كان متمثلاً بغياب المشاركة الإيجابية من جانب بيته الأبيض في الأحداث، واقترح علىٰ أعضاء مجلس الأمن القومي إشراك المساعد السابق لكل من نكسون، ريگان، وبوش الذي كان قد التحق مؤخراً بفريقه في عمليَّة صنع القرار. وفي إحدى المناقشات الجدالية الحامية جداً المشحونة بالتقريع صرخ كلنتون في وجه ليك قائلاً إن جماعة ريگان كانت أفضل بما لا يقاس علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة من فريقه هو. فحين فقدت جماعة ريگان جنود مشاة البحرية في لبنان، سارعت تلك الجماعة، حسب تعبير كلنتون، وبصورة شبه مباشرة، إلىٰ غزو گرينادا مما أبقى شعبيتها مرتفعة[7]. وبعد بضع دقائق من التقريع، جلس ليك في مكتبه مع كل من ساندي بيرگر وجورج ستيفانوپولوس

(6) ستيفانوپولوس، 219.

(7) المصدر السابق، 217.

وراح يستعرض التوبيخ الرئاسي الذي تعرّض له. كتب ستيفانوپولوس عن اللقاء في وقت لاحق يقول: «لم أستطع أن أصدّق ما كنت أسمعه. **گرينادا؟ هل تلك هي الطريقة التي سنعالج بها الأمور؟ مثل ريگان؟ الرد علىٰ فقدان 250 جندياً من مشاة البحرية في هجوم إرهابي هو القيام باجتياح بلد صغير؟ إذا كنت تؤمن بذلك فعلاً، فلماذا جعلنا السفينة اللعينة تغيِّر اتجاهها؟**» لم يُصعقوا بعنف هجوم كلنتون فقط بل بطبيعة ذلك الهجوم. لاحقاً قال ستيفانوپولوس لليك وبيرگر: «إنه شديد الغضب ولا يعرف ما يقوله»[8].

نادراً ما بدت الولايات المتحدة علىٰ هذا المستوى من العجز، حيث يتعرّض جيشها الجبار للطرد من إحدى جمهوريات الموز علىٰ يد حفنة رعاع مأجورين ودكتاتور تافه. نادراً ما صدقت عبارة روبرت كاگان: «إذا كنت رئيساً للولايات المتحدة فإن السياسة الخارجيَّة ستجدك بطريقة أَو أُخرى» أكثر مما فعلت هذه المرة. غير أنّها كانت كارثة بالغة الضخامة، كارثة شخصية، ولم يكن كلنتون غافلاً عن ذلك. وفي وقت لاحق من رئاسته، كان كلنتون في جولة روسية حين وقعت أيدي ضباط الأَمن الأَمريكان والروس علىٰ تقارير تتحدَّث عن محاولة اغتيال محتملة ضده. حاول جهازا الأمن، كلاهما، إقناعه بالابتعاد عن المحطة. غير أَنَّه رفض الامتثال وأصر علىٰ المتابعة قائلاً: «لن أهرب خوفاً مرة أُخرى قط كما فعلت في هاييتي!» علىٰ مسامع الناس المحيطين به.

غير أَن فريق السياسة الخارجيَّة في إِدارة كلنتون كان قد تلقَّى ضربة حتى أكبر من تلك في الوقت نفسه. لا غرابة، إِذن، أَن الولايات المتحدة وقفت، بعد بضعة أشهر ـ حين تفجرت دولة صغيرة في قلب أوروپا وتحوّلت إِلىٰ بؤرة صراع إِبادة ـ موقف المتفرج. فبعَيْد مأساة الصومال وكارثة هاييتي مباشرة، دخلت رواندا في أتون حرب قبلية مجنونة، حرب مخططة ومدروسة بعناية من

(8) المصدر السابق، 217 ـ 218.

الألف إلىٰ الياء، حرب ما لبثت أن تكلّلت، حسب تعبير الكاتب فيليپ گورڤيتش، بأعمال عنف جسدت «عمليّات إبادة الجنس الأنقى والأصفى والأكثر صراحة منذ انتهاء الحرب العالميّة الثانية». تعرض ما لا يقل عن ثمانمئة ألف من البشر، أكثرهم من قبيلة التوتسي، للذبح والتقتيل خلال ما لا يزيد عن مئة يوم مما كان، حسب تعبير گورڤيتش مرة أخرى «عمليَّة القتل الأكفأ منذ القصف الذري لمدينتي هيروشيما وناگازاكي». بقي العالم متفرجاً دون حركة. في الأشهر التي أعقبت حادثة الصومال مباشرة بُذلت في الولايات المتحدة محاولة مدروسة لكبت القضية علىٰ المستوى الأعلىٰ حتى لا يظهر رئيس الجمهوريَّة رافضاً لأي خيار ينطوي علىٰ إرسال قوات في مهمة إنسانية انطلاقاً من الشفقة. حتى كلمة **إبادة** تم حذفها من قاموس المناقشات العامة. مرة أُخرى جرى إزهاق الأمل باحتمال اتخاذ الولايات المتحدة موقفاً داعماً للقضايا الأكثر إنسانية في العالم.

بنظر الكثير من نقّاد المواقف الجيو ـ سياسيَّة الغربيَّة من غير البيض، شكلت رواندا المثال الجوهري ليس فقط لعدم مبالاة الأمريكيين والأوروپيين بمشكلات أفريقيا، بل وللمعايير المزدوجة التي تعتمدها واشنطن والعواصم الغربيَّة الأُخرى لرَوْز قيمة حيوات الأفارقة مقارنة بنظيرتها الغربيَّة أو القوقازية. بات هؤلاء يعتقدون أن الغرب، أو جزءاً منه علىٰ الأقل، كان يذوب ألماً إزاء الأحداث الجارية في البوسنة، حيث كان أوروپيون يمارسون الإرهاب ضد أوروپيين، غير أنّه بقي عديم الاكتراث تقريباً بما كان جارياً من عنف وإرهاب بأيدي أفارقة ضد أفارقة مثلهم. كان الأفريقيون، آخر المطاف، أكثر قابلية لأن يكونوا بلا وجوه، بلا هويات حسب التعبير الغربي. تاريخياً تعتبر أوروپا مهد المجتمع الأمريكي، أقرب إلىٰ شواطئنا، أكثر حيوية بالنسبة إلىٰ هواجس أمننا القومي. وبالتالي فإن العنف المتسرب عبر الحدود في أوروپا كان علىٰ الدوام منطوياً علىٰ قَدْر أكبر من التأثير في صانعي القرار السياسي الأمريكيين من العنف الموازي المتسرّب عبر الحدود في أفريقيا.

ما من قصة في 1994م كانت قادرة علىٰ إثارة قدر أكبر من الأسى والحزن من قصة رواندا. فيما مضى كانت البلاد تُعرف باسم رواندا ـ أورونـدي، مستعمرة ألمانية قبل الحرب العالميَّة الأولى، كُوفئت بها بلجيكا بعد الحرب، بوصفها غنيمة هامشية حصل عليها المنتصرون من المهزومين. وخلافاً لحال الكونگو المجاورة، بلجيكية أيضاً، بإقليمها المعروف باسم كاتانگا، بالغة الغنى بالثروات المعدنية (تم استخراج اليورانيوم الذي استخدم لصنع القنبلة الذرية الأولى من كاتانگا)، لم تكن رواندا ـ أورندي متوفرة علىٰ أية ثروات معدنية ذات شأن. في سنة 1962م جاء الاستقلال وجرى تمزيق المستعمرة إلىٰ بلدين: رواندا وبوروندي. في الأولى كانت قبيلتان متصارعتان، بخصومات ذات جذور تاريخية عميقة: ثمة كان التوتسي أصحاب القامات الطويلة، الأنوف الأدق والشفاه الأرق، وبالتالي الأكثر جمالاً بمعايير الجمال الغربيَّة من جهة، والهوتو، أصحاب القامات الأقصر، الأنوف الفطساء، والأقل جاذبية، بالتالي. وبما أن التوتسي بدوا أقرب إلىٰ النموذج الغربي، فقد أَصَرَّ البلجيكيون علىٰ اعتبارهم أذكى مما جعلهم القبيلة المفضَّلة، الشاغلة للمناصب الأهم في التسلسل التراتبي المحلي، والحاصلة علىٰ جرعة أفضل من التعليم المحدود المتوافر. وبالطبع فإن مهمة القبيلة المفضلة، حسب أساليب عمل القوى الاستعمارية في تلك الأيام، تمثَّلت بالمساهمة في قمع القبيلة الأقل شأناً.

وبما أَن التوتسي كانوا يشكِّلون 15 بالمئة من السكان والهوتو 85 بالمئة، ونظراً لأَن الأنظمة الاستعمارية كانت وحشية وعنصرية بطبيعتها بالذات، فإن احتمالات أعمال العنف القبلية بقيت قوية جداً. ففي أواخر الخمسينيّات وأوائل الستينيّات جاءت تحركات التغيير الأولى الهادفة إلىٰ الاستقلال وعبرت أفريقيا من أولها إلىٰ آخرها. غير أَن البلجيكيين كانوا، حتى قبل الاستقلال، قد داروا دورة شبه كاملة وتحولوا إلىٰ تفضيل الهوتو. ففي سنة 1960م أقدم كولونيل بلجيكي يدعى گاي لوجيست علىٰ تدبير انقلاب في رواندا، وحل الهوتو في

سائر أرجاء البلاد محل التوتسي في المناصب الحكومية الأساسية، في جهاز الأمن، وفي الجيش. وحين جاء الاستقلال بعد سنتين، كانت البلاد خاضعة لحكم الهوتو الدكتاتوري؛ وانسجاماً مع تقاليد البلدان الأفريقية الجديدة لم تكن القيادة الهوتوية مفتقرة إِلىٰ ما يكفي من صفات القسوة والوحشية. لم تتردد في تقليد أسيادها الاستعماريين موجهة نيران حقدها إِلىٰ التوتسي الذين سبق لهم أَن أخضعوها طويلاً لسيادتهم. كثرة من التوتسي فَرَّت من البلاد، وآخرون نظموا أنفسهم في قوة سياسيَّة ـ عسكريَّة تحت اسم الجبهة الوطنية الرواندية، كجيش في المنفى.

في 1990م، بعد سقوط جدار برلين مباشرة، قام التوتسي بغزو رواندا. ما لبث الرئيس الهوتوي جوفينال هابياريمانا أَن وافق أخيراً علىٰ تسوية سياسيَّة مع التوتسي، تسوية دعت إِلىٰ تقاسم السلطة. بنظر متطرفي الهوتو المحيطين بالرئيس بدت الاتفاقية دليل ضعف؛ عبروا عن اشمئزازهم من فكرة تقاسم السلطة مع التوتسي الكريهين، وراحوا يعملون لنسف اتفاقيات السلم. لم يكن أَي من الطرفين سعيداً في ظل السلام المهزوز. لم يكن الاستخفاف بمتشددي الهوتو ممكناً، وثمة موجات جديدة من أعمال العنف كانت تُمارس بصورة شبه سرِّية ضد التوتسي فيما اعتبرها گورڤيتش: المذابح التدريبية أوائل التسعينيّات.

تزايدت أصوات قعقعة السلاح وصرخات الاحتجاج، وأقدمت الأمم المتّحدة، خوفاً من حدوث نوع من الانفجار مع حلول أواخر سنة 1993م، علىٰ اتخاذ قرار قضى بإِرسال قوة حفظ سلام صغيرة تحت اسم UNAMIR (بعثة المساعدة الدولية إِلىٰ رواندا)، مؤلفة من ألفين وخمس مئة جندي ينتمون إِلىٰ عدد من البلدان، بما فيها بلجيكا وگانا. لم يتوقع أَحد أَن تكون المهمة صعبة. كما في البوسنة، بقي التفويض الدقيق للقوات الدولية محاطاً بشيء من الغموض ـ ما الذي كان يتعين عليها أَن تفعله إِذا أقدمت إِحدى القبيلتين علىٰ

مهاجمة القبيلة الأُخرى؟ وما الذي كانت تستطيع أَن تفعله علىٰ صعيد الدفاع عن النفس؟ غير أَن قادة البعثة الدولية ما لبثوا أَن أدركوا أن قوى خطِرة ـ بل وكارثية ـ كانت ناشطة علىٰ الساحة. تمكن القائد الكندي المسؤول عن البعثة الميجر جنرال روميو دالّير من تطوير علاقة مع مصدر معلومات هوتوي قيم في بطانة هابياريمانا الداخليَّة، أَحد أعضاء أركان جهاز أمنه. مع حلول كانون ثاني/ يناير 1994م جاء مخبر دالّير يطلعه علىٰ سلسلة من الخطط الهوتوية التفصيلية جداً الرامية إِلىٰ الإِجهاز الكامل علىٰ جميع التوتسي. لم تكن الخطط أقل من مشروع إِبادة جنس. ثمة كانت أربعون خلية ميليشيا متطرفة، تتألّف الواحدة من أربعين رجلاً، مدربين جميعاً من قبل الجيش الرواندي، جاهزة ورهن الإِشارة لقتل التوتسي. كانت وحدات الميليشيا تُعرف باسم الانترهاموي، أَو ما ترجمته «أولئك الذين يهاجمون معاً». قضت الخطة بتسجيل جميع التوتسي من قبل الحكومة وقتلهم بعد ذلك. كان المخبر يعرف المكان الذي خُبئت فيه جميع الأَسلحة السرية المصادرة من قبل الهوتو.

علىٰ الفور أبرق دالّير إِلىٰ رؤسائه في نيويورك وأطلعهم علىٰ تفاصيل المؤامرة ـ كان المخبر قد أُبلغ أَن كل وحدة كان يتعين عليها أَن تكون قادرة وحدها علىٰ قتل ألف من التوتسي في عشرين دقيقة. أراد دالّير أَن يصادر أَسلحة الميليشيات ويحول دون وقوع المذبحة. غير أَن القيادة في الأمم المتّحدة رفضت أَن تتحرّك. تذكرت صور مقديشو، حيث تَعَرَّضَ ثمانية عشر أَمريكياً مع أعداد أكبر من الپاكستانيين للقتل. أو، حسب تعبير رئيس أركان الأمين العام، إِقبال رضا، كان الشعور السائد في نيويورك يتلخص بـ«لا صومال ثانية!»[(9)]. وما هو حتى أسوأ من ذلك أَن دالّير تلقى توجيهاً من نيويورك يقضي بإِيصال ما لديه من معلومات إِلىٰ هابياريمانا، علىٰ الرغم من أَن بطانة حكم الهوتو الداخليَّة كانت مصدر تلك المعلومات والخطط. لم تتحرّك القوّات

---

(9) گورڤيتش، 168 ـ 169.

الدولية الموجودة في الميدان؛ وبالتالي فإن مسألة قيام الهوتو بتوجيه ضربتهم لم تكن إلاً مسألة وقت.

في أوائل نيسان/ أبريل 1994م، كان هابياريمانا عائداً إلىٰ كيگالي جواً مع رئيس بوروندي بعد مفاوضات سلام إضافية عندما تم إسقاط طائرته من قبل متطرفي الهوتو. كانت العملية إشارة بدء لعمليّات إبادة مكشوفة. صُعق الجميع في كيگالي بمدى جودة تنظيم العنف، رغم بدائيته. فكما للمدن الأمريكيَّة محطات بث إذاعي محلية تقدم التقارير عن حالة حركة المرور ساعات الزحام، لإرشاد السائقين، كانت محطة البث الهوتوية تقدم الإرشادات إلىٰ قتلة الهوتو حول أماكن اختباء التوتسي. حاول بعض التوتسي الاحتماء بقوات الأمم المتّحدة، غير أن أعدادهم كانت كبيرة جداً فضلاً عن عدم اطمئنانهم إلىٰ مهمة تلك القوّات. حين تمت محاصرة عشرة جنود بلجيكيين ما لبث هؤلاء أن سلّموا أسلحتهم بعد تعرّضهم للخداع. وبعد ذلك أقدم الهوتو علىٰ قتلهم والتمثيل بجثثهم.

جرى الجزء الأكبر من عمليّات القتل بالفؤوس. غالباً ما كان يتم بتر أقدام التوتسي لجعلهم أقصر من الهوتو الذين قاموا باغتيالهم. كان الهوتو يعتقدون بأنّهم إذا ما قتلوا بعض جنود الأمم المتّحدة فإن الأخيرة ستبادر فوراً إلىٰ سحبهم. حين أبرق قادة البعثة الدولية إلىٰ نيويورك عن أن مذبحة قد بدأت، بادرت نيويورك إلىٰ إخفاء النبأ وأعلنت للملأ أن ما كان يجري إن هي إلاَّ مسألة داخليَّة، مجرد انهيار لاتفاقية وقف إطلاق النار. في إحدى المدارس التي لجأ إليها حوالي ألفين من التوتسي تحت رعاية الأمم المتّحدة، خائفين من مجيء الهوتو ومدركين لحقيقة أن خصومهم القبليين كانوا ينفّذون الجزء الأكبر من أعمال القتل بالفؤوس والسكاكين، توسّل هؤلاء إلىٰ الضابط المسؤول راجينه أن يستخدم البنادق الرشاشة الموجودة بحوزة وحدته للإجهاز عليهم. فقد كان ذلك أفضل من التعرّض للقتل والذبح والتقطيع حتى الموت بفؤوس

الهوتو. ما أرعب قادة الوحدات الدولية هو أَن ما كان يقترف مثل هذه الجرائم المخيفة ضد مدنيين أبرياء دون سلاح لم يكن جيشاً قوياً، جيد التدريب. لم يكن أَكثر من حشد رعاع مسلّحين. وبرأي أولئك القادة فإِن مجموعة صغيرة من الجنود جيدي التدريب كانت قادرة علىٰ وقف المذبحة وإِلقاء القبض علىٰ الزعماء. ومع استمرار القتل بادرت دول غربيَّة معينة ـ فرنسا، بلجيكا، وإِيطاليا ـ إِلىٰ إِرسال قوات إِلىٰ رواندا لا لوقف المذبحة، بل لإِنقاذ مواطنيه المدنيين. أَمَّا في واشنطن فقد تحدث الرئيس كلنتون عبر التلفزة مطمئناً البلاد إِلىٰ أننا كنا نفعل كل ما بوسعنا لحماية الأَمريكيين المئتين والخمسة والعشرين الموجودين هناك. لاحظت البعثة الدولية أَن عمليَّات الإِبادة نجحت لأَنها جرت في جو من الفراغ الأخلاقي والسياسي. لم تتأخّر الأمم المتّحدة في اتخاذ قرار يقضي بسحب جُل وحدات البعثة الدولية.

لم ترغب واشنطن في أية حصة من رواندا. فالعواقب السياسيَّة الوخيمة التي ترتبت علىٰ الصومال كانت قد أَحدثت ما يكفي من الأذى. تقرّر الإِقلال من المخاطر إِلىٰ الحدود الدنيا مع التأكيد علىٰ عدم الاقتراب من أفريقيا. فالناطقون الصحفيون باسم وزارة الخارجيَّة في ظل كلنتون، مثلهم مثل سابقيهم في ظل بوش، كانوا شديدي الحرص علىٰ تجنّب استخدام عبارة «إِبادة الجنس» لدى تناول مسألة البوسنة. وفي 28 أيلول/ سپتمبر وجه أَحد المراسلين سؤالاً إِلىٰ الناطقة باسم الخارجيَّة، كريستين شلي، عما إِذا كانت الوزارة تعتبر ما كان يجري في رواندا إِبادة للجنس. ردت الناطقة قائلة: «حسن، أظن أنك تعلم بأن استخدام عبارة **إِبادة جنس** تنطوي علىٰ معنى حقوقي محدود ودقيق جداً، على الرغم من أنها ليست قراراً حقوقياً حاسماً. ثمة عوامل أُخرى أَيضاً». والمراسلون المكلفون بتغطية أخبار الوزارة اعتبروا ذلك نموذجاً صارخاً للأسلوب البيروقراطي في التعامل المراوغ مع الأشياء، في الإِكثار من الكلام دون قول أَي شيء، لأَن أَي شيء يمكن قوله مدمِّر أخلاقياً.

منتصف أيار/ مايو مع بروز الأدلة علىٰ إبادة الجنس بقدر أكبر من الوضوح، قامت الأمم المتّحدة بإرسال قوة أكبر. كان المفروض أن يقوم الأمريكيون بتقديم المعدات. تقرّر إرسال عربات نقل جنود مدرعة إلىٰ رواندا لتمكّن وحدات الأمم المتّحدة من تغطية البلاد. غير أن الحركة عبر القنوات تمت عرقلتها بصورة متعمدة بسبب الجدل حول شروط التأجير، لون الآليات، وأي نوع من الشارات ستحمل[10]. تزايدت أعداد القتلى أسبوعاً بعد آخر. تحدثت التقديرات، في إحدى المراحل، عن نصف مليون متزايد باطراد، غير أن الجدل حول التسمية والمصطلحات ظل هو أيضاً مستمراً في واشنطن. إذا كانت العمليَّة إبادةً للجنس فإن الإدارة سوف تدان علىٰ إخفاقها في الرد. وبالتالي فإن الخط الجديد تمثَّل بالزعم بأن **بعض أعمال الإبادة، لا الإبادة** نفسها، قد حدثت. ففي العاشر من حزيران/ يونيو خرجت السيدة شلي علىٰ الملأ قائلة إن لدى الوزارة جميع الأسباب التي تدعوها إلىٰ الاقتناع بأن بعض أعمال الإبادة قد حصلت. سألها أحد المراسلين عن العدد اللازم من أعمال الإبادة لتتشكل **عمليّة إبادة جنس**، فردت قائلة: «لست في وضع يمكّنني من الإجابة عن هذا السؤال بالتحديد».

وسأل مراسل آخر: «هل صحيح أن لديكم توجيهات خاصة تقضي بالإحجام عن استخدام كلمة **إبادة** وحدها بل مصحوبة أو مسبوقة دائماً بكلمة **أعمال**؟» جاء رد شلي عاكساً صورة حكومة تاهت في الطريق تماماً: «لدينا توجيهات.. عندي أوامر تقضي... بأنني.. أنا ـ أحاول أن أستفيد منها بقَدْر ما أستطيع. أنا لست ـ لقد حاولت ـ ثمة صياغات ومصطلحات نستخدمها، نحاول أن نكون منسجمين مع أنفسنا، وأن نستخدمها باطراد. ليست لدي وصفة مطلقة ثابتة ضد شيء معين، غير أن عندي جملة التعريفات المحددة. عندي صياغة وتعابير تم التوصل إلىٰ اعتمادها بعد المعاينة المتأنية». أين أنت يا جورج أورويل؟! ليتك كنت معنا لتضحك ملء شدقيك!

(10) **فرونتلاين**، «انتصار الشر»، 16/ 1/ 1999م، نقل.

مع حلول منتصف تموز/ يوليو كانت الحرب القبلية منتهية. كانت وحدات فدائيي التوتسي قد توغلت أخيراً في البلاد وألحقت الهزيمة بوحدات الانترهاموي الهوتوية. وصلت أعداد القتلى إِلىٰ حوالي ثمانمئة ألف بل وربما إِلىٰ المليون من التوتسي. وحسب تعابير مراسلي **فرونتلاين**، قناة تلڤزيونية عامة في بوسطن، كانت سرعة الهوتو في القتل ثلاثة أضعاف سرعة النازيين في الحرب العالميَّة الثانية. وبعد حوالي أربع سنوات ظهر القائد الكندي الجنرال روميو دالّير علىٰ شاشات التلڤزة الكندية وأعلن مسؤوليته الكاملة عن إِخفاق البعثة الدولية UNAMIR، عن الإِخفاق في حماية التوتسي، وعن الإِخفاق في توفير الحماية لجنوده بالذات. نادراً ما كان قائد، في مثل هذا الظرف المأساوي، متحلياً بمثل هذا القدر من الصراحة في نقد الذات، علىٰ الرغم من أَن رؤساءه كانوا قد خذلوه بعدم الإِصغاء إِليه وإِلىٰ تحذيراته. ثم تكلم دالّير عن المعنى الأوسع لأحداث رواندا وقال: «لم أبدأ بعد حتى بحدادي ورثائي الحقيقيين إِزاء لامبالاة الأسرة الدولية، وخصوصاً العالم الغربي، وحيادها المطلق، بشأن معاناة الروانديين. إِذا تحليت بما ينبغي من الصراحة وفقاً لما يتطلبه شرف الجندية فلا بد لي من الاعتراف بأن أَحداً لم يكن قط مهتماً برواندا. أعني علينا أن نواجه الحقيقة. كم من الناس يتذكرون عمليَّات إِبادة الجنس في رواندا؟ إِننا نعرف عمليَّات الإِبادة التي حصلت في الحرب العالميَّة الثانية لأَن الجماعة كلها كانت مشاركة. ولكن من هم المتورطون فعلاً بالإِبادة في رواندا؟ من يدرك أَن أعداداً أكبر من الناس قُتلت، جُرحت، هُجِّرت، خلال ثلاثة أشهر ونصف في رواندا مقارنة بالحملة اليوگوسلاڤية كلها التي أغرقناها بستة آلاف جندي من قواتنا وانشغل بها العالم الغربي كله؟ . . . . من منا يشعر بالأسى علىٰ رواندا ويعيشها متعايشاً مع عواقب ما حصل هناك؟»[11].

بعد حوالي خمس سنوات، وبعد قطع شوط في الفترة الرئاسية الثانية،

(11) **فرونتلاين**، مقابلة مع جيمس وودز، مساعد نائب وزير الدفاع.

مع اختلاط ذكريات الإبادة بالماضي، طار بيل كلنتون إلىٰ كيگالي، عاصمة البلاد، لتقديم نوع من الاعتذار الجزئي. عملياً لم يبادر إلىٰ التعبير عن الأسف، كما لم يبادر، فعلاً، إلىٰ الاعتذار، غير أنّه بدا، شخصياً ونيابة عن بلاده، مسحوقاً. قال إنّه جاء ليعبر عن آيات احترامه لجميع الذين عانوا وقضوا نحبهم في عمليّة الإبادة. تحدَّث في مطار كيگالي، وكجزء من جولة أفريقية أوسع، قابل أُسَر بعض أولئك الذين اغتيلوا، ومنح رئيس رواندا لوحة تمجد ذكريات الموتى. استخدم كلنتون في خطابه كلمة **الإبادة** إحدى عشرة مرة. بقي هناك ما مجموعه ثلاث ساعات ونصف. لم يغادر المطار، والطاقم العامل علىٰ قيادة وخدمة الطائرة **سلاح الجو رقم واحد** لم يقم بإطفاء محركات الطائرة[12].

* * *

إذا أرادت الإدارة ألا يكون لها دور في رواندا، فإن فضيحة هاييتي التي جاءت بُعَيْد الصومال، شكّلت درساً حاسماً بالنسبة إلىٰ كلنتون. صحيح أن السياسة الخارجيَّة قد لا تساعد المرء، ولكنها تستطيع، بالتأكيد، أن تلحق به الأذى. ومثل ذلك الخطر موجود ليس لأن الناس يأخذون الجيل الجديد، ما بعد السوڤييت، من القضايا ـ البوسنة، الصومال، هاييتي، رواندا ـ بقدر كبير من الجدية أو يميلون بقوة إلىٰ اعتماد سياسات بديلة إزاءها. يكون من شأنها أن تلحق الأذى بالمرء لأن ما يحدث بعد الإقدام عليه، خلافاً لأكثرية القرارات السياسيَّة، يصبح شديد الوضوح، تذكيراً ملموساً جداً بشيء أكبر وأكثر أهميَّة: بالأسلوب المعتمد في رَوْز المرء وقوته الشخصية باعتبارهما امتداداً لقوتهم. من شأن القوَّة الشخصية المتخيلة أن تكون بأهميَّة القوَّة الفعلية بل وحتى أكثر أهميَّة منها. كانت العمليَّة ناجحة بالنسبة إلىٰ رونالد ريگان، في حين أن غيابها الواضح ألحق قدراً كبيراً من الضرر بجيمي كارتر. أمَّا الآن فما

(12) گورڤيتش، 168 ـ 169.

لبثت القوَّة الشخصية المتخيلة أَن أَصبحت، ولو بصورة تدريجية، عاملاً مركزياً من عوامل تشكيل سياسة كلنتون الخارجيَّة، في تحوّل بدأ أواسط السنة الثانية من رئاسته.

في صيف 1994م، بدأت الإِدارة تبحث عن خطة لهاييتي توفر إِمكانية إِعادة آرستيد، إِنهاء حُكْم الطغمة، وتجنّب إِراقة الدماء، إِن أمكن. كانت إِحباطات الرئيس واضحة. ففي إِحدى المراحل في نيسان/ أبريل كان ناشط زنجي بارز وزعيم المنبر العابر لأفريقيا هو راندل روبنسون قد بدأ إِضراباً عن الطعام احتجاجاً علىٰ السياسة الأَمريكيَّة في هاييتي. وحين سئل كلنتون عن رأيه بإِضراب روبنسون أدهش المراسلين بتأييده للإِضراب قائلاً كما لو كان يتحدث عن السياسة الخارجيَّة لرئيس آخر: «عليه أَن يصمد حيث هو. يتعين علينا أَن نحدث تغييراً في السياسة». فوجئ روبنسون كثيراً بـ«قيامُ الرئيس بالإِعلان عن ضرورة إِحداث تغيير في السياسة وعن لزوم صمودي في الإِضراب عن الطعام متنازلاً عن مسؤوليته أمر بالغ الإِزعاج» وأضاف أَن كلنتون يستطيع تغيير السياسة بجرة قلم.

لم يكن لدى كلنتون أَي أساس ذي شأن يبني فوقه. فآرستيد نفسه ظل يطلق رسائل متناقضة عما إِذا كان راغباً في العودة. ومع شيء من التردد والتمنع بدأ المدنيون في الإِدارة يركزون علىٰ استخدام القوَّة، عند الضرورة، لإِعادة آرستيد وطرد الطغمة من الحكم. أَحد أعضاء الإِدارة أطلق على العمليَّة بقدر غير قليل من الريبة اسم «گرينادا الخاصة بنا». كانت إِدارة المسألة بالغة التعقيد. لم يكن ثمة أَي مكسب سياسي مباشر؛ لم يكن مؤيدو اجتياح هاييتي كثيرين. صحيح أَن كتلة الزنوج في الكونگرس كانت مؤيدة، غير أَن تأثيرها علىٰ كلنتون في قضية كهذه كان هامشياً جداً لأَن هذه الكتلة لم تكن تملك أَي خيار آخر. أَمَّا الآن، بعد البوسنة، الصومال، رواندا، وهاييتي، فقد نشأ إِحساس بأن السياسة الخارجيَّة باتت تؤثر تدريجياً علىٰ صورة هذه الإِدارة في

أذهان الناس؛ باتت السياسة الخارجيَّة متسللة ومتسربة إِلىٰ التصورات السياسيَّة الداخليَّة.

وبالتالي تم الإِيعاز إِلىٰ البنتاگون بالشروع في التخطيط لتشكيل قوة مهمتها اجتياح هاييتي. عُرفت السياسة بخطة مسند الكتب. كانت الخطة مرشحة لأَن تبقى خدعة: نتحدث عن خطط الاجتياح ونعقد الآمال علىٰ إِقناع الطغمة بالرحيل، استناداً إِلىٰ فرضية أَن الطغمة لن تكون مستعدة لمواجهة الوحدات القتالية النخبوية الأَمريكيَّة. إِذا أخفقت الخدعة، فإِن خطة المسند الأُخرى تمثلت بالاجتياح نفسه، الذي كان سيتم تنفيذه بقوة كبيرة من خلال ضربة سريعة. ولِوَضْع النقاط علىٰ الحروف تم إِيفاد جنرال ثلاث نجوم من قوات المارينز يدعى جاك شيحان، وهو المكلف بوضع خطة الاجتياح، لمقابلة سيدراس في عدد من المناسبات. كانت شخصية شيحان مهيبة، ستة أقدام، من مقاتلي ڤيتنام، وصدر مرصوف بالأوسمة والنياشين. قال لسيدراس في إِحدى المرات: «عندي طاقمان من الملابس. طاقم للرسميات وآخر للميدان. يمكنك أَن تختار الطاقم الذي سأرتديه في لقائنا المقبل».

حتى مع استمرار اعتماد الخطة، بقيت وزارة الدفاع متيقظة، قلقة بشأن آرستيد. ففي إِحدى الحفلات سُمع نائب وزير الدفاع لشؤون التخطيط والت سلوكومبه يقر بعدم اعتزامه تعريض حياة الأَمريكيين للخطر «من أجل إِعادة ذلك المريض نفسياً [المضطرب عقلياً] إِلىٰ السلطة». أَمَّا زميلاه بيل پيري وجون دويتش فلم يكن لديهما أَي شك حول مدى سهولة الانقضاض والسيطرة علىٰ المسرح عسكرياً، غير أنهما بقيا شديدي الارتياب عما قد يحصل بعد ذلك. كانت المهمة مفتقرة إِلىٰ الوضوح عند قيام البيت الأَبيض بمناقشتها. كان ثمة خوف من الوقوع بين جماعات هاييتية متقاتلة. أخيراً قام پيري بطرح الفكرة ولكن ببطء قلقاً علىٰ الدوام إِزاء عواقب ما بعد الانتصار. ربما كان رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة جون شاليكاشڤيلي أَكثر حماساً واندفاعاً. لقد أدرك أَن

رئاسة كلنتون، وهو متعاطف معها، كانت في ورطة واضحة، وكان من شأن النجاح في هاييتي أن يساعد علىٰ الانتقال من تصورين سلبيين للسياسة الخارجيَّة والجيش إِلىٰ تصورين أَكثر إِيجابية.

في الجناح المدني كان ليك هو الصَّقْر الأبرز، غير أَن ستروب تالبوت، الرجل الثاني في الخارجيَّة الآن، كان هو الآخر صَقْراً. كذلك اعتُبر نائب الرئيس أَيضاً ناشطاً. ومع حلول أيلول/ سپتمبر باتت الخطة جاهزة بأكثر جوانبها. قضت توجيهات البيت الأَبيض بإِبقاء القوَّة المكلفة بالغزو دون اثنين وعشرين ألفاً من الرجال ـ كانت ستصل في الحقيقة إِلىٰ خمسة وعشرين ألفاً عند التنفيذ. كانت الفرقة 82 المحمولة جواً ستُنقل من فورت براگ. عناصر من الوحدة 101 المحمولة جواً كانت تنتظر في مكان قريب علىٰ متن إِحدى السفن للالتحاق بالعملية، فضلاً عن أَن حوالي ألفين من مشاة البحرية كانوا سيقتحمون الشواطئ. ولإِتمام عمليَّة الاجتياح كانت الفرقة الجبلية العاشرة ستنزل علىٰ الشواطئ بأقصى سرعة ممكنة مع وصول القوَّات المحمولة جواً إِلىٰ الأرض. حتى قبل الشروع بالغزو وكانت بعض وحدات القوَّات الخاصة ستصل إِلىٰ الشواطئ للإِجهاز علىٰ أية عربات مدرعة هاييتية.

أوائل أيلول/ سپتمبر كانت خطط الغزو مستكملة إِلىٰ حد كبير. ربما كان كلنتون حاصلاً علىٰ ما أراده، غير أَنَّه لم يكن سعيداً. لم يكن معجباً بالسياسة الراهنة التي كانت، بالطبع، لا سياسة؛ لم يكن معجباً بالسياسة القديمة التي أخفقت، كما لم يكن معجباً بالسياسة الجديدة التي تم اعتمادها للتو لأَن إِنهاءها للعنف قد يأتي منطوياً علىٰ مضاعفات سياسيَّة ذات شأن. ثمة كانت مؤشرات دالّة علىٰ السخط الكلنتوني المألوف لدى اضطراره لمعالجة قضايا لا تعجبه. بدأ يقول للناس من حوله: «لا أصدق أنهم جرّوني إِلىٰ هذا. . . . كيف حصل هذا؟»[13].

---

(13) **فرونتلاين**، «انتصار الشر»، 26/ 19991م.

مع حلول منتصف أيلول/ سبتمبر كانوا جاهزين للقيام بالغزو. غير أَن الأمور ما لبثت أَن تعقّدت. كانت للرئيس السابق، جيمي كارتر، صلات قيمة في هاييتي، بما فيها بعض العلاقات مع أعضاء في الطغمة. أدرك كارتر أَن نوعاً من الاجتياح كان قيد التنفيذ وتطوع لقيادة فريق مفاوض سعياً وراء إِقناع الطغمة بالرحيل سلماً. كان كلنتون سعيداً باحتمال تجنّب الاستخدام المباشر للقوة في سبيل إِزاحة الطُغمة، غير أنّه لم يكن في الوقت نفسه مطمئناً إِلىٰ كارتر. ومع ذلك فقد قرَّر أَن ليس هناك أَي ضرر في تمكين كارتر من قيادة فريق مفاوض يتيح للقوات الأَمريكيَّة فرصة الدخول سِلْماً. طلب كارتر أَن يضم زميله الجورجي سام نان إِلىٰ الفريق. ونان هذا، وهو ما يزال عضواً في مجلس الشيوخ ومتمتعاً باحترام قطاع واسع من الطيف السياسي، كان قد عارض علناً استخدام القوَّة في هاييتي، مما أضفى عليه قَدْراً من المصداقية في نظر الطغمة. وقد اقترح بدوره إِضافة كولن پاول إِلىٰ الفريق. انطلقوا إِلىٰ المهمة، مدركين أَن عمليَّة اجتياح عسكرية كبيرة كانت قيد الإِعداد بل وجاهزة مئة بالمئة، وكان العد العكسي قد بدأ. بقي كلنتون حذراً من كارتر. قال لپاول: «أحياناً ورقة جوكر، لقد استفدت منه في كوريا الشمالية [عملية تصادم قوى أخرى] ولم تكن العمليَّة سيئة»[14]. أَمَّا ما كان يقلق كلنتون، بينه وبين نفسه، فهو احتمال أَن تشكل ذات كارتر المتضخمة وحاجته إِلىٰ ترسيخ صورته كعامل حفظ سلام دولي ذاتياً، وما تصوره الناس رغبة جامحة عنده في التوصل إِلىٰ السلام مهما كان الثمن باهظاً، وهذا أخطر ربما من كل شيء. لم يكن كارتر من الشخصيات المفضلة لدى البيت الأَبيض: فالرئيس الديمقراطي الجديد كان قد قطع أشواطاً منذ لحظة انتخابه لينأى بنفسه عن آخر الرؤساء الديمقراطيين. دأب أنصار كلنتون، في أثناء الحملة وخلال الفترة الأولى من استلامهم للسلطة علىٰ حد سواء، علىٰ التلميح إِلىٰ أن كارتر لم يكن إِلاَّ شخصاً ضعيفاً متردداً، وإِلىٰ

(14) ستيفانوپولوس، 305.

أنهم سيكونون مختلفين، أقوى، أكثر تركيزاً وتصميماً. أضف إلىٰ ذلك أن أي استخدام له كان من شأنه أن يشي بوجود وزيرين للخارجيَّة علىٰ الأقل إذْ لم يوح بوجود رئيسين للجمهوريَّة. وقد يؤدي ذلك بحد ذاته إلىٰ اختزال رئاسة كلنتون. كان واضحاً أن المهمة لم تكن عادية من البلاغ الصحفي الذي أعلن رحلة كارتر. كانت النسخة الأصلية للبلاغ، تلك المنجزة في مكتب توني ليك، تبدأ بعبارة «بموافقة الرئيس كلنتون، يقوم جيمي كارتر. . .»[15] ألقى ستيفانوپولوس نظرة علىٰ البلاغ وحاول إيقافه. اعترض ليك قائلاً إن كلنتون سبق له أن وافق علىٰ المسودة. غير أن ستيفانوپولوس رد قائلاً إن الرؤساء لا **يوافقون** علىٰ مهمات من هذا النوع، إنهم **يأمرون** بتنفيذها. قفز كلنتون إلىٰ صف ستيفانوپولوس.

وهكذا، فقد كانت فكرة مشحونة سياسياً، وخطرة إلىٰ حدود معينة. برأي البيت الأبيض كان كارتر رجلاً يصعب ضبطه، ميّالاً لأن يعمل لحسابه مما جعله منطوياً، حسب مخاوف البيت الأبيض، علىٰ خطر صَبّ الماء في طاحونة الأوغاد المحليين. ومع ذلك فإن من شأن محاولة سلمية أخيرة، رغم أنها غير مثالية، كغيرها من جميع الأمور ذات العلاقة بهاييتي، أن تكون مطمئنة لدول أمريكا اللاتينية الأُخرى عبر إقناعها بأننا لم نكن نرغب في ممارسة دبلوماسية البوارج الحربية. وبالتالي فإن كلنتون قرّر، حتى حين كان العد العكسي مستمراً، إرسال كل من كارتر، پاول، ونان إلىٰ هاييتي.

عند هذا المنعطف أصبح التوقيت حاسماً. تحدد تاريخ التاسع عشر من أيلول/ سپتمبر موعداً للاجتياح. وصل كارتر، نان، وپاول إلىٰ هاييتي في السابع عشر من أيلول/ سپتمبر حوالي منتصف النهار. كانت الفترة الزمنية المتاحة لهم لإقناع الطغمة الهاييتية بالرحيل سلماً ستاً وثلاثين ساعة. ما كان

---

(15) پاول، 598.

كلنتون يريده أَكثر من أَي شيء آخر هو إِنجاز الصفقة: لا بأس من إِنزال قوة أَمريكيَّة كبيرة علىٰ الجزيرة سلمياً، غير أَن ما كان يخشاه هو قطع كل هذا الشوط دون حل **واضح** و**نهائي** ـ من شأن ذلك أَن يبدو أَشبه بنكسات سابقة، شديدة الشبه خصوصاً بعمليَّة **هارلان كاونتي**. مهما حدث كان لا يجوز للأَمر أَن ينتهي دون حسم، مع بقاء سيدراس قادراً علىٰ تكوين المشكلات مرة أُخرى ـ وقد كان ذلك ما بدأَ كلنتون يخشى أَنَّه حاصل. أضف إِلىٰ ذلك أَنَّه كان ثمة لاعب شبه صامت في العمليَّة دائب علىٰ دفعه إِلىٰ استخدام أعنف للقوة أَلا وهو آرستيد بالذات الذي لم يكن راغباً في الإِحاطة السلمية، بل كان يريد أَن يرى الجيش الأَمريكي قادماً للاضطلاع بمهمة تكنيس الطغمة وقيادتها كُرْمىٰ لعينيه.

اتسمت اللقاءات بمسحة أوپرا هزلية، وإِن كانت هزلية مشحونة بالخطر، حيث عكف قادة هاييتي علىٰ الاستغراق في بحر من الكلام المتغطرس حول استعدادهم للموت دفاعاً عن بلدهم، ودأب پاول، بدوره، علىٰ شرح ما سيواجهونه، قوة محمولة علىٰ متن اثنتين من حاملات الطائرات، مؤلفة من اثنين وعشرين أَلفاً من نخبة الجنود الأَمريكيين، مع فيض من الدبابات والحوامات القتالية. وأَضاف پاول أَن ليس هناك أَي مبدأ عسكري عاقل يمكن أَن يدعو إِلىٰ التضحية غير المجدية بحياة الضباط أَو الجنود. بدت الاجتماعات قابلة لأَن تدوم وتطول أَكثر فأَكثر مع اقتراب ساعة الصفر بالنسبة للاجتياح، الساعة الثانية عشرة والدقيقة الواحدة ظهر اليوم التاسع عشر من الشهر أَكثر فأَكثر.

حتى فيما كانوا دائبين علىٰ الأخذ والعطاء حول بعض التفاصيل، كانت بعض طائرات سي ـ 130 تقلع من قاعدة فورت براكَ محملة بالفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً، كما تم إِبلاغ عناصر الإِعلام التابعين للپنتاگون بموجز عن المهمة، وراح رئيس السي. إِن. إِن. توم جونسون يتصل بكبار مسؤولي الوزارة مبلغاً إِياهم بأن مؤسسته علمت أَن طائرات محمَّلة بعناصر الفرقة الثانية

والثمانين قد غادرت قاعدتها متوجهة إِلىٰ هاييتي ـ لم يكن تقدير الفترة اللازمة لقطع المسافة قفزاً صعباً. وفي غرفة عمليَّات الپنتاگون توسل اللفتنانت جنرال شيحان جونسون عبر الهاتف راجياً منه ألا يبث أَي شيء عبر الشبكة لأَن ذلك قد يتمخض عن قتل أشخاص معينين، وافق جونسون علىٰ الالتزام بالضوابط.

في إِحدى اللحظات، فيما كان فريقه التفاوضي موشكاً علىٰ التوصّل إِلىٰ صفقة، بادر كلنتون، متنبهاً إِلىٰ مدى قصر المدة الزمنية الباقية وإِلىٰ مدى خطورة الموقف بالنسبة إِلىٰ الفريق ـ الذي كان من الممكن أَن يصبح رهينة ـ إِلىٰ الإِيعاز للفريق بالخروج من القصر الرئاسي ومن البلاد، ولكن أعضاء الفريق طلبوا فترة إِضافية قصيرة. جاء أمر كلنتون عاكساً ليس فقط لحظة صفر وشيكة بل واستياءاً متعاظماً من كارتر في البيت الأَبيض الذي بات يشعر بأن سيدراس كان يماطل، ويخشى أَن يكون كارتر متجاوباً مع تلك المماطلة. أَمّا علىٰ الأَرض فإِن الشعور بإِمكانية التوصل القريب إِلىٰ عقد صفقة لم يكن مقصوراً علىٰ كارتر بل شاركه فيه كل من نان وپاول اللذين كانا يتوقعان صَفْقة تمكّن القوَّات الأَمريكيَّة من الدخول سلماً. ولحظة بدت الأمور غارقة في بحر الفوضى، قام رئيس أركان سيدراس، البريگادير جنرال فيليپ بيامبي باقتحام غرفة الاجتماع ليبلغ رئيسه الرسالة التالية: «الفرقة الثانية والثمانون المحمولة جواً علىٰ الطريق!». حتى بعد ذلك استمرت حالة التوتر، ظل الأَمريكيون يتوسلون كلنتون طالبين منه قليلاً من الوقت الإِضافي، وبقي الهاييتيون يرفعون من مستوى صراخهم المتباهي بالكرامة والرجولة قبل أَن يلوذوا بالصمت ويجلسوا مكتوفي الأيدي. علىٰ متن إِحدى حاملتي الطائرات التي كانت الوحدات الأولى ستنزل، أقدم الجنرال هيوشلتون، قائد الحملة كلها، علىٰ إِجراء عمليَّة التفقد الأَخيرة قبل الاجتياح، شاعراً بأن الوقت كان يمضي بسرعة. ظل هو وأركانه يتابعون السي. إِن. إِن.، حيث كانت تفاصيل المفاوضات الأَخيرة تذاع بانتظام. كان شلتون وأعضاء هيئة أركانه سيتابعون شريط الأَخبار حيث ظهر كارتر، نان، وپاول، وسيصرخون: «اخرجوا من

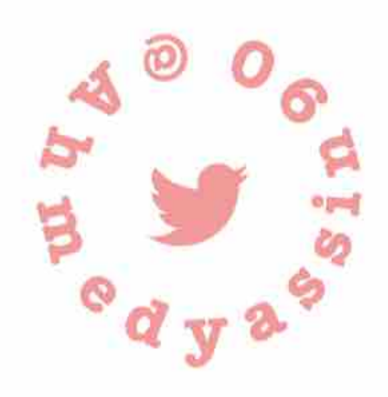
هناك!»[16] في تلك اللحظة، في الدقيقة الأخيرة، انهار المزاج البطولي الهاييتي، قام الواقع بفرض نفسه، فتم تحديد موعد لرحيل الطغمة وآخر لعودة آرستيد. كانت القوّات الأمريكيَّة ستصل إلىٰ الجزيرة سلماً.

غير أن الأمر ما لبث أن أدّى إلىٰ جعل كارتر مشكلة حقيقية بالنسبة إلىٰ جماعة كلنتون. كانت مشكلة هاييتي قد حُلَّت بنجاح، جرى التهديد بالقوَّة دون استخدامها، أصر كلنتون علىٰ أن يكون صاحب الفَضْل. صحيح أن الأمر لم ينطو علىٰ نجاح باهر، غير أنَّه لم ينطو أيضاً علىٰ أي إخفاق، فضلاً عن أنه كان الانتصار الأول، المطلوب بإلحاح شديد، علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة. إلاَّ أَن كارتر لم يبد مستعداً للرحيل؛ أراد أن يبقى ويتولى الإشراف علىٰ المشهد، مثيراً سخط البيت الأبيض التوّاق إلىٰ اختزال دوره إلىٰ الحدود الدنيا وتعظيم دور كلنتون إلىٰ الحدود القصوى. مع مرور الزمن، باتت اتصالات كارتر الهاتفية من هاييتي، التي كان يحلم بأنها ستوصله مباشرة بالرئيس، أو ليك، أو حتى بيرگر، تُقطع علىٰ الطريق، ليجري تحويلها إلىٰ الجنرال شيحان المكلف بإدارة الجانب العسكري من العمليَّة. غير أن البيت الأبيض بقي سعيداً بصورة عامة. تم إبراز الرئيس وتلميع صورته جزئياً؛ لم تكن العمليَّة باهظة التكاليف؛ بقيت سهلة التحكّم. لم يكن أحدٌ مهتماً كثيراً بمدى صعوبة تحويل هاييتي إلىٰ بلد ديمقراطي، بحقيقة بقاء عالم آرستيد السياسي غارقاً في الوحل مثل عالم من سبقوه. فما كان يشغل بال البيت الأبيض تمثَّل بأننا وقفنا في وجه الحكام الدكتاتوريين وأجبرناهم علىٰ الرحيل (ولو بشروط تناسبهم تماماً)، وقَلَبْنا صورة **هارلان كاونتي** رأساً علىٰ عقب. تلك كانت الصورة الباقية. ثمة عِبَرٌ للمستقبل.

---

(16) ستيفانوپولوس، 313؛ مقابلة معه وآخرين من كبار موظفي البيت الأبيض.

(17) من مقال في يونايتد ستيتس انستيتيوت أوف پيس پرس، لروبرت پاستور، الذي كان كبير مستشاري الرحلة الكارترية؛ مقابلة مع پاستور.


@Ahmedyassin90

الفصل الخامس والعشرون

لم تكن سنة 1994م سنة خير بالنسبة إلىٰ كلنتون ومستشاريه. فمشكلة البوسنة بقيت بعيدة عن متناول أيديهم، مقزِّمة كل الأشياء الأُخرى التي فعلوها في ميدان السياسة الخارجيَّة. ثمة لحظة إعلامية غير عادية كانت قد سلّطت الأضواء علىٰ خيبة الإدارة كما لو كانت تريد أن تذكّرهم بأن خطابنا، بصرف النظر عن كوننا القوَّة العظمى الوحيدة، كان أقوى من أفعالنا وإرادتنا بالتأكيد، وإن لم يكن أقوى من سيفنا. في ربيع 1994م، ظهرت كرستيان آمانپور علىٰ شاشة السي. إن. إن. والتقطت لحظة نادرة بالنسبة إلىٰ أي مراسل في منطقة حرب لتطرح علىٰ الرئيس سؤالاً، كانت تلك الشبكة دائبة علىٰ استعراض عضلاتها التكنولوجية عبر إقامة قاعة اجتماعات دولية يكون فيها بيل كلنتون هو الضيف الرئيسي. اعتُبرت المناسبة احتفالية، وافترض البيت الأبيض أن ذلك أمر جيد، وخدمة لشبكة السي. إن. إن. وأن كلنتون سيواجه بعدد من الأسئلة اللطيفة ذات الشحنة الخفيفة بدلاً من تلك الأسئلة الصعبة والشائكة التي يطرحها مراسلوها عادة. غير أن الشبكة حين أدخلت آمانپور في سيراييڤو إلىٰ قاعة الاجتماعات التلفزيونية، بادرت، وهي المراسلة الموجودة في جحيم حقيقي، إلىٰ التجاوب انطلاقاً من الكابوس القابع فوق البلقان. سألت الرئيس عن السبب الكامن وراء هذا التأخير لعمليَّة اعتماد سياسة خاصة بالبوسنة وعما إذا لم يكن يرى «أن التقلبات والتذبذبات الدائمة لإدارتك حول قضية البوسنة قد شكَّلت سابقة بالغة الخطورة».

مرحى! بَطَحَتْه أرضاً، نقلاً مباشراً وبالألوان، وأمام العالم كله. لم يكن كلنتون مسروراً، لم يكن متوقعاً مثل هذا السؤال. بدا واضحَ الغضب ـ حاد القَسَمات جليدي الصوت. قال: «لم تكن ثمة تذبذبات دائمة يا سيدة!» غير أَن القاصي قبل الداني كان يعرف أَن التذبذبات كانت موجودة وأن فريق كلنتون، رغم مضي أَكثر من سنة علىٰ مجيئه إلىٰ السلطة، كان لا يزال يبحث عن سياسة أَو خطة.

مع استنقاع الإِدارة عمليّاً، ظهرت التوترات علىٰ توني ليك أَكثر من سائر الأعضاء الآخرين في فريق مجلس الأَمن القومي. فكرستوفر كان شديد الحرص علىٰ إِبقاء مسافته الخاصة الفاصلة بينه وبين القضية، أَمَّا ساندي بيرگر، نائب ليك، فكان ذرائعياً عاكساً، قبل أَي شيء آخر، سياسة كلنتون. غير أَن هذه كانت مشكلات تخص ليك بالذات. فهو الشخص الملتزم، آخر المطاف، باعتماد سياسة جديدة أَكثر فعالية في البلقان، وقد أَصبح الشخص الأشد انسحاقاً مع بقاء الأحداث خارج نطاق تحكم الإِدارة. كان ليك يرى أحياناً أَنَّه وزملاءه في الإِدارة كانوا ما لبثوا أَن أَصبحوا شبيهين بأولئك الذين دأبوا علىٰ شن حملتهم كلها ضدهم قبل سنتين اثنتين. غير أَن ليك بقي مسحوقاً بين فكي كماشة معتقداته الشخصية بشأن البوسنة من ناحية، وولائه للرئيس من ناحية ثانية. وخلال الفترة الممتدة من ربيع 1994م وحتى أواسط ربيع 1995م، فيما دأب الصرب علىٰ تكثيف تصرفاتهم العدوانية في البوسنة، ظل إِحباط ليك واستياؤه يتعاظمان باطراد.

لقد ظل ما كان يحركه ـ علىٰ امتداد ما يزيد عن عقدين من الزمن ـ متمثلاً بمثل هذه القضايا، لا صراع الحرب الباردة الاستراتيجي بين القوتين العظميين في العالم. وبالتالي فإِن اهتمام ليك الأَول كان، حتى قبل انهيار الاتحاد السوڤيتي، مميزاً له عن أَكثر شخصيات الأَمن القومي المعاصرين. وعلىٰ الرغم من جميع التوترات والأزمات الحاصلة، فقد ظل يؤمن بأن صراعنا مع الاتحاد

السوڤيتي كان قد تم حلّه فعلياً من خلال المأزق الواقعي الحاصل في عقد الستينيّات، ولم يبق إلاّ مدى سرعة أو بطء قيام القوتين العظميين بإلقاء أوراقهما. أمّا القضايا الأهم فقد كانت مرشحة، باعتقاده، أن تنشأ في العالم الثالث وتكون ذات علاقة بانفجار بلدان فقيرة من الداخل، بأزمات اللاجئين الناجمة عن ذلك، وبأزمات الاضطرابات الإقليمية اللاحقة. وقد أدّى ذلك إلىٰ جعل إحباطاته بشأن البوسنة أكثر إيلاماً.

مع حلول خريف 1994م، كان الصرب قد أوشكوا علىٰ إنجاز عمليَّة تمزيق البوسنة والاستيلاء علىٰ حوالي سبعين بالمئة من مساحة البلد. لعل اللحظة الأشد حلْكة بالنسبة إلىٰ ليك هي تلك التي جاءت أواخر خريف 1994م، بعد الانتخابات التكميلية حين تمكن الجمهوريون من إنزال ضربة موجعة بالديمقراطيين وباتت المعنويات متدهورة في البيت الأبيض. كان جيب بيهاتش، منطقة بوسنية صغيرة مقحمة في الجزء الشمالي من الهلال الكرواتي الذي كان خاضعاً أساساً للاحتلال الصربي، قد بدأ يطغى علىٰ الأنباء الصادرة عن البوسنة. كان الجيب شديد الهشاشة أمام الصرب وكان المدافعون عنه ضعيفي التسليح، فضلاً عن أنَّه كان مثقلاً بأعداد كبيرة من اللاجئين المسلمين القادمين من الأقاليم المحيطة. كانت أرضاً عائدة للبوسنة ولكنها قريبة من كرواتيا، واقعة تحت الاحتلال الصربي، وهدفاً لأطماع الكرواتيين أيضاً. وبسبب القوَّة الإبداعية التي ميّزت الخرائط الموروثة عبر الأجيال لدى جميع المعنيين فقد كانت الأطراف الثلاثة جميعها قادرة علىٰ ادعاء ملكية الجيب.

كان جيب بيهاتش هذا جرحاً نازفاً دائماً في الحرب. ففي تشرين أول/أكتوبر 1994م، خرج الفيلق الخامس البوسني، أفضل وحدات الجيش البوسني. من الجيب وشن حملة وجيزة ولكنها ناجحة بصورة مذهلة ضد القوّات الصربية المطوِّقة للجيب. ونظراً للدعم اللوجستي البوسني المحدود وصعوبة إدامة أية حملة طويلة الأمد، ربما لم يكن الخروج فكرة جيدة، وما

لبث الصرب أَن شنوا هجوماً معاكساً علىٰ المسلمين بإِصرار متجدد. ومع حلول شهر تشرين الثاني/ نوڤمبر بدا وكأن جيب بيهاتش سيصبح بؤرة الكارثة الإِنسانية الأسوأ في الحرب، جيب صغير بطول أربعة أميال وعرض ميلين مزدحم بما لا يقل عن مئتي ألف مسلم بحاجة ماسة إِلىٰ المأوى علىٰ الرغم من استمرار الصرب بدكّه المنهجي بمدفعيتهم.

مرة أُخرى هَدَّدَ جيب بيهاتش بشق صف التحالف الغربي لأَنَّه ما لبث أَن أدَّى إِلىٰ تحريك الانقسامات الأولية التي كانت أساسية جداً بالنسبة إِلىٰ خطة التحالف. كان الأَمريكيون راغبين في استخدام الطيران، غير أنهم، خلافاً لحال حلفائهم، لم يكونوا، بعد، يملكون أية قوات علىٰ الأرض. واصل الصرب قصفهم لبيهاتش رغم اتفاقات سابقة قضت بالانسحاب، وكانوا قد استخدموا قنابل النابالم كجزء من هجماتهم الأحدث. كانت طائراتهم تُقْلِع من إِحدى القواعد الكرواتية، وكان طيارون أمريكيون علىٰ طائرات حربية تابعة للناتو قد وجهوا ضربات انتقامية جوابية إِلىٰ تلك القاعدة الجويَّة، مما دفع الصرب إِلىٰ أَن يلعبوا أقوى أوراقهم. لم يكتفوا بأخذ عدد من عناصر قوات اليوإِنبروفور الدولية UNPROFOR رهائن وتطويق مجموعات أُخرى من جنود الأمم المتّحدة، بل وراحوا يهدِّدون بأخذ المزيد من الرهائن. فقد أصدر رادوڤان كاراديتش، قائد صرب البوسنة، إِنذاراً قال فيه إِن وحدات اليوإِنبروفور الدولية لن تُعامل، في حال استمرار هجمات الناتو الجويَّة، كقوات حفظ سلام بل كوحدات معادية. لم يكن ذلك تهديداً قليل الشأن أَو فارغاً. فقوات الأمم المتّحدة كانت مبعثرة علىٰ أعداد كبيرة جداً من الوحدات الصغيرة في طول البلاد وعرضها مما كان يجعل قدرتها علىٰ الدفاع عن نفسها معدومة.

علىٰ امتداد مجمل تاريخ ما بعد الحرب الممتدة تسع وأربعين سنة من التحالف الغربي، نادراً ما كانت العلاقات علىٰ هذه الدرجة من التدهور وتبادل الرأي بين كبار المسؤولين علىٰ هذا المستوى من الحدة. فبنظر البريطانيين

والفرنسيين لم يكن الأَمريكيون إِلاَّ متطفلين ممتازين أتقنوا فن اكتشاف جميع الأخطاء، ولكنهم غير مستعدين لإِشراك قواتهم البرية. ليسوا، بدلاً من ذلك، إِلاَّ توّاقين لأَن يكونوا مقاتلين من علىٰ ارتفاع تختاره علىٰ هواك بين سبعة عشر ألفاً وثلاثين ألفاً من الأقدام. لعل أَحد أَكثر الانتقادات الموجهة إِلىٰ السياسة الأَمريكيَّة من قِبل مسؤول بريطاني كبير في سنوات وخزاً هو ذلك الذي صدر عن وزير الدفاع البريطاني مالكولم ريفكند الذي قال: «علىٰ أولئك الذين يدعون العالم إِلىٰ التحرك أَن يقرنوا الأقوال بالأفعال، ولا يقتصر ذلك علىٰ بضع طائرات»[1]. وقد رأى بعض المحلّلين أَن من شأن الأَمر أَن يتحوّل إِلىٰ الانقسام الأسوأ في التحالف الغربي منذ كان الأَمريكيون قد أقدموا علىٰ منع المظليين البريطانيين، الفرنسيين، والإِسرائيليين من الانقضاض علىٰ قناة السويس في 1956م.

كان ليك في مأزق. كان يرى أَن قوات اليوإِنبروفور الدولية Unprofor لم تكن إِلاَّ نكتة، إِلاَّ ورقة أقدمنا، خطأ وسخاء، علىٰ تزويد ميلوسوڤيتش بها ليستخدمها ضدنا وعقبة كبرى أمام أَي نجاح لاحق هناك. فتحقيق أَي تقدّم ذي شأن كان متعذراً دون تجميع تلك القوّات أو تركيزها في وحدات أكبر قادرة علىٰ الدفاع عن نفسها. غير أَن ليك لم يكن يريد الإِجهاز علىٰ التحالف. أضف إِلىٰ ذلك، كان من شأنه أَن يبقى وحده تقريباً في الإِدارة فيما لو دافع عن فكرة ممارسة المزيد من الفعل. لن يؤيده كرستوفر، ولا پيري والجنرال جون شاليكاشڤيلي في الپنتاگون. أَمّا الرئيس الذي تضايق كثيراً من نتائج الانتخابات الفرعية، فلم يبد في مزاج يجعله مستعداً للموافقة علىٰ أَي رفع لمستوى التدخّل الأَمريكي في البوسنة. فآخر الأشياء التي كان يريدها هو حصول أزمة إِعلامية إِذا أقدمت الولايات المتحدة، من طرف واحد، علىٰ تقويض علاقاتها مع حليفتيها الأَكثر تمتعاً بالثقة.

---

(1) دالدر، 33.

أدّى ذلك إِلىٰ إقحام ليك في وضع لا يطاق. نجح في إِقناع الرئيس بالاتصال مع كل من فرانسوا ميتران وجون ميجر، غير أنهما كانا غير قابلين للتزحزح عن موقفيهما. لم يكونا مستعدين لتعريض قواتهما للخطر؛ كانت لهما مشكلاتهما السياسة الخاصة، ومثلهما مثل كلنتون في ذلك. كان الخيار بالغ الصعوبة بالنسبة إِلىٰ ليك. كانت السياسة الواقعية تستدعي البقاء مع التحالف، غير أَن قَلْبَه كان ميالاً إِلىٰ اعتماد سياسة شن غارات جويَّة علىٰ القوَّات الصربية. يتذكر ليك تلك الفترة جيداً. فما أَكثر ما قال إِن عيد الشكر كان أسوأ الأوقات في السنة بالنسبة إِليه لأَن أوراق الخريف تكون جميعها ساقطة في نيو إنكلند، يكون زمناً رمادياً كئيباً، في حين لا يكون الشتاء، الفصل الذي يحبه، قد حل بعد.

فكر ليك جدياً بالاستقالة في نهاية أسبوع عيد الشكر من ذلك العام. راح يتساءل عما إِذا كان قد بدأ يتحول إِلىٰ تلك النوعية من الموظفين في الإِدارة العامة التي دأب علىٰ انتقادها بينه وبين نفسه في الماضي، إِلىٰ شخص يؤمن بقضية معينة إِيماناً راسخاً، يجد نفسه عاجزاً مرة بعد أُخرى عن خدمتها، ومع ذلك يبقى في منصبه، متذرعاً بأشكال مختلفة من الذرائع والحجج من أجل تسويغ إِخفاقه في القيام بما يمليه ضميره. كان قد سبق له أَن فكر بالاستقالة احتجاجاً علىٰ التناقض الصارخ القائم بين العبارات الملأى بالكبرياء التي كان قد كتبها عن المرشح والتصرفات المشينة اللاحقة للإِدارة. بادر إِلىٰ تكليف أَحد المساعدين بدراسة الفترة التي أمضاها مستشار الأَمن القومي المتوسط في المنصب سابقاً، فأتاه الجواب: إِنها سنة ونصف، مما عنى أَنَّه كان قد أمضى الوقت المطلوب في ذلك الموقع. كان صديقهُ الحميم ومساعده ساندي ڤيرشبو، الذي كان قد انتقل من وزارة الخارجيَّة ليكون نائبه المختص بالبلقان، أَحد أَكثر الصقور شراسة في أوساط الشريحة العليا من الجهاز البيروقراطي. ناقشه ڤيرشبو هذا لثنيه عن الاستقالة. فكل من كان سيأتي بعده لن يهتم بالبلقان

مثله. ليس الحل في الرحيل والتخلي عن القضية. لا بد من الصمود وانتظار يوم آخر.

كذلك كان ليك يدرك أن أية استقالة الآن، مصحوبة بإحباطاته في أيام ڤيتنام، من شأنها أن تشكّل المرة الثانية التي يتولّى فيها منصباً رفيعاً إلىٰ حدود معقولة في الإدارة ويخفق في تطبيق خطة يؤيدها ذات علاقة بقضية متسامية يتعاطف معها بحماس. ونظراً لجملة الإحباطات التي أثقلت وجدانه أيضا في إدارة كارتر حول إيران، فإن من شأن الاستقالة أن تزيد طين حياة وظيفية كئيبة بصورة غير عادية بلةً، أن يحصل علىٰ صفر في الاختبارات الكبرى الثلاث التي تعرض لها خلال فترة زمنية تقرب من اثنتين وثلاثين سنة. وبالتالي فقد قرَّر أن يبقى حيث هو وسطّر مذكرة وجهها إلىٰ الرئيس قائلاً إن علىٰ الإدارة أن تساير التحالف وتوقف الضربات الجويَّة. «فاستخدام ضربات الناتو الجويَّة للحيلولة دون سقوط بيهاتش لم يتمخض إلاّ عن زيادة حدة الاحتكاك الأطلسي ـ الأطلسي. . . أدَّى سقوط بيهاتش إلىٰ فضح التناقضات العميقة المتأصّلة في السعي إلىٰ استخدام قوة الناتو الجويَّة عنوة ضد صرب البوسنة في حين توجد لحلفائنا قوات علىٰ الأرض تحاول الحفاظ علىٰ الحياد في أداء مهمة إنسانية». لذا فإن علىٰ أمريكا أن تتراجع عن فكرة استخدام الطيران. وقد أضاف ليك إلىٰ مذكرته عبارة: «لم تعد عصا الضغط العسكري مجدية»[2].

علىٰ الرغم من أن ليك كان الأكثر تناقضاً وصراعاً داخلياً بين عناصر الإدارة، فقد كان أيضاً، كما قال أحد الزملاء، الأقل كلبية وغَرَقاً في التشاؤم: «وعليكم أن تتذكّروا أن ذلك، نظراً لجملة الضغوط الكثيرة التي لا تعرف معنى الرحمة والتي يتعرّض لها مستشار مجلس الأمن القومي، ليس مصدر قوة بالضرورة ـ إنها وظيفة تتطلب بما يشبه الإلزام ارتداء ثوب المبالغة في التشدّد،

(2) المصدر السابق، 34.

التحلي بقدر معين من الكلبية ونزعة الشك فيما يخص طبيعة البشر، مع امتلاك القُدْرة علىٰ وضع راية النضال في سبيل هذه القضية أَو تلك جانباً. للنجاح في تلك المهمة يتعين علىٰ المرء أَن يكون قادراً علىٰ التحصُّن ضد بعض الضغوط المرعبة. لا أعتقد أَن توني كان ناجحاً في عمليَّة التخلي عن البوسنة ـ ربما كان ذلك لصالحه كإِنسان، ولغير صالحه كمستشار لمجلس الأَمن القومي».

كان ليك شخصاً وِلْسُنياً في حقبة باتت متناقصة الصفة الوِلْسُنية، مما جعله النقيض المباشر لرئيسه السابق هنري كيسنگر. فقوة كيسنگر الاستثنائية لم تكمن فقط في إِتقان فن النفاق والمراءاة عند الضرورة، في قُدْرته الخارقة علىٰ إِسماع عشرة أشخاص مختلفين عشر روايات مختلفة تماماً عما كان يفعله بالنسبة إِلىٰ قضية معينة ـ مع تذكّر الرواية التي قدّمها لكل من الأشخاص، بل كانت متمثِّلة، بالأحرى، بصلابته العاطفية، بقدرته علىٰ تحصين نفسه ضد الاحتجاجات من جميع الجهات، من اليمينيين الذين شعروا بالخذلان إِزاء سياساته الصينية، وسائر الليبراليين والأصدقاء القدامى في العالم الأكاديمي الذين شعروا بالخذلان إِزاء سياساته الڤيتنامية. لقد كان كيسنگر رجلاً من العالم القديم، من أوروپا، حيث تُعتبر الأخلاق في السياسة الخارجيَّة، عموماً، نقطة ضعف، وبدا أحياناً شاعراً بالغيرة من صانعي القرار السياسي في الدول الدكتاتورية التسلطية بسبب القَدْر الأكبر من الحرية التي يمكنهم أَن يتمتعوا بها في المفاوضات وغياب القوى الديمقراطيَّة المنافسة التي لا بد من التعامل معها ـ خصوصاً الصحافة الخاضعة للتحكّم في تلك الدول.

كان كيسنگر يعتبر نفسه واقعياً أولاً وقبل كل شيء، بمعنى وجود بعض التناقضات الغريبة بين رحلة مغامراته الشخصية الشبيهة بالأوديسة من جهة، وبين السياسات التي نالت استحسانه أحياناً من جهة ثانية. إِنّه ابن لاجئَين تمكّنا من النجاة من المحرقة واستفادا كثيراً من الحريات الأَمريكيَّة والنزعة المثالية السياسيَّة المتأصّلة، غير أنّه بقي قادراً، رغم ذلك، علىٰ إِلقاء نظرة محايدة،

باردة علىٰ البوسنة وعلىٰ جرائم الإبادة المرعبة المقترفة هناك دون التأثّر بها. تساءل بعض منتقديه، خلال أزمة البلقان، (هل كان هنري كيسنگر، إمام السلطة، لو كان مضطلعاً بمهمات رفيعة المستوى في الثلاثينيّات، سيدافع عن سياسات تمكّن هنري كيسنگر الصبي اللاجئ من القدوم إلىٰ أمريكا؟). كان كيسنگر الشخصية اللاوِلْسُنية الرئيسية في السياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة، مثيراً حفيظة اليمين واليسار علىٰ حد سواء، حفيظة أولئك المنطلقين ليس من نوع من الإحساس بالمحصلة النهائية للأحداث فقط، بل ومن جملة من المعتقدات الأخلاقية والإيديولوجية أَيضاً.

كان ليك هو النقيض. بقي متردداً حول استخدام القوّة؛ كان ميّالاً إلىٰ استخدام القوّة ومتخوفاً من مثل هذا الاستخدام. ظلت نظرته إلىٰ السياسة الخارجيَّة مستندة علىٰ الدوام إلىٰ نوع من الاستقامة الأخلاقية. كان جده كيرسوپ ليك عالم لاهوت پروتستانتياً مرموقاً قام بالتعليم في هارڤارد، دليلاً شبه مؤكد علىٰ ضرورة بقاء آثار وِلْسُنية ذات شأن في الجينات (المورثات). كثيرون من معجبي ليك والشاعرين بأنهم يعرفونه جيداً ـ مثل كاتزنباخ وآخرين ـ توجسوا من مبالغته في التحلي بالنزعة الأخلاقية في السياسة الخارجيَّة وجادلوا حول مدى اتصافه بما يكفي من الصلابة حتى يشغل منصباً في مجلس الأَمن القومي. غير أَن جزءاً منه بقي ميّالاً، من حين لآخر، إلىٰ أن يبيِّن أَنَّه كان صلباً وذرائعياً (براگماتياً) بالفعل. ففي سنوات إدارة كلنتون استطاع بالفعل أن يُدْهِش بعض أصدقائه، وإن لم يكن جموع منتقديه، بقدرته علىٰ اعتماد خط متشدّد. ومع ذلك فإنه قد تمكّن، رغم تناقضه بشأن السلطة وتحليه بنكران الذات في علاقته معها ـ فقد قال مرة إن الالتحاق بالركب والمساهمة في حَمْلَة كلنتون سنة 1992م، كان أمراً يمكن القيام به بين اثنين من مواسم البيسبول ـ من الارتقاء، بعد ثلاث وعشرين سنة من استقالته من هيئة أركان كيسنگر حول كمبوديا، ليصبح نجماً من نجوم السياسة الخارجيَّة.

كان ليك، بطريقته الخاصة، أستاذ نجاة وصمود من طراز عالمي. قد يبدو بنفسجاً متقلصاً من حيث الطموح، غير أنّه يعرف متى يتقلّص ومتى يرفض الانكماش. ومهما كانت شكوكه بالسلطة، مهما بلغ مستوى تناقضه حول أنماط استخدامها، فإن جانباً قوياً من جوانبه ظل يسعى إلىٰ امتلاكها، بقي مرتاحاً إليها، فضلاً عن أنّه لم يكُفْ عن الإيحاء لأقرانه النشطاء سياسياً برغبته في تولي السلطة وممارستها. كان مقاتلاً داخلياً ماهراً في سنوات كلنتون، حامياً نفسه من الأعداء المحتملين، غير أَنَّه اعتُبر شخصاً يصعب العمل معه. لم يكن تداول المعلومات الحساسة يتم بصورة جيدة في مجلس الأَمن القومي في ظل ليك. كثيراً ما أدت طريقته في العمل إلىٰ إثارة سخط مسؤولين كبار في الخارجيَّة والدفاع والتجارة. فكبار موظفي الخارجيَّة كانوا مستائين من طريقة سطوه علىٰ المفاوضات حول إيرلندا الشمالية، ولم يكن استياء هؤلاء شيئاً بالمقارنة مع غضب البريطانيين الذين اعتبروه عدواً صريحاً لسياستهم مئة بالمئة. كان أَيضاً الحمائمي صاحب المستوى الرفيع الأبرز من الحقبة الڤيتنامية في الإدارة، باستثناء الرئيس نفسه. كانت ڤيتنام هي العدسة التي دأب علىٰ رؤية سلسلة طويلة من القضايا الأُخرى من خلالها، وقد جعله ذلك هدفاً لهجوم اليمين السياسي. كانت واشنطن قد غاصت أعمق في النزعة المحافظة خلال السنوات العشر ونيف منذ شغل منصباً رسمياً للمرة الأخيرة. ما لبث شاغلو المناصب العليا القادرون علىٰ تفهم ملابسات معارضة ليك الڤيتنامية أَن تناقصوا، فبات ماضيه سلاحاً قابلاً للاستخدام في الهجوم عليه. ولو أَصبح هدفاً لليمين لأدَّى ذلك إلىٰ تقليص قدرته وإلىٰ إلحاق الضرر بالرئيس الذي يقوم بخدمته.

ربما كان ذلك هو السبب الذي دفعه أحياناً إلىٰ السعي لأَن ينأى بنفسه عن ماضيه. ففي صيف 1995م، حين أقدم بعض أعضاء الإدارة علىٰ اقتراح الاعتراف بهانوي، فوجئوا كثيراً، إذ وجدوا ليك قليل الاهتمام بقضية كانوا يظنون أنّها قريبة إلىٰ قلبه. ربما كان متحسساً ومتوجساً من السماح للأشباح

السياسيَّة بالتسلل إِلىٰ الغرفة. أَو ربما كان يرد علىٰ إِحجام الرئيس عن إِعادة فتح جرح قديم. غير أَن التعامل مع ڤيتنام الشمالية كان، كما قال أَحد مؤيدي الاعتراف لاحقاً، أسهل بكثير من التعامل مع البيت الأَبيض. والفضل في الاعتراف بهانوي، آخر المطاف، يعود إِلىٰ النُّبل والكرم غير العاديين اللذين أبداهما عدد من مخضرمي ڤيتنام في مجلس الشيوخ مثل جون كري، بوب كري، وجون ماكين ممن وفَّروا للرئيس غطاء يحميه من الحزب الجمهوري، أَكثر من عودته إِلىٰ أَي شيء فعله كلنتون أَو ليك.

أضف إِلىٰ ذلك أَن ليك بدأ ينعزل عن أقدم أصدقائه من فترات سابقة في الحكم كانوا، مثل ليك نفسه، نشطاء في مسألة البوسنة. كان يعتقد أَن من شأن قضائه فترات طويلة من الوقت معهم أَن يكشف عن مدى خيبة أمله بالرئيس وبسياسته، مما كان سيكشف عن مدى افتقاره إِلىٰ النفوذ والتأثير. وفي مدينة مثل واشنطن كان من شأن ذلك أَن يعني إِسالة دمه في الماء، فتحاً لشهية جميع أسماك القرش المتحفّزة. بدأ الأصدقاء القدامى يختفون من حلقته الداخليَّة ويتم استبدالهم بأناس جدد يعملون عنده بأَكثريتهم ويَصْغُرونه بحوالي خمس عشرة سنة. وحين كان زملاء من الجهاز البيروقراطي يعتبرون أنفسهم مواضع ثقة، بل وحتى أقراناً، يتصلون به، حاملين معهم أَكثر الأحيان ما كانوا يرونه مقترحات سياسيَّة مهمة، كانت اتصالاتهم تبقى دون رد أَو يرد عليها موظفون صغار من جهازه. ربما شعر هؤلاء بشيء من الانزعاج في المرة الأولى ظانين بأن السبب الكامن وراء عدم الرد كان متمثلاً بالغَرَق الآني في العمل في لحظة الاتصال؛ أَمَّا بعد أَن تكرر ذلك مرة بعد أُخرى فقد تبين أَنَّه كان رسالة ذات مغزى.

كان ليك دائم التحلي بالصفات الهامْلَتية، بنوع من الازدواجية والتناقض إِزاء كل من السلطة والأخلاق وتقاطعهما. لقد كان ليك أَكثر تشخيصاً للتناقضات والشكوك حول السلطة في الحزب الديمقراطي كما سبق له أَن طوّر في حقبة ما بعد ڤيتنام الإِحساس المصقول بالحركية والاهتمام بنضالات العالم

الثالث ومشكلات اللاجئين علىٰ حساب هموم استراتيجية أكبر، من الرئيس نفسه، وأكثر بكثير من بعض مَنْ هُم علىٰ مستواه في فريق السياسة الخارجيَّة بإدارة كلنتون. غير أن هذه المواقف لم تجد، آخر المطاف، صدى ذا شأن لا عند الناخب الأمريكي ولا في الكونگرس خلال عقد التسعينيّات. في عدد غير قليل من المناسبات بدا ليك مستعداً تماماً لممارسة السلطة لصالح القضية الصحيحة، غير أنّه بقي، مع ذلك، ميّالاً إلىٰ انتقاد السلطة. فكما لاحظ الكاتب ياسون دو پارل بدهاء ذات مرة، كان جُزْءاه مثل «توأمين منفصلين عند الولادة».

ما جعل الأمور أكثر صعوبة أن علاقة العمل بين ليك وكلنتون بقيت قاسية إلىٰ حد كبير. لم يكن لليك أي تاريخ سابق مع الرئيس وبقي كل من الرجلين متحفظاً قليلاً بصورة لاشعورية. فكلنتون، حسب رأي بعض المراقبين، ما لبث أن بدأ يرى ليك مقدِّم تقارير موجزة موهوباً، ولكن ليس كشخص يستطيع أن يأخذ حريته في الكلام معه أو يتشاطر معه مشاعره السياسيَّة الحقيقية بسهولة. وكذلك فإن ليك المعروف بتحفظه لم يبد قادراً علىٰ الاهتداء إلىٰ الطريقة المناسبة لتجاوز العلاقة المصطنعة التي كان الرجلان قد قاما بتركيبها. كان ليك يريد تقليص تأثير السياسة الداخليَّة علىٰ عمليَّة صنع القرار في السياسة الخارجيَّة إلىٰ الحدود الدنيا؛ غير أن اعتبارات الشؤون الداخليَّة وإداراتها نادراً ما غابت عن ذهن كلنتون وأفكاره. بقي ارتياح الرئيس الأكبر مع ساندي بيرگر، نائب ليك، ظاهراً للجميع. ونظراً لأن بيرگر كان عائداً إلىٰ ما هو أبعد في الماضي مع الرئيس، فقد قامت بين الرجلين علاقة شخصية وأُخرى مهنية، فضلاً عن أن كلنتون كان يعلم أن بيرگر بقي دائم التفهم لمدى أهميَّة السياسة الداخليَّة في سائر الموضوعات المطروحة للمناقشة دون استثناء.

كان ليك وكلنتون، في الحقيقة، شخصيتين متناقضتين، كل منهما ينتمي إلىٰ عالم غريب عن الآخر. فعلىٰ النقيض من حال الرئيس، كان ليك منطوياً

متحفظاً، بطيئاً في اختيار الأصدقاء الجدد، مقاوِماً لأي نوع من الحميمية أَو الرفاقية السهلة، وعَزُوفاً عن اختراق الخطوط المهنية بنظيرتها الاجتماعيَّة. أَمَّا كلنتون، المعروف بإِتقانه لفن الإِغواء، فقد كان توّاقاً لمعرفة الناس بسرعة أكبر وتحويلهم إِلىٰ معجبين به، دائم الاستعداد لكَسْب قادمين جدد بما يدعِّم حياته العمليَّة. كانت علاقاتهما قد بدأت بأَكثر الروابط الإِنسانية تجريبية وعَرَضية، ونجح الطرفان، عن قصد أَو دونه، في إِبقاء الحالة علىٰ حالتها العَرَضية. الآخرون جميعاً تقريباً ممن هم علىٰ المستوى نفسه ربما كانوا سيحاولون الاقتراب من الرئيس أَكثر علىٰ الصعيد الشخصي، غير أَن ليك بقي حريصاً علىٰ أَن ينأى بنفسه، لم يرغب حتى في التظاهر بأنّه خدين أَو سمير للرئيس؛ لم يحرص قط علىٰ رفع الكلفة مع الرئيس علىٰ متن **طائرة سلاح الجو رقم واحد**. كان واثقاً من أَن من شأن المبالغة في الاقتراب أَن يفضي إِلىٰ تغيير طبيعة عمله. كان سيغدو أَكثر تجاوباً مع الحاجات الشخصية لصديق منه مع المهمة الحسَّاسة المتمثِّلة بتجسيد سلسلة طويلة من الخيارات المعقَّدة في عالم صعب أمام الزعيم الأقوى لهذا العالم. كان ليك سيصبح مهتماً بمشكلة أُخرى، بقضية سبق لوارن كرستوفر أَن حذره منها خلال الفترة الانتقالية. كان كرستوفر قد قال مبتسماً: «ليس الرئيس شخصاً صباحياً ويتعين عليك إِعطاءه تقريراً موجزاً كل صباح. أتمنى لك حظاً سعيداً!» كثيراً ما كان كلنتون فارغ الصبر لدى تعرّضه للضغط فيما يخص البوسنة وغيرها من قضايا السياسة الخارجيَّة ذات الآفاق المسدودة. وقد تعين علىٰ ليك في الغالب أَن يقدِّم تقريره الموجز إِلىٰ الرئيس حول تلك المسائل في وقت مبكر من النهار حين لا يكون قد خرج بعد من مزاجه العصبي.

بدا ليك منسحباً من جميع المظاهر العامة التي كانت مهمة رئاسة مجلس الأَمن القومي قد باتت تجسدها. فكيسنگر كان قد نجح في تحويل ما كان منصباً خفياً ذا علاقة بالأَمن القومي إِلىٰ وظيفة علنية إِلىٰ حد كبير مبادراً، أولاً،

إلىٰ إقامة حفلات عشاء جورجتاون والعمل مع وسائل الإعلام المطبوعة المجمعة هناك، متيحاً لنجمه فرصة السطوع في ظروف شبه خاصة، وظاهراً، بعد ذلك، علىٰ شاشات شبكات التلفزة خلال برامج أيام الأحد. غير أن ليك ظل دائباً علىٰ احتقار أشكال الظهور العام. غير أن برامج أيام الأحد وغيرها من المنابر المماثلة كانت قد أصبحت بصورة متزايدة باطراد جزءاً مهماً من وظيفة مستشار الأمن القومي، إلاّ أن ليك بقي عازفاً عن مثل هذه المنابر عزوفاً كاملاً. كان ليك يؤمن بأن الآخرين يجب أن يدافعوا عن السياسة المعتَمَدة. كما بقي متمسكاً بالنظرة القديمة القائلة بضرورة بقاء قرارات السياسة الخارجيَّة الكبرى مكتومة، وبأن من شأن الإكثار من الظهور علىٰ شاشات التلفزة أن يشكِّل دليلاً علىٰ كون فارس الشاشة خارج السرب. ونتيجة لذلك كله تم وصف ليك بعبارة «أحد عناصر الجهاز» في سطر الكلمات الوارد تحت صورة لموظفي مجلس الأَمن القومي نَشَرَتْها جريدة **النيويورك تايمز** علىٰ صفحتها الأولى في وقت مبكر من إدارة كلنتون.

بقي ليك متحسساً إزاء تحفظات كولن پاول بشأن استخدام الطيران في البوسنة. علىٰ العموم ربما كان متفقاً مع مادلين أولبرايت حول الحاجة إلىٰ اعتماد سياسة أكثر تشدّداً، غير أنّها حين تَحَدَّثْ پاول حول الخطة التي يضعها فعلاً لجيشه الرائع ـ (كتب پاول لاحقاً «ظننت أنني سأصاب بانفجار في الدماغ»)، ـ أثارت حفيظة ليك بشكل واضح وباتت عواطف الأخير مؤيدة لمواقف پاول أكثر من وقوفها في صف مندوبة الولايات المتحدة في الأمم المتّحدة. كان پاول قد فاتح ليك عن خط الطيران قائلاً: «إنك تضع يافعاً في مقتبل العمر في قاذفة ـ مقاتلة تصل سرعتها إلىٰ خمسة آلاف ميل في الساعة وتطلب منه أن يستأصل ما يبدو له أشبه بأنبوب صغير». وفي إحدى المراحل، أوائل سنة 1994م، كان رئيس أركان سلاح الجو قد اقترح علىٰ ليك أن يقوم بجولة في إحدى طائرات الأف ـ 15، وكان الأخير قد نفّذ الاقتراح. بعد دورة

تدريبية قصيرة، قام الطيارون بوضعه في القُمْرة، شرح له الطيار المرافق أسلوب التعامل مع الرافعة التي يتعين عليه أَن يشدّها إِذا أراد أَن يقذف نفسه. قال له الفنّي: «لا تقلق يا سيدي! مهما فعلت فإِن مصيرك هو المستشفى».

كانت الفترة الزاحفة من سنة 1994م إِلىٰ سنة 1995م مرهقة بالنسبة إِلىٰ ليك. كانت حياته الزوجية مع أَنتونيا پليهن مهددة منذ زمن طويل. كانا قد تزوجا بعيد الجامعة، زوجين مثاليين، زوجين بدت السماء منعمة عليهما، زوجين متمتعين بمباركة الأَهل التوّاقة بالتأكيد إِلىٰ الجمع بين شاب وفتاة في بداية العمر علىٰ هذه الدرجة من الموهبة، الجاذبية، المثالية، والبهاء. كانت تونيا ليك، المحبوبة واللطيفة أَكثر شكاً وارتياباً حول ڤيتنام حتى من زوجها. كانت قد اعتصمت وتظاهرت احتجاجاً علىٰ سياسات نكسون فيما كان زوجها لا يزال يعمل في البيت الأَبيض. كانا قد تباعدا تحت ضغط الأَحاسيس المتباينة والطموحات المتغايرة، ولا سيما الغرق الدائم في العمل الذي يتطلبه نمط عمله. بعد قبول ليك بتولي منصب سكرتير مجلس الأَمن القومي في إِدارة كلنتون، بقيت الزوج في ماساتشوستس حين انتقل هو إِلىٰ واشنطن. وبعد ذلك حاول الطرفان أَن يعطيا حياتهما الزوجية فرصة أخيرة فانتقلت إِلىٰ واشنطن. غير أَن المحاولة الأخيرة التي هدفت إِلىٰ إِعادة الأمور إِلىٰ نصابها لم تكن موفقة. مُحْبَطاً بالأحداث المتلاحقة في البوسنة بات ليك أَكثر غَرَقاً في بحر العمل من أَي وقت مضى.

كثيرون من أصدقائه القدامى مثل معلق السياسة الخارجيَّة في **النيويورك تايمز**، لَسْ گلب، كانوا يطالبون، وبإِلحاح، بسياسة أَكثر فعالية في البوسنة، وكان ليك متفقاً معهم علىٰ الصعيد النظري، غير أنّه كان يشعر بأن دوره بات قيداً عليه. كانت صداقته مع گلب قديمة وعزيزة، وكان بعض الناس يشعرون أَن گلب دأب علىٰ استخدام زاويته **في التايمز** لدفع ليك إِلىٰ منصب سكرتير مجلس الأَمن القومي. كان الرجلان قد تعاونا قبل عقد من الزمن علىٰ تأليف

كتاب يحذّر من مستشار للأَمن القومي ما لبث أَن بات مبالغاً في التدخّل إِلىٰ حد طرح وجهة نظره السياسيَّة الخاصة وتغليبها كما سبق لكل من كيسنگر وبريجنسكي أَن فعلا. أَمَّا الآن فإِن صداقتهما كانت قد تدهورت كثيراً، وكلمات بالغة القسوة تم تبادلها عبر الهاتف. ذات مرة في 1994م، كان گلب قد دُعي إِلىٰ حفل عشاء، وقام كلنتون العارف بالصداقة الحميمة بين ليك وگلب، والمطلع علىٰ حقيقة أَن مستشاره للأَمن القومي كان يمر بظرف بالغ الصعوبة، باقتراح قيام الأخير بإِحاطة ليك بقَدْر من العناية الشخصية لأَن الرجل كان بحاجة ماسة إِلىٰ مثل هذه الصداقة. غير أَن گلب رد مقتبساً إِحدى عبارات الفيلسوف الروماني سنيكا قائلاً: «أي صديق في السلطة هو صديق ضائع».

كانت المشكلة سياسيَّة في النهاية. فليك لم يكن، أساساً ومن حيث الجوهر، أممياً فقط، بل وإِنسانياً أَيضاً. أَمَّا الرئيس الذي كان يضطلع بمهمة خدمته فقد ظل، بصرف النظر عن لغته الخطابية في أثناء الحملة، أَكثر تحفظاً بما لا يقاس. فحين نشأت الأزمة الصومالية، كان كلنتون قد أبلغ ستيفانوپولوس أَن الشعب الأَمريكي هو شعب انعزالي من حيث الجوهر ولن يلبث أَن يتراجع لحظة رؤيته لأكياس الجثث الأولى ـ ما لم تكن مصالح الولايات المتحدة الحيوية معرضة للخطر. إِنَّه شعب، أضاف كلنتون، يفضل، دون أَي تردد، أَن يقف في صف هنري كيسنگر[3].

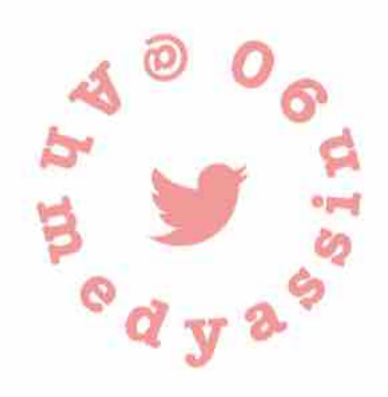
بات العاملون مع ليك يعتقدون أن العمل صار يشكِّل عبئاً ثقيلاً جداً علىٰ الرجل وراحوا يقلقون علىٰ صحته. فحين سقط منهاراً كان يقدم شهادة أمام الكونگرس في سنته الأولى من تولي منصب مستشار الأَمن القومي. سارع المعاونون إِلىٰ نقله إِلىٰ مستشفى القوّات البحرية بيثَسْدا حيث صُعق الأطباء لكونه يعاني من الإِعياء والجفاف «النَشفان». أضف إِلىٰ ذلك أَن جماعات

(3) پاول، 576.

إرهابية ذات شأن في المنافي كانت قد هدَّدت باغتياله وأُخذت تهديداتها مأخذ الجد فجرى نقل مكتبه إلىٰ بلير هاوس حفاظاً علىٰ حياته. وكلما زادت الإدارة تعثراً أَصبح ليك أكثر نزوعاً إلىٰ اتخاذ المواقف الدفاعية. كانت أشكال تعامله مع وسائل الإعلام كارثية إلىٰ حد بعيد. لم يكن يدلي إلاَّ بالقليل من المعلومات، وحين كان يفعل كانت المعلومات الصادرة عنه تعتبر معلومات ذات قيمة هامشية. كان كثير الشكوى ـ ومتعالياً ـ في تعامله مع الصحفيين الذين يرفضون التسليم بأية صورة وَرْدية لسياسة كلنتون الخارجيَّة. وحفلات العشاء التي كان يحضرها مع أصدقاء إعلاميين، تلك الحفلات التي كانت تُنظم تحديداً للتخفيف من التوترات وتجديد صداقات قديمة، تدهورت في الغالب لتنحدر إلىٰ مناقشات صدامية. كان قد أَصبح، وهو المعروف بأنه كان ذات يوم علىٰ علاقات ودية جداً مع عدد كبير من المراسلين كشاب في ڤيتنام، مندهشاً بالتغييرات الحاصلة في وسائل الإعلام، وبمجيء جيل جديد من المراسلين التلڤزيونيين الجاهزين لإطلاق آرائهم. فمما قاله ليك ذات مرة: «حين كنت شاباً في سايگون كان علىٰ من يريد أَن يعرف ما يدور في أذهان المراسلين أَن يخرج معهم إلىٰ أحد البارات لاحتساء كأس من الخمر معهم. أَمَّا الآن فيكفي أَن تشغل التلڤزيون وتستمع إلىٰ ما يقولونه». كان ليك، باعتقاد عدد من الأصدقاء القدامى، يكشف بوضوح تام عن الألم والإحباط الناجمين عن الاضطلاع بمهمة مستشار السياسة الخارجيَّة في إدارة مأزومة وواقعة في مأزق بالنسبة إلىٰ قضية مركزية مثل البوسنة رغم أَن الفظاعات الشنيعة كانت لا تزال تُقترف بصورة يومية.

---

(4) ستيفانوپولوس، 214.


@Ahmedyassin90

الفصل السادس والعشرون

أواخر ربيع 1995م، بدأت القوى المتعاملة مع الأزمة في البوسنة تتغير. بدأت العمليَّة في فرنسا حيث تم استبدال فرانسوا ميتران الذي كان حليفاً عملياً للصرب بجاك شيراك في السابع عشر من أيار/ مايو رئيساً للجمهوريَّة. مصاباً بالرعب جراء الإهانة التي لحقت بالقوّات الفرنسية العاملة تحت راية اليو إنپروفور Unprofor، بات شيراك مستعداً لاعتماد خط أَكثر تشدّداً ضد بلگراد. ومما ينطوي على أهميَّة مماثلة، رغم أَن أَحداً لن يدركه لبضعة أشهر، أَن القوَّات الكرواتية على ما كانت جبهة صربية غربيَّة، مسلّحة بشيء من التأخير من قبل العالم الخارجي، كانت تتلقى التدريب على أيدي ضباط سابقين من الجيش الأَمريكي منذ أَكثر من نصف سنة وأَصبحت للمرة الأولى قادرة على مجاراة الصرب في القوَّة النارية.

بنظر بلگراد شكَّل ذلك دليلاً على أن الأمور كانت متجهة نحو الصدام، وبالتالي فإِن صرب البوسنة بدؤوا يدعمون مكاسبهم ويتوجون انتصاراتهم بإِغارات على ثلاث بلدات بوسنية باقية خارج سيطرتهم: المناطق الآمنة المزعومة التي أوجدتها الأمم المتّحدة في كل من سربرينيتسا، زيپا، وگورازده. ما لبثت تلك الحركة أَن أطلقت سلسلة من القرارات التي ظل الغرب يحجم عن اتخاذها. كانت البلدات الثلاث جزراً إِسلامية صغيرة فيما كان قد أَصبح محيطاً صربياً متزايد الاتساع باطراد. أَمَّا الشرف الملتبس لاحتلال المرتبة الأَكثر شهرة

بين الثلاث فكان من نصيب سربرينيتسا. غدت هذه البلدة رمزاً لجميع الشرور والشناعات التي تجسّدت علىٰ امتداد السنوات الثلاث الأخيرة علىٰ أرض يوگوسلاڤيا لتدخل كتب التاريخ علىٰ قائمة المدن والبلدات المأساوية مثل ليديتشه، كاتين، ونانكينگ في الحرب العالميَّة الثانية، التي كانت مواقع عمليات إبادة تنفيذاً لأوامر صادرة عن دول.

كانت سربرينيتسا قد خضعت لحصار مطول بالغ القسوة دام حوالي ثلاث سنوات ولكنها بقيت صامدة دون أن تسقط. بقيت وحيدة تقريباً كبقعة أرادها الصرب ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء عليها. يتعذر اعتبارها بلدة مهمة؛ حتى أكثرية الخرائط المكبرة لأوروپا لا تبينها. قبل شروع البلاد بالتمزق كانت ذات أكثرية إسلامية ساحقة. فالكتلة السكانية الأكبر لسربرينيتسا كانت مؤلفة، حسب الإحصاء اليوگوسلاڤي لسنة 1990م، من حوالي سبعة وثلاثين ألفاً، ثلاثة أرباعهم من المسلمين والرُّبع من الصرب. أمَّا البلدة ذاتها، ذات الآلاف الستة من السكان، فكانت هاجعة في أحد الوديان السحيقة. وأية قوة ذات تسليح معقول كانت قادرة بسهولة أن تدافع عنها ضد أية قوة غازية؛ وأية قوة مزودة بأسلحة ثقيلة كانت قادرة علىٰ طحنها. وبالمعايير اليوگوسلاڤية كانت المنطقة مزدهرة بعض الشيء متمتعة بنعمة بعض المناجم، السياحة، والصناعات الصغيرة. والاسم سربرينيتسا مأخوذ من كلمة **سربرن** التي تعني **فضة** تكريماً لمناجم الفضة القريبة.

حين قام الصرب بهجومهم الأخير في تموز/يوليو 1995م، كان حجم البلدة قد تضاعف حوالي أربع مرات، لتصبح مأهولة بما يقرب من ثلاثة وعشرين ألفاً من المسلمين، كثيرون منهم جاؤوا ناجين يائسين من قرى أُخرى أصغر كان الصرب قد أنجزوا مهمة تطهيرها عرقياً. أَمَّا مهمة حماية الناس في هذا الجيب الآمن المزعوم التي لا يُحسد عليها أَحد فكانت من نصيب فوج هولندي مؤلَّف من 429 جندياً، كثيرون منهم عناصر طبابة ودعم. ونظراً لأَن هؤلاء لم يكونوا

مزوَّدين إلاَّ ببعض العربات المدرعة والأَسلحة الخفيفة المضادة للدروع، مع عدد قليل من مدافع الهاون، فإِن القوَّات الصربية المطوِّقة لهم من جميع الجهات كانت متفوقة كثيراً عدداً وعدة. لم يكونوا يملكون إِلاَّ كميات قليلة من الذخائر والوقود. وكأن ذلك كله لم يكن كافياً، فقد ظلوا، كقوة تابعة للأمم المتّحدة، غير متأكدين من طبيعة المهمة الملقاة علىٰ عاتقهم والصلاحيات التي يتمتعون بها. هل كانوا يستطيعون أَن يردوا علىٰ النار بالمثل دفاعاً عن اللاجئين الذين يفترض فيهم أَن يحموهم؟ أم أَن من شأن ذلك أَن يُفسَّر علىٰ أَنَّه انحياز؟

كان صرب البوسنة قد أقدموا في حوادث قريبة علىٰ أَسْر وحدات تابعة واستخدامها كرهائن. وتحت تأثير صدمة ما حصل مع الشعور بالضغوط المتصاعدة في واشنطن وبعض العواصم الأوروپية والمطالبة باتخاذ تدابير مضادة لم تكن قيادة الأمم المتّحدة راغبة في أَن يبادر الحلفاء الغربيون إِلىٰ الإِتيان بأية حركة، خصوصاً إِلىٰ استخدام طيران الناتو، مما قد يتمخض عن أَسْر المزيد من الرهائن. وبالتالي فإِن المسرح بات جاهزاً. ثمة كانت قوة صربية غازية، قوة أنجزت مهمة احتلال الجزء الأكبر من البوسنة وباتت تشعر بأن عقارب الساعة قد تدور بالاتجاه المعاكس، قيادة أمم متحدة عصابية وغير واثقة في الميدان، وبلدة صغيرة مزدحمة باللاجئين، محمية بوحدة قتالية صغيرة عاجزة عن الدفاع عن اللاجئين لأنها عاجزة عن الدفاع عن نفسها. يا لها من وَصْفة نموذجية لحصول كارثة محقّقة!

بدأت المعركة التي أفضت إِلىٰ ما سيعتبره كثيرون أسوأ الحروب الإِجرامية في أوروپا منذ الحرب العالميَّة الثانية في السادس من تموز/ يوليو، 1995م بهجوم صربي بمدافع الهاون علىٰ أَحد المواقع المتقدمة إِلىٰ الجنوب من سربرينيتسا، وقد كان موقعاً تمركز فيه الهولنديون، بدا المدافعون الهولنديون في حالة باعثة علىٰ اليأس شبه الكامل منذ البداية. فقد كانوا مفتقرين ليس فقط إِلىٰ الأَسلحة اللازمة للدفاع عن النفس، بل وإِلىٰ التفويض بذلك. بقيت الأوامر

الصادرة إليهم غامضة علىٰ الدوام. في التاسع من تموز/يوليو نجح الصرب في الحصول علىٰ أهم وأثمن المكاسب: بات ثلاثون جندياً هولندياً كانوا محاصرين واستسلموا في مواجهة مدفع إحدى الدبابات في موقعهم الصغير رهائن بأيديهم. ودون أَن يتنبه أَحد إِلىٰ ما كان يحصل علىٰ الأرض، ما لبث ذلك أَن قام بتحديد مصير جميع الآخرين في سربرينيتسا.

خلال الأَيام القليلة اللاحقة، واصل الصرب عمليّات التوغل والهجوم، عمليّات التوقف وانتظار رد طيران الناتو، فمعاودة التوغل والهجوم مرة أُخرى. ورغم الهشاشة المفرطة للوحدات الهولندية، فإِن ضربات الناتو الجويَّة المطلوبة، وهي ضربات لم تكن بالتأكيد قادرة من حيث القوَّة علىٰ إِقناع الصرب بضرورة التوقف عن اعتداءاتهم أخفقت في أَن تتحقّق. ثمة جولة صغيرة من جولات استخدام سلاح الجو ما لبثت أَن تمخضت عن نتيجة عكسية. أوشك الناتو علىٰ إِجازة ضربة جويَّة، غير أَن الفوضى في القيادة ذات التسلسل المراتبي المزدوج ـ حيث تعين علىٰ الضربات أَن تنال موافقة الناتو من جهة والأمم المتّحدة من جهة ثانية ـ ما لبثت أَن شلَّتْ وحيَّدتْ آلية صنع القرار الغربيَّة. فخوف رسميي الأمم المتّحدة من وقوع حرب أوسع وضعف مقر القيادة كانا سيخلفان لجزء كبير من العالم نموذجاً يتعذر نسيانه لإِحدى آيات العجز والجبانة.

لم يكن ما تلا ذلك إِلاَّ هجوماً صربياً محسوباً ومنظماً بعناية ورداً هولندياً ـ دولياً يكاد أَن يكون قائماً علىٰ أساس من اللايقين والفوضى. فالكولونيل تون كارمانس الذي ساقه حظه العاثر إِلىٰ تولي قيادة القوَّات الهولندية لم يدرك إِلاَّ بعد فوات الأوان أَن ما بدا في البداية مجرد سلسلة أُخرى من عمليَّات التلمس كان اجتياحاً صربياً نهائياً، في الحقيقة. لم يكن قادراً قط علىٰ تلقي التوجيهات الواضحة من رؤسائه حول ما ينبغي عمله: هل يجب البحث عن سبيل للتفاهم مع القوَّة الصربية الأكبر أم ينبغي الإِصرار علىٰ بذل محاولة جريئة أخيراً مع عقد

الآمال علىٰ احتمال قيام طيران الناتو بإنقاذ قوته والمسلمين الذين هم برعايته. خلال الأيام الثلاثة للمعركة، دأب الصرب، بصورة منهجية، علىٰ مهاجمة الجيب الإسلامي الصغير، في حين ظل الجنرال رادكو ملاديتش، قائد الصرب، يقدم الوعود إلىٰ قائد قوات الأمم المتّحدة، اللفتنانت جنرال بيرنار جانفييه، بأنه لم يكن يسعى لاحتلال سربرينيتسا.

كانت تلك مصيدة وقع فيها البوسنيون الخائفون في حين لم يتأثّر بها الصرب الذين كانت الصحافة الغربيّة تتلطف وتطلق عليهم اسم صرب البوسنة. لقد كان هؤلاء وحدات التشتنيك، تلك القوّة الملكية الصربية المرعبة التي سبق لها أن ذَبَحت كل من وقف في طريقها من انتماءات عرقية مختلفة ـ ثمة كانت أحقاد قاسية موروثة من الماضي متضافرة مع أَسلحة الحاضر المخيفة. كان ملاديتش، الذي سيُعتبر في المستقبل القريب أحد مجرمي الحرب، القائد الصربي النموذجي. فأولئك الذين عرفوه حين كان ضابطاً شاباً طموحاً وواعداً، وشيوعياً مخلصاً طموحاً لم يلمسوا أية نزعات قوميَّة غير عادية في تركيبته. وكما هي حال كثيرين من الناس وأشياء كثيرة في يوغوسلاڤيا، فإن جانباً مظلماً من تاريخه الشخصي كان كامناً تحت السطح مباشرة. غير أن ذلك الجانب الأشد حِلْكة ما لبث، خلال الحملات الصربية علىٰ الكروات والبوسنيين، أن طفا علىٰ السطح، لأنَّه كان مطبوعاً ببصمات تاريخ بلاده القاسي والمشحون باقتتال الإخوة. ففي سنة 1945م قام الفاشيون الكروات، أَو الأوستاش، كما كانوا يُعْرَفون، الذين كانوا يقاتلون في صف الألمان، باغتيال والد ملاديتش، الذي كان يقاتل مع وحدات الأنصار بقيادة تيتو. والآن جاء وقت الحساب. قبل بضع سنوات خلال حصار سيراييڤو، حين كانت القوّات الصربية تستمتع بإلقاء قذائف المورتار علىٰ المدينة التي طالما شكّلت رمز التعددية والتسامح اليوگوسلاڤيين، كان اللفتنانت جنرال لارس اريك وهلگرن، قائد قوات الأمم المتّحدة، قد سأل ملاديتش، المسؤول عن القصف، عن سبب مواصلته

للانقضاض على المدينة بهذه الطريقة الوحشية القاسية. فرد ملاديتش بسؤال: «هل تتذكر أباك يا جنرال؟» كان رد الجنرال إيجابياً. علّق ملاديتش بمرارة: «أليس ذلك جميلاً؟!» ثم أفاد بأن أباه هو كان قد قُتل حين لم يكن يتجاوز السنتين من العمر. وأضاف إن ابنه سيكون أحد أبناء الجيل الأول ممن يعرفون آباءهم». فالأولاد لا يعرفون آباءهم لأن الشعب الصربي تعرّض لعدد كبير جداً من الغزوات والهجمات»[1].

كانت قوات ملاديتش قد كسبت عدداً من الانتصارات في الحرب، في كرايينا ضد الكروات أولاً وضد البوسنيين بعد ذلك، مع حد أدنى من المقاومة عادة من جانب الشرطة المحلية وضد أناس لا يملكون أي سلاح في الغالب. تمت العمليّات بقدر استثنائي من الوحشية مع الحصول على مباركة ملاديتش وتشجيعه. ومع كسبه لهذه المعارك السهلة أصبح ملاديتش أكثر اعتداداً بنفسه. بات مولعاً بإلقاء المحاضرات على الصحفيين عن ضَعْف الغرب وجُبْنه. تحدث متباهياً عن مهاجمة مدن في أوروبا - إذا بقي الغرب غير آبه. قد يهاجم تريست، وربما ڤيينا. رآه الجنرال الفرنسي الذي تصادم معه عدداً من المرات، فيليپ موريون، بطلاً قومياً ممثلاً لصربيا الكبرى يظن نفسه نابليوناً. حين قال له موريون ذلك كان ملاديتش سعيداً بالفكرة. غير أن موريون ذكّر محاوره بأن نابليوناً كان قد أنهى أيامه وحيداً في المنفى. ومع ذلك فإن ملاديتش السعيد بالمقارنة بقي مسروراً[2].

بأكثر الأساليب المتصورة خطورة بدأ ملاديتش يؤمن بخرافة عبقريته القيادية وبخرافة استحالة قَهر قواته. كان ميلوسوڤيتش شخصياً هو الذي أنعم عليه بقيادة القوّات الصربية في البوسنة؛ غير أنّه ما لبث، مع قيام قواته بتحقيق انتصاراتها المبكرة، أن أصبح أكثر اعتداداً بالنفس وأصعب على التحكم.

---

(1) روجر كوهن، 233.

(2) المصدر السابق، 234.

وتحت تأثير الملل من تباهي ملاديتش الذاتي أقدم ميلوسوفيتش أخيراً علىٰ إبلاغ ديك هولبروك بأن جنراله كان «مريضاً عقلياً»[(3)]، وهو تقويم سرعان ما تبناه هولبروك، لم يقف ملاديتش عند اعتبار العالم الغربي أحمق وشديد العزوف عن التورّط بما جعله مستعداً لقبول كل شيء دون نقاش، بل وتجاوز ذلك إلىٰ ما هو أسوأ إذ بات يؤمن بصحة تصريحاته الأكثر إثارة للسخط. كان يملك جواباً وحَلاً لكل شيء. فعن الصور المرعبة لبلدة أومارسكا التي سبق لروي گوتمان أن كتب عنها بقَدْر كبير من الحماس قال: «معسكرات اعتقال؟ تلك الصور زوَّرتها و«فَبْرَكَتْها» إدارة بوش لتسويغ استخدام الأَسلحة الأَمريكيَّة عبر العالم»[(4)]. وبالنسبة إليه فإن مسلمي البوسنة ليسوا أبناء دولة كانت مشتركة، بل هم أسوأ أنواع وألوان الغرباء. إنهم أتراك، أعداء ألداء لدولته وأمته. وبالتالي فإن رسالته مقدَّسة مئة بالمئة؛ إنها الرسالة المتمثِّلة باحتلال الأَرض لصالح شعبه. وقد قال مرة باحتقار: «تسألون عن المسلمين؟ إذا أتحت لهم الفرص فإن كلاً منهم سيأتي بخمس زوجات وقبل أن تتمكنوا من الوقوف علىٰ حقيقة ما يحدث ستجدون قرية كاملة برزت إلىٰ الوجود»[(5)].

خيضت معركة سربرينيتسا بطريقة مألوفة ولكنها مأساوية جداً. واصل الصرب استيلاءهم علىٰ المواقع الهولندية التي استخدموها مرابضَ مدفعية لإلقاء وابل من قذائف النار. بقي المدافعون قلقين ومضطربين. كان الهولنديون لا يزالون يجهلون ما إذا كانوا مخوَّلين بالدفاع عن المسلمين. ظلوا مؤمنين بعدم قدرتهم علىٰ القتال في صف الفلول المتبقية من القوَّات البوسنية المسلمة خوفاً من فقدان وضعهم كقوات حفظ سلام مستقلة. بُذلت محاولةٌ دقيقةٍ أخيرة واحدة لاستخدام سلاح طيران الناتو، غير أنها أخفقت. ومع اقتراب لحظة

---

(3) دودر وبرانسون، 209.

(4) ڤوليامي، 107.

(5) المصدر السابق، 47.

الشروع بتنفيذ الضربات الجويَّة أخيراً، كان لدى الصرب عدد من الرهائن الهولنديين يكفي لإِجبار الناتو علىٰ التخلي عن الخطة.

بدأ الهولنديون ينقلون ما تمكّنوا من نقلهم من المسلمين إلىٰ قرية پوتوكاري الصغيرة المجاورة، حيث أقاموا مقر قيادتهم الخاصة. وتلك البقعة الصغيرة المصمّمة لإِيواء بضع مئات من الناس، ما لبثت أن غرقت بفيض بلغ حجمه ثلاثة وعشرين ألفاً من اللاجئين المرعوبين المتزاحمين القادمين من سربرينيتسا. كان المشهد مخيفاً حتى قبل الحل. وكما تذكره ملازم أول من الوحدة الهولندية «كانت فوضى مطلقة. نساء هائمات علىٰ وجوههن باكيات يبحثن عن أولادهن، أُسَرهن، أَو أصدقائهن. أطفال ينادون أمهاتهم... [كان ثمة] نساء، رجال، وأطفال مصابون بجروح رصاص أَو قذائف أُخرى... يبحثون عن طبيب... أناس أصيبوا بالإِغماء. اثنتان من الحوامل بدأتا المخاض جراء الخوف والتوتر. العناصر الطبية كانت تعمل ساعات إِضافية مستفيدة من المواد القليلة الموجودة بحوزتها»[6]. مع حلول الحادي عشر من تموز/ يوليو صارت سربرينيتسا مفتوحة أمام الصرب.

أخيراً ساهمت جرائم سربرينيتسا في دفع الغرب إلىٰ الحافة. سارعت وسائل الإِعلام إلىٰ إِبراز هذه الجرائم بوصفها الدليل الساطع علىٰ استعداد الصرب الوقح لانتهاك جميع الاتفاقيات والاعتداء الوحشي علىٰ أشقائهم في الوطن. ما لبثت سربرينيتسا أَن غدت رمزاً صارخاً للامبالاة الغرب. باتت مضاعفات الأزمة في البوسنة سريعة التصاعد والتفاقم في واشنطن. بدت سياسة الوضع هلامية ولكنها قابلة في الوقت نفسه لأَن تكون واقعية جداً. لم تكن البوسنة قضية بذاتها لذاتها. لم يكن عدد كبير من الأَمريكيين مرشحين لأَن يُدْلوا بأصواتهم في انتخابات 1996م الرئاسية لهذا المرشح أَو ذاك تحت تأثير

(6) هونيگ وبوث، 28.

الأحداث الجارية في سيرايفو أو سربرينيتسا. فأَهميَّة البوسنة كانت، في الحقيقة، أكبر من ذلك، لأنها بدت موحية بشيء أوسع وأكثر تدميراً بما لا يقاس، كاشفة عن نوع من العجز لدى إدارة كلنتون ليس في هذه القضية فقط، بل وفي جميع القضايا. لقد أدت الأحداث الجارية في البوسنة إلىٰ مضاعفة عمق الشكوك الحائمة حول قدرة هذه الإدارة علىٰ التحلي بالرشاقة والصراحة والفطنة ـ ربما مفرطة في الفطنة ـ غير أنها متهمة بالإيمان بأن الأقوال توازي الأفعال. فالبلقان قد تصبح قمة جبل جليد الاستياء المتعاظم من إدارة لم تهتد بعد إلىٰ طريقها ـ بعد انقضاء حوالي سنتين ونصف السنة علىٰ توليها للسلطة ـ لحظة بدأت ساعة الحساب لحسم مسألة الفترة الرئاسية المقبلة تدق بصوت مسموع.

كان الرئيس مُحْبَطاً إزاء الوضع في البوسنة وساخطاً علىٰ مساعديه لإخفاقهم في تزويده بخطة. ربما كان منتصف سنة 1995م نقطة القاع في رئاسة كلنتون. لا شيء كان علىٰ ما يرام. فمبادرته الأهم علىٰ صعيد السياسة الداخليَّة تلك المتمثّلة بخطة الرعاية الصحية الواسعة والشاملة كانت تبددت أشلاءً. أمَّا الفوائد التي كانت منتظرة من تخفيض العجز فلم تكن قد بدأت تعطي ثمارها بعد، فضلاً عن أن عدداً كبيراً من الديمقراطيين الليبراليين كانوا يرون الإدارة محافظة جداً. فهيلاري كلنتون، وهي التي اعتُبرت المصمّمة الأولى لخطة الرعاية الصحية، وجرى تمجيدها قبل أشهر قليلة علىٰ أنها السيدة الأولى العصرية النموذجية (اثنان من الإداريين بسعر إداري واحد، كما كان الرئيس يقول في كثير من الأحيان)، ما لبثت أن أُزيحت بخفّة عن مقدمة المسرح، مع جعل واجباتها ـ أو تصور العامة لها علىٰ الأقل ـ أكثر تقليدية في الوقت الراهن.

ما من شيء كشف بوضوح عن الاستياء العميق من رئاسة كلنتون أكثر من الانتخابات التكميلية أو الفرعية المدمرة التي مكّنت الحزب الجمهوري من

الهيمنة علىٰ مجلس النواب والشيوخ وبشَّرَت بصعود يمين محافظ في الكونگرس، بتلك الظاهرة التي عُرفت باسم ثورة گينگريتش، ثورة ذلك الجمهوري الشاب من جورجيا الذي أَصبح رئيساً للمجلس. كان گينگريتش هذا قد أَصبح حامل راية جميع القوى الجديدة المحتشدة في الحزب الجمهوري، الآتية بالدرجة الأولى من الجنوب والخارجة أساساً من رَحْم التغييرات السياسيَّة والاجتماعيَّة التي كانت قد حصلت في السنوات التسع والعشرين منذ إِقرار قانون حقوق التصويت لسنة 1965م.

كان ذلك التشريع قد أَحدث هجرة بيضاء كبرى من الحزب الديمقراطي إِلىٰ الحزب الجمهوري، وأفرز لدى گينگريتش والبطانة التي تحيط به نوعاً جديداً من التطرّف السياسي من الجنوب الريفي والحضري. شكّل هؤلاء قطيعةً كاملة مع الحزب الجمهوري القومي المعروف في الماضي، خصوصاً مع أولئك الجمهوريين الذين كانوا جزءاً من تحالف ضم الحزبين علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة. كان اهتمامهم بباقي العالم، في أفضل الأحوال، هامشياً؛ وكما كان يحلو لكلنتون أَن يقول إِن مئة علىٰ الأقل من أعضاء الكونگرس الجدد المؤيدين لگينگريتش لم يكونوا يحملون جوازات سفر حين جاؤوا إِلىٰ واشنطن لأنهم لم يسافروا قط[7]. لم يقف الأَمر عند تحكم الجمهوريين بالكونگرس، بل تجاوزه إِلىٰ أَن تكون قيادتهم الجديدة أقل وَسَطية، وأَكثر تحزباً بشكل لافت وأشد عداءاً للإِدارة. سرعان ما أَصبح گينگريتش الناطق باسم هذا الفصيل الجديد من المحافظين الأَمريكيين المدعومين إِلىٰ حد كبير من جانب الأصوليين المتدينين أصحاب البرنامج الثقافي الفريد الخاص بهم؛ كان هؤلاء عازمين علىٰ إِلغاء جملة مبادئ وقواعد الصفقة الجديدة الكلاسيكية الراسخة والعريقة المعتمدة علىٰ امتداد نصف القرن الماضي. إِنهم أبناء وبنات الثورة الريگانية الذين بلغوا الآن سن الرشد، مدفوعون بعواطفهم وحدها،

---

(7) جان ونر، «مقابلة **الرولينگ ستون** مع كلنتون»، 4/ 1/ 2001م.

وحريصون، مثل كثيرين من المؤمنين الصادقين قبلهم، علىٰ عادة حصر التخاطب مع المتفقين معهم فقط. إنهم واثقون من أن ما يريدونه هم هو بالتحديد ما يريده البلد كله. إنهم شديدو الارتياب من الحكومة التي هم جزء مهم من أجزائها، شاؤوا أم أبوا، غير أنّهم غير مدركين، علىٰ ما يبدو، أن ملايين الأمريكيين، بصرف النظر عن ميولهم الإيديولوجية، يريدون أيضاً أن تسير أمور البلاد بخير، واقعين في خطأ سرعان ما انقض كلنتون عليه واستخدمه ضدهم بمهارة لا يستهان بها.

غير أن التأثير المباشر لانتخاب 1994م وصعود گينگريتش إلىٰ مواقع السلطة كان مدمِّراً بالنسبة إلىٰ كلنتون. جاء ذلك ليُضاف إلىٰ جملة إخفاقات السنتين والنصف وليضاعف من الشكوك الحائمة حول فريق كلنتون كله عما إذا كان علىٰ مستوى المهمة. فوارن كرستوفر، الذي كان قد أصبح هدف الكثير من منتقدي كلنتون، كان في كوريا في زيارة رسمية حين سمع الأنباء التي تحدَّثت ليس فقط عن خسارة الإدارة لمجلسي البرلمان، بل وعن أن من شأن القيادة الجديدة للبرلمان أن تكون شديدة الاختلاف إيديولوجياً عن أكثرية القيادات التي سبقتها. انتقل كرستوفر من كوريا إلىٰ إندونيسيا حيث التقى بكلنتون الذي جاء لمخاطبة دول منظمة آبيك APEC (دول مجلس التعاون الآسيوي ـ الهادي الاقتصادي). وجد الرئيس، وهو أكثر الناس في الخدمة العامة صموداً، قليل الحماس ومهزوزاً إلىٰ حد كبير.

تساءل كرستوفر عما إذا كان جزء من سبب خسارة الديمقراطيين للأكثرية في المجلسين كليهما في الانتخابات كامناً في الافتقار إلىٰ تحقيق نوع من التقدم علىٰ جبهة السياسة الخارجيّة. كان التوقيت بالغ السوء بالنسبة إلىٰ كرستوفر. لقد كان، باعتقاد أصدقائه، مرهَقاً جسدياً، ومسحوقاً إلىٰ حد بعيد بالتأكيد، وإن لم يكن مكتئباً فعلياً، تحت وطأة السنتين والنصف في المنصب والإخفاق في التعامل مع مشكلة رقم واحد، مشكلة البوسنة، التي كانت تسد الطريق علىٰ سلسلة طويلة من القضايا الأُخرى. بدا كرستوفر، في نظر مساعدين مقرّبين،

مهدوداً مثل محارب بيروقراطي قديم أقعده الإعياء، رجلاً سحقه منصبه وغياب الانتصارات. لم يكن كرستوفر من أولئك الذين يحبون إظهار ضعفهم أمام كائن من كان. فحين كانت الأحوال تسوء كان عادة يلوذ بزيادة وتيرة العمل ويصبح حتى أكثر اتصافاً بالرواقية، كما لو كان يريد اكتساب طبقة إضافية من الحماية العاطفية ضد أولئك الدائبين علىٰ مهاجمته. أمَّا الآن فقد كان، للمرة الأولى، غير واثق من قيامه بتقديم أية خدمة مفيدة للرئيس.

ذات يوم أواخر سنة 1994م، بعيد عودته من جاكرتا مباشرة، ذهب كرستوفر، دون مناقشة الموضوع بجدية مع مساعديه، لمقابلة الرئيس، وأقدم، عملياً، علىٰ تقديم استقالته. (كثيرون داخل الوزارة اعتقدوا أنها كانت المرة الوحيدة التي أقدم فيها كرستوفر علىٰ اتخاذ قرار مهم دون التحاور مع توم دونيلون، أكثر المستشارين السياسيين دهاء، ودونيلون هذا طار غضباً حين سمع النبأ). ربما دقَّتْ ساعة الرحيل، حسب اعتقاد الوزير. صحيح أنَّه يحب واشنطن ولكنه يعشق كاليفورنيا، وقبل توليه للمنصب كان قد أنجز بناء منزل جميل جديد في مكان قريب من المحيط. لم يكن قد عاش فيه قط بصورة فعلية، غير أنّه كان يحتفظ بصورة له، صورة بانورامية مجسّمة، يضعها علىٰ مكتبه كما لو كانت تذكيراً له بأن أياماً أسهل وأقل ضغوطاً تنتظره.

استقالته صعقت كلنتون المحاصَر أساساً. بدأ فريق السياسة الخارجيَّة عنده يتفكك. كان كلنتون قد انقطع عن وزير الدفاع لَسْ آسپن بعد الصومال، وكان مستشار الأمن القومي في إدارته توني ليك، شديد الانطواء علىٰ نفسه، قد أَصبح هدفاً لتيار سُفْلي كامن في العمق من الشكاوى الصادرة عن نظرائه وبات عاكفاً علىٰ التفكير بالاستقالة هو الآخر. أمَّا مدير كلنتون لوكالة الاستخبارات المركزيَّة، جيم وولزي، فلم يكن اختياراً موفقاً، وكان سيرحل أوائل سنة 1995م، إراحة للطرفين، وسينتقل، آخر المطاف، إلىٰ دعم خصم كلنتون في 1996م. الآن في اللحظة الخطأ تماماً جاء وزير خارجيَّة كلنتون ليعلن عن

استعداده للذهاب إلىٰ البيت. من المؤكد أن هذا الوضع المشحون بجميع عناصر الفوضى والتعقيد كان سيُفسَّر من جانب وسائل الإعلام علىٰ أنَّه دليل إخفاق أكبر في الشؤون الخارجيَّة. وكذلك فإن كلنتون كان سيُواجَه بمشكلة العثور علىٰ وزير جديد للخارجيَّة مع مشكلة تمريره (أو تمريرها) عبر مجلس الشيوخ، في مواجهة لم يسبق لها أن كانت نقطة قوة لأية إدارة، ومن شأنها، بكل تأكيد، أن تكون أكثر صعوبة بعد الانتخابات الفرعية.

علىٰ الفور بادر كلنتون إلىٰ الاتصال بڤيرنون جوردان وطلب منه المجيء إلىٰ البيت الأبيض. قام كلنتون بإبلاغ صديقه: «لقد استقال كرستوفر!». رد ڤيرنون بسؤال: «وماذا تريدني أن أفعل؟». أجابه الرئيس: «هيا اتصل بكولن!» كان كلنتون دائم الانبهار بكولن پاول. كان معجباً به وواقفاً علىٰ نقاط قوته الكثيرة، غير أنَّه بقي في الوقت نفسه دائم الغيرة منه، لأنَّه كان قد برز، في هذه المرحلة من العمر، محصَّناً ضد الرصاص السياسي. حين ساءت الأمور في الماضي، خصوصاً أيام أحداث الصومال، أدمن كلنتون علىٰ تفريغ شحنات غضبه أمام مساعديه المقرّبين عبر إلقاء خطب التقريع العنيفة حول مدى ظلم وسائل الإعلام له، في حين ظلت هذه الوسائل نفسها دائبة علىٰ كيل المديح المجاني لپاول لأنَّه كان بطلاً قومياً في نظرها. وكان كلنتون يضيف أن لپاول علىٰ الصومال بصمات لا تقل عن بصمات أي شخص آخر في البيت الأبيض، غير أن أحداً لم يبادر إلىٰ سؤاله عن الصومال. وكان كلنتون يختتم شكواه متمنياً لكولن پاول أن يجرّب دخول السباق الرئاسي ليكتشف عدد الأصدقاء الحقيقيين الذين كانوا معه في وسائل الإعلام وكم من الوقت كانوا سيبقون مستمرين في عبادته. كان پاول سيكتشف وبسرعة، بصرف النظر عما إذا كان بطلاً أم لا، الوجه الآخر لوَحْش الإعلام، حسب تعبير كلنتون. كانت وسائل الإعلام ستنقلب عليه كما انقلبت علىٰ جميع الآخرين.

فيما إدارته منحدرة إلىٰ القاع المطلق، فريق سياسته الخارجيَّة محتقر

بصورة مكشوفة، ووزير موشك علىٰ مغادرة ما بدت سفينة موشكة علىٰ الغرق، بدا كلنتون عائداً إلىٰ فكرة سبق له أن كان قد غازلها في الماضي، فكرة تنصيب كولن پاول وزيراً للخارجيَّة. فمن شأن وجود رجل بسمعة كولن پاول في الحكومة أن يضفي مصداقية فورية علىٰ فريق أمن قومي ليست مميزة، بدونه، وخربة إلىٰ حدود معينة. ستحظى الفكرة بقدر كبير من الشعبية لدى الجمهور العام، وستطير طيراناً في مجلس الشيوخ، بالطبع، ما من أحد كان متوقعاً أن يقول شيئاً ضد پاول. باستمرار كان كلنتون ينظر إلىٰ الأمام، وقد رأى أن پاول كرجل سيكون المرشح الأصعب علىٰ إلحاق الهزيمة به في 1996م، الجمهوري الوحيد القادر علىٰ اجتذاب الوسط السياسي أكثر منه والمؤهل فعلاً لاختراق الخطوط الحزبية. وبالتالي فإن كلنتون قد يكسب وزيراً موهوباً للخارجيَّة ومحيِّداً في الوقت نفسه متحدياً رئاسياً محتملاً خطراً ذا شعبية في الانتخابات المقبلة. من شأن ذلك أيضاً أن يضع قَيْداً علىٰ مرشحين جمهوريين آخرين في ذلك السباق لأن السياسات التي سيبدون عاكفين علىٰ انتقادها ستكون سياسات پاول جزئياً. غير أن پاول كوزير للخارجيَّة كان يعاني من نقطة ضعف معينة أيضاً. من شأن ذلك أن يكون بمثابة إعطاء حقيبة وزارة بالغة الأهميَّة، بشكل يكاد لا يصدق، لرجل يتمتع علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة بسجل أفضل بكثير من سجل كلنتون بالذات، رجل ذي قناعات أقوى بكثير في عدد من القضايا، وإن لم تتم مناقشة الأمر قط. من شأن الأمر أن يضع رئيساً يعاني أساساً من قَدْرٍ غير قليل من الهشاشة علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة والدفاعية في مواجهة أيقونة قوميَّة تصعب معارضتها في ميادين الخبرة. لم تبد تلك معادلة مغرية؛ قد ينتهي الرئيس بأن يتحوّل إلىٰ أسير لدى وزير في الحكومة يفوقه هيبة ومرجعية.

رأى بعض المحيطين بكلنتون أنها من أكثر الأفكار ضلالاً وخطأ. رأى هؤلاء أن كلنتون كان يعتبر پاول أيقونة سوداء يقيم معها علاقة لأنه كان يعلم بأنه صاحب مهارة في التعامل مع الزنوج الذين كانوا علىٰ الدوام يشكّلون نواة

قاعدته السياسيَّة، الجماعة التي يلوذ بها لحظات الحاجة والضيق طلباً للدعم المطلق الراسخ رسوخ الجبال. وبرأي هؤلاء، لم يكن كلنتون يدرك حقيقة أَن پاول كان شخصاً أكبر وأَكثر أبعاداً بما لا يقاس من مجرد إِنسان زنجي. لقد كان شخصاً عسكرياً ـ سياسياً محافظاً ذا قاعدة قوميَّة تخصه وحده ودون عنصرية. قال أَحد كبار موظفي كلنتون «إِنها فكرة خاطئة من الأساس، قائمة علىٰ خطأ فادح في قراءة پاول ـ خطأ توقع انتقاله إِلىٰ صف فريقنا بسبب مواقف كلنتون من القضية العنصرية. غير أَن كولن پاول لم يسبق له **قط** أَن كان في صف فريقنا. لقد بقي **باستمرار** في صف الفريق الآخر. لقد كان رجلاً محافظاً جداً في سائر القضايا الحاسمة. فأقرب أصدقائه، أولئك الذين يعاشرهم ويتعامل معهم آخر النهار، أشخاص مثل كن دوبرشتاين وريتشارد آرميتاج، وهم محافظون **جداً**، وصدقوني أَن أَحداً منهم ليس في صف فريقنا. إِن من صنع كولن پاول هو ريگان أولاً وبوش بعده ـ جنباً إلى جنب مع الجيش الأَمريكي. من شأن الانتقال إِلىٰ صفنا أَن يبدو بنظره هو انتهاكاً عميقاً لولائه وإِخلاصه لكل من الرجلين ومؤسسة الجيش، ومسألة الولاء والإِخلاص مسألة بالغة الأَهميَّة بالنسبة إِلىٰ رجل من نمط كولن پاول». وأضاف المسؤول إِنها إِحدى المناسبات النادرة التي تقوم فيها غرائز الرئيس السياسيَّة، الموثوقة جداً عادة، بالتخلي عنه. إِن صَلَفاً، متولداً عن مهارته في التعامل مع الساسة الزنوج في السابق، ما لبث أَن قاده إِلىٰ التوهم بأنه قادر علىٰ استغلال پاول وقيادته.

رغم ذلك كله، بادر ڤيرنون جوردان إِلىٰ الاتصال بپاول طالباً منه أَن يزوره لعقد اجتماع. حين رن جرس الهاتف، حوالي منتصف الليل، كان پاول واثقاً من معرفته بالهاتف وبالموضوع ـ عرض بتولي وزارة الخارجيَّة. في بداية اللقاء كان سؤال پاول الموجّه إِلىٰ جوردان: «هل تستطيع حرف الأَمر عن السكة؟» أجاب جوردان: «مستحيل»[8]. كان جوردان نفسه متأكداً من أَن پاول

---

(8) پاول، 602.

لن يقبل بتولي المنصب. كان واثقاً من أن الأخير سيعتبر الأَمر نكراناً للجميل وخذلاناً لبوش الذي كان قد أحسن معاملته كثيراً وعيّنه رئيساً لهيئة رؤساء الأركان. فضلاً عن أن پاول كان شديد الحذر من فريق كلنتون؛ لم يكن يثق كثيراً بكبار اللاعبين وكان يخشى من أن يلطخوا سمعته. أضف إِلىٰ ذلك أَنَّه كان قد أمضى ما يزيد عن ثلاثة عقود في الخدمة؛ كان قد ابتاع لتوه بيتاً جديداً ثميناً في ضاحية ماكلين وكان دائباً علىٰ الاستمتاع بخياراته الجديدة، عاكفاً علىٰ كتابة مذكراته، ومُلْقياً المحاضرات بأجور عالية. اجتمع بالرئيس واعتذر عن تلبية طلبه بلباقة.

بعد ذلك أقدم جوردان علىٰ تنفيذ مهمة من ترتيبه هو. ذهب إِلىٰ وارن كرستوفر وسأله عن السبب اللعين الذي دفعه لارتكاب حماقة الاستقالة، وخصوصاً دون التشاور معه. بدا كرستوفر مهدوداً من التعب، فاقتنع جوردان بأنه كان أَحد أَسباب تحطيم الرجل الذي كان يُفْتَرض فيه أَن يخدمه ويساعده. علىٰ الأثر بادر جوردان مع بعض الحلفاء، بمن فيهم نائبا كرستوفر توم دونيلون وستروب تالبوت، إِلىٰ تنظيم حملة لحثّ كرستوفر علىٰ إِعادة النظر، وقد فعل، مكتسباً قوة دفع جديدة بفعل فكرة قبول الرئيس لاستقالته وتحوّله دون تردد إِلىٰ پاول. قرّر كرستوفر أَن يبقى، أَن يعود عن الاستقالة.

غير أَن الحدث الذي وقع في 1994م كان مثالاً جيداً علىٰ مدى الإِرهاق الشديد الذي كان الجميع يعانون منه. فبعد ستة أشهر، في منتصف سنة 1995م، بدا كلنتون، وهو المستمر في تعرّضه لهجوم قوىٰ معادية من جميع الجهات، في موقف دفاعي واضح جداً. بقي شخصاً تمت إِساءة فهمه سياسياً، ربما مفهوماً بشكل أَكثر دقة من قبل أعدائه مقارنة مع أصدقائه؛ أَي أَن أعداءه وخصومه بدوا أَكثر دراية لما في قلبه، ولما يعتزم القيام به، من أصدقائه. كان بعض المحلِّلين السياسيين الأَكثر تقليدية قد بدؤوا يدرسون دوافع كلنتون وإِخفاقاته لا من منطلقات إِيديولوجية قائمة علىٰ مدى انتمائه إِلىٰ اليسار أَو يمين

الوسط، بل من منطلقات ذات علاقة باختلاف الأجيال، فبوصفه أول رئيس جمهوريَّة لجيل كثيري الأولاد، كان متألقاً وموهوباً، ولكنه، باعتقاد أولئك المحلِّلين، كان مُفْسَداً. ومثل الكثير من أبناء هذا الجيل كانت توقعاته وأحلامه تفوق شعوره بالمسؤولية. ظلت مواهبه ـ وجاذبيته الساحرة ـ كبيرة إِلىٰ حد أنها كانت باستمرار قادرة علىٰ تغطية أخطائه. حين كان يثير استياء الناس، كان هؤلاء يبادرون إِلىٰ مسامحته مما جعله مع الزمن يدمن توقع العَفْو والغفران. حين كانت الأمور تتعثّر، كان يبدي قَدْراً غير عادي من البطء، حتى بينه وبين نفسه، في الإِقدام علىٰ تحمل المسؤولية شخصياً. كان الاعتقاد القائل بأن ما كان يمثّله كجيل شكل عنصراً حاسماً من عناصر سلوكه السياسي يتقاسمه بعض أولئك الذين كانوا يعملون معه يومياً. كثيراً ما كان توني ليك وجورج ستيفانوپولوس يتحدثان عن مدى صعوبة التعامل مع الرئيس، مقررين أنهما كانا يشكِّلان الحَدّين الفاصلين لهذا الجيل إذ كان ليك أكبر قليلاً وكان ستيفانوپولوس أصغر قليلاً.

تلك هي الخلفية السياسيَّة السلبية إِلىٰ حد كبير التي جعلت الأنباء الواردة من سربرينيتسا بتلك الطاقة التدميرية، دليلاً علىٰ عجز الإِدارة الذي ما لبث أَن تحوّل إِلىٰ خلل سياسي في 1996م. لم تكن البوسنة قد أَصبحت قضية طاغية؛ كانت لا تزال مسألة هامشية علىٰ شاشات القنوات التلفزيونية المحلية، دون التمتع بجرعة يومية علىٰ الشبكات. غير أَن عدداً من كبار مستشاري الرئيس كانوا قد بدؤوا يرون أَن البوسنة باتت لا مشكلة أخلاقية فقط بل ومرشحة أَيضاً لأَن تصبح إِحدى مشكلات السياسة الداخليَّة أَيضاً. وبطريقة ما كانت تلك الجماعة تضم، شئت أم أبيت، توني ليك الذي كان منذ البداية قد ألمح إِلىٰ أَن من شأن الإِخفاق في اعتماد سياسة قابلة للتطبيق. من الواضح أَن السرطان كان قد بدأ ينتشر.

لم يقم ليك بعطف البوسنة علىٰ انتخابات 1996م. لم يكن بحاجة إِلىٰ مثل

ذلك العطف؛ كانت العواقب واضحة وضوح الشمس أمام الرئيس وجميع من هم حوله. وبرأي ليك كان ثمة مقدمة مزعجة بالمثل لما يمكن أن تؤول إليه حال البوسنة. سبق لليك أن كان رئيساً لمكتب التخطيط السياسي عند كارتر سنة 1979م حين وقعت أزمة الرهائن الإيرانية، وما لبث، فيما بعد، أن أدرك أنّها كانت قد بدت، دون أن ينتبه إليها أحد في البداية، ناقوس إعلان موت رئاسة كارتر لأنها أبرزت جملة من نقاط ضعف إدارته الأُخرى المحددة بشيء من الضبابية والغموض. كان بعض أصدقاء ليك الحميمين يعتقدون بأنه كان الأشد تأثّراً بين سائر كبار مسؤولي عالم مجلس الأَمن القومي بأزمة الرهائن، ربما لاقتناعه بأنه، مع من كانوا حوله من العاملين في مكتب التخطيط السياسي، كان ملزماً بابتكار حل ما، صيغة ما قادرة على إنهاء الأزمة وإنقاذ الرئيس. وقد عانى الآخرون من صعوبات السعي للتبرؤ من الأزمة ولمسوا تأثيرها الكارثي على آمال الرئيس المعقودة على إعادة الانتخاب، غير أنهم ما لبثوا أن قبلوا بالمحصلة آخر المطاف. لا بد للمرء من أن يصادف قطار شحن خرج عن دائرة التحكّم (طائراً يغرد خارج السرب)، بين الحين والآخر؛ تلك هي الحياة. كان ليك يُعْتَبَر بين أقرانه شخصاً بالَغَ في النظر إلى الإخفاق على أنّه إخفاق شخصي، متوهماً أن تحليه بقَدْر أكبر من نفاذ البصيرة كان من شأنه أن يوقف ذلك القطار الجامح.

أما بالنسبة إلى كلنتون فما لبث أن بدأ يحس بالضغوط الآتية من جهة أُخرى. فبوب دول، زعيم الأغلبية الجمهوريَّة في مجلس الشيوخ، وأحد المرشحين المحتملين للرئاسة في 1996م وأحد ناشطي قضية البوسنة، كان يدعو إلى حلّ يقوم على رفع الحظر عن توريد الأَسلحة من جانب واحد. وقد بدا حاصلاً على ما يكفي من الأصوات في المجلسين كليهما لتمرير القرار، بل وعلى عدد من الأصوات يكفي للتغلب على اعتراض رئيس الجمهوريَّة، إذا ما حاول الأخير ممارسة حق الڤيتو. كان بعض تلك الأصوات سيأتي من الاستياء إزاء ما كان يحدث في البوسنة ـ لأَن دول كان قد أَصبح رمزاً للحماس فيما

يخص استنكار جرائم الصرب ـ غير أَن البعض الآخر كان أقرب إِلىٰ التحزُّب ومنطلقاً من دوافع الإِحساس بوجود روائح دماء رئاسية في الأجواء.

تلك هي المحطة التي التحق فيها رئيس الجمهوريَّة الفرنسية الجديد جاك شيراك. كان الرجل ضابطاً سابقاً في الجيش الفرنسي وممن تطوعوا للخدمة في الجزائر خلال الحرب الاستعمارية الطاحنة، أصيب بجرح بليغ، وظل مؤمناً بأن تلك كانت تجربته الحياتية الأهم. كان قوة لا يستهان بها ـ يُطْلَق عليه في فرنسا لقب البلدوزر. وبفضل خدماته هو إِضافة إِلىٰ الشجاعة التي أبداها رفاقه في حرب غير شعبية، كان يتحلى بإِحساس ديگولي قوي بالطريقة التي ينبغي للجنود الفرنسيين أَن يحموا بها شرف الجندية. كان ساخطاً جراء الإِهانات اللاحقة بالقوَّات الفرنسية في البوسنة وجراء سلبيتها لحظة الأزمة. ففي اليوم الأَول من توليه للسلطة، قامت الصحف بنشر صور قوات حفظ السلام الفرنسية التي وقعت في الأسر وبات الصرب يتعاملون مع أفرادها كرهائن؛ كان بعضهم مشدوداً إِلىٰ الأشجار، وبعضهم الآخر مقيداً بالسلاسل ومربوطاً بالمدافع الصربية. انفجر غيظاً بصورة مطلقة حين سمع أَن الناس في البلقان، أولئك الذين كان الفرنسيون يحاولون مساعدتهم، استطاعوا أَن يفعلوا ذلك بجنوده. صرح أمام مساعديه: «لن أقبل بهذا! تستطيعون أَن تقتلوا جنوداً فرنسيين! تستطيعون أَن تجرحوهم! غير أنكم لا تستطيعون أَن تهينوهم! سينتهي ذلك اليوم! إِن فرنسا لن تقبل بذلك! سنقوم بتغيير قواعد اللعبة!» عزم شيراك إِما علىٰ تدعيم وتعزيز الفصيل الفرنسي الموجود علىٰ الأَرض وتمكينه من اعتماد قواعد اشتباك جديدة أَكثر تشدّداً، أَو علىٰ سحب الفصيل كله من هناك. غير أَن الجنود الفرنسيين كانوا سيتصرفون من الآن فصاعداً بالعظمة والشجاعة التي ينتظرها الفرنسيون من أفراد قواتهم المسلّحة ـ متحلين بتلك الروح المفعمة نُبْلاً وجرأة كالتي ميّزت آخر المدافعين عن ديان بيانفو في الهند ـ الصينية الفرنسية.

بصورة مباشرة تقريباً أصدر شيراك أوامر جديدة إِلىٰ الجنرالات

المسؤولين عن العمليَّات في البوسنة ـ أوامر ذهبت إلىٰ أصحابها من وراء ظهر منظومة الأمم المتّحدة القيادية. وبالمصادفة كانت وحدات صربية، ارتدى أفرادها ملابس خاصة بوحدات الأمم المتّحدة تم الاستيلاء عليها، قد تسلّلت إلىٰ قلب سيرايیڤو واحتلت أَحد الجسور. سارع شيراك إلىٰ تعنيف الضباط الفرنسيين المضطلعين بدور القيادة في أثناء حدوث ذلك. كانت كلماته الأخيرة الحاسمة علىٰ الهاتف: «أمامكم أربع وعشرون ساعة لاستعادة الجسر». وقد فعلوا، رغم أَن اثنين من الجنود الفرنسيين قُتلا في أثناء عملية استعادة الجسر. كان شيراك صَقْراً حقيقياً أراد أَن يفعل ما هو أكثر، غير أنّه بقي مستعداً، في حال استحالة ذلك، أَن يرضى بما هو أقل. لم يعد الرجل مستعداً للتسليم بالأَمر الواقع. تحدث مع جون ميجر عن تشكيل قوة رد سريع، وحدة فرنسية، بريطانية نخبوية، أفضل تسليحاً بما لا يقاس وبأَسلحة أثقل بكثير، تستطيع، بدعم جوي أَمريكي بالطائرات والحوامات، أَن تتحرّك بسرعة وتضرب الصرب ضربات موجعة حين يُقْدمون علىٰ انتهاك أية اتفاقات جديدة.

أما ميتران فقد كان، علىٰ النقيض من شيراك، رجلاً ينتمي إلىٰ النظام القديم، رجلاً نشأ وترعرع علىٰ ذكرى التحالف الفرنسي ـ الصربي في الحرب العالميَّة الأولى، وذكرى صربيا شريكة وحليفة خلال الحرب العالميَّة الثانية، في تحالف أوجده ارتياب مشترك من الألمان، وحاجة إلىٰ السلاف [الصقالبة] الأوروپيين ـ من صرب وروس ـ للمساهمة في عمليَّة التصدي للنزعة التوسعية الألمانية والتغلب عليها. بين القادة الأوروپيين لم يكن هناك من هو أَكثر تعاطفاً مع القضية الصربية. ظل علىٰ الدوام معارضاً لتوسيع الحرب. كثيراً ما كان ينصح قائلاً: «لا تضيفوا حرباً إلىٰ الحرب!» متخذاً موقفاً ساعد الصرب كثيراً[9]. ففي كثير من المناسبات حين بدا الحلفاء موشكين علىٰ التحرك ضد

---

(9) رود، 25.

الصرب بسبب هذه المخالفة المثيرة للغضب أَو تلك، بادر ميتران إِلىٰ حماية مصالحهم.

تمثَّلت تجربة شيراك الحاسمة بالجزائر، لا بالحرب العالميَّة الثانية. لم يكن يخاف ألمانيا في أوروپا جديدة، كما لم يشعر بأَية تبعية جيو ـ سياسيَّة أَو صلة قربى أخلاقية إِزاء حلفاء سلاڤ سابقين كانوا يقترفون مثل هذه الجرائم المرعبة بحق مواطني بلدهم بالذات. وقد رأى شيراك سبباً إِضافياً يدعوه إِلىٰ التحرّك. صحيح أَن ما كان الصرب يفعلونه كان قاسياً ومشيناً، غير أنّه كان يشكِّل في الوقت نفسه تهديداً بتدمير شيء جديد ونبيل موشك علىٰ أَن يولد عما قريب، ألا وهو مفهوم أوروپا موحدة قائمة علىٰ رفض العنف فيما بين الأشقاء الأوروپيين، وعلىٰ تسخير طاقاتها الكبيرة لتحقيق أغراض إِيجابية، نبيلة. ففي أوروپا الجديدة لن يعود سفك الدماء العبثي في الأزمان السابقة قابلاً لتشكيل سبب يسوغ سفك الدماء العابث الذي لا معنى له في الحاضر والمستقبل. ما من أَحد يعرف هذا أفضل من الفرنسيين، الذين توصلوا إِلىٰ مصالحتهم المؤلمة الخاصة مع الألمان. فبُعَيْد توليه منصب رئاسة الجمهوريَّة، كان شيراك علىٰ مائدة عشاء لقادة أوروپيين حين بدأ رئيس الوزراء اليوناني آندرياس پاپاندريو يدافع عن أفعال الصرب. فاليونانيون كانوا، لأَسباب دينية، حلفاء ثابتين للصرب في مداولات الناتو. تحدث پاپاندريو عن مأزق الصرب الموزعين علىٰ رقعة مترامية الأَطراف من الأَرض وبين أَطراف دولة واسعة تصعب إِدارتها وأمة كبيرة يجدون أنفسهم في بعض الأماكن أقلية وهم الآن دائبون علىٰ الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية. سارع شيراك إِلىٰ مقاطعته قائلاً: «لا تحدثني عن أية حرب دينية. ليس لهؤلاء الناس أَي دين أَو عقيدة، أَي إِحساس بالقانون. إِنهم إِرهابيون»[10].

---

(10) المصدر السابق، 363.

في منتصف حزيران/ يونيو 1995م، قبل أَن يمضي عليه شهر واحد في المنصب، طار شيراك إِلىٰ واشنطن في طريقه إِلىٰ اجتماع الجي ـ 7 المزمع عقده في غضون أَيام قليلة بمدينة هاليفاكس. اجتمع بكلنتون وتحدَّث عن الحاجة إِلىٰ اعتماد خط أَكثر تشدّداً في البلقان. وأضاف أنهما قد لا يستطيعان تغيير انتداب الأمم المتّحدة، غير أنهما يستطيعان أَن يضيفا قواتهما إِلىٰ البعثة الدولية، أَن يستخدما قوة الرد السريع RRF، وصولاً، مع الزمن، إِلىٰ تمكين الناتو من وضع حد لهذه المهزلة المذِلّة. كان كلنتون علىٰ اتفاق إِلىٰ حد كبير معه وأرسله إِلىٰ التلة للقاء رئيسي المجلس دول وگينگريتش. كانت زيارة مفيدة، إِشارة إِلىٰ المنتقدين في الكونگرس دالة علىٰ أَن الهوة بين واشنطن والأوروپيين بدأت تضيق.

ومن هناك طار شيراك إِلىٰ هاليفاكس لحضور اجتماع الجي ـ 7، حيث فاجأ الجميع بطرح موضوع البوسنة رغم أَنّه لم يكن مدرجاً علىٰ جدول الأعمال. جاءت حِدَّتُه محرجة للجميع. سأل رؤساء الدول الآخرين عما يمكّنهم من التظاهر بالكلام عن الأوضاع في أوروپا والعالم دون الإِتيان علىٰ ذكر البوسنة. وقد كان مهتماً ليس فقط بالأَمن القومي والأعمال الوحشية الجارية في البلقان أَو مستقبل أوروپا، بل بالأمجاد التي كانتها فرنسا. يا لها من بادرة كريمة خالصة! قال أَمريكي استُفز قليلاً. إِذا كان شيراك قد فاجأ الأَمريكيين بآنيّة دعوته، فإِنه فاجأ نظراءه الأوروپيين حتى أَكثر. فيما مضى كانوا منزعجين إِلىٰ حد كبير بما كان جارياً في البلقان وسعداء لكتمان الموضوع إِذا كان ذلك ممكناً. علىٰ الفور أَصبح شيراك مركز اهتمام وسائل الإِعلام، وصُوَرُه المأخوذة في هاليفاكس علىٰ الكثير من الصفحات الأولى والأغلفة. أَمّا الشيء الأهم حول تصريحاته فربما كان تأثيرها علىٰ رئيس الولايات المتحدة. بدا كلنتون شاعراً بما هو أَكثر من الغيرة إِزاء الرئيس الفرنسي. وحين أَلمح شيراك في أَحد خطبه إِلىٰ أَن «منصب قائد العالم الحر شاغر» إِنما كان قد لامس وتراً

بالغ الحساسية، وسارع بعض كبار المسؤولين في الجهاز البيروقراطي إِلىٰ التقاط الفكرة لتوظيفها من أجل جعل الرئيس أكثر فعالية بالنسبة إِلىٰ البوسنة. مثلما كان كلنتون مشحوناً بالغيرة من مكانة كولن پاول الاستثنائية في قلوب الشعب الأَمريكي ـ دون انتخاب ولكنه محترم، مع بقاء وسائل الإِعلام عازفة عن اكتشاف الثآليل ـ بدأ الآن يبدي آيات الحسد من شيراك. في فترة السنتين والنصف الأخيرة كان قد حاول أَن يدفع الأوروپيين إِلىٰ الأمام ولم يخطر بباله قط أَن يواجه تحدياً بوصفه زعيم التحالف الغربي ضد الصرب وأن يبرز شخص غربي آخر بوصفه **زعيماً أطول قامة** في هذه القضية بالذات، بين سائر القضايا. وها قد حصل الآن ما لم يكن يخطر ببال، وبزعامة رجل لم يكن أَحْدَثَ عهداً في المنصب من كلنتون فقط بل ورئيس بلد أصغر بكثير وأضعف بما لا يقاس.

أدَّى قرار شيراك القاضي بالتصدي للصرب إِلىٰ قلب قواعد اللعبة في البوسنة رأساً علىٰ عقب. علَّق أَحد كبار محلّلي السياسة الخارجيَّة قائلاً: «من السهل علىٰ الأَمريكيين الاستخفاف بمدى أَهميَّة ذلك القرار من منطلق أوروپا. لقد راهن شيراك علىٰ أوروپا جديدة لا تزال غير مؤكدة بدلاً من الماضي التقليدي علىٰ ظلامه ودمويته». أدَّى قرار شيراك أَيضاً إِلىٰ إِطلاق يد كلنتون إِذا أراد أَن يجيز استخدام القوَّات البرية والجويَّة الأَمريكيَّة. بات الرئيس متمتعاً، بدلاً من التعايش مع البريطانيين والفرنسيين المعارضين بحماس لأية سياسة متشددة، بحليف يملك قوات علىٰ الأَرض بصورة مسبقة، ومستعد لاستخدام المزيد من القوَّة في الظروف المناسبة.

برأي أولئك القادة الأوروپيين الراغبين في تصعيد السياسة في البوسنة، بقيت المسألة علىٰ الدوام أشبه بلعبة البوكر التي ظل الأَمريكيون ينأون بأنفسهم عن طاولتها. استمروا يراقبون من بعيد وكأن الرهانات لم ترتفع إِلىٰ المستوى المطلوب زاعمين بأصوات عالية أَن الحاجة تدعو إِلىٰ وجود طريدة أكبر، رهان أعلى، قادر علىٰ اجتذابهم إِلىٰ اللعب. ظل الأَمريكيون يتطفلون ويتلصصون

وينتقدون حجم الأرصدة الموجودة، بطء حركة اللعب، غير أنّهم لم يكونوا قد تلطّفوا حتى اللحظة بالجلوس، بوضع أي مبلغ من المال على الطاولة، وبالمشاركة الفعلية باللعب. كان الموقف الأمريكي الذي أثار قَدْراً كبير من حفيظة الكثير من الأوروپيين، قائماً في جانب كبير منه على التظاهر وإلقاء المواعظ؛ كان الأمريكيون قادرين، دون مخاطرة، على الدعوة إلى نوع من التصعيد، وكان الأوروپيون سيبادرون، بالتأكيد، إلى الوقوف في وجههم. أمّا الآن فقد انتهى ذلك. يقول الرجل الثالث في وزارة الخارجيّة پيتر تارنوف: «حين كان ميتران على رأس السلطة كان مستوى الطاقة الآتية من فرنسا ثلاثة على عشرة، أمّا بعد وصول شيراك فقد ارتفع إلى تسعة». وما إن أصبحت فرنسا لاعباً أكثر تشدّداً بما لا يقاس، حتى زادت من ضغطها على البريطانيين لدفعهم نحو اعتماد خط أكثر تشدداً.

أدى الأمر أيضاً إلى مضاعفة إحباط كلنتون. فبالنسبة إليه لم تكن البوسنة مثل ڤيتنام بالنسبة إلى جونسون، ولا حتى أزمة الرهائن الإيرانية بالنسبة إلى كارتر. كانت أكثر هامشية؛ قادرة على إحداث الأضرار، غير أن رئاسته كلها لم تكن مرتكزة إليها. لم تكن ثمة قوات أمريكيّة بعد، بمعنى أنّه كان أقرب منالاً وأكثر استعداداً للإصغاء من جونسون. لم تكن ذاته قد أصبحت عنصراً فاعلاً بعد، خلافاً لذات جونسون في 1967م حين بدأت ڤيتنام تلقي بظلها على مستقبله السياسي. أمّا الآن، مع تكشف الأهوال الحاصلة في سربرينيتسا، فقد بدأت الرهانات ترتفع وراح اهتمامه يغدو أقل عَرَضية بالتدريج. كانت تلك هي المعادلة الأبسط: كلما زاد اتساع الجرح تضاءلت علاقته بالسياسة الخارجيّة وزاد ارتباطه بمدى فاعلية الرئاسة. تلك هي الطريقة التي تمت بها عمليّة ربط المسألة بمستقبله السياسي فبات مضطراً لأن يضاعف من اهتمامه. بقي سريعاً في توجيه اللوم إلى الآخرين، إلى أشخاص من أركانه ممن عجزوا على الدوام عن تزويده بالخطة المطلوبة. كان يقول إنهم مثل الأوروپيين يكثرون من الثرثرة

ولوك الكلام، عاجزين عن وضع حد للمسألة بأنفسهم، مصرّين في الوقت نفسه علىٰ منعه من استخدام القوَّة الجويَّة الأَمريكيَّة. كان يروق له أَن يقول إِنهم ندّابون، عقبة كأداء في طريق التوصّل إِلىٰ رسم خطة فعلية.

غير أَن كلنتون كان قد بدأ يشعر بالقلق. فالفرنسيون بدؤوا يلعبون لعبتهم بقيادة شيراك، وقد شكّل ذلك استفزازاً من ناحية وحافزاً من ناحية ثانية. بدأ الناس في البيت الأَبيض يتحدَّثون وراء الكواليس عن شيراك وعما إِذا كانت القضية كلها مجرد تظاهر بالشجاعة. أَمَّا في الكونغرس فقد كان دول، في الوقت نفسه، دائباً علىٰ اجتراح أَكثرية مستعصية علىٰ الڤيتو الرئاسي لرفع قرار الحظر عن توريد السلاح، المؤهل لأَن يطلق مسلسلاً خطراً من ردود الأفعال السياسيَّة. إِذا أقدمنا علىٰ إِلغاء الحظر من جانب واحد، فمن شأن ذلك أَن يهدِّد التحالف، مع احتمال إِقدام الأوروپيين علىٰ اتخاذ قرار يقضي بالانسحاب. لقد سبق لنا أَن التزمنا بتوفير حوّامات أَمريكيَّة مسلحة لتأمين سَحْب قوات الأمم المتّحدة من المواقع الأَشد خطورة في البوسنة. كان من شأن ذلك أَن يتم تحت أنظار أَسلحة صربية بالغة الهول، موجهة بكثير من الدقة، يجب علىٰ الإِدارة أَن تأخذ ذلك بعين الاعتبار، إِلىٰ جميع بؤر الهبوط المحتملة. كان سيتعين علينا أَن نستخدم ما لا يقل عن خمسة وعشرين ألفاً من الجنود الأَمريكيين في مهمة إِنقاذ مكشوفة وصعبة. وما هو أسوأ، كما حذر ليك، أَن من شأن ذلك أَن يتم في سياق نوع من الهزيمة ـ ثمة كان كل ذلك الخطر دون أَي مكسب إِيجابي بالمقابل.

بدأت القصة في البوسنة تتحوّل، إِذن، من كونها حكاية سياسيَّة خارجيَّة إِلىٰ قصة ذات علاقة بالسياسة الداخليَّة، مثل ڤيتنام ـ رغم أَن ڤيتنام بقيت علىٰ الدوام قصَّة أكبر بسبب وجود ذلك العدد الكبير من المقاتلين الأَمريكيين هناك. غير أَن الأَمر هنا كان منطوياً علىٰ جملة من المخاطر. فكلما كانت المأساة أكبر والفظاعات في البوسنة أشنع، كان احتمال قيام الشبكات والجرائد

بالكلام عنها أقوى، وكان احتمال بروز القصة في المؤتمرات الصحفية أكثر وروداً. كان كلنتون متمتعاً بما يكفي من الفطنة ليكون واقفاً علىٰ حقيقة أن القاعدة المؤيدة للتحرّك في البلقان كانت لا تزال ضيقة نسبياً. غير أنّها كانت بليغة، مدفوعة أخلاقياً، وخليطاً غريباً جامعاً لأفراد وجماعات متباينة سياسياً في الماضي. كان أنصار هذا التيار موجودين بين أهل اليسار ومعشر اليمين، نقاداً ليبراليين للحرب في ڤيتنام مثل توني لويس في **التايمز**، ومحافظين جدد، مثل جين كيركپاتريك، ممن كانوا عادة جديرين بالتعويل عليهم من حيث انتقاد بعضهم البعض. كان تياراً عقلياً ومدفوعاً بشيء نادر نسبياً في السياسة، ذكرى تاريخية إن لم تكن فعلية عن المحرقة. أن يكون شخص مثل لويس وآخرون كانوا حمائم ڤيتناميين صقوراً بالنسبة إلىٰ البوسنة أثار حفيظة كلنتون الذي راح يصرخ متسائلاً: «ما الذي يريدونني أن أفعله؟ ماذا يريدون مني بحق الجحيم والعُهْر أن أفعل؟»[11].

كانت هذه الفئات، أفراداً وجماعات، رغم أنها لم تكن كبيرة، بليغة ومتنفذة بمستويات تفوق أعدادها، خصوصاً في عالم وسائل الإعلام المطبوعة. كانت أيضاً ميالة إلىٰ أن تكون متقدمة قليلاً علىٰ المنحنى؛ ألا يعني موقفها الانتقادي من كلنتون في 1995م أن من شأن أعدادها أن تزيد مع حلول منتصف 1996م؟ صحيح أنّها لم تكن لتستطيع أن تحدث انقلاباً في أية انتخابات، غير أنّها كانت تمتلك القدرة علىٰ تحديد هذه القضية أو تلك بطريقة يمكن اعتبارها مصيرية؛ أضف إلىٰ ذلك كانت من النوعية التي ظل كلنتون بحاجة ماسّة إليها بوصفها جماعات تتمنى له الخير. كانت قادرة علىٰ توصيفه وتحديد مواصفات رئاسته بصورة مغايرة، بالتأكيد، للطريقة التي كان يتوق إلىٰ أن يتم توصيفه وفقاً لها ـ رجلاً موهوباً وواعداً غير أنّه ضعيف المضمون والإنجاز. كانت قادرة علىٰ إصابته بجرح بليغ لأن عدداً كبيراً من الأشياء التي يمكنها أن تقولها عنه

(11) ستيفانوپولوس، 216.

بشأن البوسنة لم تكن صحيحة فقط، بل ويمكنها أيضاً أن تمتد لتشمل جوانب أُخرى من رئاسته.

كان كلنتون يعرف أَن قلة من الأَمريكيين كانت لديها مشاعر حماسية سلبية أَو إِيجابية إِزاء الصرب، الكروات، أَو المسلمين، وأن سياسة البلقان ظلت إِما بعيدة جداً أَو معقدة جداً بما أبقاها عصية علىٰ الفهم. غير أَن أزمة سياسة خارجيَّة فضحت رئيس الولايات المتحدة علىٰ أَنَّه إِما سلبي أَو عاجز سياسياً كانت مسألة أُخرى تماماً ـ قضية منطوية علىٰ طاقة التدمير. وبالتالي فإِن كلنتون كان قد بدأ، بسرعة أكبر من الجميع، يرى أَن رئاسته قد تتعرّض للخطر. وما لبثت تلك الرؤية أَن أَحدثت انقلاباً مسرحياً في البيت الأَبيض. بدأ الرئيس، شاء ذلك أم أبى، يغوص في سياسة البلقان، ويتحول بيأس ـ وبغضب في الغالب ـ نحو أولئك الذين كان قد نأى بنفسه عنهم بالذات علىٰ امتداد فترة السنتين والنصف الماضية. صار توني ليك يقدم تقريراً موجزاً للرئيس عن السياسة الخارجيَّة يومياً، وكانت أَكثرية الأخبار عن البوسنة سيئة. بدا الأَمر، كما قال ليك فيما بعد، كما لو أَنَّه كان يأتي إِلىٰ الاجتماعات وقد طبع حرف «B» كبيراً رمزاً للبوسنة علىٰ جبينه. أخيراً بات مستشار كلنتون للأَمن القومي متمتعاً بتلك القدرة علىٰ الاتصال التي سبق لأسلافه أَن تمتعوا بها.

ومع ذلك فإِن فريق كلنتون لم يكن يملك أية خطة. وفي منتصف حزيران/ يونيو، قبل أَحداث سربرينيتسا، حين قام شيراك بزيارة البيت الأَبيض، اجتمع الفريق لاستعراض الخطوط العريضة لما ينبغي للرئيس أَن يقوله لهذا اللاعب الجديد العملاق عن البوسنة. غير أَن أَي تحرك ملموس إِلىٰ الأمام لم يتحقّق رغم توافر طاقات متجددة. فالانقسامات داخل الحكومة الأَمريكيَّة ظلت كبيرة علىٰ عادتها، فضلاً عن أَن العقبات التي ظلّت تحول دون قيامها بأي شيء أَكثر فعالية كانت لا تزال كبيرة. استشاط كلنتون غضباً لدى رؤية صورة العَجْز الأَمريكي التي عرضتها شاشات شبكات التلفزة، وكان بعض مساعديه شهوداً علىٰ بعض ثورات غضبه الخاصة الأَكثر سوءاً.

كان الفريق بحاجة ماسة إلىٰ خطة، قال الرئيس في أَحد الاجتماعات، «وإلاً فسنبقى مكتفين برَكْل علبة التنك علىٰ الطريق مرة أُخرى. الآن بالذات نحن أمام وضع محدد، ليس لدينا أية مهمة واضحة، لا أَحد يمسك بزمام الأمور والأحداث»[12]. وبعد ذلك راح يلقي خطاباً عنيفاً مشحوناً بالشكوى المريرة من قرار إرسال قوات برية، حيث تكون أيدي أفرادها مقيدة، وحيث يكون هؤلاء أنفسهم أَهدافاً سهلة. «إنها قواعد اشتباك مجنونة!» قال كلنتون. وبعده تحدَّث آل گور عن الضغوط المتزايدة في الكونگرس بقيادة دول لرفع الحظر عن توريد الأَسلحة. وأضاف نائب الرئيس مردداً صدى ما سبق لكرستوفر أن قاله قبل سنتين اثنتين «إن البوسنة مشكلة جاءتنا من الجحيم».

(12) وود وورد، **الاختيار**، 254.

الفصل السابع والعشرون

ما حدث في الأشهر القليلة التالية حول البوسنة ربما كان أفضل لحظات ليك في الحكم. بدا الأَمر حين كان ربما في قاع خدمته الرسمية، عاجز كلياً عن إِضفاء أَي توجه جديد على السياسة البوسنية. وحسب اعتراف ليك أمام زملائه الأقرب، فإِن أسوأ الأشياء عن الفترة الممتدة من أواخر 1994م إِلى أوائل 1995م، كان الواقع المتمثّل بأن نقّاد السياسة كانوا على صواب من حيث الجوهر. فما كان يريده كان في الغالب قريباً جداً مما كانوا يريدونه هم أَيضاً، غير أنّه كان على الدوام يجد نفسه عاجزاً عن صياغة خطة أفضل.

كانت البوسنة قد أَصبحت كابوساً بالنسبة إِلى ليك، باعتقاد أعضاء فريقه؛ القضية التي لا يستطيع التخلي عنها ولكنه لا يرى من خلالها أَي بصيص نور. كان يتحدث معهم عن مدى الحاجة إِلى تصحيح الخط السياسي، عن انشغاله مؤخراً بالسعي إِلى ابتكار شيء جديد. كانت مهمته قد أَصبحت المهمة الأصعب في الإِدارة. كان جهاز مستشار الأَمن القومي، الملزم بمعالجة أَكثر المشكلات تعقيداً والأقرب جسدياً من الرئيس، هو الأصغر، قد يكون ذلك أمراً إِيجابياً في بعض الأحيان، غير أَنّه بالنسبة إِلى قضية شائكة مثل البوسنة كان يعني عدداً أقل من المصافي بين ليك وكلنتون، مما عرَّضَ الأَول لتلقي معظم موجات الغضب الصادرة عن الرئيس. ساهمت قابلية استثارة غضب كلنتون ومستوى إِحباطه المتصاعد لوقوف كلنتون على حقيقة ارتباطه بقضية سياسيَّة

كبيرة خاسرة واحتمال تحوّله إلىٰ أحد ضحاياها، في جعل وظيفته أكثر صعوبة إلىٰ حدود لا يستهان بها.

كان ثمة صوت آخر دائب علىٰ تحذير كلنتون من قيام البوسنة بإلحاق قَدْر كبير من الضرر برئاسته، هو صوت ريتشارد موريس، مستشار غير عادي جداً للبيت الأبيض. لقد كان موريس هذا مستشاراً سياسياً محافظاً، ديمقراطياً ليبرالياً سابقاً عمل بالدرجة الأولى مع جمهوريين محافظين، وكان دوره في بيت كلنتون الأبيض شبه سري، وقد بدا عاشقاً لذلك. لعله كان التجسيد الأنقى لغريزة البقاء مهما كان الثمن التي شكلت علىٰ الدوام جزءاً لا يتجزأ من حياة كلنتون السياسيَّة. فما إن كان كلنتون يشعر بأن نزعاته الليبرالية ومعتقداته الشعبوية بدأت تبعده عن تيار الوسط السياسي وتورّطه في مواقف صعبة، حتى كان يلوذ بموريس. ذلك الموريس الذي كانت علاقته مع كلنتون معقدة، متقلبة، ولا شيء أقل من ماكرة، ما لبث أن عاد مرحَّباً به في البيت الأَبيض مما شكَّل دليلاً مؤكّداً علىٰ أن الرئيس بات يدرك أنَّه أصبح يواجه خطراً جدياً وهو علىٰ الطريق إلىٰ انتخابات 1996م.

حتى الزملاء المقرّبون من الزوجين كلنتون كانوا علىٰ الدوام يجدون صعوبة كبيرة في تقويم مدى أهميَّة تأثير موريس علىٰ الرئيس. فموريس هذا كان شخصاً أشبه بالأشباح، مولعاً بالتكتم ولعاً شبه مرضي، كان يفضل استخدام اسم تشارلي الحركي ـ السري في اتصالاته مع الرئيس ـ مع بقاء الرسائل مقتصرة علىٰ عبارة «لقد اتصل تشارلي» فقط. نادراً ما كان طرفاً في اجتماعات أوسع، وبما أن موهبته الأكبر ربما بقيت متمثلة بدفع الذات إلىٰ الأعلى، فقد كان ميّالاً إلىٰ تضخيم نفوذه وادعاء الفضل في أمور لم تكن له فيها، إذا كانت له أساساً، إلاَّ أدوار ثانوية جداً. كان مُحْتَقَراً لدى الأكثرية الساحقة من مستشاري كلنتون السياسيين، بوصفه صورة من صور دارث ڤادر Darth Vader سياسي، عميل مأجور يتسلل إلىٰ البيت الأَبيض في طريقه من

مشاوراته الأصلية مع عدد من الجمهوريين المحافظين مثل جيسي هلمز وترنت لوت، الذين ظل يتشاور لصالحهم حتى بعد أَن عاد إِلىٰ عالم كلنتون. فأحد أقرب مستشاري كلنتون قال فيما بعد: «علىٰ الرغم من أَن إِقامة علاقة مع إِحدى الطبيبات المقيمات خطأ غبي ودليل غفلة، فإِنّها ليست مخالفة جديرة بالإِدانة؛ أَمَّا السماح لشخص مثل ديك موريس بالتسلل إِلىٰ الجناح الغربي من البيت الأَبيض، فتلك جريمة تستحق الشجب». وقد قال جورج ستيفانوپولوس في اثنتين من الجمل التي يمكن اعتبارهما الأشد حماساً في كتابه إِن موريس لم يكن بين صنف الرجال «إِلاَّ قطعة «سُجُق» صغيرة مغلفة بطَقْم أخضر عريض الياقة، مع ربطة عنق زاهية الألوان، وقميص عريض الياقة أَيضاً. أَمَّا حقيبته الجلدية المجففة بمجففة الشعر واللماعة فكانت تذكر المرء بأحد محامي الرعاع في أفلام الدرجة الثانية، حوالي سنة 1975م»[1]. وكان آخرون في بيت كلنتون الأبيض يكرهون موريس لظهوره علىٰ الدوام بمظهر الباحث عن الحد الأدنى المشترك في السياسة الحديثة. كان هؤلاء مؤمنين بأن الرجل كان يتصرّف أساساً دون أية ضوابط أخلاقية أَو معنوية. وما كان يثير قَدْراً أكبر من السخط هو ما كان يمكنه أَن يقوله عنهم وعن دورهم في العمل مع كلنتون. أَلم يكونوا، رغم جميع أحلامهم الوردية وإِيمانهم بقيمة الخدمة العامة، شديدي الشبه بموريس في أعماقهم؟ أَلم تكن الدوافع الكامنة وراء مشاركتهم في النشاط السياسي مع كلنتون، رغم المثالية المعلنة التي توهموا بأنّها محرّك تصرفاتهم، ذات علاقة أوهى بقضايا مساعدة المحرومين في المجتمع، وعلاقة أوثق بالتعظيم الذاتي، وبحصتهم الخاصة بالتالي من المعلف الأم؟ تلك هي نماذج الأسئلة التي كانت تنتصب أمامهم كلما نظروا إِلىٰ ديك موريس. ولم تكن تلك أسئلة يحلو لهم أَن يجيبوا عنها.

كان موريس شخصاً محيِّراً وشاذاً، «البوذا القاتم الذي اعتاد كلنتون علىٰ

---

(1) ستيفانوپولوس، 331.

حك بطنه في الأوقات العصيبة»، كما قال ستيفانوپولوس. لفترة زادَتْ عن عقدٍ من الزمن بقي موريس المستشار الذي استدعاه كلنتون في اللحظات الصعبة، وليمثل، آنذاك فقط، الوجه السفلي الكئيب والقذر للمعادلة السياسيَّة، الوجه المتناقض مع المثالية المعلنة لدى الزوجين كلنتون وأقرب مستشاريهم. كان موريس يفاخر بوضعه اللاشرعي تقريباً. كان ذلك، حسب رأيه، يجعله شخصاً منتمياً إِلىٰ العالم الواقعي، في حين كان الآخرون المحيطون بالرئيس هم الحالمين. فمرة قال موريس: «لا يريدني بيل أن أكون قريباً منه إِلاً حين يكون جانبه السياسي المظلم طافياً علىٰ السطح. أَمَّا حين يكون في حكومته الطيبة فلا يريد أَن يتعامل معي علىٰ الإِطلاق؛ إِنَّه نموذج الكشاف»[2]. (نموذج الصبي الساذج).

إِذا كان كلنتون، في أعماقه، بطل البقاء الأكبر، فإِن بروز موريس علىٰ الساحة شكل دليلاً أَكثر وضوحاً من أَي شيء آخر علىٰ أَن كلنتون كان موشكاً علىٰ ارتداء ثوب التفرغ الكامل للصراع من أجل البقاء مهما بلغ الثمن. كان دخوله إِلىٰ البيت الأَبيض، مستفزاً غضب عدد من الرجال مثل ستيفانوپولوس، بيگالا، وجون بوديستا، مؤشراً واضحاً يشي بأن كلنتون كان يائساً. لم يكن بحاجة إِلىٰ موريس ليعرف منه أَنَّه كان في وضع صعب أَو لماذا هو في مثل هذا الوضع. فقراءة كلنتون الخاصة للبلاد ولتحولاتها المزاجية كانت دقيقة بما يُغْنيه، ربما، عن معرفة أَي شيء منه. غير أَنَّه بات متعباً من وضعية الإِحاطة بجهاز سياسي مؤلف عموماً من أشخاص أصغر سناً، أَكثر مثالية، وأقوى ليبرالية منه هو، حيث دأب هؤلاء علىٰ جره إِلىٰ جهة في حين كانت غرائزه السياسيَّة تدفع به نحو الاتجاه الآخر. أراد الاستعانة بموريس عنصراً يوازن به مستشاريه الآخرين، ويؤكد إِمساكه بزمام المبادرة علىٰ صعيد تغيير السياسة

---

(2) المصدر السابق، 333.

وتثبيتها. ومما أثار الذعر في قلوب بعض العاملين في البيت الأَبيض، وتوني ليك خصوصاً، أَن موريس أقدم علىٰ بعض التحركات التجريبية علىٰ جبهة السياسة الخارجيَّة. كان ستان گرينبيرگ قد أحجم عن استطلاع الآراء حول السياسة الخارجيَّة لأَن من شأن ذلك أَن يوحي بأن الرئيس كان يتخذ قرارات مستندة إِلىٰ الاستطلاعات، فجرى استبداله بخبير استطلاعات رأي آخر جاء به موريس لم يكن، حسب تعبير گرينبيرگ «يحمل، علىٰ ما يبدو، مثل هذه الهواجس». من الواضح أَن كلنتون حذّر موريس من أَي تدخّل أَو دّس أنف في اجتماعات السياسة الخارجيَّة، وسارع ليك إِلىٰ إِفهام الرئيس أَن علىٰ موريس أَن يبقى بعيداً عن جيمع القضايا ذات العلاقة بالسياسة الخارجيَّة. (لاحقاً كتب موريس في مذكراته عن ليك غاضب يرمقه «بالنظرة الشيطانية القارضة التي كان يخترقني بها كلما صادفني في الرواق»)[3].

بات ليك متأكداً من أَن البوسنة، كما سبق له أَن تنبأ منذ البداية، قادرة علىٰ أسر الإِدارة إِذا لم يبادر أَحد إِلىٰ معالجتها. كان مأزقه متمثلاً بالاهتداء إِلىٰ الطريقة المناسبة لإِطلاق سياسة أَو خطة بوسنية جديدة مع ضمان التزام الرئيس الحقيقي بها. لم يكن ليك يحصل إِلاَّ علىٰ القليل من المساعدة من كبار مسؤولي وزارة الخارجيَّة. ثمة كان، باعتقاد مساعدي ليك، وبلهجة متعاطفة، قَدْر ملحوظ من غياب الحماس لدى الوزارة. فكرستوفر والمحيطون به لم يكونوا حريصين علىٰ الإِمساك بزمام قضية كان الوزير راغباً في أَن ينأى بنفسه عنها، فضلاً عن أَن الرئيس كان هو الآخر متردداً بشأنها. بدت الوزارة بلا أجوبة؛ قد لا تكون سياستنا الراهنة فعَّالة، غير أَن من شأن أَي مسار عمل جديد أَن ينطوي علىٰ مخاطر غير مرغوبة، وبقي كرستوفر، وهو الحذر بطبعه وغير الحاصل علىٰ أية إِشارات واضحة من الرئيس، شديد الحرص علىٰ عدم

(3) موريس، 254.

المخاطرة. إذا لم يكن ما نقوم به من عمل ناجحاً، فإنه قليل التكاليف نسبياً، علىٰ الأقل؛ وأية محاولة أُخرى نبذلها قد لا تنجح أيضاً وقد تنقلب إلىٰ إخفاق أغلى ثمناً وأشد وضوحاً.

قد يبرهن ديك هولبروك العائد من بون حديثاً إلىٰ واشنطن والذي بدأ لتوه بتحركاته كمساعد وزير للشؤون الأوروپية والكندية، علىٰ أنَّه قوة مهمة في عمليَّة البحث عن حل لأزمة البوسنة، غير أنّه لم يكن تابعاً لإدارة ليك ـ بل ربما لم يكن تابعاً لإدارة أَحد. كانت الصداقة الشخصية، الحميمة جداً ذات يوم، بين الرجلين، قد تحطمت منذ زمن بعيد، وباتا يعملان في أجواء مشحونة بقَدْر يكاد لا يخفى من المنافسة وعدم الثقة. كانت الپنتاگون لا تزال تنظر إلىٰ الأحداث بعين التوجس والحذر. كان بيل پيري وجون شاليكاشڤيلي قد حلاّ محل لَسْ آسپن وكولن پاول، وقد يثبتان لاحقاً أنهما أَكثر استعداداً للتفاهم، غير أَن أَي ضوء أخضر يجيز التحرك لم يكن صادراً حتى اللحظة الراهنة من وزارة الدفاع. فالناس في الپنتاگون كانوا ينتظرون صدور إشارة واضحة عن المدنيين حول ما يريدونه والثمن الذي هم مستعدون لدفعه.

في هذا الوضع الهُلامي السائب، بادر ليك إلىٰ طرح البداية المناسبة لخُطَّة خاصة بالبوسنة كانت ستضع حداً لانحراف البيت الأَبيض وضياعه. كان قد تحدث مطولاً مع الرئيس في وقت سابق من السنة حول ما إذا كان يتعين السماح بانهيار قوات اليوإنبروفور Unprofor، التحلي بالحزم، استخدام القوَّة العسكريَّة الأَمريكيَّة اللازمة لإخراج جميع الوحدات الأوروپية المختلفة، فالمبادرة بعد ذلك إلىٰ البدء من جديد علىٰ ساحة خالية باستخدام القوَّة الجويَّة الأَمريكيَّة. بدا كلنتون مهتماً، كانت بداية جديدة، غير أنّه ظل متوجساً إزاء التأثير علىٰ مستقبل التحالف الغربي ولم يكن مستعداً للإقدام علىٰ مثل تلك القفزة الواسعة. فترك اليوإنبروفور Unprofor تنهار علىٰ الأَرض ـ حتى إذا تم الأَمر عن عمد وكانت ثمة سياسة جديدة أقوى في الذهن ـ من شأنه أَن يعرضه

للمزيد من النقد الإِضافي؛ من شأنه أَن يبدو اندحاراً، تراجعاً من النوع الذي قد لا يفضي إِلىٰ أَي انتصار لاحق.

كان ليك قد بدأ بتشكيل فريق عمل خاص للشروع بالتفكير استراتيجياً بهذه الخطة الجديدة، مستخدماً معاونين يعملان بشكل واسع مركزين علىٰ البوسنة، ساندي ڤيرشبو ونلسن درو، لوضع مشروع الخطة. كان ليك عاكفاً علىٰ العمل للمرة الأولى في تحالف وثيق مع مادلين أولبرايت التي كانت من الصقور علىٰ الدوام، والتي كانت، مثله، ترى القوّات البريطانية والفرنسية والدولية الأُخرى علىٰ الأَرض العقبة الكبرى الوحيدة علىٰ طريق حل النزاع. كانت تعتقد أَن لا شيء سيفعّل السياسة هناك أفضل من ترك قوات اليوإِنبروفور Unprofor تنهار. لم تكن علاقة ليك وأولبرايت ميسرة في البداية، غير أنهما ما لبثا، مع حلول ربيع 1995م، أَن أَصبحا حليفين متفقين حول هدف واحد بشأن هذه القضية الملحّة. وفي حزيران/ يونيو كان فريق العمل لدى ليك يعمل علىٰ مدار الساعة. فانطلاقاً من اقتناعه بأن سياسة الإِدارة الحالية كانت نتاج عمليَّة صنع قرار يومية، منفعلة بدلاً من أَن تكون فاعلة، كان ليك يحث العاملين في جهازه علىٰ التحلي بقَدْر أكبر من التفكير الاستراتيجي. اقترح عليهم أَن يتصوروا أنفسهم بعد ستة أشهر، يقدّروا ما كانوا يريدون حصوله في ذلك الوقت، ثم أَن يحاولوا الرجوع إِلىٰ الوراء لتبين الطريقة التي يمكن اعتمادها لتحقيق المطلوب. ما هي الأَهداف؟ هل كان جنود الأمم المتّحدة عاملاً مساعداً أم عقبة، وإِذا كانوا عقبة، فما السبيل إِلىٰ تجاوز نقطة الضعف تلك؟

سرعان ما بات الهدف واضحاً: تقسيم البوسنة بما يعيد رسم الحدود الراهنة ـ حيث باتت نسبة سبعين بالمئة من مساحة البلاد بيد الصرب ـ إِلىٰ جزأين بنسبة 51 ـ 49 بالمئة. لن يكون رسم الخارطة أمراً سهلاً؛ سوف يتطلب قَدْراً من المهارة والمنطق اللازمين لجعل التقسيمات آمنة ومعزّزة قَدْر الإِمكان. كانت مصائر المناطق الآمنة المزعومة في البوسنة الشرقيَّة ـ مثل سربرينيتسا،

زيبا، وگورازده، الباقية تحت الحصار الصربي ـ مثيرة لقدر استثنائي من القلق. حتى مع شروع جماعة ليك بالتعامل مع المشكلة أواخر حزيران/ يونيو، كان الصرب عاكفين علىٰ تضييق الخناق علىٰ هذه الجيوب، علىٰ سربرينيتسا في المقام الأول. وفرت خريطة 51 ـ 49 هدفاً للفريق؛ أمّا فكرة تجميع وحدات اليوإنبروفور Unprofor فقد زودتهم باستراتيجية محددة. قام ليك بتكليف ساندي ڤيرشبو، الذي كان رأس الورشة العاملة علىٰ البوسنة عنده، بكتابة استراتيجية تعرض الجزرات والعصي علىٰ المتعاونين، عرض الانهاء التدريجي للعقوبات الاقتصاديَّة كجزرة الصرب إذا تحرّكوا باتجاه الامتثال، علىٰ سبيل المثال. عُرفت الخطة باسم استراتيجية نهاية اللعبة. تلك كانت الخطوة الأولى. ببطء، دون أن ينتبه أَحد من الآخرين تقريباً، كان ليك موشكاً علىٰ الإمساك بالمبادرة الرامية إلىٰ اعتماد سياسة جديدة والسعي إلىٰ سوق الجهاز البيروقراطي في واشنطن إلىٰ تبني رؤيته. إذا كانت مسودة نهاية اللعبة الخطوة الأولى، فإن الخطوة الثانية كانت متمثلة بإشراك الرئيس من البداية ـ لتمكين الصنّارة من الإمساك به بصورة نهائية مؤكدة. صحيح أَن كلنتون كان يريد أَن يفعل ما هو صحيح في البوسنة، غير أنّه كان يريد أَن يفعل ذلك مقابل الحد الأدنى من المخاطرة بالنسبة إليه كشخص، بالنسبة إلىٰ رئاسته، وبالنسبة إلىٰ التحالف الأوروپي. لم يكن ليك غافلاً عن تلك المنغصات. غير أنّ أيةَ سياسة جديدة كان لا بد لها من أَن تبدو صادرة عن كلنتون ومطبوعة بموافقته حتى تتوفر لها فُرصُ النجاح. لعل تلك كانت النقطة الأهم، نقطة إلزام رئيس سبق لغرائزه الإنسانية أَن كانت، فيما مضى، قد وضعته في ناحية، غير أَن حَذَره السياسي كان قد أعاده إلىٰ الناحية الأُخرى. كانت ثمة حاجة لضمان إشراكه والتزامه مرة وإلىٰ الأبد.

في الأسابيع القليلة التالية أقدم ليك علىٰ شيء جديد علىٰ صعيد آلية تشغيل مجلس الأَمن القومي: بدأ يشغِّل الجهاز البيروقراطي لصالحه. زار

الرئيس وشرح له ما كان دائباً علىٰ إنجازه: استراتيجية كاملة وشاملة جديدة حول البوسنة قائمة علىٰ العمل في سبيل تحقيق نوع من التسوية الدبلوماسية. غير أن مزيداً من الضغط كان لا بد من ممارسته ضد الصرب علىٰ الأرض، وهو أمر لا يمكن تحقيقه إلاَّ عبر التهديد بالقوَّة العسكريَّة الأَمريكيَّة؛ أَي القوَّة الجويَّة، لأَن استخدام القوَّات البرية كان لا يزال محظوراً. من الضروري ألا يكون الأوروپيون قادرين علىٰ إعاقة الخطة الأَمريكية بسبب الأخطار التي ستتعرّض لها قوّاتهم البرية. أراد ليك أَن يدفع البيروقراطية إِلىٰ الأمام عبر الالتفاف عليها أولاً. كان عازماً علىٰ أَن يذهب مباشرة إِلىٰ الرئيس، علىٰ إلزامه، إِن استطاع، بمسار عمل محدد دون معرفة نظراء ليك بالأَمر، لأَن هؤلاء كانوا سَيَحْذون حذو الرئيس بعد أَن يعرفوا بأنه بات ملتزماً. وإِلاَّ فإِن كبار مستشاري كلنتون كانوا سيظلون منقسمين وممزقين كما هم الآن ـ في غياب العنصر الأهم من عناصر إِنهاء الاستعصاء الداخلي المتمثِّل بالقيادة الرئاسية. وبالتالي فإِن ليك بادر إِلىٰ إِيجاز خطته علىٰ مسامع الرئيس قبل مفاتحة أَي شخص آخر من قمة الهرم البيروقراطي المتمثلة بپيري، كرستوفر، أَو شاليكاشڤيلي، بها. ففي أواخر حزيران/ يونيو اجتمع ليك بكلنتون ليشرح له مدى الاختلاف الجدي الذي انطوت عليه خطته، مبيناً أَن من شأنها أَن تتطلّب قَدْراً أكبر بشكل ملموس من تخصيص الموارد العسكريَّة الأَمريكيَّة علىٰ عتبة سنة انتخابية. وحسب الرواية الواردة في سجل ملاحظات بوب وودوورد الموثوقة لقصة اجتماعات الرجلين، فإِن ليك قال للرئيس: «سيادة الرئيس، قل لي إِذا لم تكن تريد أَن تقدم علىٰ هذا، أوقفني الآن لأَن المخاطر شديدة الوضوح»[4].

حقاً كانت المخاطر كبيرة. كان من شأن إِخفاق استراتيجية نهاية اللعبة وتسبّبها بحدوث قطيعة مع الحلفاء أَن يشكِّل عامل إِحراج كبير، وصولاً حتى إِلىٰ احتمال إِغراق إِدارة كلنتون. ربما كانت الاستراتيجية ستفرض استخدام

---

(4) وودوورد، **الاختيار**، 258؛ زائد مقابلات إضافية مع رؤساء.

قوات برية أَمريكيَّة بهذا الشكل أَو ذاك في سبيل المساعدة علىٰ حفظ السلام في البوسنة، ولم يكن ذلك التزاماً يريد أَي رئيس أَن يتعهد به في بداية سنة انتخابات. فورا قام كلنتون بإِجازة عملية تطوير الاستراتيجية. غير أَن ليك أراد أَن يتأكد مئة بالمئة أَن كلنتون فهم أَن من شأن التحرّك إِلىٰ الأمام أَن يفضي بسهولة إِلىٰ حرب أوسع مع تورط أَمريكي أكبر. نعم، إِنَّه فهم بأن رئاسته كانت علىٰ الخط، قال كلنتون لليك. كانت لحظة مهمة. كان ليك قد بدأ يُشْرِك الرئيس بهذه الاستراتيجية الجديدة، وسيكون التراجع أصعب بالنسبة إِليه. إِلىٰ حدود معينة كان ليك يقلب الطاولة علىٰ كلنتون. فبعد أشهر من الشكاوى الرئاسية حول الافتقار إِلىٰ خطة جديدة، كان ليك، عملياً، يقول، حسناً، هاكم خطة جديدة وستكون منطوية علىٰ المخاطرة، ولكنني أتوقع منكم أَن تؤيدوها إِذا ما طورتها لكم.

وبعد أَن بات متحكماً بالنرد في اللعبة مع الرئيس، بادر ليك إِلىٰ مطالبة زملائه الكبار پيري، شاليكاشڤيلي، كرستوفر وأولبرايت بضمانات مماثلة. علىٰ الرغم من أَن جزءاً كبيراً من استراتيجية نهاية اللعبة كان يستهدف جَعْل الصرب أَكثر استعداداً للقبول بتسوية، فإِن تحذيراً واحداً تم توجيهه إِلىٰ البوسنيين. إِذا لم يواكبوا الخطة الجديدة، فإِن الأَمريكيين قد ينسحبون كلياً ويتركونهم تحت رحمة الصرب بصورة أسوأ حتى مما كانوا من قبل. كان الأوروپيون، خصوصاً، سيروق لهم ذلك الجزء ـ تشدُّدنا مع المسلمين أَيضاً ـ لأَن الأوروپيين هؤلاء ظلوا حتى اللحظة يظنون أَن الأَمريكيين كانوا يبالغون في انحيازهم إِلىٰ صف المسلمين.

ثمة جَزرٌ وعُصيٌ للجميع، حوافز اقتصاديَّة وروادع عسكريَّة، مع بقاء استخدام القوَّة الجويَّة الأَمريكيَّة عند اللزوم أهمها. أخيراً كانت الولايات المتحدة مقبلة علىٰ القيام بما راوغته طويلاً، علىٰ فرض قيادتها. وبعد الاطمئنان إِلىٰ أَن الخطة باتت متمتعة بالقبول في واشنطن وأَصبح الرئيس ملتزماً

بها التزاماً كاملاً، عزم ليك علىٰ زيارة الحلفاء وإشراكهم بالعمليَّة. كان سيقول بأكثر الطرق الممكنة تهذيباً **إن رئيس الولايات المتحدة قد قرَّر أننا سنعتمد هذه السياسة وأننا نريد بالتأكيد أَن تكونوا طرفاً فيها، غير أننا سنتابع الطريق دون مساعدتكم عند الضرورة.** وكان سيقول إننا نأمل بأن تبادر سائر الأطراف البلقانية ذات العلاقة إِلىٰ تفضيل التفاوض، غير أننا جاهزون لاستخدام القوَّة الجويَّة الأمريكيَّة الهائلة لدفعها إِلىٰ التسليم بالخارطة المعاد رسمها للبوسنة، بتلك الخارطة الجديدة التي نفكر بها. نعم، ستكون من نفس نوعية الرحلة التي سبق لكرستوفر أَن قام بها، ولكن برسالة مختلفة كثيراً.

في الحادي عشر من تموز/يوليو، سقطت سربرينيتسا، وحين استولى الصرب علىٰ البلدة، لم يفعلوا فعلتهم بأي قَدْر من الحياء أَو التحفّظ. اقتحموا المكان متبجحين، مدججين بالسلاح، مع وحداتهم الدعائية جاهزة بمصوريها لتسجيل هذه المناسبة التاريخية والانتصار العظيم. متوجهاً نحو الطاقم التلفزيوني الصربي، مشيراً إِلىٰ القرية القريبة حيث كان الفوج الهولندي متمركزاً وحيث لاذ آلاف المسلمين طلباً للحماية، صاح ملاديتش: «هيا إِلىٰ الأمام! إِلىٰ بوتوكاري! أخيراً، بعد ثورة الداهيات، دقَّت ساعة الانتقام من الأتراك في هذه المنطقة»[5]. كان ملاديتش يشير إِلىٰ حركة التمرّد الصربية ضد الأتراك أَيام الإِمبراطورية العثمانية، تلك الحركة التي كان الأتراك قد سحقوها بكثير من القوّة في 1804م، قبل 191 سنة فقط. من الواضح أَن الزمن توقف في البوسنة. وبعد ذلك أضاف ملاديتش أنه كان يقدم هذه البلدة هدية إِلىٰ الشعب الصربي، سربرينيتسا صربية جديدة. ومن أجل جعل الهدية أَكثر كمالاً، اقترح ملاديتش تحريرها من جميع المسلمين.

ولأَن الصرب كانوا يفاخرون بما كانوا يفعلونه، كانت ثمة كَثْرةٌ من

---

(5) رود، 167.

الوثائق المؤكدة لذلك الاستسلام المأساوي للكولونيل كاريمانس، مهزوماً، مسحوقاً، مضطرباً، ومُذَلاً، إلىٰ ملاديتش المفعم بالنشوة وسَكْرة النصر. ظن العارفون ببواطن وألغاز السياسة في أوروپا أن القيادة الصربية تعمّدت اختيار الفوج الهولندي لعمليَّة الإذلال لأن الهولنديين بالغوا في إبداء الحماس علىٰ صعيد الالتزام بفكرة حفظ السَّلام، والقوَّة الإنسانية، فضلاً عن أن أمستردام كانت ملأى بمشاعر العداء للعدوان الصربي. علىٰ شاشات التلڤزيون الصربي، كما في أية مسرحية مكتوبة، ثم التفنن بتقديم الكولونيل كاريمانس شريكاً في جريمة سقوط سربرينيتسا. بدا الكولونيل محتفلاً بالانتصار الصربي ـ مع كأس شامپانيا ربما؟ غير أن ما كانت بيد الرجل لم تكن سوى كأس ماء لإنسان هَدَّه التعب والعَطَش.

بدت عمليَّة الاستسلام تلك ساحقة للقلوب: ذلك التباهي الصارخ لملاديتش كفاتح منتصر، وذلك الإذلال الفاضح لكاريمانس، لرجل شريف لا حول له ولا قوة، تمّ إرساله لأداء ما بدت إحدى أنبل الرسالات والمهمات، ولكنها ما لبثت أن انقلبت إلىٰ خيانة لكل شيء آمن به هو وشعبه العزيز. كان رُعْبُ المسلمين الواقعين في الأسر، لدى سقوط جيب سربرينيتسا ووصول فريق التشتنيك المقيتة والمخيفة، ملموساً لإدراكهم حقيقة أَن حماتهم المزعومين كانوا الآن يساومون علىٰ حياتهم هم. فكل نقاط الضعف، وجميع أشكال الإخفاق في التحرّك، التي ابتُلي الغربُ بها علىٰ امتداد السنوات الأربع الأخيرة كانت الآن تفرض أثمانها الباهظة. لم يكن الجنود الهولنديون العاجزون، الذين باتوا موضوعاً للسخرية والإذلال من جانب هؤلاء المعتدين الغزاة، إلاَّ بدائل نموذجيين يمثّلون دور القوى الغربيَّة كلها في هذا الفيلم الكئيب. وما إن بات الصرب ممسكين بزمام إدارة القرية حتى بدؤوا يحرّرون المنطقة من جميع المسلمين. قد لا يكون الصرب مقاتلين جيدين ولكنهم نجحوا كثيراً في اقتراف المذابح. كانوا أصحاب تجربة، واتصفت العمليَّة كلها بقدر كبير من كفاءة إحداث الرعب والخوف.

فيما كانت قوات الأمم المتّحدة لا تزال ضئيلة ومخدَّرة جراء الهزيمة، سارع الصرب إلىٰ فصل النساء والأطفال عن الرجال ونقلوهم بالحافلات إلىٰ مناطق إسلامية أُخرى مزدحمة سلفاً باللاجئين. حاولوا التخفيف من التوتر عبر تقديم الوعود للنساء بأن كل شيء سيكون علىٰ ما يرام. جرى أَيضاً سَوْق الرجال إلىٰ الباصات [الحافلات]، غير أَن أَحداً لن يراهم ثانية. لقد أُعدموا ودُفنوا في مقابر جماعية. متابعاً عمليَّة فصل الرجال عن النساء، سأل أَحد مصوري التلڤزيون الصربي طبيباً هولندياً هو الكولونيل گيري كْرَمَر عما كان يحدث. مصعوقاً بالمشهد، مصعوقاً بالسؤال وبمصدره أجاب كرمر: «أنتم خير من يعرف ما يحدث»[6]. حقاً، كانوا يعرفون. ففي الأَيام القليلة التالية أقدم الصرب بقيادة ملاديتش، وبصورة منهجية، علىٰ إعدام ما قُدر عددهم بسبعة آلاف رجل مسلم.

نَجَتْ حفنة صغيرة من الرجال ورَوَتْ قصة الإعدامات الجماعية. كان الجنود الصرب، المحصنون غالباً بالكحول والمزودون ببنادق الكلاشينكوف، ذلك السلاح الإجرامي الاستثنائي (قيل إنَّه أفضل في مثل هذه الأوضاع من الرشاشات التي كانت كثيرة الخطأ والاستعصاء)، يقومون بصف المسلمين رتلاً ويطلقون النار عليهم. كان المسلمون يصرخون متوسلين طالبين الرحمة، كما ورد في شهادة أَحد الجلادين الصرب أمام محكمة جرائم الحرب في لاهاي. وقد أضاف الشاهد: «كانوا يتوسّلون إِلينا، يرجوننا متضرعين «لا تقتلونا، لا تطلقوا النار علينا! إِن أسرنا في النمسا سترسل لكم أموالاً؟ وقد صرخ أَحد رفاقي في وجه المسلمين، «كل من لديه ماركات ألمانية سينجو؛ غير أَن برانكو [الرقيب رئيس الدورية] قال: اطمئنوا! لقد تم تجريدهم [سلفاً] من كل شيء في زْفورْنيك»»[7].

---

(6) هونيگ وبوث، XVII.

(7) المصدر السابق، 63 ـ 64.

لدى سقوط سربرينيتسا، أجرى كلنتون وشيراك مكالمة هاتفية. كان الأخير غاضباً وأكد أَن الأَمر كان شبيهاً بأسوأ ما حصل في الحرب العالميَّة الثانية. وأضاف، حسب التسجيلات الرسمية للمكالمة: «علينا أَن نفعل شيئاً». فوافقه كلنتون قائلاً: «نعم، يجب علينا أَن نتحرَّك»[8]. أراد شيراك استخدام القوَّات الفرنسية (مع حوامات حربية أَمريكيَّة توصلها إِلىٰ الموقع) لاستعادة البلدة. كانت الخطة زاهية بحُلَّتها المنسوجة من خيوط الفروسية الفرنسية الغابرة، ملأى بالمخاطر والأمجاد، غير أنّها لم تبهر لا الرئيس ولا أولئك الموجودين في الپنتاگون. هل كانت ستحدث كل ذلك القَدْر من التغيير؟ لم يكن ثمة أَي جواب مقنع عن هذا السؤال.

ومع ذلك فإن الرئيس ما لبث أَن ثار غضباً مرة أُخرى؛ بدا وكأن هؤلاء القادة الصرب التافهين كانوا مصرّين علىٰ استفزازه شخصياً، فانفجر كلنتون يوم 14 تموز/يوليو. ربما كان ليك عاكفاً علىٰ وضع اللمسات الأخيرة علىٰ استراتيجية نهاية اللعبة، غير أَن الخطة لم تكن منجزة بعد وكان كلنتون شديد الغضب. كانت سربرينيتسا كارثة حقيقية، بقي الحلفاء منقسمين، بدأت مطالبة الكونگرس بالتحرّك تتصاعد، وكان شيراك يحاول احتلال مركز الصدارة علىٰ الساحة. ففي ساعة أبكر من ذلك اليوم كان شيراك قد تحدَّث في مؤتمر صحفي بمناسبة عيد اقتحام الباستيل في باريس عن تطلّعه بشغف إِلىٰ مجابهة الصرب، ولكنّه أشار، آسفاً، إِلىٰ أَن فرنسا كانت وحيدة في رغبتها في التحرّك والفعل. تحدَّث شيراك عن ضَعْف الغرب وقارنه بما حصل في 1938م حين وقع الغرب في خطأ استرضاء هتلر الذي اقتحم أَرض السوديت. وألمح شيراك إِلىٰ أَن فرنسا ستضطر، أخيراً، إِلىٰ الانسحاب من اليوإِنبروفور Unprofor، قائلاً: «لا نستطيع أَن نتصوّر بقاء قوات الأمم المتّحدة للمراقبة فقط، ولتكون، بشكل ما،

---

(8) وودوورد، **الاختيار**، 259 ـ 260.

متواطئة وشريكة في الوضع. إذا كان الوضع كذلك، فإن الانسحاب أفضل»[9]. إنّها إهانة ليس بعدها إهانة للرئيس، ثمة زعيم غربي آخر يتحدَّث عن عجز قيادة كلنتون متهماً الحلفاء بجريمة استرضاء المعتدين.

لن يلبث ردّ فعل كلنتون أن يصبح معروفاً داخل البيت الأَبيض يوم ملعب الگولف. فأولئك الذين دأبوا علىٰ مراقبته خلال الأسابيع القليلة الأخيرة كانوا قد أحسّوا بأن درجة الحرارة الرئاسية كانت مرتفعة وبأن بركاناً معيناً كان موشكاً علىٰ الانفجار. كان قد أجرى أعداداً متزايدة باطراد من الاتصالات الهاتفية الليلية المتأخِّرة المشحونة بالغضب مع المساعدين حول الموضوع نفسه: كان لا بد من فعل شيء، كانوا في مأزق وبحاجة إلىٰ خطّة جديدة. وبالتالي فإن انفجار كلنتون، في الساعات الأولى من المساء، في حوالي السابعة مساء، لم يكن مفاجئاً كلياً. لقد كان الرئيس، العاكف علىٰ ممارسة لعبة الگولف في الباحة الخضراء الصغيرة المعروفة باسم مرج إيزنهاور الأخضر، متقداً غضباً. لم يكن ليك حاضراً، مما جعل كلنتون يصب جام غضبه علىٰ أعضاء جهاز ليك ـ علىٰ بيرگر، نائب ليك الأول، نانسي زودربيرگ، إضافة إلىٰ مدير المكتب الصحفي مايك ماكوري.

كان هؤلاء قد جاؤوا ليتحدَّثوا مع الرئيس عن البوسنة، وعن الكلمات القوية الصادرة عن باريس. لقد كان وجود ماكوري مع اثنين من نواب سكرتير مجلس الأَمن القومي دليلاً مؤكداً علىٰ أنّهم كانوا مهتمين بأسئلة مطروحة من قبل الصحافة. عثروا علىٰ كلنتون في المكان الذي كان يجب أَن يذهب إليه في ساعات العصر المتأخرة أَو المساء المبكرة لدى رغبته في التحرّر من ضغوط المكتب. كان يأخذ معه حزمة من كرات الگولف، يبعثرها علىٰ مسافة معينة من الحفرة، ثم يبدأ اللعب ضارباً ومسدداً. ظل كلنتون يضرب ويسدِّد، ثم يعيد

(9) رود، 301 ـ 302.

الضرب والتسديد، وظل ماكوري وأعضاء مجلس الأَمن القومي يستعيدون الكرات لتمكين الرئيس من معاودة الضرب والتسديد مرة بعد أُخرى. وأخيراً انفجر كلنتون. لقد كان رئيسَ الولايات المتحدة الأَمريكيَّة ومتعرّضاً للتحدي في القضية الأهم التي تواجهه من قبل أناس لا يجوز أَن يكونوا قادرين علىٰ تحدي رئيس للجمهوريَّة.

بين اثنتين من عمليَّات تسديده، صاح بغضب «لا يمكن لهذا أَن يستمر. ثمة من يثير غضبي». طالبهم بأن يكونوا حائزين علىٰ أفكار صالحة لوضع خطة جديدة، ثم ضرب إِحدى الكرات، قائلاً: «لا بدّ لهذا من أَن يتوقف. علينا أَن نهتدي إِلىٰ نوع من السياسة فنتحرّك إِلىٰ الأمام». وضربة أُخرى، علّق بيرگر مؤكداً أَن ليك عاكف علىٰ استراتيجية نهاية اللعبة. غير أَن ذلك لم يؤد، علىٰ ما يبدو، إِلىٰ التخفيف من آلام الرئيس الذي شكا من الضغط الذي كان شيراك يمارسه عليه. لقد كان مضغوطاً من الجهات كلّها، وظلّ يكرّر: «لماذا يتخلّف العاملون عندي عن خدمتي؟ لماذا لا يقدمون قَدْراً أكبر من الخدمة؟ لماذا لا أكون قادراً علىٰ امتلاك خطة جديدة؟». أخيراً بادرت سودنبرگ، المكلفة بتناول العشاء مع بعض الدبلوماسيين النيجيريين، إِلىٰ الاعتذار قائلة همساً في أذن بيرگر الأقل حظاً الذي تركته لتلقي وابل التوبيخ الباقي: «حظاً سعيداً!» حوالي الساعة الثامنة إلاّ ربعاً، بعد ثلاثة أرباع الساعة من الغضب الرئاسي، بادر ماكوري، هو الآخر، إِلىٰ الرحيل. والشيء الأخير الذي تذكر أنه رآه هو قيام بيرگر بالتقاط مضرب للعب أَيضاً، وهو يحاول شرح جملة من احتمالات التحرّك المختلفة للرئيس[10].

لقد شكل انفجار ملعب الگولف دعماً نموذجياً كاملاً لليك. بات الرئيس يطالب بخطة جديدة، وتلك هي بالتحديد ما كان ليك عاكفاً علىٰ إِنجازها.

(10) وودوورد، **الاختيار**، 261؛ زائد مقابلات مع ليك، سودربيرگ، ماكوري، بيرگر، وڤيرشبو.

ففي يوم الاثنين التالي قدَّم استراتيجيته التي حملت عنوان نهاية اللعبة إلىٰ نظرائه كرستوفر، پيري، شاليكاشفيلي، أولبرايت، وبيرگر. من قبل كان ليك قد أشار علىٰ كلنتون أن يدلف إلىٰ غرفة الاجتماع. بدأ ليك باستعراض خطته «اللعبة»، ثم وفي اللحظة المناسبة تماماً تنفيذاً لإشارة متفق عليها مسبقاً، دخل كلنتون وعبّر عن استيائه من الأَمر الواقع. فالبوسنة كانت تلحق أضراراً كبيرة جداً بالولايات المتحدة وبسمعتها في سائر أرجاء العالم، كما قال كلنتون. ثمة من يحاول إِظهار أَمريكا علىٰ أنّها ضعيفة. دأب الصرب علىٰ مراوغتنا بمهارة لسنوات كثيرة. وأضاف: «المرة الوحيدة التي نحقِّق فيها نوعاً من التقدّم هي المرة التي نهدد فيها باستخدام القوَّة أَو نستخدمها فعلاً». لا فائدة في الأوروپيين ـ كل ما يقومون به هو التذمّر والنواح، رغم أَن حماس شيراك بدا زائداً. وتابع كلنتون كلامه قاصداً أَن العالم ينظر ويرى «إِنها حرب علىٰ شاشة السي. إِن. إِن. موقفنا ضعيف يتعذّر الدفاع عنه ـ إِن العمليَّة دائبة علىٰ تقويض مكانة قوة الولايات المتحدة في العالم». ثم غادر الاجتماع. جاءت كلمات ليك الأخيرة حاسمة: «إِنها أكبر من البوسنة. باتت البوسنة. . . . رمز سياسة الولايات المتحدة الخارجيَّة»[11]. وقبل انتهاء الاجتماع طلب ليك من الآخرين أَن يقدموا اقتراحاتهم من أجل إِحداث تغيير في السياسة. لم تكن تلك فعالة مثل استراتيجية نهاية اللعبة. جوهرياً كانت وزارتا الخارجيَّة والدفاع لا تزالان تؤمنان بفكرة الاحتواء، حتى بعد أَن أَصبح واضحاً أَكثر فأَكثر أَن الاحتواء لم يكن إِلاً إِحدى صيغ الإِذلال ـ علىٰ الصعيدين السياسي والعسكري كليهما.

غير أَن المواقف كانت تتغير، وكانت سربرينيتسا قد ساعدت علىٰ حدوث هذا التغيير. فبعد سقوط البلدة، قام كلنتون بإِيفاد كل من جون شاليكاشفيلي وبيل پيري إِلىٰ لندن للاجتماع بنظيريهما من أجل الاهتداء إِلىٰ

(11) وودوورد، **الاختبار**، 262؛ زائد مقابلات مع جل كبار الموظفين.

طريقة تمكّنهم من إِيجاد مخرج من المأزق الراهن ومن الاهتداء إِلىٰ صيغة ما مقبولة لدى الأَطراف تجيز استخدام سلاح الطيران الأَمريكي وتضع حداً لقدرة الصرب علىٰ مهاجمة البوسنيين براً. فيما مضى، كان پيري وشاليكاشڤيلي، كلاهما، مهما كانت عواطفهما الخاصّة، يشاركان الپنتاگون عُزوفه العام عن اعتماد أية سياسة أَكثر فاعلية ونشاطاً. من قبل، حين أقدمت الإِدارة علىٰ إِرسال شاليكاشڤيلي لاقتراح فكرة رفع مستوى السياسة الحالية، كان علىٰ الدوام يعرف ما كان سيحصل عليه من رد: «اعذرنا يا شالي،أَنتم لا تستطيعون أَن تلعبوا، أَن تشاركوا باللعبة، حتى ترسلوا قواتكم وتتقاسموا المخاطر معنا». أَمَّا الآن فإِن الصورة كانت مرشحة لأَن تكون مختلفة.

الفصل الثامن والعشرون

لا شيء ميّز الطابع الكوني ـ السائب إلىٰ حد كبير ـ للتجربة الاجتماعيَّة ـ السياسيَّة الأمريكيَّة الحديثة أفضل من عمليَّة التحوّل من كولن پاول إلىٰ جون شاليكاشڤيلي في أحد أكثر مناصب الحياة العامة أهميَّة وحساسية. كان من الصعب تصوّر أية قوة عظمى في أية لحظة من التاريخ أن تقدم علىٰ إسناد مثل هذين المنصبين إلىٰ رجلين كانت خلفياتهما علىٰ هذه الدرجة من التناقض مع الأعراف والتقاليد، بالنسبة إلىٰ الموقعين الرفيعين جداً اللذين كانا يشغلانهما. خلافاً لحال كبار ضباط الجيش في الماضي، لم يكن أي من الرجلين من خريجي أكاديمية وست پوينت. ولم يكن ذلك إلاّ البداية. إذا كان پاول، ابن زوجين زنجيين مهاجرين من جامايكا، وخريج حي البرونكس، وكلية مدينة نيويورك ومدرسة الضباط الاحتياط، اختياراً غير مألوف لتولي رئاسة هيئة رؤساء الأركان، فإن شالي، كما أحب أن يلقَّب، كان مسؤولاً عسكرياً أمريكياً رفيعاً أبعد احتمالاً بما لا يقاس، مستنداً إلىٰ تاريخ شخصي لم يكن أقل إثارة ولفتاً للأنظار.

كان الرجل نتاج فوضى أوروپا الحديثة وركامها، مهاجراً اهتدى إلىٰ ملاذ في أمريكا عند وصوله إليها سنة 1952م وهو في السادسة عشرة من عمره، وقد تعلّم جزءاً كبيراً من لغته الإنگليزية عبر متابعة أفلام جون واين. كانت أمه، ماريا روديگر، مواطنة پولونية نصفها من أصول ألمانية. كان والده قد قاتل بين

سنتي 1919 و1921م مع الجيش الأبيض الروسي خلال الحرب الأهلية الروسية. وحين انتهت تلك الحرب كان قد استقر في پولونيا، تزوج، ودرَّب ضباطاً لصالح الخيَّالة البولونية. ذلك هو المكان الذي وُلد فيه جون شاليكاشڤيلي سنة 1936م. حارب ديمتري شاليكاشڤيلي ضد الألمان أوائل الحرب العالميَّة الثانية في صفوف فرقة الفرسان البولونية ذات الحظ العاثر في تلك الأيام الملأى بالأسى حين كانت الصورة الأَكثر رسوخاً في ذلك الزمن هي صورة فارس امتطى جواداً وانطلق بشجاعة لمواجهة فرق البانزر الألمانية القوية التي شكّلت رأس حربة الحرب الخاطفة الكبرى الأولى. أُسر ديمتري من قبل الألمان ولكن زوجه ذات الصلات المتنفذة في ألمانيا سرعان ما ضمنت إِطلاق سراحه. خلال فترة طويلة من سني الحرب بقيت العائلة في وارصو. وبعد حوالي ستين سنة، وبوصفه رئيساً لرؤساء الأركان، كان جون شاليكاشڤيلي قد زار الياد ڤاشيم في القدس، وكان، أمام هذا النصب التذكاري للمحرقة، قد فاجأ مضيفه حين انفجر باكياً بسبب الذكريات التي أثارها عن إِذلال اليهود في گيتو وارصو، ذلك الإِذلال الذي كان شاهداً عليه صبياً.

بعد إِطلاق سراحه، خدم ديمتري شاليكاشڤيلي مع الوحدات الجورجية المقاتلة تحت الراية الألمانية، حالماً بتحقيق استقلال جورجيا عن السوڤييت ذات يوم. وهذه الوحدات التي عُرفت باسم الفيلق الجورجي نُشرت أولاً علىٰ امتداد ساحل النورماندي لصد قوات الحلفاء. وحين تمكنت هذه القوَّات من التدفّق أخيراً، نقل ديمتري إِلىٰ وحدة أُخرى، إِلىٰ فوج جورجي تحت قيادة قوات الإِس إِس، المقاتلة في إِيطاليا. وحين سمع جو شاليكاشڤيلي، في أثناء جلسة التثبيت بواشنطن، بعد حوالي خمسين سنة، وللمرة الأولى عن دور أبيه في هذه الوحدة، أصيب بصدمة وانسحق تحت تأثير النبأ. أَمَّا باقي أفراد العائلة فكانوا موجودين في وارصو حين بدأ الجيش الأحمر، بعد تحوّل اتجاه الحرب في ستالينگراد، يتقدّم نحو الغرب. بشكل ما نجا أفراد أسرة شاليكاشڤيلي من

قصف المدينة وبقوا بعيدين عن الروس. ثم ما لبثت العائلة أَن وصلت إِلىٰ باڤاريا حيث لها بعض الأقارب من الأغنياء، وحيث التقت من جديد، بصدفة غريبة، مع ديمتري شاليكاشڤيلي الذي كان قد نجا من الحملة الإِيطالية، أسره البريطانيون، وأُطلق سراحه أخيراً في 1946م. ثمة روايات جيدة كُتبت عن قصص مغامرات شبيهة بالأوديسة أقل إِثارة من هذه.

بعد ست سنوات، وعبر مساعدة بعض الأقارب (الذين أخفوا فترة خدمة ديمتري شاليكاشڤيلي في قوّات الإِس إِس) والكنيسة الأسقفية الپروتستانتية، هاجرت العائلة إِلىٰ الولايات المتحدة، لتستقر في پيوريا الإِيليونوية، حيث عمل ديمتري شاليكاشڤيلي محاسباً في شركة عامة وعملت ماريا موظفة في أَحد المصارف. تفوّق ابنُهما جون في المدرسة الثانوية وفاز بمنحة من منح جامعة برادلي المحلية. وهناك التحق بسلاح الجو التابع للقوّات الاحتياطية آملاً في أَن يصبح طياراً، غير أَن ضعف البصر حال دون ذلك. وبعيد التخرّج في 1958م استلم مذكرة دعوته إِلىٰ الخدمة والتحق بها. كان ناجحاً في الجيش منذ البداية وما لبث أَن تم إِرساله إِلىٰ مدرسة مرشحي الضباط في فورت سيل. ومثل پاول قبله، اكتشف أنّه يحب الجيش، ورغم أنّه ربما كان، خلافاً لحال پاول، متمتعاً بدائرة أوسع من الفرص في الحياة المدنية، فقد كان ابناً باراً لجندي وقرَّر احتراف الجيش. ذهب إِلىٰ ڤيتنام أواخر 1968م كخبير لقوات الـ ARVIN Army of the Republic of Vietnam جيش الجمهوريَّة الڤيتنامية في المنطقة الواقعة جنوب المنطقة منزوعة السلاح مباشرة.

كان شاليكاشڤيلي طموحاً، مجتهداً، وأَكثر واقعية ودنيوية من كثير من معاصريه، بسبب خلفيته غير الاعتيادية. ظلّت بصيرته علىٰ الدوام تتجاوز حدود أَمريكا. زوَّدَه الجيش بفرص تعليمية جيدة؛ حصل علىٰ شهادة الماجستير في الشؤون الدولية من جامعة جورج واشنطن وتابع العدد المطلوب من الدورات التدريبيَّة المتقدّمة. كان ما اكتشفه، مرّة أُخرى مثل پاول، متمثلاً بأنه ناجح

كجندي. شكّلت حياة الجندية طريقة مريحة، شديدة الترحيب بالقادمين الجدد غير المدعومين ولكنهم موهوبون يمكنهم ـ في هذه الحقبة المتميزة بقَدْر أكبر من الميل إِلىٰ تحطيم الأصنام ـ إِضفاء قدر أكبر من السلطة مقارنة مع أبناء موهوبين بالمثل لأسر أَمريكيَّة أكثر تقليدية ونجاحاً. حقَّق نجاحاً جيداً جداً في سنوات ما بعد ڤيتنام. تحلّى بالذكاء والفطنة، اهتم كثيراً بالتفاصيل، وقوّم نقاط قوة ومواطن ضعف من هم حوله بقدر كبير من المهارة. أثبت باستمرار أنّه أكثر ذكاءً وكفاءة مما توقعه رؤساؤه، وبفضل معرفته للغات ـ الألمانية، الپولونية، والروسية ـ كان عنصراً لا يقدَّر بثمن خلال الساعات التي أمضاها في أوروپا، حيث لمع في أداء واجباته كنائب للقوات الأَمريكيَّة، جنرال ثلاث نجوم، خلال حرب الخليج.

قبيل اندلاع تلك الحرب، قرَّر كولن پاول ونورمان شوارتزكوپف زيادة حجم القوّات الأمريكيَّة في الخليج بإِضافة حوالي سبعة آلاف عنصر من الجيش الثامن الذي كان متمركزاً في أوروپا. قرَّر أَيضاً تبديلاً كاملاً للعربات المدرعة، من الدبابات البالية القديمة الموجودة في الخليج إِلىٰ الأُخرى الأحدث الموجودة في ألمانيا. كانت تلك مهمة لوجستية عملاقة، في اللحظة الأخيرة، لأَن عيد الميلاد بات وشيكاً، غير أَن شاليكاشڤيلي الذي تعاون تعاوناً وثيقاً مع موظفي السكك الحديدية الألمان، نجح في تحريك جُل ذلك العدد من الرجال والمعدات علىٰ شبكة السكك الحديدية الألمانية دون إِعاقة النقل العادي بالنسبة إِلىٰ المواطنين المحليين. ومستخدماً طرق السيارات السريعة وشبكة الخطوط البحرية والنهرية إِضافة إِلىٰ القطارات، أنجز المهمة في الوقت المحدد. كانت الضغوط علىٰ المواعيد هائلة لأَن الاجتياح كله كان متوقفاً علىٰ استكمال كل شيء في اللحظة المحددة بدقة. ما حقّقه لم يكن أقل من مأثرة عسكريَّة. برأي رئيسه في بروكسل، الجنرال جاك گالڤن، الذي كان يحمل أربع نجوم، ربما لم يكن أَي ضابط آخر في جيش الولايات المتحدة قادراً علىٰ إِنجاز العمليَّة بالنجاح نفسه.

حتى تلك اللحظة لم يخطر ببال أَحد احتمال كون شاليكاشڤيلي واحداً من نجوم الجيش الساطعة. لعل جزءاً من السبب يعود إِلىٰ اسمه الأخير، الذي ظل طويلاً وصعب اللفظ. وكان جزء آخر كامناً في أنّه كان يتكلم بقَدْر من الرطانة الأجنبية؛ فقد تعلم لغته الإنكليزية ليس فقط من الأفلام بل ومن كتب مدرسية عتيقة، مما أضفى علىٰ كلامه قَدْراً من الشكلية قديمة الطراز. أضف إِلىٰ ذلك أَن قسماته، لدى كلامه، لم تكن تتمتع بالمرونة السهلة والحركات المنسّقة المعبّرة عن التغيرات المزاجية المختلفة لدى ابن البلد الأصلي. وقد أدّى ذلك كله إِلىٰ أن يجعله يبدو ليس أَكثر رسمية مما هو، بل وربما أثقل قليلاً في الأسلوب والتفكير. وعلىٰ الرغم من أَنَّه رجل مدهش علىٰ صعيد الدماثة، فإِنه كان يترك انطباعاً أول بأنه متبلد الحس. وبالتالي فقد ذاع صيته ضابطاً جيداً، مواطناً صلباً قادراً علىٰ إِنجاز المهمة التي توكل إِليه، ولكن ربما ليس مرشحاً لشغل أَي منصب رفيع. غير أَن طَنْجرة ضَغْط استعدادات ما قبل حرب الخليج اللوجستية ما لبثت أَن ساعدت علىٰ سطوع نَجمه وما من أَحد انتبه إِلىٰ ذلك أَكثر من كولن پاول. ففي تلك الأَيام دأب پاول علىٰ الاتصال بانتظام بجاك گالڤن في بروكسل والاستفهام عما كان يشغله شاليكاشڤيلي. ظل الإِعجاب يتنامى في صوت پاول وكثيراً ما كان يقول: «يبدو شالي رائعاً، أليس كذلك؟ أعني ما أقوله؛ إِنَّه رائع حقاً»، ويؤيده گالڤن في الرأي.

مع انتهاء حرب الخليج أنجز شاليكاشڤيلي مهمة صعبة أُخرى. بتشجيع من انتصار الجيش الأَمريكي، كان الأكراد قد استولوا علىٰ عدد من القرى في شمال العراق، ولكن الجيش العراقي المتحرر من مواجهة الأَمريكان، كان قد سارع إِلىٰ مطاردتهم ونسف مواقعهم ودكّها في قراهم بالمدفعية من مسافات قريبة ومباشرة. علىٰ الفور برزت علىٰ السطح مأساة كبرى بصورة مفاجئة. كان الأكراد قد لاذوا بالمناطق الجبلية، بأعداد ربما وصلت إِلىٰ ست أَو سبع مئة ألف، باعتقاد البعض، وفي أوضاع بالغة البؤس. كانوا بلا طعام وبلا ماء بل

ودون أي مأوى أحياناً كثيرة. قَدَّرَتْ وكالات الغوث المختلفة أَن معدلات الموت اليومية في صفوفهم ربما وصلت إِلىٰ الألف. سارع الأتراك إِلىٰ إِغلاق الحدود في وجههم ـ بعد استيعاب ما بوسعهم استيعابه ـ مما ضاعف من احتمالات وقوع كارثة إنسانية. تمثَّلت المشكلة الأشد إِلحاحاً بإِيصال الغذاء والماء إِلىٰ اللاجئين، ولأَن گالڤن اعتقد أَن الحل كامن في الإِسقاط الجوي بالدرجة الأولى، فقد كلف جنرال نجمتين من سلاح الطيران يدعى جيم جيمسون بإِدارة العمليَّة. غير أَن المهمة سرعان ما تعقَّدت لتصبح مشكلة بالغة الصعوبة متمثِّلة بنقل الأكراد من المناطق الجبلية إِلىٰ مخيمات لاجئين حيث نستطيع حمايتهم وصد الجيش العراقي عنهم عند الحاجة. وفي تلك المرحلة بادر گالڤن إِلىٰ تعديل المهمات منصِّباً شاليكاشڤيلي آمراً لجيمسون.

نجح شاليكاشڤيلي في نقل الأكراد من المناطق الجبلية إِلىٰ مخيمات جديدة ـ مدن من الخيم ـ وأوجد مناطق آمنة طالب القوَّات العراقية باحترامها. وفيما بعد استطاع عبر مفاوضات بارعة مع السلطات المحلية (ومن خلال صدَّام حسين أخيراً) أَن يمكّن الأكراد من العودة إِلىٰ قراهم. كانت المهمة، باعتقاد گالڤن، خطرة ومتفجرة في الوقت نفسه. أخيراً بادر شاليكاشڤيلي، خشية تحول مخيمات اللاجئين الجديدة، في جعلها قوية، إِلىٰ مخيمات دائمة، «مثل إِيجاد قطاع غزة جديد»، حسب تعبير شاليكاشڤيلي نفسه، إِلىٰ تحديد مواعيد صارمة لانتهاء مدة الإِقامة في المخيم مع تعمّد جعل الأخير مأوى غير دائم في سبيل دفع الأكراد وإِعادتهم عنوة إِلىٰ قراهم الأصلية. يعتقد بعض المسؤولين عن اللاجئين أَن عمليَّة توفير الراحة المزعومة هذه أنقذت حياة حوالي ست مئة ألف من الأشخاص.

شكَّلت العمليَّة مثالاً نموذجياً لذلك النوع من الأزمات التي بات أَي ضابط أَمريكي علىٰ مستوى رفيع ملزماً بالتعامل معها. وربما كانت المناسبة التي أنضجت شاليكاشڤيلي، المهمة التي رَفَعَتْه إِلىٰ مستوى أعلىٰ من مستويات

الكثير من أبناء جيله الموهوبين ووضعته علىٰ أسرع الطُرق العسكريَّة. يقول مورت آبراموڤيتس الذي كان سفيراً أمريكياً في تركيا بعد أَن خدم في تايلاند مما جعله واسع الاطلاع بصورة غير عادية علىٰ مشكلات اللاجئين واستثنائي التشدّد في تقويم كبار موظفي الأجهزة الحكومية «لقد كان إنقاذ حياة ذلك العدد من اللاجئين إنجازاً خارقاً للعادة، وتطلّب مهارات ومواهب غير عادية. تعين علىٰ شالي أَن يحميهم من العراقيين، كان مضطراً للتعامل مع الحكومة التركية، الأَمر الذي فعله بأسلوب جمع بين التشدّد والمرونة، وبعد ذلك تعامل مع كل من الجيش والحكم العراقيين بالمزيج نفسه من المواصفات. وقد نجح في ذلك كله وصولاً إِلىٰ إِعادة الأكراد إِلىٰ قراهم في غضون ثلاثة أسابيع. بدا متحلياً بصفات غير عادية، بحساسية معينة إِزاء مشكلات اللاجئين لا يمكن للمرء أَن يتوقعها عادة لدى العسكريين، بمسحة إِنسانية عميقة حقاً. لقد كان دبلوماسياً ممتازاً وجندياً رائعاً في الوقت نفسه في لحظة صعبة إِلىٰ أبعد الحدود».

كان پاول هو الآخر مُعْجَباً. في أَحد اتصالاتهما الهاتفية مع اقتراب أزمة اللاجئين الأكراد إِلىٰ نهايتها كان پاول قد قال لگالڤن: «يبدو شالي ناجحاً جداً هذه الأَيام!» فرد عليه الأخير «أعرف ما ستفعله الآن. ستقول إِنك تريد استعادته». كان حدس گالڤن صادقاً، إِذ بادر پاول إِلىٰ استعادة شاليكاشڤيلي إِلىٰ الولايات المتحدة ليعيِّنه مساعداً له، في منصب قوي ومرموق جداً بالنسبة إِلىٰ جنرال ثلاث نجوم. كان منصب سكرتير أركان پاول ترقية ذات شأن، لا من منطلق تراتب درجات السلم العسكري، بل من حيث التعرّف والظهور في أوساط عالم واشنطن الراقي ـ علىٰ التلة وفي الإِدارة، حيث تميّز پاول في عمله وأَصبح شخصية بالغة القوّة.

كانت حساسية شاليكاشڤيلي إِزاء معاناة اللاجئين صادقة وأصيلة، وبقيت جزءاً متناغماً من أجزاء مهنته. كان بعض أصدقائه يرونها عاكسة لسمتين ميزتاه عن أَكثر العسكريين في مستواه. تمثّلت الأولى بالقُدْرة علىٰ إِدراك ما كان شبيهاً

بما يحصل حين يتعرّض العالم الذي يظنه المرء أنّه عالمه للاختفاء عن وجه الأرض، فيبقى بلا وطن، بلا مأوى، بلا عمل، معتمداً كلياً علىٰ شفقة الآخرين ـ والغرباء وكَرَمهم. أمَّا السمة الثانية فتمثَّلت بالتقدير الاستثنائي الذي يكنه أَي لاجئ لأَمريكا والإِيمان بأن هذا البلد، لا في أعين مواطنيه فقط، بل وبنظر جزء كبير من العالم، هو المكان الذي يلوذ به الأَكثر شقاءاً وبؤساً بوصفه الملجأ الأخير. لم يتم الإِعلان عن وجهات النظر هذه علىٰ الإِطلاق، غير أَن شاليكاشڤيلي ظل دائباً علىٰ التحلي بقدر كبير من الرحمة لدى التعامل مع مشكلات اللاجئين مع وعي حاد بالدور الموسع الجديد الذي قد يضطر الجيش الأَمريكي إِلىٰ الاضطلاع به في التعامل مع أوضاع اللاجئين. ما كان بعض الرسميين يأملون في أَن يجدوه لدى كيسنگر علىٰ صعيد العمل مع اللاجئين ما لبثوا أَن وجدوه عند جون شاليكاشڤيلي.

عاد شاليكاشڤيلي إِلىٰ أوروپا سنة 1992م، قائداً سنة، وقائداً أعلىٰ لقوّات الحلف في أوروپا، المنصب الذي استقال منه گالڤن للتو، وهو منصب جنرال أربع نجوم. وبالنسبة إِلىٰ الكثير من الأَمريكيين كان أَي منصب رفيع في أوروپا نعمة لأَن ذلك كان هو المكان الذي ينتقل إِليه الكبار علىٰ الدوام. غير أَن الأَمر جاء منطوياً علىٰ أَهميَّة إِضافية بالنسبة إِلىٰ شاليكاشڤيلي لأَن المكان كان وطنه ذات يوم. لقد شعر فيه بقَدْر أكبر من الارتياح مقارنة بأَمريكيين آخرين وكان متمتعاً بفضول أَكثر أصالة وباهتمام أقوى فيما يخص المنطقة.

حين جاء وقت استبدال پاول، كان اسم شاليكاشڤيلي علىٰ قائمة رئيس الأركان الوجيزة. كان المرشح الرئيسي الآخر هو جو هوار الذي كان موشكاً علىٰ إِنهاء فترة توليه لقيادة السنتو CENTO. كان الأخير مفضلاً لدى الپنتاگون، واعتُقد أَنَّه أقوى، إِذا دعت الحاجة، في الدفاع عما تراه وزارة الدفاع تقليدياً مواقع تخصّها في أَي نزاع مع المدنيين. وحين أجرى كلنتون مقابلة مع شاليكاشڤيلي، طرح الرئيس عدداً من الأسئلة ثم سأله عما إِذا كان يريد أَن يقول

شيئاً. رد عليه شاليكاشڤيلي بالإِيجاب وقال إِنَّه لم يكن يريد أَن يتولى منصب رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة ويشعر أن باستطاعته أن يخدم البلاد بشكل أفضل كقائد في أوروپا. فهو يعرف أرضها جيداً، يعرف جميع القادة العسكريين والسياسيين هناك، وكان شاعراً بنوع من التعاطف مع كل من اللغات والثقافات.

كان شاليكاشڤيلي من سيقع عليه اختيار كلنتون. لعل ما قذف به إِلىٰ صدر القائمة هو حُسْنُ معالجته لقضية اللاجئين الأكراد. كان من شأن تعيينه أَن يشكِّل انعطافاً حاسماً وتغييراً جذرياً في تركيبة شخصيات الجانب الأَمريكي علىٰ صعيد سياسة البلقان. لم يكن شاليكاشڤيلي متفوقاً بعد علىٰ پاول من حيث التحلي بصفة الصقور فيما يخص البوسنة، غير أَنَّه لم يكن، علىٰ الأقل، خلافاً لحال پاول، متبنياً عقيدة خاصة به. بقيت أوجُه الاختلاف بين الرجلين مسألة أسلوب. فقد كان شاليكاشڤيلي ربما أَكثر قابلية للاقتناع بما يقوله المدنيون في ظل شروط معينة، في حين كان پاول ربما أَكثر تشدّداً وعناداً. بقيت قامة پاول طويلة جداً حتى بات ظله يغطي ويقزِّم عناصر كلنتون، الذين كانوا علىٰ الدوام مهووسين بسمعته، بإِنجازاته، وبثقته بنفسه.

وباعتقاد كبار المسؤولين في الپنتاگون كان هناك شيء آخر ميّز شاليكاشڤيلي وجعل الرئيس، ذا الحساسية الشديدة علىٰ الصعيدين الشخصي والسياسي، يسارع إِلىٰ اختياره. من المؤكد أَن كلنتون كان قد أمسك بوطنية المهاجر لدى شالي، بتلك الوطنية التي بدت ربما أَكثر براءة ولو بقليل من وطنية الجنرالات المولودين هناك، بتلك الوطنية التي من شأنها أَن تمثِّل في اللعبة الجانبية المعقّدة الجارية علىٰ قدم وساق بين البيت الأَبيض والپنتاگون، حيث بدا الجيش حتى الآن ممسكاً بجميع الأوراق، ميزة صغيرة لصالح البيت الأَبيض. وبعد عدد غير قليل من السنوات كان عدد من المدنيين العاملين في إِدارتي بوش وكلنتون والراغبين في تصعيد الدور الأَمريكي في البوسنة سينظرون

إلىٰ تعيين شاليكاشڤيلي بوصفه خطوة مهمة في عمليَّة التحوّل البطيئة للسياسة القائمة، خطوة لم تكن، في البداية، قد بدت خطوة.

ربما كان الحلول محل الشخصية العامة الأَكثر تمتعاً بالاحترام في أَمريكا أمراً مرعباً بالنسبة إلىٰ شاليكاشڤيلي الذي لم يكن متمتعاً بأية شهرة ذات شأن. سارع هنري كيسنگر الدائب علىٰ التقاط ثغرة ما في أَي اختيار تُقْدم عليه الإِدارة الديمقراطيَّة علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة إِلىٰ القول «إِن هناك عشر خيارات أفضل من هذا»، علىٰ مسامع بعض الأصدقاء. وشاليكاشڤيلي نفسه كان واقفاً علىٰ نواقصه ونقاط ضعفه، مدركاً لحقيقة أنّه كان أمام تحد كبير كاريزمياً علىٰ الأقل مقارنة بپاول. كان پاول شخصاً طويل القامة جذّاباً قوي الحضور وهائل القدرة علىٰ استخدام اللغة. أَمّا شاليكاشڤيلي فقد كان، في البداية، النقيض مئة بالمئة، الجندي غير المعروف إِلاَّ لدى زملائه. لم يكن شخصاً لافتاً للنظر، رغم تمتعه بقَدْر كبير من الإِعجاب لدى الجنود الذين خدموا تحت قيادته لاستقامته وعمليته. ثمة كانت مشكلة ذلك الاسم علىٰ الدوام. ففي جميع السنوات التي مَثُل فيها أمام لجنة القوّات المسلَّحة في مجلس الشيوخ لم يوفَّق الجمهوري المخضرم ستروم تورموند في لفظ الاسم بشكل صحيح، علىٰ ما يبدو.

كان شاليكاشڤيلي يعلم بأنّه ينطلق من موقع أضعف علىٰ صعيد الجاذبية العامة والشعبية. بقي كثير التردّد والحرج في البداية، وتعيّن علىٰ مستشاريه أَن يشجعوه علىٰ الإِكثار من الظهور. غير أَن الناس ما لبثوا، تدريجياً، أَن بدؤوا يتعرّفون علىٰ جملة الصفات الأُخرى التي سبق لگالڤن وپاول أَن اكتشفوها منذ زمن طويل. صحيح أَنّه لم يكن مرشحاً لأَن يصبح ذلك اللاعب الواشنطني الذي كانه پاول. غير أنّه كان موهوباً، واسع الاطلاع ومتبحراً دون ضجيج، متواضعاً ـ ما من مرة شكَّلت ذاتُه عقبة علىٰ الطريق ـ جيد الإِصغاء، ناجحاً في الاستفادة ممن هم حوله، إِنساناً طيباً طيبة غير عادية وعميق التفكير مراعياً

لمشاعر الآخرين. تذكّر توني ليك زيارتهما للقوات الأَمريكيَّة في هاييتي في عيد الميلاد سنة 1994م. التقى شاليكاشڤيلي بعدد من الجنود النخبة في الرابع والعشرين من كانون الأَول/ ديسمبر ووجّه إِليهم كلمات بسيطة جداً قائلاً: «أعلم أنّكم جميعاً مقاتلون أشداء، وأعلم أَن بعضكم يشعر بأن وجودكم هذا نوع من الإِحباط وبأن هذه ليست هي المهمة التي تليق بكم. غير أنني أريدكم حين تستيقظون صباحاً وتنظرون في المرآة أَن يسأل كل منكم نفسه: «أعتقد أنني أنقَذْت عدداً كبيراً من الأرواح اليوم ـ أعتقد أنني فعلت شيئاً ذا قيمة؛ من حقكم أَن تفخروا بأنفسكم وأرجو أَن تكونوا فاعلين». كان ذلك، باعتقاد ليك، أداءاً هادئاً ولكنه بليغ، تذكيراً لهؤلاء الشباب والصبايا بأن الجنود النخبة يستطيعون إِنقاذ الأرواح بطُرق مختلفة.

في البداية لم يكن شاليكاشڤيلي متحمساً بالنسبة إِلىٰ البوسنة، وبالتالي فإِن تغييراً ذا شأن لم يطرأ علىٰ السياسة حين جاء ليحل محل پاول. ومع ذلك فإِنه شكَّل موجة هواء طلق جديدة بنظر جماعة كلنتون. فقد كان، برأي هؤلاء، أسهل منالاً وأفضل من سلفه. كان يصغي ويبدي قدراً أكبر من المرونة. وعلىٰ النقيض من الكثير من الناس الموجودين في البيت الأَبيض ومجلس الأَمن القومي، الأصغر من أَن يكونوا من مخضرمي الحرب العالميَّة الثانية بل وحتى الڤيتنامية، الذين كانت تجربتهم القتالية محصورة بحملة سياسيَّة بشعة أَو اثنتين، والذين كانت معرفتهم بباقي العالم مستمدة من الإِجازات ورحلات الاستجمام، كان الرجل قد عاش حياة غير عادية. وكلما أمضى المدنيون معه وقتاً أطول، وجدوه أَكثر قرباً إِلىٰ القلب. ثمة كانت لحظة استثنائية الكشف بصورة رائعة في أيلول/ سپتمبر 1994م، حين جرى الاحتفال بانتهاء الحرب الباردة عبر إِحالة فوج برلين الشهير، تلك الوحدة القتالية الأَمريكيَّة الأسطورية التي تناوبت علىٰ الحراسة في برلين، رمزاً لالتزام أَمريكا بالدفاع عن أوروپا وتذكيراً لها بأنّها إِذا ما اضطرّت ثانية للقتال ذات يوم، فإِن الآلاف من الأَمريكيين سيسارعون إِلىٰ

الالتحاق بركبهم، علىٰ المعاش. كان عدد من كبار المسؤولين الأَمريكيين قد اجتمعوا لحضور ما اعتبروه احتفالاً مهماً، بمن فيهم پيري، كرستوفر، شاليكاشڤيلي وهولبروك. وفي انتظار بدء الاحتفال كانوا يتبادلون الملاحظات حول المرة الأولى التي قام فيها كل منهم بزيارة برلين. من الواضح أَن أولى الزيارات تمّت سنة 1961م قبل ارتفاع الجدار المقيت. ثم تكلّم شاليكاشڤيلي وتفوّق علىٰ الجميع حين قال: «كان ذلك سنة 1943م. في أثناء الحرب. اصطحبني والدي إِلىٰ هنا». لقد كان شالي، برأي هولبروك، هجيناً ساحراً، «خليطاً جامعاً لثقافة أوروپا الوسطى ومعرفتها وإِحساسها بالماضي من جهة مع انفتاح أَمريكا ونزعتها التفاؤلية من الجهة الثانية».

مع صيرورة شاليكاشڤيلي رئيساً لهيئة رؤساء الأركان في خريف 1993م، كانت البوسنة ـ تلك القضية التي بدت قابلة للإِدارة في صيف 1992م حين كان قد عاد إِلىٰ أوروپا قائداً أَمريكياً ـ قد باتت خارج السيطرة بصورة كاملة وكان الناتو يتعرّض للانجرار إِلىٰ أزمة متزايدة عمقاً، مواجهاً خطر الإِخفاق في الامتحان الأَول الذي دخله في حياته كلها. في البداية لم يكن شاليكاشڤيلي توّاقاً للانقضاض علىٰ البوسنة. العكس هو الصحيح. كان متوجساً، مثل پاول، من تعميق التورّط الأَمريكي، فضلاً عن أَن الپنتاگون بقي عازفاً عن المشاركة في البحث عن أية سياسة جديدة. مرة أُخرى، كان شالي، مثله مثل سلفه، ميّالاً إِلىٰ احتقار أولئك الذين كانوا يؤمنون بكمون الحل السحري في إِطلاق القوَّة الجويَّة الأَمريكيَّة لتنفيذ عملية «ارفع واضرب». كان الرجل يعرف أَن عدداً من الناس في الإِدارة، في الكونگرس، في أوساط الحزب الديمقراطي، كانوا هائمين بحب تلك الاستراتيجية. ولكن خطة «ارفع واضرب!» لم تكن، باعتقاده، إِلاَّ سياسة خارجيَّة رخيصة ـ أَي دون المخاطرة بأرواح أَمريكيَّة. كنا سنقدم القوَّة الجويَّة وربما بعض الأَسلحة لمسلمي البوسنة. إِلاَّ أَن فكرة الاقتصار علىٰ استخدام تكنولوجيتنا المتطورة وحدها كانت، برأي

شاليكاشڤيلي، فكرة خرقاء، فكرة لا يطرحها إلاَّ مدنيون لا يعرفون شيئاً عن مدى تعقيد عمليَّة التنسيق بين الطيران والقوَّات البرِّيَّة.

كان شالي يعتقد بأنّها كانت إحدى العمليَّات العسكريَّة الأكثر تعقيداً، شبه المستحيلة علىٰ التنفيذ دون توفّر أناس جيدي التدريب علىٰ صعيد الدعم والإسناد الجويين التكتيكيين. ذلك كان صحيحاً في الحرب العالميَّة الثانية مع طائرات المراوح، أمَّا الآن، مع وجود المقاتلات والقاذفات النفَّاثة التي تطير بسرعات قصوى، فقد أصبح أصعب بما لا يقاس. من المؤكد، برأيه، أن مسلمي البوسنة لن يكونوا مؤهلين للقيام بدورهم، فضلاً عن أن مشكلة اللغة ستكون مرعبة. لا بد من اعتماد أسلوب التصعيد التراكمي المتدرج، خطوة صغيرة في البداية، كأن نطالب بإرسال ضباط ارتباط دعم جوي أمريكي. حفنة من الرجال، بالطبع. غير أن من شأن استخدام قوات أمريكيَّة كوحدات مراقبة أرضية لصالح الطيران أن يعرّض هؤلاء لخطر التحول إلىٰ أهداف ممتازة بالنسبة إلىٰ الصرب. وإذا ما قُتلوا أو أُسروا ـ والصرب لن يخجلوا ولن يتردّدوا حول عَرْضهم في شوارع بلگراد أمام كاميرات التلڤزيون ـ فإن من شأن العمليَّة كلها أن تنهار في يوم واحد أو اثنين، نظراً لغياب التأييد الشعبي والبرلماني، ولهشاشة الدعم في الإدارة نفسها. من السهل أن تصبح العمليَّة تكراراً لفضيحة الصومال. لم تكن خطة «ارفع واضرب!»، برأيه إلاَّ سياسة خارجيَّة عظيمة بسعر مناسب للمساومة ـ غير مؤلمة علىٰ الدوام. وبالتالي فإن شالي بقي متردّداً.

غير أن الأهوال الحاصلة في سربرينيتسا لم تكن قابلة للتجاهل. كان الأمريكيون يتحركون باتجاه سياسة جديدة مدفوعة من قبل الرئيس للمرة الأولى في تاريخ الجهاز البيروقراطي الأمريكي. في ظل هذه الظروف التحق كل من شاليكاشڤيلي وپيري بالركب، مسلِّمَيْن، كليهما، بضرورة اعتماد خطة مختلفة، مدفوعَيْن بالإيمان باستحالة الاستمرار في تحمّل العدوان الصربي، وبأن

العواقب، فضلاً عن الصيغة المباشرة الصارخة للإِبادة، بالنسبة إِلىٰ كل من الناتو وأوروپا والسياسة الأَمريكيَّة في العالم كله قد تضاعفت بصورة فلكية. صحيح أَن سربرينيتسا كانت تروي قصة الإِبادة، غير أَنَّها كانت في الوقت نفسه تحكي قصة نسيج الغَرْب بالذات. بدأ شاليكاشڤيلي يتحدَّث عن هذه الفترة، في المناسبات التي عاد فيها إِلىٰ الپنتاگون من اجتماعات البيت الأَبيض، بوصفها لحظة حاسمة في رئاسة كلنتون، وقد فعل ذلك أداة لتشجيع زملائه علىٰ دفع السياسة الجديدة إِلىٰ الأمام. لم يكن الجميع في الپنتاگون مسرورين، أَو ملتحقين بالركب تماماً، وكان ثمة في بعض الأَوساط اعتقاد يقول بأن المدنيين باتوا مسيطرين علىٰ شالي (باتوا يأكلون حلاوة بعقله). لم يكن هؤلاء الناس يحبون أَن يسمعوا بأن عليهم أَن يتحرّكوا لأَن اللحظة كانت لحظة حاسمة بالنسبة إِلىٰ رئيس لم يكونوا واثقين به.

لولا سربرينيتسا، حيث أقدم الصرب علىٰ جُمْلة تلك الممارسات البشعة والشنيعة المبالغ بها، لما تمت الدعوة، باعتقاد شاليكاشڤيلي، إِلىٰ وضع حد لعدوان هؤلاء. غير أَن سقوط سربرينيتسا أدّى إِلىٰ قلب الوضع رأساً علىٰ عقب. أثار الأَمر حفيظة الدول الغربيَّة وجعل المأساة تبدو شخصية بطريقة ما. كان هذا صحيحاً بالنسبة إِلىٰ الفرنسيين بوجه خاص. فظهور شيراك علىٰ الساحة وَفَّرَ لشاليكاشڤيلي بداية النفوذ مع الحلفاء. كان شيراك قد اقترح استخدام قوات فرنسية ـ بريطانية نخبوية خاصة في عمليَّة إِغارة محمولة بالحوامات لاستعادة البلدة أَو تحريرها. غير أَن الأَمريكيين كانوا متشككين. كانت المخاطر كبيرة، في حين كان المكسب، في حال تحقيق النجاح، صغيراً نسبياً. كان شاليكاشڤيلي قد التقى بزميل فرنسي مسحوقاً تحت وطأة عملية التوبيخ التي قادها شيراك بعد الحادثة مباشرة، وتبين أَن الفرنسيين باتوا، دون أدنى شك، أَكثر استعداداً لقبول فكرة استخدام القوّة.

ذلك هو المنعطف الذي طرح فيه شاليكاشڤيلي فكرة مهمة. لضمان جعل

مثل هذه الإغارة بالحوامات نافذة وفعّالة كان سيتعين علىٰ الأَمريكيين أَن ينفذوا قصفاً جوياً كثيفاً لاستئصال نظام الدفاع الجوي الصربي. إذا كان ذلك صحيحاً، فلماذا الاهتمام بإرسال الفرّامات في مهمة لا تنطوي إلاّ علىٰ قيمة عسكريَّة هامشية؟ لماذا العُزوف عن الغارة الجويَّة المباشرة بدلاً من ذلك، مع جعلها محور العمليَّة، واستئصال الدفاعات الجويَّة الصربية، مع إبلاغ الصرب بما ستكون الرسالة الأولى من بين ما يُحتمل أَن تكون سلسلة طويلة من الرسائل؟ لقد كان هذا سؤالاً وجيهاً جداً وساعد علىٰ جَسْر جملة القضايا التي كانت تفصل الحلفاء منذ زمن طويل.

حين أَصَرَّ شاليكاشفيلي علىٰ الدفاع عن فكرته، خلال رحلة إِلىٰ لندن مع مجموعة صغيرة من الزملاء، وجد الأوروپيين مستمرين في إبداء شيء من التمنّع والرفض، غير أنّه شعر أَيضاً بوجود بعض الصدوع في الجدار، فيما بعد فضيحة سربرينيتسا. وبعد ذلك ذهب الفريق إِلىٰ لاهاي لمتابعة النقاش، حيث عاود استخدام الآراء حول مستقبل الناتو والتحالف قائلاً إِنهما لن يستطيعا الاستمرار علىٰ حالهما حيث كان الإِخفاق الشامل بادياً علىٰ الأفق في الامتحان الأَول الذي تعرّضا له. إذا لم يستطع الناتو أَن يعالج هذه الأزمة، سأل الأَمريكيون، إذا أخفق هنا علىٰ الأَرض الأوروپية، وهو علىٰ حافة الإِخفاق وقت الاجتماع، فما هو الهدف الذي يرمي إِليه التحالف؟ ما الداعي إِلىٰ الاجتماع أساساً؟ ذلك هو السبب الذي يوجب عليهم استخدام الطيران، ولم يعد ممكناً إبقاء العمليَّة تلك الوخزات الصغيرة المجردة. لا بد للعمليَّة من أَن تكون حَمْلة منهجية بما يُشعر الصرب بقَدْر من الألم الحقيقي، ومع حلول وقت اجتماعات لاهاي، بات الروس ممثَّلين لا بوزير الدفاع الروسي، بل بأحد السفراء، وقد عبّروا عن استيائهم من اقتراح شاليكاشفيلي. غير أَن الأخير رأى أَن الفرنسيين، البريطانيين، والهولنديين بدؤوا يلتحقون بالركب؛ وحين عاد من أوروپا بدأ يعتقد أَن هناك، أخيراً، فرصة لتغيير السياسة.

بعد بضعة أَيام، عاد شاليكاشڤيلي إِلىٰ لندن بصحبة بيل پيري ووارن كرستوفر لحضور اجتماع للناتو تم عقده علىٰ عجل. اجتماع سيطلق عليه پيري اسم نقطة الانعطاف، حيث ضغط الرجال الثلاثة علىٰ الحلفاء لدفعهم إِلىٰ قبول فكرة استخدام القوَّة الجويَّة المكثفة ليس فقط إِذا أقدم الصرب علىٰ مهاجمة گورازده أَو أَي مكان آخر مماثل لها، بل المبادرة إِلىٰ الضرب حين يبدون مستعدين لشن أية غارة، أصرّ هؤلاء أَيضاً علىٰ تبسيط آلية التحكم المعتمدة لدى استدعاء القوَّة الجويَّة، علىٰ إِبعاد بطرس ـ غالي وجماعته، الذين كانوا يُعْتَبرون متساهلين، عن القيادة، إِنْ أمكن، ونقل القيادة إِلىٰ أيدي مسؤولي الناتو، القادة الميدانيين في المقام الأول. كانت مهمتهم ناجحة، رغم أَن وضع نظام التحكم الدقيق كان سيستغرق بعض الوقت كما سيتطلب عدداً من الاتصالات الهاتفية من كرستوفر إِلىٰ بطرس ـ غالي لإِقناع الأخير بالتخلي عن مفتاحه. للمرة الأولى كان ثمة نوع من الاتفاق حول حَمْلة جويَّة أَكثر فعالية وبنية قيادية مبسَّطة أقل اتصافاً بالصفة السياسيَّة. كان قدر أكبر بكثير من الزخم ـ زخم محتمل حتى الآن ولكنه زخم علىٰ أية حال ـ قد تمت إِضافته إِلىٰ تهديدات الحلف، وباتت العمليَّة ناتوية الصبغة أَكثر من بقائها في ثوب الأمم المتّحدة.

منذ البداية ترك وزير الدفاع بيل پيري انطباعاً إِيجابياً لدى نظرائه الأوروپيين. لقد كان الشخصية العامّة الأَكثر إِثارة للإِعجاب لدى أقرانه ومثله في ذلك مثل برنت سكوكروفت في نظر أقرانه. بُعَيْد العودة في 1992م حين كانَ توني ليك عاكفاً علىٰ دراسة فريق السياسة الخارجيَّة الانتقالي مع ساندي بيرگر، قبيل تولي جماعة كلنتون للسلطة، كان الرجلان قد ناقشا جملة المواصفات المميزة للموظف العام المثالي. قاما بتقسيم المرشحين المحتملين إِلىٰ أربع فئات: فئة موهَوبة ولكنها باهظة الصيانة، فئة موهوبة رخيصة الصيانة، غير موهوبة كثيراً ولكنها منخفضة تكاليف الصيانة، وفئة رابعة غير موهوبة كثيراً ولكنها مع ذلك باهظة الصيانة. لعل الشخص الأَكثر ندرة، الصنف المثالي، هو

ذلك الذي يجمع بين القيمة العالية وتكاليف الصيانة المنخفضة. وأمثال هذا الأخير كانوا يتحلون بقَدْر كبير من ضبط النفس والشعور المشترك بالهدف العام. لم يكن عملهم متركزاً علىٰ السعي لكسب الشعبية والدعاية، بل علىٰ قيمة العمل نفسه.

ووفقاً لذلك المعيار، كان ليك، مثله مثل جُل الآخرين في الإدارة، يرى ﭙيري أَحد أكفأ الناس المؤهلين للالتحاق بفريق كلنتون. كان ﭙيري قد ساعد علىٰ تمكين الإدارة من الاستقرار حول قضايا الدفاع وعلىٰ إيقاف نزيف البيت الأَبيض. حصل عليه كلنتون في المحاولة الثالثة بعد مأساة لَسْ آسپن وفضيحة بوبي إنمان. كان ﭙيري الأَنْدَر بين الشخصيات العامة وقد عمل علىٰ ذلك المستوى في الپنتاگون ـ رجلاً متمتعاً بقَدْر كبير من الاحترام ذا عقلية منصفة بلا أعداء تقريباً. جاءت مصادقة مجلس الشيوخ علىٰ تثبيته إجماعية. كانت قامته قصيرة خارج المبنى، ولكنه كان متمتعاً بقَدْر كبير من الإعجاب داخله. لم يتعيّن عليه قط إيضاح أَن القرارات المتخذة صادرة عنه هو أَو أنّه كان مسؤولاً عن أية انتصارات، أَو أنّه كان قادراً، إذا دعت الضرورة، علىٰ تناول وَجْبة من العقداء والعمداء طسنة للفطور. لم يكن الرؤساء معجبين به فقط، بل كانوا يعرفون مدى صعوبة استحماقه. لقد كان دائم الاستقامة معهم في اللعب وإن لم يقف في صفّهم باستمرار، وتلك ميزة بالغة الأَهميَّة.

كان ﭙيري خبيراً في كيفية عمل الپنتاگون، وكان، خلافاً لحال أَكثرية كبار مسؤولي إدارة كلنتون، منطلقاً بالسرعة المطلوبة منذ البداية. كان قد عمل فترة سابقة في الپنتاگون تحت رئاسة هارولد براون في إدارة كارتر معاون وزير لشؤون البحث والهندسة ـ عنصر التكنولوجيا الحديثة في الپنتاگون. خلفيته علمية ـ حصل علىٰ شهادة الدكتوراه في الرياضيات من پَنْ ستيت Penn State وقد أمضى عمراً في عالم التكنولوجيا العالية عاملاً مع سلسلة من الصناعات ذات العلاقة بالدفاع في كاليفورنيا. أمضى الجزء الأكبر من وقته في الثمانينيّات

قبل عودته إلىٰ الإدارة مع شركة استثمارات هامبرخت وكويست المتخصِّصة باستيلاد عروض شركات التكنولوجيا العالية العامة الأولية والعمل علىٰ ترويجها لدى الزبائن المحتملين. كان پيري، خلافاً لحال أكثرية المدنيين، متفوقاً علىٰ الآخرين المعنيين جميعاً تقريباً في مجال معرفة أسلحة التكنولوجيا العالية الحديثة. ومثل هذه المعرفة كانت مصدر قوة كبيرة علىٰ صعيد إدارة الپنتاگون، غير أنه لم يعمد قط إلىٰ توظيفها، لم يحاول قط أن يتباهى بها أمام العسكريين مثلما كان يمكن لغيره أن يفعل. ببساطة كانت المعرفة متوفرة وعنت استحالة استحماقه حول منظومات الأسلحة، تلك الساحة التي بدت مؤهَّلة لإرباك أكثر المسؤولين الكبار من المدنيين.

كان أكبر سناً من الرئيس والناس اللاعبين من حوله، ولم يبد في عجلة من أمره مثل الآخرين جميعاً. وكان أيضاً أكثر التزاماً من أكثرية أهل الإدارة بالمجاملات قديمة الطراز ـ تلك المجاملات القائمة علىٰ إظهار الاحترام أولاً في سبيل الحصول عليه. في الحقيقة كان شديد القرب من التخوم الخطرة المجاورة لجيل الحرب العالميَّة الثانية، إذ التحق بالجيش بعد التخرّج في المدرسة الثانوية سنة 1945م. وقد خدم مجنداً وذهب إلىٰ ستانفورد لاستكمال دراسته الجامعية قبل الحصول علىٰ الدكتوراه في الرياضيات من جامعة ولاية پنسلڤانيا. كان من شأن الانطباع الإيجابي الذي تركه پيري لدى نظرائه الأوروپيين أن يشكِّل عاملاً مساعِداً في تغيير سياسة البلقان سنة 1995م. كان لديه وقت للجميع. ظلّ علىٰ صلة مع كل من ينطوي علىٰ أهميَّة أو مرشح لأن ينطوي عليها، ولو علىٰ سبيل الاطمئنان علىٰ الصحة مرة في الأسبوع عبر الهاتف. إذا عُقد اجتماع في أوروپا لوزراء الدفاع، كان سيتناول الغداء مع هؤلاء الوزراء مساء أحد الأيام، ومع ممثلي دول البلطيق مساء يوم آخر، ومع ممثلي البلدان الراغبة في الالتحاق بركب الناتو في يوم ثالث. سبق له أن تعامل مع عدد كبير من هؤلاء في الماضي، خلال سنوات إدارة كارتر أولاً وفي

غضون سنته الأولى مع إدارة كلنتون بعد ذلك، ولم يحاول قط أَن يتباهى أمامهم أَو يتعالى عليهم. بالنسبة إِلىٰ المسؤولين الأوروپيين كثيري الملل والشكوى من التعرّض للاستخفاف من جانب أَمريكيين شباب متهورين لم يكونوا يعلمون حتى أنهم متهوّرون، شكَّل پيري تغييراً مرحباً به، إِذ كان مسؤولاً أَمريكياً رفيع المستوى متفهماً لمشاعر أناس من بلدان أصغر وأضعف.

في إِحدى القمم الأوروپية تأخّر كلنتون عن الاجتماع، كعادته، مدة عشرين دقيقة، مما عنى بالنسبة إِلىٰ رؤساء الدول الآخرين، وهم مدمنون علىٰ الصلف الأَمريكي، أَن التأخير كان متجاوزاً للحدود. لقد شكَّل إِهانة لنظرائه لأنهم كانوا مطالبين بالمجيء في الموعد المحدد، غير أَن رئيس الولايات المتحدة بقي قادراً، إِذا شاء، أَن يتأخّر في الوصول. بدأ هلموت كول وجاك شيراك يغْليان غضباً. كان بيل پيري هو الذي التقط المؤشرات الدالّة علىٰ تصاعد خطر تفجر المزاج الأوروپي وتمكّن من تهدئة الأحوال حتى وصل الرئيس، في الموعد الذي اختاره هو لنفسه.

علىٰ الرغم من أَن پيري لم يكن صقراً بالنسبة إِلىٰ البوسنة، فإِنّه لم يتردّد، في أحيان كثيرة لدى إِقدام الصرب علىٰ التصرّف بطريقة بالغة القسوة، إِزاء استخدام القوَّة الجويَّة الأَمريكيَّة. غير أَن وجهات نظره بقيت، بصورة عامة، متطابقة مع آراء كبار العسكريين من رؤساء الأركان. كان يرى خطة «ارفع واضرب!» سياسة ناقصة، شديدة الإِغراء لكونها حرباً رخيصة، غير أَنّها زاخرة بنقاط الضعف والثغرات، ومثله مثل كولن پاول، ربما لم يكن مبالياً بالجيش اليوگوسلافي إِذا قاتل عبر وحدات قتالية رئيسية، غير أَنّه بقي مشغول البال إِزاء ما يمكن أَن يحصل إِذا بادر الصرب إِلىٰ تقسيم الجيش إِلىٰ وحدات أصغر واستخدامها لإِزعاج قوة أَمريكيَّة كبيرة بسيل من عمليَّات الإِغارة الفدائية. حين بادر كبار العسكريين إِلىٰ سوق مثل هذه الحجج كان يتحلى بما يكفي من الذكاء ليأخذهم مأخذ الجد، بدلاً من إِسكاتهم، مراوغتهم، أَو تمزيق

صفوفهم، كما سبق لماكنمارا أن فعل، علىٰ رؤوس الأشهاد، خلال سنتي 1964 و1965م. كان من شأن قيام الصرب بذلك، إما في المدن في أو المناطق الجبلية، أن ينطوي علىٰ قَدْر مفرط من الألم. كان يحلو لپيري أن يلمِّح إِلىٰ أن هتلر لم يستطع تحييد هجمات الأنصار اليوگوسلاڤيين إلاَّ مقابل ممارسة قدر هائل من الوحشية ـ أعمال انتقامية بالغة القسوة ضد المدنيين ـ وهو أمر لن يكون مقبولاً لدى الأمريكيين.

ولكن سربرينيتسا ما لبثت أن غيَّرت پيري مثل الآخرين، وقد اعتبرها لحظة انقلابية أدَّت إِلىٰ بلورة تفكير الحكومة الأمريكيَّة وجعلت الأوروپيين أكثر استعداداً للبحث عن سياسة مشتركة. كانت لندن، باعتقاده، هي التي شهدت نجاحه مع شاليكاشڤيلي في إِقناع الحلفاء الأوروپيين بأن مفتاح الانتصار لم يكن كامناً في ذلك النوع من القصف الخفيف الواخز الذي تم اعتماده في الماضي، ذلك القصف الذي كان الصرب قد سخروا منه بوضوح، بل في قصف مكثف قائم علىٰ التكنولوجيا العالية. كانت العبارة هي **قصف السجادة** (التكنيس بالقصف)، حملة جويَّة عملاقة لا تعرف معنى الرحمة. أمَّا الاعتراض الأوروپي التقليدي علىٰ استخدام ذلك النوع من القوَّة الجويَّة، مع خطر تعريض قوات الأمم المتّحدة الموجودة علىٰ الأرض للخطر، فكان سيجري التعامل معهما مباشرة. فالقوَّات الدولية البالغة حوالي عشرين ألفاً في وحدات صغيرة مبعثرة، ستتم المسارعة إِلىٰ تجميعها في وحدات كبيرة مؤلَّفة من ألف ويزيد بما يجعلها متمتعة بطاقة نارية كافية لردع الصرب إِلىٰ حين وصول الغطاء الجوي. وفي الوقت نفسه، كان فريق من الجنرالات الأمريكيين، البريطانيين، والفرنسيين سيجتمع مع قادة صرب البوسنة لإِنذارهم بأن من شأن محاولتهم القيام بأي تحرّك من الآن فصاعداً أن يدفعنا إِلىٰ دكّهم دكّاً لم يسبق لهم أن رأوا مثله من حيث القوّة والعنف؛ لن تكون هذه عمليَّةَ رَبْت خفيفة، عمليَّة نفض غبار بسيطة. كما أنهم سيتعرّضون للقصف الشديد والدكّ حتى الطحن إِذا تحرّكوا

ضد أية منطقة آمنة، أَو إِذا أغاروا علىٰ أَي موقع من مواقع القوَّات الدولية وبمستويات أعنف.

أخيراً وُضِعَت البوسنة علىٰ النار الحامية. بعد سقوط سربرينيتسا بيومين اثنين اجتمع كبار القوم في المكتب البيضاوي. هذه المرة كان گور، وهو صقر قديم ولكنه دائم الحذر والحرص علىٰ عدم إِحراج الرئيس والمنضبط إِلىٰ حد كبير في مثل هذه الاجتماعات، هو الذي تحدَّث بلغة حماسية جداً عن البوسنة. حين كان گور يختلف مع سياسة معينة، أَو ينزعج بسبب مسألة معينة، ظلّ حريصاً علىٰ إِبقاء معارضته للرئيس مكتومة. أَو إِذا كانا في منتصف اجتماع معين كان گور يفضل الانتظار إِلىٰ حصول فترة استراحة يستغلّها للحديث مع الرئيس بعيداً عن جميع الآخرين.

كانت المسألة هذه المرة مختلفة. كانت مادة مطولة قد ظهرت في **الواشنطن پوست** نهاية الأسبوع حول امرأة صبية أقدمت علىٰ الانتحار شنقاً عبر تحويل شالها الوردي إِلىٰ أنشوطة. كانت ابنة نائب الرئيس، كارينا، ذات الواحد والعشرين ربيعاً، قد رأت صورة المرأة الصبية التي كانت في مثل سنها تقريباً، وسألت أباها عن سبب إِخفاق الإِدارة التي ينتمي إِليها في التحرّك إزاء وضع كهذا. سأل گور اجتماع المكتب البيضاوي: «ما الذي يُفترض بي أَن أقوله لها؟ لماذا يحصل هذا ونحن نتفرج ولا نفعل شيئاً؟ تستغرب ابنتي أَن يسمح العالم بحدوث هذا. أنا أَيضاً أستغرب[1]. أريدكم أَن تدلّوني علىٰ الطريقة التي تمكّنني من الرد عليها ـ علىٰ ابنتي بالذات»[2]. فوجئ الآخرون في القاعة بالطابع العاطفي للكلمات، وباحتمال أَن يكون خارجاً علىٰ خط الرئيس. غير أنهم ما لبثوا أَن اكتشفوا أَن كلماته لم تكن تعبِّر عن أية معارضة؛ إنَّه والرئيس في مركب واحد بشأن هذه القضية، مما أضفى عليها راهنية لم تكن

---

(1) مقابلة مع گور؛ وودوورد، **الاختيار**، 262.

(2) من مقابلات مختلفة، بما فيها مع گور.

موجودة من قبل. وبعد ذلك قام گور بإبلاغ الاجتماع بأنه يعتقد أن سقوط سربرينيتسا يعني أن زيپا، هي الأُخرى على الطريق. غير أنّهم يستطيعون أن يرسموا الخط الفاصل عند گورازده، حيث تحتشد أعداد من اللاجئين لا تقل عن تلك التي احتشدت وحُوصرت في سربرينيتسا. لا بد للولايات المتحدة من أن تضع حداً لسياستها القائمة على الإذعان. وفي نهاية الاجتماع كان كلنتون يتكلم صراحة عن استخدام القوَّة الجويَّة الأمريكيَّة قائلاً: «لم تعد الولايات المتحدة قادرة على الاضطلاع بدور جراب الملاكمة بعد الآن!».

الفصل التاسع والعشرون

كانت الأحداث في البلقان موشكة علىٰ تغيير اتجاهها أَيضاً بسبب ثقة جديدة بات الجيش الكرواتي متمتعاً بها. علىٰ الرغم من التحفظات في القمة بواشنطن، كانت الولايات المتحدة قد أجازت تدريب الجيش الكرواتي تحت إشراف ورعاية ضباط أَمريكيين متقاعدين ولكنهم موهوبون، يعملون جميعاً لدى القطاع الخاص. بعد أخذ ورد تم إشعال الضوء الأخضر أمام الطلب الكرواتي الخاص بشن هجوم ضد القوّات الصربية المستمرة في احتلال أجزاء من كرواتيا علىٰ الرغم من عدم اقتناع واشنطن بقُدْرة الكروات علىٰ إنجاز المهمة بنجاح. لقد حصلوا علىٰ الإِذن لأَن واشنطن كانت يائسة في تلك اللحظة.

كان قدر كبير من العمل التمهيدي قد كُرِّس علىٰ القرارات التي أتاحت للكروات فرصة التسلّح والمبادرة إِلىٰ الهجوم، وأحد أولئك الذين كانوا قد دعموا العمليَّة، پيتر گالبريث، السفير الأَمريكي في كرواتيا، لم يكن مفضَّلاً لدى رئيسه، وارن كرستوفر. كان گالبريث هذا، وهو نجل الاقتصادي الشهير جون كَنَثْ گالبريث، قد التمس الوظيفة لأَنّه كان قد أَصبح سلفاً مهتماً بالعمل لصالح اللاجئين واعتقد أَن من شأن شغل مثل هذا المنصب أَن يحدث تغييراً. غير أنّه ما لبث أَن صُعق حين اكتشف مدى افتقار رؤسائه إِلىٰ الاهتمام بهذا الميدان، ميدان مشكلات اللاجئين. وحين دقَّت ساعة مغادرته جواً إِلىٰ زگرب

لم يرغب أَحد من كبار المسؤولين في الخارجيَّة أَن يجتمع به، ولدى وصوله إِلىٰ مقر عمله الجديد لم يكن مزوَّداً بأَية توجيهات. وبعد الاستقرار في زگرب تقدّم گالبريث علىٰ حكومته من حيث النشاط، وهو أمر ما لبث أَن انتشر بين الناس علىٰ الصعيد المحلي مما حوّله، كما لاحظ أَحد الزملاء، إِلىٰ ما يشبه نجوم الروك، رغم بقائه منبوذاً في الطابق السابع من مبنى وزارة الخارجيَّة حيث كان يُعتبر شخصاً صعباً يمثّل بلداً مقيتاً، وشخصاً كان باستمرار ينجح في الحصول علىٰ قدر مبالغ به من التغطية الإِعلامية المحلية، علىٰ حساب الإِدارة، حسب اعتقاد المسؤولين في الوزارة.

طالما اعتقد گالبريث أَن كرستوفر والمحيطين به دأبوا علىٰ إِنكار ما كان حاصلاً في البلقان، ومستوى التدمير الإِنساني ومضاعفاته بالنسبة إِلىٰ الإِطار الأوسع للسياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة. كان گالبريث حركياً ناشطاً، وعلىٰ الرغم من أَن حكومته لم تكن شديدة الترحيب بجهوده أَو التهليل لها، فإِن بعض الأمور التي قام بها في 1993م كانت ستؤتي ثمارها بعد سنتين، علىٰ الأخص في مجال تقليص التوترات بين الكروات ومسلمي البوسنة، وإِرساء القاعدة اللازمة لما سيصبح آخر المطاف اتحاداً بوسنياً ـ كرواتياً. من المؤكد أَن مهمته لم تكن سهلة. فرأس الدولة الذي كان يتعامل معه، فرانيو توجمان، ذلك الرجل المعروف بضيق الأفق، القسوة، والتعصّب، كان مكروهاً مثل ميلوسوڤيتش. فنزعة توجمان القوميَّة كانت نسخة طبق الأصل من حيث الحدة والتعصّب عن نزعة ميلوسوڤيتش القوميَّة، غير أَن الأَول لم يكن علىٰ المستوى نفسه من عدوانية الثاني، لا لشيء، باعتقاد أَكثرية الأَمريكيين، إِلاَّ لافتقاره إِلىٰ الوسائل، دون النوايا. ومع ذلك فإِن گالبريث لم يكن يعاني من أَي شك حول الخط الذي سيعتمده. فالصرب معتدون، أعمالهم أعمال إِبادة إِجرامية، وواجب الولايات المتحدة هو توظيف نفوذها لإِيقافهم عند حدهم. ومتأكداً منذ البداية أَن الخطر الرئيسي المهدد للمنطقة صادر عن ميلوسوڤيتش، بقي گالبريث

في الغالب متقدماً خطوة علىٰ السياسة الأَمريكيَّة في مجال السعي من أجل تسليح البوسنيين والحد من بعض أبشع أشكال الصراعات الدامية والمدمِّرة إِلىٰ أبعد الحدود فيما بين مسلمي البوسنة والكروات.

في آذار/ مارس 1994م، بدفْعٍ من الأَمريكيين، أقدم مسلمو البوسنة والكروات علىٰ توقيع معاهدة سلامٍ في واشنطن، مؤسسين ما سمي باتحاد، شراكة جامعة لقومين مثقلين بقدر لا مثيل له من الحقد وعدم الثقة في مثل هذه المعاهدات. ومع ذلك فإِن المعاهدة كانت، دون أَن يدرك ذلك كثير من الناس، خطوة مبكرة علىٰ طريق تحويل مسار الأَحداث إِلىٰ تيار ضد الصرب. كان توجمان، علىٰ الرغم من هندسته للاتفاقية، حاقداً علىٰ ماصنعته يداه بسبب كرهه لمسلمي البوسنة. بقي عازفاً عن اتخاذ أبسط الخطوات التكتيكية المفضية إِلىٰ تقوية حليف محتمل وإِضعاف معتد قوي كان قد استولى سلفاً علىٰ قطاع كبير من أرضه. لم يكن النتاج الفعلي، حتى بعد تشكيل الاتحاد، مثل أشياء كثيرة أُخرى في البلقان، خلال فترة طويلة من الزمن، إِلاَّ جحيماً أَو ماخوراً مرعباً علىٰ الصعيدين الإِداري والسياسي. كان يحلو لگالبريث أَن يقول للناس إِن المنطقة التي عمل بها «أشبه بلبنان مضافاً إِلىٰ قبرص».

في ربيع 1994م، ذهب البوسنيون المحرومون من السلاح إِلىٰ توجمان ملتمسين السماح بتدفق شحنات الأَسلحة عبر أراضيه إِلىٰ قواعدهم الداخليَّة المحصورة. لم ترق الفكرة لتوجمان وجاء رده مراوغاً زاعماً أَنَّه سيستشير الولايات المتحدة. كان گالبريث قد حثّ توجمان علىٰ السماح، ومع ذلك فإِن الزعيم الكرواتي أعاد الكرة بمكر مكشوف إِلىٰ ملعب واشنطن، متوقعاً قيام واشنطن برفض الطلب، كما سبق لها أَن فعلت أواخر إِدارة بوش حين تم إِيقاف شحنة طائرة من الأَسلحة الآتية من إِيران في مطار زگرب. من المؤكد، باعتقاد گالبريث، أَن الحظر المفروض علىٰ توريد الأَسلحة إِلىٰ المنطقة من قبل الأمم المتّحدة لم يكن ذا علاقة بموقف توجمان؛ فالكروات أنفسهم كانوا دائبين علىٰ انتهاك ذلك الحظر بصورة يومية.

ألح گالبريث في مطالبة واشنطن بالموافقة علىٰ تمكين البوسنة من الحصول علىٰ السلاح. لم يكن يريد إلاَّ نوعاً من الرد اللارد. لم تكن واشنطن ملزمة بأن تقول بأنّها مع فكرة تزويد البوسنة بالسلاح، كان يكفي ألا تلمح إِلىٰ ضرورة وقف الشحنات. كان يكفي، برأي گالبريث، أَن تدير ظهرها وتتغافل عن هذا الأَمر. أَمَّا الأَسباب فكانت بسيطة. كان الأَمر لصالح الاتحاد، وكان البوسنيون يستحقون السلاح باعتقاده، فضلاً عن عدم وجود أَي التزام، حسب رأيه، بفرض الحظر علىٰ البوسنة، لأَن جميع الآخرين من ذوي العلاقة بالصراع كانوا يحصلون علىٰ الأَسلحة من منابعهم الخاصة. جاء الرد: لا توجيهات. قام گالبريث بترجمة ذلك الرد إِلىٰ عبارة: «لم تتخذ واشنطن أَي قرار بعد».

في الحقيقة كان توني ليك قد أثار الموضوع مع كلنتون علىٰ متن طائرة **سلاح الجو رقم واحد** علىٰ طريق العودة من جنازة ريتشارد نكسون في السابع والعشرين من نيسان/ أبريل 1994م، وكان كلنتون قد أعطى موافقته. غير أَن گالبريث، اعتقاداً منه بأن واشنطن كانت تماطل مرة أُخرى، أخطأ فهم الجواب المغلّف بالألغاز الذي وصله، وبادر، بمساعدة المفاوض الخاص تشارلز ردمان، إِلىٰ الاتصال بمجلس الأَمن القومي. ردت عليه جين واتسون، إِحدى العاملات في جهاز ليك، التي أخذت المكالمة قائلة إِنَّه قد فاز ومعه ردمان. ثم أضافت «توجيهاتكما هي أَن تقولا أَن لا توجيهات عندكما. حين قام توني بنقل التوجيهات، فإِنه قال العبارة بكلام بسيط وبحاجب مرفوع». علىٰ الفور ذهب گالبريث وردمان للقاء توجمان. وفي اللقاء قال گالبريث موجهاً كلامه إِلىٰ توجمان: «سيادة الرئيس، ليست لدي أية توجيهات» ثم أضاف «أرجو أَن تنتبه إِلىٰ ما أقوله». وبغية ضمان عدم وقوع توجمان في خطأ التفسير، انتحى به ردمان جانباً وأكّد له أَن الولايات المتحدة لم تكن في وضع يجعلها تعترض علىٰ وصول الأَسلحة إِلىٰ البوسنة. كان من شأن ذلك أَن يشكِّل انتصاراً ذا شأن من منطلق أَحداث المستقبل. كان يعني حصول البوسنيين علىٰ شيء من

السلاح (مثلهم، بالطبع، مثل الكروات الذين عملوا كما لو كانوا ضباط جمارك غير رسميين وسطوا علىٰ خمسين بالمئة من شحنات السلاح الواردة لصالح قواتهم الخاصة) وتحررهم من البقاء تحت رحمة الصرب المعتدين بصورة كلية. وقد ساعد ذلك أيضاً علىٰ إنقاذ نوع من التحالف الضعيف بين البوسنيين والكروات الذين كانوا أيضاً قد بدؤوا يعزّزون مكانتهم العسكريَّة ويتحوّلون تدريجياً إلىٰ قوة عسكريَّة ذات كفاءة.

علىٰ الرغم من أن الاشتباكات المبكرة في الحرب لم تكن علىٰ ما يرام بالنسبة للكروات الذين تعيّن عليهم أن يتصدّوا عملياً للجيش اليوگوسلافي بقوات الشرطة المحلية، فإنهم ما لبثوا أن باشروا في السنوات اللاحقة بالارتقاء إلىٰ مستوى الصرب علىٰ الصعيد العسكري. وقد فعل الكروات ذلك عن طريق استيراد الأسلحة من بلدان أوروپية صديقة أولاً. كان مطار زگرب ملاذاً للطائرات القادمة المثقلة بالأسلحة الآتية من مختلف أرجاء أوروپا. ثمة دبلوماسي أمريكي زار المطار ورأى الكثير من الطائرات المقاتلة الحديثة التي باتت تشكّل جزءاً من سلاح الجو الكرواتي، فسأل وزير الدفاع الكرواتي گويكو سوساك عن كيفية الحصول عليها، فرد الوزير مبتسماً: «الأمر بسيط. تأتي طائرة مقاتلة وتحط علىٰ الأرض فندخلها إلىٰ حظيرة الطائرات بين عشية وضحاها، وبعد ستة أشهر تكون طائرة مقاتلة جديدة قد وُلدت».

كان سوساك أحد أبناء الجالية الكرواتية الأوسع المبعثرة في بلدان الاغتراب، هذه الجالية التي كانت ستبرهن علىٰ أنها مهمة عبر السنوات القليلة اللاحقة، كان كرواتياً ذهب إلىٰ كندا، ازدهر وأصبح صاحب ثروة كمبادر پيزا، ثم عاد إلىٰ بلده لدى إعلان الاستقلال. لم يكن عسكرياً ـ أحياناً كان الأمريكيون يطلقون عليه اسم بائع الپيزا ـ غير أنَّه كان راسخ القناعات حول نوعية الجيش الذي يتعين علىٰ وطنه أن يمتلكه يوماً. كان لا بد من بناء هذا الجيش علىٰ النمط الأمريكي، وظل عاقداً الآمال علىٰ تعظيم النفوذ الأمريكي

في الجيش كخطوة أولى علىٰ طريق إِلحاق كرواتيا بركب الناتو. ومما ينطوي علىٰ أَهميَّة موازية، أَن سوساك بادر، رغبة منه في تحسين نوعية جيشه، إِلىٰ تكليف منظمة واشنطنية تدعى مپري MPRI، أَو ميليتاري پروفشنال ريسورسز إِينكورپوريتد [الثروات أَو الموارد المهنية العسكريَّة المتحدة] بإنجاز المهمة. إنها شركة خاصة غنية، بصورة غير عادية، بالمواهب العسكريَّة الأَمريكيَّة برئاسة اثنين من جنرالات النجوم الأربع الاستثنائيين السابقين. كان أَحد الجنرالين هو كارل ڤونو، الرئيس السابق لأركان الجيش، الضابط الأعلىٰ في الجيش وممثله في هيئة رؤساء الأركان المشتركة، المتمتع بقدر كبير من الاحترام في أوساط الجيش بفضل دوره المميز في تحديث الجيش الأَمريكي المحترف فيما بعد ڤيتنام وتقليص حجمه في الوقت نفسه. أَمَّا الجنرال الثاني فكان بوتش سينت، أَحد القادة السابقين للقوات الأَمريكيَّة في أوروپا. تمثل الدافع المحرّك للشركة الجديدة بأحد التغييرات المهمّة التي أَحدثتها ڤيتنام. لم يقف الأَمر عند تقلُّص حجم الجيش كثيراً بصورة عامة، بل تجاوزه إِلىٰ انتفاء إمكانية اجتذاث الجماعات الاستشارية العسكريَّة لعناصر متميزة ذات مواصفات نوعية لتدريب القوّات الأجنبية وباتت متعرّضة للاختزال والتقليص هي الأُخرى. أَمَّا القطاع الخاص فكان شيئاً مختلفاً تماماً، وقد بادر الجنرالان ڤونو وسينث إِلىٰ التحرك علىٰ هذا الصعيد فتمكنا من ملء الفراغ الحاصل.

حدّد سوساك للأَمريكيين ثلاثة أَهداف. أراد لجيشه أَن يكون مثل جيوش الغرب ليصبح مؤهلاً لدخول الناتو؛ أراد أَن يكوّن جيشاً محترفاً خاضعاً للتحكّم المدني الصارم؛ وقال: «أريد طرد الصرب من بلدي». كان ڤونو وسينث في موقف قوي. كانا يعرفان جميع الجنرالات أصحاب النجمة الواحدة والنجمتين والكولونيلات الموهوبين والممتازين، هذا النوع من الرجال المناسبين بصورة غير عادية لمواجهة تحد معقد مثل هذا. كذلك كانوا يعرفون الشريحة العليا والممتازة من الضبّاط الاحتياط. لم يكونا يتعاملان إِلاَّ مع

النخبة الاستثنائية الممتازة من العناصر. وبين أولئك الذين وصلوا في المجموعة الأولى إلىٰ زگرب كان مساعد سابق برتبة سيرجنت ميجر كان قد خدم في وحدات الجيش [القوّات البرية] في أوروپا. بعد الحصول أخيراً علىٰ موافقة وزارة الخارجيَّة قام ڤونو وسينث بإرسال فريق مؤلَّف من أربعة عشر شخصاً إلىٰ كرواتيا في تشرين أول/ أكتوبر 1994م. لم يكن ثمة أي شك حول أن مهمتهم الأولى تمثَّلت بتحسين الجيش الكرواتي بأقصى سرعة مسرحية ممكنة. وفي غضون عشرة أشهر فقط تمكّن الفريق من المساهمة في قلب الجيش الكرواتي إلىٰ قوة قتالية كفوءة. ليست الأشهر العشرة مدة طويلة لتكوين وتدريب جيش حديث، غير أن هذه الفترة الوجيزة حملت في طياتها قَدْراً كبيراً، وكبيراً جداً من الاختلاف، في ظل كون القوَّات المتنافسة في المنطقة ضعيفة التدريب، وبقاء الحاجة علىٰ هذه الدرجة من الإلحاح والضرورة. وكما قال أحد الضبّاط الأمريكيين فإن «الأعور بين العميان باش كاتب» [ذا العين الواحدة بين المكفوفين ملك]. في البدء كان الجيش الكرواتي نوعاً من القوَّات المحلية ـ مؤلفة من عناصر الشرطة، معلمي المدارس، عمال الياقات الزرقاء، صغار موظفي الجهاز البيروقراطي ـ وليس هذا أمراً سلبياً. فأكثرية هؤلاء، خصوصاً الأكثر شباباً في المراتب الدنيا، لم يكونوا مضطرين للتخلي عن عادات كثيرة. أضف إلىٰ ذلك أنهم وفَّروا ميزة يحتاج إليها أي جيش ـ ميزة التمثيل العريض لمواطني البلاد.

لعل الشيء الذي بادر إليه الأمريكيون مباشرة هو تكوين سلك الضباط الاحتياط، ذلك السلك الذي كانت جيوش حلف وارصو، الأكثر تراتبية بصورة سيئة السمعة، مفتقرة إليه. كذلك عمل الأمريكيون من منطلق تكتيكات المشاة الأساسية وكيفية تنسيق عمليّات إغارة الوحدات المتوسطة. ومع حلول وقت بدء الهجوم الكرواتي ضد الصرب أوائل آب/ أغسطس 1995م، كانت الدفعة الأولى من الخريجين تغادر مدارس تدريب الضباط التي كان الأمريكيون قد

أسَّسوها. وجملة مهارات المشاة الأساسية التي تعلمها الخريجون، جنباً إِلىٰ جنب مع الروح المعنوية العالية التي ترافقت مع الحصول علىٰ التدريب من قبل ضباط ذائعي الصيت، أكسبت الكروات قَدْراً لا يُستهان به من التفوّق. يقول أَحد الضباط الأَمريكيين الذين عملوا هناك: «لم تدم إقامتنا هناك طويلاً ـ لو خيضت الحرب الصربية ـ الكرواتية في 1999م لكانت بصماتنا واضحة عليها كلّها. ومع ذلك فإننا استطعنا، خلال هذه المدة القصيرة، أَن نُحدث تغييراً ذا شأن، ولو علىٰ صعيد الثقة التي ساهمنا في غرسها فقط». جاء التوقيت ممتازاً. فالشباب الكروات اللامعون كانوا بحاجة ماسّة إِلىٰ النصائح العسكريَّة الأَمريكيَّة لتحديث قواتهم الخاصة ولطرد الغزاة المكروهين من أرضهم. أضف إِلىٰ ذلك أَن المادة الخام التي وجدها المدرّبون الأَمريكيون في كرواتيا كانت بالغة الجودة، أَكثر من جديرة: شبيبة قوية جسدياً، متحمسة حماساً استثنائياً، ذات أصول ريفية أَكثر منها حضرية، ما زالت قريبة من مصاعب حياة الريف. أنماط نموذجية للحياة العسكريَّة لم تكن قد ذاقت منذ أجيال طَعْم حياة المدن والضواحي حيث تتعرض مادة الإنسان الخام لخطر النزوع إِلىٰ شيء من التنعّم كما يعتقد كثير من العسكريين.

كانت أَكثرية الدروس التي دأب المدرّبون الأَمريكيون علىٰ تعليمها من نوعية أساسية جداً: كيفية توفير الغطاء بالنار، أسلوب الإِفادة من صفوف الأشجار، طرائق الالتفاف علىٰ الدشم والاستحكامات، وفنون تقليص الإِصابات إِلىٰ الحدود الدنيا. وعلىٰ الرغم من أنهم لم يكونوا هناك كخبراء ومستشارين، بالطريقة التي درج الأَمريكيون علىٰ اعتمادها علىٰ مستوى اللواء والفرقة في ڤيتنام، فإن المدربين كانوا، مع ذلك، قادرين، وخلال فترة زمنية وجيزة، علىٰ رفع مستوى الجيش الكرواتي بصورة ملموسة. كذلك كان المدرّبون يعرفون أَن القوّات الكرواتية باتت، مع حلول صيف 1995م، جاهزة وتوّاقة لمهاجمة الصرب في كرايينا. غير أَن الشهرة الكبيرة التي تمتع بها

الجنرالان ڤونو وسينث وعناصرهما العاملة علىٰ الأَرض في كرواتيا، مع إيمان الجميع بالتحسّن الكبير المتحقق للجيش الكرواتي، لم تتمكّن قط من تغيير وجهة نظر الپنتاگون أَو السي. آي. إي. حول القوتين المتقابلتين في كرواتيا. فكبار مسؤولي السي. آي. إي. والپنتاگون كانوا متشككين منذ البداية إزاء المشروع كله، بسبب العواطف الموالية للصرب في المقام الأول. كانت القيادات العليا الأَمريكيَّة علىٰ الصعيدين العسكري والاستخباراتي تعرف جميع العناصر القيادية في الجيش القومي اليوگوسلافي، وكانت وزارة الدفاع قد رأت، بوعي أَو دونه، مع حلول سنة 1994م، مصلحة ثابتة في الحط من شأن الكروات والتهليل لمستوى الصرب الرفيع. أضف إِلىٰ ذلك أَن الإِصرار علىٰ الاستخفاف بالكروات وتمجيد مواهب الصرب كان من شأنهما أَن يضفيا ثوباً من العقلانية علىٰ اتخاذ موقف المتفرج. وكذلك فإن الأَمريكيين كانوا شديدي التوجس إزاء العواقب. ماذا لو شجعنا الكروات ودفعنا باتجاه حرب أوسع والمزيد من القتل دون أَي تغيير حقيقي ذي شأن علىٰ أَرض المعركة؟ أو ـ وهذا أسوأ ـ ماذا لو أقدم الكروات علىٰ شن الهجوم وتعرّضوا لهزيمة سهلة علىٰ أيدي الصرب الأقوياء الذين يبادرون عندئذ إِلىٰ احتلال المزيد من الأراضي؟ وبالتالي فإن الأَمريكيين، يساراً ويميناً، لم يكونوا، علىٰ ما بدا، جيدي التنسيق، حتى حين أَصبح الكروات جاهزين لشن هجوم ناجح ضد الصرب. فكل من وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزيَّة دأبتا علىٰ حشو جهاز مجلس الأَمن القومي بالاعتقاد القائل بأن الكروات محكومون بالتعرّض للهزيمة إذا ما قاموا بمهاجمة الصرب.

في أوقات أبكر ـ أواسط تشرين ثاني/ نوڤمبر 1994م ـ حين كان صرب البوسنة وكرواتيا عاكفين علىٰ اعتصار المسلمين المحاصَرين في جيب بيهاتش، كان الكروات قد سألوا الأَمريكيين عن موقفهم من أَي هجوم كرواتي. قام توجمان باستدعاء گالبريث للتباحث، غير أَن القوّة الدافعة لفكرة الهجوم

جاءت، برأي گالبريث، من سوساك والجيش، لا من توجمان الذي لم يكن مطمئناً إليها. كان السؤال الأخير علىٰ النحو التالي: هل الأمريكيون مستعدّون للتحرّك من أجل الحيلولة دون فرض العقوبات علىٰ الكروات إذا ما وصل الأمر إلىٰ الأمم المتّحدة ومجلس أمنها؟ بشيء من التحفّظ كان گالبريث معجباً بفكرة الهجوم الصادرة عن سوساك. فما من خطوة متقدّمة في أية مفاوضات سلمية كانت ممكنة، حسب قناعته، ما لم تتم مواجهة الصرب بالقوّة علىٰ الأرض وطردهم من الأماكن التي احتلّوها من قبل. أضف إلىٰ ذلك أن گالبريث كان يشك بألا يكون الصرب في كراايينا أكثر من نمر من ورق. غير أن واشنطن لم تتفق معه؛ لم تكن تؤمن بأن لدى الكروات ما يكفي من القوّة اللازمة لإنجاز الهجوم بنجاح، فضلاً عن أنّها لم تكن تريد أية حرب أوسع نطاقاً. طُلب من گالبريث أن يقف بما يستطيع من قوة ضد أي هجوم.

أحس توجمان بقدر كبير من الارتياح ازاء رد واشنطن السلبي. علّق، مذكراً بما سبق له أن قال لجيشه بالذات: «انظر، ذلك هو ما قلته لهم». وهكذا فإن الهجوم الذي كان تنفيذه محتملاً في تشرين الثاني/ نوڤمبر تم تجميده. ومع الزمن خف الضغط الصربي علىٰ بيهاتش وتضاءلت حدة الأزمة هناك. غير أن المعادلة ما لبثت أن شهدت انقلاباً مثيراً مع حلول صيف 1995م. كان الصرب قد بالغوا في عدوانهم. كان حصار سربرينيتسا يتم جاعلاً الأمر الواقع غير قابل لأن يطاق. كان الضغط الصربي علىٰ بيهاتش قد زاد مرة أُخرى، وتنبأ البعض باحتمال حصول كارثة إنسانية أكبر من كارثة سربرينيتسا بثلاثة أضعاف لأن مثل هذا العدد من الناس كان محتشداً في المنطقة. ومع ذلك فإن واشنطن بقيت حذرة ومتوجّسة إزاء أي هجوم كرواتي، وكان الكروات، بطبيعة الحال، شديدي الإحساس بالشكوك الواشنطنية. وفي شباط/ فبراير 1995م، بعد الرفض الأول بأكثر من شهرين، كان سوساك قد حضر في ميونيخ اجتماعاً مع بيل پيري وجون شاليكاشڤيلي. وهناك بالغ في التوسّل من أجل الحصول علىٰ موافقة

الطرف الأَمريكي علىٰ شنّ هجوم علىٰ كرايينا، غير أَن كلاً من پيري وشاليكاشڤيلي اتخذا موقفاً متشائماً من مثل هذا الهجوم. أبلغا الطرف الكرواتي بأن الأمر لن يكون أقل من كارثة. كان الأَمريكيون يقولون، بكلمات تتعذّر إساءة فهمها، إِن من شأن الكروات أَن يتعرّضوا لهزيمة مؤكدة وقاسية إِذا ما تحدوا الصرب. كان هولبروك حاضراً وقد سجل في دفتر يومياته تلك الليلة أَن الاجتماع كان كئيباً.

ولكن تدمير سربرينيتسا ما لبث أَن وقع، فشجع الكرواتيين علىٰ الاندفاع مرة أُخرى. بادر سوساك أولاً وتوجمان بعده إِلىٰ استدعاء گالبريث للتحادث معه. كان الرجلان أَكثر اطمئناناً إِلىٰ حالة الجيش، واثقين من أنّه بات جاهزاً للهجوم. كانت الوحدات قد قاتلت بنجاح في أيار/مايو 1995م خلال سلسلة من الاشتباكات الصغيرة في سلوڤينيا الغربيّة، أَحد القطاعات الكرواتية الشرقيّة، حيث تمكنت من إِزاحة القوّات الصربية التي كانت تحتل المنطقة. أضف إِلىٰ ذلك أن رأي الكروات بالجيش الصربي كان شديد الاختلاف عن رأي الأَمريكيين بهذا الجيش ومدى قوته. فقد كان الكروات يعتقدون بأن الصرب بالغوا في التوسّع وبأن عمليّات الحصار الجارية في البوسنة الشرقيّة كانت قد بعثرت القوّات رجالاً وعتاداً. مرة أُخرى طلب توجمان ووزيرُ دفاعه حمايةً أَمريكيّة من أية عقوبات يفرضها مجلس الأمن.

حاول گالبريث إِقناع واشنطن بوجوب الوقوف في صف الكروات، زاعماً أَن الخيار بين الشرّين الأكبر والأصغر كان واضحاً. وجاء في إِحدى رسائله الموجهة إِلىٰ واشنطن، إِن ذبح حوالي أربعين ألفاً من المسلمين في بيهاتش ـ وهو احتمال وارد إِذا نجح الصرب ـ كان حدثاً أَكثر إِثارة للرعب من سقوط كرايينا، مع جملة من الفظاعات المحتومة هناك، فضلاً عن طرد صرب كرايينا من أَرض أجدادهم ليصبحوا لاجئين هائمين علىٰ وجوههم، حسب التسلسل الهرمي لمراتب الشر. أضاف گالبريث أَن من شأن نجاح الصرب في احتلال

بيهاتش أَن يتمخّض عن مذبحة أكبر من تلك التي حدثت في سربرينيتسا بثلاث أَو أربع مرات. ومع دخول كل من هولبروك، وكبير مساعديه بوب فريزر إِضافة إِلىٰ آخرين علىٰ الخط مؤيدين فكرة تمكين الكروات من الإِدلاء بدَلْوهم، أقدمت واشنطن، أخيراً، علىٰ ابتلاع الطُّعْم، ولو بشيء من التردد. وهكذا فإِن صورة ميدان القتال انقلبت أخيراً رأساً علىٰ عقب لحظة بلوغ الصرب أوج قوتهم، محتلين سربرينيتسا وزيپا، ومحاصِرين بيهاتش. ففي أواخر تموز/ يوليو 1995م عقد اثنان مثقلان بقدر من عدم الثقة قديم قدم القرون، كل منهما إِزاء الآخر، هما توجمان وزعيم مسلمي البوسنة علي عزت بيگوفيتش، اجتماعاً هادئاً في بلدة شبليث، مدفوعين من قبل الأَمريكيين، واتفقا علىٰ مهاجمة القوّات الصربية التي كانت قد طوَّقت جيب بيهاتش. كان الحقد الذي سبق له أَن أفرز ذلك العدد الكبير من الصراعات في الماضي ما يزال عامراً في قلبي الرجلين، غير أنهما كانا، كلاهما، قد تعرّفا، أخيراً، علىٰ عدو مشترك. باتا مستعدين، وهذا أمر ينطوي علىٰ قدر كبير من الأَهميَّة، للقتال علىٰ جبهة واحدة وسعياً وراء هدف مشترك، وإِن لم يصبحا جاهزين للقتال كتفاً إِلىٰ كتف حرفياً.

بقيت واشنطن متردّدة، متخوّفة من اندلاع حرب أكبر وغير واثقة من القدرات العسكريَّة البوسنية والكرواتية. علىٰ العموم، كان المسؤولون الأقرب إِلىٰ ما كان جارياً علىٰ الأَرض أَكثر ميلاً إِلىٰ تأييد فكرة الهجوم الكرواتي البوسني. فكل من گالبريث وهولبروك، وقد أَصبح الثاني اللاعب الأهم علىٰ الساحة، كانا مؤيدين لفكرة إِطلاق يد الكروات. أَمّا في واشنطن فقد كان ليك حليفاً بارداً ـ إِذْ كان من أنصار إِشعال الضوء الأصفر، مثله مثل مادلين أولبرايت في الأمم المتّحدة. لم يكن كرستوفر متحمساً للفكرة، ومثله كان كبار المسؤولين، في كل من وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزيَّة، الذين كانوا متخوفين من نقاط ضعف الكروات وقُدْرة الصرب علىٰ توسيع دائرة

الحرب. غير أَن واشنطن الغارقة منذ زمن طويل في مستنقع التعايش مع خطة فاشلة لم تكن قادرة علىٰ طرح أية بدائل. فحين اجتمع مسؤول عسكري كرواتي رفيع المستوى مع بوب فريزر في مؤتمر لندن وكشف النقاب عن خطة تفصيلية لاجتياح كراينا، كان الأخير قد عاين الخريطة لبعض الوقت، ثم علّق مبتسماً: «يرجى التحلي بالحذر».

حتى حين كان الكروات جاهزين للضرب في الغرب، بدا صرب البوسنة، بقيادة ملاديتش، غير قابلين للقهر في البوسنة الشرقيَّة. كانوا قد أكملوا حصار زيپا وراحوا يطالبونها بالاستسلام. أَمَّا التهديدات الغربيَّة باستخدام طيران الناتو لحماية بعض المناطق الآمنة المتبقية فلم تكن قد شملت زيپا بالانتداب المصنف ـ اعتُبر الدفاع عنها بالغ الصعوبة. راح ملاديتش وهو المتباهي باستمرار والسريع في اقتناص فرص الظهور بمظهر البطل في أعين مواطنيه في صربيا، يختال تيهاً في شوارع زيپا فيما كان الآلاف من المسلمين يتابعون الاستسلام بعد سقوط المدينة. لم يبدُ ملاديتش مهتماً قط بحقيقة اتهامه في تلك الأثناء علىٰ أَنَّه أَحد مجرمي الحرب. صعد إِلىٰ إِحدى الحافلات المزدحمة ببعض الناجين من المسلمين وتطوَّس أمامهم قائلاً: «لن يستطيع الله ولا الأمم المتحدة ولا أية جهة أُخرى مساعدتكم. أنا ربكم الأعلى!»[1].

كانت تلك ذروة نجاح الصرب في ميدان القتال، رغم أَن أَحداً، وخصوصاً ملاديتش، لم يدرك الحقيقة في تلك الأثناء. فالقوّات الكرواتية، حتى فيما كان ملاديتش موشكاً علىٰ دخول زيپا، كانت عاكفة علىٰ عبور الحدود البوسنية للتخفيف من الضغط الواقع علىٰ بيهاتش. ذلك هو المنعطف الذي جرى فيه تحول مسار الأحداث. ففي الرابع من آب/ أغسطس انقض الكروات علىٰ الصرب في كراينا، مندفعين باتجاه بيهاتش في هجوم عُرف

---

(1) رود، 330.

باسم عمليَّة العاصفة. ومع تعرّض القوَّات الصربية للتمزيق الكامل تمخض الهجوم الكرواتي عن هزيمة كبرى للصرب. تقدم الكروات وهرب الصرب، ليس الجنود الصرب في كرواتيا فقط، بل آلاف الصرب المقيمين في كرايينا منذ أقدم العصور. تم الاجتياح الكرواتي دون مقاومة تقريباً، مع قدر هائل من الوحشية إذ جرى حرق القرى الصربية بصورة منهجية. حتى أولئك الذين كانوا قد اعتقدوا بأن القوَّات الكرواتية قد تحسّنت كثيراً صُعقوا بمدى شمول نجاحها. ففي الخامس من آب/ أغسطس، بعد يوم واحد فقط من بدء الهجوم، تخلى صرب كرايينا عن هيكلهم المزعوم في كنين دون قتال. تابعت القوَّات الكرواتية تقدمها، وتمكّنت، مع حلول اليوم التالي، يوم السادس من آب/ أغسطس، من رفع الحصار عن بيهاتش. في غضون أربعة أيام فقط نجح الكروات في استعادة جميع الأراضي ـ حوالي أربع مئة ميل مربع ـ الواقعة تحت الاحتلال الصربي في الغزوات التي شنوها بين سنتي 1991 و1992م.

في الوقت نفسه تقريباً، تمكّن الفوج الخامس البوسني المسلم، الذي يُعتَبر أفضل أفواج الجيش البوسني، من الخروج من جيب بيهاتش وراح يتقدم جنوباً وشرقاً. علىٰ الرغم من أن الزواج بين الكروات والمسلمين لم يكن مثالياً ـ لم يكن مؤهلاً، كما قال أحد الأمريكيين، لجمع جميع القادة العسكريين لدى الطرفين في المطعم نفسه في الليلة ذاتها وإِخراجهم آخر السهرة دون إِصابات من الجرحى ـ فإِن الارتباط العسكري كان، علىٰ أية حال، ناجحاً. ففي واشنطن فوجئ كبار المسؤولين في البنتاگون والسي. آي. إِي. بمدى نجاح القوَّات الكرواتية والإِسلامية، غير أن أمريكيين معينين علىٰ الساحة، بمن فيهم الضباط العاملون والاحتياط السابقون الأمريكيون العاكفون علىٰ تدريب الجيش الكرواتي، لم يفاجؤوا قط. كان ديك هولبروك ساخطاً علىٰ وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزيَّة بسبب مواقفهما المبالغة في تأييد الصرب. كانت الوزارة والوكالة قد ظنتا أن الصرب كانوا سيدافعون عن كرايينا وسيكونون

ناجحين في ذلك، وأنهم كانوا، لو ووجهوا بأية صعوبات، سيحصلون علىٰ المساعدة من الجيش القومي اليوگوسلاڤي الذي سيرسله ميلوسوڤيتش لنجدتهم. وقد كانتا مخطئتين في هذه التخمينات والتقديرات كلها بصورة كاملة.

لم يبذل ميلوسوڤيتش أية محاولة لإنقاذ كرايينا. ترك صرب كرواتيا، وقد عاش بعضهم هناك قروناً، لأقدارهم التي كانت بالغة الكآبة والمرارة حقاً. كان الآلاف منهم هائمين علىٰ وجوههم هاربين بأكثريتهم إلىٰ الأجزاء الخاضعة للصرب من البوسنة، ولكن الوحدات الكرواتية والمسلمة كانت تطاردهم عن كثب، تاركة آثار بصماتها القاسية علىٰ القرى التي تقوم باحتلالها. لم يبادر عدد كبير من الناس في الأجزاء الأُخرى من يوگوسلاڤيا المبتلية بالفظاعات الصربية والزاخرة بالكلام اليومي عن هذه الفظاعات الشنيعة، إلىٰ التعاطف من صرب كرايينا الهاربين. فعدوان ميلوسوڤيتش المبكر الذي حظي بالتأييد الحماسي من جانب الكثيرين هؤلاء (ذلك العدوان الذي لم يتخلّف إلاّ القليل عن الالتحاق بركبه الشيطاني)، هو الذي كان قد أفضى، بالضرورة، إلىٰ نسف اتفاقيات الماضي التي شكّلت أساساً للتعايش الصربي ـ الكرواتي في ظل شراكة مهزوزة في الغالب. قدرت وكالات الغوث أن أكثر من مئتي ألف صربي كانوا يعيشون في كرواتيا منذ أجيال كثيرة اضطروا إلىٰ الهرب. شكلت وحشية الكروات إزاء الصرب فيما كانت مواقع صربية حصينة ذات يوم مأساة أُخرى من سلسلة مآسي الحرب. فالقرى الصربية التهمتها النيران، والأهالي الصرب الذين بقوا في بيوتهم قُتلوا بالطريقة الكرواتية الخاصة من طرق التطهير العرقي، مثالاً بشعاً آخر من أمثلة فظاعات حرب خيضت أَكثرية معاركها القتالية ضد المدنيين.

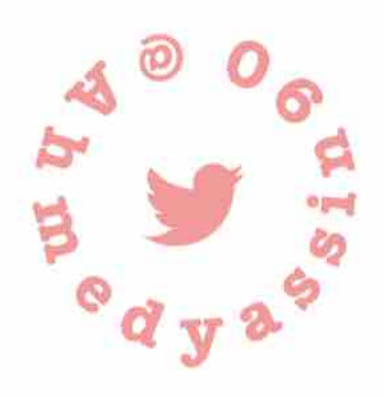
في الوقت نفسه تقريباً كان توني ليك، وقد نالت استراتيجيته «نهاية اللعبة» موافقة نظرائه إضافة إلىٰ مباركة الرئيس، يستعد للطيران إلىٰ أوروپا لترويجها لدى الحلفاء. حتى وهو علىٰ سلم الطائرة كان ليك متوجساً من الرد

الذي يمكن أَن يحصل عليه. فساندي ڤيرشبو الذي لم يكن أقل من ليك نفسه انشغالاً، زمناً وجهداً، وإِحباطاً بالبوسنة ظل يهمس في أذنه قائلاً: «لن تكون هذه صعبة كما تتوهم يا توني. إِنها ليست صعبة». وحين عبَّر ليك عن شكوكه خالفه ڤيرشبو زاعماً: «لا، سيكونون أكثر طواعية ومرونة. إِنهم مستعدون للتغيير. سترى». كان الأخير علىٰ صواب. كان مجيء شيراك قد شكَّل ضغطاً كبيراً علىٰ البريطانيين لصالح اعتماد سياسة أكثر تشدّداً. أضف إِلىٰ ذلك أن الأحداث الشنيعة والمرعبة الحاصلة في سربرينيتسا كانت قد بدأت تحدث تغييراً في الرأي العام البريطاني. فحين قام ليك بشرح ما أراده الرئيس وما كان الأَمريكيون عازمين علىٰ فعله مع الحلفاء أَو دونهم للبريطانيين، أظهر هؤلاء قَدْراً أكبر من المرونة مقارنة مع ما كانوا يبدونه في الماضي. لاحقاً، فيما كان الأَمريكيون موشكين علىٰ امتطاء الطائرة للانطلاق إِلىٰ محطتهم التالية، التفت اللفتنانت جنرال وس كلارك، ضابط القوّات البرية الممثِّل لوزارة الدفاع في الفريق، إِلىٰ ليك وقال: «لَقَدْ نَبَحَ الكلبُ الكبيرُ اليوم». صحيح أَن الأَمر كان قد استغرق سنتين ونصف السنة، ولكنه ما لبث أَن تم وحصل أخيراً. لقد اتفق الأوروپيون والأَمريكيون علىٰ اعتماد استراتيجية مشتركة وموحدة قائمة علىٰ استخدام القوّات الجويَّة التابعة لحلف شمال الأطلسي ضد الصرب.

شاءت الصدف أَن يتزامن الهجوم الكرواتي بصورة شبه نموذجية وكاملة مع رحلة ليك. ففيما كان في طائرته مع ڤيرشبو وآخرين، بدأ الجميع يقرؤون بصوت مرتفع جملة التقارير الاستخباراتية السابقة الصادرة عن وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزيَّة والمتضمنة تقويمات سلبية لأي هجوم كرواتي ضد الصرب. نادراً ما كانت قراءة جملة من التقديرات المتشائمة باعثة علىٰ مثل هذا القدر من المتعة.

وهكذا فإِن القوّات المتحفزة لضرب ليس صرب البوسنة فقط، بل وميلوسوڤيتش أَيضاً بدت للمرة الأولى بالغة الجبروت، وذات حدّين بصورة

مشؤومة. لم يتوقف الأَمر عند قيام الكروات والبوسنيين باجتياح كرايينا، بل تجاوزه إِلىٰ شروع الغرب بالاستعداد الواضح للاضطلاع بدور أكثر تشدّداً في تعامله مع الصرب، مع ما يمكن لذلك أن ينطوي عليه من هجمات جويَّة كثيفة.


@Ahmedyassin90

الفصل الثلاثون

دعت استراتيجية «نهاية اللعبة» إلىٰ عقد مؤتمر سلام يضع حداً للنزاعات في البلقان، وكان من شأن دور المفاوض الرئيسي أَن يكون حاسماً وحيوياً. ما من أَحد كان يعرف الشكل الذي يمكن للمفاوضات أَن تأخذه، مكان إجرائها، والجهة التي ستتولى مهمة قيادتها. غير أَن مفاوضاً أَمريكياً خاصاً كان لا بد من وجوده للاضطلاع بمهمة ذات أَهميَّة وعَلَنية نادرتين. فنياً كان ليك هو المرشح الأول، غير أنّه كان قد فضَّل الاعتذار، ربما لأَنَّه كان مثقلاً بأعمال ومهمات أُخرى، أَو ربما لأَنَّه أحس بأن مواهبه لم تكن استثنائية التناغم مع الرسالة. هذا الموقف بحد ذاته يكشف عن جانب معين من جوانب شخصية ليك. علَّقَ أَحد الزملاء في الإِدارة قائلاً، لا أَحد ممن تسنى لهم أَن يعرفوا هنري كيسنگر في أَيامه كان يستطيع أَن يتصوّره متوارياً عن مثل هذا المسار في منتصف الطريق دافعاً الجميع إِلىٰ طاولة السلام دون أَن يضع نفسه في بؤرة الضوء بوصفه المفاوض الأَمريكي الأول.

أما ديك هولبروك، الذي كان يشغل منصب معاون الوزير للشؤون الأوروپية منذ حوالي سنة، فقد كان شديد الرغبة في الاضطلاع بالمهمة وقد ظل دائباً علىٰ السعي لتوليها. قال لبعض الزملاء: «إِنني عاكف منذ ما يقرب من ثلاثين سنة لقيادة مفاوضات سلمية مثل هذه». وهل من اعتراض علىٰ هولبروك؟ هل ثمة من هو أفضل منه في التعامل مع ميلوسوڤيتش، توجمان،

وعزت بيگوڤيتش، ولا أَحد منهم مرشح، كما سبق لجون دويتش أَن قال مرة، لنيل جائزة توماس جفرسون؟ إِنطلاقاً من طابع الناس الذين كان سيتعامل معهم، كان هولبروك شخصاً نموذجياً ومثالياً لشغل المنصب. لعل الوحيد الذي ربما كان أفضل، حسب تعليق أَحد الأصدقاء، هو جيمي هوفّا، رئيس نقابة سائقي الشاحنات السابق الذي لم يره أَحد منذ سنوات ويعتقد البعض أَن جثته مدفونة تحت ملعب كرة القدم للعمالقة في نيويورك، بالقرب من هاكنساك النيوجيرسية.

كان وارن كرستوفر احتمالاً آخر. غير أنّه لم يكن مطّلعاً علىٰ ملابسات ودقائق الأمور ذات العلاقة بالأَطراف البلقانية المختلفة الكثيرة المعنية، وبما أَنَّه كان قد قاد مفاوضات رهائن إِيران المضنية قبل حوالي خمس عشرة سنة، فإِنه لم يكن تواقاً للاضطلاع بمهمة إِدارة مؤتمر سلام مصحوب بقدر مماثل من التعب والإِجرام. أضف إِلىٰ ذلك أَن كرستوفر كان قد نحّىٰ جانباً، إِلىٰ حد كبير، جميع الشكوك والهواجس التي كانت تساوره حول هولبروك. كان هولبروك قد برهن علىٰ أَنّه نائب وزير جدير بالإِعجاب، لم يحاول اعتماد أساليب التملص والتهرّب قط، وكان وزير الخارجيَّة يعلم أَن كلاً منهما يكمل الآخر بطريقة عضوية غير متعمَّدة. فكرستوفر كان علىٰ الدوام حريصاً وحذراً، دائم الحساسية إِزاء ما قد يقع من خطأ، متحفظاً أمام الأضواء، أَكثر الرجال أناقة. أَمَّا هولبروك فقد كان أقلهم أناقة وترتيباً، منجذباً حتماً إِلىٰ الأضواء الساطعة مثلما تنجذب الفراشة إِلىٰ اللهب، ومقترفاً أحياناً لجريمة ترقية الذات ودفعها. كان بعض معاونيه المعجبين به والعاملين معه ميدانياً في البلقان يقولون حين يصل إِلىٰ مدينتهم في جولاته المكوكية بين المدن البلقانية: «لقد حَطَّ «الأنا» علىٰ الأرض». غير أَنّه كان في الوقت نفسه حازماً وجريئاً، مستعداً لاقتراف بعض الأخطاء ليتمكن من القيام بأشياء أُخرى بأشكال صحيحة، مستعداً قبل كل شيء للمخاطرة في سبيل خدمة السياسات والخطط التي يؤمن بها.

إلاَّ أَن أسلوب عمل هولبروك كان علىٰ طرفي نقيض مع أسلوب عمل دبلوماسيي حقبة أُخرى، درجوا علىٰ تفضيل التكتم والسرِّيَّة علىٰ أي شيء آخر. شكَّلَ مَجيء هولبروك ـ مع قربه من وسائل الإعلام ـ تغييراً إضافياً آخر أحدثته وسائل الاتصالات الحديثة في عالم وسائل الإعلام الذي كانت قد أوجدته. حتى في مجال الدبلوماسية، المشغول عادة بالجنتلمانات المدمنين علىٰ إبقاء كل ما هو مهم سراً، انتقلت الراية (المشعل) إلىٰ عاملين من طينة أكثر خشونة ومدركين لحقيقة أَن الدبلوماسي الذي يتفوق في إتقان فنّ التسريب ويجيد استخدام جيشه الإعلامي كجوقة إغريقية تردد الأصداء هو المؤهَّل للفوز في النهاية. لم يكن هولبروك من اختيار ليك لوظيفة مفاوض السلام. ففي الصيف الماضي حين كانت تفاصيل استراتيجية «نهاية اللعبة» في طور الإعداد والإنضاج، كان هولبروك قد تم استبعاده عن دائرة فريق العمل الصغيرة، فصدرت عنه صرخات الألم والشكوى المنتظمة علىٰ مسامع أكثرية الأصدقاء القدامى. كانت شكوك ليك بقدرات هولبروك واضحة. فقد قال لنظرائه إن التحكم بهولبروك سيكون صعباً، ستقف ذاته المتورمة في الطريق، وقد يحاول الظهور والبروز. غير أَن صوتاً انتقادياً آخر ما لبث أَن التحق بالركب. فنيل پيري لم يكن كثير الاستلطاف لهولبروك لهذا السبب أو ذاك، غير أنّه أقرّ بأن المهمة تعود إلىٰ وزير الخارجيَّة. أَمَّا كلنتون فكان قد بدأ يقدِّر هولبروك حق قَدْره ويعرف أنّه كان بحاجة إلىٰ طاقته وإتقانه لفن التعامل مع وسائل الإعلام. تلك هي الطريقة التي حُسمت بها عمليَّة تكليف هولبروك بالمهمة. في الثاني عشر من آب/ أغسطس طار هولبروك إلىٰ لندن حيث اجتمع سراً بليك الذي سلّمه قرار التعيين قائلاً: «هذا ما ظللنا نحلم به علىٰ الدوام حين انطلقنا في سايگون قبل ما يزيد عن ثلاثين سنة». ثم أضاف: «سأكون معك إلىٰ النهاية، وإذا أَخْفَقَتْ المهمة فإن السبب هو حماقتي أنا أَكثر من أَن تكون حماقتك أَنت»[1].

---

(1) مقابلتان مع ليك وهولبروك؛ هولبروك، 74.

أدَّى ذلك إلىٰ جعل هولبروك في وضعية فتى 1995م البيروقراطي الغر. كان قد بدأ بعيداً عن اللعبة في كانون ثاني/ يناير 1993م، متولياً منصباً اعتبره دون مستواه إلىٰ حد كبير. شكَّلَتْ فترة كلنتون الانتقالية أسوأ الأوقات بالنسبة إليه. كان الديمقراطيون عائدين إلىٰ السلطة، وكان هو في الحادية والخمسين من العمر، في الأوج المطلق لحياته المهنية، جاهزاً لتولي أعلىٰ المناصب في الإدارة الجديدة. غير أن الكبار، ممن يُفترض في أكثرهم أنهم أصدقاء قدامى، كانوا قد أقصوه واستبعدوه، وكان هو **واثقاً** من أن بعض أولئك الحاصلين علىٰ مناصب عليا كانوا أقل موهبة منه. حتى في أثناء الفترة الانتقالية كان، علىٰ أية حال، متمتعاً بدعم أحد أولياء النعمة المهمين جداً، ألا وهو ستروب تالبوت الذي كان قد وظف نفوذه لدى كلنتون لتمكينه من الحصول علىٰ عمله في ألمانيا، والذي واصل دعمه ورعايته له لجعله يفوز بدور أكثر أهميَّة حين يبرهن علىٰ أنَّه ناجح في أوروبا.

كانت وظيفة بون [السفارة] قد فاجأت هولبروك تماماً لأنه كان مهتماً بسائر الأشياء الأُخرى أكثر من اهتمامه بالشؤون الأوروبية. برزت شكوكه حول المنصب مباشرة؛ خشي أن يكون قد أصبح أبعد مما ينبغي. ملتمساً النصح اتصل بلَسْ گلب، معلق الشؤون الخارجيَّة في **التايمز** الذي اضطلع في تلك الأيام بدور يشبه دور المستشار بالنسبة إلىٰ كل من ليك وهولبروك. لقد كان گلب، وهو دارس داهية للجهاز البيروقراطي في وزارة الخارجيَّة فضلاً عن كونه خبيراً واسع الاطلاع بطبائع ريتشارد سي. هولبروك، مفعماً بالحماس وقال له إن بون أفضل بكثير من طوكيو، المنصب الذي كان قد أراده. طالما اعتُبر يداً آسيوية، وكانت بون ستكسبه خبرة في الشؤون الأوروبية أيضاً، وهو أمر لا بد منه في سبيل أي ارتقاء إضافي. استطاع گلب بسهولة أن يتصور هولبروك المعروف بموهبته وطاقته ناجحاً في عمله في ألمانيا، الشخص المناسب تماماً لبيئة لم تعد فيها الأمور راكدة وجامدة. وقد قال: «إنه أفضل

الأشياء ممكنة الحصول. ستكون فترة بالغة الإثارة في ألمانيا ـ إنها متحولة، في حالة انسياب، وأوروپا هي الأُخرى في حالة تغير وستكون أنت في قلب العمليَّة، ستتوفر لك فرصة إِعادة تجهيز نفسك بالأدوات في منطقة مختلفة كلياً».

كان الاتصال الثاني لهولبروك بصديق قديم آخر من أَيام ڤيتنام المبكرة يدعى فرانك ويسنر، كان الآن مساعداً لوزير الدفاع، تلقى النبأ دون حماس كبير قائلاً: «حسناً، ستقبل المنصب بالطبع. إِنها وظيفة ممتازة جداً وما نريده من الألمان هو. . .» واستطرد مقدماً إِيجازاً مباشراً. وبعد ذلك اتصل هولبروك بأمه التي وُلِدت في ألمانيا، غادرتها قبل الحرب وهي في الثالثة عشرة من العمر، ولم تعد إِليها ثانية قط. لم تشعر بأي ارتياح لسماع النبأ. **ألمانيا؟** قالت، مختزلة ردها بإِشارة استفهام كبيرة. أَمَّا اتصاله الأخير فكان ـ نظراً لأنه بات داخلاً في جو العمل، مبادراً إِلىٰ التحرّكات ـ مع هنري كيسنگر الذي كان يعلم أَنَّه أقرب أَمريكي من المستشار هلموت كول، وجاء الاتصال كنوع من الرَّبْت علىٰ الكتف والمجاملة. ونظراً لأنهما كانا علىٰ طرفي السياج المختلفين فقد عقد هولبروك آمالاً علىٰ اجتذاب كيسنگر، قدر الإِمكان، إِلىٰ صفه، ولم يكن يريد، قبل كل شيء، أَن يشي كيسنگر به إِلىٰ كول.

تولى هولبروك المنصب لأَن عدداً من أصدقائه رأوا أَن بون لم تكن إِلاَّ خطوة أولى، أَن من شأنه، عاجلاً أَو آجلاً، أَن يكون مطلوباً نظراً لقدراته وحماسه، وللضعف الذي تعاني منه وزارة الخارجيَّة علىٰ مستوى القمة. غير أَنَّه قبل بالمنصب أَيضاً لأنه يحب الإِدارة والحكم، يعشق العمل الجانبي وراء الكواليس والإِثارة التي تنطوي عليها لعبة الحكم. علىٰ الرغم من أَنَّه راكم الملايين من الدولارات فإِن وول ستريت لم يكن شديد الإِثارة بالنسبة إِليه. كان شديد الحماس للعمل في ألمانيا. تلك كانت طبيعته التي تدفعه إِلىٰ الانخراط بالعمل دون تردد، حتى وإِن كانت وظيفة أشبه بجوائز الترضية، وهو يعلم أَن

بعض نظرائه في واشنطن كانوا شامتين به وساخرين منه لأَن الإِدارة أبعدته إِلىٰ بون. سارع هولبروك إِلىٰ إِعادة تأهيل نفسه وما لبث أَن أَصبح النموذج المثالي للمختص الحديث بالشؤون الأوروبية بدلاً من بقائه متمركزاً علىٰ آسيا.

مهما كانت الأشياء الأُخرى التي يمكن قولها عن هولبروك، فقد كان الرجلَ الأَكثر انفتاحاً فكرياً. ولعل الأَكثر ندرة بالنسبة إِلىٰ شخص بمستواه مع تلك الذات المتضخمة هو أَنَّه كان يعرف ما لا يعرفه وبالتالي ما كان يتعين عليه أَن يتعلمه. علىٰ الفور أقنع صديقاً قديماً سبق له أَن التقى به قبل عشرين سنة في جامعة پرنستون وأحد الباحثين الأكاديميين الطليعيين المتخصصين بتاريخ ألمانيا في أَمريكا، يدعى فريتز شتيرن، بالعمل في سفارته خلال فترة محدودة كأستاذ تاريخ مقيم يقوم بتلقينه محاضرة يومية من ساعتين أَو ثلاث ساعات. كان شتيرن من مواليد بريسلاو، جاء إِلىٰ أَمريكا فتى، وباحثاً أكاديمياً يعرف الفوائد المعاصرة للتاريخ. تمكّن وبسرعة من جعل هولبروك مواكباً للسرعة الفكرية المطلوبة في دوره الجديد. أضف إِلىٰ ذلك أَن هولبروك ما لبث أَن اكتشف، وأعاد الاعتبار لجد سبق له أَن قاتل مع القيصر في الحرب العالميَّة الأولى. سرعان ما جرى إِبراز صورة كبيرة مؤطرة لهذا الجد الذي لم يسبق لأي من أصدقاء هولبروك أَن رأى صورته في أماكن سكنه السابقة، مع شاربين ألمانيين مناسبين وخوذة توتونية مضحكة.

كان هولبروك علىٰ علاقة جيدة مع هلموت كول وقام بدور غير قليل في إِقناعه، وهو صاحب الروابط العمليَّة والإِيديولوجية مع إِدارة بوش، بضرورة أخذ الإِدارة الجديدة مأخذ الجد. راح هولبروك يوحي بأن فريق كلنتون لم يكن مؤلفاً من أطفال أغرار غير مصقولين فقط، كما كانت وجهة النظر العامة في العالم القديم تقول، بل كان كلنتون، برأي هولبروك، مرشحاً لأَن يبرز علىٰ المسرح، وبسرعة، بوصفه قائداً سياسياً موهوباً وحصيفاً لم يكن نجاحه السياسي الاستثنائي حتى الآن صدفة. لم يكن تلطيف رأي كول بكلنتون إِنجازاً

صغيراً بالنسبة إلىٰ هولبروك، وكان سيساهم في عمليَّة إخراج زيارة كلنتون الناجحة لبرلين سنة 1994م، حيث كان كلنتون وكول، زعيما الدولتين اللتين كانتا قد خاضتا حربين مريرتين إحداهما ضد الأُخرى في هذا القرن وكانت جهودهما قد تضافرت في تحالف مضاد للشيوعية لم يكن يسيراً، قد سار مشياً علىٰ الأقدام، جنباً إلىٰ جنب، إلىٰ بوابة براندنبرگ، كل منهما يمسك بيد الآخر ومصحوبين بزوجيهما. لقد كانت لحظة بالغة القوَّة ـ وجلية ـ رمزت إلىٰ الوجه الأَكثر إشراقاً للنظام العالمي الجديد، لحظة ظل هولبروك يتساءل باستمرار عن السبب الذي منع جورج بوش من استغلالها. وقد أدرك هولبروك أَن كلنتون، خلافاً لبوش، كان أستاذاً في فن تحديد الصورة الجديرة بالمشاركة في اقتسامها في اللحظة المناسبة.

مع تدهور صحة ميتران كان كول قد أَصبح الشخصية السياسيَّة الأهم في القارة الأوروپية، وتعامل هولبروك معه بالطريقة المناسبة، مدركاً، كما قال مرة، أَن الوظيفة الرئيسية لأي سفير أَمريكي مع كول لم تكن تتجاوز الإِصغاء، والإِصغاء فقط. تفهم هولبروك رغبة كول الفطرية في توسيع الناتو حتى تتوقف ألمانيا عن أَن تكون حدود الغرب مع روسيا كحالها منذ انتهاء الحرب. كان كول يريد إِلقاء تلك المسؤولية علىٰ عاتق پولونيا، مما دفعه إلىٰ السعي من أجل توسيع الناتو، وهو ما كان هولبروك يفعله داخل الإِدارة. أحس بنوع من المرونة العامة والافتقار إلىٰ التركيز في سياسة كلنتون الخارجيَّة، باستثناء التجارة حيث كان ميكي كانتور متمتعاً بنفوذ كبير. قام هولبروك باقتحام ذلك الفراغ بشغف. ومستفيداً من بطالته الجزئية في ألمانيا، ما لبث هولبروك أن أَصبح قوة تفوق منصبه الهرمي وتتجاوزه، ما أطلق عليه صديقه تالبوت اسم «مصنع أفكار قائم علىٰ رَجُل واحد حول مستقبل الناتو وأمن أوروپا».

كان تالبوت، الذي دأب علىٰ زيارة موسكو بانتظام، يرى أَن الطاقة التي أفرزها هولبروك كانت استثنائية، مما جعله يرتب رحلاته بطريقة تمكّنه من

التوقف في بون للتحدث معه، معتقداً بأنه المفكر الاستراتيجي الأَقْدر والأكفأ بين أفراد الجماعة العاكفة علىٰ التعامل مع الإِطار الأوسع لأَمن أوروپا. ومع زيادة طول الوقت الذي قضاه مع هولبروك، زاد تالبوت اقتناعاً بالحاجة إِلىٰ الرجل في واشنطن لشغل منصب أعلىٰ في الوزارة. ورأى تالبوت أَن بعضاً من العثرات التي طبعت السنتين الأوليين من إِدارة كلنتون ربما كان قد أمكن تجنّبها لو التحق هولبروك بمنصب أعلىٰ في البداية. صحيح أَن قَدْراً أكبر من الفوضى والصراع كان سيسود، ولكن ذلك كان ثمناً يجدر دفعه. فباعتقاد تالبوت كان هولبروك متقدماً أشواطاً علىٰ الإِدارة في تفكيره بشأن البلقان والورطة التي نعاني منها هناك. فبوصفه حركياً ناشطاً حول البلقان باستمرار، كان هولبروك يرى أننا لا نستطيع أَن نعالج أية مسألة ذات علاقة بالناتو أَو أَمن أوروپا ما لم نتعامل مع ميلوسوڤيتش أولاً لأنه كان عاملاً بالغ الحسم، دائباً علىٰ استغلال وتضخيم جملة التوترات والأزمات الموجودة في الغرب. لقد كانت القضية علىٰ تلك الدرجة من البساطة.

جاء نجاح هولبروك في ألمانيا متوازياً تماماً مع إِخفاق سياسة الإِدارة في البلقان، التي تنبأ لها منذ اليوم الأَول بأَنها ستكون القضية السياسيَّة الخارجيَّة الحاسمة بالنسبة إِلىٰ رئاسة كلنتون. تحتمتْ استعادته إِلىٰ واشنطن لتولي منصب معاون الوزير للشؤون الأوروپية، حيث عاد في منتصف أيلول/ سپتمبر 1994م، ليس، بالضرورة، لأَن وارن كرستوفر كان يريده، بل لأَن الوزارة كانت بحاجة ماسة إِليه. آنذاك كان هولبروك متمتعاً برعاية اثنين من الأساتذة أَو أولياء النعمة. كان الأَول هو تالبوت الذي كان واقفاً تماماً علىٰ نقاط قوة هولبروك من ناحية ومواطن ضعفه من ناحية ثانية، وسبق له أَن قال عن صديقه: «إِن ديكْ أشبه بلاعب بيسبول عظيم يشارك في دوري عالمي مؤهل لأَن ينجز ضربات أَكثر من أَي لاعب آخر، ولكنه معرّض أَيضاً لأَن يصيب عدداً أكبر من الناس بالكرات ـ قد يفوز في الدوري مع كبار الضاربين». أَمَّا أستاذ هولبروك الثاني فكان توم

دونيلون، ذلك المساعد الشاب اللامع لكرستوفر الذي كان يلعب دوراً حاسماً في خيارات رئيسية علىٰ صعيد كوادر الجهاز، ويرى أن الوزارة علىٰ أعلىٰ المستويات كانت بحاجة ماسّة إلىٰ طاقات هولبروك ومواهبه، خصوصاً لأن كرستوفر لم يكن أفضل من نوابه في أي من الميادين المحددة. كان دونيلون يعلم بأن معظم الأشياء التي دأب النقاد علىٰ تكرارها عن هولبروك ربما كانت صحيحة، غير أنَّه كان يعلم في الوقت نفسه أن جزءاً كبيراً من تلك الأشياء لم يكن منطوياً علىٰ أية أهميَّة، فضلاً عن أن جانباً غير قليل منها كان صادراً عن الحَسَد والغيرة. كان دونيلون يدرك تلك الحقيقة العظيمة الطاغية علىٰ سائر الصفات الهامشية عن ديك هولبروك، ألا وهي حقيقة أن عمله كان هو حياته. بالمقارنة مع الآخرين جميعاً تقريباً، بدا النجاح بنظر هولبروك منطوياً علىٰ قدر أكبر من المغزى والأهميَّة، كما بدا الإخفاق ساخراً منه أكثرمن غيره. وكان دونيلون يرى أيضاً أن أحد الانتقادات الموجّهة إلىٰ هولبروك كان متمثّلاً بإشاعة كبرى زعمت أنَّه كان يعمل ذاتياً بمفرده ومن منطلق قناعته الخاصة دون استشارة أحد علىٰ الإطلاق. ما هذا الكلام؟ سأل دونيلون معشر الأصدقاء: دون استشارة أحد؟ إنَّه دائم الاستشارة واستطلاع الآراء. إنَّه لا يكف عن الاتصال بك، إذ يتصل مرة كل عشرين دقيقة، ليطلعك علىٰ ما أنجزه لتوه.

كل من تالبوت ودونيلون كانا صاحبي نفوذ عند كرستوفر، وكانا، كلاهما، من عُشّاق هولبروك. ومما لا يحتمل ولو ذرة واحدة من الشك أن كرستوفر لم يكن كذلك. لم يكن الأخير حريصاً علىٰ إبقاء هولبروك في أي مكان قريب منه لدى توليه للوزارة. فأسلوب عمل هولبروك العام كان مزعجاً بالنسبة إليه. أضف إلىٰ ذلك أن للرجلين تاريخاً مشتركاً حول حقوق الإنسان حين تصارع هولبروك مع پات ديريان بشأن ماركوس والفلپين. فحين كان تالبوت ودونيلون يضغطان لصالح تنصيب هولبروك، كان كرستوفر يحتج قائلاً: «غير أن هولبروك ممزّق» فيرد عليه دونيلون «بوسعنا أن نستفيد من شيء من

التمزيق عندنا». أخيراً وافق كرستوفر علىٰ أخذ هولبروك، ولكنه حين اتخذ القرار، التفت إلىٰ تالبوت وقال بلهجة قريبة من التوسّل: «هذا يعني أنّك يا ستروب ستتولى مهمة التعامل مع ديك، أليس كذلك؟».

في وزارة للخارجيَّة باتت سيئة السمعة بوصفها مؤسسة تجريبية وسائبة، شكَّلَ هولبروك ذُخْراً منذ البداية. كانت لديه فكرة واضحة عما تحتاجه الإدارة، ولأنَّه كان دائم الاطلاع على، والدراية بالتقاطعات الحاصلة بين السياستين الخارجيَّة والداخليَّة، فقد كان واقفاً علىٰ مدى الخطورة التي انطوت عليها الأحداث الجارية في البوسنة بالنسبة إلىٰ مستقبل رئاسة كلنتون. لعل الشيء الإيجابي في وزارة خارجيَّة كرستوفر هو توفّر حرية الحركة لأولئك الراغبين في العمل والتحرّك. لم تكن في وزارة الخارجيَّة هذه أية قيود إقليمية صارمة. فقد كان كرستوفر سريع التسليم بوجهات نظر نوّابه وإن لم يكن هو نفسه عملاقاً يحمل رؤيا واضحة تخصّه، وتلك كانت ميزة إيجابية بالنسبة إلىٰ هولبروك. وبالتالي فقد التحق بالعمل زاخراً بالنشاط، متأخراً أكثر من سنتين عن البرنامج، ساعياً إلىٰ التعويض عن الزمن الضائع عبر استلام ملف البلقان.

كان أيَضاً أشبه بموقد اللحام، دافعاً مَنْ هم حوله دون رحمة، دائم المطالبة بالتميز والولاء بالطبع. سارع إلىٰ الارتباط ببيتر گالبريث، عنصر الوزارة المعزول دونه في زگرب، وإلىٰ جعل الأخير يقف علىٰ حقيقة أنّه استعاد دوره، ولكن شرط حصر قناة اتصاله بهولبروك. كانت مخابرات هاتفية كثيرة ستتم مع گالبريث لمطالبته بعمل معين، وفي نهاية المخابرة كانت ترد عبارة هولبروكية نموذجية تقول: «إياك أن تنسى، أنا صديقك الوحيد هنا. الجميع هنا لا يستطيعون تصور مؤخرتك. أقضي أكثر من نصف وقتي وأنا أدافع عنك. وبالتالي فإن من الأفضل لك أن تخاطب الوزارة من خلالي أنا». كان گالبريث يحاول الاحتجاج والرد قائلاً: «كيف يمكنك أن تكون صديقي الوحيد، ولكن جميع أصدقائك يغرقونك بالكلام البذيء في حين أن أصدقائي يحبونني علىٰ ما

أظن؟» وهكذا فقد كانا يتشاجران غير أَن ﮔالبريث كان يدرك أَن هولبروك ربما كان علىٰ صواب. لقد كان الرجل الوحيد علىٰ ذلك المستوى في صف ﮔالبريث.

حين جرى تسلّم المهمة من ليك في لندن يوم 12 آب/ أغسطس، انقلب هولبروك فوراً إِلىٰ ما كان يحلم به، إِلىٰ محور قضية البوسنة، وكانت مهمته الأولى، منسقاً في الغالب مع پيتر ﮔالبريث، تنظيم الهجوم الكرواتي ـ الإِسلامي. حول هذه النقطة بالذات كانت واشنطن مختلفة في الرأي مع من هم علىٰ الأَرض في الميدان. كانت واشنطن تريد فرض قَدْر أكبر من القيود علىٰ القوّات الكرواتية المتقدمة مقارنة بما كان يراه هولبروك وفريقه. تمثّل جزء من مهمة الفريق هذه بمطالبة الكروات ومسلمي البوسنة بالتباطؤ، وهي توجيهات قلما كان تالبوت وعزت بيگوڤيتش توّاقين لسماعها. فضلاً عن أَن هولبروك هو الآخر لم يكن موافقاً علىٰ التباطؤ. فكل قطعة أَرض محرّرة خلال الهجوم من شأنها، برأيه، أَن تنطوي علىٰ قيمة كبيرة جداً بالنسبة إِلىٰ محادثات السلام اللاحقة. بكل بساطة، كان إِكثار الكروات من الاستيلاء علىٰ الأَرض يعني تسهيل عمليَّة رسم الخريطة الجديدة علىٰ مفاوضي واشنطن. فحين اجتمع هولبروك وفريق معاونيه مع توجمان في السابع عشر من آب/ أغسطس، دأب أَحد أعضاء الفريق، متناغماً مع توجيهات واشنطن، علىٰ الضغط علىٰ الرئيس الكرواتي طالباً وقف الهجوم. لكن شعور هولبروك كان مختلفاً، مثله مثل شعور نائبه بوب فريزر الذي سبق له أَن قضى وقتاً طويلاً وهو يتفاوض مع ميلوسوڤيتش. في منتصف الغداء ذلك اليوم، رغبة منه في تشجيع رئيسه، بادر فريزر إِلىٰ خربشة ملاحظة علىٰ لصاقة مكانه وتمريرها إِليه؛ كانت الملاحظة تقول: «انتبه يا ديك! لقد «استأجرنا» هؤلاء البشر ليكونوا كلاب حراسة حديقتنا الخلفية لأننا كنا يائسين وبحاجة ماسة إِليهم. لا بد لنا من «التحكم» بهم، غير أننا لسنا في وقت يسمح لنا بأن نكثر من التذمّر والنحيب. إِنها المرة الأولى

التي تجري فيها الرياح بما لا تشتهي سفن الصرب، بالاتجاه المعاكس. تلك مسألة جوهرية بالنسبة إلينا إذا كنا نريد تحقيق الاستقرار حتى نتمكن من الخروج من الورطة»[2]. كان الاقتراح الأخير هو الفائز. كان الهجوم الكرواتي سيستمر.

لدى حلول منتصف أيلول/ سپتمبر كان الانحدار الصربي متواصلاً. مرة أُخرى ثار غضب واشنطن. أراد توجمان أن يندفع أكثر، مثله مثل الأمريكيين اللذَيْن كان يتعامل معهما، هولبروك وگالبريث، ومثل عزت بيگوڤيتش بشكل خاص وأكثر من الآخرين جميعاً. غير أن واشنطن أمرت هولبروك وگالبريث بإجبار الكروات ومسلمي البوسنة على وقف الهجوم. ففي الخامس عشر من أيلول/ سپتمبر كُلِّف گالبريث بتسليم توجمان مذكرة، رسالة رسمية، تطلب منه أن يتوقف. صُعق گالبريث بالرسالة، طالب بإعادة صياغتها، ولكن طلبه قُوبل بالرفض. اضطر، بالطبع، إلى تسليم المذكرة، غير أنّها كانت ضد كل قناعاته. كان هولبروك وگالبريث، كلاهما، معارضين. فهولبروك كان مؤمناً بأنانية ميلوسوڤيتش المطلقة؛ كان الرجل [ميلوسوڤيتش] قد شَطَب صرب كرايينا من الوجود، وكان الآن مستعداً لشطب صرب البوسنة، جزئياً على الأقل، من الوجود أيضاً. كان هولبروك يعلم بعدم وجود أي ود مفقود بينه وبين ملاديتش، وأن الأخير لم يكن إلاَّ أهون الشرين في أحسن الأحوال، وربما كان شخصاً ينبغي سحقه بالأقدام.

كان هولبروك في تلك الأثناء يتعامل تعاملاً مباشراً مع ميلوسوڤيتش وقادراً على رؤية تأثير التغيير الحاصل في ميدان القتال على موقفه. كان هولبروك مؤمناً بامتلاك حدس دقيق بمدى استعداد ميلوسوڤيتش للسير في الرد على الهجوم الكرواتي ـ الإسلامي. غضب هولبروك من كون واشنطن التي أخطأت، برأيه، في هذه اللعبة من بدايتها، راغبة الآن في وقف الهجوم. بكثير

---

(2) هولبروك، 73.

من المكر قام توجمان بسؤال هولبروك، في أثناء الاجتماع مع هولبروك وگالبريث في منتصف أيلول/ سپتمبر، عن رأيه الشخصي بالمسألة. جاء رد هولبروك المتحلي بأكبر قَدْر ممكن من الحذر، ملمّحاً إلىٰ تأييده للهجوم، دون أَن يتحدى رؤساءه بصورة مكشوفة. وفي تلك الأثناء كانت قبضة الصرب علىٰ كرواتيا والبوسنة الغربيَّة قد تقلّصت إلىٰ حد كبير. بات ميلوسوڤيتش في مواجهة أزمة سياسيَّة حقيقية. كانت جموع الآلاف المؤلفة من صرب البوسنة، تماماً مثل صرب كرواتيا قبل بضعة أسابيع، تهرب من بلداتها وقراها وتتوجه عائدة إلىٰ صربيا، حيث كانت جميعاً عازمة علىٰ الاستقرار في مدينة بلگراد. كانت صربيا قد استوعبت ما يزيد عن مئة ألف من اللاجئين الصرب، أَكثريتهم من كرواتيا، وهي مرشحة الآن بسبب الأحداث الكارثية الجارية في البوسنة لمواجهة مشكلة استيعاب أعداد أكبر، أعداد قد تصل إلىٰ ستمئة ألف، وجميعهم غاضبون حسب أقوى الاحتمالات. كان من شأن ذلك أَن يشكِّل مقتلاً سياسياً بالنسبة إلىٰ ميلوسوڤيتش مما جعله شديد الرغبة في وقف الانحدار. للمرة الأولى بدأ ميلوسوڤيتش يسعى إلىٰ عقد مفاوضات سلمية من منطلق مختلف ـ منطلق وضع حد لقصف مدافع جهة أُخرى.

كان هولبروك المتنبه إلىٰ مخاوف واشنطن ولكن العامل وفقاً لأوامر مرنة صادرة عن كرستوفر يريد ميدان قتال متناسب مع التسوية المنظورة في خطة نهاية اللعبة الليكية (نسبة إلىٰ ليك) القائمة علىٰ تقسيم الساحة البوسنية إلىٰ شطرين علىٰ أساس 51 بالمئة للكروات والمسلمين و49 بالمئة للصرب، ومستعداً لانتظار فترة أُخرى إِضافية. ويوماً بعد آخر زادت القوّات الكرواتية ـ الإِسلامية من اندفاعها وما لبث هولبروك أَن كلَّف عناصره برسم الخرائط مرتين يومياً، خرائط تبين الأراضي الخاضعة لسيطرة كل من الفريقين. كان هولبروك أساساً يشاغل حكومتين، يوحي لتوجمان الذي كانت قواته تقوم بالجزء الأكبر من العمل بمواصلة القتال من جهة، مع العمل في الوقت نفسه علىٰ لجم

واشنطن من جهة ثانية. في الماضي كانت العقبة الكبرى أمام التعامل مع الصرب هي الخريطة التي سبق لهم أَن قدّموها ـ مع بقاء 70 بالمئة من البوسنة بيد الصرب. أَمَّا الآن فقد بدأ الأَمر يتغير علىٰ أَرض المعركة.

إذا لم يكن الضغط الصادر عن الهجوم الكرواتي ـ البوسني كافياً لإِقناع ميلوسوڤيتش بتحول اتجاه الموج، فإِن أواخر آب/ أغسطس جلبت معها حافزاً إِضافياً، حيث كان الاستخدام الكبير الأَول لطيران الناتو ضد صرب البوسنة، لا القصف الواخز الخفيف الذي أخفق في الماضي، بل القصف العنيف، الذي تم بعنف متواصل وبالعضلات التكنولوجية القوية جداً لحلف الناتو. فما ميز استخدام سلاح الطيران في حرب الخليج قبل أربع سنوات، وما كان قد دفع الجنرال توني ماك پيك، رئيس أركان سلاح الطيران، لأَن يقول لكولن پاول إِن الطيران وحده قادر علىٰ أَن يفعل شيئاً في البلقان، بدأ ينهال علىٰ الصرب. ما كان قد قَدَحَ زناد العمليَّة تمثَّل بهجوم وحشي وغير ذي معنى علىٰ سيراييڤو شنه ملاديتش وصرب البوسنة في الثامن والعشرين من آب/ أغسطس 1995م. قُتل ثمانية وثلاثون شخصاً وجُرح خمسة وثمانون آخرون في عمليَّة قصف لسوق المدينة. كانت تلك إِحدى أبشع الحوادث المماثلة، ووقوعها بُعَيْد هروب القوَّات الصربية من كرايينا أكّد أوجه الاختلاف الفاصلة بين ميلوسوڤيتش وملاديتش. كان الأَول شخصاً بارد الأعصاب تآمرياً قادراً، حين يرى ذلك متفقاً مع مصلحته، أَن يرتدي ثوب الحكيم الناصح، ثوب الشيوعي المبدئي، ثوب المصرفي المنتمي إِلىٰ حقبة جديدة، أَو لبوس القومي الجديد لحقبة ما بعد تيتو. كان الشيء الثابت والبديهي الوحيد في قاموسه هو البقاء في السلطة. غير أَن قوميَّة ملاديتش كانت أَكثر صِدْقاً وأصالة، كانت قريبة، برأي البعض من الجنون الحقيقي. وقد نجح في استفزاز الغرب لحظة كان هذا الغرب عاكفاً بدأب علىٰ البحث عن طرف يتولى دور استفزازه.

هذه المرة كان الغرب جاهزاً. قال هولبروك: «إِنها فرصة أخيرة غير

متوقعة لننجز عملاً كان يتعين علينا أَن نقوم به قبل ثلاث سنوات». كان الرئيس مؤيداً كما كان الأَمريكيون مستعدين لدفع الحلف. ففي الثلاثين من آب/ أغسطس بدأ الناتو عمليَّة القصف الأَكثر كثافة في التاريخ مستخدماً أَحدث الأَسلحة، بما فيها (دون إِجازة واضحة من البيت الأَبيض ظاهرياً) صواريخ توماهوك بعيدة المدى. شاركت في العمليَّة أَكثر من ستين طائرة أقلعت من قواعد في إِيطاليا ومن علىٰ حاملة الطائرات **تيودور روزفلت**. أصاب أَحد صواريخ توماهوك هدفه بدقّة مذهلة واقتلع مركز اتصالات ملاديتش كله من جذوره. شكَّل ذلك إِنجازاً استثنائي الأَهميَّة لأَن أَحد عناصر تميز الصرب كان متمثلاً حتى اللحظة بتفوقهم الواسع علىٰ صعيد الاتصالات والقُدرة، عند الحاجة علىٰ نقل القوّات بسرعة من مسرح إِلىٰ آخر. أَمَّا الآن فقد تحوّلوا، بين عشية وضحاها، إِلىٰ حَشْد من العميان والصم في أَرض المعركة. كان الإِحساس بما يستطيع الناتو أَن يفعله في المستقبل ملموساً وصارخاً. وبعد ذلك جاءت دعوة لوقف القصف في الأَول من أيلول/ سبتمبر. لم يكن جميع الأَمريكيين مسرورين بذلك، مدركين أَن استئناف القصف بعد التوقف كان صعباً علىٰ الدوام، غير أَن الأَمر اعتُبر نوعاً من إِعطاء ملاديتش فرصة للتفاوض والانسحاب. ولكن المباحثات المبكرة لم تتمخض عن أَي شيء ذي بال، وكان الأَمريكيون شغوفين باستئناف القصف ولو لم يكن حلفاؤهم جميعاً كذلك.

ما فاجأ بعض المدنيين الأَمريكيين هو أَن قائد الهجوم الجوي، الأدميرال لايتون (سنافي Snuffy) سميث، لم يكن راغباً في استئناف القصف. كان سميث هذا يعتمر قبعتين [يشغل وظيفتين]؛ من ناحية كان قائداً للقوات الأَمريكية في أوروبا الجنوبية، ومن ناحية ثانية قائداً لجميع القوَّات البحرية الأَمريكيَّة في أوروبا. بعض نظرائه كانوا يعتبرونه قائد سفينة ممتازاً ورائعاً، شخصاً خشناً، قاسياً، متشدداً من الطراز القديم قليل الاهتمام والإِحساس، للأسف، بجملة المآزق والورطات السياسيَّة ـ العسكريَّة المعقدة المنتمية إِلىٰ عالم ما بعد الحرب

الباردة. وها هو ذا الآن رافض، بقطع النظر عن السبب، لفكرة إرسال أبنائه وبناته العسكريين الشباب إلىٰ المعركة مرة أُخرى. بدا الرجل غير متحمس للصراع في البلقان، وقد استخدم العبارة ذاتها، التي سبق لجيمس بيكر أَن تفوّه بها قبل سنوات، حين كرر علىٰ مسامع هولبروك جملة «ليس لنا أَي كلب في الشجار». كان كلنتون سيبلغ مساعديه لاحقاً بأنه كان يعتقد بأن سميث بقي متمرداً خلال هذه الفترة كما في المراحل اللاحقة حين تولى مسؤولية مراقبة تنفيذ اتفاقيات دايتون.

كان المأزق بالنسبة إلىٰ المدنيين متمثلاً الآن بدفع سميث إلىٰ استئناف القصف. كُلّف اللفتنانت جنرال وس كلارك، ضابط ارتباط هولبروك، بالاتصال به وإقناعه بإعادة إطلاق الحرب الجويَّة. أمسك به في ملعب للغولف وأثار غضبه لإلهائه عن اللعب. وعلىٰ خط الهاتف الخلوي كان هولبروك قادراً علىٰ سماع هدير صوت سميث مع ردود كلارك الاعتذارية المؤلفة من تكرار عبارتي «نعم سيدي!» و«لا سيدي!». أخيراً تم إيصال الموضوع إلىٰ القمة فاستؤنف القصف، غير أن الصدوع بين العسكريين والمدنيين، تلك الصدوع التي كانت قد ألقت بظلالها القاتمة علىٰ البلقان منذ البداية، كانت لا تزال موجودة بصورة واضحة. أضف إلىٰ ذلك أَن كلارك الذي كان المدنيون قد بدؤوا يعتبرونه مؤيداً، شخصية عسكريَّة كبيرة نادرة تنظر إلىٰ البلقان نظرتهم إلىٰ حد كبير، كان الآن معرضاً لمواجهة بعض المشكلات؛ فأي جنرال من ذوي النجوم الثلاث يتجرأ علىٰ تجاوز آخر من ذوي النجوم الأربع كان شخصاً ينتمي إلىٰ فصيلة مهددة بالخطر. وبالفعل فإن كلارك كان معرضاً بوضوح لخطر تلقي إصابات مهنية ومسلكية قاتلة، فسارع هولبروك، ساندي بيرگر، وستروب تالبوت إلىٰ إقناع شاليكاشڤيلي بضرورة الوقوف في صفه. غير أَن جملة هذه الدعوات والمساعي لم تمر دون أثر في هذا العالم المعقد الملتهب الذي يعيش فيه هؤلاء، إذْ تمخضت عن تكوين المزيد من الشكوك حول كلارك في الپنتاگون علىٰ المدى الطويل، وإن ساعدت علىٰ حمايته علىٰ المدى القصير.

لم تكن تلك الإشارة الأولى الدالة علىٰ أن كلارك كان يعاني من مشكلة معينة مع مؤسسته العسكريَّة. ففي الأيام الأولى من الحركة المكوكية البلقانية حين كان دائم السفر والتنقّل مع هولبروك، كان قد تلقى أوامر من كبار القادة في وزارة الدفاع طلبت منه أن يظهر في أكبر عدد ممكن من مناسبات التصوير الممكنة، قريباً قدر الإمكان من هولبروك. كان من شأن ذلك أن يبين أن هذه لم تكن عمليَّة مدنية مجردة، بل وسيؤكد أن الجيش أيضاً كان مشاركاً في إدارتها. وتعين عليه أيضاً ألا يسمح بعد الآن بتصويره حاملاً حقيبته. من غير المقبول أن يحمل الجنرالات حقائبهم؛ إنها دليل ضعف وتفاهة. علىٰ الجنرالات أن يبدو كمقاتلين. ومما أثار قَدْراً مساوياً من الإرباك هو أن شاليكاشفيلي اتصل بهولبروك ليسأل عما إذا كان كلارك يعمل دون خلل، ليقول: «هل أنت بخير مع وس؟» فيحاول هولبروك أن يستجلي السبب: «لماذا؟» ويأتي جواب شاليكاشفيلي: «ثمة شكاوى كثيرة تأتينا». كان ذلك إنذاراً مبكراً بأن كلارك كان سيغدو في صُلب سلسلة من التوترات العسكريَّة ـ المدنية المستمرة الموشكة علىٰ التصاعد بشأن كوسوڤا.

غير أن القصف استمر وكان هائلاً. ما من شيء كان قد هزّ ميلوسوڤيتش مثل استخدام صواريخ التوماهوك. كان واعياً لطابع المأزق المزدوج. كانت القوّات الكرواتية متقدمة عبر كرايينا، وكان طيران الناتو عاكفاً الآن علىٰ تدمير قواته هو. اتهم الأمريكيين بتوفير دعم جوي مباشر للقوات الكرواتية، اتهاماً لم يكن صحيحاً، ولكن النتيجة بقيت علىٰ حالها. أخيراً كاد جزء من الحَمْلة البوسنية يصل إلىٰ نتيجة. فمع حلول أواخر أيلول/ سبتمبر، كانت القوّات الكرواتية ـ الإسلامية قد فتحت الطريق الموصلة إلىٰ بانيالوقا، أكبر مدن البوسنة المحتلة. وبدلاً من السيطرة علىٰ سبعين بالمئة من البوسنة، كان الصرب قد حُشروا في جزيرة متناقصة المساحة، مرشحة للزوال من الخريطة مع سقوط

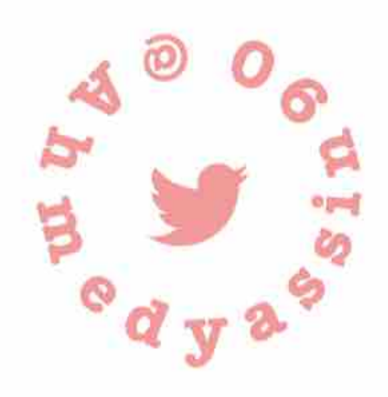
بانيالوقا. كان هولبروك قلقاً بشأن بانيالوقا وكارثة اللاجئين التي كانت تنتظر الأهالي هناك إذا ما دخل الكروات المدينة. تحدثت الأنباء عن وجود ثلاثمئة إلىٰ أربعمئة ألف لاجئ صربي، هاربين جميعاً من القوّات الكرواتية والبوسنية المتقدمة. ثمة كان، سلفاً، قدر كبير ومبالغ به من الإجرام والقتل، باعتقاد هولبروك وگالبريث، مع أعداد تتعذر علىٰ الإحصاء من الناس الذين لا حول لهم ولا قوة والمعرضين للاغتيال، بما لا يجيز السماح بظهور مدينة أخرى في خانة المدن الشائنة، حتى إذا كان الناس المهددون الآن من عشيرة أولئك الذين كانوا قد أطلقوا هذه المجازر كلها في المقام الأول.

في السابع عشر من أيلول/ سپتمبر، حثّ هولبروك توجمان علىٰ الإحجام عن دخول بانيالوقا، حتى فيما كان وزير دفاع الأخير سوساك مجتمعاً مع آخرين من الفريق الكرواتي ليقول لهم إن فترة 24 ساعة فقط تفصلهم عن السيطرة علىٰ الجبل الرئيسي المطل علىٰ المدينة. وقد كانوا، في حال الاستيلاء علىٰ الجبل، مرشحين لاحتلال بانيالوقا في غضون يومين آخرين. من الواضح أن ميلوسوڤيتش كان توّاقاً للكلام الآن. ففي رسالة وجّهها إلىٰ كرستوفر يوم 20 أيلول/ سپتمبر قال هولبروك: «خلال بضعة أسابيع فقط تقلّصت نسبة الـ 70 بالمئة الشهيرة لتقسيم المدينة إلىٰ حوالي 50 ـ 50، مما جعل مهمتنا أسهل بشكل واضح».

في السابع عشر من أيلول/ سپتمبر والدبابات الكرواتية ـ الإسلامية علىٰ مسافة اثنتين وسبعين ساعة من بانيالوقا، قام هولبروك بإبلاغ توجمان ـ الغارق في بحر من عدم الرضا ـ أمر إيقاف قواته ومنعها من دخول المدينة. وقد كان عزت بيگوڤيتش أكثر غرقاً في بحر عدم الرضا هذا. لم يكن المنطق الذي استخدمه هولبروك مع عزت بيگوڤيتش مختلفاً عن المنطق الذي كانت واشنطن قد استخدمته ضده في الماضي، ألا وهو أن الصفوف الصربية موشكة علىٰ التجمع وثمة ما ينذر بحصول هجوم معاكس. فالهجوم الذي كان قد فاجأ

جميع العواصم الغربيَّة، كان قد غيَّر ميزان القوى علىٰ الأَرض وكان من شأنه أَن يوفِّر الشروط اللازمة لمؤتمر السلام القادم. لقد نجح الهجوم الكرواتي ـ البوسني، فعلاً، في جعل المؤتمر ممكناً. وحين بدأت عمليَّة السلام لم يكن الصرب يسيطرون إِلاَّ علىٰ 45 بالمئة من البوسنة، وكان التفاوض الحقيقي قد جرى وتم حسمه علىٰ أَرض المعركة. كانت خرافة استحالة قهر الصرب قد تحطَّمَتْ.

(3) المصدر السابق، 168.


@Ahmedyassin90

الفصل الحادي والثلاثون

أراد ديك هولبروك استخدام أبشع الطرق في إدارة المفاوضات منذ اللحظة التي بات فيها واضحاً أن عمليَّة سلمية ما سوف تبدأ وستكون بقيادة الأَمريكيين. كان واثقاً من أَنَّه الرجل المناسب للمهمة؛ لقد كان عاكفاً، بطريقة أَو أُخرى، علىٰ الإِعداد لها منذ لحظة نجاحه في اقتحام الفريق الأَمريكي الذي كان قد ذهب إِلىٰ باريس في سنة 1968م في محاولة فاشلة لإِنهاء الحرب الڤيتنامية. ما كان الناس يمقتونه في هولبروك ـ النشاط المفرط، التركيز الشديد علىٰ الهدف، الانعدام المطلق للخوف، الاستعداد للمبادرة إِلىٰ التحرّك وتحمّل مسؤولية آرائه، بل وحتى الاستعداد للانقضاض علىٰ الآخرين عند اللزوم ـ شكَّلَ ـ بالتحديد، حسب رأي صديقه توم دونيلون ـ ما سيكون مطلوباً في هذه المفاوضات المقبلة. كان هولبروك راغباً في الاضطلاع بالمهمة لسبب يأتي في طليعة الأَسباب الأساسية، ألا وهو أنها كانت الامتحان المسلكي الأخير. لقد أَصبح رجل الساعة، الأنظار كلها متركزة عليه، هل يستطيع إِنجاز المهمة؟ تعين عليه أَن يستنفر جميع خبراته المسلكية وكان الوطن معتمداً عليه. أضف إِلىٰ ذلك ما من أَحد كان أنسب منه علىٰ صعيد التعامل مع تلك المجموعة الخاصة من المخلوقات البشرية البلقانية المرشحة للمجيء إِلىٰ مؤتمر للسلام. وكما قال بيل كلنتون في أثناء نَخْب وداع رفعه لهولبروك في حفل عشاء جرى في كانون أول/ ديسمبر 2000م: «إِن الجميع في البلقان مجانين، آخر المطاف، إِن لكل واحد منهم ذاتاً عملاقة. فمن غيره كان يمكن أَن نرسل؟».

حتى قبل بدء المؤتمر، كان هولبروك قد حقَّق انتصاراً كبيراً علىٰ صعيد اختيار المكان. ففي واشنطن لم يكن أَحد علىٰ المستويات العليا، سواء من ناحية الأَمن القومي أم من طرف البيت الأَبيض السياسي، يريد عقد المؤتمر في الولايات المتحدة. كانت الحجة واضحة. كان من شأن المؤتمر أَن يكتسب قدراً أكبر من الأَهميَّة والتغطية الإِعلامية، مما جعله، في حال إِخفاقه، وهو ما بدا ممكناً، إِنْ لم يكن وارداً بقوة، قادراً علىٰ إِلحاق أضرار كبيرة برئيس موشك علىٰ دخول سنة انتخابية. غير أَن هولبروك ظل، وحده تقريباً ضد الرأي السائد، يجادل بحماس قائلاً إِن علىٰ المرء أَن يتعامل مع القضية بشكل صحيح. عليه أَن يضبطها ويتحكّم بها ـ علىٰ جميع الأصعدة اللوجستية، الجغرافية، وإِمكانية التواصل مع وسائل الإِعلام. والطريقة الوحيدة لضمان التحكّم، برأيه، هي إِجراء المباحثات فوق التراب الأَمريكي. خالفه صديقه تالبوت بقوة، غير أَنَّه ساهم بسخاء في صياغة وجهة نظره. ونظراً للصعوبات المتوقعة ولمرارة الانقسامات المنتظرة بين الفرقاء، أشار هولبروك إِلىٰ احتمال تمزّق العمليَّة كلها أشلاءً متناثرة في حال عدم توفير التحكم المادي ـ الفيزيائي بالبيئة والمحيط. يمكن للمرء أَيضاً أَن يخاطر، يتعرض للإِفلاس، ويعقد المفاوضات هنا. لم يكن ما دأب علىٰ قوله هو الشيء الذي كان عدد كبير من الناس في البيت الأَبيض يريدون سماعه، غير أَن رأيه ما لبث، في النهاية، وهو صحيح بشكل واضح ذاتياً، أَن فاز. بعد حين من الجدل حول أفضل الأماكن المحتملة، تبرع سلاح الطيران بقاعدة رايت ـ باترسون الجويَّة في دايتون «أوهايو» التي كانت اقتراحاً ممتازاً لأنها كانت ستمنح المفاوضين الأَمريكيين تحكماً أفضل بآلية الوصول والاتصال ووسائل الإِعلام من أي مكان آخر.

بالنسبة إِلىٰ هولبروك كان الدورُ دورَ العمر. كان مولعاً بالبروز والنجومية التي كانت نقطة قوة حين كان يدير الاتصالات المكوكية في الأسابيع التي سبقت دايتون، لأَنَّه كان ناجحاً جداً مع وسائل الإِعلام في المقام الأول. كان

يعرف مقدار ما يجب أَن يعطيه بالتحديد ومقدار ما يتعين عليه ألا يعطيه إِلىٰ جماعة الإِعلاميين العَطْشىٰ. جاءت إِيجازاته خليطاً مدروساً بين معلومات أصيلة من ناحية وتصورات فطنة من ناحية ثانية، بما كان يوفر إِمكانية خدمة أغراضه هو وأغراض أَكثرية المراسلين. لا أَحد منذ هنري كيسنگر وجيمس بيكر كان حريصاً وماهراً مثله في رعاية وسائل الإِعلام وتغذيتها، بصرف النظر عن أَن هولبروك كان الشخصية المركزية والأَكثر بطولة في أحاديثه مع الصحفيين ـ وهو أمر أغضب كثيرين من أقرانه في واشنطن. لقد أحبه المراسلون وبقي في متناول أيديهم بصورة غير عادية؛ ربما كانوا يلاحظون أخطاءه، غير أنهم ظلوا معتقدين بأنه كان يدفع بحمل هذه العمليَّة إِلىٰ ما هو أبعد من قُدْرة أَي شخص آخر، فضلاً عن أَنَّه كان موضوعاً جيداً للكتابة. باستمرار كان الصحفيون يحصلون منه علىٰ ما هم بحاجة إِليه. وقد بقيت تغطيته الصحفية ناجحة ليس فقط لأَنَّه كان متحدثاً فطناً وبارعاً، بل ولأنه كان قادراً علىٰ جعل الأمور تحدث. إِذا كان هولبروك دائباً علىٰ دفع قضية البوسنة، فقد كان ذلك يعني أنها لن تبقى مسألة خطيرة، مزعجة متفاعلة علىٰ نار هادئة؛ يعني أنها باتت موشكة لأَن تتحول إِلىٰ مسألة خطيرة، مزعجة علىٰ نار حامية.

شكَّلَ ذلك نوعاً من العزاء لكبار المسؤولين الذين تحفَّظوا علىٰ اختياره لإِدارة محادثات دايتون، وكانوا مرتابين من احتمال تفجر أنانيته المتورمة. كان من شأن الإِخفاق عندئذ أَن يبدو إِخفاقاً لهولبروك كشخص بسبب نجوميته وحبه للظهور وقربه الشديد من وسائل الإِعلام. وبالتالي فإِن من شأن البيت الأَبيض أَن يبقى، حسب حلم الحالمين، قادراً علىٰ أَن ينأى بنفسه عن هولبروك. هكذا فإِن حبة البرقوق [المكافأة] ـ أم أنها كانت قنبلة يدوية؟ ـ كانت من نصيب الرجل دون غيره، خيراً كان ذلك أم شراً. كان سيتعين عليه أَن يشكِّل حضوراً دائماً في دايتون، شخصاً موازياً، من حيث المكر والنفاق والاندفاع الجسدي من ناحية والذكاء الحصيف من ناحية أُخرى، للمشاركين الآخرين رغم كونهم

من إِفرازات أساليب البلقان البيزنطية. ما كان الفريق الأَمريكي حاصلاً عليه، حسب قناعة دونيلون وتالبوت الراسخة، لم يبد شيئاً أقل من مطرقة، شخص قادر علىٰ طرق البوسنيين، الكروات، والصرب، بلا رحمة ومؤهل لمجاراة هؤلاء من حيث الصلابة بل وعلىٰ صعيد البلادة والوحشية، عند الضرورة. كان سيضطر أَيضاً لطَرْق أبناء بلده بالقَدْر نفسه من القسوة. صحيح أَن عمله كان في المجال الدبلوماسي، غير أَنَّه لم يكن رجلاً دبلوماسياً بالضرورة. فجميع تلك الصفات التي بدت ذات يوم فاعلة فعلها لغير صالحه ـ الزوايا الحادة، النتوءات الواخزة، الاندفاع الغريزي إِلىٰ البؤر التي يخشى أَي شخص الاقتراب منها، القدرة علىٰ تجاوز جميع العقبات في سبيل الوصول إِلىٰ الهدف المنشود ـ باتت الآن تعمل لصالحه. كان هولبروك متمتعاً بنقطة قوة خاصة يفتقر إِليها أَكثر كبار العاملين في السلك الخارجي ـ لم تكن المجاملات واللباقات الدبلوماسية تعني شيئاً في قاموسه علىٰ الإِطلاق. القوَّة هي الأساس، وقد كان متمتعاً بهذه القوَّة بوصفه ممثلاً للولايات المتحدة الأَمريكيَّة، بفضل خريطة البلقان الجديدة التي كان قد حصل عليها إِضافة إِلىٰ التهديد بقصف الناتو المتواصل.

إِنه قادر علىٰ مضاهاة ميلوسوڤيتش علىٰ صعيد استخدام القوَّة. يستطيع مجاراة ميلوسوڤيتش عند الحاجة، غير أَنَّه بقي بعيداً عن ارتداء ثوب ميلوسوڤيتش المصطنع، ثوب «الخوشبوشية» المبتذلة، لبوس ابن شارع تقاسمه الشراب وتتعامل معه. لقد رآه ميلوسوڤيتش نداً لعدد لا يحصى من المفاوضين الغربيين في الماضي، شخصاً قابلاً للاستخدام والاستغلال. وكان هولبروك يعرف مقدار القوَّة التي كان ميلوسوڤيتش متمتعاً بها، يعرف أَن الرجل، رغم كل «بَهْوراته» و«عنترياته»، كان يلعب بأوراق أضعف في دايتون مقارنة بالأوراق التي ظل يلعب بها علىٰ امتداد السنوات الست الماضية. باتت ألاعيبه وألاعيب أدواته مفضوحة للملأ آخر الأَمر بفضل قوة الكروات والناتو. خلال محادثاته المكوكية البلقانية، شاءت الصدف أَن يتقابل هولبروك مع ميلوسوڤيتش في

بلگراد في اليوم الذي تلا قيام الأَمريكيين بإِطلاق أول صاروخ توما هوك عابر علىٰ البوسنة بدقة مدمّرة. كان قدر كبير من لُعْبته متوقفاً علىٰ التبجح الكلامي والصخب الدعائي، فجاء صاروخ توما هوك واحد فقط ليقتلع مركز الاتصالات الصربي في المنطقة كلها. أيُّ نوع هو ذلك السلاح الذي أتاح لرام علىٰ مسافة مئات الأميال فرصة الإِصابة الدقيقة كما لو كان قادراً بالفعل علىٰ رؤية هدفه بالعين المجردة لدى كبسه للزر؟ لم يكتف ذلك السلاح بإِحداث تأثيرات جهنمية قاتلة علىٰ الأَرض بل تجاوزه إِلىٰ التمخض عن سيل من الآثار النفسية المدمّرة أَيضاً.

اعتقد هولبروك أَن تلك هي اللحظة التي بدأ فيها ميلوسوڤيتش يتخلى عن بعض تبجحاته. ففي أَحد الأَيام بدايتون، بُعَيْد انطلاق محادثات السلام، قام الأَمريكيون باصطحاب ميلوسوڤيتش وبعضاً من صرب البوسنة عبر جزء من متحف القاعدة الجويَّة ومكّنوهم من رؤية صاروخ توما هوك. لم يبد الصاروخ كبيراً أَو خطراً، غير أَن الصرب تأثّروا كثيراً. علّق ميلوسوڤيتش: «كل هذا الدمار من شيء بهذا الحجم الصغير. . . إِنَّه صغير جداً. . . . .» من الواضح أَن ميلوسوڤيتش تعين عليه أَن يفكر بذلك إِذا ما أُخفق المؤتمر؛ تعين عليه أَن يفكر باحتمال هجوم كرواتي ـ بوسني متواصل مصحوب، ولو بين الحين والآخر، بطيران الناتو الجبار والمخيف. وكل ذلك من أجل بقعة أَرض لم تكن لتعني شيئاً كبيراً بالنسبة إِليه علىٰ أَي من الصعيدين الشخصي أَو السياسي.

لم يكن هولبروك مستعداً لإِضاعة ذرة من الوقت علىٰ الرسميات والشكليات مع قادة البلقان هؤلاء. كان خبيراً في تحديد وقت الإِصغاء وموعد الإِسكات، في معرفة اللحظات النادرة التي كانوا يتكلمون فيها فعلاً والأوقات التي كان فيها كلامهم كله دعائياً، كما لو كان صادراً عن إِذاعة زگرب أَو محطة بلگراد أَو راديو سيرايڤو وهي دائبة علىٰ بَصْق وتقيؤ جميع عناصر أحقاد الماضي وأشكال جنونه. أدرك هولبروك أَيضاً شيئاً ذا أَهميَّة عن الجماعات

الثلاث التي كانت ستحضر الاجتماع، أَي الصرب والكروات ومسلمي البوسنة. لم يكونوا يعانون من الهشاشة إِزاء بعضهم البعض فقط بل وإِزاء أنفسهم أَيضاً بسبب العداوات وثارات الدم. مرة بعد أُخرى كانوا، بسبب تلك الخصومات، قد اقترفوا أعمالاً لا توصف أفرزت عواقب وخيمة. كان الأَمر مغروساً في طبيعتهم وكانوا عاجزين عن تعلم الطرائق التي تمكّنهم من العزوف عن اقترافها. وبالتالي فإِنهم كانوا، بطريقة غريبة ما، يريدون أَن يبادر أناس آخرون إِلىٰ منعهم من الإِقدام علىٰ ممارسات أدمنوها جراء ابتلائهم بنوع من الدوافع الغريزية البدائية.

لن تبقى مهمة هولبروك محصورة بوضع سقف لمزاعمهم ضد بعضهم البعض، بل ستتجاوزها أَيضاً إِلىٰ تكوين قوة رادعة قادرة علىٰ ردع أية أعمال عنف انعكاسية (بافلوفية) إِضافية. تعين عليه أَن يكون فظاً، ولكن مع لين في الوقت نفسه. إِذا أراد المرء أَن يفهم ميلوسوڤيتش فلا بد له من أَن يعرف أنه، رغم إِسهامه في دفع صرب البوسنة إِلىٰ طريق الإِجرام ورغم أنهم باتوا أدوات بيده، كان يكنّ قَدْراً كبيراً من الاحتقار لهؤلاء كما لو كانوا من فصيلة اجتماعيَّة دنيا. كانت خُرافة عدم وجود أية علاقة بينه وبينهم ذات أَهميَّة بالنسبة إِلىٰ ميلوسوڤيتش وصورته الدولية. ومنذ البداية كان هولبروك قد أبلغ ميلوسوڤيتش أَن الأَمريكيين يعتبرونه مسؤولاً عن أبشع أعمال صرب البوسنة والقوَّات الصربية شبه العسكريَّة.

ومع ذلك فإِن ميلوسوڤيتش بقي مولعاً بالخرافات المفبركة والمروّجة بعناية، ودأب علىٰ إِنكار أَي ارتباط بين الجيش اليوگوسلاڤي وأركان ونموره، هذه الوحدات التي ربما كانت الأشرس بين القوَّات شبه العسكريَّة. وبالتالي فإِن هولبروك طلب في أوائل تشرين أول/ أكتوبر 1995م من وكالة الاستخبارات المركزيَّة إِعداد تقرير مطول عن نشاطات أركان وعن الشكل الدقيق للتنسيق مع الجيش اليوگوسلاڤي، أَو مع ميلوسوڤيتش، إِذا أردنا أَن نكون صريحين. وفي

أواخر تشرين الأَول/ أكتوبر كان هولبروك قد تطرّق إِلىٰ موضوع أركان مع ميلوسوڤيتش مرة أُخرى. وعلىٰ الفور كان الزعيم الصربي قد رد قائلاً: «لا، لا، معلوماتك خاطئة». أشار هولبروك إِلىٰ الملف الذي كانت الوكالة قد أعدته، وجلبها إِلىٰ الاجتماع مساعد يدعى جيم پارديو، «إِن الأدلة موجودة هنا» قال هولبروك. أحجم ميلوسوڤيتش عن النظر إِلىٰ الملف أَو لَمْسه، ولدى تعطل الاجتماع، بقي الملف علىٰ الطاولة. فيما كان الأَمريكيون يغادرون المكان بادر أَحد مساعدي ميلوسوڤيتش إِلىٰ تذكير پارديو بأوراقه علىٰ الطاولة، فرد الأخير «لم أنسها. إِنها تخص الرئيس ميلوسوڤيتش»[1]. كان المغزى واضحاً ـ لم يبق الأَمر متوقفاً عند توجيه قوة الناتو ضد الصرب مباشرة، بل تجاوزه إِلىٰ وضع حد لألاعيب الخصومات المخادعة السهلة أَيضاً.

كعضو صغير جداً في فريق مباحثات السلام الباريسية سنة 1968م، كان هولبروك قد تابع قيام أناس مختلفين في واشنطن باستصغار دور آڤريل هاريمان وسي ڤانس، مفاوضي الولايات المتحدة الرئيسيين. شكّلت باريس تجربة تعليمية مريرة لهولبروك، وكان عازماً على عدم السماح لأحد باستصغار دوره في هذه المباحثات. عزم علىٰ التحكم بالمعلومات كلها، علىٰ إِجبار الأَمريكيين علىٰ العمل كفريق واحد، وعلىٰ الحؤول دون حصول أَي انشقاق في التحالف عن طريق تقييد قُدْرة الجماعات البلقانية المختلفة علىٰ تكوين الدسائس عبر العودة إِلىٰ أولياء نعمها الأوروپيين الأقرب. قرَّر أَن يُشْرِك الأَوروپيين بالعملية لأَنَّه كان بحاجة إِلىٰ التهديد بالمزيد من طلعات طائرات الناتو لضبط سلوك الصرب. ونظراً لكثرة الانقسامات من كل جانب، فيما بين الأَمريكيين، بين الأوروپيين، وبين الجماعات اليوگوسلاڤية الثلاث وداخل كل منها، فإِن المنظومة كانت كبيرة ومتشعبة.

---

(1) هولبروك، 212.

لم تكن ثمة أية سخرية، باعتقاد هولبروك، في أن يرى نفسه واحداً من صقور القوَّة الجويَّة. لقد كان دائم الإيمان بأن اعتماد أمريكا علىٰ القوَّة الجويَّة في ڤيتنام كأداة سياسيَّة حاسمة شكّل خطأً فادحاً كما لم ينطو إلاَّ علىٰ قَدْر محدود من القيمة بسبب الطريقة غير التقليدية التي اتبعها العدو، الڤيتكونگ وجيش ڤيتنام الشمالية علىٰ حد سواء، في حربه. أمَّا هذه فقد كانت حرباً مختلفة مع عدو مختلف، عدو يعتمد تشكيلات قتالية تقليدية نسبياً، أكثر ثباتاً بما لا يقاس، وبالتالي أكثر هشاشة، بما لا يقاس أيضاً، أمام سلاح الطيران. ومما ينطوي علىٰ أهميَّة مساوية أن تغييراً كلياً قد حصل في مدى فاعلية الأداة نفسها، في القدرة علىٰ ضرب الأهداف وإِصابتها بقدر كبير من الدقة مع قدر ضئيل من المخاطرة.

لم يكن أَي شيء له علاقة بتاريخ البلقان جميلاً أَو عادلاً، لم يكن أَي شيء له علاقة بحروب البلقان في التسعينيّات جميلاً أَو عادلاً، ولم يكن أَي شيء له علاقة بمؤتمر سلام دايتون جميلاً أَو عادلاً. جاءت الجماعات الثلاث علىٰ درجات متباينة من الاستعداد. كان الكروات الأَكثر تماسكاً، المنتصرين الحقيقيين في الواقع في الصراع الذي كان قد جرى علىٰ امتداد السنوات الثلاث السابقة. كان الكروات أوائل المستفيدين من إغاراتهم واجتياحاتهم العسكريَّة الحديثة، إِذْ كانت جيوشهم هي التي خاضت أَكثر المعارك، ونجحت في طرد الصرب من كراينا والبوسنة الغربيَّة، فضلاً عن أنهم كانوا في حالة من التقدّم العسكري حين تم إعلان وقف النار. أضف إلىٰ ذلك أَن الكروات كانوا في أقرب حالة ممكنة من تشكيل أمة محددة، أحادية عرقياً بين أقوام تلك المنطقة الممزقة. كان توجمان زعيمهم بلا منازع، دون أَي انقسامات داخل وفدهم. كانت معنوياتهم عالية بعد انتصاراتهم العسكريَّة وكانوا مرشحين لأَن يصبحوا أقوى إذا ما استمر القتال لأنهم كانوا قادرين علىٰ الحصول علىٰ الأَسلحة، علىٰ التدريب الأَمريكي الممتاز، وربما علىٰ ميزة الإِفادة من درع الناتو الجويَّة.

أما الصرب فقد جاؤوا مكشوفين ومنقسمين أَكثر. ربما كان الانتصار الأهم عليهم قد تحقق حتى قبل بدء المؤتمر. منذ سنوات كثيرة كان المفاوضون الغربيون دائبين علىٰ إِقناع ميلوسوڤيتش بضرورة ممارسة بعض التحكّم بصرب البوسنة، أَو الاعتراف، علىٰ الأقل، بامتلاكه القدرة علىٰ التحكّم بهم، ولكن دون جدوى. بقي ميلوسوڤيتش مصرّاً بعناد علىٰ التمسّك بخرافة كونهم قوة مستقلّة تقاتل في سبيل بناء دولتها المستقلّة. غير أَن ميلوسوڤيتش ما لبث ـ بعد قصف الناتو الكبير الأول ـ أَن أثار الدهشة والاستغراب حين جاء إِلىٰ أَحد الاجتماعات مع هولبروك ومعه ورقة موقعة من بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية، تتضمن عملياً تفويضه بالتحكّم بالوفد الصربي المرشح للذهاب إِلىٰ أَي مؤتمر للسلام. قضى التفويض بأن يكون الوفد مؤلفاً من ثلاثة ممثلين من بلگراد، وثلاثة آخرين من باله، عاصمة صرب البوسنة. وفي حال حصول أَي استعصاء جراء تعادل الأصوات ثلاثة مقابل ثلاثة، فإِن صوت زعيم الوفد، ميلوسوڤيتش، كان سيعتبر مرجِّحاً. بمعنى أَن الوفد كان وفده هو. عند أَحد المنعطفات سأله هولبروك عما إِذا كان أصدقاؤه، صرب البوسنة، سيقبلون بذلك، فرد عليه ميلوسوڤيتش قائلاً: «ليسوا أصدقائي، ليسوا زملائي. مرعب أَن يتعايش المرء في الغرفة ذاتها كل هذه المدة الطويلة. إِنهم حثالة نتنة»[2]. كان ذلك يعني أَنّه كان قد بدأ يتخلى عنهم ولو جزئياً. فالبوسنة، خلافاً لحال كوسوڤا، التي كان قد بنى عليها مجد سلطته، لم تكن، برأيه، أرضاً صربية مقدسة.

كانت حال مسلمي البوسنة، كعهدهم منذ البداية، هي الأَكثر سوءاً. فلأنهم الأَكثر تعددية كانوا الأَكثر ديمقراطيَّة والأقل تلاحماً واتحاداً بالتالي. أدى تنوّع وفدهم إِلىٰ جعلهم الأَكثر عرضة للانقسامات الداخليَّة بين الجماعات العرقية المختلفة. أضف إِلىٰ ذلك أنهم كانوا قد دفعوا أبهظ الأثمان وأفدحها

(2) المصدر السابق، 106.

جراء عدوان الصرب. لم يكونوا مستعدين لأحداث 92 ـ 1995م وظلوا كذلك إلىٰ الآن، غير مستعدين. جاؤوا إلىٰ دايتون ووطنهم ممزق جزئياً ـ وإن لم يكن بالقدر نفسه من سوء التمزيق الذي كان قبل بضعة أشهر بالتأكيد ـ مُثْقَلين بمشاعر الضياع والضيم.

كان مسلمو البوسنة ساخطين جراء الأذى الذي لحق بهم، غير أنهم كانوا أقل قوة بشكل ملموس من الكروات. في أوقات سابقة تعود إلىٰ أواسط أيلول/ سپتمبر كانوا غاضبين حين أقدم الأَمريكيون أخيراً علىٰ إصدار إشارة إيقاف القصف. ومن غير المستغرب أَن هذه الجماعة كانت ستبرهن علىٰ أنها الجماعة الأصعب علىٰ التعامل في دايتون. ظلوا شاعرين بالخيبة ومنقسمين وعادوا وهم الأَكثر استياء وغضباً من التسوية لبقائهم ضعفاء نسبياً، عسكرياً علىٰ الأرض، عاجزين تقريباً عن التحكّم بالأحداث، الجارية الآن، التي كانت ذات تأثير أكبر من أية أَحداث أُخرى علىٰ وطنهم. أَمَّا الوفدان الآخران، مثلهما مثل الراعي الأَمريكي، فقد لمسا أَن مسلمي البوسنة لم يكونوا يملكون أَي إحساس بالواقع، بل بالجميل في الحقيقة. غير أَن مسلمي البوسنة هؤلاء كانوا يكنون قَدْراً عميقاً من عدم الثقة بأولئك الذين كانوا (مثل الأمريكيين والأوروپيين) قادرين علىٰ وقف المذبحة منذ البداية، ولكنهم لم يفعلوا إلاَّ القليل علىٰ امتداد هذه المدة الطويلة، وحين أقدموا أخيراً علىٰ فعل شيء ـ مقابل ثمن زهيد جداً بالنسبة إليهم ـ ما لبثوا أَن انسحبوا بسرعة. فأي شيء أضفى قَدْراً من الشرعية ولو بصورة جزئية علىٰ مكاسب الصرب، لم يكن بنظرهم إلاَّ مكافأة للمعتدي. كان مصدر غضبهم متمثلاً بتبعيتهم؛ ما من شيء يجعل رئيس دولة صغيرة عاجزة عن الدفاع عن نفسها مثل التبعية لقوة عظمى كبيرة، ذات جبروت هائل، ولكنها غير مبالية. علىٰ العموم لم تكن المعادلة سعيدة.

تركز المؤتمر، في المقام الأول، علىٰ الخرائط، علىٰ مبادلة الأَرض بالأرض، وعلىٰ جعل أكبر عدد ممكن من الناس متساوين في البؤس وعدم

الرضا. ثمة كانت لحظة مرعبة أواخر المباحثات، فيما كانت الأمور تسير بشكل جيد نسبياً، بالنسبة إلىٰ دايتون علىٰ الأقل، حين رأى ميلوسوفيتش، الذي لم يكن منتبهاً إلىٰ الخرائط، فجأة أن التناسب أصبح 54 ـ 46 خطأ بدلاً من 51 ـ 49 لغير صالح الصرب. استشاط غضباً، واثقاً من تعرّضه للخداع ـ وهو الذي لم يكف يوماً عن الاحتيال علىٰ الآخرين جميعاً. هَبَّة من الضغوط أعادت الأمور إلىٰ نصابها، فيما دأب الرؤساء علىٰ تبادل جزر اليابسة للتوصل إلىٰ 51 ـ 49 سحري. لا شيء كان قادراً علىٰ جعل الجميع سعداء.

في وقت متأخر من المفاوضات حين بدا أَن المؤتمر قد يخفق بسبب مقاومة مسلمي البوسنة، وجه هولبروك مذكرة ذات مغزى إلىٰ وارن كرستوفر قال فيها: «ما زال البوسنيون يريدوننا أَن نصدق أنهم يحصلون علىٰ صفقة قذرة. ومع ذلك فإِنهم يعرفون أنها ليست صفقة جيدة فقط، بل هي أفضل ما سيحصلون عليه علىٰ الإِطلاق. وبالتالي فإِن عليهم أَن يقبلوا، هذا هو ما يقوله المنطق. غير أَن تركيبة وآلية وفدهم تجعل الأَمر طوق نجاة. لقد أمضى عزت بيگوڤيتش تسع سنوات من حياته في السجن، وهو ليس قائداً حكومياً بمقدار ما هو زعيم حركة. ليس لديه إِلاَّ القليل من الفهم لعملية التنمية الاقتصاديَّة أَو التحديث، أَو الاهتمام بهما ـ وهما من الأمور التي يمكن للسلم أَن يجلبها. لقد عانى كثيراً علىٰ صعيد النضال في سبيل مُثُله. ليست البوسنة بالنسبة إِليه إِلاَّ فكرة مجردة، ليست عدداً من ملايين البشر المتطلعين بأَكثريتهم الساحقة إِلىٰ السلم. أَمَّا حارس [سلاديتش، رئيس الوزراء]، فنجده، بالمقابل أَكثر حداثة وكثيف الاهتمام بإِعادة البناء الاقتصادي، التي لا يكاد عزت بيگوڤيتش يأتي علىٰ ذكرها».

وهكذا فإِن الضحايا، كما هي العادة دائماً، كانوا الأقل واقعية وتعين تعريضهم للقَدْر الأكبر من الضغط. تطلب مجمل المؤتمر الذي دام ثلاثة أسابيع احتياطياً يفوق الحد الإِنساني من الطاقة، الصلابة، والمكر من جانب قائد

عمليَّة التفاوض. ثمة نقطة قوة إِضافية أضفاها هولبروك علىٰ المباحثات، نقطة قوة عجيبة، كانت نتاج ذاته أَو أناه، حصيلة نزوعه إِلىٰ ما هو مسرحي مثير، وإِحساسه بأن الحياة إِن هي إِلاَّ مسرح في جانب منها. تمثَّلت نقطة القوة تلك بقدرته علىٰ إِقناع الآخرين بأن تلك كانت لحظة تاريخية وبأن العالم كله كان يتابعهم. وإِذا لم يتمكنوا من التعرّف علىٰ تلك الحقيقة ويبادروا إِلىٰ مواكبتها، فإِن عربة التاريخ قد تفوتهم. كان لا بد لهم من أَن يكونوا مستعدين للاضطلاع بأدوارهم المناسبة. وفي النهاية نجح هولبروك ليس فقط في البقاء إِلىٰ ما بعد ممثلي البلقان المختلفين، بل وفي التنمر عليهم، دافعاً إِياهم إِلىٰ التسليم بما كان هو معتقداً بأنه خير لهم حتى إِذا لم يكونوا هم أنفسهم مدركين للحقيقة. مرة سأل جاك شيراك كلنتون: «لماذا تمكن مندوبكم من تحقيق هذا النجاح كله في دايتون؟» فرد عليه الأخير «لأَنَّه كان من طينة ميلوسوڤيتش بالذات». كان هذا صحيحاً وغير صحيح في الوقت نفسه، غير أَنَّه في غضون ذلك المؤتمر المدهش الذي دام ثلاثة أسابيع تمكن من الاهتداء إِلىٰ الموارد اللازمة لانتزاع تسوية سلمية من براثن أصعب مجموعة من الأَطراف يمكن لأي مفاوض أَن يواجهها.

استطاع هولبروك أَن يجلب سلاماً ناقصاً إِلىٰ جزء شديد الاختلال من العالم بعد حرب قاسية بصورة غير عادية. في نهاية كتابه عن تلك السنوات يسأل هولبروك بكثير من الدهاء: «هل قام [مؤتمر] دايتون بتوفير السلام للبوسنة أم أَنَّه اكتفى بجعل الحرب تغيب؟»(3) ستكون ثمة دولتان، اتحاد كرواتي ـ بوسني متمركز في سيراييڤو، محاط بجمهوريَّة صربية بوسنية مثل قبعة رديئة التصميم؛ ومعالم الكيانين كليهما أشبه بما كانته المواقع القتالية في نهاية المعارك. كان الأَمر، كما قال مايكل ايگناتييف «تقسيماً عرقياً واقعياً». ومن المفارقات الساخرة الكثيرة التي انطوت عليها تلك التسوية أنها لم تكن، باعتقاد

(3) المصدر السابق، 360.

بعض النقّاد، أفضل إلاَّ قليلاً من خطة سلام ڤانس أوين التي دأبت الإدارة علىٰ المبالغة، بصلف، في الاستهزاء بها واحتقارها قبل سنتين ونصف السنة والتي كان من شأنها، لو طُبقت، أَن تنقذ مئات آلاف الأرواح.

تطلبت التسوية أَن يرسل الأَمريكيون عشرين ألفاً من الجنود كقوة حفظ سلام، مما عرّض رئيس الجمهوريَّة للخطر وهو علىٰ عتبة الحملة الانتخابية. ففي اليوم الأخير لدايتون حيث بدا المؤتمر موشكاً علىٰ الانفضاض دون نجاح، شعر عدد من مستشاري كلنتون الداخليين بقدر كبير من الارتياح، لأنهم كانوا يخشون حصول تسوية معينة وتَوَجّسوا من احتمال تمخض قيامنا بإِرسال قوة حفظ سلام وتفجر الأحداث في البوسنة كما حصل في الصومال، عن تعطيل إِعادة انتخاب الرئيس. نادراً ما كان كلنتون قد أقدم علىٰ فعل شيء بهذه الأَهميَّة مع هذا القدر الضئيل من التأييد الشعبي الظاهر. فحين ألزم القوّات الأَمريكية بحفظ السلام في البوسنة، كانت استطلاعات الرأي تشير إِلىٰ حوالي سبعين بالمئة ضد الفكرة. لقد كانت العمليَّة، مهما كانت إِيجابياتها، وقد كانت كبيرة حقاً، دحرجة للنرد، رمياً للزَّهر، وقد تطلب اتخاذ ذلك القرار أَن يكون كلنتون متحلياً بقدر غير عادي من الشجاعة.

غير أَن السلام كان ناقصاً من نواح كثيرة. فأشباح ڤيتنام كانت ما تزال تلوح في الأفق؛ ثمة كان احتمال الوقوع في الفخ وفقدان أرواح شباب أَمريكيين دفاعاً عن استراتيجية غير ذات هدف. بقي الخوف من أكياس الجثث [الأكفان] مقيماً علىٰ الدوام. قرَّر البيت الأَبيض، دون التشاور مع أولئك الذين كانوا قد اجترحوا تفاصيل خطة دايتون، أَن يضع حداً زمنياً لمهمة القوّات ـ اثني عشر شهراً. شكَّل ذلك دليلاً مؤكداً علىٰ نوع من الحذر الرئاسي وعلىٰ جملة المخاوف لدى مستشاريه في البيت الأَبيض، أولئك المستشارين الذين لم يكن بعضهم يريد تسوية دايتون من الأساس وقد دأب سراً علىٰ العمل ضدها. لقد كان ذلك حداً زمنياً غير واقعي علىٰ الإِطلاق وغير ذي علاقة بالمشكلات التي

كان من الممكن لأية قوة حفظ سلام أن تواجهها علىٰ الأرض. غير أنَّه كان سيغطي فترة انتخاب 1996م.

كانت العمليَّة طَبْخة من الطراز الأول، تم إِعدادها، تحديداً، انطلاقاً من اعتبارات سياسيَّة داخليَّة. إِذا كان القصد هو إِرسال رسالة إِلىٰ الكونگرس والشعب الأَمريكي، فقد تم إِرسال رسالة حتى أقوى إِلىٰ حلفائنا الأوروپيين، رسالة تضمنت أننا لسنا ملتزمين بالضرورة. وكذلك فإِنها أقنعت ميلوسوڤيتش بأننا لم نكن عازمين بقوة علىٰ البقاء. لقد كانت الرسالة الخطأ بامتياز، خصوصاً لأَن زعيم الكتلة الجمهوريَّة في مجلس الشيوخ، بوب دول، أَحد كبار صقور البوسنة، كان صادق الرغبة في مساعدة كلنتون علىٰ تجنّب أي تقييد زمني. ربما كان دول هذا إِحدى الشخصيات الأخيرة من الجيل الأممي الجامع للحزبين كليهما العائد إِلىٰ الماضي، ولم يكتف بأن كان مساعداً لكلنتون في البوسنة، بل وقد كان سيحجم عن استغلال الأَمر كقضية في الحملة الانتخابية. أَمَّا من كان أَكثر تمثيلاً لوجه الحزب الجمهوري والكونگرس فهو نيوت گينگريتش الذي أجاز قراراً يؤيد أفراد القوَّات المسلحة الذين يمكن أَن يذهبوا إِلىٰ البلقان، ولكن دون الموافقة علىٰ السياسة أَو الخطة التي قضت بإِرسالهم إِلىٰ هناك. لقد كان ذلك استبصاراً عميقاً تمكن من اختراق الانفصام الشيزوفريني الذي ابتُليت به السياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة في حقبة ما بعد الحرب الباردة. تم اتخاذ القرار بأَكثرية 287 مقابل 141.

الفصل الثاني والثلاثون

صحيح أَن فريق كلنتون امتلك تسوية في البوسنة، غير أنّه لم يصبح بعد ممتلكاً لسياسة خارجيَّة محددة. ثمة فرق كبير بين الأَمرين. كان الفريق قد أقدم علىٰ معالجة مسألة البوسنة لانطوائها علىٰ احتمال التحوّل من كارثة علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة إِلىٰ مشكلة سياسيَّة داخليَّة، وكان قد أظهر مهارة كبيرة علىٰ صعيد التفاوض من أجل التوصّل إِلىٰ تسوية مقبولة في دايتون. لقد أقدم الرئيس علىٰ مخاطرة كبيرة حين أرسل ما يزيد عن عشرين ألفاً من الجنود الأَمريكيين إِلىٰ البوسنة عشية حملة سياسيَّة. أية سياسة أُخرى كانت أَيضاً منطوية علىٰ مخاطرة. غير أَن الفريق كان قد أنجز مأثرة إِذ بدت اتفاقية دايتون نجاحاً كبيراً وساهمت كثيراً في تدعيم وترسيخ سمعة كلنتون وشعبيته. اعتُبرت نجاحه الكبير الأَول علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة. ومما زاد من بريق الانتصار أَن المباحثات كانت قد جرت فوق التراب الأَمريكي. كان الفريق قد أقدم علىٰ المقامرة وفاز بالرهان.

صحيح أَن ذلك لم يكن وحده مؤهلاً لتشكيل عامل حاسم في إِنقاذ كلنتون في انتخابات 1996م، غير أَنَّه نجح في وضع حد للنزيف الناجم عن ذلك القَدْر الهائل من الغموض والضبابية في السياسة الخارجيَّة وساهم في الإِجهاز علىٰ صورة كلنتون متذبذب، متأرجح، غير جدير بدور رئيس جمهوريَّة الولايات المتحدة الأكبر والأطول باعاً. ثمة عدد من العوامل الأُخرى تضافرت

أَيضاً لتعمل لصالحه. كان الرجل قد أَصبح في الخمسين من عمره في 1996م بعد أَن اعتُبر غراً صغير السن في 1992م. كان قد عمّر كثيراً في فترة رئاسته، زاد شيباً، وبات وجهه أَكثر تجعداً. لم يعد يبدو فتى صغيراً ـ بل أَصبح، بالأحرى، يمثِّل الوسط النموذجي لخريطة الأمة السكانية السياسيَّة. أَمَّا بوب دول، خصمه، آخر مخضرمي الحرب العالميَّة الثانية الذين يشاركون في السباق الرئاسي بكل تأكيد، فقد بدا، بالمقابل، عجوزاً طاعناً في السن، ضحية من ضحايا تلك الخريطة السكانية، بعيداً عن الحياة من نواحٍ كثيرة، خصوصاً حين أشار إِلىٰ **الدوجرز**، الذي هو فريق لوس آنجليسي منذ ما يقرب من أربعين سنة، علىٰ أَنَّه دوجرز بروكلين.

كان الاقتصاد قد ساهم وكانت المخاطرة السياسيَّة التي أقدم عليها كلنتون في فترته الأولى قد تبررت بشكل رائع. كان مؤشر داو قد تضاعف تقريباً. كان هذا المؤشر حوالي 3,260 نقطة عشية انتخابات تشرين أول/ أكتوبر 1992م حين تسابق مع بوش؛ أَمَّا بعد أربع سنوات في زحمة الحملة ضد دول فقد كان 6,029 نقطة، مع حصول الارتفاع بمعظمه في السنة الأخيرة. ومما ينطوي علىٰ أهميَّة موازية أَن مؤشر النازداك، وقد كان مؤشراً اقتصادياً ثانوياً نسبياً حتى ذلك التاريخ، غير أنّه كان مرشحاً ليبدأ سريعاً بمنافسة الداو بسبب التأثير القوي لشركات التكنولوجيا العالية الجديدة، كان هو الآخر قد تضاعف إِذْ أَصبح 1,226 نقطة بعد أَن كان 605. وبالمثل فإِن معدلات البطالة كانت تتضاءل؛ إِذْ هبطت إِلىٰ 5,5 بالمئة وهي مستمرة في الهبوط بعد أَن كانت 8 بالمئة في 1992م.

من المؤكد أَن الإِشارة التي كانت تقول بأن إِدارة كلنتون كانت ستبادر إِلىٰ معالجة عجز الموازنة شكّلت حافزاً قوياً للنمو الاقتصادي، غير أَن عدداً من التوجهات الاقتصاديَّة الأُخرى، منها الازدهار الحاصل في أعقاب الحرب الباردة حين قامت أجزاء كبيرة من أوروپا الشرقيَّة بالانفتاح علىٰ الاقتصاد الرأسمالي، وهو تطور إِيجابي جاء متأخراً عن الموعد المطلوب بالنسبة إِلىٰ

بوش، ساهمت أَيضاً؛ منها أَن الدولة أَصبحت، بعد رحيل الحرب الباردة، قادرة علىٰ تركيز المزيد والمزيد من طاقاتها الاقتصاديَّة ـ والسياسيَّة ـ علىٰ اقتصاد السلم؛ ومنها أخيراً الانفجار الكبير الحاصل في اقتصاد التكنولوجيا العالية، بداية ما بدا تحولاً تاريخياً في طبيعة أسلوب ممارسة الناس للعمل والتجارة. أدى ذلك (في المستويات العليا علىٰ الأقل) إلىٰ تكوين ثروات هائلة، أرقام قياسية من المليونيرات والبليونيرات. كان كلنتون المحاط بفريق اقتصادي استثنائي القدرات، رئيساً للجمهوريَّة لدى تضافر هذه القوى كلها، بما أفضى إلىٰ أسواق صاعدة ومزدهرة غير مسبوقة تقريباً.

بدا كلنتون أَكثر راحة في الرئاسة. كان قد أتقن فن تمثيل دور رئيس الجمهوريَّة؛ صحيح أَنَّه لم يكن متمتعاً برشاقة ريگان، غير أَنَّه كان ناجحاً جداً، إذا تم أخذ جميع الأمور بالاعتبار. كانت طريقته في أداء التحية الرئاسية قد أَصبحت أنيقة وواثقة. بات أخيراً معترفاً به حتى من قبل المتشككين والمنتقدين علىٰ أَنَّه جدير بالاحترام، علىٰ أَنَّه كان، أولاً وقبل كل شيء، سياسياً طبيعياً مدهشاً بصورة مطلقة، شخصاً دائم اليقظة ودائم العمل. كان قد نجح في التعامل مع هجوم رئيسي وكبير أطلقه ضده نيوت گينگريتش وعشيرته، سامحاً لهم بأن يبالغوا في الانقضاض علىٰ الحكومة في معركة حول الموازنة. ثمة لحظة تاريخية في أثناء عمليَّة الانقضاض والتعطيل شهدت لقاءاً بين كلنتون وگينگريتش في حوار خاص كان رئيس الكونگرس سيتحدث عنه فيما بعد. يقول گينگريتش سألني كلنتون «هل تعرف من أكون؟» قلت: «لا»؛ قال: «إِنني تلك الدمية المطاطية الكبيرة المضحكة التي كانت عندك وأنت طفل، وهي من النوع الذي يرتد بقوة كلما ضربتها». سكت كلنتون لحظة، ثم أضاف «ذلك هو أنا، كلما كانت الضربة التي أتلقاها أقوى، جاء ردي ورجوعي إلىٰ سابق وضعي أسرع». كان ذلك نفاذ بصيرة مدهشاً للطريقة التي كان كلنتون يرى نفسه بها، وبدا استبصاراً دقيقاً وصحيحاً مئة بالمئة. كان گينگريتش قد جلب الماء إلىٰ

طاحونته. مرة أُخرى كان كلنتون محظوظاً بالأعداء الذين كان قد تقابل معهم. كان يعرف أَن الشعب الأَمريكي ربما كان مؤيداً لفكرة طي بعض الحقوق طالما أنها لم تكن حقوقهم هم. فعلىٰ الرغم من أنهم سخطوا أحياناً علىٰ الحكومات المبالغة في سحق المواطنين تحت وطأة الضرائب غير الشرعية، فإنهم لم يكونوا أَيضاً مولعين بأن يروا حكومتهم مرتدية قناعاً متشدداً وقاسياً.

أدرك كلنتون أَن هناك لدى الكثير من أنصار اليمين الأصولي نزوعاً ظاهرياً ماضوياً (نوستالجياً) يشدهم إِلىٰ زمن عقد الخمسينيّات الأسهل، حين كانت أَمريكا مجتمعاً أبيض بصورة طاغية وكان التسلسل الهرمي القديم ما يزال فاعلاً. غير أَن أَي ضغط خفيف علىٰ ذلك النزوع الخارجي كان من شأنه أَن يكشف عن حقيقة كونه نزوعاً هشاً. لم تكن أعداد كبيرة من الأَمريكيين، من النساء، من الشباب، من غير البيض، من الشواذ، بل وحتى من بيض الطبقات الوسطى، ذات نزوع ماضوي قائم علىٰ الحنين إِلىٰ حقبة سابقة لم تكن في نظرها إلاّ حقبة قمعية جزئياً علىٰ الأقل. حتى أولئك الذين كانوا أميل إِلىٰ الماضوية أرادوا في الغالب أَن يمكّنوا جيرانهم من العيش كما سبق لهم أَن عاشوا في الخمسينيّات، مكوِّنين مجتمعاً متمتعاً بقدر أكبر من التمدن الظاهري، مع بقائهم **هم أنفسهم** مستمتعين بالمساحات الأكبر والأوسع من الحريات والمكافآت المتوافرة بفضل الاقتصاد المزدهر ونمط الحياة الأَكثر نشاطاً وحيوية لعقد التسعينيّات. لقد كان كلنتون مرشحاً مناسباً جداً لهذا العقد.

أعيد انتخابه بسهولة سنة 1996م. كان قد نَحَتَ ما اعتبره تياراً وسطاً والتزم بذلك الخط. متعاطفاً علىٰ الدوام ـ حتى بدا التعاطف أيديولوجيته الخاصة ـ كان مدمناً، كما هي عادته باستمرار، علىٰ التناغم مع أصوات البلد والتوازنات السياسيَّة المترتبة عليها. مع حلول سنة 1996م لم تكن قاعدته شديدة الاختلاف عن نظيرتها التي سبق لها أَن نقلته إِلىٰ كرسي الرئاسة. حصل علىٰ أقلية من أصوات الرجال البيض وكان أَكثر نجاحاً من غير البيض، النساء،

والشواذ. اكتسح أصوات النساء 54 ـ 38. بقيت قضية الإِجهاض سيفاً مسلّطاً علىٰ رقاب الحزب الجمهوري في الانتخابات العامة. مرة أُخرى، عادت السياسة الخارجيَّة، بطبيعة الحال، إِلىٰ النار الهادئة. لم تكن ثمة أصوات سهلة في السياسة الخارجيَّة، غير أنّها ظلت قادرة أحياناً، كما فعلت دايتون 1995م، علىٰ تلميع صورة رئيس جالس علىٰ الكرسي عاكف علىٰ الاستعداد لدخول سباق إِعادة الانتخاب، تماماً كما بقيت مؤهلة، في حال التعامل معها بطيش، لإِلحاق قدر كبير من الأذى به.

كان ذلك يعني أَن إِدارة كلنتون الثانية لم تعد، بعد إِنجاز دايتون، كثيرة الاهتمام بالبلقان. غير أَن سلوبودان ميلوسوفيتش بقي مهتماً. كان قد اعتبر دايتون نوعاً من الانتصار. لقد كان صاحب نفوذ جزئي وغادَرَ المشهد مرتدياً ثوب ميلوسوفيتش الطيب علىٰ الرغم من أَنَّه لم يكن الرابح الأَول والأكبر. من المفارقات الساخرة أَن مسلمي البوسنة الذين كانوا قد عانوا كثيراً قبل المؤتمر، لا ميلوسوفيتش، هم الذين تمردوا في دايتون وكانوا الطرف المرشح لنسف الصفقة. كانت أنظار ميلوسوفيتش متركزة الآن علىٰ هدف لم يسبق له أَن برز للعيان في مباحثات السلام، ألا وهو كوسوفا. فبعد صفقة دايتون ظل ميلوسوفيتش يفكر بالبلقان كل الوقت، في حين لم يعد فريق البيت الأَبيض، بعد الانتهاء من عمليَّة إِعادة الانتخاب، يفكر بهذه المنطقة إِلاَّ في الحدود الدنيا الممكنة. لم تكن ثمة أية مطاردة أَو ملاحقة جدية لكاراديتش أَو ملاديتش، مجرمَيْ الحرب المدانين، أَو أية محاولة للتأثير علىٰ السياسة الصربية. بعض الناس الذين كانوا أَطرافاً في عمليَّة دايتون كانوا يعتقدون بأن اعتقال ذينك الزعيمين لصرب البوسنة كان منطوياً علىٰ أَهميَّة حاسمة. كان من شأن بقائهما طليقين أَن يوصل الرسالة المعكوسة والخاطئة إِلىٰ ميلوسوفيتش كما إِلىٰ جميع أهل البوسنة.

غير أَن انشقاقاً خطيراً ما لبث أَن برز علىٰ السطح بين العسكريين

والمدنيين، ليس فقط حول التدخّل في البلقان، بل وحول اتفاقيات دايتون. فالمدنيون كانوا مصمّمين علىٰ ألا يعملوا إِلاَّ إِذا بادر الجيش إِلىٰ دعمهم بقوة وحماس وتشخيص أولئك العازمين علىٰ تدميرهم من مثيري المتاعب المعروفين. إِلاَّ أَن ذلك بدا بنظر بعض العسكريين منطوياً علىٰ احتمال إِعطاء القوّات الأَمريكيَّة دوراً مفرطاً في عدوانيته، ومبالغة في التورّط المكشوف في السياسة المحلية، بما يوحي بنوع من المقدمة لصومال أُخرىٰ، فنأوا بأنفسهم عن العمليَّة. ألم تكن مطاردة ملاديتش وكاراديتش شبيهة تماماً بمطاردة عيديد؟ أَمَّا المدنيون الذين كانوا قد صمموا الصفقة وواقفين علىٰ مدى هشاشتها فقد ثارت حفيظتهم إزاء ما اعتبروه موقفاً شديد السلبية من جانب المؤسسة العسكريَّة. فالأدميرال لايتون سميث، القائد العسكري الأَمريكي في المنطقة، بدا مقتنعاً بأن مهمته محصورة فقط بالحفاظ علىٰ نوع من السلم العسكري، دون أَي اهتمام باعتقال أَحد ممن يمكن أَن يبادروا إِلىٰ تقويض ذلك السلم. من الواضح أَن كاراديتش كان سعيداً جداً بموقف قوات حفظ السلام الأَمريكيَّة المتهاون واللامبالي. فحين قام ديك هولبروك، قبيل عودته إِلىٰ القطاع الخاص، بزيارة سميث للمرة الأخيرة في شباط 1996م، روى قصة نشرتها **الواشنطن پوست** كتبها جون پومْفرَتْ عن قيام كاراديتش بالمرور بنقاط تفتيش الناتو وحواجزه العسكريَّة متحدياً في الأَيام الأخيرة، رغم أَن اثنتين من نقاط التفتيش تلك هي حواجز يتولى أمر ضبطهما جنود أَمريكيون. لاحظ هولبروك أَن سميث شتم پومفرت ولكنه لم ينكر القصة. بقي الأدميرال مصراً علىٰ أَن قواته لن تطارد مجرمي الحرب المطلوبين للعدالة.

ظل سميث يثير غيظ المدنيين وراء الكواليس. كذلك لم يكن الجنرال جورج جولوان، القائد العام لقوات التحالف في أوروپا، القائد الأَمريكي للناتو، برأي المدنيين، يدفع سميث وغيره ممن هم في قيادته باتجاه العمل من أجل إِنجاح الاتفاقية. كان البيت الأَبيض، هو الآخر، غير راض عن جولوان،

وتم في صيف 1997م ـ في تحرك اعتبره البعض من المدنيين تعزيزاً للسياسة البلقانية ـ استبداله برجل لن يلبث أن يصبح لاعباً رئيسياً علىٰ المسرح كله، بجنرال شاب من ذوي النجوم الأربع يدعى وس كلارك. وكلارك هذا كان نظير جولوان في دايتون، مضطلعاً بدور ضمان بقاء معاهدة السلام التي يتوصلون إلىٰ إقرارها قابلة للتطبيق. وبعض المدنيين الذين تابعوا مفاوضات دايتون الصعبة عن كثب اعتبروا كلارك واحداً من أبطال دايتون الصامتين. لقد أبدى قدراً كبيراً من الشجاعة، باعتقاد هؤلاء، في السعي لاجتراح سيناريو قابل للتطبيق عسكرياً، علىٰ الرغم من أَنَّه كان يعلم علم اليقين بأن أحداً في البنتاگون لم يكن يقف خلفه، فضلاً عن أن عدداً غير قليل من كبار المسؤولين كانوا ضد أي دور علىٰ صعيد حفظ السلام. وبرأي هؤلاء، فإن كلارك كان قد عَرَّضَ نفسه للخطر مع مؤسسته بالذات. وما إن عاد إلىٰ أوروپا قائداً للقوات حتى بادر مباشرة إلىٰ رفع مستوى مهمة هذه القوّات، بعد أن صُعق بمدى سلبيتها وبدرجة إهمالها لقضية تطبيق بنود الاتفاقية.

كان كلارك قد أصبح يمقت ميلوسوڤيتش شخصياً، بعد تعامله معه لمدة ثلاث سنوات. وقد كان في الوقت نفسه مدركاً لحقيقة أن الكثير من كبار المسؤولين المدنيين كانوا مستائين جداً من إخفاق الجيش في تطبيق اتفاقيات دايتون. وبالتالي فقد اقتنع بأن من واجبه أن يعزّز الاتفاقية، أن يلاحق مجرمي الحرب، وأن يوقف الدعاية الصربية التي تبثها محطة الإذاعة الصربية. في أيلول/ سپتمبر 1997م، في بدايات مباشرته لمهامه، بادر إلىٰ وضع خططه الخاصة بالاضطلاع بدور عسكري أكثر تشدداً وعدوانية علىٰ صعيد دعم أهداف دايتون السياسيَّة وطار إلىٰ واشنطن لعرضها علىٰ وزير الدفاع الجديد بيل كوهن. يتذكر كلارك أن وجه كوهن تغيّر لونه حين بدأ يوجز بعضاً مما كان عازماً علىٰ تنفيذه، معتبراً ذلك نوعاً من الإنذار، فسأله: «إنني أتحرك في إطار توجيهاتك، أليس كذلك يا سيادة الوزير؟» رد عليه كوهن «تقريباً فقط». جاء

الرد كاشفاً لمدى عمق الصدع بين المدنيين والعسكريين حول البلقان. ففيما عدا كلارك، لم يكن الجيش يريد حصول أي تحرك من شأنه توريط القوّات الأَمريكيَّة بما هو أَكثر من الحدود الدنيا.

بنظر الغرب كان الأَمر عملاً عادياً، وعملاً بعيداً بعد البلقان عن معظم كبار المسؤولين. وكذلك بالنسبة إِلىٰ ميلوسوڤيتش لم يكن الأَمر إِلاً عملاً كما هي العادة، وعملاً قريباً جداً في متناول اليد، في كوسوڤا بالدرجة الأولى. وكوسوڤا هذه، أَكثر من البوسنة بما لا يقاس، طالما ظلت البقعة الأَكثر تفجراً في يوگوسلاڤيا، بؤرة التناقض السياسي الفج المتفاعل الموروثة عن أولئك الذين كانوا قد رسموا خارطة السلام بعد الحرب العالميَّة الأولى من قبل أولئك الذين كانوا سيحاولون بعد ثمانين سنة التعامل مع العنف الذي أوجدته تلك الحرب وما زال جمراً تحت الرماد. كانت كوسوڤا هي الأشد انسحاقاً تحت وطأة الماضي، حيث الأحقاد أشد مرارة وأقرب إِلىٰ السطح، وحيث الحد الأدنى من ظاهرة التعددية، والحد الأدنى من تمازج الثقافات. سكانياً كانت المنطقة مأهولة بالألبان الكوسوڤيين، وهم مسلمون، رغم أنهم كانوا، قبل قرون كثيرة، مسيحيين، ثم ما لبثوا أَن اعتنقوا الإِسلام ولكن علىٰ مضض في ظل الحكم العثماني. يشكل الأَلبان تسعين بالمئة من السكان، وهي نسبة متصاعدة باستمرار لأَن الأسر الأَلبانية أكبر؛ فبعد الحرب العالميَّة الثانية مباشرة لم تكن هذه النسبة إِلاً 72 بالمئة. غير أَن جميع الصرب يؤمنون بأن كوسوڤا أَرض مقدسة تعود إِليهم هم دون غيرهم. ثمة حقيقة إِضافية عن كوسوڤا شكلت قيداً علىٰ قدرة القوى الأجنبية علىٰ التدخّل حين أَصبحت قضية ملتهبة علىٰ نار حامية. لدى تفكك يوگوسلاڤيا لم تكن كوسوڤا سوى **منطقة، لا** جمهوريَّة، وكان الغرب قد أَصبح، أخيراً، ميالاً إِلىٰ الاعتراف بالاستقلال **للجمهوريات** (وهي سلوڤينيا، كرواتيا، البوسنة، مقدونيا، ولكن دون المناطق. وقد أدّى ذلك إِلىٰ جعل القضية مسألة أَكثر تعقيداً لأَن كوسوڤا كانت بصورة

أوضح جزءاً من يوگوسلاڤيا التقليدية، وكانت مسألة السيادة مشكلة أكبر مما كانت في البوسنة.

لم يكن التاريخ في كوسوڤا قاسياً فقط بل ومزاجياً متقلباً أيضاً. تمثّل اليقين الوحيد بأن منتصري اليوم مرشحون ليكونوا خاسري الغد وظُلاّمُ اليوم مظلومو الغد. تلك هي الدورة التي ظلت عَجَلتُها دائرة دون توقف؛ إنها بلا بداية كما أن المأساة هي أنها تبدو بلا نهاية. لقد ظلت عبر السنوات تتمخض عن أعمق الجروح الإنسانية وأكثر التواريخ العائلية مرارة وألماً ـ ما من عائلة إلاّ وفقدت عزيزاً في معارك الصراع مع العدو العرقي اللدود ـ فضلاً عن أبشع الأحقاد العرقية المتجذرة بعمق، بصورة حتمية. قد يتمكن الألبان أو الصرب من تولي السلطة بصورة مؤقتة، إما وحدهم أو كجزء من تحالف جديد مع قوة كبرى معينة. غير أن التاريخ في أوروپا كان قد أثبت أنَّه متقلب عبر الكثير من القرون، ولا بد من اندلاع حرب مرعبة أُخرى بعد قليل تعقبها انتفاضة كبرى جديدة. كان المسحوقون سيتحولون إلىٰ منتصرين متمتعين بحق تعذيب أولئك الذين سبق لهم أن عذّبوهم منذ بعض الوقت. ففي حركات المد والجزر المتعاقبة في البلقان وكوسوڤا، ظلت المذبحة تتبع المذبحة بوفاء وانتظام، حيث دأب هذا علىٰ الانتقام وأخذ الثأر من ذاك الذي كان قد انتقم منه حديثاً جداً، ربما قبل قرن واحد أو قرنين اثنين فقط.

في سنة 1908م، قبل حوالي سبع وثمانين سنة من تاريخ عودة ميلوسوڤيتش إلىٰ بلگراد من دايتون، كانت كاتبة أدب الرحلات البريطانية أديث دورهام قد وصفت هوة الحقد الفاصلة بين الصرب وألبان كوسوڤا بعد رحلة قامت بها إلىٰ كوسوڤا قائلة: «لا يمحو الدم إلاّ الدم». وكتبت تقول إنَّ ما كان موجوداً في كوسوڤا كان بدائياً بصورة مطلقة، أناساً يسلكون عملياً مثل الحيوانات، «ثمة صراع غريزي للبقاء والاستمرار يخوضه الأقوى امتثالاً لأوامر قانون الطبيعة الذي يقول «لا مكان لكليكما. لا بد للمرء من أن يقتل وإلاّ

فسيُقتل؛ ما هو منقوش نقشاً لا يمحي في فؤاد كل ألباني... هو الإيمان بأن الأَرض كانت له هو منذ الأزل. جاء الصرب واحتلوا وطنه، وبقوا فارضين سيطرتهم عليه لبضعة قرون عابرة، ثم ما لبثوا أَن طُردوا وكُنّسوا، ولن يعودوا ثانية إِلىٰ الأبد. لم يفعل الأَلباني بالصرب إِلاَّ ما فعلوه هم به»[1].

تفاقمت التوترات بين الأَلبان والصرب في السنوات الأخيرة وظل مستوى العنف متصاعداً باطراد. ثمة تعديلات دستورية تمت في ظل تيتو سنة 1974م كانت قد منحت قدراً أكبر من الحكم الذاتي للأَلبان وأفضت إِلىٰ أَلْبنة القطاع الإِداري في الإِقليم. وكان ذلك، بدوره، قد أتاح للأَلبان فرصة زيادة الضغط علىٰ الصرب المحليين أَكثر من ذي قبل. غير أَن الأحداث خارج الإِقليم ما لبثت أَن عجّلت من وتيرة الأحداث داخل الإِقليم. ما لبثت القيود والضوابط المفروضة علىٰ الأَلبان والصرب، وهي لم تكن شاملة وطاغية في أفضل الأوقات، أَن ارتخت وتهلهلت كثيراً جراء إِثارة النزعات القوميَّة في أوروپا الشرقيَّة والتضاؤل التدريجي لقوة التحكم السوڤيتي في أجزاء واسعة مما كان يعرف بما وراء الستار الحديدي. ومع حصول ذلك كله زادت جرأة الطرفين كليهما في عمليَّة الصراع حول كوسوڤا، حيث راح الأَلبان يطالبون بقدر أكبر من السيادة، وصولاً، آخر المطاف، إِلىٰ إِطلاق أعمال عنف جديدة ضد الصرب، فيما أَصبح الصرب، متحررين أخيراً من تعددية تيتو المفروضة قسراً، يشعرون بقدر أكبر من القدرة علىٰ تلقين الأَلبان درساً قاسياً. كان الصراع علىٰ كوسوڤا قد تفاقم أواخر الثمانينيّات وساعد علىٰ قذف ميلوسوڤيتش إِلىٰ عرش السلطة وعلىٰ تكوين شوفينية [نزعة تعصبية ضيِّقة] عرقية جديدة في طول البلاد وعرضها.

بنظر أولئك الذين يعرفون البلقان جيداً، كانت كوسوڤا، لا البوسنة، قد

(1) جوداه، XIX.

شكّلت نقطة الاشتعال على الدوام. ظلت البوسنة تُعتبر حركة ثابتة باتجاه نوع من مجتمع تعددي إلى أن جرى تمزيقها عبر سلسلة من المحاولات المدروسة لكل من ميلوسوڤيتش وتوجمان الرامية إلى تدمير تلك التعددية وتصعيد الأحقاد العرقية. لم يكن ذلك صحيحاً بالنسبة إلى كوسوڤا. فهنا يتكلم الناس لغتين مختلفتين وينتمون إلى تاريخين متباينين ومتناقضين تماماً. إنها أشبه بفلسطين، أَرض مقدسة يدعيها مقاتلان شرسان كل منهما لنفسه. من غير المستغرب أن تكون إدارة بوش قد بادرت، في أَيامها الأخيرة، إلى توجيه إنذار الميلاد إلى ميلوسوڤيتش، قائلة إن الولايات المتحدة لن تطيق أَي مزيد من العدوان على أَلبان كوسوڤا.

لم يرد أَي ذكر لكوسوڤا في دايتون، حيث بقي الاهتمام متركزاً على معالجة **البوسنة**، فضلاً عن أَن أياً من ميلوسوڤيتش، توجمان، وعزت بيگوڤيتش، لم يرد إدراجها على جدول الأعمال. لقد أحسنت دايتون صنعاً إذْ وضعت حداً للقتال في البوسنة، غير أنّها كانت قد تركت مسائل أُخرى معلقة بقيت في حالة غليان وصعّدت التوترات حول كوسوڤا. ولإنجاز الصفقة، كان هولبروك وفريقه بحاجة ماسة إلى تعاون ميلوسوڤيتش في ضبط عملائه وصنائعه من صرب البوسنة، ولكنهم من لم يكونوا قادرين على جعله شريكاً واقعياً والتحدث معه بشأن كوسوڤا. وبالتالي لم يتم طرح موضوع كوسوڤا على الطاولة **قط**. لم تبرز كوسوڤا إلاّ في لحظة عابرة وبطريقة هامشية جداً. كان هولبروك وميلوسوڤيتش في مشوار حول محيط قاعدة رايت ـ پاترسون حين لاحظا حشداً كبيراً من الأَلبان الأَمريكيين، بعضهم مسلح بمكبرات الصوت، خارج السور مباشرة، رافعين شعارات تطالب بحقوق أهل كوسوڤا. اقترح هولبروك أَن يتحدثا مع المتظاهرين. عبّر ميلوسوڤيتش عن استحالة قيامه بذلك. فهؤلاء الناس لم يكونوا هناك إلاّ لأَن قوى أجنبية دفعت لهم، فضلاً عن أَن كوسوڤا، أضاف ميلوسوڤيتش، مشكلة داخليَّة، ولا تهم أَحداً سواه في دايتون.

عارضه هولبروك، غير أَن الأَمر لم يتجاوز هذا الحد. لو طُرحت كوسوڤا لما أمكن التوصل إِلىٰ صفقة حول البوسنة.

وفي الحقيقة فإِن دايتون كانت ستجعل كوسوڤا أَكثر صعوبة لأَن آلية سياسيَّة، من شأنها أَن تنطوي علىٰ مضاعفات عميقة ومباشرة، كانت قد ابتُكرت، آلية أدت إِلىٰ تقويض قضية الكوسوڤيين الذين ظلوا في الماضي يجادلون في سبيل اعتماد طريق اللاعنف للوصول إِلىٰ السلطة من أمثال إِبراهيم روگوڤا الذي كان زعيماً كلاسيكياً من رافعي راية اللاعنف. فعلىٰ جدران بيته في پريشتينا كانت صور مارتن لوثر كنگ، گاندي، والدالاي لاما. أَمَّا الآن فإِن منتقديه، وهم من الشباب والفتيان الأصغر سناً الذين ظلوا علىٰ الدوام يطالبون بطريق أَكثر عنفاً إِلىٰ السلطة مع استخدام السلاح، باتوا قادرين علىٰ رفع أصواتهم والزعم بأنهم كانوا علىٰ حق. راح هؤلاء، يقولون: انظروا إِلىٰ ما جلبته علينا أساليب اللاعنف والمقاومة السلبية؛ لم تجلب علينا القمع الصربي الوحشي المتزايد فقط، بل وأدَّت أَيضاً إِلىٰ إِحجام القوى الغربيَّة المجتمعة أخيراً في مؤتمر للسلام عن دعوتنا وعن إِيراد ولو كلمة واحدة عن بلدنا. فقط أولئك الذين كانوا قد قاتلوا وأراقوا الدماء عُوملوا باحترام في دايتون.

قامت دايتون بقطع الطريق علىٰ أنصار الحل السلمي وبتعزيز مواقع أولئك الداعين إِلىٰ حمل السلاح في كوسوڤا، إِلىٰ إِيجاد جيش من الأنصار والفدائيين عملياً. ففي سنة 1997م، بعد دايتون بسنتين اثنتين بدأ الكي. إِل. إِي. KLA، جيش تحرير كوسوڤا، يتشكَّل كحركة. نادراً ما انتقلت أية حركة فدائية بمثل هذه السرعة من فكرة مجردة إِلىٰ قوة مقاتلة منطوية علىٰ تبعات سياسيَّة بالغة الأَهميَّة. أَيام دايتون لم يكن الكي. إِل. إِي. موجوداً بشكل ملموس. أَمَّا بعد سنتين فقد أَصبح مؤلفاً من خمسة عشر إِلىٰ عشرين ألفاً من الأعضاء، وراحت الأَسلحة تتدفق من دول مختلفة تريد الخير لكوسوڤا (والشر لميلوسوڤيتش)،

خصوصاً من أَلبانيا، بمساعدة الشتات الأَلباني خارج أوروبا. أضف إِلىٰ ذلك أَن هذا الجيش كان الطرف المستفيد من أَحداث سابقة في البلقان لأَن ممثلي وسائل الإِعلام الباقين كانوا لا يزالون يكنّون بعض العداء للصرب جراء ما حدث في البوسنة، هذا العداء أَو التحامل الذي كان جيش تحرير كوسوڤا سيتمكن من استغلاله.

مع حلول خريف 1997م، بات جيش تحرير كوسوڤا متحركاً. بدأ ينزل الضربات بالصرب بأسلوب حرب عصابات كلاسيكية. ثمة كانت وحدات صغيرة نسبياً، ضعيفة التدريب في الغالب، ولكنها مزودة بأَسلحة فعالة ـ كلاشينكوڤات ـ مشكلة قوة لضرب الموظفين أَو رجال الشرطة الصرب المحليين الذين كانوا يعيشون في قرى صغيرة معزولة دون أَي دفاع في الغالب. استهدفت الضربات الأماكن الصربية الأضعف، مع التركيز علىٰ الاستيلاء علىٰ الأَسلحة قدر الإِمكان. بنظر أولئك الذين عرفوا قصة الجزائر وڤيتنام، لم تكن العمليَّة إِلاَّ صورة طبق الأصل. كذلك قام الجيش بضرب الكوسوڤيين الذين اعتُبروا متعاونين أَو متعايشين مع الصرب. وكما أشار الكاتب تيم يودا فإِن كوسوڤا الكفاحية بدت مفارَقة في قلب مفارقة لأنها كانت تمثِّل «الكابوس الصربي الأخير: ڤيتنام صربيا الخاص. وتلك كانت مفارقة ساخرة لأَن قادة الصرب طالما وعدوا الغرب بڤيتنام بلقانية إِذا تجرأت قواته علىٰ التدخّل»[2].

كانت أَهداف جيش تحرير كوسوڤا متعددة: أراد أولاً، أَن يُغير علىٰ الصرب حيثما كانوا، أَن يشعرهم بأنّهم معرّضون للخطر ويقلّص من قدرتهم علىٰ الحركة؛ وأراد ثانياً، انتزاع النفوذ من روگوڤا عبر اعتماد مواقف أَكثر تشدّداً؛ وأراد أخيراً، رفع مستوى التوتر وصولاً إِلىٰ استفزاز ميلوسوڤيتش والصرب وجرهم إِلىٰ الانتقام بما يفضي إِلىٰ إِدخال الغرب كحليف أمر واقع،

---

(2) المصدر السابق، 156.

كما سبق له أَن فعل، أخيراً، فيما يخص الصراع علىٰ البوسنة. كان الأخير هو الأهم. إِذا تمكن جيش تحرير كوسوڤا من أَن يضرب بما يكفي من التكرار والاستفزاز، فإِن الصرب يمكن التعويل علىٰ أنهم سيبادرون إِلىٰ الرد بعنف متزايد باطراد مما سيتمخض مع الزمن عن تكوين آلية توفر للغرب إِمكانية مشاهدة الفظاعات الصربية. سرعان ما تبين أَن كلاً من أَطراف النزاع كان سيضطلع بالدور المرسوم له. وكما كان محتماً فإِن الصرب بادروا إِلىٰ الرد، تصاعدت أعمال العنف، تناقصت مرونة جميع من لهم علاقة. كان دخول جيش تحرير كوسوڤا يعني أَن الآلية لم تعد ثنائية، بين الغرب وميلوسوڤيتش. ما لبث جيش تحرير كوسوڤا أَن أَصبح طرفاً ثالثاً، قد لا يكون قادراً علىٰ كسب أية حرب وحده، ولكنه مؤهل تماماً لاستفزاز ميلوسوڤيتش وصولاً إِلىٰ تقييد أَو نسف أية محاولة حل وسط قد يبذلها الغرب، ربما علىٰ شكل نوع من الحكم الذاتي الأوسع نطاقاً لأَلبان كوسوڤا في ظل الحكم الصربي. حتى الولايات المتحدة من شأنها، وهي المتفرجة في البداية عن بُعد دون إِيلاء الكثير من الاهتمام، أَن تصبح أقل قُدْرة علىٰ التحكّم بالوضع مما كانت تتوقع.

مع قيام الصرب بكيل الضربات الانتقامية لِجيش تحرير كوسوڤا، حصل قادة هذا الجيش علىٰ ما كانوا يريدونه، علىٰ دوّامة عنف متصاعدة، مع فوج فوري من الشهداء، بالطبع. ففي منتصف تشرين أول/ أكتوبر 1997م، كان أدريان كراسنيكي، ابن أسرة متعصبة في حماسها لجيش تحرير كوسوڤا وأحد مزودي هذا الجيش ببنادق الكلاشينكوف، الجندي الأَول الذي يسقط قتيلاً في الزي الرسمي في أثناء غارة علىٰ أحد مخافر الشرطة الصربية. حضر جنازة «الشهيد» ما يقرب من ثلاثة عشر ألفاً. تمخض الحدث عن الحدث. ما لبثت الجنازات الأَلبانية أَن تحوّلت إِلىٰ أَحداث وتظاهرات سياسيَّة تشارك فيها أعداد تصل إِلىٰ خمسة عشر بل وعشرين ألفاً من الناس. وفي أواخر تشرين الثاني/ نوڤمبر، في جنازة ناشط آخر من حركيي جيش تحرير كوسوڤا، بادر أَحد

المقاتلين إِلىٰ نزع قناعه وإِلقاء خطاب سياسي قال فيه بأعلىٰ صوته: «إِن صربيا تذبح الأَلبان. وجيش تحرير كوسوڤا هو القوَّة الوحيدة التي تقاتل في سبيل تحرير كوسوڤا وتحقيق وحدتها القوميَّة. سنواصل القتال!» وراح الحشد يهتف وينشد «عاش جيش تحرير كوسوڤا، عاش، عاش، عاش!»[3] وعلىٰ الرغم من إِعلان روگوڤا عن أَن جيش تحرير كوسوڤا لم يكن إِلاَّ خدعة من ابتكار الصرب، فإِن هذا الجيش كان بالفعل موجوداً. وإِذا كان الكي. إِل. إِي. أقلية نسبية في البداية دون التمتع بأي تأييد عميق من جانب السكان الأَلبان، فإِن عنف الأعمال الانتقامية للصرب ما لبث أَن أَكْسَبَه قَدْراً متزايداً من الشعبية. إِنها دورة مألوفة. فالڤييت مينه والڤييتكونگ فعلا الشيء ذاته في الهند الصينية. وكما كان متوقعاً بدأ الصرب برفع مستوى الضغط، وراحوا يحرقون القرى ويقتلون أولئك الذين يُحْجمون عن الفرار إِلىٰ الجبال. كانوا يحملون قوائم بأسماء أهالي القرى ويقتلون كل من يبدو وكأنه زعيم، رجل أعمال، محام، أَو متمتع بمستوى تعليمي معين. وعلىٰ أية حال فإِن الكوسوڤيين كانوا، بنظر ميلوسوڤيتش، دون مستوى البشر.

مرة أُخرى كان الغرب بطيئاً في التحرّك. أولئك الذين كانوا ناشطين خلال الجولة الأولى حول البوسنة كان لديهم شعور بأن المشهد كان يتكرر فيما ظل ميلوسوڤيتش يراوغ مُنْكراً وجود أعمال العنف ودوره فيها علىٰ حد سواء، ومبادراً أحياناً إِلىٰ قمعها، ثم العودة إِلىٰ السماح بها ثانية. قلما كانت واشنطن مواكبة لما كان يجري، مع ظهور فريق جديد من الممثلين علىٰ المسرح. كان تغييرٌ في جهاز البيت الأَبيض، بدأ مع رحيل رئيس جهاز كلنتون الخاص ليون پانيتا، قد تمخض عن لعبة كراسي موسيقية ما لبثت، آخر المطاف، أَن أبقت توني ليك خارج اللعبة. كان من كبار المتنافسين لملء الشاغر الذي تركه پانيتا كل من إِيرسكين پاولز، من الطرف الداخلي، وساندي بيرگر، نائب ليك في

(3) المصدر السابق، 130 ـ 131.

مجلس الأَمن القومي. اعتذر الأَول عن قبول المنصب فقبله بيرگر، غير أَن پاولز ما لبث، بعد بضع ساعات، أَن غيّر رأيه. وبالتالي فإِن مستقبل بيرگر بقي معلَّقاً حتى عُرض عليه منصب ليك في مجلس الأَمن القومي. كان ذلك يعني البحث عن عمل آخر لليك الذي تحتم عليه أَن يرحل في جميع الأحوال. لقد كانت علاقة شوهاء، لا جيدة ولا سيئة، وبعيدة عن الاستقرار وبعث الاطمئنان علىٰ الدوام. بقي ليك حاملاً وزر الصومال، لم يُبَرَّأ قط من جريرة ما حصل في الصومال. حتى قبل التغييرات التي طالت كلاً من پانيتا وپاولز وبيرگر، كان كلنتون قد عرض منصب مستشار الأَمن القومي علىٰ ستروب تالبوت، ربما صديق كلنتون الأقرب في مجمع الأَمن القومي، وأحد أقدم الأشخاص المتمتعين بثقته. تم تقديم العرض بطريقة كلنتونية نموذجية. شديد الشبه بصياد سمك ماهر كان قد ألقى بأَكثر الطُّعَم إِثارة للشهية فوق السمكة الأكبر والأدسم في النهر. لقد أثبت تالبوت الآتي من عالم صحافة المجلات أَنَّه أَحد المفاجآت الأَكثر إِيجابية، مسؤولاً في البداية عن التعامل مع الروس، وبوصفه الرجل الثاني في الخارجيَّة بعد ذلك. كان كامل السيطرة علىٰ عواطفه، لم يسبق له قط أَن تجاوز حدود الآخرين، حتى عند انطواء ذلك علىٰ تقليص حدوده هو. وعلىٰ الرغم من أنه كان، نموذجياً، معارضاً لعقد أَي مؤتمر سلام بوسني في هذا البلد، فإِن تالبوت قد شرح، بقدر كبير من التفصيل، لصديقه هولبروك، أسلوب جعل إِدارته هنا ناجحة.

غير أَن تالبوت كان مفرط الارتياب والتوجس إِزاء تولي منصب مستشار الأَمن القومي. لقد أدرك أَنَّه لم ينجح في البقاء صديقاً حميماً لكلنتون علىٰ امتداد السنوات الأربع الأولى إِلاَّ لأَنَّه لم يكن يعمل معه وبجانبه وتحت إِمرته بصورة مباشرة. افترض تالبوت أَن من شأن توليه لمنصب مستشار الأَمن القومي أَن يجعل نقد صداقتهما بشعاً وشخصياً وصولاً إِلىٰ تحوّله ضدهما كليهما. أضف إِلىٰ ذلك أَنَّه كان يرى أَن بيرگر كان قد استحق الوظيفة، بعد أَن بذل في

مجالها كثيراً من الجهد اليومي الاعتيادي في فترة صعبة، ونظراً لتحليه بالمواصفات الطبيعية المناسبة المطلوبة لضمان عمل مجمع مجلس الأَمن القومي متعدد الرؤوس. ومهما يكن، فإن تالبوت كان مهتماً، بالدرجة الأولى، بإنجاز عمله الخاص الذي تمثَّل بتوسيع الناتو، جنباً إِلىٰ جنب مع تهدئة المخاوف الروسية من تحول دول أوروبا الشرقيَّة، التي كانت دائرة في الفلك الروسي، إِلىٰ أعضاء في منظمة طالما بدت، بنظر الروس، مصمّمة علىٰ تدمير بلدهم. وهكذا فإن تالبوت لم يقفز لالتقاط الطُعم الذي قام الرئيس بتمريره فوقه. غير أَن العرض نفسه كان قد أظهر أَن ليك بات موشكاً علىٰ الرحيل.

في الوقت نفسه عُرض علىٰ ليك عدد من السفارات وصولاً آخر المطاف إِلىٰ منصب رئيس وكالة الاستخبارات المركزيَّة. غير أَن تثبيته لم يتأكد قط، مما أبقاه معلقاً في الهواء لبعض الوقت. ثمة قدر غير قليل من الغضب والسخط كان قد تراكم ضده (بل وقَدْر أكبر من هذا الغضب والسخط ضد الرئيس الذي كان يَخدمه ـ مما جعل توجيه الضربات إِلىٰ ليك أسلوباً ممتازاً لضرب كلنتون). كان إِخفاق طائش في إِمعان النظر في أوراق ذات علاقة بإِيداع أسهمه في شركة مشبوهة قد جعله موضع شك علىٰ الصعيد الأخلاقي، ودفعه أخيراً إِلىٰ المثول أمام لجنة الاستخبارات المشتركة للإِدلاء بشهادته علىٰ التلة. مثوله للشهادة لم يكن موفقاً وترك لدى عدد من أعضاء مجلس الشيوخ انطباعاً يقول بأنه متحفّظ وعدواني بعض الشيء. وبعد فترة ما لبث أَن سحب ترشيحه. وقد عنى ذلك أَن ليك، ذلك الذي ظل متفوقاً علىٰ جميع كبار المسؤولين في الإِدارة من حيث الضغط من أجل المبادرة إِلىٰ اتخاذ إِجراء ما بشأن البوسنة، بات الآن متفرجاً من خارج المسرح فيما كان التاريخ دائباً علىٰ تكرارا نفسه في كوسوڤا، متصلاً بين الحين والآخر مع مساعديه السابقين في مكتب مجلس الأَمن القومي لحثّهم علىٰ اعتماد خط أَكثر تشدّداً في التعامل مع ميلوسوڤيتش. وعنى أَيضاً أَن مستشاراً للأَمن القومي كان يؤمن بضرورة تقليص تأثير السياسة الداخليَّة علىٰ

السياسة الخارجيَّة إلىٰ الحدود الدنيا كان سيتم استبداله ببيرگر الذي بقي دائم الحرص، أولاً وقبل كل شيء، علىٰ عكس مواقف كلنتون وبرامجه السياسيَّة.

ومع تقاعد وارن كرستوفر برزت مسألة الخَلَف في وزارة الخارجيَّة بوصفها مسألة محيرة ومربكة، وكانت الخيارات المتباينة تعكس وجهات نظر مراكز قوى بدأت تطفو علىٰ السطح في الحزب الديمقراطي كما في واشنطن. ثمة أربعة وصلوا إِلىٰ الدوري النهائي. بدأت عصبة الحرس القديم تضغط لصالح إِما سام نان أَو جورج ميتشل. الأول، نان، وهو أَكثر المرشحين محافظة، اقترحه ڤيرنون جوردان، ذلك الجورجي التقليدي جداً في الأوساط الداخليَّة الواشنطنية في حين كان عدد من الناس في الحزب يفضلون ميتشل، الديمقراطي من ولاية مين الذي كان مفاوضاً بارعاً علىٰ إِيرلندا الشمالية، وقد اقترحه كرستوفر الذي كان مرتاحاً إِليه أَكثر من أَي شخص آخر. وقد كان أَيضاً مسروراً من أَن يكون قادراً علىٰ رد الجميل لشخص علىٰ هذا القدر من التميز مع الاستناد إِلىٰ سجل مسلكي رائع لأَن ذلك كان يمكنه من تجنّب تأييد مادلين أولبرايت دون الظهور بمظهر المعادي لإِشراك النساء.

أما المرشحان من داخل الإِدارة فقد كانا ديك هولبروك وأولبرايت، التي كانت في الأمم المتحدة. بدا الاختيار هنا مراوغاً تفوح منه رائحة التآمر. كان هولبروك قد أبلى بلاء حسناً في دايتون لصالح الإِدارة واستطاع، بالتالي، أَن يحول دون بقاء السياسة الخارجيَّة عبئاً علىٰ حملة انتخابات 1996م. غير أنه، بسبب كونه هولبروك بالذات، كان لا يزال يوحي بمشاعر قوته لدى مؤيديه من جهة وعند خصومه من الجهة المقابلة. كان من شأنه، إِذا وقع الاختيار عليه، أَن يكون وزيراً عملاقاً للخارجيَّة، إِلاَّ أَن خطر احتمال قيامه بالمبالغة في الضغط علىٰ رئيس الجمهوريَّة بصورة جدية أَكثر من أَي مرشح آخر، في حال اختياره، ظل قائماً. كان ستروب تالبوت وآل گور، كلاهما، مؤيدين لهولبروك، وفي إِحدى المراحل بادر گور إِلىٰ الاتصال بهولبروك في بهوتان

(مملكة آسيوية صغيرة في جبال همالايا)، حيث كان يقضي إجازة مع بعض الأصدقاء، ليطلب منه أن يعود إلىٰ واشنطن من أجل المساعدة علىٰ دفع قضيته. صحيح أنَّه كان في النهائيات، غير أن أياً من كرستوفر وليك لم يكن مؤيداً له. مرة بعد أُخرى، وبتكرار متواصل، قيل عنه إنَّه لم يكن لاعب فريق. ربما نجح في إبهار كرستوفر بأدائه في دايتون، غير أن أوجه الاختلاف العاطفية، إن لم تكن الإيديولوجية، بين الرجلين كانت كبيرة جداً، يتعذر تجاوزها ببساطة، مما أبقى كرستوفر متحسساً منه وغير مرتاح إليه. أمَّا مع ليك فإن الهوة الفاصلة بين الصديقين السابقين كانت أوسع من أي وقت مضى.

إذا آل الأمر إلىٰ الاختيار بينه وبين أولبرايت، فإن القوى السياسيَّة المتضافرة والمحتشدة ضد هولبروك كانت كبيرة، لأن أولبرايت كانت مدعومة بقوة جديدة هائلة داخل الحزب الديمقراطي، بشبكة بالغة الأهميَّة من النساء النشيطات سياسياً. ومع ذلك فإن كبار أعضاء فريق الأمن القومي في إدارة كلنتون نادراً ما كانوا يبدون أي قدر من الحماس لدى كلامهم عنها وراء الكواليس. وبعض المشاعر المناوئة لها كانت جنسوية بالضرورة، بمعنى ذكورية حتماً، لأنها كانت طليعية في عالم يخص الرجال. غير أن وجهة النظر العامة بين الأقران كانت تقول بأنها موهوبة بصورة مقبولة، غير استثنائية علىٰ صعيد الذكاء، ومولعة، خصوصاً بالاستناد إلىٰ مهارات مدير مكتبها الصحفي جامي روبن، بالظهور في صدر الصفحات الأولى وتعظيم الذات، وهو ما كان أيضاً يقال، بالطبع، عن هولبروك. أولئك الذين كانوا يتابعون اللعبة ـ لعبة التصفيات ـ من الداخل وأكثرهم من الرجال اعتبروها الأضعف بين المرشحين. لقد كانت في صف الصقور من البداية حول البوسنة وكانت تمقت ميلوسوفيتش، غير أن أحداً من أقرانها لم يسبق له أن أخذها مأخذ الجد، سوى مرة واحدة أو اثنتين.

تم حذف اسم نان بسرعة؛ لقد بدا متفوقاً كثيراً علىٰ الرئيس من حيث الاتصاف بنزعة المحافظة، فضلاً عن استحالة التقاطع بين الرجلين إلاَّ في

الهوامش والأَطراف. كان ميتشل يعاني من مشكلة محددة لأَن الجمهوريين، بزعامة ترنت لوت، أبلغوا البيت الأَبيض بأن من شأن ترشيحه أَن يفتح باب تسديد ثمن هزيمة جون تاور كوزير للدفاع، في انتصار ديمقراطي اضطلع فيه ميتشل بدور قيادي. كانت نبضات هولبروك أوضح من عيوبه: ربما كان الأَكثر موهبة، غير أَن حتمية إِثارته للخلافات كانت مضمونة فضلاً عن احتمال بقائه أقل انصياعاً للتحكّم بعد الوصول إِلىٰ المنصب. كان عدم تأييد كرستوفر له مدمراً. أضف إِلىٰ ذلك أَن استعادته من الخارج، لدى بروز مهمة صعبة وحساسة متطلّبة لمفاوض استثنائي المواهب والمؤهلات، كانت علىٰ الدوام ممكنة. لقد كانت مهاراته من تلك النوعية التي كانت الإِدارة تستطيع أَن تستغلها مئة بالمئة دون تمكينه من الحصول علىٰ المنصب الذي كان يريده، متجنبة، بالتالي، جملة المتاعب التي كان من الممكن أَن يثيرها. كان القرار مدمراً وساحقاً بالنسبة إِلىٰ هولبروك. لقد وقع الاختيار علىٰ أولبرايت. كان كلنتون قد أُعجب بها وبأدائها أمام حشد كبير وحماسي في الأورانج باول بميامي حين قامت برد الكرة إِلىٰ ملعب كاسترو وبتلقينه درساً قاسياً ـ وقد كان الرجل ـ كلنتون ـ يتقن فن التعرّف علىٰ النجوم السياسيَّة الصاعدة لدى رؤيته لأية منها. أضف إِلىٰ ذلك أَن إِغراء تسمية وزيرة الخارجيَّة الأولى كان إِغراء تتعذر مقاومته. في الدفاع كان بيل پيري قد جرى استبداله ببيل كوهن الذي كان، فيما مضى، قد اعتُبر من سرب حمائم البلقان.

لم يكن الفريق الجديد قد بدأ، بعد، بتناول مسألة البلقان. كان اللاعب الحاسم المفقود، مقارنة بالجولة الأولى حول البوسنة، هو الرئيس. لم يكن يستطيع إِلاَّ أَن يتفهم عواقب البقاء في حالة انفعال دائم بالبلقان؛ كان يعلم مدى قسوة ـ ومكر ومراوغة ـ ميلوسوڤيتش والأهوال التي يمكن لغرائزه السياسيَّة البدائية أَن تجرها. غير أَن بيل كلنتون كان مشغولاً بقضية أَكثر إِلحاحاً بما لا يقاس ـ ألا وهي قضية بقائه علىٰ كرسي رئيس الجمهوريَّة.

الفصل الثالث والثلاثون

أوائل سنة 1998م، تماماً عندما كانت كوسوڤا بادئة بانفجارها العنيف، تعثّرت المجموعات المختلفة الدائبة في واشنطن علىٰ ملاحقة الرئيس منذ سنوات حول ما إذا كان قد قام بالتحرش جنسياً بسيدة اسمها پاولا جونز بما يمكن اعتباره بؤرة حقيقية علىٰ صعيد العلاقات الجنسية غير الشرعية في البيت الأَبيض.

في صباح الحادي والعشرين من كانون الثاني/يناير، لم يكن العنوان العريض **للواشنطن پوست** عن كوسوڤا أو ميلوسوڤيتش أَو عن القوَّة المتزايدة لجيش تحرير كوسوڤا. لا، علىٰ الإِطلاق. جاء العنوان علىٰ النحو التالي: «كلنتون متهم بحض مساعدته علىٰ الكذب؛ يتقصى سْتَارْ حقيقة ما إِذا كان الرئيس قد طلب من سيدة إِنكار قصة مزعومة أمام محامي جونز». تلك هي الطريقة التي بدأت بها الأمة بالتعرّف علىٰ قصة امرأة شابة اسمها مونيكا لوينسكي. ثمة كانت أدلة متزايدة تشير إِلىٰ أَن الرئيس كانت له علاقة جنسية ما مع لوينسكي، عاملة سابقة في البيت الأَبيض في الرابعة والعشرين من العمر، تمكنت في لحظة رومانسية ملتهبة من إِغواء الرئيس في مكتبه عن طريق رفع تنورتها بخبث واستفزاز وعرض لباسها الداخلي و«بضاعتها» الفتية عليه في لمحة خاطفة. من الواضح أنه، لم يكن من المعروفين بمقاومتهم للإِغراء الجنسي، اعتبر ما حصل دعوة صريحة. وفي تلك اللحظة المشحونة بالإِغواء

الجامح، حيث التقت ثقافة **بيڤرلي هيلز 90210** بثقافة سياسة آركنسو للولد الطيب، باتت إدارة كلنتون كلها معرّضة للخطر. (فيما بعد قامت لوينسكي بشرح ما حصل لصديقة موثوقة سابقة تدعى ليندا تريپ، «حَلَبْتُه مصاً»[1]).

ما إن فُضحت القصة، حتى سارع كلنتون إلىٰ إنكار علاقته بـ«تلك المرأة، السيدة لوينسكي»، كما وصف عشيقته بقدر كبير من الجرأة. (اعترف لاحقاً لصديقه المخرج في هوليود هاري توماسون بأنه لم يفعل ذلك لينأى بنفسه عنها، بل لأنَّه كان ناسياً، لحظياً، اسمها الأول)[2]. لم يبادر الجميع إلىٰ تصديق إنكاره ونفيه، لأنَّه كان ذا تاريخ طويل مع عدد من النساء ـ جنيفر فلورز، پاولا جونز، ومونيكا لوينسكي الآن ـ وبعض الناس تحلوا بما يكفي من انعدام السخاء والكرم ليؤمنوا بأن جميعهن كن يتقاسمن صفة مشتركة تمثَّلت بهالة معينة من سهولة الوصول. (كان إغواء سلطته الرئاسية الجنسي، وافتقاره الواضح إلىٰ الانضباط يعنيان أَن أعضاء الجهاز المختلفين تعين عليهم دائماً أَن يبقوا متيقظين، خصوصاً في أثناء الرحلات الرئاسية، ومتنبهين إلىٰ ضرورة إبقاء النساء بعيدات عنه. علىٰ الدوام كان أَحد الموظفين مكلفاً بأن يقول «لا» نيابة عنه خوفاً من ألا يكون ذلك رده الغريزي الخاص). كان الأَمر سيستغرق أَكثر من سنة كاملة من أشكال النفي والإِنكار الصادرة عنه وبعضها بالغ الوقاحة، وشهادة لوينسكي أمام هيئة المحلفين الكبرى قبل أَن يقر كلنتون أنها قامت فعلاً بممارسة الجنس معه عن طريق الفم في البيت الأَبيض. وما تلا ذلك لم يكن إِلاَّ سياسة رئاسية لا كَفَنٍ رفيع بل كإِثارة وضيعة. أحياناً كان الناطق الإِعلامي باسم البيت الأَبيض مايك ماكوري يجد نفسه عاكفاً أمام جحفل جرار من الصحفيين (المتعطشين لمعرفة المزيد والمزيد عن هذه القصة) وأمام الأمة كلها علىٰ شرح شيء ـ من شبه المؤكد أَن أبويه لم يربياه ليفعله أمام الملأ ـ عاكفاً

(1) **جورج**، كانون أول/ ديسمبر 1999م.

(2) توبين، 251 ـ 252.

علىٰ تفسير الفرق، حسب فهم رئيس جمهوريَّة الولايات المتحدة الأَمريكيَّة للأمر، بين ممارسة الجنس من جهة وممارسة الجنس عن طريق الفم من جهة ثانية. لعل وظيفته بين سائر وظائف الحكومة الاتحادية كانت في تلك اللحظة هي الأسوأ. وفي إِحدى المرات شكا ماكوري المحاصر قائلاً: «كنا أشبه بأناس واقفين تحت شلالات نياگارا، منتظرين مجيء قارب ينقذنا»[3].

كانت للآنسة لوينسكي، تلك الصبية غير الآمنة بشكل ما والتي كانت نتاج أسرة منهارة في لوس آنجليس، دائمة الشكوى من وزنها وظلت تجد نوعاً من العزاء العاطفي فيما عُرف باسم العلاج السريع الأَمريكي، أَي فورات الشراء والتسوّق ببطاقة الاعتماد ـ يا لها من ابنة بارّة للمول الأَمريكي الحديث! سبق لها أَن تورطت من قبل مع رجال أكبر سناً وكادت تقتنص معلِّماً، مطاردة إِياه مع أسرته إِلىٰ أوريگون. من الواضح أنها كانت مفتونة بكلنتون وسلطانه، مستعدة إِذا لزم الأَمر أَن تحل محل هيلاري، التي كانت، بنظرها، باردة وغير قريبة من القلب. كانت لوينسكي مغرمة بمتابعة أَي موكب رئاسي مع الرئيس والسيدة الأولى وهو يمر في الشارع حيث كانت تشي لصديقتها الحميمة ليندا تريپ باستيائها لعدم كونها تلك التي معه في السيارة[4]. وفي كانون أول/ ديسمبر 1997م بدت شديدة الافتتان والانبهار، وحاول الرئيس قطع العلاقة، مقدماً لها هدايا وداع مؤلفة من حيوان محنَّط تم ابتياعه من مخزن بلاك دوگ في كرم مارتا، زوجين من النظارات البليدة، بطانية روكتس، وعلبة شوكولاته. كانا قد افترقا مع ما وصفتها لوينسكي لاحقاً بقبلة ملتهبة. غير أَنها أخفقت في الاحتفاظ بسرهما الخاص لنفسها كلياً. كانت اللامبالاة السياسيَّة التي جسدها ما فعله كلنتون مذهلاً، غير أنها كانت كلنتونية نموذجية، طريقة قائمة علىٰ المخاطرة بأشياء كثيرة جداً مقابل أشياء قليلة وضئيلة جداً وفي مثل هذه اللحظة

---

(3) **تايم**، 2/ 2/ 1998م.

(4) **جورج**، كانون/ ديسمبر/ 2000م.

الحاسمة من حياته السياسيَّة. وعلىٰ الرغم من بقائه مطارداً من قبل الكثير من العصابات اليمينية المهووسة بأخلاقه، أَو بعدم تحليه بأية أخلاق، فقد ظل يغازل الخطر في مكتبه بالذات، حيث لم يكن أَي شيء سراً علىٰ الإِطلاق؛ مع صبية سهلة المنال قد تبادر، عاجلاً أَو آجلاً، إِلىٰ إِطلاق العنان لكلامها الأحمق. فهل ثمة أَي شخص أَكثر احتمالاً أَن يتكلم عما كان قد حدث بينهما أَكثر من فتاة بيڤرهلية متضخمة الذات، مبهورة، مسكونة بشيء من الغرور، ليست بالضرورة قلعة الانضباط والتواضع الشخصيين؟ أَلم تكن أعظم لحظات عمرها، آخر المطاف، لحظة استيلائها علىٰ رئيس جمهوريَّة الولايات المتحدة الأَمريكيَّة، وإِن بقي استيلاء جرى، كما شكت لاحقاً، وهي راكعة علىٰ ركبتيها، قائلة إِن عنوانها الحقيقي كان ينبغي أَن يكون «مساعدة خاصة للرئيس لأعمال التنفيس»[5]. وقد أشارت إِليه أَيضاً علىٰ أَنَّه المتسلل الكبير.

كعاشقة محرومة من الحب لأَن العلاقة كانت، علىٰ ما يبدو، وظيفية أَكثر منها رئاسية، سرعان ما ثرثرت لوينسكي علىٰ مسامع آخذة الصوت المخبوءة لصديقة مزعومة تدعى ليندا تريپ التي لم تكن تستهدف الصداقة أَو مواساة فتاة في أزمة عاطفية، بل ترمي إِلىٰ تزويد أولئك الأَمريكيين الراغبين في تلطيخ سمعة وليم جفرسون كلنتون بكمية هائلة من الذخيرة. فيما بعد حاولت تريپ عقلنة غدرها قائلة: «لم أكن أعتبر مونيكا صديقة قط. لم يسبق لنا، علىٰ الإِطلاق، أَن قضينا وقتاً معاً خارج المكتب، كما لم نناقش حياتي. أنا لست مهذارة ممن يحبون القال والقيل. الفكرة التي تقول بإِمكانية قيامي باستغلال هذه الفتاة الحمقاء مسيئة. رأيت أنها حَشَرة مؤذية. غير أَن شيئاً، لا علاقة له بالإِشفاق، ما لبث أَن تلاشى. . .»[6] كان معشر اليمين، خصوصاً الأصوليون، قد كرهوا كلنتون لأنهم ظلوا، علىٰ الدوام، يرون أَنَّه مرشح لأَن يفعل ذلك

---

(5) **تايم**، 2/2/1998م.

(6) **جورج**، كانون أول/ ديسمبر 1999م.

بالتحديد، وها هو ذا الآن، نعمة من السماء، قد فعله وأثبت أنهم أنبياء. ما لبثت التفاصيل عما كان كلنتون ولوينسكي قد فعلاه والمكان الذي فعلاه فيه أن بدت تنز وتتسرب حتى أَصبحت طوفاناً آخر المطاف. شعرت لوينسكي بالرعب من دورها في الفضيحة ومن مدى تعرضها للاستثناء من جانب التاريخ. ومع ذلك فإنها بدت أحياناً نشوى بذيوع صيتها السيء أَيضاً، وحين أوشكت لحظة شهرتها الوارهولية الوجيزة علىٰ التلاشي، بدت حريصة علىٰ البقاء في بقعة الضوء.

كان كلنتون قد عَرَّضَ فترته الرئاسية الثانية كلها للخطر، كل ذلك النفوذ الذي كان هامش إعادة الانتخاب المريح قد زوَّده به. الأمة كلها تابعت مشدوهة، الملايين من المواطنين العاديين الموزعين بين كره الذات لتحوّلهم إِلىٰ بصّاصين متلصصين (مثل توم البصاص) ونفاذ الصبر لسماع المزيد من التفاصيل المثيرة تابعوا القصة. سارعت سائر فصائل التنانين الإِعلامية إِلىٰ هز الأكتاف وإِكثار الكلام عن مدى بشاعة تغطية أمر كهذا، ولكنها ما لبثت أَن بادرت إِلىٰ تغطيته بنشاط وفعالية نادراً ما أبدت مثلهما في المناقشات الحادة الدائرة حول الموازنة أَو قضايا السياسة الخارجيَّة. مباشرة تقريباً ظهرت إِحدى الشخصيات القيادية في تلفزيون أي. بي. سي.، أعني سام دونالدسون، علىٰ الهواء وأعلنت عن «أن أَيام الرئاسة باتت معدودة» إِذا لم يكن كلنتون صادقاً فيما يقوله. وما لبث هذا الكلام أَن أثبت أَنَّه نبوئي مئة بالمئة؛ صحيح أَن رئاسته **كانت** معدودة بالأَيام، غير أَن العدد بلغ حوالي ألف ومئة يوم حين غادر كلنتون مكتب الرئاسة بعد ما يقرب من ثلاث سنوات.

تحلت زوج كلنتون بشجاعة الدفاع عنه علىٰ شاشات قنوات التلفزة القوميَّة ضد ما اعتبرته مؤامرة يمينية كبرى. في إِحدى أصعب لحظات رئاسته، بادر كلنتون أَيضاً إِلىٰ دفع النساء في إدارته إِلىٰ الكلام لصالحه، ومن المؤسف أنهن لم يتأخرن عن فعل ذلك بالضبط [لم يُكَذِّبن خبراً]، مستشهدات بنسخة

من القصة التي كانت، للأسف بالنسبة إليهن، غير صحيحة. وهذا كله كان أداء لا كلنتون السياسي البارع القادر بدهاء علىٰ تقدير النقاط السلبية والعواقب بالنسبة إلىٰ أي تحرك سياسي وعلىٰ التقاط الأفضل لصالح البلاد، بل كلنتون الرجل الطفل المحروم عاطفياً، الذي كان لا يزال، برأي بعض معارفه، أكثر قابلية للارتعاش والإثارة بفكرة الجنس المحرم والمحظور منه بالجنس نفسه. لم يسبق له قط أن كان مسؤولاً كلياً عن أفعاله، وظل علىٰ الدوام، عائداً إلىٰ أيامه في آركنسو، مؤمناً بقدرته علىٰ فعل أي شيء يريد فعله دون التعرّض لأية محاسبة. وقد فعل، إلىٰ حدود معينة. صحيح أن تصويتاً حزبياً كان سيوجه إليه اللوم في المجلس، ولكن مجلس الشيوخ أخفق في إدانته. ومع ذلك فإنه دفع ثمناً باهظاً من رصيد رئاسته، ذلك الرصيد الذي كان محتملاً.

كان هذا كله يعني أن منتصف فترة كلنتون الرئاسية الثانية بقي مكرساً للانحناء أمام زوبعة مزاعم المدعي أو المحقق الخاص كَنَثْ سْتارْ، وهو شخص استثنائي التعصب، وجماعة اليمين المتطرف من الجمهوريين في الكونگرس، ممن لم يكونوا، جميعاً، مخلصين في علاقاتهم الزوجية بالشكل الذي تدل عليه استقامتهم السياسيَّة المزعومة، بدلاً من تخصيصه لمبادرات جديدة، مبادرات تم تأجيلها خلال الفترة الأولى بسبب الافتقار إلىٰ العتلة السياسيَّة وضغط المشكلات الاقتصاديَّة الملحّة. (في إحدى المراحل حاول ستار، معتقداً أن الآنسة لوينسكي كانت قد «قبضت» ما اعتقدها رواية داعرة، إباحية، استدعاء سجلات شرائها للكتب للإدلاء بالشهادة. لم تكن تلك إحدى أجمل لحظات الديمقراطيَّة الأمريكيَّة). أُجبر كلنتون علىٰ تمثيل دور الدفاع، لا الهجوم، بل وبقي، حتى بعد انتهاء كل شيء وبعد أن تعرّض للوم ولكن بلا إدانة، رئيساً تنفيذياً مثْخَناً بالجراح، مجرداً من الرصيد السياسي الأول والأهم بالنسبة إلىٰ أي رئيس جمهوريَّة عازم علىٰ إحداث التغيير، أعني رصيد المرجعية الأخلاقية. كان حجم الضرر الذي لحق برئاسته أكبر من أن يُحتسب. راح الجمهوريون يقولون، كجزء من هجومهم علىٰ الديمقراطيين في 1998

و2000م، إن بيل كلنتون قد حط من قيمة منصب الرئاسة. ربما لم يكن ذلك صحيحاً؛ فالرئاسة تعلو وتهبط إلىٰ مستوى قُدرات وشخصية الرئيس الجالس علىٰ كرسي الرئاسة. ما كان الرجل قد فعله كان شيئاً مختلفاً تماماً. كان قد ألحق قدراً جدياً وخطيراً من الأذى برئاسته هو، مرتكباً خطيئة لا تُغتفر وحماقة غير مسبوقة.

بدءاً بكانون ثاني/يناير 1998م مع قصة **الواشنطن بوست** الأولى، ضاقت الأنشوطة باطراد حول عنق كلنتون. نُتَف متزايدة من الأدلة باتت تشير إلىٰ أن شيئاً ما كان قد حصل فعلاً بين كلنتون ولوينسكي، وقد تكون هناك، في عصر الحامض النووي [عصر الـ DNA]، بندقية ما تفوح منها رائحة البارود، وهي ثوب ملطخ بالسائل المنوي الرئاسي هذه المرة. وبالتالي فقد بات احتمال أن تكون إنكاراته السابقة أكاذيب مجردة وارداً، وعلىٰ الرغم من أن الناس ربما كانوا يعتبرونه سياسياً ماهراً، فإنهم لم يعودوا يرونه مثالاً للصدق. تمثَّل السؤال الحقيقي الوحيد الباقي بما إذا كانت لوينسكي قادرة علىٰ الصمود في وجه فريق المحقق الخاص. ومع تنامي الضغوط حول البيت الأبيض، عكف الشباب والفتيات الأذكياء الممثلون للرئيس أمام العالم الخارجي علىٰ حبك القصة بأفضل الطرق الممكنة. زعم هؤلاء أن مسألة لوينسكي، فضيحة مونيكا گيت كما باتت تعرف بصورة حتمية، **لم تكن تلهي الرئيس عن واجباته المحددة**. كان البيت الأبيض يسير علىٰ ما يرام وكان هو متمسكاً بوظيفته كرئيس للجمهوريَّة، وهي الوظيفة التي انتخبه الشعب الأمريكي لتوليها وأدائها. دأب هؤلاء علىٰ القول بأن الرئيس موجود هناك يومياً عاكفاً علىٰ العمل بنكران ذات لصالح الشعب كله، رغم أنوف أولئك الحاقدين الراغبين في صرفه عن مسؤولياته الجدية والخطيرة. ذلك هو الخط الذي كان بيت نكسون الأبيض قد دأب أيضاً علىٰ التمسّك به حين كانت فضيحة من نوعية مختلفة، فضيحة سياسيَّة لا جنسية، قد طفت علىٰ السطح، وكانت سيدة المستقبل الأولى الشابة هيلاري رودهام تعمل لدى إحدى لجان التحقيق البرلمانية.

لم يكن ثمة، بالتأكيد، أي كلام كثير حول الفضيحة داخل البيت الأَبيض، حيث بقيت (لوينسكي) الفيلَ الذي يزن أطناناً ويقف في الزاوية دون أَن يأتي أَحد علىٰ ذكره. أَو كما قال مايكل والدمان، أَحد كتّاب خطب كلنتون مرة، فإِن «البيت الأَبيض كان المكان الوحيد في البلاد الذي كنت تستطيع أَن تحضر فيه لقاءاً حول بيل كلنتون يدوم ساعتين دون ورود اسم مونيكا لوينسكي»[7]. غير أَن الحقيقة عما كان الرئيس يفعله كانت، رغم جميع أشكال الإِنكار علىٰ الملأ، مختلفة جداً. فما إِن شاعت القصة حتى بادر البيت الأَبيض إِلىٰ استنفار جميع الطاقات. تعين علىٰ الجميع تناسي جميع المخاطر السياسيَّة. لا بد من وضع الرصيد كله رهاناً علىٰ هذه المجابهة السياسيَّة الكبرى القائمة علىٰ حصول الفائز علىٰ كل شيء، مما أدى، وعلىٰ الفور، إِلىٰ تنامي هشاشة كلنتون ونقاط ضعفه في مجالات أُخرى. ثمة مثال كلاسيكي لذلك برز إِلىٰ الوجود في منتصف كانون أول/ ديسمبر 1998م حين أراد وزير الدفاع بيل كوهن أَن يقصف صدام حسين لأَنَّه كان يعرقل وصول المفتشين الدوليين إِلىٰ مواقع عسكريَّة معينة. قال كوهن، إِذا لم نقصف الآن فإِن تحدي صدام سيتضاعف، وسيبادر حكام دكتاتوريون آخرون إِلىٰ اكتساب قَدْر أكبر من الجرأة. ثم أضاف كوهن المعروف بقوة الحجة «إِذا لم تتصرف هنا، فإِن التدبير التالي سيكون أنك مشلول». شكل ذلك، كما لاحظ بوب وود وورد إِقحاماً لعمليَّة التشكيك (ولوينسكي) في آلية صنع القرار علىٰ صعيد الأَمن القومي[8]. كان من شأن كلام كهذا، صادراً عن سياسي جمهوري ذي نَفَس طويل وصاحب شخصية مستقلة معروفة، سياسي كانت مسؤوليته، جنباً إِلىٰ جنب مع البيت الأَبيض، تمثيل الجمهوريين علىٰ التلة أَو التأثير عليهم علىٰ الأقل، أَن يكون مدمراً. فتم قصف العراق[9].

---

(7) ريتشارد ريفز، **توك**، أيلول/ سبتمبر 2000م.

(8) وودوورد، **شبح**، 493.

(9) المصدر السابق، 490 ـ 493.

كانت رئاسة كلنتون في خطر داهم وشامل، ولم يكن أَحد يعرف هذه الحقيقة أفضل من الرئيس نفسه. لم يكن ثمة، آخر الأَمر، سوى شخصين عارفين يقيناً أَن القصة كانت صحيحة، لوينسكي المرعوبة إِزاء سيل ملابسات الأحداث التي أطلقتها من ناحية، والرئيس الذي كان، رغم إِنكاره ـ أمام زوجه وأمام البلاد ـ يعرف أَنَّه كان محاصراً وأن الساعة كانت تدق لغير صالحه، من ناحية ثانية. عصابة العسكر [عسكر الشريف في قصص العسكر والحرامية] كانت تقترب، وربما كان عارٌ ذو أبعاد أسطورية ينتظره. ما بات كلنتون، تدريجياً، في مواجهته لم يكن إِلاَّ خياراً هوبسونياً: إِما فضيحة شخصية قصيرة المدى من العيار الثقيل عبر الاعتراف بسوء سلوك فاضح مع موظفة متدربة شابة، مع الاستمرار في الوقت نفسه في التمسّك بالمنصب وتجنّب فضيحة حتى أكبر ـ الإِدانة ـ عبر القول بأن ما حصل لم يكن إِلاَّ سوء سلوك شخصياً، لا سياسياً، ولا يشكل، بالتالي، أَي أساس للإِدانة؛ أَو مواصلة تكذيب المطاردين. لم يكن أَي من الخيارين استثنائي الجاذبية. (في إِحدى المراحل بادر حتى إِلىٰ تكليف ديك موريس، متهم أَيضاً بفضيحة جنسية، بإِجراء استطلاع للرأي لمعرفة ما إِذا كان الشعب الأَمريكي قد أَصبح جاهزاً للترحيب بالاعتراف العلني. جاء رد موريس سلبياً). لقد صب الماء في طاحونة أعداء الرئيس، وما من أَحد كان يعرف الحقيقة أفضل من كلنتون.

كان غاضباً بل ووقحاً أحياناً، وعلىٰ الرغم من أَنَّه أقدم متأخراً، وبصورة عرضية، علىٰ قبول اللوم علىٰ ما كان قد فعله، فإِن ما قام به، في الحقيقة، لم يتجاوز، من حيث الجوهر، لوم الأقدار. ففي إِحدى المرات قال لأحد الأصدقاء «لعن الله الحظ! ليتك نـ. . .ـه! أحتضر من ألف جرح وجرح. إِنها أشبه بركلة قوية في البطن. ثمة كتلة ألم موجعة في بطني منذ شهور». وتابع يشكو قائلاً إِن أَحداً من الناس، من المواطنين العاديين، من الساسة والرؤساء لم يتعرض لمثل هذا الكابوس الخانق[10]. كان علىٰ صواب إِلىٰ حدود معينة.

(10) المصدر السابق، 495.

فالسلوك الشخصي لبعض رؤساء الجمهوريَّة السابقين كان شبيهاً ولكن أَحداً لم يجعلها قضية. غير أَن هذا كان عالماً مختلفاً، عالماً بات فيه السلوك الجنسي بضاعة رائجة في الأَسواق السياسيَّة والإِعلامية علىٰ حد سواء خلافاً لحاله في الماضي. يكفي أَن تسألوا گاري هارت. لقد أغرى الأفدار التي ما لبثت أَن عضته.

وفيما كانت فضيحة لوينسكي متفاعلة، دأب الطرفان علىٰ تصعيد العنف في كوسوڤا. ففي أيار/ مايو 1998م، حين كان ميلوسوڤيتش ينتقم من جيش تحرير كوسوڤا، أراد بعضهم في الإِدارة استخدام الطيران ضده. وفي اجتماع عُقد في البيت الأَبيض، قام بوب گلبهارد، الذي كان قد حل محل هولبروك مفاوضاً خاصاً، باقتراح التهديد باستخدام طيران الناتو لضرب قائمة من الأَهداف كان الجنرال وس كلارك قد أعدها، وكانوا يعتقدون بأن من شأنها أَن تشكّل ضغطاً علىٰ ميلوسوڤيتش فتدفعه إِلىٰ التراجع في كوسوڤا. كانت مادلين أولبرايت قد وافقت علىٰ السير قدماً وعلىٰ استخدام الطيران. فمثلها مثل كلارك، كانت شديدة القرب من معسكر الصقور. غير أَن ساندي بيرگر، الذي كان يُعتبر المؤشر الدال علىٰ مزاج كلنتون وحاجاته السياسيَّة، والذي تم الاجتماع في مكتبه، ما لبث أَن سارع وبغضب إِلىٰ رفض الفكرة طارحاً السؤال لكولن پاولي (نسبة إِلىٰ كولن پاول بالطبع) القديم المعروف: وماذا إذا لم ينجح الطيران؟ وبعد قيام بيرگر بإِسكات گلبهارد، لم يبادر أَحد - لا أولبرايت ولا ستروب تالبوت - إِلىٰ دعم الأخير. من الواضح أَن بيرگر كان قد نطق بلسان كلنتون. وبالتالي فإِن البيت الأَبيض لم يكن، بعد، جاهزاً للتعامل مع كوسوڤا[11]. ثمة أشياء كثيرة جداً كانت تجري في البلاد ولا تترك مجالاً للتفكير بكوسوڤا.

علىٰ الرغم من أَن أولبرايت كانت أولى الصقور في الإِدارة، فإِنها

(11) دالدر وأوهانلون، 30، 283.

تراجعت في اللحظة الراهنة. غير أنّها مع ذلك كانت قد بدأت تتحوّل، في أجواء الفراغ السائدة في واشنطن، إلىٰ لاعبة مركزية علىٰ المسرح البلقاني للمرة الأولى. كانت واثقة ثقة مطلقة بمعتقداتها حول ما ينبغي عمله في كوسوڤا. كانت مقتنعة بأن الوغد هو سلوبودان ميلوسوڤيتش، وما لم يتم التعامل معه يتعذّر حصول أي خير. وكذلك كانت أولبرايت وهي المستفيدة من الآلية التي تفعل فعلها في كل من بلگراد وكوسوڤا، حيث كان كل من جيش تحرير كوسوڤا وميلوسوڤيتش دائبين علىٰ تمزيق كل منهما الآخر حسب ما هو متوقع، مما أدّى، بالضرورة، إلىٰ جعلها نبية لأَن عنف جيش تحرير كوسوڤا لقي الترحيب في أجزاء كثيرة من العالم مع قَدْر من التعاطف في حين أفضى الرد الصربي الأشد عنفاً ووحشية إلىٰ إثارة غضب الرأي العام العالمي. وبوصفها وزيرة الخارجيَّة الجديدة، كانت أولبرايت ستدعو إلىٰ خط متشدد ضد الصرب زاعمة أَن أي شيء أقل من ذلك من شأنه ألا يتمخّض إلاّ عن تشجيع ميلوسوڤيتش. كانت المفاوضات معه، برأيها، عديمة الجدوى، ولم يكن يفهم إلاّ لغة القوَّة. بدت أولبرايت مقتنعة قناعة مطلقة بأن كوسوڤا لم تكن إلاّ تكراراً للبوسنة وبأن الولايات المتحدة ستضطر، عاجلاً أو آجلاً، للتدخّل عسكرياً ضد بلگراد.

لا أَحد آخر في الإدارة كان علىٰ تلك الدرجة من اليقين حول الأحداث في البلقان وحول ما ينبغي للسياسة هناك أَن تتخذه من أشكال؛ لا أَحد آخر كان علىٰ تلك الدرجة من الاستعداد أَو التوق لاعتماد ذلك الخط المصيري. ربما كان توني ليك، الذي لم يتناغم كلياً قط مع الرئيس، مرشحاً لأَن يكون خليقاً، غير أنّه لم يعد في الإدارة، أَصبح خارجها. وربما كان هولبروك مستعداً للوقوف في صفها، ولكنه كان أَيضاً خارج دائرة الإدارة، فضلاً عن أَن علاقاته وعلاقات أولبرايت الشخصية معطوبة علىٰ الدوام. كانا متنافسين لدودين علىٰ المنصب الذي ما لبث أَن قُدّم إليها، وبالتالي فإن هولبروك، حين كان يأتي ليضطلع بمهمات خاصة ـ رغماً عنها في الغالب ـ لم تكن طاقتهما المشتركة

لتصل إلىٰ المستوى المتوقع. أضف إلىٰ ذلك أَن هولبروك لم يكن حالياً مضاهياً لأولبرايت علىٰ صعيد الاتصاف بصفة الصقور؛ علىٰ الرغم من أنّه لم يكن حليفاً لميلوسوڤيتش، فقد سبق له أَن عمل معه لإِنجاز تسوية دايتون وكان يؤمن باحتمال وجود حل دون الوصول إِلىٰ مستوى التدخّل العسكري. وكذلك فإِن ساندي بيرگر لم يكن بَعْدُ مستعداً للتحرّك، فضلاً عن أَن وجهة نظره كانت صورة طبق الأصل، مئة بالمئة، عن وجهة نظر الرئيس السياسيَّة علىٰ صعيد أية قضية ذات علاقة بالسياسة الخارجيَّة. ومع تأكيد بالغ الدقة كان بيرگر يعكس رغبة الرئيس في إِرجاء أَي عمل، إِذا كان ذلك ممكناً بأية طريقة من الطُّرق.

أدّى هذا كله إِلىٰ تعزيز دور أولبرايت كلاعبة. في إِدارة كلنتون الأولى بقيت غارقة في المواقع الهامشية لمركز صناعة القرار، شاغلة منصباً كان، بصرف النظر عن الوعود السخية الصادرة عن الرئيس أمام شاغله المقبل، في العادة شكلاً من أشكال الوجاهة والاستعراض. كانت القدرة علىٰ استغلال الأسماء الكبيرة المرموقة للسفراء السابقين في الأمم المتحدة (أدلاي ستيڤنسون، هنري كابوت لوج، پات موينيهان، جورج بوش) نقطة إِيجابية مؤكدة. فالمنصب كان يُعطى غالباً لشخصية مشهورة من شخصيات حزب الرئيس، شخصية تكون الإِدارة راغبة في عرضها ولكنها غير مستعدة، في الحقيقة، لسماع صوتها. مكافأة علىٰ تولي منصب كهذا، كان يتم عادة تدعيم السفراء بموظفين وموظفات صغار السن، نصف أعمارهم، في مكاتب مجلس الأَمنٰ القومي. لم تكن فترة خدمة أولبرايت في مانهاتن سهلة. فتمثيل الولايات المتحدة في مركز العالم السياسي غير الأبيض في وقت كان يشهد تراجع الاهتمام الرئاسي بالشؤون الخارجيَّة، مع جيسي هلمز رئيساً للجنة العلاقات الخارجيَّة في مجلس الشيوخ، لم يكن عملاً جذاباً علىٰ الإِطلاق. أَمّا في الأمم المتحدة كان في الغالب مَدِيناً. فضلاً عن أَن بعضاً منه كان عائداً إِلىٰ حقيقة كونها امرأة، والسلطة في القمة، رغم العناوين والألقاب، كانت لا تزال عائدة إِلىٰ الرجال. وقد كان

صحيحاً أيضاً أن عدداً غير قليل من الرجال شاغلي مراكز القوَّة في واشنطن، علىٰ الضفتين التنفيذية والتشريعية كلتيهما، لم يكونوا ميالين إلىٰ قواعدها المتمثِّلة بدول أفريقيا وآسيا الأفقر والأكثر ضجيجاً بنظرهم. ظل خطابها مع تعليقاتها حول بناء الدولة في الصومال معلقاً مثل عباءة بعد الكارثة في واشنطن. غير أنها بدت مغرمة بالعمل في الأمم المتحدة، مفتخرة بالشهرة المصاحبة وانبهار الجمهور بها. وكامرأة في مكان علىٰ هذه الدرجة من العلنية، أصبحت نجماً وقادرة علىٰ التواصل مع نجوم أُخرى. من الواضح أنّها أحبت ذلك النوع من الاهتمام ونزعت إلىٰ تعظيم نجوميتها عبر مهارات روبن، مدير مكتبها الصحفي. إلاَّ أن ذلك، هو الآخر تمخض عن نتائج معكوسة لدى نظرائها الواشنطنيين، إذْ بدت مسرفة في تعطّشها للنجومية الأمر الذي جاء متعارضاً مع القواعد التقليدية لنادي الحرس القديم. راح هؤلاء يقولون إنها استعراضية إلىٰ حدود معينة، رغم أن القائلين أنفسهم اشتُهروا بالنزعة الاستعراضية.

بين جميع كبار المسؤولين، كانت أولبرايت، ومعها هولبروك وليك، الأقل شكوكاً حول استخدام القوَّة في البوسنة. ظلت كثيفة الانتقادات لكولن پاول والجيش علىٰ تحليهما بالحذر. من المؤكد أن پاول كانت لديه تحفظات علىٰ أكثر أعضاء فريق كلنتون، ولكنها شكَّلَت استثناء من حيث إثارة السخط، وما أكثر ما عاد من اجتماعات حَضَرتْها وهو يهز رأسه، غاضباً منها بشكل واضح. كثيراً ما كان يقول لأصدقائه: «عادت مادلين إلىٰ الموضوع ثانية». بدا الأمر كله بالنسبة إليها بالغ السهولة. يكفي أن تقذف بجندي أو اثنين بالمظلات فيتم حفظ السلام، ثم تُسْقِط جندياً أو اثنين هناك فتجعل العالم أفضل، وتصبح مالكاً لخطة محددة عاجلاً أو آجلاً. غير أنك عندئذ ستكون قد نشرت جنوداً أمريكيين في مختلف أرجاء الأرض في حالة من الهشاشة البالغة ودون التمتع بما يكفي من التأييد السياسي علىٰ المستوى الداخلي.

أما السهولة التي كانت تسم مطالبة أولبرايت بإرسال القوَّات فلم تكن، بنظر بعض المراقبين، إلاَّ لأنَّها كانت الأقل تأثُّراً بڤيتنام بين جميع أفراد الشريحة العليا من أقرانها. بدا الأَمر وكأنها قفزت جيلاً إِلىٰ الأمام علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة. كانت حرفياً ومجازياً ابنة ميونيخ، ابنة المحرقة، وسليلة الستار الحديدي لحقبة ما بعد الحرب العالميَّة الثانية، لا بنت التجربة الڤيتنامية، وتعرُّض الجيش الأَمريكي للخوزقة والإذلال في حرب غير شعبية وغير قابلة للكسب علىٰ مسافة اثني عشر ألفاً من الأميال، مع جملة الشكوك التي كانت قد غرستها في نفوس الكثير من أبناء وبنات جيلها حول قيام أَمريكا باستخدام قوتها. لقد بقيت مشاعر الغضب الخاصة بالحقبة الڤيتنامية، رغم أنَّها كانت موشكة علىٰ دخول الحياة العملية، متخرّجة في الجامعة سنة 1959م، قبل عدد قليل من السنوات من شروع ڤيتنام بالبروز بوصفها الهاجس الطاغي بالنسبة إِلىٰ سائر المهتمين بالسياسة من أبناء جيلها وبناته، بعيدة عنها علىٰ الدوام. لقد كانت بدلاً من ذلك نتاجاً حقيقياً لتاريخها الشخصي. وصلت إِلىٰ أَمريكا وهي في الحادية عشرة من عمرها حين هربت أسرتها من تشيكوسلوڤاكيا قبيل قيام السوڤييت بتنظيم انقلاب سنة 1948م. ومثلها مثل الكثير من المهاجرين القادمين من أوروپا الشرقيَّة، كانت عائلتها شديدة العداء للشيوعية، كما كانت مع أبويها راضية بصورة غير عادية عن مكانهم في أَمريكا. وكشابة في مقتبل العمر، لم تكن أولبرايت مغرمة بانتقاد أَمريكا أَو سياستها الخارجيَّة حتى خلال إِحدى أحلك فتراتها المثقلة بالعذاب؛ بقيت حريصة علىٰ عدم الإِساءة إِلىٰ اليد القوية، السخية التي كانت قد رحبت بها وبعائلتها. فهذه البلاد ظلت، بالنسبة إِليها، حتى في أحلك لحظاتها أَمريكا المضيافة والعادلة.

كان أبوها جوزيف كوربل، الذي سبق له أَن كان موظفاً كبيراً في وزارة الخارجيَّة التشيكية خلال سنوات ما بعد الحرب العالميَّة الثانية، قد حدَّد شكل تفكيرها. فالحدث الأكبر المشكِّل لموشورِه السياسي فيما بعد الحرب كان

الإِخضاع الفظ لبلدان أوروبية شرقيَّة ذات سيادة سابقاً من قبل حكومات شيوعية محلية خاضعة هي نفسها لسيطرة موسكو. علىٰ شكل احتلال خفي مدعوم بمزيج من الجيش الأحمر والبوليس السري. نجا كوربل من النازيين أولاً ومن الشيوعيين ثانياً، وجاء إِلىٰ أَمريكا في التاسعة والثلاثين من العمر حيث فرضت الأقدار سقفاً علىٰ حياته المهنية والمسلكية. فما كان يمكن أَن يحصل لو أَنَّه ولد هنا وما حصل بالفعل بالنسبة إِلىٰ لاجئ متوسط العمر واصل حديثاً يعمل بلغة غريبة كان شيئين مختلفين كثيراً، وكثيراً جداً. كان الأب الذي أدَّت الاضطرابات التي شهدها إِلىٰ تقييد أحلامه سيعلِّق هذه الآمال علىٰ أكبر أولاده وأَكثرهم موهبة، علىٰ مادلين، من حيث تحقيق طموحاته.

بادرت أجهزة حكومية متعاطفة إِلىٰ إِيجاد وظيفة له في مجالس تدريس مادة السياسة الخارجيَّة بجامعة دنڤر، وعلىٰ الرغم من أنّه ربما كان ليبرالياً ولو متواضعاً في القضايا الداخليَّة، فإِنه ظل، في السياسة الخارجيَّة، معادياً بالغ التشدد للشيوعية، صقراً في أثناء الحرب الڤيتنامية، شديد الاستياء من الاحتجاجات الطلابية في تلك الفترة. كان قد هجر وطنه بسبب النازيين، واقفاً علىٰ حقيقة أَن جميع أفراد أسرته وأسرة زوجه كانوا قد قضوا في معسكرات الاعتقال. كان قد عاد إِلىٰ وطنه بعد الحرب مباشرة، خلال تلك الفترة القصيرة التي ظلت فيها تشيكوسلوڤاكيا تتأرجح بين الغرب والشرق. غير أَن هشاشة حياته حتى في تلك الأثناء كانت قد جعلته حصيفاً واسع الحيلة، وأدرك أَن مستقبل تشيكوسلوڤاكيا كان كامناً لا في نزعتها المثالية وأحلامها الديمقراطيَّة، بل في جغرافيتها. وفيما كان سفيراً لبلده في بلگراد سنة 1948م، مدرِكاً أَن قبضة موسكو الفولاذية باتت موشكة علىٰ الإِمساك ببراگ، زار السفير البريطاني وحصل علىٰ تأشيرات الدخول البريطانية له ولأفراد أسرته قبيل وقوع الانقلاب السوڤيتي.

يمكن القول إِن كوربل كان متمتعاً بحس توقُّعي اكتسبه عبر التجارب

الصعبة إِزاء تقلبات ومنزلقات التاريخ الأوروبي الحديث والثمن الباهظ جداً الذي دفعه في القرن العشرين من قبل أولئك الذين كانوا يهوداً. وعلىٰ الرغم من أَنَّه وزوجه كانا يهوديين، فإِنّهما ما لبثا أَن أقدما في أيار/ مايو 1941م علىٰ الالتحاق بالكنيسة الكاثوليكية، مع إِبقاء جذورهما العرقية سراً علىٰ أولادهما. فالاضطهاد الذي كان قد شهده في حياته كان مثقلاً بما يكفي من السوء، وقد أدرك جيداً وبعمق أَن الأمور كانت موشكة علىٰ أَن تسوء حتى أَكثر مما هي عليه. لقد نأى بنفسه، وفي أَمريكا بالتأكيد، عن أية أعباء جديدة، بعد أَن حَطَّ رحاله مهاجراً إِلىٰ أمة غريبة قد تكون لها أحكامها المسبقة الأَكثر خفاءاً. صحيح أَن العالم الجديد ربما كان أَكثر تنوراً من نظيره القديم، غير أَن حمل الهوية الكاثوليكية كان أسهل. أَو كما قالت زوجه ماندولا شبيگل كوربل لأحد الأصدقاء مرة «أن تكون يهودياً يعني أَن تبقى مهدداً باستمرار بهذا الخطر أَو ذاك. ذلك هو تاريخنا»[12]. كذلك قام كوربل بشَطْب النقطتين فوق حرف الـ o في اسم Körbel، جاعلاً الاسم، بالنسبة إِلىٰ العارفين ببواطن الأمور، وما أَكثرهم في أوروبا، وإِن هم أقل في أَمريكا، أَكثر جرمانية. كانت تلك خطوة أخرى إِضافية علىٰ طريق الخروج من جلده السامي.

ما فعله ـ وهو مؤرخ وأستاذ علوم سياسيَّة ـ لأولاده مثال بالغ الإِثارة للذهنية وحالة الرُّهاب اللتين تميزان نوعاً معيناً من الناجين. أراد كوربل أَن يباشر بداية جديدة في العالم الجديد، ليس له، لأَنَّه كان يعرف حدود مهنته ومسلكه الخاص، بل لهم؛ أراد أَن يحرّر أولاده قدر الإِمكان من عبء الماضي. غير أَنَّه أقدم، إِذ فعل هذا، علىٰ إِنكار تاريخه الشخصي وإِخفائه عن أولاده، حارماً إِياهم من جزء حاسم من تواريخهم الشخصية. حرص علىٰ كتمان القصة الحقيقية لجرائم الاغتيال القاسية التي ذهب ضحيتها أجدادهم، جداتهم، خالاتهم، عمّاتهم، أعمامهم، ، أخوالهم، وأبناء وبنات عمومتهم،

(12) دوبز، 86.

فأعد ابنته لموقف الحرج المرعب الذي كان سيفاجئها وهي في أوج حياتها المهنية. فقط بعد أن أصبحت وزيرة للخارجيَّة وبعد أن بادر مراسل **للواشنطن بوست** يدعى مايكل دوبز إلىٰ تعقب نقاط العلام البارزة علىٰ طريق رحلتها غير العادية، اكتشفتْ مادلين أولبرايت خلفيتها اليهودية. بدت، كما قال أحد معارفها، كآخر مَنْ يعلم، علىٰ الرغم من أن عدداً من الحكومات (التشيكية والإسرائيلية مثلاً) كانت تعرف جذورها العرقية الحقيقية في أثناء عملها في الأمم المتحدة. من الواضح أنها باتت كإنسانة ناضجة تدرك بدقة مقدار ما ينبغي أن تعرفه ومقدار ما يجب ألا تعرفه، نظراً لعدد أقربائها الذين قضوا في معسكرات الاعتقال، نظراً لاسم أمّها الأول، ونظراً لما أصبح، بعد أن برزت، نوعاً من العزوف عن الارتباط بذلك العدد القليل من الباقين علىٰ قيد الحياة هناك في براگ وعن معرفة المزيد عن جذورها. إذا كانت رحلة عذاب أسرتها قد ألزمت أبويها بتغيير هويتهما، فإن ابنتهما اكتسبت حاسة سادسة علّمتها أن تبقى شديدة الحرص، ما أمكن، علىٰ عدم فتح باب قبو العائلة.

كان جوزيف كوربل ناجحاً في إتقان فن النجاة؛ وكانت مادلين ابنة هذا الناجي الناجح التي نشأت في أسرة كان الحَذر [التقيّة] فيها مهماً. ولدى ترشيحها لوزارة الخارجيَّة، رغم بلوغها سن الراشد في أزمات زاخرة بالاضطراب، لم تكن هناك أية بيانات صادرة عنها، سوى بضع كلمات مشؤومة عن بناء الدولة والأمة في الصومال، قادرة علىٰ إحداث مشكلات سياسيَّة لها؛ نادراً ما كانت قد خرجت عن الخط التقليدي في القضايا الأكبر. لم يكن ذلك، برأي الأصدقاء، تصرفاً واعياً بقدر ما كان سلوكاً غريزياً، أمراً سبق لها أن تشربته في البيت. سبق لها أن تعلمت في مدرسة خاصة نهارية بدنفر، ثم في كلية ولسلي، وبعد التخرج تزوجت جوزيف أولبرايت، أو جوزيف مديل باترسون أولبرايت، بصورة أدق، خريج كلية وليامز. كان جاداً، سليل أسرتي مديل وباترسون العملاقتين اللتين هيمنتا علىٰ صحافة شيكاگو أجيالاً، وابن

أخت [أَو أخ] أليسيا پاترسون، تلك المرأة الإِباحية المولعة بتحطيم الأصنام، التي كانت قد أسَّست **نيوزدي**، تلك الصحيفة اليومية الناجحة جداً في ضاحية لونگ آيلاند. ومن أجل إِتمام مراسم الزواج تحولت مادلين إِلىٰ الپروتستانتية. وبعد عامين أنجبت في حزيران/ يونيو 1961م توأمتين.

لبعض الوقت ظل جو يعمل في **النيوزدي** واعتُبر وليَّ العهد الذي قد يصبح يوماً رئيساً لتحرير الصحيفة أَو صاحبها. وبالتالي فإِن عملها ظل علىٰ الدوام، بسبب طبيعة الحقبة وارتباطاته، ملحقاً بعمله. حتى كزوجين شابين بدا مستقبلهما مرسوماً سلفاً. سيكون هو الناشر الجدير واسع الأفق الدائب علىٰ إِصدار جريدة جادة؛ أَمَّا هي فستكون زوجَه وشريكتَه، ربما أَكثر اهتماماً بشؤون السياسة الخارجيَّة والداخليَّة من الأزواج المخلصات الأخريات، ولكن زوجاً وأماً علىٰ أية حال. لم يكن أولبرايت راغباً، في الحقيقة، في أَن يكون صحفياً وسبق له أَن فكر بأن يصبح عالماً. تمثل الدافع الأَول لسيره في هذا الاتجاه بالضغط الذي مارسته خالته (أَو عمته) عليه. وكإِعلامي كان جو ذكياً، ملتزماً، مجتهداً، وصامداً، غير أَنَّه لم يكن صاحب حدس بطريقة تجعل المهنة أيسر بالنسبة إِلىٰ بعض المراسلين. ربما كان اسمه عبئاً بدلاً من أَن يشكِّل ذخراً. ثمة أشياء كثيرة كانت منتظرة منه في مهنة لم يصبح قط ابناً طبيعياً وشرعياً لها. في مراحل لاحقة من حياته المهنية حقَّق قدراً كبيراً من النجاح بوصفه مراسلاً متفرغاً منخرطاً في قضايا جدية مهملة أَكثر الأحيان من جانب الصحفيين السطحيين المولعين بالقصص الأشد إِثارة.

منذ بدايات الطريق تقريباً ثمة قوى خارجيَّة أَثَّرت علىٰ خطة أولبرايت الأصلية علىٰ صعيد المهنة. فأليسيا پاترسون التي كانت قد عَزَمت علىٰ ترك **النيوزدي** لجو، ماتت فجأة وبصورة غير متوقعة. بنزيف القرحة في تموز/ يوليو 1963م. كانت تملك 49 بالمئة من الجريدة، في حين كان زوجها الأَكثر محافظة بما لا يقاس، هارت گاگنهايم، يملك 51 بالمئة. لم يكن الأخير شديد

الانبهار بابن شقيقها [أَو شقيقتها]، بموهبته، وخصوصاً بخطه السياسي. لم يرد لجو أَن يكون قريباً من أَي موقع متنفذ، بل وقد بادر، لبعض الوقت، إِلىٰ جلب بيل موريز، مدير المكتب الصحفي السابق لليندون جونسون، ليتولى إِدارة التحرير، متوهماً، خطأً، أَنَّه محافظ مثله. غير أَنَّه ما لبث أَن خاب أمله فباع الجريدة لمؤسسة تشاندلرز اللوس آنجليسية، معتقداً مرة أُخرى، علىٰ ما يبدو، بأنّها كانت ما تزال في هذا الجيل محافظة كما كانت في السابق. أدّت عملية البيع إِلىٰ جعل جو أولبرايت شاباً ثرياً، ولكن دون أَن يبقى المدير التنفيذي الأَول لصحيفة متنفذة.

علىٰ الرغم من تعرّض سقف طموحاتهما كزوجين لشيء غير قليل من التخفيض، فإِن مادلين أولبرايت ظلت تحاول اتباع خط السيناريو الأصلي كزوج جادّة، داعمة، وتقليدية. فمساهمتها في كتاب ذكريات خريجي الصف الخامس في ولسلي سنة 1964م أظهرت مدى نمطية حياتها الراهنة وربما المقبلة: «في السنوات الخمس الماضية انتقلت من فورت ليونارد وود الميسورية، إِلىٰ شيكاگو، إِلىٰ گاردن سيتي، إِلىٰ لونگ آيلاند، فواشنطن العاصمة، ثم إِلىٰ لونگ آيلاند ثانية. لعل الإِنجاز غير الاعتيادي الوحيد هو إِنجاب التوأمتين. . .»[13] وبعد ميلادهما بست سنوات جاءت الطفلة الثالثة. ثلاث بنات. ما ميَّز الزوجين أولبرايت عن الكثير والكثير من الأزواج الشباب الذين عرفاهم في الستينيّات، الدائبين جميعاً علىٰ الاهتداء إِلىٰ مكانهم في سنوات كندي أولاً، وجونسون بعده، وڤيتنام المأساوية أخيراً، كان متمثلاً بعدم معاناتهما من أية مشكلات مالية. تعين عليهما، في الحقيقة، أَن يصرفا أقل من قدراتهما خشية الظهور بمظهر المختلف أَو المتباهي. لم تكن ثمة أية حركات نسوية في تلك الأَيام، واحتمال أَن تصبح مادلين أولبرايت في يوم من الأَيام

(13) بلاكمان، 141.

صاحبة حياة عملية زاخرة وغنية ـ مع احتمال أَن يكون عملها أَكثر أَهميَّة من عمل زوجها ـ لم يكن وارداً علىٰ الإِطلاق.

غير أنها كانت ابنة أبيها. كانت تلميذة نجيبة، دائمة الاجتهاد؛ حتى وهي غارقة في أداء وظائفها كربّة منزل، بدأت تدرس للحصول علىٰ شهادة عليا في العلوم السياسيَّة. تابعت سلسلة من الدورات في مدرسة جون هوپكنز للدراسات الدولية المتقدمة أولاً، وفي جامعة كولومبيا بعد ذلك، حيث حصلت علىٰ شهادتي الماجستير والدكتوراه. وهناك تعرفت علىٰ زبگنيو بريجنسكي، الذي كان نجماً صاعداً في عالم السياسة الخارجيَّة. كانت خلفيتاهما، وهما المنفيان من أوروپا الشرقيَّة وولدا اثنين من الدبلوماسيين، متماثلتين إِلىٰ حد كبير (فبريجنسكي مولود في وارصو، متزوج من إِحدى قريبات الديمقراطي التشيكي العظيم إِدوار بينيس). وقد كان بريجنسكي هذا، مثل كثيرين من الپولونيين، مصاباً بعلة الرُهاب أو الخوف المرضي من السوڤييت. أَواخر الستينيّات كانت مادلين أولبرايت مشغولة بتدبير المنزل، بكتابة رسالة الدكتوراه، غير أنها بقيت بعيدة، أساساً، عن ذلك النشاط الشبابي الهائل المعادي للحرب، مما جعلها ابنة بارة لبيئتها وجذورها. فأبوها كان متشدداً، وأهم أعضاء الهيئة التدريسية في كولومبيا كان أَيضاً متشدداً، وما من شيء كان يمكنه أَن يكون نوعاً من التغريد خارج السرب مثل رسالتها للدكتوراه حول الاضطهاد والقمع السوڤيتيين المعاصرين في أوروپا الوسطى في هذه اللحظة بالذات.

مع الزمن، وبعد غروب شمس **النيوزدي**، أَصبح جو أولبرايت مراسلاً لسلسلة جرائد **الكوكس** بواشنطن. لم يكن هو وزوجه مختلفين كثيراً عن الكثير من الأزواج الشباب الطموحين والمثاليين الحالمين أواخر الستينيّات والسبعينيّات؛ كانا لطيفين ومجتهدين، جادين ولكن غير ساحرين، مع التمتع بوضوح بقَدْر أكبر من الامتيازات مقارنة بالأَكثرية. كان عمل جو أولبرايت يحتل المرتبة الأولى في سلم الأولويات؛ مغامرة مادلين أولبرايت الأولى في

السياسة تمثَّلت بعضوية مجلس إِدارة المدرسة الابتدائية التي كانت ترتادها بناتهما. وقد كان ذلك أَكثر الأدوار طبيعية بالنسبة إِلىٰ امرأة شابة جدية، طموح بهدوء، كانت مواطنة صالحة وأرادت أَن تكون جزءاً من مجتمعها؛ أتاح لها الدور فرصة الانخراط بما هو أكبر من شخصها مع البقاء في مكانها المحدد داخل التسلسل التراتبي الراسخ. وفي ذلك المجلس بدأت تقيم علاقات مع عدد من الساسة في واشنطن. كانت مجتهدة وذكية وإِن لم تكن عبقرية؛ كانت، كما لاحظ بريجنسكي بعد سنوات، «طالبة دراسات عليا لطيفة جداً، ودود، يسهل التعامل معها»، غير أنها، أضاف بريجنسكي، كانت بعيدة عن أَن تكون استثنائية[14].

مثل كثيرات ممن اقتحمن عالم السياسة مترددات وبصورة مؤقتة، فإِن مادلين أولبرايت بدأت بحَمْل الأعباء الثقيلة، بالاضطلاع بما يعرف بشغل الحمير، بالنسبة إِلىٰ حدث أَو عمل سياسي يتطلب قَدْراً كبيراً من الجهد، يوفِّر قَدْراً ضئيلاً من المجد، ويظل الرجال يراوغون للتملّص منه. من المفارقات الساخرة، ساهم ذلك الدور المحدود بعض الشيء في إِبقائها بعيداً عن حالة الغرق في بحر الحروب الإِيديولوجية المريرة المستعرة في تلك الفترة الملتهبة، حين كان جزء كبير من الجدل متركزاً ليس فقط علىٰ ڤيتنام، بل علىٰ ما كانت تقوله بحق السياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة عموماً. بعد سنوات وجدت نفسها مع أعداء أقل وتصريحات محرجة أقل لأنها بقيت خلال نشاطاتها السياسيَّة المبكرة بلا صوت دون الاضطلاع بأي دور ذي شأن.

من خلال بعض الأصدقاء تعرَّفَتْ علىٰ عضو مجلس الشيوخ المَيْني (نسبة إِلىٰ ولاية مين) إِد موسكي، الذي كان زعيم الوسط الديمقراطي في تلك الفترة، رغم حمائميته فيما يخص ڤيتنام، أثبَتَتْ أنها جامعة تبرعات ناجحة

(14) دوبز، 197.

لصالح حملته، وحين واجه في 1976م حَمْلة إِعادة انتخاب صعبة، أَصبحت جامعة التبرعات الرئيسية في حملته. لم تكن نجماً في الحقيقة، غير أنّها كانت قد بدأت تتسلّق السلم صعوداً في عالم السياسة الديمقراطيَّة. كان لهما، بيتاً جميلاً في جورجتاون وما يكفي من المال لتحويله إِلىٰ مركز لشباب وشابات آخرين متألقين مهتمين بالسياسة والتخطيط علىٰ الصعيدين الداخلي والخارجي. شكّلت الثروة الأولبرايتية ذُخراً لا يُستهان به في تمكين دارة جمع التبرعات من العمل والدوران؛ إِذا أراد المرء أَن يأخذ فلا بد له من أَن يعطي أَيضاً. ببطء ولكن بثبات سارت مادلين أولبرايت علىٰ طريق إِقامة الروابط والعلاقات من جهة واكتساب المصداقية من جهة ثانية. ففي 1976م بعد التخرّج في ولسلي بسبعة عشر سنة ـ وما من شيء جاء هكذا بسهولة بالنسبة إِلىٰ امرأة مع ثلاث بنات صغيرات ـ حصلت مادلين أولبرايت علىٰ شهادة الدكتوراه من جامعة كولومبيا.

خلال الفترة الوجيزة التي عاد فيها الديمقراطيون إِلىٰ السلطة في ظل كارتر بين سنتي 1977 و1980م، التحق عدد من جماعة موسكي الأكبر سناً بالإِدارة، محدثين مجموعة من الشواغر في مكتبه وممهدين الطريق أمام أولبرايت للوصول إِلىٰ منصب راسخ نسبياً في جهاز موسكي بوصفها مساعدة تشريعية رئيسية. دل ذلك علىٰ أنها متمتعة بقيمة لا بأس بها، غير أَن احتمال أَن تصبح في غضون اثنتي عشرة أَو ثلاث عشرة سنة مرشحة لاحتلال أَحد المناصب العليا في أية إِدارة ديمقراطيَّة لم يكن متصوَّراً بعد. فأوائل المرشحين من جيلها كانوا في أماكنهم: كان توني ليك في دائرة التخطيط السياسي وكان ديك هولبروك مساعداً لوزير الخارجيَّة، وهما شابان كانا الآن يتقدمان لاحتلال مواقع من شأنها بالتأكيد ضمان الحصول علىٰ بطاقات دسمة لدى عودة الديمقراطيين إِلىٰ الحكم. كان نجماهما متقدين، في حين لم يكن نجم أولبرايت كذلك، وسرعان ما تركت موسكي لتعمل مع بريجنسكي كضابطة

ارتباط بين مكتب مجلس الأَمن القومي والكونگرس. وبوصفها مجتهدة ومتمكّنة فقد اعتبرها بعض أقرانها التلميذة النجيبة القادرة علىٰ إِنجاز المهمات. كانت أَيضاً، دون لَفْت نظر أَحد، تتقدَّم بهدوء لتتجاوز المنحنى لتنضم إِلىٰ قافلة **النساء** في عالم السياسة الخارجيَّة، إِن لم يكن إِلىٰ فئة الشباب اللامعين الصاعدين من مختصي السياسة الخارجيَّة في الحزب الديمقراطي.

أوائل الثمانينيّات تعرّضت حياتها الشخصية للانهيار. فبعد ثلاثة وعشرين سنة من الحياة الزوجية كان جو أولبرايت قد التقى بامرأة أَكثر شباباً كانت تعمل صحفية فبادر إِلىٰ طلب الطلاق من زوجه. في ذلك الوقت كانت مادلين أولبرايت في الخامسة والأربعين من العمر، وقامت مع زوجها بتنشئة ثلاث بنات، وعاشا معاً كزوجين منذ لحظة تخرجها في الكلية تقريباً. لسنوات ظلّت زوجاً مخلصة ووفية وأماً نموذجية حيث لم يكن العمل يأتي إِلاَّ بعد مسؤولياتها الأُخرى من حيث الأولوية. لقد نشأت نشأة كاثوليكية، ولم تكن تؤمن بالطلاق ـ ما من أَحد من عائلتها سبق له أَن أَقْدَم عليه. لم يقف الأَمر عند كون عالمها محدداً بوضوح، بل تجاوزه إِلىٰ أَن يكون **دورها** في ذلك العالم محدداً بدقة إِلىٰ أصغر التفاصيل. أَمَّا الآن فقد تعرّض العالم الذي ظلّت علىٰ الدوام تراهن عليه للانهيار والتمزّق أشلاء بين عشية وضحاها. رأى بعض أصدقائهما المشتركين أَن جزءاً من المشكلة تمثل بتعثر حياته المهنية في حين كانت حياتها المهنية قد بدأت تتجاوز مستوى ما سبق لزوجها أَن حقّقه. أبقاها الطلاق في حالة من الغنى الكامل؛ يقدر كاتب سيرة حياتها مايكل دوبز أَن ثروتها الصافية كانت لدى تعيينها وزيرة للخارجيَّة في 1997، تصل إِلىٰ حوالي عشرة ملايين من الدولارات. من الزوجين المرموقين إِلىٰ حد كبير في عالم جورجتاون علىٰ امتداد السنوات الخمس عشرة الماضية تقريباً كانت هي الأَكثر انفتاحاً وميلاً إِلىٰ الحياة الاجتماعيَّة والجماعية؛ في حين كان جو أولبرايت أهدأ وأَكثر تحفظاً. وكذلك فإِن الطلاق أبقاها مع عدد كبير من الأصدقاء والصديقات الذين تعاملت

معهم بوفاء ورصانة، مع بيت جورجتاوني جميل للاستقبال، ومع قدر كبير من الغضب، لبعض الوقت. تعرضت للانهيار؛ سيقت، برأي الأصدقاء، إِلىٰ دهاليز الإِحساس بالكبر والاهتراء وانعدام الجاذبية. كذلك كان أصدقاؤها يعتقدون بأنّها منذ تلك اللحظة وصاعداً باتت مهووسة بالعمل المهني ولم تعد إِلىٰ سابق عهدها كما لو كانت تريد أَن تبرهن لجو أولبرايت الهاجر أنّها كانت نجم الأسرة الحقيقي وأنّه قد ارتكب خطأ فادحاً.

في الثمانينيّات وبدايات التسعينيّات، في سنوات ريگان وبوش ونوع من الصحراء المقفرة الديمقراطيَّة، أَصبحت أولبرايت متزايدة الأَهميَّة في السياسة الداخليَّة الديمقراطيَّة بواشنطن، مشكلة جسراً بين شخصيات الحزب السياسيَّة وخبراء السياسة الخارجيَّة علىٰ مآدب العشاء في منزلها، في تلك الأماسي التي كانت جدية إِلىٰ حد كبير وبدت في الغالب أشبه بحلقات البحث والندوات الفكرية. ما لبثت عجلة الزمن أن بدأت تدور لصالحها. فلأَن أعداداً أكبر من النساء بدأن بالدخول في عالم العلاقات الدولية، فكرت إِدارةُ مدرسة جورجتاون للسلك الخارجي، وهي مدرسة مشهورة لم يسبق لها أَن عُرفت بالحرص علىٰ تحقيق المساواة بين الجنسين، أَن تعرض عليها وظيفة تعليمية، وظيفة ممتازة واستثنائية الصعوبة بالنسبة إِلىٰ أية امرأة. شكّلت تلك الوظيفة شهادة نجاح إِضافية جديرة بأن تدرج في موجز سيرة حياتها المهنية. في الثمانينيّات، خلال اثنتين من الحملات الرئاسية، تولت مناصب شكَّلَتْ شهادات إِضافية ـ لم تكن عظيمة، نظراً لحصيلتي عمليتي الانتخاب المتعاقبتين، غير أنّها كانت دليل صعود ما زال مستمراً علىٰ قدم وساق. أَصبحت مستشارة سياسة خارجيَّة للمرشحة جيرالدين فيرارو في 1984م خلال سباقها غير الموفق للوصول إِلىٰ منصب نائب الرئيس، وتولت مهمة المستشارة الرئيسية في مجال السياسة الخارجيَّة خلال الانتخابات التمهيدية سنة 1988م حين دعمت مايكل دوكاكيس.

ما من أَحد اعتبر أولبرايت مسؤولة عن تحوّل حملته إِلىٰ كارثة. ثمة دوائر

واسعة افترضت أَن دوكاكيس لم يكن يصغي إِلىٰ أولبرايت لأنّه، باعتقاد أعضاء الحرس القديم من الديمقراطيين، لم يكن يصغي إِلىٰ أَحد. غير أنّها كانت علىٰ الأقل شريكة في عملية التآمر لإخراج تلك الصورة الكارثية للدبّابة وعليها المرشح. اقترح أَحدهم أَن من شأن قيام دوكاكيس بزيارة أَحد مصانع الدبابات (القواعد العسكريَّة ليست داخل حدود الدعاية الانتخابية) مؤكداً أنّه لم يكن جباناً، أَن يساهم في تحسين صورة دوكاكيس. عَبَّرَتْ أولبرايت عن موافقتها علىٰ الفكرة. ذهب دوكاكيس إِلىٰ مصنع في مرتفعات ستيرلنگ، ميتشيگان، امتطى إِحدى الدبابات، اعتمر خوذة سائق الدبابة، منتهكاً أَحد القوانين الأولية للسياسة الأَمريكيَّة ـ إِيَّاك أَن تعتمر قبعة يمكنها أَن تجعلك تبدو أحمق لأَن الشيء الوحيد الذي سيتذكره الناخبون، كما قال جون كندي مرة، هو صورتك معتمراً هذه القبعة الغريبة أَو تلك. قام دوكاكيس بمدّ رأسه من برج الدبابة معتمراً الخوذة ونشر ابتسامة عريضة علىٰ وجهه فيما كانت آلات التصوير التلڤزيونية تدور جَذْلىٰ. في البداية فرح أنصار دوكاكيس جميعُهم بالتغطية التلڤزيونية والإِعلامية ـ صوت وصورة. ثم ما لبثوا أَن انتبهوا إِلىٰ التعليق. لم يبد دوكاكيس جندياً جاهزاً للقتال؛ بدا مهرجاً سخيفاً. طار الجمهوريون فرحاً واستغلّوا اللقطة لتزيين الكثير من إِعلاناتهم التجارية. كانت أولبرايت في الميدان جزئياً. وقد ظلت مصرّة، كما أكّدت لاحقاً، علىٰ أَن فكرة زيارة المصنع كانت جيدة، ولكن الخطأ هو أَن دوكاكيس أَقْدم علىٰ وضع الخوذة فوق رأسه[15].

صحيح أَن حملة دوكاكيس لم تساهم في جعلها نجماً، غير أَن الديمقراطيين لم يكن عندهم، في الحقيقة، أَي نجوم فيما كانوا يستعدون لتولي السلطة سنة 1993م. ففي الكثير من الميادين السياسيَّة، كانت القواعد قد تغيّرت كما كانت البلاد كلها قد تبدّلت. قبل عشرين أَو خمس وعشرين سنة، ربما كان

---

(15) المصدر السابق، 333.

وجيز سيرة الحياة المثالي لشغل أَحد كراسي المحكمة العليا، علىٰ سبيل المثال، متضمناً انتساباً إِلىٰ طائفة الواسب WASP (فئة البيض الپروتستانت المنتسبين إِلىٰ الجذور الآنجلو ساكسونية)، شهادة تخرج في هارڤارد أَو ييل وكليتي الحقوق فيهما، وشهادة عمل لدى شخص مثل إِيرل وارن. أَمَّا الآن فقد كانت ثمة، خصوصاً بالنسبة إِلىٰ الديمقراطيين، التزامات تجاه دائرة أَكثر تنوعاً بما لا يقاس من مجموعات المصالح علىٰ أصعدة العرق، الجنس، والمنطقة الجغرافية. فالخلفية التي كانت ذات يوم ميزة إِيجابية ربما باتت عبئاً ونقطة سلبية؛ وما كانت نقطة سلبية ربما أَصبحت نقطة إِيجابية. وكان الأَمر ذاته يصح علىٰ السياسة الخارجيَّة أَيضاً. كان جو أولبرايت خريج گروتون، مدرسة إِعدادية نخبوية في نيو إِنگلند، مدرسة سبق لها أَن ساهمت في أَمريكا القديمة، في تخريج وزراء الخارجيَّة والمؤهلين لأَن يصبحوا وزراء خارجيَّة (آتشيسون، هاريمان، بوندي، وبوندي) وصانع الملوك في الأَمن القومي (آلسوپ)؛ أَمَّا في أَمريكا الجديدة فإِن مطلَّقة خريج گورتون ذات الأَصول الأوروپية الشرقيَّة هي التي باتت مؤهلة للحصول علىٰ شرف منصب وزارة الخارجيَّة. باتت المواصفات والشهادات المطلوبة مختلفة الآن. في السنوات التي دأبت خلالها أولبرايت علىٰ النضال في سبيل الصعود، أشبه بالنمل منها بالجندب، كانت الحركة النسوية قد بلغت سنَّ الرشد، وأَصبح الجنس أَكثر تسييساً. فالمعارك المريرة حول الإِجهاض كانت قد شهدت انتقال أعداد من النساء الجمهوريات المعروفات إِلىٰ الحزب الديمقراطي وجعلت منهن قوة ذات شأن، قوة متزايدة الإِتقان والتطور علىٰ الصعيد التنظيمي. كانت أصواتهن، لا أصوات البيض من الرجال، قد مكّنت بيل كلنتون من الفوز في المرتين كلتيهما. ومع حلول سنة 1997 كانت شبكة من الفتيات المتقدمات في السن عاكفة علىٰ التآلف في واشنطن. كانت زعيمة الشبكة وندي شيرمان التي كانت تعمل لدى عضوة مجلس الشيوخ الميريلاندية بارباره ميكولسكي. وهؤلاء الفتيات المتقدمات في السن كُنَّ يعرفن مطلبهن الذي كان متمثلاً بتعيين امرأة وزيرة للخارجيَّة، وكن

مدعومات بحليفة قوية في البيت الأَبيض اسمها هيلاري رودهام كلنتون. أمَّا الرجال فقد كانوا، لوجود أكثر من مرشح واحد، منقسمين. وفازت مادلين أولبرايت بالمنصب.

مثل توني ليك الذي كان بالغ الوسامة في شبابه ثم ما لبث أن شاخ بصورة درامية مثيرة مع مرور السنوات، فإِن كفاح أولبرايت من أجل الوصول انعكس علىٰ صورها. بدت وكأنها لم تعش أية طفولة قط، وكأنها ظلت دائمة التعرض لقَدْر كبير من الضغط الخفي للبلوغ، للفوز، للنجاح في هذه البلاد، لا لنفسها هي فقط، بل ولأبيها الذي كان قد فقد مهنته جراء قسوة التاريخ. أضف إِلىٰ ذلك أَن طريق السلطة كانت، ببساطة، أصعب بالنسبة إِلىٰ امرأة من جيلها، رغم إِنجازاتها. ظلت أولبرايت تشعر، ولمدة طويلة، بأَنها لم تحصل علىٰ ما تستحقه. فنظراؤها الرجال ـ مثل توني ليك، ديك هولبروك، لَسْ گلبْ، وين لورد، فرانك ويزنر، وديك موس ـ كانوا، بصورة شبه آلية يُرشحون لعضوية مختلف أنواع اللجان وفرق البحث التي كانت تُستثنى هي منها بالقدر نفسه من الآلية. وراء الكواليس كانت تطلق عليهم اسم «**الأولاد**»، بشيء من المرارة التي توحي بأنهم كانوا لا يهتمون إِلاَّ بأمورهم الخاصة، ولم تكن هي واحدة منهم ولن تكون. برأيها (وقلة من النساء من جيلها في عالم الأَمن القومي خالَفْنَها)، أَن الرجال كانوا، آلياً، يقولون ويفعلون أشياء إِقصائية دون أَن يفكروا بأنهم جنسيون. فحين كتب كولن پاول في مذكراته أَن موقفها الحماسي الناشط حول استخدام القوَّة في البوسنة كاد يسبِّب له الأنورسما ثار غضبُها من الصياغة التي هي من اقتباس كلامها: «شرحت بصبر. . .»[16] وعبارة **الشرح بصبر** كانت تفوح منها رائحة الذكورة المتعالية، وتبادلا رسائل ودية حول الفقرة ـ حين وقعت إِحدى رسائلها «مادلين، بقوة». إِذا كنتِ امرأة تمارسين عملك

(16) پاول، 576؛ مقابلة مع أولبرايت.

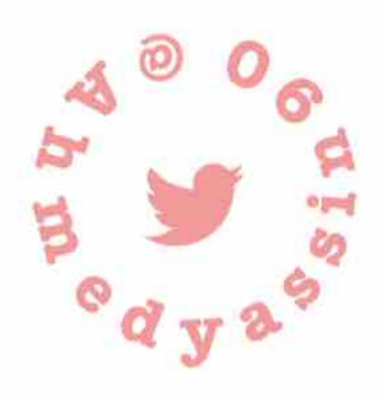
علىٰ ذلك المستوى فأنتِ، كما قالت لإحدى الصديقات، لم تسعي إِلىٰ العراك حول الجنس، بل كان الصراع موجوداً باستمرار. لقد سعى هو إِليك.

كانت سنوات النضال والصراع التي قضتها مادلين وهي تشق طريقها في أوساط قلاع الرجال الحصينة قد أضفت عليها القوَّة والقسوة، وبرزت خلال فترة شغلها لوزارة الخارجيَّة كما لو كانت إِقليمية إِلىٰ حد كبير، وهو ليس غريباً، نظراً للافتقار الذي عاشته معظم حياتها إِلىٰ التحكم بالإِقليم. كانت شديدة الحساسية إِزاء أَي نقد، وبقيت العلاقات العامة الشخصية منطوية علىٰ أَهميَّة غير عادية بنظرها. من المفارقات الساخرة الخاصة أنّها كانت، حين شغلت منصب سفيرة الولايات المتحدة في الأمم المتحدة، قد نجحت نجاحاً بريئاً تقريباً لا في العمل فقط، بل وعلىٰ صعيد الحالة النجومية المرافقة لمثل هذا العمل. والآن نرى أولئك، الذين دأبوا علىٰ عرقلة عملها وساهموا في خلق بعض هواجسها ووساوسها أنفسهم، يسخرون منها لأنّها كانت تطير تيهاً ونشوة بغَطْرسات عملها الجديد. أَمَّا حقيقة أَن هنري كيسنگر، وقد كان طاووساً معظم حياته، كان قد ازدهر كنجم ذكوري ـ جنسي حين حصل علىٰ قَدْر مواز من النفوذ واستمتع بقدر مساو، إِن لم يكن أَكثر، من التطوس والتسلّق الاجتماعي، في كل إِيماءة من إِيماءاته، فلم يأت أَحد علىٰ ذكرها.

من حيث الإِيديولوجيا والمعتقدات، لم يكن تسجيل النقاط عليها سهلاً. وعلىٰ الرغم من أنها تسلَّقت سلم مؤسسة السياسة الخارجيَّة ببطء وأناة عبر السنين، فإِن أَحداً لم يقرنها بأي رأي أَو جناح خاص من أجنحة الحزب. لم تلتصق بها، علىٰ ما يبدو، أية وصمة أَو لُصاقة. غير أنها بقيت شديدة الحماس إِزاء قضية واحدة وشخص واحد، إِزاء قضية البلقان وشخص ميلوسوڤيتش. كانت النقطة المرجعية التي دأبت علىٰ التذكير بها المرة بعد الأُخرى لدى بروز الموضوع في النقاش متمثِّلة بميونيخ. لا يجوز استرضاؤه؛ لن توقفه غير القوَّة. وفي الأمم المتحدة كانت من اليوم الأَول متشدّدة بالنسبة إِلىٰ البلقان. إِنها

أوروبا، منطقة تعرفها (كانت أيضاً تعرف اللغتين السلافيتين الروسية والتشيكية)؛ كان أبوها، في مهمته الأخيرة قبل الانقلاب الشيوعي في براگ، سفيراً في بلگراد. بسبب تاريخ أهلها كانت شديدة العداء والكره للعدوان العسكري والإبادة، وحقدت علىٰ ميلوسوڤيتش باعتباره صورة ممسوخة ومكررة لهتلر وستالين. ومنذ لحظة التحاقها بإدارة كلنتون، كانت من الصقور بالنسبة إلىٰ البلقان، رغم أن أحداً لم يصغ إليها باهتمام. أمَّا الآن، في 1998م، فقد جاء دورها لتكون شخصية قادرة علىٰ التوقيع وعلىٰ إسماع صوتها.

كان نفوذها يتزايد لسببين اثنين إضافة إلىٰ واقع شغلها لمنصب أكثر أهميَّة من ذلك الذي كانت تشغله في إدارة كلنتون الأولى. أولاً، انت تعمل فيما يشبه الفراغ لأن الإدارة كانت مشغولة جداً، وبصورة واضحة جداً أيضاً، بالعمل علىٰ إنقاذ الرئيس من هجمة محاكمة الإدانة؛ ثانياً، دأب ميلوسوڤيتش، وبصورة منهجية، علىٰ صب الماء في طاحونتها، حيث ظلت جملة الفظائع الصربية الشنيعة تدعم مواقف أولئك الراغبين في اعتماد الخط الأكثر تشدداً في التعامل معه.


@Ahmedyassin90

الفصل الرابع والثلاثون

لم يكن منتصف 1998م وقتاً مناسباً للمبالغة في الاندفاع المتشدد على الجبهة البلقانية. فمع تكشف فضيحة لوينسكي وصيرورة الإدانة احتمالاً واقعياً، بات بيرگر والرئيس، كلاهما، يمشيان على أطراف أصابعهما، من الحائط إلى الحائط، في حقل ألغام محتمل. لعل آخر شيء كانا يريدانه هو حصول تدخل عسكري في كوسوڤا. ثمة كونگرس متشدد ظل دائباً على مقاومة إرسال ولو أعداد محدودة من الجنود الأمريكيين إلى البوسنة فضلاً عن عدم تحبيذه الدائم لفكرة استخدامهم كقوات حفظ سلام لأن من شأن ذلك، رغم الوعود، أن يتحوّل إلى نوع من التورّط المفتوح، من المؤكد أن الكونگرس لن يكون متحمساً لتوجيه تهديدات القصف إلى بلگراد خوفاً من الخطوة العسكريّة التالية المحتملة. وكذلك فإن الپنتاگون عارضَ، كعادته، أي تدخّل عسكري، فضلاً عن أن الأوروپيين كانوا مرة أُخرى يعبّرون عن الحَذَر إزاء أي استخدام إضافي للقوة. أضف إلى ذلك أن إدارة كلنتون كانت تواجه مشكلة انتخابات فرعية في الخريف، مع وجود جميع الأسباب الداعية للاعتقاد بأن من شأن سلوك الرئيس الشحصي سيكون القضية المركزية، وأن من شأن المحصلة أن تساعد الجمهوريين. فآخر شيء كان رئيس محاصر يريده أو يحتاج إليه هو القتال سياسياً (وعسكرياً) على جبهة أُخرى.

أما المعادلة التي كانت تواجه ميلوسوڤيتش فقد بدت مألوفة ومغرية إلى

حد كبير مرة أُخرى. فالقوى الغربيَّة، التي سبق لها أَن تضافرت لفترة وجيزة قبل ثلاث سنوات حول البوسنة، عادت إِلىٰ الانقسام في أثناء تحركه باتجاه كوسوڤا. من الواضح أَن القيادة في الولايات المتحدة كانت منشغلة، وما لبث الأَمريكيون، مع تقدم المباحثات مع الغرب حول كوسوڤا، أَن بدوا، آخر المطاف، حريصين علىٰ التوصل إِلىٰ نوع من الاتفاق علىٰ الورق، مستعدين لقبول اتفاقيات توحي بوجود تسوية ما. أَمَّا ميلوسوڤيتش العدواني علىٰ الدوام فقد اندفع إِلىٰ الأمام، غير أَن التمييز بين ما هو خداع وما هو حقيقي فيما كان يقوم به بقي صعباً. بنظر أولئك الذين تابعوا سلوكه في الماضي، كان ميلوسوڤيتش يلعب لعبة قديمة مألوفة، لعبة خطوتان إِلىٰ الأمام وخطوة إِلىٰ الوراء، ليشق طريقه إِلىٰ كوسوڤا. أَو كان، كما قام خاڤيير سولانا، رئيس الناتو، بوصف الأَمر، كلاماً عن الهجوم المحدود الذي كان الصرب يشنّونه في كوسوڤا، دون المبالغة في الضغط خوفاً من دفع الغرب إِلىٰ الرد ـ «تفاحة في اليوم تبقي الطبيب بعيداً» «قرية واحدة فقط في اليوم تبقي الناتو خارج اللعبة»[1].

غير أَن ميلوسوڤيتش بالذات كان، هو الآخر، ضحية، ولو نسبية، للآلية التي ابتكرها. فكوسوڤا أثارت عدداً كبيراً جداً من العواطف لدى جميع الصرب وكان من شأن استسهال عدم الرد كما سبق له أَن فعل في البوسنة في حال إِخفاق الخديعة وقيام الناتو بتوجيه ضربة، أَن يكون متعذراً بالنسبة إِلىٰ رسوخ سلطته السياسيَّة. كان من المحتمل أَن يضطر للقتال وتعريض دولته وشعبه للقصف والدَّك لبعض الوقت ـ ولكن كم هو هذا البعض من الوقت؟ ذلك هو ما تعين عليه أَن يحتسبه ـ قبل الرضوخ لأي من طلبات الغرب. وبعد ذلك كان يستطيع أَن يظهر بمظهر سليل القيصر لازار، الذي فضَّل الموت، قبله بست مئة سنة، علىٰ الاستسلام، رغم أنه، خلافاً لحال لازار، كان سيبقى علىٰ قيد

(1) دالدر وأوهانلون، 43.

الحياة بالتأكيد ليصبح بطلاً فيما يتعرّض شعبه للقتل ويتحمّل جميع صنوف العناء والعذاب، بدلاً من خيانة القضية الصربية التي كانت انتحاراً سياسياً مؤكداً.

لم تكن واشنطن جاهزة للتحرّك، بعد، إذ كان أعضاء الإدارة مشغولين باحتلال مواقعهم. كانت أولبرايت صقراً، في حين كان كل من كوهن ورؤساء الأركان أميل إلىٰ الحمائمية. أمّا كلنتون وبيرگر فكانا في الوسط مسحوبين نحو خيارات لم يكونا راغبين في اعتمادها،آملين في إبطاء عقارب الساعة في البلقان وكسب الوقت. وحتى يتمكّنا من استخدام القوَّة في البلقان، تعيّن عليهما إشراك الأوروپيين أيضاً، ولتحقيق ذلك، كان لا بد لنا من بذل المزيد من المحاولات في سبيل التوصّل إلىٰ تسوية ما مع ميلوسوڤيتش. حتى في حال بقاء التسوية المطلوبة من قبل الأوروپيين مستحيلة، فقد ظل متوجباً علينا أن نواصل طرح المقترحات الهادفة إلىٰ الاهتداء إليها في سبيل إثبات حسن نوايانا لإقناع هؤلاء الأوروپيين بضرورة الالتحاق بالركب. غير أن صقراً مهماً آخر كان علىٰ الساحة سلفاً، لا في واشنطن، ولكنه لاعب رئيسي مع ذلك، ألا وهو الجنرال وس كلارك. فآراء الرجل باتت مع حلول سنة 1998م قريبة من وجهات نظر أولبرايت. أصبح مقتنعاً بأن كوسوڤا لم تكن إلاّ تكراراً لقصة البوسنة، بأن ميلوسوڤيتش كان المشاغب الرئيسي، بأنه لن يفاوض إلاّ للخداع، وبأن شيئاً لن تتم تسويته وحله ما لم يتم وضع حد له أولاً. ومثل أولبرايت كان أيضاً يؤمن بأن السبيل الناجح الوحيد هو استعمال القوَّة. وحين كان الغرب يقبل بالتفاوض كان يعكف علىٰ استخدام الكلمات ويصب الماء، بالتالي، في طاحونته، لأن الكلمات والوعود كانت أشياء غير ذات معنى في قاموسه.

مع حلول أوائل 1998م كان كلارك متأكداً بصورة مطلقة من أن استخدام القوَّة حتمي، ومن أن من شأن رفع مستوى الضربة العسكريَّة أن يزيد من احتمال التوصل إلىٰ ما يُعْتَبَر حلاً ناجحاً. غير أن تعيين كلارك قائداً سنة في

أوروبا كان مثار خلاف وجدل في المؤسسة العسكريَّة، مما أدى إِلىٰ تأكيد التوترات التي كانت قائمة منذ لحظة وصول إِدارة كلنتون إِلىٰ السلطة بين المدنيين والعسكريين ومفاقمتها. فعلىٰ الرغم من أَن الجميع التحقوا أخيراً بركب دعم السياسات التي كانت قد جَرَّت الصرب إِلىٰ دايتون، فإِن هوة الخلافات العميقة الفاصلة بين الپنتاگون والبيت الأَبيض حول السياسة الخارجيَّة للولايات المتحدة ودور الجيش الأَمريكي في عمليَّات حفظ السلام، ظلّت غير قابلة للردم إِلىٰ حد كبير. حتى دايتون كانت قد بقيت نوعاً من الحَسَك في حلقي الطرفين كليهما. ومسألة مدى استعداد الجيش للتشدّد في ملاحقة أولئك الصرب الساعين إِلىٰ تقويض اتفاقيات دايتون لم تجد لها حلاً سهلاً في البداية. متولياً أصعب المواقع القيادية، كان كلارك سيجد نفسه باستمرار بين فكي كماشة تكتلية المتعارضين.

ظلت جماعة كلنتون تعتبر كولن پاول قوة مناوئة وغير متعاطفة؛ ظلّت تحاول التعايش معه، غير أنّها كانت ميّالة، كما نرى لدى النظر بعد تركه للمنصب، إِلىٰ اعتباره ليس مجرد جنرال معارض لسياستها الخارجيَّة فقط، بل وإِلىٰ النظر إِليه بوصفه خصماً سياسياً، جمهورياً سرياً جزئياً ذا نفوذ لا يستهان به. وكان پاول، بدوره، ميَّالاً إِلىٰ اعتبار الجماعة فئة من المبتدئين الأغرار الذين كان خطابُهم البلاغي أكبر من استعدادهم لدعمه علىٰ أَرض الواقع، من الأخلاف الخطيين لمهندسي الحرب الڤيتنامية. أَمَّا ذلك الذي تمكنت الإِدارة من الاهتداء إِليه بوصفه شخصاً متعاطفاً في أوساط الجيش، شخصاً بدت معتقداته متناظرة ولو **إِلىٰ حدود معينة** علىٰ الأقل مع معتقدات كبار المدنيين، فهو جون شاليكاشڤيلي، الذي كان قد أَصبح رئيساً لهيئة رؤساء الأركان خلفاً لپاول المتقاعد في 1993م، والذي ما لبثت فترة شغله للمنصب أَن انتهت في 1997م. كان شاليكاشڤيلي هذا أفضل بكثير، بنظر فريق كلنتون؛ غير أَن إِكثاره من الوقوف في صف المدنيين كان كفيلاً بمضاعفة الشكوك الحائمة حوله في أجواء الپنتاگون.

ما بقي خفياً إلىٰ حد كبير، ليس فقط علىٰ الجمهور بشكل عام، بل وعلىٰ أكثر المطلعين في الدوائر الواشنطنية الداخليَّة، هي لعبة شد الحبل الجارية باستمرار علىٰ قدم وساق بين الإدارة وكبار القادة العسكريين حول المناصب العليا. كانت هذه اللعبة السياسيَّة منطوية علىٰ نتائج بالغة الخطورة، غير أَن أَحداً لم يكن يتحدَّث عنها صراحة، وإن بقيت شبه مكشوفة بالنسبة إلىٰ وسائل الإعلام. لقد كانت تعكس ليس فقط الانقسامات في الحكومة، بل وجملة الانقسامات في الكونگرس والبلاد أَيضاً ـ وهي انقسامات وخلافات منطوية علىٰ أبلغ الأثر بالنسبة إلىٰ سياسة الولايات المتحدة الخارجيَّة. في أوساط معينة في الپنتاگون، كان ثمة اعتقاد قوي بأن فريق كلنتون بات مدمناً علىٰ تحاشي الضباط المتشددين الذين كانوا من قادة القطعات الميدانية القتالية لصالح رجال كانوا أَكثر مرونة وطواعية. وهكذا فإن بعض كبار القادة العسكريين باتوا قلقين من أَن شاليكاشڤيلي، رغم إعجابهم به، ربما بالغ في الاقتراب من مواقع جماعة كلنتون.

وبالفعل فإن شاليكاشڤيلي كان قد تعامل مع جماعة كلنتون بقَدْر كبير من اليُسْر ـ كثيراً ما كانت رغبات الطرفين متطابقة. في مجالات معينة ـ تقوية أوروپا وتوحيدها، توسيع الناتو ـ كان شاليكاشڤيلي، بوصفه أوروپياً، أَكثر أممية في توجهه من بعض أنصار كلنتون، وربما كان متقدماً أشواطاً علىٰ تفكيرهم. وعلىٰ العموم فإن معتقداته ظلّت متطابقة مع معتقدات الإدارة. وخلال فترة توليه لرئاسة هيئة رؤساء الأركان كان قد قطع شوطاً علىٰ طريق ردم الهوة بين الجيش والبيت الأَبيض. غير أَن ذلك لم يعن أَن مقاومة جزء كبير من قناعاته قد انتهت في أوساط الثقافة المحافظة في الجيش بالذات، خصوصاً في سلاحه هو، أَي القوَّات البرية، حيث كان يُنظر إليه بشيء من الارتياب. وحسب رأي بعض المتشددين في الپنتاگون، كان البيت الأَبيض قد اختار شاليكاشڤيلي، المهاجر والمواطن الجديد، بسبب احتمال بقائه مديناً بالفضل

لكبار المسؤولين المدنيين، ومتهيباً من رئيس جمهوريَّة الولايات المتحدة ـ وبالتالي هدفاً سهلاً لكلنتون المحنّك وأستاذ المناورة بنظر الپنتاگون. غير أَن من تابعوا عمل شاليكاشڤيلي خلال فترته التي امتدت أربع سنوات لم يكونوا جميعاً موافقين علىٰ مثل هذا الرأي. إِذْ رأى هؤلاء أَن شالي كان قد نجح في استمالة البيت الأَبيض، بفضل قناعاته الأقوى حول الكثير من القضايا من أنصار كلنتون، لا العكس.

كان البعض يرى أَن شاليكاشڤيلي، متطابقاً مع بيل پيري، كان يملك رؤية أوضح لمستقبل الأَمن الأوروپي مقارنة بالإِدارة نفسها، ووجهة نظر أقوى بالتأكيد من أَكثر العاملين في وزارة الخارجيَّة. ومعاً، شكَّل شاليكاشڤيلي وپيري قوة أضخم من الخارجيَّة علىٰ صعيد الدفع من أجل استصدار أَحد القرارات المركزية عن إِدارة كلنتون، قرار توسيع الناتو إِلىٰ عدد من البلدان الشيوعية السابقة بما فيها پولونيا المجاورة لروسيا دون الظهور بمظهر المهدد بنظر الروس. وقد اعتُبر شالي من قبل الكثير من المطلعين علىٰ بواطن الأمور صاحب نفوذ لا يُستهان به علىٰ هذا الصعيد. لقد كان متفوقاً علىٰ أَكثر كبار ضباط الجيش (بل وعلىٰ من هم أَكثر من ذلك من كبار موظفي وزارة الخارجيَّة) من حيث الإِيمان بأوروپا موحدة. وأوروپا هذه كانت ستضم أَكثر دول حلف وارصو السابق، حيث كان من شأن العلاقات العسكريَّة الجديدة مع أنظمة الحكم الديمقراطيَّة الغربيَّة أَن تتمخَّض ليس فقط عن تحالف عسكري أوسع، بل وأن تنطوي أَيضاً حتى علىٰ احتمال تدعيم مواقع القوى الديمقراطيَّة في كل من تلك البلدان مع اضطلاع الجيش بدور ركيزة ديمقراطيَّة مهمة. وقد قام شاليكاشڤيلي أَيضاً بدفع الأمور نحو اعتماد برنامج آخر، الشراكة من أجل السلام مع الروس، ليس فقط لإِشراك هؤلاء بسلسلة من المناورات المشتركة وتكوين علاقات أَكثر صحة، بل ولاختزال رُهابهم المرضي (وجزء كبير منه مبرر تاريخياً) في نظرتهم إِلىٰ الغرب. كان ذلك أمراً بالغ الأَهميَّة إِذا كنا نريد

توسيع الناتو وصولاً إلىٰ الحدود البولونية ـ الروسية. كان توسيع الناتو، وهو أمر لم تقم وسائل الإعلام القوميَّة بتسليط الأضواء عليه مثل غيره من الأمور المماثلة التي لا تؤخذ مأخذ الجد، سيبرز بوصفه أحد أكبر إنجازات إدارة كلنتون، وهو إنجاز لم يستتبع إلاَّ القليل من الجدل الداخلي.

لم يكن شاليكاشڤيلي قد بادر قط إلىٰ طرح عقيدة شالية [نسبة إلىٰ شاليكاشڤيلي] لتحل محل عقيدة پاول. غير أنّه ما لبث، تدريجياً، أن بدا وكأنّه عاكف علىٰ السعي إلىٰ تغيير ـ أو إدخال تعديلات معينة علىٰ ـ فلسفة الجيش المحورية، خصوصاً في شيء جديد نسبياً، في مهمات حفظ السلام المعقدة التي كان انهيار النظام القديم منطوياً علىٰ احتمال فرضها. ما كان سيقوله لاحقاً (بقدر كبير من التحفّظ) هو أنّه كان متفقاً عموماً مع عقيدة پاول القائمة علىٰ عدم الاضطلاع بأية مهمات عسكريَّة دون تحديدها بوضوح كامل، دون الاتفاق علىٰ مستويات القوّة، ودون جعل استراتيجية الخروج واضحة. وبالفعل فإنه كان سيتذكر لحظة كانت فيها منطقة البلقان ملتهبة وكان پاول كرئيس لهيئة رؤساء الأركان قد طلب إرسال عدد من الوحدات الأمريكيَّة إلىٰ الحدود المقدونية لضمان عدم انتقال القتال إلىٰ هناك. كان شاليكاشڤيلي قد اتصل بپاول، شاعراً بشيء من الاستغراب إزاء الطلب، وقال: «ماذا يا كولن، هل تريد أن ترسل بعضاً من قواتنا إلىٰ داخل مقدونيا؟» أجاب پاول بنعم، وجرى تنفيذ الأمر بهدوء تحت قيادة الأمم المتحدة، رغم أن القوّات لم تشتبك في أية عمليات قتالية. أمّا ما كان شاليكاشڤيلي يريد تغييره، حسب كلامه هو، فقد تمثّل **بعقيدة واينبرگر**، تلك العقيدة التي ابتكرها كاسبار واينبرگر، الذي كان عراباً لپاول خلال فترة صعوده علىٰ السلم الحكومي وكان قد قال: إن التدخّل العسكري لا يجوز اعتماده ما لم تكن مصالح الولايات المتحدة **الحيوية** معرّضة للخطر. إن ما تركز عليه اعتراض شاليكاشڤيلي هو كلمة **حيوية**.

تمثّل ما أراده شاليكاشڤيلي بقدر أكبر من المرونة في استخدام قوات

الجيش. ولدى الجيش عنوان لكل شيء، وقد كان عنوان ما نحن بصدده نموذجياً ومثالياً: عمليات غير حربية (ع. غ. ح.) Operations Other than War [OOTW]. كان عميق الإِدراك لضرورة تعرّض المهمات العسكريَّة للتغيير بعد انتهاء الحرب الباردة. ففي تلك الأَيام كان شاليكاشڤيلي ينتقل من مكان إِلىٰ آخر قائلاً إِن رئيس هيئة رؤساء الأركان لا يملك حق وضع لافتة علىٰ بابه تقول: «آسفون.. نحن لا نقوم إِلاَّ بالأعمال الكبيرة... التوقيع جون شاليكاشڤيلي». غير أَنَّه لم يصبح ممثلاً لرأي الأَكثرية في الجيش [القوَّات البرية] أو المؤسسة العسكريَّة، بأي شكل من الأشكال؛ فوجهات نظره كانت لا تزال بعيدة إِلىٰ حد معين عن أَن تكون تقليدية، وكانت المقاومة لما اعتزم الإِقدام علىٰ اعتماده عميقة وقوية. لقد جوبه بمعارضة أناس معادين فطرياً للتغيير، أَي تغيير، أناس لا يطمئنون إِلىٰ أية سياسات من شأنها أَن تأخذهم في رحلات بحرية مجهولة، وأناس شديدي الارتياب والشك من الساسة الممسكين بدفة الحكم، من هؤلاء الذين لم يكونوا يتمتعون بثقتهم. كان شاليكاشڤيلي متقدماً علىٰ أكثر الرؤساء علىٰ صعيد الدفع باتجاه إِرسال القوَّات الأَمريكية إِلىٰ البوسنة كجزء من عمليَّة دايتون لحفظ السلام، وكان قد مارس قَدْراً غير قليل من الضغط لرفع مستوى القوَّة إِلىٰ درجة مقبولة، مضطلعاً بدور الوساطة والحكم بين القائد العام، في الميدان، الجنرال جورج جولوان، ورئيس أركان الجيش في واشنطن الجنرال دنيس رايمر. كان جولوان يريد حوالي ثلاثين ألفاً في البداية، في حين بادر رايمر، مع توافر ما هو أكثر من ذلك بكثير علىٰ البطاقة وبحماس محدود للمهمة، برأي بعض الأصدقاء، إِلىٰ اقتراح لواء معزز يضم حوالي خمسة آلاف رجل. ما كان شاليكاشڤيلي يريده هو فرقة تقريباً، أَو حوالي عشرين ألف رجل، وقد قال ذلك لجولوان، رغم أَنَّه كافأه بقدرات استخباراتية إِضافية تمكّنه من مراقبة التوترات ليس فقط بين القوَّات العسكريَّة المختلفة التي كانت تفصل بعضها عن بعضها الآخر، بل واختزال الأَسلحة الثقيلة وبعض أعمال الشغب المدنية التي قد تستمر. لم يكن إِقناع الجيش سهلاً

لأنَّه كان السلاح المرشح للاضطلاع بالمهمات الأصعب وإرسال العدد الأكبر من الرجال إلىٰ الميدان. وقد كان دائباً علىٰ النضال في سبيل الحؤول دون خفض مخصصاته في الموازنة، وها هو ذا الآن يُكلَّف بمسؤوليَّات إضافيَّة.

إذا كان شاليكاشفيلي مقبلاً علىٰ تغيير الجيش، فقد تعين عليه ألا يكتفي بتغيير الرؤية والتدريب، بل والكوادر العليا. وفي بحثه عن ضبّاط يرون الرأي نفسه حول ما ينبغي لرسالة الجيش أن تكونه، كان شاليكاشفيلي في إحدى اللحظات الحاسمة قد نجح في مسعى الحصول علىٰ نجمة رابعة لضابط شاب متقد الذكاء ولامع يدعى وس كلارك رغم بروز معارضة شديدة داخل الجيش. كان كلارك رئيس دائرة الخطط عند شالي في هيئة رؤساء الأركان، وكان استثنائي النجاح في أدائه، ذا قدرات تحليليّة علىٰ أعلىٰ المستويات. كان كلارك هذا سريعاً في الدراسة بصورة كلاسيكية، كما كان إتقانه لفن اختراق القضايا المعقدة جداً بسرعة وعمق قد ميّزه منذ زمن طويل عن سائر زملائه. ما من أحد كان يشك بنبوغه، وبأنه كان الضابط الأكثر حداثة. لقد تذكر الجنرال إدوارد (شاي) ماير، رئيس أركان الجيش بين سنتي 1978 و1983م مدى ذكاء ورشاقة كلارك كقائد فرقة في فورت هود. كان كلارك الضابط الأول من ذلك المستوى الذي تحدَّث ليس فقط عن الجاهزية التقليدية للوحدة ـ المهاجع النظيفة، الأحذية الملمعة، الغياب المتدني ـ بل وناقش بعض المشكلات الجديدة للحياة العسكريَّة الحديثة ـ انتحار الشباب، إساءة التعامل مع الزوج، قرَّر ماير أن كلارك كان قد فهم أسرع من الأكثرية أن الجيش المحترف الجديد حيث يعيش عدد أقل فأقل من الجنود في القاعدة بالفعل (وحيث سلالم الرواتب يتعين عليها أن تتنافس مع نظيرتها في الاقتصاد المدني) كان لا بد له من أن يعالج عدداً لا يحصى من الهموم المعقدة العاكسة لكامل طيف أدواء وعلل وانحرافات الحياة الاجتماعيَّة الحديثة.

كان شاليكاشفيلي قد عرف كلارك منذ كان الأخير مُقَدَّماً، اعتبره ذكياً

جداً، متهوراً قليلاً ربما، مع التمتع بذلك النوع من الموهبة التي كان الجيش بحاجة ماسّة إِليها علىٰ ذلك المستوى. في حزيران/ يونيو 1996م أراد شاليكاشڤيلي أَن يتولى كلارك منصب القيادة الجنوبية، الموجودة في فلوريدا، مما كان سيجعله قائداً سنة وجنرال أربع نجوم، كانت القيادة الجنوبية المختصة بأَمريكا اللاتينية ومعها حوض البحر الكاريبي لاحقاً، تُعتبر من قبل بعض كبار قادة الجيش ساحة الاختبار المثالية لأي ضابط صاعد نحو أعلىٰ المستويات لأَنَّه كان سيتعين عليه أَن يتعامل مع جميع المشكلات التي يعاني منها العالم المتخلّف ـ الفقر، المخدرات، والمؤسسات المدنية والأهلية الهشّة هشاشة غير عادية. كانت تلك، كما قال ماير مرة، الساحة التي كنتَ علىٰ الدوام ترسل إِليها أَي شاب مفعم حماساً لأنه يستطيع فيها أَن يتعلّم أشياء كثيرة جداً، والتي لن يستطيع فيها أَي ضابط موهوب متشدد في رؤيته أَن يعالج الطيف الواسع من المشكلات التي ستواجهه. وافق شاليكاشڤيلي علىٰ الرأي وأقر بأن من شأن القيادة الجنوبية أَن تكون ساحة الاختبار المثالية لكلارك.

لم يكن كثير من منتسبي الشريحة العليا في الجيش ميالين إِلىٰ الفكرة. فكلارك كان علىٰ الدوام يثير مشاعر قوية داخل فرعه في الخدمة بين أولئك الذين كانوا يحسون بأنّه كان يجسد أفضل مواصفات الفرع أَو السلاح، أولئك الذين كانوا يحسون بأنّه كان يمثّل مواصفاته الأقل، وأحياناً، أولئك الذين كانوا يعتقدون بأنّه كان يمثّل هذه وتلك. تقضي الإِجراءات التقليديَّة لدى حلول موعد تسمية أحد القادة العامّين أَن يبادر الجيش، من خلال رئيس الأركان، إِلىٰ اقتراح مرشحيه لملء الشاغر، وأن يقوم رئيس هيئة رؤساء الأركان بالاختيار، ثم يرفع اختياره إِلىٰ وزير الدفاع والبيت الأَبيض. غير أَن الجيش لم يُدْرج اسم كلارك علىٰ قائمته. وبالتالي فإِن رئيس الأركان دنيس رايمر غضب كثيراً وبادر إِلىٰ المقاومة حين أقدم شاليكاشڤيلي علىٰ ترشيح كلارك لشغل منصب القيادة الجنوبية. سارع شاليكاشڤيلي إِلىٰ تذكير رايمر بأن الرئيس يحق له أَن يختار

قادته وطلب منه أَن يوافق علىٰ الاختيار ولو شكلياً وظاهرياً. امتثل رايمر للطلب ولو علىٰ مضض. كان موقف الجيش واضحاً؛ كان لسان حاله يقول: **صحيح أَنّه ليس الرجل الذي نريده لهذا المنصب، ولكن إِذا كنت تريده حقاً فلك ما أردته.** كان ذلك يعني أَن الجيش نفسه كان مستعداً ليقطع الطريق علىٰ كلارك ويدفعه إِلىٰ التقاعد جنرالاً بثلاث نجوم، وأنه لم يحصل علىٰ منصب القيادة مصحوباً بالنجمة الرابعة إِلاّ بفضل رجل واحد.

وبعد سنة واحدة شغر مكان القائد الأعلى للقوات في أوروپا حين رحل جورج جولوان. كانت إِدارة كلنتون أقل من متحمسة له لشعورها بأنّه كان مستعداً لتطبيق اتفاقيات دايتون بقدر أكبر من التشدّد. كان المنصب بالغ الحساسية، ربما القيادة الأفضل في الجيش («أمير أوروپا ـ الرجل الأقوى في القارة كلها» حسب تعبير أَحد كبار الضبّاط). مرة أُخرى رفع الجيش قائمة مرشحيه، ومرة أُخرى لم يكن اسم كلارك وارداً. للمرة الثانية قام شاليكاشڤيلي بإِبلاغ رايمر عن قراره القاضي بتسمية كلارك لشغل المنصب مقترحاً عليه ألا يعارض الاختيار علىٰ الملأ. غير أَن رايمر ظل هذه المرة مصرّاً علىٰ الرفض، مما عنى أَن رئيس أركان الجيش كان علىٰ طرفي نقيض مع رئيس هيئة رؤساء الأركان ربما حول الاختيار الأهم لكوادر الجيش خلال فترة رئاسته. كان يجري إِرسال قائد غير متمتع بحب الجيش وثقته إِلىٰ بروكسل فيما كانت البلقان مِرْجلاً دائم الغليان ومشكلة كوسوڤا تنتظر المعالجة. لم يكن ذلك فأل خير حول ما كان قادماً.

مع مرور الزمن، ولأَن كلارك كان بالصدفة من خريجي أكسفورد بمنحة رودس ومن ولاية آركنسو، ومسيَّس كثيراً، بنظر الكثير من رجال الجيش التقليديين، ساد اعتقاد بأن إِدارة كلنتون كانت وراءه. ولكن البيت الأَبيض، علىٰ النقيض مما اعتقده كثيرون في المؤسّسة العسكريَّة، وكما لاحظ شاليكاشڤيلي بعد سنوات، لم يبادر قط إِلىٰ دعم كلارك أَو إِلىٰ السؤال عن

أحواله أَو السعي للتأثير في حياته المسلكية. من المؤكد أَن الناشطين المدنيين كانوا ـ لأَنَّه كان قد سبق له أَن عمل مع عدد منهم، ولا سيما مع هولبروك ـ قبل دايتون وخلالها، مؤيدين له. ومن المؤكد بالمثل أَن كلارك، متنبهاً إِلىٰ أَن منصب القائد الأعلى للقوات في أوروپا موشك علىٰ أَن يصبح شاغراً، كان، مثله مثل الكثير من كبار القادة العسكريين في حالات مماثلة، قد حاول، بهدوء، كسب الدعم والتأييد عبر جعل المدنيين يعرفون أَنَّه كان راغباً في الحصول علىٰ المنصب. أَمَّا فيما يخص الرئيس نفسه فإِن كلنتون كان فقط، لدى ترشيح كلارك لمنصبي القيادة العليا (الجنوبية والأوروپية)، قد سأل شاليكاشڤيلي بصورة شبه عرضية عما إِذا كان كلارك الشخص المناسب للمنصب. ومع ذلك فإِن الاعتقاد بوجود علاقة لكلارك بكلنتون ظل راسخاً ـ وهو ليس إِيجابياً بالضرورة في ثقافة عسكريَّة بقيت علىٰ امتداد الجزء الأكبر من الفترة الرئاسية الثانية شديدة الارتياب من الرئيس وممن هم حوله.

ما كان الجيش يكرهه في وس كلارك كان باعتقاد وس كلارك نفسه، مزيجاً غير عادي بين ما هو شخصي من جهة ومسلكي من جهة ثانية. رغم مواهبه الواضحة الكثيرة، كان مفرط التهور والغرور، شديد الثقة بأَنَّه علىٰ صواب، وبالتالي شخصاً لا يتقن فن الإِصغاء ويصعب التعامل معه. أضف إِلىٰ ذلك أَن الناس كانوا يشعرون بمبالغته في الاستغراق برسالته ـ وقد بدا كثير الاستغراق في شؤونه الأنانية الذاتية لنقاده ـ مما كان يجعله بالغ القسوة مع العاملين معه. ظل مفتقراً إِلىٰ الدفء والإِنسانية اللذين يحتاج إِلىٰ التحلي بهما القادة العظماء حقاً ـ وهما من المواصفات المرغوبة كثيراً تقليدياً لدى أي شخص يقوم بإِرسال الشباب إِلىٰ المعركة. كان ثمة ما هو أَكثر من عنصر حقيقة في ذلك الاعتقاد، برأي شاليكاشڤيلي. فكلارك لم يكن الأَكثر دفئاً بين الرجال؛ بل ظل دائم الانشغال المهووس بأحادية الهدف العسكري ـ غير قابل للمساومة والحلول الوسط بصورة مطلقة تقريباً إِذا ما اعترض سبيله شيء، أي

شيء. صحيح أنَّه ربما كان حريصاً ومهتماً بأحوال عناصره وتدريبهم، وربما كان يرسلهم عند الحاجة إلىٰ المعركة وهم في أفضل الظروف الممكنة، غير أنّه لم يكن يستثير أية مشاعر أبوية ـ **يا له من عجوز طيب!** كما أنّه لم يفز بأي من تلك الألقاب الرائعة العتيقة التي يحلو للجيش أن يضفيها علىٰ قادته، تعبيراً عن الاحترام مع نوع من الإعجاب القسري ـ الفولاذ البارد، مايك الحديدي، بطل المبارزة، جو البَرْق، بيل الجاموس، برميل الفحم ويلي. لقد عُرف باسم وس بدلاً من وسلي ـ تلك هي المرتبة التي وصل إليها.

غير أن ذلك لم يكن عيباً قاتلاً في مستوى كلارك، باعتقاد شاليكاشڤيلي، لأن الرجل كقائد أعلىٰ لم يكن مطالباً في الحقيقة بالإكثار من الاختلاط بالوحدات والقطعات، وكان مرؤوسوه ـ قادة الفرق والألوية والأفواج ـ قادرين علىٰ سد الثغرة علىٰ الصعيد الإنساني. أمّا الأكثر أهميَّة فقد تمثَّل بالقدرات المهنية والفكرية المتفوقة حقاً التي كان يستطيع أن يضفيها علىٰ المنصب؛ تلك القدرات التي ستكون الحاجة إليها ماسّة جداً في أوروپا مع بقاء البلقان أزمة متفاعلة وقابلة للانفجار. ومع ذلك فإن الشكوك بكلارك بقيت عميقة الجذور في عمق هيكلية الجيش والمؤسَّسة العسكريَّة. لم يكن شديد الفظاظة أو كثير البرودة أو متقد الحماس فقط. لقد كان، بطريقة ما غريباً عن ثقافة الجيش وعالمه. ما اعتبره محبوه ثقة بالنفس محمودة، رآه مبغضوه مبالغة في الاعتداد بالنفس وتطوُّساً. ما اعتبره محبوه تركيزاً علىٰ الهدف، رآه آخرون جريمة زائدة من الطموح الشخصي. كان كبار الضباط المحايدين في موقفهم منه قليلين، وجزء لا يستهان به من مجموع شريحة كبار قادة الجيش لم يكن يشعر بالاطمئنان إليه ومعه. هل كان واحداً منهم حقاً؟ هل كان مبالغاً في التلوث بالسياسة، شديد الولع بالظهور والنجومية؟ هل كان طموحه متجاوزاً للحدود المقبولة؟

تم تعيين كلارك لتولي أهم منصب قيادي في الجيش لحظة كانت منطقة

البلقان موشكة علىٰ الانفجار مرة ثانية. ونظراً لشخصيته ـ كان من نمط (آ) بل وربما (آآ)، استثنائي التشدّد والحماس، رجلاً لم يكن يعرف معنى الفشل والظروف غير المواتية ـ لم يكن من المحتمل أن يبقى لاعباً سلبياً. كان قد حصل علىٰ تطوره الخاص حول موضوع البلقان. فحين باشر الاضطلاع بدور معين للمرة الأولى في البلقان، فيما قبل دايتون، كان قد شاطر الجيش توجُّسَه العام من التورط في العمليَّة. وفي 1993م، بعد قيادته لفرقة الخيالة الأولى، كان قد جاء إلىٰ واشنطن لخدمة رئيس هيئة رؤساء الأركان بوصفه الضابط جي ـ 5 المسؤول عن الخطط الاستراتيجية للشؤون العسكريَّة السياسيَّة. حدَّثه سلفه اللفتنانت جنرال (اللواء) باري ماكّافري، مباشرة تقريباً، عن البلقان، حول مدى صعوبة الأَمر واحتمال تطلب وقف الاشتباكات إِنزال بضع مئات من آلاف الجنود علىٰ الأرض. جوهرياً لم يعترض كلارك علىٰ ذلك الرأي. وبعد ذلك، في 1994م خلال إِحدى رحلاته البلقانية، كان كلارك قد ارتكب حماقة مرعبة. كانت الإِدارة دائبة علىٰ التصارع مع عدوانية صرب البوسنة حين قام بزيارة المنطقة. اقترح كبير الضباط البريطانيين في المنطقة، مايكل روز، أَن يجتمع كلارك بقادة صرب البوسنة. كان من المفروض ألا يقدم كلارك علىٰ ذلك، غير أَن روز ظن، علىٰ ما يبدو، أَن من الممكن إِنجاز الاجتماع في السر ـ ولم يكن كذلك. بتصرف يخلو من الحكمة اجتمع كلارك مع الجنرال رادكو ملاديتش، ذلك القائد المشهور بقسوته لصرب البوسنة، وبتصرّف أَكثر افتقاراً إِلىٰ الحكمة والعقل، تبادل معه القبعات. تفجر طوفان من الانتقادات وبقي منصبه لبعض الوقت معلقاً في الهواء بل في مهب الريح.

سارع هولبروك، وهو غير متأكد من شخصية كلارك ـ متهور، لامع لا بأس، ولكن هل كان يتقن فن الإِصغاء؟ ـ إِلىٰ الوقوف في صفه وساهم في إِنقاذ منصبه له. لم تكن العلاقة بين الرجلين قد بدأت بشكل يبشِّر بالخير. كانا قد التقيا من قبل في واشنطن في إِحدى اللجان الحكومية المشتركة حول توسيع

الناتو برئاسة هولبروك، غير أن اللقاء كان سيئاً. كان كلنتون قد اتخذ قراره بشأن توسيع الناتو، غير أن كلارك، ممثّل البنتاگون في ذلك الاجتماع، كان قد تحدى هولبروك ـ كما لو أن القرار لم يكن موجوداً بعد. سرعان ما انقلب النقاش إلىٰ شجار. راح هولبروك يقول إن قرار التوسيع قد تم اتخاذه، فبادره كلارك بعبارة «هل تتهمني بالتمرد؟» يا له من رأس يابس، قال هولبروك بينه وبين نفسه، ولكن المياه ما لبثت أن عادت إلىٰ مجاريها تدريجياً.

بصفته جي ـ 5 تأثّر كلارك بجملة المقترحات الخاصة بالتوصّل إلىٰ تسوية ما والمطروحة أمامه. غير أنّه انجذب شيئاً فشيئاً إلىٰ قَدْر أكبر من الفعالية والتشدُّد بعد قضاء بعض الوقت مع أشخاص مثل هولبروك وكريس هيل، وخصوصاً من خلال الوقوف علىٰ ما كان ميلوسوڤيتش دائباً علىٰ اقترافه من فظائع. لعل أحداثاً جرت صباح التاسع عشر من آب/ أغسطس 1995م هي التي أقحمت الحرب في كيان كلارك الشخصي. كان في موكب سيارات متجه من جبل إيگمان إلىٰ سيراييڤو حين وقعت حادثة مأساوية. كانت طريق إيغمان ـ سيراييڤو، التي يتعين علىٰ كلارك مع عدد من الأمريكيين الآخرين المكلفين بإعداد مقترحات سلمية أن يقطعوها، معروفة بأنها إحدى أسوأ الطرق في أوروپا، كثيرة التعرجات، محرومة من الحماية، غير معززة، كابوساً في السلم وكابوساً مضاعفاً أيام قيام الصرب بإطلاق النار، في الكثير من الأحيان، علىٰ كل شيء متحرّك. كان هولبروك، قائد بعثة السلام، قد جادل ميلوسوڤيتش قبل يوم طالباً منه أن يأمر بضمان مرور أكثر أمناً، ولكن الأخير تعمّد ألاّ يوفّر ما طُلب منه. في اليوم التالي تحرّكت عربتان في قافلة إلىٰ سيراييڤو، هولبروك وكلارك في مصفحة أمريكيّة من طراز همڤي، مع ثلاثة مساعدين كبار حول القضية البوسنية هم بوب فريزر، الكولونيل نلسن درو، وجو كروزل، في ناقلة جنود مدرعة. تعثرت الناقلة بطريقة من الطرق وتدحرجت إلىٰ قاع الوادي. هرع كلارك إلىٰ قلب الوادي لمد يد المساعدة، متجاهلاً النداءات المحذرة من

الألغام، غير أنّه لم يجد إلاَّ جثث أصدقائه الثلاثة، وقد كانوا متمتعين بقدر كبير من الاحترام والإعجاب لدى زملائهم. أصيب الفريق الأمريكي بكارثة وبقي كلارك عاجزاً عن نسيان مدى عبثية موت هؤلاء، ولا قيام ميلوسوڤيتش بالكذب عليهم وفرض الرحلة رغم أنَّه كان قادراً على جعل الأمور أسهل وآمن بكثير. منذ ذلك الوقت فصاعداً ظلت مشاعر كلارك نحو ميلوسوڤيتش، برأي بعض الأصدقاء، ممهورة بالدم.

من المؤكد أن الشخص الأكثر تأثيراً على كلارك بعد الحادث لم يعد متمثلاً بهولبروك، بل بميلوسوڤيتش، ذلك المصاب بمرض الكذب والدائب باستمرار على كَسْب الوقت واستغلال الفرص، بنظر كلارك. في أحد الاجتماعات مع الزعيم الصربي قبيل دايتون في 1995م، غادر هولبروك الغرفة للحظات فسارع ميلوسوڤيتش إلى السعي لخداع كلارك، محاولاً التأثير عليه وآملاً، ربما، في أن يتمكّن من قطع شوط أطول على طريق وعيده وتهديداته مع رجل عسكري مقارنة بالمدنيين. تفاخر مدعياً أنَّه قادر على تحقيق النتيجة التي يريدها الأمريكيون من أي انتخاب في البوسنة لو سمح له بإجراء مثل هذا الانتخاب هناك. لقد كان، آخر المطاف، شديد التحكّم بالأحداث بما جعله قادراً على جعل تلك الدمى من قيادات صرب البوسنة ترقص تنفيذاً لأوامره. سأله كلارك بمكر: «وماذا عن جرائم الحرب الشنيعة التي اقترفها ملاديتش في سربرينيتسا إذا كان ما تقوله صحيحاً؟» لماذا كان ميلوسوڤيتش، وهو المتمتع بكل تلك السلطة والقوّة والنفوذ، قد سمح لملاديتش بقتل الآلاف من المسلمين هناك؟ رد ميلوسوڤيتش قائلاً: «جرائم ليست جرائم أنا. إنها جرائم ملاديتش. أنا نصحت ملاديتش بعدم فعل ذلك، لكنه لم يسمع ما قاله أنا». اكتفى كلارك بالإصغاء وهو يقول بينه وبين نفسه: «نعم، أنت تستطيع أن تتحكم، مئة بالمئة، بأي انتخاب، غير أنك عاجز في الوقت نفسه عن منع جنرالك بالذات من اقتراف جريمة القتل الجماعي. لا أعتقد أنني أستطيع تصديق الكثير مما تقوله بعد الآن».

وصل كلارك إِلىٰ بروكسل صقراً تماماً منتصف سنة 1997م، ومع تصاعد التوترات بين جيش تحرير كوسوڤا والصرب، ما لبث أن زاد حركية ونشاطاً. لم تكن القصة، بنظره، سوى إِعادة لسيناريو الأحداث التي جرت في البوسنة، واعتقد بأن ميلوسوڤيتش كان مسؤولاً مسؤولية كاملة عن الاضطراب المتزايد. أدَّى ذلك، بطبيعة الحال، إِلىٰ وضع كلارك في حالة صراع مع كبار قادة الجيش هناك في الپنتاگون علىٰ مستويين. فمن ناحية كان أولئك لا يريدون إِلاَّ الحد الأدنى الممكن من الحركية العسكريَّة في البلقان، ومن ناحية ثانية، لم يكونوا واثقين كلياً من أن الصرب كانوا الطرف المذنب الوحيد. فعدد غير قليل من كبار ضباط الجيش كانت تراودهم شكوك ذات شأن حول الأَلبان وجيش تحرير أَلبانيا مع قَدْر من الاحتقار لهما، اعتقاداً منهم بأن هؤلاء ربما كانوا وطنيين، ولكنهم كانوا، في الوقت نفسه، تجار مخدرات ومهربين وفرسان أسواق سوداء. مع حلول أوائل سنة 1998م، فيما الإِدارة غارقة حتى أذنيها في فضيحة لوينسكي، بات كلارك متأكداً مئة بالمئة من استحالة وضع حد لميلوسوڤيتش دون استخدام القوَّة.

ما ضاعف من رسوخ قناعة كلارك هذه تمثَّل بمجزرة عائلة يشاري. كان آدم يشاري أَحد طلائع مقاتلي جيش تحرير كوسوڤا وأحد الناشطين الحركيين، وكان اقتحام صربي سابق لمنزله بهدف إِلقاء القبض عليه أَو قتله قد فشل. غير أَن الصرب عاودوا في الخامس من آذار/ مارس 1998م إِلىٰ تطويق مجمع يشاري السكني وانقضوا علىٰ العائلة التي كانت محجوزة في القبو بقذائف المدفعية والقنابل اليدوية. تمخض الهجوم عن مذبحة حقيقية. كانت باسارتا يشاري مع جدتها حين قام أَحدهم بإِلقاء قنبلة إِلىٰ داخل القبو. ومما قالته الفتاة لاحقاً «قُذِفت الجدة إِلىٰ الغرفة المجاورة. بدأت أختي تتوسل طالبة الماء. صرخت «ماما، ماما!»»[2]. غير أَن أمها كانت قد فارقت الحياة. في المحصلة، كان

(2) **فرونتلاين**، 22/ 9/ 2000م.

الصرب قد قتلوا ثمانية وخمسين شخصاً، بمن فيهم ثماني عشرة امرأة وعشرة أطفال دون السادسة عشرة من العمر.

وبعد ذلك بات كلارك مقتنعاً بأن الزعيم الصربي لم يشعر بأي ندم علىٰ قتل المدنيين الألبان. بل وقد سبق لميلوسوڤيتش، في الحقيقة، أن أبلغ كلارك بأن الصرب يتقنون فن التعامل مع القوميين الألبان ـ وقد نجحوا في أوقات سابقة. سأله كلارك: متى كان ذلك؟ فرد عليه ميلوسوڤيتش: «في درينيتشا سنة 1946م، بعد الحرب مباشرة» وكيف؟ تساءل كلارك، فجاء رد ميلوسوڤيتش: «نقتلهم جميعاً. صحيح أن ذلك استغرق وقتاً ولكننا نقتلهم جميعاً»[3]. وبالتالي فإن كلارك بدأ يدعو إلىٰ ويؤيد فكرة استخدام القوّة ضد الصرب ـ التهديد بالقصف علىٰ الأقل ـ لدى الشريحة العليا من المسؤولين المدنيين كما لدى كبار القوم في الپنتاگون علىٰ حد سواء. بات كلارك مقتنعاً بأن تلك كانت الطريقة الوحيدة لإجبار ميلوسوڤيتش علىٰ الجلوس إلىٰ مائدة التفاوض. وإلاَّ فإنه كان سيبقى علىٰ الدوام دائباً علىٰ اختبار حدود الصبر وعلىٰ التلاعب بالأعصاب. فالعبارة التي استخدمها كلارك هي أن ميلوسوڤيتش كان مدمناً علىٰ «الاصطدام بحاجز القفز العالي»، أي أنّه كان مثل بطل في رياضة القفز العالي أدمن تحقيق رقم قياسي جديد، واصطدم بالحاجز بعد كل قفزة. ما من شيء كان قادراً على وقفه سوى استخدام قوة الناتو، حسب اعتقاد كلارك.

(3) جوداه، 187؛ مقابلتان مع كلارك وهولبروك.

الفصل الخامس والثلاثون

خلال فصلي الربيع والصيف من سنة 1998م، ظلت أعمال العنف تزداد حدة. كانت العمليَّة الآن لعبة بوكر بثلاثة لاعبين (أو أربعة لاعبين إذا أضفنا الأوروپيين إلىٰ القائمة). ثمة كان الطرف الصربي، وهو الطرف الدائب علىٰ زيادة عدوانيته باطراد. ثمة كان جيش تحرير كوسوڤا، متمتعاً بجرأة متنامية ومستخدماً استراتيجية ماكرة وبارعة ضامنة، حتى عند خسارته لهذه المعركة أو تلك، لأن يظهر بمظهر الشهيد بسبب العنف المتوقع من جانب الصرب والمواقف المحددة مسبقاً لمختلف الأوساط الدولية. كان جيش تحرير كوسوڤا معوّلاً علىٰ ما ليس أقل من بقاء ميلوسوڤيتش هو هو ميلوسوڤيتش نفسه. أمَّا الأمريكيون فقد كانوا ميّالين إلىٰ تقليص الوحشية والهيمنة الصربيتين في كوسوڤا، ولكن دون استعداد كبير للتحرّك بسبب جملة العقبات السياسيَّة الهائلة المنتصبة في وجه الرئيس مع عزوف طبيعي عن استخدام القوَّة. فالشيء الأخير الذي كان كلنتون يريده في طبقه هو أي نوع من أنواع إمكانية التدخّل في البلقان. في حين كان الأوروپيون، وهم غير واثقين من مدى استعدادهم للإقدام علىٰ أي مزيد من التدخّل في البلقان، ينتظرون من أمريكا أن تبادر إلىٰ الإمساك بدفَّة القيادة. دأب الأوروپيون علىٰ الحديث عن ضرورة استصدار قرار من مجلس الأمن الدولي قبل أي تحرك في كوسوڤا ـ وقد كان ذلك مستحيلاً، بعلمهم جميعاً، لأن الروس كانوا سيستخدمون الڤيتو بالتأكيد ـ للهروب من مواجهة المشكلة.

كان من شأن دور جيش تحرير كوسوڤا أَن يتسم بالحسم. فحين كان الأَمريكيون قد حاولوا التعامل مع البوسنة، تمثَّلت مشكلتهم الكبرى بلجم الصرب. أَمَّا في كوسوڤا فقد تعين عليهم أَن يوقفوا العدوان الصربي أَيضاً، جنباً إِلىٰ جنب مع التعامل مع جيش عصابات ذكي دائب علىٰ إِقامة مجده علىٰ استثارة أقوى نزعات العنف والإِرهاب لدى الصرب. ما من منظمة فدائية التأمت وطفت علىٰ السطح كقوة رئيسية أسرع مما فعل جيش تحرير كوسوڤا. ففي بدايات 1997م لم يكن إِلاَّ نتاج خيالات عدد من الأَلبان؛ أَمَّا مع حلول الأشهر الأولى من سنة 1998م فكان، حسب تعبير الكاتب تيم يوداه (جوداه)، قد «خرج من الأشباح»[1]. وفي أوائل سنة 1998م نشرت الأمم المتحدة أرقاماً بينت أَن جيش تحرير كوسوڤا كان مسؤولاً عن واحد وثلاثين هجوماً في 1996م، خمسة وخمسين هجوماً في 1997م، وستة وستين هجوماً خلال الشهرين الأولين من سنة 1998، وقد كانت هجمات تصاعدت من حيث خطورتها، مستوى الأَسلحة، ودرجة العنف. بدا الأَمر مختلفاً جداً عن البوسنة. في حين كان البوسنيون ضد العنف وضحاياه، فإِن الأَلبان، أَو جيش تحرير كوسوڤا علىٰ الأقل، كانوا **راغبين في العنف** وتوّاقين للظهور بمظهر ضحايا الأَعمال الانتقامية الصربية.

سرعان ما نجح بوب گلبهارد، الذي كان قد تولى مهمة هولبروك السابقة كمبعوث أَمريكا الخاص إِلىٰ البلقان، في استعداء الأَلبان والصرب علىٰ حد سواء. ثمة أناس معينون في البلقان وواشنطن ضغطوا في سبيل ضمان عودة هولبروك إِلىٰ البلقان وإِلىٰ الإِدارة، ولكن أولبرايت قاومت لبعض الوقت. ربما كانت هي وهولبروك يرغبان، عموماً، في الحصول علىٰ النتيجة ذاتها في البلقان، غير أَن علاقتهما الشخصية كانت في الحضيض. ومع ذلك فإِن هولبروك ما لبث أَن تمت استعادته أخيراً بفضل قيام كل من ساندي بيرگر (بدفع

(1) جوداه، 137.

من وس كلارك المؤمن بأن الميدان كان بحاجة ماسة إلىٰ وجود هولبروك) وستروب تالبوت بالدفاع عن فكرة الاستعادة. ما لبث صاحب المنصب الجديد ـ القديم، هولبروك، أن قام بتسع زيارات لبلگراد للتعامل مع ميلوسوڤيتش. غير أن أوراقه كانت ضعيفة بسبب اللعبة الثلاثية الجديدة علىٰ الأرض، التفويض المحدود من جانب البيت الأبيض، والحذر الذي كان الكونگرس حريصاً علىٰ إبدائه. كانت الأوامر التي زُوِّد بها هولبروك عند الإنطلاق، وهي أوامر غير منطوقة ولكنها واضحة طالما أن السنة هي سنة انتخابات، تقضي بالعمل علىٰ كسب الوقت، السعي لتحقيق تسوية ما، والحرص علىٰ جعلها تبدو، إن أمكن، أفضل مما هي في الحقيقة.

إذا كانت دايتون صعبة، فإن كوسوڤا كانت أكثر صعوبة. اكتشف هولبروك أن ميلوسوڤيتش لم يكن أُلعباناً مراوغاً فقط كما في الماضي، بل وغاضباً شديد السخط علىٰ تضافر الجميع ضده. كان غاضباً لأن الكوسوڤيين كانوا يفعلون به الآن ما كان هو قد هدد الغرب بأن يفعله ضده ـ كانوا دائبين علىٰ تكوين ڤيتنام علىٰ أرضه ووطنه السيادي بالذات. شكا من عدم تعاطف الغرب معه، غير أن كلمة التعاطف لم تكن هي الكلمة المناسبة. كان الرجل شاعراً بأن الغرب كان، ولو ببطء، عاكفاً، مرة أُخرى، علىٰ تنظيم نفسه في سبيل أن يوقفه عند حده. رأى هولبروك أن جيش تحرير كوسوڤا لم يكن مختلفاً مثقال ذرة من حيث الخبث والمراوغة عن ميلوسوڤيتش. ففي أثناء رحلاته المكوكية في المنطقة خلال ربيع 1998م، كان هولبروك قد زار قرية ألبانية حيث كان جيش تحرير كوسوڤا قد أبدى رشاقة إبراز أحد فدائييه ـ متنكباً كلاشينكوفه ـ واقفاً بجانبه في جميع لقطات التصوير. لم يكن هولبروك عن أن استغلالاً بشعاً قد مُورس ضده؛ كان مرة أُخرى يكتشف أن لا شيء في البلقان كان سهلاً. ثارت حفيظة ميلوسوڤيتش حين رأى الصور، معتقداً أن هولبروك كان يساهم في الدعاية لجماعة إرهابية وفي إضفاء الصفة الشرعية عليها.

بات ميلوسوڤيتش الآن بين براثن قوى العنف التي ساهم في إطلاقها. كان قد تمتع بشيء من المرونة في البوسنة؛ أمّا في كوسوڤا فقد كان الوضع مختلفاً. لم يكن المفاوضون الغربيون متمتعين، هم أيضاً، بقدر كبير من المرونة في الوصول إِلىٰ أهدافهم المتمثّلة بمفاوضات يستطيعون من خلالها ممارسة الضغط علىٰ ميلوسوڤيتش لإِجباره علىٰ منح ألبان كوسوڤا قدراً أكبر من الحكم الذاتي. في أوائل 1998م، كان جيش تحرير كوسوڤا متقدماً، وبدت قواته أكثر استعداداً لهذا النوع من حرب العصابات من الصرب الذين كانوا قد فوجئوا إِلىٰ هذا الحد أو ذاك. أمّا بعد ذلك، في تموز، فقد بدأت الكفة تميل إِلىٰ الاتجاه الآخر إِذ أدخل الصرب قوات أكبر وأسلحة أثقل إِلىٰ المعركة فضلاً عن الحصول علىٰ معلومات استخباراتية أفضل. ففي تموز نجحوا في نصب كمين علىٰ نطاق واسع لحوالي سبعمئة ألباني، ملحقين هزيمة كبيرة بجيش تحرير كوسوڤا. راح الصرب يفيدون بقدر مفرط من القسوة حاصدين الكوسوڤيين بالرشاشات، حارقين المحاصيل، ومدمرين القرى. الآلاف من الألبان، مدفوعين بقوات البوليس والجيش الصربية، بدؤوا يهجرون قراهم ويلوذون بالجبال أو البلدان المجاورة. ثمة كارثة إِنسانية مرعبة باتت تلوح في الأفق مرة أُخرى. فمع حلول آب/ أغسطس 1998م، قدرت الأمم المتحدة عدد اللاجئين بمئتي ألف. بنظر الإِعلاميين الغربيين المتابعين لأحداث البلقان، بدا الوضع شديد الشبه بما سبق أن حصل في البوسنة.

في خريف 1998م، بدت الأمور كما لو كانت مجمدة. بدا وس كلارك منتبهاً إِلىٰ حقيقة أنّه كان ناشطاً أكثر من معظم الآخرين في الجيش. باتت تقاريره الموجزة المرفوعة إِلىٰ كبار المسؤولين المدنيين والجيش متزايدة التشاؤم، وكان ثمة في الپنتاگون، حسب علمه، من يعتبرها دعوة إِلىٰ الحرب. فحين تحدث أواخر 1998م مع الجنرال دنيس رايمر عن مدى سوء الأحوال، اقترح علىٰ الأخير أن يطلب موارد إِضافية استعداداً، فأجابه رايمر: «غير أننا لا نريد أن نقاتل هناك». وافقه كلارك غير أنّه أصر علىٰ القول بأن التحلي بالحكمة

تقضي بالاستعداد، إلاَّ أنَّه شعر بأن رايمر لم يتأثَّر بكلامه[2]. من المؤكد أن كره كلارك لميلوسوڤيتش كان كبيراً بما جعله شديد التوق، برأي بعض المحيطين به، للاهتداء إلىٰ الحدث المناسب الذي من شأنه أن يحدد الصيغة النهائية لسياسة أمريكا المعادية له. كان كلارك قد دأب علىٰ دراسة شخصية ميلوسوڤيتش لمدة ثلاث سنوات، إذ قال مرة: «ربما كنت فريداً بين قادة القرن العشرين من حيث معرفة خصمي علىٰ هذا المستوى من الإحاطة والعمق»[3]. كان واثقاً حتى من معرفته بميلوسوڤيتش حين يكون كاذباً إذا لم يكن قد رتب أكاذيبه بصورة مسبقة، لأن شيئاً من التردد كان سيوشي كلامَه لدى قيامه بضبط كلماته وتكييفها مع خطة الأحداث. كذلك كان كلارك قد أتقن فن تقليد ميلوسوڤيتش العاكف علىٰ خداع الغربيين وتملقهم حول براءته من جرائم الحرب في البوسنة.

كان كلارك قد أمضى جزءاً كبيراً من سنة 1998م وهو يريد أن يزيد من الضغط علىٰ ميلوسوڤيتش. أخيراً، وافقت واشنطن في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر مع قبول الحلفاء للفكرة ـ علىٰ تهديده بضربات الناتو الجويَّة ما لم يتراجع في كوسوڤا. جرى نقل قاذفات البي ـ 52 من الولايات المتحدة إلىٰ إنكلترا تمهيداً لوضع التهديد موضع التنفيذ. وحين ذهب هولبروك إلىٰ بلگراد منتصف تشرين الأول/ أكتوبر لتسليم إنذار أخير، اصطحب معه اللفتنانت جنرال مايك شورت المرشح لقيادة قوات كلارك الجويَّة هناك إذا ما اندلعت حرب طيران ناتوية ـ إقناعاً لميلوسوڤيتش بمدى جدية الوضع. قال ميلوسوڤيتش موجهاً كلامه إلىٰ شورت «إذن أنت هو الرجل الذي سيقوم بقصفي». رد عليه شورت بسرعة وفقاً لسيناريو سبق له أن أعدّه مع هولبروك قائلاً: «أمسك بالبي ـ 52 بيد وبطائرات استطلاع اليو ـ 2 باليد الأُخرى. أنت من يحدد أيهما سأستعمل».

---

(2) مقابلة مع كلارك؛ كلارك، 164 ـ 165.

(3) **فرونتلاين**، 22/ 2/ 2000م، پيتر بوير، مايكل كيرك، وريك يونگ، مراسلون.

كان شورت صريحاً وواثقاً من هدفه، مع شيء من الإِحساس بالمفاجأة إِذ وجد نفسه مضطلعاً بدور شبه دبلوماسي، غير أنّه لم يكن خجلاً من البوح بما عنده، لمنع قصف الناتو كان الغرب يريد القيام بتحليقات تصوير استطلاعية فوق كوسوڤا ـ دون التعرّض لأي خطر من صواريخ سام العائدة لميلوسوڤيتش. طلب منه شورت أَن يخرجها من كوسوڤا. فرد عليه ميلوسوڤيتش قائلاً: «لن تستطيع أيها الجنرال أَن تجبرني علىٰ نقل صواريخي الإِس. إي. ـ 6. إِنها موجودة حيث هي منذ سنوات. [يشكل تحريكها] كابوساً لوجستياً. لا أستطيع ـ لا تطلب مني ذلك. سأقوم بإِطفائها فقط، وسيكون الأَمر علىٰ ما يرام».

كان شورت المحروم من النوم منذ يومين سريع الاستثارة. كان قد عكف علىٰ مراقبة الصواريخ الصربية خلال الأسابيع الستة الأخيرة ويعرف أَن ميلوسوڤيتش كان يحرّكها كل يوم إِلىٰ موقع جديد في كوسوڤا. فجأة قال شورت: «إِنك تصر علىٰ طحن الرمل فوق مؤخرتي، أيها السيد الرئيس». سأله ميلوسوڤيتش: «ما معنى تطحن الرمل علىٰ مؤخرتي؟» أجابه شورت إِن العبارة تعني المضايقة الشديدة ـ عبارة شعبية أَمريكيَّة عسكريَّة أُخرى بدأ الصربي قادراً علىٰ فهمها. وبعد ذلك قام شورت بإِفهام ميلوسوڤيتش أَنَّه كان يعرف كل شيء، إِلىٰ أين كان يقوم بتحريك الصواريخ ومن أين. مضيفاً: «عليك الآن أَن تخرجها من كوسوڤا!» وعندئذ بدا ميلوسوڤيتش واقفاً علىٰ حقيقة أَن مرحلة من اللعبة التي كان يلعبها قد انتهت، وأَن اللاعبين كانوا جميعاً قد انتقلوا إِلىٰ المحطة التالية علىٰ رقعة اللعب. حان وقت الإِذعان، ولو مؤقتاً فقط، قال: «أنت علىٰ صواب. سأقوم بنقل الصواريخ»[4].

بعد يوم، والقواعد الناظمة لنوع من الاستطلاع السلمي ما تزال معلقة في الهواء، التفت شورت إِلىٰ نظيره الصربي فيما كان الاجتماع موشكاً علىٰ

(4) جوداه، 186؛ مقابلتان مع شورت وهولبروك.

الانفضاض دون نجاح، بإخفاق كان من شأنه أن يفضي إلىٰ الضربات الجويَّة الأمريكيَّة ـ الناتوية. لقد كان شورت، آخر الأمر، رجل سلاح الجو، وهو وحده في الغرفة كان يعرف مدى هول سلاح التكنولوجيا العالية، مدى التقدم الذي تحقق في هذا المجال خلال السنوات السبع الأخيرة منذ عاصفة الصحراء. قال شورت: «لماذا لا تخرج الآن وتقوم بجولة أخيرة وتلقي نظرة أخيرة علىٰ مدينتك كما هي اليوم لأنها لن تبدو قط بتلك الصورة مرة أُخرى». ثم أضاف «أنا واثق من أنك تحدّثت مع نظرائك العراقيين عما ينبغي لك أن تتوقعه، حسناً، لك أن تنسى ما قاله لك العراقيون. فجبروتنا الجوي أقوى وأعظم وأشد تدميراً وأكثر دقة اليوم. لم يكن العراق إلاَّ البداية». وعد بأن القصف سيكون دقيقاً، سريعاً، عنيفاً، وشاملاً لكل شيء. محذراً: «لا شيء هنا سيبقى علىٰ حاله، إذا ضربنا».

كان هولبروك المتحرّك بتفويض محدود من واشنطن بالغ السرور بأداء شورت الفظّ، غير الدبلوماسي، ومراقباً ميلوسوفيتش في تلك الاجتماعات التشرينية، توصل إلىٰ استنتاج يقول بأن الأخير كان مرعوباً حقاً إزاء احتمال قصف الناتو. تدحرجت قطرات العرق علىٰ وجهه في اللحظات الحرجة. غير أن هولبروك ظل منتبهاً إلىٰ توقيت الاجتماعات. كانت هذه الاجتماعات التي رُتبت قبيل الانتخابات الأمريكيَّة تستهدف الحصول علىٰ أفضل تسوية ممكنة دون استخدام الطاقة القصوى ـ نظراً لأن العنصر الغائب الأكثر أهميَّة هو عنصر القوّات المسلَّحة البريَّة كقوّات ضابطة للعمليَّة. وبالتالي فإنّه كان يعلم أن أية اتفاقية يتم التوصل إليها كانت مرشحة لأن تبقى محدودة العمر. قد تُطبق لبعض الوقت، غير أن ميلوسوفيتش كان دائم البحث عن مهرب، وما إن يجده حتى تغدو إمكانية ضبطه محدودة. وستكون محدودة أيضاً لافتقارها إلىٰ مشاركة جيش تحرير كوسوفا ونواياه الطيبة، مما سيدفعه بصورة شبه مؤكدة إلىٰ السعي لاستغلالها.

أوائل تشرين الثاني/ نوڤمبر صوَّت الشعب الأَمريكي في الانتخابات الفرعية، وعلىٰ الرغم من أَن اسمه لم يكن علىٰ أية قائمة، فإِن الانتخاب دار حول شخص بيل كلنتون. لقد كان بشخصه أَو بشخصيته علىٰ الأقل القضية كلها بكثير من البساطة كما لو كان يخوض سباقاً لفترة رئاسية ثالثة. جاءت هذه الانتخابات متركزة علىٰ علاقة بيل كلنتون مع الشعب الأَمريكي. وقد حقَّق فيها نجاحاً متطرفاً فاجأ الكثيرين. لم يخسر الديمقراطيون بضعة مقاعد، بل كانوا قد كسبوا عدداً لا بأس به منها. مرة أُخرى كان كلنتون المحصور في الزاوية قد حقَّق عودة مدهشة، أَكَّدَتْ علاقته الغريبة والفصامية [الشيزوفرينية] بعض الشيء بالشعب الأَمريكي. لم يكن يحظى بالاحترام الذي حظي به ريگان، ومن المشكوك به أَن يتمكن من ذلك. فالكثير من الأَمريكيين الذين صوّتوا له أحبوه لاعتقادهم أَنَّه بارع إِلىٰ حد كبير، ولكنّهم كانوا قد تعلّموا ألا يثقوا به وصوّتوا له بشيء من التردد والريبة. بدا الأَمر وكأنّهم كانوا قد وقفوا ـ بعد التعامل معه عبر السنين ـ علىٰ حقيقة ما كان يجيده وما كان لا يجيده، وباتوا يميزون بين الوعود التي يمكنهم أَن يصدقوها والوعود التي يتعين عليهم نسيانها وإِهمالها.

فَهِم الأَمريكيون أَن كلنتون كان ـ في القضايا السياسيَّة كما في حياته الشخصية ـ فارس إِغواء وزير نساء كبيراً. كان مفرط الرشاقة عَقْلاً وقَدَماً، ورياح سياسيَّة متناقضة كثيرة جداً ظلت تهب من حوله وتحول دون بقائه صامداً. قد يحصل مستقبلاً علىٰ آيات العطف، الإِعجاب، الاحترام (فيما عدا هوليود، ذلك المركز العظيم للعواطف المصطنعة، حيث كان ابناً مفضلاً أَكثر من رونالد ريگان)، إِذا ما جرى، وحين يتم، استبداله بأناس أقل إِثارة وإِبهاراً. عندئذ سيكون كل واحد قادراً علىٰ الجلوس هنا وهناك والاستغراق في الكلام حول مدى نجاحه علىٰ صعيد التقمّص العاطفي والمشاركة الوجدانية، حول مدى إِتقانه لفن الكلام في ساعات الحداد القومي، وحول مدى الإِثارة المرافقة لمتابعة مشهد الخطر لشخص معلق بالصخور فوق الهاوية السحيقة، وهو يراوغ

مطارديه الأَكثر ادعاءً للاستقامة والفضيلة علىٰ اليمين. كما عن مدى نجاح الاقتصاد بطبيعة الحال، أَن تكون البلاد غارقة في بحر من البحبوحة والازدهار شبه الكامل لم يكن إِنجازاً ضئيلاً. وبصراحة كاملة فإِن ما حصل عليه الشعب الأَمريكي منه ومعه لم يكن أقل من صفقة حقيقية.

لم يخدع الأَمريكيين. كما لم يكن، كما بدا معتقداً أحياناً، أذكى منهم. لا، علىٰ الإِطلاق. كانت علاقة مصلحة ملائمة؛ لم يكن الشعب الأَمريكي، من جميع النواحي، أقل ذكاء منه. كان لدى الأَمريكيين، علىٰ ما بدا، معيار صدق يمكِّنهم من تقدير ورَوْز مستوى جدارته بالثقة في هذه اللحظة أَو تلك. ربما لم يكن مثالياً، ولكن الأَمريكيين كانوا يعرفون ما هم حاصلون عليه، ويتخوفون من أَن تكون البدائل المطروحة أسوأ بكثير. لم يخدعهم إِلاّ حين كانوا راغبين في أَن يُخْدَعوا. ومهما يكن فإِن كلنتون لم يكن دنيء الروح، وما جعل كثيرين من نقاده وخصومه شديدي الاضطراب حتى بدوا دنيئي الأرواح هي موهبته الاستثنائية مضافة إِلىٰ موهبة زوجه الاستثنائية أَيضاً. بدا كما لو كان دائم الهدوء في حين ظلوا غاضبين علىٰ الدوام. كان يحتل الوسط والمركز، ويبقون هم عند التخوم والأَطراف. لم تكن تلك مهارة سياسيَّة بسيطة، مهارة دفع الخصوم والمعارضين إِلىٰ مهاوي عدم التوازن الذهني والتطرّف السياسي. كان أعداؤه، خصوصاً أولئك المحافظون الأصغر سناً الذين كانوا قد جاؤوا إِلىٰ الكونگرس مُتْرعين حتى الثمالة باستقامتهم وشديدي اليقين بحقائقهم الإِيديولوجية، يكرهونه، هو وزوجه، بعنف تجاوز ما هو إِيديولوجي ليصبح شخصياً بقوة حتى انقلب إِلىٰ حقد مؤهل بصورة شبه دائمة لإِلحاق الهزيمة بأصحابه. وبالتالي فإِنهم، بغضبهم، دأبوا علىٰ صب الماء في طاحونته.

إِن الأشياء التي أثارت حفيظة معشر اليمين الجمهوري والأصوليين حول كلنتون ـ أساليبه الإِباحية الفاضحة، عدم وفائه ليس لزوجه فقط بل ولكلامه بالذات، تبنيه لقضايا وأفكار كانت تخص هؤلاء من قبل ـ لم تكن لتنطوي علىٰ

قَدْر كبير من الإِزعاج بالنسبة إِلىٰ الشعب الأَمريكي. فالأَمريكيون لم يكونوا شديدي الاهتمام بحال حياته الزوجية. قد تساورهم الشكوك حول خيانته لزوجه، غير أَن ذلك لم يكن باعتقادهم شأناً من شؤونهم. ربما كانوا يفضلون أَن يتعاطفوا معه أَكثر، يحبوه أَكثر، ويثقوا به أَكثر بالتأكيد، غير أَن البلاد كانت تدار بنجاح، الاقتصاد كان صاعداً، وقد بدا، فيما يخص الشؤون الداخليَّة، محاطاً بطائفة من الناس الموهوبين، المؤهلين، والأكفاء. كان مجتهداً ومتمتعاً بقدر واضح من الذكاء. فأي شخص كان سيخلفه، من اليسار أَو من اليمين، ربما لن يتناغم مع المزاج القومي عند بداية القرن الجديد بالقدر نفسه من النجاح. من الواضح أَنَّه كان وَسَطياً، عادلاً **وحديثاً**، كما كان راغباً في فعل ما هو صحيح لصالح أكبر عدد ممكن من الناس.

كان كلنتون قد نجح في جعل الديمقراطيين، لَحْظياً علىٰ الأقل، حزب الطبقة الوسطى، لا الفقراء، حتى إِذا كان فاحشو الغنى هم الذين كانوا، مرة أُخرى، أوائل المستفيدين من إِدارته. غير أَن الحزب نفسه كان، في الحقيقة، دون أَي مركز. إِلاَّ أَن كلنتون كان قد نجح وبقدر كبير من البراعة في نَحْت مركز وسط للحزب، قضية بعد أُخرى، وصورة إِثر صورة، بما مكّنه من دفع الحزب الجمهوري إِلىٰ مدى أبعد مما كان يريده جهة اليمين. بالنسبة إِلىٰ الكثير من الشباب وممن هم في سنه، أولئك الذين كانوا قد صوّتوا له، لم تكن تناقضاته السياسيَّة مختلفة عن تناقضاتهم. وكان بعض مَنْ هم أكبر سناً، أولئك الذين كانت الهوة الثقافية والسياسيَّة التي تفصلهم أوسع قليلاً، يعتقدون بأنّه كان يحسن القيام بعمله، وبأن قَدْراً كبيراً من النقد الموجّه إِليه لم يكن عادلاً ببساطة، قاسياً بصورة غير مقبولة، وشخصياً. لقد كان يؤدي عمله بشكل جيد؛ تلك هي الصفقة؛ ذلك هو السبب الذي انتخبوه من أجله.

كان الأَمريكيون يعرفون أَن فيه عيوباً وقبلوا بها. ربما كانوا يفضّلون مرشحاً أَكثر تحلياً بالفضيلة، غير أَن ثلاثين سنة من العيش في عصر وسائل

الإعلام حيث ظل كبار المسؤولين معرضين علىٰ الدوام لعمليات المعاينة والتمحيص الدقيق من جانب وسائل إعلام متزايد الإثارة، كانت قد عَلَّمَتْ الشعب الأَمريكي أَن يبقى متحلياً بقَدْر من الريبة إزاء الساعين إلىٰ الرئاسة ـ أَو أَي منصب رفيع آخر. فأخلاقيات نيوت گينگريتش وزملائه الأَكثر استقامة في الكونگرس سرعان ما تكشفت عن أنها أكبر وأعلىٰ صخباً علىٰ الصعيد النظري مما هي علىٰ مستوى الممارسة العملية، وتبين أَن هؤلاء لم يكونوا إلاَّ أشخاصاً يكثرون من رشق الحجارة ناسين أَن جميع الساسة الأَمريكيين رفيعي المستوى كانوا قد باتوا يعيشون في البيت الزجاجي نفسه.

ومع ذلك فإن الشعب الأَمريكي كان ـ ولو بصورة لا إرادية ـ قد أَصبح أَكثر دهاء ومكراً فيما يخص الأخلاق السياسيَّة خلال الفترة التي تزيد عن العقود الثلاثة التي شهدت تزاوج التلفزيون القومي والسياسة القوميَّة. ففي غضون تلك الفترة جرى، مثلاً، إغراق عائلة كندي، وقد اعتبرت في الأَيام الأولى للسياسة المتلفزة تجسيداً نموذجياً للسياسة الرومانسية ـ جميع أولئك الناس المتحلين بالوسامة والثروة والمتزوجين أزواجاً علىٰ المستوى نفسه من الوسامة والجمال والثروة ـ في مستنقعات الأوحال، ارتجاعياً. وشيئاً فشيئاً، ما لبثت صناعة فضائح المشاهير المزدهرة المطبوعة منها والمرئية أَن حَصَّنَتْ الشعب الأَمريكي. قد لا يبادر الناخبون العاديون إلىٰ صياغة معادلة ما تفترض كون الطبيعة الشخصية المطلوبة في أية حياة في عالم السياسة متطرفة مما يجعل النواحي الأُخرى للسلوك السياسي مرشحة أَيضاً لأَن تكون متطرفة. لقد كان الأمر، آخر المطاف، يدفع الناس الموهوبين إلىٰ رفض أَي وجود طبيعي متوازن، مع أزواج محبين وأطفال محببين وساعات عمل عادية، عبر السعي للحصول علىٰ المناصب الرفيعة والسلطة الأكبر، عبر السير في خط كان في الغالب مرشحاً لأَن يتمخض عن خراب الحياة الأسرية. ومع ذلك فقد بدا واضحاً أَن شيئاً كهذا كان يتطلب وجود قدر معين من الشحنة الجينية الإضافية

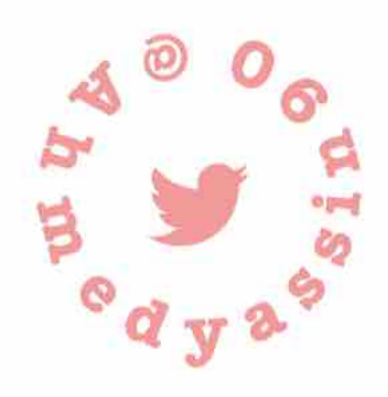
(أَو من الخلل) وأن ذلك الشرط بالذات قد يتجلى جنسياً. لم يعد ثمة أية مفاجآت كبرى في هذا الميدان.

وهكذا فإِن الشعب الأَمريكي بقي ملتزماً بدوره في الصفقة. لقد راوده نوع من الإِحساس بأن السياسة، ربما مثل رياضة هوليوود، مختلفة، بأن الكثير ممن كانوا الأَكثر نجاحاً في هذه المهنة لم يكونوا أَسْوياء تماماً ساعين إِلىٰ مناصب عادية ومتعاملين مع إِغراءات عادية، وبأن شهوة الكرسي والسلطة، في السياسة، بقيت، في الغالب، مصحوبة بشهوات استثنائية أُخرى تتجاوز الحدود المعيارية كثيراً. لا غرابة، إِذن، أَن الشعب الأَمريكي بات، سنة بعد سنة، أقل شعوراً بالخيبة والإِحباط، لدى اتضاح الحقيقة عارية كما هي. أقبل الأَمريكيون، بقدر أكبر من اللهفة، علىٰ التسليم بمعادلة ربما كانت تُقابل بشيء من الرفض لدى الأجيال السابقة، بمعادلة تقول إِن كلنتون كان ممتازاً بصورة مطلقة كسياسي، علىٰ صعيدي الموهبة والأصالة، من ناحية، ومعانياً في الوقت نفسه من اختلال عميق كإِنسان، من نواحي الطيش والإِسراف في النزعة الأنانية من ناحية ثانية، وإِن هذه السمات المتناقضة ظاهرياً لم تكن بعيدة عن الترابط. فمن طبيعة أَن يكون المرء سياسياً عظيماً أَن يبقى - حتى وهو يصغي بكل الاهتمام إِلىٰ ما يقوله محدثه - مشغولاً بذاته، مصمماً علىٰ جعل المرء يحبه، مركزاً كل تفكيره، حسب الظاهر، لا علىٰ المحدث، بل علىٰ نفسه هو فقط.

ما كان قد ساعد كلنتون في الانتخابات الفرعية تمثل بالكُره الواسع الذي شعر به الجمهور إِزاء الكثير من مطارديه. مرة أُخرى كان محظوظاً. فعلىٰ الرغم من أَن الجمهوريين كانوا قد حاولوا أَن يجعلوه، شخصاً وأخلاقاً، قضية الانتخابات المركزية، من الواضح أَن شعب البلاد كان أَكثر اشمئزازاً من نُقّاده، من المحقق الخاص، من ليندا تريپ تلك التي تلصَّصَتْ علىٰ امرأة شابة يفترض أنها صديقتها، من القيادة الجمهوريَّة، ومن وسائل الإِعلام المهووسة بغرام

الفضائح والأوحال، خصوصاً متبحري التلفزة، الدائبين علىٰ الاحتفال بالقصة والمغرمين بالحديث وإِعادة الحديث مرة بعد أُخرى حول الموضوع علىٰ الهواء، أولئك الذين أطلق عليهم الكاتب كالفن تريلين اسم: «ثرثاري أيام العطل».

علىٰ الرغم من أَن كلنتون كان قد تجنّب رصاصة قاتلة بمراوغتها، فإِنه بقي مجروحاً جرحاً بليغاً، وإِن لم يكن قاتلاً، علىٰ الصعيد السياسي، فضلاً عن أَن مرجعيته الأخلاقية تعرَّضت لقَدْر كبير من الانكماش. صحيح أَن أخبار الانتخابات كانت جيدة عموماً، غير أنّه كان لا يزال يواجه تهديد عملية إِدانة جارية علىٰ قدم وساق.


@Ahmedyassin90

الفصل السادس والثلاثون

مع بقاء البيت الأَبيض تحت الضغوط المتواصلة، الداخليَّة منها والخارجيَّة، كان اللاعب الأساسي علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة في واشنطن، مسمار العجلة في حكومة منقسمة علىٰ نفسها، كما اعتبره أَحد الزملاء، الشخص الأَكثر أَهميَّة بعد الرئيس نفسه، هو ساندي بيرگر. كان أَيضاً الشخص الوحيد من فريق القادة الأصلي الذي كان لا يزال يعمل في الإِدارة في سنتها السادسة الموشكة علىٰ بلوغ السنة السابقة من العمر. كان ليك قد رحل، وكرستوفر أَيضاً، وكذلك كل من پاول وشاليكاشڤيلي، أَمَّا كوهن فكان وزير الدفاع الثالث في الإِدارة، بعد آسپن وبيري. كان الرئيس ومستشاروه يصغون إِلىٰ أولبرايت كوزيرة للخارجيَّة أَكثر مما كانوا يفعلون حين كانت في الأمم المتحدة، ولكن حتى الآن كان ثمة مقاومة لضغوطها الداعية إِلىٰ الحركية. أضف إِلىٰ ذلك أَن شيئاً آخر كان مفقوداً: إِنها لم تكن واحداً من الشباب. في بداية رئاسة كلنتون كان بيرگر نائب ليك باختياره هو، غير أَنَّه ظل علىٰ الدوام، بسبب روابطه الشخصية الوثيقة مع الرئيس، لاعباً كبيراً، حتى قبل شغله للمنصب.

كان بيرگر رجل الإِدارة الهادئ، الشخص الأَقل انكشافاً من الجميع. وعلىٰ الصعيدين السياسي والعاطفي كليهما كان الأَكثر قرباً من الرئيس، مع امتلاك حَدْس يقيني عن مواقفه، حاجاته، ونقاط ضعفه في جميع الأَوقات. فما

يتطلبه رؤساء الجمهوريَّة في الولايات المتحدة علىٰ ذلك المستوى هو نوع من التزاوج بين قَدْر كامل من الولاء من جهة ونوع عملي جداً من الذكاء من جهة ثانية، وهما متوافران عند بيرگر. كثيرون من أصدقاء كلنتون الحميمين المزعومين، أولئك الذين وردت أسماؤهم في قائمة FOB الشهيرة، لم يكونوا في الحقيقة إلاَّ أشخاصاً ذوي علاقات عابرة قائمة علىٰ المصلحة المشتركة، بعضها طويل الأمد وبعضها الآخر آني، وقليل جداً منها ذات جذور عميقة وممهورة بخاتم الثقة الصادقة. أمَّا علاقة بيرگر بكلنتون فكانت خاصة. كانت بعيدة بصورة غير عادية عن المصالح الأنانية في أجواء مشحونة حتى الاختناق بالمطامح وأشكال حب الظهور. كانت صداقتهما متينة من الطرفين، دون أية شوائب، ومختلفة عن أية صداقة كلنتونية ناجحة أُخرى ربما باستثناء صداقته مع ستروب تالبوت. غير أَن بيرگر، خلافاً لحال تالبوت، كانت له صلة يومية مع الرئيس مما جعل كل من يحاول نسْف الجسر القائم بينهما محكوماً بالإِخفاق علىٰ الدوام. تمثلت نقطة قوة بيرگر بعزوفه عن السعي للحصول علىٰ أَي مزيد من السلطة أَو الشهرة، بحرصه الدائم علىٰ عدم تمكين ذاته من الوقوف في الطريق، وبقدرته علىٰ إِتقان قراءته لكلنتون. لقد كانت مواقفهما من معظم القضايا ـ ومن **سياسة** هذه القضايا ـ متطابقة تقريباً.

كانا قد التقيا للمرة الأولى في حملة ماكگڤرن في خريف 1972م، في آلامو، التي لا يمكنها أن تخطر ببال أَحد. كان بيرگر الشاب مشغولاً بكتابة الخطب لماكگڤرن، بعد أَن ساقته الحرب الڤيتنامية إِلىٰ معترك السياسة، وكان كلنتون عاكفاً علىٰ المساعدة في تنظيم حملة تكساسية لانتخاب عضو لمجلس الشيوخ يمثل داكوتا الجنوبية، لمنصب لا يسيل له كثير من اللعاب. بعد سنوات بقي موقف بيرگر من تلك الحملة متسماً بقَدْر غير قليل من الحماس. فقد أدرك، حسب تعبيره، ومنذ البداية، أَن حظوظ النجاح كانت محدودة، ولكن الحملة كانت، بسبب استنادها إِلىٰ فكرة قوية، فكرة إِنهاء ما كانت بنظر

الكثيرين من أبناء جيله حرباً مرفوضة، ولأنها حَشَدت الناس خلف رجل اشتهر بالاستقامة، قد أقحمت عدداً كبيراً من الشباب الموهوبين والمثاليين في العمليَّة السياسيَّة للمرة الأولى ـ في الخطوة التالية بعد مشاركتهم السابقة في التظاهرات الاحتجاجية الطلابية ضد الحرب. من النظرة الأولى إِلىٰ رئيس المستقبل وجده بيرگر شاباً طويل القامة مفعماً بالحماس في طقم أبيض ـ وكأنه ظل للكولونيل ساندرز ـ كثير الكلام عن آركنسو وسياسة الجنوب. كان الشاب زاخراً بالطاقة، بالذكاء، وبالطموح، وغير شاعر بأي اكتئاب حول استحالة فوز مرشحه بالمقعد. تذكر بيرگر شيئاً آخر إِضافة إِلىٰ قامة كلنتون ونشاطه؛ لقد بدا أَكثر تجذُّراً في إِقليمه المحلي ـ أعمق جذوراً آركنسوياً قلباً وقالباً ـ مقارنة بجميع من عرفهم بيرگر في ذلك الوقت. فالكثير من سياسيي المستقبل الذين كان يعرفهم في واشنطن، وقد كانوا جميعاً في أواسط العقد الثالث من أعمارهم، بدوا طموحين ولكنهم باتوا منفصلين جزئياً عن جذورهم. كانوا قد هجروا مساقط رؤوسهم للانتقال إِلىٰ واشنطن حتى يصبحوا جزءاً من لعبة أكبر يعمل كل منهم لدى غيرهم. أمّا كلنتون فقد كانت جذوره، خلافاً لحال أولئك، متضافرة مع مستقبله السياسي. كان سيدخل السباق علىٰ المنصب في مسقط رأسه. لم يكن يحلم بممارسة السلطة دون مغادرة واشنطن.

في الثمانينيّات ازدهرت صداقة الشابين. ربما كان بيرگر شرقياً ويهودياً، غير أنه كان ابن بلدة صغيرة واقعة إِلىٰ الشمال من نيويورك عاش طفولة ليست مختلفة كثيراً عن طفولة كلنتون. كان والده قد توفي وهو في الثامنة من العمر، وتولت أمه تنشئته في ظروف اقتصاديَّة صعبة. ومع حلول عقد الثمانينيّات كان بيرگر قد استقر في واشنطن، بعد التخرّج في كلية حقوق هارڤارد، ومن الواضح أَنَّه كان لامعاً وغارقاً في السياسة مما مكّنه من أَن يحتل، فوراً، مكاناً في دفتر عناوين كلنتون، الشبيه من حيث الروح في عاصمة البلاد والجدير بالاحتفاظ بالعلاقة معه. وبعد لقائهما في تكساس بوقت قصير، دخل كلنتون

السباق وفاز بمنصب حاكم ولاية آركنسو. ونظراً لأنَّه كان دائم البحث عن العلاقات، وكانت واشنطن مكاناً أفضل من ليتل روك علىٰ صعيد توفير الارتباط بشباب وفتيات من اللامعين، صانعي ملوك المستقبل وملكاته، فقد كرّر زياراته للمكان، حيث قابل حلقة صغيرة ولكنها متسعة باطراد من الأصدقاء، منهم كارل واگنر، صديق قديم آخر منذ أيام حملة ماكگڤرن حين ترشح في ميشيگان للدكواتي، ستروب تالبوت، شريك كلنتون القديم في اقتسام الغرفة بجامعة أكسفورد، ونجم صاعد في عالم الصحافة بواشنطن، ونَسيب الأخير ديرك شيرر، وبيرگر بالطبع، الذي كان قد بدأ يشتهر علىٰ صعيد المحاماة التجارية في إحدى الشركات الواشنطنية، مع بقاء السياسة حُبَّه الأول.

كان بيرگر شديد الانجذاب إلىٰ كلنتون. وعلىٰ الرغم من أَن الأخير لم يكن يملك أية ثروة موروثة عن العائلة، فإنه كان راغباً في الالتحاق بركب الساعين إلىٰ احتلال المناصب السياسيَّة عن طريق الانتخاب. وقد عنى ذلك أن آراءه، خلافاً لآرائهم، لم تكن لتستطيع أَن تبقى مجردة؛ كان لا بد لها من أن تعكس الوقائع القاسية لليبرالية في الثمانينيّات، خصوصاً في الجنوب. تأثّر بيرگر بذلك كثيراً. فبرأيه، لم يكن أَي سياسي آخر من معارفه متمتعاً بما تمتع به كلنتون من الجمع النادر بين الذكاء الحاد والتعاطف الصادق. كان طيف اهتماماته واسعاً جداً؛ لم يكن ثمة أَي كتاب عن التخطيط العام أَو التاريخ لم يكن قد قرأه، ولم يلتق بأحد إِلاَّ وحاول أَن يتعلم منه، وسعى، بالطبع، إِلىٰ كَسْبه. بالنسبة إِلىٰ كلنتون تمثَّلت القضية المركزية للحياة الأَمريكيَّة بالمشكلة العنصرية، وكانت مهمة أَي سياسي ناجح في أَمريكا، بعد العبء اليومي لإِدارة الولاية أَو البلاد بشكل أفضل قليلاً، متمثِّلة بالعمل في سبيل مواجهة المشكلة الكبرى المستمرة لعمليَّة المصالحة العنصرية. لذا سارع بيرگر إِلىٰ الاتفاق مع كلنتون حول أولوية تلك المهمة.

كانت الأوقات كئيبة بالنسبة إِلىٰ الديمقراطيين في واشنطن، وكان بيرگر

قد أقام علاقة قوية مع پاميلا هاريمان التي كانت قد أَصبحت شخصية مركزية لنشاط الحزب الديمقراطي في العاصمة بعد قيامها بتأسيس مجموعة باسم ديمقراطيي الثمانينيّات (أَو الپامپاك Pampac وراء الكواليس). قام بيرگر بكتابة بعض الخطب لپاميلا مع تقديمها في الوقت نفسه إِلىٰ شباب الحزب اللامعين الواعدين الطموحين. لم يكتف بتعريف كلنتون عليها، بل ونجح في إِيصال الأخير إِلىٰ حلقتها الضيقة، مما أتاح لحاكم ولاية آركنسو فرصة المجيء إِلىٰ واشنطن بانتظام للقاء الكثير من الناس. أراد بيرگر أَن يعرض صديقه علىٰ أوسع دائرة ممكنة، واثقاً من أَن كلنتون لن يترك إلاّ انطباعات إيجابية لدى كل من يلتقي بهم من الشخصيات المرموقة ذكوراً وإِناثاً. وقد فعل أَكثر الأحيان بالإِفادة من ذلك القَدْر الكبير من الذكاء والسحر في مجال هداية أناس لم يكونوا مستعدين للانبهار بشاب صغير كهذا ومن مكان مغمور كآركنسو. في وقت مبكر يعود إِلىٰ سنة 1988م فكَّر بيرگر بأن على كلنتون أَن يخوض معركة الرئاسة، خصوصاً بعد قيام گاري هارت بتدمير ذاته.

في إِحدى المراحل بدا كلنتون مستعداً لدخول السباق. كانت لجنة استكشافية لترشيحه ستُسَمَّى، وتمت البرمجة لمؤتمر صحفي من أجل الإِعلان في ليتل روك. طار مهندسا السباق الرئيسيان بيرگر وميكي كانتور إِلىٰ آركنسو ليجدا الزوجين كلنتون اللذين سهرا الليل كله وهما يناقشان موضوع الترشيح وتوصلا إِلىٰ استنتاج يقول بأن الوقت لم يكن هو الوقت المناسب. كانت حياتهما الزوجية مثقلة بما يكفي من المتاعب ـ فبعض المشكلات التي أصابت هارت كانت أَيضاً قد أصابت كلنتون ـ وكانت ابنتهما ما تزال صغيرة، وبالتالي فإِن حصيلة السلبيات كانت كبيرة. لعل الصورة الأَكثر رسوخاً في ذاكرة بيرگر عن تلك الرحلة هي رؤيته لكلنتون وهو يعلن نبأ العزوف عن الترشيح لابنته شلسي التي كانت في حوالي الثامنة من العمر حين نظر عبر نافذة الحديقة الخلفية في ڤيلا حاكم الولاية. طارت شلسي من الفرح لدى سماع إِعلان العزوف عن الترشيح وقفزت إِلىٰ حضن والدها.

كان بيرگر مع كلنتون في 1988م حين ألقى خطابه الطويل والطويل جداً الخاص بترشيح مايكل دوكاكيس للرئاسة. كانت التوقعات عالية. فجميع المرتبطين بكلنتون كانوا يعرفون مدى ذكائه ومهارته، وكانت حاشيته واثقة من أن هذه كانت فرصته وكان سيجلب الذئب من ذيله [سيسحر الناس]. ربما مثل جاك كندي الشاب الذي كان قد أمسك بهزيمته علىٰ الحد في معركة الترشيح لمنصب نائب الرئيس سنة 1956م فرصة مهد بها لترشيحه سنة 1960م، كان كلنتون سيفتح طريق المستقبل بهذا الخطاب. غير أنَّه بدلاً من أن يفعل ذلك ظل يتكلم ويتكلم، ويتابع الكلام. قامت قناة السي. بي. إس. بتمكين الجمهور من رؤية الضوء الأحمر ساطعاً علىٰ المنصة، طالباً من كلنتون إنهاء كلامه. وعلىٰ قناة الإن. بي. سي. قام توم بروكاو، «علينا نحن أيضاً أن نكون هنا» ملمحاً إلىٰ مشاطرة الجمهور ألمه ونفاذ صبره. فقط حين نطق كلنتون بعبارة «ختاماً. . .» انطلق التصفيق العفوي عاصفاً[1]. سيعترف بيرگر فيما بعد بأنّها كانت إحدى أكثر التجارب إيلاماً في حياته. إن الرجل الذي دأب علىٰ الترويج له طوال عقد من الزمن لدى الآخرين بوصفه أمل الحزب الشاب الأكثر ذكاء كان قد حصل أخيراً علىٰ لحظته الذهبية وكان قد ذاب أمام الأمة كلها، عاجزاً عن التوقف، مخفقاً في القيام بما هو أفضل من الجميع في البلاد في إتقانه، أي في قراءة رد فعل الجمهور. أحس بيرگر بالمرض جسدياً وكاد يفرغ ما بجوفه فسارع إلىٰ الخروج من قاعة المؤتمر. ولحظة خروجه اصطدم بحاكم الولاية وزوجه. قال كلنتون «كان الخطاب سيئاً جداً، أليس كذلك؟». وافقه بيرگر علىٰ أن الخطاب كان سيئاً.

ثمة شيئان حدثا بعد ذلك أدهشا بيرگر. فبدلاً من تجنّب وسائل الإعلام، صعد كلنتون مباشرة إلىٰ الطابق العلوي، مدفوعاً بنار الفاجعة، للتعامل مع جيش الإعلاميين في البلاد، وبعد بضعة أيام اتصل ببيرگر قائلاً: «يريدونني في

---

(1) مارانيس، 446.

برنامج **جوني كارسون**. ما رأيك؟» فرد بيرگر: «إنها فكرة مرعبة»، واثقاً من أنّها كانت من أحلام أَحد منتجي البرامج التلڤزيونية الخاصة بأواخر السهرات: كان الكوميدي العظيم كارسون سيمسك برجلٍ موشك على الغرق ويبقي رأسه تحت الماء لبدء العد التنازلي مضاعفاً من شعبيته الصاعدة ومتولياً في الوقت نفسه رئاسة حفل الإجهاز النهائي على حياة كلنتون المسلكية القوميَّة. غير أن كلنتون قبل التحدي. أَقْدم على المخاطرة. ظهر على الشاشة، عزف على الساكسفون، جعل من نفسه مهرجاً، وراح ينكأ الجرح ويفْقَأ الدمَّل.

كادت التوأمة السياسيَّة بين بيرگر وكلنتون، تلك التوأمة الجامعة بين كل من النزعتين المثالية والذرائعية [البراگمائية]، أَن تصل إلى مرحلة النقاء. ترابط الرجلان أساساً بالحرب الڤيتنامية. فبيرگر، مثل كلنتون، كان من الحمائم. وكان قد اتبع، في [جامعة] كورنيل، دورة عن جنوب شرق آسيا حاضر فيها الأستاذ الجامعي الشهير جورج كاهن، أَحد منتقدي الحرب الأوائل، فبات بيرگر مقتنعاً بأن التورط الأَمريكي في ڤيتنام محكوم بالإخفاق. تخرج في كورنيل سنة 1967م، تماماً حين كانت المظاهرات الاحتجاجية المعارضة للحرب تغطي أية قضية أُخرى على جدول الأعمال السياسي. التحق، وهو لا يزال مبتدئاً في السياسة، بالعمل لدى عضو مجلس الشيوخ الديمقراطي جو رزنيك، الذي كان قد انتُخب في مقاطعة جمهوريَّة تقليدياً واقعة إلى الشمال من نيويورك ـ في مسقط رأس فرانكلين روزفلت بالذات، التي لم يستطع هو نفسه أَن يفوز فيها ولو لمرة واحدة. كان رزنيك هذا شاباً، مثالياً، ومليونيراً عصامياً. لم ينه المرحلة الثانوية في التعليم وراكم ثروته بعد الحرب العالميَّة الثانية عن طريق إنتاج هوائيات التلڤزيون. كان واحداً من الديمقراطيين الأربعين الذين فازوا محمولين على أَطراف ثوب نجاح ليندون جونسون في انتصار سنة 1964م الساحق، منتخبين من قبل الشعب في دوائر انتخابية جمهوريَّة عادة، وكان جونسون قد ميَّزَهم وخصّهم منذ البداية برعاية خاصة. أراد إعادة انتخابهم في

1966م ومكّنهم من الحصول علىٰ مختلف المكاسب؛ كان البيت الأَبيض، حسب ما يتذكره بيرگر، قد سلَّم أَكثر من ثلاثين مكتباً للبريد في دائرة رزنيك.

لم يكن ثمة أَي غداء أَو مكتب بريد مجاني دون مقابل، خصوصاً بالنسبة إِلىٰ سياسي من نمط جونسون. فرزنيك كان يهودياً، ومع تصاعد الحرب الڤيتنامية قرر جونسون (خطأ) أَن من شأن رزنيك أَن يضطلع بدور مفيد مع إِحدى قواعد الحزب الديمقراطي المهمة التي كان الرئيس يعاني معها من بعض المشكلات، تلك القاعدة التي كانت متمثلة بمجموعة من اليهود الليبراليين. وكذلك كان الرئيس قد بدأ يوفد رزنيك إِلىٰ ڤيتنام، التي كان سيزورها حوالي عشر مرات، حاصلاً علىٰ معاملة الشخصيات المهمة جداً [الڤي. آي. بي. VIP] من جانب جميع كبار المسؤولين هناك، ومنقلباً إِلىٰ صقر حقيقي. ساهم ذلك في رفع أسهمه عند جونسون، مثله مثل كرهه لبوبي كندي، غير أَنَّه أفضى إِلىٰ سلسلة من النقاشات الملتهبة بين بيرگر ورزنيك، حتى حين قرر رزنيك دخول سباق عضوية مجلس الشيوخ في 1968م للحلول محل هيوبرت همفري. ذلك أَيضاً كان العام الذي بدأ فيه بيرگر يبحث عن مكان آخر للعمل وصولاً إِلىٰ التحاقه بكلية حقوق جامعة هارڤارد. ومع حلول سنة 1972م كان منتهياً من كلية الحقوق ومضطلعاً بوظيفة كاتب خطب في حملة ماكگڤرن.

علىٰ الرغم من أَن بيرگر كان حمائمياً، فإِن ڤيتنام لم تكن القضية المهيمنة علىٰ حياته كما كانت حالها مع كل من ليك وهولبروك. كان بيرگر سيتحدث لاحقاً، وراء الكواليس، عن مدى اختلافه، هو وكلنتون، عن أَشخاص من نمط ليك وهولبروك، ممن كانوا مهووسين بڤيتنام كقضية أَساسية تتفرع عنها طائفة واسعة جداً من المسائل والأمور. متأملاً بعمق شعر بيرگر أَن الحرب كانت قد تركت بصمات عميقة جداً علىٰ الجناح الذي ينتمي إِليه في الحزب، جناح ماكگڤرن الليبرالي اليساري. وقد حدث ذلك، برأيه، كمحصلة طبيعية للغضب حول ڤيتنام، غير أَن ذلك الجناح كان قد بالغ في مواقفه النقدية من

عسكريي الميدان (أَو في ابتعاده عن الجيش دون إِبداء ما يكفي من الاحترام لهذا الجيش علىٰ الأقل)، كما في إِكثاره من النقد لمبادرات السياسة الخارجيَّة الأَمريكيَّة في أماكن أُخرى. وباعتقاده فإِن السياسي الديمقراطي الأَول الذي حاول إِعادة الحزب إِلىٰ نوع من التوازن في هذه القضايا وصياغة خطة دفاعية عقلانية ومتبصرة ملبية لمتطلبات العالم المتغير كان هو گاري هارت، مدير حملة ماكگڤرن القديم، الذي كان بيرگر قد أَصبح حميمياً معه أَيضاً.

كانت سنوات بيرگر في المنصب قد عززت ورسخت علاقته مع كلنتون. ثمة نوع معين من التواضع في شخصه ساعد علىٰ ذلك، رغم أَنَّه ما لبث، لاحقاً، حين بات مضطلعاً بمهام نائب رئيس مجلس الأَمن القومي أَو مستشار الأَمن القومي علىٰ امتداد ثماني سنوات، أَن أَصبح، برأي بعض الأصدقاء، متعجرفاً قليلاً، فراح هؤلاء الأصدقاء يطلقون عليه، وراء الكواليس، اسم ساندي كيسنگر. لقد كان لابساً ثوب المنصب ومتقمصاً إِياه تماماً، فضلاً عن امتلاكه، قبل كل شيء، قُدْرة علىٰ تقدير مقدار الضغط الذي كان كلنتون قادراً علىٰ امتصاصه في وقت معين، وهي قُدْرة ذات أَهميَّة حاسمة بالنسبة إِلىٰ أَي مساعد. لم يكن بيرگر استراتيجياً، كما لم يزعم أَنَّه كذلك. فلدى سؤاله عن الأَمر من قبل **النيويورك تايمز**، كان هنري كيسنگر، الذي لم يكن سخياً في يوم من الأَيام مع زملائه الديمقراطيين، قد قال بشيء من الاحتقار والاستخفاف: «لا تستطيع أَن تتوقع من محامي تجارة أَن يكون استراتيجياً عالمياً»[2]. وعلىٰ النقيض من ليك الذي كان يُعتبر زميلاً صعباً وشديد الانطواء علىٰ نفسه، كان بيرگر يتقن فن التعاون مع الآخرين في فريق مجلس الأَمن القومي. كان الأَكثر براگماتية بين الرجال. فقد بدا، في الحقيقة، في مقابلة شهيرة أجراها معه جوني آپل من **النيويورك تايمز** سنة 1998م، متباهياً بقيام الإِدارة بكل شيء تقريباً علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة بصورة آنية وحسب متطلبات اللحظة، وساخراً

(2) ر. و. آپل، **نيويورك تايمز**، 25/ 8/ 1999م.

من أولئك الذين يرون أن السياسة الخارجيَّة تستدعي وجود رؤيا استراتيجية أوسع.

مثله مثل رئيسه، كانت قُدرات بيرگر التحليليَّة كبيرة. كان قادراً علىٰ تقطيع القضايا إلىٰ أجزائها الأدق، وعلىٰ فهم جملة الدوائر المختلفة المتأثّرة بهذه القضية أو تلك فيما وراء البحار، فضلاً عن أنّه كان عميق الإدراك للوجه السياسي الداخلي لأي قرار يتم اتخاذه علىٰ صعيد السياسة الخارجيَّة. كان واقفاً علىٰ جميع أولويات كلنتون السياسيَّة. إذا لم يكن توأم كلنتون السياسي في النظرة إلىٰ السياسة الخارجيَّة، وعلىٰ صعيد ما يمكن للإدارة أن تفعله في لحظة معينة، فإن أحداً لم يكن قادراً قط علىٰ تلمُّس الاختلافات الملموسة القائمة بينهما. ظل بيرگر واقفاً عند نقطة تقاطع الضغوط السياسيَّة الصادرة عن العالم الخارجي من ناحية وعن الأوساط الداخليَّة من ناحية ثانية بالذات، والموجهة إلىٰ الرئيس. إذا كنت تريد معرفة ما يشعر به كلنتون، فلست بحاجة إلاَّ لمعرفة ما يشعر به بيرگر، وإذا لم يكن بيرگر قد وصل بعد إلىٰ نقطة اتخاذ قرار محدد بشأن قضية معقّدة وملحّة مثل قضية كوسوڤا، فقد كان ذلك يعني أن الرئيس لم يكن، هو الآخر، مستعداً وجاهزاً بعد.

في الخامس عشر من كانون ثاني/ يناير 1999م، بُعَيْد التبرئة الشخصية للرئيس في الانتخابات الفرعية، وقفت مادلين أولبرايت وحيدة في اجتماع كبار مسؤولي مجلس الأمن القومي، مرة أُخرى، تطالب بالتحرّك ضد ميلوسوڤيتش. قامت بتسليط الأضواء علىٰ ما كان قد أصبح معروفاً للملأ. كانت الصفقة التي سبق لهولبروك أن أنجزها في تشرين الأول/ أكتوبر موشكة علىٰ الانهيار، ودافعت بقوة عن فكرة استخدام القوّة. غير أن أياً من فريقي رؤساء الأركان العسكريين وبيل كلنتون كان راغباً في الانجرار إلىٰ البلقان. مرة أُخرى قام ساندي بيرگر بعكس شكوك البيت الأبيض. فكلنتون المُحَاصَر داخلياً لم يكن تواقاً للإقدام علىٰ أية مغامرة عسكريَّة جديدة. أصيبت أولبرايت في الاجتماع

بقَدر كبير من الإِحباط. قالت وهي في طريق العودة إِلىٰ مكتبها: «لسنا إلاّ جرذاناً تتدحرج علىٰ عجلات»[3].

كان ذلك يوماً مصيرياً. إِذا لم تستطع هي أَن تحرّك الآلية، فإِن الأحداث كانت، بقناعة أولبرايت، كفيلة بتحريكها عاجلاً أَو آجلاً. لم تضطر للانتظار طويلاً. في المرة السابقة، في البوسنة، كانت سربرينيتسا هي التي دفعت الغرب إِلىٰ التحرّك. أَمَّا الآن، في كوسوڤا، فقد تمثَّل عامل قَدْح الزناد بقرية تدعى راكاك. جرت الأحداث هناك متزامنة تقريباً مع اجتماع الجرذان في واشنطن، رغم أَن وصول التقارير التفصيلية الكاملة إِلىٰ كبار القَوْم استغرق بعض الوقت. ما حدث في راكاك غيّر الجميع، وما انطوى عليه ذلك من أَهميَّة سياسيَّة كان واضحاً وضوح الشمس: مثلها مثل البوسنة، لم يعد تجاهل كوسوڤا ممكناً.

كانت راكاك تلك بلدة صغيرة أُخرى مرشحة لأَن تصبح رمزاً لشيء أكبر من حجمها الواقعي. ففي أواخر خريف 1998م، كان جيش تحرير كوسوڤا قد تمركز في راكاك وحوَّلها إِلىٰ قاعدة ينطلق منها لضرب الصرب. وبعد قيام وحدة صغيرة من جيش تحرير كوسوڤا بالهجوم علىٰ بعض الأهالي المحليين من الصرب موقعين أربعة قتلى في صفوف الشرطة، سارعت وَحْدَةٌ صربية أكبر بكثير ومزودة بالأَسلحة الثقيلة إِلىٰ اقتحام البلدة. كانت مجموعة من حوالي ثلاثين أَلبانياً مختبئين في أَحد الأقبية، حيث اهتدى الصرب إِلىٰ مخبئهم. جرى فصل الأطفال الذكور عن البالغين، وقد كتبت منظمة حقوق الإِنسان، لاحقاً، أَن قراراً مدروساً كان متخذاً سلفاً بشأن إِعدام جميع الذكور البالغين في البلدة. تم إِخراج ثلاثة وعشرين رجلاً من القبو وسوقهم بعيداً. من الواضح أَن آخرين أَيضاً كان قد تم أخذهم من البيوت المختلفة في القرية.

سرعان ما تحدَّثت التقارير عن حدوث مجزرة كبرى في راكاك. علىٰ

---

(3) دالدر، 70 ـ 71؛ مقابلات مع مسؤولين كبار.

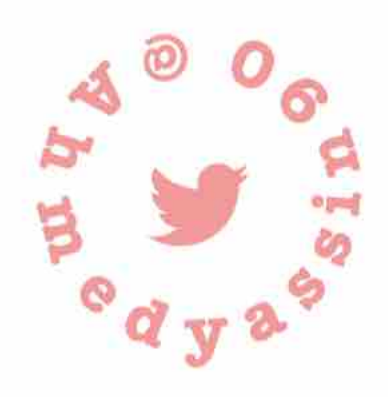
الفور بادر رئيس بعثة التحقيق في كوسوڤا، الأَمريكي وليم ووكر، إِلىٰ الذهاب علىٰ رأس موكب إِلىٰ البلدة. وهناك وجد علىٰ الطريق ما بدا جثة مغطاة ببطانية. رفع البطانية ليرى جثة بلا رأس، بداية سلسلة طويلة من مشاهد الدم والبشاعة والقسوة. فبعد كل خمس عشرة إِلىٰ عشرين ياردة كان ووكر وفريقه يكتشفون جثة جديدة ـ وجميعها مَدْروزة بالرصاص، كثير منها اخترق الرصاص رؤوسها أَو عيونها. كانت التلة التي وُجدت فيها الجثة الأولى مزروعة بأربع وأربعين جثة أُخرى. كان ووكر قد خدم في السلڤادور دبلوماسياً ولم يكن غريباً عن مشاهد العنف والإِرهاب، غير أَن هذه كانت الصورة الأبشع التي قُدّر له أَن يراها. أفاد عدد قليل من الناجين بأن الرجال جُمعوا، جُلبوا إِلىٰ التلة، أُمروا بالركوع، فتم إِعدامهم رمياً بالرصاص.

ما لبثت مذبحة راكاك أَن أَصبحت العَتَلَة الحاسمة لتحريك أولئك الداعين إِلىٰ التدخّل العسكري ضد الصرب في كل من الحكومة الأَمريكيَّة والحكومات الغربيَّة الحليفة، باعتبارها إِشارة مؤكدة إِلىٰ أَن من شأن الوجه الأبشع للبوسنة أَن يتكرَّر. لم يبادر ووكر، وهو المعتبر في وزارة الخارجيَّة مستقلاً متعاطفاً بوضوح مع الكوسوڤيين، حتى إِلىٰ الرجوع لواشنطن للحصول علىٰ التوجيهات. سارع علىٰ الفور إِلىٰ عقد مؤتمر صحفي مشحون بالعواطف وأشكال الإِثارة وإِلىٰ وصف ما كان قد جرى في راكاك بأنّها جريمة ضد الإِنسانية. كانت أولبرايت، هي الأُخرى، تعرف قيمة ما كان قد حصل. وإِذا كان بعض أهل الإِدارة رأوا أَن ووكر تجاوز الحدود، فإِنّها لم تكن منهم. رفعت سماعة الهاتف وقالت له: «إِنك تقوم بعمل عظيم يا بيل. لقد كنت محقاً مئة بالمئة فيما يخص راكاك»[4].

أما في مقر قيادة الناتو فإِن شعور الجنرال وس كلارك كان مماثلاً إِلىٰ حد

(4) **فرونتلاين**، تفريغ مقابلة مع وليم ووكر، 9.

بعيد. هو الآخر كان أَيضاً يتوقع ذلك. يتذكر أَحد مساعديه أَنَّه سمعه، حين وصلت أخبار مذبحة راكاك، وهو يقول: «لقد أَمْسَكْتُ بهم [بالصرب] الآن في المكان الذي أريده». أخيراً، أَفْضَتْ راكاك إِلىٰ استنفار الغرب، مختزلة إِلىٰ حد كبير جملة الانقسامات والصدوع الفاصلة ليس بين البلدان المختلفة فقط، بل وفي داخل إِدارة كلنتون بالذات، وقاطعه طريق معارضة التدخل علىٰ الحمائم إِلىٰ حد كبير. من شبه المؤكد أَن حساباً عسكرياً بات متوقعاً.


@Ahmedyassin90

الفصل السابع والثلاثون

مرة أُخرى وحدت إِدارة كلنتون نفسها وقد جرّتها الأحداث جرّاً إِلىٰ مجابهة ثانية غير مرغوبة في البلقان، مع بقاء جُل القضايا الكبرى المتعلّقة بما سيكون عليه دور أَمريكا هناك، علىٰ الصعيدين السياسي والعسكري كليهما، دون حل. أضف إِلىٰ ذلك أَن التوترات الحاصلة بين الإِدارة والجيش، خصوصاً القوّات البرّيّة في الولايات المتحدة، لم تكن مختلفة كثيراً عن حالها منذ حوالي ست سنوات حين وصل كلنتون إِلىٰ الحكم وكان كولن پاول ممسكاً بزمام الأَمر، معرقلاً النظرة غير المركّزة نوعاً ما للإِدارة إِلىٰ مسألة اعتماد سياسة أَكثر مرونة إِزاء عمليّات حفظ السلام. من الواضح أَن الرئيس كان ميّالاً بعض الشيء لتبني طيف أوسع من المهمات الإِنسانية، غير أَن ذلك لم يتجسَّد في أية خطة، فضلاً عن عدم تحديد الثمن الذي يمكن دفعه مقابل وضع قناعاته موضع التطبيق. لم تكن ثمة أية عقيدة كلنتونية، وإِذا ما اعتمدت الإِدارة وجهة نظر أوسع حول ما تريده في العالم، فإِن عليها أَن تبادر أولاً إِلىٰ الترويج لتلك النظرة في الكونگرس أَو البلاد.

حين أقدمت جماعة كلنتون علىٰ الكلام عن استخدام القوّة في كوسوڤا، أثارت، مرة أُخرى، ذكريات ڤيتنام بالنسبة إِلىٰ الكثير من كبار ضباط الجيش. وفي الحقيقة، لم يكن الجدل الدائر داخل الإِدارة بين المدنيين والعسكريين قد قَطَع، بعد مرور ست سنوات، شوطاً ملموساً، بل ولم يكن ما هو حاصل

جدلاً بالمعنى الحقيقي للكلمة. فلأَن القضايا كانت شائكة وبالغة الصعوبة، بقي الطرفان، علىٰ العموم، يفضلان الالتفاف في كلامهما حول الأمور المختلف عليها، كما لو كانت الصراحة لم تكن لتفيد إِلاَّ في الكشف عن مدى عمق الهوة الفاصلة بين موقفيهما. وبالتالي فإِن التوترات بين كبار العسكريين وجماعة الإِدارة جوهرية وعميقة. علىٰ السطح بدت الأمور سائرة في طريقها دون متاعب. لم يعد كولن پاول موجوداً ليزرع الرُّعب في القلوب. وإِلىٰ حدود معينة كان جون شاليكاشڤيلي قد يسّر علاقة العمل، غير أنّه لم يكن في الحقيقة قد قرَّب الطرفين، كل منهما من الآخر. لعل الشخص الوحيد الذي كان قد ساهم في ردم الهوة هو وليم پيري، الذي كان يُعتبر علىٰ نطاق واسع في الپنتاگون أَحد كبار الموظفين المدنيين المتفوقين في العصر، رجلاً كان متشدداً ولكنه مستقيم وعادل علىٰ الدوام، رجلاً دائم الاستعداد **للإِصغاء** إِلىٰ ما يقوله ضباط الجيش العسكريون. كان قد جرى استبداله في إِدارة كلنتون الثانية ببيل كوهن، بعضو مجلس شيوخ جمهوري ليبرالي ذي نزعات استقلالية من ولاية مين، ومع حلول سنة 1998م لم تكن هيئة المحلفين العسكريَّة منسجمة معه بعد. وعلىٰ الرغم من أَنّه كان محبباً وذكياً، فإِن الشعور العام كان يقول بافتقاره إِلىٰ الحماس والانشغال المهووس بالمنصب اللذين كانا يميزان پيري. من الواضح أَنَّه لم يكن أقل إِشراقاً وتألّقاً من پيري، غير أنّه بدا بعيداً عن أَن يكون مثله علىٰ صعيد الخبرة من ناحية **والانخراط** من ناحية ثانية في عمليَّة إِدارة الپنتاگون. ثمة شخص يعرفهما، كليهما، قال إِذا قام بيل پيري بكتابة سيرته الذاتية، فإِن من شأنها، كلها تقريباً، أَن تدور حول سنواته كوزير للدفاع؛ أَمَّا إِذا أقدم بيل كوهن علىٰ كتابة سيرة حياته، بعد حياة مسلكية طويلة وناجحة في كل من مجلسي البرلمان، فإِن سنواته في الپنتاگون لن تشغل إِلاَّ فَصْلاً موجزاً.

في خريف 1997م كان شاليكاشڤيلي سيتقاعد، وما لبث اختيار خلفه أَن أَصبح قراراً بالغ الأَهميَّة، خصوصاً مع بقاء الفصل الأخير في البلقان منتظراً من

يكتبه. ونظراً لسياسة الإِدارة من ناحية، الرغبة في امتلاك خطة عسكريَّة أَكثر مرونة من ناحية ثانية، وإِيمان كلنتون العميق والراسخ بأن الجيش كان وَسَطاً سياسياً مناوئاً ومعادياً (وهو كذلك بالفعل) من ناحية ثالثة، فإِن عمليَّة البحث عن مرشح مناسب لم تكن سهلة علىٰ الإِطلاق. لم يكن البحث مرشحاً قط لأَن يتركز علىٰ الموهبة الخالصة، فضلاً عن عدم وجود أَي بديل مؤكد واحد لشاليكاشڤيلي. كان أَحد أوائل المتنافسين الجنرال جاك شيحان من سلاح مشاة البحرية [المارينز]. كان شخصاً عملاقاً، متفوقاً فكرياً، واثقاً بنفسه ثقة غير عادية، وصريحاً بالقدر نفسه، رجلاً لا يُحتمل أَن يساوم علىٰ أمور يعتقد بأنّها مهمة. غير أَنَّه كان ميالاً إِلىٰ استفزاز المدنيين والعسكريين وإِثارة أعصابهم بصراحته القريبة من الوقاحة. كان ينزع إِلىٰ إِخبار نظرائه بأنهم كانوا يستعدون لخوض الحرب الأخيرة، لا التالية. وعلىٰ الصعيد الاستراتيجي كان متفقاً مع بعض رؤى إِدارة كلنتون حول ما يمكن لأَمريكا أَن تفعله في عالم مثقل بالاضطراب وعدم الاستقرار للمساهمة في توفير الاستقرار له بتكلفة متدنية نسبياً. في الحقيقة، ربما لم يكن أَي ضابط أَكثر انتقاداً لإِخفاق الجيش في التكيّف والتهيؤ للاضطلاع بالنوعية الجديدة من المهمات التي باتت تواجه البلاد ـ مهمات متطلبة لإِعادة هيكلة القوَّة ولإِعادة تقويم الاستراتيجية العسكريَّة الأَمريكيَّة من أجل خوض حروب أصغر ذات حدة متدنية في العالمين الثاني والثالث[1]. انبهر كل من كلنتون وبيرگر بموهبة شيحان واتقاد ذهنه، غير أنّه كان عالي الخطورة بمعايير البيت الأَبيض. فقبل ما لا يزيد عن سنة واحدة كان شيحان، في مؤتمر بمؤسسة آسپن حيث اجتمع عدد غير قليل من رجالات الأَمن القومي المرموقين، قد أفزع الجمهور بكلامه الصريح والمباشر. لم تكن العمليّات العسكريَّة الرخيصة، الخالية من الإِصابات، بنظره، إِلاَّ كلاماً فارغاً، ووهماً. إِذا كان الجيش الأَمريكي راغباً في الالتحاق بالركب، فإِن من شأن

---

(1) جون باري، **نيوزويك**، 14/ 7/ 1997م.

ذلك أَن يتطلب إِنفاق مبالغ كبيرة من الأموال «مع التسليم بفكرة تعريض الأبناء والبنات للخطر». كان شيحان ميالاً إِلىٰ إِثارة اهتمام كبار المسؤولين المدنيين من جهة ودفعهم في الوقت نفسه إِلىٰ القلق من جهة ثانية. مرة قال له ساندي بيرگر: «إِننا نحبك حقاً ويمكنك أَن تحتل المنصب الثاني [نائب الرئيس]، غير أنّك لن تحصل علىٰ المرتبة الأولى».

لم يكن أَحد يشك بذكاء شيحان وموهبته وإِرادته. كان متمتعاً بكل ما يروق للجيش. قامة تصل إِلىٰ ستة أقدام ونيف، لاعب كرة سلة سابق في كلية بوسطن وفائز بالنجمة الفضية في ڤيتنام. غير أَن رؤساء الأركان الآخرين لم يكونوا مولعين به دائماً. كان ذات مرة قد قال لقائد وحدات مدرعة إِن دباباته باتت بلا فائدة بعد التغييرات الحاصلة في التسليح ونظراً لهشاشتها في وجه الأَسلحة الجديدة، من نوع صواريخ أَرض ـ أَرض سهلة الإِطلاق. لم يكن شاليكاشڤيلي قد أوصى بشيحان خلفاً له، خوفاً من إِثارة سخط رؤساء أركان آخرين. وراء الكواليس كان الرجل يُعتبر الألمع بين مختلف المرشحين، مع سجل قتالي لا يقل جودة عن سجل أَي مرشح آخر. من حيث الاستراتيجية ربما كانت رؤيته موازية لرؤية مدنيي كلنتون، وتلك كانت هي المشكلة. إِذا ما نشأ وضع يستدعي استخدام القوَّة فإِن من شأنه أَن يطلب التزاماً قوياً ـ تحديد الأدوار والمهمات، تحديد استراتيجية الخروج، مدى علنية دعم الإِدارة للجيش، مع تحديد دور الكونگرس. هل سيتدخل الجيش ليجد نفسه، لدى تعقد الأمور، وحيداً في مواجهة الموقف؟ تم التوصل إِلىٰ استنتاج يقول بأن شيحان سيكون الأصعب علىٰ التحكم بين كبار الضباط، والأقوى احتمالاً بأن يبادر إِلىٰ الاستقالة في حال النزاع حول الاستراتيجية. كان ذلك هو الكابوس. فهذا البحّار العملاق المثير لقدر استثنائي من الإِعجاب، المتفق مع نظرية إِدارة كلنتون حول ما ينبغي أَن نفعله في السياسة الخارجيَّة، قد لا يتردّد في الإِعلان للملأ إِذا ما عبَّرت الإِدارة عن عدم استعدادها للتعبير عن الالتزام الضروري. لن يحصل شيحان علىٰ منصب الرئيس.

أما الرجل الذي أرادت الإدارة اختياره ـ المتمتع بتفضيل بيل كوهن الواضح ـ فقد كان جنرال سلاح الطيران، جو رالستون. ورالستون هذا الأكثر فطنة وحصافة بين كبار الضباط، بنظر جماعة كلنتون، كان محبوباً لدى زملائه في المؤسّسة العسكريَّة ومتمتعاً مع ذلك بقدر كبير من الإعجاب في واشنطن لدى جماعات مختلفة، بما فيها كبار المسؤولين في مجلس الأمن القومي عند كلنتون وبعض القياديين علىٰ التلة [في مجلس البرلمان]. وبفضل مهاراته السياسيَّة الكبيرة، كان قد نجح في جعل مَدَنيي كلنتون من جهة وكبار ضباط الجيش من جهة ثانية يشعرون بأنه شريكهم المتعاطف. لقد كان ذكياً، متواضعاً، خبيراً بأساليب عمل الأجهزة البيروقراطية، متفاهماً مع الجميع تقريباً، وقادراً، علىٰ ما بدا، علىٰ إزاحة العوائق أمام الإجماع بدلاً من تكوينها. حتى وس كلارك الذي كانت له مشكلاته الخاصة مع رالستون ورؤساء الأركان كتب فيما بعد يقول: «كان ضابطاً من النوع الذي يتعذّر عليك أن تنساه. تذكرت أنني فكرت آنذاك [اللقاء الأول بين الرجلين] أنَّه كان بالتأكيد يتقن فن تدوير زوايا أية قضية»[2]. ولدى ورود اسم رالستون علىٰ ألسنة جماعة كلنتون كان الجميع، دون استثناء، يُقرون بأنّه كان مناسباً. قام بيل كوهن باختيار الستون خلفاً لشاليكاشفيلي، غير أن المرشح ما لبث أن اضطر للتنحي جانباً ـ كان عصراً جديداً في الجيش ـ جراء اعترافه باقتراف الزنا قبل حوالي عشر سنوات حين كان قد فُصل عن زوجه. ونظراً لخطورة قضايا النزعة الجنسية في الجيش، فإن الأمر انطوى علىٰ أهميَّة كبيرة، خصوصاً في تلك الفترة بالذات. كانت اللفتنانت الأول كلي فلين، خريجة أكاديمية سلاح الجو، الطيارة الأولى التي تولت قيادة قاذفة بي ـ 52، وبالتالي فتاة جديرة باحتلال أغلفة المجلات كإحدى الشخصيات النموذجية في الطيران، قد عاشت قصة حب مع زوج امرأة متطوعة وهدُدت بمحاكمتها عسكرياً ليس بتهمة الزنا فقط، بل وبتهمة الكذب

(2) كلارك، 82.

المنهجي أمام رؤسائها حول ما حصل. أدّى ذلك إِلىٰ إثارة قضية المعايير المزدوجة بالنسبة إِلىٰ أَحد كبار الضباط القادة؛ ونظراً للضباب الكثيف الذي ظل يحوم فوق بيت كلنتون الأبيض بصورة دائمة حول أشكال الخيانة الزوجية، فإن تلك الأقاويل كانت كافية لسد طريق منصب رئيس هيئة رؤساء أركان الجيش أمام رالستون.

مع خروج رالستون من الصورة، بدأت المواصفات المطلوب توفرها في الرئيس الجديد تتغير. لقد تعين علىٰ الرئيس الجديد أن يكون متمتعاً بحياة شخصية ناصعة البياض، طاهرة. «هل تعاني من مشكلة رالستونية؟» كان هو السؤال الذي طرحه أَحد محامي الپنتاگون علىٰ الجنرال هيو شلتون، جنرال النجوم الأربع وأحد كبار المرشحين للمنصب. جاء الرد بالنفي. فقد عرف زَوْجَه منذ كان في الثالثة عشرة من العمر وهي المرأة الوحيدة التي أحبها. وعلىٰ الفور، قرّرت جماعة كلنتون أن شلتون هو الشخص النموذجي لشغل المنصب. كان من الطراز القديم، لا يجيد الكلام ولكنه ناجح في العلاقة مع قواته، معروف بأنه جندي حقيقي بين الجنود، سريع الغضب بوضوح، أَكثر إِيجازاً، بصورة ملحوظة، من وس كلارك، مثلاً. كان شلتون مستنداً إِلىٰ سجل قتالي مشرف ومؤهلاً لتحطيم أَي إِناء فخاري.

كان شلتون محبوباً عموماً لدى الآخرين في الجيش. كان بسيطاً، دون نَفْخ، دون «شراشيب»، وما من أَحد كان يشعر بأي خطر منه. بل كانوا شديدي الاحترام لما كان يمثله. قامته ستة أقدام ونيف، صدره مغطّى بالأوسمة والنياشين، قوي التأثير علىٰ المدنيين، خصوصاً، في التسعينيّات، بين الكثير ممن لم يسبق لهم أَن خدموا في الجيش. كان من الصعب تصوره ناجحاً في الكثير من المشروعات المدنية كنجاحه في الجيش ـ ربما باستثناء مدرب كرة قدم محترف حيث الانطباع الجسدي الذي يتركه المرء ينطوي أَيضاً علىٰ شيء من الأَهميَّة. أضف إِلىٰ ذلك، أَن شلتون تناسب مع الثقافة التقليدية للجيش

بقدر أكبر من النجاح (واليُسْر) مقارنة مع شخص مثل كلارك. كان يعرف متى يتكلم ومتى يتوقف عن الكلام، وتلك موهبة ظلت تراوغ كلارك بين الحين والآخر. حين أقدم كوهين علىٰ تسمية شلتون رئيساً [للأركان]، سارع، وبشكل مثير، إلىٰ مقارنته لا بجنرالات آخرين بل باثنين من نجوم السينما، گاري كوبر وجون واين: «طويل القامة، مستقيم كالرمح، قليل الكلام»(3).

كان شلتون قد خدم لفترتين في ڤيتنام، الأولى قائداً لوحدة قوات خاصة ممتازة من المرتبة (آ) في سنة 1967م، والثانية قائداً لفوج مشاة. سجلُّه ناصع. كان مساعد قائد للفرقة النخبوية الـ 101 المحمولة جواً في عاصفة الصحراء، وقائداً للفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً لاحقاً. وفي 1993م كقائد للجيش الثامن عشر المحمول جواً، كُلِّف بقيادة القوَّة العملياتية المعدة لاجتياح هاييتي وإزاحة الجنرال راؤول سيدراس، في عمليَّة غزو كانت موشكة علىٰ التنفيذ حين أقدم سيدراس، مدركاً انتهاء كل شيء، علىٰ التخلي عن السلطة. كان شلتون قد أعطى سيدراس والطغمة أربعاً وعشرين ساعة ليخرجوا من القصر الجمهوري. كانت رسالته الأخيرة إلىٰ سيدراس رائعة الإيجاز والوقاحة: «نريدكم أن تأخذوا معكم كل شيء يخصكم، دون أي شيء آخر»(4).

كان شلتون، برأي أقرانه، رجلاً طيباً، عادلاً ومتوازناً رغم عدم نبوغه، شخصاً يجسد جملة أشكال الفضيلة، نقاط القوَّة، العيوب، والنزعات المحافظة لسلك الخدمة الذي كان قدأنتجه. صحيح أن البعض في الجيش كان يتساءل عن اتجاه ولاء كلارك: أهو للپنتاگون أم خارجه؟ غير أن أحداً لم يراوده أي شك حول ولاء شلتون. لقد كان ابناً باراً للمؤسسة [العسكريَّة]. كان ذكياً ولكن غير ميال إلىٰ اقتحام المسائل المدنية ـ العسكريَّة وكثير الانزعاج في الغالب، وبوضوح، من معالجة القضايا المعقدة جداً التي كان يتعين علىٰ أي

---

(3) **كَرَنْت بيوگرافي**، 1998، 529.

(4) إيلين سيولينو وستڤن لي ميرز، **نيويورك تايمز**، 5/ 12/ 1997م.

رئيس هيئة أركان أَن يواجهها. لم يكن منصبه الجديد ملائماً له بصورة طبيعية كما لم يكن عملاً كان سيسعى للحصول عليه بالضرورة. فالمسؤوليات السياسيَّة المصاحبة للمنصب كانت مسؤوليات ثابتة ودائمة، غير أنَّها بقيت تبدو مع ذلك غريبة ومنفِّرة بالنسبة إِلىٰ شلتون. صحيح أَنَّه كان يملك إِحساساً طبيعياً بما هو جيد بالنسبة إِلىٰ الجيش، غير أَن كثرة من القضايا الأخرى كان سيجدها متعبة.

أضف إِلىٰ ذلك، أَن المسألة الأكبر المتمثِّلة بمسألة الثقة بين إِدارة كلنتون ـ وهي موشكة علىٰ الدخول في سنتها السادسة ـ وكبار ضباط الجيش بقيت مشكلة، في 1998م لدى تفاقم الأمور في كوسوڤا. كان هناك علىٰ الدوام قدر كبير من الاختلاف علىٰ صعيد المصالح والقِيَم بين الساسة والجنرالات، قدر محتوم من الشك لدى كل من الطرفين بالآخر. أَمَّا الآن فقد تم جعل التوترات بين الجهتين أَكثر شراسة جراء التغيير الحاصل في الصراعات الخارجيَّة المحتملة، في تلك الصراعات التي اعتَبَر الجيشُ تورطنا فيها مدفوعاً بهواجس سياسيَّة أَو أخلاقية أَكثر منها هواجس وهموم ذات علاقة بالأَمن القومي. ولعل ما هو أَكثر تخريباً، أَن الهوة الفاصلة بين الساسة والعسكريين كانت أكبر في هذه الإِدارة وحتى أصعب علىٰ الجَسْر بسبب طبيعة السياسة في التسعينيّات. بقيت الشريحة العليا من المؤسّسة العسكريَّة علىٰ الدوام أَكثر محافظة من الجسم السياسي العام. ولأَسباب مختلفة، ليست قضية حقوق الشواذ في الجيش أقلها، باتت هذه الشريحة أَكثر تماهياً مع الحزب الجمهوري أَكثر من أَي وقت مضى. فالشواذ والمؤمنون بحقوقهم كانوا ميّالين للتماهي مع الحزب الديمقراطي؛ في حين مال معارضو حقوق الشواذ، مثل كبار الضباط العسكريين، إِلىٰ التماهي مع الجمهوريين، بصورة مكشوفة حيناً ومغطاة حيناً آخر. وقد عنى ذلك أَن الجيش كان علىٰ الدوام متأكداً من تمتعه في جميع صراعاته مع المدنيين بحليف جبار علىٰ التلة [البرلمان] متمثِّل بقيادة الحزب

الجمهوري. لم يكن الأَمر معروفاً لدى الجيش فقط، بل وقد كان معروفاً أَيضاً لدى كبار مسؤولي إدارة كلنتون. كانت للجيش روابط فلسفية أقوى مع الجمهوريين، ونفوذ أكبر، وهذه مفارقة ساخرة، لدى الديمقراطيين وعند أَي رئيس جمهوريَّة ديمقراطي، نفوذ شكَّل ورقة بالغة القوَّة مع بقائها دون استخدام فعلي في أَي وقت. إِن التهديد باستخدام هذه الورقة هو الذي أضفى السلطة علىٰ الجيش.

كانت للجيش أَيضاً مشكلات معينة مع كلنتون نفسه، مشكلات يعود بعضها إِلىٰ الطريقة التي تعامل بها مع دعوته إِلىٰ الخدمة. غير أَنّها كانت ذات جذور أعمق من ذلك بكثير. صحيح أَن عدداً غير قليل من كبار القادة الجمهورين (لوت، گينگريتش، كويل، شيني، جورج دبليو بوش) كانوا، آخر المطاف، قد أفادوا من فرصة الذهاب إِلىٰ ڤيتنام؛ غير أَن فيل گرام، وهو أَحد كبار أعضاء مجلس الشيوخ وقد ترشح مرة للرئاسة، لم يكن قد ذهب إِلىٰ هناك، إِلاَّ أَنَّه سارع إِلىٰ القول بأن شقيقه كان قد فعل. ومما بقي في الذاكرة أن المعلِّق الإِعلامي موراي كمپتون كان قد كتب يقول: «وهكذا فإِن فيل گرام يعلن عن أداء واجبه ادعاءً ودونما خجل. صحيح أَنَّه ليس قيّماً علىٰ أخيه، ولكن تجنيد أخيه هو تجنيد له»[5]. في انتخابات سنة 2000م كان الديمقراطيون سَيُسَمُّون گور مرشحاً، سبق له أَن ذهب إِلىٰ ڤيتنام طوعاً تماماً، وكان الجمهوريون سيرشحون اثنين ممن لم يفعلوا، غير أَن ذلك لم يكن ليساعد آل گور مع الجيش علىٰ الإِطلاق.

يمكن إِرجاع بعض الانقسامات إِلىٰ الطبيعة المختلفة بالذات لكل من الساسة من جهة والعسكريين من جهة ثانية. فالمواصفات التي جعلت بيل كلنتون، ببساطة شديدة، مدير نهاية قرن بارعاً في العالم الممزّق، المتطاير،

---

(5) موراي كمپتون، **نيويورك نيوزداي**، 26/ 2/ 1995م.

المتقلّب للسياسة الأَمريكيَّة ـ مهارته مع الكلمات، حصافته الهائلة، قدرته علىٰ جسر وتجميد سائر الأنواع المختلفة من الدوائر المتناقضة، معرفته لما ينبغي أَن يقوله لكل جماعة في كل لحظة، ولأولئك الذين يستطيع أَن يثنيهم ولو قليلاً، قبل كل شيء ـ ساهمت جميعاً في جعل الشريحة الأعلىٰ من مسؤولي البِنتاگون عديمي الثقة به بصورة استثنائية. كانت القضية ثقافية بامتياز. كلما كان هذا السياسي أَو ذاك موهوباً طبيعياً، بات موظفاً رفيع المستوى أَكثر اضطراباً وقلقاً، مدركاً لاحتمال اضطراره للخروج من دائرة رابطته ولامكانية تعرّضه للنشل. دأب الساسة علىٰ استعمال الكلمات الأَكثر غموضاً وضبابية قَدْر الإِمكان. في حين بقي العسكريون في الغالب ميالين إِلىٰ النفور من الغموض. ما كان يمكن اعتباره براعة و«شطارة» بالنسبة إِلىٰ السياسي كان من شأنه أَن يتجلى أمام أَي عسكري بوصفه خدعة وتحايلاً. ففي الجيش ثمة مواصفات معينة تعتبر ذات قيمة، وكان بوسع المرء أَن يقوّم زملاءه بطريقة بدائية وبسيطة جداً عن طريق طرح الأسئلة الشبيهة بـ: هل هم مستعدون للمساعدة علىٰ إِخراج الجرحى وإِبعادهم من أَرض المعركة تحت القصف؟ كان لدى العسكريين شكوكهم حول قُدْرة بيل كلنتون، حتى بالمعنى السياسي، علىٰ اجتياز ذلك الامتحان.

ما كان رجال الجيش يريدون معرفَتَه عن هذا الزعيم السياسي أَو ذاك هو مدى احتمال صموده في أية أزمة عسكريَّة خطيرة وبالغة الجدية. (حين برز وس كلارك لاحقاً بوصفه ناشطاً في أثناء أزمة كوسوڤا، متقرباً أَكثر من كبار المدنيين ومبتعداً عن كبار العسكريين، بادره أَحد زملائه بالسؤال عن المواقع التي سيتخذها أصدقاؤه المدنيون حين تسوء الأحوال. هل سيسارعون، كما فعل المدنيون الذين كانوا سببَ الهزيمة في ڤيتنام، إِلىٰ تأليف كتبهم واحتلال مناصبهم العالية، كما فعل كل من ماك بوندي وبوب ماكنمارا في مؤسسة فورد والبنك الدولي، تاركينه يتحمّل المسؤولية وحده؟) فأي شخص بالغ اللطف، شديد الحذلقة في اختيار الكلمات، كثير الوداعة واللين، أَي شخص قادر علىٰ

حضور اجتماعات مختلفة وعلىٰ إِرضاء دوائر متعارضة، لم يكن، بنظر الجيش، شخصاً جديراً بالإِعجاب؛ لقد بدا شخصاً يوحي بعدم الثقة. بقي العسكريون متمسكين بجعل كلامهم مباشراً وصريحاً. سبق للجنرال ديڤيد شوب، الذي كان قد تولّى قيادة سلاح المارينز في سنوات كندي، أن قال مرة إن وظيفة أي ضابط قيادي كبير ليست الاهتمام بمعرفة سياسة هذه الإِدارة أو تلك، بل الانتظار حتى يبادر رئيس الجمهوريَّة إِلىٰ إِصدار الأَمر له طالباً منه أن يشد الرحال وينطلق، ومن ثم يشد الرحال ثانية وينطلق(6).

ما دأب الجيش، في شرائعه، علىٰ تقويمه أكثر من أَي شيء آخر هو الشرف؛ فالعسكريون الجادون كانوا علىٰ الدوام يعرفون زملاءهم الذين أبلوا بلاء حسناً في أَرض المعركة ويمكن التعويل عليهم. ذلك هو السبب الذي جعل رجال الجيش يمتنعون حين يكونون في الزي العسكري، عن الكشف، وراء الكواليس، عن جميع أضلاعهم، بل الاكتفاء، بدلاً من ذلك، بارتداء وشاح مقاتل جندي المشاة. إِنَّه وشاح الجيش الحقيقي، وارتداؤه دون أية نياشين وشرائط أُخرى ـ بما فيها حتى النجمة الفضية والنجمة البرونزية ـ كان جزءاً من لغة الثقافة [العسكريَّة] السرية، اللغة المستخدمة من قبل العسكريين الحقيقيين في حديثهم إِلىٰ بعضهم البعض، بنبرة مخفَّفَة بصورة مدروسة. فالوشاح يقول ببساطة أَن صاحبه كان هناك وأدَّى ما عليه من واجب، وهو ما كان أَي شخص، كان هناك أَيضاً، بحاجة لأَن يعرفه. أَمَّا إِذا لم يسبق للمرء أَن كان هناك فلا أَهميَّة لما يفكر به ويخطر بباله.

إِذا كان لدى الجيش تحفظات علىٰ المدنيين، فإِن تحفظات المدنيين علىٰ الجيش لم تكن أقل. لعل الإِحباط الأَكثر عمقاً ـ وكان عائداً إِلىٰ تحدي مادلين أولبرايت لكولن پاول حول جدوى جيشه الرائع ـ هو أَن الجيش بدا دائماً راغباً

(6) هالبرشتام، **الأفضل والأذكى**، 270.

في الحصول علىٰ قوة كبيرة جداً، مئات الآلاف من الجنود لتنفيذ هذه المهمة أَو تلك ـ قوة ضخمة جداً بحيث تغدو جميع المهمات متعذرة التنفيذ. أو، كما قال وس كلارك لاحقاً في كتابه، كان قد جرى تحويل الجيش تدريجياً إِلىٰ نوع من المؤسَّسة التعاونية المتضامنة، «كأثر من مخلّفات ڤيتنام». تمثَّل الرد الشائع والمتداول (علىٰ طلب القيام بأية مهمّة) بعبارة: «سننفذ المهمّة إِذا وجهتمونا، سيدي، ولكن ثمة جملة من المخاطر، ونحن قادرون، علىٰ الدوام، إِذا ما أمرتمونا بالقيام بهذا، علىٰ تحميلكم المسؤولية الكاملة عن الخسائر». بقي العسكريون، بنظر المدنيين، شديدي الحذر، حذرين أَكثر مما ينبغي. أَمَّا الشكوى الثانية فقد تمثَّلت بأن العسكريين كانوا، في الحقيقة، غارقين في السياسة، رغم نزوعهم إِلىٰ التوهم بأنّهم فوق السياسة. لقد أتقنوا فنّ استغلال نفوذهم لدى القيادة الجمهوريَّة، ودأبوا علىٰ اعتماد المعايير المزدوجة. تشدّدوا مع الديمقراطيين الذين تخلّفوا عن الذهاب إِلىٰ ڤيتنام ولكنّهم تغافلوا وحرصوا علىٰ إِغماض أعينهم إِذا كان من سبق له أَن راوغ القرعة وتخلّف عن الالتحاق بالخدمة سياسياً جمهورياً صديقاً.

من الواضح أَن التناغم بين الجيش وإِدارة كلنتون نادراً ما حصل. كان الأخير متنبهاً منذ البداية إِلىٰ الشكوك المحيطة به في نظر العسكريين. وقد أدرك أَن عليه، إِذا أراد أَن يؤدي وظيفته بنجاح كرئيس للجمهوريَّة، أَن يتغلّب ولو علىٰ جزء من تلك الشكوك، وقد بذل قدراً كبيراً من الجهد في هذا السبيل. كان قد رفع من مستوى سلوكه الشخصي في التعامل معهم، وكان قد وظّف مواهبه الكثيرة وسِحْره الأَخّاذ في أثناء اللقاءات الشخصية لاختزال أية نمطيات باقية لديهم عنه. لم يكن مهووسَ سلام من مخلّفات جيل الستينيَّات، غير مستعد لاستخدام القوّة عند الضرورة. كان يستطيع أَن يكون متشدداً وعنيداً، بالقدر نفسه، عند الحاجة. كان دائم التواصل معهم، وقد حاول بعض الأحيان أَن يضع حداً لعدم الثقة عبر عَرْض المزيد من منظومات الأَسلحة علىٰ مختلف

قادة القوّات والوحدات المختلفة، تلك المنظومات التي ربما كان أولئك القادة موشكين علىٰ المطالبة بها ـ حاملة طائرات إضافية للبحرية، مثلاً، هل أنت متأكد من عدم حاجتك إلىٰ واحدة؟ غير أَن ذلك لم يُفِدْ في الحقيقة. كان العسكريون يريدون أشياء أُخرى. لقد كانوا مؤمنين بأن البيت الأَبيض أراد، بمقدار ما يستطيع، أَن يقلّص نفوذ رؤساء الأركان المشتركة، وأن جماعة كلنتون كانت، لدى اختيار أَي رئيس للأركان، ستظل علىٰ الدوام ميّالة إِلىٰ الضابط الأقل تشدّداً والأقصر قامة علىٰ الساحة الجماهيريَّة الشعبيَّة.

كثيرون من كبار مسؤولي الپنتاگون دأبوا علىٰ مراقبة سلوك كلنتون منذ البداية. فرجال الجيش كانت عندهم أجهزتهم الاستخباراتية الناجحة جداً وإِن لم تكن رسمية. ثمة كان ممثّل للجيش في أَي اجتماع يفترض أَن يكون مهماً، يقدم تقريراً إِلىٰ الپنتاگون، ليس عن القرار الذي تم اتخاذه فقط، بل وعن القوى الكامنة وراء القرار، عن طابع الاجتماع وتركيبته، عما جرى كتمانه وعدم الحديث فيه، وعن جملة التلميحات الخفية والرسائل المشفَّرة الصادرة عن البيت الأَبيض. لم يكن الجيش راضياً عن قرار كلنتون في البدايات الأولى، ذلك القرار الخاص بالسماح للشواذ بالخدمة في الجيش بصورة علنية، غير أَنَّه غضب أَكثر حين بادر، لدى اصطدامه بمعارضة ذات شأن، إِلىٰ التراجع بصورة شبه فورية. وكذلك فإِن العسكريين لم يكونوا سعداء قط حين انقلبت عملية الصومال إِلىٰ كارثة. ما كان قد حدث هناك كان شبيهاً بموت مرعب في العائلة بالنسبة إِلىٰ الجيش، غير أَن العسكريين انزعجوا أَيضاً وبالقدر نفسه من رد البيت الأَبيض الداخلي. في البدء جاء الانشغال المسبق مدوخاً، وهو ما كانوا شاعرين به، وبعد ذلك بادر أهل البيت الأَبيض فيما هم يستعدون للظهور أمام الكونگرس لتفسير ما كان قد حصل، إِلىٰ إِفهام معشر العسكريين الذين جاؤوا لتقديم المعلومات، بأن البيت الأَبيض كان يريد تقليص مسؤوليته عن القرار القاضي برفع مستوى العمليَّة والسير قُدماً علىٰ طريق بناء الأمّة. كانت جماعة

وزارة الدفاع تؤمن بأن القرار كان عائداً لتوني ليك بمقدار ما كان عائداً لجوناثان هاو، غير أَن التصور السائد كان يقول إِن البيت الأَبيض أراد أَن يزيل عنه بصمات توني ليك. قد يكون هذا خطأ، ولكن تلك هي الطريقة التي رأى بها العسكريون الإِدارة. تبين لهم أَن ما كان بنظرهم قضية حياة وموت، قضية موت عدد من الشباب، كان قابلاً لأَن ينقلب، بنظر البيت الأَبيض، وبسهولة شديدة، إِلىٰ مسألة صُوَر.

بالنسبة إِلىٰ الكثير من العسكريين كان الرئيس جذّاباً، فاتناً، موهوباً ومثيراً. غير أَن الهم الأَول في البيت الأَبيض لم يكن، بنظرهم، الحقيقة والواقع بالضرورة، أَو الحقيقة والواقع كما كان الجيش يتصورهما علىٰ الأقل. بل كان ذلك الهم هو **مظهر** الحقيقة ـ القصة الملفّقة، التلفيق. ما أراد أهل البيت الأَبيض أَن يفعلوه، برأي الكثير من رجال الجيش، كان متمثلاً بإِبعاد قضايا معينة عن شاشة السي. إِن. إِن.، أَو، في حال استحالة التغطية، إِذا ما تفجّرت أخيراً في عالم التغطية الإِعلامية الفورية والآنية، التعامل مع ما كان ذاهباً إِلىٰ السي. إِن. إِن. بقَدْر مقبول من التلفيق المضاد ـ لإِظهار أَنّهم كانوا يفعلون شيئاً ما، وإِن لم يكن ما كانوا يفعلونه غير كاف علىٰ الإِطلاق. وبالتالي فقد كان بوسع أهل البيت الأَبيض، في حال عجزهم التام إِزاء عمليات الإِبادة في رواندا، أَن يبادروا، علىٰ الأقل، إِلىٰ إِرسال طائرات سي ـ 130 لإِسقاط الوجبات الغذائية، علىٰ الرغم من أَن تلك لم تكن هي المسألة الأَكثر إِلحاحاً في المنطقة.

مع حلول 1998م كان كبار ضبّاط الجيش ما يزالون غير واثقين بكلنتون ومَنْ هم حوله، ولم يكن هو، بدوره، واثقاً بهم بعد. بقيت أَهداف الطرفين أَكثر من متباينة في الغالب، كما ظلت شرائعهما مختلفة، مثلها مثل رحلتيهما، أَمريكتيهما، وعالميهما. علىٰ رأس الهرم بالذات كان لا بد من وجود رجل استثنائي المهارة مثل شاليكاشڤيلي أَو رالستون لتلبية متطلبات الثقافتين،

المدرستين كلتيهما. حتى في التعامل الاعتيادي الجانبي بين الجيش والسياسين، بقي الطرفان ميّالين إلىٰ التحادث بقدر من التحفّظ، الإيجاز، والحذر، مشذبين أو مهذبين وملطِّفين ما كانا يشعران به فعلاً، محاولين التعايش والاهتداء إلىٰ أرضية مشتركة، وصولاً، بالتالي، إلىٰ فقدان ما كان ينبغي أن يكون متوافراً من الصراحة. وغياب الصراحة ذلك شهد قدراً أكبر من المبالغة في سنوات كلنتون، بل وقد ساد حتى قَدْرٌ معين من العزوف، فيما بعد الصومال، عن وضع أي شيء عن مستويات القوّة في هذا الميدان القتالي أو ذاك علىٰ الورق. لم يكن هذا واضحاً دائماً للمراقبين الخارجيين المتفرجين علىٰ الثقافتين أو المدرستين الساعيتين إلىٰ تحقيق نوع من التزاوج، أو المتابعين لكلنتون وهو يسعى جاهداً للوصول إلىٰ كبار قادة الجيش والتواصل معهم. بل ولم يكن واضحاً وضوحاً كلياً بالنسبة إلىٰ بعض كبار المدنيين أنفسهم.

لقد كان الجيش، خصوصاً شرائحه الأعلى، جزءاً نادراً متبقياً عن أمريكا كانت لا تزال تعتبر الكياسة والتهذيب من الأمور المهمّة، ومقارنة مع الأجزاء الباقية من الثقافة، كان العسكريون، بما يشبه الوعي الذاتي، من الطراز القديم. كان ذلك، هو الآخر، جزءاً من الميثاق؛ كان لا بد من معاملة جميع كبار المسؤولين المدنيين باحترام وإجلال. وبالتالي فقد كان وارداً بقوة أن يقع المرء في خطأ اعتبار مبالغة جنرال النجوم الثلاث في التحلي بالكياسة والتهذيب في التعامل معه تعبيراً عن المودة والاحترام، في حين يكون في حقيقة الأمر مفعماً بالحقد علىٰ كل ما يدافع عنه وبالاحتقار لكل ما يحمله من آراء. وهكذا فإن العسكريين والمدنيين لم يكونوا صادقين ومستقيمين في التعامل، حتى ولو لم يكن الطرفان دائبين علىٰ خداع كل منهما الآخر.

غير أن وَحياً ما لبث أن بدا نازلاً علىٰ كلنتون أواخر أيام رئاسته. اتضح أن السعي للالتفاف علىٰ مواقف جزء كبير من الشرائح العليا والمتوسطة في الجيش ليس مُجْدياً؛ فأشكال التذمّر والشكوى منه كانت بالغة العمق

والخطورة. إلاَّ أَن المتطوعين كانوا من نوعية أُخرى. كانوا أَكثر شباباً بكثير، في منتصف عمره هو، كانوا قليلي الذكريات القيتنامية أَو عديميها، كان هو قائدهم الأعلى، وحين كان يزورهم كانوا ينبهرون به. شكلت الاستقبالات الحماسية التي خصّوه بها مناسبات ثمينة جداً علىٰ شاشات الشبكات الإِخبارية علىٰ صعيد السعي لمحو وصمة عار قديمة. ما لبث كلنتون، في تلك اللحظات، أَن بدا شبيهاً بهاري ترومان في 1948م. حين بدا أصحاب أعداد لا تحصى من مصانع الغرب الأوسط غير ميّالين إِليه، قرّر أَن يتجاوزهم ويخوض حملته الانتخابية ساعياً إِلىٰ كسب عمالهم.

الفصل الثامن والثلاثون

مع تعاظم احتمال الحرب حول كوسوڤا أوائل سنة 1999، أخطأ كل من الغرب وميلوسوڤيتش في فهم كل منهما الآخر. توهم الغرب بأن الأَمر سيكون مثل البوسنة تماماً. من شأن التهديد بالقصف، أَو مجرد «لحسة» قصف صغيرة، أَن تكون كافية: لن يلبث ميلوسوڤيتش أَن يهتدي إِلىٰ رؤية النور فينصاع لإِرادتنا، أَمَّا ميلوسوڤيتش فقد توهم بأنّه قادر علىٰ تقسيم الغرب مرّة أُخرى، ولا بدّ للتحالف من أَن يتصدّع إِذا ما تقرَّر خوض الحرب من جديد. وبدا ميلوسوڤيتش أَيضاً مؤمناً بأن أصدقاءه الروس سيوقفون أَي عمل عسكري يقدم عليه الناتو، أَو سيوفِّرون له، علىٰ الأقل، إِمكانية الحصول علىٰ أَحدث صواريخهم، مما سيؤدي إِلىٰ إِضعاف الورقة الأقوى بيد الناتو ـ ورقة استخدام سلاح الطيران. علىٰ امتداد سبع سنوات طويلة من الصراع المتواصل مع الغرب ـ صراع أشبه بالوقوف الدائم علىٰ حافة الهاوية ـ كان ميلوسوڤيتش قد نجح في الحفاظ علىٰ وجهة نظر الكثير من الشخصيات الشمولية التي سبقته. ظل يعتقد بأن إِبطاء الأنظمة الديمقراطيَّة في التحرّك لم يكن إِلاَّ دليل ضعف، وبأن الوفرة التي تنعم بها هذه الأنظمة إِن هي إِلاَّ دليل تفسخ وتحلّل. أضف إِلىٰ ذلك أَن من الممكن الاستئساد والتنمّر علىٰ الأنظمة الديمقراطيَّة لأَن ساسَتَها ومواطنيها يخافون دفع ثمن الحرب. ففي إِحدى المرّات قال لوزير الخارجيَّة الأَلماني يوشكا فيشر: «يمكنني أَن أتحمّل الموت ـ الكثير منه ـ أَمَّا أَنتم فلا

تستطيعون»[1]. قد يكون ذلك صحيحاً وقد لا يكون، ولكن ما إن أصبحت حملة القصف الناتوية أكثر احتمالاً باطراد، حتى أدرك ميلوسوڤيتش، أخيراً، أنَّه بات أسيراً بيد القوى القوميَّة نفسها التي كان قد ساهم كثيراً في إيجادها.

في كانون ثاني/ يناير 1999م، حين كان الحلفاء يحاولون إفهام ميلوسوڤيتش حتمية الحملة الجويَّة الناتوية ضده، حَذَّره وس كلارك، مرة أُخرى، من أَن الوضع كان جدياً وخطراً. وسأل الزعيم الصربي مندهشاً عن مدى صحة قوله لديك هولبروك قبل بضعة أيام أَن خسارة كوسوڤا كانت تعني حياته. رد ميلوسوڤيتش: «لا، لا، لا! لم أقل ذلك علىٰ الإطلاق». فكرّر كلارك السؤال: «وماذا قلت لهولبروك، إذن؟» جاء تفسير ميلوسوڤيتش علىٰ النحو التالي: «قلت له كنت سأفقد **عقلي لا حياتي**». بين العقل والحياة كان الأَمر كله يوشك علىٰ النهاية.

غداة المذبحة في راكاك وفي محاولة منها لإنهاء الاشتباكات دون استخدام القوَّة دعت مادلين أولبرايت الصرب وجيش تحرير كوسوڤا إلىٰ مؤتمر في قصر رامبوابيه الفرنسي القديم القريب من باريس. ما تمخضت الدعوة عنه لم يكن قريباً من أَي شكل من أشكال المؤتمرات السلمية، وجعل مؤتمر دايتون الذي تميّز بقدر غير قليل من الفوضى يبدو مثالاً للنظام، والتوازن ووضوح الهدف. فأي من الطرفين، جيش تحرير كوسوڤا والصرب، لم يكن راغباً في المجيء إلىٰ هناك. كان الصرب يرون أَن الاجتماع مؤامرة مدبّرة ضدهم، وربما كانوا علىٰ صواب، في حين كان الأَلبان يريدون استقلالاً بدلاً من شكل من أشكال الحكم الذاتي داخل صربيا، وهو ما كان الغرب يريده. أوفد الصرب وفداً من الدرجة الثانية؛ لم يشارك ميلوسوڤيتش أَو أَي من كبار المسؤولين في نظامه. حتى الأَلبان كانوا بحاجة إلىٰ من يَلْوي لهم ذراعهم حتى يشاركوا، علىٰ

---

(1) دالدر وأوهانلون، 94.

الرغم من أَن حضورهم وغياب الصرب كان من شأنه أَن يعني بصورة شبه مؤكدة أَن يخوض الناتو حرباً نيابة عنهم. لم يكن عناد الصرب شيئاً جديداً بالنسبة إِلىٰ الغرب، أَمّا تشدّد الأَلبان فقد شكّل مفاجأة كبرى. في إِحدى المراحل ظهرت أولبرايت علىٰ المسرح، معتقدة، علىٰ ما يبدو، أَن من شأن دَفْعَة أخيرة من جانب وزيرة الخارجيَّة الأَمريكيَّة قادرة علىٰ إِنجاز المهمّة. غير أَنها لم تجد الأَلبان شديدي الانبهار بموقعها وقوّتها. ربما ظنّوها، كما قال مستشار للوفد الكوسوڤي يدعى دوگاجين گوراني، إِحدى عاملات التنظيف، فأحد أعضاء الوفد قال لها: «أمهلينا خمس دقائق، واذهبي!»[2].

لم يقتنع الكوسوڤيين بتوقيع الاتفاقية آخر الأمر إِلاَّ بضغط مارسه بوب دول الذي كان بطلاً بنظر معظم الكوسوڤيين بفضل دعمه لهم. قال لهم دول: «سنتخلى عنكم إِذا لم توقّعوا». فوقّعوا مرغمين ومتأخرين. فوجئ الصرب بالتحاق غرمائهم بالركب، إِذْ كانوا واثقين من أَن الأَلبان كانوا أَكثر صَلَفاً من أَن يقلبوا بنصف رغيف. من المؤشرات الدالَّة علىٰ غياب الوضوح داخل الإِدارة أَن أَحداً لم يبد عارفاً ما إِذا كان انهيار رامبوايه جوهرياً آخر الأَمر شيئاً جيداً أم سيئاً. فكما لاحظ بعض كبار مسؤولي الإِدارة أَدَّى مؤتمر رامبوايه، علىٰ الأقل، إِلىٰ تمكين الإِدارة من إِفهام دول الناتو الأُخرى المستمرة في شكّها حول أَي عمل عسكري بأن الولايات المتحدة كانت قد مَشَتْ الميل الأخير على طريق تحقيق السلام. أخفق المؤتمر بسبب غَطْرسة الصرب، مما جعل استعمال القوّة أمراً مسموحاً به.

من المهم أَن نعقد مقارنة بين مجموعتين من التواريخ لنفهم الضغوط الداخليَّة ونظيرتها الخارجيَّة التي دأبت علىٰ دفع هذا الصراع إِلىٰ نوع من الحل. بدأ مؤتمر رامبوايه في السادس من شباط/ فبراير 1999م، وقام الألبان مكرهين بتوقيع الاتفاقية في الثامن عشر من آذار/ مارس. كان الحصار علىٰ صربيا

---

(2) **فرونتلاين**، 22/ 2/ 2000م.

موشكاً علىٰ البدء. وهناك في أمريكا كان كلنتون قد تعرّض للانتقاد من جانب مجلس النواب في التاسع عشر من كانون أول/ ديسمبر 1998م، ثم بُرِّئ من التهم في مجلس الشيوخ يوم الثاني عشر من شباط/ فبراير 1999م. كان حصار البيت الأبيض قد انتهى. ومع انهيار رامبواييه واقتراب موعد إنذار الناتو للصرب بالقصف أواخر آذار/ مارس 1999م، قام ريتشارد هولبروك بزيارة أخيرة إلىٰ بلگراد للتحدث مع ميلوسوفيتش. وانطلاقاً من يقينه بأن هذه كانت لحظة مصيرية أخيرة ما زالت تتيح فرصة لجم كلاب الحرب، قال هولبروك: «هل تفهم ما سيحصل عندما أغادر؟» فرد عليه ميلوسوفيتش قائلاً: «نعم. ستقصفوننا. أنتم بلد كبير، قوي، وتستطيعون أن تفعلوا ما تريدونه، وليس لدينا ما نفعله حيال ذلك»[3]. حذَّر هولبروك محاوره، وكان قد انتقى كلماته بعناية بالتشاور مع ضباط كبار في وزارة الدفاع، قائلاً: «إن القصف سيكون خاطفاً، سيكون قاسياً، وسيكون مدعّماً».

رأى هولبروك أن ميلوسوفيتش كان قَدَرياً بشكل غريب وأقل خوفاً مما كان في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي حين كان الأمريكيون قد هدّدوا بالقصف للمرة الأخيرة. لم يكن هولبروك متأكداً مما كان قد غيَّرَه. ربما كان السبب متعلقاً بما جرى في أثناء عمليّة ثعلب الصحراء، حين أقدمت الولايات المتحدة علىٰ مهاجمة العراق لمدة اثنتين وسبعين ساعة ثم توقفت، واعتقد ميلوسوفيتش أن بمقدوره تحمّل مثل ذلك النوع من القصف. أو ربما كان قد تلقى من بعض المصادر من داخل الناتو ما يشير إلىٰ الطابع المحدود لأوامر القصف الناتوية وبات مقتنعاً بقُدْرته علىٰ تحمّل ذلك أيضاً ـ فقد حدث ذلك معه مرات كثيرة. أو ربما كان الأمر مجرد انقلاب في المزاج ـ وهو ما كان كثير الحصول معه. مهما يكن السبب، فإن ميلوسوفيتش كان أقل رُعْباً بكثير مما كان عليه قبل بضعة أشهر، إذْ أبدى غروراً عجيباً يكاد أن يصل إلىٰ مستوى اللامبالاة.

(3) جوداه، 227؛ مقابلتان مع هولبروك وكلارك.

كانت هيئة رؤساء الأركان قد وافقت على فكرة قصف الصرب دون حماس كبير. وكل من الناتو والبيت الأبيض كانا على الخط، على الرغم من أن مستوى القصف وطبيعة الأهداف بقيا من الأسئلة المعلّقة بلا أجوبة. ذلك هو ما كانت تريده الإدارة، حيث أصدر ساندي بيرگر إشارة البدء، وبادر بيل كوهن، مشحوناً بالشكوك، بعيداً عن الحماس كعادته، إلى التنفيذ، خصوصاً لأن القوّات البرّيَّة كانت مستبعدة بما ما من شأنه أن يقلّص عداء المعارضين في الكونگرس خلال الأيام الأولى من القتال. صحيح أن المعارضة ستبقى موجودة، غير أنّها ستكون متوارية بدلاً من أن تصبح صارخة، أكثر الأحيان. غير أن الپنتاگون سارعت، لحظة اتخاذ الخطوة العسكريَّة الأولى، إلى وضع قدمها على الكابح **تماماً مثلما سبق لها أن كانت قد فعلت بالنسبة إلى القضية ذاتها وللسبب ذاته بالضبط قبل ست سنوات**. لم تكن ثمة خطة (ب) متفق عليها. تكرر السؤال الذي كان پاول يطرحه كثيراً: وما العمل إذا لم يفعل القصف فعله المرجو؟

في مقر سلاح المدرعات الذي كان المختلى الذي اجتمع فيه رؤساء الأركان، كان الحديث خليطاً غير عادي من القبول والشك. كان الحماس الوحيد لقصف كوسوڤا بين بعض كبار ضباط الطيران التواقين لإظهار ما يستطيع سلاح الجو، دون القوّات البرّية، أن يفعله في أحوال كهذه، قد يساعد على وضع حد لجدل ظل دائراً بين مختلف الأسلحة بعد عاصفة الصحراء. فقد ظل سلاح الجو يعتقد بأنّه لم يحصل على ما استحقه من إطراء جزاء ما اعتبره دوراً طاغياً اضطلع به في انتصار عاصفة الصحراء. فلدى إطلاق عنان القوّات البرّية أخيراً، كانت القوّات العراقية، حسب اعتقاد عناصر القوّات الجويَّة الذي كانوا يتداولونه فيما بينهم وراء الكواليس، قد باتت عملياً بلا معنويات، إن لم تكن مهزومة سلفاً. وحسب وجهة النظر تلك، لم تكن العمليَّة البرية الاستعراضية اللاحقة التي دامت أربعة أيام إلاّ نوعاً من عمليَّة ترتيب ونفض وتقليم أظافر بسيطة لجيش عراقي مهزوم ومُخْبط.

لم يكن هذا الفَصْلَ الأَول في كتاب جدل طويل، طويل، كما لن يكون الأخير، غير أَن من شأن كوسوڤا أَن تمكن سلاح الطيران من تسجيل نقطة أُخرى علىٰ صعيد ما هو قادر علىٰ فعله، عبر إِطلاق العنان لحدود قصوى من القوَّة النارية ضد خصوم متخلفين تكنولوجياً. ونظراً لاحتمال بقاء الإِصابات في حدود دنيا فقد كان الأَمر جذّاباً بالنسبة إِلىٰ القادة السياسيين المواجَهين بمأزق هنا في البلقان أَو في أَي مكان آخر. ثمة كانت، رغم ذلك، تحفظات معينة، بين سلاح وسلاح، خصوصاً بين صفوف القوَّات البرية وسلاح مشاة البحرية [المارينز]، اللذين يمكن أَن يبقيا الطرفين الخاسرين مؤسساتياً في عمليَّة كهذه. وعلىٰ الرغم من أَن تلك التحفظات لم تطف علىٰ السطح بقوة في أثناء المناقشات داخل مقر سلاح المدرعات، لأَن إِحساساً بمسار اللعبة ما لبث أَن تمكّن من إِسكاتها، فإِنّها بقيت قابلة لأَن تُسمع بوصفها جوقة خلفية أنعم وأخفت داخل وزارة الدفاع في الأَيام والأسابيع التالية. إِن خطة قائمة كلياً علىٰ الطيران ومتناقضة، بالتالي، مع الفلسفة الأعمق والأَكثر أولية لجيش الولايات المتحدة، وغير مشروطة بأي قيد في حال إِخفاق سلاح الطيران، ما لبثت أَن أثارت سخط الناس.

تلك هي الطريقة التي بدأت بها عمليَّة الإِدارة الحربية الثانية حول البلقان في غضون أربع سنوات. لقد اتفق المدنيون والعسكريون علىٰ ضرورة شنّها، عبر الطيران كلياً، إِن أمكن. تلك كانت نقطة قوة أَمريكا، ونقطة قوة الناتو بالتالي. أَو كما كان ساندي بيرگر يقول أحياناً وراء الكواليس، تلك هي النقطة التي كمن فيها تفوّق الغرب العظيم ـ تفوّق بنسبة ألف إِلىٰ واحد في الطيران، في حين أَن التفوّق، في حال خوض الصراع بالقوّات البرية علىٰ تلك التضاريس المرعبة، كان يتدهور إِلىٰ نسبة سبعة إِلىٰ واحد، وكانت الكفة تبدأ بالرجحان لصالح ميلوسوڤيتش. أضف إِلىٰ ذلك أَن حكومة يلتسن كانت قد أبلغت الحلفاء بأن الروس، رغم عدم رضاهم عن قيام الناتو باستخدام القوَّة

ضد أشقائهم الصقالبة [السلاف]، لن يهبّوا للدفاع عن بلگراد ولن يزودوا الصرب بأحدث صواريخهم المضادة للطيران، التي كان من شأنها أَن تجعل الأَمر أصعب بكثير بالنسبة إِلىٰ الناتو.

ومع كل ذلك فإِن البيت الأَبيض كان عملياً يتقدم علىٰ طريق دخول الحرب بحذر وتوجُس كما لو كان يمشي علىٰ أَطراف الأصابع، متنبهاً بحدة إِلىٰ معارضة الكونگرس داخلياً وإِلىٰ هشاشة التحالف فيما وراء البحار. فحين بدأ القصف في الرابع والعشرين من آذار/ مارس، لم تكن الإِدارة قد التزمت بصورة كاملة. في تلك الليلة قام كلنتون بإِقحام جملة واحدة حاسمة وبالغة الأَهميَّة في تصريحه، جملة كانت ستبقى في صلب الانقسامات والتناقضات التي عاشتها قيادة الناتو خلال الأشهر الثلاثة التالية، عاكسة جميع الاختلافات والتعارضات غير المحلولة للسنوات الست الماضية. قال كلنتون: «لست عازماً علىٰ إِرسال قواتنا إِلىٰ كوسوڤا لتخوض حرباً». وبعد أشهر، حين أَصبح كل شيء واضحاً، كان كبار مسؤوليه المدنيين سيعترفون، وراء الكواليس، بأن تصريحه ربما كان خطأً لا يستهان به. وقد اعتبره كبار مسؤوليه العسكريين خطأً بالفعل، بل وخطأً كارثياً في الحقيقة لأَنَّه كان قد أرسل الإِشارة الخاطئة إِلىٰ جميع المعنيين، وعلىٰ الأخص إِلىٰ سلوبودان ميلوسوڤيتش.

من المفارقات الساخرة أَن الخط ربما كان يعود إِلىٰ واحد من النقاد الأَكثر صرامة لسياسة الإِدارة البلقانية، إِلىٰ شخص يدعى إِيڤو دالدر، باحث مقيم في مؤسسة بروكينگز، عضو سابق في جهاز مجلس الأَمن القومي، وناشط متحمس علىٰ صعيد السياسة في البلقان. كان دالدر هذا الذي أَلَّفَ، بالمناسبة، كتابين مهمين عن سياسات بوش وكلنتون البلقانية، قد أَصبح واحداً من فرسان الكلام المفضلين لدى مخرجي البرامج الإِعلامية المرئية والمسموعة الأَكثر تبحراً ورسوخاً في العلم، نجماً صاعداً وساطعاً في دفاتر عناوين وسائل الإِعلام الأَكثر تنقيحاً والأحدث. وبسبب ذلك فإِن البيت الأَبيض راح يحاول،

كما كان يحلو له أَن يفعل مع مثل هذه الشخصيات، أَن يقحمه في الخطة، ممكِّناً إِيَّاه من إِلقاء نظرة مبكرة عليها أملاً في كَبْت نقده علىٰ الأقل إِذا ما ظهر علىٰ الشاشة في تلك الليلة بعد صدور البيان.

بعد ظُهر خطاب كلنتون، قامت عاملة في جهاز الأَمن القومي تدعى ميريام شاپيرو بالاتصال بدالدر لإِعطائه موجزاً لما كان الرئيس سيقوله ولتعبر له عن الأمل في أَن يدعم الخطة ويؤيدها. قال دالدر إِنَّه سيؤيد، بطبيعة الحال، أية حركية أكبر ونشاط أقوى في كوسوڤا ـ ولكن ما الذي كان الرئيس سيقوله عن القوّات البرية؟ أجابت شاپيرو: «سنقول ليس لدينا أية خطط تقضي بإِرسال قوات برية». علّق دالدر: «لا تستطيعون أَن تقولوا ذلك لأَن عدم وجود خطط تقضي بإِرسال قوات برية، يعني وجوب طرد الشخص المسؤول عن وضع الخطط. وبالتالي فإِنكم إِما دون خطط وغير أكفاء، أَو تكذبون، ولا تستطيعون الاعتراف بأنكم تكذبون». وبعد ذلك، بصورة شبه لا واعية، لأَن الخط الفاصل بين أَن تكون موظفاً لدى مجلس الأَمن القومي وباحثاً في بروكينگز كاد يمحي، اقترح استخدام كلمة **الاعتزام** أَو **العزم**، قائلاً «شيء من قبيل لسنا عازمين علىٰ استخدام قوات برية». وبعد لحظات كانت جملة تحمل المعنى نفسه في الخطاب، تم إِقحامها في الدقيقة الأخيرة من قبل بيرگر دون معرفة أولبرايت أَو موافقتها. راح دالدر يتساءل عما إِذا كان مسؤولاً، وعما إِذا كان ما قاله لشاپيرو عبر الهاتف خطأً جسيماً اقترفه قبل لحظات. في تلك الليلة حين أذاع برنامج عبر الإِذاعة العامة القوميَّة لانتقاد الخطاب، كان بالغ التشدّد بشأن استثناء احتمال استخدام القوّات البرية.

بصرف النظر عن مصدر الخط، فقد جاءت الجملة ممثلة لما اعتبرته جماعة كلنتون خطوة سياسيَّة تفويضية أَو انتدابية. فهؤلاء لم يكونوا قد استطاعوا، بعد، أَن يحصلوا علىٰ موافقة الكونگرس بالنسبة إِلىٰ قوات **حفظ السلام** قبل بضعة أشهر حين كان هولبروك دائباً علىٰ خفض مستوى العنف. ما

كانوا يريدونه الآن، بدلاً من ذلك، هو إِذعان من جانب الكونگرس، إِذعان تمثَّل ثمنه بالجملة حول القوَّات البرية. لو تركوا إِمكانية استخدام القوَّات البرية مفتوحة، لبادر الكونگرس إِلىٰ إِثارة الكثير من الضجيج. وبالتالي فإِنّهم كانوا قد جعلوا ما كان شبيهاً بنوع من الالتزام بعدم استخدام القوَّات البرية، وإِن لم يكن ذلك وعداً بالضرورة ـ إِذ بقي مشكولاً وسائباً قابلاً للتأويل، نظراً لأَن كلمة **الاعتزام** هي الأَكثر مرونة وطواعية. فعبارة: «لا نريد أَن نرسل **قوات برية**» ربما كانت أَكثر دقة.

كانت تلك مساومة المساومات، بل أُمّ المساومات كلها. من الصعب، بعد مرور ست سنوات علىٰ رئاسة كلنتون، أَن نفكّر بجملة أَكثر أَهميَّة في الجهاز البيروقراطي. لقد لخصت بدقة مدهشة جميع تناقضات ومفارقات أَمريكا كقوة عظمى في حقبة ما بعد الحرب الباردة. كنا راغبين في الذهاب إِلىٰ الحرب من أجل وضع حد لطيش ميلوسوڤيتش وفي سبيل جلب شيء من الاستقرار إِلىٰ البلقان. نعم، كانت كوسوڤا مهمة، نعم، كانت جديرة بخوض الحرب من أجلها، ولكن هل كانت قضية تستحق تعريض حياة شبابنا، أبنائنا وبناتنا، للخطر علىٰ الأرض؟ هل كان ثمة أَي تأييد لذلك في الكونگرس، في وسائل الإِعلام، في البلاد؟ هل كنا بحاجة لاستنفار شعبنا وحشده أَو تعبئته لصالح القضية حتى ونحن منخرطون في القتال؟

مرة أُخرى كانت تلك سياسة أمر واقع، سياسة آنية، وعمليَّة إِلغاء فكرة القوَّات البرية، أَو الظهور بمظهر إِلغائها، ربما كانت في تلك اللحظة هي الخطوة الأَكثر منطقية ـ الأسهل ـ الممكن اتخاذها. غير أَنّها ما لبثت أَن أَدَّت، في الپنتاگون، إِلىٰ إِعادة إِثارة جملة المخاوف والشكوك القديمة حول مدى قُدرة هذه الإِدارة علىٰ الثبات والصمود فيما يخص هذه القضية. بنظر الكثير من العسكريين لم يكن ذلك مجرد خط دعائي عابر؛ بل بدا، في الحقيقة، خطأً منحوتاً في الصخر. تعين عليهم أَن يفترضوه أمراً بالانطلاق والتقدّم. ما كان

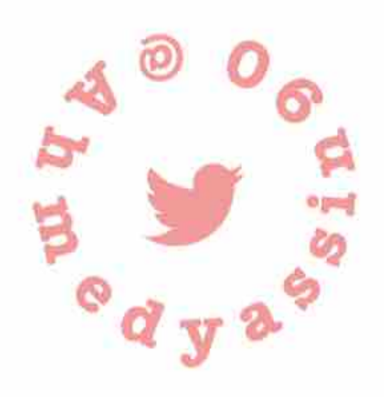
الخط يقوله لهم هو: **نحن نريد هذا ولكننا ما زلنا غير عارفين المدى الذي سنبلُغُه في سبيله. سلونا لاحقاً!** شكَّلَ الموقف تذكيراً بالغموض الذي أحاط بعملية صنع القرار بالنسبة إلىٰ الڤيتنام، بالمدنيين الراغبين في دخول منطقة الحرب دون أَن يكون أَي من القرارات الصعبة قد تم اتخاذه. وكما قال أَحد كبار الضباط فقد كان ما حصل، بالنسبة إلىٰ العسكريين، نوعاً من التكيّف مع المخاوف السياسيَّة حتى قبل تفعيل نقاط القوّة العسكريَّة، خصوصاً في حرب ضد حاكم دكتاتوري ذكي ماهر في الاحتيال والمخادعة، تشكِّل القدرة علىٰ جعله يفكر بأنه في مواجهة استخدام الحد الأقصى، لا الأدنى، العَتَلَة الأهم.

جاءت تلك الجملة أَيضاً تعكس وجهة نظر البيت الأَبيض بأنّها كانت ستكون حرباً خاطفة، قصيرة؛ فقصف الناتو الذي كان ناجحاً في البوسنة، كان سيثبت أنّه ناجح وبالسرعة ذاتها هذه المرة أَيضاً. والناطقون باسم البيت الأَبيض قاموا، في أَحاديثهم مع المراسلين، بالتعبير عن الإِحساس بأن من شأن القصف ألا يدوم أَكثر من ثلاثة أَو أربعة أَيام؛ وبالمناسبة فإِن المتحدِّث ذكَّر المراسلين بأن مادلين أولبرايت كانت قد قالت لهم ذلك. وبالفعل فإِنّها كانت قد ظهرت علىٰ شاشات التلفزة في تلك الليلة الأولى مع جيم ليهرر وتحدثت عن احتمال انتهاء الحرب بسرعة، إِذ قالت لليهرر: «لا أراها عمليَّة طويلة الأمد. أظن أَن هذه... قابلة للإِنجاز خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً». أَو كما قال اللفتنانت جنرال مايك شورت، الذي كان سيتولى عمليات القصف، لاحقاً «لا أستطيع أَن أقول لكم عدد المرات التي تلقيت فيها التوجيه التالي: «لن تتاح لي، يا مايك، فرصة القصف، إِلاَّ ليلتين، أَو ربما ثلاث ليالٍ. ذلك هو كل ما تستطيع واشنطن تحمُّلَه. ذلك هو السبب الكامن وراء عدم حصولك إِلاَّ علىٰ تسعين هدفاً. سيكون هذا منتهياً في ثلاث ليالٍ»[4].

---

(4) **فرونتلاين**، 22/ 2/ 2000م؛ مقابلة مع شورت.

مرة أُخرى، ثمة كان انقسام معين يفعل فعله هنا. ففيما بعد، بعد أَن كانت الحرب قد طالت، وطالت كثيراً، وكان التنبؤ المبكر قد أَصبح شيئاً أشبه بالكابوس، كان بعض أنصار أولبرايت سيؤكدون أنّها لم تكن قد استوحت الرقم من السماء، زاعمين أَن وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية كانتا، بالضرورة، قد أوحتا لها بتلك التقديرات. غير أَن أناساً آخرين قدروا أَن الحرب قد تتكشف عن أنها أَكثر صعوبة مما يمكنها أَن تبدو علىٰ السطح. ففي غضون الأَيام القليلة الأولى بادر مساعد وزير الدفاع لشؤون التخطيط والت سلوكومبه إِلىٰ الذهاب إِلىٰ مجلس الشيوخ للدفاع عن عمليَّة القصف، اجتمع بحوالي خمسة وعشرين عضواً، وتعرّض لقَدْر غير قليل من الجَلْد. ففي إِحدى المراحل سأله روبرت بَنَتْ من ولاية يوتاه عن المدة التي سيستغرقها القصف برأيه. كان رد سلوكومبه أَن القصف سيتواصل إِلىٰ أَن يتوقف ميلوسوڤيتش عن فعل ما يفعله. ثم تابع بَنَت حواره قائلاً: «أعلم أنك لا تستطيع أَن تعطينا يوماً محدداً يمكن أَن يتوقف فيه الأَمر، ولكن السؤال هو: كم من الوقت يتعين علىٰ القصف أَن يستمر، إِذا بقي متواصلاً بعد حد زمني معين، حتى تفاجؤوا؟» «ثلاثة أشهر» كان جواب سلوكومبه.


@Ahmedyassin90

الفصل التاسع والثلاثون

في حرب كهذه، وكثرة من القضايا معلّقة مع خطة مغلفة، بصورة متعمدة ومدروسة، بقدر كبير من الغموض والضبابية مسايرة للكونگرس، كان قائد كلنتون الميداني، الجنرال وس كلارك، هو الرجل الذي سيقع بين فكي كماشة القوى المتصارعة، قوى بيت أبيض متردّد من ناحية، وكونگرس متشكّك من ناحية ثانية، ووزارة الدفاع مُكْرَهة من ناحية ثالثة، مع الدول أعضاء الناتو بالطبع ولكل منها موقف مختلف من مدى ضخامة أو ضآلة القوّة التي ينبغي استعمالها، من ناحية رابعة. كانت مسؤولية كلارك هذا تقضي بتولي انتدابه المحدود وتعظيمه إلىٰ الحدود القصوى الممكنة. إن عدداً من الحلفاء لم يكونوا متحمسين منذ البداية وكانوا سيزدادون قلقاً يوماً بعد يوم إذا ما أثبت الاستخدام المبكر للطيران أنَّه لم يكن كافياً. وفي حال عدم التحقيق المباشر للنجاح، كان من شأنه أن يضغط في سبيل الحصول علىٰ قوائم أهداف موسعة بل وربما من أجل الحصول، لاحقاً، علىٰ حق استخدام القوّات البرية، أو، أقله، علىٰ قابلية تهديد ميلوسوڤيتش باستخدامها.

غير أن كلارك كان سيبقى، بسبب ما كان كلنتون قد قاله عن القوّات البرية والقرار المتخذ من قبل كبار القادة بشأن حَمْلَة كوسوڤا، في حالة تصادم دائمة مع كل من وزير الدفاع ورؤساء الأركان المشتركة، الذين ما لبثوا أن قرّروا أنه كان صقراً أكثر مما ينبغي، كما مع قائد سلاحه الجوي، مايك شورت،

الذي سرعان ما بات مقتنعاً بأن كلارك، وأَكثريةَ المدنيين في واشنطن، وجُلّ القادة السياسيين في بروكسل، كانوا مقبلين علىٰ دخول الحرب وهم مترددون، معرِّضين حياة الطيارين للخطر في سبيل أشياء بالغة الضآلة كنتائج. صحيح أَن قرار خوض الحرب بالطيران وحده ربما كان قراراً قد تبنّاه كلارك والتزم به كجزء من قيادته، غير أَن قدرة الصرب علىٰ تحمّل الأسابيع الأولى من حملة القصف، الطابع المحدود جداً للقصف نفسه، وقائمة الأهداف القصيرة، ما لبث أَن أَصبحت مشكلة كبرى. شاعراً بقدر متزايد من الإحباط والخيبة، بدأ كلارك يضغط في سبيل الحصول علىٰ قائمة أَهداف أَكثر جدوى وعلىٰ إمكانية جعل القوّات البرية جزءاً من قيادته، ولو من أجل مضاعفة قدرته علىٰ إخافة ميلوسوڤيتش.

كان من شأن ذلك أَن يفضي مع مرور الوقت إلىٰ فصله عن كوهن ورؤساء الأركان. فإيعازات القتال الصادرة عن هؤلاء كانت ـ حسب رأيهم هم ـ مختلفة تماماً. لم يسبق لهم قط أَن أرادوا إرسال أية قوات برية إلىٰ البلقان، وربما دأبوا علىٰ المبالغة في أخذ تصريح البيت الأَبيض الخاص بعدم إرسال مثل هذه القوّات إلىٰ هناك مأخذ الجد، وفي تفسيره تفسيراً أَكثر حَرْفية من الرجل الذي كان التصريح قد خرج من بين شفتيه. وكذلك فإنّهم لم يكونوا شديدي الحماس حتى للحملة الجويّة، فضلاً عن شعورهم بالريبة وعدم الاطمئنان إزاء كلارك أَيضاً. لم يكونوا معجبين بدعوته المبكرة والمتواصلة إلىٰ استخدام القوّة العسكريّة قبل بدء القتال بزمن طويل، كما لم يكونوا راغبين قط في تمكينه من شغل ذلك الموقع منذ البداية. تلك هي الطريقة التي رسمت بها الخطوط. فالتوترات بين كلارك وزملائه في واشنطن لم تكن قط حول موهبته. كان سجله أَكثر من ممتاز. كان صاحب سجل خال من العيوب تماماً. حسب اللغة الدارجة في الجيش كان من القادرين علىٰ المشي فوق الماء، كان شخصاً بالغ الجودة واستثنائياً في تفوُّقه حتى اعتُبر مؤهلاً للمشي فوق سطح الماء. كان

ضابطاً من ذلك النوع الذي جعل معاصريه يتنبؤون له وهو لا يزال في رتبة رائد بأنّه مؤهل لأَن يحصل علىٰ عدد من النجوم، لأَن يصبح جنرالاً بعدد من النجوم. بل وكان ذلك قد حصل، بالنسبة إلىٰ كلارك، وهو ما يزال ملازماً أول. في خريف 1962م، كطالب كلية عسكريَّة في الصف الأول، كان قد بدأ حياته المسلكية في الجيش كطفل أعجوبة وأنهاها، بعد سبع وثلاثين سنة، جنرالَ أربع نجوم، والقائد الأَمريكي لقوات الناتو في كوسوڤا، وهو ما يزال، من نواح معينة، طِفْلَ عجائب، متألقاً ورشيقاً كما كانت حاله في اليوم الأَول لوصوله إلىٰ الأكاديمية العسكريَّة في وست پوينت، جاهزاً لاقتحام العالم. من نواح معينة كان كلارك يشبه رئيسه، كلاهما برز مبكراً بوصفه الولد الأذكى والألمع في الحي، الأَول دائماً في الصف؛ كانا، كلاهما، موهوبين، مندفعين، غير مستعدين لقبول الإخفاق بأي شكل من الأشكال.

كان كلارك قد وُلد في شيكاگو لأب يهودي يدعى بنيامين كانْ. الذي كان محامياً وعضواً ثانوياً في الحزب الديمقراطي، وأم پروتستانتية من آركنسو تدعى فنيتا كان. ثم ما لبث أبوه الحقيقي أن مات وهو في الرابعة من العمر، فعادت أمه إلىٰ آركنسو وتزوجت ثانية برجل يدعى كلارك، أخذ وس الصغير اسمَه. نشأ الصبي معمدانياً، اهتدى إلىٰ الكاثوليكية في ڤيتنام، ولم يعرف إلاّ في وقت متأخر من حياته حقيقة كونه نصف يهودي. كان كلارك قد تفوق كطالب ثانوي، وقد توفرت له مجموعة من المنح الدراسية لتمكينه من متابعة الدراسة في كليات متميزة، غير أَن اختياره وقع علىٰ وست پوينت. كان كلارك الأَول في صفه خلال السنة الأولى في وست پوينت سنة 1963م، كما كان الأَول في الصف عند تخرجه في الأَكاديمية سنة 1966م، مما جعله شخصاً يُشار إليه بالبنان. وبعد زمن كان أَيضاً الأَول في صفه في مدرسة الجيش المسلكية الأَكثر حسماً، مدرسة القيادة والأركان العامة في فورت ليڤنوورث (حيث كانت النخبة تُفْصَل ممن ليسوا كذلك، وحيث كان، ويا للمفارقة! وقد كتب أطروحته

للماجستير حول الرعد المتدحرج، الحملة الجويَّة ضد الشمال في ڤيتنام، متوصلاً إِلىٰ استنتاج يقول بأنّها شكّلت دليل ضعف لا قوة)، وقد ظل بصورة شبه دائمة الأَول علىٰ قائمة الترفيع. في تشرين أول/ أكتوبر 1983م حين كانت إِدارة ريگان قد أنزلت ضربة سريعة بگرانادا، الاستخدام الأَول للقوة في ڤيتنام، تم تعيين كلارك، وقد كان كولونيلاً جديداً، قائداً لأحد فوجي الاقتحام، وظيفة ممتازة، دليل علىٰ أَنَّه ضابط واعد. حتى في المستويات العليا في الجيش، حيث الجميع مفعمون طاقة، طموحون، وشديدو التركيز بصورة شبه خرافية، برز كلارك، وبقي كذلك بصورة دائمة. حصل علىٰ نجمته الأولى وهو في الثالثة والأربعين فقط، ثم ما لبث أن أَصبح قائداً لفرقة الفرسان الأولى وهو في السادسة والأربعين. كان أَكثر الناس قدرة علىٰ المنافسة. ولدى العودة إِلىٰ سنواته الأولى في وست پوينت فإِننا نجده ليس راغباً في الفوز فقط بل **وملزماً** بالفوز أَيضاً، والفوز في كل شيء. تعين عليه أَن يكون الأَول في صفه، ما عدا ذلك لم يكن مقبولاً؛ تعين عليه أَن يفوز في أية لعبة تنس عابرة، لم يكن كلارك يعتبرها عابرة. تعين عليه أَن يفوز في أَي سباق صباحي دوري مع الزملاء ـ وقد كان ودياً، بالطبع، تمريناً بين أصدقاء فقط ـ غير أنّه كان مرشحاً أَيضاً لأَن يكون حدثاً أولمبياً. حتى حين كان كلارك مدرباً في وست پوينت، عاكفاً علىٰ إِعداد عدد قليل من تلاميذه الضباط لمقابلات منحة رودس، تعين علىٰ هؤلاء أَن يتفوّقوا علىٰ المرشحين الذين تم إِعدادهم من قبل زملائه. وأن يحبه المرء لم يكن صعباً، كما لاحظ أَحد أصدقائه، شرط عدم نسيان حقيقة أَن كلارك هذا كان مؤمناً بإِمكانية استخدام كل دقيقة وكل يوم بصورة مفيدة ونافعة، وبأنه محكوم بالفوز، حتى وإِن لم يكن مدركاً للسبب الذي جعله مضطراً لتحقيق مثل هذا الفوز. لقد كان الاندفاع الذي ميّزه عن الآخرين حافزاً تتعذر مقاومته، قوة دفع لا سيطرة له عليها. بنظر الأصدقاء كان وَسْ فريداً؛ إِن وَسْ هو وَسْ ولا أَحد غيره. كان الفوز بالنسبة إِلىٰ كلارك جزءاً من شخصيته.

بمعايير الجيش لم يكن وَسْن شيخ شباب طيباً، شخصاً جذاباً وحميمياً وموحياً مقابل ذلك بالارتياح والروح الرفاقية الميَسَّرة. ما من شيء كان سهلاً بالنسبة إليه. ومع تقدمه في السن، بدا وكأنه لا يعمر، كما لو أَن العمر نفسه مؤهل هو الآخر لأَن يفسَّر دليل ضعف. ظل مصراً علىٰ عدم زيادة وزنه ولو أوقية واحدة، وبدا أسلوبه، لباسه النظيف المكوي كحد السيف، وإِيجازاته الصارمة التي لا تحوي أية كلمة حشو ـ هل سبق له أَن نسي ولو شيئاً واحداً؟ ـ بدا هذا كله مؤكداً للتركيز الحاد الذي لا يعرف معنى الرحمة لمجمل شخصيته. كان علىٰ الدوام مستعداً ـ لم تكن ثمة أية مشكلة حول أَن يتمكن هذا الرئيس أَو ذاك من مباغتته والإِمساك به في حالة من عدم الجاهزية. ما من أَحد تعامل مع كلارك كان يستطيع أَن يشكِّك بشمولية هدفه. بقيت نظرته إِلىٰ مسلكه فريدة. كان ممتازاً في رؤية ما ينتصب أمامه كما لو كان متمتعاً بنوع من المنظار الليزري القادر علىٰ اختراق أمور لا يتمكن غيره من اكتشافها إِلاَّ في أوقات لاحقة. غير أَن نظرته الجانبية، قدرته علىٰ التقاط ما كان يجري حوله والانتباه إِلىٰ مشاعر أقرانه، كانت محدودة أَكثر بصورة ملموسة. فضلاً عن أَنَّه لم يكن يعتقد بأن ذلك مهم بالضرورة. لقد كان ضعيف الإِحساس بما كانت شخصيته الضارية تتركه من تأثير علىٰ معاصريه الذين كانوا لامعين أَيضاً، ولكن ليسوا بمستواه هو من حيث الذكاء أَو الحماس أَو الفصاحة والبلاغة. بصورة شبه وراثية أَو جينية كان كلارك عاجزاً عن التكيّف مع الشرائع المضمرة والخفية للمؤسسة التي كان في خدمتها، حيث كان الذكاء يُعتبر شيئاً إِيجابياً، شريطة أَن يتقن المرء فن تغليف ذكائه بثوب إِنساني دافئ، شريطة أَن يكون عارفاً عن أشياء معينة أَكثر مما يقوله عنها للملأ.

ورغم ذلك كله فإِن حياته المهنية كانت نموذجية جداً إِلىٰ حد **أن مجلة الواشنطن بوست** التي أرادت سنة 1981م، قبل حوالي ست عشرة سنة من توليه لمنصب قيادة الناتو، أَن تقدِّم صورة نموذجية جديدة لضابط جيش حديث،

كانت قد اهتدت إلىٰ المقدم [اللفتنانت كولونيل] وَسْ كلارك، الذي لم يكن يتجاوز السادسة والثلاثين من العمر. كان العنوان كاشفاً ونبوئياً: «قائد فوج: لو اندلعت حرب عالميَّة ثالثة لكان وَسْ كلارك هو فارسك المفضل علىٰ الجبهة». وقد جاء في المقال أَنَّه كان «أحد أفضل من يستطيع الجيش أن يقدمهم»[1]. وقيل بعد ذلك «إِنه يقارب النموذج [العسكري] المثالي، الضابط الحديث مئة بالمئة». غير أَن بعضاً من التحفظات عليه، تلك التي كانت لدى أولئك المحتفظين بنظرة أَكثر تقليدية إِلىٰ نظام الجيش وقد أغفلها هو بأحادية هدفه، ما لبثت أَن طفت علىٰ السطح حتى في ذلك المقال. كان أَحد الزملاء قد تحدَّث عنه قائلاً: «كان هذا الفوج [في فورت كارسون] بحاجة إِليه، سأعترف بذلك. . . . فنحن جميعاً نعرف أَن كل شيء هنا كان خراباً قبل مجيئه. ما من مشكلة واحدة إِلاَّ ووجد لها حلاً، ما من أمر إِلاً وأوقفه علىٰ قدميه. من المؤكد أَن الرجل يشعر بالارتياح معه. لا أَحد يريد أَن يعطيه أنباء سيئة، فيبقى متصوراً المعنويات العالية جداً ومتشدداً في الدفاع عما قد يكون خطأً. ومما قد ينطوي علىٰ الخطر. . . .».

حين غادر وست پوينت كان قد ذهب كلارك للفوز بمنحة رودس، وهو أمر لا يختلف كثيراً عن تسلم قنبلة يدوية مفتوحة في الجيش. إِنَّه وضع يجعلك علىٰ الخط السريع، فجميع الأقوياء يبدؤون بالنظر إِليك بعين الإِعجاب، غير أَنَّه يعني أيضاً أنّك قد تصبح علىٰ طرفي نقيض مع أساس ثقافة الجيش، تلك الثقافة القائمة علىٰ قَدْر من الارتياب إِزاء أولئك الذين يعتبرون أنفسهم أذكى من غيرهم ويبدون مبالغين في الاستعجال ـ الطابع المميز لجميع المستفيدين من منح رودس الدراسية. ثمة محراب مرعب داخل الجيش للمستفيدين الشباب اللامعين من منحة رودس الدراسية بجامعة أكسفورد، ويمكن للمرء أَن يحقِّق ارتقاءاً معقولاً في إِطار سلم محدد مسبقاً كعسكري مثقف (ربما لواء، أَو حتى

---

(1) گوردون تشاپلن، **الواشنطن پوست**، 10/ 5/ 1981م.

جنرال بنجمتين)، ويستطيع أن يجعل من نفسه بضاعة ذات قيمة عالية خلال فترة طويلة من الوقت في وزارة الدفاع. كذلك كان مستفيدو منحة رودس الدراسية دعاية جيدة تؤكد أن هذا الجيش هو جيش جديد، أكثر حداثة، أكثر اهتماماً بالعلم؛ أضف إلىٰ ذلك أن ذلك كان من شأنه أن يعني امتلاك الجيش لمجموعته الخاصة من الشباب (والشابات) اللامعين المؤهلين للتعامل مع الشباب المتفوقين واللامعين في وزارة الدفاع أولئك الذين دأبوا باستمرار علىٰ تقليص مهمات الجيش وموازنته، جنباً إلىٰ جنب مع الفتيان والفتيات الموهوبين في ميادين الخدمة الأُخرى والأَسلحة الثانية الحريصين علىٰ أخذ الدُمىٰ الأحدث لفروعهم الخاصة. غير أن الجيش كانت له مآخذه علىٰ الكثير منهم. تعرّض ضابط شاب لامع، كان قد نجح نجاحاً باهراً في الأكاديمية العسكريَّة [اليوينت] وخلف سجلاً ناصعاً في حياته المسلكية، لسؤال: «هل أنت من جماعة رودس؟» في اليوم الأول من توليه لمنصب جديد. رد الضابط بلهجة اعتذارية علىٰ الرئيس، طارح السؤال، قائلاً إِنَّه لم يتمكن من الحصول علىٰ المنحة رغم حصوله علىٰ درجات عالية في صفه. قال القائد بارتياح: «هذا جيد. فجميعهم يعانون من مرض غَطْرسة نهاية العمر قبل أن يبلغوا الثلاثين من العمر». وهكذا فقد تعين علىٰ أي مستفيد من منحة رودس الدراسية أن يبرهن علىٰ أَنَّه رجل جيش حقيقي، شيخ شباب ورام جيد، أَحد أفراد الجماعة، ناجح مع مَنْ هم دونه في علاقاته مثلما هو مساير في تعامله مع رؤسائه، محارب بمقدار ما هو مثقَّف. في صفوف الجيش المحترف ثمة البعض من مستفيدي منحة رودس الدراسية من خريجي وست يوينت الذين ما لبثوا أَن أَصبحوا مقبولين لدى أقرانهم، ولكنهم اضطروا أولاً أَن يتغلّبوا علىٰ تيار خفي من عدم الثقة ـ من الظهور بمظهر المتمتعين بقدر مبالغ به من تفضيل الرؤساء.

غير أَن وَسْ كلارك لم يكن استثنائي البراعة علىٰ صعيد تدوير زوايا الصورة التي كان يقدمها للناس. أضف إِلىٰ ذلك أَنَّه كان أَحد المستفيدين من

منحة رودس من ولاية **آركنسو**، وهو أمر ما لبث أَن أَصبح مع حلول عقد التسعينيّات نوعاً من المشكلة لأَن كثيرين باتوا يفترضون أَنَّه كان قريباً من كلنتون، وهو ليس صحيحاً بالضرورة. كان بعض الضباط الآخرين يعتقدون أَن كلارك كان قد قَدَّم دليلاً إِضافياً علىٰ الارتباط حين بدا قريباً من كلنتون أحياناً بوصفه الجي ـ 5 من جهاز الأركان المشتركة خلال عمليَّة هاييتي. لم يكن الأَمر إِلاَّ نوعاً من الغزل الخفيف، الاستلطاف المتبادل مع التميز بشيء ما عن جميع الآخرين الموجودين في الغرفة. أَمَّا في الحقيقة فلم يكونا قريبين أَحدهما من الآخر، لم يلتقيا في أكسفورد، ولم يسبق لهما أَن كانا ندين سميرين خلال رحلتي صعودهما المتوازيتين باتجاه القمة. غير أَن الرجلين، كليهما، كانا اثنين من فتيان البلدان الصغيرة من المنطقة ذاتها ممن حقَّقوا نجاحاً زمن الرخاء بعيداً عن مسقط الرأس، وكان بينهما نوع من القرابة، إِن لم تكن صداقة. وعن كلارك أمكن القول، بعد انتهاء كل شيء، أَنَّه كان مستفيداً من كونه من مستفيدي منحة رودس الدراسية من آركنسو من ناحية وضحية لهذه الاستفادة من ناحية ثانية. لقد حاول البعض في الجيش دفعه قدماً ظانين أَنَّه قد ينجح في المساعدة علىٰ ردم الهوة التي كانت تفصلهم عن هؤلاء الغرباء القابعين في البيت الأَبيض، غير أَن أعداداً أكبر وجدت شكوكها متزايدة بسبب توجسها من كونه مبالغاً في مساعيه المبذولة لردم تلك الهوّة.

ثمة كان أَيضاً ذلك النوع الأَمريكي الخالص من البراءة في شخصيته، ذلك النوع من الإِيمان الراسخ أَيام كان صبياً وبعد أَن أَصبح رجلاً ناضجاً بأن أفضل الفتيان صاحب أعلى الدرجات المتفوق في الاجتهاد سيحصل دائماً علىٰ مكافأته العادلة. كان الجلوس مع وَسْ، بنظر بعض الأصدقاء، مثل نوع من العودة إِلىٰ أَيام المدرسة الثانوية والإِصغاء إِلىٰ أَحد اللاعبين الأصغر سناً في فريق كرة القدم وهو يطلب من المدرس أَن يشركه بالمباراة، زاعماً أَنّه قادر علىٰ الاضطلاع بالدور، مؤهل لقلب المعادلة الخاسرة في اللحظات الأخيرة. تلك

الصفة كانت صحيحة بالنسبة إلىٰ كلارك منذ أَيام وَسْت پوينت وحتى اللحظة التي كادت نجمته الرابعة تراوغه فيها. ففي أثناء حرب كوسوڤا قال أَحد كبار الضباط البريطانيين لمسؤول أَمريكي كبير في بروكسل: «تكمن مشكلة جنرالكم كلارك في أَنَّه ذكي جداً ولكنه يعاني من عقدة النجمة الذهبية» وحين سأله المسؤول الأَمريكي عن معنى كلامه قال الضابط البريطاني الكبير: «حسناً ألا تتذكّر حين كنت في الصف الأَول والصف الثاني وكنت تحصل علىٰ نجمة ذهبية كلما فعلت شيئاً بشكل صحيح؟ إِنَّه مدمن علىٰ ذلك، وقد ظل يفعله منذ بداية الطريق، ظل يحصل علىٰ النجوم الذهبية؛ وثمة سؤال حقيقي عما إِذا كانت الحياة كلها قائمة علىٰ عملية الحصول علىٰ هذه النجمة الذهبية أَو تلك ـ عن حقيقة الهدف الذي يرمي المرء إِلىٰ تحقيقه عبر إِنجاز عمل معين، عبر السير قدماً. قد يكون مندفعاً بقوة كبيرة جداً دون أَن يعرف السبب الكامن وراء مثل هذا الاندفاع الشديد».

لم تسهم تلك الصفات في إِكساب كلارك قيمة أكبر بنظر نظرائه بالضرورة. فقد ظل علىٰ الدوام يثير قَدْراً من السخط، وكلما علت مرتبته زادت إِثارته لمثل هذا السخط الذي كان بعضه ناجماً عن الغيرة والحسد. فأي صعود سريع في عالم كعالم الجيش حيث الجميع يعرفون لا رتبتك فقط بل ومدى سرعة حصولك عليها أَيضاً، لا بد له من أَن يتمخض عن شيء من الغيرة. كثيرون من أُولئك الذين دأبوا علىٰ انتقاده كانوا أناساً غير واثقين من قدراتهم، وعازفين، خلافاً لحال التصميم النادر لدى كلارك، عن الإِقدام علىٰ اتخاذ القرارات. غير أَن آخرين ممن كانوا يتابعونه راودهم القلق حول كونه لا طموحاً جداً فقط، بل وغارقاً حتى الأذنين في شؤونه الذاتية.

تجلى نقد كلارك بأشكال بارعة وأُخرى تفتقر إِلىٰ البراعة. فبين الكثير من الانقسامات التي تخترق الجيش، مثلاً، وهو من الأَكثر أَهميَّة، جنباً إِلىٰ جنب مع، وبموازاة ذلك الخاص بالقائد مقابل رجل الأركان، كان الفصل بين

المحارب الخالص من جهة والجندي المثقف من الجهة المقابلة. ومن الطبيعي أَن المحاربين تمتعوا بقَدْر كبير من التفضيل في ثقافة الجيش، في حين ظل الجنود المثقفون يثيرون الشك بسبب الاعتقاد بأن مواهبهم مجردة، بأنهم ميالون، بين الحين والآخر، إِلىٰ الانخراط في لعبة الساسة المدنيين، وبأن ولاءهم الأَول قد لا يكون، بوعي أَو دونه، لوحداتهم مثل ولاء المحاربين. لقد كان ذلك، باعتقاد الكثير من العسكريين، هو ما حدث في ڤيتنام. كان جونسون وماكنمارا قد استمالا عدداً كبيراً من رجالات الجيش، بعضهم مشاريع مثقفين، وأقنعاهم بتبني فكرة التصعيد التراكمي لحرب مستحيلة الكَسْب.

بصرف النظر عن الأشياء الأُخرى، بقي الكثيرون يعتبرون كلارك جندياً مثقفاً. غير أَن آخرين ممن عرفوه جيداً، كان في الوقت نفسه، وبكل المعاني، الجندي المقاتل النموذجي. فاللفتنانت جنرال دان كرستمان، مفتش وست پوينت لاحقاً وأحد أقدم أصدقاء كلارك في الجيش ـ كان في وست پوينت بفاصل سنة واحدة ـ كان شديد الإعجاب به. وقد قال عنه «ما من أَحد عرَفتُه خلال سنواتي في الجيش يجسد أَخلاقية المحارب بقَدْر أَكثر كمالاً من وس ـ لقد كان ممتازاً كقائد علىٰ كل المستويات. إِنَّه شرس، لا يعرف معنى الخوف علىٰ الإِطلاق، وهو **محارب** قبل كل شيء. إِنَّه دائم الاستعداد لا لخوض القتال فقط، بل وللتفوق بامتياز. إِذا كنت ذاهباً إِلىٰ القتال، فأنت بحاجة إِليه قائداً ـ للسرية، للفوج، للواء. لن يفعل أَي شيء إِلاَّ بشكل صحيح، لن يترك أَي خيار دون أَن يتأمله ويدرسه، سيبقى متحلياً بنكران الذات وانعدام الخوف. **لا أَحد سيكون أفضل**. غير أَنَّه نادراً ما يحصل علىٰ الاعتراف به كمحارب داخل أوساط الجيش»[2].

من بداية حياته المهنية كان كلارك مطبوعاً بالعظمة والقيادة العليا، غير أَن

---

(2) المصدر السابق.

بعض رؤسائه ظلوا، رغم كل موهبته الواضحة وضوح الشمس، يشكّكون بمدى قدرته علىٰ اجتياز أَحد اختبارات الجيش الأَكثر حسماً، القُدْرة علىٰ إِبداء ما يكفي من الاهتمام بالمرؤوسين، تلك القدرة التي تميّز عظماء القادة. كان ذلك النقد ظالماً برأي أصدقائه. ما من أَحد كان، باعتقادهم، أفضل منه علىٰ صعيد إِعداد عناصره وإِيصالهم إِلىٰ المعركة بأفضل أنواع الوضعية القتالية، غير أَنّه كان يفعل ذلك ببرود وبطريقة محترفة. ما من شيء ذي علاقة به كان من شأنه أَن يكون دافئاً أَو أبوياً [تصرفاً شبيهاً بتصرّفات الأعمام والأخوال]. كان سجله القتالي عظيماً. فكلارك كان قد تخرّج في أكاديمية وست پوينت في منتصف حرب ڤيتنام، قد تولّى قيادة كتيبة في فرقة المشاة الأولى، وقد جرح، في إِحدى المعارك الأولى، جروحاً بليغة أربع مرّات في اشتباك واحد، في اليد، الكتف، الساق، والورك. ومع ذلك كان قد واصل قيادة وحدته، مما كان قد أهّله للحصول علىٰ النجمة الفضية. وبرأي البعض فإِن المعركة والجروح كانت قد جعلته أَكثر شراسة وضراوة من أَي وقت سابق؛ ومع صعوده أعلىٰ فأعلى، بدا واضعاً إِصبعه علىٰ الزناد، متلهفاً لشجار مناسب أَو حرب جديرة.

مع مرور الوقت كان كلارك قد شغل جميع المناصب القيادية في الجيش وتفوّق فيها جميعاً وبامتياز، ولكنّه لم يحصل علىٰ الاعتراف الكامل، بهذا الشكل أَو ذاك، علىٰ أنّه قائد ناجح. قد يكون السبب كامناً في شخصيته. لم يكن واحداً من الشباب، من شلة الأصحاب، في أَي وقت من الأوقات. برأي أَحد الزملاء كان المرء يستطيع استخدام وَسْ أداة اختبار [ورقة عباد شمس] لاستكشاف نوعية بعض أقرانه؛ فقد كان من شأن ردود أفعال هؤلاء أَن تقول عنهم مقدار ما تقوله عنه. فاللامعون والواثقون بأنفسهم كانوا حريصين علىٰ إِغفال صفاته العابرة المثيرة للسخط. أَمّا أولئك الشاعرون بشيء من عدم الاطمئنان والثقة حول المناصب التي يشغلونها مع ارتقائهم إِلىٰ مراتب أعلىٰ

حيث التحديات أَكثر تعقيداً، فقد كانوا يشعرون بالاستياء من كلارك الذي أدمن علىٰ مواجهة تلك التحديات بقدر كبير من النجاح. لقد كان، كما لاحظ أَحد الزملاء، من ذلك النوع من الرجال الذين كانوا في الكلية يدخلون امتحاناً مدته ثلاث ساعات، ثم يخرجون قبل الجميع [بحوالي ساعة]، وبعد ذلك يبدؤون بالتحدّث عن مدى سهولة الأسئلة.

كانت ثمة لحظة شؤم وحيدة زَلَّتْ فيها قَدَمُه وعرّض سمعته المسلكية للشك. فحين كان في فورت كارسون قائد فوج، كان القائد هناك هو الجنرال جاك هوداشك الذي كان سيشتهر لاحقاً في أوساط الجيش بوصفه الرجل الوحيد الذي كان قد حاول إبطاء صعود كولن پاول السريع. فهذا الأخير ـ كولن پاول ـ كان قد أبدى الجرأة اللازمة لإسماع هوداشك كلاماً عن تدهور معنويات القوّات وكان قد دفع ثمناً باهظاً بالفعل. وقد كرّس پاول في مذكراته حوالي عشر صفحات لهوداشك، لم تتضمن أية منها أَي شكل استثنائي من أشكال الإعجاب. فهذا الجنرال لم يكن متحمساً لپاول وزوّده بشهادة كفاءة متواضعة كان من شأنها أَن تفضي، وبسهولة، إلىٰ تدمير سيرة مسلكية ناصعة دون تلك الشهادة. لم يحظ كلارك، هو الآخر، حين برز قائداً لأحد الأفواج، بإعجاب هوداشك. لم يكن السبب كامناً في عدم تبنيه كلارك. فقد سبق أَن قيل له إن هوداشك لا يحب خريجي الوست پوينت. كذلك لم يكن الجنرال يحب الضباط الشباب الاستثنائيين، حسب شهادة اثنين من الأصدقاء عن قائد كلارك الجديد، مستخدمين لغة الجيش المعبّرة عن أَي ضابط لامع دائب علىٰ تحقيق الترقيات المبكرة ومتمتع بسجل ذاتية ذهبي. وبالنسبة إلىٰ كلارك تبين أَن التنبيهات كانت في مكانها تماماً.

حين قام وَفْدٌ من الكونگرس بزيارة فورت كارسون، بادر هوداشك إلىٰ ترتيب لقاء لبعض أفضل قادة الأفواج عنده مع أعضاء الوفد. وقع الاختيار علىٰ كلارك. طار فرحاً، مَنْ أفضَلُ منه تجسيداً لما يريد الجيش الحديث أَن يعرضه

علىٰ الكونگرس؟ لقد كان أَحد مستفيدي منحة رودس الدراسية، أَحد زملاء البيت الأَبيض، أَحد مخضرمي الحرب وقد جُرح أربع مرات في المعركة، أَحد الحاصلين علىٰ النجمة الفضية، والأَول في صفه بصورة شبه دائمة. كان قد تولى قيادة فوج كان في حالة بائسة فحَوَّله إِلىٰ أَحد أفضل أفواج الفرقة. قال أَحد كبار ضباط الأركان لكلارك: «أخشى ألا يكون العجوز [هوداشك] معتبراً إيّاك ممثلاً لقادة الأفواج». كانت تلك صفعة استثنائية في الوجه؛ كان كلارك قد قُدِّر بصورة مختلفة بعض الشيء، لم يجر اعتباره واحداً من الجماعة «الشلّة». أَمّا كون فوجه ممتازاً ـ لا شك بذلك ـ فلم ينطو علىٰ أَي أثر. لقد كان هذا أسلوباً جديداً من أساليب تقدير الدرجات لم يستطع استيعابه، أسلوباً قائماً لا علىٰ الأداء، بل علىٰ مواصفات غير قابلة للتحديد للشخصية. لقد كان ذلك نذير شؤم، ولكن ما كان علىٰ الطريق كان أسوأ. فحين عكف هوداشك علىٰ إِعداد تقرير كلارك السنوي الخاص بالكفاءة، وهو تقرير مصيري بالنسبة إِلىٰ أي ضابط علىٰ ذلك المستوى، حيث التقييم أشد صرامة والناجون المستمرّون في النظام أقل عدداً، حصل كلارك علىٰ تقدير ضعيف نسبياً ـ مرتبة ثانية في حين كان يجب أَن تكون مرتبة أولى لتجنّب الإِنهاء المحتمل لحياة مسلكية واعدة. وبعد ذلك أمضى هوداشك وكلارك ساعات طويلة وهما يناقشان التقرير، حتى بات هوداشك، حسب اعتقاد المتابعين، مقتنعاً، أخيراً، بالرجل وبضرورة وضعه في خانة المرتبة الأولى.

في السنة نفسها صدرت قائمة قادة الألوية ولم يكن اسم كلارك وارداً. عدد من الزملاء مثل هيو شلتون (جنرال أربع نجوم لاحق ورئيس هيئة رؤساء أركان) ودان كرستمان (جنرال ثلاث نجوم فيما بعد) كانوا في القائمة. للمرة الأولى منذ تخرّجه في وست پوينت، لم يكن كلارك أولاً في صفه، لم يكن بين جماعة النخبة. أُصيب بصدمة سحقته. وبعد سنة أخرى لم يرد اسمه في القائمة، فتعرّض لصدمة أقسى. فكر بترك الجيش، غير أَن آخرين نصحوه

بالصمود والمصابرة، قائلين إِن حياة أُخرى لا بد من أَن تكون بعد رحيل جون هوداشك، وإِن كان يعاني الآن من أوقات عصيبة في كارسون. تمكّن كلارك من اجتياز تلك اللحظة المشؤومة، غير أَن الأصدقاء اعتبروها مثالاً مبكراً لذلك النوع من الاستياء الذي كان يستثيره، لا لشيء إِلاَّ لأنَّه كان من كان. لقد كان الولد الأفضل، والأولاد الأفضل ليسوا محبوبين دائماً.

فيما كان دائباً علىٰ تسلُّق سُلَّم الرتب، بدا كلارك توّاقاً ـ شديد التوق ـ لإِفهام العالم كله عموماً والمدنيين الأقوياء خصوصاً أَن النمط النموذجي للعسكري البطيء، البليد، وقليل الحيلة ليس صحيحاً علىٰ الإِطلاق. وبالتالي فقد أَصبح بصورة شبه إِرادية سريعاً، وواسع الحيلة، عالي الصوت. وإِحدى المهمات التي كانت قد أبرزت لا مواهبه فقط، بل وبعض السمات التي كانت شديدة الإِزعاج بالنسبة إِلىٰ النظام، كانت قد تمّت في مركز التدريب القومي في فورت إِيروين. في تلك الفترة كان واعداً غير أنه بحاجة إِلىٰ شيء من الخبرة ـ بحاجة إِلىٰ شيء من الإِنضاج «الدعك»، بلغة الجيش. ربما كان ضباط آخرون قد رفعوا من مستوى البرنامج بصورة أبطأ وبقدر أكبر من مراعاة مشاعر أقرانهم. أَمَّا كلارك فلا. اندفع بقوة في تطبيق البرنامج منذ تاريخ وصوله. أبلى كلارك بلاء حسناً في فورت إِيروين في ظل قيادة ضابط كبير متشدد ومتطلب، ضابط دأب علىٰ إِعلاء شأن المكان بصورة لافتة للأنظار، ولكنه كوَّن أعداءاً كثيرين في أثناء العملية. نظراً لشبكة الصداقات المعقّدة العائدة أحياناً إِلىٰ أَيام بعيدة في الماضي، كان المرء، في الجيش، إِذا أصر علىٰ التصادم مع ضابط ذي رتبة أعلى، حتى إِذا كان أداؤه سيئاً، فإِنه كان يخاطر بتحويل جميع أقرانه إِلىٰ خصوم. يقول أَحد الزملاء إِن كلارك كان مبالغاً في الاستقامة، «حنبلياً». كان شديد الاندفاع في بيئة أقل اهتماماً بالنتائج وأَكثر استناداً إِلىٰ علاقات الصداقة الحميمية، الاستنسابية، وقد أوجد لنفسه عدداً غير قليل من الأعداء بين أولئك الذين كان لهم أولياء نعم أقوياء. يقال إِن دنيس رايمر، الذي كان

سيشغل منصب رئيس أركان الجيش حين كان كلارك في بروكسل، كان قد زار مركز التدريب القومي ولم يكن راضياً، لا عن النتائج، بل عن طريقة عمل كلارك ـ الذي كان، برأي رايمر، شديد الحماس، بالغ التشدّد، كثير القسوة مع الناس.

كان هذا كله يعني أن كلارك، وحرب كوسوڤا توشك أَن تبدأ، كان في وضع فريد ومتطرّف الهشاشة، معزولاً بعض الشيء عن المؤسّسة التي كانت قد أَنتجته، تلك التي لم يكن قادتها قد وافقوا علىٰ ترشيحه لقيادة الناتو فنقاده كانوا علىٰ الدوام يعتقدون بإِمكانية كونه مسيساً أَكثر من اللزوم. من المؤكد أنّه كان استثنائي النجاح في التعامل مع كبار المسؤولين المدنيين، تاركاً انطباعاً أولياً جيداً بصورة غير عادية؛ فتلك الصفات نفسها التي حرمته من أَن يكون واحداً من الجماعة، «الشلة»، بنظر أقرانه بدت صفات مساعدة وإِيجابية مع المدنيين. في منتصف حياته المسلكية كان قد ارتبط مع جماعة نكسون وعمل لبعض الوقت مساعداً لهيگ الذي كان يُعتبر غارقاً في السياسة من قبل بعض ضباط الجيش الآخرين. كان كلارك قد اضطلع بمهمة كتابة الخطب لهيگ، وهو دليل آخر علىٰ احتمال كونه مسيساً. وتلك الشكوك ما لبثت أَن برزت علىٰ السطح مرة أُخرى حين بدأ يعمل كجي ـ 5 وتم انتخابه ليعمل مع ريتشارد هولبروك، أولاً حين كان مبعوثاً خاصاً في البلقان سنة 1995م، وعند اضطلاع كلارك بمهمة ضابط الارتباط مع هولبروك في أثناء مباحثات دايتون بعد ذلك. إِن تحول كلارك، في السنة الأخيرة من التعامل مع ميلوسوڤيتش، إِلىٰ واحد من الصقور مثل بعض المدنيين لم يساعده في الپنتاگون.

ما إِن أَصبح كلارك قائداً سنة لقوات التحالف في أوروپا، حتى أَصبح، ـ نظراً لصلاحيات القائد العام ـ، اللاعب العسكري الوحيد الأهم في المسرحية المتكشفة فصولها الآن، وهو أَكثر أَهميَّة حتى من رئيس هيئة رؤساء الأركان ورئيس أركان الجيش، بسبب الطبيعة المتغيرة لقيادة الجيش. كان جون

شاليكاشڤيلي، كرئيس لهيئة رؤساء الأركان المشتركة، قد أنقذ كلارك من قبل، وعلىٰ الرغم من أَن جزءاً كبيراً من الصراع الدائر حول كلارك كان منصباً علىٰ الشخصية، فإِن بعضاً منه كان متعلقاً بالفلسفة أَيضاً. لقد كان كلارك من فصيلة شالي، غير أَن الأخير، لدى اندلاع حرب كوسوڤا، كان قد رحل، ولم يكن الرجال الذين حلوا محله مثله تعاطفاً مع كلارك، ولا حريصين مثله علىٰ تكييف الجيش لجعله متناسباً مع مهمات أَكثر مرونة واقعة خارج الأُطر المحددة في عقيدة پاول. فمع حلول أواخر سنة 1997م كانت وزارة الدفاع تعرف جيداً أَن كلارك كان ناشطاً ملتزماً، أولاً، وأنه صعب التحكم وميّال إِلىٰ التصرّف بالانطلاق من منظومة قِيَمه الخاصة، ثانياً. قيل إِن كلارك كان، قبل بضعة أشهر، قد تجادل مع جو رالستون، الذي كان نائباً لرئيس الأركان، حول إِصرار الأَول المتزايد علىٰ استخدام قصف الناتو ـ أَو التهديد بالقصف علىٰ الأقل ـ من أجل لجم ميلوسوڤيتش. وفي ذلك الجدال تمكّن كلارك من الإِحساس ليس فقط بشكوك رالستون قد طرح عليه السؤال الكولن پاولي القديم: «وماذا إِذا أخفق الطيران؟» ورد عليه كلارك «لن يخفق الطيران. أنا أعرف ميلوسوڤيتش، أنا أعرف طبيعة ردود أفعاله. إِن القصف سينجح». كرّر رالستون السؤال «وماذا إِذا لم يفعل؟». غير أَن كلارك ظل مصراً علىٰ القول بأن الطيران سيكون ناجحاً. «ولكن افترض أَنَّه لم ينجح ـ فهل تستخدم القوّات البرية»[3]. شكّل ذلك الحوار دليلاً مبكراً حتى علىٰ تشنُّجات أكبر متوقعة في المستقبل. كان يعكس شكوك رؤساء الأركان الآخرين، والاعتقاد بأن كلارك كان يبالغ في دفع الأمور فضلاً عن اتصافه بقَدْر مفرط من الثقة؛ وقد بيّن الحوار لكلارك أَن رؤساء الأركان كانوا شديدي الحذر، بالغي التأثر بعقدة ڤيتنام.

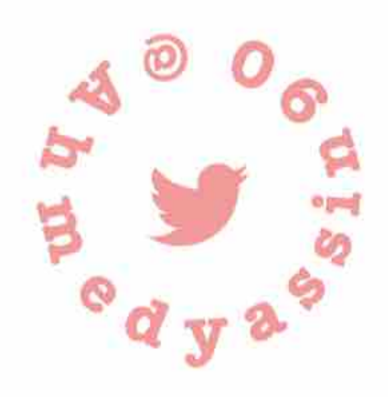
في أوائل خريف 1998م، عاد كلارك إِلىٰ واشنطن ليحذر رؤساءه، المدنيين منهم والعسكريين، وينبههم إِلىٰ مدى خطورة الأوضاع، رغم وقف

(3) مقابلة مع كريستمان.

إطلاق النار المؤقت، وهو وقف لإطلاق النار بلا أنياب. وفي الوقت نفسه قدّم تقريراً موجزاً إلىٰ مجموعة من كبار العاملين السابقين في مجلس الأَمن القومي الذين كانوا من الناشطين في المسألة البلقانية، وتحدث بلهجة متشائمة عن وقف إطلاق النار الذي كان هولبروك قد أنجزه، مضيفاً أَن كل شيء لم يكن إلاَّ تظاهراً وتمثيلاً. كان من شأن كل شيء أَن ينهار بسرعة، ربما في غضون شهرين أَو ثلاثة أشهر، لأَن منظومة المراقبة والإشراف علىٰ التنفيذ لم تكن مناسبة ولأَن ميلوسوفيتش كان سيقوم باستغلال ذلك. فكل ما فعلناه لم يَعْدُ كونه كَسْباً لبعض الوقت. وميلوسوفيتش قد يبادر، كما فعل بالنسبة إلىٰ اتفاقيات مماثلة، إلىٰ انتهاك هذه الاتفاقية، تنبأ كلارك. وبعد شهرين، أوائل كانون ثاني/ يناير 1999م، كان كلارك في واشنطن مرة أُخرى لينبه الإدارة إلىٰ أَن ميلوسوفيتش كان موشكاً علىٰ الإخلال بوعده والرجوع عن كلمته في كوسوفا، وكنا مقبلين علىٰ مواجهة خيارات صعبة. اجتمع بمجموعة نشطاء البلقان نفسها وكان هذه المرة أَكثر تشاؤماً حتى من المرة السابقة. حذّر من أَن الحرب قادمة بصورة شبه مؤكدة، وخلال فترة قصيرة جداً من الوقت. لقد بدت الحرب حتمية بسبب المسار الذي كان ميلوسوفيتش قد اعتمده. وحذَّرَ كلارك أَيضاً من أَن روسيا لن تكون سعيدة بما تفعله أَمريكا والناتو، في القتال، وقد يفضي الأَمر، بصورة شبه مؤكدة، إلىٰ مجابهة بين قوى عظمى. ومما يذكره جيم هوپر، ضابط وزارة الخارجيَّة السابق المختص بشؤون البلقان الذي كان قد هيأ للاجتماع، أَن بعض الناس في الاجتماع رأوا أَن كلارك كان مبالغاً في التشاؤم. غير أَن هوپر ما لبث أَن اعترف لكلاك بأنه كان ثاقب البصر والبصيرة، حين التقيا ثانية بعد سنة ونصف وكان قد تبين أَن كلارك كان علىٰ صواب مئة بالمئة في كل جزء من تفاصيل توقعاته ـ من حيث الأَحداث، التوقيت، بل وحتى المجابهة مع الروس.

---

(4) مقابلة مع كلارك؛ كلارك، 119.


@Ahmedyassin90

الفصل الأربعون

كان كلارك موشكاً علىٰ مواجهة مشكلات جدية ليس فقط مع رؤساء الأَركان، بل ومع وزير الدفاع الجديد بيل كوهن أَيضاً. فحين كان الأخير قد قابله لتنصيبه قائداً سنة لقوات التحالف في أوروبا أوائل سنة 1997م، كان الوزير قد تحدَّث بلغة حمائمية إِلىٰ حد بعيد عن البلقان. ومما قاله إِن الإِدارة لن تستطيع قط أَن تمرّر في الكونغرس أَي نوع من الالتزام العسكري إِزاء كوسوڤا. كانت الرسالة واضحة بالنسبة إِلىٰ كلارك. فرئيسه، كوهن، لم يكن يريد أَن يتورط الجيش في البلقان. وما بدأ كلارك يسمعه الآن من كوهن وكبار عسكريين آخرين كان مسلسلاً من التحذيرات، المنصبة بأَكثريتها علىٰ المبالغة في التقرّب من كبار المسؤولين المدنيين. بكثير من المكر كان الناس يلمحون إِلىٰ أَن بعض المدنيين الذين بدوا وكأَنّهم أصدقاؤه واقفون في صفّه ربما كانوا، في الحقيقة، يعملون ضده. ومع تصاعد مستوى الرهانات كانت اللعبة تزداد بشاعة، ويصبح كبار المسؤولين في الپنتاگون، ممن لم يكونوا واثقين مئة بالمئة بكلنتون، أَكثر إِصراراً، وبوضوح، علىٰ قطع قنوات الاتصال بين الأخير والمدنيين.

وكذلك فإِن الأمور لم تسر علىٰ ما يرام حتى عندما حاول كلارك، وهو ما يزال حديثاً في القيادة، أَن يدفع باتجاه تشديد عمليَّة تطبيق اتفاقيات دايتون. ففي أوقات مبكرة تعود إِلىٰ سنة 1997م كان قد بدأ يتلقّى تحذيرات من

كوهن ـ بل ومن شلتون أيضاً ـ تنبهه إلىٰ وجوب عدم التحدّث مع أناس علىٰ الضفة الأخرى من النهر، حسب لغة البنتاگون؛ أي مع المدنيين في البيت الأبيض ووزارة الخارجيّة ـ أو بشكل محدّد بدقّة كاملة، مع بيرگر، أولبرايت، وهولبروك لاحقاً. قرّر كلارك فيما بعد أن ذلك كان دليلاً آخر علىٰ الصراع المتنامي بين كبار المسؤولين المدنيين ورجالات الجيش، وعلىٰ الخوف من أنه كان في الجانب الخطأ، شديد القرب من المدنيين ودائباً علىٰ الدعوة إلىٰ اعتماد سياسة لم تكن وزارة الدفاع تحبذها. والأهم من ذلك أنّه كان، عملياً، متمتعاً بالصوت الترجيحي. إذا تفاقم الجدل حول ما يجب عمله في كوسوڤا ووقف القائد العام لقوات التحالف في أوروپا في صف المدنيين، فإن من شأن ذلك أن يتمخض عن معادلة شديدة الاختلاف عن أخرى يقف فيها جميع العسكريين ضد التدخّل أو يعرضون رقماً عالياً لا يمكن قبوله بالنسبة إلىٰ ما قد يكون مطلوباً من قوات لتنفيذ مثل هذا التدخّل. خلال إحدى الزيارات لواشنطن في تموز/ يوليو 1998م، كان قد حمل معه بعض الخطط للحملة الجويّة. كان قد رُتِّب له موعد مع الجنرال شلتون، ولكن الأخير لم يتمكّن من لقائه. أمّا المحطة الثانية في برنامجه فكانت محطة البيت الأبيض، حيث التقى بجيم شتاينبرگ، أحد نواب بيرگر. وكان مخططاً أيضاً أن يقابل الجنرال شلتون، غير أن الأخير لم يكن قادراً علىٰ استقباله. ومما قيل له إن الرئيس شلتون كان قد استاء كثيراً لاطلاع المدنيين علىٰ الخطط أولاً. وقيل أيضاً إن الرئيس قال إن كلارك «يضع قدماً علىٰ قشرة موز والأُخرى في القبر»[1]. لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى طُولب كلارك من قبل كوهن وشلتون بتقديم خط سيره وبرنامج زيارته مسبقاً حين يأتي إلىٰ واشنطن حتى يكونا مطلعين دائماً علىٰ طبيعة لقاءاته وهوية أولئك الذين يراهم. لم يسبق لمثل ذلك أن كان قد حصل من قبل. فرآه كلارك تحذيراً آخر. لم يكن، بالطبع، مستعداً للانخراط في تلك اللعبة. كان

(1) مقابلة مع كلارك وضباط قادة آخرين؛ كلارك، 126 ـ 127.

سيواصل، رغم التحذيرات الإِضافية، عمليَّة التدقيق مع الناس الموجودين علىٰ الضفة الأخرى من النهر. لم يكن عازماً، وهو الشاغل لمثل هذا الموقع القوي، علىٰ الرضوخ للپنتاگون في قضية عزيزة جداً علىٰ قلبه.

لم يكن كلارك محسوداً علىٰ منظومة الدعم التي كان يتمتع بها. فعلاقته مع دني رايمر، رئيس أركان الجيش، كانت بائسة. كان رايمر هذا رجلاً أكثر تقليدية بما لا يقاس من الجنرال گوردون ساليڤان الذي كان قد سبقه. كان الشعور السائد في الجيش هو أَن ساليڤان قد بالغ في التشدّد حتى بات النظام كله بحاجة ماسّة إِلىٰ نوع من فترة الراحة بعد تقاعده. وقد كان رايمر المتراخي أَكثر نموذجياً لمثل هذا البرنامج. لقد كان رجلاً مهذباً، جديراً بالاحترام، ولكنه كان أَيضاً حذراً ومحافظاً، متولياً قيادة مؤسسة متعرضة لضغوط هائلة من أجل أَن تتغير، ولكن ثقافتها الداخليَّة، ذهنيتها، خصوصاً في القمة، كانت مقاومة للتغيير، أي تغيير. كانت علاقته مع كلارك، أهم قادة الجيش، متدهورة إِلىٰ أضعف الحدود الممكنة. فرايمر لم يكن، في التحليل الأخير، قد أدرج اسمه علىٰ أَي من قائمتي القادة العامين، فضلاً عن أَن رايمر كان في المرة الثانية عند الترشيح لمنصب قيادة قوات التحالف في أوروپا قد تعمد رفض التوقيع بصورة مدروسة رغم مناشدة شاليكاشڤيلي الشخصية.

أولئك الذين تابعوا كلارك ورايمر معاً في أماكن ضيقة رأوا أَن لغة الجسد بينهما كانت مرعبة ببساطة. لا أَحد كان يعرف السبب، خصوصاً كلارك. هل كانت ثمة حادثة قديمة قام فيها كلارك بإِثارة حفيظة رايمر بطريقة ما، حادثة كشفت عن أَن كلارك لم يكن يعتبر رايمر متحلياً بما يكفي من الذكاء؟ لم يكن أَحد يعرف الحقيقة. غير أَن رايمر لم يكن، ببساطة شديدة، يحب كلارك، بل وكان شديد الانزعاج منه ومهدداً من قبله بنظر بعض أقرانهما. بدا الأَمر لأحد المطلعين علىٰ بواطن المجريات وكأن رجلاً ينتمي إِلىٰ النظام لم يكن قادراً علىٰ أَن يطيق التعامل مع شخص كان، بوعي أَو دونه، يرى أَنَّه أفضل من هذا

النظام. كانت حركاتهما المسرحية مدهشة: ثمة كان رايمر عاجزاً عجزاً شبه كامل عن إِخفاء كرهه لكلارك، والأخير أشبه بكلب بيتي مدلّل بريء، متسائلاً عن السبب. أحياناً كان كلارك يسأل بعض الأصدقاء: «لماذا يكرهني؟» «ما الخطأ الذي اقترفته؟» لم تكن تلك الطريقة المناسبة لبدء ما كان مرشحاً لأَن يتحوّل مع الزمن إِلىٰ العلاقة القيادية الأَكثر حساسية التي يمكن تصورها.

بين جميع الشخصيات التي برزت علىٰ خلفية الصراع المطول حول البلقان، لا أَحد كان من شأنه أَن يعكس جملة التناقضات الكامنة في عمق سياسات بلاده وخططها بصورة أَكثر وضوحاً مما فعله وَسْ كلارك. فالشرخ في الحياة الجيو ـ سياسيَّة الأَمريكيَّة كان يخترقه من قمة رأسه إِلىٰ أخمص قدمه. وكذلك فإِن أَحداً آخر ما كان، في النهاية، قد تعرّض لما تعرّض له من سوء معاملة من قبل مؤسسته بالذات تحديداً بسبب تلك التناقضات نفسها، بسبب رغبة أَمريكا في ممارسة دور القوَّة العظمى في العالم كله، ولكن بطريقة تحول دون وقوع أية إِصابات أَمريكيَّة أَو تقلصها علىٰ الأقل ولا تنطوي علىٰ أية مشكلات سياسيَّة أكبر. وأقدار كلارك هي التي شاءت أَن يدير الجانب العسكري لهذه الحرب غير الضرورية، المخوضة من قبل بلد لا مصلحة له فيها، من حيث الجوهر، المنسقة من جانب حكومة منقسمة علىٰ نفسها حيث بقي الإِجماع، في أحسن الحالات، هزيلاً إِلىٰ أبعد الحدود، وحيث كان اندلاع الحرب سيفرض عليه أَن يقدم التقارير تقييداً لتحقيق ما افتُرض أَن يكون انتصاراً غير محدود، دأب بالضرورة علىٰ ممارسة الضغط في سبيل الحصول علىٰ المزيد ـ المزيد من أَهداف القصف، واستخدام القوات البرية في الوقت المناسب. غير أنه كان ينفذ مهمة كانت لدى المسؤولين ـ المدنيين منهم والعسكريين ـ بشأنها وجهات نظر متباينة جداً. وكان، مع الزمن، سيصبح القائد الميداني اليتيم جزئياً علىٰ الصعيدين السياسي والعسكري.

كان بيل كوهن المنجذب إِلىٰ ناحية بفعل ارتيابه هو وخوف كبار

العسكريين من التورّط أَكثر في البلقان، وإِلىٰ ناحية أُخرى تحت تأثير كبار المسؤولين المدنيين الراغبين في وضع حد لعمل لا لزوم له، غريمه الأول. ربما لم يكن مدنيو الإِدارة متحمسين للحرب، غير أَن البدائل، نظراً للغة الإِدارة الخطابية، لأَهدافها، ولدورها الخاص في دايتون، كانت تُعتبر أَكثر سوءاً. كان موقف كوهن استثنائي الحساسية. إِنَّه جمهوري معتدل من ولاية مين، نوع من الوَسَطي المغرد خارج السرب، الخليط النموذجي بالنسبة إِلىٰ ولاية نيو إِنگلند العُصابية المتقلبة التي يمثلها وهي تنحرف أَكثر فأكثر نحو الحزب الديمقراطي. مواقفه لم تكن قابلة للتنبؤ في أي وقت من الأوقات. كعضو شاب في الكونگرس كان قد برز علىٰ المستوى القومي للمرة الأولى بوصفه عضواً في المجلس القضائي أدلى بصوت مهم لصالح إِدانة نكسون.

كان نزوعه إِلىٰ المعارضة والخروج علىٰ المألوف أَو التغريد خارج السرب أمراً طبيعياً جداً. كان قد نشأ في مين ابناً لأب يهودي وأم إِيرلندية في مدينة نيو إِنگلندية صغيرة حين كانت الزيجات المختلطة من ذلك النوع نادرة نسبياً، فضلاً عن استمرار وجود قَدْر غير قليل من نزعة العداء للسامية. وبعد سنوات، كان كوهن سيكتب في مذكراته، بعنوان **التفقد** Roll Call، بمرارة وبأسلوب لاذع عن الطبيعة الممزّقة لطفولته. فقد كان ممزقاً بين الرغبة في ممارسة الرياضة في رابطة الشباب المسيحيين .Y.M.C.A يوم السبت وبين متابعة دروس المدرسة العبرية في اليوم نفسه. تمثل الحل الذي اهتدى إِليه بتخصيص يومي سبت للعبرية وآخرين للرابطة. لم يكن حَمْل اسم كوهن في رياضات الملاعب في تلك الأَيام سهلاً، كما كتب، وحين كان يحقّق تفوقاً في البيسبول المدرسي فيصرخ أَحدهم بأعلىٰ صوته «اطردوا هذا الصبي اليهودي!»، كان يرغب في الاحتجاج قائلاً «إِنه لم يكن يهودياً». جراء الملل من التمزّق بين هذا وذاك، قرّر ألا يشارك في احتفال العيد اليهودي لبلوغه الثالثة عشرة من العمر ليحتفل بالمناسبة بدلاً من ذلك عن طريق إِلقاء الوسام الذي كان قد حصل عليه

في المدرسة العبرية مكافأة تفوق في نهر پنوبسكوت، معلناً بذلك، في تلك اللحظة علىٰ الأقل، عن أنه لم يعد يهودياً[2]. (من بعض النواحي كانت خلفيته شبيهة بخلفية وَسْ كلارك كثيراً حتى أن زوج كوهن جانيت لانگارت كانت شديدة السعادة بالأمر؛ أمَّا الآخرون الذين كانوا يعملون مع الرجلين فكانوا يتساءلون عما إذا لم تكن أوجه الشبه هي الأَسباب الكامنة وراء التوترات بين اثنين عنيدين، مفعمين حماساً).

غير أَن الاختلاف كان قد منح كوهن دافعاً إِضافياً، رغبة جامحة في التميز والتفوق؛ لقد كان طالباً ممتازاً، بطل رياضة في الكلية، وسبق له أَن فكّر، في بودين، بأن يصبح لاعب كرة سلة محترفَ. غير أَن ذلك لم يكن مضموناً؛ فتسجيل الأَهداف بسهولة علىٰ بيتس وميدلبوري لم يكن مثل اللعب في الفريق القومي National Basketball Association NBA، فقرَّر الذهاب إِلىٰ كلية الحقوق بدلاً من احتراف كرة السلة. وبعد التخرّج عاد إِلىٰ مين، دخل السياسة، انتُخب رئيساً لبلدية بانگور، وما لبث أَن وصل إِلىٰ مجلس النواب في الوقت المناسب للمشاركة في إِجراءات توجيه اللوم إِلىٰ نكسون. وهنا وَفَّرت له نزعته الاستقلالية، وسامتُه، وقدراتهُ الذهنية فرصة الشروع بكسب قاعدة قوميَّة، وساعدت علىٰ تأمين قَذْفه إِلىٰ سباق عضوية مجلس شيوخ ناجح سنة 1978م في ولاية تحب ساستها غير القابلين للتنبؤ من جهة والمستقلين من جهة ثانية في الوقت نفسه. وفي مجلس الشيوخ حيث بقي عضواً لثلاث دورات كان كوهن قد برز بوصفه وَسَطياً في حزب كان دائباً علىٰ الابتعاد عن الوسط. اشتُهر بكونه لامعاً وموهوباً ولكن دون التزام كامل في أَي من الأوقات. كان ميالاً إِلىٰ الاهتمام بالشؤون العسكريَّة، كما كان سريع التعلم ومتمتعاً بحسّ مرهف إِزاء القضايا. غير أنه كان، برأي ضابط كبير تابعه وراقب تحركاته علىٰ التلة [في الكونگرس]، مثل طالب نجيب يحضر الدروس ولكنه

(2) وليم س. كوهن، 59 ـ 62.

لا يشارك قط في الامتحان الأخير. كان قادراً علىٰ استجواب أي ممثل عسكري بعناية واحترام، والتعليق أحياناً قائلاً إن شهادة هذا الضابط أو ذاك كانت مضيئة بصورة غير عادية واقتراح تناول الغداء معاً، ولكن دون الاهتمام، إلاَّ نادراً، بمتابعة دعوة الغداء.

منتصف التسعينيّات، ومع وصوله إلىٰ ما يجب اعتباره أوج حياته السياسيَّة، بدا كوهن مُحْبَطاً بعض الشيء بالعمليَّة السياسيَّة وأسير مأزق كان قد سبق للكثير من الساسة الشباب اللامعين، الطموحين أَن وقعوا فيه قبله. ثمة كان نوع من السقف لقدراته، وكان رأسه قد بدا يلامسه. كان عضو مجلس شيوخ ناجح، جذّاب، ظل حزبه بالذات قليل الاهتمام بأفكاره أَو مستقبله. لم تكن أمامه أية فرص، نظراً لطغيان نفوذ الأصوليين في الحزب (وذكريات تصويته ضد نكسون)، تمكّنه من خوض الانتخابات الرئاسية، وفكرة خوض الانتخابات التمهيدية كانت فكرة دونكيشوتية. كانت حساسياته مختلفة قليلاً عن نظيرتها لدى الكثير من السياسيين؛ كان متخصص دراسات كلاسيكية في بودين، مطلعاً علىٰ الشعر، قادراً علىٰ اقتباسه، ومولعاً بكتابته. بل وقد سبق له أَن كتب مذكرات معمّقة عن سنته الأولى في مجلس الشيوخ ما لبث أَن أتبعها بعدد من الروايات الجاسوسية، وعلىٰ الرغم من أَن أسلوبه في الكتابه لا غبار عليه فإِن خياله لم يكن متميزاً.

مثل عدد كبير من أقرانه الأَكثر تواضعاً علىٰ ضفتي المسار كلتيهما، دأب كوهن علىٰ الرثاء لحال لغة السياسة المعاصرة الأَكثر خشبية وتحزباً، والأَقل جامعية، للتغيير الذي جلبته تلك السياسة إِلىٰ مجلس الشيوخ، ولقسوة عملية جمع التبرعات الحديثة. كان يرى أَن تأثير التلفزيون علىٰ ذلك المجلس كان قوياً، ملموساً وسلبياً ـ المزيد من التشدّد أَو التظاهر بالتشدد في المواقف المزيد من النزعة الحزبية. ففي سنة 1996م بعد ثلاث دورات، قرّر هجران السياسة الانتخابية والعزوف عن السعي لدورة رابعة، ربما كان من السهل عليه أَن يفوز

بها. كان قد أَصبح نجماً ساطعاً في سماء واشنطن التسعينيّات، سياسياً متمتعاً بطيف واسع من الصداقات. كانت زوجه الثانية مدهشة الجمال، الشخصية التلڤزيونية الزنجية جانيت لانگارت، وقد كانا زوجين مرغوبين في أوساط جورجتاون الاجتماعيَّة، حيث تمتع أصحاب الشهرة بالشعبية الدائمة. وعلىٰ الرغم من أنّه لم يكن مثل أعضاء مجلس شيوخ آخرين مثقلاً بأعباء متطلبات جمع التبرعات ـ كانت هزيمته في ولاية مين شبه مستحيلة ولم يكن جمع المال مشكلة علىٰ الإِطلاق ـ فإِن كوهن قرّر ترك مجلس الشيوخ لإِطلاق مجموعة كوهن، مؤسسة استشارية في واشنطن مع ارتباط رئيسي ببلدان آسيا. كان بيل پيري، وزير الدفاع المنتهية ولايته، أول من اقترح اسمه علىٰ الرئيس كخلف محتمل، إِذ أورده في قائمة مرشحيه الشخصية. تحدَّث كوهن وكلنتون عدداً من المرات وقام الأخير بتقديم العرض الذي قبله الأول. علىٰ الرغم من أنّه كان عضو مجلس شيوخ لثلاث دورات وبارزاً وشخصية مرموقة في ذلك المنصب، فإِن أحداً لم يتعرّف عليه كما لم يعرف ما كان يريده ـ ما كان كامناً في وَسَطَه ـ، حين ذهب كوهن إِلىٰ مبنى وزارة الدفاع، الپنتاگون. من الواضح أَنّه كان متألقاً، ذكياً، جيد الكلام في مجلس الشيوخ، ماهراً في سرعة فتح الطرق السياسيَّة الذكية، غير أَنّه بقي غامضاً فيما يخص عدداً من القضايا. كان، بشيء من الشك، قد أيّد حرب الخليج [الثانية]. قيل إِن الناس كانوا يعرفون عما لا يريده ـ عما يرفضه وينبذه ـ أَكثر مما كانوا يعرفون عن الأمور التي يريدها ويرنو إِليها بشوق.

لم يكن التعبير الحاصل في الحياة المسلكية بسيطاً؛ كان ينتقل من مجلس الشيوخ إِلىٰ الفرع التنفيذي، حيث المهارات المطلوبة شديدة التباين. كان ديك چيني قد انتقل من الفرع التنفيذي، حيث كانت مهاراته ـ وشخصيته المحايدة عاطفياً، غياب الحاجة إِلىٰ الشعبية ـ ملائمة بصورة مثالية، إِلىٰ الفرع التشريعي، في عمليَّة تبادل كانت أَكثر سهولة بما لا يقاس، خصوصاً بالنسبة

إِلىٰ محافظ من ويومنگ. وعلاوة علىٰ التغيير، كان من المفترض أَن يضطلع كوهن بإِدارة مؤسسة مفعمة بالشكوك إِزاء الإِدارة التي كان يخدمها، وكان قادماً من عالم جمهوري إِلىٰ آخر ديمقراطي في وقت كان فيه مستوى التحزب في واشنطن ربما أعلىٰ مما سبق له أَن كان في أَي وقت مضى. أخيراً كان يحل محل رجل لم يكن محترماً فقط بل وشبه مقدّس أَو مبجّل داخل المبنى. فحتى شخص فولاذي مثل الجنرال باري ماكافري كان قد تحدث عن بيل پيري بوصفه النموذج المثالي للقائد المدني في عالم الأَمن القومي، «الشبيه بالجنرال جورج كاتلت مارشال»[3].

غير أَن كوهن بقي في الپنتاگون واحداً من رجال مجلس الشيوخ إِلىٰ حد كبير، وحين كان يتحدث في اجتماعات البيت الأَبيض، كثيراً ما كان يبدو متحدثاً باسم الكونگرس (ونيابة عن الحزب الجمهوري)، لا باسم الإِدارة (ونيابة عن الحزب الديمقراطي). فالشكوك التي عبّر عنها حول الكثير من القضايا لم تكن شكوكَه هو، بل شكوك كونگرس يعاني من ضعف الثقة. لقد كان، حسب قناعته، عاكفاً علىٰ تنبيه رفاقه الجدد في العمل إِلىٰ المعارضة التي يمكنهم أَن يواجهوهاعلىٰ التلة [الكونگرس]؛ غير أَن كلماته بدت، لكثيرين في الإِدارة، كما لو كانت صادرة عن أَحد فرسان المعارضة. وبعض أنصار كلنتون كانوا يتساءلون عما إِذا كان كوهن واحداً من فريقهم حقاً، وهي مشكلة لم يخفف من وطأتها نزوعُه إِلىٰ التحدث عن الكونگرس بضمير **نحن** وعن إِدارة كلنتون بضمير **أنتم**، حتى أَخَذَه ساندي بيرگر جانباً وأبلغه، أخيراً، بكثير من اللطف الرسالة التالية: «سأعتبر هذه الإِدارة ناجحة حين تشير إِليها بضمير **نحن** لا **أنتم**». أضف إِلىٰ ذلك، أَن كوهن كان ناقداً متشدداً نسبياً لسياسات الإِدارة في البوسنة فيما مضى، مرتاباً من أَي مزيد من الحركية هناك، فضلاً عن أَن استجوابه لجون شاليكاشڤيلي حين كان الأخير قد مثل أمام مجلس الشيوخ ومعه

---

(3) دورلاند، 162 ـ 163.

اتفاقية دايتون، كان قاسياً، مفاجئاً كلاً من شاليكاشڤيلي والإِدارة التي يمثلها.

وعلاوة علىٰ ذلك، تعين علىٰ كوهن أَن يتعامل مع مقاومة عميقة الجذور وعريقة داخل الپنتاگون لأية خطة حركية في البلقان. مثل كثيرين من مجايليه لم يكن كوهن قد خدم في ڤيتنام، حاصلاً علىٰ تأجيل دراسي لمتابعة الدراسات العليا، مما وفّر بالضرورة سلاحاً إِضافياً بيد أولئك العسكريين في أَي من تعاملاته معهم. لقد كانوا هناك؛ أَمَّا هو فلم يكن. أضف إِلىٰ ذلك أَن دوافع كوهن الفطرية في السعي إِلىٰ إِدارة الپنتاگون كانت دوافع أَي سياسي أَكثر من كونها دوافع هذا المدير التنفيذي أَو ذاك. كان ميالاً إِلىٰ إِفهام العسكريين بأنه عادل وحكيم، ومستعد للتعاطف معهم بمقدار ما كانت ظروف هذه الإِدارة تسمح به. كان يتخذ القرارات اليومية بمهارة ونكهة، غير أَنَّه بقي حريصاً علىٰ أَن ينأى بنفسه عن جملة قرارات إِعادة هيكلة القوَّة ذات الآماد الطويلة التي كان من شأنها أَن تتمخّض عن تمزيق الپنتاگون أشلاء. فذلك الصراع المرير كان يتعين عليه أَن ينتظر مجيء شخص آخر. علىٰ العموم كانت غرائز كوهن السياسيَّة موفقة إِلىٰ حد كبير. غير أَنَّه بقي واضح المبالغة في التعويل علىٰ نائب رئيس الأركان، رالستون، الذي كان يعرف المبنى و«حرتقاته» السياسيَّة الداخليَّة أفضل من أَكثرية الآخرين، وكان يتولى مهمة إِرشاد كوهن إِلىٰ القرارات التي كان يجب عليه أَن يتخذها وفي أَي وقت.

نظراً لكونه واحداً ممن بلغوا سن الرشد في الحقبة الڤيتنامية، فقد ظل كوهن، ولوقت طويل، مسكوناً ببعض الشك إِزاء أَي تدخّل عسكري. ففي أثناء إِحدى المناقشات الدائرة في مجلس الشيوخ، كان قد تحدّث بحذر عن أية سياسة تُقْدم باستخفاف علىٰ إِرسال الشبيبة الأَمريكيَّة إِلىٰ الموت في أماكن بعيدة قائلاً «تلك القلوب التي تنبض بقوة وحماس شديدين داعية إِلىٰ فعل شيء، داعية إِلىٰ التدخل في مناطق لا تشكّل أَي تهديد مباشر لمصالحنا الحيوية، تلك القلوب ذاتها لن تلبث، حين ترى التوابيت، أَن تنقلب رأساً علىٰ عقب، لترفع

صوتها سائلة: «ما الذي نفعله هناك؟»»[4] وفي أَحد الاجتماعات ذات المستوى الرفيع كان، كوزير للدفاع، قد ذكَّر كلنتون بصراحة «لقد صوَّتُّ ضد سياستك البوسنية»، رغم عدم وجود أية حاجة لمثل هذا التذكير. لو كان كوهن ما يزال في مجلس الشيوخ لما تردد في معارضة بعض الخطوات التي كانت الإِدارة الآن عاكفة علىٰ اتخاذها في كوسوڤا. ظلت منطقة البلقان بالنسبة إِليه كابوساً دائماً، مقبرة جيو ـ سياسيَّة مقيتة، بؤرة يبقى الناس فيها محكومين، كما قال مرة، «بالانشغال الدائم بحفر القبور بدلاً من تضميد الجراح»[5]. لم يكن يرى في الغالب سوى المطبات، المزالق، الأخطاء المحتملة: ثمة الحلفاء الذين كانوا متوجسين السير قدماً وبطيئين في الالتفاف حول خطة ناشطة، ثمة التضاريس المائلة لصالح المدافع المحلي، لا الغازي الغربي الغر. أضف إِلىٰ ذلك، هناك أَكثرية في الكونگرس بدت تشاطره شكوكه، كما أَن الإِدارة لم تكن بَعْدُ قد توصّلت إِلىٰ أَي إِجماع. كانت الإِدارة أَيضاً شديدة الحذر من الوقوع بين براثن الكونگرس حول سياستها البلقانية، ومع حلول سنة 1999م، كان بعض كبار القوم علىٰ التلة من أمثال جون ماكين يظنون أَن الإِدارة كانت مراوغة ومخادعة مئة بالمئة بشأن ما تعتزم فعله.

وكوزير للدفاع كان كوهن، مثل أَكثرية كبار العسكريين، معارضاً بوضوح لمعظم السيناريوهات العسكريَّة المطروحة علىٰ طاولة البحث. لم يكن يريد للناتو أَن يصبح، كما قال، «طيران جيش تحرير كوسوڤا». غير أَنَّه ما لبث أَن أفاق أخيراً، في وقت متأخر جداً من اللعبة، حين بات واضحاً أَن المنطق كان يقضي بوقف أعمال ميلوسوڤيتش الشنيعة من جهة وبإِنقاذ الناتو من جهة ثانية. غير أَنَّه ظل علىٰ الدوام مشكِّكاً بجدوى استخدام القوّات الأَمريكيَّة في مهمات حفظ السلام. وكان أَيضاً مؤمناً بعدم جواز إِقدام الإِدارة علىٰ أية

---

(4) تشارلز لين، **نيوريبپليك**، 28/ 7/ 1997م.

(5) **فرونتلاين**، 22/ 2/ 2000م.

خطوة متقدمة دون الحصول علىٰ تأييد الجمهور ودعم الكونگرس. لقد كان ذلك هو عضو البرلمان المخضرم وعضو مجلس الشيوخ القديم في شخصيته، وحين كان يردد صدى شكوك زملائه السابقين في اجتماع الإِدارة ذوي المستويات الرفيعة، كان البعض يراه ناطقاً باسمه هو بمقدار ما كان يعبر عن آراء نظرائه السابقين.

كانت تلك التحفظات عائدة إِلىٰ الإِخفاق في الصومال وإِلىٰ مدى ضعف استعداد الإِدارة لمواجهة تلك الكارثة. فحين كان كل من لَسْ آسپن ووارن كرستوفر قد جاءا إِلىٰ الكونگرس بعد وقوع الكارثة مباشرة، كان آسپن قد اضطلع بالجزء الأكبر من الكلام باسم الإِدارة، وكان أداؤه ضعيفاً جداً، حسب ما تذكر كوهن. تلك كانت إِحدى أسوأ الجلسات التي سبق له أَن شارك فيها وقد أصيب بالدهشة وهو يرى عضو كونگرس سابق بمهارة آسپن وذكائه، أَحد أبرز شخصيات فرعه الحكومي، متورطاً في مثل هذا الأداء الفاشل والبعيد عن الكفاءة. كان آسپن قد سأل الحضور من أعضاء الكونگرس ـ وكثيرون منهم أشبه بالزنابير التي جرى اقتحام أعشاشها ـ عن رأيهم حول ما كان يتعين علىٰ الإِدارة أَن تفعله. لقد كانت تلك أسوأ الصياغات التي يمكن للمرء أَن يتصورها برأي كوهن. فأن تذهب إِلىٰ الكونگرس ملتمساً مساهمته شيء، أَمَّا أَن تتكلم باللغة التي تكلم بها آسپن، ملمحاً إِلىٰ عدم وجود أية خطة لدى الإِدارة وطالباً من الكونگرس توجيهاً حول ما ينبغي فعله، شيء آخر تماماً. وبسبب ذلك فإِن الاجتماع سرعان ما انقلب إِلىٰ لقاء بالغ البشاعة وبقي الكونگرس متطرف التوجس إِزاء أية مشروعات حفظ سلام مستقبلية. لم يكن ثمة أَي مجال للمبالغة في تقدير الأضرار التي ألحقتها الصومال بإِدارة كلنتون، حسب اعتقاد كوهن. وحين ذهب إِلىٰ التلة في خريف 1998م لطلب الموافقة علىٰ إِرسال سبعة آلاف وخمس مئة عنصر حفظ سلام إِلىٰ كوسوڤا لدعم المفاوضات التي كان ديك

هولبروك عاكفاً على تنظيمها، بادر زملاء كوهن القدامى، فوراً وببرود، إلىٰ خذلانه. وكان جزء من السبب كامناً في أَن أعداداً كبيرة جداً من القوّات كانت لا تزال موجودة في البوسنة. صحيح أَن تلك القوّات كانت تؤدي دورها بنجاح، دون أَي نزيف، فضلاً عن أَن الوحدة الأَمريكية كانت قد اختُزلت إلىٰ النصف، إلاَّ أَن موعد الانسحاب الأصلي كان قد تم تأجيله أكثر من مرة، وما كان قد حدث في الصومال لا يزال حياً في الذاكرة الخلفية للناس. لقد شكَّلت الصومال، بقناعة كوهن، الوصمة غير القابلة للامحاء علىٰ الكثير من المهمات الأُخرى المماثلة لهذه الإِدارة.

بصرف النظر عن شكوكه الخاصة، كان الآن محاطاً بجيش من كبار ضباط الجيش الذين كانوا حتى أَكثر ارتياباً من أَي تحرك، خصوصاً استخدام القوّات البرية. إِن آراء كوهن، مع وجهات نظر معظم كبار العسكريين، ما لبثت أَن جعلته في صراع متواصل وحاد مع مادلين أولبرايت، التي كانت تنطق بلسان جميع الناشطين في الفرع التنفيذي الذين كانوا قد عاشوا جولة أولى طويلة، قاتلة مع ميلوسوفيتش حول البوسنة خلال معركة البلقان الأولى، والذين كانوا شديدي التوق لإِطلاق ما اعتبروا أَن من شأنه أن يكون معركة البلقان الثانية من أجل اختزال المعاناة الإِنسانية المحتملة التي كانوا جميعاً شهوداً عليها، إلىٰ الحدود الدنيا. أَمَّا كوهن فقد كان، بالمقابل، يتحدَّث ليس فقط باسم الجيش، الذي لم يكن، في الحقيقة، يريد السير قدماً، بل ونيابة عن الكونغرس، الذي كان النشطاء عازمين أساساً علىٰ تجاوزه، إِن أمكن. ما زالت حجج كوهن وأولبرايت حية في الذاكرة. لقد كانت الأخيرة ضارية، واثقة من رؤيتها، وشديدة القرب من المواقف الهجومية. أَمَّا الأَول فقد بقي، بدوره، نداً لها علىٰ صعيد الحجج إِن لم يكن من حيث الحماس. أحياناً كان يتراجع قليلاً عند استفحال السجال وتصاعد الطابع الشخصي للنقاش، غير أَن وجهه كان يصطبغ باللون الأحمر.

متابعاً الشجار الحاد الجاري بين الوزيرين، رأى بيرگر أَن إِحدى نقاط الاختلاف بين كوهن من جهة والنشطاء في الإِدارة من أمثال أولبرايت، كلارك، وهولبروك، الذي كان يحضر اجتماعات كبار المسؤولين بين الحين والآخر، تمثَّلت بعدم كون كوهن قد عاش مأساة معركة البلقان الإِنسانية الأولى المرعبة والرهيبة، التي كان هؤلاء قد تعثّروا بها، أخفقوا في التعامل معها، وعانوا منها أشد المعاناة على امتداد ثلاث سنوات ثقيلة قبل أَن يتمكّنوا أخيراً من اجتراح خطة قابلة للتطبيق. لا أَحد من منتسبي الشريحة العليا من كبار المسؤولين كان راغباً في تجرع تلك الكأس مرة أُخرى.

الفصل الحادي والأربعون

لم تبدأ الحرب في صربيا بداية ناجحة. كان جزء من المشكلة يعود إِلىٰ جدَّة ذلك النوع من المهمات علىٰ الناتو. لم يقف الأَمر عند عدم كون الحلف قد قام بمثل هذا العمل من قبل، بل وتجاوزه إِلىٰ كون العمليَّة مصممّمة كعمليَّة **دفاعية** أساساً بدلاً من أَن تكون وسيلة هجومية. لقد كانت عملية يجري التدرب عليها في أثناء التنفيذ. وقد كان الناتو أَيضاً، كما قال أَحد المسؤولين، منظمة مترامية الأَطراف، مهلهلة، ذات تسعة عشر عضواً الآن، مثقلة بسائر أنواع القيود السياسيَّة المتجذرة. كانت القاذفات المتوفرة أقل من المطلوب عند اندلاع الحرب، والأَهداف المسموح ضربها لم تكن هي الأَهداف التي كان يتطلع إِلىٰ ضربها اثنان من أهم القادة هما كلارك ومايك شورت، المسؤول عن سلاح الطيران. كانت الصعوبات التي تواجه قيادة كلارك واضحة منذ البداية. كان قد أراد أَن يوجه الضربات إِلىٰ الأَهداف المثلىٰ التقليدية لجعل الصرب يعانون: كان قد أراد ضَرْب شبكة توزيع الطاقة، منابع الطاقة، مستودعات ومصافي النفط والغاز، وشبكة الاتصالات. ثم ما لبث أَن أَصبح شاهداً علىٰ تقلّص قائمة الأَهداف بفعل الضغوط السياسيَّة، بل أَن بعض الأَهداف جرى شطبها حتى فيما كانت الطائرة موشكة علىٰ الإِقلاع لضربها. كان كلارك، برأي أَحد الأصدقاء، أشبه برئيس طباخين جاهز لإِعداد ما كان يأمل في أَن تكون الوجبة الأعظم في حياته، ما لبث أَن وجد حوالي عشرين من رؤساء المطابخ المزعومين المعينين ذاتياً يحاصرونه وهم يجادلون حول المواد والعناصر اللازمة

للطبخة وتوقيت الطهي، فنجح كل منهم بتخريب جانب من الطبخة وصولاً إلىٰ جعل المحصلة النهائية بلا أي طعم، بدلاً من توفير إمكانية الحصول علىٰ وجبة أشهىٰ.

كانت ثمة هوة ذات شأن بين ما كان عسكريو الناتو قد وعدوا كلارك به قبل بدء الحرب الجويَّة من جهة وبين ما كان سياسيو الناتو، وهم أكثر حساسية إزاء قصف الأهداف السياسيَّة الصربية، يسمحون بضربه من جهة ثانية. ثمة توترات ذات شأن كانت قائمة بين أعضاء الناتو الأكثر عدوانية وتشدّداً، من ناحية وبين ما كان الفرنسيون والإيطاليون، في هذه الحالة، (فاليونانيون كانوا علىٰ الدوام معارضين لفكرة استخدام الطيران من الأساس) مستعدين لاعتماده من ناحية ثانية. لا غرابة، إذن، أن الإحباطات داخل هيئة القيادة كانت هائلة. ففي الليلة الثالثة من القصف، كما يتذكر شورت، كان قد تعين عليه أن يشطب موجة ثانية من طائرات إف ـ 117 لأنَّه كان قد بات بلا أهداف، خصوصاً تلك المرشحة لإحداث القدر الأكبر من الألم لميلوسوڤيتش. وكما يقول إيڤو دالدر ومايكل أوهانلون في كتابهما عن كوسوڤا، **الانتصار البشع**، فإن الناتو لم يكن لديه سوى 350 طائرة جاهزة عند بدء القصف، حوالي ثلث الطائرات التي احتاج الحلف إليها آخر المطاف، وعُشر عدد الطائرات التي استُخدمت في حرب الخليج [الثانية]. لم تكن هناك أية حاملة طائرات لا في البحر الأدرياتيكي ولا في المتوسط عند بدء العملية. وقد لاحظ المؤلفان أن الأمر كان «مثالاً نموذجياً لحالة عدم خوض الحروب»[1].

كان الوضع منطوياً علىٰ قدر استثنائي من عوامل الإحباط بالنسبة إلىٰ كلارك الذي كان شديد الكُرْه لميلوسوڤيتش وتوّاقاً بقوة لتنفيذ هذه الحملة. لم يُسمح لكلارك بأن يستخدم إلاّ جزءاً صغيراً مما لديه من قوة. وجد نفسه أسير

---

(1) دالدر وأوهانلون، 19.

دوامة من التيّارات السياسيَّة المتقاطعة الآتية من جميع الجهات، بعضها متشدّد صادر عن مرؤوسيه، ولكن أَكثريتها من النوعيات الحمائمية الصادرة عن مختلف الأنماط السياسيَّة في البلدان الأجنبية التي ربما كانت أَو لم تكن رؤساءه، لأَن أَحداً لم يكن يعرف حقيقة الموقف بصورة مؤكدة. كان تفويض كلارك بالغ الهشاشة حتى أنّه بات مضطراً لتبديد طاقاته علىٰ محاربة وتحييد تلك القوى الناتوية الراغبة في فعل حتى ما هو أقل ـ بل وكانت تدعو، في الحقيقة، إِلىٰ وقف القصف كخطوة أولى، باعتقاد كلارك، علىٰ طريق وضع حد نهائي للحملة الجويَّة، بدلاً من صرف هذه الطاقات علىٰ المطالبة بالمزيد من القوّات وبقائمة أَهداف أفضل.

لم يكن مايك شورت، الذي كان في دوامة غضبه الخاص علىٰ القواعد، متعاطفاً مع كلارك. فمع بدء الحملة الجويَّة، ثار غضب شورت من الورطة التي وجد نفسه فيها، وراح يلوم كلاً من كلارك وواشنطن. وبما أَن الأَول كان قريباً وفي متناول اليد فإِن غضب شورت تركّز علىٰ رئيسه العسكري. فقبل الشروع الفعلي بالقصف بزمن طويل، كان شورت ومعظم زملائه الكبار قد زوّدوا كلارك بخطة حملة جويَّة لم تكن مختلفة عن الاستراتيجية التي كان جون واردن قد نحتها لعاصفة الصحراء. كان من شأنها، حسب تعبير شورت، أَن تطفئ الأنوار في بلگراد عبر استهداف مراكز الاتصالات العسكريَّة والمدنية، محطات المحروقات، وشبكة المواصلات. كان عازماً علىٰ إِلزام ميلوسوڤيتش وحاشيته بدفع ثمن مغامراتهم في كوسوڤا. وعلاوة علىٰ ذلك كان يجب، برأي شورت، إِفهام الصرب العاديين المستمتعين بالركوب المجاني علىٰ ظهر ميلوسوڤيتش، عن طريق إِطفاء الأنوار في بلگراد وتدمير الجسور، أنهم، هم أَيضاً، من ضحايا نزعة ميلوسوڤيتش الشوفينية وممارساته الشنيعة.

كنا نملك أداة القوَّة الخارقة هذه، وكان علينا، باعتقاد شورت، أَن نستخدمها بكثافة فريدة واستثنائية، رغم أَن العراق والصحراء سبق لهما أَن وفّرا

أَهدافاً أسهل من أَهداف صربيا ومناطقها الجبلية. كان ذلك صحيحاً بشكل خاص لأننا كنا نعرض الشباب والشابات الذين كانوا يقومون بتنفيذ هذه المهمات للخطر بصورة دائمة. وباعتقاد شورت وكبار الطيارين الآخرين، فإِن ما كان سلاح الجو الأَمريكي قد فعله في حرب الخليج لم يكن إِلاَّ بداية. ففاعلية وقوة القذائف ذات الدقّة العالية وقذائف الخلسة كانت قد تضاعفت كثيراً خلال ثماني سنوات فقط، وكان شورت واثقاً من أَن الضغط الذي كان قادراً علىٰ ممارسته بسرعة ضد ميلوسوڤيتش كان من شأنه أَن يكون ضغطاً لا يُطاق وقادراً علىٰ جره إِلىٰ الطاولة خلال فترة زمنية قصيرة.

غير أَن تلك الخطة لم تلق قبولاً قط. لم يصدق شورت أَن كلارك عرضها علىٰ رؤسائه، المدنيين منهم والعسكريين، مما جعلهم يقرّون خطة تدريجية، تراكمية مكروهة ببساطة من قبل شورت. بدت هذه الخطة التدريجية كلها، بنظره، شديدة الشبه بڤيتنام، خطة مقبولة سياسياً لدى ساسة الناتو العُصابيين من ناحية وأَكثر أعضاء فريق كلنتون تحفظاً وحذراً من ناحية أُخرى، ولكنها خطة مميَّعة علىٰ حساب التميز العسكري. لقد كانت، برأي شورت، خطة بلا أنياب من حيث الجوهر، قائمة علىٰ تبديد وتحييد هذه التكنولوجيا الجديدة العظيمة. وما هو حتى أسوأ من ذلك أَنَّه كان يعتقد بأن مثل هذه الخطة كانت تقول لميلوسوڤيتش بأن من يتصدى له ليس إِلاَّ أَمريكياً جباناً وخرعاً، فتشجعه علىٰ محاولة الصمود والتحمّل. كانت وجهة نظر شورت عما كان ينبغي أَن نكون عاكفين علىٰ عملية تمثل التقطير الأنقىٰ لإِيديولوجية الطيران، غير المصقولة بأية عواطف كرمى لعيون التعقيدات السياسيَّة. لم يكن جميع زملائه، بمن فيهم حتى بعض كبار ضباط سلاح الجو، متفقين معه مئة بالمئة. كان هؤلاء يتفهمون مشاعره، يتعاطفون مع غضبه، بل ويعرفون بأن مشاعر مماثلة من شأنها أَن تتملكهم هم أَيضاً إِذا ما جرى تغيير مواقعهم. غير أَنهم كانوا، أَيضاً، يتفهمون أَن هذه المهمة كانت شيئاً جديداً، كانت خاضعة لقيادة

التفافية معقّدة، وأن سياسة قصف هذه المدينة أو تلك في أوروپا التي يشكِّل أهلها حلفاء لدول أوروپية أُخرى، كانت سياسة بالغة التعقيد. لقد شعروا أن شورت كان ضيقاً أكثر مما ينبغي في تفكيره، قليل الإِحساس بمدى تعقيد حملة كلارك وبجملة الضغوط السياسيَّة المرعبة التي كان يواجهها يومياً. فعلىٰ الرغم من أَن ما كان شورت يقوله كان صحيحاً تكنولوجياً، راودهم شعور بأنّه لم يكن متفهماً لطابع تفاعل قوى أكبر كان جارياً حوله علىٰ قدم وساق.

لم تكن اللباقات السياسيَّة والحساسيات الدبلوماسية تعني شيئاً بالنسبة إِلىٰ شورت. لقد كان قائداً من الطراز القديم مفَصَّلاً من قماش ضباط الحرب العالميَّة الثانية الأخشن والأكثر قسوة، وأقل حَذْلقة من معظم عسكريي الشرائح العليا للمؤسسة العسكريَّة الحديثة. كان شورت خشناً، صدامياً تقريباً. لقد كان من كان، طيار مقاتلة، يعرف واجبه ولم يتظاهر ـ لم يرد أَن يكون ـ أَي شيء آخر. لم يكن يعتقد بأنه تطفل علىٰ مناطق نفوذ الآخرين، ولم يكن يحب رؤيتهم وهم يتطفّلون علىٰ دائرة نفوذه هو. كان يرى واجبه بوضوح ولم يكن يريد أَن يجد أَي عائق يعرقل تنفيذه لهذا الواجب. أضف إِلىٰ ذلك أَن إِحساسه بالواجبات والالتزامات المرتبطة بقيادته كانت شخصية حتى العظم. كان يعتبر نفسه مسؤولاً عن أرواح مرؤوسيه بصورة جدية ـ خصوصاً في حملة كهذه، حيث الأخطار بقيت، رغم تفوقنا التكنولوجي، ثابتة. كان يقول عن الطيارين الذين يتولّون تنفيذ المهمات «أبنائي الصغار»، كما لو كانوا أبناءه فعلاً، وقد كان كلامه مطابقاً حرفياً للواقع في إِحدى الحالات. فابنه كرستوفر كان يقود طائرة بطيئة وسريعة العطب نسبياً من طراز وارثوگ [خنزير بري أفريقي] آـ 10، في الحملة. أحياناً حين كان شورت يثور علىٰ الضوابط والقيود المفروضة عليه، خصوصاً من قبل الساسة الفرنسيين، كان يقول إِذا ما حدث شيء لابنه فإِن يدي جاك شيراك ستكونان ملطختين بدمه.

كان شورت عضواً في مافيا التاك TAC [القيادة الجويَّة التكتيكية] التي

كانت في السبعينيّات قد أصبحت عصبة داخليَّة مهمة وقوية داخل سلاح الطيران. كانت هذه العُصْبة قد انتزعت النفوذ من أيدي جماعة الساك SAC [القيادة الجويَّة الاستراتيجية] التي كانت فيما مضى مهيمنة علىٰ السلاح، غير أنّها ما لبثت، لاندماجها الطويل بالقاذفات النووية التي لم يتم قط استخدامها، أَن فقدت نفوذها بصورة تدريجية. وحين تولى شورت قيادة عملية كوسوڤا، في 1999م، كان الرجل بمعايير القوّات الجويَّة أشبه بشخص غريب الأطوار، شخص غير طبيعي. كان قد نفَّذ مهمته القتالية الجويَّة الأولى قبل اثنتين وثلاثين سنة، وكان واحداً من أواخر تلك المجموعة من طياري سلاح الجو الذين كانوا قد قاتلوا في ڤيتنام في المراحل المبكرة نسبياً. لا شيء عبر السنين كان قد دوَّرَ زواياه؛ بقي شهير الفظاظة وضاري الاستقامة والصراحة. كان في أَيام كوسوڤا أقدم جنرال ثلاث نجوم في سلاح الطيران. وعمليَّة الحصول علىٰ قيادة كوسوڤا اعتُبرت في أوساط القوّات الجويَّة نوعاً من التعبير عن التقدير من جانب رئيس أركان سلاح الطيران، الجنرال مايك ريان، لشورت. فمثل هذا المنصب الثمين والعزيز كان عادة يجري تقديمه إِلىٰ جنرال ثلاث نجوم شاب لامع، صاعد كان تميّزه والوعد الذي ينطوي عليه قد مكّناه من الفوز في اختبار أخير للحصول علىٰ نجمته الرابعة، لا إِلىٰ شخص باتت وتيرة حياته المسلكية مستوية ومستقرّة وأَصبح في وضع لا ينتظر معه إِلاً التقاعد من حيث الأساس.

مما أَصبح مسلَّماً به، عبر السنين، أَن سلسلة طويلة من المحاولات المختلفة الرامية إِلىٰ تدوير زوايا شورت الأَكثر حدة ونتوءاً قد أخفقت، فبات الرجل، بالضرورة، شخصاً مفضلاً ومحبوباً لدى مرؤوسيه من الرجال والنساء، ولكنْ مثيراً لحفيظة بعض رؤسائه ومزعجاً لهم. كان شورت رجلاً بلا طلاء، مستقيماً، واثقاً، مؤمناً إِيماناً مطلقاً بضبّاطه وأسلحته. كان أسلوبه علىٰ طرفي نقيض مع أسلوب وَسْ كلارك. إِذا كان الأخير ممن يمشون فوق الماء، نجماً منذ لحظة وصوله إِلىٰ أكاديمية وست پوينت العسكريَّة، فإِن شورت كان جندياً

عادياً أدَّى واجبه بنجاح. فبعد إخفاقه في الوصول إلىٰ وَسْت پوينت، تمكّن، بصعوبة، من الالتحاق بأكاديمية الطيران، حيث بدا لبعض الوقت مرشحاً للغرق لا للمشي فوق الماء. تمثَّلت موهبته العظيمة بقيادة الناس، وقد استمدها من العناد ووحدة الهدف، من ثقته بالمسار المفضل لديه، من مواجهته للمواقف القتالية دون شكوك، علاوة، بالطبع، علىٰ إقناع مرؤوسيه بأنه مستعد، دون تردّد، للقيام بأيّة مهمة يوكلها إليهم. غير أن تلك المواصفات والمميزات بالذات جعلت منه نائباً مزعجاً في حرب شديدة الحساسية علىٰ الصعيد السياسي مثل حرب كوسوڤا.

كان شورت قد تعلّم أسلوبه في البيت. فأبوه كان جندياً متطوعاً في الحرب العالميّة الثانية، كان قد قفز بالمظلة يوم الإنزال [في النورماندي] مع اللواء السابع عشر المحمول جواً، كان قد قاتل في معركة بلج، وكان قد جُرح جرحاً بليغاً في حرب أُخرى، في الحرب الكورية. وفي أكاديمية الطيران الجديدة التي لم يفلح فيها كثيراً لأنّه لم يكن شديد الميل إلىٰ منهاج العلوم المتطلب، ولا إلىٰ الطيران حتى بدؤوا، أخيراً، يطيرون بطائرات من طراز تي ـ 38. كان ترتيب تخرّجه 443 في صف ضم 517 طالباً، دون أن يكون نجماً في دورة 1965م، وقد جرى تكليفه بنقل الصهاريج جواً، في مهمة لم تكن بالضرورة من المهمات التي توكل إلىٰ الخريجين الأكثر نخبوية. مصادفة، كانت الأوضاع في ڤيتنام قد بدأت، لتوها، تتصاعد، وتم إلغاء نقل الصهاريج، فوصل إلىٰ الجنوب في حزيران/ يونيو 1967م مكلفاً بالطيران في طائرة من طراز إف ـ 4، في المقعد الخلفي، الجيب GIB [الولد الجالس في المؤخرة] بلغة الطيارين. أمَّا طيارو المقعد الأمامي، المتأثّرون سلباً في الغالب بمساهمة الجالسين في المقاعد الخلفية، أَو بعدم وجود أية مساهمة، فقد كانوا أقل مجاملة إذ كانوا يطلقون عليهم اسم «الصابورة الخلفية». وبرأي شورت فيما بعد، فإن تلك المهمّة شكّلت نقطة انعطاف في حياته المسلكية. لو بقي في

مهنة نقل الصهاريج لكان قد خدم، بالتأكيد، أربع أَو خمس سنوات، وترك الطيران، ليصبح طياراً مدنياً لإِحدى طائرات الخطوط الجويَّة الرئيسية. أَمَّا الآن فقد اهتدى إِلىٰ شيء يجيده. أحب المهمة، مهمة توفير الدعم الجوي المباشر للوحدات البرية الأَمريكيَّة المشتبكة، وهو يعرف، حتى حين يقوم بتفريغ الحمولة من القذائف، أنّه ربما كان ينقذ حياة أَو قوات هذا الملازم الأَول أَو النقيب أَو ذاك بعيداً هناك في أعماق المستنقعات الموحلة الواسعة. كانت حياته المسلكية قد نجحت لأَنَّه كان مفعماً وممتلئاً حتى الثمالة بالقدرات القتالية قديمة الطراز رغم نواقصه الأكاديمية الواضحة. ومع ارتقائه إِلىٰ مراتب أعلى، ظل دائباً علىٰ دحض ثقافة الطيران المتزايدة حَذْلَقة.

لم يكن لدى شورت ذلك الإِحساس الطبيعي العظيم الضروري لاحتراف القتال الجوي، غير أنّه أحب دوره في ڤيتنام، دور توفير الغطاء الجوي للقوات البرية، لأَن حصيلة عمله كانت ملموسة جداً: كان قادراً علىٰ رؤية الجنود الذين كان يوفر لهم الحماية، مما جعل الانخراط في العمل سهلاً. ولدى رحيله من ڤيتنام بعد سنة واحدة، كان قد نفَّذ 276 طلعة، غير أَنَّه كان منتبهاً إِلىٰ حقيقة كونه كان قد خاض حرباً سهلة نسبياً بمعايير تلك الأَيام. فشباب الجيش كانوا هناك غائصين في الأوحال مثقلين بالمعدات مشتبكين في ظل أصعب الظروف مع عدو بالغ القسوة والخشونة. ثمة آخرون كانوا أَيضاً يعانون، حسب علمه؛ فأقرانه من سلاحي الطيران والبحرية كانوا يحلِّقون فوق ڤيتنام الشمالية مخترقين غابات من الصواريخ الثقيلة. ومن رفاقه الثلاثة في الغرفة في أَحد مهاجع خليج كام رانه، قُتل اثنان في أثناء تحليقهما فوق الشمال. أَمَّا هو فلم يكن يطير، في المقام الأول، إِلاَّ فوق الجنوب ـ إِذ لم يقم إِلاَّ بخمس وأربعين طلعة فوق الشمال ـ حيث كانت احتمالات الإِسقاط ضئيلة. كان في الليل ينام تحت شراشف نظيفة. لم تكن الطلعة لضرب الأَهداف تستغرق أَكثر من ثلاثين دقيقة، كان يعود بعدها إِلىٰ القاعدة في خليج كام رانه. كان يستطيع ارتياد نادي

الضباط، تناول كأس من الشراب والتباهي باحتمال كونه قد أنقذ عدداً من الأرواح الأَمريكيَّة في ذلك اليوم، أنقذ أناساً لن يعرفوا قط من هو وما شكله.

كان شورت قد اهتدى إِلىٰ رسالته في الحياة؛ لقد كان طياراً وطياراً جيداً. حصل علىٰ النجمة الفضية علىٰ مهمة إِنقاذ في ڤيتنام، وهذا وسام غير عادي بالنسبة إِلىٰ عنصر من عناصر سلاح الجو، وصليب الطيران. أضف إِلىٰ ذلك أنّه كان، كما بدأ يكتشف، جيداً في القيادة، وقد بدت وقاحته وصراحته قديمتي الطراز ناجحتين نجاحاً غير عادي في العصر الحديث. كانت شخصيته ومواهبه مفصَّلة لوظيفتي الطيران والقيادة. لم يكن شيء مما تحلى به من صفات قابلاً للتبديد دون جدوى. فهو لم يكن متمتعاً بأية قدرات مجردة، أَو بأية مهارات فلسفية. كان فرسان التنظير والثقافة من العسكريين يثيرون اشمئزازه، وكان يتحدث عنهم وراء الكواليس بشيء من عدم الاحترام. كثيراً ما كان يحلو له أَن يقول: «إِذا كنت نافعاً في شيء، في هذا المجال الذي نحن فيه، فأنت تطير وتقود، وإِلاَّ فليس أمامك إِلاَّ أَن تعلّم أَو تكتب أَو تتقاعد». كان الاختبار الحقيقي الوحيد في عالم شورت هو أسلوب تحليقك في القتال. ما لبثت قدراته أَن لفتت الأنظار، فحصل علىٰ سلسلة من المناصب الجيدة بعد ڤيتنام. كان معاون قائد ومن ثم قائداً لوحدة طائرات الخلسة من طراز إِف ـ 117 أواسط الثمانينيّات، حين كانت لا تزال سوداء. لم يحلّق في حرب الخليج؛ تاهت القرعة ولم يتم تكليفه بقيادة أَحد الأجنحة. ولو وقع عليه أَي اختيار لكُلف بمهمات طيران تصويرية، وهي مهمات لم يكن، في الحقيقة، مولعاً بها. فالتحليق فوق المعارك المحتدمة والتقاط الصور لم يكن من هواياته.

برأي أصدقائه لم يكن شورت من النوع الذي يمكنه أَن يستمتع بتولي منصب القيادة الجويَّة في معركة مثل تلك التي كانت متوقعة في كوسوڤا. فكثيرون ممن هم حوله باتوا يعتقدون بأنّه ما لبث أَن أَصبح، وسريعاً، يكره

كلارك، لأَن إِحباطاته كانت كبيرة جداً، ولم يكن من طبيعة شورت، أَن يتفهم المعادلة الأعقد التي كانت تواجه كلارك، كما لم يكن الأخير متمتعاً بالمهارات الإِنسانية التي كان من شأنها أَن تمكِّنه من بناء جسر بينه وبين شورت. فأن يبقى شورت هو شورت نفسه، كان يعني أَن يبقى مصراً علىٰ الضغط المتواصل لتعظيم قائمة الأَهداف، ولا شيء أقل من ذلك. وقد كان، بالمناسبة، يتحدث أحياناً عن أَنَّه لو التحق بوست پوينت كما كان يأمل أساساً، لكان متقدماً علىٰ كلارك بسنة. ولو كان هو طالباً في الصف الثالث بأكاديمية وست پوينت حين جاء وس كلارك غراً، كان يحلو لشورت أَن يقول، لتغير مجرى التاريخ قليلاً. من الواضح أَن بعض التوترات بين الرجلين كانت تاريخية، مثل التوترات بين إِيزنهاور وپاتون، أَو بين پاول وشوارتزكوپف. وعلاوة علىٰ ذلك فإِن كلارك كان جندياً حقيقياً، جندي قوات برية، عسكري مشاة قلباً وقالباً، غير قادر، برأي شورت، علىٰ الإِحساس بما ينبغي لأية حملة جويَّة حديثة أَن تكونه حين تُدار بشكل صحيح. حتى قبل بدء الحملة، كان ثمة اختلاف أساسي بين أولوياتهما. كان كلارك قد سأل شورت: «ما الذي ستفعله، يا مايك، حين يبدأ ميلوسوڤيتش بقتل المسلمين؟» فرد عليه: «سأهاجم القيادة في بلگراد، سيدي!» كان ذلك هو الجواب الخطأ، أقله في الوقت الراهن. لا الناتو ولا واشنطن كانا جاهزين لأي شيء عنيف إِلىٰ ذلك الحد بعد. وحين بدأت حملة القصف ظل كلارك يطلب من شورت مطاردة الجيش الثالث الصربي، الذي كان في كوسوڤا، غير أَن شورت كان يعتبر ذلك تبديداً لقوة الطيران. فالجيش الثالث، بالتعبير المفضل لدى القوّات الجوية، لم يكن «مركز ثقل» بالنسبة إِلىٰ الصرب حسب رأيه، ولم يكن ميلوسوڤيتش مهتماً بما يحدث لهذا الجيش علىٰ الإِطلاق. لقد كان منتشراً علىٰ نطاق واسع (أَو كان سيبادر إِلىٰ ذلك بعد الهجوم الجوي الأول) مما جعله هدفاً صعباً. أَمَّا الاستراتيجية الواضحة فكانت، برأي شورت، متمثلة بتجاوز هذا الجيش وإِلحاق الأذى والألم بالزعيم الصربي وبطانته الداخليَّة.

بقي شورت مصراً علىٰ أن مركز الثقل الحقيقي كان متمثلاً ببلگراد الحاوية لجميع الأدوات الحساسة التي تشكل ركيزة سلطة ميلوسوفيتش. أحياناً كان شورت وكلارك يتجادلان حول الهدف الصحيح بنظرهما، حول جَوْهَرة التاج. في إحدى المرات قال شورت: «منذ أشهر وكلانا يعرف بأن لكل منا صائِغَك المختلف، سيدي!» فرد عليه كلارك: «صحيح ولكن صائغي أعلىٰ رتبة من صائغك أَنت» وذلك الجدل لم يتوقف قط، وبقي شورت ـ بمقدار ما كان الأَمر عائداً إِليه وحده ـ مشغولاً بمهمات الضرب الجانبية الصغيرة والمحدودة الموجهة إِلىٰ قوات ميلوسوڤيتش الميدانية، مهمات كانت القوَّات الجوية تعتبرها «قَرْعاً للدبابات» وتراها تبديداً للوقت، للموارد، وربما للأرواح أَيضاً. أضف إِلىٰ ذلك أَن قرع الدبابات [قنصها العشوائي] في البلقان كان أقل جدوى منه في الصحراء العراقية لأَن الدبابات لم ترتفع درجة حرارتها كما كانت تفعل هناك، وبالتالي، لم تظهر علىٰ شاشات أنظمة التسديد الحرارية.

كان شورت مقتنعاً بأنه، مع رجال الطيران الآخرين، كان قد طرح اقتراحاً أفضل بشأن الحملة الجوية، وبأن كلارك كان يتعين عليه، ولو لم يكن مستعداً لقبوله، أَن يمهد الطريق أمامه ليقوم بعرض اقتراحه علىٰ مستوى قيادي أعلىٰ علىٰ الأقل. وفيما بعد بات كلارك يعتقد بأن شورت لم يكن، ببساطة، منتبهاً. صحيح أنه، هو نفسه، كان شديد الرغبة في خوض حَمْلة جوية ضد ميلوسوڤيتش شبيهة تماماً بتلك التي كانت قد خِيضت في العراق. غير أَن ذلك لم يكن ليحدث. فالقيود السياسيَّة كانت أكبر بما لا يقاس في أوروپا مما أدى إِلىٰ قلب المعادلة رأساً علىٰ عقب. لقد كان الحلفاء الأوروپيون شديدي القلق إِزاء أَي هجوم علىٰ بلگراد، وكان كلارك قد لمس القيود التي كان من شأنها أَن تُفْرض عليه، للمرة الأولى، حتى قبل بدء الحملة. ففي خريف 1998م حين كان قد تحدث مع ساسة الناتو عن حق مهاجمة أَهداف رئيسية في قلب مدينة بلگراد، كان قد تلقى الجواب صريحاً وواضحاً: **مستحيل استحالة مطلقة!**

كان للاتهام الذي درج الكثير من الأقوام الأُخرى من غير البيض علىٰ سَوْقه ضد المواقف السياسيَّة والعسكريَّة الأَمريكيَّة والغربيَّة، القائل بأن تلك المواقف تبقى علىٰ الدوام مطبوعة بطابع عنصري، بَعْضُ التبرير. فالأشياء التي كانت مسموحة علىٰ صعيد قصف العراق ـ وهو بلد عربي في التحليل الأخير ـ لم تكن مسموحة في أوروبا. كانت السياستان مختلفتان، وبما أنهما كذلك فإن قواعد القصف والاشتباك كانت متباينة. لو أقدم الغرب علىٰ اعتماد تكتيكات القصف الضارية نفسها ضد بلگراد من البداية مثلما فعلت ضد بغداد، لكانت المعارضة السياسيَّة في الغرب أكبر ولربما استطاعت أَن تجهز علىٰ حملة كوسوڤا كلها. ومع مرور الوقت تمت خَلْخَلة القيود والضوابط وجرت إِضافة أَهداف حسّاسة، ولكن فقط حين بدأ الإِخفاق يطل برأسه. لقد كانت وتيرة القصف ـ مدى سرعتنا في تثبيت المنصة ـ مسألة مهمة في حرب كوسوڤا. ثمة مسؤولون كبار في سلاح الجو بواشنطن تحدَّثوا عن فترة حَمْل أو اختمار الحرب، عن الحاجة لأَن تدوم الحرب فترة من الوقت دون نجاح، قبل أَن يصبح المدنيون، خصوصاً الأوروپيون، مستعدين لإِعطاء العسكريين الأَهداف التي كانوا يطلبونها.

لقد كانت جملة الانقسامات والتباينات الفاصلة فيما بين البلدان الغربيَّة، بين العسكريين والمدنيين، وبين هذا السلاح وذاك من أَسلحة القوَّات المسلحة، والمعلّقة كسيف ديموقليس فوق التحالف، حقيقية وواقعية إِلىٰ أبعد الحدود. فخلال الفترة التي كان فيها شورت غاضباً جداً من رئيسه في الأسابيع الأولى من عمليَّة القصف، كان كلارك قد فقد عملياً حق التحكم بقائمة الأَهداف. وما كان كلارك يخافه كثيراً بعد بدء الحملة هو حصول ضغوط متنامية هادفة إِلىٰ وقف لعمليَّة القصف، صادرة ليس فقط من الحلفاء الغربيين، بل ومن أناس موجودين في إِدارة كلنتون أَيضاً. كان كلارك مقتنعاً بأن من شأن أَي توقف، نظراً لهشاشة التفويض الذي كان يتمتع به، أَن يفضي إِلىٰ احتمال

استحالة استئناف حملة القصف مرة أُخرى. لقد شكَّلَ ذلك عبئاً ثقيلاً علىٰ وجدانه، وكان مستعداً لمقايضة غياب الكثافة في الحملة بحق استمرار القصف. ومما اعترف به لاحقاً أنَّه لم يصبح واثقاً من انعدام احتمال التعرض لخطر إِيقاف القصف إِلاَّ بعد حلول عيد الفصح الشرقي، بعد انقضاء حوالي أسبوعين ونصف علىٰ بدء عمليَّات القصف. كان كلارك مقتنعاً أَيضاً بأنَّه لو بادر إِلىٰ الانقضاض بقوة وكثافة علىٰ بلگراد في الليلة الأولى أَو الليلتين الأوليين، كما كان هو وآخرون قد أرادوا أَن يفعلوا، لكان الاحتجاج السياسي الصارخ في أوروپا قد تصاعد كثيراً وربما أَصبح قادراً علىٰ وضع حد قاطع للحملة كلها. وعندئذ فقد كان من شأنهما، هو وشورت، أَن يبدوا جزّاري بلگراد؛ ثم لا يلبثان أَن يصبحا، في نظر العالم، المصممين الرئيسيين لجميع أعمال الشر، بدلاً من ميلوسوڤيتش.

لا شيء من ذلك أرضى شورت. وقد كانت الحملة الجوية، كما تبين أخيراً، بالغة الضعف والهزال حتى اعتقد لبعض الوقت بوجود نوع من الاتفاق مع ميلوسوڤيتش. قام شورت، في الحقيقة، بإِبلاغ مساعديه بأن صَفْقة مع ميلوسوڤيتش قد تمّت علىٰ مستوى أعلىٰ منه باعتقاده. كان الناتو سيتظاهر بمتابعة حملة القصف لتوفير ما يكفي من الغطاء السياسي لميلوسوڤيتش حتى يتفاوض علىٰ خروجه من كوسوڤا دون إِثارة غضب الشعب الصربي ودفعه إِلىٰ الانقضاض عليه. كان سيبقى قادراً علىٰ أَن يقول للصرب إِنَّه قد حاول، ولكن الناتو كان قد أجبره علىٰ الانسحاب تحت ضغط القصف. كانت الأَهداف، بنظر شورت، أقل مما ينبغي، وهي الأَهداف الخطأ، فضلاً عن أَن من شأن الإِخفاق في المساس بما من شأنه أَن يؤذي ميلوسوڤيتش ويُلْحق الضرر بأدوات سلطته ـ بتر رأس الأفعى، حسب تعبيره ـ أَن يكون الآن قد بدأ يعمل ضد مصلحتنا. بدأ شورت يكره ما كان يقوم به من عمل. فالحملة حسب مسارها الجاري كانت بعيدة جداً عن تلك التي كان قد سبق له أَن هدد بها نظراءه حين

كان قد قال لهم أَن يجولوا علىٰ بلگراد ليلقوا عليها نظرتهم الأخيرة. كان من المفروض أَن تقوم الحملة بتسليط الضوء علىٰ إِرادة الناتو وتصميمه، غير أَن الناتو هذا، كان في الحقيقة، حسب رأيه، خائر العزيمة وكَشَفَ عن أَنَّه ضعيف ومتردد. في اليوم الثالث تعين علىٰ شورت أَن يعلّق استخدام مقاتلات الخلسة من طراز إِف ـ 117 بسبب الافتقار إِلىٰ الأَهداف المناسبة. ظل كلارك يطمئنه قائلاً له إِن مزيداً من الأَهداف علىٰ الطريق، إِن حقيبة هيو شلتون، رئيس هيئة رؤساء الأَركان، ملأى بالأَهداف التي لا ينقصها إِلاَّ تصديق الرئيس ـ أَو البيت الأَبيض علىٰ الأقل. رأى شورت أَن ذلك لم يكن كافياً لطمأنة الشباب والشابات ممن يؤدون مهمات التحليق في الأعالي تحت قيادته؛ لم يكن ثمة أَي معنى لوجود حقيبة ملأى بالأهداف علىٰ مسافة آلاف الأميال بل وعشرات آلاف الأميال بانتظار المعاينة والتصديق من قبل بعض المسؤولين السياسيين.

في إِحدى لحظات اجتماع الإِيجاز الخاص بالحملة، تجرأ ضابط شاب بنجمة واحدة في قيادته وقال له: «أريدك أيها الجنرال شورت ألا تعتبر الأَمر شخصياً، سيدي، ولكن يبدو لي أَن ما نفعله ليس إِلاَّ قصفاً عشوائياً لبعض الأهداف العسكريَّة دون أية استراتيجية متماسكة ومتناغمة، سيدي». فرد عليه شورت: «يا لَكَ من . . . حكيم، أنت محق بصورة مطلقة!». في مناسبتين اثنتين فكَّر بالاستقالة. أَمَّا ما إِذا كان قادراً فعلاً علىٰ الإِقدام علىٰ الاستقالة فأمر آخر، غير أَنّه كان شديد الملَل، الغضب، والإِحباط، مما جعله يتحدث، علىٰ الأقل، عن الموضوع، مع اثنين من مساعديه، هما الميجر جنرال گاري تركسلر والبريگادير جنرال راندي گلويكس. وقد حاولا، بدورهما، إِقناعه بالعدول عن الفكرة. فأي قائد جديد سيكون بحاجة إِلىٰ الوقت ليصبح خبيراً [مثله] بمثل هذه المهمة المعقّدة وليكسب احترام أَكثر مسؤولي الناتو العسكريين. ما من ضابط جوي كبير آخر كان مرشحاً بالضرورة لأَن يكون أنجح منه في التعامل مع كلارك، برأيهما، وما هو أَكثر أَهميَّة من كل ذلك هو أَن شورت لم

يكن قد خسر طياراً واحداً، مما كان يعني بأنه كان عاكفاً، رغم إحباطاته الكثيرة، علىٰ إتقان فن الاضطلاع بالمهمة.

بعد أسبوع واحد من بدء الحملة الجويَّة، بدا القصفُ فاشلاً أَو غير فعَّال، علىٰ الأقل. صحيح أَن طائرات الناتو كانت آمنة علىٰ ارتفاع خمسة عشر ألفاً من الإقدام، غير أَن القوَّات الصربية علىٰ الأَرض هي الأخرى كانت كذلك، آمنة. ثمة أدلة معينة أشارت إِلىٰ أَن الصرب كانوا يُنَبَّهون من قبل بعض الأصدقاء في مقر قيادة الناتو إِلىٰ الأَهداف المرشحة للضرب ومتى. (تبين أَن ذلك كان صحيحاً؛ كانت المعلومات تتسرّب من الناتو في الأَيام الأولى مثل الغربال). وكلارك الذي كان دائم الرغبة في الحصول علىٰ نقيض الرعد المتدحرج، خطة القصف في ڤيتنام، بات الآن عالقاً بين براثن خطة شديدة الشبه بتلك. فبلگراد لم تُضرب إِلاَّ بعد أَحد عشر يوماً. وبدلاً من اعتماد هجوم شامل بالغ الضراوة في البداية، هجوم قائم علىٰ دك جميع الأَهداف، وهو النمط الذي كان الأَمريكيون يفضلونه والذي كان في خطتهم الأصلية، جرى اختزال أعداد الأَهداف، أهميتها، وأعداد الطائرات، وتقليصها إِلىٰ حد كبير. فالحملة التي كانوا بصدد تنفيذها كانت، برأي الجنرال مايك ريان، رئيس أركان سلاح الجو، تعكس نظرة مفرطة التفاؤل إِلىٰ ما كان سيحدث: «نعم، ستكون سهلة، وستكون سريعة»[2].

أما الجدل الأوسع، ذلك الذي كان العسكريون من أَمريكا والناتو علىٰ حد سواء الطرف الخاسر فيه خلال الأسابيع الأولى من الحرب، فقد دار حول انتقاء الأَهداف. في كثير من الحالات كان الجدل بين المدنيين والعسكريين، في كل بلد علىٰ حدة، كما بين بلدان معينة مثل فرنسا وإِيطاليا ضد الولايات المتحدة وبريطانيا. كان جزء من الخلاف بين الأَمريكيين وبعض زملائهم

---

(2) **فرونتلاين**، 22/ 2/ 2000م.

الأَمريكيين ـ السياسيين خصوصاً ـ عائداً إِلىٰ نقاط التباين في المواقف الناشئة عن تاريخين مختلفين اختلافاً كبيراً. من جهة وقف أولئك الذين كانوا قد قَصَفوا من قبل؛ ومن الجهة المقابلة وَقف أولئك الذين كانوا أَهدافاً للقصف. فأَمريكا خلال الحرب العالميَّة الثانية، كانت، باستثناء پيرل هاربر، قد قَصَفَتْ دون أَن تتعرّض لأي قصف. أمَّا في أوروپا فإِن القصة كانت مختلفة تماماً. لقد كان التدمير الذي أَحدثته غارات القصف في الحرب العالميَّة الثانية تجربة محددة بالنسبة إِلىٰ صانعي القرار في الناتو. صحيح أَن بعضهم ربما كان صغير السن في تلك الأَيام، وبعضهم الآخر ربما سمعوا فقط بما حدث من أفواه آبائهم وأمهاتهم، غير أَن حساسيتهم إِزاء قَصْف مدينة أوروپية مثل بلگراد كانت أكبر وأقوى بكثير من حساسية الأَمريكيين. كان الألمان قد قصفوا بلگراد بداية الحرب العالميَّة الثانية في ليلة شهيرة زاخرة بالعنف والإِرهاب، وكان حوالي سبعة عشر ألفاً من اليوگوسلاڤيين قد قُتلوا. تلك كانت ذكريات نابضة بالحياة. بقي الألمان في الناتو شديدي الحرص علىٰ عدم الانجرار إِلىٰ أية عمليات قصف أخرى هناك.

في الأَيام الأولى من حرب كوسوڤا بدا وكأن كلاً من الطرفين قد ارتكب خطأً فادحاً إِذ دأب علىٰ التخفيف من شأن وخطورة نوايا وإِرادة الطرف الآخر. ففيما كان ميلوسوڤيتش قد استخف واستهان بالتأثير الدعائي لما كان يفعله في كوسوڤا علىٰ الرأي العام الغربي، خصوصاً عمليات التطهير والتكنيس العِرقيين، كان الغرب، بالمثل، قد استهان بمدى كون كوسوڤا أَكثر أَهميَّة من البوسنة، بما لا يقاس، فيما يخص بقاء ميلوسوڤيتش، وبأن هذا كان مستعداً لترك شعبه بالذات يعاني ويضحي قبل أَن يستسلم. كان التخلي عن كوسوڤا دون قتال ما نوعاً من الانتحار، بمنظوره السياسي الخاص، شبيهاً إِلىٰ حد كبير بمطالبة بيل كلنتون في 1995م باعتماد سياسات داخليَّة يعرف بالتأكيد أنها ستفقده فرص الفوز في كل من كاليفورنيا، نيويورك، پنسلڤانيا، وإِيلينوي في 1996م. غير أَن

ميلوسوفيتش كان متنبهاً إلىٰ نقاط ضعف الغرب وأكثر تركيزاً عليها بدلاً من الالتفات إلىٰ نقاط قوة هذا الغرب. لعل خطأه القاتل كان متمثلاً بعدم فهم مدى احتمال مساهمة أفعاله بالذات، آخر المطاف، في توحيد بلدان التحالف ضده بدلاً من تفريقها. كان يعلم أن الفرنسيين والإيطاليين لم يكونوا سعداء بقصف بلگراد، وأن الألمان كانوا مترددين بشأن الحملة الجويَّة. ربما كان ميلوسوفيتش يعقد الآمال علىٰ تمزّق صفوف الغرب أو علىٰ مبادرة الروس إلىٰ نجدته وإنقاذه. أمَّا ما بقي غافلاً عنه فقد تمثل بالتأثير العميق الذي تركته سياساته الهمجية والوحشية في الغرب بين صفوف أولئك الذين كانوا، دونها، مثقلين بالشكوك، وهي مواقف تعززت وترسخت جراء طرد آلاف الألبان من بيوتهم في بداية الحرب. مرة أُخرى عاد الرجل سلوبودان العنصري، مجرم الحرب ومحترف إبادة الجنس.

كان سلوبودان ميلوسوفيتش، في الحقيقة، أفضل استعداداً للحرب من الغرب بكثير. علىٰ امتداد عدد غير قليل من الأشهر كان قد انشغل بتحريك أعداد كبيرة من قواته النظامية، أجهزته الأمنية، ووحداته شبه العسكريَّة إلىٰ حدود كوسوڤا، استعداداً لما كان موقناً تقريباً بأنّه سيحصل: حَمْلة قصف ناتوية ولكن دون قوات برية تتصارع معه علىٰ الأرض. وبالتالي، ما إن بدأ القصف، حتى بادرت قواته إلىٰ اجتياح كوسوڤا لإزالة الألبان من الوجود، لتكنيسهم عن الأرض. كان قد تباهى مرة علىٰ مسامع كلارك قائلاً إن رجاله قادرون علىٰ تحرير كوسوڤا من سكانها الألبان خلال مدة لا تتجاوز الخمسة أيام. قال: «**فقط خمسة أيام. ذلك هو كل ما أنا بحاجة إليه!**» ما كان ميلوسوفيتش يأمل في مواجهة الحلفاء به، كما قال كلارك فيما بعد، هو: «أمر واقع قائم علىٰ قلب صورة كوسوڤا السكانية رأساً علىٰ عقب». كان عازماً علىٰ تطهير البلاد من الألبان، علىٰ إبطال الصفة الألبانية لكوسوڤا. هذا ولن يأتي الغرب لحماية الألبان لأن الألبان لن يعودوا موجودين.

كان سكان كوسوڤا ما قبل الحرب قد قُدروا بحوالي 1,8 مليوناً من ذوي الأصول الألَبانية. وقبل بدء حملة قصف الناتو أواخر آذار/ مارس 1999م، كان ما يقرب من ثلاثمئة ألف من الألبان قد أُجبروا علىٰ الرحيل من قراهم تحت ضغط عمليات الإغارة الصربية المبكرة التي بدأت في 1998م، حسب شهادات عدد من المنظمات غير الحكومية. والآن كانت الظروف قد أصبحت أقسى بكثير. ما كان الغرب شاهداً عليه لم يكن إلاَّ أرتالاً وسيولاً لانهائية من اللاجئين الألَبان، أرتالاً ممتدة إلىٰ ما وراء مدى البصر والأفق، سيولاً من الناس الذين أُخذت منهم أوراق هوياتهم وطُردوا من بيوتهم، متوجهين إلىٰ مصير مجهول وغير مرغوب، أرتالاً وسيولاً لا بشرية التقط صورها الثابتة والمتحركة جيشٌ من مصوري الصحف والقنوات التلفزيونية. وبعد بضعة أسابيع من بدء الحرب كانت التقديرات تقول بأن ثلاثة أرباع السكان الألَبان كانوا قد هربوا من بيوتهم، كان حوالي ثمانمئة ألف من البشر قد طُردوا من البلاد، وما يزيد عن خمسمئة ألف آخرين كانوا قد أَصبحوا لاجئين داخل كوسوڤا، مختبئين في الجبال.

الفصل الثاني والأربعون

بقي كلارك، علىٰ الرغم من عدم حصوله في الأَيام الأولى من الحرب علىٰ ما أراده من حيث الأَهداف والقوّات البرية، صامداً وواثقاً لأَنَّه كان يتفهم طبيعة المعادلة السياسيَّة التي كان الآن يتحرك من خلالها. فمنذ لحظة سقوط قنابل الناتو الأولى علىٰ الأَهداف الصربية وبدء الحرب فعلياً، كان يعلم أَن تمتعه بالسيطرة، بحق الإِمساك بمقبض السوط، مشروط بعدم الإِقدام، **بصورة علنية ومكشوفة**، علىٰ إِثارة غضب المدنيين والعسكريين (ربما كارثة شبيهة بكارثة الصومال، حيث يتعرض عدد كبير من جنود الناتو للقتل في عمل طائش فيجري تصويرهم بكاميرات الڤيديو وعرض جثثهم علىٰ شاشات قنوات التلفزيون القوميَّة). لقد كان هو **القائد** الآن، ولم تكن واشنطن، بوجهيها المدني والعسكري، مستعدة لخسارة الحرب، كما لم تكن، في حال بقاء النصر أو الهزيمة معلقين، مستعدة أَيضاً لحرمان القائد مما كان بحاجة إِليه. كان ذلك يعني أَن جزءاً حاسماً من مهمته، جزءاً لم يتم البوح به قط ولكنه موجود دائماً، خصوصاً في هذا الوقت ومع هذه الإِدارة، كان متمثلاً بإِبقاء الخسائر البشرية والطائرات في الحدود الدنيا، وهو أمر نقله إِلىٰ مايك شورت ـ وكأن الأخير، كما قال لاحقاً بغضب، كان غير مهتم بالإِصابات في غياب تلك التحذيرات.

وبالتالي فإِن كلارك بات، نظراً للآلية التي كانت قد أُطْلِقَتْ، يعلم بأن

المعادلة كانت قد تغيّرت بصورة نهائية وأَصبحت تميل لمصلحته. ثمة كانت نقطتان سياسيتان كانتا تشكلان موضوعي رهان. لم تكن واشنطن ستخسر، أولاً؛ وإذا لم تكن تعرف ذلك، بَعْدُ، فإنّها كانت ستكتشفه عاجلاً أو آجلاً مع انخراطها أكثر فأكثر. ولم تكن واشنطن، ثانياً، تريد، إذا ساءت الأحوال، أَن يتم تصويرها وكأنها لم تزوِّد قائداً بما هو بحاجة إليه للقيام بالمهمة، وهو أمر لم يكن كلارك، بالمناسبة، ضد تذكير الجنرال هيو شلتون به، مما أدى إلىٰ جعل علاقتهما، غير المثالية أساساً، حتى أَكثر توتراً. ربما لم يكن أقران كلارك في واشنطن مستعدين للتسليم بالمنطق الأصلي الكامن وراء الحرب ـ منطق وقف ميلوسوڤيتش وحماية الأَلبان ـ غير أَن ذلك كان من شأنه أَن يتغيّر بصورة درامية مثيرة إذا ما بدأت الأمور تسوء. كان من شأن حجتي الأَمن القومي والقضايا الإنسانية أَن تخليا مكانهما لاعتبارات أُخرى: ذاتية إدارة كلنتون (ومعه بلير)، غرورها، ومكانتها في التاريخ، والحاجة إلىٰ إثبات أَن الناتو لم يكن قد هُزم علىٰ يد دكتاتور متبجح. وعندئذ كان كلارك سيحصل علىٰ المزيد مما كان يريده: أَهداف أَكثر أَهميَّة بل وربما قوات برية ذات يوم. فمن طبائع الحرب أَن تنتقل السلطة إليه. وكلارك لم يكن قائداً سنة للقوات الأَمريكيَّة فقط بل وكان قائداً أعلى لقوات التحالف في أوروپا، مما ضاعف من نفوذه. علىٰ الرغم من أَن القادة العامين كانوا أقوياء علىٰ الدوام، فإن تلك القوَّة ما لبثت، مع إقرار قانون گولدووتر ـ نيكولز لسنة 1986م، أَن تعزّزت كثيراً علىٰ حساب رؤساء الأركان المشتركة. فهذا القانون كان قد استهدف تنظيم القيادة وتعظيم المرونة المتاحة للقادة الميدانيين في الرد، فضلاً عن أَن الارتباك بشأن غارة الهيلوكوبتر الفاشلة التي كانت قد صُممت لإنقاذ الأسرى الأمريكّين في طهران سنة 1980م كان قد عجل به.

غير أَن تأثير القانون السياسي علىٰ هيكلية القيادة كان قد فاجأ الكثير من العسكريين من داخل المؤسسة. فيما مضى كان منصب قائد هذا السلاح أَو ذاك

ـ رئيس أركان القوّات البرية أو رئيس العمليات البحرية ـ المكافأة الكبرى لأية حياة مسلكية ناجحة. غير أن قانون گولدووتر ـ نيكولز غيّر ذلك، إذ قضى بمضاعفة صلاحيات ونفوذ القادة وجعل مهمة رئيس السلاح أقرب إلىٰ مواقع الدعم والأمور اللوجستية. فسائر المكافآت الحقيقية والنعم ـ جميع المتع، إذا جاز التعبير ـ باتت عائدة إلىٰ القائد العام، كما قال أحد المحللين العسكريين، في حين «أصبحت جميع الأعمال القذرة والوضيعة من اختصاص رؤساء الأسلحة». فبين الرؤساء لم تتعزز سلطة أحد سوى رئيس الهيئة بموجب قانون گولدووتر ـ نيكولز، علىٰ الرغم من أن السلطة كانت تميل، لدى الشروع بإطلاق النار، للانتقال إلىٰ القائد العام لأنّه كان هو الرجل الموجود في الميدان، علىٰ الساحة. لقد تمتع كولن پاول بقدر كبير من الصلاحيات في أثناء الأزمة العراقية حتى لحظة اندلاع الحرب، حيث بدأ النفوذ يتدفق باتجاه القائد العام، نورمان شوارتزكوپف.

في البداية وقع كلارك، مثل الآخرين، وبصورة شبه مؤكدة، في خطأ الاستخفاف بمدى مقاومة ميلوسوڤيتش. من الصعب بعد الصومال وضع اليد علىٰ المحاضر الدقيقة، لأن جهداً مدروساً تم بذله لا لحفظ المحاضر والسجلات الدقيقة لما قيل وما وُعد من جانب كل من المشاركين. غير أن كلارك ما لبث، منذ لحظة إطلاق الحملة، أن فرض قيادته من منطلق نوع فريد من التصميم، الذكاء، والمهارة، متعاملاً مع مختلف الأجهزة المعقدة جداً والصعبة إلىٰ أبعد الحدود التابعة له بقدر كبير من الحنكة والبراعة، موقناً تمام اليقين بأنه لن يلبث، مع الوقت، أن يحصل علىٰ الجزء الأكبر من مطالبة، لأن الخوف الكبير من كل من واشنطن والعواصم الأوروپية سيصبح في النهاية متمثلاً بالهزيمة. سرعان ما بدأ يطالب بالقوّات البرية، لأنه كان بحاجة إليها (أو إلىٰ التهديد بالحصول عليها علىٰ الأقل) من جهة، ولأنه كان يعلم من جهة ثانية أنه، في ظل الآلية المعقدة التي تنشأ بين أي قائد ميداني من ناحية ورؤسائه

وأقرانه في واشنطن من ناحية ثانية، كان سيحصل علىٰ شيء آخر في حال عدم مبادرة أولئك الرؤساء والأقران إلىٰ تلبية طلبه. لن يكونوا مستعدين للتسليم بتعرض الناتو للهزيمة في الحرب الحقيقية الأولى التي يخوضها في تاريخه». فقد قال أَحد أصدقاء كلارك الحميمين: «ما كان وَسْ يعرفه، لأنه بالغ الذكاء ومتقدماً كثيراً علىٰ معظم الآخرين من الجانب العسكري، هو أنه، إذا ما أعطوه ورقة ضعيفة في البداية، كان علىٰ الدوام يستطيع أَن يحولها في اللعب إلىٰ ورقة قوية. قد يكون الأَمر صعباً ولكنه كان يعلم بأنه قادر علىٰ فعله. لم يكن يعرف نقاط ضعف ميلوسوڤيتش فقط، بل وقد كان في الوقت نفسه يعرف نقاط ضعف واشنطن أَيضاً».

أدى ذلك إلىٰ انخراطه في صراع متواصل مع كوهن الذي كان، مثل رؤساء الأَركان المشتركة، مفعماً بالشكوك واستثنائي الحذَر بشأن مسار التحرك في صربيا. غير أَن الآلية كانت الآن قد تحولت. كان كلارك، بوصفه الرجل الموجود في الميدان، متمتعاً بنوع خاص من النفوذ الموازي أَو حتى المضاهي لنفوذ كبار مسؤولي الپنتاگون. كان المفروض أَن يكون كلارك وكوهن حليفين، غير أنهما كانا سيصبحان غريمين، أكثر بكثير من العلاقة العادية، المتوترة أحياناً بين أَي قائد عام ووزير الدفاع. كانت المفارقة الساخرة كامنة في حقيقة أَن كوهن هو الذي كان قد اختار كلارك للمنصب، رغم معرفته المؤكدة بالمقاومة المؤسساتية القوية التي كان يواجهها داخل الجيش. فعلىٰ الرغم من أنّه كان يعرف بأن بعض التقليديين في الجيش كانوا يعتبرون كلارك مسيَّساً أكثر مما ينبغي، تأثر كوهن بذكاء كلارك الصافي وبقُدْرته علىٰ التعامل مع الفريق الدبلوماسي، هذه القدرة التي ستكون منطوية علىٰ أَهميَّة كبيرة في بروكسل. غير أَن العلاقة بين الرجلين ما لبثت، تحت ضغط خطة باتت معرَّضة لقدر غير قليل من الخطر، أَن بدأت تتمزّق أشلاء. فبنظر كوهن، كان كلارك يضعه في موقف الصراع الدائم مع كبار مسؤولي المؤسسة العسكريَّة الآخرين، الذين

كانوا معارضين لأي تصعيد إِضافي في البلقان، خصوصاً لاستخدام القوّات البرية. كان من شأن ذلك أَن يجبر كوهن علىٰ الوقوف ضد الپنتاگون في قضايا كانت لديه هو نفسه شكوك جدية بشأنها. ولعل ما هو أسوأ هو أَن كلارك كان يبدو بعيداً عن متناول يد كوهن، حسب تصور الأخير، ودائباً علىٰ الإلتفاف عليه. غير أَن تسلسل كلارك القيادي الخاص كقائد عام لم يكن يمر عبر هيئة رؤساء الأَركان المشتركة؛ بل كان يوصله بوزير الدفاع مباشرة.

سرعان ما انقلبت العلاقة بينهما إِلىٰ كارثة. فحتى بعد بدء القصف لم يكن كلارك قادراً قط، كما سيشكو لاحقاً، علىٰ التحدث مع كوهن حول أمور جوهرية. وكلما كان يبادر إِلىٰ الاتصال بالوزير لإِطلاعه علىٰ مشكلاته، كان كوهن يتملص منه ويحاول دفعه إِلىٰ العسكريين قائلاً: «من الأفضل أَن تفاتح هيو بذلك»، عازفاً بوضوح عن الوقوع بين فكي كماشة قائد عام ناشط وحركي من جهة وقيادات عسكريّة عليا أَكثر حمائمية. وقد استنتج كلارك، بدوره، أَنَّه كان يتعرض للصد من قبل شخص يُفترض فيه أَن يدعمه وراح يلتمس العون من جهات أُخرى. قال كلارك لبعض الأصدقاء إِن التعامل مع كوهن كان الاختبار المسلكي الأسوأ الذي سبق له أَن عاشه منذ مواجهته مع جاك هوداشك حين كان قائد فوج شاب. كان الشعور نفسه يراود كوهن عن كلارك، إِذ قال مرة لبعض مساعديه: «ألعن اليوم الذي جعلته فيه قائداً لقوات التحالف في أوروپا».

ما من أَحد تمكّن قط من معرفة السبب الكامن وراء هذا التدهور الشديد للعلاقة بين الرجلين. من المؤكد أَن جزءاً من السبب كان كامناً في القضية المرعبة التي كانا يواجهانها، قضية اتخاذ قرار بدخول حرب في حين كان الجيش مشحوناً بالشكوك وكبار المدنيين مفتقرين إِلىٰ ما يكفي من الثقة، مما أبقى عمليّة صنع القرار مُغَلَّفة عن قصد بكتلة كثيفة من الضباب والغموض. غير أَن جزءاً آخر من السبب كان شخصياً أَيضاً، لأَن بعض الناس الذين يعرفونهما جيداً كانوا يرون أَنّهما متشابهان كثيراً. كل منهما كان شديد الثقة بقدراته

وعَقْله، كل منهما كان أَكثر من عنيد، يابس الرأس، إِذا جاز القول، ميّالاً إِلىٰ الاقتناع بأنه أذكى وأشطر ولو قليلاً من جميع الآخرين الموجودين في المؤسسة التي يعمل فيها. وجراء الإِحباط الذي أصيب به من مواقف كوهن ورؤساء الأَركان سارع كلارك إِلىٰ تطوير آليات حركة خاصة به مما زاد من غيظ الناس الموجودين في واشنطن وغضبهم منه أَكثر فأَكثر. بات رؤساء الأَركان مقتنعين بأنه كان يتحدث مع الناس الموجودين علىٰ الضفة الأُخرى من النهر، مطلعاً أولبرايت وبيرگر علىٰ أشياء كان يتعين عليه، بنظرهم، أَن يتكتم عليها، ساعياً باستمرار إِلىٰ كسب المزيد من التأييد لزهره، برأيهم، في لعبة تعين عليهم جميعاً أَن يلعبوها. ومما قيل إِن كوهن كان يرفع السماعة ليتحدث مع أولبرايت أَو بيرگر ليسمع نتفاً من المعلومات المؤهلة لتقويض موقف الپنتاگون، تلك المعلومات التي كان يتعذّر عليها أَن تأتي من أَي مصدر آخر غير كلارك.

ولم يكن كبار المدنيين أَيضاً، باستثناء أولبرايت، شديدي الحماس للتجاوب مع الضغوط الدائمة التي كان كلارك دائباً علىٰ ممارستها لدفعهم إِلىٰ فعل ما هو أَكثر. قد يكون واحداً منهم، ولكن كل واحدة من لكزاته كانت تذكّرهم بأن خطتهم كانت في خطر، وبأن المنتقدين العسكريين، الذين ظلوا علىٰ الدوام يسألون عما كان ممكناً حدوثه إِذا لم تفعل القوَّة الجويَّة وحدها فعلها، ربما كانوا علىٰ صواب. هذا ولم يكن بعض كبار المسؤولين في الپنتاگون متعاطفين مع القائد العام للتحالف في أوروپا. كان كلارك، بنظرهم، مندفعاً ذاتياً. لقد أصرّ علىٰ خوض حرب كانت حسب تقاليد الجيش استخداماً في غير مكانه للقوة الأَمريكيَّة وانتهاكاً صارخاً لكل مبدأ من مبادئ العقيدة الپاولية، التي كانت تحظى بتبني الأَكثرية. إِذا كان وَسْ كلارك يعاني من مشكلات كثيرة صنعها بيده هو هناك، فليس أمامه إِلاَّ أَن يتحمّل العواقب.

ما كان يحدث في الصراع علىٰ كوسوڤا كان شيئاً جديداً، حرباً افتراضية

من علو يصل إلىٰ خمسة عشر ألفاً من الأقدام ويزيد. كانت حرب إبادة حشرات [زراعية] يتم خوضها بالتحكّم عن بُعد، دون إصابات إذا كان ممكناً، أَو، أقله، دون إصابات بالنسبة إلىٰ الطرف ذي المستوى الأعلى تكنولوجياً. لقد كانت، برأي أولئك الذين اضطلعوا بأدوار شهود العيان وكانوا متمتعين بما يكفي من الحظ أَو انعدام الحظ حتى يكونوا قريبين من مواقع القصف، سريالية حقاً، فطائرات الناتو كانت تحلّق عالياً جداً حتى أنها لم تُر قط، رغم أَن ومضات سريعة للقذائف ذاتها كانت تبرق بين الحين والآخر ولو بصورة نادرة وهي تسقط، ثم كانت أصوات الانفجارات تدوي وتصم الآذان. كان طيارو قاذفات البي ـ 2 المكلّفون بتنفيذ المهمات موجودين في ولاية ميزّوري، وكانت مشكلة بعض أفراد الطواقم متمثّلة بما إذا كانوا سيعودون في الوقت المناسب لمتابعة مباريات كرة القدم أَو البيسبول التي كان أولادهم ينظمونها. لقد كانت حرباً مثلما تخيلها جورج أورويل أو هـ. ج. ويلز: طائرات خفية تنطلق إلىٰ تنفيذ مهماتها من قواعد متقدمة علمياً في مكان آخر، لتختار أَهدافاً غير مرئية علىٰ شاشات تكنولوجيا عالية فتطلق عليها أَسلحة تدمير موجهة بالليزر أَو الصور الضوئية. من الواضح أَن الحرب، وهي مستقبلية بصورة مذهلة في أعين أولئك الذين سبق لهم أَن قاتلوا في حروب أُخرى، كانت جديرة بروايات الخيال العلمي. لم يكن ينقصها، علىٰ ما يبدو، سوى أشخاص آليين [روبوتات] جالسين في مقرّات القيادة عاكفين علىٰ انتقاء المواقع و[روبوتات] آخرين يتولون قيادة الطائرات، علىٰ الرغم من أَن الواقع، في حالة صواريخ التوما هوك الدائرة بأشرطة الڤيديو في أدمغتها الإلكترونية، كان قريباً جداً من الصورة المستقبلية. ومن المفارقات الساخرة أَن الحرب لم تكن تسير علىٰ ما يرام علىٰ الرغم من أَن تكنولوجيا الطيران الحديثة كانت تؤدي وظيفتها بصورة ممتازة ـ فوق جميع التوقعات ـ لا لشيء إلاَّ لأَن قوائم الأَهداف كانت محدودة.

إِنه عصرٌ جديدٌ في الحرب، وكان سلاح واحد يمثِّل المدى الواسع من التغيير الحاصل في شؤون الحرب في غضون ثمانية سنوات فقط، ألا وهو السلاح المعروف باسم قاذفة الخلسة طراز بي ـ 2. فطيارو هذه الطائرات وأطقُمُها الموجودون في قاعدة ويتمان الجويَّة بولاية ميزّوري كانوا يستطيعون أَن يغادروا منازلهم والانطلاق إِلىٰ رحلتهم البلقانية ذات الساعات الأربع عشرة، مخترقين الأجواء الصربية دون أَن يشاهدهم أَحد ليلاً تماماً مثل ما كانت مقاتلات إِف ـ 117 قادرة علىٰ أَن تفعل قبل ثماني سنوات فقط فوق العراق. لقد كان هؤلاء قوة قتالية مشاركة في الحملة قادرة علىٰ أَن تعود لتنام في أَسِرَّتها ليلاً ثم تعود لتنتقل من حياة السلم إِلىٰ حياة الحرب فوق قارة بعيدة، ثم تؤوب ثانية إِلىٰ البيت بعد يوم واحد.

ثمة كانت شكوك ونقاشات كثيرة، علىٰ أية حال، حول صلاحية قاذفات البي ـ 2 وفاعليتها. كثيرون تساءلوا عن مدى نجاح تكنولوجيا الخلسة بصورة فعلية، بمن فيهم بعض طياري مقاتلات الإِف ـ 117 أيام حرب الخليج. بل وقد حامت شكوك أكبر حول قاذفات البي ـ 2. فبعض النقاد زعموا أَنّها غير مؤهلة للطيران في الأجواء الماطرة، وثمة آخرون قالوا إِنّها لعبة باهظة الثمن. حين كان عضو كونغرس متنفذاً، كان لَسْ آسپن متشككاً وقد حاول وضع قيود صارمة علىٰ إِنتاجها.

فيما كان إِعدادها لعمليَّة كوسوڤا جارياً، ظلت الشكوك حول البي ـ 2 حائمة. جرى استثناؤها من عمليَّة ثعلب الصحراء، تلك الحَمْلَة الجويَّة القصيرة ضد العراق منتصف كانون أول/ ديسمبر 1998م، خوفاً من فقدان واحدة منها. وقد كان الخوف نفسه لا يزال موجوداً عشية حملة كوسوڤا. هذا وقد كان لِوَسْ كلارك، هو الآخر، شكوكه، غير أَن تقارير موجزة مقنعة صادرة عن الضباط الأَكثر شباباً من المضطلعين فعلاً بقيادة هذه الطائرات ما لبثت أَن طمأنته. أَمَّا علىٰ أعلىٰ مستويات الپنتاگون فقد كان الأَمر مختلفاً. وقبيل بدء قصف كوسوڤا

قال كلارك لمايك شورت: «تعلم أَن هناك أشخاصاً علىٰ مستويات عليا جداً في سلاحك بالذات لا يريدون استخدام البي ـ 2». رد شورت مؤكداً أَن رئيسه مايك ريان لم يكن منهم. وافقه كلارك قائلاً بلهجة فيها شيء من السخرية إِنَّه جو دالستون، نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة، مضيفاً «يخاف جو من فقدان إِحداها»[1].

ولكن، مهما تكن الشكوك الباقية حول قاذفات البي ـ 2، فسرعان ما جرى تبديدها، وما لبثت هذه الطائرات أَن أَصبحت النجوم الساطعة في سماء حرب كوسوڤا. قامت بحمل العبء في أسابيع القتال الأولى حين كان الطقس سيئاً وتعيّن إِلغاء حوالي أربعة آلاف طلعة جويَّة بطائرات أخرى. إِجمالاً، لم تقم طائرات البي ـ 2 إِلاً بـ3 بالمئة من المهمات ولكنها ضربت 33 بالمئة من مجموع الأَهداف. أَضفَت علىٰ الحرب بُعداً جديداً من أبعاد التفوق والامتياز التكنولوجيين، بُعداً بدا واضعاً مسافات أطول بين المقاتلين وخصومهم.

حتى وهي تقلع من المدارج وتنطلق باتجاه البلقان كانت الوسائل الجديدة المتطورة جداً دائبة علىٰ تعقب ما يجري في ميادين القتال عبر الأقمار وطائرات التجسّس وتدخل معلوماتها في نظام متصل بدماغ طائرات البي ـ 2. طياران كانا سيتوليان قيادة الطائرة، أَحدهما يخلد إِلىٰ الراحة فيما الثاني يضطلع بمهمات التحكم. كانا سيضربان الهدف، يعودان إِلىٰ ويتمان، ويحاولان تعويض بعض ما فاتهما من نوم فيما يبادر زوجان آخران من الطيارين إِلىٰ أداء وظيفتهما في جولة القصف التالية.

كانت القذائف التي يسقطونها تُعْرَف باللغة العسكريَّة المعقّدة باسم **الجامات** JDAMs أو قذائف الهجوم المباشر المشتركة. كانت قنابل ذكية، موجهة بدقة ومختلفة عن الصواريخ لأنّها لم تكن مزوّدة بطاقة ذاتية. وهذه

---

(1) مقابلتان مع شورت وكلارك؛ گرانت، **طائرة البي ـ 2 تدخل الحرب**، 31.

الجامات كانت قنابل تزن الواحدة منها ألفين من الأرطال الإنكليزية قادرة علىٰ إصابة أَهدافها بدقة مدهشة مع بقاء الأضرار الجانبية قليلة نسبياً. لقد تقلّص نصف قطر دائرة التسديد الدقيق كثيراً، حتى أَصبح ما هو أقل من بضع أقدام، في حين تضاعفت قوة الضرب بالقدر نفسه تقريباً من الإِدهاش في غضون فترة ثماني سنوات فقط. كانت طائرات الإِف ـ 117 التي كانت قد حلَّقت فوق العراق تدعى مقاتلات، غير أنّها كانت في الحقيقة قاذفات صغيرة لا تستطيع أَن تحمل إِلاَّ قنبلتين من ذوات الألفين من الأرطال الإنكليزية. أَمَّا قاذفة البي ـ 2 فتستطيع أَن تحمل ست عشرة قنبلة، مضاعفة قوة الضرب ثماني مرات علىٰ الأقل. غير أَن كون كل واحدة من القنابل موجهة بدقّة أكبر بما لا يقاس ومحشوة بمتفجرات أقوى بكثير ـ فقنبلة خمسمئة رطل في 1999م كانت أَكثر تدميراً من نظيرتها في 1991م، مثلها مثل القنبلة ذات الألفي رطل بسبب المتفجرات الأقوى تدميراً ـ ربما أَدَّى إِلىٰ جعل القدرة الهجومية مضاعفة أَكثر من ثماني مرات.

لم تكن قذيفة الجام نفسها إِلاَّ ابتكاراً تكنولوجياً بسيطاً ولكنه مهم، قشرة قنبلة ذكية تقوم، لدى ربطها بقنبلة صماء، بتمكين هذه الأخيرة من التجاوب مع نظام مَوْضَعة كوكبي لأجهزة التحكّم الملاحية. كان بيل پيري قد دفع ببرنامج الجام قدماً بعد امتطائه لإِحدى طائرات البي ـ 2 في 1995م. فبعد انبهاره بالطائرة، صُدم حين اكتشف أَن الذخائر المناسبة لن تكون متوفرة، فأصدر أوامر استثنائية للتعجيل بتنفيذ برنامج الجام وجعله في المراتب الأولى من الأولوية، وهو قرار كان سيتمخض عن ثمار رائعة في 1999م.

كانت القنابل والصواريخ الجديدة أذكى من نظيرتها القديمة، مستخدمة أنظمة المَوْضَعة الكوكبية ومحققة قدراً أكبر من الدقة، مع إِدخال معلومات الدقيقة الأخيرة في أدمغة طائرات البي ـ 2 حتى وهي متجهة في الجو نحو أَهدافها. في الحقيقة بات الصفائيون الآن يعتبرون هذا نموذجاً للقوة **الفضائية** لا

الجويَّة، لأَن أهميَّة تكنولوجيا الفضاء مستمدة من الأقمار الاصطناعية. فالبي ـ 2 والإِف ـ 117 الأصغر، كلتاهما، شبيهتان بالوطاوط أَو الخفافيش، ولكن الأولى، البي ـ 2، بجناحها البالغ 172 قدماً، كانت أشبه بخفاش معلوف بالمواد الدهنية. كانت الطائرتان، كلتاهما تتطلبان سطوحاً مقاومة للرادار وقد صممتا بما لا يترك مجالاً لوجود سطوح مستوية قابلة لعكس أشعة الرادار علىٰ المرسل. وبالتالي فإِن أجهزة الرادار المعادية الراغبة في ممارسة لعبة الپينگ ـ پونگ مع الطائرة المعادية، كان تُجبر، بالفعل، علىٰ لعب الكرة الطائرة مع نفسها، لأَن أَحداً لم يكن يرد الطابة. وكذلك فإِن قاذفات البي ـ 2، مثلها مثل مقاتلات الإِف ـ 117، جيدة التحكم بالانبعاثات وتحمل قذائفها داخل حاويات قنابل حتى لا تطلق أية إِشارة.

صُممت البي ـ 2 لتبدو مثل طائر صغير علىٰ شاشة رادار العدو بدلاً من أَن تظهر بوصفها قاذفة جهنمية التدمير بصورة استثنائية. أَو كما قال أَحد ضباط الطيران، لم تظهر علىٰ شاشة الرادار كوزَّة لأنها كبيرة جداً، بل أشبه بعصفور دوري علىٰ الأَكثر. لقد شكَّل المدى الذي بلغته تكنولوجيا الخلسة من النجاح مفاجأة حتى بالنسبة إِلىٰ أكثر مؤيديها حماساً. صحيح أَن طائرة خلسة واحدة، مقاتلة من طراز إِف ـ 117، قد أُسقطت في المراحل الأولى من الحرب، ولكن سلاح الطيران استنتج لاحقاً أَن الطائرة لم تكن هشّة إِلاً لأَن بعض الطيارين، في الأَيام الأولى من القتال، لم يغيروا ترتيبات إِقلاعهم وطاروا جولات متكررة. وكان الصرب قد نشروا مراقبين حول قاعدة آڤيانو الجويَّة، حيث كانت طائرات الإِف ـ 117 مرابطة، فباتوا يعرفون بصورة تقريبية مواعيد إِقلاعها، وصاروا، حسب أقوى الاحتمالات، يقطعون خط الطيران بحاجز ناري قائم علىٰ التوقع.

لعل أَحد أَكثر نجاحات البي ـ 2 شهرة هو ذلك الذي تم ضد جسر نوڤي ساد في قلب مدينة بلگراد. إِن الجسور أَهداف مشهورة بصعوبتها، خصوصاً

تلك الموجودة في المناطق الحضرية حيث تكون الدفاعات المضادة للطيران كثيفة. ثمة جسور معينة في ڤيتنام الشمالية كانت باهظة التكاليف بصورة متطرفة، حيث كان واحد منها هدفاً لقنبلة الليزر البدائية الأولى التي تطلبت طائرتين واحدة لإلقاء القنبلة والأخرى للتحكّم بتوجيه الليزر إلىٰ الهدف. حتى طيارو البي ـ 2 كانت تراودهم الشكوك حول إمكانية ضرب جسر نوڤي ساد. إلاّ أنّه ما لبث أن تبين أن قاذفة بي ـ 2 واحدة تمكنت من إزالة الجسر من الوجود في غارة واحدة فقط عبر إسقاط ثمانية جامات ـ ستة في الوسط واثنين علىٰ الطرفين.

لعل خطأ القصف الأكثر فضائحية للحرب اقترفته أيضاً قاذفة بي ـ 2 التي أغارت علىٰ بلگراد ليلة 7 ـ 8 أيار/مايو. تمثل الهدف بمركز ميلوسوڤيتش اللوجستي، الهدف رقم 493، إدارة الإمداد والتموين الاتحادية. غير أن خطأً في العنونة بين الهدافين أدى، في الحقيقة، إلىٰ ضرب مبنى السفارة الصينية. قُتل أربعة من جهاز العاملين في السفارة، وتفجرت أزمة دبلوماسية كبيرة. لقد شكّل ذلك تذكيراً بأن الروعة والتألّق التكنولوجيين ما زالا تحت رحمة هشاشة الإنسان.

تم استخدام قاذفات البي ـ 2 في اليوم الأول من القصف وأثبتت أنها أداة الحرب الجديدة الأفعل. كانت قادرة علىٰ استغلال جُل التكنولوجيات الجديدة. فقد نجحت ليس فقط في مراوغة دفاعات الصرب الرادارية، بل وتبين أن جزءاً كبيراً من قيمة هذه الطائرات الفريدة كان متمثلاً باستحالة تأثّرها سلباً بالأحوال الجوية السيئة. فهي قادرة علىٰ التحليق في جميع أشكال الطقس وعلىٰ الاهتداء دائماً إلىٰ أهدافها. صحيح أن قنابل الليزر التي تحملها طائرات أخرى قد تبقى مقيدة بالأحوال الجوية، حيث الغيوم تتطفل علىٰ تكنولوجيا الليزر، غير أن قذائف الجام، الموجهة بتكنولوجيا نظام الموضعة الكوكبي GPS، كانت فعّالة علىٰ الدوام. لم يتم إلغاء إلاّ مهمة بي ـ 2 واحدة بسبب الطقس، لأن طائرات الدعم لم تكن قادرة علىٰ التحليق.

من جميع النواحي شكّلت كوسوڤا مأزقاً عسكرياً جديداً كلياً. فلعدم رغبتنا في استخدام القوات البرية، حصرنا أنفسنا بالتعويل على الطيران وحده. غير أن طبيعة هيكلية القيادة متعددة الأطراف والخوف من المبالغة في معاقبة الصرب، على الرغم من قدرتنا على تدمير بنية ميلوسوڤيتش التحتية في أيام قليلة، تمخضا عن فرض قيود قاسية على استخدام التكنولوجيا الحديثة المرعبة. ومع ذلك فإن الآلية العسكرية الأمريكية ـ الناتوية، ذات الجبروت الهائل، التي تحفظت في استخدام القوة واختيار الأهداف، كانت معرّضة لتهم الاتصاف بالوحشية والقسوة. وعلى الرغم من أن الحرب بدأت بسبب وحشية ميلوسوڤيتش في التعامل مع الألبان، فإن ما بات جزء كبير من العالم شاهداً عليه بعد فترة وجيزة هو مشهد قيام دولة كبرى، غنية، متقدمة تكنولوجياً **بقصف** بلد صغير، فقير، وبطريقة تبين أنها غير مستعدة للقبول بوقوع إصابات في صفوفها. مهما كانت خطة أمريكا والناتو مبرّرة بنظر أولئك الذين أجازوا تطبيقها، فإن الصورة لم تكن جذابة بالنسبة إلى ملايين الناس في البلدان الأُخرى ممن جلسوا يتابعون أحداث العمليَّة على شاشات أجهزة التلفزيون في بيوتهم.

عند انقضاضه على ألبان كوسوڤا كان ميلوسوڤيتش جالوتاً Goliath؛ أما الآن فما لبثت الأدوار، مع الشروع باستخدام سلاح طيران الناتو، أن انقلبت رأساً على عقب. باتت أمريكا، القوة العظمى الوحيدة، هي جالوت، في حين انقلب ميلوسوڤيتش، بحركة مستحيلة، إلى داود في عالم لا يميل قط إلى مناصرة جالوت والتهليل لانتصاراته. حتى في أمريكا، ثمة بعض الصقور تقليدياً تحدّثوا بلهجة انتقادية عن المرتكز الأخلاقي للحرب، عن حرص الناتو وأمريكا على إعطاء أرواح مقاتليهما قيمة أكبر مقارنة بأرواح المدنيين على الأرض.

في الأسابيع والأشهر الأولى من الحرب حين كان الناتو يكافح بصعوبة دون نجاح ملموس، لم تبد الحرب حرباً تخص بيل كلنتون. لبعض الوقت

بدا، وهو المعروف بأنه مولع بالمسارعة إِلىٰ استخدام قنوات التلفزة القومية سلاحاً في أية أزمة، كبيرة كانت أم صغيرة، من أجل إضفاء لمسة حَنان رئاسية جاهزة وبارعة، مضطلعاً بدور الرجل الخفي، مقلِّصاً، بصورة مدهشة، فرص ظهوره للملأ. فبعد إدلائه بذلك التصريح الأول الذي أبلغ فيه البلاد بأننا كنا سنقصف الصرب، أصبح فصَّ ملحٍ وذاب. كان قد أجاز الضربة العسكرية، باتت البلاد في حرب، شاءت أن تعترف بالحقيقة أم لم تشأ، كانت قاذفاتنا تضرب أهدافاً في أوروپا يومياً، وكانت البلاد تتابع حياتها الاعتيادية. كان شيئاً مذهلاً بجدَّته ـ **كانت حرباً وقت السلم، حرباً في زمن السلم**. ورئيس الجمهورية، النَّفُور، بطبعه وتنشئته، من استخدام القوة، بدا متوارياً تهرباً من تحمّل مسؤولية ما يحصل أمام الجمهور، عازفاً عن المبادرة إِلىٰ الدفاع عن هذه العملية أمام الشعب الأمريكي حتى وقت متأخر كثيراً من الحرب.

ما لبثت مادلين أولبرايت، مصادفة من ناحية وعن تصميم من ناحية ثانية، أن أصبحت الشخصية الأكثر جماهيرية في الجانب الأمريكي، بدلاً منه. لم تكن مبالية؛ كانت قد أيدت فكرة القصف منذ البداية، دون أي تشكيك بالنتائج، شرط المثابرة، فضلاً عن أنها لم تكن ضد الدعاية الشخصية. فقبعة راعي البقر وسترة الطيار القاذف المفضلتين عندها كانتا اثنتين من حيل العلاقات العامة الناجحة، محدثتين الانطباع القائل بأنّها قادرة، رغم أنّها امرأة، علىٰ التعامل مع «القبضايات»، وعلىٰ وضع حد للأوغاد و«الزعران» ذوي القبعات السوداء عند الضرورة، ولا يجوز الاستخفاف بها، بالتالي. في البداية اعتُبرت الحرب حرب مادلين، فلم تأبه بذلك وإن لم تحب المسْحة الذكورية المتمثلة باستخدام اسمها الأول. حين استمرت حرب ڤيتنام دون نهاية منظورة، كانت قد باتت تعرف باسم حرب ماكنمارا، فلماذا لا تسمى هذه، بالمثل، حرب أولبرايت؟! إذا كانت الإِدارة مصمّمة علىٰ وضعها مكان الدريئة (أقله حتى تتأكد من دوران العجلة بنجاح) فإنها لم تكن تبالي بذلك. وما لم يكن صحيحاً، بنظر بعض

حلفائها، هو الانطباع القائل بأن البيت الأبيض بدأ يطلق إشارات بالغة الحساسية تقول بأنه منزعج منها لأنها كانت قد وعدت بأن المغطس كان أسهل. كانت الحرب متواصلة وكان شيء من السعي لإيجاد كِباش الفداء قد بدأ فعلاً.

أما الشخص الثاني الذي رفع صوته معلناً للملأ أنها حرب عادلة، فقد كان رئيس الوزراء البريطاني توني بلير. فعلىٰ النقيض من جون ميجر، الذي كان قد وضع قدمه علىٰ الكابح خلال السنوات البوسنية، كان بلير قد ساهم في دفع الناتو إلىٰ اعتماد خط أكثر حركية ونشاطاً فيما يخص كوسوفا. لقد كان بلير شاباً، صريحاً، مؤمناً إيماناً راسخاً بأن هذه كانت هي الطريق الأخلاقية القويمة، ومتلهفاً للظهور والاشتهار إلىٰ الحدود القصوى الممكنة. كانت بينه وبين كلنتون علاقة استثنائية المتانة والقوة بسبب خلفيتيهما المتماثلتين، جراء كونهما سياسيين كانا قد انطلقا من مواقع يسارية نوعاً ما، ما لبثا أن تكيّفا مع الأزمان المتبدلة، فانتقلا، آخر المطاف، إلىٰ مواقع الوَسَط. كلاهما ازدهر وتألّق بفضل إتقانه لفن استخدام وسائل الإعلام بنجاح. أَوَلَمْ يكن بلير الأول في جيل سياسيين عالميين كانوا قد تعلّموا أسرار المهنة عبر دراسة كلنتون وأسلوبه البارع في التعامل مع وسائل الإعلام الحديثة، ملتقطاً القضايا التي كان يريد الاقتران بها ومتجنباً، بالطبع، تلك التي لم يكن راغباً في أن تُنسب إليه.

في أوائل نيسان/أبريل، مشحوناً بالقلق إزاء غياب النجاح، ذهب بلير إلىٰ بروكسل لاستكشاف الخلل. أمضى عدداً من الأيام هناك، مع كلارك أكثر الوقت، حيث سرعان ما أصبح المعتنق الأهم لعقيدة كلارك القائمة علىٰ مفهوم القَدْر الأكبر من القوة، خصوصاً القوة البرية. ومما سهل علىٰ كلارك إقناع بلير أن معظم كبار العسكريين العاملين معه كانوا يشاطرونه نظرته الأساسية القائلة بضرورة استخدام ما يكفي من القوة اللعينة إذا كان المطلوب هو خوض الحرب. حين عاد بلير إلىٰ لندن كان قد أصبح أكثر تشدّداً وأميل إلىٰ موقف الصقور حول مسألة استخدام القوات البرية. لم يكن البيت الأَبيض سعيداً تماماً

بانقلابه وببروز شخصية رئيسية في التحالف متقدمة ولو قليلاً علىٰ الرئيس. فعلىٰ الرغم من ارتياحه إِلىٰ عودة بلير من الجبهة متحدثاً بلغة مؤيدة للحرب، لم يكن البيت الأَبيض منبهراً ومنتشياً إزاء قيامه، هو وجماعته، بالحديث، بهذه الصراحة، عن القوّات البرية، التي كان من شأنها أن تحدث صدوعاً في التحالف فضلاً عن إبراز رئيس الوزراء بوصفه أكثر تشدّداً من الرئيس. ثمة كلام قيل وراء الكواليس للمراسلين عن أن بلير كان يتباهى.

أدّى ذلك أيضاً إِلىٰ طرح مسألة ما إذا كان كلارك عضواً في الفريق، إذا كان هناك أي فريق في الحقيقة. بدأ البيت الأَبيض يرتاب من احتمال وجود محور بريطاني ـ كلاركي، من احتمال أن يكون البريطانيون عاكفين، لدى رغبتهم في القيام بشيء معين، علىٰ العمل من خلال كلارك، واحتمال أن يكون كلارك، بدوره، عاكفاً، لدى رغبته في القيام بشيء معين، علىٰ العمل عبر البريطانيين. بشكل ما كان الطرفان يتحرّكان عبر قنوات خارجية حين يناسبهما ذلك، مطلعين، كل منهما الآخر، علىٰ أية عراقيل محتملة في النظام الأمريكي. تلك هي الطريقة التي بدأ بها نوع من الاستيقاظ الفج، في بيت أبيض لم يكن أي من كبار المسؤولين فيه قد سبق له أن خاض حرباً حقيقية، والتنبه إِلىٰ كيفية تعرّض معادلة القوة للتغير بعد انطلاق الحرب، وإِلىٰ مدى تزايد نفوذ أي قائد بمعدلات لم تخطر لهم علىٰ بال. لم يكن قصف البوسنة والقصف السريع للعراق في أثناء عمليّة عاصفة الصحراء إِلاّ مثالين تجريبيين بالمقارنة. بين الحين والآخر كان كلارك يثير أعصاب البيت الأَبيض ولكن الأخير لم يكن قادراً علىٰ أن يفعل شيئاً ذا بال إزاء الأمر.

راح بلير أيضاً، بعد زيارته لبروكسل، ينصح كلنتون ويوصي بأن يصبحا أكثر تشدّداً في إحكام قبضتيهما علىٰ آلية اتخاذ القرار في الناتو؛ فالقيود المفروضة علىٰ كلارك وشورت لم تكن مقبولة. بدأ ذلك يتمخض عن بعض النتائج المباشرة، وعدد السياسيين القادرين علىٰ شطب الأهداف من القوائم

تقلص بصورة درامية مثيرة، على الرغم من أن كلارك وشورت ظلا يعتبران الفرنسيين مشكلة. ومع ذلك فقد ظل الإحباط متصاعداً حتى منتصف نيسان. بدا أن عجلة الحرب لم تكن دائرة بصورة ناجحة. فقوائم الأهداف ظلت تُعتبر ناقصة وغير مناسبة. لقد كان الناتو، حسب كلام ساندي بيرگر بعد مرور زمن طويل، أشبه بطائرة حديثة لم يسبق لها أن حلّقت قط، وراحت تواجه حملة من المشكلات في أثناء محاولتها الارتفاع بعد الإقلاع. في كل من بروكسل ومونس Mons تزايد الضغط لتوسيع قوائم الأهداف المرشحة للقصف ولدعم العمليَّة بقوات بريَّة.

أصبح الضغط على كلارك، برأي مساعديه، ضغطاً غير قابل تقريباً لأن يطاق. فالجميع في الناتو، والجميع في واشنطن، من مدنيين وعسكريين، كانوا يعرفون ما كان يتعين عليه أن يفعله، وكانت نداءاتهم الداعية إلى التحرّك متبوعة، مباشرة، بنداء شخص آخر، من البلد نفسه في الغالب وعلى المستوى نفسه، أو أعلى، من المسؤولية، يدعوه إلى الإحجام عن التحرّك. أولئك المحيطون به، حتى كبار الضباط غير الموافقين على خطته أو غير المعجبين به شخصياً على الدوام، رأوا أن كلارك كان في أحسن حالاته خلال هذه الفترة. كان يعمل بجد واجتهاد دون توقف، يعامل المرؤوسين معاملة جيدة عموماً، يتحلى بضبط النفس، يوازن بين أطراف متصارعة صعبة بقدر كبير من البهاء، ويبقى مشدوداً إلى هدفه الجوهري. لم يكن يحظى إلاَّ بالقليل من الدعم من مؤسسته العسكرية، غير أنه لم يتذمّر وبقي مصمّماً. ما كان لديه من حلفاء كانوا مدنيين، لا من العسكريين. مهما كان رأيك بوَسْ كلارك ـ بذلك الخليط غير العادي ولكن الباعث على الجنون أحياناً من الدهاء العظيم، الذكاء، الذات، والتصميم ـ فإن ذلك كان هو نفسه في أحسن أحواله. كان قد حصل على المهمة التي ظل على الدوام يريد الحصول عليها، ولم تتعرّض ثقته للانتكاس قط.

باتت دعواته إلىٰ قوائم أهداف موسعة تحقق قدراً متزايداً من النجاح. غير أنه كان قد أصبح متأكداً من أن من شأن القوّات البرية أن تُركع ميلوسوڤيتش، أقله التهديد بها، إن لم يكن استخدامها الفعلي. لم يكن يعتقد بأن ميلوسوڤيتش كان سيأخذ عمليَّة الناتو مأخذ الجد حتى يبدأ برؤية القوات البرية آتية. كان كلارك، آخر المطاف، عسكري قوات برية، وكان الجيش مؤمناً بأن الدول البرية هي التي تكسب الحروب؛ أما الطيران، علىٰ أهميته البالغة، فلم يكن قط السلاح الحاسم وحده. إلاَّ أن ذلك الإيمان أقحم كلارك في حالة صراع مباشر مع كوهن ورؤساء الأركان المشتركة الذين كانوا عازمين علىٰ رفض فكرة إشراك الدول البرية بعناد. كان ثمة تشاحن دائم حول هذا. كثيراً ما كان كلارك يقدم علىٰ حركة مصممة ولو جزئياً للاقتراب أكثر من خيار القوات البرية، ربما فقط للحصول علىٰ بعض الزيادة في حجم القوات في المنطقة، فيقوم عناصر البنتاگون بالتقاط الرائحة ويسعون لقطع الطريق عليه.

في إحدى المراحل طلب ما يطلق عليه الجيش اسم العوم التمهيدي، لواء كان سيتمركز في المنطقة في حالة انتظار. وفي هذه الحالة كانت الوحدة ستبقى علىٰ ظهر إحدى السفن في المياه الإقليمية اليونانية، بانتظار النداء، مشكلة خنجراً آخر موجهاً إلىٰ صدر ميلوسوڤيتش، وحدة مؤلّفة من أربعة آلاف وسبعمئة جندي جاهزة لدخول المعركة في غضون أربع وعشرين ساعة، مما كان سيشي بأن الحلفاء كانوا متوجهين نحو زيادة، لا تقليص، القوَّات مع تقدم الحرب. وصل الطلب إلىٰ قلب البنتاگون. وجاء الرد بالرفض. بادر أحد مساعدي كلارك بطرح سؤال: «كيف استطاعوا أن يرفضوا لك طلباً؟» فرد عليه كلارك: «قالوا إنه باهظ الثمن». «باهظ الثمن؟» تساءل المساعد. كيف يكون جلوس لواء في مكان ما مجرد جلوس باهظ الثمن؟ فرد عليه كلارك قائلاً: «يزعمون أن العمليَّة كلها باهظة التكلفة ويعانون من مشكلات كبيرة في الموازنة». كان كلارك والمساعدون يعلمون أن ذلك لم يكن صحيحاً. كانت

الحقيقة هي أن البنتاگون لم تكن تريد إرسال قوات برية إلىٰ أي مكان قريب من كلارك الذي كان سريع التأثّر والتأثير، شديد الاندفاع، مهووساً بالتصرّف ذاتياً، وغير جدير، بالتالي، بأن يتم ائتمانه علىٰ لواء. من الواضح أن الطرفين كانا متربصين كل منهما بالآخر، ويلعبان لعبة خطرة عالية الرهانات. عند أحد المنعطفات قام أحد عناصر هيئة أركان كلارك بإعداد تقرير لواشنطن عما ستدعو الحاجة إليه في كوسوڤا إذا ما انتصر الحلفاء، متضمناً، مع أشياء أُخرى، جهاز بوليس جديداً كلياً، لأن السابق صربي، ولن يُسمح له بالعودة إلىٰ المنطقة. كان الحل الواضح هو استخدام القوّات الأجنبية لملء الفراغ والاضطلاع بمهمات الشرطة في منطقة لا أحد يستطيع إنكار مدى نزوعها إلىٰ العنف وامتلائها بالأحقاد. صدرت الأوامر بشطب ذلك الجزء من التقرير في بروكسل قبل الموافقة علىٰ إرساله.

غير أن شيئاً مما حصل في البلقان لم يسلّط الضوء علىٰ التوترات بمقدار ما فعل الصراع حول طائرات الهيلوكوبتر الآپاتشي من طراز AH ـ 64، الفرّامات الأسرع والأحدث لدى الجيش، المصمّمة خصيصاً، حسب اعتقاد البعض، لحالة مشابهة مئة بالمئة. كانت مروحيات الآپاتشي سلاح الجيش الأفضل والأحدث من هذا النوع، المصمصم لتضليل رماة المشاة علىٰ الأرض، بمن فيهم أولئك المزودون بصواريخ بسيطة محمولة أرض ـ جو. كانت هذه المروحيات قائمة علىٰ أحدث التكنولوجيات المتوفرة، بأجهزة مبتكرة قادرة ليس فقط علىٰ إبقاء محركاتها باردة، بل وعلىٰ تبريد أجهزة تصريف العوادم أيضاً، بما يوفر حمايتها من الصواريخ الباحثة عن مصادر الحرارة. كانت أيضاً قادرة علىٰ التحليق ليلاً دون إظهار أية مصابيح. ظلت توقعات ما تستطيع مروحيات الآپاتشي أن تحققه في كوسوڤا عالية بصورة استثنائية، خصوصاً لدى أولئك المرتبطين بطيران الجيش الحالمين بجعل الجيش أسرع، أقدر علىٰ الحركة، وأكثر مرونة في ردوده. حين صدر الإعلان عن اعتزام إرسالها إلىٰ إحدى القواعد في أَلبانيا ألمح كبير الناطقين الصحفيين باسم البنتاگون، كَنَثْ

بيكون، إلىٰ أن من شأنها أن تغير مسار الحرب وتمنح الولايات المتحدة «القُدْرة علىٰ الارتقاء إلىٰ مستوى القرب الشخصي من وحدات ميلوسوڤيتش المدرعة في كوسوڤا».

كانت المروحيات مرشحة لأن تكون سلاح الجيش الأفضل علىٰ صعيد الدعم الجوي للقوات البرية، خصوصاً ضد آليات مدرعة معادية شائخة قليلاً مع ما يرافقها من وحدات مشاة. إنها أسرع وأكثر رشاقة، مع قدرات أكبر بكثير علىٰ مسح أرض المعركة من العربات المدرعة علىٰ الأرض، من ناحية، وأبطأ وأكثر دقة في تسديد قوتها النارية من المقاتلات النفاثة، من ناحية ثانية. فقد كتبت دانا پريست، في انتقادها الشديد المنشور في **الواشنطن پوست**، لما حدث «باتت الطائرات المروحية المتبجحة، بدلاً من ذلك، رمزاً لكل ما هو خطأ في الجيش وهو علىٰ عَتَبة القرن الواحد والعشرين: رمزاً لعجزه عن التحرك بسرعة؛ رمزاً لمقاومته للتغيير؛ رمزاً لخوفه الكابوسي من الإصابات، رمزاً لأزمة الهوية التي يعاني منها في حقبة ما بعد الحرب الباردة»[2]. إذا كانت مروحيات الآپاتشي خطأ، فقد شكلت خطأ باهظ التكاليف. لقد تم إنفاق ما يتراوح بين 12 و18 مليارا من الدولارات ليس فقط لجعلها أداة هجومية استثنائية، بل ولتقليص مدى هشاشتها في وجه النيران الأرضية ـ عَقِب آخيل الكبرى لحرب الحوامات. بلغت تكاليف مروحية الآپاتشي الواحدة 14,5 مليوناً من الدولارات. اعتُبر المنتوج النهائي استثنائياً: إنه سريع، قادر علىٰ التحليق فوق مستوى الأشجار مباشرة بسرعة كبيرة، بل ومجهزة بشفرات دوارة مدورة لكتم الصوت. غير أنها، مع ذلك، بقيت طائرات مروحية، معرّضة باستمرار لخطر الإصابة بنيران جنود العدو إذا لم يصابوا بالذعر. من الواضح أن المفاجأة، الخلسة، والفترة الزمنية المحدودة في دائرة القتل تشكل عوامل حاسمة لاستخدامها الناجح.

---

(2) دانا پريست، **الواشنطن پوست**، 29/ 12/ 1999.

من المفارقات الساخرة أن هيو شلتون، ابن الجيش والقوّات البرية ورئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة، كان أول من اقترح استخدام مروحيات الآپاتشي في كوسوڤا، حتى قبل الشروع بعمليّة القصف. كان قد أتى، بصورة شبه عابرة، علىٰ ذكر الفكرة علىٰ مسامع كلارك الذي سارع إلىٰ الانقضاض عليها والتقاطها، متنبهاً إلىٰ قُدْرة هذه الأسلحة علىٰ سد ثغرة خطيرة في ترسانته. من شأنها، حسب اعتقاده، أن تضاعف، علىٰ الأقل، من مستوى الضغط علىٰ ميلوسوڤيتش، غير أن الجدل الداخلي حول طائرات الآپاتشي المروحية لم يكن قط في حقيقة الأمر عن أية حرب محمولة بطائرات الهيلوكوبتر؛ إذ بقي متركزاً علىٰ القوّات البرية باستمرار. ما كانت وزارة الدفاع متخوفة منه هو أن يكون كلارك عازماً علىٰ استخدام مروحيات الآپاتشي كحصان طروادة للقوات البرية. مما جعلها تقاوم، بالطبع. ثمة عدد كبير من المراقبين المحايدين، جنباً إلىٰ جنب مع عدد من حلفاء كلارك، يعتقدون بأن شكوك كبار العسكريين كانت صحيحة مئة بالمئة.

كانت مروحيات الآپاتشي، في خطط المعارك التقليدية، المرسومة لاستراتيجيي الپنتاگون، مخصصة للاستخدام مع تتمة كاملة من المشاة. غير أن الشرط الأول للتدخّل في كوسوڤا تمثل بعدم وجود أية قوات برية، بمعنى عدم وجود مستطلعين علىٰ الأرض لاستكشاف الأهداف للمروحيات. ولأنه لم يكن سيُزود بأية قوات برية، فإن كلارك أراد أن يستخدم طائرات الاستكشاف دون طيارين وصور الأقمار الصناعية لتحديد مواقع القوّات الصربية. وبفضل الاستخبارات المحصلة بتلك الطريقة، كانت الحوامات ستتولى ضرب وحدات الجيش الصربي. إلاّ أن رؤساءَه في واشنطن كانوا متشككين. فنظراً لسرعة المناطيد وغنى الساحة، كان من شأن العمليَّة أن تبدو، برأي رئيس أركان الجيش، دنيس رايمر، أشبه بالبحث عن أفراد القوّات البرية الصربية في كومة من القش. بنظر رؤساء الأركان هناك في واشنطن لم يكن ثمة أي جانب إيجابي

كبير لمروحيات الآپاتشي. كانت المطالبة بها، برأيهم، توحي بأبشع أشكال النزعة التدرُّجية. «ماذا لو تم إسقاط إحدى طائرات الآپاتشي؟» كان لسان حالهم يقول. «ألن يتعين عليك أن ترسل فريقاً للإنقاذ **علىٰ الأرض وفي منطقة خاضعة لسيطرة الصرب**؟ وإذا قام الصرب بمحاصرة المنطقة بقواتهم وراحوا ينتظرون فرقة الإنقاذ، أفلن تضطر لإرسال قوات أكبر لحماية رجالك؟» لم تكن العمليَّة، برأي رؤساء الأَركان، إلاَّ تكراراً لكل من ڤيتنام والصومال. أن تبدأ بشيء صغير وبريء نسبياً، ثم تقدم علىٰ شيء أكبر وغير متوقع متولد عن الشيء الصغير الأول. راحوا يتساءلون بشك: «هل كان المدنيّون، الذين سبق لهم أن أعطوهم ما بقي حتى الآن تفويضاً محدوداً تماماً، مستعدين للانفتاح علىٰ تدخّل أكبر؟» إذا كانوا راغبين في استخدام أداة مشابهة لمروحيات الآپاتشي، فقد كانت پنتاگون الوارتوگ طراز آ ـ 10، وهي طائرات حربية كانت نجوماً مفاجئة في عمليَّة عاصفة الصحراء، برأي بعض كبار العسكريين، أدوات مثالية وأقل هشاشة.

لم يكن كلارك متمتعا بأي دعم ذي شأن بين العسكريين هناك في واشنطن. فشلتون كان متردداً علىٰ الأقل، أما رايمر، رئيس أركان الجيش فقد كان معارضاً لإرسال الحوامات. دارت النقاشات سجالاً بينما ظل كلارك دائباً علىٰ تصعيد الضغط مطالباً بالمروحيات، فيما بقي شورت عاكساً لوجهة نظر الپنتاگون (والبيت الأَبيض) الرافضة. ومما اقتبسه كلارك عن شورت: «عليك يا وَسْ أن تعلم بأنني أعاني كثيراً هنا مع رؤساء الأركان. فرئيس أركان الجيش [القوّات البرية ـ رايمر] رافض، ببساطة إشراكها». غير أن كلارك كانت لديه الإجابة النموذجية. فالأمر لم يكن يقف عند كونها سلاحاً مثالياً لأغراضه، بل يتجاوزه، كما أضاف «إِلىٰ تأكيد عدم استعدادنا لحرمان أي قائد عام في غمرة الحرب من مصادر القوة الضرورية للانتصار»[3].

(3) مقابلتان مع كلارك وجنرالات آخرين؛ كلارك، 227.

برأي رايمر وآخرين، لم تكن طائرات الآپاتشي إلاً خطوة أولى علىٰ الطريق المفضية إلىٰ التورّط بحرب برية. أخيراً خرج شورت بحل وسط تمثل بإرسال الآپاتشي إلىٰ ألبانيا، شرط عدم استخدامها إلىٰ حين حصول إجماع أوسع مؤيد لاستخدامها واقتناع الجميع بمعدل الإصابات المحتملة. وإذا ما حصل مثل ذلك الإجماع فإن شورت كان سيرفع الاقتراح إلىٰ الرئيس. لقد كان ذلك يعيد ولو جزءاً من القرار إلىٰ البيت الأبيض، الذي نادراً ما كان قد أظهر أي استعداد للتورّط أكثر، بل وكان ما يزال شديد الحساسية إزاء الإصابات. تم اتخاذ قرار السير قُدُماً، دون الإقدام علىٰ ذلك بالفعل، في الثالث من نيسان/ أبريل. توقع الجميع أن تصل مروحيات الآپاتشي إلىٰ ألبانيا في غضون أيام. غير أن ذلك التنبؤ، مثل الكثير من التنبؤات الأُخرى حول جدواها، ما لبث أن تبين أنه كان مسرفاً في التفاؤل. كان الجيش يحرِّك طائرات الآپاتشي ببطء عبر النفق. بدت كل من حركاتها مدهونة بمادة لزجة تعيق الحركة. من الواضح أن شخصاً عند قمة الهرم كان قد أرسل إشارة تقول بعدم الحاجة إلىٰ الاستعجال. نُسفت المواعيد، موعداً بعد آخر. تراكمت الأعذار والحجج. علىٰ الدوام كان ثمة سبب معين يعرقل التقدم. غير أن عنصراً واحداً من الجيش لم يُعاقب، كما لاحظ أحد كبار ضباط القوّات البرية، علىٰ التأخير المخيف الحاصل في عمليّة إيصال سلاح حيوي إلىٰ بؤرة قتال ملتهبة.

لم تكن ثمة أية قاعدة جاهزة لاستقبال مروحيات الآپاتشي، بالطبع. تمت دراسة مواقع محتملة، وقام الجيش أخيراً باختيار قاعدة قريبة من تيرانا، غير بعيد عن حدود جمهورية الجبل الأسود، مما وفَّر لها إمكانية الوصول إلىٰ عدد من فرق الجيش الصربي فضلاً عن قاعدة جوية صربية كبيرة في پودگوريشا. غير أن القاعدة نفسها كانت بقعة كارثية، بحراً من الوحل، وتعيّن علىٰ الجيش استصلاحها وإعادة بنائها لتصبح قادرة علىٰ استقبال المروحيات الفرَّامة. جرى جلب كميات هائلة من الردميات الصخرية. تم تكوين ميادين هبوط خاصة،

وجرى نقل الدبابات وناقلات الجنود المدرّعة بالعبّارات لتوفير الحماية للقاعدة. كذلك تم إرسال خمسة آلاف جندي من القوّات البرية تحسباً لاحتمال تحلي الصرب بقدر غير عادي من الجرأة والإقدام علىٰ مهاجمة القاعدة بالذات. تطلّب الأمر خمس مئة وخمسين طلعة لطائرات شحن عملاقة لاستكمال إيجاد القاعدة وتوفير جميع المعدات اللازمة مقابل تكاليف وصلت إلىٰ 480 مليوناً من الدولارات. حلت الأيام الأخيرة من نيسان/أبريل قبل وصول جميع الحوامات. كان كلارك قد طلب ثمانٍ وأربعين واحدة منها؛ غير أن الجيش لم يرسل إلاّ أربعاً وعشرين.

ومع ذلك لم يكن ثمة أي وضوح عما إذا كانت المروحيات ستُصبح قادرة علىٰ التحليق. وفي هذه الأثناء تحطمت إحداها خلال عمليّة تحليق روتينية بسبب عطل فنّي، ميكانيكي، مما جعل أولئك المترددين أصلاً حتى أكثر ارتياباً. فهناك في واشنطن كان كل من كوهن، شورت، ورالستون لا يزالون غير راغبين في استخدامها ودائبين علىٰ إيصال وجهة نظرهم هذه إلىٰ البيت الأبيض. ونظراً لموقف كلنتون الممانع لاحتمال حصول إصابات، كما أشارت دانا پريست، فإن وجهة النظر لم تواجه أية صعوبة. كان ثمة جدل قديم مستمر حول تقدير الإصابات المتوقعة. كان كل من كلارك والجنرال جون هندريكس، قائد قوة الصقر العمليّاتية، وحدة طائرات الآپاتشي، متلهفين لاستخدام المروحيات ومقتنعين بأن المخاطر كانت ضئيلة نسبياً. أما كبار الضباط في الپنتاگون فكانوا يريدون معرفة تخمينات الإصابات المحتملة. في البداية قال كلارك وهندريسك إن من الصعب تقديم أي تقدير لأن هذه كانت عمليَّة من نوعية جديدة. ولدى تعرّضه للمزيد من الضغط، خلال اتصال هاتفي مع وزارة الدفاع منتصف نيسان/أبريل، أفاد هندريكس بأن من شأن الإصابات أن تكون خمساً في كل مئة طلعة، أو ربما أكثر قليلاً. وبعد الإكثار من تقليب الأرقام من جانب الطرفين كليهما بقي سؤال محدد معلقاً. يتذكّر هندريكس أنه

استخدم الرقم خمسة، في حين يتذكر كبار ضباط الجيش أنّهم سمعوا ستة إِلىٰ خمسة عشر، وهو الرقم الذي جرى تقديمه، مرة علىٰ الأقل، إِلىٰ البيت الأَبيض. ففي البيت الأَبيض هذا، بدأ المدنيون، كما قالوا لاحقاً، يسمعون أرقاماً ربما طارت حتى إِلىٰ مستوى خمسين بالمئة مع مرور الزمن. يبدو أن الناس سمعوا الرقم الذي كانوا يريدون سماعه.

من المؤكد أن المروحيات كانت بين أكثر الطائرات هشاشة، وأن الأرض كانت جبلية والغطاء النباتي كثيفاً، مما كان يجعل التحليق عبرها صعباً وخطراً، خصوصاً إذا كنت في مواجهة عدو يملك عدداً كبيراً جداً من منصّات إطلاق الصواريخ اليدوية الصغيرة. غير أن القادة الأمريكيين في الميدان ظلوا متلهفين لخوض التجربة؛ لقد كانت هذه مهمتهم والفرصة الأولى لاختبار قطعة يُحتمل أن تكون عجيبة من قطع الأسلحة الحربية. كان كلارك قد أمضى ثلاثة أسابيع منذ وصول طائرات الآپاتشي عاكفاً مع قادته الميدانيين علىٰ التأكد من امتلاكهم خطة تكتيكية مقبولة، مع إمكانية استخدام الفرّامات بقدر معين من الأمان مع احتمال بقائها أدوات قيمة وثمينة في القتال. لقد كان هو وقادته منزعجين من حساسية واشنطن وعُصابيتها.

مثلهم مثل طياري المقاتلات في العالم كله، كان طيارو الآپاتشي وقادتهم عدوانيين، واثقين، متأكدين من قدرتهم علىٰ صياغة ونَحْت استراتيجيتهم. بما يتناسب مع المناسبة، توّاقين لتسويغ كل ذلك التدريب الذي سبق لهم أن حصلوا عليه. كانت طبيعة مهنتهم بالذات تتطلب المخاطرة، وكانوا، جميعاً، مستعدين لاقتحام المخاطر. ذلك هو ما كانوا قد تطوعوا من أجله في المقام الأول وكانوا راغبين في الانخراط فيه. وفقاً لخطتهم التكتيكية كانت طائرات سلاح الجو ستسبقهم بنيران قامعة، لتتبعها طائرات الآپاتشي للتحليق بسرعة، تسعين ميلاً في الساعة، مدافع ملتهبة، تبقى في الجو فترة قصيرة ـ خمس دقائق في بؤرة المعركة. وفي هذه الأثناء تقوم النفّاثات المحلّقة في الطبقات العليا بتوفير غطاء إضافي.

غير أن الشكوك لم تتلاش قط. فالمخاطر، بنظر رؤساء كلارك، كانت ثابتة. كان جندي صربي واحد مزود بقاذف صاروخ يدوي محتملاً أن يحالفه الحظ فيقلب ما بدا انتصاراً إِلىٰ ما سيتم اعتباره هزيمة، لن تتأخر شبكة السي. إن. إن. وغيرها من القنوات في تغطيتها بصورة فورية. أضف إِلىٰ ذلك، أنّها كانت فرصة مناسبة لتسجيل النقاط علىٰ كلارك في الصراع الدائر وكسب تأييد البيت الأَبيض. فالجنرالات هناك في واشنطن لم يكونوا يدركون، كما كان كلارك سيقول لاحقاً بقَدْر غير قليل من المرارة، أن مروحيات الآپاتشي قادرة علىٰ التحليق ليلاً وأن صواريخ سام ـ 7 المحمولة ليست مزودة بأية مناظير ليلية. وأضاف كلارك، أن رؤساءه لم يكونوا، أيضاً، يدركون أن طائرات الآپاتشي كانت مزوَّدة بمعطِّلات الأشعة دون الحمراء القادرة علىٰ الحيلولة دون تمكين السام ـ 7 من الالتصاق بالهدف. ومما قاله كلارك مستطرداً في أوقات لاحقة إن الجيش أنفق عشرين سنة من الوقت مع كل تلك المليارات من الدولارات في سبيل ابتكار أداة بالغة التفوق ولكنه كان خائفاً من استخدامها.

أخيراً عادت طائرات الآپاتشي إِلىٰ قاعدتها في ألمانيا. تطلّب الأمر تشغيل ثلاثين قطاراً، عشرين باخرة، وإحدى وثمانين رحلة شحن جوية بطائرات سي ـ 17 لاستكمال إعادة جميع العناصر وكل الأشياء إِلىٰ القواعد الأصلية. ظل الخوف من هشاشتها كبيراً جداً مما حال دون قيام مروحيات قوة الصقر العملياتية بالانخراط في أية مهمات قتالية، بإطلاق ولو قذيفة واحدة، وبحماية ولو أَلباني واحد من كوسوڤا. وحين انتهى كل شيء لاحظ وزير الجيش لويس كالديرا، بقدر من التشاؤم والسوداوية، أننا مستعدون، علىٰ ما يبدو، لقبول الإصابات في ساحات التدريب أكثر من ميادين القتال الفعلي.

الفصل الثالث والأربعون

كان كلارك متأكداً، رغم تعرّضه لخسارة الحرب حول مروحيات الآپاتشي، من أنه سيفوز علىٰ جبهات أُخرى. لن يستطيعوا صَدَّه في كل شيء، وكما قال أحد الزملاء، فإن مسألة طائرات الآپاتشي ربما كانت حركة ماكرة وخُلَّبية بمقدار ما كانت محاولة حقيقية وجادة: «ربما كان وَسْ متنبهاً إلىٰ وجود معارضة قوية لتمكينه من استخدامها، غير أنّه كان أيضاً يعلم أنّهم إذا ما رفضوا طلبه هذا، فسوف يضطرّون لإعطائه شيئاً آخر». غير أن نقاط التوتر كانت لا تزال كثيرة بعد مرور شهر كامل علىٰ بدء الحرب، كما أن جميع كبار اللاعبين كانوا يزدادون تشدّداً وعناداً. أضف إلىٰ ذلك أن الرأي العام الدولي لم يكن في أحوال جيدة ومناسبة. فقد بات هذا الرأي العام أكثر تركيزاً، وبصورة متزايدة باطراد، علىٰ ما كان الناتو يفعله ـ علىٰ أية قذيفة أخطأت الهدف، أي قصف لقافلة لاجئين كوسوڤيين ـ وأقل اهتماماً، بصورة متناقصة أيضاً، بما كان ميلوسوڤيتش قد دأب علىٰ فعله.

لم يكن ثمة بعد أيُّ دليل علىٰ وجود إرادة غربية. وبَيْن مختلف كبار الشركاء كان البريطانيون الأكثر تشدّداً وعدوانية، وكان الفرنسيون هم الأقل حماساً. كانت فرنسا شديدة الرغبة في وضع قيود علىٰ أهداف القصف، لا خوفاً مما قد يحصل لميلوسوڤيتش، بل قَلَقاً علىٰ مصير علاقتها التاريخية العريقة بالشعب الصربي إذا ما قُصفت بلگراد. إن جزءاً من ذلك التوتر كان

يعكس نوعاً من العلاقات الودية التقليدية مع بلگراد؛ إلاَّ أن جزءاً آخر منه كان يعكس تلك المقاومة الفرنسية الغريزية المعروفة لأي شيء كان الفرنسيون يعتبرونه مبالغة في فرض الإرادة الأَمريكيَّة علىٰ أوروپا. غير أن من المؤكد أن جزءاً ثالثاً من التوتر كان يمثِّل شيئاً جديداً يعود إِلىٰ نظام ما بعد الحرب الباردة: معارضة مضمرة وخفية من جانب حلفاء الأمس ـ وفي طليعتهم الفرنسيون بالطبع ـ للتحركات الأَمريكيَّة، بعد أن بقيت أَمريكا هي القوة العظمى الوحيدة، في سُخْط طبيعي جداً علىٰ دولة قوية وغنية من جانب أولئك الذين باتوا يشعرون بأن أَمريكا لم تبد أي حرص علىٰ أخذ رغباتهم بما يكفي من الجدية أو علىٰ إجراء ما يكفي من التشاور معهم.

ومع الوصول إِلىٰ هذه المرحلة كان كلارك قد أصبح حتى أشد حماساً لاستخدام القوات الجوية. راح ينبّه الجميع إِلىٰ حقيقة أن التقويم (الروزنامة) هو عدوهم الآن. فمع طرد حوالي مليون من الكوسوڤيين من بيوتهم، والآلاف منهم يعيشون في الجبال، كانوا، جميعاً، مهددين بكارثة إنسانية ذات أبعاد هائلة لدى حلول شتاء البلقان القاسي. إذا كانوا سيمدون يد العون إِلىٰ اللاجئين عبر القيام بعمليَّة برية، فقد تعيّن عليهم، ربما، أن يتخذوا قرارهم مع حلول أوائل حزيران/ يونيو من أجل إيصال القوّات إِلىٰ هناك قبل استفحال وطأة الطقس البارد. تحدث كلارك عن الحاجة إِلىٰ حوالي ستين إِلىٰ تسعين يوماً بعد إعطاء الأوامر، مؤكداً علىٰ أن الاستعجال أفضل من التأخير. كان ذلك يعني أن الوقت كان قد بدأ يضغط علىٰ الجميع. أما موعد كلارك النهائي غير الرسمي لاتخاذ قرار البدء بتحريك العجلة فقد كان هو العاشر من حزيران/ يونيو.

أما ما ساعد علىٰ إنقاذ التحالف فهو أن جميع أعضاء الناتو كانوا سيجتمعون أواخر نيسان/ أبريل في واشنطن للاحتفال بالذكرى السنوية الخمسين لتأسيس التحالف الذي كان قد تم في 1949م للوقوف في وجه العدوان السوڤيتي في أوروپا الوسطى. نتيجة إهمال محيِّر، لم يكن كلارك بين

المدعويين الأصليين. فعلاقاته مع رؤسائه في الپنتاگون قد تدهورت كثيراً حتى أن أياً من كوهن وشورت لم يكونا راغبين في حضوره. وبعض من السبب كان، باعتقاد البعض، يعود إلىٰ البيت الأبيض، حيث كان كلارك يعتبر مبالغاً في الإلحاح علىٰ الحاجة إلىٰ قوات برية. كذلك كان البيت الأبيض يخشى أن يكون كلارك مراوغاً إياه ومتواطئاً مع البريطانيين الذين كانوا أيضاً يضغطون أكثر فأكثر من أجل إرسال القوّات البرية.

غير أن كلارك دُعي في النهاية، كان لا بد من مجيئه؛ كان من شأن عدم حضوره أن يشكِّل فضيحة. كان قد استخدم خاڤيير سولانا، رئيس الناتو، لطرح قضيته، الأمر الذي لم يُرْضِ كبار العسكريين والمدنيين علىٰ حد سواء. غير أن التوجيهات التي زُوِّد بها كانت واضحة. تعيّن عليه ألا يكثر من الظهور ويمتنع عن الكلام حول القوّات البرية. ومما تذكره لاحقاً أنّه حين وصل إلىٰ الاجتماع الأول رأى الفريق الأمريكي المضيف برئاسة كلنتون، أولبرايت، وكوهن، وتلقى من بعض أعضائه نظرات حملت، في الحقيقة، مَعْنىٰ الإيعاز بالبقاء بعيداً.

شكّلت قمة الناتو نقطة انعطاف. بدلاً من التشظي حول جملة القضايا الصعبة التي كانت تفرّق أعضاء الحلف، خرج الناتو أقوى وأكثر توحداً من أي وقت مضى. ثمة عشاء عمل صغير ضم كلنتون وبلير مع عدد من كبار مساعديهما تم ليلاً قبل بدء المؤتمر كان مركزياً بالنسبة إلىٰ ما حصل. في تلك اللحظة، بعد شهر واحد من بدء الحرب، وجُل الأخبار سيئة، الحملة الجوية مثيرة للأعصاب، وميلوسوڤيتش باد كما لو كان موشكاً علىٰ كسب الرهان، كانوا، للمرة الأولى، يواجهون احتمال الهزيمة. لقد بالغوا في الحرص علىٰ الالتزام بالقواعد، وفي الإصغاء إلىٰ الهواجس السياسية حتى أصبحوا علىٰ حافة عدم كسب الحرب. بذلك المعنى، كان مايك شورت، وآخرون، ممن دأبوا علىٰ التذمّر بمرارة من القيود المفروضة علىٰ حملتهم الجوية، علىٰ صواب،

وكان كبار الساسة في مواجهة العواقب التي ترتبت علىٰ قراراتهم. كان البريطانيون قد أصبحوا يتحدَّثون بقدر أكبر من الصراحة عن الحاجة إلىٰ قوات برية، وكان بلير نفسه، الذي سبق له أن زار بروكسل واقتنع بهذه المسألة، متقدماً علىٰ الرئيس وأكثر صراحة منه، وشاعراً بالانزعاج من الأَمريكيين.

انزعج الأَمريكيون، بدورهم، من البريطانيين الذين بالغوا في الكلام علناً عن استخدام القوَّات البرية، عند ذلك الجسر الذي لم يكن الأَمريكيون جاهزين بعد لعبوره سياسياً. في الاجتماع أراد بلير أن يدفع الأَمريكيين باتجاه الموافقة علىٰ استخدام القوَّات البرية؛ أما كلنتون فقد كان حريصاً علىٰ بقاء التحالف متماسكاً، متوجساً من أن يفضي استخدامها إلىٰ تمزيق الناتو، وراغباً في خفض مستوى النقاش حولها. تمكّن الرجلان في تلك الليلة من التوصّل إلىٰ حل وسط. وافق البريطانيون علىٰ قلال من الكلام عن القوَّات البرية، ووافق الأَمريكيون، بالمقابل، علىٰ السماح بالسير قُدماً في التخطيط لاستخدامها، في تصعيدٍ كانت بلگراد ستعلم به بصورة مباشرة وفورية، بفضل علاقاتها الناتوية المؤكدة عبر الصداقات وقنوات الاتصال.

لم يقرِّر كلنتون وبلير أن عليهما أن ينتصرا إلاَّ بعد أن بقيا وجهاً لوجه مع احتمال الهزيمة. كان ذلك أمراً مركزياً بالنسبة إلىٰ عشاء ما قبل القمة، ذلك الوعي المفاجئ لحقيقة أن بديل الانتصار لم يكن مقبولاً. ما كان من شأن ذلك أن يفعله بالناتو ـ يضع له حداً عمليّاً ـ وببلديهما (وبمسلكيهما ومكانيهما في التاريخ وإن لم يتم قوله صراحة) كان أيضاً متعذر القبول به، فأقسما، في نوع من الميثاق الثنائي بين رجلين، علىٰ **أنهما كانا سينتصران. لن يكون ثمة أي تراجع. لقد قاما بإطلاق العمليّة ولا بد لهما من إنهائها. إذا كان الأمر سيتطلب ثمناً أكبر، فلا بأس بذلك**. لقد كان «قَسَم دَم مجازياً» كما اعتبره ساندي بيرگر، أحد أعضاء الفريق الصغير من الشهود، لاحقاً. لن يكون هناك أي وقف لأعمال القصف. لا مجال لأية مفاوضات حلول وسط (نصف رغيفية) مع

ميلوسوفيتش لا تهدف إلاَّ إلىٰ تمكينه من الإفلات من الصنّارة. كان المفروض، بدلاً من ذلك، مضاعفة الضغط عليه. كان ذلك، علىٰ صعيد الحرب، قراراً مصيرياً. فبعد مرور شهر كامل علىٰ بدء القصف كانت أداة التوجيه الأهم لإدارة الحرب، الحاجة للحفاظ علىٰ وحدة التحالف مهما كان الثمن لأسباب سياسية؛ موشكة علىٰ التغيّر. لقد أصبح الهدف الأول متمثّلاً بالانتصار وقد شكّل ذلك تفويضاً عسكرياً. سُمح لكلارك بالبدء بالأعمال (المكتبية) القلمية التمهيدية المبكرة لعملية استخدام القوات البرية.

كان كلارك يعتقد أن نقاط التباين في الموقف بين ضفتي الأطلسي كانت نتيجة نوع من التزاوج بين الجغرافيا والتاريخ. فالمدنيون في واشنطن لم يسبق لهم قط أن كانوا في أية حرب من قبل، ولم يكن هذا تدخلاً هم شديدو الحرص علىٰ القيام به، وقد بقي موقفهم علىٰ الدوام مطبوعاً بالانزعاج، كما لو كانوا في مواجهة مشكلة مقيتة، بعيدة ولكنها مقيمة بعناد. أما بالنسبة إلىٰ الأوروپيين فقد كان الأمر مباشراً أكثر، أقرب إليهم جسدياً، كان حرباً، وخصوصاً بين البريطانيين كان ثمة شعور بالإلحاح، نوع من الاعتقاد بأن المحصلة ستكون أفضل بالنسبة إلىٰ الجميع كلما كانت معالجة الأمور ـ التي بدت بوصفها مشكلات واضحة ـ أسرع. مهما كانت الأشياء الأُخرى التي كانت قد حصلت في قمة الناتو فإن البريطانيين كانوا ـ برأي كلارك ـ قد نجحوا في إقناع الأمريكيين بمدى خطورة الوضع وبأن الزمن لم يكن، بالضرورة، في صفهم.

تم، بفضل القمة توسيع قائمة الأهداف كما أُلغيت القيود المفروضة علىٰ الأهداف الموجودة في قلب مدينة بلگراد. ففي السابع من أيار/مايو، جرى توظيف قوة الناتو الجوية بطاقتها الكاملة للمرة الأولى من أجل ضرب أهداف معينة في المدينة، بنتائج بالغة الضخامة. أخيراً تم، كما قال مايك شورت لأصدقائه، بعد خمسة وأربعين يوماً، السماحُ له بفعل الأشياء التي كان قد أراد أن يقوم بها في البداية، ومع تغيير السياسة والاستعداد لضرب أهداف داخل

مدينة بلگراد ما لبثت قاذفات البي ـ 2 أن أصبحت أكثر فاعلية. لقد فعلت أشياء لم تفعلها أية قاذفة أو خطة قصف من قبل. من المعتقدات السائدة في أوساط الطيران أن من شبه المستحيل الإجهاز على، أو تعطيل أية قاعدة جوية معادية بسبب إمكانية إعادة فتح مدرج أو اثنين بسرعة نظراً لوجود الكثير من المدارج المحتملة المختلفة. غير أن قاذفة بي ـ 2 كانت، أواخر الحرب، قد ضربت، مستخدمة كامل حمولتها، إحدى القواعد الجوية الصربية وتمكنت من اقتلاع جميع مدارجها بصورة منهجية معطِّلة إياها لبضعة أيام. أضف إلىٰ ذلك، أن جسر النوڤي ساد (جسر الروك آند رول الذي كان مواطنو بلگراد قد استفزوا به الولايات المتحدة في الماضي بتحويله إلىٰ نوع من المَرْقَص الليلي) قد تم تدميره. غير أن نكسات معينة حصلت رغم التوجيهات الجديدة، فقد ضُربت السفارة الصينية خطأ، مما أدَّى إلىٰ إعادة فرض قيود صارمة على الأهداف داخل مدينة بلگراد.

أظهر استخدام قاذفات البي ـ 2 أن استحداث التكنولوجيا العالية وإدخالها في الحرب كان يتم بوتائر متسارعة باطراد. فحرب الخليج [الثانية] التي كانت قبل عقد واحد من الزمن خلاصة أو نموذج أية حرب تكنولوجية عالية حديثة، صارت تبدو عتيقة الطراز بشكل غريب. كانت نسبة الأسلحة الموجهة بدقة في تلك الحرب حوالي تسعة بالمئة. أما في كوسوڤا فقد ارتفعت إلىٰ أكثر من ستين بالمئة. إذا كانت طائرة واحدة قادرة الآن علىٰ ضرب 16 هدفاً، فإن دور البي ـ 2، نظراً لوتيرة تطور التكنولوجيا المتسارعة، محكوم بأن يتضاعف في المستقبل. لعل اليوم الذي ستصبح فيه البي ـ 2 قادرة علىٰ حمل خمسين قذيفة بات قريباً، مما يعني أن طائرة واحدة سوف تكون قادرة علىٰ ضرب **خمسين** هدفاً. يعتقد جون واردن، الذي سبق له أن لعب دوراً محورياً في التخطيط للحملة الجوية ضد العراق، والذي كان، فيما بعد، قد رأى أن قوة الطيران المتوافرة في سنة 1999م كانت قادرة علىٰ وضع

حد لإنتاج هتلر الحربي وشبكة مواصلاته في غضون ستة أسابيع، أن تلك الفترة الزمنية باتت الآن، مع استحداث طائرات البي ـ 2، قابلة للتقليص إِلىٰ ثلاثة أيام فقط من القصف. ونظراً لأن قاذفة البي ـ 2 بحاجة للعودة إِلىٰ ميزّوري للتزوّد بالذخيرة من جديد، كان من شأن تلك المدة أن تترجم إِلىٰ ستة أيام حرب في كوسوفا. فيما بعد حين انتهى كل شيء وبادر الهدّافون ورجال الاستخبارات الأَمريكيون إِلىٰ دراسة الملاحظات ومقارنتها توصل هؤلاء إِلىٰ استنتاج يقول بأن العملية كانت ناجحة حتى قبل أن يدركوا أنّها كان ناجحة في وقت مبكر من الحرب. فالألم الذي كانوا يحدثونه، رغم عدم تأثيره المباشرعلىٰ ميلوسوفيتش وبطانته المقربة في بلگراد، كان واقعياً وفعالاً جداً بالنسبة إِلىٰ قواته في الميدان وعلىٰ الجبهات. ومع توصّل أجهزة استخبارات الناتو إِلىٰ فهم أساليب الصرب في تحريك قواتهم في الميدان ونقلها من مكان إِلىٰ آخر لدى تعرّضها للهجمات الجوية المتواصلة، ومع تحسن الطقس بصورة درامية انقلابية، تضاعفت كفاءة الحملة الجوية بصورة مطردة ومنهجية، حتى قبل أن تبدأ بوضع بصماتها علىٰ بلگراد.

علىٰ الرغم من أن قائمة الأهداف كانت قد توسعت، فإن الهدافين الأَمريكيين ظلّوا مستائين كثيراً من القيود الباقية. ففي قلب بلگراد، مثلاً، كانوا متلهفين للإجهاز علىٰ محطة مقاسم اتصالات هاتفية رئيسية، غير أنَّها علىٰ مسافة أربعين ذراعاً من كنيسة تاريخية تعود إِلىٰ القرن العاشر. كان المقسم في قلب أحد المباني وكان من السهل ضربه بقنابل من ذوات الألفين من الأرطال الإنكليزية، غير أن نوافذ الكنيسة التاريخية الجميلة كان من شأنها أن تتحطّم رغم أن أي جزء من الهيكل الرئيسي لم يكن معرضاً للتدمير. وبالتالي فقد تعين عليهم تجاوز الهدف. وعلاوة علىٰ ذلك، أحجموا عن ضرب مصانع يوگو، علىٰ الرغم من معرفتهم لحقيقة أن ميلوسوفيتش كان يستخدمها في إصلاح وحدات الرادار المتحركة وصواريخ سام الموجودة لديه. غير أن الهدّافين كانوا

متأكدين من أنّهم سيكونون قادرين علىٰ اقتلاع تلك المصانع من أساسها إذا ما طالت الحرب وبات ضربها مطلوباً في يوم من الأيام.

ما لبثت القوّات الصربية المنتشرة ـ التي كانت جماعات من الصيادين والقنّاصة ـ أن تحوّلت إلىٰ قطعان من الطرائد والفرائس، إلىٰ الاضطلاع بدور لم تكن مستعدة له. أما الفعالية المتزايدة للحملة الجوية فقد كانت متدرجة: ما من لحظة مسرحية مثيرة واحدة شهدت تضافرها كلها في وقت واحد. في البداية كان الصرب تشكيلات كبيرة للهجوم، كما تعلّموا من الروس، غير أن قاذفات وارتوگ طراز آ ـ 10 كانت بالغة القَسْوة، خصوصاً علىٰ وحداتهم المدّرعة. قال أحد كبار ضباط الطيران فيما بعد: «توقع المرء أن يكونوا قد أخذوا دروساً من العراقيين حول طائرات الوارتوگ، غير أنّهم كانوا أبطالاً حقيقيين ـ توهموا أنّهم أكثر صلابة وشطارة من العراقيين، ثم ما لبثوا أن اكتشفوا أنّهم كانوا علىٰ خطأ». إلاّ أن الصرب بادروا، تدريجياً، إلىٰ تقسيم قواتهم إلىٰ وحدات أصغر بكثير وراحوا يَصُفُّون دباباتهم بجانب البيوت لإجبار طياري الناتو علىٰ التحلي بالحذر جراء عدم معرفتهم بهوية المقيمين في تلك البيوت.

مع حلول أوائل شهر أيار/ مايو بدأت وحدات الاحتياط الصربية المنتمية إلىٰ بلدات معينة التي كانت قد دُعيت بصورة جماعية إلىٰ الخدمة، تنقلب علىٰ الحرب، وراح بعضها يتمرد جماعياً في حين صارت وحدات أُخرى تعاني من معدلات تسرُّب وهروب مرتفعة. وفي عدد من المناسبات تعين علىٰ أجهزة الأمن الصربية أن تسلّط خراطيم المياه علىٰ المدنيين في البلدات التي كان الفارّون والمتمرّدون قد جاؤوا منها. وفي الوقت نفسه كانت قوات جيش تحرير كوسوڤا تتجمع في وحدات كبيرة وتعيّن علىٰ الصرب أن يتعاملوا معها جنباً إلىٰ جنب مع الحملة الجوية الكاوية. سرعان ما انقلب الوضع إلىٰ حالة حرب عصابات قديمة قدم التاريخ، حرب عصابات تكرّرت قصتها مرات كثيرة: الصرب أسياد الساحة نهاراً، وجيش تحرير كوسوڤا سيدها ليلاً.

كان الناتو يكتَسب قدراً متزايداً من المهارة في اجتثاث صواريخ السام ومحطات الرادار الصربية. بقي أحد المفاتيح كامناً في الاهتداء إِلىٰ أماكنها، في العثور عليها. فالصرب دأبوا علىٰ تحريكها دون توقف، غير أن الهدّافين ما لبثوا أن أصبحوا خبراء في النظر إِلىٰ مربض معين لأحد صواريخ سام فالتكهن بالمكان الجديد الذي ربما وقع اختيار الصرب عليه، منطلقين من معرفة المسافة المحدودة الممكن قطعها. وفقاً لإحدى مجموعات الناتو الإحصائية، كان الصرب، في بداية القتال، ينقلون وحدات الرادار المتحركة مرة كل ست وثلاثين ساعة تقريباً وصواريخ سام مرة كل اثنتي عشرة ساعة، أما مع حلول منتصف أيار/ مايو فصاروا ينقلونها مرة كل خمس وأربعين دقيقة.

كذلك مع حلول منتصف أيار/ مايو، باتت استخبارات التحالف تعرف، للمرة الأولى، أن الحرب الجوية كانت تؤثّر كثيراً وبقوّة لا يُستهان بها علىٰ البُنية السياسية الصربية. ثمة مصادر موثوقة في يوگوسلاڤيا، ولبعضها صلات بنظام ميلوسوڤيتش، بدأت تتحدَّث عن تأثير القصف. راحت تقول إن ميلوسوڤيتش أصبح أكثر انعزالاً باطراد عن بعض أقرب حلفائه، صار أكثر حنقاً وعصبية في سلوكه الشخصي، وتضاءلت مناسبات ظهوره أمام الجمهور بصورة مطردة. أما السكان الساخطون الذين صبّوا جام غضبهم ليس فقط علىٰ الناتو بل وعلىٰ ميلوسوڤيتش أيضاً، فما لبثوا أن أصبحوا، رغم محاولات آلة الدعاية الميلوسوڤيتشية الرامية إِلىٰ تقديم صورة شعب صربي بطل، متحفّز، لا يعرف معنى الخوف، شعب يسخر من الناتو ويزداد تلاحماً وتماسكاً مع كل قذيفة تسقط علىٰ رأسه، شديدي التجهم والشراسة. ظلت معدلات الفرار من الجيش متصاعدة خصوصاً بين صفوف المجنَّدين المؤمنين بكوسوڤا صربية دون أن يكونوا مستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيلها.

كان ميلوسوڤيتش غارقاً في الوهم حين راهن علىٰ احتمال تمزق الناتو وعجزه عن الصمود. بدأت مصادره داخل الناتو تتحدَّث عن أن التحالف بات،

بدلاً من ذلك، عاكفاً علىٰ رفع مستوى تشدّده السابق، دائباً ليس فقط علىٰ ضرب قلب جهازه السياسي والاقتصادي بالذات فقط، بل ومتخذاً خطوات تمهيدية علىٰ الورق استعداداً لإرسال القوّات البرية. كان، عملياً، قد أصبح معزولاً عن باقي العالم. ربما بقي الروس، نظرياً، مؤيدينه، منتقدين الناتو، وشديدي الاستياء مما كان يفعله، غير أنّهم لم يكونوا في وضع يمكنهم من فعل أي شيء، لأنهم شديدو الاعتماد علىٰ الغرب علىٰ صعيد المساعدات الاقتصادية. حتى اللحظة لم تشكّل الحرب عَرْضاً لأية أخوة سلافية شاملة بمقدار ما أبرزت صورة خاطفة لعجز روسي فاضح. بقي ميلوسوڤيتش وحده في السَّاحة.

كانت ثمة مؤشرات سلبية أُخرى. لم يكن جيش تحرير كوسوڤا هاجعاً خلال عمليّات القصف. أدرك الجيش أنّه كان قادراً علىٰ استغلال درع جوية جديدة بالغة الروعة فاستأنف جهوده، منظّماً نفسه في وحدات أكبر، وإنْ غير نظامية إلىٰ حدود معينة، ربما ضعيفة التدريب، ولكنها متزايدة الجرأة باطراد. ومع حلول منتصف أيار/مايو ما لبث الطقس، الذي سبق له أن عرقل عمل طائرات الناتو علىٰ صعيد القيام بجولات القصف فوق كوسوڤا، أن صفا، وراح الناتو يضرب وحدات ميلوسوڤيتش المدرّعة، لاجماً قواته، في حين بات أعداء ميلوسوڤيتش، جيش تحرير كوسوڤا، البالغ عددهم حوالي عشرة آلاف مسلح، فاعلين. وبسبب هذا أصبح ميلوسوڤيتش يواجه مأزقاً إضافياً. للمرة الأولى بات مهدّداً بخطر التعرّض للهزيمة، عسكرياً، في كوسوڤا، خصوصاً الآن بعد أن بدأ الحلفاء يخطّطون لإرسال قوات برية.

أما القضية الأُخرى التي تعين عليه أن يتعامل معها فكانت مسألة تحكّمه الشخصي بالبلاد. حين تولى السلطة حصلت سلسلة من الاحتجاجات المحلية علىٰ سياساته وأساليبه الدكتاتورية، غير أنّه تمكّن علىٰ الدوام، بسرعة وبعنف، من قمع جميع المعارضين وكتم أنفاسهم وضاعف من قوة قبضته ليس فقط علىٰ

العمليَّة السياسية بل وعلىٰ وسائل الإعلام أيضاً. غير أن مفتاح المحافظة علىٰ السلطة، كما في المنظمة الشيوعية البائدة، بقي متمثلاً بأجهزة الأمن السرِّيَّة. ولكن العالم من حوله كان قد تغيّر، ولم تكن التحرّكات الديمقراطية قد اختفت كلياً من الوجود. وعلىٰ الرغم من حماس الصرب غير القليل لقضية كوسوڤا ـ ضرورة بقائها جزءاً من وطنهم ـ فإن عدداً غير قليل من المواطنين الصرب ذوي التوجهات الأكثر ديمقراطية ممن كان بعضهم يريد علاقات أوثق مع الغرب وبعضهم الآخر لم يكن يريد ذلك كانوا قد باتوا مدركين، شاؤوا ذلك أم أبوا، حقيقة أنهم كانوا في حرب بسبب تطرفات ميلوسوڤيتش السياسية، استخفافه المغرور بالناتو، وأحقاده العرقية. وذلك الإدراك، أو جزء منه علىٰ الأقل، كان علىٰ الدوام موجوداً. غير أنّه الآن كان يحملهم ثمناً باهظاً.

كانت يوگوسلاڤيا أو صربيا، علىٰ الصعيد السياسي، في منزلة بين منزلتين، بين بين، لا هي شمولية كلياً ولا هي ديمقراطية جداً بعد. ففي المرحلة الانتقالية من مجتمع الحرب الباردة إلىٰ مجتمع ما بعد الحرب الباردة، كان ميلوسوڤيتش قد استغل فراغ السلطة الناشئ ووضع يده علىٰ بعض أدوات الحياة الديمقراطية الحاسمة مثل وسائل الإعلام مع التعامل مع المعارضين السياسيين بقسوة بالغة. غير أن ذلك لم يكن كَسْباً للشعبية؛ ومع حلول شهر أيار/مايو بدأ عدد كبير من اليوگوسلاڤيين يواجهون الآثار التراكمية للعقوبات الاقتصادية الغربية، للانعزال عن الغرب، ولمعرفة حقيقة أن بلداناً أُخرى في أوروپا كانت شيوعية في الماضي بدأت تسير باتجاه الديمقراطية في حين كان اليوگوسلاڤيون لا يزالون يتصارعون مع نظام حكم دكتاتوري وتسلطي. ومما زاد الطين بلّة أن البلاد كانت تتعرّض للقصف الذي كان نتيجة مباشرة لمطامع ميلوسوڤيتش؛ إنها حركاته السياسية ولكنهم كانوا الطرف الذي توجَّبَ عليه أن يدفع الثمن. ربما لم يكن الشعب الصربي معجباً بما كان الناتو يفعله، غير أن الأجهزة الاستخباراتية رأَتْ أنّهم أصبحوا الآن يحمّلون ميلوسوڤيتش جزءاً غير ضئيل من المسؤولية.

حين أخفق القصف كسلاح سياسي وحيد في حروب سابقة، تمّ ذلك بصورة شبه دائمة في مواجهة مجتمع أوتوقراطي خاضع للسيطرة مئة بالمئة. غير أن يوگوسلاڤيا كانت، رغم الجهود الكثيفة التي بذلها ميلوسوڤيتش لترسيخ السلطة وتحصينها، مختلفة بعض الشيء. فالبلد، المتصارع مع نفسه إِلىٰ هذا الحد أَو ذاك، كان هجيناً سياسياً، نظاماً أوتوقراطياً [فردياً] مع قوى ديمقراطية متحركة بين الحين والآخر، غير أن نشاطها الفعلي تحت السطح. جاء القصف ليؤكد الصدع القائم بين الطرفين، موسّعاً الهوة الفاصلة بين أولئك المشدودين إِلىٰ أحقاد الماضي من ناحية وأولئك الحالمين بالحرية المفقودة طويلاً والمؤخَّرة الآن من ناحية ثانية. خلال صعوده كان ميلوسوڤيتش قد استخدم أدوات السلطة وعواطف نزعة قومية بالغة التطرّف والقسوة من أجل التصدي لنزاعات غريزية ديمقراطية لا تقل عنها قوة وعنفواناً. وقد حقَّقَ نجاحاً في البداية. ففي الأيام الأولى من حكمه ساد اعتقاد يقول بإمكانية المزاوجة بين النزعة القومية الضارية والمشاعر الديمقراطية الجنينية. أما الآن، وبعد أن برز علىٰ السطح واقع أكثر قسوة، فإن انفصالاً عميقاً كان يتم بين هاتين القوتين. لم يكن ذلك الحلم بالديمقراطية قد تلاشى بصورة كاملة، وما لبثت مغامرات ميلوسوڤيتش الخارجية أن فتحت أعين الكثير من الصرب علىٰ مدى ضعفهم وعجزهم في الحقيقة.

ثمة نقطة ضعف إضافية عَزَفَ مصمّمو القصف علىٰ أوتارها ألا وهي حقيقة أن المستويات العليا من الحكم في بلگراد كانت تُدار، علىٰ الرغم من أن نظام يوگوسلاڤيا لم يكن نظاماً طغموياً مكشوفاً ومفضوحاً مثل النظام في كينيا تماماً، من قبل عصابة مافيا نصف رأسمالية ونصف شيوعية، مؤلَّفة من ميلوسوڤيتش، أفراد أسرته، وأصدقائهم المقرّبين. فهؤلاء كانوا يدسّون أنوفهم وأيديهم في جميع الصفقات، يديرون مشروعات مدعومة من الدولة دون أية منافسة حقيقية، ويحقِّقون أرباحاً هائلة. في غضون السنوات العشر التي تولى

فيها ميلوسوفيتش وأسرته إدارة البلاد، دأب عدد قليل من القطط السمان على ابتلاع ما في الخزائن العامة ـ الخاصة. برأي بعض نقاد نظام ميلوسوفيتش، لم يكن ثمة أي شَرَه، تماماً مثل الماركسيين المخلصين السابقين الذين توفّرت لهم أخيراً فرصة تحويل نظام رأسمالي جزئياً وتعديله بما يلبي حاجاتهم ومتطلباتهم. كان هدّافو الناتو يشعرون بسعادة غامرة وهم يركّزون على تلك الشركات العائدة ملكيتها إلى أفراد عصابة ميلوسوفيتش المافيوية ومدمرين مبانيها، مدركين أن من شأن عملهم أن يضاعف من الضغط على ميلوسوفيتش. وقد فعل. سرعان ما بدأت التقارير الصادرة عن بلگراد تتحدَّث عن أعداد من المستشارين، الوزراء، والصنائع الموثوقين الراغبين في الرحيل عن البلاد وإخراج أموالهم منها أيضاً. وقد كان عدد غير قليل من هؤلاء يحاولون إقناع ميلوسوفيتش بفعل شيء من شأنه أن يضع حداً للحرب.

للمرة الأولى كانت واشنطن قد بدأت، أواخر شهر أيار/مايو، تتفاءل، أخيراً، بنجاح القصف. وفي بروكسل، كان التخطيط للقوات البرّية، لقوات يصل تعدادها إلى 225 ـ 250 ألفاً، جارياً على قَدَم وساق، وكان مخططو الناتو منفتحين تماماً على أولئك المشبوهين بوجود علاقة وثيقة بينهم وبين ميلوسوفيتش سامحين لهم بمعرفة بعض التفاصيل ـ إن لم يكن مخطط المعركة الدقيق. كان البيت الأَبيض، هو الآخر، أكثر ثقة الآن. فقد بادر الرئيس إلى إلقاء خطابين جيدين عن الحرب، أحدهما في جامعة الدفاع القومي بواشنطن، والآخر في نادي الكومنولث بسان فرانسيسكو. مهم بالمثل أيضاً أن كلنتون قام، في الثامن عش من أيار/مايو، بالتراجع عن تصريحه الأصلي الخاص بالقوّات البرية الصادر في 24 آذار/مارس. فالعبارة التي أطلقها هذه المرة هي: «جميع الخيارات مفتوحة».

كانت الأمور كلها تتصاعد تدريجياً لتصل إلى الحد الفاصل. ففي السابع والعشرين من أيار/مايو اجتمع في بون وزراء دفاع فرنسا، ألمانيا، بريطانيا،

إيطاليا، والولايات المتحدة لمناقشة موضوع استخدام القوّات البرِّيَّة. وعلىٰ الرغم من أن واشنطن كانت تتقدم باتجاه استخدام مثل هذه القوّات، فإن بيل كوهن كان لا يزال ميالاً إِلىٰ المعارضة. كان يريد مواصلة الحرب الجوية. أما البريطانيون فكانوا متشدّدين ومستعدين للمشاركة في القوة بخمسين ألفاً من جنودهم. كان الفرنسيون يرون بأن الوقت بات متأخراً ولم يعد ثمة متسع منه لإيصال أية قوة إِلىٰ هناك قبل الشتاء. من الواضح أن الإيطاليين والألمان كانوا منزعجين غير أنهم لم يرفضوا الفكرة. وبعد ذلك الاجتماع مباشرة بادر توني بلير إِلىٰ دعوة ثلاثين ألفاً من الجنود المحليين البريطانيين.

علىٰ الرغم من أن البيت الأَبيض كان يتقدم ببطء علىٰ طريق التسليم بضرورة القوات البرية، فإن هيئة رؤساء الأركان المشتركة بقيت غير مقتنعة. فلدى عودته إِلىٰ وزارة الدفاع أواخر أيار/ مايو، شعر كلارك بأن رايمر كان يستمهله، طالباً مزيداً من الوقت لدراسة الخطط. ولدى جو رالستون وجد كلارك قدراً مساوياً من المقاومة ـ أسئلة عما يمكن أن يحدث إذا تورطوا بإدخال القوّات البرية واندلعت الاشتباكات في أماكن أُخرى، مثل كوريا، وبعد أحداث حرب الخليج [الثانية] أيضاً. رأى كلارك، بشيء من السخط، أننا كنا في حرب صَيْد وقَنص، ونحن نريد أن ننتصر، أما هم فيحدّثونني عن فرضية ماذا لو. . .

في الوقت نفسه كان القادة الغربيّون يلعبون الورقة الروسية بأكبر قدر ممكن من الجرأة. منذ البداية كان ميلوسوڤيتش قد عوّل علىٰ حماية الروس. غير أن روسيا الجديدة كانت هشة اقتصادياً، معتمدة علىٰ تمويل الغرب لا تكاد تقوى علىٰ تدبّر شؤونها الخاصة، ناهيك عن الدفاع عن شقيق سلاڤي (لم يكن حتى متمتعاً بمحبة يلتسن). كانت لنائب وزير الخارجية، ستروب تالبوت، ارتباطات روسية قوية وقد كان صلةَ الوَصْل معهم منذ البداية. حتى قبل الشروع بعمليَّة القصف، حين كان ميلوسوڤيتش يتطلع نحو موسكو حالماً بالحصول علىٰ الصواريخ الروسية الحديثة، كان تالبوت قد أوضح للروس بلغة لا تقبل

التأويل بأننا لن نطيق ذلك، بأن من شأن أي ترتيب قائم علىٰ الإعارة أَو التأجير أن ينسف ويقطع شريان الحياة الاقتصادية الروسية مع الغرب. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، كان جزء حاسم من استراتيجية ميلوسوڤيتش قد سقط، وبات معزولاً علىٰ صعيد سياسة القوى العظمى، رجلاً بلا أي شقيق أكبر.

في أثناء قمة الاحتفال بالذكرى السنوية لحلف الناتو، تركّز أمل القوى الغربية الأساسي علىٰ إشراك أحد كبار المسؤولين الروس ممثلاً لروسيا كرمز يشير إِلىٰ أن الناتو لم يعد حِلْفاً معادياً لروسيا بل أصبح جزءاً من شراكة ديمقراطية أوْسَع مؤهلاً للتعاون مع الروس. غير أن التوترات الناجمة عن القصف ما لبثت أن أجهزت علىٰ ذلك الأمل. أساساً كان يلتسن قد توقع تعرُّض الناتو للتمزّق جراء القصف، مع اضطلاع الفرنسيين بالدور الطليعي، غير أن جاك شيراك كان قد ذهب إِلىٰ موسكو مصطحباً خطاً متشدداً بالنسبة إِلىٰ الحرب، لإفهام يلتسن أن احتمال بقاء الناتو متماسكاً احتمال وارد، وربما بقوة. وخلال قمة الناتو، كان يلتسن قد اتصل بكلنتون وجرت بين الرجلين محادثة هاتفية تفصيلية طويلة، حيث كان الأول شاعراً بقدر غير قليل من الألم السياسي لأن الغرب كان دائباً علىٰ قصف طرف يفترض فيه أن يساعده ولكنه بقي بلا حول ولا قوة. وما لبث ذلك الاتصال أن تمخّض عن قيام يلتسن بتعيين چيرنوميردن، أحد رؤساء الوزارة السابقين والحليف الوثيق، مبعوثاً خاصاً إِلىٰ الغرب حول القضية. وكما اعترف چيرنوميردن لاحقاً أمام آخرين، فإن أوامر يلتسن كانت تقول: «لا يهمني ما يتعين عليك فعله، أريد فقط أن تنهي المسألة. إنها تجلب الخراب علىٰ كل شيء»[1].

سرعان ما اجتمع چيرنوميردن بكل من تالبوت ونائب الرئيس آل گور، وخرجوا بنوع من الصيغة المبتذلة القائمة علىٰ تصنيف الناس إِلىٰ عسكر من

---

(1) جوداه، 274.

جهة وحرامية من الجهة المقابلة/ أخيار من ناحية وأشرار من ناحية ثانية (علىٰ الرغم من أن چيرنوميردن أطلق عليهما اسم ثنائي المطرقة والسندان. تقرّر أن يصطحب شخصية محايدة، محكومة بالقيام بالجزء الأكبر من العمل الصعب لدى الجدل مع ميلوسوڤيتش، لأن من شأن قيام روسي بالانقضاض علىٰ سلافي شقيق ألا يكون مناسباً. اقترحت مادلين أولبرايت رئيسَ وزراء فنلندا، مارتي آهتيساري. سارع الطرفان الأَمريكي والروسي، كلاهما، إِلىٰ التسليم بأنّه كان الخيار المثالي. ثمة كانت الآن، دون أن ينتبه أحد، مسيرة سلمية جادة للمرة الأولى، كان آهتيساري ممثلاً لبلد عضو في الاتحاد الأوروپي ولكنه ليس عضواً في الناتو وكان الروس ينظرون إليه باستحسان بوصفه لاعباً محايداً. وكذلك فإنه كان متمتعاً بإعجاب الأَمريكيين، خلافاً لمواقف معظم كبار مسؤولي الأمم المتحدة.

كانت ثمة مؤشرات متزايدة باطراد دالة علىٰ أن واشنطن باتت متحلية بالقَدْر المطلوب من التصميم. لخص البيت الأَبيض نظرته إِلىٰ أية تسوية بعبارة بسيطة تخص كوسوڤا: «الصرب يخرجون، الناتو يدخل، الأَلبان يعودون». بدأ بيرگر، الذي سبق له أن كان متشككاً حول أية حملة جوية، يبدو أقرب إِلىٰ الصقور. ففي الثاني من حزيران اجتمع بعدد من منتسبي عالم الأَمن القومي ممن كانوا نشطاء حول البوسنة وكوسوڤا، وكانوا قد لمسوا شكوكه في الماضي، ليقول لهم: «سوف ننتصر بالتأكيد. نقطة. دون أدنى شك. ليس ثمة أية بدائل. هذا أولاً. والانتصار يعني، ثانياً، ما قلنا إنه يعنيه. وتنطوي الحملة الجوية، ثالثاً، علىٰ أهمية بالغة الجدية. لقد قال الرئيس، رابعاً، إنه لم يلغ أية خيارات. لكم إذن أن تعودوا إِلىٰ أولاً: سوف ننتصر»[2]. ثم جلس بيرگر يكتب ما اعتبره مذكرة مصيرية للرئيس، موجزاً خياراتهما. علىٰ الرغم من أن الأمور كانت تسير سيراً حسناً، أَو بشكل أفضل علىٰ الأقل، فإن النتيجة كانت

(2) المصدر السابق، 271.

لا تزال غامضة، فضلاً عن أن من شأن رد فعل ميلوسوڤيتش أن يأتي مفاجئاً وغير متوقع حين يقوم الناتو بالتعاون مع الروس الدائبين علىٰ ما يشبه التنسيق مع الحلف، بحصره في الزاوية. أولئك الذين تعاملوا مع الرجل عن كثب اعتقدوا بأنّه أكثر الشخصيات تقلّباً، أكثر الناس قُدْرة علىٰ الانقلاب مزاجياً رأساً علىٰ عقب. هل كان سيذعن بسرعة أم أنّه كان سيضطر الحلف إِلىٰ شن عمليّة اجتياح ويراقب الناتو وهو يستخدم الطاقة القصوى لآلته التكنولوجية في سحق أهل بلگراد قبل السعي إِلىٰ اتفاق ما؟ مع شخص مريض اجتماعياً مثل ميلوسوڤيتش، حسب تشخيص معظم كبار القادة الغربيين لحالته، لم يكن ثمة أي مجال للتنبؤ عما يمكن أن يفعله في الساعات اليائسة الأخيرة من مقامرته الخاسرة.

لم تكن تلك مذكرة بيرگر الأكثر تفاؤلاً. فقد قال إننا نستطيع أن نجتاح ولكن الأمر قد لا يكون سهلاً. لم يكن ثمة أي شيء جذاب في خيار القوّات البرية. قد نضطر لإرسال ما يصل تعداده إِلىٰ مئتين وخمسين ألفاً من الجنود إِلىٰ كوسوڤا في زحمة ما قد يكون شتاءاً قاسياً. من شأن الدبابات الأَمريكيَّة أن تواجه صعوبات كبيرة وهي تخترق الأنفاق الكوسوڤية. لقد كان، برأيه، خياراً جهنمياً، خياراً لن يحظى، بالتأكيد، بأية شعبية، خصوصاً إذا أقدم الصرب علىٰ تقطيع وحداتهم وراحوا يقضمون أطراف وذيول قوات الناتو علىٰ طريقة حرب العصابات. أَو يمكننا أن نواصل الحرب الجوية، نرجئ الحرب البرية، نحاول تعظيم طاقة ما يجري إسقاطه من متفجرات علىٰ أهل كوسوڤا البائسين خلال الشتاء، ثم نبادر إِلىٰ الضرب بالقوّات البرية في الربيع. أَو نستطيع تسليح جيش تحرير كوسوڤا واستخدام طيران الناتو بالارتباط مع قواته، علىٰ الرغم من وجود مخاطر طويلة الأجل كامنة في التحوّل إِلىٰ شركاء مع جماعة مثل تلك. أنجز بيرگر تقريره في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، وضعه علىٰ مكتب الرئيس، وذهب إِلىٰ البيت.

حقَّق فريق تالبوت، ـ چيرنوميردن ـ آهتيساري تقدّماً لافتاً لحظة تشكّله تقريباً. انضمت روسيا إلىٰ مجموعة الجي ـ 7، الدول الديمقراطية الصناعية الطليعية السبع، في تأييد اقتراح دعا إلىٰ إخراج جميع القوَّات الصربية ومعها قوات الأمن والقوَّات شبه العسكرية من كوسوڤا، واستبدالها بقوات حفظ سلام حقيقية. كان الاختلاف الحقيقي الأول بين الأَمريكيين والروس، كما لاحظ تالبوت لاحقاً، حول كلمة **جميع**. فبالنسبة إلىٰ الأَمريكيين والناتو كان علىٰ **جميع** القوَّات العسكرية والأمنية وشبه العسكرية الصربية أن ترحل، وإلاَّ فإن إرسال أية قوات لحفظ السلام سيكون بالغ الخطورة، إذ من شأن مثل هذه القوَّات أن تنحصر بين النيران الأَلبانية من جهة والصربية من الجهة المقابلة. كان رد الصرب قد جاء يقول إنهم راغبون في الاحتفاظ ببعض القوَّات الصربية في كوسوڤا، كان الروس قد وقفوا في صفهم، مما أدّى إلىٰ حصول بعض البطء لبعض الوقت. أما الاختلاف الآخر مع الروس فتركز علىٰ ما إذا كان جزء من دور حفظ السلام سيضطلع به حلف الناتو. كان ذلك هو ما طلبه الغرب الذي لم يكن واثقاً بالأمم المتحدة، خصوصاً في هذه الساحة وبعد ما كان قد حدث في البوسنة. ذلك أيضاً أفضى إلىٰ تأخير أي اتفاق.

كان سيتضح أن الروس أيضاً كانوا راغبين في الاضطلاع بدور ماعلىٰ صعيد حفظ السلام عبر إشراك قوات تابعة لهم في كوسوڤا. بدا الموقفان الروسي والأَمريكي جامدين أواخر أيار/ مايو، حيث شعر الأَمريكيون أن المقاومة الرئيسية صادرة عن الجيش الروسي الذي لم يكن قد ذاب بعد بصورة كاملة في بوتقة حقبة ما بعد الحرب الباردة. غير أن الروس ما لبثوا أن بادروا في صباح الثالث من حزيران/ مايو، بعد جلسة مفاوضات مطولة دامت ثلاث عشرة ساعة، وبتوجيهات مباشرة، علىٰ ما يبدو، من يلتسن، إلىٰ الموافقة، أخيراً، علىٰ وجوب رحيل جميع القوَّات الصربية عن كوسوڤا. تحقق الهدف. في النسخة الروسية التي كان آهتيساري وچيرنوميردن سيحملانها إلىٰ بلگراد، تم استخدام عبارة «إخراج **جميع** القوَّات الصربية». ثارت حفيظة الجيش

الروسي. وكذلك فإن عمليَّة حفظ السلام كانت ستشتمل علىٰ دور ذي شأن للناتو.

في الثالث من حزيران/ يونيو طار چيرنوميردن وآهتيساري إلىٰ بلگراد للاجتماع بميلوسوڤيتش قام آهتيساري باستعراض بنود الاتفاقية معه فيما بقي چيرنوميردن يراقب. ثم بادر آهتيساري إلىٰ التحذير قائلاً بأن من شأن رفض ميلوسوڤيتش للشروط أن يفضي إلىٰ جعلها أقسى وإلىٰ جعل القصف أكثر كثافة. كان الناتو سيقوم بتدمير شبكة الهاتف القومية مع جوانب حياة بلگراد اليومية الأُخرى. وفيما كان آهتيساري يتابع كلامه التفت ميلوسوڤيتش إلىٰ چيرنوميردن ملتمساً النجدة، ولكنه لم يحصل عليها، فأدرك أن الروس باتوا، عملياً، في الطرف الآخر، وأن اللعبة قد انتهت. كانت تلك أفضل صفقة يمكنه الحصول عليها، برأي چيرنوميردن؛ كان من الأفضل له أن يقبلها لأن أي بديل كان من شأنه أن يكون أسوأ. سارع ميلوسوڤيتش إلىٰ دعوة الرجلين كليهما لتناول طعام العشاء معه. اعتذرا عن تلبية الدعوة. كانت اللعبة الاجتماعية، هي الأُخرى، قد وَلَّتْ إلىٰ غير رجعة[3]. في اليوم التالي وافق ميلوسوڤيتش علىٰ الشروط.

علىٰ الرغم من أنّه كان قد تقرَّر إرسال القوّات البرية إذا دعت الضرورة، وعلىٰ الرغم من أن ميلوسوڤيتش كان يعرف ذلك وأثَّر علىٰ قراره الأخير، فقد كان انتصاراً فريداً لاستخدام سلاح الجو الحديث، الذي كان قد بدأ يفقس من البيض للتو في حرب الخليج وما لبث أن وصل إلىٰ سن النضج بالمعنى العسكري في حملة كوسوڤا، ولو ببطء وبعد تأخير. أو كما كتب جون كيگان، الذي يُعد من أكفأ المؤرخين العسكريين بعد بضعة أيام من استسلام ميلوسوڤيتش: «ثمة مواعيد معينة في تاريخ الحرب تشير إلىٰ نقاط انعطاف حقيقية. والعشرون من تشرين الثاني/ نوڤمبر، 1917م واحد من هذه المواعيد،

---

(3) المصدر السابق، 278 ـ 279؛ مقابلة مع تالبوت؛ مقابلة تالبوت، **فرونتلاين**، 22/ 2/ 2000م.

حين أظهرت الدبابة في كامبراي أن سيطرة المشاة، الخيالة، والمدفعية علىٰ أرض المعركة قد تمت الإطاحة بها. والحادي عشر من تشرين الثاني، 1940م موعد آخر، حيث أثبت إغراق الأسطول الإيطالي في تارانتا أن حاملة الطائرات وطائراتها كانت قد ألغت التفوق القديم قدم الزمن للبارجة الحربية. هناك الآن نقطة انعطاف جديدة جديرة بالتثبيت علىٰ الروزنامة: إنه الثالث من حزيران/ يونيو، 1999م، حين برهن استسلام الرئيس ميلوسوڤيتش علىٰ إمكانية كسب الحرب بالطيران وَحْده».

كان أحد أوائل ضحايا ذلك الانتصار هو الجنرال وَسْ كلارك. نادراً ما كان جنرال قائد في قضية مظفرة قد عُومل بمثل تلك القسوة. لقد تم كل شيء ببراعة فائقة، بمَكْر شديد. قال رؤساء الأركان الآخرون للبيت الأبيض إنه كان سيُجبر علىٰ التقاعد، ما لم يتم العثور علىٰ منصب أربع نجوم مناسب لرالستون. كان البيت الأَبيض مديناً لرالستون، ومثله بيل كوهن أو أكثر. كان رالستون يد كوهن اليمنى، كان قد عالج إذلاله الشخصي الأبكر بسخاء وكرم، كان لاعباً جماعياً ذا قيمة، وكان قد أشرك الجميع بالأحداث في وقت حرج بالغ الصعوبة. بنظر البعض كان رئيس الأركان الفعلي تحت قيادة شلتون، وثمة شائعات تحدَّثت ـ دون وجود أي وعد صريح ـ عن احتمال حلوله محله رئيساً للهيئة لدى انتهاء فترة شورت منتصف سنة 1999م، كان من شأن المشكلات الشخصية أن تذهب مع الزمن وتصبح قصة كَلي فْلِنْ جزءاً من التاريخ، غير أن أحداً لم يرغب في حدوث أي تغيير، بسبب الحرب، مما مكَّن شورت من الحصول علىٰ فترة ثانية مؤلفة من سنتين اثنتين.

حين يكونون بحاجة إِلىٰ شاغر يعرفون أين يبحثون عنه. وقع الاختيار علىٰ مكان وَسْ كلارك. أما كون منصب القائد العام لقوات التحالف في أوروپا عائداً تقليدياً لأحد جنرالات القوَّات البرية فلم يعد يهم. ما أغفله رؤساء الأركان الآخرون أمام بيرگر وكلنتون (أَو ما زعم الأخيران فيما بعد أنّهم لم

يسلطوا الضوء عليه) فقد تمثَّل بأنّهما، لدى توقيع أمر تعيين رالستون قائداً سنة جديداً لقوات التحالف في أوروپا، كانا يوافقان واقعياً علىٰ إزاحة كلارك، علىٰ إنهاء حياته المسلكية، علىٰ إجباره علىٰ التقاعد. ونظراً إلىٰ طبيعة الحرب المنتهية للتو وزحمة التوترات التي كانت قد نشأت، لم يكن ما حدث أقل من عمليَّة طَرْد من الخدمة. وَضَع كلنتون توقيعه علىٰ القرار دون أن يدرك، علىٰ ما يبدو، أنه تعرّض للخداع. لا أحد في جهازه استطاع فَضْح دسيسة الپنتاگون التي بيعت للبيت الأبيض بوصفها عمليَّة تعيين روتينية، تنقلات عادية، مجرد عمليَّة إبدال رجل طيب محبوب بآخر انتهت مدته.

زعموا أن كلارك كان قد أنهى الفترة العادية، ولم يكن زعمهم صحيحاً بالطبع بصورة عامة. فالجنرال لوريس نورستاد كان قد خدم ست سنوات ونصف، ألكسندر هيگ كان قد خدم خمس سنوات، وفي هذه الحالة المحددة كان من المتوقع لكلارك، كقائد منتصر استطاع في أصعب الظروف أن يجلب لهم النصر، أن يستمر في المنصب سنتين أو ثلاث سنوات إضافية. وبالفعل فإن جزءاً حاسماً من عمله كان من شأنه أن يكون متمثلاً بمراقبة عمليَّة تطبيق السلام الذي ساهم في كسبه في غضون سبعة أسابيع بعد انتصاره، تم، عملياً، صرف أو إعفاء كلارك من مسؤوليته القيادية. وجرى استبدله برالستون، الذي كان شخصاً أكثر شعبية بما لا يقاس علىٰ ضفة الپنتاگون من النهر. كان وقت تصفية حسابات، وكان معشر الپنتاگون يشعرون بأن هناك أشياء كثيرة يستحق كلارك أن يعاقب عليها.

وهكذا فإن كوهن ورؤساء الأركان كانوا قد تواطؤوا في مؤامرة محكمة. كان المفروض هو أن يقوم كوهن نفسه، رئيس كلارك الرسمي في التسلسل الهرمي للقيادة، بإبلاغ الأخير بما حصل، غير أن الاتصال جاء من هيو شورت الذي أبلغ كلارك بنبأ استبداله. كان الاتصال مفاجئاً تماماً لكلارك، ونظراًلأن نظراءَه لم يكونوا يثقون به ولم يرغبوا في إعطائه أية فرصة للمناورة (خافوا من

مبادرته إلىٰ استخدام صلاته بكلنتون لإلغاء قرارهم)، فقد سرَّبوا النبأ إلىٰ **الواشنطن پوست** في الليلة ذاتها. وبالتالي فإن الاتصال الهاتفي الثاني الذي تلقاه كلارك كان من أحد مراسلي **الپوست** طالباً تأكيد الخبر أو نفيه. كان ذلك يعني أن واحداً من مراسلي **الپوست** كان يسأله عن شعوره إزاء هذا التحوّل غير المتوقع لمسار الأحداث حتى وهو عاكف علىٰ التعامل مع الأخبار الصادمة القائلة بأنه موشك علىٰ الرحيل من بروكسل. علىٰ الفور انقض كلارك بنفسه علىٰ الهاتف محاولاً الاتصال بمختلف كبار المسؤولين في وزارة الدفاع لاستكشاف ما جرى، غير أنهم تعمّدوا، جميعاً، ألا يكونوا موجودين، تملّصوا من المواجهة بصورة واضحة تماماً. قيل له: «لا، إن الجنرال شورت مشغول، في اجتماع». وماذا عن الوزير كوهن؟ «مشغول بالإعداد لاجتماعات صباحية في اليابان، ولم يستطع أخذ المكالمة». وكلما كان الشخص أكثر أهمية كان الوصول إليه أصعب. أما الشخص الوحيد الذي استطاع الاتصال به فهو رئيس المتحدثين باسم الپنتاگون كن بيكون. لم يكن ثمة أي شيء آخر كان كلارك يستطيع أن يفعله. لقد انتهى كل شيء. وبعد بضعة أسابيع قال: «لم يسبق لي أن رأيت نفسي جنرالاً متقاعداً عجوزاً في الخامسة والخمسين من العمر»[4].

انسحق كلارك تحت وطأة النبأ، تلقّى صفعة موجعة جداً، توبيخاً علنياً ذا أبعاد غير مسبوقة. لم يكتف رؤساؤه ونظراؤه بعدم محبته، بل كرهوه وحقدوا عليه علىٰ ما كان قد فَعَلَه. فيما بعد قال له ساندي بيرگر إن الپنتاگون كان، عملياً، قد خدع البيت الأبيض وضلّله فيما يخص تغييره زاعماً أن فترة خدمته كانت عادية. غير أن كلارك كان يعلم جيداً أنّه راح ضحية لمؤامرة، وتحت يده قائمة بأسماء أسلافه الذين كانوا قد شغلوا المنصب لفترات أطول بكثير. ونظراً لأن البيت الأَبيض كان قد سبق له أن ضحّى بآخرين، فإن كلارك لم يكن واثقاً كلياً قط ما إذا كان يتعين عليه أن يصدّق رواية بيرگر أم لا.

---

(4) لورا سلبر، **توك**، نيسان/ أبريل 2000م.

في احتفالات إحالة كلارك علىٰ التقاعد لفت كبارُ ضباط الجيش الأنظارَ بغيابهم. صحيح أن رئيس أركان القوّات البرية، إيريك شينسكي، كان حاضراً، غير أن آخرين من رؤساء هيئة الأركان المشتركة كانوا غائبين، خصوصاً هنري شورت، ابن مؤسسة الجيش [القوّات البرية] ورئيس هيئة رؤساء الأَركان المشتركة، الذي كان في إجازة. أما بعض أعضاء هيئة الأَركان المشتركة، الذين كانوا، عمليّاً، أقران كلارك، كانوا أيضاً غائبين. وقد شكَّلَ ذلك الغياب بالذات توبيخاً مضاعفاً، توبيخاً داخل التوبيخ، كما لو أن الرؤساء كانوا مُصرّين علىٰ إنكار ليس الرجل الذي كان قد أدار الحرب فقط، بل الحرب نفسها. جاء المدنيون إلىٰ الاحتفال: كوهن متولياً الرئاسة، بيرگر، تالبوت، جيم شتاينبرگ. كانت أولبرايت غائبة ولكنها أبلغت آخرين بأنها كانت مستاءة من الطريقة التي عُومل بها كلارك.

بعد سنة واحدة، قام كلنتون، كنوع من التكْفير، بإضافة اسم كلارك إلىٰ إحدى قوائم المرشحين لنيل وسام الحرية الرئاسي، غير أن بعض أصدقاء كلارك ظلوا حانقين. كان هؤلاء يرون أن إدارة كلنتون كانت مدينة لوَسْ كلارك بانتصار بالغ الضخامة. كان الرجل قد اضطلع بأصعب المسؤوليات القيادية، بمهمة قيادية كلَّفه بها فريق كلنتون ونجح في إنجازها علىٰ الرغم من اضطراره لأن يتصارع باستمرار مع تيار خفي من جماعته بالذات. كان قد أنجز ما كان قد عزم علىٰ تحقيقه ضد جملة من العوائق والمصاعب الكبرى، وإذا كان فريق كلنتون قد خُدع من قبل البنتاگون كما زعموا لاحقاً، فإن أقل ما كانوا مدينين به لكلارك هو عكس العمليَّة التي وافقوا عليها دونما قصد وقلبها رأساً علىٰ عقب. غير أن ذلك لم يكن من الأشياء التي يروق لهم فعلها، لأن من شأنه أن يضعهم في صراع حاد وغير مرغوب فيه مع الرؤساء العسكريين ذوي الملابس الرسمية الموحدة المزركشة بالنياشين. ومن المفارقات الساخرة، أن ما حدث لكلارك أدَّى إلىٰ تكوين حتى المزيد من الشكوك حول كلنتون بين صفوف الكثير من

كبار الضباط. ربما كانوا علىٰ خلاف جدي مع كلارك حول سلسلة من القضايا الفلسفية، ولكنهم ظلوا شاعرين بأن كلارك كان مديناً له كثيراً علىٰ الطريقة التي كان قد أدار بها الحرب. والآن حين انقضَّ عليه الآخرون تجريحاً وتقطيعاً، وقف كلارك متفرجاً إِلىٰ حد كبير ولم يفعل شيئاً. مرة أُخرى كانت المسألة مسألة شرائع ووفاء.

* * *

بعد أكثر من ست سنوات من توليه للسلطة وانخراطه في الصراع مع قضية البلقان، كان كلنتون قد أَقْدم، أخيراً وعلىٰ مضض إِلىٰ حد كبير، علىٰ إطلاق عنان الطيران الأَمريكي في كوسوڤا وصربيا. كان قد فاز بالرهان ـ كسبه مؤقتاً علىٰ الأقل، لأن الكسب في البلقان ظل علىٰ الدوام شديد الانطواء علىٰ الملابسات والإشكاليات. غير أن ميلوسوڤيتش ما لبث أخيراً أن سحب يده. وحين كان الأخير قد أقدم علىٰ التراجع، كان كلنتون قد تلقى مكالمة هاتفية من عضو مجلس الشيوخ جو بايدن من ولاية ديلاوير، ذلك العضو الديمقراطي البارز في لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، الذي كان دون نظير تقريباً علىٰ صعيد حث الإِدارة علىٰ التحرّك عسكرياً في البلقان، قال بايدن عبر الهاتف: «تهانينا ـ لقد تعافيت من الدُّوار وأصبحت متماسكاً، ثابت الخطو». رد عليه الرئيس: «كنت شديد القسوة علي يا جو!» صمت برهة ثم أضاف كما لو كان يعتذر، وهذا شيء ذو دلالة، قائلاً: «ألا تذكر أنني كنت حاكم ولاية حين توليت الرئاسة ولم تكن عندي أية خبرة في السياسة الخارجية؟» كانت تلك مهاتفة ودية لطيفة وقد تمت في السنة السابقة من رئاسة كلنتون[5].

(5) مقابلة مع بايدن.

الفصل الرابع والأربعون

سرعان ما أعقب هذه الحربَ الناقصةَ وغير المرضية من نواح كثيرة سلامٌ ناقصٌ وصعب. ففيما كانت في البوسنة بعض القوى التقليدية تسعى باتجاه تحقيق التعددية، كانت القوى الفاعلة علىٰ ساحة كوسوڤا أعنف بكثير وأقل نزوعاً إلىٰ إيجاد أرضية مشتركة. فالأحقاد هنا بين الصرب وألبان كوسوڤا ذات جذور أعمق ـ إنها عضوية ـ ومتبادلة تماماً. ربما كان من شأن أي سلام يتبع القتال ألا يكون سلاماً حقيقياً. وأي فريق أقوى كان سيحاول، بالتأكيد، تعطيل أية مجهودات حفظ سلام، ويستخدم قوته ضد الفريق الأضعف. في هذه اللحظة أو تلك. قبل بضعة أشهر كان الأشرار ـ حسب إجماع الغرب ـ هم الصرب، الدائبين علىٰ تطهير الأرض عرقياً عن طريق طرد الألبان منها. أما الآن، استناداً إلىٰ هزيمة الصرب، واستخدام القوة الجوية المرعبة للناتو خدمة للقضية الألبانية، فقد بات الشر متمثلاً بجيش تحرير كوسوڤا، مع جماعات متعلقة به، راغب في طرد جميع الصرب من كوسوڤا وأجزاء من صربيا الجنوبية، مع ما يتمخض عنه ذلك من إطلاق أحداث عنف. بالنسبة إلىٰ القوّات الغربية الساعية لجلب بعض الاستقرار إلىٰ أجزاء عقارات العالم الأكثر اضطراباً، كان ذلك يعني أن أنصاف حلفائها الحديثين قد تحوّلوا إلىٰ خصوم محتملين. وفي منطقة يشكل فيه الانتقام والثأر حقاً طبيعياً موروثاً، تمثَّلت المشكلة الكبرى مرة أُخرى بتحديد العسكر (الأخيار) والحرامية (الأشرار)، لأن الفريقين كانا يتبادلان الأدوار بسرعة فائقة. فمعتمرو القبعات البيضاء منذ وقت

قصير جداً كان يمكنهم أن يسارعوا إِلىٰ اعتمار القبعات السوداء، في حين كان أصحاب القبعات السوداء قادرين علىٰ وضع القبعات البيضاء علىٰ رؤوسهم.

كانت السنة الأخيرة قد أسهمت كثيراً في تقوية ـ وتشجيع ـ جيش تحرير كوسوڤا والجماعات القومية المتحالفة معه، محوِّلاً إيّاها إِلىٰ قوة سياسية وعسكرية ذات شأن. تركّز هدف هذه الجماعات علىٰ تحقيق الاستقلال الألَباني الكامل، في حين أن الحلفاء الغربيين الذين كانوا لتوهم قد قاتلوا لحماية هؤلاء الألَبان بالذات لم يلتزموا بما هو أكثر من نوع من الحكم الذاتي المحدود في ظل ما من شأنه أن يبقى حكماً صربياً شاملاً. وبالتالي فإن الصفحات الأكثر سواداً وحلكة من تاريخ البلقان ـ صفحات الأحقاد المتأججة في قلوب ألَبان كوسوڤا والصرب ضد بعضهم البعض ـ لم تكن قد طُويت. بل كان قد تمت إعادة إشعالها من جديد وباتت مرشحة لتمزيق المنطقة أشلاءاً، مع بقاء القوى الغربية التي كانت قد هزمت ميلوسوڤيتش متهمة بالاضطلاع بدور الحكم غير الواثق الجديد، وهي عازفة إِلىٰ حد كبير عن التعرّض للانجرار والتوريط.

* * *

كان بيل كلنتون، الذي طالما دأب علىٰ اختزال أهمية الشؤون الخارجية إِلىٰ الحدود الدنيا، هو المستفيد من انتصار الناتو في كوسوڤا، رغم ضآلة المكاسب القابلة للتحقيق من مثل هذا الانتصار. لو كان التدخل قد تمخض عن ردود أفعال عكسية، لو كان القصف قد أخفق وباتت القوات البرية مطلوبة، لكان تسديد ثمن سياسي محدد قد أصبح ضرورياً. لقد كان درساً ثميناً بالنسبة إِلىٰ أي زعيم لأَمريكا ـ للقوة العظمى علىٰ صعيد التعامل مع هذه الحروب المعروفة باسم حروب فناجين الشاي. حتى ولو سارت الأمور علىٰ ما يرام، حتى مع بقاء السيناريو الأكثر تفاؤلاً صحيحاً بشكل معقول، حيث الإصابات متدنية (أَو غير موجودة تقريباً)، وحتى لو لم تكن ثمة أية تغطية إعلامية، لما انطوت العمليَّة إِلاَّ علىٰ القليل من المكاسب علىٰ الصعيد الداخلي. غير أن

احتمال بروز وَجْه سلبي، صورة الجنود الأَمريكيين المعتقلين علىٰ شاشات التلفزيون، تكرار ما حدث في الصومال، مع كارثة سياسية، كان وارداً علىٰ الدوام.

مع تحقيق السلام لحظياً وجزئياً فقط في كوسوڤا، كان كلنتون في خريف 1999م، في وضع سياسي ملتبس وغامض غموضاً غريباً. كان قد نجا من اللوم، كان قد أزاح شبح البلقان المقيم عن كاهل رئاسته، كان الاقتصاد لا يزال نشيطاً، وكانت شعبيته في استطلاعات الرأي لا تزال مرتفعة بصورة لافتة للنظر، خصوصاً بالنسبة إلىٰ شخص بقي في المنصب فترتين تقريباً. ومع ذلك فإن إنجازاته لم تكن بالضرورة كبيرة الأهمية، أَو علىٰ الأقل مهمة بالقدر الذي أضفاه المؤرخون عليها. كان جزء كبير من طاقته قد ذهب للحد من تأثير الانقضاض المحافظ علىٰ برنامج ليبرالي عريض، بدلاً من السعي لرسم برنامج خاص به. فبعد الانتصار في كوسوڤا، كان لديه سنة ونصف لمحاولة تحديد رؤيته الخاصة للتركة المناسبة لفترة رئاسية كانت منحوسة. كان كلارك مندفعاً، في هذه الحملة أَو تلك، في هذا السباق أو ذاك، بصورة دائمة، وبقي في عامه الأخير مركزاً حملته الشاملة لصالح مكانه في التاريخ، متذكراً تراثه بقوة. كان ذلك صحيحاً بالنسبة إلىٰ أكثر الرؤساء، غير أنّه، بالنسبة إلىٰ كلنتون، وهو قارئ نهم للتاريخ فضلاً عن كونه مؤرخاً هاوياً عميق التفكير، كان صحيحاً مرتين؛ لقد أراد أن يتأكد من أن المؤرخين قد أحاطوا بكل أبعاد رئاسته ـ كما أحاط بها هو، بالطبع. ثمة كانت مؤشرات لذلك في وقت مبكر. ففي كانون ثاني/ يناير 1997م، بعد إعادة انتخابه، كان قد جلس إلىٰ مائدة عشاء قبالة دوريس كيرنز گودوين، التي كانت إحدى أعضاء جمعية المؤرخين الأَمريكيين، وهي جمعية كانت للتو قد سلسلت مراتب الرؤساء الأَمريكيين المختلفين بمن فيهم هو نفسه، ووضعته في موقع وسط، بين بين. جرى تكريس الجزء الأكبر من السهرة علىٰ أشكال احتجاجه علىٰ ترتيبه المتواضع ومطالبته بمرتبة أعلى.

غير أن تحقيق طَفْرة لحظة أخيرة في مجمل التراث لم يكن إنجازاً سهلاً. فسنوات إدارته تلطخت كثيراً بقصة لوينسكي وعمليَّة توجيه اللوم الفاشلة. ونظراً للجمود الذي أصابه علىٰ الجبهة الداخلية جراء وجود معارضة جمهورية ضارية، شخصية إلىٰ حد كبير، لم يكن محتملاً أن يدعي لنفسه أي تشريع داخلي استثنائي كجزء من تركته السياسية. فقط في عالم الشؤون الخارجية كان كلنتون قادراً علىٰ رؤية شيء من الضوء. وبالتالي فإن السياسة الخارجية، ما لبثت، في سنته الأخيرة، أن صعدت وباتت تحتل صدر برنامجه السياسي. علىٰ الرغم من أنّه كان، كمرشح، قد انتقد بوش علىٰ الإكثار من الأسفار العالمية، فإن كلنتون كان قد سافر أكثر من أي رئيس أَمريكي آخر، أولاً في زيارة كل من بوتسوانا، بلگاريا، الكويت، سلوڤينيا، الدنمارك، وجنوب أفريقيا. تمثَّل أحد العناوين العريضة للنيويورك تايمز في تشرين ثاني/ نوڤمبر 1999م بعبارة «إنه يوم الاثنين، يجب أن نكون في تركيا».

بنظر شخص مثل مارلين فيتزووتر، سكرتيرة بوش الصحفية، كان هذا مفارقة باعثة علىٰ السخرية بالنسبة إِلىٰ رجل كان، كما قالت فيتزووتر، قد هاجم جورج بوش في نيو هامپشاير علىٰ ظهوره مهتماً بليختنشتاين أكثر من ليتل تاون وبمايكرونيزيا أكثر من مانشستر. من الواضح أن نقاداً آخرين أقل تحزباً نظروا إِلىٰ هذا التطور نظرة ارتياب، كما لو أن كلنتون بات الآن مشغولاً أولاً وقبل كل شيء بصيد التراث. عنوان عريض آخر **للنيويورك تايمز** في كانون ثاني/ يناير 2000م قال: «فصل كلنتون الأخير: اندفاع ماراتوني عنيد وبالسرعة القصوى علىٰ طريق البرنامج العالمي». فجأة أصبح كلنتون دائم الحركة والتنقّل، مسافراً بصورة متواصلة إِلىٰ عواصم أجنبية لم يكن الناس فيها، برأي المحللين، مهتمين بقضية لوينسكي، بل كانوا يعتبرون عملية توجيه اللوم (مثلهم في ذلك مثل كلنتون) مسرحية هزلية سياسية. إذا كانت السياسة الخارجية أمله الوحيد علىٰ صعيد ترك بصمة علىٰ التاريخ، فإن تلك، إذن، هي الساحة التي كان يتعيّن عليه أن يصب فيها طاقاته.

كان التحوّل في الأولويات انقلابياً مثيراً بالنسبة إِلىٰ رجل كان قبل بضعة أيام من توليه للرئاسة قد أبلغ لي هاملتون من لجنة الشؤون الخارجية بأن أحداً في أَمريكا لم يكن مبالياً بالسياسة الخارجية باستثناء حفنة من الصحافيين. ربما كان كلنتون القديم حذراً في منتصف فترة الرئاسة من التقدّم باتجاه الاعتراف الرسمي بهانوي، وقد تعين أن يتم دفعه من قبل محاربي ڤيتنام القدماء والمخضرمين الموجودين في مجلس الشيوخ كأعضاء من الحزبين كليهما، أما الآن فقد بات متلهفاً لزيارة ذلك البلد. وقد فعل، واعتُبرت الزيارة انتصاراً؛ توفّرت الفرصة لالتئام الجروح القديمة بسرعة أكبر قليلاً. كانت ثمة أيضاً في الأشهر الأخيرة من فترته الثانية فرصة جيدة للقيام بزيارة كوريا الشمالية، التي كان من شأنها أن تكون أولى. صحيح أنها لم تكن مؤهلة تماماً لموازاة زيارة موسكو أَو بكين أَو حتى هانوي علىٰ صعيد الرحلات الرئاسية الاستثنائية الخارقة، غير أن أيَّ أوَّلٍ كان أولاً، وفي عالم ما بعد الحرب الباردة العامر بعدد أقل من المدن المحظورة، تعين علىٰ المرء أن ينقضَّ علىٰ فُرَصِه الأولى حيثما تمكّن من العثور عليها.

انصبت أكثرية جهود كلنتون في سنته الأخيرة علىٰ محاولة صاخبة وشاملة لدفع عجلة عملية السلام في الشرق الأوسط إِلىٰ نوع جديد ونهائي من الحل أَو التسوية. من الواضح أن هذا الهدف بالذات كان أقرب علىٰ قلبه من أي شيء آخر علىٰ جدول أعماله خلال أواخر صيف وأوائل خريف سنة 2000م. جنباً إِلىٰ جنب مع رئيس الوزراء الإسرائيلي، يهود باراك، دأب دون كلل علىٰ العمل من أجل اجتراح المستوى التالي من اتفاق للسلام في سلسلة متواصلة دون انقطاع من الاجتماعات مع الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات في كامب ديڤيد، تلك الاجتماعات التي كانت تمتد حتى الساعات الأولى من الصباح. من الواضح أن ذلك هو الدور الذي يروق لكلنتون أكثر من سائر الأدوار الأُخرى في ميدان السياسة الخارجية. فالعمل من أجل جلب السلام إِلىٰ ربوع الشرق

الأوسط في كامب ديڤيد كان بالنسبة إليه دوراً أكثر طبيعية من الجلوس في أروقة البيت الأَبيض عاكفاً علىٰ دراسة مدى تأثير قصف أهداف معينة في قلب مدينة بلگراد. وكذلك فإن شريكه باراك بدا هو الآخر توّاقاً لدفع الأمور إِلىٰ الأمام.

لفترة وجيزة من الوقت، بدت المفاوضات علىٰ حافة تحقيق نوع من الاختراق. عُرضت علىٰ عرفات صفقة فاقت كل ما سبق للإسرائيليين أن عرضوه من قبل. غير أن الزعيم الفلسطيني بدا عاجزاً كلياً في ضوء مرونة باراك، لأن جزءاً كبيراً من موقف عرفات كان مستنداً إِلىٰ العناد الإسرائيلي المتوقَّع. في النهاية، كان عرفات هو الذي عطَّل العمليَّة وباءت المفاوضات بالفشل. ومع انهيار عمليَّة السلام الشرق أوسطية، تعرض أمل كلنتون الأخير الأعز في تدعيم تراثه بمنجزات خارجية، هو الآخر للانهيار.

كان يحلو لكلنتون أن يقول للأصدقاء، ولكن بشيء من السخرية، أنه تلقَّى، بعد إخفاق المحادثات، مخابرة هاتفية من عرفات ملأى بالإطراء، فرد عليه قائلاً: «إنني فاشل عملاق بسببك أنت»[1]. ومع ذلك فإن ما كان كلنتون قد فعله، ولو مكرهاً، في البلقان لم يكن قابلاً للاستخفاف. فالمسائل المنتصبة أمام أي رئيس للجمهورية في سنوات ما بعد الحرب الباردة كانت أصعب علىٰ المعالجة من نظيرتها التي كانت شائعة في الحقبة السابقة الأبسط. تمثل العدو، هذه المرة، بإبادة الجنس، لا بالشيوعية. ونظراً لعدم وجود أي تهديد مباشر وملموس للولايات المتحدة خلال الأزمة البلقانية، فإن كلنتون لم يحصل إِلاَّ علىٰ القليل من التقديرات الإيجابية لإقدامه أخيراً علىٰ استخدام القوة العسكرية في كل من البوسنة وكوسوڤا. غير أن من الوارد تماماً أن إدارته كانت، دون إدراك إِلاَّ القليل في الحكومة وحتى الأقل خارجها ـ فضلاً عن الجيل الذي كانت تمثله والذي كان قد وصل إِلىٰ السلطة بعد الحرب الباردة ـ قد واجهت،

(1) **الواشنطن بوست**، 28/ 6/ 2001م.

أخيراً، امتحاناً بالغ الأهمية وشديد الحساسية حول استخدامات القوة الأَمريكيَّة، وعلىٰ صعيد الاهتداء إِلىٰ الجواب الصحيح عن سؤال ما إذا كانت أَمريكا مستعدة للدفاع عن أي شيء خارج الذود عن حدودها وأرضها بالذات. من الواضح أن الإجابات لم تكن سهلة، لم تكن هناك أية أجوبة ميَسَّرة ـ بل وحتى أجوبة صحيحة بالضرورة ـ في مثل هذه الأمور، ومن الواضح أيضاً وبالقَدْر نفسه أن التدخّل لم يكن منطوياً علىٰ أي جانب مشرق علىٰ الصعيد السياسي. كان كلنتون وإدارته قد تحرّكا ببطء في البداية، في حالة ارتباك وتشوّش إزاء المعادلة المنتصبة في وجههما وفي مواجهة غياب التأييد السياسي داخلياً. صحيح أنهما تعثرا مرة بعد أُخرى ولكنهما كانا، ولو بتلعثم وبعد تأخير، قد نجحا في اختبار حيوي مبكر من اختبارات عمليَّة حفظ السلام في حقبة ما بعد الحرب الباردة.

❊ ❊ ❊

بين جميع أولئك الذين كانوا قد التحقوا بإِدارة كلنتون في 1993م، نجح ديك هولبروك في إنهاء السنوات الثماني، بإجماع أقرانه ـ أو علىٰ الأقل بين أولئك الذين لا يزالون عازمين علىٰ خدمة أية إِدارة ديمقراطية مستقبلية ـ بوصفه العضو الأكثر تألّقاً في فريق السياسة الخارجية. أما من حيث الشهرة والنجومية، لحظياً علىٰ الأقل، ربما كانت مادلين أولبرايت قامة أطول بسبب طبيعة تاريخها الشخصي؛ فضلاً عن أن من شأن مذكراتها، لأنّها كانت وزيرة الخارجية الأولى في تاريخ الولايات المتحدة، أن تروج وتباع بمبالغ أكبر مقارنة بمذكرات أي شخص آخر ممن عملوا في حقل السياسة الخارجية. غير أن هولبروك يبقى هو الذي ترك انطباعاً قوياً لدى أقرانه وزملائه، بمن فيهم حتى الكثير ممن كانوا مفعمين بالشكوك إزاءه في أوقات سابقة.

ربما منذ اللحظة التي كان قد زار فيها بانيالوقا في 1992م، كان هولبروك قد فهم لا الشر الحاصل فقط، بل والامتحان الذي كان يمثّله بالنسبة إِلىٰ جيله

من صانعي القرار السياسي والإدارة التي كان طامحاً إلىٰ الالتحاق بها. كان قد فُطم علىٰ تعريف واحد للشر في العالم، وقد كان أساساً من الحمائم في الهيكلية الأبكر التي بالغت في انتقاده شاباً في بدايات حياته المسلكية بڤيتنام. ومع ذلك فقد نجح في التكيّف واستطاع أن يتعامل مع التحدي المختلف جداً الذي مثلته منطقة البلقان بالنسبة إلىٰ صانعي القرار السياسي الأَمريكيين في مراحل متقدمة من سيرته المسلكية.

لم يقف الأمر عند فترة عمله الناجحة في ألمانيا، بل تجاوزه إلىٰ تلك الطاقة الهائلة المطلوبة بإلحاح ويأس في وزارة الخارجية المشتّتة التي ما لبث أن أضفاها علىٰ هذه الوزارة، فضلاً عن قيادته البارعة لمؤتمر سلام دايتون. كان قد أنهى فترة خدمته في الأمم المتحدة بانتصار مذهل وغير محتمل إلىٰ حد كبير. عبر عمل يقصم الظهر، كان قد اجترح حلاً يتيح لأَمريكا فرصة تسديد التزاماتها للأمم المتحدة، بما يفضي إلىٰ وضع حد لجدل طال أمده وإلىٰ توجيه الجزء الأكبر من الأموال لتغطية تكاليف بعثات حفظ السلام. من اللافت أن التسوية جاءت مرضية لكل من قيادة الأمم المتحدة وقيادة الكونگرس، وعلىٰ الأخص جَسّي هلمز الذي كان قد أبدى لباقة تهنئة هولبروك ـ مما يشكّل دليلاً مؤكداً علىٰ وجود مأثرة حقيقية. ثمة شيء آخر لاحظه متابعو هولبروك القديم في الرجل. كان باستمرار مولعاً بأن يصبح صاحب شهرة. وبفضل سلسلة نجاحاته وبروزه القوي خلال السنوات القليلة الأخيرة، كان قد طفا، أخيراً، علىٰ السطح بوصفه نجماً، وبدا دور النجومية مناسباً له. بدا أكثر ثقة وتركيزاً، وجملة تلك الهنات والعيوب الصغيرة التي كانت تزعج الناس في سلوكه فيما مضى كانت قد تلاشت إلىٰ حد بعيد. أخيراً بات أولاً في صفه.

أما في الجانب العسكري فإن الشخصية المسيطرة كانت متمثّلة بوَسْ كلارك. إلىٰ درجة لا يُستهان بها، كان قد تمرّد علىٰ الپنتاگون بسبب إيمانه ـ ذلك الإيمان الذي تلقفه ميدانياً من سلوبودان ميلوسوڤيتش ـ بأن علىٰ أَمريكا

أن تكون، في لحظات معينة، الأمة التي تؤمن بأنها هي تلك. لم يسبق لكلارك قط أن كان ذا شعبية بين أقرانه ونظرائه؛ وحركيته البلقانية كانت قد ضاعفت من لا شعبيته، حتى وصل، أخيراً، إلىٰ وضع دفع فيه الثمن باهظاً. غير أنه كان قد تولى إدارة ذلك النوع الأكثر صعوبة من القيادة بمهارة وذكاء، نجح في عدم تكبد أية إصابات في صفوف القوات في أية معارك فعلية، وبيَّن لإدارات المستقبل وضباطه أن من شأن عمليَّة حفظ السلام أن تكون، في ظل ظروف معينة، ناجحة عسكرياً بتكاليف متدنية نسبياً. كان قد أنهى فترة خدمته ليس فقط ملتزماً باستخدام القوة في مثل هذه المناسبات، بل ومنتقداً لاذعاً لفرعه المسلكي الخاص علىٰ نزعته المحافظة.

❊ ❊ ❊

في البدء لم يبد انتصار الناتو مؤثّراً علىٰ متانة وضع ميلوسوڤيتش في السلطة ببلگراد. صحيح أن قواته كانت قد هُزمتْ وحركاته العسكرية الأخيرة قد ارتدَّتْ عليه. صحيح أنّه كان قد دمّر ونهب الاقتصاد اليوگوسلاڤي علىٰ امتداد أكثر من عقد من الزمن، وكانت العقوبات المفروضة علىٰ يوگوسلاڤيا قد أَوْصَلَتْ الاقتصاد إلىٰ حافة الدمار فيما كانت بلدان مجاورة تنعم بازدهار غير مسبوق. صحيح أن جُل الأشياء التي كان قد لامسها لدى استغلاله وتوظيفه لأبشع ألوان النزعة القومية كانت قد كلَّفتْ أشقاءه الصرب ثمناً باهظاً جداً.

كان ثمة سؤال واحد بقي دون جواب خلال الأشهر التي أعقبت النهاية غير المظفَّرة (بالنسبة إلىٰ الصرب) لحرب كوسوڤا ألا وهو: هل كانت هناك، في الفترة التي أعقبت انهيار جدار برلين مباشرة، حين كان جميع الجيران ينعمون بقدر كبير من التحسّن علىٰ صعيد أوضاعهم السياسية والاقتصادية، أية عواقب داخليَّة جدية مترتبة علىٰ حرمان المواطنين من حقهم المشروع في حياة أفضل وأكثر ديمقراطية؟ من المؤكد أنَّ تحكّم ميلوسوڤيتش بوسائل الإعلام القومية تمّ توظيفه لطمس أية أنباء عن مستويات الحياة ونوعياتها المتحسّنة كثيراً

لمنتسبي البلدان المجاورة، غير أن شعوب أوروبا الشرقية، المدمنة علىٰ متابعة وسائل الإعلام الخاضعة لسيطرة الدولة، كانت علىٰ الدوام تتقن فنّ الإصغاء حين يجب أن تصغي وفنّ الامتناع عن الإصغاء عند اللزوم وكانت تقليدياً فاقدة الثقة بمصادر المعلومات الرسمية. ومع ذلك، هل تمكنت قُدْرة ميلوسوڤيتش علىٰ توظيف وتنسيق أبشع وجوه النزعة القومية الصربية من الاستمرار في الاضطلاع بدور قناع مقبول يغطي إخفاقه في السماح بإشاعة الليبرالية التي يرنو إليها بشغف الجزء الأكبر من الصرب في المجتمع؟

بدت قبضة ميلوسوڤيتش علىٰ مفاتيح السلطة الحاسمة كاملة كعهدها. فتحكُّمه بوسائل الإعلام، خصوصاً تلفزيون الدولة، كان يجعل أية معارضة له عشية الانتخابات الرئاسية تبدو هزيلة. لم تكن لدى المعارضة أية وسيلة تستخدمها لطرح وجهة نظرها، وبالتالي فإن أحداً من الصرب أو الأجانب لم يكن قادراً علىٰ تقدير مدى قوة هذه المعارضة. علىٰ الرغم من أن الضرر الذي كان قد ألحقه بشعبه بالذات كان ملموساً، فإن أحداً لم يكن مستعداً لأن يراهن ضده؛ لقد سبق له أن ابتلع المعارضة الداخليَّة كلها في الماضي.

ومع ذلك فقد بقيت الانتخابات هي الانتخابات، كما بقيت يوگوسلاڤيا ذلك الكيانَ السياسي الهجين، الجامع، في خليط بالغ الغرابة والبُعد عن الاحتمال، بين بعض عناصر ديمقراطية وليدة من جهة، وبقايا أو مخلفات الجهاز الشيوعي القديم من جهة ثانية. بالنسبة إلىٰ ميلوسوڤيتش كانت الخرافة التي تقول إنه رئيس منتخَب بحرية مسألة مهمّة لدى حديثه مع العالم الغربي. وقع الاختيار علىٰ محام دستوري وناشط قومي صربي يدعى ڤويسلاڤ كوستونيتسا علىٰ خوض الانتخابات ضده حسب رأي حوالي ثمانية عشر حزباً معارضاً. في البدء لم يبادر كثيرون إلىٰ أخذ كوستونيتسا مأخذ الجد، غير أنّه ما لبث أن كان قد أصبح، مع حلول منتصف أيلول/ سپتمبر، وبوضوح، مركز استقطاب لفيضٍ أو طوفانٍ من المشاعر ذات الجذور العميقة والقوية بصورة

مدهشة، المعادية لميلوسوڤيتش، وبات يشكِّل تحدياً جدياً للرئيس الصربي. كان كوستونيتسا، بالمعنى الحقيقي للعبارة، قومياً أكثر تعصّباً وحِدَّةً من ميلوسوڤيتش ـ فسياسة الأخير لم تكن، حسب ملاحظة أحد الصحفيين الصرب، إلاَّ سياسة ذاتية، مع اعتماد النزعة القومية قناعاً مناسباً أكثر من كونها عاطفة صادقة. أما بالنسبة إِلىٰ كوستونيتسا فقد كانت مسألة القومية مسألة حياة أَو موت، مسألة بالغة الجدية.

في الرابع والعشرين من أيلول/ سپتمبر، حين جرت الانتخابات، من الواضح أن كوستونيتسا قد فاز، رغم الجهود التي بذلها معسكر ميلوسوڤيتش في سبيل التلاعب بالنتائج؛ كان قد حصل علىٰ أكثر من 51 بالمئة من الأصوات. ثم راح ميلوسوڤيتش وجماعته يضغطون لإجراء انتخاب فرعي، ويقلِّصون من أعداد أصوات كوستونيتسا لإبقائها دون الخمسين بالمئة. غير أن الأخير لم يقبل بشيء من ذلك. رفض أن يشارك في أي انتخاب فرعي أَو تكميلي؛ لم يكن ثمة أية حاجة لمثل هذا الانتخاب، برأيه. فجأة بدأت العواطف المكبوتة منذ زمن طويل تطفو علىٰ السطح، ونهضت القوى الديمقراطية وراحت تتحدَّى ميلوسوڤيتش. علىٰ امتداد ما يقرب من أسبوعين حاول أن يصمد، وما لبث أن تبين، للمرة الأولى، أنّه كان يدير نظاماً دكتاتورياً هشاً وخرِعاً، لا نظاماً دكتاتورياً قاسياً وصلباً من الطراز القديم، وأن شكلاً من أشكال الطلاء أَو القناع الديمقراطي كان ضرورياً بالنسبة إليه. فيما مضى، كان ميلوسوڤيتش قد حافظ علىٰ السلطة عبر استخدام اللغة الخطابية الملتهبة ضد الجماعات العرقية المختلفة وسوق قواته المسلَّحة ضد البوسنيين، الكروات، والأَلبان. أما الآن فإن من كانوا يحتشدون ضده هم **الصرب**. وإذا أراد أن يبقى متمسكاً بالسلطة فلا بد له من استخدام قواته ضد أشقائه الصرب. ما لبثت حركة الاحتجاج أن اتسعت بسرعة ووصلت إِلىٰ عمّال المناجم في البلاد، الغاضبين جراء غياب الديمقراطية والساخطين بسبب تدهور مداخيلهم في

اقتصاد مُفْلِس. كان ذلك دليلاً مؤكداً علىٰ أن النظام دائب علىٰ التمزّق وأن ميلوسوڤيتش لم يعد قادراً علىٰ الإصغاء، لأن فقدان عمال المناجم أو العمال الآخرين ذوي الياقات الزرقاء في نظام طالما كان دكتاتورياً بروليتارياً، كان يعني الغرق في بحر لا قرار له من المشكلات. حاول ميلوسوڤيتش استخدام الجيش لإجبار عمال المناجم علىٰ العودة إلىٰ العمل، ولكن الأمور كانت قد خرجت من يده. فوصول المسألة إلىٰ حد قيام الجنود الصرب بإطلاق النار علىٰ عمال المناجم الصرب كان يعني أنه قد خسر. في النهاية انتقلت حركة العصيان إلىٰ صفوف الجيش الذي رفض أن يطلق النار علىٰ أشقائه من المواطنين.

مع تزايد الاحتجاج وتحوّله إلىٰ حركة جماهيرية سارعت وسائل الإعلام، كما لو أن أحدهم قد أدار مفتاحاً كهربائياً عملاقاً وأحدث انقلاباً هائلاً بفعل عصا سحريَّة، إلىٰ التعبير، فجأة، عن تعددية السياسة الصربية المتغيرة، وراح الصحفيُّون، الذين كانوا حتى الأمس القريب أَصْفى وأمهر أساتذة التزلُّف والتملُّق، يكتبون مثل رجال ونساء أحرار. أما العزلة عن أوروبا التي كان ميلوسوڤيتش قد فَرَضها علىٰ شعبه فقد أصبحت قضية. فكما جاء في مقال روجر كوهن في **النيويورك تايمز**، خاطب توني بلير الشعب الصربي بلغة الاختزال قائلاً: «عودوا إلىٰ حضن وطنكم أوروبا فتحصلون علىٰ الكرامة الإنسانية، علىٰ الديمقراطية، وعلىٰ سيادة القانون». وبالنسبة إلىٰ ميلوسوڤيتش كان الأمر قد انتهى قبل أن ينتهي: كان تحكّمه بالجيش وبوسائل الإعلام قد انتهى، ولم يعد جهاز البوليس السري عنده قادراً علىٰ إنقاذ نظامه. ومع حلول أوائل تشرين الأول/ أكتوبر، كان جهاز الأمن النظامي والجيش قد أصبحا في صف المتظاهرين فيما مئات الألوف من الصرب احتشدوا حول مبنى البرلمان، أحد رموز ديمقراطية ميلوسوڤيتش الزائفة، وأشعلوا فيه النار. كان نظامه ذو السنوات الثلاث عشرة من العمر، القائم علىٰ حكم شمولي ينتمي إلىٰ ما بعد الشيوعية ومستند إلىٰ أعنف أشكال النَّزْعة القومية، قد انتهى، وولّى إلىٰ غير

رجعة. والاحتجاج الذي كان قد دمّره لم يكن عنيفاً في جوهره. فحين أقدم المتظاهرون علىٰ احتلال البرلمان، وقفوا علىٰ السطح العلوي وراحوا يهيلون المنشورات الدعائية المصادرة التي كانوا قد حرّروها، بما فيها أعداد لا تحصى من صور ميلوسوفيتش وآلاف أوراق الاقتراع التي كانت معدة للاستخدام في انتخابات أيلول/ سبتمبر، وهي مُعْلَمَة مسبقاً لصالحه.

بقيت الولايات المتحدة بعيدة فيما كان هذا كله يحصل علىٰ قدم وساق، سعيدة وهي ترى كوستونيتسا واصلاً إلىٰ السلطة، ولكن مدركة لحقيقة أن من شأن تأييدها، بعد عمليّات قصف البوسنة وكوسوفا، ألا يكون نقطة إيجابية حاسمة بالنسبة إلىٰ أي شخص يخلف ميلوسوفيتش. كانت قوى الناتو قد حققت هدفها، غير أن أناساً ظلوا يتساءلون عما كان يمكن أن يحصل لو تم تنفيذ حملة قصف أقسى وأعنف منذ البداية مع استهداف قلب بلگراد وأدوات حكم ميلوسوفيتش. هل كان ذلك أيضاً سيفضي إلىٰ سقوطه، أم كان، بسبب عنفه وقَسْوته بالذات، سيؤدي إلىٰ تعزيز تصميم الصرب وجعل الإطاحة بسلطته أكثر صعوبة؟ في الولايات المتحدة يعتقد مؤيدو حملة جوية أعنف، مثل اللفتنانت جنرال مايك شورت، أن مثل تلك الحملة كانت ستفضي إلىٰ النتيجة نفسها بسرعة أكبر بكثير. ثمة آخرون يعارضون ويعتقدون بأنها ربما كانت قد جعلت الصرب يتلاحمون ويستقطبون ضد الغرب.

* * *

صارت مسألة وضع ميلوسوفيتش القانوني المعضلة التالية بالنسبة إلىٰ بلد عاكف علىٰ السعي للاهتداء إلىٰ طريق ديمقراطية غير مجرَّبة وغير مطروقة من قبل، وكانت ثمة أيضاً مسألة مقدار المسؤولية الجماعية عن جرائم الصرب في البوسنة وكوسوفا. هل كان يجب اعتقال ميلوسوفيتش وتسليمه إلىٰ السلطات الدولية لمحاكمته في لاهاي (حيث تمت إدانته سلفاً)؟ أم كان يتعين جلبه إلىٰ القضاء محلياً ومحاكمته علىٰ جرائم اقترفها بحق الشعب الصربي؟ أواخر آذار/

مارس 2000، تحركت السلطات المحلية لاعتقال ميلوسوڤيتش. علىٰ امتداد بضعة أيام جرى تمثيل سيناريو غريب في منزله الذي كان عملاء الأمن قد دخلوه، مستعدين لاعتقاله وجلبه. وفيما عناصر الشرطة موجودون داخل بيته قام ميلوسوڤيتش، في إحدى المراحل، بتصويب مسدس إِلىٰ رأسه، مهدداً بالانتحار. صرخت ابنته بأعلىٰ صوتها: «هيا يا بابا، افعلها! اضغط علىٰ الزناد! لا تستسلم يا بابا!». غير أنّه ما لبث أن استسلم أخيراً، معتقداً أنّه كان قد اجترح صفقة تحول دون تسليمه إِلىٰ لاهاي. وفيما كان رجال الأمن يقتادونه إِلىٰ السجن، في نقطة الأوج من مَشْجاته (ميلودراماه)، أطلقت ماريا عدداً من الأعيرة النارية باتجاه السيارة المغادِرة[2].

* * *

حصل آل گور في خريف 2000م علىٰ فرصته لخوض سباق الرئاسة والخلاص من الدور الحيادي بعض الشيء المتمثّل بنيابة الرئيس. لقد كان، بهدوء، أول الصقور في الإِدارة، غير أن جزءاً كبيراً مما كان يفكر به وكان قد أراد أن يفعله في البلقان كان، لأن من واجبات نائب الرئيس **ألا** يظهر في أية حالة عدم اتفاق مع الرئيس، قد تم إبقاؤه مكتوماً تماماً. تحدّث بعض المطلعين علىٰ بواطن الأمور في إِدارة كلنتون عن حملة كوسوڤا بوصفها حرب آل گور، بدلاً من أن تكون حرب مادلين. ومع ذلك فإنه لم يحصل علىٰ أي تقدير إيجابي لذلك، وكان ثمة خطر في احتمال أن يرتد عليه الأمر سلباً، إذا ما بالغ في إعلان دعوته للملأ وضاعف من صراحته في التعبير عن تأييده للاستخدام الناجح للقوة هناك، نظراً لعدم مبالاة الشارع الأَمريكي بقضايا السياسة الخارجية؛ كان من شأن الأمر أن يرتد عليه فيضطر للدفاع عن نفسه ضد اتهامات بأنّه من غلاة الداعين إِلىٰ التدخّل.

---

(2) مقابلة مع ووتن.

كان گور أممياً من الطراز القديم، داعية تدخّل أكثر التزاماً من الرئيس الذي كان يعمل معه. غير أنه حين أصبح، في ربيع وصيف 2000م، بحاجة إلىٰ تسليط الضوء علىٰ مدى تماسك آرائه واستقلالها، لم يتمكّن، لا هو ولا أولئك المقرّبون المباشرون منه، من إتقان أداء هذه المهمة. فمسؤول جهاز الأَمن القومي عنده، ليون فويرث، وهو أحد صقور البلقان، كان شديد التكتم بطبعه حتى أنه بدا، لدى كلامه مع المراسلين عن نائب الرئيس ودوره في أثناء أزمتي البوسنة وكوسوڤا، عازماً علىٰ إبقاء وجهات نظر گور أشبه بالألغاز قدر الإمكان. دأب علىٰ التعامل مع المراسلين الفضوليين كما لو كانوا من ممثلي الكي. جي. بي. ، مما أدّى، دونما قصد، إلىٰ تقليص دور گور خلال سنوات كلنتون. أما في الحقيقة فإن گور كان شخصاً ذا خبرة، متدرّباً بصورة استثنائية، شخصية سياسية مستقلّة جداً (مبالغة في استقلاليتها أحياناً)، غير أنّه كان غريب البلادة علىٰ صعيد الدفاع عن نفسه وتلميع صورته باليُسْر المطلوب في عصر الاتصالات الحديثة.

بدا گور أفضل في الحكم والإِدارة منه في تنظيم الحملات وإدارتها، وفي أثناء سباقه الرئاسي كثيراً ما بدا ليس فقط متردداً وجامداً، بل وشخصاً يميل إلىٰ التفوّه بأشياء تصب في غير مصلحته. بدا وكأن إيجازه الاستثنائي، وهو أفضل، بوضوح، من تلخيص أي شخص آخر في واشنطن، لم يكن علىٰ درجة كافية من الجودة، وتعيّن عليه أن يضيف إليها قليلاً من «الصَّلْصَة» أو العصارة. وبالنسبة إلىٰ أولئك الذين درسوا كلاً من كلنتون وگور، فإن الرئيس المنتهية ولايته كان بوضوح السياسي الأكثر مهارة، القادر باستمرار علىٰ «دَوْزَنة» ولائه وفقاً لمتطلبات اللحظة، مع بقاء ولاءاته، مثلها مثل أفكاره، داخلية التوجيه. أما گور الذي لم يكن علىٰ المستوى نفسه من الدهاء السياسي بأي شكل من الأشكال، فقد كان بالمقابل كائناً إنسانياً أفضل، إنساناً متحلياً بقَدْر أكبر وأعظم وأرسخ من المبادئ والمعتقدات والولاءات الشخصية.

غير أنه كمرشح رئاسي خاض سباقاً غريب التردد، أقرب إِلىٰ البلادة والغباء، بوصفه إنساناً لم يكن متناغماً تناغماً كاملاً مع نفسه قط، إنساناً غير واثق من الآلگور الحقيقي الذي كانه بالفعل. وعلىٰ الرغم من انخراطه الواسع والناشط في سلسلة طويلة من القضايا الحسَّاسة لرئاسة ناجحة إِلىٰ حد كبير وشعبية عموماً دامت فترتين، فإنه لم يتمكن قط من استغلال تجربته أَو خبرته المتفوقتين. كان، مثلاً، قد أدلى بالصوت الحاسم لصالح الخطط والسياسات الاقتصادية التي اعتمدت في بداية إِدارة كلنتون، تلك السياسات الهادفة إِلىٰ تقليص العجز التي ساعدت، مع الزمن، علىٰ حصول ازدهار غير مسبوق. في حواراته الثلاثة مع جورج دبليو بوش اعتُبر أنه أخفق في الأداء، بالغ الاندفاع والتنازل في الأول، ثم مطواعاً وأشبه بالإنسان الآلي في الثاني. قلما كان قَدْرٌ أكبر من الاطلاع علىٰ القضايا مع سيرة حياة متفوقة، أقل قيمة في أية سلسلة من الحوارات الرئاسية. في النهاية قرَّر خبراء الشَّبَكات التلفزيونيَّة أن گور كان عموماً أقل جاذبية من جورج دبليو بوش، كمالو كانوا يقيمون انتخابات إحدى الأَخويات الجامعية، وهو ما بدا أنّهم كانوا يفعلونه في الغالب.

رغم الازدهار الاقتصادي الذي كانت البلاد تنعم به، فإن جزءاً غير قليل من مشكلة گور كان متمثلاً بمعضلة مجيئه إِلىٰ الحملة من بيت بيل كلنتون السياسي، وحاجته إِلىٰ أن ينأى بنفسه، علىٰ الصعيد الشخصي الخالص (لا السياسي) عن كلنتون فيما يخص فضيحة لوينسكي ـ اللوم. ربما كان سياسيّاً أبرع وأكثر رشاقة قادراً علىٰ فعل ذلك بيسر، متمكناً مباشرة من الحصول علىٰ بعض الفضل فيما يخص جملة النجاحات المتحققة خلال سنوات كلنتون، مع تجنّب التلوّث بنقائص الإِدارة وعيوبها. من السهل تصور تبادل الأدوار، وبروز فضيحة ذات علاقة بگور، وظهور المرشح الجديد بيل كلنتون علىٰ الساحة، متحرراً، أخيراً، من سنوات العبودية الطويلة التي قضاها نائباً للرئيس، مقبلاً علىٰ احتضان ما هو إيجابي في سجل گور ومتجنباً برشاقة ظل الفضيحة. غير

أن گور لم يكن قادراً قط علىٰ الاهتداء إِلىٰ مسافة الفصل المناسبة، فضلاً عن أن عداءه لكلنتون بدا شخصياً جداً بالنسبة إِلىٰ عالم ساسة المستويات العالية، أشبه بابن خذله أحد أبويه لا نائباً للرئيس كان قد أتقن فن التحلي بأقصى درجات الحذر في التعامل مع رئيس موهوب ولكنه طائش.

بقيت السياسة الخارجية، تلك الساحة التي كان گور يتمتع فيها بقَدْر غير قليل من التفوّق علىٰ مختلف أصعدة المعرفة، الخبرة، والاهتمام، علىٰ بوش، صفحة هامشية في كتاب الحملة، ولم يتمكن گور قط من توظيف خبرته الأوسع بما لا يقاس. لقد كان السبب الكامن وراء اعتبار إِدارة كلنتون ناجحة متمثلاً بالتحسن الحاصل في الاقتصاد، أما سبب اعتبارها فاشلة فقد كان متعلقاً بالفضائح التي أفرزها سلوك الرئيس الشخصي. أما قرارات كلنتون علىٰ صعيد السياسة الخارجية ـ وعلىٰ الأخص في البلقان ـ فنادراً ما شكّلت قضية. فاهتمام الأمة كان لا يزال متوجهاً نحو الداخل. صحيح أن أَمريكا، بنظر جزء كبير من باقي العالم، قوية جداً، غير أنّها، كأمة تلك القوة الهائلة، ظلت غارقة في ذاتها بشكل مدهش. لقد بدا جورج دبليو بوش، ابن الرئيس السابق الذي كانت السياسة الخارجية هاجسه السياسي الأول، قليل الاهتمام بباقي العالم. من الواضح أنه لم يسافر قط إِلىٰ أوروپا، رغم أنّه كان قد زار المكسيك وعاش مع والده حين كان الأخير ممثِّل أَمريكا الدبلوماسي في الصين. وكما لاحظت معلقة **النيويورك تايمز** مورين داود، فإن سيرة جورج دبليو بوش الذاتية الخاصة بالحملة خصصت فقرة كاملة لزيارته إِلىٰ الصين التي دامت ستة أسابيع. تقول المعلّقة إن الرحلة «جعلته يكيل المديح للأسواق الحرّة ويتوق إِلىٰ المنطقة الوسطى [الميدلاند] (تكساس)». وفي لغته الخطابية الخاصة بالحملة، بقيت سياسته الخارجية محصورة بالإيمان بأن علينا أن ننفق مبالغ أكبر من المال علىٰ الجيش والمؤسسة العسكرية، اللذين كانا، حسب زعمه، في حالة بائسة بسبب تخفيضات كلنتون للموازنة.

ولدى بروز موضوع السياسة الخارجية كان بوش، عموماً، يبدو متردداً أَو تجريبياً، كما لو كان قد دخل غرفة الصف الخطأ وطُلب منه تقديم فحص في مادة لم يسبق له أن تابع دروسها قط. ففي اختلاف واضح عن گور من حيث وجهتي نظرهما إِلىٰ العالم من حولهما، أقر بوش بالفعل بأنه كان يريد الامتناع عن أي استخدام للجيش في المهمات الإنسانية أَو الخاصة وقد ألمحت كوندوليزا رايس، إحدى مستشاريه البارزين في السياسة الخارجية، خلال الحملة إِلىٰ أن بوش، إذا ما انتُخب، كان سيبادر بسرعة إِلىٰ إعادة الجنود الأَمريكيين من البلقان. ومثل ذلك التصريح أثار غضب أناس معينين مثل الجنرال المتقاعد شاليكاشڤيلي الذي كان أحد كبار مهندسي القوة الأَمريكيَّة الصغيرة التي كانت تساهم فعلياً في الحفاظ علىٰ السلام بتكاليف متدنية نسبياً. علىٰ العموم كان الجدل حول استخدام الجيش، كما جرى، متناغماً مع التقييم اللاذع الذي ساقه المعلق، المخرج السينمائي، والناشط السياسي المحافظ بروس هيرشنسون الذي كان قد ترشح لعضوية مجلس الشيوخ في كاليفورنيا. فقد قال هذا إن الديمقراطيين لا يكفّون عن التعبير عن رغبتهم في امتلاك جيش صغير [ململم]، ولكنهم يريدون إرساله إِلىٰ جميع الأمكنة، في حين يرغب الجمهوريون في بناء جيش عملاق ولا يريدون استخدامه علىٰ الإطلاق.

* * *

اعتُبر جورج دبليو بوش ابناً باراً وحقيقياً لتكساس أكثر من أبيه، وقيل إن مفتاح حملته تمثَّل بجاذبيته، كما لو كان خَلَفَ رونالد ريگان المتمتع بقَدْر أكبر من التبجيل بدلاً من كونه خلفاً لنائب الرئيس ريگان الأكثر تردّداً وقلقاً. من بداية الانتخابات التمهيدية، كان مرشح المال الجمهوري الشاطر (الكبير)، ذلك الشاب المطواع الحامل لاسم شهير كان قد أبلى بلاءاً حسناً في تكساس حتى تمت إعادة انتخابه [حاكماً للولاية] دون معارضة تقريباً. كان الجمهوريون، معتقدين بأنهم حزب أكثرية (وقد كانوا بكل تأكيد حزب أكثرية بالنسبة إِلىٰ

البيض في أمريكا)، مستمرين في الإحساس بالمعاناة من انتصارين انتخابيين حققهما كلنتون ضدهم (بدوا مقتنعين بأن الانتصارين لم يكونا شرعيين، بأن كلنتون كان قد سرق الرئاسة منهم بهذه الطريقة أو تلك)، مصممين علىٰ تحاشي الوقوع في فخ قضية الإجهاض مرة أُخرى. ولتحقيق هذا الغرض تم جمع مبلغ كبير من المال ـ حوالي ستين مليوناً من الدولارات ـ لصالح بوش في المراحل الأولى من اللعبة، انطلاقاً من الاقتناع بأن من شأنه أن يكون قادراً علىٰ تجنّب سلسلة الكمائن المبكرة التي يمكن لقضية الإجهاض أن تفرزها وصولاً إِلىٰ التفوّق السهل علىٰ المرشحين الثانويين، في غياب تلك القضية، ممن يتمتعون، ربما، بارتباطات أقوى مع الأصوليين فيما يخص القضية الوحيدة التي شكلت هاجساً ووسواساً دائمين بالنسبة إِلىٰ هؤلاء الأصوليين.

كادت تلك الاستراتيجية أن تنجح، غير أن عضو مجلس الشيوخ جون ماكين، أسير الحرب السابق، ما لبث أن أطلق الحملة الأكثر إثارة مقارنة بسائر المرشحين من الحزبين كليهما، مفضِّلاً الحديث صراحة عن اثنتين من القضايا ذات الحساسية البالغة بنظر الكثير من الأَمريكيين المستقلين المنتمين لتيار الوسط ألا وهما لا أخلاقية التمويل المعاصر للحملات الانتخابية من جهة ونفوذ الأصوليين وسطوتهم في الحزب الجمهوري. وما لبثت حملة ماكين أن أجبرت بوش علىٰ الاندفاع إِلىٰ قَدْر أكبر من الاحتضان الحماسي للأصوليين مقارنة بما كان راغباً فيه خلال الانتخابات التمهيدية في كارولانيا الجنوبية. لقد كان ماكين المرشح الأكثر إثارة لخيال الأَمريكي العادي من التيار الوسط فيما كان، عموماً، سنة سياسياً كئيباً وباهتاً، وشكّلت حملته تذكيراً، بالمناسبة، بأن سيرة حياة مرشحي الرئاسة يجب أن تتضمن شيئاً آخر غير خوض السباقات الانتخابية في سبيل الحصول علىٰ المناصب. إن تجربة ماكين الحياتية الأكبر، قُدْرته علىٰ النجاة من أهوال ست سنوات في أحد معسكرات اعتقال أسرى الحرب بڤيتنام الشمالية، خارجاً منها بوصفه إنساناً أكثر غنى، أكثر تسامحاً، وأكثر تعقيداً، قادراً علىٰ خطب ود الملايين من المواطنين العاديين. كان الرجل

قد شكَّل تحدياً بالغ الخطورة والجدية لبوش إِلىٰ أن فَرَغَتْ جيوبُه، بكل بساطة، من المال في أوج زَخْمة سباق الحملة ومنتصفها.

أولئك الذين دأبوا علىٰ طرح الأسئلة حول مدى جاهزية بوش واستعداده لتولي الرئاسة، حول تمتعه بحق قيادة القوة العظمى الوحيدة في العالم، وكانوا أيضاً قلقين إزاء ما بدا نقصاً فاضحاً في طيف اهتماماته وفضوله، تمت طمأنتهم من قبل أصدقائهم بأن الرجل، وإن لم يكن هو نفسه كبيراً وذا مواصفات عالية، محاط بعدد من العمالقة الموروثين عن إدارة أبيه. فقط لتشجيع أولئك الذين رأوا القائمة الانتخابية خفيفة الوزن تم إقحام اسم ديك چيني، الناجح في الإدارة ولكن يعاني من نقص الإبهار الطبيعي، والذي كان ضحية سلسلة من الأزمات القلبية في سن مبكرة جداً، مرشحاً لشغل منصب نائب رئيس الجمهورية. ثمة أشخاص كبار آخرون من عهد بوش الأول، مثل كولن پاول، تكرار ظهورهم مع بوش [الثاني] في أثناء الحملة. حتى جيمس بيكر، شبه المنفي والمبعَد عن حلقة بوش الداخلية منذ حملة 1992م الكارثية التي كان قد ساهم في إدارتها، جرت إعادة بَعْثه حياً ليكون صاحب القول الفصل في عمليَّة متابعة تهمة التزوير والتلاعب خلال الصراع الطويل حول أصوات فلوريدا.

جاءت الأصوات شديدة التقارب. فاز گور بأصوات الشعب وكان موشكاً علىٰ الفوز بالأصوات الانتخابية أيضاً لو أن حاكم ولاية فلوريدا كان ديمقراطياً ولم يكن شقيقاً للمرشح الجمهوري. تلك الانقسامات التي كانت قد ظهرت للمرة الأولى علىٰ المشهد السياسي الأَمريكي أواخر عقد الستينيّات بعد قانون 1965م لحقوق الانتخاب، كانت لا تزال بادية، وتلك الخريطة التي أبرزها مخرجو التلڤزيون ليلة الانتخاب عكست أَمريكتين، واحدة حمراء وأُخرى زرقاء، متعايشتين جنباً إِلىٰ جنب بشيء من التنافر. فإحدى الأَمريكتين، أَمريكا الولايات الأصغر، الأقل كثافة سكانية، ذات الأكثرية البيضاء الواضحة، حيث كانت تلك القِيَم الثقافية التي تُعْتَبر تقليدية لا تزال سائدة، وحيث لم تكن

الحركة النسوية ذات قوة استثنائية، مالت لصالح الجمهوريين، بهوامش قريبة من 60/ 40 بل وحتى أكبر أحياناً. وذلك الانقسام السياسي ـ الثقافي الخاص كان أيضاً يضع كبار ضباط الجيش في خانة الجمهوريين من فاتورة الحساب، لأن هذه الشريحة بدت متزايدة الميل إِلىٰ التحالف مع الجمهوريين حول قضايا القِيَم والمبادئ.

أما في أَمريكا الثانية، وهي الأقوى بكثير وذات الولايات المكتظة بالسكان، أَمريكا تلك الولايات ذوات المدن الأكبر والتركيبة السكانية المختلفة اختلافاً دراميًّا مثيراً والقِيَم المغايرة، فقد حقَّق الديمقراطيون نجاحاً كبيراً بفضل توافر كتل سكانية زنجية وأَمريكية لاتينية كبيرة، وجود حركات نسوية أقوى، فضلاً عن أن الشواذ كانوا يمثِّلون قوة سياسية أكثر تحديداً وجيدة التنظيم. في المحصلة كان حوالي 10 ملايين مواطن أَمريكي قد أدلوا بأصواتهم، مع حصول گور علىٰ 539,897 صوتاً أكثر من بوش حسب النتائج المصدَّقة. غير أن بوش ما لبث أن فاز فوزاً مهزوزاً كما المعلَّق بصخرة فوق واد سحيق بأكثرية خمسة مقابل أربعة أصوات في هيئة المحكمة العليا في الولايات المتحدة عبر تصويت كان الأهم والأفعل بين سائر أشكال التصويت.

* * *

رحل بيل كلنتون عن البيت الأَبيض، وهو المعروف بامتلاكه الدائم لحدس سياسي مرهف، دون ضجيج مثل أي رئيس آخر في السنوات الأخيرة باستثناء ريتشارد نكسون فقط. مدعوماً بشعبيته المتصاعدة بصورة مدهشة خلال الأشهر الأخيرة التي وصلت إِلىٰ ما فوق الستين بالمئة من النقاط، كان الشخصَ الأَمريكي دائمَ الحضور، طائراً إِلىٰ كل الأماكن وظاهراً علىٰ جميع الشاشات التلفزيونية لتقديم الشكر للناس. من الواضح أنّه كان مستمتعاً بالأسابيع القليلة الأخيرة من رئاسته، تاركاً أهل البلاد يعرفون ـ خصوصاً بعد بؤس حملة بوش ـ گور ـ أنهم سيفتقدونه كثيراً. لقد بدا لا كرئيس انتهت فترة ولايته فقط، بل

وبوصفه أستاذ الثقافة الشعبية للطقوس الرسمية. ربما بقي بعض النُقَّاد (والأصدقاء) يتساءلون عما إذا كان شيئاً خيراً كلياً أن يغادر رئيس للجمهورية مكتبه وهو متمتع بكل هذه الشعبية. هل كان ذلك يعني أنه كان قد خبأ قَدْراً كبيراً جداً من قوته السياسية لفترة طويلة من الزمن متجنباً التحلي بما يكفي من الإقدام لاقتحام المخاطر؟.

لا حاجة للقَلَق. لم يسبق لبيل كلنتون أن تحمّل واستمتع بقَدْر كبير من النجاح بشكل مناسب جداً ولمدة طويلة قط، وكانت الكارثة، كعادتها معه علىٰ الدوام، كامنة له تنتظره خلف المنعطف القريب مباشرة. فما إن غادر البيت الأَبيض حتى هَبَّ إعصار من النار حول عدد من براءات العفو غير المفَسَّرة التي كان قد منحها في الدقائق الأخيرة من رئاسته، وعلىٰ الأخص ذلك العفو الذي منحه لخبير مالي هارب يدعى مارك ريتش شكَّلت صفقاته المالية والسياسية جبلاً عملاقاً من اللاأخلاق والفساد. كان ريتش هذا واحداً من أولئك اللاجئين الذين يكافئون البلدان التي تؤويهم بالسعي إِلىٰ الالتفاف علىٰ جميع قوانينها وأنظمتها المالية، ويعتقدون بأن أرباحهم يجب ألا تخضع لأي شيء مبتذل ومقيت وسوقي مثل دفع الضرائب. وريتش هذا لم يبد أي قَدْر من الشعور بالندم وتأنيب الضمير بشأن لصوصيته، بل كان قد كرَّس نفسه خلال سنوات هروبه واختفائه في أوروپا لشراء فُرَص الوصول إِلىٰ أعتاب المتنفذين عبر القيام بأعمال خيرية مزعومة كانت تجسيداً حقيقياً للإحسان القائم علىٰ شعار: «أنا نفسي أولاً». ففي قضية ريتش، كما في عدد من براءات العفو الأُخرى، من الواضح أن كلنتون لم يكن قد استشار وكلاء النيابة والمدَّعين العامين، وبالتالي فإن ما كان قد فعله لم يكن إِلاَّ عملاً وقحاً، بشعاً، وطائشاً، صنيعة رجل أدمن الاعتقاد بقدرته الدائمة علىٰ الإفلات من العقاب العادل علىٰ أية مخالفة يقترفها وسيبقى باستمرار محظوظاً بالحصول علىٰ العفو والغفران لا لشيء إِلاَّ لأنه عبقري وموهوب. لقد شكَّل العفو عن ريتش، مع عدد من براءات العفو

اللامحتملة وغير المستحقة الشبيهة الأُخرى، صدمةً كبرىٰ صَفَعت حتى منتسبي حلقة كلنتون الداخلية الأكثر ولاءً والأشد وفاءً له، وعامل تقويضٍ لقيادة الحزب الديمقراطي.

ولزيادة الطين بلّة، ثمة حادثة أُخرى كانت فاضحة بالقدر نفسه لجملة التناقضات المتفاعلة في شخص هذا الرجل الغارق في بحر من المواهب من ناحية ولكن المُثْقَل، في الوقت نفسه، بتلال من العيوب، من الناحية المقابلة. قام كلنتون، بهدوء، خلال الساعات الأخيرة من رئاسته، باجتراح صفقة روبرت راي، خَلَف كَنْ ستار، كمحقق مستقل. كان راي هذا سيُسقط دعوى هيئة المحلفين الموسعة ضده، وافق كلنتون، كجزء من ثمن هذا الجميل، علىٰ التنازل عن حقه في ممارسة المحاماة في آركنسو لمدة خمس سنوات، علىٰ دفع مبلغ 25 ألفاً من الدولارات لتغطية النفقات القضائية، وعلىٰ عدم المطالبة بالتعويض مقابل أجور محاميه الخاص. لقد كانت معركته مع مكتب المحقق الخاص معركة طويلة ومزعجة، وعلىٰ الرغم من أن الجزء الأكبر من المسؤولية كان واقعاً علىٰ كلنتون، فإن أخلاقية ملاحقة ستار المفرطة لم تكن لائقة، ولا يستطيع المرء أن يلوم كلنتون علىٰ محاولته، في يومه الأخير في السلطة، الحصول علىٰ ما كان، عملياً، عَفْوه الخاص. غير أن الصفقة بدت، في نظر بعض المتفرجين، غير مستساغة لإخفاق كلنتون، بعد أن حصل الاتفاق، في الظهور أمام الملأ والإقدام علىٰ تفسير ما جرى للبلاد. ما لبث ذلك الذي كان، حتى تلك اللحظة، سريع الوصول إلىٰ جميع الأماكن، مستعداً لعقد المؤتمرات الصحفية الفورية والمفاجئة حيثما ذهب، أن تحول إلىٰ فص ملح ذائب، أن اختفى فجأة عن الجمهور. وبدلاً من أن يواجه الموقف بنفسه، بادر إلىٰ إرسال أحد كبار المسؤولين في جهاز البيت الأَبيض، المحامي جون پوديستا لينوب عنه في مواجهة البلاد. لقد انطوى عدم الاستعداد لمواجهة موقف بالغ التعقيد هذا علىٰ أصداء تذكر بكلنتون الشاب الذي كان قد نجح ليس في تجنّب الخدمة

في ڤيتنام فقط، بل وكان قد تلاعب بمهارة فائقة مع ضابط شعبة تجنيد آركنسو، الكولونيل هولمز، أيضاً.

* * *

أتاح وداع كلنتون الكارثي شَهْرَ عسلٍ مطول لجورج دبليو بوش خلال أسابيعه الأولى في البيت الأبيض لأن قَدْراً كبيراً من اهتمام الأمة كان متركزاً ـ بكثير من الحقد والضغينة ـ علىٰ الأفعال الشاذة الأخيرة لسَلَفِه. وما إن خرج بوش من زحمة الفترة الانتقالية، حتى وجد نفسه محاطاً بأولئك الذين كانوا قد اضطلعوا بأدوار قيادية في عاصفة الصحراء، وهي العمليّة التي تُعتبر الإنجازَ الأكثر إثارة ودرامية لوالده. كان ثمة ديك تشيني، وزير الدفاع آنذاك، ونائب الرئيس الآن، الذي سرعان ما أصبح القوّة المحركة داخل البيت الأَبيض، وكولن پاول، رئيس هيئة رؤساء الأَركان آنذاك، ووزير الخارجية الآن. أما رونالد رامسفلد فقد كان خصماً سياسياً لبوش الأب وسبق له أن أكثر من الكلام اللاذع، وراء الكواليس، عما كان يعتبرها عيوباً ونواقص فكرية فيه. غير أن رامسفلد هذا كان ولي نعمة بعض كبار موظفي بوش المفتاحيين الأصلي ـ فقد سبق له أن اكتشف تشيني ودعم فرانك كارلوتشي الذي كان، بدوره، قد وصل إلىٰ كولن پاول. تم تعيين رامسفلد وزيراً للدفاع. أما كوندوليزا رايس، مستشارة الأَمن القومي، فكانت إحدى تلميذات برنت سكوكروفت. وبالتالي فإن عهد بوش الثاني لم يكن، علىٰ صعيد السياسة الخارجية، إلاَّ نوعاً من إعادة جَمْع شمل عهد بوش الأول. فمعظم كبار المسؤولين بدوا حَذِرين ومتحفظين إزاء أي استخدام للجيش في ذلك النوع من المهمات الإنسانية التي دأب فريق كلنتون، تجريبياً وبصورة خاطئة أحياناً، علىٰ التحرّك باتجاهها. تألف عهد بوش الثاني من رجال ـ ونساء ـ كانوا قد أتقنوا فن التعامل مع الأشهر والأسابيع الأخيرة من الحرب الباردة، ولكنهم لم يكونوا قد تمكّنوا من إبداء أية براعة أو مهارة استثنائية في عملية التكيف مع متطلبات الظروف

المختلفة جداً في عالم متغير ينتمي إِلىٰ حقبة ما بعد الحرب الباردة.

إذا كان ثمة شيء يرمز إِلىٰ ذلك فإنه حماس رامسفلد لإقامة درع صاروخية، درع كان قد سبق له أن تورط في الدعوة إِلىٰ إقامتها في الماضي وبدت سلاحاً باهظ التكاليف بصورة استثنائية، سلاحاً قد لا يعمل، ومشروعاً، من شأنه، إذا تم اعتماده، أن يبتلع، بالتأكيد، مبالغ هائلة من الأموال اللازمة لمشروعات عسكرية أُخرى شديدة الإلحاح. بنظر الكثير من المحلّلين غير المتحزبين في عالم الأمن والاستخبارات القوميّيْن، لم تكن الدرع سوى نوع من خط ماجينو قائم علىٰ التكنولوجيا العالية، سوى فكرة خاطئة في وقت غير مناسب. فتفوّق أَمريكا علىٰ صعيد الأَسلحة التقليدية كبير ومتعاظم باطراد بسبب الإنفاق المذهل علىٰ التكنولوجيا ذات العلاقة. وبالتالي فإن الدول المارقة مرشحة لرؤية الهوة الفاصلة علىٰ صعيد القوة الفضائية متسعة بدلاً من أن تكون متقلصة في السنوات المقبلة. إنه لسبب وجيه من الأسباب الداعية إِلىٰ عدم التوظيف في أي مشروع يهدف إِلىٰ إيجاد درع صاروخية. ثمة سبب آخر أكثر عمقاً ألا وهو الاعتقاد السائد لدى الكثير من كبار محلّلي الاستخبارات الذي يقول إن التهديد الأكبر لأي مجتمع منفتح مثل المجتمع الأَمريكي يأتي من الإرهابيين، لا من القوة العسكرية للدول المارقة، التي توفّر، هي ذاتها، أهدافاً استثنائية. فالخطر الحقيقي الذي يتهدد أي مجتمع مفتوح مثل أَمريكا متمثّل بقُدْرة أي إرهابي، غير مرتبط بأية حكومة قائمة، علىٰ التوغل في أية مدينة أَمريكية مصطحباً سلاحاً ذرياً بدائياً، ربما يمكن نقله يدوياً داخل حقيبة كرتونية.

في بدايات إِدارة بوش الجديدة، خلال الصراع المحتوم علىٰ المواقع والنفوذ، ثمة صدع ما لبث أن ظهر داخل عالم الأَمن القومي، بين رامسفلد مع عدد قليل من الأشخاص في البيت الأَبيض متبعين عموماً خطاً أكثر تشدّداً من ناحية، وپاول في الخارجية معتمداً خطاً أكثر اعتدالاً من الناحية المقابلة. وبين

الفريقين بدا فريق المتشددين أكثر نفوذاً وتأثيراً لدى الرئيس الجديد الغِر. يقول محلّل واشنطني دأب علىٰ متابعة تحركات فريق بوش الجديد وهم يتعاملون مع القضايا الإنسانية إن موقف هذا الفريق من جملة هذه المسائل ما لبث أن أصبح أكثر شبهاً بالموقف الذي سبق لخط جيم بيكر القديم أن عكسه، موقف «ليس لنا أي كلب في الشجار». فبعد عقد ونيف من انتهاء الحرب الباردة، بدت التوترات بين الولايات المتحدة وروسيا متصاعدة، وإن لم تكن شبيهة، في شيء، بالأزمة الثنائية المستقطبة المتواصلة التي كانت قد سادت الجزء الأكبر من النصف الثاني من القرن العشرين. ومعظم الأَمريكيين لم يكونوا يبالون كثيراً بروسيا طالما أنها لم تكن تشكِّل تهديداً، فضلاً عن أن الصراع الدائر علىٰ قدم وساق داخل روسيا في سبيل الإبقاء علىٰ حياة شكل من أشكال الديمقراطية، وتلك قصة عظيمة وبالغة الأهمية من قصص القرن الجديد، لم يلفت أنظار عدد كبير من الأَمريكيين، خصوصاً بين المدراء والمخرجين التنفيذيين للبرامج الإخبارية المسائية. فدور أَمريكا في عالم ما بعد الحرب الباردة، هذا الدور الذي كان قد جرى رسمه وتحديده بوضوح في سنوات كلنتون، كان لا يزال ملفوفاً بضباب كثيف في كانون ثاني/ يناير 2001م عند حصول عملية إبدال الحرس. لم تكن السياسة الخارجية تحتل مرتبة عالية في جدول الأعمال السياسي، لأن القوى التي من شأنها أن تعرِّض مستقبل هذا البلد للخطر، مهما كانت تلك القوى، لم تكن مرئية بوضوح بعد، في المقام الأول.

ذيل: ملاحظة المؤلف

بدأ هذا الكتاب بحوار جرى في إحدى الحفلات مع رئيس مجلس العلاقات الخارجية لَسْ گلبْ، في ربيع 1999م، حين كان القصف الأَمريكي لكوسوفا في أوجه. طرحت علىٰ الرجل في الاحتفال زوجين من الأسئلة عمن كان وراء تصعيد عمليَّة القصف في إِدارة كلنتون، فجاءت أجوبته شديدة الوضوح وشديدة الاختلاف عما كنت قد توقعت (قال إن لاعباً حاسماً، قوياً، ولكنه متستر بعض الشيء كان متمثلاً بنائب الرئيس آل گور) أن من شأنهما أن يشكلا موضوعاً صحفياً مثيراً. علىٰ الفور وبحماس وافق گريدون كارتر، في **الڤاينتي فير** Vainty Fair، علىٰ الفكرة وطلب مني أن أباشر الكتابة. تلك هي طبيعته بالضبط؛ لقد كان علىٰ الدوام رئيس تحرير هذا المراسل أَو ذاك. غير أنني ما لبثت، بعد ستة أسابيع من البحث، أن قرَّرت أن الموضوع كان كتاباً، لا مقالاً في مجلة مصوَّرة. (كان الشيء نفسه قد حدث معي قبل ثلاثين سنة بالتمام والكمال حين كنت قد بدأت بكتابة مقال لإحدى المجلات عن ماك جورج بوندي ما لبث أن تحوّل إِلىٰ كتاب عن كيفية دخولنا الحرب في ڤيتنام ولماذا) وبالنسبة إِلي فإن هذه هي المرة الأولى التي كنت أعود فيها إِلىٰ دائرة الكتابة عن الأمن القومي منذ كنت قد أنجزت ذلك الكتاب في 1972م. كان الكتاب قد حقَّق نجاحاً كبيراً، وتلقيت سلسلة طويلة من العروض المباشرة والسخية لكتابة أسفار جديدة تخلف ذلك الكتاب حول الموضوع العام نفسه. ولكنني كنت، نظراً لأنني أحب تناول أسئلة لا أعرف أجوبتها وتكريس

السنوات الأربع أَو الخمس التي أُنفقها علىٰ أحد من كتبي الأطول باعتباره شكلاً من أشكال الدراسات العليا (ما بعد الجامعية)، قَدْ فضّلتُ الانطلاق نحو اتجاهات أُخرى.

أما الآن فقد كنت سعيداً بالعودة إِلىٰ ساحة كُنْتُ أعرفها في الماضي وكانت قد شهدت تغييرات دراماتيكية مثيرة في السنوات الأخيرة. وَلَّتْ الحرب الباردة إِلىٰ غير رجعة، لم يعد الخوف من وصمة التحلي باللين مع الشيوعية، ذلك الخوف الذي ظل، في الخفاء، يلعب دوراً كبيراً في عمليَّة صنع القرار خلال إدارتَيْ كندي وجونسون، ذا أهمية. غير أن أشياء أُخرى كانت مثيرة للانبهار بالنسبة إِلي مثل الظلِّ الذي كانت ڤيتنام لا تزال تلْقيه علىٰ العلاقات بين المدنيين والعسكريين من جهة، ومسألة مدى اتصاف هذا البلد ـ أمريكا ـ بالصفة الأممية الحقيقية، بعد أن بات الخطر السوڤيتي متراجعاً، من جهة ثانية. ثمة عدد من القضايا المعاصرة كانت أيضاً تؤرقني وتراوغني. باتت تكنولوجيا السياسة مختلفة تماماً، أصبح اللاعبون مختلفين، صارت الدوائر السياسية مختلفة كثيراً، ومع ذلك فإن أشباح الماضي وظلاله كانت باقية، مثل أرواح ما زالت تجوس في الأروقة وقاعات الاجتماعات.

أردت من الكتاب أن يشكِّل أسلوباً للنظر إِلىٰ أَمريكا عبر قراراتنا في السياسة الخارجية؛ تمثَّلَتْ بؤر التركيز بأماكن معينة مثل البوسنة، كوسوڤا، هاييتي، رواندا، والصومال، وقد كانت جميعاً مشكلات بالغة التعقيد وعويصة جداً، خصوصاً بالنسبة إِلىٰ الرئيس كلنتون، الذي كان قد دأب، وبثقة كبيرة، علىٰ انتقاد سياسة سلفه الخارجية خلال حملة 1992م الرئاسية. كيف كانت ردود أفعال أجهزة الأَمن القومي لدى كلنتون علىٰ الأزمات الإنسانية، بل وعلىٰ أعمال إبادة الجنس في بعض الأحيان، في أماكن بعيدة لم تكن قضية الأَمن القومي لأَمريكا ذات علاقة مباشرة بها؟ إِلىٰ أي حد كانت هذه الأزمات ستؤثِّر علىٰ رئيس كان مهووساً أولاً وقبل كل شيء بالسياسة الداخلية، رغم خُطَبه وما

تضمنته من كلام في أثناء الحملة الانتخابية؟ كيف كانت ردود أفعال كبار العسكريين، الذين كانوا لا يزالون حذرين ومتحفظين بعد أن كان مهندسو ڤيتنام المدنيون قد ورّطوهم بمثل تلك المهمة غير المشروعة (وكانوا، حسب رأي العسكريين، قد نجحوا في استمالة عدد من قادتهم الكبار وجذبهم إلىٰ صفهم)؟ وما الذي كانت تشي به ردود أفعال جهاز السياسة الخارجية وانقساماته الداخلية حول البلد بالذات؟

كان عالم الأَمن القومي الذي عكفت علىٰ معاينته قد تغيّر كثيراً وبات شديد الاختلاف عن نظيره الذي عرفته قبل فترة طويلة من الزمن. ذهبت إلىٰ ڤيتنام للمرة الأولى في 1962م مراسلاً **للنيويورك تايمز**، واتُّهمتُ بأنني كنت أصغر سناً من أن أكون قادراً علىٰ استيعاب القضايا المطروحة وموضوعات الرهان. في تلك الأيام لم يكن أبناء جيلي في الجيش إلاَّ من النقباء. أما الآن فقد أصبحتُ أكبر سناً من جُل اللاعبين. فأحذ رؤساء هيئة رؤساء الأَركان المشتركة، أعني كولن پاول، أصغر مني في السن بثلاثة سنوات، وقد تقاعد قبل شروعي بكتابة هذا الكتاب بست سنوات. أما رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأَمريكيَّة فقد كان يصغرني في السن باثني عشر سنة، وكان قائد قوات الناتو التي خاضت الحرب في البلقان، الجنرال وَسْ كلارك، قد تخرّج في أكاديمية وَسْت پوينت العسكرية قبل تخرجي أنا في الجامعة بإحدى عشرة سنة. في مراحل معينة وجدتُني أجري مقابلة مع جنرال جيش ذي ثلاث نجوم يصغرني بسبعة عشر سنة. غير أن اللافت للنظر هو أن بعضاً من موظفي السلك الخارجي الشباب الذين سبق لي أن كنت قد عرفتهم حين كنت مراسلاً في سايگون سنة 1963م، حين كانوا خريجين جدداً لم يمض علىٰ تخرّجهم سنة واحدة مثل توني ليك وديك هولبروك، كانوا الآن شخصيات كبيرة ومرموقة في فريق الأَمن القومي لدى الحزب الديمقراطي.

لدى الكتابة عن أَمريكا أردت التقاط بعض القوى الجديدة الفاعلة والتغييرات السياسية المهمة الناجمة عن عدد من العوامل غير السياسية: الوَفْرة

الكبيرة التي تنعم بها البلاد؛ تَقَدُّم وسائل الإعلام الحديثة مع ظهور مقاييس تسلية معينة، فيما بعد الحرب الباردة، علىٰ حساب المعايير الصحفية التقليدية الأكثر جدية في عدد كبير من شبكات التلفزة؛ حصول تغيير، فيما بعد الحرب الباردة، بين الأَمريكيين الأكثر شباباً ممن بلغوا سن الرشد في بلاد أقل قَلَقاً وتوتُّراً باتت فيه السياسة الخارجية غير ذات أهمية في انتخاباتنا العامة؛ التغييرات الهائلة التي حَصَلتْ في تكنولوجيا الحرب؛ إضافة، بالطبع، إِلىٰ التركيبة الهيكلية السياسية المتغيرة تغيراً انقلابياً مثيراً لمجمل البلاد نتيجة لذلك كله.

عند العودة إِلىٰ هذا العالم بعد كل هذا الغياب الطويل وجدتُني، للمفارقة، مستفيداً من إنفاقي لجزء كبير من الوقت الفاصل عاكفاً علىٰ الكتابة حول موضوعات أثبتت أنها بالغة الأهمية علىٰ صعيد امتلاك القُدْرة علىٰ تفهم مشهد سياسي تغيّر كثيراً، بات مقلوباً رأساً علىٰ عقب. كتبت عن تكنولوجيا الاتصالات المتغيرة وعما فعلته في كتاب **مراكز القُوَّة**، وعن الطابع المتبدل للاقتصاد الأَمريكي وتأثيره علىٰ السياسة الأَمريكيَّة في **المحاسبة**. وثمة كتاب ثالث ألا وهو **عقد الخمسينيَّات**، كان قد علّمني مدى أهمية التطورات التكنولوجية في إِحداث التغييرات الاجتماعية والسياسية؛ وبسبب ذلك، إِلىٰ حد كبير، كنت مبهوراً بالتغيير الدرامي المثير الحاصل في طبيعة أسلحة التكنولوجيا العالية الحديثة وما انطوى عليه ذلك من تأثير علىٰ الجغرافيا السياسية للحرب.

في أثناء الحرب الڤيتنامية كانت أسلحة التكنولوجيا العالية في مرحلة الطفولة. ولكن تلك التكنولوجيا حقَّقت في العقود الثلاثين التي أعقبت تلك الحرب تقدماً فلكياً أُسياً، تجاوز توقعات ومعرفة معظم الناس الجديين، بل وتجاوز، في الحقيقة، توقعات ومدارك الكثير من كبار القادة العسكريين النشيطين في الخدمة ممن لا يزالون يحتفظون بشكوك قوية حول قدرة سلاح

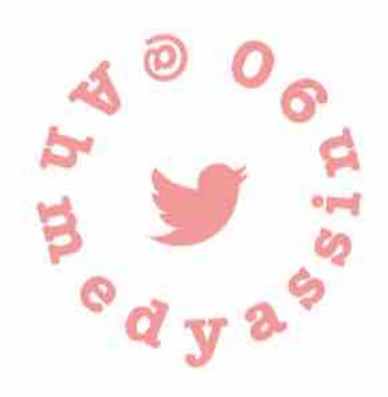
الجو علىٰ فعل ما يقول إنه قادر علىٰ فعله ـ قادر علىٰ كسب حرب معينة بأَسلحة التكنولوجيا العليا وحدها. مثل كثيرين من المراسلين الذين كانوا قد قاموا بتغطية أحداث ڤيتنام، كنت قد أمضيت وقتاً أطول مع رجال الجيش من القوّات البرية مقارنة مع ضباط سلاح الجو، وبالتالي فقد شاطرت عناصر الجيش المنتمين إِلىٰ تلك الحقبة (قد يكون الجنرال كولن پاول مثالاً جيداً) شكوكهم حول ما يمكن لسلاح الجو أن يحققه. وقد تبين الآن أنني كنت مخطئاً تماماً مثل كثيرين، وكثيرين جداً، من كبار رجالات الجيش الذين تشكلوا في تلك الحقبة المبكرة.

كان مُقَدَراً لهذا الكتاب علىٰ الدوام أن يكون عن أَمريكا، لا عن البلقان أَو عن أي بلد أجنبي آخر. لم يكن ما عندي من معلومات عن البلقان يتجاوز ما عند أي متابع عادي، ولعل أحد أصعب أجزاء هذه المهمة هو السعي للحاق بوتيرة الأحداث المتسارعة في ذلك القطاع المعقد من العالم حيث التاريخ شديد الغموض والتعقيد.

لا بد لي أخيراً من الإشارة إِلىٰ أنني لم أتعمد استحضار أشباح ڤيتنام، غير أنها كثيراً ما جاءت هي نفسها وأمسكت بي، وخصوصاً علىٰ صعيد الأضرار التي جلبتها تلك الحرب علىٰ مؤسستين حاسمتي الأهمية بالنسبة إِلىٰ صحة الجمهور العامة وأثرت فيهما تأثيراً كبيراً جداً، ألا وهما مؤسستا جيش الولايات المتحدة والحزب الديمقراطي.

ديڤيد هالبرشتام

أيار/مايو 2001م


@Ahmedyassin90

كلمة شكر

أوردت قائمة بأسماء أناس مختلفين أجريت معهم لقاءات عبر سني بحثي استعداداً لتأليف هذا الكتاب (باستثناء حفنة من كبار العسكريين الذين تحدَّثوا معي شرط ألا أستخدم أسماءهم). إنني مدين بامتنان خاص لزملائي الصحفيين، الأكاديميين، والرسميين الحكوميين الذين ساعدوني علىٰ فهم البلقان، إما عبر كتبهم أو لقاءاتهم، أَو الاثنين معاً في حالات معينة.

ثمة حفنة صغيرة من الناس رَفَضَتْ أن تتحدث معي؛ ومما أثار عندي قدراً كبيراً من الدهشة والحيرة أن سام نان كان بين تلك القلة من الناس، علىٰ الرغم من أنني كنت قد تعاملتُ معه بكثير من المودة قبل بضع سنوات. ولأنني أحب أن أجري مقابلاتي بترتيب هرمي معكوس ـ مع الأدنى أولاً والأعلىٰ بعد ذلك ـ كنت آملاً في مقابلة بيل كلنتون آخر المطاف. حين ترك الرئاسة، أرسل إلي رسالة لطيفة مكتوبة باليد معلقاً علىٰ مقال كنت قد كتبته عنه من قبل، ومقترحاً أن نلتقي قريباً للحديث حول القضايا التي كنت قد أثرتها. علىٰ الفور اتصلت بمكتبه من أجل تحديد موعد. وعلىٰ امتداد ما يزيد عن ستة أسابيع أجريت عدداً غير قليل من الاتصالات الإضافية، بما فيها مخابرة ردت عليها بتي كري، غير أنه لم يقم هو ـ كلنتون ـ بالاستجابة لأي من اتصالاتي الكثيرة.

لا يسعني، وأنا أنجز هذه الملاحظات، إِلاَّ أن أتذكر حظي السعيد الذي مكّنني من القيام بشيء أحبه، بالكتابة عن موضوعات جدية لمواطنين جديين،

وبتكريس مقدار ما يحلو لي من الزمان والمكان لاستكمال عملي البحثي. إنها إحدى الامتيازات الأكثر نُدْرةً بالنسبة إِلىٰ أي مراسل في غمرة العمل، وتبدو قُدْرتي علىٰ فعلها في هذا الوقت المتأخر من حياتي المسلكية ثمينة بصورة استثنائية بعد أن قامت كثرة من المؤسَّسات الصحفية الأُخرى، وعلىٰ الأخص من الشبكات التلڤزيونية، بتقليص مستوى الجدية في تغطيتها للكثير والكثير من القضايا ذات الأهمية الحاسمة تقليصاً بالغ القسوة. ليس الناس الذين يؤلفون كتاباً مثلما أفعل أنا إِلاَّ بين مشروعات الأمهات والآباء في دنيا الصحافة. ولكن حتى المالكون الأمهات والآباء يكونون مدعومين بجميع أصناف البشر، مثل فريد هيلز، محرري في سكريبنر الذي أحب فكرة الكتاب منذ البداية، وبيرتون بيلز، المحرر علىٰ الخط الذي عمل في ظل موعد صارم بالغ القسوة؛ وكل من كارولين ريدي، سوزان مولدو، ونان گراهام في سكريبنر اللواتي كُنَّ مؤمنات بالكتاب وبي علىٰ الدوام. هناك شخصان آخران أنا مدين لهما في سكريبنر هما پات آيزمان وفرانسيس تساي. ممتن أنا أيضاً بشكل خاص لوَكيلَيَّ المحاميين مارتي گاربوس وبوب سولومون الصامدين علىٰ الدوام؛ وكارولين پاكوريث ضاربة الآلة الكاتبة عندي التي كان قيامها بتفريغ مقابلاتي علىٰ الورق يجعل حياتي أسهل بكثير؛ وليندا دروگين التي ليست جارة وصديقة فقط بل وعفريتة اكتشاف حقائق أيضاً، ودوگ ستامپف، رئيس تحرير في مجلة ڤانيتي فير، وگريدون كارتر، الذي كان مصدر دعم باستمرار. لقد كان دعم گريدون في بداية المشروع ذا أهمية استثنائية ومنسجماً تماماً مع شخصية رئيس تحرير يعامل كُتّابَه بقدر كبير من الكرم والنُبل. أما صديقي ووكيل أسفاري فيليپ روم، فيتمتع بقدرة نادرة علىٰ أخذ برنامجي المعقّد وتحويله إِلىٰ مشروع معقول وقابل للفهم؛ أظل مديناً بالشكر لا لمهارته فقط بل ولصداقته كما للمساعدة التي يقدمها لي جهازه الموهوب. وبالطبع أنا مدين أيضاً للدكتور لسلي هـ. گلب الذي وجهني نحو مشهد مختلف ولكنه مدهش، لا للمرة الأولى، ولا للمرة الأخيرة، كما آمل.

قائمة بأسماء الذين أجريت معهم مقابلات

أنا مدين بالشكر للأشخاص التالية أسماؤهم ممن تحلوا بكرم منحي فرصاً للحديث معهم: الجنرال جوزيف أبي زيد، جيش الولايات المتحدة [القوات البرية]، مورت أبراموڤيتز، مادلين أولبرايت، روجر آلتمان، كرستين آمانپور، ر. و. آپل الابن، كن بيكون، دوك بنت، بريل (السيدة لويد) بنتسن، ساندي بيرگر، توم بيتاگ، عضو مجلس الشيوخ جوزيف بايدن، راي بونر، بوب بورستين، جيمس كانون، فرانك كارلوتشي، هودينگ كارتر، جيمس كارڤيل، اللفتنانت جنرال دان كرستمان، الجيش الأمريكي، وارن كرستوفر، الجنرال وسلي ك. كلارك، بيل كوهن، الكولونيل جوزيف كوكس، گرگ كرايگ، الأدميرال بيل كراو، آيڤو دالدر، پات ديريان، جون دوتش، بوب ديفيتش، توم دونيلون، بيتر دوتشن، فريد داتون، لاري إيگلبيرگر، جون فوكس، سول فريدمان، ليون فويرث، بيتر گالبريت، الجنرال جاك گالڤين، الجيش الأمريكي، جيف گارتن، لَسْ گلبْ، ديڤيد گيرگن، دوريس كيرنز گودوين، مايكل گوردون، آل گور، فيليپ غورفيش، ريبكا گرانت، ستان گرينبيرگ، فرانك گرير، روي گوتمان، ريشارد هاس، مورث هالپرن، لي هاملتون، مارشال هاريس، كريس هيل، جيمس هوج، ريشارد هولبروك، جيم هوپر، روبرت هنتر، ريشارد جونسون، ڤيرنون جوردان، الجنرال جورج جولوان، الجيش الأمريكي، متقاعد، توني جودت، الجنرال جون جمپر، سلاح الجو الأمريكي، وارد جوست، دونالد كاگان، ستانلي ن. كاتز، نيكولاس كاتزنباخ، جورج

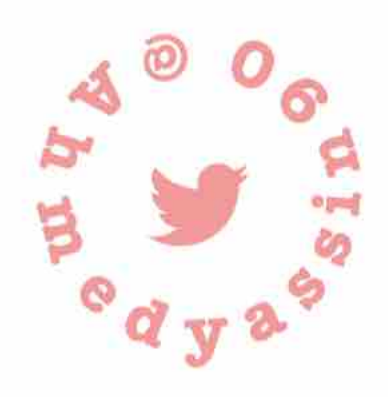
كينان، بوب كيميث، لاري ل. كينگ، اللفتنانت كولونيل توم كلينكار، سلاح الجو الأمريكي، تيد كوپل، بيل كرستول، توني ليك، جيم لوري، ڤلاديمير ليخوڤيش، جو لليڤلد، جان ـ داڤيد ليڤيت، ونستون لورد، عضو مجلس الشيوخ ريشارد لوگار، الكولونيل دوگلاس ماكگريگور، ديڤيد مارانيس، إد ماركي، مايك ماكوري، الجنرال مريل (توني) ماك پيك، سلاح الجو الأمريكي، متقاعد، جاك ماكوتي، الجنرال ادوارد (شي) مير، الجيش الأمريكي، متقاعد، بيل مونتگومري، ريشارد موس، دي دي ميرز، الكولونيل جوس نيگرون، سلاح الجو الأمريكي، روبرت أوكلي، الكولونيل روبرت أوين، سلاح الجو الأمريكي، ليون پانيتا، روبرت پاستور، بيل پيري، الكولونيل بوب فيليپس، الجيش الأمريكي، الجنرال كولن پاول، الجيش الأمريكي، متقاعد، دانا پريست، روبرت رايشي، توم ريكس، ديڤيد رود، إد رولنز، توم روسشيرت، الجنرال مايك ريان، سلاح الجو الأمريكي، جاك سكانلان، آرثر شليزنگر الابن، گريگ شولته، باري شڤايد، برنت سكوكروفت، لويس سل، لاري سكويت، دانييل سرور، الجنرال جون شاليكاشڤيلي، الجيش الأمريكي، متقاعد، الجنرال جاك شيحان، قوات المارينز، متقاعد، مارك شيلدز، اللفتانت كولونيل كريس شوميكر، اللفتانت جنرال مايك شورت، سلاح الجو الأمريكي، متقاعد، وولت سلوكومبه، نانسي سودربيرگ، اللفتانت جنرال إدسويستر، الجيش الأمريكي، متقاعد، فريد ستيپر، جيم شتاينبرگ، جورج ستيفانوپولوس، فريتز شتيرن، بوب شتراوس، ستروب تالبوت، پيتر تارنوف، بوب تيتر، الجنرال بيرنارد ترينور، قوات المارينز، متقاعد، مارغريت تاتوايلر، ريتشارد أولمان، گاريك أوتلي، ساندي ڤيرشبو، إد ڤوليامي، الجنرال كارل ڤونو، الجيش الأمريكي، متقاعد، الكولونيل جون واردن، سلاح الجو الأمريكي، متقاعد، توم واينبرگ، كورتس ويلكي، عضو الكونغرس تشارلي ولسن، جولي ويتكڤر، پول وولفوڤيتز، بوب وودوورد، جيمس وولزي، جيم ووتن، فريد زكريا، وارن زيمرمان، بوب زويليك.

المصادر

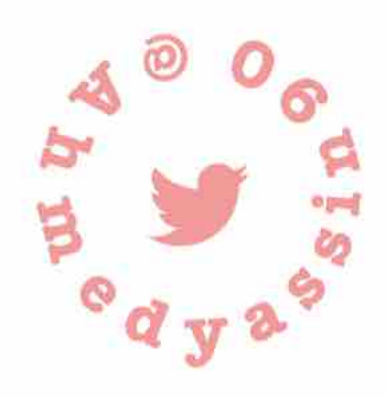
Ash, Timothy Garton. *History of the Present.* Random House, 1997.
Atkinson, Rick. *Crusade.* Houghton-Mifflin, 1993.
Baker, James A., with Thomas DeFrank. *The Politics of Diplomacy.* Putnam, 1995.
Beschloss, Michael, and Strobe Talbott. *At the Highest Level: The Inside Story of the End of the Cold War.* Little, Brown, 1993.
Blackman, Ann. *Seasons of Her Life: A Biography of Madeleine Korbel Albright.* Scribner, 1998.
Bonner, Ray. *Waltzing the Dictator.* Times Books, 1987.
Boutros-Ghali, Boutros. *Unvanquished.* Random House, 1999.
Bowden, Mark. *Black Hawk Down.* Atlantic Monthly Press, 1999.
Bush, George H. W., and Brent Scowcroft. *A World Transformed.* Knopf, 1998.
Cannon, Lou. *Reagan.* Putnam, 1982.
———. *President Reagan: The Role of a Lifetime.* Simon & Schuster, 1991.
Christopher, Warren. *Chances of a Lifetime.* Scribner, 2001.
Clark, General Wesley K. *Waging Modern War.* Public Affairs Press, 2001.
Cohen, Roger. *Hearts Grown Brutal.* Random House, 1998.
Cohen, Stephen F. *Failed Crusade: America and the Tragedy of Post-Communist Russia.* Norton, 2000.
Cohen, William S. *Roll Call: One Year in the U.S. Senate.* Simon & Schuster, 1981.
Cramer, Richard Ben. *What It Takes.* Random House, 1990.
Crocker, Chester, Ffen Osler Hampson, and Pamela Aall, eds. *Herding Cats.* Specifically the chapter by Robert Pastor, "More and Less Than It Seemed," 507–25. U.S. Institute of Peace Press, 1999.
Daalder, Ivo. *Getting to Dayton: The Making of America's Bosnia Policy.* Brookings, 1999.
Daalder, Ivo, and Michael O'Hanlon. *Winning Ugly: NATO's War to Save Kosovo.* Brookings, 2000.
Deaver, Michael. *Behind the Scene.* Morrow, 1987.
Dobbs, Michael. *Madeleine Albright.* Henry Holt, 1999.
Doder, Dusko. *The Yugoslavs.* Random House, 1978.
Doder, Dusko, and Branson, Louise. *Milosevic: Portrait of a Tyrant.* Free Press, 1999.
Dorland, Gil. *Legacy of Discord.* Brassey's Inc., 2001.
Drew, Elizabeth. *On the Edge: The Clinton Presidency.* Touchstone, 1994.
———. *Showdown: The Struggle Between the Gingrich Congress and the Clinton White House.* Simon & Schuster, 1995.
FitzGerald, Frances. *Way Out There in the Blue: Reagan, Star Wars, and the End of the Cold War.* Simon & Schuster, 2000.
Flowers, Gennifer. *Sleeping with the President.* Anonymous Press, 1998.
Friedman, Thomas. *The Lexus and the Olive Tree.* Farrar, Straus and Giroux, 1999.

Gergen, David. *Eyewitness to Power.* Simon & Schuster, 2000.
Germond, Jack, and Jules Witcover. *Whose Broad Stripes and Bright Stars?* Warner Books, 1989.
Glenny, Mischa. *The Fall of Yugoslavia.* Penguin, 1993.
Goldman, Peter, et al. *Quest for the President 1992.* Texas A&M University Press, 1994.
Gordon, Michael, and General Bernard Trainor. *The Generals' War.* Little, Brown, 1995.
Gourevitch, Philip. *We Wish to Inform You That Tomorrow We Will Be Killed With Our Families.* Farrar, Straus and Giroux, 1998.
Grant, Rebecca. *The Kosovo Campaign: Aerospace Power Made It Work.* The Air Force Association, 1999.
———. *The B-2 Goes to War.* Iris Press, 2001.
Gruff, Peter. *The Kosovo News and Propaganda War.* International Press Institute, 1999.
Gunther, John. *Inside Europe Today.* Harper, 1961.
Gutman, Roy. *A Witness to Genocide.* Element Publishers, 1993.
Haass, Richard. *The Reluctant Sheriff: The United States, After the Cold War.* Council on Foreign Relations Press, 1997.
———. *Intervention: The Use of American Military Force in the Post Cold War World.* Brookings, 1999.
Halberstam, David. *The Best and the Brightest.* Random House, 1972.
———. *The Children.* Random House, 1998.
Holbrooke, Richard. *To End a War.* Random House, 1998.
Honig, Jan Willem, and Norbert Both. *Srebrenica: Record of a War Crime.* Penguin, 1996.
Hyland, William. *Clinton's World: Remaking American Foreign Policy.* Praeger, 1999.
Ignatieff, Michael. *The Warrior's Honor: Ethnic War and the Modern Conscience.* Holt, 1998.
———. *Virtual War: Kosovo and Beyond.* Metropolitan Books, 2000.
Johnson, Haynes. *The Best of Times.* Harcourt, 2001.
Judah, Tim. *Kosovo: War and Peace.* Yale, 2000.
Kaplan, Robert. *Balkan Ghosts: A Journey Through History.* Vintage, 1994.
Kelly, Virginia Clinton, with James Morgan. *Leading with My Heart.* Pocket Star Books, 1994.
Krepinevich, Andrew. *The Army and Vietnam.* Johns Hopkins, 1986.
Lake, Anthony. *Six Nightmares: Real Threats in a Dangerous World and How America Can Meet Them.* Little, Brown, 2000.
Lippman, Thomas. *Madeleine Albright and the New American Diplomacy.* Westview, 2000.
MacGregor, Colonel Douglas. *Breaking the Phalanx: A New Design for Landpower in the Twenty-First Century.* Praeger, 1997.
Malcolm, Noel. *Bosnia: A Short History.* NYU Press, 1994.
Maraniss, David. *First in His Class: The Biography of Bill Clinton.* Simon & Schuster, 1995.
Mazower, Mark. *The Balkans: A Short History.* Random Modern Library, 2000.
McMaster, H. R. *Dereliction of Duty: Lyndon Johnson, Robert McNamara, and the Lies That Led to Vietnam.* HarperCollins, 1997.
Mestrovic, Stjepan, ed. *The Conceit of Innocence.* Texas A&M University Press, 1997.
Morris, Dick. *Behind the Oval Office.* Random House, 1998.
Noonan, Peggy. *What I Saw at the Revolution.* Random House, 1990.
Oakley, Robert, and John Hirsch. *Somalia and Operation Restore Hope.* U.S. Institute of Peace Press, 1995.

O'Shea, Brendan. *Crisis at Bihac*. Sutton, 1998.
Owen, David. *Balkan Odyssey*. Harcourt Brace, 1995.
Owen, Colonel Robert. *Deliberate Force: A Case Study in Effective Air Campaigning*. Air University Press, 2000.
Owens, Admiral Bill, with Ed Offley. *Lifting the Fog of War*. Farrar, Straus and Giroux, 2000.
Perry, William, and Ashton Carter. *Preventive Defense: A New Strategy for America*. Brookings, 1999.
Powell, Colin. *My American Journey*. Random House, 1995.
Reich, Robert. *Locked in the Cabinet*. Knopf, 1997.
Reynolds, Colonel Richard. *Heart of the Storm: The Genesis of the Air Campaign Against Iraq*. Air University Press, 1995.
Rieff, David. *Slaughterhouse: Bosnia and the Failure of the West*. Touchstone, 1996.
Robinson, Peter. *It's My Party*. Warner Books, 2000.
Rohde, David. *Endgame*. Westview, 1997.
Schwarzkopf, Norman. *It Doesn't Take a Hero*. Bantam, 1992.
Seitz, Raymond. *Over Here*. Weidenfeld & Nicolson, 1999.
Shawcross, William. *Deliver Us from Evil*. Simon & Schuster, 2000.
Silber, Laura, and Allan Little. *Yugoslavia: Death of a Nation*. Penguin, 1995.
Stephanopoulos, George. *All Too Human*. Little, Brown, 1999.
Sudetic, Chuck. *Blood and Vengeance*. Norton, 1998.
Thompson, Warren. *Bandits over Baghdad: Personal Stories of Flying the F-117s over Iraq*. Specialty Press, 2000.
Toobin, Jeffrey. *A Vast Conspiracy*. Random House, 1999.
Tyler, Patrick. *A Great Wall: Six Presidents and China*. Public Affairs, 1999.
Udovicki, Jasmina, and James Ridgway. *Burn This House: The Making and Unmaking of Yugoslavia*. Duke University Press, 1997.
Utley, Garrick. *You Should Have Been Here Yesterday*. Public Affairs, 2000.
Vulliamy, Ed. *Seasons in Hell*. St. Martin's, 1994.
Waldman, Michael. *POTUS Speaks*. Simon & Schuster, 2000.
Woodward, Bob. *The Agenda: Inside the Clinton White House*. Simon & Schuster, 1994.
———. *Maestro*. Simon & Schuster, 1994.
———. *The Choice*. Simon & Schuster, 1996.
———. *Shadow: Five Presidents and the Legacy of Watergate*. Simon & Schuster, 1999.
Zimmermann, Warren. *Origins of a Catastrophe*. Times Books, 1996.


@Ahmedyassin90

الفهرس


@Ahmedyassin90


حرب
في زمن
السلم
بوش، كلنتون، والجنرالات
تصوير
أحمد ياسين
ديفيد هالبرشتام
تعريب: فاضل جتكر
مكتبة العبيكان